الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الثامن



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الخامسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الخامسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١— الاستيلاء على دمياط
٢— تاريخ القدس
٣— منظمات الفرسان
٤-وصف الأرض المقدسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

-١٩٥٧-

(١)

الاستيلاء على دمياط

تأليف

أولفر أوف بادربورن

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

لقد استدركت أربعة أجزاء على مصادر الحملتين الثانية والثالثة، والآن بعد الفراغ من ذلك أعود إلى مسار الخطة المرسومة لأتناول ما يعرف باسم الحملة الخامسة، ولهذه الحملة مكانة خاصة تختلف بها عن الحملات المتقدمة لا لأنها استهدفت مصر فقط، بل لطبيعة المسؤولية عنها.

فنحن عندما نستعرض الحملات المتقدمة، نجد الأولى منها مختلطة شعبية بالدرجة الأولى، وقد جاءت عبر البر، ولم يكن للبحر دور حاسم بالنسبة لها، ثم كانت الحملة الثانية، وهي أيضاً سلكت طريق البر،غير أنها كانت رسمية قادها أعظم حكام أوروبا في وقتهم، ثم جاءت الحملة الثالثة قسم منها سلك طريق البر فأخفق، والقسم الأعظم سلك طريق البحر فحقق النجاح، وهي أيضاً حملة رسمية، ثم جاءت الحملة الرابعة، فكانت صليبية التجار ضد بيزنطة، مع أنها بالأصل كانت خطتها تستهدف مصر.

وحين برهنت الحملة الثالثة على أهمية البحر والاستغناء عن بيزنطة جاءت الرابعة لتزيل حكم أباطرة بيزنطة الشرقية من الوجود، ولتمهد الطريق نحو الزوال النهائي للامبراطورية، ولدى مراجعتنا لأخبار الحملة الثالثة وجدنا أن رتشادر قلب الأسد لدى اخفاقه في مهاجمة القدس خطط للزحف ضد مصر.

ومن الملاحظ أن دور مصر عند بداية الحروب الصليبية لم يكن فعالاً للوضع المتدهور الذي عاشته الخلافة الفاطمية، والشيء نفسه ينطبق على دمشق تحت حكم الدولة البورية، وهنا نستفيد درساً هاماً أن حكام

دمشق من البوريين والمتسلطين على عرش القاهرة غالباً ماانشدوا الحماية من الفرنجة ضد منافسيهم من المسلمين، لكن مع أول بادرة ضعف سعى هؤلاء الحلفاء الألداء الى السيطرة على دمشق وكذلك على القاهرة، وكان اخفاق الحملة الثانية في الاستيلاء على دمشق بين أهم الأسباب التي ساعدت نور الدين على توحيد الشام الشمالي مع الجنوبي، وبفضل هذه الوحدة حيل بين الفرنجة وبين الاستيلاء على مصر.

وحين توحدت مصر مع بلاد الشام، عرفت أرض الكنانة روحاً جديدة فبفضل امكانات مصر والشام كان النصر المؤزر في حطين، وأكثر من هذا بفضل مصر بالدرجة الأولى أمكن الصمود أمام الحملة الثالثة، وهكذا وقر في أذهان الفرنجة أن الطريق الى القدس ينبغي أن يمر أولاً عبر مصر .

وكانت مصر الفاطمية تمتلك امكانات بحرية لابأس بها، لكن منذ أيام حصار عكا ظهر إلى العيان العجز بالامكانات البحرية لدى المسلمين في المشرق، مع الاخفاق بالتعاون مع الغرب الاسلامي.

هذا والمستعرض لتاريخ الأيوبيين يشهد ان جل طاقاتهم العسكرية تبددت خلال الحروب الاسلامية الداخلية، ففي حياة صلاح الدين لايوجد سوى أقل من عقد من الزمن صرفه في الجهاد ضد الفرنجة، وفي أواخر أيام صلاح الدين، في وقت المحنة تخلى عنه تقي الدين، وكان الشخصية العسكرية الأولى في جيوش صلاح الدين، وشغل العادل، أخو صلاح الدين لأبيه دوراً نمّ على الأنانية وتفضيل الصالح السلطوي الذاتي على الصالح العام، وهذه السمة هي التي صبغت الأيوبيين بعد صلاح الدين، لاسيما العادل وابنه الكامل، فما من واحد من خلفاء صلاح الدين كانت للقدس مكانة لديه، وكانوا يعرضون تقديم القدس لأول طارق، وأدرك الفرنجة هذا، لذلك طلبوا أكثر من القدس، وهذا ما نراه واضحاً في أخبار حصار دمياط أثناء الحملة الخامسة، ثم في الحملة

السادسة، والمثير للانتباه أن موقف أهل الشام ومصر كان ضد هذا المسلك ، ومع هذا لم يعدم الأيوبيون بعض العلماء الذين أفتوا لصالحهم، كما فعل ابن أبي الدم الحموي، ففي كل عصر نجد من المتعممين من آثر رضا السلطان على رضا الله تعالى.

ولئن كانت الحملة الرابعة حملة ارتفع فيها صوت التجار، ففي الحملة الخامسة كان الصوت المرتفع هو صوت البابوية، فالبابوية هي التي بشرت بالحملة، ودفعت للمرتزقة، والنائب البابوي كان هو القائد الفعلي للحملة، على هذا كانت القيادة في هذه الحملة لاهوتية لا عسكرية ولاسياسية، وفيها مؤشر على تبدل السياسة البابوية نحو المشروع الصليبي، وفي ثنايا العقل اللاهوتي نجد أسرار الاخفاق النهائي لهذه الحملة.

ولحسن الحظ أن أخبار هذه الحملة جرى تدوينها من قبل أهم رجال اللاهوت الذين كانوا فيها، وأقصد هنا بالدرجة الأولى أولفر أوف بادر بورن ثم جاك دي فيتري، فقد جاءت أخبار الحملة لدى الأخير في كتاب أراد التأريخ به للقدس، أهم ما فيه ما تعلق بالحروب الصليبية، أما ما جاء عما قبل ذلك فلا قيمة له لاعتماده على تلفيقات أسفار العهد القديم.

ونجد لدى مصدرينا كيف بقيت العقلية الأوروبية متحجرة تجاه الاسلام وذلك على الرغم من مضي ما يزيد على القرن على الحملة الأولى، كما ونشهد هنا خططاً جديدة لتعميد أطفال المسلمين وإرغامهم على التخلي عن دينهم.

هذا وكنا في الحملات المتقدمة قد تعرفنا إلى منظمتي فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، لكن في هذه الحملة نواجه نوعيات جديدة من الفرسان، وللفائدة ألحقت بهذا المجلد ملحقاً صغيراً، لكن عظيم الفائدة

حول أهـم بيوتـات الفرسـان،ولكي يتـوازن هذا الجزء مـن حيث الحجـم والفـائدة ألحقت بـه أيضا وصـف الأرض المقـدسة مـن قبل جـون أوف وورزبيرغ(١١٦٠—١١٧٠).

أمالي عظيمـة في أن يمنحني الله العـون والتوفيق لإنجـاز هذا المشروع العملاق الذي أسير الآن بسرعة نحو الانتهاء من ثلثيه.

لله دومـا الحمد والشكـر،والصلاة الـدائمة على النبـي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

سهيل زكار

دمشق ٩ ربيع الآخر ١٤١٩/ ٢ آب ١٩٩٨

- ١٩٦٣ -

مدخل

حياة أولفر المبكرة

كان بين الأعمال الأولى لبابوية هونوريوس الثالث القيام بإعلان نداء في سنة ١٢١٦ إلى المسيحيين في أوروبا من أجل القيام بحملة صليبية جديدة، وتقبلت منطقة إثر منطقة النداء، وكانت هنغاريا تحت قيادة الملك أندرو الثاني وألمانيا تحت قيادة الدوق ليوبولد صاحب النمسا، والبلدان الاسكندنافية تحت حكم الدوق كاسمير أوف بوميرانيا Casimir of Pomorania ، والأمير سيغورد Sigurd النورجي، كانت بين أكثر البلدان حماسة واندفاعاً في استجابتها، أما بالنسبة للامبراطور فردريك الثاني صاحب ألمانيا، الذي توقعه الناس جميعا أن يكون قائد الحملة الصليبية، فقد اتخذ موقفاً مختلفاً بسبب صراعات في داخل مملكته، لكن على الرغم من كثير من المشاكل زحف الصليبيون، ووجدوا في عكا ثلاثة من الملوك ليتولوا قيادتهم، وهم ملوك هنغاريا وقبرص والقدس، وكانت وحدة الاتجاهات منعدمة، والصراع وانعدام الثقة كانتا المحصلة، وعلى الرغم من الجهود المستمرة للبابا هونوريوس، والنجاحات الصليبية الأولى تمّ فقدان دمياط بشكل دائم وأبدي، ونظر إلى الحملة الصليبية من قبل جميع الآخرين على أنها إخفاق محزن آخر.

وكان بين الذين رافقوا الحجاج رجال دين ذوي مراتب عليا من جميع البلدان، فلقد ضم كرادلة وأساقفة وكهنة جهودهم لدعم أعمال الجنود ولمساعدتهم، وكان بين رجال الدين هؤلاء أولفر أوف بادر بورن، الذي بشر بالحملة الصليبية ودعا إليها في مقاطعته من كولون Cologne ، ولقد وجد الفرصة لأن يخلد كتابة جميع ما واجهته الحملة الصليبية

الخامسة، ولقد أطلق بالأصل على كتابه عنوان « تاريخ دمياط»، وبالإضافة إلى هذا أوقف أولفر قلمه على جغرافية الارض المقدسة وتاريخها، مع ثلاثة أعمال أخرى، سيأتي ذكرها فيما بعد، أوقفت على هذا، زد على هذا، مايزال باقياً مالا يقل عن عشرة رسائل كتبها أولفر.

أما بالنسبة لميلاده، وطفولته، وتعليمه المبكر، فإننا لانمتلك أية معلومات، والذي نعرفه أن اسمه ظهر للمرة الأولى في سنة ١١٩٦، بمثابة شاهد أسقفي في نزاع قام بين أبرشية بادربورن ودير هلمرهوز Hel-marhaus ، وحيث أن الشهود كانوا أعضاء من الجماعة اللاهوتية لكاتدرائية بادربورن، وبما أن رجال اللاهوت والشريعة كانوا إلى حد الاحتكار من الأسر النبيلة، يمكننا أن نفترض بأمان بأن أولفر انتمى إلى أسرة نبيلة من أسر الأسقفية، وعلى كل حال إنه بالإضافة إلى حادثة الأصل والولادة، يبدو أنه أعد ليشغل منصب كاهن، وهذا ظاهر بالسمات والمزايا التي يمكن ملاحظتها في كتاباته، ويُظهر كتابه «تاريخ دمياط» على كل صفحة من صفحاته تقريباً أنه كان رجلاً صاحب تقوى، وحماسة دينية، وإيمان بسيط راسخ.

ويبدو أنه كان متميزاً بثقافته وفهمه وهو مايزال في مرحلة الشباب، وقد حظي لهذا بلقب «ماجستير»، الذي استخدم في ذلك الوقت لتمييز انسان كان صاحب ثقافة استثنائية، ونجده في سنة ١٢٠٠ مديراً واستاذاً للاهوت في مدرسة النحو لبادربورن، ولقد شغل هذا المنصب لوقت قصير فقط، لأنه في إيلول من عام ١٢٠١ طلب منه رئيس الاساقفة في كولون أن يشغل كرسي الاستاذية في المدرسة الكاتدرائية الذي ترك شاغراً بعد شغله من قبل العالم رودولف Rudolph ، ولواحد امتلك مثل قدرات أولفر لابد أن مثل هذه الفرصة كانت سارة جداً ومبهجة، لأن كولون كانت آنذاك في قمة قوتها، وكانت هي المعترف بها قائداً لجميع المدن الألمانية، ومركز التأثير والثقافة، لكن على كل حال كانت

الحياة السياسية فيها في وضع عنف واضطراب شديد، فقد كان فيليب صاحب سوابيا وأوتو أوف برونزويك Brunswich منشغلين في صراعهما حول العرش الامبراطوري، واستدرج هذا رجال الدين للتورط في الصراع، وكان معظمهم يؤثر أوتو، وذلك مخالفة لموقف البابا أنوسنت الثالث، وحافظ أولفر على تأثير مرض في المدينة، وذلك حسبما ظهر فيما بعد باشارات إطراء لما قام به ولمكانته.

وكان أولفر في باريس في سنة ١٢٠٧ ، علماً بأنه ليس من المعروف كم مكث هناك في ذلك في العام، وخلال اقامته في تلك المدينة داوم في جامعتها المشهورة، التي حظيت باعجاب العالم المتحضر، وأثني عليها من أجل تعليمها.

وفي هذا الوقت بالذات بدأ البابا في نشر خططه العزيزة عليه للدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وبدا أن التوقيت كان غير موائم البته للاقلاع بمثل هذا المشروع، لأن ألمانيا كانت ممزقة ومنهكة بسبب الصراع بين الولفيين Welfs وأسرة هوهنستوفن Hohenstaufen ، وكانت فرنسا من أحد الجوانب متورطة ومشغولة بقضية الانتشار السريع للهرطقة الألبينسانية Albigensian ، وكانت من جانب آخر مستنفرة ومتحفزة خشية مواجهة المشاكل مع انكلترا، ومع ذلك لاقت الصليبية الجديدة تأييداً حماسياً، وشعر أنوسنت بانتعاش آماله بأن القدس سوف تعود أخيراً إلى أيدي الصليبيين، وطلب في مرسوم أصدره في ٣٠ — كانون الثاني لعام ١٢٠٨، من أسقف جنيف ومن راعي دير بونيفو Bonnevauxالقيام بالاشراف على أسقف غرونوبل لدى قيامه بمنح أولفر كنيسة صغيرة في ايبرني Epernay مقابل بعض الخدمات التي قدمها، ونتيجة لهذا رجع أولفر إلى كولون، حيث بقي فيها بين ١٢٠٩ و١٢١٣، مع أنه من غير المعروف كيف جرى توظيفه واستخدامه، وأفتتح في ربيع سنة ١٢١٣ حقل جديد من النشاط أمامه،

وذلك عندما أرسلت رسائل من البابا انوسنت الى جميع العالم المسيحي التمس فيها العمل في سبيل تحرير الضريح المقدس، وتمت تسمية عدد من الرجال اتسموا بالحماسة والفصاحة للقيام بالتبشير والدعوة إلى حمل الصليب في جميع البلداان الأوروبية، وجرى تعيين أولفر مع عميد بون للتبشير في مقاطعة كولون، ونشط فيها بين ١٢١٤— ١٢١٥ وعمل في لوتخ Luttich ، ونامور Namur ، وفلاندرز، وغلدت Geldt ، وأوترختUtrecht ، وفريزلاندFriesland ، ومن رسالتين كتبهما في هذه الأونة يمكن الحصول على صورة واضحة عن أعماله في التبشير، ونشاطه أيضاً كمبشر، ولقد واكبه النجاح على طول طريقه، وتلقى الفريزيون رسالته بتعاطف كاد يصل إلى حد التقديس.

وفي وسط أعمال تبشيره أرسل أولفر إلى روما ليعمل بمثابة ممثل لأسقفية كولون في المجمع الكنسي الكبير في اللاتيران لعام ١٢١٥، الذي قرر ورسم ضمن أشياء إن على الصليبين المغادرة نحو الأرض المقدسة في ١ حزيران ١٢١٧، ومع ١٠ نيسان كان أولفر مرة ثانية في لوتخ، جاهزاً لاستئناف عمله بالتبشير من أجل الحملة الصليبية، غير أننا لانستطيع تتبع آثار نشاطاته خلال السنة التي تلت، وعندما اقترب حلول يوم المغادرة المقرر، التحق أولفر بحشود الحجاج الذين تجمعوا في مرسيليا وتقاطروا عليها، حيث سافر بحراً إلى الأرض المقدسة، ووصل إما في تموز أو في آب إلى عكا.

الحملة الصليبية الخامسة وكتابات أولفر

ووصفت الحقبة التي تلت وصفاً كاملاً لنا من قبل أولفر نفسه، وذلك بالاضافة لرواية مفصلة عن الأحداث قدمت بشكل غير مباشر رؤية واضحة ونافذة حول أخلاقه وسماته، وسمحت لنا أن نكتشف أكثر من أثر للحكمة وللتسامح، واليقظة، والحماس، والعرفان بالجميل، والاخلاص، والتواضع والثقة بالرب، والحكمة، والمرونة كلها قد ظهرت

في آرائه للصليبيين، مع أن تواضعه قد منعه من تسمية نفسه على أنه الرجل الذي قدم مثل تلك النصائح الحكيمة.

وبمجرد القاء نظرة على روايته حول الحملة الصليبية تمكننا من أن نلاحظ أن هذه الرواية انتاج انسان متيقظ ورجل قادر على الوصف التصويري، ومن المقدر أن الجزء الأكبر من كتاب « تاريخ دمياط» قد كتب أثناء الحملة الصليبية وبعدها مباشرة، أي فيما بين ١٢١٧ و ١٢٢٢، وهذا واضح من خلال استخدام كل من صيغتي الفعل المضارع مع صيغة المستقبل، ونراه بينا في ثنايا كتابه، وأضاف هذا حيوية الى الرواية في عدد كبير من الأماكن، هذا ومن الممكن أن القسم الأخير من الكتاب قد أكمل في مصر، لكن لايمكن تقرير ذلك بشكل حاسم، وكان آخر تاريخ للحوادث هو في ايلول ١٢٢٢، عندما تمت الدعوة الى عقد اجتماع يكون في فيرونا يوم ١١ تشرين الثاني من تلك السنة نفسها.

وعندما نأخذ بعين التقدير أن أولفر قد كتب ثلاثة كتب أخرى بالاضافة الى «تاريخ دمياط» وذلك أثناء وجوده في مصر، وكان هذا بدون اهمال لواجبات مركزه بحكم كونه من رجال الدين، عندما نفعل هذا كله لايمكننا أن نشكك بنشاطه وقدراته، ومن إلقاء نظرة كلية على كتاباته يمكن أن نرى حماسته وغيرته بكل وضوح، لكنها ليست أوضح منها ولا أعظم ظهوراً من جهوده التي بذلها في سبيل تحويل السلطان وأتباعه من الإسلام الى المسيحية، ويوجد في هذه الحادثة اشارات على الاقرار بالفضل والامتنان، فقد قدر أولفر تقديراً عالياً شهامة السلطان نحو الأسرى الصليبيين، ولهذا توفرت لديه الرغبة في أن يعرض عليه منحة تأتي تعويضاً على لطفه،ولهذا لم يجد هدية أفضل وأكمل — حسبما كان يعتقد — من هدية الايمان الصحيح، لكن السلطان على كل حال بقي متمسكاً بشدة بالاسلام.

وقاد الاخلاص للمسيح، وبالتالي لجميع الذين عملوا باسمه، أولفر

للحديث عن الكاردينال بيلاغوس Pelagius بطريقة تفترق بعض الشيء عن بقية المؤرخين، ففي الوقت الذي رأى معظم المراقبين عنده توفر للمطامح، وللأنانية، مع سعي نحو السلطة، رأى فيه أولفر ممثلاً للرب، وأن كلماته قد بدت وكأنها كلمات حكمة ربانية، ولهذا لم ينل النقد من أولفر، أو أن أولفر وجده قصياً عن النقد، وهكذا لانجد في أي مكان صورة بيلاغوس على أنه كان متشدداً، وأرعناً وطاغية مستبداً، بل بدلاً عن ذلك نجد في كل مكان عبارات إطراء تثني على براعة النائب الرسولي، وعلى حكمته ونشاطه وغيرته وكفايته وقدراته، وبميول أولفر على هذه الشاكلة نحو الكاردينال، لابد أن القليل القليل هو الذي توفر لدى أولفر للاعجاب بجون أوف بريين، بما أن القائدين كانا متضادين بالطباع وبالنظرة إلى الأمور، وهنا نلاحظ وجود أكثر من ايماءة نقد في اشارات أولفر لجون.

ولم يحصر أولفر انتقاداته بالأفراد، ولهذا نجد لديه تكراراً لوصف، أو ذكر نقاط الضعف بين الصليبيين ككل، وهكذا نقرأ في صفحات إثر صفحات عبارات من مثل قوله: « كان ذلك عقوبة على الذنوب» و « الشهوة في العيون جعلت اللصوص كثيرين» و« ربما أن المدافعين عملوا بإهمال»، ومن الممكن أخذ هذا كله أنه على الرغم من محبته للمثالية، لم يكن بأي حال من الأحوال أعمى لم يستطع رؤية الحقائق الواقعية، وبدت الآثام المؤسفة التي اقترفها الصليبيون برأي أولفر أنها السبب في الخسائر المتنوعة للجيش، ولم يكن مرد ذلك أي نوع من أنواع التفوق لدى المسلمين، مع أنه اعترف مرة أو مرتين مرغماً فأقر بأن المسلمين كانوا مقاتلين بارعين وأصحاب خبرة في الحرب، وفي وسط الكآبة والوضع البائس سعى أولفر لاستنباط بعض العزاء من خلال ذكره للألمان وبشكل خاص للفريزيين من ذلك قوله: « أعطي معظم المدح عن جدارة لتلك الأمة النشطة والمطيعة، وذلك من بداية الهجوم على

دمياط بكثير من الشجاعة وعدم الاهتمام بالمركز من قبل كل من المتواضعين أو المنخفضين»، وتلقى الداوية أجرهم من الثناء، ومن بين العبارات التي راجت داخل الكتاب وتكررت مع شيء من التشابه قوله: « كان جيش الداوية الذي هو بالعادة الأول بالتجمع ، الأخير بالتراجع».

وكان بإمكان أولفر أن يرى في كل واقعة ذات نهاية مأساوية بالنسبة للصليبيين تعبيراً عن حكمة ربانية، وهكذا ردد قوله: « بوساطة خطة الروح القدس»؛ « دعوا النصر ينسب إلى ابن الرب وحده»، « من خلال تدخل رحمته، انبعث نور المعجزة»، ولاشك أن مثل هذه التعابير التي وقعت بشكل مستمر، وجاءت متلاحقة في روايته، هي عبارات مخلصة صدرت عن عقل رأى أن حضور الرب هو حقيقة مشرقة، ولهذا عدّ نفسه أكثر فأكثر مجبراً على البقاء والمتابعة والاستمرار حتى النهاية القصوى، وأن يبقى مخلصاً للميثاق الصليبي، وكان يقول: « ما هو التسويغ الذي يمكن أن يكون لديهم أمام حاكم لايمكن رشوته أو غشه، إذا ما تسلموا فوائدهم وتلقوا منافعهم، لكن أهملوا واجباتهم التي تعهدوا بأدائها؟ ومن جهة أخرى أي جوائز كان يمكن لهؤلاء المؤمنين أن يتوقعوا، وهم الذين قدموا من بلدان نائية للمشاركة في الحرب المقدسة، وفعلوا ذلك»؟ واستطرد يقول: « ومع أن جهودهم لم تتوج بالنجاح، هل الرب سوف لن يكون مسروراً بالتضحيات التي قاموا بها في مغادرتهم لأوطانهم، وحبهم للآخرين من أجله»؟ ويبدو أن الخسارة لدمياط لم تترك أثراً محبطاً على نشاطه ومثابرته، لأنه تابع الكتابة إلى الكامل وإلى «حكماء مصر» لاقناعهم بقبول المسيحية.

وأظهرت آراء أولفر في بعض المناسبات ميلاً حاسماً نحو السذاجة، فقد مال نحو تأويل أي نجاح صغير على أنه معجزة، وفي وصفه لبعض الشارات والظواهر الغريبة في فريزيا نرى أن هذه السذاجة واضحة تماماً، والتمازج والاقحام الكبير للاشارات إلى نصوص من الكتابات المقدسة

نرى فيها دليلاً على معرفة كبيرة واعتياد على ما إعتقد أنه كلمات الرب المدونة، وغالبا ما اقتبس في كثير من قضاياه من الأجزاء الاقل تداولاً من نصوص كل من العهد القديم والعهد الجديد، واختياراته هذه اختيارات موائمة، وبدت وكأنها تتدفق بشكل طبيعي من خلال قلم أولفر، وكأنها كلمات من صياغته شخصياً، ومع هذا إن اهتمامه بالأشياء اللاهوتية لم يعق نشاطاته في حقل تطلب البراعة بالأشياء التطبيقية، لأننا نعلم أن أولفر كان هو الذي صمم ومن ثم أشرف على بناء برج التهديم الهائل، وقد قال عنه: « إن مثل هذا العمل من الخشب لم يعمر مثله فوق الماء»، ومما هو جدير بالذكر أيضاً إنه ليس أولفر هو الذي أخبرنا باسم المصمم لهذه الآلة من آلات العصور الوسطى، ذلك أنه كتب ببساطة وبدون إطراء ذاتي وقال بكلمات بسيطة: « كان ذلك بوساطة ماأرانا الرب إياه وقام المهندس بتجهيزه»، ولقد كان جاك دي فيتري هو الذي أعطانا اسم المهندس الذي صمم ببراعة.

ومن الجانب الأدبي يستحق «تاريخ دمياط» تقديراً مختصراً، ففي المقام الأول من الواضح أن الكاتب لم يدخر جهداً لأن يضمن عمله جميع المعلومات الضرورية، وبالنسبة لوصف المعارك هناك ثراء بالتفاصيل المفيدة، فهنا يمكننا أن نشعر بحرارة شمس مصر المحرقة، وأن نرى الخوذ اللامعة والسيوف، والنور المشع للنار الاغريقية، وزخات النشاب المدمر، ومشاعرنا وهي ترتعد من رعب المدينة التي أصابها الطاعون، ومن ساحات القتال وقد غطيت بجثث القتلى، ومن التراجع المخفق وغير المخطط له والمهين، وتبرهن الاستطرادات العديدة التي تأخذنا بعيداً عن مشاهد القتال، أنه كان لدى المؤلف بعض المعرفة بالممارسات الاسلامية والعقائد مع أن المؤلف كان جاهلاً بالعربية، وإنه لأمر يثير العجب أن انساناً مثل أولفر بفهمه وثقافته قد استخدم قليلاً جداً النصوص الكلاسيكية، وفقط مرة واحدة نجد إشارة مؤكدة: فقد

استشهد أولفر بحادث رواه كورتيوس روفوس في تاريخه عن الاسكندر الكبير، وهناك اشارتين أخريين إلى الاسكندر لعلهما اعتمدتا على المصدر نفسه، وهناك اشارة إلى يوليوس قيصر، لعلها اعتمدت على سوتونيوس، مع أن ذلك كان بالواسطة كما هو محتمل.

أما اللغة فهي مثقلة بالمحسنات اللاتينية العامية، لكنها كانت واضحة بما فيه الكفاية، وتأتي في بعض الأحيان العبارات ذات الصلة معقدة ومبهمة.

كما ونجد بعض الصيغ البلاغية تتدفق من قلب متحسر تجاه المأساة التي بعث بها الرب، وهي متشوقة لتحريك الكسل والتقاعس تجاه العمل.

ومن الممكن القيام بذكر الكتابات الأخرى لأولفر، أعني غير «تاريخ دمياط» باختصار فيما يلي:

١— « وصف الأرض المقدسة» ، فلقد شعر أولفر أن هذا الوصف الجغرافي سوف يكون مفيداً بمثابة رفيق عملي لكتاباته الأخرى التي عالجت تاريخ الأرض المقدسة، وهذه الكتابات غير أصيلة البتة، واعتمدت بشكل شبه مطلق على ما يعرف باسم يوجيبوس فيتيلوس، وبرأي هوغيويغ Hoogeweg قام أولفر بتصنيف هذا الكتاب بحدود سنة ١٢٢٠، عندما أمضى الجيش كثيراً من الوقت بدون نشاط بعد الاستيلاء على دمياط.

٢— «تاريخ القدس ومجريات حوادثها المختلفة»، وقد بدأ هذا بآدم وتوقف مع قدوم الصليبيين لعام ١٠٩٦ — ١٠٩٩، وهم الذين استولوا على القدس من المسلمين، وفي الحقيقة هذا الكتاب مجرد تاريخ لليهود منذ الخليقة حتى الاستيلاء على المدينة من قبل تيتوس في سنة ٧٠، ثم أتبع ذلك بمجرد لائحة بأسماء الأباطرة: الرومان، والاغريق والالمان،

ومصادره الأساسية الأسفار التاريخية من العهد القديم، «والتاريخ اللاهوتي» لبطرس كومستور Petrus Comestor وبعدما وصل أولفر إلى الامبراطور كاديوس، نلاحظ أن قائمة الأباطرة لديه قد أخذت (ربما عبر وسيط) من القديس جيروم ومن بولس الشماس، ومع هذا يبدو أن عدداً من الفصول هي أصيلة، وأن بعض النقاط قد استعيرت من مصادر أخرى.

٣— «تاريخ حكام الأرض المقدسة» ونجد القسم الأول من هذا الكتاب حتى الفصل الرابع والعشرين قد اعتمد على كتاب «تاريخ القدس» لفولتشر أوف تشارترز، لكن على النشرة الثانية منه التي وصلت حتى سنة ١١٢٤، واعتمد القسم التالي على وليم الصوري، شروعاً من الكتاب الثالث عشر، واستمر هكذا حتى الفصل التاسع والثمانين، وبعد هذا يبدو أنه كان لدى أولفر مصادر أخرى، ويبدو أن استثمر كثيراً جداً ما عرف باسم «تاريخ هرقل»، ففي أماكن كثيرة هناك تطابق مدهش مع رواية أولفر، وفي الأخير وصف الكتاب محاولات البابا انوسنت الثالث للاقلاع بحملة صليبية جديدة، واجتماع اللاتيران لعام ١٢١٥، وهذا قاد إلى صليبية ١٢١٧ التي وصفها أولفر بتوسع طويل في كتابه «تاريخ دمياط» وهو أهم كتبه على الاطلاق، وكان « تاريخ الحكام» قد كتب أثناء حصار دمياط في ١٢١٩ — ١٢٢٠، كمسودة أولى، ثم ظهر في سنة ١٢٢٢ في نسخة منقحة ثانية، صممت على الانتهاء والتوقف حيث بدأ «تاريخ دمياط».

ووصلنا عشر رسائل مما كتبه أولفر، وتاريخها فيما بين حزيران ١٢١٤ إلى ١٢٢٤، وأربع منها كتبت في مصر، والرسالة الثالثة أرسلت إلى رئيس أساقفة كولون مع رجال الدين هناك، وقد تولت وصف أحداث الصليبيين من ٨ تشرين الثاني ١٢١٧ حتى نهاية آب ١٢١٨، وكتبت الرسالة الرابعة قرب دمياط في ١٤ إيلول ١٢١٨ الى رجال الدين

والقناصل في فريزيا، وفيها تم مدح الفريزيين الصليبيين على أنهم شجعان، ومضحين ومخلصين، وكتبت الرسالة الخامسة في ١٤ ايلول سنة ١٢٢٢ الى سلطان مصر، سأله فيها قبول المسيحية وإعادة الأرض المقدسة، وكتبت الرسالة السادسة في الوقت نفسه إلى «حكماء مصر» لإقناعهم بألوهية المسيح.

وهذه الرسالة هامة بالنسبة لكتاب «تاريخ دمياط»، لأن اثنتين منهما مما كتب في مصر تشكلان مصدراً للجزء الأول من ذلك الكتاب، أما الرسالتين اللتان أرسلتا من قبل أولفر الى المانيا فقد دمجتا لتشكلان الفقرة الأولى، التي تعالج موضوع صليبية ملك هنغاريا مع موضوع الحملة التي استولت على دمياط في سنة ١٢١٩، ولهما أضيفت بعض الاضافات، تولت شرح بعض النقاط التاريخية، والجغرافية، والثقافية، وهي ليست متعلقة بشكل مباشر مع الحملة الصليبية، وأخيراً هناك فقرات أضيفت لتتولى شرح الأحداث من ١٢٢٠ إلى ١٢٢٢، وهكذا جرى اكمال تاريخ مندمج من قبل المؤلف بعد إدخاله بعض الأمور الضابطة والمكيفة.

حياة أولفر بعد الحملة الصليبية الخامسة

أنزل اخفاق الحملة الصليبية ضربة قاسية على مطامح أولفر العميقة ، وهو على كل حال لم يبدد وقته في البكاء والنحيب من دون فائدة، بل عاد على الفور إلى عمله القديم في ألمانيا، ففي ١٦ شباط ١٢٢٢ قدم موعظة صيام مع قداس احتفالي في كولون، وكان البابا هونوريوس قد أصدر دعوة من أجل حملة صليبية أخرى، وتولى أوفر الآن القيام بنشاطه القديم كداعية ومبشر، مع أننا لانمتلك سجلا يؤكد أنه عين رسمياً للقيام بمثل هذا العمل، وفيما بين شباط ١٢٢٢ وايلول ١٢٢٣، جاءت معلوماتنا عنه فقط من خلال رسالة كان قد كتبها وفيها اشارات إلى أنه كان موجوداً في فريزيا في هذه الأيام، ولقد ذكر زيارة قام بها لصديقه

الأب امو Emo في ديره في ويتويروم Wittewierum .

ووقع الآن حادث سيء الحظ في بادربورن، وجاء نتيجة وفاة الأسقف برنارد الثالث يوم ٢٨ آذار ١٢٢٣، وجرى اقتراح اختيار واحد من رجلين لخلافته وهما: أولفر وهنري فون بروكل Brokel راعي دير بوسدورف -Bus dorf، ونشب نزاع كبير حول الانتخاب، وكان السبب الرئيسي لذلك هو أن أسرة فون بروك كانت أسرة ذات نفوذ كبير منذ سنوات في الأسقفية، ولهذا لم تتحمل وجود مرشح مضاد لمرشحها، فكان أن لجأت إلى القوة لضمان اختيار مرشحها، وتم التماس تدخل روما، وأخيراً جاءت الموافقة على أولفر، لكن المسألة لم تعرف الاستقرار والتسوية لسنوات عديدة، وخلال جزء من هذا الوقت المضطرب أقام أولفر مع الكونت هنري أوف شكويرن Schwerin في نوردهوزن Nordhousen يقدم له المساعدة في صراعه مع فالدمير صاحب الدانمرك.

ونشط بعد هذا باخلاص في التبشير بالحملة الصليبية، وذلك بداية من ١٥ أيار، وفي ١ حزيران زار صديقه القديم إمو في ديره، وفي يوم الاثنين الذي أعقب عيد الحصاد، انطلق أولفر مجدداً نحو شرقي ألمانيا، لكنه تسلم أثناء ترحاله دعوة لحضور اجتماع في كولون، واستجابة منه لهذه الدعوة تخلى عن التبشير لبعض الوقت، ومع أن الاجتماع الذي دعي إليه لم يعقد، تمكن أولفر من مقابلة القاصد الرسولي، الكاردينال كونراد، وكان قادراً على دفع قضية صديقه إمو وتحسينها، وذلك أن إمو كان متورطاً في خلاف مع راعي دير هيرديركوس في سكلدوولد Herderieus of Schild Wolde.

وعاد أولفر إلى أعمال تبشيره، غير أنه وجد الأشياء غير موائمة ولامرضية لقضيته، فقد جلبت فيضانات متوالية المآسي والمجاعة إلى فريزيا، وكانت الرغبة ضئيلة لدى الناس لسماع الدعوات للتوجه إلى بلاد أجنبية والارتحال إليها، وكانت الحروب الخاصة منتشرة، ولم يكن

الوقت بدون أدنى شك مرضيا، ومع ذلك كان أولفر قادراً على حشد بعض الجنود للقيام بمحاولة جديدة.

وجاء تأكيد تعيين أولفر أسقفا لبادربورن بوساطة رسالة من هونوريوس وصلت بتاريخ ٧ نيسان ١٢٢٥، وفي تموز سافر أولفر إلى سان جرمانو ليتسلم طيلسانه من الامبراطور فردريك الثاني، الذي أخيراً وافق على تأييد الحملة الصليبية الجديدة، وأرغم أولفر بهذه المناسبة على اقتراض خمسة وسبعين ماركا فضياً باسم جماعة رهبان كاتدرائية بادر بورن.

وقليل جداً هو المعلوم عن عمل أولفر وهو أسقف ، لأنه شغل هذه الوظيفة لوقت قصير، ثم إنه كان غائباً عن الأسقفية خلال معظم هذا الوقت القصير، وتعرفنا إلى إحدى الحقائق حوله من خلال إحدى الوثائق التي جاءت من عند هونوريوس: فبناء على طلب أولفر، جرى منح فرصة غفران مدتها أربعين يوماً لجميع الذين يزورون كاتدرائية بادربورن، بمناسبة ذكرى تكريسها، وبعد ذلك بوقت قصير في ١٨ إيلول، وقع أولفر مرسوماً بابوياً من أجل بادوا Padua ، وكان وقتها يحمل لقباً جديداً هو «الكاردينال— الأسقف» لسانت سابينا، وكان هونوريوس قد أعلن عن هذا التعيين لرجال الكهنوت في كاتدرائية بادر بورن في ٢٧ إيلول.

وجاء الذكر التالي لأولفر وهو يعمل وسيطاً فيما بين الامبراطور فردريك ومجلس الكرادلة، وذلك حول خلاف انبعث حول شغل منصب أسقفي شغر في ايطاليا، وكان أولفر قادراً على الوصول إلى تسوية، وكذلك أقنع فريدريك للقيام بكتابة رسالة إلى الفريزيين يعبر فيها عن أمتنانه وتقديره لأفاعيلهم الشجاعة عند دمياط، ومحدداً تاريخ المغادرة المقبل في آب ١٢٢٧، واختفى أولفر الآن من أمام أبصارنا، والذي بقي فيه اشارات إليه هو رسائل قلة تحمل توقيعه، وكان آخرها تاريخه ٩ آب ١٢٢٧، وفي

- ١٩٧٦ -

١٨ ايلـول جـرى تعيين يو هـان هالغـريـن

JohannHalgrinكـاردينـالأ أسقفـا لسـانـت سـابينـا، ومـن هـذا نستخلـص أن أولفـر قـد مات قبـل بعـض الـوقـت فيها بين ٩ آب و١٨ إيلول ١٢٢٧، وقد دفن في ايطاليا.

-١٩٧٧-

الاستلاء على دمياط

هنا يبدأ «تاريخ دمياط» الذي كان المعلم أولفر هو المصنف له، والمبشر بصليب الصلبوت والداعية إلى حمله، والذي بلا شك كان حاضراً هناك.

استهلال

« ليفرح جبل صهيون، ولتبتهج بنات يهوذا من أجل أحكامك السارة، أيها الرب، غنوا أنتم للرب لأنه صنع هذه الأشياء العظيمة». (مزامير ٤٨/ ١٢ جزئياً)، ولدى الكتابة والتبشير عليهم الاعلان عن روائع الرب، وهو الذي أمر رجاله المقدسين، ودعا رجاله الأقوياء أثناء غضبه، وعليهم ألا يبتهجوا بقوتهم الخاصة، «لا بأعمال في بر عملنا ها بل بمقتضى رحمته المباركة» في كل شيء في الأبدية، من «أجل الأرض التي تنتج الخبز النازل من السماء»، ومكان ميلاده قد قطع وفصل بالسيف، وكثير من الحصون جرى احتلالها من قبل الكفار، « وحجارة هذه الأرض هي موضع الياقوت الأزرق»، لأنها كانت ملك البطاركة، وموضع العناية بالأنبياء، والمعلم للحواريين، والأم للإيمان « وفيها تراب الذهب»، ولأن الوصاة على الدين، اجتمعوا مع بعضهم بالرعاية، ولم يخفقوا هناك قط، وجرى تحريرها أخيراً بعد كثير من الآلام والعديد من التنهدات، وهي الآن تبتهج بالأمل، وتثق بجودة محرريها، وببهجة سوف تبتهج عندما «سوف تؤخذ عصا الأشرار من نصيب الصديقين»، وفي الحقيقة إن الذي تمت رؤيته وتم سماعه وجرى حقاً فهمه قد كتبناه من دون أدنى مزج للزيف، وبناء عليه إن أية محاسن سوف تظهر فذلك بحمد الرب، وبشكره.

الفصل الأول

في سنة ١٢١٧، عندما انتهت الهدنة التي كانت معقودة فيما بين المسلمين والصليبيين(١)، وبعد العبور الأول الذي جاء بعد مجمع اللاتيران(٢)، احتشد جيش المولى الكبير في عكا مع ثلاثة ملوك هم: ملك القدس(٣)، وملك هنغاريا(٤)، وملك قبرص(٥)، وهم لم يحملوا معهم تقدمات طقوسية، ولم يقدموا شيئاً كان جديراً بالتذكر، وكان دوق النمسا هناك (٦)، وكذلك دوق ميران(٧)، مع عدد كبير من المرافقين، ورجال من أصل رفيع، ورئيس أساقفة نيقوسيا(٨)، ورئيس أساقفة رآب(٩) Raab، ورئيس أساقفة ايرلو(١٠)Erlau ، ورئيس أساقفة هنغاريا (١١)، ورئيس أساقفة بيو (١٢) Bayeux ، ورئيس أساقفة بامبرغ(١٣)، ورئيس أساقفة زتز (١٤)Zeitz ورئيس أساقفة مونستر (١٥)Munstor ، ورئيس أساقفة أوترخت (١٦)، وكان معهم قوى، ورجال نبلاء، منهم اللورد ولتر أفسني(١٧) Avesnes، الذي ترك بعد عودته في عبور الربيع أربعين جندياً في خدمة الأرض المقدسة، وزودهم بتمويل وبنفقات كانت كافية لمدة سنة، وتصرف البافاريون برعونة، وبشكل مضاد لقانون الحجاج بقيامهم بتدمير حدائق وبساتين المسيحيين، لابل أكثر من هذا برميهم الاتقياء والدينيين من مآويهم، وعندما لم يشبعهم هذا أقدموا على قتل المسيحيين، أما بالنسبة لدوق النمسا، وكان أميراً كاثوليكيا، فقد قاتل في سبيل المسيح طوال الوقت.

الفصل الثاني

رفع بطريرك القدس (١٨) بكثير من التواضع والتبجيل خشبة الصليب المانح للحياة، وكان بذلك ممثلاً لرجال الدين والشعب،

وانطلق من عكـا في اليوم السـادس الذي حل بعـد عيد جميع القـديسين (٦ — تشرين ثاني ١٢١٧) إلى معسكر الرب الـذي انتقل الآن إلى خربة كرداني (١٩)، وكانت هذه الخشبة الحلـوة محفوظة حتى هذا الوقت، حتى من بعـد فقـدان الأرض المقـدسـة، وعنـدمـا كـان الصراع بين المسلمين والصليبيين مخيفاً أيـام صلاح الـدين، حسبما عرفنـا عن طريق أجـدادنا، جرى تقطيع الصليب إلى قطع، وقسم منه هو الذي حمل إلى المعركة، وتم فقـدانه هنـاك(٢٠)، وقسم منه هـو الذي حفظ وهـو الذي عـرض الآن، وفي ظل مثل هـذه الراية زحفنـا في صفوف منتظمـة خلال سهل الفـوله (٢١)على مقربـة من نبع طوبـانيا(٢٢)، وقد بـذلنا جهـوداً كبيرة في هذا اليوم، وعنـدما أرسلنـا كشافة أمـامنا، وذلك بعد رؤيتنـا للغبار الـذي ثار أمـامنـا من قبل أعـدائنا، لم نكـن متيقنين فيما إذا كانـوا جـاءوا مسرعين للهجوم علينـا أم كانـوا فارين، وانطلقنا في اليـوم التالي من خـلال جبال جلبـوع(٢٣) التي كـانت عن يميننـا مع مستنقع بيـت شـان(٢٤) عن يسارنا، حيث كـان العدو قد أقام مخيما لـه ، لكن لخوفه من وصول جيش الـرب الحي، الذي كـان كبير التعداد جـداً، وكـان يزحف بنظـام عظيم، قـوض المعسكر وهـرب، تـاركا البـلاد لتتعـرض للسلب والنهب من قبل جند الرب، وعبرنـا من هناك الأردن ليلة عيد القـديس مارتن (٧ تشرين ثاني)، وقـد غسلنا أجسادنـا هناك ونحن نتمتع فيه، واسترحنـا هناك لمدة يـومين في المكان نفسـه، حيث وجـدنـا وفرة من الأطعمـة والأعـلاف،ثم أمضينا ثـلاثة أيـام راحة على شـواطىء بحر الجليل (طبريـة)، وتجولنا في خـلال الأمـاكن التي تلطف مخلصنـا وقـام فيهـا بعـدد من المعجـزات، وتحدثنـا مع رجال كـانوا على شكـل جماعة صغيرة هنـاك، وتطلعنا نحـو بيت صيـدا (٢٥)، وهي مدينة أنـدرو وبطرس، ثم إنها تحولـت إلى قلعة صغيرة، كما رأينا أماكن حـددت لنا وفيها دعا المسيح حـوارييه وسار على وجه البحر بقدمين جـافين، وأطعم الحشود في الصحراء، ثم مضى وحيداً إلى الجبل ليصلي، وشـاهـدنـا المكـان الذي أكل فيـه مع حـوارييه بعـد

القيامة، وهكذا عدنا إلى عكا، ونحن نحمل معنا مرضانا والمحتاجين من أخواننا، ومررنا من خلال كفر ناحوم(٢٦)، وهم على ظهور حيوانات التحميل

الفصل الثالث

ووصلنا في الإغارة الثانية إلى سفوح جبل الطور، ووجدنا في البداية نقصاً في الماء، لكن حصلنا فيما بعد على وفرة من الماء عندما حفرنا من أجل ذلك، وخشي قادتنا من صعود الجبل حتى جاء صبي مسلم فأخبرهم بأن من الممكن الاستيلاء على المعسكر فوضعوا خطة، وفي الحقيقة مع أول أحد من شهر قدوم الرب (٣— كانون أول) وميلاده وبعدما تمت قراءة ما جاء في الانجيل: «إذهبا إلى القرية التي أمامكما» (متى : ٢١/ ٢)، سار البطريرك متقدما نحو الأمام ومعه شارة الصليب، وبرفقته الأساقفة ورجال الدين، وصعدوا إلى الجبل وهم يدعون وينشدون المزامير، ومع أن الجبل كان شديد الانحدار من جميع الجهات وعاليا، وبدا من غير الممكن تسلقه من دون توفر ممر ممهد بشكل جيد، مع ذلك تمكن الفرسان مع مرافقيهم والخيالة والجنود الرجالة من تسلقه برجولة، وتمكن جون ملك القدس مع جيش الرب من الاستيلاء على القلعة مع هزيمة الأمير بأول هجوم، وجعل المدافعين عن القلعة يلجأون إلى الفرار وقد استولى عليهم الرعب، غير أنهم بدأوا يدافعون عن الجبل، وبدون خوف قاوموا الأعداء خارج أبواب الحصن، وهكذا خسر الملك وقتها كثيراً من الفخار الذي كسبه وقت الصعود، وضاع الآن كل شيء وقت النزول، لأنه بنزوله في يوم الأحد نفسه وبجعله الآخرين ينزلون منح التشجيع للمسلمين بوساطة فسحة الوقت التي منحهم إياها، لكننا لاندري بأي أمر رباني أو بوساطة أية خطة نزل قادة جيش الرب، ثم انسحبوا بشكل مهين، وهذا على كل حال لانعرفه، لأن عين الانسان

لايمكنها أن تنفذ إلى أسرار وبواعث الأوامر الربانية، وجرح الآن كثير من الداوية والاسبتارية وبعض الجنود أثناء التسلق الثاني للجبل، وذلك بعدما تلقوا قواتاً جديدة من المعسكر، لكن قلتهم الذين ماتوا، ونحن نعتقد أن المسيح ربنا قد احتفظ بنصر الجبل هذا لنفسه وحده، لأنه قد صعده مع عدد قليل من الحواريين، وهناك أوضح عظمة القيامة المستقبلية ومجدها، زد على هذا أن الصليبيين حملوا معهم في الإغارة الأولى وفي الإغارة الثانية حشداً عظيماً من الأسرى، من رجال ونساء، لابل حتى من الأطفال، وقام الآن (جاك دي فيتري) أسقف عكا بتعميد الصغار، الذين أمكنه أن يكسبهم إلى جانبه بالهدايا أو بالالتماسات، وتولى توزيعهم فيما بين نساء الدين، وأعدهم لتلقي التعليمات والتوجيهات.

الفصل الرابع

في الاغارة الثالثة (٢٧)، التي حمل فيها البطريرك شارة الصليب، والتي لم يشارك فيها رجال الدين المقدسين، عانينا من كثير من الخسائر والمصاعب، وذلك بقدر ما عانينا من قطاع الطرق، ومن شدة الشتاء، لاسيما أثناء الزحف في الليلة المتقدمة على يوم ميلاد الرب، وذلك عندما هلك كثير من الفقراء والدواب بسبب البرد، وفي ليلة الميلاد نفسها عندما تحملنا مشاق عاصفة حادة اجتاحت البلاد، ترافقت مع رياح وأمطار في منطقة صور وصيدا قرب الصرفند.

الفصل الخامس

وانقسم بعد هذا جيش الرب إلى أربعة أقسام، وقد توجه ملك هنغاريا وملك قبرص نحو طرابلس، حيث أنهى ملك قبرص

الشاب(٢٨) حياته، وبعد قليل من التأخير انسحب ملك هنغاريا، مما سبب أذى كبيراً للأرض المقدسة (٢٩)، وأخذ معه حجاجاً أيضاً، وخوذاً وخيولاً، وحيوانات تحميل محملة بكثير من السلاح، مع أنه تلقى انذارات كثيرة من البطريرك بوجوب عدم قيامه بالتراجع هكذا، وأخيراً تم حرمانه كنسيا، ومع ذلك ركب رأسه وغادر ومعه حاشيته، وحدث انقسام آخر بين الحجاج الكسالى والجبناء الذين رقدوا وجلسوا فاستهلكوا كميات كبيرة من الأشياء الدنيوية، وكانوا قد بقيوا في عكا، لكن ملك القدس ودوق النمسا ومعه فرسان مشفى القديس يوحنا(٣٠)، والأساقفة الذين تقدم ذكرهم وبصحبتهم بعض الآخرين، تمكنوا في وقت قصير برجولة وبايمان من تحصين قلعة قيسارية في فلسطين، مع أنه أعلن مرارا عن وصول الأعداء ، ومن خلال هذه القلعة بعون الرب، سوف يتم استرداد المدينة نفسها، وفي بازيليكا أمير الحواريين احتفل البطريرك مع ستة من الأساقفة بشكل مهيب بعيد الطهارة (٢ شباط ١٢١٨)، زيادة على هذا أن الداوية (٣١) مع اللورد وولتر أوف أفسني وبعض الحجاج المساعدين، والاسبتارية من أخوانية التيوتون (٣٢) شرعوا في إعادة تحصين قلعة الحجاج (٣٣)، التي كانت تدعى من قبل دستروبت Destroit، وهذه قائمة في أسقفية قيسارية فيما بين حيفا وقيسارية، ووضعها هو كما يلي:

الفصل السادس

هي واسعة وعالية، وتطل بشكل عظيم على البحر، وهي محصنة بشكل طبيعي بوساطة الشعاب الجبلية في الشمال والغرب والجنوب، أما باتجاه الشرق فهناك برج قوي جرى إعماره في وقت مضى من قبل الداوية، وقد حافظ على صموده بشكل جيد في الحرب وفي أيام الهدنة، وقد أقيم هذا البرج هناك بالأصل بسبب وجود العصابات التي كانت

تهدد الغرباء الذين كانوا يصعدون الى القدس ويسيرون عبر الممرات الضيقة، ثم يهبطون عائدين منها، ولم يكن هذا البرج بعيداً عن البحر، وبسبب وجود الممر الضيق أطلق عليها اسم دسترويت، وعندما عمرت قلعة قيسارية وكملت، أخذ الداوية يحفرون بشكل متواصل وبشكل متعارض في قنة الجبل، وبعد عمل استغرق ستة أسابيع، وصلوا أخيراً إلى أول الأساسات، حيث بدا أن السور القديم كان سميكاً وطويلاً، وتم العثور على مال هناك من النقود التي لم تعد بالاستخدام وهي غير معروفة في الوقت الحاضر، وقد جاءت بمثابة هبة من خلال احسان ابن الرب لجنوده لتعين على انفاقهم أثناء عملهم، وبعد ذلك وفيها هم يحفرون وينقلون الأتربة من أحد الأماكن الأمامية تم العثور على سور آخر أقصر، ونبعت فيها بين وجه الأرض الممهد والسورين ينابيع تدفقت منها مياه عذبة، وزودنا الرب أيضاً بوفرة من الحجارة والملاط، وتمت أعمال بناء البرجين أمام الحصن بحجارة منحوتة ومناسبة وذات أحجام كبيرة، حتى أن الحجر الواحد كان يحمل بكل صعوبة على عربة شد إليها ثورين، وكان كل واحد من البرجين بطول مائة قدم، وسبعين قدما بالعرض، ومن حيث السماكة احتويا على مظلتين لحماية الجند، وكان ارتفاعهما أعلى بكثير من قنة الجبل، وأكمل بناء سور فيما بين البرجين مع شرافات ، وكان من الممكن بوساطة العمل الحرفي البارع للفرسان المسلحين الصعود إلى أعلى البرج في الداخل والنزول، ومثل هذا جرى بناء سور آخر على مسافة صغيرة من البرجين، وقد امتد من طرف من أطراف البحر إلى الطرف الآخر، وحوى من الداخل على نبع ماء للحياة وأحيطت قنة الجبل من كلا الجانبين بوساطة سور مرتفع، امتد حتى الصخور، واحتوى الحصن على بيعة صغيرة داخل قصر مع عدد من البيوت، والفائدة الأساسية من هذا البناء هي جمع الداوية، بعدما اقتيدوا إلى خارج عكا، وهي مدينة آثمة امتلأت بجميع أنواع الدنس، وكانوا سيبقون شحنة لهذا الحصن حتى يتم استرداد أسوار القدس، وفي منطقة هذه القلعة وفرة

من الأسماك، ومناجم الملح، والغابات، والمراعي، والحقول والأعشاب، وهي تسحر سكانها بكرومها التي زرعت أو التي سوف تزرع، وببساتينها وحدائقها، ولايوجد فيما بين عكا والقدس أية قلعة بأيدي المسلمين، ولهذا تأذى المسلمون كثيراً بوساطة الحصن الجديد، ومع خوف الرب وهو يطاردهم، أرغموا على مغادرة هذه المناطق الزراعية، وامتلك هذا المبنى مرسى طبيعياً جيداً، سوف يكون أحسن عندما يعاون بوساطة العمل الفني، وهو يبعد ستة أميال عن جبل الطور، ويفترض أن بناء هذه القلعة قد كان السبب في تهديم الأخرى، لأنه في السهل الواسع القائم فيما بين منطقتي الجبال العائدتين لجبل الطور وهذا المعسكر، ما من أحد يمكنه الفلاحة بسلامة وأمان أو الحصاد أو انضاج أي شيء بسبب الخوف الذين يعيشون فيه .

الفصل السابع

وسقط أسقف مونستر (٣٤) Munster نائماً في الرب في قيسارية، ووصل المعلم توماس (٣٥)، وكان لاهوتيا، وحكيما صاحب عقل واضح جيد الى نهاية أيامه في قلعة ابن الرب(٣٦).

الفصل الثامن

وعاد بعد هذا جيش الرب إلى عكا، وأعدّ أساقفة ألمانيا وآخرون كثر أنفسهم لعبور البحر، بعدما تأخروا لبعض الوقت في أرض الميعاد، وكان من المتوقع توفر عبور آخر ثاني، وخاصة مع توفر اسطول قادم من الشمال(٣٧)، كان من المؤمل أن يبحر خلال بحر قرطاج الضيق، فمن بداية الدعوة لحمل صليب المسيح أعدت منطقة كولون بحماس عظيم وبانفاق هائل، حوالي الثلاثمائة سفينة استمر بعضها بالبقاء،وهلك

بعضهـا الآخر بقـوة العواصف، والمهم أن الجزء الأكبر وصل إلى عكـا مع شجاعة عظيمة من جانب المحـاربين، وقد نشأ خلاف كبير هناك، عندما رغب بعضهم في متـابعـة السفـر، بينما رغب آخرون في امضـاء الشتـاء في حصار الحصن القوي جداً، المدعو الكاتيا (٣٨) Alcatia، وهناك انقسم الاسطول حيث أمضى قسم منه الشتاء في غيتا Gaeta وكورنتو -Cor neto وتـولى القسم الآخـر حصـار الكـاتيـا تحت قيـادة قـائدين هما : الكـونت وليم صـاحب هـولنـدا (٣٩) ، والكـونـت جـورج أوف ويـد Wied (٤٠)، وجـرى الاستيـلاء على حصن الكـاتيـا هـذا من قبل الألمان والفريـزيين، وظل في أيديهم حتى أيام قيامهم بحصـار حشد كبير من المسلمين الذين قاتل ضـدهم برجولة كل من فرسان الـداوية وفرسان القديس جيمس (٤١)، ووقتهـا حاربوا مع جيش ملكـة البرتغال (٤٢)، وأخيراً الحقت الهزيمة بالمسلمين بـوساطة قوة سماويـة: وجرى قتل واحد من ملوكهم وقتل معه عدد كبير من المسلمين أو وقعوا بالأسر (٤٣).

الفصل التاسع

وعاشـت مقاطعة كـولون حـالة من الجيشـان للعمل في سبيل خـدمة تخلص العالم من خلال عدد من العـلامات اللائي ظهرن في السماء، لأنه ظهر في السماء في مقاطعة كـولون، وفي أسقفية مونستر، في قرية في فـريزيا اسمها بيدوم Bedum، في شهر أيار وفي اليوم السادس قبل عيد الحصاد (١٦ — أيار) ، عنـدما جرت الـدعوة لحمل الصليب هناك، وقتهـا ظهر شكل ثـلاثي في السماء، شكل أبيض متجـه نحـو الشمال، وآخـر متجـه نحو الجنـوب له الشكل نفســه واللون، أما الثـالـث فقام في الـوسط، وهو مظلل باللـون، وله تشعبـات الصليب، وجسد انســان ممدد عليـه، ويداه مرفوعتـان وممدودتان مع علامات المسـامير على اليدين والقدمين مع رأس مطأطيء، وكان هذا الشكل الـوسيط فيما بين الشكلين الآخرين، حيث لم

— ١٩٨٧ —

تظهر عليه أية علامات لشكل جسم انساني، وفي وقت آخر ومكان آخر في قرية في فريزيا، ظهر أثناء وقت الدعوة لحمل الصليب على موازاة الشمس صليب لونه أزرق ، والذين رأوا هذا كانوا أكثر عدداً من الذين رأوا المشهد المتقدم، وكان المشهد الثالث في أسقفية أوترخت في قرية دكوم Dokkum حيث كان القديس بونفيس Boniface قد استشهد، ففي أثناء الاحتفال بعيد هذا القديس نفسه (٥ حزيران) حيث احتشد عدة آلاف من أجل هذا القديس نفسه، ظهر صليب أبيض كبير وكأنها حزمة ضوئية وضعت على الأخرى بشكل مصطنع، ورأينا هذه العلامة جميعاً، وقد تحركت الآن بشكل تدريجي من الشمال الى الجنوب، ونحن نعتقد ان المشهدين الآخرين قد ظهرا لإزالة جميع الغموض المتعلق بالمشهد الأول، وذلك مثلما يقول الرسل حول القيامة: «أنه ظهر لصفا ثم للاثني عشر، وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمائة أخ » (كورنثه: ١٥/ ٥— ٦).

الفصل العاشر

في سنة النعمة لـ ١٢١٨، وفي شهر آذار، بدأت السفن تبحر نحو ميناء عكا من مقاطعة كولون مع سفن أخرى صغيرة من مقاطعة بريمن Bre-men وتريـر Trier ، وبذلك جرى تنفيذ الخطة التي وضعت في مجمع اللاتيران الذي انعقد في روما تحت رئاسة البابا انوسنت صاحب الذكرى الطيبة، وذلك من أجل قيادة الجيش الصليبي إلى الأراضي المصرية، وبناءً عليه في شهر أيار، بعد صعود الرب (٢٤ أيار) عندما باتت السفن معدة، والغلايين مجهزة بالأسلحة، والسفن الأخرى محملة، أقلع الجميع من عكا مع الملك جون ملك القدس، والبطريرك وبصحبته أساقفة نيقوسيا، وبيت لحم، وعكا، ودوق النمسا وبرفقته فرسان البيوت الثلاثة: (الداوية والاسبتارية والتيوتون) وحشد كبير من

الصليبيين، وصدرت الأوامر للأسطول للاجتماع عند قلعة ابن الرب، التي تدعى قلعة الحجاج، ثم إنه بعدما هبت ريح شمالية وصل الملك والدوق ومقدموا البيوت الثلاثة إلى المكان المحدد، وأقلع الحشد بسرعة كاملة، وفي اليوم الثالث وصل إلى ميناء دمياط، لكن بالنسبة للقادة الذين تقدم ذكرهم، فقد تأخروا بعض الوقت عند القلعة، ولم يتمكنوا من اللحاق بالحشد حتى اليوم السادس بعد مغادرتهم ميناء عكا، يضاف إلى هذا أن آخرين ممن لم يكونوا قد استعدوا تأخروا بعض الشيء في عكا بعد الذين أبحروا أولاً، وهؤلاء إما مكثوا بشكل نهائي في عكا، أو أنهم حاولوا السفر فردتهم الرياح العاتية إلى عكا، أو ظلوا تتقاذفهم الأمواج وسط البحر لمدة ثلاثة أسابيع أو أربعة، وبقي رئيس أساقفة الرايمز (٤٥) Rheims وأسقف ليموز (٤٦) Limoges ، في عكا بسبب سنهما المتقدم، ومات أسقف ليموز هناك، أما أسقف الرايمز فقد عاد مع عبور الصليب المقدس، وهلك على الطريق.

وعندما جاءوا الآن للرسو عند ميناء دمياط اختاروا كونت أوف ساربروكن Saarbrucken قائداً لهم، واستولوا على الأرض المعادية في اليوم الثالث (٢٩ أيار) بدون أية خسائر بالدماء، وذلك من قبل أن يلحق بهم الملك والقادة المتقدم ذكرهم، لأنه عندما زحف قلة من المسلمين ضد الفرسان في الميناء، قام واحد من الفريزيين وقد غرس ركبته اليمنى، بالأرض ، وأمسك ترسه بيده اليسرى ، وسدد رمحه الحديدي بيده اليمنى ، وكان واحداً من الخيالة المسلمين يراقبه فظن أنه كان يلعب، وهنا رماه الفريزي مع مطيته، فهلك وسقط إلى الأرض، وعندما هرب الباقون متخلين عن جهازهم وعتادهم، قام الصليبيون بتثبيت حدود المعسكر فيما بين شاطىء البحر وضفة نهر النيل، وأثار هذا الاعجاب العظيم للذين لحقوا بهم وذلك عندما رأوا الخيم وقد نصبت، وحقق الرب معجزة تجلت بالحقيقة التالية، وهي أنهم لدى وصولهم أولاً

كانت مياه النهر متحدة مع البحر، ومن ثم كانت في مناسبات عديدة فيما بعد ذات طعم مالح، ولقد أمكن جرها وهي عذبة المذاق طوال الطريق إلى القلعة التي كانت تبعد حوالي الميل فوق دمياط، وبعد وقت قصير من وصول الصليبيين حدث خسوف كامل للقمر، ومع أنه بالعادة يحدث لأسباب طبيعية عندما يكون القمر بدراً، لكن لأن مخلصنا قال:«وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم». (لوقا: ٢١/ ٢٥)، قمنا بتأويل هذا الخسوف وتفسيره على أنه شارة سوء بالنسبة للمسلمين، وكأنها تدلل على سقوط الأشخاص الذين ربطوا أنفسهم بالقمر، واضعين قوة عظمى في القمر المضمحل أو الشاحب اللون، ونقرأ الآن في كتاب كوينتوس كورتيوس (٤٨) Quintus Curtius أن الاسكندر المقدوني قاهر العالم كله، عندما انطلق للحرب ضد داريوس والفرس، من بلاد الاغريق إلى بلاد آسيا، وعندما سارت أرتاله المعبأة بشكل جيد على هذا الجانب، وقع وقتها خسوف للقمر، وأوّل الاسكندر هذه الظاهرة لصالح الإغريق ضد الميديين والفرس، وشجع رجاله، وقاتل ضد داريوس وهزمه.

الفصل الحادي عشر

وكان هناك برج قائم في وسط النهر، توجب الاستيلاء عليه قبل العبور، وعبر الفريزيون، الذين كانوا على كل حال عديمي الصبر تجاه التأخير، النيل واستولوا على كثير من حيوانات المسلمين، ورغبوا في نصب المعسكر في الجانب الأقصى من الشاطىء، وتمسكوا بأرضهم وقاتلوا ضد المسلمين الذين جاءوا من مدينتهم للتصدي لهم، لكن أمكن ارجاعهم بواسطة الأوامر المطاعة، لأنه لم يبد أمراً حكيماً بالنسبة لقادتنا أن يدعوا برجاً مشحوناً بالمسلمين خلف الصليبيين، وفي الوقت نفسه أعد دوق النمسا ومعه الاسبتارية سلمين وضعوهما فوق سفينتين،

وقام التيوتون والفريزيون بتحصين سفينة ثالثة مع دريئة واقية وضعت فوق حصن صغير ثبت على قمة السارية، وذلك بدون تعليق سلم، وكان رأسهم، وقائدهم، وصاحب الرأي بينهم الكونت أدولف أوف بيرغ، (٤٩) وكان رجلاً نبيلاً وقوياً، كما كان أخاً لرئيس أساقفة كولون،(٥٠) ومات الكونت أمام دمياط قبل الاستيلاء على البرج، وجرى توجيه سلمي الدوق والاسبتارية ضد البرج في وقت الاحتفال بعيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ حزيران)، وكان المسلمون يدافعون عنه برجولة، وانشطر سلم الاسبتارية وتحطم مع السارية، وألقى بمقاتليه من الأعلى إلى الأسفل، وتحطم سلم الدوق في الوقت نفسه تقريباً، وبعث إلى الجنة جنوداً كانوا نشطاء ومسلحين بشكل جيد، وكانوا قد جرحوا في أجسادهم لصالح أرواحهم، وتتوجوا بشهادة رائعة، وسخر المصريون منا بعنف، ورفعوا أصواتهم، وقرعوا الطبول، وزعقوا بالأبواق، وهاجم الحزن والأسى الصليبيين، لكن سفينة الألمان والفريزيين ألقت بمراسيها فيما بين البرج والمدينة، مسببة خسائر كبيرة للمصريين بوساطة المنجنيق الذي أقيم على ظهرها، ولحق الأذى بشكل أعظم الذين كانوا واقفين على الجسر الممتد فيما بين المدينة والبرج، وهوجمت السفينة بعنف شديد من قبل مقاتلي المدينة، وبوساطة الجروخ المرمية من البرج ومن الجسر، وكذلك بوساطة النفوط، وأخيراً استولت عليها النيران، ومع أن الصليبيين خشيوا أنها سوف تتدمر كلياً، تمكن المدافعون عنها من إطفاء اللهب بشجاعة، ومثل هذا كان النشاب قد خرق من كل من الداخل والخارج الحصن الذي وضع على رأس السارية، لابل خرق حتى الحبال التي تعود إلى كل من الأشرعة والسواري، وأعيدت السفينة إلى وضعها وهي تحمل الشرف العظيم للصليبيين، وكانت هناك سفينة أخرى تعرضت لكثير من الأضرار وتحملت ذلك، وعادت هذه السفينة إلى الدارية وكانت محصنة بسواتر دفاعية لذلك صمدت أمام البرج وقت الهجوم.

- ١٩٩١ -

الفصل الثاني عشر

وعلى كل حال أدركنا أن البرج لايمكن الاستيلاء عليه لابوساطة قذائف العرادات أو حجارة المجانيق (لأن هذا جرب لعدة أيام)، ولابجعل الحصن أكثر قرباً، بسبب عمق مياه النهر، ولاباستخدام التجويع بسبب وجود المدينة المحيطة به، ولابوسيلة اللغم لصعوبة ذلك وقسوة المياه التي تتدفق هناك، وباظهار الرب وتبيانه لنا كيفية العمل وتوفيره لنا مهندساً، وبتقديم الألمان مع الفريزيين العتاد والعمل قمنا بوصل سفينتين وحزمهما معاً بقوة وثبات بوساطة العوارض الخشبية والحبال، وهكذا منعنا (بربط المنشأتين عن قرب ببعضهما) خطر الجنوح، وأقمنا أربع سواري، والعدد نفسه من حوامل الأشرعة، وقد وضعنا في أعلاهم حصناً قوياً موصولاً بأعمدة وبشبكة دفاعية، وغطينا الحصن بالجلود من جميع الجهات، كوسيلة للوقاية من ضربات آلاتهم، وعلى أعلاه كوسيلة للدفاع ضد النار الاغريقية، ووضع تحت الحصن سلم، جرى تعليقه بحبال قوية جداً، وقد امتد إلى الأمام مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة ، وأكملت هذه العملية بنجاح في وقت قصير ، واستدعي قادة الجيش لرؤيتها ، حتى إذا كان هناك نقص في أي شيء توجب توفيره بوساطة المواد أو بعبقرية الرجال حيث يدللون عليه ويظهرونه ، ولقد أجابوا أن مثل هذا العمل الخشبي لم يشاهد له مثيل في الصنعة من قبل فوق وجه البحر ، ولقد أدركنا أنه متوجب علينا الاسراع ، بسبب القذائف المتوالية للمجانيق ، وكان الجسر الذي ينتقل عليه أعداء العقيدة من المدينة الى البرج قد تدمر في جزء كبير منه ، وبناء عليه في اليوم السادس قبل عيد القديس بارثلميو (١٨ — آب) قمنا بمسيرة بأقدام حافية الى الصليب المقدس ، مع ايمان وتقوى من جانب شعبنا ، وبعدما التمسنا بتواضع العون

السماوي ، وأن تكون المسألة حرة من كل حسد ، وفارغة من كل تفاخر ورعونة ، بعد هذا استدعينا للقيام بتنفيذ هذه المهمة بعض الرجال من جميع الأمم التي توفرت آنذاك في الجيش ، مع أن أمتي الألمان والفريزيين كانتا كافيتين لشغل السفن وتوجيهها .

الفصل الثالث عشر

وفي يوم عيد القديس بارثلميو (٢٤ — آب) الذي وافق اليوم السادس على فيضان النيل بشكل عنيف ، أعاق فيضان الماء وقوة التيار عملنا كثيراً ، وبصعوبة بالغة وبخطورة أمكن جر هذه الآلة في وجه التيار وذلك من المكان الذي صنعت فيه الى البرج ، ومضت سفينة صغيرة مرافقة لهذه الآلة على محاذاتها وهي منشورة الأشرعة ، وسار الكهنة بأقدام عارية على الشاطىء بمثابة تأييد ودعم ، وعندما وصلت الآلة والسفينة الى البرج ، لم تستطع ترتيبات مضاعفة ادارتها وجعلها تلتفان نحو الجانب الغربي ، لكن بتقدمها نحو الأمام وضعت الآلة بشكل مباشر باتجاه الجانب الشمالي ، وأمكن بوساطة الحبال والمراسي تثبيتها أخيراً ، مع أن قوة المياه الفائضة جهدت في سبيل إعادتها الى الخلف ، وجرى وضع ست آلات قذف أو أكثر من الآلات الأخرى ، وقد تحطمت بعد عدة ضربات وتوقفت عن العمل ، غير أن الآلات الأخريات قذفن بدون إعاقة الأحجار مثل زخات البرد وكان الخطر الذي واجهته السفينة الأولى عظيماً ، ولا يقل عما واجهته الآلة ، لأنها وقفت عند أسفل البرج ، وكانت النار الاغريقية التي قذفت من برج النهر قد قذفت من مسافة قريبة ، أما التي قذفت من المدينة ، فكانت أشبه بالبرق ، وكان بإمكانها بعث الشعور بالرعب ، وقد استعان الذين عملوا في سبيل اطفاء النار بالسوائل الحامضة وبالحصباء والرمل وبوسائل أخرى .

وسجد البطريرك وسط الرمال أمام خشبة الصليب ، أما رجال

الدين فقد وقفوا عراة الأقدام ، وهم يرتدون الأزياء الطقوسية ، وكانوا يصرخون رافعين أصواتهم نحو السماء ، وتمكن المدافعون عن البرج بوساطة مدّ رماحهم من تلويث واجهة السلم بالزيت ، ثم إنهم أضافوا النار ، مما جعل السلم يلتهب ، وعندما ركض الصليبيون الذين كانوا عليه لإطفاء النار، ضغطوا على رأس السلم بوزنهم الكبير، مما جعل الجسر المتحرك المقام قرب حافته ينحني ، وسقط حامل راية دوق النمسا من على السلم ، واستولى المسلمون على راية الدوق وخيل للمصريين أنهم كانوا المنتصرين لذلك صرخوا بشكل جنوني ، وجعلوا الهواء يضطرب بسبب صراخهم ، وترجل الصليبيون من على ظهور خيولهم ، وتمددوا وهم يتضرعون ويضربون أيديهم ، ودموعهم تنهمر على وجوهم حزناً ، وهم يعبرون عن شفقتهم نحو الذين كانوا يتحملون المخاطر في أعماق النهر، وحزناً منهم على خسارة المسيحية كلها ، واستجابة نحو هذا الدعاء والتقوى الصادرة عن الشعب ، ولأجله ، تدخلت العناية السماوية فرفعت السلم ، وأطفأت دموع المؤمنين النار، وهكذا جدد رجالنا نشاطهم وقاتلوا برجولة المدافعين عن البرج بمختلف الأسلحة من سيوف وفؤوس ودبابيس ووسائل أخرى ، وكان واحداً من الفرسان الشباب من أسقفية لييج أول من تمكن من الصعود الى البرج ، وكان هناك أحد الشباب الفريزيين بيده العصا التي تستخدم عادة لضرب سنابل القمح لفصل الحبوب ، وقد قام هذا الشباب بتحويل هذه الدرّاسة الى أداة قتال بربط سلسلة بها ، وهكذا أخذ يطوح بها ذات اليمين وذات الشمال ، فأصاب أحد الرجال ، وكان يحمل راية السلطان الصفراء ، وألقاه أرضاً وانتزع الراية منه ، وجاء واحد تلو الآخر فأهلكوا رجال الأعداء الذين كانوا معروفين بقسوتهم وشراستهم أثناء الدفاع ، ما أروعك أيها اللطف الرباني اللامحدود ، ويا أيها السرور الذي لا يمكن وصفه الذي تمتع به الصليبيون ، فبعد

الحزن والأسى ، وبعد النحيب والبكاء رأينا متعة النصر ، « نحمدك أنت يا رب » و«مبارك أنت أيها المولى رب اسرائيل » ، وأنشدوا تراتيل حمد أخرى للسماء ، وغنينا لسرورنا ، وتمازجت أصواتنا مع الدموع ،وكررنا شكرنا .

الفصل الرابع عشر

وقام بالوقت نفسه المسلمون الذين انسحبوا الى الجزء الداخلي من البرج بإشعال النار تحت الجزء العلوي من البرج ، وأحرقوه ، وصحيح أن رجالنا كانوا هم المنتصرين ، غيرأنهم تراجعوا بوساطة السلم ، لعدم قدرتهم على تحمل الحرارة ، أما بالنسبة للجسر الذي أعد في الجزء الأسفل من الحصن ، فقد أنـزل الى الجزء الضيق من أسفل البرج ، والماء العميق يتدفق من حوله من جميع الجوانب ، وهاجم المنتصرون الباب وبأيديهم مطارق حديدية ، بينما تولى المسلمون الدفاع عنه من الداخل ، وبقي كل من التحصينان لا يرامان ، وخرقت مراقي السلم جزئياً ، مع اطار العمل الذي أمسكه مع بعضه بوساطة حبال قوية جداً ، بوساطة ضربات المجانيق واستمر هذا الخطر من الساعة التاسعة من اليوم السادس حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي (٢٥ — آب)، ولكن ما كان يشبه الشبكة حيث أعد لحماية السلم بقي بدون أذى ، وذلك مع الحصن الذي وضع فيه المنجنيق والعرادات ، التي تولت حمايته ، وأخيراً بعد ما تمكنا من تطويق البرج ، طلب المسلمون التفاوض ، وفي ظل المحافظة على أرواحهم وأنهم لن يتعرضوا للموت ، استسلموا لدوق النمسا باستثناء الذين رموا بأنفسهم في الليلة الماضية من النوافذ ، ونجوا من الحصار المشدد على البرج ، وكان عدد كبير منهم قدغرقوا في النهر وهلكوا ، لكن بلغ تعداد الأسرى مائة رجل .

- ١٩٩٥ -

الفصل الخامس عشر

ومع أن المصريين اضطربوا منذ ذلك اليوم وارتعبوا ، واستعدوا للفرار كما اعتقدنا ، انغمس قادتنا بالكسل والتقاعس حسبما كانت عادتهم ، وأبدعوا وسيلة لتأجيل المفاوضات ولم يقلدوا يهودا المكابي الذي « رأى أن الوقت هو لصالحه » لذلك لم يعط الأعداء أدنى راحة

الفصل السادس عشر

واستعدت السفن للانسحاب ، وكان هناك حشداً كبيراً من الفريزيين والتيوتون قد انطلقوا للسفر بعبور الصليب المقدس ، وقدم في ذلك العبور (٥١) بعض الرومان ، وجاء بعد ذلك أسقف ألبانو وكان هو نائب الكرسي الرسولي (٥٢) وكان معه أمير روماني (٥٣) ، ثم جاء بعده رئيس أساقفة بوردو (٥٤) ، الذي قام بتأخير نافع ، ثم أساقفة أنغر (٥٥) Angers ، ومانوتا mantua (٥٦)، وهومانا Humana (٥٧) وسالبي (٥٨) salppi ثم جاء من بعدهم المعلم روبرت أوف كوركون Courcon لكاردينال الأسقف للقب القديس ستيفن فوق جبل سيليو (٥٩) Celio ، وأساقفة باريس (٦٠)، وجيرونا(٦١)، وايرلو Erlau (٦٢) وهنغاريا ، الذي مات قبل عبور النهر فوق رمال دمياط ، وكذلك الكاردينال روبرت، وجاء كونت نافار (٦٣) أيضاً ، الذي عندما واجه الخطر المهدد تراجع لضرر الصليبيين وأذاهم ، وجاء كونت التخوم (٦٤) (لي— مارشي) ، وكونت أوف بار (٦٥) BAR وابنه (٦٦) وأخو وليم أوف تشارترز ، وهو مقدم جيش الداوية (٦٧) ، وهيرفه أوف فيرزون (٦٨) Herve of Viertzon وايثير أوف تاوسي (٦٩) Ithier of

Toucy وأولفـر ابن ملك انكلترا ، وعـدد كبير آخـر من بيـوتـات الفروسية ، ومن عامة الناس ، حيث أنهوا حياتهم عند دمياط ، فكثير منهم كانـوا شهداء من أجل المسيح ، وعدد أكبر اعترفـوا بالمسيح ، فتحرروا من العناية الانسانية عند دمياط ، وذهبوا ماضين الى الرب .

الفصل السابع عشر

« هـو حكيم القلب وشـديـد القـوة . الفـاعل عظـائم لا تفحص وعجائب لا تعـد . الجاعل المتواضعين في العلى فيرتفع المحـزونون الى أمن » (أيـوب ٩/ ٤ ، ٥/ ٩، ١١) ، فهـو وحده الـذي نـال التعظيم في حصـار دميـاط ، لأن الـذي حـدث هنـا لم يشـابـه مـا حـدث في الحملات الأخرى ضد المسلمين ، عندما تهيأت الفـرص المختلفة من خلال الحكمة البشريـة ، أو من خلال جهود المقاتلين ، بل مـن خلاله نفسـه عمل بشكل اعجازي ، وقـد تمّ من خلال قـواه الربـانية مـا لم يتصوره الانسان أو يطلبه ، ولم يعط المجد للملـوك أو للأمراء الآخرين أو الأمم ، بل لاسمـه ، وبذلك تحقق من خـلالنا نحن المذنبين الـوعد النبـوي بقــولـه :« الــرب يقـاتل عنكم وأنتـم تصمتـون »(الخروج : ١٤/ ١٤).

الفصل الثامن عشر

بعـد الاستيـلاء على البرج القـائم في عمـق نهر النيل ، صـار سيف الـدين أكثر شيخـوخة بسبب الأيـام العاتية والمرض ، وهو الـذي لم يكن الوريث لأبناء عمه ، لكنـه المغتصب لممالك آسيا ، هذا الرجل مـات ودفن في الجحيم ، وبعـد هـذا في يوم عيـد القـدس دنس (٩ــــ تشرين أول) ، قـدم المسلمـون بشكل غير متـوقع مع غـلايين مسلحـة

وهاجموا المكان الأهم في المعسكرات ، حيث كان الرومان قد نصبوا خيامهم ، وقد جرى صدهم بوساطة قوة صغيرة من الصليبيين ، وقاتل هناك الملك جون ملك القدس برجولة بناء على تحريض وتشجيع من أسقف بيت لحم ، وذلك عندما طاردهم ، لدى فرارهم مسرعين عائدين الى غلايينهم ، ومع ذلك هم لم يتمكنوا من النجاة من سيوف مطارديهم ولا من تيار النهر ، وحدث الآن مثلما حدث للمصريين من قبل داخل المياه الهائجة في البحر الأحمر ، فقد ابتلعت مياه النيل حوالي الألف من المصريين ، وذلك حسبما عرفناه فيما بعد من المسلمين .

وفي يوم عيد القديس ديميتريوسDemtrius(٢٦ تشرين أول) الذي قيل بأنه كان أخاً من ناحية الأم للمبارك دنس ، هاجم العدو معسكر الداوية عند الفجر ، ومع أن رجاله الحقوا بنا بعض الخسائر الطفيفة ، لقد تم صدهم بوساطة فرساننا المتيقظين ، وهربوا الى الجسر الذي بنوه على مسافة ضئيلة من الجزء الأعلى من النهر ، وقد قتل منهم حوالي الخمسمائة ، وذلك حسبما عرفنا من خلال المتخلين عن جيشهم والهاجرين له .

الفصل التاسع عشر

وبعد هذا بما أن عدداً كبيراً من الصليبيين كانوا مرضيين بالنسبة للرب، كان من الضروري إجراء عملية امتحان لتكون برهاناً لهم، فيونس ألقي بالبحر بسبب الاضطراب الذي عصف به، وسجن في داخل بطن الحوت، ثم عاد إلى اليابسة عندما جاز الامتحان، ونجا الرسول عندما امتحن ثلاث مرات بغرق السفينة، واستحق شعب الرب الامتحان بعدما قام بالصوم لمدة ثلاثة أيام، الأمر الذي راعاه رجال الدين عن

طواعية حيث صاموا على الخبز والماء، وبعدما جرت عدة مسيرات بناء على أمر اللورد بيلا غوس المبجل، وهو أسقف ألبانو، ونائب الكرسي الرسولي، ذلك أنه في عشية عيد القديس أندرو الرسول (٢٩ — تشرين الثاني)، في منتصف الليل ثارت أمواج البحر، وتضاعف حجمها، وتقدمت بشكل مخيف حتى باتجاه معسكر الصليبيين، واندفع النهر من الجانب الآخر، وأخذنا على حين غرة، فطفت الخيم، وأتلفت الأطعمة والميرة، وتكومت أسماك النهر والبحر، وكأنها لاتخشى شيئاً، في أماكن نومنا، وأمسكناهم بأيدينا، ومع هذا كنا مسرورين لأن نكون بدونها، ولولا فضل خطة روح القدس، والاعدادات التي تمت من قبل ببناء الحاجز الدفاعي الذي أقيم من أجل مصالحنا، لكانت مياه البحر قد تلاقت مع مياه النهر، وجرفت نحو الأعداء الرجال مع الحيوانات، والسفن مع الأسلحة وميرة الأطعمة، وفي وسط هذه المخاطر، كانت هناك على كل حال أربع سفن شيدت عليها قلاع من أجل الاستيلاء على المدينة ، ولم تتمكن هذه السفن من النجاة ، فبوساطة هجوم واحد حملن مع سفينة كانت قد وقعت في وسطهن ، وتم سوقهن إلى الشاطىء المقابل بقوة الرياح ، وهناك أحرقن أمام أعيننا بالنار الاغريقية . ووفر الرب جهود الفريزيين والألمان الذين بوساطتهم تم الاستيلاء على البرج ، أما السفن المحملة اللائي كن واقفات في ميناء البحر فقد فقدن عندما تقطعت فجأة حبالهن ، واستمرت هذه العاصفة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وعندما انتهى هذا فإن الرب « الذي يعزينا في كل ضيقنا .انتهر الرياح والبحر فصار هدو عظيم . ووقف البحر عن هيجانه » (متى : ٨/ ٢٦، كورنثه ٢/ ١/ ٤/، يونان : ١/ ١٥)

الفصل العشرون

الى جانب هذا أصيب عدد كبير من الجيش بأحد الأمراض الذي

- ١٩٩٩ -

عجز الأطباء عن ايجاد علاج له في براعاتهم ، وهاجم وجع مفاجىء الأقدام والأرجل ، وغطى بالوقت نفسه جلد فاسد اللثة والأسنان ، مزيلاً القدرة على المضغ ، وغطى سواد مخيف الذقون ، وهكذا بحكم المعاناة الطويلة من المرض المنتشر ، مضى كثيرون الى الرب مع كثير من الآلام ، وعاش بعضهم حتى الربيع . ونجوا، وجاءت نجاتهم بفضل ازدياد الحرارة .

الفصل الحادي والعشرون

وبعد المعاناة المتقدمة الذكر ، استعدت السفن لعبور النهر ، وأما الذين كانوا عرضة لمخاطر عظيمة فيما بين المدينة والبرج المستولى عليه ، فقد أعاقتهم كثيراً النار الاغريقية والنشاب ، ولقد حدث أن إحدى سفن الداوية (٧١) انتزعها التيار العنيف وحملها الى الجانب الأقرب من المدينة نحو الأعداء ، الذين هاجموها بالجروخ والكلاليب الحديدية ، وقذفوها بالنار الاغريقية وبالحجارة من الأبراج في الأعلى ، وبما أنهم لم يحققوا السيطرة بسبب شجاعة المدافعين عنها تسلقوا عليها بكل حماس ، ورموا بأنفسهم مباشرة فيها ، وإنقضوا على الداوية وبعد قتال طويل خرقت السفينة أخيراً (لا نعرف أتم ذلك بوساطة الأعداء أم بوساطة رجالنا) ومضت نحو الأعماق مغرقة المصريين والصليبيين وهكذا بصعوبة بالغة ظهر رأس الصاري فوق وجه الماء ، ومثلما فعل شمشون حيث «كان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته »(القضاة : ١٦/ ٣٠) فعل هؤلاء الشهداء حيث جرّوا معهم إلى أعماق المياه أكثر من الذين كان بإمكانهم قتلهم بالسيف ، وبكى أهل دمياط وناحوا من أجل نصرهم الدموي لقرابة سبعة أيام ، وبعد هذا بينما كانوا يرممون الجسر تركوا فتحة صغيرة ، وهكذا لم يعد بإمكان سفننا الذهاب من

دون خطر، لكن الألمان والفريزيون امتلأوا بالحماس وبغضب مسوغ ، فقاموا وليس معهم من عون سوى عون السماء، فقاتلوا برجولة الجسر بوساطة السفينة الصغيرة ، التي بعونها تم الاستيلاء على البرج ، والتي يدعوها الغاليون « الأم المقدسة » ، وتسلق أقل من عشرة رجال من الأمة المتقدمة الذكر الجسر، في وجه جميع المقاومة الصادرة عن المصريين ، وكان هناك حشد كبير من الصليبيين يراقبون ما يحدث ، ويمتدحون جرأتهم ويثنون عليها ، ودمروه ، ودمروا معه السفن الأربع التي أقيم فوقها الجسر، وعادوا منتصرين ، تاركين الطريق حراً ومفتوحاً من أجل السفن التي كانت تبحر صعوداً.

الفصل الثاني والعشرون

وعندما تم انجاز هذا كله ، قام المسلمون وهم ينتظرون الخطر الذي يهددهم بتحصين طرف النهر المواجه لنا بالسواتر الدفاعية المدعومة بما يشبه الملاط والطين وقطع خشب جاهزة ، وأقاموا المجانيق والعرادات هناك وبذلك انتزعوا منا الأمل بالعبور من ذلك المكان ، وكذلك عملوا عند القلعة التي كانت على قرابة ميل من المدينة ، حيث انتهت جميع التحصينات الجديدة ، فقد أغرقوا عبر النهر كله سفناً وغرسوا أعمدة في أماكن الدوامات ، ومع هذا فإن نائب الكرسي الرسولي ، الذي كانت لديه رغبة جيدة في محاصرة المدينة ، قام بحث السفن للاجتماع على مسافة من هناك للقيام بالعبور، وكانت السفن محصنة ومقواه بالدفاعات وبالحصون وكذلك بالرجال المسلحين وذلك مع الغلايين والسفن الأخرى ، وكان المسيح قائدهم أثناء العبور، فنجوا من السفن المغرقة المشار اليها أعلاه ، ولكن العدو تظاهر بالخوف ومع ذلك مركز ثلاثة أرتال من الرجال في مواجهة صفوف سفننا : وكان أول الأرتال من الجنود

الـرجالـة واقفاً على الشـاطىء ، ومع رجالـه ترسـة من النوع الـذين يـدعونـه الدرابيء ، وقـد تمركـز وا على شكـل صفوف ، ووقف الثـاني من خلفهم مثل الرتل الأول،وتألف الرتل الثالث من الخيـالة،وكان رتلاً طـويلاً ونحيفـا،وهـدد صفوف الصليبيين بـوسـاطـة زخات من الحجـارة وبأسلحة أخرى.

يضـاف الى هذا أنـه في ليلة الاحتفـال بعيد القـديسه أغـاثا، العـذراء والشهيـدة(٥ شبـاط ١٢١٩) عنـدمـا اجتمع النـاس من المؤمنين الـذين كانوا سيعبرون في اليـوم التالي،أضافت الأمطار والـرياح الكثير من الرعب والمصـاعب لـرجـالنـا،لكن«الـرب أمين» و«لن يـدعكـم تمتحنـون فـوق ماتستطيعون»(كـورنثه : ١/ ١٠/ ١٣) ، وهكذا نظر الى معسكـر عبيده ، فحول الى يسر وسرور أشيـاء أخرى كانت لأدنى الأسبـاب صعبة أو غير ممكنة ، وجدد روائع قوتـه ، فبعد منتصف الليل ألقى رعباً هائلاً في قلب سلطـان مصر وضبـاطه ، الى درجـة أنهم تخلـوا عن المعسكـر بشكل كـان غير معروف حتى بالنسبـة للمصريين الذين تـولى صفهم من أجل المقـاومـة ، ووضعـوا آمـالهم في الفـرار فقـط ، وقـام أحـد المرتـدين ، الذي كـان قد خـرق القـانون المسيحي لبعض الـوقت ، وقـاتل الى جانب السلطـان ، بالـوقـوف على طرف النهـر ورفع صوتـه صـارخاً بـالفرنسيـة :« لماذا أنتم متأخـرون ؟ لماذا أنتم خائفـون ؟ لماذا أنتم مترددون ؟ لقد ذهب السلطان بعيداً» ، وبعـدما قال هذا طلب أن يعاد الى احدى السفن ، فبوضعه تحت سلطانهم يمكنه أن يبرهن على صحة كلماتـه ، وبناء عليـه في الفجر البـاكر ، عنـدما بـدأ قداس يـوم العيـد بغنـاء المسيحيين للكلمات التـاليـة :« دعـونـا جميعـاً نبتهج » تمّ إعـلام النـائب الـرسـولي والملك مع الآخـرين ، وهكـذا مع فـرار المصريين عبر رجـالنا بحماس وسرعـة بدون عـوائق من جهة العـدو وبدون إراقة للدماء .

لكن أرض الأعداء كانت موحلة جداً ومن الصعب النزول عليها وبسبب عمق المياه سيقت الخيول من دون سروج أو ركاب ، ومع ذلك لاقت صعوبة بالغة بالوقوف ، ثم إن قادة الداوية الذين تمكنوا من امتطاء الخيول ، رفعوا أعلامهم ، وبادروا مسرعين نحو المدينة بزحف سريع وألقوا أرضاً الأشرار الذين قدموا بكل جرأة من الأبواب لمقاومة الذين كانوا يتقدمون :« فالفأس لن تفتخر على القاطع بها ، كذلك لن يتكبر المنشار على مردده » (إشعيا : ١٠/ ١٥) ، فبأي شيء سوف نعادل هذه المعجزة أو نقارنها إلاّ بما نقرأ عنه فيما يتعلق بابن حدد ملك سورية الذي حاصر السامرة (انظر الملوك : ٢/ ٦/ ٢٤) ،وأنهكها كثيراً ، فبعث اليه الرب رعباً جعله يهرب من معسكره ، وكما أن فرار السوريين قد أعلن للسامرة بوساطة المجذومين الذين كانوا عند مدخل البوابة ، كذلك جاء الاعلان عن فرار المصريين بوساطة واحد كان مصاباً بالجذام في روحه، وأعني به المرتد السالف الذكر ، ومثلما جمع شعب السامرة الأسلاب التي تركت في معسكر السوريين كذلك فعل جيشنا فنهب الخيام واستولى على غنائم الذين كانوا يفرون ، واستولى المنتصرون على كثير من الدرابيء وعلى جميع الغلايين ، مع البراكيس وبقية السفن التي وجدوها تحت القلعة بعيداً حتى المدينة ، مع أسلاب أخرى، وكان عدد كبير من المحاربين قد تركوا زوجاتهم وأولادهم ، وهربوا من دمياط ، لاستيلاء الرعب عليهم بسبب الجواز غير المتوقع ، وحوصرت المدينة بإحكام وطوقت ، لأن الجيش قد اجتمعت عناصره بوساطة إعداد جسر كان يلامس طرفي النهر .

الفصل الثالث والعشرون

وحدث أنه من خلال الكسل والتراخي من قبل الذين الرب

يعرف أسماءهم أن المعظم (عيسى بن العادل) وصل ومعه رجال حلب وحشد كبير، وتجدد نشاط الأعداء واستردوا شجاعتهم ، فاستولوا على المكان (٣ — أيار) الذي عبر منه رجالنا عبوراً اعجازياًوهكذا فيما نحن نحاصر المدينة لقد تولوا حصارنا بشكل أعظم خطراً ، ولولا توفر إلهام رباني جعل المعسكر الأول الذي كان قائماً فيمابين البحر والنهر ، يحافظ عليه من قبل الألمان ، وخاصة من قبل الفريزيين ، لتم الاستيلاء على الميناء مع انتزاعه منا وبذلك كان العمل سيتعرض كله الى خطر عظيم ، وسوف يتعطل ، ولكن حتى تغدو معجزة العبور أكثر شهرة ومن أجل أن تعزى من دون أدنى تردد الى المسيح وحده ، وصل المسلمون الى درجة التهور، عند صباح السبت قبل Oculi meic semper الأحد (٩ آذار) ، ولأننا لم نتوقع مثل هذا الخطر ، فقد اقتربوا أكثر مع حشد عظيم ، وضغطوا علينا حتى الدفاعات ، لكن بوساطة العون الرباني أمكن صدهم وردهم الى الخلف ، مع خسائر بالخيالة وبالجنود الرجالة .

الفصل الرابع والعشرون

في سنة النعمة لـ ١٢١٩ ، هدمت القدس ، ملكة المدن ، والتي بدت بحصانتها أنها لا ترام ، هدمت من الداخل ومن الخارج من قبل المعظم عيسى ابن سيف الدين (١٩ — آذار أو ٢٥) ، وتحولت أسوارها وأبرجتها الى أكوام من الحجارة باستثناء المسجد الأقصى وبرج داود ، وتشاور المسلمون حول تدمير الضريح المقدس الرائع ، وهددوا بهذا من خلال رسائل بعثوا بها الى سكان دمياط لطمأنتهم وتسكينهم، لكن ما من أحد أقدم على مدّ يده الى مثل هذا العمل الجريء ، بسبب تبجيل المكان ، لأنه حسبما كتب في القرآن ، الذي هو كتاب شريعتهم ، هم يعتقدون أن يسوع المسيح إلهنا قد حملت

به العـذراء مريم وولـد منها ، وأكـدوا أنه عـاش من دون ذنب كنبي وأكدوا بكل اصرار أنه أعطى النظر للأعمى ، والشفاء للمجذوم وأقام الميت ، وهم لا ينكـرون كلمـة الله وروحـه ، وأنـه صعد وهـو حي الى السماء ، لكنهم ينكـرون آلامه ومـوتـه ، وأن الطبيعة الـلاهـوتية متحـدة أيضاً بالطبيعة الناسوتيـة في المسيح ، ومثل هذا هم لا يعترفون بثالوث الأشخـاص ، وبناء عليـه ينبغي دعـوتهم هراطقـة ، وليس مسلمين ، ولكن استخـدام الأسم الـزائف هـو الذي انتشر وسـاد ، ولهذا في أيـام الهدنة ، عندما ذهب عقلاؤهم الى القـدس ، طلبوا مشاهدة نسخ من الأناجيل ، وقبلوا هذه النسخ وبجلـوها بسبب نقاء الشريعة التي بشر بها المسيح ، ولاسيما انجيل لوقـا لأنه جـاء فيه : « أرسل جبرائيل الملاك » (لـوقـا : ١/٢٦) ، الأمـر الـذي غـالبـاً مـا ردده المتعلمـون منهم ، وتـذكروه في أذهـانهم ، ... وشريعتهم التي أعطاهـا محمد (صلى اللـه عليه وسلـم) الى المسلمين قد كتبت بـالعربيـة ، وقد بدأت بـالسيف ، وقامت وحـوفظ عليها بـالسيف ولسوف تنتهي بـالسيف، ولم يكن النبي محمد (صلى اللـه عليه وسلم) نفسه متعلماً ، حسبما أوضح ذلك في قـرآنه ..... (تكملة هذا الفصل وقوامها خمسـة أسطر بشعة ، فيها حقد وجهل فاضح . وليس فيها ما يفيد لذلك آثرت عدم ترجمتها).

الفصل الخامس والعشرون

في يوم أحد السعف ، من السنة السـالفة الذكر (٣١ — آذار) ، قام أعداؤنا بكثير من التهـديدات ، وقالوا بأنهم سـوف يدمرون أنفسهم أو يـدمـروننا جميعـاً في يـوم واحـد ، وجمعوا جيشـاً لا يعـد ولا يحصى من الجنـود الفرسـان والرجـالة الـذين لا يعرفـون الخوف وانقضوا علينـا ، وهاجموا سـواترنا الدفـاعية من جميع الجهات ، ولا سيما جسر الـداوية ، ودوق النمسا ، الذي كان متحمساً للـدفاع مع الألمان ، وقام العدو ،

مع نخبة من الجنود ، بالقفز من فوق ظهور خيولهم وتحاربوا بقسوة مع الصليبيين ، وركزوا جهودهم على هذا الجانب وسقط عدد كبير قتلى وجرحى ، وأخيراً تسلقوا الجسر وأحرقوا شطراً منه ، ولدى التخلي عن الجسر ومغادرته أعطى دوق النمسا أمراً الى رجاله أن عليهم اعطاء فرصة للاقتراب مع مدخل لهؤلاء الذين كانوا يضغطون علينا ، لكنهم لم يتجرأوا على الدخول بسبب جيشنا الذي عبأ صفوفه لتكون عوناً للذين يتولون الدفاع عن التحصينات ، وقامت النساء بدون خوف بجلب الماء والحجارة والخمرة والخبز الى المقاتلين ، وثابر الكهنة على صلواتهم ، وتولوا تضميد جراحات الجرحى ومباركتهم ، ولم نعط الفرصة في ذلك اليوم لحمل سعف النخل ، بل حملنا القسي العقارة ، والقسي العادية والسهام والحراب ، والسيوف ، والترسة ، ولقد قاتلونا بعنف منقطع النظير وضيقوا الخناق علينا من شروق الشمس حتى قرابة الساعة العاشرة ، والمهم ، أن أولئك الذين قدموا لتدميرنا مع الرغبة في تحرير المدينة تراجعوا أخيراً منهكين مع خسائر عظيمة .

الفصل السادس والعشرون

لم يكن حلول عبور الربيع قريباً ، وكان دوق النمسا ناوياً على الانسحاب ، فهو الذي قاتل لمدة سنة ونصف السنة بإيمان خالص من أجل المسيح ، وكان مليئاً بالمشاعر الدينية ، ومتواضعاً ، ومطيعاً وكريماً، فبالاضافة الى جميع النفقات التي لا تحصى التي تحملها أثناء الحرب ومن خلال المساعدات الفردية ، من المعتقد أنه منح بيت التيوتون ستة آلاف مارك فضي أو أكثر ، من أجل الحصول على أرض، وأعطى من أجل الحصن الجديد العائد للداوية خمسين ماركاً ذهبياً ، ولهذا الحصن أعطى أيضاً إيرل أوف تشستر (٧٢) خمسين ماركاً

فضياً من أجل تقوية أسواره وأبراجه .

الفصل السابع والعشرون

بدأ في أول أيار حشد كبير من الحجاج بالانسحاب ، تاركيننا في الخطر العظيم،لكن أبانا اللطيف والرحيم ، وقائدنا وآمرنا ورفيقنا في السلاح يسوع المسيح الذي هو « وقاء ودفاع للمحتمين به ، لأنه سهل عليه الانقاذ إما بكثرة أو بقلة ». (المزامير ١٨/ ٣١ ، الملوك ١٤/ ٦) لم يأذن لغير المؤمنين بالانقضاض علينا حتى وصول الحجاج الجدد الحاليين مع وفرة من المساعدات ، والميرة والمؤن والخيول التي بعثت بوساطة قوة سماوية لسرور حشد المؤمنين ، وبناء عليه في عيد صعود الرب (١٦ أيار) عندما تجدد تعداد جنود المسيح ، الأعداء الذين لا يوثق بهم ، انقضوا علينا وفقاً لعاداتهم براً وبحراً ، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على السيطرة ، مع أنهم قاموا بعدد كبير من المحاولات ، قاموا بتحدي رجالنا ، خاصة قرب المعسكر ، حيث تكبدوا خسائر وألحقوا بنا خسائر ، وفي يوم ٣١ تموز تقدموا ومعهم جميع القوات التي أمكنهم حشدها ، وبعد عدد من الحملات ، عبروا أخيراً السواتر الدفاعية في مواجهة لجيش الداوية، وخرقوا بعنف شديد الحواجز ، وأرغموا جنودنا الرجالة على الفرار ، الى درجة أن جيش الصليبيين كله بات في خطر عظيم ، وحاول فرسان فرنسا وجنودها ثلاث مرات ردهم الى ما وراء السواتر الدفاعية ، غير أنهم لم يكن بإمكانهم فعل ذلك ، وبعدما تمكن المسلمون من تدمير دفاعاتنا الخشبية ، مركزوا صفوفاً من الخيالة والجنود الرجالة داخل أسوارنا ، وارتفعت أصواتهم وهم يسخرون منا، وأعد الحشد كله عتاده وما لديه ، فقد سيطر الرعب بعمق على الصليبيين ، غير أن الروح التي جاءت الى جدعون شجعت الداوية ،

فقد قام مقدم الداوية مع مقدمي بقية الفرسان الذين كانوا موجودين ، بهجوم من خلال واحد من الممرات الضيقة ، وتمكنوا برجولة من إرغام غير المؤمنين على الفرار ، وعندما رأى فرسان بيت التيوتون والكونتات والفرسان الآخرون من مختلف الأمم ، أن جيش الداوية كان في وضع خطر ، بادروا مسرعين لتقديم العون من خلال ممرات توفرت أمامهم ، وهكذا ألقى رجالة المسلمين ترستهم وقتلوا فيما عدا الذين فروا دونما توقف فانتزعوا أنفسهم من براثن قتلتهم ، ومضى جنودنا الرجالة خلف فرساننا ، وتراجع العدو الى مسافة قصيرة ، وظلت أرتالهم المسلحة ثابتة هنا وهناك حتى حلول المساء وانتشار الظلام ، فذلك وضع حداً للقتال ، وكان المسلمون هم أول من تراجع وأوقف القتال ، وظلت أجساد القتلى ممددة بتعاسة ومبعثرة قرب دفاعاتنا بأعداد كبيرة ، باستثناء الذين أصابتهم جراح خطيرة أو خفيفة وأعيدوا الى المعسكر ، وهكذا أنقذ الرب في ذلك اليوم الذين وضعوا أملهم فيه من خلال شجاعة الداوية والذين عملوا متعاونين معهم ، والذين كرسوا أنفسهم للصراع ، وكان عدد قليل من رجالنا قد قتلوا ووقعوا بالأسر.

الفصل الثامن والعشرون

واحترقت جميع الآلات التي أعدت ضد المدينة خلال الغارات التي جاءت من كثير من الجوانب وقام بها المدافعون عن دمياط ، وأكد البيازنة والجنويون والبنادقة (٧٣) وأصروا على الهجوم على المدينة باستخدام أربعة سفن علقت عليها السلالم :« إلا أنهم لم يكونوا من نسب أولئك الرجال الذين أوتوا خلاص اسرائيل على أيديهم » (المكابيون : ٥/٢/٦٢) ، ذلك أنهم رغبوا في صنع اسم وسمعة لأنفسهم فتقدموا نحو الأمام ومعهم الأبواق ومزامير

القصب وكثير من الرايات ، وزودهم نائب الكرسي الرسولي بكميات كبيرة من الأموال من الخزانة العامة ، وصنع الملك مع الآخرين كميات وافرة من الحبال والمراسي والكلاليب توقعاً لأن يحتاجوهم ، وهكذا هاجموا المدينة وقتلوا وجرحوا الكثيرين من اليوم الأول ، وغالباً ما قاموا بهجمات بعد هذا ، وفي الوقت نفسه تمت تقوية الأسوار بأبراج خشبية وبأسيجة ، وقاوم المدافعون المهاجمين بنشاط متزايد وبشدة أعظم ، وهكذا تعرضت السلالم للأذى بالنيران مراراً عدة ، ثم أعيد ترميمها ، وأخيراً ألقيت بالقوة على الضفة ، وباتت المحاولة محبطة وبلا ثمار ، وبات واضحاً ومفهوماً بأنه بالقوة الالهية وحدها يمكن أن تؤول دمياط الى أيدي الصليبيين.

الفصل التاسع والعشرون

لكننا نحن الذين بلا شعور وبلا عقل أو منطق لندرك منافع أفعال الرب التي قام بها وروعتها «أغلظنا عيني مجده المقدس» (أشعيا : ٣/ ٨) : وجعلناهما ضدنا من خلال تراخي قادتنا وشكاوى الأتباع ، فقد وجه الجنود الرجالة اللوم الى جبن الفرسان ، كما واستخف الفرسان بمخاطرات الجنود الرجالة عندما زحفوا ضد المسلمين ، وبناء عليه حدث في يوم عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان (٢٩ — آب) ، وذنوبنا العامة تتولى حثنا وتحريضنا إنه لم يعد هناك بالكاد أحد رغب بالبقاء محبوساً في المعسكر ولهذا قدنا متقدمين جيشًا برياً وبحرياً وزحفنا نريد معسكر المصريين بين البحر والنهر ، حيث لم تتوفر هناك مياه عذبة للشرب ، واستولينا على خيامهم ، وتظاهروا بالفرار ، وعندما زحف رجالنا الى نقطة كان واضحاً منها أن خصومنا لا يرغبون في مواجهتنا في اشتباك مكشوف بدأ رجالنا نقاشاً مديداً حول هل عليهم التقدم أم التراجع ، وانقسمت الآراء

والمشاعر فيما بينهم ، وفي الوقت نفسه تفرقت الأرتال باستثناء مجموعة ربطتهم طاعتهم بالنظام العسكري ،وأظهر فرسان قبرص (٧٤)، الذين كانوا على الأجنحة اليمنى جبنهم للمسلمين لأنهم لم يقوموا بالهجوم من جانبهم ، وهرب الجنود الايطاليون الرجالة أولاً ، وتلاهم الفرسان العائدون الى مختلف الأمم وكذلك بعض فرسان الاسبتارية ، وذلك في حين قام نائب الكرسي الروماني والبطريرك الذي كان يحمل الصليب المقدس فترجوهما بإخلاص وأمانة للوقوف في مكانهم ، لكن عبثاً كان ، وكانت حرارة الشمس مرتفعة جداً ، وكان الجنود الرجالة مثقلون بأوزان دروعهم وأسلحتهم ، وزادت متاعب الطريق الحرارة ، والذين جلبوا معهم خمرة شربوها دونما مزج بالماء بسبب ضغط العطش الشديد عليهم ،ولانعدام الماء، وبينما كانت هذه الأشياء تحدث ، حدث في الوقت نفسه للذين كانوا يدافعون عن أنفسهم ، لدى وقوفهم حيث هم ، وإدارتهم ظهورهم للذين هربوا أولاً وظلوا يركضون وهم منقطعي الأنفاس حتى زالوا من الوجود ، لقد حدث لهؤلاء أنهم تهاووا دون الإصابة بجراح ، لكن الملك صمد في وجه حملة المطاردين ، ومعه الداوية ، وفرسان بيت التيوتون وفرسان اسبتارية القديس يوحنا وكونتات : هولاندا ، وويد ، وساربروكن وتشستر ، مع وولتر أوف بيرثوت Berth-out(٧٥) وعدة كونتات من فرنسا وبيزا ، مع فرسان آخرين ، وكاد الملك أن يحترق بالنار الاغريقية ، وعمل هؤلاء الرجالة بمثابة حماة للذين يفرون ، وغالباً عندما كانوا يبدون وجوههم للأعداء ، كان الأعداء يفرون ، لكن مع تراجعهم التدريجي توجب على هؤلاء الرجال تحمل ضربات أسلحة الأعداء

ووقع في الأسر أثناء الدفاع من الجانب الصليبي : الأسقف المنتخب لبوفياس (٧٦) مع أخيه (٧٧) الحاجب الأعظم لفرنسا مع ابنه (٧٨) ،

وفيز كونت أوف بلمونت Belmont (٧٩) مع أخيه أسقف أنغر Angers، وجون أوف أركي ، وكان نبيلاًورجلاً نشيطاً (٨٠) ، وهنري أوف أولمن (٨١) uelmen وعدد كبير آخر كانوا قد قتلوا أثناء الأسر ، ووقع في الأسر ثلاثة وثلاثين من الداوية أو قتلوا مع مقدم اسبتارية القديس يوحنا (٨٢)مع عدد كبير آخر من الفرسان من التنظيم نفسه ، كما أن بيت التيوتون لم ينج من دون خسائر ، وكان جيش الداوية الذي اعتاد على أن يكون الأول في الاحتشاد، هو الأخير في التراجع ، وبناء عليه عندما وصل أخيراً في تراجعه الى دفاعاتنا توقف خارجها حتى يتمكن من جلب الذين كانوا ما يزالون أمام هذه الدفاعات الى ما ورائها ، أي الى داخل الأسوار إذا كان ذلك ممكناً ، وأخيراً عاد الذين كانوا يطاردوننا ليتولوا قيادة أسراهم وليجمعوا أسلابهم ، وعرضوا — كما علمنا فيما بعد من المسلمين — أمام السلطان خمسمائة رأس من رؤوس القتلى الصليبيين ، واستولى الحزن والأسى على رجالنا ، لكنهم لم يقنطوا ، لأننا علمنا أن هذه الانتكاسة جاءت عقوبة على ذنوبنا ، وأنه كان هناك تخفيف بالعقوبة أقل مما تستحقه الأخطاء التي اقترفناها ، ذلك أنه هو الذي يلطف العقوبات ، فهو الذي خاطب روح المذنبة بقوله :« أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين لكن ارجعي إليّ يقول الرب » (ارميا : ٣/ ١) ، وكان من الواضح بالنسبة لنا أن المسلمين عانوا من خسائر كبيرة داخل نخبة جيشهم ، فذلك اليوم كان «يوم شدة وتأديب واهانة ربانية » (الملوك : ٢/ ١٩/ ٣) ، وحقاً إن الرب رحيم فهو « الذي لا ينسى في إظهار الرحمة ، وغضبه لن يغلق رحمته ، فهو الذي في أوقات المحنة يغفر الذنوب ، وهو الذي يأمر النور بإنارة الظلام ، ويحوّل حزننا الى بهجة » (مزامير: ٧٦/ ٩. طوبيا : ٣/ ١٣، كورنثه : ٢/ ٤/ ٦ . استير: ١٣/ ١٧) ،ذلك أن السلطان بعث بواحد من أسرانا للبحث معنا

فيما يتعلق بالسلام أو بالهدنة ، واستطعنا في أثناء المباحثات أن نرمم دفاعاتنا مع بقية التحصينات .

الفصل الثلاثون

وفي الوقت نفسه كان البحارة الذين تولوا خيانة الصليبين ، معهم عدد كبير جداً من الحجاج الذين أحبوا أنفسهم أكثر من التعاطف مع أخوانهم كانوا قد تخلوا عن عساكر المسيح وهم في وضع خطر جداً ، قبل الوقت المعتاد للعبور، ورفعوا أشرعة سفنهم، وغادروا الميناء ، وبذلك سببوا الاحباط لنا ، وتشجيعاً للمصريين .

وقام المصريون بقطع الإعدادات من أجل السلام عشية عيد القديسين كوزماسcosmas وداميان Damian،وفي يوم العيد التالي(٢٦— ٢٨ أيلول)،لابل حتى يوم السبت التالي، جاءوا مع غلايين وبراكيس فوق النهر،ومعهم مجانيق،وترسة،وجذوع أشجار من أجل طم الخندق وتسويته بالأرض،وهاجمونا وفق طرائقهم الشرسة والعنيفة،لكن المقاتل الجبار«المنتصر في اسرائيل»(الملوك:١/ ١٥/ ٢٩)استخدم لطفه المعتاد، فدافع عن معسكره،بارسال سافاري أوف (٨٣) موليون Savary of mauleon بوساطة البحر مع غلايينه المسلحة وعدد كبير جداً من المقاتلين،وقد وصل وقت الأزمة والشدة،وكنا نصرخ الى السماء،فلم يتردد بالاندفاع نحو القتال ،بل وقف برجولة على أرضنا،وحافظ على موقفنا،فقتل،وأرغم العدو بعد ماألحق به الجراحات وسبب له الفوضى،على الانسحاب والتخلي عما كسبه في ثلاثة أيام من القتال،وكان هذا بفضل قوته،فهو الذي ينقذ الذين يثقون به.

-٢٠١٢-

الفصل الحادي والثلاثون

وفي الوقت نفسه كانت المدينة من قبل قد تأثرت كثيراً بالحصار الطويل وبالسيف،وبالمجاعة،وبالوباء،وكانت الأحوال أشد ممايمكن وصفه وكتابته،ووضعت أملها فقط في السلام الذي كان السلطان قد وعد به السكان،لأن المجاعة ازدادت فيها الى درجة عالية،وانعدمت فيها الأطعمة المحتاجه،مع أن الأطعمة الفاسدة كانت فيها كثيرة ووفيرة، لأن القمح في مصر لايعمر طويلاً،بسبب نعومة الأرض التي ينمو فيها، فيما عدا الأراضي حول القاهرة،حيث كان يحفظ هناك ببراعة لسنوات، وحسبما سمعنا أن تينة واحدة بيعت في دمياط مقابل إحدى عشرة قطعة نقدية،وبسبب ضغط المجاعة هددت أنواع متعددة من الأمراض السكان، وبين الأمراض والمصائب التي عانوا منها—حسبما قيل—أنهم لم يعودوا يبصرون شيئاً أثناء الليل،وكأنهم أصيبوا بالعمى،مع أن أعينهم كانت مفتوحة،وحثهم السلطان على عدم الاستسلام،وخدع هؤلاء الناس التعساء من يوم الى آخر بوعود فارغة،وأغلقوا— على كل حال— أبوابهم من الداخل من أجل أن لايأتي أحد إلينا من بين صفوفهم،فيخبرنا كيف أنزلت بهم الأيام المصاعب والى أي حد كانوا يعانون منها،لكن من الواضح أن الذين كان بامكانهم النجاة بوساطة الأبواب الجانبية،أو من خلال التدلي من الأسوار بوساطة الحبال،بينوا بكل وضوح الأحوال المأساوية لقومهم عن طريق أوضاع أجسادهم المتورمة ومظاهر الجوع عليها،وبدأت موارد الخبز والأطعمة بالتلاشي حتى بين الذين كانوا يحاصروننا من الخارج في جيش المسلمين،لأن النيل، يفيض بالعادة من بعد عيد القديس يوحنا المعمدان(٢٤حزيران) حتى عيد تمجيد الصليب المقدس(١٤—ايلول)ولكن لم يصل ارتفاع النيل الآن الى المقاس الذي يضعه المصريون بالعادة،وبالتالي لم يتم ري سهول مصر هذه السنة

حسب المعتاد،ولهذا السبب بقيت أجزاء كبيرة من البلاد جافة ،وبذلك لم يكن بالامكان فلاحتها أو حصدها في الأوقات المناسبة،ولهذا فإن السلطان الذي خشي من القحط والمجاعة عرض على الصليبيين صلحاً بوساطة أخيه المعظم عيسى، ذلك أنه فعل ذلك رغبة منه بالابقاء على دمياط، وكانت الشروط التي عرضها:أنه سوف يعيد الصليب المقدس،الذي جرى الاستيلاء عليه من قبل أثناء انتصار صلاح الدين،وذلك مع المدينة المقدسة وجميع الأسرى الذين يمكن ايجادهم على قيد الحياة في أرجاء مملكته في مصر والشام،وأيضاً تقديم المال للقيام بترميم أسوار القدس،وبالاضافة الى هذا كان على استعداد لإعادة مملكة القدس بأجمعها، باستثناء الكرك والشوبك،ولسوف يدفع مقابل تملكها جزية طوال قيام الهدنة.

وكان هناك موضعين قائمين في العربية،احتويا على سبعة حصون قوية جداً،من خلالهم يعبر بالعادة تجار المسلمين والحجاج الذاهبين الى مكة أو العائدين منها،والذي يتملك هذه المواضع يمكنه بكل جدية تسبيب الأذى للقدس مع حقولها وكرومها، وأن يفعل بها كما يريد ويرغب،واعتقد الملك مع الفرنسيين وكونت أوف تشستر مع قادة الألمان،بحزم أن هذه الترتيبات كانت لصالح الصليبيين،وينبغي أن لانعجب تجاه هذا،ذلك أنهم كانوا سيرضون بالصلح الذي كان أدنى أهمية وفائدة وهو الذي عرض من قبل،لولا أنهم عورضوا بالآراء الحكيمة،وبفعالية وحزم عارض النائب البابوي مع البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة ،والداوية، والاسبتارية،وجميع القادة الايطاليين(٨٤)،وعدد كبير آخر من حكماء الرجال، عارضوا هذه الترتيبات،وأظهروا بشكل منطقي أن دمياط ينبغي الاستيلاء عليها قبل كل شيء،وأنتج الخلاف بالرأي انشقاقاً مالبث أن وضع حد له،وتمت تسويته بسبب الحاجة العامة،وأرسل في الوقت نفسه السلطان بشكل

سري حشداً كبيراً من الجنود الرجّالة من خلال الأماكن السبخة الى المدينة ليلة الأحد بعد عيد جميع القديسين(٢—٣ تشرين الثاني) وهاجم مائتان وأربعون منهم الأسيجة بينما كان الصليبيون نياماً،لكن صراخ الخفراء أيقظهم،وقتل— حسبما أحصينا نحن— منهم حوالي المائتين أو أكثر أو وقعوا بالأسر.

الفصل الثاني والثلاثون

في الخامس من تشرين الثاني،وفي ظل حكم مخلص العالم،ومع بيلاغوس،أسقف ألبانو،وهو ينفذ بحماسة ويقظة عمله كنائب للكرسي الرسولي،جرى الاستيلاء على دمياط،بدون مقاومة،ودون أن تسلب بعنف،وبدون فوضى وضجة،وهكذا ينبغي أن يعزى النصر الى ابن الرب وحده،الذي ألهم شعبه ودلهم على مدخل مصر وتولى رعاية عونه هناك، وعندما جرى الاستيلاء على المدينة أمام أعين ملك مصر،لم يتجرأ حسبما كانت عادته على الهجوم من خلال دفاعاتنا على جنود المسيح الذين كانوا مستعدين للهجوم، وفاض النهر بالوقت نفسه وملأ خندقنا بماء وفير،وقام السلطان نفسه وهو في حالة من الفوضى والاضطراب باحراق معسكره والفرار،والرب الذي جمع المياه كلها في اليوم الثالث تحت قبة السماء في مكان واحد،هو نفسه الذي جلب جنوده بوساطة مياه البحر الى ميناء دمياط في اليوم الثالث من شهر شباط،وهونفسه الذي استولى على دمياط،القائمة وسط المياه في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني.

ويمكننا تشبيه هذه المدينة،التي قهرت بالهزة الثالثة للأرض،بثور محطم،ولقد دعوناها«ثوراً» بسبب ترفها وعنفوانها،ومن أجل أسماكها وطيورها،ومراعيها،وقمحها،وحدائقها وبساتينها،فلقد ازدادت ثروة بالتجارة وبممارسة القرصنة،ولقد فاضت بجرائمها وابتهجت،نعم لقد

فاضت في جهنم، «لأنــه في ساعـة واحـدة جاءت دينــونتك»(رؤيـا يـوحنا:١٨/ ١٠) ونحن نقـول جاء« خـرابها» لأن سكانها هلكـوا في الهزة الثالثة للأرض،ومع ذلك بقيت هي دونها أذى بنفسها،فلقد حوصرت أولاً من قبل الاغـريق والـلاتين الذين غـادروهـا وابتعـدوا عنها،ثم حـوصرت ثـانية من قبل الـلاتين تحت قيـادة عمـوري،ملك القدس،الـذي لم يحقق النجـــــاح،لكن في المرة الثـــــالثــــــة:«ملك الملــــــوك ورب الأرباب»(الرؤيا:١٩/ ١٦)أعطاها الى عبيده،وكان يسوع المسيح هو الذي انتصر،وحكم وأمـر،«وهـو الذي بـالنسبـة للمصريين أيبس كل شيء زرع بـالماء... وأخزاهم في كـل ماعملـوه بـالكتان والـذهب،والكتـان الممشط لحياكـة الملابس الرفيعة»(اشعيـا:١٩/ ٧—٩)، وهكذا قـاتل جند المسيح دمياط،فوجدوا شوارعها مغطاة بجثث الموتى،الذين هلكوا بسبب الأوبئة والمجـاعـة،ووجـدوا كثيراً جـداً من الـذهب والفضـة،وكـانت الأقمشـة الحريرية العـائدة للتجار بكميات وفيرة،وكان هنـاك عدداً كبيراً من مخازن البضــائع المليئـة بمختلـف الأنـواع،وبــالاضــافــة الى الموقع الطبيعي للمكان،والذي كـانت محصنة به،كانت المدينة محاطة بسـور ثلاثي ومحمية بقوة بوسـاطة عدد كبير من الأبراج الآجريـة،وهي المفتاح لمصر كلها، وهي محمية بشكل جيـد لـوقــوعهـا فيها بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيسين(Gessen(٨٥وذلك حسبما تمكنـا من استخـلاصـه،لأن هنـاك تقوم المراعي التي طلبها بنـو اسرائيل من الفرعون في أيام المجـاعة(انظر التكوين:٤٧).

الفصل الثالث والثلاثون

دميـاط،مشهــورة بين المماليك،وهي مشهـورة جــداً في مجد مصر،فهي الحاكمـة للبحر،والنـاهبـة للصليبيين،لقـد جرى الاستيـلاء عليك،لفخـار مضطهـديـك، بــوســاطــة عــدد قليل من الســلالم الصغيرة،وأنت

الآن«متواضعة تحت يد الرب القوية»(بطرس:١/ ٥/ ٦)،ورميت بعيداً الزاني الذي احتفظت به لوقت طويل،ولقد عدت الى زوجك السالف،وأنت التي ولدت أولاد زنا أولاً سوف تلدين الآن أولاداً لصالح الايمان بابن الرب،لأنك غدوت في القبضة القوية للمؤمنين بالمسيح،وحرر أسقف عكا(جاك دي فيتري)فيك الثمرات الأولى من الأرواح من أجل الرب،بقيامه بتطهير صغارك في ماء المعمودية الطاهر،وهم الذين عثر عليهم فيك أحياء بقوته،مع أنهم كانوا أقرب الى الموت، ولقد كنت عرضة لأضعاف مضاعفة من العقوبات،لأنه الى جانب الذين أخذوا أحياء فيك،بلغ تعداد موتاك من كلا الجنسين من بداية الحصار حوالي الثلاثين ألفاً وأكثر،فالرب هو الذي رماهم وأماتهم بدون سيف ولانار،وأصبحت منذ الآن فصاعداً تسخرين من تحمل الدنس الذي اقترف فيك.

الفصل الرابع والثلاثون

وبناءً عليه لتبتهج الكنيسة بعودة الأعمال الجديدة بالشكر من أجل مثل هذا النصر، وليس ذلك فقط من أجل دمياط، وإنما أيضاً من أجل تدمير قلعة جبل الطور الخطرة، ولنيلنا ممراً حراً إلى القدس، التي من الممكن إعادة بناء أسوارها في الوقت الذي يراه الرب العالي، وإلى جانب هذا قلعة ابن الرب، التي يتولى جيش الداوية في ظل نفقة عظيمة جعلها مفيدة ولاترام، وهي التي كتبنا من قبل حولها كثيراً، ابتهجي يامقاطعة كولون، وافرحي وقدمي الشكر، لأنك أعطيت من السفن، ومن آلات الحرب، ومن المحاربين ومن الأسلحة، ومن الميرة والأموال، والمعونات، أكثر مما أعطته بقية مملكة ألمانيا، هذا وشعبنا شعب الرب، متشوق كثيراً وبانتظار امبراطورنا اللامع مع ملك صقلية حتى يحققا بسرور الالتحاق بالمخاطرة، أما أنت ياكولون يا مدينة القديسين، الذين يقيمون في

حـدائق وورود الشهـداء، وليلـك العـزراوات، وبنفسج المعترفين، ابتهجي الآن بـالسـلام الزمني الـذي تمّ نيلـه بـوسـاطة رئيس أسـاقفتنـا المبجل، وبسبب إيمان واخـلاص بنـاتك، واركعي بقلبك أمـام الرب في الأعـالي، الذي لـديه قوة الحيـاة والموت: «ولا تستكبري في ذهنك بل خافي أمـامه، وزكي طـريقك أمـامـه خشيـة أن عظيم غضب الـرب الـذي انسكب عليك». (روما: ٢/ ٢٠. أيوب: ١٣/ ١٥. أخبار الأيام: ٢/ ٣٤/ ٢١) أن يتحـول إلى بـردلكن..... بما أن أوقـات السـلام قـد منحـت منـذ وقت طويل، تعبدي بعقل متفتح الذي له الشرف والمجد، والجبروت والقوة.

الفصل الخامس والثلاثون

قبل الاستيلاء على دمياط استرعى انتبـاهنا كتاب كتب بالعـربية، قال فيه مصنفـة أنه لم يكن لايهوديـاً ولامسيحياً ولامسلما، ومهما كان هـو، لقد تنبأ بـالشرور التي أنزلها صلاح الـدين بوحشيـة على الشعب الصليبي، في تدميره لطبريـة، وفي نصره على الصليبيين عندما أخـذ ملك القدس أسيراً ومعه أمـرائه، واحتل المدينة المقـدسة، وهـدم عسقلان، وتنبأ أيضـاً كيف أنـه حـاول الاستيـلاء على صـور غير أنـه لم ينجح، وأشيـاء أخـرى كثيرة استحقتهـا ذنوب ذلك الحين، وتنبأ أيضـاً بدمـار حدائق وبسـاتين نخيل مدينة دمياط، الأمر الذي رأينـاه يتحقق، عندما تفحصنا هذا الكتاب من خـلال المترجم، ولقد أضـاف بأن دمياط سـوف يتم الاستيلاء عليهـا من قبل الصليبيين، وهو لم يستخـدم اسم صلاح الـدين، لكنه أشـار إليه من خلال عينيه السوداوتين وراياته الصفـراء، يضاف إلى هذا لقد تنبأ بواحد من الملـوك من مسيحيي النوبـة (بـرسترجون الـذي سيأتي ذكره فيما بعـد بالتفصيل) سوف يتولى هدم مدينـة مكة، ولسوف يفرق عظام النبي محمد (صلى الله عليـه وسلم) مع أشياء أخـرى لم تحدث بعـد، لكنها ستكـون، وعنـدما ستتحقق سـوف يـؤدي ذلك إلى بهجة المسيحيـة وذل المسلمين،

ونحن نعرف أن بعض الكفار من الشعوب يمتلكون روح قدس على شفاههم، لكن ليس في قلوبهم، ولقد تنبأوا بشكل مكشوف حول المسيح، ولهذا نحن لسنا مندهشين إذا ماتدفق الماء من خلال الأقنية الحجرية.

إلى جانب هذا انتشرت تقارير في جميع أنحاء العالم تحدثت عن الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين، وكان هذا هو السبب في ارسال رسالة من الجورجيين (الكرج) إلى معسكر الجاثليق، وقالت الرسالة بأن تلك الأمة غاضبة وتشعر بالعار وثائرة لذلك، وقررت وأقسمت الأيمان أنه ماأن يتمكن الملك من اقناع القادة، حتى سيتولون حصار احدى مدن المسلمين الشهيرة، وأعلنوا أنهم يشعرون بالعار لأن الفرنجة جاءوا من مناطق نائية عبر البحر، ومن أقصى حدود الأرض، عبر محيط مليء بالمخاطر، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة حصينة جداً بعد طول حصار، ولسوف يظلون يشعرون بالعار ومالم يقوموا هم أنفسهم بالاستيلاء على دمشق أو مكان محدد آخر بقوة أسلحتهم، ذلك أنه أسهل عليهم من الفرنجة مهاجمة العدو وقتاله، ويؤمن الجورجيون الآن بالمسيح، وهم جيران للفرس، تفصلهم عن أرض الميعاد امتدادات واسعة من الأرض، وتمتد مملكتهم حتى جبال قزوين، التي محبوس فيها عشر قبائل، تنتظر موعد ظهور المسيح الدجال، فوقتها سوف يتدفقون نحو الأمام ويسببون الكثير من الخراب، والجورجيون شعب محارب، ويضع رجال الدين منهم على رؤوسهم قلنسوات مستديرة، أما قلنسوات غير رجال الدين فمربعة، ونساؤهم من ذوي الأصل الرفيع قد تدربن على القتال، وعندما يمضي الجورجيون إلى قتال الأعداء في صفوف منتظمة يشرب كل واحد منهم قرعة صغيرة مملوءة بالخمرة الصرفة، ووقتها يقاتلون خصومهم بشجاعة.

ولاريب لدينا أننا بين المحظين من قبل المسيح حامينا، فقد دافع عن قادتنا وحماهم من القتلة من بين صفوف أعدائنا أثناء حصار دمياط، لأن

الحشيشية ومقدمهم «شيخ الجبل» اعتادوا على رمي خناجرهم ضد الصليبيين، لوضع حد لحياة الذين يهتمون منهم بمصالح المسيحيين وأعمالهم، فقد حدث في أيام الهدنة أنهم قتلوا بشكل متعمد (ريموند بن بوهيموند الرابع) كونت طرابلس، الذي كان شاباً جيداً، حيث مدد أمام المذبح في كنيسة العذراء المباركة في طرطوس، وبناءً عليه قام جيش الداوية بمطاردتهم بدون توقف وبعنف ديني كبير، حتى تذللوا إلى حد العبودية ووعدوا بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثة آلاف دينار إلى الداوية.

الفصل السادس والثلاثون

في أيام الحصار، توفي ليون ملك أرمينيا في سن متقدم، ومثله توفي سلطان قونية،ومن المعتقد أنه كان قد تعمد، وكان لذلك لطيفاً جداً نحو المسيحيين، حتى أنه في أثناء مشاركته في الحروب ضدبعض المسلمين كان يأمر باطلاق سراح المسيحيين الذين كان يجدهم في الأغلال داخل الحصون التي كان يتولى مهاجمتها، وكان يعطيهم حق الخيار بالعودة إلى بلدانهم، وذلك إذا مارغبوا، أو بتسلم المال منه، ومن ثم المشاركة في الحروب تحت قيادته إذا مافضلوا ذلك، وكانت علاقاته وطيدة بالمسيحيين إلى حد أنه اتخذ منهم حرسه الشخصي، مع أن والده كان قد قتل من قبل لاسكارس الاغريقي، كما أنه ساند الأفضل علي الابن المخلوع لصلاح الدين ضد أبناء سيف الدين، وذلك بقدر ماسمح خليفة بغداد الذي كان بمثابة البابا لقومه.

وألحق الملك الأشرف بن سيف الدين خسائر كثيرة بالداوية عندما كانوا يحاصرون دمياط، فهو قد أحرق بلدة صافيتا، ودمر أبراجها المحصنة، لكنه عندما عاد إلى أراضيه هزم من قبل المسلمين، وفي الوقت نفسه، هاجم بوهيموند كونت طرابلس بشدة وعنف مدينة انطاكية،

وطرد منها روبين، الذي كان واحداً من أقربائه، وخلعه من حكم المدينة (٨٦)، وفضل بالحري التمتع بالذنب الدنيوي على التعاون مع الشعب المسيحي، ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي رسمياً باعلان الحكم عليه بالحرمان الكنسي، وبتطبيق ذلك ضده وضد طرابلس والأراضي التي اقترف فيها جريمته.

الفصل السابع والثلاثون

«قد كسر الرب عصا الأشرار قضيب المتسلطين. فعله المرهب نحو بني آدم» (اشعيا: ١٤/ ٥. المزامير: ٧٤ / ١٧؛ ٦٥/ ٥) فهو الذي فتح بقوته أبواب دمياط، عندما كنا داخلين إليها، وهناك واجهتنا رائحة رهيبة، ومنظر تعيس، فقد قتل الأموات الأحياء، لقد قتل الرجل زوجته، والأب ابنه، والسيد عبده لقد قتل كل واحد منهم الآخر برائحته، ولم تكن الشوارع وحدها مليئة بالموتى، لكن البيوت أيضاً، ففي غرف النوم، وعلى الفرش تمددت جثث الموتى، وعندما كان الزوج يهلك، كانت المرأة لاتمتلك القدرة على القيام وتفتقر إلى من يقدم لها العون، لذلك كانت تموت لعدم قدرتها على تحمل الرائحة، وكان الولد إلى جانب أبيه، أو العكس صحيح، هلك بالمرض، وتمدد جثة هامدة: «الأطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم» (مراثي أرميا: ٤/ ٤) وكان الرضع معلقون على صدور أمهاتهم وأفواههم مفتوحة وهي تحتضن واحداً من الأموات، ومات الرجال الأثرياء ذوي الحساسية العظيمة من الجوع وسط أكوام من الطحين، وكانت هذه الأطعمة تفتقر إلى ماعتادوا عليه، وبصعوبة بالغة اشتهوا البطيخ والثوم، والبصل، والسمك، والطيور، وفواكه الأشجار والتوابل، وفيهم تحققت نبوءه النبي بقوله: «فيكون عوض الطيب عفونة، كجثة مدوسة متعفنة لاتتحد بهم في القبر» (اشعيا: ٣/ ٢٤؛ ١٤/ ١٩ — ٢٠)، ولقد هلك في المدينة قرابة الثمانين ألفاً،

وذلك حسبما عرفنا من تقارير الأسرى، وكان ذلك من بداية الحصار حتى نهايته، وذلك باستثناء الذين وجدناهم أصحاء أو مرضى، وكان تعدادهم حوالي الثلاثة آلاف، وثلاثمائة من هؤلاء كانوا هم الأكثر تميزاً بين كلا الجنسين، وقد جرى الاحتفاظ بهم من أجل فداء أسرانا، وقد مات بعضهم بعد النصر وجرى بيع آخرين بأسعار مرتفعة، وقسم آخر جرى تعميده واعطائه للمسيح.

الفصل الثامن والثلاثون

وكانت هذه المدينة محصنة إلى درجة عالية، حيث امتلكت سوراً أولياً لحماية الخندق، ثم سوراً ثانياً أعلى، ثم سوراً ثالثاً أعلى من الثاني، وامتلك السور الثاني ثمانية وعشرين برجاً رئيسياً واحتوى كل برج منها من ساترتين إلى ثلاثه سواتر للرماة، وقد بقيت جميعها صحيحة بدون أذى مع الأسوار، فيما عدا واحدة انشطرت بشكل واضح بسبب الرمايات المستمرة التي صدرت عن منجنيق دوق النمسا، ذلك أن جيشنا استسلم للكسل والتراخي حتى أن الفرسان كرسوا أنفسهم للمتعة مهملين عمل الرب، بينما انصرف عامة الناس إلى الحانات، وإلى التعامل بالخداع والحيل، وتمت صناعة سنورين أنفق عليهما مبالغ كبيرة من أجل طم الخندق، وأوكل أمر إحداهن إلى الملك، ووضعت الثانية تحت رعاية الرومان، وقد أحرقتا، عندما كان المدافعون عن المدينة مايزالون أقوياء وقادرين على استخدام السلاح، وجرى حفر نفقين تحت الأرض من أجل لغم أساسات التحصينات، لكن ذلك العمل أعيق بعدما كلف كثيراً، فقد رغب الرب في إعطاء المدينة بلا أذى، وبدون خسارة الذين يستولون عليها، وكان هذا بسبب قوته، وأقسمنا نحن بشكل جماعي على أن الأسلاب التي ستحمل من المدينة ينبغي أن تقسم بين المنتصرين، وأضيف إلى هذا تحريم مهيب من قبل نائب الكرسي

الـرسولي، والمعتـدون سوف يظلـون ينظـر إليهم بـازدراء دائم مع عخـان الذي أخـذ عند أريحا شيئـاً مما كـان محرماً، وفي الحقيقـة جعل شره العين كثيراً من الرجـال لصوصاً، ومع هذا تلقينـا لصالح الدولـة وتسلمنا جزءاً كبيراً مـن منتجات مصر الثمينـة مـن ذهـب وفضة ولآلىء، وتفـاح العنبر، وخيوط ذهبية، ومختلفة أنواع الشراريب وأقمشة حريرية ثمينة، مثلما عدّد أشعيا وأحصى بقوله: «ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلـة. والحلـق والآساور والبراقـع، والعصـائب والسـلاسل والمنـاطـق وحناجـر الشمامات والأحراز. والخواتم وخـزائم الأنف. والثياب المزخـرفة والعطـف والأرديـة والأكيـاس. والمرائي والقمصـان والعمائم والأزر» (أشعيـا: ٣/١٨ — ٢٣)، والأشيـاء التي أخـذت لايمكـن لإنسـان أن يحصيها كاملة، ونحـن نبدد وقتاً طويلاً في تقديرهـا، ووزعت هذه الأشياء وسط جيش الرب مع القمح الذي وجد في المدينة.

الفصل التاسع والثلاثون

ألحق نائب الكرسي الـرسولي دمياط، مع كل ماهـو متعلق بها بمملكة القدس إلى الأبد، وجرى تحويل مسجد دميـاط من خلال تضرع الثالوث المقـدس الذي لايعـرف الانقسام، إلى كنيسـة كرسـت على اسم العـذراء مريم المباركـة والرائعة، وبما أنه بني على شكل رباعي، كـان بإمكاننا أن نرى أن عمقه يسـاوي تقريباً طوله، وهو محمـول على مائة وواحد وأربعين عموداً رخاميـاً، وقد امتلك سبعة أروقة، وهنـاك في الوسط ساحـة طويلة وعريضة مكشـوفة، فيها هرم لـه في أعلاه شكل قبة مفتـوحة، وفي الطرف الغربي هناك برج قـائم على شكل الأبراج التي تحمل النواقيـس، وقد بني فيه أربعـة مذابـح، وحمل المذبح الأول اسـم مريـم المباركـة، وحمل الثاني اسـم بطـرس أمير الحواريين، وحمل الثالـث اسم الصليـب المقدس، وحمل الرابـع اسم بارثلميو المبـارك، الذي جرى يوم عيـده الاستيلاء على البرج

القائم وسط النهر.

ووجدنا في دمياط أربعة مجانيق مع عرادات وعدد كبير من المجانيق العادية، وآلات قاذفة قوية جداً مع مخرطة، وبسبب تعداد الحشد الكبير لم نعرف عدد العرادات والأقواس، فقد كان هناك كل نوع من أنواع المعدات للرجال الشجعان، قد وجد محفوظاً من أجل الصليبيين، ولم يقسم الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء السهلة النقل على شكل حصص فقط بين رجال الدين والفرسان، بل بين الخدم، والنساء والأطفال، وجرى توزيع أبراج المدينة مع بيوتها بين الممالك التي احتشد مقاتلوها من أجل الاستيلاء عليها، واحتفظ في المقام الأول بأحد الأبراج، بحكم الواجب واللياقة، لصالح الكنيسة الرومانية مع بابه الذي كان يدعى من قبل باب القاهرة، غير أنه بات يعرف الآن باسم باب الرومان، واحتفظ ببرج آخر لصالح رئيس أساقفة دمياط، ومثلما حدث من قبل حيث جرى الاستيلاء على القدس، المدينة المقدسة للرب الحي، من قبل الأعداء في الليل، هكذا أيضاً استولى الصليبيون على دمياط قبل الفجر، أما بالنسبة للآلة التي تمّ بوساطتها الاستيلاء على برج النهر فقد كرسها الألمان والفريزيون لصالح الجميع، ومنها تمت إقامة جسر جديد بين المدينة والحصن الذي بني كدفاع على ضفة النهر المواجهة للمدينة، وجرى وضع حصنين صغيرين مع بعضهما لحماية البرج، بوساطة الآلة نفسها، وإلى جانب هذا أقيم من الأشجار الأخرى التي علقت عليها السلالم، مكان مراقبة على ذروة حصن جديد، من أجل تبيان مكان الميناء للذين كانوا يأتون مبحرين من مسافة بعيدة، وكان هناك جسر قديم، أمكنه بوساطة جزيرة قائمة في الوسط، من ملامسة كلا الضفتين، وقد هوجم مرات عدة من قبل المسلمين أيام الحصار، وتمت المدافعة عنه برجولة من قبل الصليبيين، أما الآن وقد قام بما توجب عليه، فقد احتفظ به لاستخدامات أخرى.

- ٢٠٢٤ -

الفصل الأربعون

بمعجزة لم تكن أبداً أدنى، بل بالحري أعظم من سواها، أعطى الرب إلى الصليبيين حصن تنيس، في شهر تشرين الثاني، في يوم عيد كليمنت المبارك، (٢٣ — تشرين الثاني)، وكان هذا الحصن قائماً على البحر، فقد جرى إرسال كشافة كان عددهم قرابة الألف بوساطة سفن صغيرة، خلال نهر صغير يدعى نهر تنيس، وذلك بقصد أن يجلبوا ميرة لأنفسهم من القلحة، وليقوموا بكل عناية بتفحص الموقع المشار إليه، ورأى المسلمون الذين كانوا في حامية الحصن، الصليبيين فخيل إليهم أن الجيش كله قد جاء، لذلك فروا بعدما أغلقوا الأبواب، أما رجالنا الذين كان المسيح هو قائدهم الوحيد هناك، فقد شقوا طريقهم بين الحواجز، ودخلوا إلى الحصن، وبعد عودتهم أعلنوا لنا أنهم لم يشهدوا قط حصناً قام على سهل أقوى منه، فقد امتلك سبعة أبراج قوية جداً، محصنة بشرافات وطلاقات، يضاف إلى هذا أنه كان محاطاً بخندق مضاعف، كل قسم منه كان محمياً بوساطة سور، وكان هناك بحيرة تمتد بشكل عريض حول تلك المنطقة إلى حد تجعل من غير الممكن بالنسبة لخيّالتنا الوصول في الشتاء، وصعب جداً في الصيف، أي أنه كان من المستحيل بالنسبة لجيشنا الاستيلاء على هذا الحصن بوساطة الحصار، وحوت البحيرة وفرة من الأسماك، وكان يدفع من صائدي سمكها كل سنة أربعة آلاف مارك فضي إلى السلطان في القاهرة، وذلك حسبما جرى إخبارنا من قبل الشيوخ، يضاف إلى هذا، كانت هناك وفرة وفيرة من الطيور، وأعمال لاستخراج الملح، وعدد من القرى المحصنة منتشرة هناك تابعة لهذا الحصن، وكانت المدينة خلف الحصن، أكبر من دمياط، وكانت من قبل مشهورة، لكنها الآن مخربة، في ثناياها شهادة على حجم أبنيتها، فهذه هي تنيس التي ذكر النبي حقلها بقوله: « قدام آبائهم صنع

أعجوبة» [المزامير: ٧٨/ ١٢] وقول اشعيا: « إن رؤساء تنيس حكماء مشيرى فرعون» [اشعيا: ١٩/ ١١/]، فهذه هي تنيس التي قيل بأن إرميا قد رمي بالحجارة فيها، لأنه عندما دمرت القدس من قبل البابليين [ارميا: ٥٢] وجرى قتل جدليا من قبل اسماعيل [ارميا: ٤١] ذهبت بقية الناس إلى مصر في معارضة لرأي إرميا، وأخذوا معهم إرميا الذي مكث في تنيس معهم: « وصارت كلمة الرب إلى إرميا في تنيس قائلة: خذ بيدك حجارة واطمرها في الملاط في الملبن الذي عند باب بيت فرعون» الخ.[إرميا: ٤٣/ ٨—٩] وقال إرميا بعد هذا لهم: « قال الرب: هاأنذا قد حلفت باسمي العظيم... فيفنى كل رجال يهوذا الذين في أرض مصر بالسيف والجوع حتى يتلاشوا»[إرميا: ٤٤/ ٢٦ — ٢٧]، وثار الشعب ضد إرميا، ورموه بالحجارة التي كانت مخبأة تحت الجدار الآجري، لكن المصريين شرفوا النبي ودفنوه خلف قبور ملوكهم، ذلك أنهم كانوا مقدرين للمنافع التي أظهرها لمصر، لأنه بكلماته أبعد حيوانات الماء التي يطلق عليها الاغريق اسم التماسيح، ثم كان أن جاء الاسكندر المقدوني إلى قبر هذا النبي، وتعرف عليه من خلال الطبيعية الخاصة

للمكان،والأسرار المحيطة به،ونقله الى الاسكندرية،ودفنه هناك وسط تمجيد عظيم،هذا ولقد وجدنا تماسيح في دمياط وقتلناها،وهذا الحيوان متوحش يفترس الناس والحيوانات،ويعتني ببيضه ببساطة بمراقبتهم بأعين مفتوحة،وما أن يفقس صغيرها حتى يفر من أبويه وكأنهم عدوين،ذلك أنه يلتهم على الفور ويفترس أي شيء يمكنه امساكه.

وتنفصل تنيس عن دمياط بمقدار رحلة يوم واحد عبر البحر باتجاه أرض المعياد،لذلك من السهل وضع حامية عسكرية هناك أو إرسال طعام إليها من عكا أو من دمياط عبر البحر،أو عبر البر أو بوساطة النهر،وقد سببت الحاق خسائر عظيمة بالصليبيين أثناء حصار دمياط،عندما كانت السفن تأتي إلينا،أو تبتعد عنا محمولة بقوة

الـرياح،لأن الشـاطىء أمـام تنيـس منحني وبـدون ميناء،عامـلاً بذلـك خليجاً كـاملاً واسعـاً،وعندمـا كانـت السفن تقـذف إليه كـان لايمكنها الانسحاب من دون هبوب رياح موافقة جداً لهم.

الفصل الحادي والاربعون

وعاد المعظم عيسى من مصر الى فلسطين،فتولى حصار قيسـارية، التي كانت تحت وصاية الملك،واستـولى عليها في وقت قصير ودمرها،بينما عمل المدافعـون عنها بـإهمال،ومع هـذا فقد نجـا معظمهـم لأنه تـوفر لـديهم مدخـل حر ومخرج عبر البحـر،ثم سـار بعد هـذا الى قلعة ابـن الرب(تـل الصافية) ومعه جميع جيشه،وطوقها مـن جميع الجهات،ثم أدرك بذكاء أنه لايمكنه الاستيلاء عليهـا،يضاف الى هذا،لقد وجد الـداوية على استعداد لمواجهـة كل خطـر،ذلك أنهم كـانوا قـد أمدوا المعسكـر بالميرة وبجميـع المعدات التـي يحتاجها الـرجال الشجعان،وبـالوقـت نفسه صد الـداوية بشجاعة عصـابات المسلمين من عكا،بقتل بعضهم وأسر آخـرين،وطلب المعظـم عيسـى المسـاعدات مـن المسلمين،حتـى اذا جـاءوا مـن الشرق يمكنهم حصـار عكا، وهـذا أمر لم يكن يمكـن انجازه بسبـب الخلافات المستمرة بين أمـراء تلك البـلاد أنفسهم، وهـذه الخلافات كـانت مفيـدة جـداً للصليبيين،وهي خـلافـات بـذل الخليفة—وهـو بـابـاهـم—جهـده لإنهائها.

الفصل الثاني والأربعون

في سنة ١٢٢٠ للتجسيد في العالم،قام أمير دمشـق بتدمير صافيتا،(٨٧) وكانـت صافيتا هـذه أقوى الحصون التي يمتلكهـا الداوية،وكـان صلاح الديـن مدمر الصليبيين الأول قـد أوصلها أثنـاء حصاره لها الى حالـة من

الضعف بحيث أن المدافعين هلكوا من الجوع،وقد حصلوا على أذن مقدم جيش الداوية بالقيام بتسليمها الى هذا الطاغية،وأي صوت وأي لسان يمكنه أن يكرر لنا منافع مخلصنا المتراكمة من أجلنا؟ وهي منافع صادرة عنه هو الذي امتلك الجودة والرحمة الطبيعية،وكذلك الاستمرار في مساعدة الكنيسة،فقد اقتنع بأن ينظر بعين لطيفة نحو معسكر المؤمنين،بسبب حلاوة تقواهم وإيمانهم، فالتضرع يلطفه،والدموع تجبره، وكيف يمكن ليد كاتب أو لسان متكلم أن يكون كافياً بالنسبة له،لأن مدحه هو شعور مستقر في القلب تماماً،ومع ذلك هو لايكفي؟ وعلى كل حال إنه لأمر ممتع أن نجمع،وأن نعجب بالمعجزات التي صنعت في وقت قصير من قبل الذي نزل من أبي الضياء،وكان بنو اسرائيل قريبين،يتجولون مع تابوت الرب وهم يضربون بالأبواق ويصرخون،وفي اليوم السابع تهاوت أسوار أريحا، وهكذا كان بامكان شعب الرب أن يمتلك مدخلاً حراً،لكننا نمنا أمام دمياط واستولى علينا الجبن والاهمال،وجلسنا بلا حراك وتراخينا وأسلمنا أنفسنا للكسل،ومع ذلك سقطت أسوار القدس،وأسوار جبل الطور،وصافيتا والتحصينات الأخرى المضادة،والقائمة بطريقة معادية،يضاف الى هذا أن الرب في عليين،أعطانا دمياط،ضد ارادة بعض المسيحيين المزيفين، والى هذا أضاف من مخزن كرمه حصن تنيس الذي لايرام، مع موارد مؤنه الموجودة في البلاد المعادية ، فهو الذي أنزل المن من السماء على المؤمنين به في الصحراء، ولهذا واضح للجميع،من خلال برهان المعجزة أن هذا الحج المقدس قد حظي برضا الرب وقبوله،وليصب بالخجل والخزي الذين تسلموا جوائز الملك الأعظم من كنيسته،وقاموا بالقتال بلا مبالاة،أو تراجعوا قبل الوقت المحدد،فأفسدوا حجهم،فهم سوف يقدمون حساباً الى القاضي الذي لايمكن أن يغش أو يرتشي،وعلى الكسالى القيام والنهوض،وأعني هنا الذين لم ينفذوا تعهداتهم بعد،لأنه«شرك للانسان أن يلغو قائلاً مقدس وبعد النذر يسأل» (الأمثال:٢٠/ ٢٥)فما هو

التسويغ الـذي ...رف يقدمه يـوم الحساب والويل هـذا للذي سرق جهد الآخريـن وعملهم،وقتل النفـوس التي أعطـاها دعاة الحق الحيـاة،والذي اهتم بشرهه،وانتزع شارة الصليب مـن على أكتاف التعساء،الذين جعلهم يحنثون بعهودهم؟ وعليهم أن يعودوا الى الحكمـة هؤلاء الذين اتهموا بهذه الجريمة،وأدينـت ضمائرهم،لأنهم ادعـوا زيفاً أسبابـاً للفقر والعجز،فقد خـدعـوا ديـن الـذيـن امتحنـوا،فقـط لأن حكـم الـرب يكـون تبعـاً للصـدق،لكن الـذين التهمـوا المساعـدات التـي جمعت مـن أجل عـون الأرض المقدسة،سوف يهلكون وسيكـون نصيبهم مع حنانيا وسفيرا(أعمال الرسـل:٥/ ٩)لأنهم أخفوا ذنـوبهم بالكـذب أمام روح القـدس، ولسوف يكـونـون أيضـاً مـع يهوذا،أعظـم اللصـوص شراً،وهـو الخائن للـرب، وسيعاقبـون في جهنم،لأنهم مـع خيانتهـم للمسيحية،احتفظـوا لأنفسهم بـأعطيات الـرجـال المقـاتلين،وأعطوا نفـوسهـم لأشيـاء زائلة، وجعلهـم الجشع يسرقـون،ناسين أمنا القـدس،الممددة على الأرض،وكلها رغبـة بأن تنهض مـن أسرها بيـد المصريين العائديـن الآن،كوني مطمئنـة« يامـدينة الـرب» لأن أممـا سـوف تـأتي إليـك مـن أمـاكـن نـائيـة،وهـي تحمـل الأعطيـات،ولسوف تعبـد هذه الأمـم الـرب فيك،وسـوف يلعنون الـذي يزدريـك،وسوف يـدينون الـذين دنسـوك،فالمبـاركون سـوف يبنوك حتـى تبتهجي،وأنت لسوف تبتهجي،بأولادك،ومبـارك كل الذين يحبوك،ولسوف يبتهجون بسلامك.

الفصل الثالث والأربعون

وحدث أثنـاء تبدل السنة عندما ينطلـق الملك بـالعادة الى الحرب،أن جـون ملــك القـدس غــادر معسكـر المؤمنين(٨٨)،واخترع الكثير مــن الأسباب ليسـوغ عمله،ووعد بعودة سريعـة،لكنه كان ناسيـاً للماضي،وقد تحول نحو المستقبـل،وعندما فتـح المولى يده وملأ مينـاء دمياط بوفـرة من

القمح،والخمرة،والزيت،وعندما أضيف لنا أعداد كبيرة من مجموعات الحجاج والخيول،ولم يعد هناك أرضية لتقديم الأعذار من أجل الانطلاق نحو العمل الذي بدأ هكذا بسرور ، ووصل في العبور السادس رئيس أساقفة ميلان(٨٩)وكريت،وأساقفة فينزا(٩٠)Faenza ورغيو(٩١)،ورسل من عند الملك فردريك،يحملون رسائل عليها أختام ذهبية،وهي تعلن عن وصوله،وحضر هناك أسقف بريسشيا(٩٢)Brescia ،وجيش كبير جداً من ايطاليا،ورأى النائب البابوي أنه بفضل امتيازات النعمة العظيمة والوفرة الربانية بات كل شيء كافياً للقيام بإجراءات المناقشات حسب المتطلبات،وأصيب بالحزن والاسف لأن الوقت كان يمر بدون فائدة،وأن فرصة عظيمة جداً قد ضاعت وبناء عليه،استدعى القادة الى الاجتماع، وكان هو أول المتحدثين،ومن بعده رئيس أساقفة ميلان،وكذلك مثله الأساقفة الآخرون،فلقد بذلوا جميعاً غاية الجهد للحث على القيام بزحف ضد السلطان الذي أقام معسكره على النيل، على مسافة يوم واحد من دمياط،لكن الفرسان تحدثوا ضد هذا التحريض،وجاء ذلك بعدما عقدوا اجتماعاً للمناقشة والبحث،وادعوا أن السبب الأول بالنسبة إليهم هو أن ملك القدس كان بعيداً بناء على اختياره الشخصي،وأنه لايوجد أمير آخر،الناس من مختلف الأمم على استعداد لطاعته في أن يقود شعب الرب،ولهذا اتفقوا على عدم التحرك،الأمر الذي سبب مضاعفة الشرور في المعسكر.

الفصل الرابع والأربعون

جاء في شهر تموز الكونت ماثيو أوف أبوليا(٩٣)،مع ثمانية غلايين،عاد اثنان منهم الى القرصان، وقد تم الاستيلاء عليهما لأنهما كانا يهددان المسيحيين أثناء السفر في البحر.

الفصل الخامس والأربعون

على التهورالبشري والاندفاع الطائش أن يخجل،لأنه يعتمد على قواه الخاصة أو على قوى الآخرين،ومن الواضح أنه غالباً ما كان مخزياً،ولقد ظهر هذا في قضية الكونت المتقدم الذكر،فلقد أعلن تقرير متقدم عن وصوله،وذلك بوساطة أخبار متواترة،وبما أن المناقشات كانت ستسير فقط من خلاله أعيق تقدمها بوساطة ظروف دعت الى التأخير،لكن ذكريات مثل هذا الأمل العظيم تلاشت بقوة صدمة،ولم يكن مرد المسألة الى الكونت أن الأمل لم يتحقق ويصل الى النتائج المرجوة،لأن ارادته—حسبما شهد النائب البابوي—كانت عالية،والتجهيزات التي جلبها والتي أضافها فيما بعد ظهرت أنها رائعة بالنسبة للجميع وكاملة وفقاً للمعرفة العسكرية،يضاف الى هذا أنه أقام إقامة نافعة في الجيش وموائمة لوضع جنود المسيح ،وكان بعدما وصل الى دمياط عمل النائب البابوي مشاورات وتقصى ليعرف أي الأمم كانت وقتذاك في المعسكر تمتلك الحماسة الأعظم،كما وتشاور مع الكونت ماثيو نفسه، الذي بدا بالنسبة له أن الزحف ضد ملك القاهرة هو الأكثر فائدة،ثم دعا بعد ذلك أمراء الحشد وقادته،وخاطبهم بشكل علني وحث الناس الكسالى على النهوض الى العمل والاقلاع عن التراخي والإهمال.

لكن القادة،وخاصة الفرنسيين منهم تحدثوا ضد تحريضه الشريف،وتمكنوا من التأثير على الايرل أوف أرندلArundel وأقنعوه للقيام بإعاقة اقتراح النائب البابوي وكان هذا الإيرل قائداً بين الانكليز ومن أعظم النبلاء مكانة بين الألمان،وكان من بين الأسباب التي تمسكوا بها غياب الملك جون،وغالباً ما احتجوا بذلك،فهو قد تصرف بشكل مضاد للاتفاقية التي أبرمت في عكا،عندما كان الحجاج على وشك الابحار الى مصر،فقد تعهد وقتها أنه لن يتخلى عنهم ويهجرهم مادام

حياً وحراً، وخلافاً لهذا الاتفاق المهيب والمؤكد عاد الى عكا،ولم يحضر للمشاركة في أعمال الصليبيين،بل حضّر نفسه وقام بالسفر الى أرمينيا(٩٥)،وقدقيل بأنه قصد تولي حكم تلك المنطقة،لكن أماله تبددت،ولم يستقبل من قبل بارونات أرمينيا، وحدث في الوقت نفسه أن توفيت الملكة،مع الابن الصغير للملك،كما أن روبين أمير أنطاكية،أراد أيضاً الحصول على هذه المملكة،لكن الجاثليق،وكان زعيم تلك الأمة،قام بكل قوة بحصاره في مدينة طرسوس،ثم أخذه أسيراً،وتوفي هناك،وآثر الجاثليق الآن الابنة الصغرى للملك ليون(٩٧)،التي كان أبوها قبل موته قد جعل أمراء المملكة يقسمون على الولاء لها،ثم مات بعد ذلك بوقت قصير.

الفصل السادس والأربعون

وبعدماقام النائب البابوي بعدة أعمال حث وتحريض عامة،حزن كثيراً لرؤيته جيشاً كبيرا بهذا العدد مقيم ولايريد التقدم،بل يريد العودة في عملية العبور المقبلة،وقام أخيراً بضرب مثل بعمله حيث شرع يحث الناس على الالتحاق بحاشيته وأمر بخيمته فنصبت في مكان منبسط،ومع ذلك فإن معارضة القادة هي التي سادت الى درجة أن بعض الغاليين والألمان،من المرتزقة الذين قبلوا المال منه،قاموا باعاقة خطته بالتقدم،وقد تم حرمان بعضاً منهم، وكان من المقررحرمان آخرين فيما بعدلكن هؤلاء انزعجوا واضطربوا وأرغموا على إعادة المال الذي قبضوه وقبلوه وفقاً لتوزيع الوقت،وقام الجنود الايطاليون بأمل كاذب بخداع الحماسة الدينية لدى النائب البابوي، وذلك بعدما وعدوا بتقديم العون للزحف،لكنهم كانوا مثل بني « أفرايم النازعون في القوس الرامون انقلبوا في يوم الحرب » (مزامير: ٧٨ / ٩) ، لأنهم بينما كانوا يقدرون بوضوح اصرار النائب البابوي، والجرأة الكامنة في الزحف ضد

السلطان،قاموا بالموافقة والاتفاق مع المنشقين المتقدم ذكرهم أعلاه،وعارضوا الزحف،مع أن الصليبيين لم يكونوا يعانون من نقص بوفرة الجند والأتباع،وكانت الغلايين كثيرة جداً،وجرى إعداد البراكيس، وكان هناك حشد هائل من الرماة،كما توفرت كميات كبيرة من المؤن،وكانت موضوعة هناك في مكان مناسب بين النهر من جهة اليمين والبحيرة من جهة اليسار، وكأنما الرب كان يقول لنا:« ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً؟»،ذلك أنه بالاضافة الى الأشياء الأخرى التي أمدنا بها الرب للقيام بالحملة،سمعنا من كشافتنا،أنه كان لدى ملك مصر القليل من العون،وأن حشداً كبيراً من البداة قد التحقوا بنا،وهم على استعداد لتقديم زوجاتهم وأولادهم بمثابة رهائن،اذا ماعلموا بأن الصليبيين قد قرروا القيام بالحملة برجولة،فهذا ماعلمناه من رسائلهم ومن خلال رسلهم،ويبدو أن هذا كان ممكنا لأنهم كانوا خاضعين لدفع الجزية للسلطان،وفي الحقيقة كانوا هم من قبل قد تولوا حكم ديار مصر،حتى أخضعوا بالقوة من قبل صلاح الدين،وجرى تفريقهم في خلال قفار الصحراء.

الفصل السابع والأربعون

وانسحب النائب البابوي الى المعسكر السالف،وذلك بعد كثير من المتاعب، ولأنه واجه أتباعاً غير راضين وموافقين،ثم بشكل خاص بسبب فيضان النهر،وقام بقوة بحث صانعي التأخير،وفعل ذلك من خلال قداس عام،وأعلن أن عمل الرب طالما بدأ بداية سارة ينبغي ألا ينتهي،وأن عليهم الحكم على أنفسهم خشية أن يدانوا بقسوة من قبل قاضي الأشياء السرية.

الفصل الثامن والأربعون

مـامـن أحد يمكنـه أن يصـف فسـاد جيشنـا،بعـدما أعطـانـا الـرب دمياط،وأضيف إليها حصن تنيس،فقـد بات الناس كسالى،مخنثين،تدنسوا بـأعمال المهـاجـع والسكـر والفسـق والـزنـا والسرقـة،والـربـح الشرير،وبعد(٩٨)هذا قام بعض رجالنـا بزحف يوم واحد داخل الأراضي العدوة،وعادوا ومعهـم أسرى،وجواميس، وخيول ، ثم قام الـداوية مع أتباعهـم خاصـة بزحـف سريع نحو بلـده قائمـة على شاطـىء البحر(الى الغرب من دمياط) واسمها البرلس،وجلبـوا معهم بعض الأسـلاب فيها حوالي المائة جمل،وعـدد مـع الأسرى،وخيول،وبغـال،وجـواميـس،وحمير، ومـاعـز وملابـس،مـع كثيرمـن الاثـاث المنزلي،وعـادوا دون التعـرض الى الاذى، بعد غيـاب دام يومين،وعلى كـل حال،مـات على الطريـق بسبب نقـص الماء كثيرمـن الخيـول والبغـال مـع أن الـرجـال عـادوا سالمين،واستقبلهـم فرسـان التيوتون مـع آخرين بكـل سرور، لكن عنـدما تخلفـوا وراء الـداوية(لسبـب غير معـروف تمامـاً)،قـام الفرسـان الأتـراك السريعين بهجوم عليهم عنـد البحر،وهرب الناس من الأمم مـرعوبين من حـولهم،لكـن الانكليـز والفلمنكيـون و التيـوتـون،وروبـرت أوف بلمونت(٩٩)Belmont أخذوا بالصمود بوجـه الهجوم عندما وصل المهاجمون إليهم،وتمّ أسر معلـم بيت الفرسان أنفسهم ومقدمهـم مع عدد كبير من الفرسـان ،وحوالي العشرين من الفـرسان غير الرهبان،وقتـل عدد كبير من خيـول الذين هـربوا للدفـاع عن أنفسهم، لأن رجـالنا كانـوا قد خرجـوا ليس مـن أجل القتـال بل لاستقبـال الداويـة،ولهذا كانـوا بدون رجال القسي العقارة والرماة الآخرين.

الفصل التاسع والأربعون

وصل في شهر آب الى دمياط أربعة عشر غليوناً مجهزة،وكانت مرسلة من قبل دوج البندقية(١٠٠)،الذي جلب بعض المساعدة الى الصليبيين،وسلح بالوقت نفسه ملك مصر ثلاثة وثلاثين غليوناً،سببت لنا خسائر لاتقدر،لأن رجالها استولوا على سفن التجار،مع الرجال أنفسهم،الذين كانوا جالبين ميرة الى دمياط،لابل إنهم أخذوا الحجاج أسرى،ونهبوا السفن وأحرقوها،بالاضافة الى ذلك هاجموا سفينة كبيرة كانت جالبة الكونت هنري أوف سكورنSchwerin مع نبلاء تيوتون آخرين كانوا قادمين إلينا،وعلى كل حال،لقد دافعوا عن أنفسهم برجولة، وبعدما قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من القراصنة،لحسن الحظ نجوا،مع أنهم خسروا مركباً واحداً عائد بملكيته الى بيت التيوتون،وكان هذا المركب محملاً بالشعير،وقد أتلفت النار الإغريقية هذا الشعير.

الفصل الخمسون

نحن مرغمون هنا على اقحام رواية حول مصيبة،فقد كان الكونت ديثر أوف كاتزنلنبوغن(١٠٢)Diether of katzenellenbogen، قد تركنا قبل حلول وقت العبور مع حشد كبير من الحجاج،مع أنه حُرض بشدة،وتم حثه من قبل السيد نائب البابا حتى لايقوم بركوب تلك السفينة إذا ما رغب بالذهاب الى سالونيك،بل أن يذهب في مركب أصغر مع عدد قليل من الرجال دون أن يضعف الجيش،لكنه مع قبطان السفينة وعدد كبير من الحجاج ركبوا رؤوسهم،وقاموا بالرحلة،ولهذا قام نائب الكرسي الرسولي بإنزال عقوبة الحرمان بتلك السفينة الملعونة مع جميع المبحرين عليها،وقد وقعت السفينة بين القرصان قرب

قبرص،وأحرقت،وعلى كل حال نجا الكونت من غرق السفينة،وسبح مع عدد قليل من الرجال.

الفصل الحادي والخمسين

وطلب من غلايين البنادقة والآخرين الاسراع بالاقلاع بدلاً من التأخر في ميناء دمياط،وقد ذهبوا الى رشيد ثم الى الاسكندرية بعدما عانينا من الخسائر على أيدي المسلمين وفق الطريقة التي أتينا على وصفها قبل قليل.

الفصل الثاني والخمسون

ولما علم المعظم عيسى انعدام نشاطنا،جمع جيشاً من سورية،وأكمل تدمير أسوار القدس،مدينة الرب الحي،مع أنها دمرت من قبل،ودمر الصهاريج التي كانت قد ملئت من قبل، وكان في المدينة أعمدة رخامية فحملها الى دمشق،وزحف من خلال الجبال والحقول في فلسطين فأفسد الأشجار الحاملة للفواكه والأعناب،وعرف الداوية أنه يود القيام بحصار قلعة ابن الرب،لذلك بدأوا في أعمال تهديم برج عثليت في القسم العلوي،لكنه عندما وصل الى هناك فيما بعد،دمرها وسواها بالارض وقطع أشجار الحديقة التي كانت مقامة أمامها،ثم قام أخيراً بمحاصرة القلعة مع حشد كبير من الأتراك،حيث امتدت خطوط خيمهم من النهر حتى أماكن استخراج الملح، ولقد تصرف بهذه القسوة المتناهية صدوراً عن حقيقة معرفته أن العبور السابع الذي سيكون في حوالي شهر تشرين الأول سوف يكون صغيراً،ذلك أننا كنا نعتقد أنه لن يقدم الى عوننا سوى أقل من مائة جندي مع معدات عسكرية وخيول ،لكن حشداً كبيراً من الناس من أهل عكا قدموا الى دمياط، ولقد أخرجوا من ديارهم

بسبب الحرمان الصادر عن الكنيسة،وقد سمح لقسم من هؤلاء بالعودة،وهم الذين كان فقرهم معروف بالنسبة إلينا، وعاد آخرون من دون أذن،ليزيدوا من دمارهم الذاتي،وكان هناك آخرون عادوا الى ديارهم بعدما حصلوا على الأذن من خلال الغش،وكانوا قلة هم الذين امتلكوا ميولاً عقلانية،وبالتالي بقيوا معنا في المنفى.

الفصل الثالث والخمسون

وألقى المعظم الحصار،ونظراً لأنه كان يخشى من هجوم من المعسكر،أمر بانشاء حاجز دفاعي بين الحصن وخيامه،ووضع آلة قذف،وثلاث عرادات وأربعة مجانيق،تولت مضايقة التحصينات وقتالها ليلاً ونهاراً بواسطة قذائف الآلات،ومع هذا لم يستطع زحزحة حجر واحد من مكانه في الأبراج الجديدة وفي السور الوسطي(الفصيل)،وتمكنت آلة قذف المعسكر مع عرادات ومنجنيق أقيما الى جانبها من قذف وتدمير عرادات وآلة قذف العدو، وكان زد على هذا في بيت الداوية أربعة آلاف مقاتل يتناولون الطعام يومياً،فيما عدا الذين يطعمون على حسابهم ذلك أنهم جاءوا من عكا للدفاع عنا أو لبيعنا ميرة،وطلب النائب البابوي بسرعة ملكة قبرص(١٠٣)،والصليبيين،وبارونات سورية، واستدعاهم بوساطة الرسل والرسائل، لتقديم العون لحصن الصليبيين، ونال مقدم (١٠٤) الداوية مع جيش مجرب من الداوية الأذن من النائب البابوي بالعودة إلى القلعة بسبب الحاجة الملحة، وأن يستعد للقتال مع المعظم عيسى، وجلب رجال قبرص كثيراً من الجند والمال، وكذلك أعدّ بوهيموند(١٠٥)، وصاحب بيروت(١٠٦)، وغي صاحب جبلة (١٠٧)، مع عدد آخر من البوليان أنفسهم بسرعة لتقديم العون، وعندما علم المعظم بهذا من خلال اليزك وبعض الخونة الصليبيين أصيب بالرعب، وبدناءة انسحب

من الحصار، وقد عانى من خسائر كبيرة على أيدي الذين كانوا في القلعة، وكانت خسائره في كل من الرجال والخيول، ومثله مثل رجل متفاخر وأرعن هدد بأنه سوف يستولي على القلعة بوساطة الحصار الطويل، غير أن القوة الإلهية أرغمته على التراجع بعدما أحرق معسكره، وكان ذلك في حوالي بداية تشرين الثاني.

وكان الآن عدد كبير من المدافعين عن القلعة قد أصيبوا بالجراح وقلة منهم ماتوا، علّ العلي القدير يتولى حماية بيته، الذي بني من أجل تمجيد ابن الرب، ولكراهية المسلمين، ولكن لمحبة المسيحيين، ذلك أنه خط الدفاع عن مدينة عكا، يارب اجعل حفظ الملائكة ودفاعهم فوق أسواره: « إلى انقضاء الدهر» (متى : ٢٨/ ٢٠) ذلك أننا بالفعل « نمتلك الايمان والثقة بالرب يسوع». (انظر افسوس: ٣/ ١١— ١٢) لأنه وهو الذي بدأ بتدمير أعداء الصليب مثابر على اظهار نعمته، ولسوف يتم ذلك في الوقت الذي يرضاه ويسره، فنحن الآن قد أدركنا بعض البراهين على وجود الانتقام الرباني، فلقد علمنا من كشافتنا، ثم رأينا بوضوح في ساحة القتال عدداً كبيراً من الجثث كانت مبعثرة هناك، وكان بينها جثث ثلاثة أمراء قتلوا هناك، مع مائتي مملوك، كانوا من أبرع الناس في استخدام السلاح، ولم يتوفر لدينا احصاء بعدد رماتهم مع الذين تولوا جرهم مع آلاتهم، والذين قتلوا بواسطة رماة الجروخ من رجالنا، ولم يقل تعداد هؤلاء عن الثلاثمائة، يضاف إلى هذا أنه قتل في أحد الأيام مائة وعشرين فرساً لها أثمان عالية جداً، كان بينها واحداً شري بمبلغ أربعة عشر ألف درهم، وكان السلطان الأشرف ابن العادل، سلطان حلب قد أرسله هدية إلى أحد الأمراء، يضاف إلى هذا عانى المسلمون من خسائر كثيرة أخرى بالخيول(١٠٨) وبالجمال.

الفصل الرابع والخمسون

جـرى في شهـر تشرين الثـاني، تتـويج المولى فـردريك ابن الامبراطـور هنري(١٠٩) في روما من قبل البابا هـونوريوس، وذلك وسط أبهة عظيمة للدولـة ولرجـال الدين، وبـوفاق وسـلام مع الرومـان، ثم إنـه حمل شارة الصليب، واستعد للذهـاب لمساعدة الأرض المقدسـة، وأرسل أمامه دوق بافاريـا(١١٠)، الذي وصل إلى دمياط في سنة ١٢٢١، في العبـور الثامن مع أسقف بـاسـو(١١١) Passau، ومـركيـز بـادن(١١٢) Baden ، والكونت غي أوف بريين (١١٣) Brienne ، مع نبلاء آخرين، وكان الوصول في شهـر أيار، وأوكل الامبراطور منصبه إلى هـذا القائد حتى يتولى عبور البحر شخصياً، ووقتها شرع نائب الكرسي الـرسولي في تقدير موائمة الوقت، لذلك قـام بالتباحث مع الدوق حول شـؤون الحرب، الأمر الذي من أجلـه قد بقي في مصر، وبـالإضافـة إلى الـدوق المتقدم الـذكر أثـار موضوع وجوب قيام حشـد المؤمنين بالهجوم على معسكر السلطان، وذلك قبل أن تفيض مياه النهر حسبما هي العادة، وبناء عليه وعلى خطة أعدها جميع البارونات والفـرسان وعامة الناس، بدأنـا في إعداد الخيم ونصبها في أعالي النهـر فيما وراء المعسكر، وكـان ذلك في شهر حـزيران، في يـوم عيد القديسين بطـرس وبولـس (٢٩— حزيران)، ولقـد عرفنـا من خـلال ما ذكـره أسقف بوفيـاس المنتخب والآخرين الـذين كانـوا بالأسر، وممـا رواه عـدد كبير من الناس، أنـه لـولا أن تتم اعاقـة النـائب البابـوي بـوساطـة المعارضة التي أبداهـا أولئك الذين ذكرناهـم أعلاه، ولـوجرى تنفيذ أوامره بـالـزحف ضـد السلطـان قبل أو بعـد فيضـان النهـر، لكـانـت مصر قـد سقطت وصـارت من نصيب الصليبيين، لأن قـادة مصر كـانـوا في ذلك الـوقت على خـلاف مع السلطان، وتصرف المصريـون الآن مثل راحـاب العاهـرة، التي التمست لطف الرب لشعبهـا ولها شخصياً، ولبيتهـا (انظر

يشوع:٢)، فقاموا بارسال الهدايا والأعطيات إلى اسرانا الذين لديهم في القاهرة، وترجوهم لعلهم يحصلون بوساطتهم على الرحمة على أيدي الصليبيين المنتصرين، وبدأ النائب البابوي في اليوم الثالث من عيد الرسول أوكتاف Octave (٦— تموز) صوم ثلاثة أيام، ثم إنه جمع رجال الدين والأساقفة ورؤساء الأساقفة وحمل وهو عاري الأقدام راية الصليب المخلص والحامي، في مسيرة فيها وراء دمياط إلى المعسكر القائم حيث يرتفع النهر، وعاد الملك جون في اليوم التالي إلى دمياط، جالباً معه عدداً كبيراً من الأتباع.

الفصل الخامس والخمسون

قال الرب: « أنا سوف أبدأ وأنا سوف أعمل النهاية، انتبهوا أنا سوف أعمل كلمتي، وكل من سيسمعها سوف تطن أذناه» (الملوك الأول: ٣/ ١١—١٢)، سلطاني هو في ممالك الرجال:«قائلاً رأيي يقوم وأفعل مسرتي. لأنه من مثلي ومن يحاكمني؟ لأنه ليس حكمة ولافطنة ولامشورة تجاه الرب، وإن العالم كله أمامي مثلما ترجح به كفة الميزان وكنقطة ندى تسقط على الأرض عند السحر. ثم من الذي سوف يقول لي: ما الذي صنعته، أو من الذي سوف يعارض حكمي؟ أنا أوجدت داود عبدي وبدهن قدسي مسحته» (إشعيا: ٤٦/ ١٠. ارميا: ٤٩/ ١٩. الأمثال: ٢١/ ١٠٣٠ الحكمة: ١١/ ٢٣؛ ١٢/ ١٢. المزامير: ٨٨/ ٢١)؛ وملك الهنود الذي أمرته بالانتقام للذنوب التي اقترفت بحقي، سوف ينهض ويثور ضد صاحب رأس عدد كبير من رؤوس البهائم، فله أعطيت النصر على ملك الفرس، ووضعت شطراً كبيراً من آسيا تحت قدميه، ذلك أن ملك الفرس قد ترفع كثيراً وتغطرس، وأراد أن يكون ملك آسيا، وسار ضده الملك داود، الذين قالوا عنه بأنه ابن برسترجون، وقطف منه أول ثمار النصر، ثم إنه أخضع الملوك الآخرين والممالك

لنفسه، وحسبما علمنا من تقارير انتشرت بالطول والعرض، أنه ليس هناك من قوة على الأرض يمكنها أن تقاومه، فمن المعتقد أنه المنفذ للانتقام الرباني، ومطرقة آسيا.

الفصل السادس والخمسون

في الحقيقة بعد الاستيلاء على دمياط، امتلك نائب الكرسي البابوي كتاباً كتب بالعربية، جرت قراءته بصوت مرتفع وباختصار بوساطة مترجم، وكان ذلك على مسمع من الحشود، وبعد تقديرنا لقدم تجليده وتأملنا به وبخرائطه، اكتشفنا أنه يتوجب علينا التقدم والزحف، وحمل هذا الكتاب عنوان :« كتاب كليمنت»، وقد كتب كما قيل سماعاً من شفتي أمير الرسل نفسه، من قبل كليمنت نفسه، فيما يتعلق بالوحي الذي عرفه بطرس من الرب فيما بين قيامته وصعوده، ويبدأ هذا الكتاب من خلق العالم وينتهي بإنتهاء الدنيا ، ونقرأ فيه الحلول والأراء الحكيمة فيما يتعلق بالخلاص ، وأقحمت فيه نبوءات ، بات من المؤكد أنها ظهرت مكتملة وواضحة في هذه الأيام ، مع أن بعضها يعتمد على المستقبل ، وقد قيل فيه بين أشياء أن المدينة المائية سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين مع مدينة أخرى في مصر ، وأضيف أيضاً أمر الاستيلاء على الاسكندرية ، كما أن الاستيلاء على دمشق لم يحذف ، ذلك أنها المدينة التي عذبت كثيراً وما تزال تعذب عبيد الرب ، وبالاضافة الى هذا ، ورد ذكر ملكين آخرين ، قيل بأن أحدهما سوف يأتي من الشرق ، أما الآخر فلسوف يأتي من الغرب ، الى القدس ، وذلك في السنة التي سيكون فيها عيد الفصح في الثالث من نيسان ، ويتفق هذا الكتاب في كثير من الأشياء مع الكتاب الذي ذكرناه من قبل ، وكتبت رسائل كثيرة حول انتصارات الملك داود ، وهي جميعاً تؤيد هذه النبوءة ، وذلك بالاضافة الى الحكاية

المعروفة كثيراً والمنتشرة في أوساط المسيحيين والمسلمين ، ورأينا أيضاً برهاناً على هذا أن الأسرى المسيحيين لهذا الملك قد جرى تحريرهم من قبل رسل الملك داود في بغداد ، فهؤلاء كانوا قد أخذوا أسرى أثناء حصار دمياط ، وقام ملك مصر بإرسالهم بمثابة هدايا الى الخليفة .

الفصل السابع والخمسون

في ١٧ تموز احتشد الجيش الصليبي عند فارسكور ، وهي قلعة تبعد ثلاثة أميال عن دمياط ، وبعدما تعبأ بشكل موائم في صفوف من الخيالة وأرتال من الجنود الرجالة ، زحف الجميع نحو الأمام مسرعين ، وجرى تقدير تعداد الجيش فتبين في الحقيقة أنه كان هناك اثنتي عشرة مائة مسلحين وفق الطرائق العسكرية ، وكانوا مزودين بكل التجهيزات الضرورية للقيام بالمهمة المعهودة اليهم ، ولم ندخل في الاحصاء التوركبلي مع عدد كبير آخر من الخيالة ولم نستطع التعرف الى تعداد جنود الرجالة المسلحين ، لأن عددهم كان كبيراً جداً ، وشبههم المسلمون وقارنوهم بالجراد لأنهم شغلوا منطقة واسعة من الأرض ، ونعتقد أنه احتشد هناك أربعة آلاف من الرماة ، كان من بينهم حوالي خمس وعشرون مائة مرتزقة ، وكان من الواضح أنه وجد بين الستمائة والثلاثين سفينة كبيرة وصغيرة ثلاثمائة خوذة مع ثمانية عشر غليوناً مسلحاً ، فهذا ما أمكن تعداده ، والى جانب هذا كان هناك عدداً كبيراً من مختلف أنواع المراكب والقوارب التي حملت البضائع والميرة ، وكان عدد الأعداء حسبما سمعنا من اللاجئين إلينا سبعة آلاف من الخيالة ، وكانت ترتيبات القتال كما يلي :

كان النهر على اليمين مغطى كله بالسفن، التي زودتنا بالحماية

وكانـت بمثابـة سور دفـاعي، ومن الجانـب الأيسر عمل الجنـود الرجـالة بمثابة سـاتر دفاعي حيث تقـدموا نحو الأمام على شكل صفـوف بزحف منتظـم، وبتشكيلـة متراصة، وانتشرت صفـوف الخيـالـة من النهر حتى صفوف الجنـود الرجـالة على شكـل خط وتـري، مقدمـة بذلـك الدعـم للرجـالة ومتلقيتـه منهم، وبقي حملـة الرمـاح بشكل تلازمـي مع الـرماة، للتصدي لهجـوم الأعداء برمـاح مشرعة ومسلطـة جاهزة لأي وقـت قرروا فيه الانـدفاع للقيام باشتبـاك قريب، وفي مـواجهة لخطر الخيول والخيـالة تقـرر العمل وفـق رأي حكيم استهـدف عدم تعـريض حيـوانات النقـل والحمولـة للعقر، وسـار العوام مـن الناس، بـدون سلاح بشكـل آمن مـع حزم أمتعتهـم على طرف النهر، وحمل رجـال الدين، وجنود رجالـة ونساء الماء للـذين كـانوا بعيـدين في الأمـام،أمـا الذيـن كانـوا أكثر خبرة ضـد الكمائن وأعمال الخداع، فقد قاموا بحذر بمهمـة التصدي لحملات العدو في المقدمة والسـاقة، وجرى تعميم أمـر شديد قضى بـاتخاذ الاحتياطات بمنع أي واحـد بالمضي أمام الصفوف الأولى، أو أن يتخلـف وراء الصف الخلفـي الأخير، أو أن يخرق الصف لأي سبـب كـان، وقـام يزك الأعـداء باستعراض تقديري لقواتنا مـن على طرفي النهر واندهشوا تجاه النظام بين صفوفنـا والانضباط العسكـري، وعبثاً حاولـوا الحاق بعض الخسـائر بنا، ذلك أن حشـد الرماة تـولى مقاومتهم، حيث علمنـا أن ما من واحـد من رجالنـا قد أسر في ذلـك اليوم، وأيضـاً ما مـن واحد مـن جنودنـا أصيب بجـراح، وذلك مـن الـذيـن مكثوا بشكـل دائم داخـل خطـوط المعركـة وصفوفهـا الجانبية الأربعـة، ووزع النائب البـابوي الأعطيـات بيد كـريمة على الفرسـان وعلى أتباعهم وخدمهـم، وسلح السفن، ولم يبخـل بجسده ولا بممتلكـاته في سبيـل تنفيـذ هذا العمـل، وأبـدى كـل نشاط ويقظـة كانت بامكـانه وقام مع الملك جون ملك القدس ودوق بـافاريا، ورؤساء الأساقفـة والأساقفـة، ومقدمي بيـوتات الفرسـان ببذل الجهـد والتعب في سبيل انجاز هذه المهمة.

الفصل الثامن والخمسون

أرسل ملك مصر في ١٩— آب أقوى برهان وأعظم دليل على ما امتلكه من قوة آنذاك، وقد أراد هؤلاء حصار شعب الرب بشكل زعديد بما فيه الكفاية، وذلك من الخارج، ومن مسافة، فقد هاجموا الصفوف النائية من الجنود الرجالة، بالنشاب، وقاومهم رجالنا بشجاعة دون أن تخرق صفوفهم أبداً بسبب هذا الهجوم، وحاصرونا في ذلك اليوم بشكل أكثر عنفاً وأرغموا رجالنا على استخدام القليل من النشاب، وجرح في هذين اليومين عدد قليل من الصليبيين جراحات خفيفة، والعدد الأقل هو الذي مات، وبهذا انتزعوا من الأعداء الأمل بنيل النصر، ثم عادوا إلى ملكهم في اليوم الثالث وبذلك فتحوا أمامنا طريقاً أميناً خلال شارمساح، وقد أحرقوا قراهم الدفاعية أمامنا، ومع ذلك فقد وجدنا كميات كبيرة من القمح والشعير والخضار، لابل حتى التبن، وفواكه الحدائق، وهرب السكان مع نسائهم وأطفالهم جميعاً من أمام وجه قوات الرب.

الفصل التاسع والخمسون

في عشية عيد القديس جيمس (٢٤—آب) نصبنا مخيمنا على رأس مثلثي لجزيرة كان النيل عندها ينقسم إلى قسمين، ويفصل المعسكر السالف للسلطان عن معسكرنا، وحيث كان قد أقام هناك بعد الاستيلاء على دمياط، وفي هذه البقعة ينسحب نهر تنيس من المجرى الذي يذهب إلى دمياط، ويشكل معه جزيرة، وتمتد هذه الجزيرة اثني عشر ميلاً في الطول، وهي تحتوي على كثير من القرى، قائمة فوق الماء، وما قام منها على الشاطيء الأقصى معروف أكثر من البقية وأكثر ثراء، ومن بينها أشموم وشارمساح، التي كان فيها قصوراً فخمة عائدة

للملك، ونالت هذه الجزيرة اسماً لها، ودعيت باسم أرض دمياط، ودعي الجزء القائم عبر النهر باسم أرض تنيس، لكن الجزء الأكبر الموجود عبر نهر دمياط، يدعى المحلة، وفيها وراء نهر تنيس، وعلى مقادر سفر يوم واحد نحو الشرق تبدأ قفار الصحراء، التي توجد المياه فيها في أماكن محددة، وهي كافية للناس وللحيوانات، إذا مازيدت بالحفر، وهي تنتهي عند الدارون وغزة، وبما أن بابليون (الفسطاط) قائمة في الجنوب، كانت السبب في تسمية بلاد مصر ببلاد بابليونا، ومخطط هذه المدينة مقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي تشكل مثلثا،، وقد بنيت مدينة بابليون نفسها فوق النيل، وهي مديدة في طولها وعرضها، وفيها شوارع ضيقة وفيها كثافة سكانية كبيرة، وهي مكتظة بسبب الأعداد الكبيرة من السكان، ويوجد فيها كثير من الكنائس العائدة إلى المسيحيين، وحشود كبيرة من هؤلاء الناس أنفسهم يخدمون أمير البلاد ويدفعون الجزية، وفيها تجد المصنوعات والتجارات من «ليمانيا Leemanni (أسوان؟) والحبشة، وليبيا وفارس وبلدان ومناطق أخرى، ومن الجانب الآخر المواجه لدمياط وعلى مسافة قرابة الميل، تمتد القاهرة وتنتشر في أبنيتها وشوارعها العريضة، وفيها أبنية فخمة، فيها يسكن أعيان البلاد والنبلاء بين السكان، ولاتنحدر هذه المدينة تماماً نحو النهر مثلما تفعل بابليون، لكن يوجد بينهما مساحة مزروعة بما يشبه الجذور من النباتات، وعلى مسافة يقوم برج المراقبة المرتفع، وهناك تقوم القلعة الملكية، وهي واضحة للناظر إليها، محصنة ومحمية بشكل جيد بوساطة أبراج عظيمة، والأبنية معدة بطريقة مضاعفة ثلاثيا مسايرة للشكل المثلثي، وتمتد الآن الأسوار وتنزل من القلعة لتقوم بالدوران حول كل من من القاهرة وبابليون، وهناك فسحة رملية قائمة بين هذه الأبنية الثلاثة، فيها يمكن لجيش كبير أن يقيم.

الفصل الستون

ويشيرون إلى وجود كنيسة مريم المباركة فيما بين القاهرة وبابليون، فهناك يحكى أنها توقفت مع الطفل يسوع، عندما هربت إلى مصر، ووقتها سقطت أصنام مصر، وتقوم القاهرة على مسافة سفر ثلاثة أيام من دمياط، ومن القاهرة إلى حديقة البلسم هناك مسافة ميل، وهذه الحديقة التي فيها رمل زيتي مطوقة بسور، وفيها نبع في وسطها، ومنها صدرت حكاية الناس القدماء التي انتشرت في الخارج بمثابة قصة مشهورة، أفادت أن العذراء الرائعة جعلته ينبع ويجري إلى الأمام بوساطة صلواتها، فغسلت فيه ثياب الرضيع المخلص، والحديقة مزروعة الآن على شكل كروم، والجذع في هذه الحديقة له سماكة شجيرة، وتنموا الأغصان من الجذع إلى ارتفاع ذراع على شكل جوز، ولحاء الجذع عقدي ومخطط، ولونه أقرب إلى البياض، ويدعى الخشب باسم «خشب البلسم» والبذرة باسم «ثمرة البلسم» وهي تتناثر، وتعطي ورقة تشبه ورقة عرق السوس، تدعى باسم «ورقة البلسم» وكذلك باسم« عصير البلسم» ذلك أن المزارعين يأتون إلى الأغصان، ويقطعون اللحاء في أجزاء محددة، حيث يتدفق البلسم، وهكذا يجمع السائل بدرجات ، وقد يتبدد خلالها،ويجمع البلسم في الخريف بالطريقة التالية: يبرم الغصن ثم يخدش بمسمار، وتتساقط من خلال الفتحات الصغيرة نقاط تجمع وتحفظ في وعاء، وبعد هذا تذاب لمدة عشرين يوماً في الشمس، وبعد ذلك تجمع قشدتها فوق النار، وتوضع وتصب داخل قوارير، لأنه من الخلاصة الأصيلة، قليل من البلسم غير المخلوط هو الذي يبقى بعد التصفية، غير أن الباعة ثم الذين يعاودون البيع يقومون بالعادة بمزجه بخلاصة زيت الصنوبر أو الراتينج، وبذلك يغشون الشراة، ولذلك من النادر وجود الصافي منه على أيدي الباعة، واعتاد السلطان توزيعه في

قوارير بين أمراء الأرض بمثابة هدية عظيمة، وصاحب الحديقة هو مسيحي يعمل تحت اشرافه عمال مسيحيون ومسلمون.

الفصل الحادي والستون

ودون القاهرة هناك جزيرة تمتد لمسافة ثلاثة أميال بالطول وبالعرض ، وهنا ينقسم ماء النيل الى قسمين ، حيث يلامس شواطىء دمياط من أحد الجوانب ورشيد من الجانب الآخر ، وكانت رشيد مدينة كبيرة ، وهي الآن مهدمة ، وهي قائمة فيما بين الاسكندرية ودمياط ، لكنها أقرب الى الاسكندرية ، وعلى مسافة يومين من القاهرة ، وعند رشيد وفوقها يصبح النهر أوسع والماء أعمق ، والميناء أكثر سكوناً من دمياط ويستقبل هذا الميناء سفناً أثقل حمولة ، ومن الممكن مركزة جيش كبير فوق الجزيرة المتقدمة الذكر ، وعندما كنا عند رأسها أثناء حصار دمياط ، رغب السلطان في انتزاع النهر منا ، و وغالباً ما حاول ، لكنه أخفق ، ، وعبثاً حاول جعل مياهه تتدفق في قناة، وبعد انفاق عظيم ترك مجراه للطبيعة ، ومن بابليون الى الجانب الأعلى الى ليبانيا ، حراثة الأرض محدودة على جانبي النهر ، وهناك قفار واسعة على كلا الطرفين ، وفي ليبانيا وفرة من أنواع التوابل التي تصدرها الى الخارج ، والتي يحملها مختلف تجار المملكة للبيع .

الفصل الثاني والستون

ووراء ليبانيا ، تمتلك الحبشة أراضي واسعة جداً ، وفيها ما لا يحصى تعداده من السكان المسيحيين ، قسم منهم واقع تحت حكم ملوك مسيحيين ، وقسم تحت حكم المسلمين، وهنا يوجد أهل النوبة

الذين يمارسون القداس عند المذبح ، ولديهم الوظائف اليعقوبية المقدسة الأخرى : والنوبيون هم لوحدهم الذين يطبعون على الصغار بوساطة حديده محماة ثلاث طبعات لصورة الصليب ، على الجبهة وقرب العينيين على كلا الجانبين ، ومع ذلك يتعمدون ، وتستخدم الفئة الأولى والفئة الثانية الكتابة الكلدانية ويستخدمون الخبز المخمر من أجل القربان المقدس ، ويرسمون علامة الصليب بإصبع واحدة، ويقولون بأن طبيعتين قد اتحدتا في طبيعة واحدة للمسيح ولعلهم يستخدمون بشكل ملتبس اسم طبيعة ، ولهذا يأخذون بالدرجة الثانية كلمة «طبيعة » بدلاف من كلمة «شخص»

الفصل الثالث والستون

الجورجيون والاغريق متفقون في كل شيء فيما يتعلق بالطقوس المقدسة ، لكن للجورجيين كتابتهم الخاصة ، وعندما كنا نتفحص بدقة كتبهم على جبل القديس سمعان العمودي ، حيث لديهم هناك كنيسة خاصة بهم ، عرفنا من خلال المترجم أن لديهم الترتيب نفسه بالنسبة للأناجيل لدى اللاتين، وشريعة الأناجيل موضوعة على أقواس أعمدة كما نفعل ، وترتيب الرسائل الانجيلية للقديس بولص هي تماماً عندهم كما هي عندنا ، فهم يضعون رسالة القديس بولص الى الرومان قبل الرسائل الأخرى

الفصل الرابع والستون

وللموارنة بطركيتهم الخاصة بهم على طرف جبل لبنان ، ولقد تسلموا خطة طقوسهم اللاهوتية من البابا إنوسنت في المجمع الأخير الذي عقد باللاتيران ، وهم متمسكون بها بقدر ما تسمح لهم

كتاباتهم التي هي بالكلدانية ، أو قريبة من الكلدانية (السريانية) ، ومتصل بهؤلاء الناس على الجانب نفسه من الجبل الباطنية Neo-phorites الذين يخفون عقيدتهم ، ولا يشرحونها لأولادهم ولأحفادهم حتى يبلغون الثلاثين من العمر ، وانها لعقيدة شريرة العقيدة التي ترغب بالبقاء سرية ، وأن لا تظهر الى النور ، وعندما أردنا أن نعرف ، عندما كنا مارين خلال تلك المنطقة ، لماذا لا يبيحون معرفة شريعتهم لزوجاتهم أو لبناتهم أو أخواتهم ، إلا في ذلك السن ، أخبرنا واحد من شيوخهم مجيباً بأن النساء قد صنعن من قبل الشيطان ، وقد رددنا عليه قائلين « عندما تعانقون نساءً من هذا النوع، ألا تعانقون وقتها الشيطان ؟» وبناء عليه ابتعد عنا مضطرباً ، ولا شك أن المسيحيين يشعرون بالأسف لامتلاكهم مثل هؤلاء الجيران

الفصل الخامس والستون

وللأرمن كتاباتهم الخاصة بهم ويجلس الكهنة منهم في الحقل الى جانب سنابل القمح التي يرغبون في أن يصنعوا منها الخبز الفطير لحشودهم وهم ينقونها ويضعونها جانباً بعزلة عن المحصول العام ، كما يطحنونها منفصلة ، وفي اليوم الذي يودون أن يكرسوا فيه جسد الرب ،مع غناء المزامير أمام المذبح ، يعدون الطحين ويرشون عليه الماء ويمزجونه ، من أجل خبز فصح حمل المسيح ، وهذا يكون وفق الشكل اللاتيني ، ويحتفلون بهذا بتقوى عظيمة ، ومهما يكن الحال، إنهم يستحقون من أجل ما يلي لوماً عظيماً : فهم لايحتفلون بالميلاد معنا، بل يفلحون ويحصدون في ذلك اليوم بينما تقوم نساؤهم بغزل الصوف وتمشيطه، ويسمون يوم عيد الغطاس باسم يوم «المعمودية»، ويحتشدون في هذه المناسبة المقدسة ويتجمهرون مع كثرة كثيرة من الناس، ويحتفلون بميلاد الرب مع عيد الغطاس، ويقولون بأن

الـرب قد ولـد في اليوم نفسه الـذي تعمد فيـه فيما بعـد، إثر مضي عـدة سنوات، ويقـولون إنهم يخضعون للشريعة الـرومانية، ولديهم جـاثليق هو الأول والرأس بينهم، وهم يطيعونه في جميع الأشياء.

الفصل السادس والستون

وأثناء توقفنا في أنطاكية تفحصنا النسـاطرة الذين لديهم كنيسة خاصة بهم هنـاك، وهم يقـولـون بأنهم يعتقـدون بأن الطبيعتين قـد اتحدتـا في شخص المسيح، ويعترفون أن العـذراء المباركة هي أم الـرب وأم انسان، وأنها حملت انسـاناً وربـاً، الأمـر الذي انكـره نسطـور، لكن هل يؤمنـون بقلوبهم مثلما يعترفون بألسنتهم، الرب يعلم.

الفصل السابع والستون

ويستخـدم السريـان الكتـابـة الاغـريقيـة، وبها ينشـدون، ويقـدمـون الأضحيـة الطقـوسيـة، لكن اللغـة العـربيـة هي الـدارجـة بينهم مثل المسلمين، ويستخدمونها بصكوكهم وبرسائلهم التي يكتبونها.

الفصل الثامن والستون

وأخذ اليعـاقبة في معظم أجـزاء مصر بالختـان، لكن الذيـن مكثوا بين الميديين والفرس هم راضون بالتعميد.

الفصل التاسع والستون

للروس لغتهم الخاصة، لكـن فيما يتعلق بالطقوس المقدسة، وجـدناهم مثل الاغريق في كل شيء، وهذه الأنـواع المختلفة من المسيحيين مختلطون

مع المسلمين في جميع أرجاء آسيا، ولهذا لايمكن لهذه الأمة الكافرة أن تسوغ موقفها على أساس الجهل!

الفصل السبعون

إننا لم نقم بهذا الاستطراد الطويل بدون سبب، وكان القصد أن نظهر بوضوح للمؤمنين موقع مصر، ومجرى النهر، وكذلك الأنواع المختلفة من المسيحيين الذين يسكنون في آسيا، والآن في عودة إلى سياق تاريخنا دعونا نخضب هذا الكتاب بالدموع، وبالنحيب، وبالأسى من أجل خسارة المسيحية وماألحقها من عار.

لقد كان الزحف إلى بلدة شارمساح المشهورة — الذي أتينا على ذكره من قبل — مفيداً لجيش المسيح، ولهذا حدث بعد سقوط دمياط، أن نظر السلطان بحكمة وتفكر بما يمكن أن يحدث في المستقبل، فقام بتدمير البلدة، وكذلك قصره الجميل القائم على النيل، وخلف هذه البقعة ينحرف النهر، ثم ينعطف عائداً، وهناك أيضاً نهر صغير يأتي من جزيرة المحلة، ويصب فيه، واعتماداً على عمق الماء الذي كان يزداد هناك أثناء انتشار الصليبيين، كان من الممكن لهذا الماء حمل الغلايين والمراكب الأخرى ذات الحجم اللطيف المعتدل، وعندما رأى قادتنا الحال، لم يبالوا ولم يعبأوا وعبروا المكان مسرعين قاصدين رأس الجزيرة، وهرع الناس أيضاً بتشوق مثل الطيور القاصدة مصيدتها والأسماك المسرعة نحو شباكها، ذلك أنه أعلن لهم كذباً بأن السلطان يستعد للفرار، وكان هدفهم الحصول على الأسلاب، وكذلك أملهم، لكن عندما سمع ملك مصر ووصله الخبر بأن شارمساح قد أخليت من الخلف، ضم عساكر رجالته ووحدهم مع فرسان مملكته، والذين جاءوا من القاهرة، وبشكل خاص الذين جاءوا من الاسكندرية، وجعلهم يهاجمون الذين كانوا

يتقاطرون وصولاً، وفي هذا الوضع كان أسرانا قد قدروا حقيقة إخلاء القاهرة من سكانها، لذلك أعدوا خطة للاستيلاء على الأبراج وقت وصولنا، حتى يقوموا بفتحها للذين كانوا يقتربون، لكن الحكمة الربانية التي برحمة منها «سمعت أنين الأسرى الذين كانوا في الأغلال» (المزامير: ١٠١/ ٢١) وشهدت جهود وحزن الذين كانوا في الأصفاد، أطلقت سراحهم من خلال أسانا وأحزاننا.

الفصل الحادي والسبعون

وفيما كان هذا يحدث في مصر قام الملك الأشرف ملك الرها، مدينة الميديين، مع المعظم عيسى صاحب دمشق، مع صاحبي كل من حمص وحماه، مع حشد كبير جداً من الفرسان جمع من جميع مناطق الشرق، بالاجتماع في حمص، ونتيجة لهذا أصاب رعب شديد أهل انطاكية وعكا، والمدن الأخرى القائمة على الساحل والتي كان محاربوها غياب، لأنهم ذهبوا للمشاركة في حملتنا، وشعر الذين كانوا في صافيتا وطرابلس بخوف خاص تجاه هذا الاحتشاد.

وتناقش الأمراء المذكورين أعلاه بإخلاص وجدية لوقت طويل حول هل عليهم التوجه لعون مصر بأنفسهم، أو الأفضل شطر الجيش الصليبي بوساطة محاصرة احدى قلاعه ، وأثرت عليهم قوة الملك داود وضغطت، لأنه كان المنتصر على ملك الفرس في أراضي الفرس، ولأنه كان يعمل بنشاط في المناطق التابعة لبغداد، وخشيةمنه، كانوا يخشون الابتعاد عن ديارهم، كما قدروا أن الاستيلاء على قلاع الاسبتارية أو الداوية لن يكون بالأمر الهين في وقت قصير، وأخيراً نجح رأي الذين رأوا القيام بزحف سريع إلى مصر، خاصة لأن أخاهم أرسل لهم مراراً رسائل على بريد الجمال يرجوهم القدوم إليه، وأضاف أن الصليبيين قد تمركزوا الآن في

مكـان لايمكنهم مغـادرتـه من دون مخاطـر، وأنـه إذا لم يستطيعـوا لـدى قـدومهم التغلب عليهم، يمكنهم على الأقل الإعداد لعقـد صلح معهم، وكتبت ملكة قبرص إلى النائب البابوي وكتب رهبـان الاسبتارية والداوية إلى مقـدميهم حـول هذه العسـاكـر وحول خططهـم، وحثوهما على عـدم التراجع من دميـاط، وأنهما إذا مـا خـرجـا وتـراجعـا عليهما البحث عن أمـاكن آمنـة لنفسيهما، لكن الآن حسبما قضـت ذنـوبنـا، نأت الآراء الحكيمـة وابتعدت عن قـادتنا، وكـان مثلهم مثل يـوليوس قيصر، أنـذروا وحـذروا مراراً، ومثلهم مثـل الاسكندر المقـدوني أنـذوا وحذروا في هـدوء الليل وصمته، ولقـد أهملوا اتخاذ الاحتياطـات ضد المخاطر الفعليـة، وقد تكلـم الـرب نفسه من خلال مـوسى إلى بني اسرائيل قـائلاً:«لاتصعدوا ولاتقـاتلـوا، لأنـني لست معكم، خشيـة أن تنهـزمـوا أمـام أعـدائكم».(العـدد: ١٤/ ٤٢)، ومع هـذا ذهبـوا، وسقطـوا مهـزومين مقهورين، وتأمل الملك جـون بالقضية وتعمق بـالتفكير حولها، ورأى أن من الحكمـة وجـوب قبـول الاقتراح الـذي غـالبـاً مـا تقـدم بـه العـدو، وتـرجيحـه على مـا رآه الشعب المؤمن، لأن هـذا الشعب اقتيـد في زحف طـويل، وبـات الآن عرضـة لتقلبـات الأحـداث، لكن النائب البـابـوي الأعلى حرم عقد أية اتفـاقية دون الحصول على موافقة الكنيسة الـرومانية، ثم إن الامبراطور لم يـأذن من خلال رسائلـه المختومـة بالـذهب بعقد أي صلح أو بالإعداد لأي معاهدة مع المسلمين (١١٤).

الفصل الثاني والسبعون

وقوينـا بالـوقت نفسه تحصينـاتنا بخندق عميق، ومن الجانـب المقابل قـام خصومنـا بإقامـة سور تـرابي وسواتـر دفاعيـة على الطرفين المتقـابلين للنهـرين، ووضعـوا عليهم آلات قــذف وعـرادات ومنجنيق مع مخرطـة، وبـذلك سببوا لنـا جـراحات خطيرة أصـابت النـاس، والحيوانـات التي

كانت مأخوذة للسقاية، وازدادت قوى خصومنا يومياً، وأخذ جمعنا يتبدد مبرهناً على عدم إيمانه، ومع اقتراب موعد العبور، إزداد الجبن بين الذين هجروا المعسكر وتخلوا عنا بشكل مكشوف أو مخادع، وعدد كبير من السفن التي ذهبت إلى دمياط لجلب الميرة، لم تتمكن من الرجوع، وفي اليوم الثامن عشر من آب جرى الاستيلاء على أربعة من غلايينا أو أنها أغرقت في النهر، ومنح هذا شجاعة إضافية إلى الأعداء، لأن السلطان كان قد غرق بعضاً من غلايينه على طول مجرى النهر، الأمر الذي تقدم لنا ذكره أعلاه، وكذلك دون معسكرنا خلال جزيرة المحلة على ضفاف النهر بدون علم منا، وقطع هذا العبور والجواز بالنسبة لرجالنا، وبذلك لم يعد بإمكانهم الذهاب لاصعودا ولا هبوطاً، يضاف إلى هذا، بما أن حشداً كبيراً من الرجال المسلحين قد جرت مركزتهم بذكاء هناك، وتولوا أعمال الحراسة ليلاً ونهاراً، وراقبوا كلا الشاطئين حتى دمياط، لم يعد بإمكان قومنا إرسال الرسل أو استقبالهم.

الفصل الثالث والسبعون

ومن اليوم الذي خسرنا فيه النهر، أخذ رجالنا يجتمعون بشكل متواصل للتشاور فيما بينهم، وليروا ما هو الأكثر مواءمة لهم: الانتظار في المعسكر حتى وصول الغلايين التي وعد الامبراطور بإرسالها، أو الخروج، دونما اعتبار للخسائر مهما كانت، وذلك بسبب اضمحلال مخزوناتنا من الأطعمة، وارتأى الجزء الأكبر رأي الخروج، الذي كان أعظم خطراً بسبب وصول الأعداء، وقرار الإعاقة المائية، لكن أحد الناس (أولفر نفسه) من الأعضاء الأدنى، وكان قد رأى وسمع هذه الأشياء، وتولى وصفها بشكل جاف، لكن بقلم صادق، اقترح اتخاذ داود مثلاً، الذي اختار بين ثلاثة أشياء، كل واحد منها كان صعباً وشديداً، فهو لم يختر الجوع لمدة سبع سنين، ولم يختر أن يغلب من قبل العدو لمدة ثلاثة أشهر

بل اختار ما كان هو الرغبة العامة للملك وفقراء الناس: الوباء لمدة ثلاثة أيام؛ وعندما سئل عن رأيه وما يقصده أجاب: بما أن الضعفاء والعاجزين الذين كانوا هناك لاتوجد سفن كافية أو حيوانات لنقلهم، ينبغي انتظار وصول المساعدات في مكان حصين، لاسيما وأن المؤن، إذا ما وزعوها بحذر يمكن أن تكفي لمدة عشرين يوماً، ومع هذا لم تقبل هذه الخطة، بل قبلت خطة المغادرة، وأصبحت مع حلول الليل أكثر قبولاً، وفي هذا المقام ساد موقف أسقف باسوا Passau مع رأي البافاريين.

الفصل الرابع والسبعون

وبناء عليه حدث في يوم ٢٤ آب، ومع الهزيع الأول من الليل، أن أخليت الخيم ، من قبل أوائل الناس، الذي اتبعوا مارغبوا به، وليس ما أوجبه العقل، وألقوا النار في الخيم، ثم فعل الآخرون مثلهم بحماس، وكانوا بذلك كأنما يعلنون عن هزيمتهم الخاصة، ويدعون المصريين لمطاردتهم، وبالوقت نفسه وصل النهر إلى أقصى درجات فيضانه، لابل ارتفعت مياهه وتدفقت حتى أعلى مما هو معتاد، فقد غمرت الحقول، وجاء الملوك السالفي الذكر من خلال الصحراء ووصلوا عبر نهر تنيس إلى أشموم، وهناك بني جسر، فتوقفوا وعسكروا، وأضيف إلى سوء حظنا في ذلك اليوم أن الناس كانوا في ذلك اليوم مخمورين كثيراً، نتيجة شربهم الخمور التي كانت هناك بكميات وافرة، وكان من غير الممكن حملها معهم أثناء التراجع، وبما أنها عرضت لمن أراد بدون ثمن ، فقد قهرت الذين كانوا غير متيقظين، وهم الذين ظلوا غارقين بالنوم داخل المعسكر أو الذين تمددوا على الطريق، وكانوا غير راغبين بالنهوض، ولقد تخلوا في معظم الأحيان عنا، وتخلفوا إما لأنهم انقطعوا أو لأنهم أسروا، ووصل آخرون إلى الأماكن التي فاض عليها النهر في ظلمة الليل، وناضلوا

بتعاسة وسط السباخ العميقة، ولهذا تخلفوا خلف الآخرين، وسقط آخرون في السفن وضغطوا عليهن بشدة بسبب أوزانهم فغرقن، وفقدنا في الليلة نفسها جمالاً وبغالاً كانت تحمل أثقالاً، بما في ذلك أوعية فضية، وملابس وخيم الأثرياء، والذي كان أكثر مأساوية فقدان نشاب الدفاع، وتولى الداوية جلب قوات الساقة في ظل مخاطرة عظيمة، ومكثوا بشكل متواصل مع بعضهم بمثابة حماية للذين مضوا في الأمام، لأنهم كانوا مستعدين بالأسلحة، وكان الذين تقدموا في الأمام، قد ساروا على طرق مختلفة، فضاعوا خلال ظلام الليل مثل أغنام شاردة، وأخبر المصريون بفرارنا بوساطة النار والدخان، فقاموا على الفور بملاحقتنا، ووصلوا إلينا بسرعة أكبر من المتوقع، وأنزلوا بالصليبيين خسائر من غير الممكن وصفها، ولم تكن أقل خطراً وأذى مما تم تحمله من قبل الذين ذهبوا بالسفن على طول الشاطيء وكانت سفينة النائب البابوي تحمل عدداً كبيراً من المرضى، وكذلك كميات من المؤن، وكانت محصنة إلى أبعد الحدود برجال مسلحين ورماة، وبدت وكأنها قلعة، وتولت بشجاعة حماية الغلايين التي بقيت بشكل طبيعي مع بعضها متراصة متقاربة، غير أنها سارت بسرعة كبيرة جداً، ولعل ذلك كان بسبب قوة التيار، ولأنها ابتعدت بشكل رهيب عن الجيش البري، لم يعد بإمكانها تزويدنا بالطعام في الوقت المناسب، فضلاً عن هذا، ابتعدت واحدة من سفننا كانت مليئة بالمقاتلين الألمان، كثيراً عن سفينة النائب البابوي، وطوقت من جميع الجهات بغلايين الأعداء، وبعدما تمكنت من إغراق واحد من الغلايين في المياه العميقة، بعد دفاع طويل، اشتعلت فيها النيران فدمرت المقاتلين الذين كانوا فيها، وكان هناك مركب عائد للنائب البابوي يحمل كثيراً من البضائع الدنيوية، وغليون صغير عاد بملكيته للداوية، كان فيه خمسين عرادة إلى المعدات الأخرى التي يحتاجها الرجال الشجعان، قد تم الاستيلاء عليها، وخرجت عن ملكيتنا.

لماذا أطيل أنا الوقوف للقيام بتعداد الخسائر التي سببتها تلك الليلة لنا؟ « أما ذلك الليل فيمسكه الدجى ولايفرح بين أيام السنة ولايدخلن في عدد الشهور. هو ذا ذلك الليل ليكن عاقراً لايسمع فيه هتاف» (أيوب : ٣/ ٦—٧)، وسارع في تلك الليلة ملك مصر بارسال الرسل للقيام بفتح بوابات السدود وتدميرها وكذلك أقنية جر المياه، التي كان من الممكن أن تكون ممرات لنا، وليلة هذاالعمل لها ذكراها عند المصريين وعندنا أيضاً، عندما فاضت أطراف النهر الى حدود كبيرة وتدفقت الكميات الهائلة من المياه عبر منحدرات خزانات المياه ومن خلال الاقنية فسببت تطرية الأرض، هذه الأرض التي كانت جافة بسبب طول انقطاع الماء، ثم إنها تحولت إلى أرض موحلة سميكة أمسكت بشدة بحوافر الخيول وجعلت الفسحة المفتوحة للحقول لايمكن جوازها، ولقد أعاقت كثيراً كل من الخيول والركاب.

الفصل الخامس والسبعون

في حوالي الساعة الأولى من يوم الجمعة التالي (٢٧— آب) ظهر هناك فرسان الترك المرعبون والذين كانوا في أعداد كبيرة، وشرعوا بمناوشتنا من جانب الميمنة وذهبت الغلايين المزعجة صعوداً ونزولاً من على اليسار، وقام فيلق من الزنوج بالزحف على الأقدام، وبالضغط علينا من الخلف بقسوة متناهية، وكان هؤلاء يستخدمون الأماكن السبخة من أجل المعسكرة، وجاء أيضاً تشكيل تابع للعدو على شكل محدودب، وواجهنا هذا التشكيل من الأمام، وبذلك حرمنا من الراحة، وفي هذه الأثناء قام الملك جون بهجوم على الأتراك الذي كانوا مواجهين له، ثم عاد إلى الخط القتالي المخصص له، ولم يتهاون الداوية وإسبتارية القديس يوحنا الذين كانوا آنذاك متحدين معهم بالتعامل مع رعونة الزنوج، وقاموا وهم يقتلونهم بالضغط عليهم حتى أرغموهم على القفز إلى الشاطىء

مثل الضفادع، وكذلك قاموا بصدهم وردهم إلى الخلف عندما أرادوا الوصول إلى الشاطىء من جهتنا، وهكذا كان هناك حوالي الألف من الحشد العظيم يسبحون مبتعدين أو يعانون من الجراح، أو يموتون، وبسبب هذه الانتكاسة التي عانى منها أعداؤنا تراجعوا قليلاً، وبما أننا لم يؤذن لنا بالتقدم نحو الأمام، أمر الملك بنصب عدد قليل من الخيم، بعضها بقي في الخلف، أو أخذ إلى الأمام، ومع ذلك بقي أعداؤها خلال ذلك النهار كله على مقربة منا، وكانوا يهاجموننا بشدة متناهية بوساطة نشابهم، وقد وضعنا جنودنا الرجالة في مواجهتهم بمثابة ساتر دفاعي، وكذلك استخدمناهم، لأنهم أعادوا رمي النشاب الذي وجه ضدنا، وعمل فرساننا تحت الوزن المستمر لدروعهم وسوابغهم،وأفادوا بمثابة حماة للجنود الرجالة، وفتح المصريون في الليلة التالية بوابات الفيضان، وجعلوا المياه تتدفق فوق رؤوس الذين كانوا نائمين، ولاندري هل فعلوا ذلك بناء على أمر السلطان، أو بدون معرفته، وقبل انبلاج نور الصباح، عندما كان الظلام مايزال يغطي الأرض، جاء الجنود الرجالة من الزنوج الذين نجوا من قبضة النهر، وكانوا راغبين بالانتقام للخسائر التي لحقت بهم، واحتشدوا مثل الجراد، ومع أنهم كانوا أشبه بالعراة، فقد هاجموا صفوفنا الخلفية، وكان من الممكن رؤية فرساننا ومعهم خدمهم يحاولون الفرار، وسط حشد متلاصق من الناس، وبما أن عوام الناس كانوا غير مسلحين، فقد أظهروا جبنهم بشكل واضح تماماً، غير أنهم كانوا محاصرين من جميع الجهات بالماء وبالأعداء، ولذلك لم يجدوا مكاناً يفرون إليه، وقام مقدم الداوية مع صفه القتالي الذي كان يقوده شخصياً بالالتفات نحو الذين كانوا يقومون بأعمال المطاردة، وأرغمهم إما على التوقف أو على التراجع، وقد فعل ذلك بعدما رفع رايته.

-٢٠٥٨-

الفصل السادس والسبعون

في هـذه الآونة أقنع الـوضع اليائس الـذي بـات مفهومـاً قادة الحشـد ليقومـوا بارسال رسل يعرضـون المصالحة، لكن إمبرت Imbert ، وكان مقترفـا عظيماً للشرور، أخذ بـرفقته الـذين أمكنه أن يهربهم معـه، والتحق بالأعـداء ، وبين الوضع المأسـاوي اليائس الـذي كنا فيـه، إلى السلطان، وكـان إمبرت هـذا أسوأ الخونـة على الإطـلاق في وقتـه، ومع هـذا أصغى السلطـان بأناة إلى الـرسل، وبـانتظار التأكيـد، أمر رجـالـه بالتـوقف عن إزعاجنـا، مع أن أخاه، وكذلك صاحب حمص بشكل خـاص — الذي كان معـادياً إلى أقصى الحدود للاسم الصليبي— حاولاً أن يجعـلاه يعدل عن الاتفـاق، قـائلين بها أن الفـرنجـة تحت الحصـار مـن جميع الجهـات بـوساطـة الماء، فـلايمكنهم النجاة، لكنـه هو نفسـه لكـونه رجـلاً حكيماً ولطيفـاً متسـامحاً، رغـب في الإعـداد للتصـالح أكثـر من الـرغبـة بسفك الدمـاء، ولهذا عقد اجتماعاً سرياً مـع أخويه وكبار رجـال مملكته، وضرب مثلاً بملك الفـرس، الذي كان عاقـلاً جداً ومجرباً بسبب مـا واجهه من أحـداث كثيرة، وقد حـاول خلع نير التبعية أو العبـوديـة لملك بابل نفسـه وللملـوك الآخريـن في آسيا، فقـد هـزمه الملـك داود على أرض المعركـة، وانتزع منـه بلاد فارس ودمر أعظم مدنها وأكثـرها ثروة، وبعـد هذا تكلم رسل السلام من على الجانبين، كما جرت العادة في قضـايا من هذا النوع، وقلبوا أوجه المسـائل جميعها خلال السبت والأحد، وتـابعوا حتى المساء، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء محدد.

الفصل السابع والسبعون

في ذكرى اليوم الـذي قطع فيه رأس القديس يـوحنا المعمدان (٢٩—

آب) وفي حوالي الساعة الثانية عشرة، قام طرفنا وقد شعر بالضيق لنقص الطعام والأعلاف، وأكثر من هذا بشكل خاص بسبب الحجم العظيم للماء، فقرر أنه من الأفضل والأصون للكرامة العيش بسعادة أو الموت بشجاعة في الحرب، وذلك بدلاً من الهلاك بشكل مهين في الفيضان، وعلى هذا عندما نهض جميع الفرنجة للحرب تعبأت الصفوف هنا وهناك، ونظروا نحو بعضهم بعضاً نظرات كلها حدة ورعب شديد، ولاحظ الأتراك أنهم قد أثاروا عدواً شعر بأغلاطه وبالنير الذي وضعه على رقبته، لذلك تراجعوا قليلاً بناء على تلقي الأوامر من ملكهم، ونظراً لحلول الظلام فقد حال ذلك دون القتال، وبالإضافة الى هذا، بينما كانت معاهدة الصلح ماتزال معلقة، خشي الرجال العقلاء من عرض خياني، إذا ما جرى تدمير الصالح العام بوساطة قتال خطر.

الفصل الثامن والسبعون

وهكذا في اليوم الثلاثين من آب، أرغمنا على القبول بصلح مؤسف مذل بسبب الظروف المعاكسة، فاستسلمنا إلى المصريين والآشوريين، حتى يمكن أن نزود بالخبز ونطعم، وهكذا كان أن سبب فيضان الماء وقلة الطعام، وليس القوس أو السيف اذلالنا في أرض عدونا، وكان هذا أمراً مدهشاً، نعم لقد كان بالفعل شيئاً مثيراً للدهشة، شيئاً سوف يتم تداوله بالمعرفة في المستقبل: وفي الوقت نفسه ظهر الحكم الرباني العدل، وأشرق لطف الرحمة على شكل مساعدة موائمة، فلقد كانت ضخامة أفاعلينا الشريرة، والعدد الواسع لجرائمنا يرغمان على اتخاذ قرار انتقام رباني، لكن نبع الجودة والمنفعة الطبيعي، الذي من خصائصه أن يمتلك دوماً الرحمة والتخليص، لطف قرار الحكم العادل بحدته، ولهذا وقعنا في خطر،وتأملنا أنه بوساطة الرحمة، ربما ستظهر معجزة ويشرق نورها، «فالرب لايستأصل نفساً بل يفكر أفكاراً حتى لايقطع عنه منفيه».

(الملـوك: ٢/ ١٤/ ١٤)، ذلك أن مـلاك المشـورة العظيم، تكلم من أجل صالح الانسـان، مثل واحد بين آلاف يتضرعـون من أجلنا، معلنا عـدالة الانسـان (انظر أيـوب: ٣٣/ ٢٣)، فصحيح أننا قـد نكون مـذنبين، ومع ذلك، في سبيل حمل صليبـه تـركنا البيـوت والآبـاء والـزوجات والأخـوان والأخوات والأبنـاء والحقول، وكـان ذلك كله مـن أجل رضا الـذي يظهر الغضب بهدوء، ويصدر أحكـامه بلطف، ويعاقب بمحبة، فضربـاته مثل ضربات الأب، لكن قلبه قلب أم.

الفصل التاسع والسبعون

وهكذا عنـدما وضعت الشروط، وفقاً لقرارات السلطـان، جرى اكمال وثـائق العقود بين الطـرفين، وجـرى حلف الأيمان، مع تسميـه الرهـائن، وبنـاء عليـه وضع السلطـان يـده على ورقـة تـولى تـوقيعهـا، وأقسم وفق الصيغـة التاليـة: « أنـا، الكـامل ملك مصر، أقسم بـالله، رب الأربـاب وبشريعتي، من قلب نقي، وبإرادة طيبـة، وبـدون مواربـة أو تـردد، أنني سوف أرعى بـايمان طيب جميع الأشياء التي كتبت في هذه الـورقة، والتي تحتـويها، وهي الموضـوعـة تحت يـدي، وإذا لم أفعل ذلك لعلي أحـرم من الحسـاب الأخير ومن صحبـة محمد (صلى اللـه عليـه وسلم)، وأن أكـون مـؤمنـا بـالآب والابن وروح القـدس»، ووفق هـذه الصيغـة أقسم الملك الأشرف وكـذلك الملك المعظم مع أعظم الأمـراء مكـانة لـديهم، انتبهـوا تحت كم من الأخطاء الكثيرة والتنـاقضات تعمل بها تلك الأمـة العمياء، فثـلاث مرات أتـوا على تسميـة الرب، لكن دون معـرفـة بأسرار التثليث، وهم لا يـرضـون بتمييـز اسم الآب، واسـم الابن، واسم الـروح القـدس، وذلك حتى يزيـدوا من إدانتهم، ولو أنهم أقسمـوا خداعـاً أو مع أي تردد وتقاطع، في شكل الطقـوس، هم يقولون إنهم ليسـوا تحت الإكراه، والآن احتـوت هـذه الكتـابـة على تـرتيبـات وفق مـايلي: سـوف يعيـدون

الصليب(١١٥) الحقيقي مع جميع الأسرى الـذين أسروا في أي زمـان في مملكـة مصر، أو جميع الصليبيين الموجـوديـن تحت سلطـان الملك المعظم، وأنهم عنـدمـا سيتسلمون دميـاط مع كل مـا يتعلق بها ويعـودون إليهـا، سيـدعوننـا نذهب جميعـاً بكل حريـة ومعنا مقتنيـاتنا المنقـولة، ولسـوف يحافظـون بشرف على هدنـة لمدة ثمانية أعـوام، وأقسم قـادتنا أنهم سـوف يطلقـون سراح جميع الأسرى المسلمين لـديهم، المسجـونين في كل من مملكتي مصر والقـدس، وإنهم سوف يعيـدون دمياط، مـا لم يرغب ملكنـا المتوج بخرق الاتفاقية، يضاف إلى هذا جرى تقديم أربع وعشرين رهينة، تـولى السلطان اختيـارهم وهم: النـائب البـابوي، وملك القـدس، ودوق بافـاريا، ومقدمي بيـوتات الفرسـان الثلاثة، مع ثمانيـة عشر آخرين، ومن جانب آخـر أعطي لنا ابن السلطـان، وريث المملكة، وواحد من اخـوانه الذين تـوفر منهم العديد، وأبنـاء العديد من النبلاء، وذلك حتى عـودتنا إلى بوره (قرب دمياط) وإلى ميناء دمياط.

الفصل الثمانون

لتعلم جميع الأجيال المقبلة، أننا بالنسبة لوضعنا الخطر ولحاجتنا الملحة أبـرمنـا صفقة رائعـة، آخـذين بـالحسبـان أننا تمكنـا من استرداد خشبـة مخلصنـا مقـابل مـدينـة واحـدة كـان لايمكن للصليبيين أن يحتفظـوا بها لـوقت طـويل ،وأن القمح أو الطحين عـرضـة للتلف هنـاك في أقل من سنة، وأنـه بصعوبة يمكن لسيـد مصر نفسه الحفـاظ على سكانها، ثم إن آلافا مـؤلفة من الأسرى، الـذين بينهم نعد أنفسنـا، من الأعلى إلى الأدنى قـد أعيـدوا إلى وضعهم الحر، وكـان عنـدمـا دخل الامبراطـور هـرقل إلى فارس، قد استولى عليها بصعوبة بـالغة بعد خمس سنوات متواليات، وقد هزم كسرى، وحمل صليـب الرب في مـوكب نصر، وأعاد البطـريرك زكـريا إلى القـدس مع الأسرى من شعبه، والآن كـان السلطـان يحتفظ ببطريـرك

الاسكندرية(١١٦) بمثابة أسير، وكان رجلاً عظيم التقوى، وكامل الأخلاق، وقد أعاده وأرسله إلينا عندما كنا نسير عبر النيل، وقد حرره من أغلاله وخلصه من قذارة السجن، وأعلن أعداء الصليب أنهم قد خدعوا بهذه الاتفاقية، ورددوا قائلين إنهم استردوا مدينتهم دمياط، ودمروا القدس مع حصون أخرى من حصون هذه المملكة الرائعة، لكن الصليبيين عمروا واحداً من الحصون التي لاترام في فلسطين نفسها، وهو خطر جداً بالنسبة إليهم، وتمت عمارته على الرغم منهم، ولو أننا دمرنا دماراً كاملاً، أو وقعنا بالأسر بعد فقداننا لجميع ممتلكاتنا، وأيضا لو أن دمياط قد فقدت من دون أي تعويض، لباتت بقية البلاد التي بأيدي عبدة المسيح على حافة خطر حقيقي، لأن الذين بقيوا لحراسة دمياط، تركوا المدينة وفروا، ولم يهربوا لوحدهم، بل أيضاً عندما سمع الذين وصلوا حديثاً التقارير غير الموائمة هربوا عائدين، ووصل كونت مالطا(١١٧) إلى دمياط في حوالي نهاية آب ومعه أربعين شينيا، وكان القراصنة قد سلبوا اسبتارية القديس يوحنا والداوية بضائعهم،وقتلوا واحداً من النبلاء الفرسان،وواحداً من الرهبان الدينيين من الداوية، الذي كان يدافع عما عهد به إليه، وجرحوا راهباً آخر، وكان من فرسان التيوتون.

الفصل الحادي والثمانون

بدأ السلطان قبل إعادة دمياط بتنفيذ ماوعد به، فقد أمر بإطلاق سراح أسقف بوفياس المنتخب وبعض الأسرى الآخرين، وجلبهم إلى معسكرهم، وجرى إرسال مقدم جيش الداوية، ومقدم رهبان التيوتون (١١٨) من قبل القادة ليسلما المدينة تماشياً مع التعهد وتأكيدات أيمانهم، وتم تنفيذ هذا بدون صعوبات كبيرة، لأنه لم يكن بين الحجاج الجدد الذي كانوا يصلون آنذاك، رجلاً قوياً، ونشيطاً، أو مثابراً بما فيه الكفاية

-٢٠٦٣-

لأن يكون راغباً أو قادراً على التمسك بها بعد الوقائع المتقدمة الذكر.

الفصل الثاني والثمانون

«تدخل الحيوانات المأوي وتستقر في أوجرتها» (أيوب: ٣٧/ ٨) وإذا سألت لماذا عادت دمياط سريعاً إلى المسلمين، فإن السبب واضح: لقد كانت محبة للترف، وكانت طموحة، وكانت متمردة، وبالإضافة إلى ذلك كانت غير ممتنة للرب إلى أبعد الحدود، وكذلك بالنسبة للبشر، ولنمر بأشياء أخرى، منها أنه عندما أعطيت المدينة إلينا من الأعلى من السماء، وفي أثناء توزيع الثروات التي وجدت فيها، لم يحرم من ذلك لاامرأة عجوز ولاطفل ابن عشر سنوات، وفقط المسيح وحدة —المعطي لكل الأشياء— حرم من الحصة، ولم يدفع له حتى العشر، وفيما مضى قام الرومان الوثنيون فكرسوا وعاءً ذهبياً إلى أبولو، على شكل عشر، وقال بنو اسرائيل لموسى عندما قهروا المدينيين: «فقد قدمنا قربان الرب كل واحد ماوجده أمتعةذهب، وحجولاً، وأساور، وخواتم، وأقراطاً، وقلائد» (العدد: ٣١/ ٥٠).

وفي أثناء توزيع الأبراج وأماكن السكن، أعطي معظم الثناء عن جدارة لتلك الأمة المطيعة والنشيطة (الفريزيون)، التي هاجمت من البداية دمياط بشجاعة كبيرة، ولم تعبأ بأي وضع سواء أكان متواضعاً أو منخفضاً، فبوساطة أسطول السفن الذي جلبته، أمكن تزويد معسكر المؤمنين بالأطعمة والسلاح، وهكذا جرى الاستيلاء على برج النهر (برج السلسلة)، وتنظيم العبور إلى الجانب المواجه من النهر، وتم بناء الجسرين الأعلى والأدنى، وكذلك بناء برج المراقبة في بورة، وتحصين أسوار السواتر الدفاعية، ولديها رضا في وجه مثل هذا النكران، ذلك «أن الرب سوف يعطي الثواب الجزيل» لعباده «ولسوف يقودهم في طريق رائع»

(الحكمة: ١٠/١٧).

الفصل الثالث والثمانون

يامحب الناس، وملك المجد، ومنقذ العالم، الذي يمتلك معرفة مقدسة، وقدرة فوق كل القوى، أنت الذي تلوم بعضهم، وتسكّن آخرين، لقد أنزلت فخارنا إلى الرغام بانتزاعك دمياط من غير الشاكرين، وبرحمة منك حفظت أرمينيا وأنطاكية وصنتهما في وجه جهود الناس الأشرار، لأن الذين كانوا في الحصن سببوا انزال مأساة عظيمة على المسيحية، أما الذين كانوا الوادي فأضافوا أذى إلى الشرور، عندما افتراضاً اجتمعوا في حالة نكران لفضائلك ومنافعك، ولقد ظهرت عدالتك من أحد الجوانب بوضوح، ومن الجهة الأخرى أشرقت منافعك ومحاسنك المعتادة واضحة على الذين كانوا على استعداد لفتح أعينهم.

الفصل الرابع والثمانون

كان روبين الذي كان من قبل صاحب أنطاكية من معدن نبيل جداًلكن لإفتقاره الى حسن التصرف هو لم يكن مناسباً لإدارة الأمور العظيمة،وقام بمساعدة من غورين Guerin ،مقدم اسبتارية القديس(١١٩)يوحنا،والذين تمكن من اقناعهم،فاستولى على طرسوس،وحارب الأرمن رغبة منه في الحصول على مملكة،ولم تفت معرفة هذا الأمر وادراكه تركهان قونية،وقد تشجعوا بالخلافات بين المسيحيين،فهاجموا أرمينيا بالجنود، ولدى قيام قادة تلك المملكة بتقديم شكواهم،أكدوا على المخاطر التي تحيق بحياتهم وبينوها، فقد نقص تعداد جيش المسيحيين في تلك المنطقة،في تلك الآونة الى حوالي العشرين ألفاً، وذلك بعدما أحصوا الذين قتلوا أو أسروا من قبل

المسلمين،وبعدما هرب العديد بسبب فقدانهم لمتلكاتهم.

الفصل الخامس والثمانون

وبناء عليه بالاضافة لشكرك كله ، وبقدر ما تسمح ، سوف أتابع بإضافة الأشياء التالية .

الفصل السادس والثمانون

في سنة النعمة لـ ١٢٢٢ ، وفي شهر أيار، حدث أن كانت هناك هزة أرضية كبيرة في قبرص ، وفي ليماسول ، ونيقوسيا ، وأماكن أخرى في تلك الجزيرة ، لا سيما في بافوس Paphos إلى درجة أن المدينة دمرت بالكامل مع القلعة ، والمخلوقات البشرية من الجنسين الذين كانوا هناك وقت حدوث الهزة ، فقدوا بالأجمع ، وجف الميناء حيث انبعثت المياه فيما بعد ، أو خرجت على شكل ينابيع .

الفصل السابع والثمانون

حشد في شهر حزيران من تلك السنة نفسها الملك المعظم جيشاً عرمرماً من العربية ، وفلسطين وأدوم وسورية ، وكان فيه عشرة آلاف فارس ، وخمسة عشر ألفاً من الجنود الرجالة ، وزحف به ضد غي صاحب جبلة ، الذي كان رجلاً شريراً وبلا مبالاة ، لهذا لم يرغب بالمشاركة في الهدنة العامة ، ورفض إعادة الأسرى المسلمين الذين كانوا في حوذته ، ومع أنه كان محصناً بشكل جيد ، بسبب الطبيعة الوعرة للمنطقة ولنيله المساعدات من المسيحيين ، مع هذا كله خضع لشروط هدنة مع المعظم ،كانت مؤذية له ومهينة لاسم

المسيحية .

الفصل الثامن والثمانون

في شهر حزيران من السنة نفسها ، صارالفتى فيليب بن بوهيموند ، أمير أنطاكية فارساً في أرمينيا ، وقد تزوج ابنة ليون ، الذي كان ملك أرمينيا من قبل ، وجرى تتويجه معها بشكل مهيب ، ملكاً لتلك المملكة ، وعندما جرى الاحتفال بذلك الزواج ، وكان الأرمن محتشدين مبتهجين من أجل هذه المناسبة العظيمة ، هاجم الأتراك من قونية تلك البلاد بكل قسوة مع حشد عظيم ، وقد قتلوا كل من وجدوه وحملوا معهم كثيراً من الأسلاب ، وفي الوقت نفسه كان بوهيموند أمير أنطاكية وكونت طرابلس موجوداً ومع أنه كان معه القليل من اللاتين فقط في ذلك الوقت ، لأنه لم يتوقع مثل هذه الحادثة الشؤم ، مع هذا قام مع ابنة الملك على الفور وبنشاط بمطاردة الأعداء عبر طرقات طويلة وصعبة ، ومع أن عدداً كبيراً من أتباعه قتل ، لكنه بحكم كونه رجلاً نشيطاً ، وبارعاً في استخدام السلاح ، طرد الأعداء وساقهم خارج حدود ألمانيا ، وبعد هذا استرد الأرمن واحداً من المعسكرات المحصنة ، واسمه سيبليا Siblia ، وكان قائماً عند الحدود بين أرمينيا وتركيا ، وكان سلطان قونية قد انتزعه منهم مع حصون أخرى بعد موت ليون

الفصل التاسع والثمانون

وفي الوقت نفسه أرسل فردريك امبراطور الألمان وملك صقلية أربعة غلايين الى عكا ، وجرى استدعاء الملك ، والبطريرك ، ومقدم إسبتارية القديس يوحنا ، وبعدما اجتمعوا عبروا في شهر إيلول وأسرعوا

للمشـاركة في مـؤتمر فيرونا ، الـذي أعلن عنـه من قبل الحبر الأعظم والامبراطور ، ليكـون في عيد القديس مـارتن (١١ — تشرين الثاني) وقـدم بالـوقت نفسـه مع الأمراء المتقـدمي الـذكر اللـوزد بيلاغـوس ، أسقف ألبانـو، ونائب الكـرسي الرسولي ، أمـا مقدم الـداوية مع جيش الـرهبنة نفسهـا فقدبقي في أرض الميعـاد من أجل حماية المسيحيـة ، وذلك تماشيـاً مع التوصيـة العـامة للبـارونـات ، وذلك بعدمـا أرسل رسلاً عقلاء وذوي مكانة الى ذلك المجمع .

ملحق أ

قسم الخاتمة في مخطوطة دارمستادت Darmstadt

عندما أنجز هذا كله صار حجاجنا أكثر كسلاً من خلال انعدام النشاط وحياة الاضطراب ، ولكونهم كانوا متشوقين للمرابح الأرضية فقد أثاروا غضب الرب القدير ضدهم، وعندما رأى أننا كنا ناكرين بالنسبة للمباركة التي تلقيناها، حكم أننا غير جديرين باستلام المزيد، وفي الحقيقة بها أنه لا القوة والنصر يعيشان طويلاً من دون الرب، وبسبب ذنوبنا التي بأشكالها المتنوعة الدنسة التي أغضبت صانع خلاصنا، أقدم بعض أبناء الشيطان، المتسترين خداعاً تحت العقيدة المسيحية، على الاقتراح علينا في أن ننطلق ضد السلطان مع جميع قوى جيشنا، وكان متمركزاً قرب بعض الحصون القريبة مع حشد عظيم من المسلمين، كان كبيراً بقدر رمال البحر التي لايمكن عدها، لكن على أمل منا أن الأمور سوف تسير وتنفذ من الرب مولانا وفقاً للرأي العام للحجاج، انطلقنا ضد أعداء الايمان، وبدون تدبر تركنا دمياط من دون دفاع، وعندما رأى السلطان بعد ثلاثة أيام فرار الحجاج، تظاهر من جهته بالفرار، وبشكل مخادع ترك معسكره حتى يتم نهبه من قبلنا،، وبادر مسرعاً مع جميع قوات مصر إلى دمياط مستخدماً طريقاً آخر، وأقام معسكره في بقعة ضيقة دون المدينة ودوننا، وبذلك لم يعد بامكاننا التراجع أو التداخل معها، انتبهوا كيف حدث تغيير مفاجىء في اليد اليمنى للعلي الأعلى، فقد كنا حتى آنئذ، نتحكم بقوة بأرض مصر، والآن وهو واقف ضدنا طردنا بتعاسة وغدونا فيها بين البرلس وجيزة دمياط، بين الجوع والعطش، فذلك كان اليوم الذي عنه كتب: « ذلك اليوم يوم سخط»الخ (صفنيا: ١/ ١٥) ولايسمح لي الأسف والنحيب والدموع الجارية بوصف الرعب واليأس، والمخاطر الخاصة بالموت، وبما أنه لم يبق

لنا من شيء سوى الموت بشكل تعيس، صرخنا جميعـا بصوت واحد نحو السماء إلى ربنـا يسوع المسيح، ورجـوناه بتـواضع العفو والسماح، غير أنـه وهو الذي يقـول بلطفه :« إني لا أسر بموت الشرير بل بأن يـرجع الشرير عن طـريقه ويحيا» (حزقيـال: ٣٣/ ١١)، غالبـا مـا تذكـر وهو غـاضب رحمتـه، ذلك أنـه عـادل ورحيم، وبما أنـه رأى الآن أننا تطهـرنـا بما فيـه الكفايـة بالاستغفـار وبالـدموع الجاريـة، عطل قسوة وعنف أعـدائنا، إلى حـد أنهم بعثـوا إلينـا رسلاً، نحـن الذين كنـا نتبـدد ونضمحل جـوعـاً، للاتفاق على الصلـح والوفاق معنا، وفق الشروط التاليـة: يمكن للسلطان استعادة المدينة وتملكها بسلام، وأنه سـوف يعطينا أماناً إليها لنصل بدون أذى يلحق بنـا شخصيـا أو بممتلكـاتنا، وذلك بتـزويـدنـا بما يكفي من السفن والميرة، وإننـا لنعلم أن الرسل قـد أرسلـوا من قبل الرب، لأنـه لم يكن قد تـرك لنا أي شيء سوى الموت أو عـار العبودية الـدائم، وكنا على استعداد لتقبل ذلك، وأن نعـود بتواضع لأن نراعي الشكر للـرب، وعندما تم إقـرار هذه الاتفـاقـات، وأبرمـوا من خـلال الرهـائن والأيمان، تحركت عواطف السلطـان نحونـا ورحمنا وأشفق علينـا، حتى أنه قـام لأيام كثيرة بانعـاش حشدنـا كله ومسـاعدتـه بدون مقـابل، وأخيراً عندما عـرضت قضيتنـا عليه وتم اقـرارهـا، اشترى سفناً وميرة بـأسعار عـادلـة، وأعطانـا جوازاً آمنـا، فمن الذي يمكنه أن يشك أن هذا اللطف، وهـذه السماحة، والرحمة لم تأت إلينا مـن عند الرب؟ فهؤلاء الذين قتلنـا آباءهم وأولادهم وبنـاتهم وأخوانهم وأخـواتهم بمختلف أنـواع التعذيـب ، هؤلاء الـذين ضـاعت ممتلكاتهم ، أو أننا ألقينا بهم عـراة بعدمـا أخرجنـاهم من بيوتهم ، سـاعدونا على استرداد عافيتنـا بوساطـة أطعمتهم ذلك أننا كنا نمـوت جوعاً ، وفعلوا هـذا مع أننا كنا في قبضـة يدهم وتحت سلطانهم ، وهكذا غادرنا مينـاء دمياط مع حزن عظيم وبكاء ، وتبعاً لاختلاف أممنا تفرقنا حتى نهايتنا في النعمة السرمدية

(٢)

المنتقى من مختصر تاريخ القدس

تأليف

جاك دي فيتري

– ٢٠٧٣ –

استهلال

ولـد جاك دي فيتري في فيتري ـ سـورسين ، وأصبح كـاهناً شماساً لأرجنتويل Argenteuil في سنـة ١٢١٠ ، وقد جعلـت زيارة لـه لأويني منـه راهباً، وغـدا بعـد أمد وجيـز كـاهنا من كهنـة أوستن في فيلابروك Villebrouikفي برابانت .

وما لبث جـاك أن أصبح واحداً من الرجالات القيـاديين في أيامه ، حتى كـان تأثيره على الحركـة الصليبية في القـرن الثـالث عشر ، لا يقل عن تأثير بطرس النـاسك عليها في القـرن الثاني عشر ، وقد جـاء هذا بشهادة معاصريه ، وهكذا قال ايتين بوربون:

<<predicaindo totam commovit franciam, quad non putat memoria aliquem ante vel post sic movisse>>

وما تـزال مواعظ قـداسات دي فيتري موجـودة ، وهي من الصعب أن تثير كثيراً من الحماسـة في هـذه الأيام ، لكن لا يـوجـد أدنى شك حـول نجاحهـا في أيـامهـا ، وبشر دي فيتري أولاً بالصليبيـة ضـد الألبينيين ، ثم أوقف حياتـه على العمل لاسترداد الضريح المقدس ، وتقدمت الاشـارة في كتاب الاستيلاء على دميـاط إلى أدوار جاك دي فيتري في الحملة الخامسة ، وهي الحملة التـي جاءت إثر عقـد مجمع اللاتيران في ١٢١٥ ، ودعـوة هذا المجمع للحـرب المقدسـة ويقول فللر Fuller : لا بـد أن هذه الـدعوة قـد أنعشت الآمال في رؤيـة إعـادة تأسيس المملكة الـلاتينية في فلسطين ، ونتيجـة لما بذلـه دي فيتري من جهود أجيز بتعيينه أسقفاً لمدينة عكا عام ١٢١٧ .

وكانت هـذه السنة سنة صليبية الملك أنـدور الهنغاري ، التي تم خلالها الاستيـلاء على منطقة الجليل ، لكن غير هـذا كان ما أنجـزته

قليلاً ورافق دي فيتري في السنة التالية الجيش الصليبي لحصار دمياط ، حيث أسهم بالأعمال العسكرية هناك واهتم بتحويل أطفال المسلمين الى المسيحية وتعميدهم ، وهذه الظاهرة نراها الآن علنية للمرة الأولى في تاريخ الحملات الصليبية .

وفي سنة ١٢٢٧ ترك دي فيتري فلسطين ، وذهب عائداً إلى أويني، وقدم في سنة ١٢٢٩ الى روما مرة جديدة ، وهناك تنازل عن رسامته أسقفاً لعكا الى البابا غريغوري التاسع .

وإثر هذا صار كاردينالا وأسقفاً للقدس، ونائباً للبابا في فرنسا وألمانيا، وغدا في آخر المطاف بطريرك القدس ، وقد توفي في روما في ٣٠ نيسان لعام ١٢٤٠ ، وكان ذلك قبل أن يدخل بطركيته.

ويظهر من العرض الموجز المقدم أعلاه لحياة دي فيتري أنه قد ولد في الآونة التي أصيبت فيها الحركة الصليبية بصدمة أخبار تحرير صلاح الدين لمدينة القدس ، ولا بد أنه كان في صغره على دراية بتقاليد الأخبار عن غودفري وتانكرد ، وبقصص أيامه عن فيليب أغسطس ورتشارد قلب الأسد، وكان قبل أن يموت قد رأى القدس مجدداً بأيدي الصليبيين ، علماً بأنه كرجل كنسي قد قدّر الامبراطور فردريك الثاني على أنه مجرد رجل مرتد ، مع أن هذا الامبراطور هو الذي تسلم القدس من السلطان الكامل الأيوبي .

وبناء عليه ، قلة هم الكتاب الذين كان بإمكانهم تصوير مشاعر الصليبيين في تلك الحقبة ، بشكل أفضل من جاك دي فيتري ، ذلك أنه نشأ بين ذكريات الصليبيين ، وعندما صار رجلاً بشر من أجل الحركة الصليبية ، وقاتل مع الصليبيين في كل من مصر وفلسطين ، ومع هذا فإن ما عرفه عن الأرض المقدسة نفسها لم يكن كثيراً بإستثناء ما سمعه عنها ، لأن جلها كان أثناء أسقفيته في أيدي

المسلمين ، ولا شك أن الذي أحسن عرضه هو مشاعر عدم الثقة والكراهية لدى الصليبيين المحليين الدهاة من أبناء الصليبيين القدامى من الحقبة البطولية ، نحو البدائيين الحمقى الجدد التي جلبتهم حملات الحجاج المتوالية ،وقد حفظت لنا نعوت الشتم التي وسم بها كل طرف الطرف الآخر ، وهي : بوليان ، وبولفان ، وأبناء الأبطال Filii Hernaudi ، ولوقت كبير لم يكن هناك اتفاق بين الباحثين حول أصل ومعنى كلمتي : بوليان وبولفان ، لكننا شرحنا ذلك بشكل علمي موثق في الجزء الثامن المتقدم ، هذا وكان السيروولتر بيزانت (القدس مدينة هيرود وصلاح الدين ص ٢٧٤ ـ ط . جديدة ١٨٨٩) قد ذهب إلى أن «مناخ سورية سبب تدنياً سريعاً في الشجاعة والقوة لدى العرق اللاتيني »، وهذا الكلام غير مقبول لعنصريته ، ثم من الذي زلزل الأرض تحت أقدام الصليبيين ثم طردهم بعد قرنين غير السوريين ؟ هذا ونجد أن اسلوب جاك دي فيتري مليء بالنعوت ، وهكذا نراه يولول مثل امرأة غاضبة عندما يعرض شكواه عن عصره ، الذي ربما لم يكن أسوأ مما تقدمه ، ثم إن حدة الهجاء لديه وحرارته قد انتزعت منه معظم قوته .

ومهما كان رأينا باسلوب دي فيتري ، هناك قليل من الشك أنه قد كتب هذا الجزء من الكتاب من خلال معاناته الشخصية ، هذا ولا يمكننا قول الكثير عن البقية كما أنه من الصعب تبيان كم من الوصف الطبوغرافي لديه هو أصيل ، أما تاريخه فقد اعتمد فيه الى أبعد الحدود على تاريخ وليم الصوري ، وتظهر مجموعته من الحكايات والأساطير التي أوردها في نهاية تاريخه المختصر أنه امتلك شهية لا تعرف الحدود وشرهاً نحو «العجائب» وأنه كان بلا مؤهلات نقدية مهما كان نوعها .

لقد كان مؤلف جاك دي فيتري كبيراً ، وقد ضاع منه جزء كبير ،

كما أن بعض الفصول التي وصلتنا ، تسلمناها مبتورة ، ومن المقدر أن ما ضاع من الكتاب لم يؤثر عليه أو بالحري لم يفقد ما وصلنا قيمته ، فالذي ضاع تعلق بفضائل القدس وفلسطين وبمكانتها عند المسيحيين ، مع أوصاف جغرافية وطبوغرافية ، ونظراً لنقله عمن تقدمه فقد وقع في أخطاء كثيرة بالنقل لفقدانه القدرة على النقد والتدقيق كما أشرنا أعلاه ، يضاف الى هذا أنه مع عقليته الخاصة وتكوينه اللاهوتي كتب تاريخه في الغرب وقد تقدمت به السن ، ومع هذا ظل هذا الكتاب على ما له وما عليه وثيقة من أهم وثائق القرن الثالث عشر ، يفترض بالباحث والقارىء الاطلاع عليها والتعرف الى محتواها .

تاريخ القدس

تصنيف جاك دي فيتري

(أسقف عكا . كاردينال أسقف توسكولم . النائب البابوي في فرنسا وألمانيا . بطريرك القدس)

يبدأ هنا التاريخ المختصر للقدس

اختار الرب أرض الميعاد المقدسة ، وأحبها ، وبجلها بوساطة الملائكة المقدسين وجعلها موضع اعجاب العالم أجمع ، لأنها المفضلة من قبل الرب ، فهو جعلها تشع بحضوره فيها بالجسد ، وبناء عليه توجب إنقاذ الجنس البشري بوضعه للقرابين التي جعلنا بوساطتها أحراراً ، وعلى هذا أحب الرب هذه الأرض بمودة أكثر من الأراضي الأخرى ، وكان أن شاء الرب أن تتعرض هذه الأرض الى الكثير من المحن بسبب ذنوب الناس ، وأن تكون عرضة لمختلف الإضطرابات من قبله الذي حرم علينا إعطاء الأشياء المقدسة الى الكلاب أو رمي اللآلي أمام الخنازير ، ولقد آلت ملكيتها الى كثير من المتملكين ذلك أن بعضهم أتى إليها ، ومضى بعضهم الآخر بعيداً ، لكن نادراً ما قام أحدهم بالتمييز بين الأشياء المقدسة والأشياء المدنسة ، واستخفوا بهذه الأرض المرغوب بها ، ذلك أنها الأرض التي تفيض بالحليب وبالعسل ، ثم إنها أرض مولانا يسوع المسيح ، والآباء المقدسين ، والأنبياء والرسل ، ولقد دنسوها بمختلف أنواع النجاسات ، حتى تحقق بذلك ما تفوه به الرب بلسان النبي بقوله :« إن الذي يمسسك بسوء يمس بؤبؤ عيني » (زكريا : ٢/٨)، لأن العين تحب وتقدر أكثر من أي عضو من أعضاء الجسد ، ولهذا عندما يقع وسخ ما في العين نبادر مسرعين ، باذلين أقصى جهودنا ، لإزالة هذا الوسخ ، وهكذا فعل مخلصنا ، عندما أوجع ، وجلد ، وطرد المذنبين الذين سكنوا في الأرض المقدسة التي أضفى عليها امتياز حبه الخاص ، ويكون بعمله هذا قد طهرها من دنس ذنوبهم ، وعندما يتوبون وتتحول قلوبهم مرة جديدة ، يعيدهم هو برحمته الى الوضع نفسه ، ذلك أن العمق يدعو الى العمق ،أي أن عمق البؤس يدعو

- ٢٠٨٠ -

الى عميق رحمته ، ولكي نبرهن على صحة ما ورد أعلاه نسوق بعض الأمثلة القديمة : كان ملكيصادق ، كاهن العلي الأعلى ، ملكاً على سالم ، التي باتت فيما بعد حسبما يعتقد غالبية الناس ـ تعرف باسم القدس (أورـ سالم) ، وذلك حسبما نقرأ في سفر التكوين ، وقد تملك غالبية القدس من بعده ملك اليبوسيين ، وظلت بأيديهم حتى أيام داود ، وكان عندما وصل ظلمهم الى الغاية القصوى ، أحال الرب الى أيدي أبناء اسرائيل المدينة المقدسة والمكان الذي كرسه لنفسه خاصة ، وذلك حتى يتعبدوه هناك ، ويقدمون الأضاحي من مختلف الأنواع ، وهي كلها سوف تجسد التضحية الأعظم التي لا يمكن وصفها .

لكن فيما بعد عندما تضاعفت ذنوب سكانها، وباتت أكثر حتى من رمال البحر، وذلك في أيام الملك صدقيا، والنبي إرميا، سقطت في أيدي البابليين وظلت تحت سيطرتهم لمدة سبعين سنة.

- ٢٠٨١ -

الفصل الحادي والعشرون

بعد تخليص المدينة المقدسة وتحريرها، عاد كثير من قومنا — وقد وفوا بنذورهم وحققوا رغباتهم — وهم يشعرون بالبهجة، إلى أوطانهم، وعرف رجال كثيرون وذوي مكانة عالية، وأدركوا بشكل حكيم أنهم لايمكنهم الحفاظ على المدينة مالم يتمكنوا من توسيع حدودها، وإبعاد الأعداء عن حدودها وطردهم إلى أماكن قصية، ولهذا اختاروا البقاء هناك وسط المخاطر العظيمة وفضلوا ذلك على التخلي عن المدينة، وبذلك كانوا يقدمون أضحياتهم إلى الرب، ويقومون بتنفيذ أوامره، بإعطائه ليس الرأس فقط لكن الذيل أيضاً، وكانوا — على كل حال — عددهم قليل، مقارنة بالأمم التي أحاطت بهم، وكانوا مطوقين من جميع الجهات بحشود هائلة من غير المؤمنين، منهم العرب، والمآبيين والعمونيين في الشرق، والأدوميين والمصريين والفلسطينيين في الجنوب، وفي الغرب حيث المدن الساحلية: عكا، وصور، وطرابلس والمدن الأخرى حتى أنطاكية، وفي الشمال قيسارية فيليب، ومنطقة الأسقفيات العشر، ودمشق،ومع هذا لقد آثروا تعريض حياتهم للخطر في سبيل المسيح على التراجع بعدما وضعوا أيديهم على المحراث، وبالتالي أن يتركوا العمل دون أن ينتهي، والآن لم ينظر هؤلاء الرجال المقدسون نحو الخلف أثناء مضيهم نحو الأمام، بل نسيوا الأشياء التي كانت خلفهم، ووصلوا في الأمام إلى الأشياء التي مازالت تنتظرهم، ورأوا أن ما من شيء قد أنجز طالما بقيت أشياء لم تنجز، وكان الرب معهم يرشدهم ويقويهم، ويلقي الرعب الشديد في قلوب الكفار من حولهم، إلى حد أن واحداً منهم كان بإمكانه أن يطارد ألفاً، وبإمكان اثنان منهم مطاردة عشرة آلاف، وبناء عليه لم يعلقوا آمالهم على شجاعتهم أو عددهم، بل على حماية الرب، وهكذا كانوا يحملون معهم أثناء القتال راية الصليب المنقذة، وبذلك

أمكنهم إلحاق الهزيمة بأعدائهم، فقسم من هؤلاء الأعداء قتلوه وقسم أخذوه أسرى، وربحوا من أجل المسيح أقوى المدن، والقلاع التي كانت لاترام حصانة، وانتزعوا الأرض المقدسة من قبضة الكفار بشجاعة متكافئة ونجاح.

الفصل الثاني والعشرون

في أول انطلاقة لهم، وقف الصليبيون أمام مدينة يافا على شاطىء البحر، وبعنف استولوا عليها عنوة، وكانت الغاية من ذلك أن يتمكن، الذين قدموا مبحرين من بلدان ماوراء البحر، من تقديم العون للحشد الصليبي، لدى امتلاك هذا الحشد مرسى خاص بهم لسفنهم، حتى يمكنهم الركوب من تحت أسوار المدينة المتقدمة الذكر، يضاف إلى هذا كانت هناك الرملة، التي يدعوها بعضهم باسم راماثاRamatha ، والتي هي واقعة وسط سهل، وكانت مدينة عظيمة، مليئة بالسكان، محاطة بسور حجري ممتن بأبراج عالية، وكانت هناك أيضاً حيفا، التي اسمها الآخر هو بورفيريا Porphyvia (كذا والصحيح أن بوفير ليست حيفا، بل تبعد عن صيدا ثمانية أميال إلى الشمال منها)، وتقوم حيفا على شاطيء البحر، عند بداية سفح جبل الكرمل، على بعد حوالي الأربعة أميال عن عكا، ومثل هذا هناك مدينة طبرية في الجليل، القائمة على بحر جنسارث، ومن اسم طبرية بات هذا البحر يعرف ببحر طبرية، وبشكل عام باسم بحر الجليل، هذا وجرى الاستيلاء على هذه المدن من قبل شعبنا، في السنة الأولى بعد الاستيلاء على القدس، وكان يقوده غوردفري، الدوق الشجاع.

-٢٠٨٣-

الفصل الثالث والعشرون

وخرجت في أواخر تلك السنة روح غودفري من جسده، وجرى اختيار أخاه بلدوين لخلافته، وذلك باجماع عام، وكان فارساً شجاعاً في القتال، مدرباً وصاحب خبرة بالحرب منذ طفولته، وجرى تعميده ملكاً، ولقد كان رجل حرب، وحكيماً، وحريصاً في إدارته لأعماله، متشوقاً بشدة لتوسيع حدود مملكته الصغيرة، وبمساعدة الجنويين، الذين رسا اسطولهم في ميناء يافا حوالي بداية الربيع، استولى على بلدة أرسوف القائمة على طرف البحر، وهي أيضا تعرف باسم أنتبارتس نسبة إلى أنتبارتر، والد هيرود، وهي قائمة فيما بين يافا وقيسارية في مكان بهي، تكتنفه غابات كثيفة ومروج خصبة كثيرة الأعشاب.

الفصل الرابع والعشرون

وقام بعد هذا، بمساعدة الجنويين المتقدم ذكرهم بمحاصرة قيسارية الفلسطينية من كل من البحر والبر، واستولى عليها، وكانت قيسارية هذه تدعى من قبل برج ستراتو وقد أعاد هيرود الذي ذبح الأطفال عمارة قيسارية على شرف قيصر، وهي قائمة على طرف البحر، لكنها لاتمتلك ميناءً موائماً، هذا وفيها وفرة من الحدائق والمراعي والمياه الجارية، وهي المدينة الرئيسية في فلسطين الثانية (الصحيح الأولى لأن بيسان حاضرة الثانية)، وفيها سجن القديس بولص الرسول لمدة طويلة، وقدم التماساً حتى يسمح له بالذهاب إلى روما.

الفصل الخامس والعشرون

وقام الملك بلدوين المتقدم الذكر، بعدما استولى على قيسارية، بقيادة جيشه المحتشد كله من المهمة الصغرى إلى المهمة الكبرى، وألقى الحصار على عكا، لأن عكا كانت أكثر مواءمة لإستقبال الحجاج، وتمتلك ميناءً جيداً، يهيء ملاذاً آمنا للسفن، وهاجمها الجنويون من طرف البحر مع سبعين من الغلايين، وضغط عليها قومنا من جانب البر بشدة وبدون توقف، وبعد عشرين يوماً، عندما وجد سكانها أنفسهم غير قادرين على متابعة تحمل الهجمات الحادة والمتوالية التي قام بها قومنا، سلموا المدينة إلى الملك، بشرط السماح لهم بمغادرتها ومعهم مقتنياتهم، وتمتلك هذه المدينة المتقدمة الذكر اسمين هما بتولمياس Ptolemias، وعكا، وذلك بسبب أن أخوين، اسم أولهما بتولمي والآخر عكون قد أسساها كما قيل، ومن ثم حملت اسميهما، وهي قائمة فيما بين البحر والجبال، ومبنية على موقع موائم على ضفة نهر بليوس Belus (النعامين وقبل ذلك بعل)، وفيها حدائق كثيرة، وكثيراً من الكروم، ويحيط بها كثير من الأراضي الصالحة للزراعة، وهي قائمة في مقاطعة فينيقيا، ومدينة صور مركز مطرانيتها.

الفصل السادس والعشرون

وقام شعبنا إثر هذا بالقاء الحصار على مدينة بيروت بوساطة البحر والبر، وقد انضم إليهم برترام كونت طرابلس النبيل، وبعد شهرين من الحصار، أمكن جلب أبراج خشبية ودفعها نحو الأسوار، وإلصاقها بها بوساطة السلالم، وبذلك تمكن الصليبيون من شق طريقهم إلى داخل المدينة، فقتلوا عدداً كبيراً من السكان، ووضعوا البقية في الأصفاد

وجعلوهم أسرى لديهم، وبيروت مدينة قائمة على شاطىء البحر بين صيدا وجبيل، في بلاد فينيقيا، ومدينة صور هي مركز مطرانيتها، وهي مدينة جميلة وخصبة، وفيها أشجار فواكه وكروم، وهنا حدث أن صلب اليهود تمثالاً خشبياً للمسيح استخفافاً وسخرية به، وعندما خرق من قبلهم بوساطة مسامير وحربة، تدفق الدم منه بغزارة، ولدى رؤية هذه المعجزة قام جميع اليهود بطقوس التعميد.

الفصل السابع العشرون

وفي السنة نفسها التي جرى الاستيلاء بها على بيروت لم يكن الملك كسولاً، فهو لم يتسلم نعمة المسيح عبثاً، ولهذا استطاع أن يضع مدينة صيدا تحت سلطانه، بذراع قوية، وسلاح ماض، وأرغم السكان، بعدما عجزوا عن مقاومته، على التخلي عن مدينتهم وتسليمها إليه، ومدينة صيدا قائمة في مقاطعة فينيقيا، على شاطىء البحر، بين صور التي هي حاضرة المقاطعة، وبيروت، وفيها أشجار فاكهة وكروم، وغابات وحقول، بعضها مراعي وبعضها الآخر قابل للفلاحة، ولهذا كان السكان يستفيدون من ذلك كثيراً، وتلطف المولى يسوع بشخصه فزار حدودها، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل (متى:١٥)، وقد مضى يسوع من هنالك، وخرج متجولاً في سواحل صور وصيدا، وفي سفر الملوك الثاني (كذا) قال سليمان لحيرام: «لأنك تعلم أن ليس فينا مع يعرف ينجر الخشب مثل الصيدونيين». (الملوك: ١/ ٥/ ٦).

الفصل الثامن والعشرون

والآن بعدما مدّ الملك حدود مملكته في الجانب الغربي حسبما حكينا، رغب في توسيع المملكة الصليبية إلى ماوراء الأردن في الشرق، فبنى قلعة

غاية بالقوة على جبل مرتفع في العربية الثالثة التي تعرف باسم سورية صوبال (أي صوبا) ودعيت هذه القلعة مونتريال (الشوبك) لأنها بنيت من قبل الملك، وهي غنية بالقمح، والخمرة والزيت، وهي محط إعجاب لجمالها ولصحة مناخها، ويمتد سلطانها فوق المنطقة المحيطة، لابل حتى حدود مآب، ومياه الحسي Strife .

الفصل التاسع والعشرون

ومضى في السنة نفسها الملك بلدوين، صاحب الذكرى المباركة أبداً على طريق جميع الأجساد، وذلك بعدما بنى حصنا في مكان قام فيما بين عكا وصور، ويعرف هذا المكان عموماً باسم اسكندرونة، وهو مكان كثير المياه على بعد خمسة أميال من صور، وقد دفن بكل تبجيل، يليق بعظمته الملكية، عند سفح جبل الجمجمة، في مكان يعرف باسم الجلجلة، وكان خليفته نبيلا، ورجلاً شجاعاً، صاحب ممارسة للحروب، ومتدين ، ويخاف الرب، واسمه بلدوين دي بيرغ، وقد كان من مملكة فرنسا، ومن أقرباء الملك المتقدم الذكر.

الفصل الثلاثون

قد يحتاج الأمر وقتاً طويلاً، ولربما سيكون فوق مقدرتي الفقيرة أن أبين ما هية القوة والعظمة، وأن أوضح أية أصالة وأي نشاط حمل فيها الرجل المتقدم الذكر نفسه، وجنود المسيح الآخرون أنفسهم في كل مناسبة من المناسبات، فكانوا بمثابة جيل ثانٍ من المكابيين، وقد كرسوا أيديهم للرب في توسيع رقعة المملكة والحدود الصليبية، وفي قتال الأعداء، والاستيلاء عنوة على المدن الحصينة والأماكن القوية، ولسوف تروى أخبار معاركهم وانتصاراتهم في جميع كنائس القديسين حتى نهاية الزمان،

ودعونا نتكلم بلطف وباختصار عن الدويلات الأربعة النبيلة، وهن اللائي تحكم بهن لمدة طويلة الجنس الدنس من الكفار، واللائي بعون الرب عدن إلى سلطان كنيسة المسيح، وأولهن كونتية الرها في بلاد الميديين، وهي تبدأ عند غابة اسمها مرثيا Marcitha (مرعش؟) وتمتد حتى ما بعد نهر الفرات باتجاه الشرق، وتشتمل في داخلها على عدد كبير من المدن، مع كثير من القلاع والأماكن الحصينة .

الفصل الحادي والثلاثون

الرها مدينة نبيلة، وهي حاضرة الميديين، وكان اسمها القديم حسبما نقرأ في سفر توبيت راجس Rages ، وتعرف الآن بشكل عام باسم رواس Roasse ، ومنها كان توبيت قد أرسل ابنه إلى جبائيل من مدينة نينوى، التي تعرف في هذه الأيام باسم الموصل، أو موصي Mosse في العامية، وتحولت هذه المدينة إلى المسيحية بوساطة ثيودورك الرسول، وذلك بفضل تبشيره ومعجزاته، وفيها كما قيل دفن الجسد الطاهر للقديس ثاديوس thaddaeus الرسول، وحكم هنا تبعاً لما جاء في مختلف المصادر التاريخية القديمة، والتاريخ اللاهوتي، الملك أبجر، في أيام المسيح، ولدى سماعه، واندهاشه بالأعمال الرائعة للمسيح، وبالمعجزات التي لم يسمع بمثلها التي كان المولى يسوع يقوم بها في اليهودية، بعث إليه برسالة، تنازل مولانا وتلطف بكتابة جواب لها، وكانت هذه المدينة القديمة والنبيلة مملوكة من قبل اللورد بلدوين، أخو الدوق غودفري، قبل استدعائه إلى مملكة القدس، وقد قام هو وخلفاؤه الذين جاءوا من بعده بطرد المسلمين منها، وجعلوا جميع منطقة الرها تحت سلطانهم، وهذه المنطقة غنية جداً بغاباتها ومراعيها وأنهارها، وحملت هذه البلاد اسماً خاصاً بها هو الجزيرة، أو بلاد ما بين النهرين، لأنها قائمة في الوسط ما بين نهرين، (ميزوبوتاميا)، ذلك أن كلمة «ميزو»

في الاغريقية تعني «الوسط» و« بوتوماس» أيضا بالاغريقية هي الكلمة التي معناها النهر، وتوجد في هذه المنطقة مدينة حران، حيث سكن ابراهيم، عندما جاء من (أور) الكلدانيين، وذلك قبل ذهابه إلى أرض الميعاد، ولهذه المنطقة المتقدمة الذكر ثلاثة رؤساء أساقفة، أحدهم للرها، والآخران لجيروبولس Geropolis ولكوريكوسCorieus، وهم تحت سلطان بطريرك أنطاكية.

الفصل الثاني والثلاثون

وكانت الإمارة الثانية هي إمارة أنطاكية، وحاضرتها هي مدينة أنطاكية، وتمتد حدودها غرباً حتى طرسوس في كليكيا، مسقط رأس بولص الرسول، وحدها الشرقي هو النهر الذي يجري بين بانياس Va-lenia (الساحل) تحت قلعة المرقب، ومرقية Maraclea (نبع حسان قرب الرمال الذهبية خارج طرطوس)، وهما مدينتان على شاطىء البحر، وكان الاسم القديم لمدينة أنطاكية هو ربلة *، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الرابع، حيث ورد أن زكريا ملك القدس قد حمله نبوخذ نصر، ملك بابل، إلى ربلة، وأنه ذبح ابنه أمام عينيه، واقتلعوا عيناه بناء على أمر الملك السالف الذكر، أي ملك بابل، ونالت بعد ذلك اسم أنطاكية من الملك أنطوخيوس، الذي وسعها كثيراً، وجعلها المتقدمة والحاكمة لجميع مقاطعات الشرق، وبعدما تحولت إلى الإيمان بالرب من خلال تبشير القديس بطرس ومعجزاته، والقديس بطرس الذي هو أمير الحواريين، كان أول من تسلم الأسقفية فيها، ثم أطلق عليها اسم ثيوفيليس Theophilis، من خلال اسم ثيوفيلوس Theophilus، وهو نبيل ومواطن قوي، تمت سيامته فيها بعد ليكون الأسقف السابع هناك،

*— وهم المؤلف فربلة قائمة على العاصي فيما بين حمص وبعلبك.

وهكـذا فإن المدينة التي نـالت اسمهـا أولاً من ملك كافـر، حصلت على اسمها الجديـد من خلال رجل مقـدس ومتدين، وهـو ثيوفيلـوس، الذي كرس القديس لـوقا الرسول— الذي جاء من المدينـة نفسها— له أعمال الرسـل، وفي هذه المدينة تلقى للمـرة الأولى أتباع المسيح الاسـم المقدس الذي أطلق عليهم من قبل الـرب نفسه وبلسانه، وبـاتوا يعرفون بـه منذ ذلك الحين، وهـــو اسم المسيحيين، الـذي اشتق مـن اسم المسيح، حيث كانـوا يعرفون من قبل باسم الجليليين والحواريين(*)، ويحتل هـذا المكان المقام الثالث بـالنسبة لكنائس الرب والكراسي الرسـولية، وتحت سلطان بطركها عشرين مقاطعة، أربع عشرة منهـا في الجزيرة تدار من قبل أساقفة مسـاعـدين، أمـا الست البـواقـي فتـدار من قبل رئيسين يحمل كل منهما لقب جاثليـق، أحدهما هو جـاثليق مدينـة السلام أو بغداد، التـي عرفت من قبل بـاسم بـابل، أمـا الأخـرى فهي آن An، التي تعـرف أيضـــــا بـاسم أبـرشيـة فارس، وتقـوم أنطـاكيـة في منطقـة تعرف بـاسم سـوريـة المجوفة، في مكـان موائم جداً، بين الجبال والانهار، وتمتلـك حقولاً خصبة جداً وتـربة صـالحة، وهي محلاة بأنهار منفردة وينـابيع مياه، وإلى جـوارها بحيرة فيهـا وفـرة من الأسماك، وهـي على بعـد عشرة أميـال أو اثني عشر ميلاً عـن البحر، ولها مرفـأ عند مصب نهر العاصي يـدعى ميناء القـديس سمعـان (السويـدية)، وهنـاك إلى الشمال منهـا جبل يعرف بـاسم «التل الأسود»، مليء بالرهبان والنساك من كل ملة وجنس، مع كثير من الديرة

---

*— المشهـور أن بولص (شـاول) الرسـول بعـدما سيطـر على الكنيسة، قـال لأتباعـه في أول اجتماع عقده لهم : «أنتم أول النصارى وآخـر الجليليين»، ومن المرجح أن معنى كلمة نصراني هو غنوصي— وذلك اعتماداً على وثائق الـرها لمطلع القرن الميلادي الاول، وقيل حـديثاً: اشتق الاسم من نقـابـة للصيادين وجـدت في خليج العقبـة وكـانت تصطاد هنـاك سمكـاً حمل اسم نصراني، ويـربط بعضهم الآخـر هذه التسميـة بـالصابئـة الـذي سمـوا أنفسهم النصارى، وربطـوا ذواتهم بيوحنا المعمدان.

رهبانها من النوعين الاغريقي واللاتيني، وبما أن هذا التل مليء بالمياه الصادرة عن الغدران والينابيع، فهو يعرف باسم جبل نيروNeros، أي المائي لأن كلمة نيرو بالاغريقية تعني ما تعنيه كلمة ماء باللاتينية، لكن الجهلة من العامة يدعونه «نوار» Noire، أي الاسود، في كلامهم الدارج.

الفصل الثالث والثلاثون

والإمارة الثالثة بين الإمارات الأربع المتقدمة الذكر هي كونتية طرابلس، التي تبدأ عند الغدير المتقدم الذكر، الذي يجري تحت قلعة المرقب، وتنتهي عند الغدير الذي يجري بين جبيل وبيروت، وهما مدينتان قائمتان على شاطيء البحر، وطرابلس مدينة نبيلة وثرية قائمة على شاطيء البحر، في مقاطعة فينيقيا السورية، وهي قائمة في مكان مناسب، في موقع موائم جداً، يُسقى بوساطة مجاري المياه والينابيع، وهي غنية بالقمح، وبأشجار الفواكه، وبالمراعي الخضراء، وتتمتع بمنافع كبيرة من مجاورتها لجبل لبنان، وتلاله المنتشرة، وينبع عند سفح جبل لبنان في هذه الأجزاء نبع فائق (نهر قاديشا) الجمال بمياه نقية جداً، تتدفق من خلال ممر تحت الأرض في لبنان، وتسقي بوفرة جميع حدائق الكونتية، ولقد قالوا بأن هذا هو نبع الحياة الحية، الذي أتى سليمان على ذكره في نشيد الانشاد (٤/ ١٥)، وقرب هذه المدينة ينابيع مياه عذبة تتدفق بغزارة بين أمواج البحر المالحة والمرة، وهنا أيضاً كروم تحمل ثمارها مرتين في العام.

وحوصرت هذه المدينة الجليلة لمدة طويلة بعد الاستيلاء على القدس، والذي تولى ذلك هو ريموند (صنجيل) كونت طولوز، وكان رجلاً جديراً بالثناء في كل شيء، وفارساً شجاعاً، وعبداً تقياً للرب، وقد بنى قلعة إلى جانب المدينة حتى يتمكن بمواءمة أكبر من محاصرتها، وأطلق على هذه

القلعـة اسم قلعة (تلـة) الحجاج، ومـاتـزال تحمل هذا الاسم حتى هـذا اليوم لأنها بنيت من قبل الحجـاج، وتابع ابنـه برترام الحصـار بعد وفـاته، وتمكن بعـد سبع سنوات من الاستيلاء على المدينـة بـاستسلام سكـانها، وتسلمهـا بمثابـة اقطاعيـة من ملك القـدس، الذي كـان مـوجوداً أثنـاء الاستيلاء على المدينة، والذي أصبح هو الرجل التابع له.

الفصل الرابع والثلاثون

والدويلة الـرابعة هي مملكة القدس، التي تبـدأ عند النهر الصغير(نهر ابـراهيم) المتقـدم الـذكـر، الـذي يجري فيها بين جبيل وبيروت، وتنتهي بالقفار المتجهة نحو مصر، فيها وراء قلعـة تدعى الدارون (دير البلح)، وتمّ نيل مملكـة القـدس من أجل المسيح بعد جهـد كبير وسفك دمـاء كثيرة، ولقـد تمّ استردادهـا من قبل الأبطـال المنتصرين ورفـاق الـرب، الـذين حزمـوا أوساطهم بشـدة، ومتنوا أذرعتهـم، وطردوا أعداء الايمان بـالمسيح من دان حتى بير السبع، وأخرجوهم من الأرض المقدسة.

الفصل الخامس والثلاثون

ومدينة دان التـي هي الحد الشمالي لأرض الميعاد، مدينة قـديمة جداً، وهي قائمة عنـد سفح جبل لبنان بينه وبين دمشق، وكـان اسمها القديم هو لشم، لكن بعـدما استولى عليها أبنـاء دان، باتت تدعى بكل بسـاطة «دان»، وعلى كل حال وسعهـا فيها بعد فيليب الطيطراخ، الـذي كان ابن هيرود الأكبر، وسماها قيسـارية فيليب تكـريماً للقيصر تايبيروس، وتـدعى أيضـاً بـاسم بانيـاس، ويطلق عليهـا الآن بـالدارجـة اسم بلنيـاس(*)،

*— يعرف الآن موقع دان باسم تل القاضي، حيث أقام الاسرائيليون عنده مستعمرة سموها دان.

وتدعى الغابة المجاورة لها أيضاً باسم بانياس، لكن في القديم كانت هذه الغابة وبقية الغابة قرب جبل لبنان تدعى غابة لبنان.

الفصل السادس والثلاثون

وتشكل بير السبع الحد الشمالي للأرض المقدسة، وتقع بير السبع في جزء اليهودية الذي صار حصة لسبط شمعون، وتقع عند سفوح الجبال القائمة عند بداية السهل فيما بين عسقلان والجبال، وذلك على بعد عشرة أميال عن عسقلان، ومعنى اسمها وتفسيره «بئر المعاهدة» أو « معاهدة البئر»، لأن إبراهيم حفر البئر في هذا المكان، ليكون شاهداً على المعاهدة التي أقامها مع الملك أبيمالك، وتدعى أيضاً باسم بئر السبع (رقم سبعة)، ويطلق عليها في أيامنا هذه اسم جبلين(*).

الفصل السابع والثلاثون

إنها لمهمة صعبة، وأكبر من طاقتي، أن أعرض وأبين البراعات في القتال، وأعمال توسيع حدود المملكة الصليبية، التي تمّ انجازها بعون الرب من قبل جنود المسيح الأماجد، وهم أصحاب الذكرى المباركة، وكان جند المسيح هؤلاء، الذين دعيوا عن جدارة باسم المسيحيين، قد تمتعوا بموهبة الشجاعة ونالوها من عليين، ولقد قاتلوا لوقت طويل ضد المسلمين تحت قيادة مختلف الملوك، وحصلوا على جميع المدن والأماكن الحصينة من عند مدينة بلبيس، وهي تعرف أيضاً باسم بليسيوم(**)القائمة في البرية على حدود مصر، وتمتد حتى إلى الرها

---

*— هذا وهم فجبلين هي جبرين، وجبرين غير بئر السبع.

**— بليسيوم كانت قائمة على الساحل في حين قامت بلبيس على خط قناة قديمة من النيل إلى بحيرة التمساح.

وحرّان، وحدود كونتية الرها فيما وراء نهر الفرات، في بلاد الجزيرة، ونال كثير منهم تاج الشهادة الحلوة، ووسعوا كثيراً حدود مملكة القدس والمسيحية بسفك دمائهم، في حين ضموا إلى البلاد عدداً كبيراً من المدن والبلدات والأماكن الحصينة واستحوذوا عليها ووضعوها في أيديهم، أما من جهة البحر، فهم لم يتركوا مدينة أو حصنا فيما بين المدينة المسماة الفرما، القائمة على حدود مصر، ومملكة القدس حتى إلى اللاذقية في سورية، ولم يقيموا السلطة الصليبية فيها.

الفصل الثامن والثلاثون

الفرما (الآن تل الفرما، وهي بليسيوم القديمة) مدينة قديمة جداً على شاطىء البحر، وهي ليست بعيدة عن مصب نهر النيل، من حيث يدخل الانسان إلى مصر، وكان بلدوين، الملك اللاتيني الأول للقدس، قد استولى عليها عنوة، وحصل على عدد كبير من الأسرى، وكثير من الأسلاب له شخصياً ولأتباعه الجنود.

الفصل التاسع والثلاثون

وتأتي وراء الفرما مدينة قديمة أخرى، قائمة وسط البرية قرب شاطىء البحر،وتدعى لاريس (رمسيس)، والذي يليها هو مدينة بلبيس، والتي جاءت تسميتها عند الأنبياء باسم «بليسيوم»، وهي على بعد خمس غلوات عن شاطىء البحر، وأقام شعبنا سلطانه ومدّه فوق هذه المدن المتقدمة الذكر، مع أنها كانت فيما وراء حدود مملكة القدس، أي أنها بعيدة جداً خلف أقصى حصون المملكة باتجاه مصر.

- ٢٠٩٤ -

الفصل الأربعون

تقوم الدارون، وهي حصن أو بلدة على الحدود بين أدوم وفلسطين، على بعد خمس غلوات عن البحر ، وقد بنيت هذه القلعة من قبل عموري ملك القدس، على مكان مرتفع بعض الشيء، وبشكل مستدير، وبأربعة أبراج، وكان في هذا الموقع فيها مضى دير للرهبان الاغريق، ولهذا احتفظ باسمه القديم« الداروم» الذي معناه «دير الروم»، وتأتي غـزة تلو ذلك، وهي مدينة قديمة جداً، وتبعد أربع غلوات Stadia عن الحصن المتقدم الذكر، وقد كانت فيها مضى واحدة من مدن فلسطين الخمسة، وكان بلدوين، الملك الرابع للقدس قد وجدها مخربة وبدون سكان، فأعاد عمارتها على جزء من التل المرتفع، حيث قامت المدينة السالفة الذكر، وعندما إكتمل شطره من العمل تماما وانتهى، منحها إلى أخوانية فرسان الداوية، منحة أبدية، بغية الاحتفاظ بها والدفاع عنها ضد أعدائنا، وهي أيضاً تبعد عشرة أميال عن عسقلان، التي كانت أيضاً إحدى المدن الفلسطينية الخمسة، وهي قائمة على شاطىء البحر، وهي على شكل قوس، أو نصف دائرة، والوتر ممتد على طول شاطىء البحر، وعلى الجزء المستدير من الجانب البري المتجه نحو الشرق، وكانت هذه آخر المدن الفلسطينية التي بقيت في أيدي المسلمين، قبل أن تؤول إلى مملكة القدس، وذلك عندما تمكن الملك السالف الذكر بعد كثير من المتاعب والمزيد من المصاعب، وبعد حصار طويل، تمكن أخيراً من الاستيلاء عليها، لأنها كانت محصنة بأسوار وبأبراج كثيرة جداً مبنية بشكل دقيق، وكانت ذات شرافات وسواتر دفاعية قوية، وتحتوي على مخزون جيد من السلاح والطعام، وعدد كبير من الرجال المقاتلين، ومهما يكن الأمر، لقد أرغم سكان عسقلان على الاستسلام، بعد تأمينهم على حياتهم ومقتنياتهم.

-٢٠٩٥-

الفصل الحادي والأربعون

وتقوم أسدود فيما بين عسقلان ويافا، وتبعد عشرة أميال عن عسقلان، وهي قائمة على مسافة غير بعيدة عن البحر، وكانت فيما مضى احدى المدن الخمسة للفلسطينيين، غير أنها تراجعت الآن وتقلصت إلى حجم قرية صغيرة، وكانت جت (عراق المنشية) رابع مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على تلة غير بعيدة عن اللد والرملة، وكانت قد تعرضت للتشعيث منذ مدة طويلة، ولاسيما عندما بنى فولك، الملك الثالث للقدس، من حجارتها حصنا دعي باسم ابلين (يبنا)، فوق التلة نفسها، وعهد بها ووضعها تحت تصرف رجل نبيل اسمه بالين، الذي يحمل أحفاده حتى اليوم اسم «دي ابلين» نسبة إلى ذلك المكان، وكان هذا المكان مع أماكن أخرى، نذكر منها بير السبع أو جبرين(كذا) وبرج المراقبة الأبيض(تل الصافية)الذي يسمى باللهجة العامية«البرج الأبيض)،وهو قائم على مسافة ثمانية أميال عن عسقلان،حيث بني من شعبنا قبل الاستيلاء على عسقلان ليحد من قحة أهل عسقلان،ولكبح جرأتهم وغاراتهم على مملكتنا، وتدعى خامس مدن الفلسطينيين باسم عقرون(عاقر)،وهي قائمة على شاطىء البحر،ليس بعيداً عن أسدود.

الفصل الثاني والأربعون

وباستثناء المدن الفلسطينية الخمسة السالفة الذكر،التي نقرأ حولها في سفر الملوك الأول،بأن الفلسطينيين جلبوا إليها تابوت عهد الرب لإصابتهم بداء البواسير،تأتي المدن والأماكن الحصينة الأخرى القائمة على شاطىء البحر،نذكر منها:يافا،وأرسوف وقيسارية فلسطين،وهنالك قيسارية تدعى اسم قيسارية فيليب(بانياس) أودان،ويأتي بعد هؤلاء بترا انشيسا

Incisa(دوستري قرب عثليت)أوديستريكتوم Districtumبين دورا وكفر ناحوم(أي بين الطنطورة وكفر لام)،وهناك أيضاً مدينة أخرى اسمها كذلك كفر ناحوم على مقربة من بحيرة طبرية،حيث بشر فيها الرب وعمل عدداً من المعجزات، ثم تأتي حيفا أو بورفيريا porphyria، وتأتي بعد هذا عكا أو بتوليمياس Ptolemais ولقد قيل حول هذه الأماكن مايكفي.

الفصل الثالث والأربعون

ويأتي بعد هؤلاء صور،وهي مدينة جليلة وشهيرة،تقوم في عمق البحر،وهي محاطة من كل جانب تقريباً بالأمواج،وتمتلك ميناء مناسباً،وتوفر ملاذاً آمناً للسفن، وصور هي المطرانية والحاضرة لجميع مقاطعة فينيقيا،وهي من حيث الدفاع محاطة بسور ودفاعات وأبراج عالية،وفيها وفرة من الأسماك،ومروية بشكل جيد بالينابيع والغدران ذات المياه العذبة،وهي غنية ومحلاة بالكروم والحدائق، والأشجار المثمرةوحقول القمح،وعلى رابية في داخل أراضيها هناك نبع أو بئر قيل بأن الرب قد استراح عنده،عندما كان منهكاً من السفر،وذلك عندما سار على شاطىءصور وصيدا،ويحتوي هذا النبع على مياه نقية جداً،وهي تتدفق بوفرة،حتى أنها تروي جميع الحدائق،وبساتين البيوت،لابل في الحقيقة جميع المنطقة،وهو الذي أشار إليه سليمان في نشيد الانشاد بقوله:« وبئر مياه حية»(نشيد الانشاد:٤/ ١٥،والنبع هو رأس العين)،وهناك صخرة خارج المدينة،لكن قرب أسوارها يوقرها السكان المحليون ويبجلها الحجاج، لأن الرب قعد عليها هناك كما يقال،ووعظ الجماهير المحتشدة،ذلك أنه لم يرغب في دخول مدينة تابعة للوثنيين،ويحكى أن هذه المدينة القديمة جداً قد تأسست بعد الطوفان من قبل تيراس(حزقيال:٢٧/ ٣)ابن يافث الذي كان ابنا لنوح،وتدعى بالعبرية

باسم«صور»،ونحن ندعوها بالدارجة أيضاً باسم«صور»، وبشأن وقارها وعظمتها ومجدها الذي تمتعت به فيما مضى،هذا واضح من سفر حزقيال،الذي قال عندما تحدث عن صور وذلك بين أشياء أخرى:«ياصور أنت قلت أنا كاملة الجمال.تخومك في قلب البحار»(حزقيال:٢٧/ ٣)ومرة أخرى:«من قضى بهذا على صور،واهبة التيجان،التي تجارها أمراء،ومتكسبوها شرفاء الأرض»(إشعيا:٢٣/ ٨)،وتحدث النبي وذكر المزيد حول ثروتها،وتفوقها وتجارتها ،وكان ملك هذه المدينة أغينور Agenor ، الذي منح ابنه فونكس اسمه لجميع المنطقة، وجاء من هذه المدينة ديدو Dido الذي أسس قرطاج في إفريقية، التي تدعى الآن «المغرب» Marroch ، وكان حيرام أيضاً ملكاً هناك، وهو الذي زوّد سليمان بخشب الأرز من لبنان، لبناء معبد الرب، وهو الذي كان عبده أبديموس Abdimus قد أجاب بعبقرية وروعه على جميع الأحاجي والألغاز التي أرسل بها سليمان الى حيرام ملك صور حتى يجيب عليها، فإن أخفق يتوجب عليه أن يدفع الى سليمان ببعض المغلقات حتى يتولى حلها،أو ليدفع غرامة من المال، ويقول بعضهم بأن مارخولMarchol هو الذي تحاجج مع سليمان على شروط متكافئة،وكان أبو لونيوس واحداً من ملوك المدينة السالفة الذكر،الذي تقرأ أعماله بتوسع في كتب الحكايات العامة،وهنا دفن أيضاً(القديس) أورجينOrigen (١٨٥—٢٥٥م)،وذلك اعتماداً على ماروواه القديس جيروم،الذي قال في رسالته الى بمّاخوسPammachos وأقيانوس Oceanus :«لقد مرّ حتى الآن حوالي مائة وخمسون سنة منذ أن مات أورجين في صور»،وتنتمي الى هذه المدينة المرأة الكنعانية،وهي التي كما قيل نادت المولى يسوع المسيح من أجل ابنتها التي تلبسها الشيطان واستحوذ عليها(متى:١٥/ ٢٢) وذلك تحقيقاً لنبوءة داود التي جاء فيها:«وبنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية»(المزامير:٤٥/ ١٢)،وهنا كما قيل أيضاً ولد أولبيانUlpian

المحامي المتعلم،وقد قيل بأن الصوريين كانوا أول من اخترع الحروف،فهذا مارواه لوكان Lucan لنا وحكاه بقوله:« كان الفينيقيون—إن صدقت الآثار المروية— أول من حاول تثبيت الصوت المنتشر بوساطة شارات بدائية».

ويقال بأن الصوريين كانوا أول من صنع الصباغ الأرجواني واستخرجه من المريقMccrex، والى هذا اليوم يدعى أغلى صباغ أرجواني«الصوري»؛وكان بعدما قام بلدوين أول ملوك القدس بحصار هذه المدينة الجليلة،والمحصنة بشكل قوي،لمدة أربعةأشهر، ورأى أنه لم يحصل أية منافع، وأنفق بدون فائدة الكثير من الأموال،قام بعد هذا برفع الحصار،عازماً على العودة في وقت أكثر موائمة مع وسائل أعظم، ولكي يتمكن من تضييق الخناق على الصوريين وليزعجهم أكثر،أعاد بناء مدينة على شاطىء البحر بين صور وعكا، هي المدينة التي كان قد بناها الاسكندر المقدوني،عندما كان يحاصر صور،ودعيت بسببه باسم الاسكندرية،غير أن شعبنا يدعوها في هذه الأيام باسم سكاند يلوم، وهذا المكان مروي بشكل جيد،ويبعد خمسة أميال عن صور، زيادة على هذا بنى هيوج دي سينت أومر،صاحب طبرية،قلعة قوية جداً على الجبال المطلة على صور،بين مدينته ومدينة صور،وهي تبعد عنها مسافة عشرة أميال،وحملت هذه القلعة إسم تورون(تبنين)،واستهدف من وراء ذلك أن يتمكن من هناك تضييق الخناق على الصوريين وإثارتهم عن قرب قريب،ومع هذا يتجنب مواجهة هجومهم، وقامت القلعة في منتصف الطريق فيما بين لبنان والبحر،، وهي غنية جداً بالأشجار، والكروم،والأرض المفلوحة، وفيما بعد،عندما لذنوبه،الملك الثاني للقدس،بلدوين دي بورغ،أخذ أسيراً من قبل المسلمين،قام السيد بطريرك القدس،مع رؤساء الأساقفة والأساقفة وبقية بارونات المملكة مع كونت طرابلس،بالمعسكرة أمام المدينة ومحاصرتها، وتلقى المساعدة أيضاً

من دوج البندقية،الذي هاجم المدينة من جهةالبحر مع حشد من الرجال المسلحين، وكان معه أربعين من الغلايين مع عدد كبير من السفن الكبيرة والصغيرة،وبعدما بذلوا جهوداً عظيمة وسفكوا الكثير من الدماء، وبعدما تولوا حصار المدينة بمختلف أنواع المجانيق والآلات الحربية، أمكنهم في الشهر الخامس من الحصار إرغام السكان على الاستسلام والتخلي عن مدينتهم، وذلك بعدما لم يعد بإمكانهم متابعة تحمل المجاعة،ولقد استسلموا لشعبنا على شرط الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم، وهكذا أمكن في المائة الحادية عشرة والسنة الرابعة والعشرين لتجسيد المسيح،الاستيلاء على مدينة صور من قبل المسيحيين، ومن ثم إعادتها الى المسيحية.

الفصل الرابع والأربعون

وتقع فيما وراء هذه مدينة الصرفند على شاطىء البحر،وهي التي تكلم النبي إيليا عند بابها الى المرأة الأرملة التي كانت تجمع الحطب،والتي تضاعف طعامها القليل لأنها عملت خبزاً لرجل الرب،وقد بنى المسيحيون بيعة صغيرة في هذا المكان قرب باب المدينة،ويلي هذا مدن أخرى قائمة على شاطىء البحر،وأولها صيدا،ثم بيروت،ثم بيبلوس التي تعرف في هذا اليوم بشكل عام باسم جبيل،وهي قائمة على شاطىء البحر في مقاطعة فينيقيا،وقد عرفت فيما مضى باسم إيفياEvaea ،لأنه كما قيل قام ايفياس الابن السادس لكنعان بتأسيسها،وقد قال عنها حزقيال:«شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك الذين يسدون شقوقك.حكماؤك ياصور الذين كانوا فيك هم ربابنتك»(حزقيال:٢٧/ ٨—٩بتصرف)، ونقرأ مرة أخرى في سفر الملوك الأول— الاصحاح الخامس:«وحجارة مربعة(نحتها الجبليون) وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء بيت الرب»،واستولى برترام كونت طرابلس على

هذه المدينة،وذلك بمساعدة الجنويين مع سبعين من الغلايين،ثم منحها الى الجنويين،ووراء هذه على شاطىء البحر تأتي مدينة اسمها بتروم Botrum لكن اسمها بالعامية بترون،ثم تأتي قلعة اسمها نفين Nephin (رأس شكا)ثم مدينة طرابلس،ثم تأتي مدينة اسمها عرقة،وهي تبعد ميل واحد عن البحر،ثم مدينة أرواد القائمة على جزيرة قرب ساحل البحر،وقد بناها أرادوس بن كنعان،وفيها وجد القديس بطرس الرسول أم القديس كليمنت تسأل الصدقة،وبعدما حولها الى المسيحية،أعادها الى ابنها،وذلك حسبما نقرأ في رحلة ابنها،ولقد أخبرنا أيضاً عن عمودين من الزجاج من روائع الصناعة،قد أقيا في هذه الجزيرة لإثارة اعجاب جميع الناس، ثم تأتي مدينة أنترداوم،التي عرفت بهذا الاسم لكونها تواجه أرواد،لكنها تعرف بالعامية في هذه الايام باسم طرطوس، ولدى مرور القديس بطرس وعبوره لفينيقيا في طريقه من القدس إلى أنطاكية، أسس فيها كنيسة صغيرة كرسها على اسم العذراء مريم المباركة، واحتفل بها بقداس عظيم، وتحظى هذه الكنيسة بتمجيد خاص حتى هذا اليوم، ويؤمها عدد كبير من الناس ويتقاطرون عليها لأن العذراء المباركة قد عملت كثيراً من المعجزات، وأعادت إلى العافية أناساً مرضى جاءوا إلى المكان الذي كرس إليها من قبل الكنيسة البدائية عندما كانت في مرحلة طفولتها، وقد أوضح كثير من الناس أن هذه كانت أولى الكنائس التي كرست للقديسة مريم، وهي موضع احترام وتقدير كبير ليس فقط من قبل المسيحيين بل أيضاً من قبل المسلمين، الذي غالبا ما يجلبون أولادهم إلى الكنيسة السالفة الذكر حتى يتعمدوا، وذلك من أجل أن يعيشوا أطول، أو أن يستردوا صحتهم الجسدية، وحدث بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة أن وجد بعض النبلاء وهم يسافرون خلال هذه الأجزاء وهم على طريق حجهم إلى القدس، فقام هنا كونتا بواتو وبليوس مع نبلاء آخرين بانتزاع هذه المدينة من أيدي الأعداء وأعطوها إلى كونت طرابلس.

وجاء بعد هـذا دور مدن ساحلية أخرى، كان منها: مرقيـة، وبانياس وقلعة المرقب وجبوليوم Gabulum ، التي تعرف بشكل عام باسم جبلة، ثم تأتي آخـرها بـاتجاه أنطـاكية، مـدينـة جميلـة الموقع وغنية جـداً بجميع البضائع العالمية، تـدعى لاذقية سورية، وهي تعرف بالعـامية باسم ليشي Liche ، واستـولى على هـذه المدينـة النبيل الشجـاع اللـورد تـانكـرد، عنـدما كـان يقوم بأعمال حـاكم إمارة أنطـاكية، ولقـد استولى على هـذه المدينة في اليـوم نفسه الـذي نال فيه مـدينة أخرى جليلـة تدعى أفـاميا، وهكذا وسع بشكل رائع حـدود إمارة أنطـاكية، بإضافـة مدينتين جميلتين لها في يوم واحـد، وهناك (لاذقيـة) لوديقيـا في آسيا الصغـرى، وهي التي ورد ذكرهـا في رؤيا جـاءت إلى القديس يوحنـا، بين كنائس آسيـا السبعة (سفر يـوحنا: ٣/ ١٤)، واستولى شعبنـا على جميع هذه المدن القـائمة على شـاطىء البحـر، بكل جـرأة، ولم يترك شعبنا للمسلمين ولاقلعـة واحـدة قرب البحر، وهكذا تدمرت قوى العدو على شاطىء البحر تماماً.

الفصل الخامس والأربعون

وكانت بعض المدن الداخلية، خاصة ما وقع وراء سلسلة جبل لبنان، قـد عجـز شعبنا عـن الاستيلاء عليهـا، ومع هـذا أرغمت على أن تـدفع لقومنـا الجزية، لأن قـومنا غالبـاً ما شعثـوا حدودهم وأربـاضهم، ونصبوا الكثير من الكمائن لشعبهم، حتى وصـل الأمـر بـالسكـان إلى أن كـانـوا مسرورين بتحـرير أنفسهم من المضـايقات، وكـانت مدينـة حمص، التي تدعى من شعبنـا شاميلا Chamele أو كاميلا Camele، ولكون بعض مـدن سـوريـة المجـوفـة الأخـرى مثل بعلبـك، التي تسمى أيضـاً مـوبخ Maubech (وهم ومنبج غير بعلبـك) وحماه وسـواهم، على مقـربة من قبل شعبنـا، ومن السهل اثـارتها ومضايقتهـا، آثرت الحصـول على السلم والأمن مقـابل كثير من المال، وفي الحقيقـة لم يكـن كل من

خليفة مصر وسلطـانها قادرين على الدفاع عن مملكتيهما في وجـه الغارات الشجاعـة والجريئة لشعبنا، ولهذا اعتـادا على دفع مبلغ كبير بمثابة جـزية سنوية إلى ملك القدس، خاصة عندما كان المصريون يخشون من سلطان دمشق، واعتـاد من جهـة أخـرى ملك دمشـق على دفع كثير من المال للحصـول على الهدنـة والأمن من شعبنـا الذي أقـام فيما بين الـدمشقيين والمصريين.

الفصل السادس والأربعون

حشـد بلدوين دي بـورغ، الملك اللاتيني الثـاني للقدس جميع قـوات مملكتـه وألقى الحصار على حلب، لكن حشـداً من المسلمين بادر مسرعـاً من الشرق لنجـدة المدينـة، ولهذا أرغـم الملك على رفع الحصـار والتراجع لأن أعـداده كـانت أدنى بكثير مـن أعـداد المسلمين، وقـام الملك الـرابع للقـدس وهو بلـدوين ابن الملك فولـك ومعه كـونراد امبراطـور الرومـان، ولويـس ملك فرنسـا، الذي حمل الصليب عنـدما دعـا برنارد راعـي دير كليرفـو إلى الحملـة الصليبية، ومعهـم كذلك بطـريـرك القـدس، وأسقف أوستيا، الذي كان نائب الكرسي الـرسولي، وعدد كبير من رؤساء الأساقفة والأسـاقفـة والـدوقـات، والكـونتـات والبـارونـات، من كل من فـرنسـا والامبراطورية، قاموا جميعاً بإلقاء الحصار على دمشق.

ودمشق مدينة قـديمة جداً، وهي في الغالب المدينة الـرئيسية بين مدن الشرق، بسبب حجمها وتعـداد سكانها، ونالت اسمها من خـادم ابراهيم الذي قيل إنـه هو الذي أسسهـا، وهي حاضرة سوريـة الصغرى، المسماة لبنان أو فينيقيا، وذلـك حسبما نقرأ عند النبي قولـه:« رأس سورية— آرام — دمشق» (اشعيا: ٨/٧)، وهي قـائمة على سهول مستويـة، في المنطقة الجرداء والجافة، ذلك أنها تتمتع بهبـة الماء الذي يتـدفق من الجبال، ويجر

خـلال أقنيـة ويتولى سقـايـة جميع السهل، وتجعلـه بذلك خصبـاً ومليئـاً بأشجار الفـاكهة، وعلى مقربة من المدينـة السالفة الذكر مكـان يدعى في هذه الأيـام «ملجأ السفر» (داريا)، نـاشد فيـه الرب شاول عنـدما اقترب من دمشق وقـال له: «شـاول، شـاول، لماذا تضطهدني»؟ (أعمال الـرسل: ٩/ ٤). وحـاصر الآن الأمراء المتقـدم ذكـرهم المدينـة مع حشـد لاعدّ لـه ولاحصر، وكان الحصـار من جانب واحـد، من مكان في الجوار، وانـدفعوا من خـلال أسـوار المدينـة، وتملكـوا بقـوة النهـر الـذي يجري إلى المدينـة، وارتاب أهل دمشق في قـدرتهم، وتساءلوا عما إذا كانوا يمتلكـون مايكفي من قوة للمحافظـة على المكان، ولأنهم كانوا غير قـادرين لمدة طويلة على مجابهة رجالنا عند سور المدينـة، كسبوا الى جانبهم — كما هي عادتهم — بعض السوريين الذين عملوا أدلاء ومستشـارين لأمراء الحجاج الأجانب — وكـانوا معميين بـالجشع — فأقنع هـؤلاء الأمراء حتى ينقلـوا الجيش إلى جانب آخـر من سور المدينـة، وبناءً عليـه ترك الأمـراء مكانهم الأول، الـذي استرده المسلمون، وحصنـوه ضـدنـا، ثم إنه بعـدمـا شحت المؤن وافتقر الجيش إلى الماء، رأى أمراؤنا انعدام الاخـلاص لدى الرجال الذين وثقوا بهم، وفي غضـب وازدراء للخيانـة، أو بالحري لكفـر الشرقيين الذي امتلأوا بـالعار والشنار، وبعـدما بذلوا جهـداً كبيراً ونالوا قليـلاً، عادوا إلى الوطن ثانية.

الفصل السابع والأربعون

ألقى جون امبراطـور القسطنطينية الحصار على مـدينة قيساريـة (شيزر) التي ليست بعيدة عن أنطاكية، والتي تعـرف الآن باسم قيسارية الكبرى (قلعـة شيزر)، وكـان معـه حشد من الجنـود لايعـد ولايحصى والعربـات والخيول، وكذلك أمير أنطـاكية، وكونت الرها، لكنـه أخذ مبلغاً من المال من المحـاصرين، ورفع الحصار، وعـاد أدراجـه، لأنه كـان غاضبـاً بسبب تـراخي الأمير المتقـدم الذكـر مع الكـونت، ولعـدم مبـالاتهما بالمخـاطـرة

ولإخفاقهما في مساعدته؛ وذهب بلدوين أيضاً، وهو الملك الرابع للقدس، وسط جهد كبير، ومخاطر عظيمة للاستيلاء على مدينة بصرى، لكنه وقد وجدها أقوى تحصيناً مما توقعه، عجز عن الاستيلاء عليها، وعاد إلى الوطن ثانية، وتعرض وهو عائد لمضايقات المسلمين الشديدة، وقد قتل كثير من شعبه، وبوستروم مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة العربية الأولى، وتعرف بشكل عام في هذه الأيام باسم بصرى، وهي تتحكم بمقاطعة الطراخونية، التي تحدث عنها القديس لوقا في انجيله بقوله: «فيليب طيطراخ ايطورية والمقاطعة الطراخونية» (لوقا: ٣/ ١)، وبما أن هذه المنطقة بدون ينابيع أو أنهر، يقوم سكانها بجمع مياه الأمطار ببرك بوساطة Trocones ، أي بوساطة أقنية مائية تحت الأرض، ولهذا السبب عرفت هذه المنطقة باسم «الطراخونية» ، وأيضاً يسكن الناس في تلك المنطقة في كهوف وفي أقبية تحت الأرض، ويضعون أدواتهم وأثاثهم المنزلي في عربات. وتأتي بعد منطقة الأسقفيات العشرة (الديكابولس Decapolis) التي تمتد حدودها أو تخومها من صيدا إلى بحيرة طبريا، والتي تصل إلى مابعد مدينة طبرية باتجاه دمشق، منطقة ايطورية، الممتدة فيها وراء منطقة صيدا والجبال التي تفصلنا عن المسلمين في الوادي المسمى بوادي البقاع، وبما أنها تصل إلى سفوح لبنان، إنها تدعى أيضاً باسم غابة لبنان، ومنطقة ايطورية هذه تلي منطقة الطراخونية وتتصل بها.

الفصل الثامن والأربعون

طوق الملك عموري — أخو الملك بلدوين المتقدم الذكر — المدينة المصرية المعروفة باسم القاهرة بآلات الحصار حتى قيل بأنه بات من السهل الاستيلاء عليها عنوة، لولا أنه أخذ بالمشورة الفاسدة جداً لرجل شرير اسمه ميلو دي بلانكي Milo de Planci ، الذي أخذ مبلغاً من

المال من الأعداء، فرفع الحصار وتراجع منسحباً، وكان في الحقيقة قد حاصر أولاً مدينة الاسكندرية، وهي مدينة جليلة في مصر، التي استولى عليها شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وانتزعاها من سلطان مصر، ولقد أرغمهما على التصالح معه والاستسلام، لكنه — تنفيذاً للاتفاق — أعطى المدينة إلى سلطان مصر، بعدما تسلم منه المال الذي وعد به، وقام هذا الملك نفسه فيما بعد بإلقاء الحصار على دمياط،التي هي مدينة قوية جداً في مصر، وكان معه عدد كبير لايحصى من البيزنطيين، أرسلوا إلى مساعدته من قبل امبراطور القسطنطينية، وكذلك اسطول كبير تألف من كل من الغلايين والسفن الأخرى، غير أنه أخفق بفعل الجوع، والبرد، والفيضانات الهائلة، ولهذا رفع الحصار بعدما تكبد خسائر كبيرة في جيشه.

الفصل التاسع والأربعون

وبالنظر لعدم استطاعة قومنا الاستيلاء على المدن المتقدمة الذكر مع مدن أخرى، لاسيما المدن الداخلية غير البحرية، بنوا قلاعاً قوية جداً ولاترام بينهم وبين أعدائهم، وذلك في أطراف البلاد للدفاع عن حدودهم، مثل مونتريال (الشوبك) والبتراء في القفار التي اسمها الحالي هو الكرك ، وذلك فيما وراء الأردن ، وصفد هي قلعة حصينة جداً قائمة فيما بين عكا وبحيرة طبريا ، ليس بعيداً عن جبال جلبوع، وكوكب الهوا ليست بعيدة عن جبل الطور ، قرب مدينة يزعيل (زرعيل) التي كانت فيما مضى مدينة جليلة ومكتظة بالسكان ، وهي قائمة على رابية مرتفعة بين بيسان وطبرية

الفصل الخمسون

ولضمان أمنها العظيم ، قسمت مملكة القدس بين مختلف الأمراء والبارونات ، الذين كان واجبهم الحفاظ على البلاد وحراستها تحت الملك ، واحتفظ الملك بيديه بأفضل أجزاء البلاد وأحسنها ، مثل مدن : القدس ، ونابلس(شكيم) وعكا ، وصور مع بلدات أخرى وقرى ، وارتبط نبلاء المملكة بيمين لخدمة الملك بعدد محدد من الفرسان ، وكان هؤلاء : كونت طرابلس ، وصاحب بيروت ، وصاحب صيدا ، وصاحب حيفا أو بورفيريا ، وصاحب قيسارية ، وأمير الجليل الذي كان أيضاً صاحب طبرية ، وكونت يافا وعسقلان، وصاحب الشوبك وجميع ما وراء الأردن ، وصاحب أسدود ، وصاحب ايبلين ، وبعض الآخرين ، لكن هؤلاء كانوا المقدمين بينهم والأول في المكانة والشرف .

الفصل الحادي والخمسين

وبدأت منذ ذلك الحين الكنيسة الشرقية بالازدهار من جديد ، وبدأت ممارسة الدين بالانتشار عبر الأراضي الشرقية ، وبدأت كروم الرب بإعطاء العناقيد ، ثم بدا أن الذي كتب في نشيد الانشاد قد أخذ يتحقق ، وهو قوله « : انتبهوا الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال. الزهور ظهرت في الأرض . بلغ أوان القضب » (نشيد الانشاد : ٢/١١ـ ١٢) وتدفق من مختلف أجزاء العالم ، ومن كل عرق ولغة ، ومن كل أمة تحت قبة السماء الحجاج على الأرض المقدسة وقد امتلأوا بالحماسة من أجل الرب مع رجال دين جذبتهم حلاوة خلاص الأماكن المقدسة والمبجلة ، وأعيد ترميم الكنائس القديمة وبنيت

كنائس جديدة ، بوساطة أعطيات الأمراء وهبات المؤمنين، وبنيت ديرة لرهبان منتظمين في أماكن مناسبة ، وتأسست في كل مكان بشكل لائق ومناسب أبرشيات القساوسة وجميع الأشياء المتعلقة بخدمة الرب وعبادته ، واختار رجال مقدسون اعتزلوا الدنيا أماكن للسكنى بها تتوافق مع مختلف ميولهم ورغباتهم وحماستهم الدينية ، وتتماشى مع أهدافهم وتكريس أنفسهم .

الفصل الثاني والخمسون

واختار بعضهم ممن انجذب بمثل الرب واقتدى به ، البرية المرغوب بها والمسماة القرنطل ، حيث فيها صام الرب معتزلاً لمدة أربعين يوماً بعد تعميده ، (متى : ٤) وهناك عاشوا على شكل نساك ، وتعبدوا الرب عن طواعية متناهية في خلوات متواضعة ، واختار بعضهم تقليد حياة الاعتكاف للنبي إيليا بالعيش في عزلة على جبل الكرمل ، لاسيما في الجزء المطل على مدينة بورفيريا المسماة الآن حيفا ، قرب بئر يسمى بئر إيليا ، ليس بعيداً عن دير القديسة مرغريت العذراء ، حيث هناك خلوات صغيرة تشبه قرص عسل ، ففيها عاش نحل الرب وانتجوا عسلاً روحياً حلواً ، وهناك كرمل (إقرأ : قرمول غربي البحر الميت)آخر وراء الأردن ، قرب البيداء حيث أخفى داود نفسه عندما هرب من أمام شاؤول ، حيث كان مكان إقامة الفلاح نابال ، هذا وإن الكرمل الذي اعتاد إيليا على العيش فيه قائم على شاطىء البحر ، على بعد أربعة أميال من عكا .

الفصل الثالث والخمسون

واختار عدد كبير أضرحة هادئة للموت فيها بعيداً عن هذه الدنيا،

حتى يمكنهم العيش للـرب وكـان ذلك في وادي الأردن ، حيث اعتزل يوحنا المعمدان أثناء طفـولته ، فراراً من الدنيا ، حتى يمكنه مع مزيد من الحرية الاتصال بالـرب ، وفي عزلته في هذه البيداء لم يأكل القـديس يـوحنـا شيئـاً سـوى الجراد مع العسل ، والعـادة في معظم أجزاء سوريـة أنه عندما تأتي أسراب الجراد الطائرة ، يقـومون بجمعها والاحتفاظ بها للأكل .

وبالنسبـة للعسل أنا رأيـت الكثيرمنه في هذه الأجـزاء في قصب السكر ، وقصب السكـر هو قصب مليء بـالعسل ، ويحصل النـاس على عصير على درجـة عـاليـة من الحلاوة ، بـوسـاطـة سحق القصب بـالضغط ، ثم يتم تكثيف العصير على النـار ، وبـذلك يصنع النـاس أولاً نـوعـاً من العسل ، ثـم سكـراً ، ويـدعى هـذا القصب Can-nameles وهـذه كلمـة مكـونـة من كلمـة قصب «canna و mel أي عسل لأن هذا القصب يشبه قصب البوص أو النباتات النامية

وبما أنني لم أعتقـد صحة أكل المعمـدان المبارك للمسيح جسـد الجراد ، وهو الـذي تخلى حتى عن أكل الخبز ، قمت بـاستفسار حثيث لواحـد من الرهبـان السريان ، الذي كـان ديره في تلك الأجـزاء ، وهو يحتوي على عدد كبير من الرهبان ، الذيـن يمارسون حياة قاسية جداً ، تحت رئاسة راع للـدير ، وسألته : أي نوع من الجراد كـان الذي — كما قيل — أكلـه القـديس يـوحنـا في تلك البريـة قـرب الأردن ؟ فأجابنـي مباشرة أنه يـوجد في غـرفة طعامـه عشبة ، غـالباً مـا تقدم للـرعبـان ، وهم يـدعـونها angusTae أي «حبـوب الجراد » وينمو هناك كميات كبيرة من هذه العشبـة حول ديرهم ، وأضاف بأن هذا ما اعتاد القـديس يوحنا أن يأكله ، زد على هذا غـالباً ما يعثرون في هـذه البراري — كما قـال — على مخزون كبير من العسل البري يصنع من قبل النحل .

ومضى آخرون من رجال الدين هؤلاء الى البراري القريبة من بحيرة طبرية ، حيث غالباً ما وعظ الرب ، وحيث أطعم الحشود (متى : ١٤) بأرغفة من شعير وسمكات صغيرات ، ومجّد المنطقة بعدة أنواع من المعجزات ، وظهر هنا لحوارييه بعد قيامته (آخر اصحاح من يوحنا) ، وهنا أكل وشرب معهم ، وعلى هذا البحر كان قد مشى ، وهنا دعا بعضاً من حوارييه إليه قائلاً : « ورائي فأجعلكما صيادي الناس » (متى: ٤/ ٩) وهنا اختاروا مساكن خلواتهم، فسكن بعضهم في السهل ، حيث توفر كثير من القش من الأعشاب الجافة ، وسكن آخرون في الجبل المجاور الذي اعتاد الرب أن يذهب إليه ليعتكف للصلاة ، وبحيرة طبرية بحيرة ذات ماء عذب جداً ، قائمة على طرف الجليل ، وهي مليئة بجميع أنواع الأسماك ، وهي جميلة المنظر ، ممتعة أن تشرب منها ، ولأنها طويلة جداً وعريضة ، دعيت البحيرة سالفة الذكر باسم بحر ، وذلك مجاراة لما اعتاده العبرانيون والمصريون ، الذين دعوا أي تجمع من الماء «بحراً» ، سواء أكان عذباً أم مالحاً ، ويعرف أيضاً باسم بحر طبرية ، لأنه ملاصق لمدينة طبرية ، وعلى مقربة منها بيت صيدا (شيخ زياد) ، وهي مدينة بطرس وأندرو، وهي التي مجدها الرب بحضوره الشخصي ، وتعرف أيضاً باسم بحيرة جنسارث ، التي فسرت بمعنى « توليد الريح» ، لأنه من ينابيع الجبال التي تقوم من حولها ، غالباً ما تتجمع ريح قوية ، تسبب الهيجان في البحيرة ، وتتحول الى عاصفة ، حيث تقهر الأمواج العالية السفن الصغيرة ، ويجري نهر الأردن في بحيرة جنسارث المتقدمة الذكر من نبعين اسمهما : «أر» و «دان» ومنهما استمد كل من مياهه واسمه ، وهما قرب قيسارية فيليب عند سفح جبل لبنان ، ومن هناك يتدفق في كتلة واحدة من الماء ، ويجري لحوالي المائة ميل ، فيروي المناطق المجاورة ، ثم يسيل عبر الوادي الرائع الذي يدعى وادي

الملح ، الى البحر الميت ، وهناك يجري ابتلاعه ولا يظهر مرة أخرى ، وهذا قرب مكان يدعى زغر ، ويعرف في هذه الأيام بشكل عام باسم « البحر المرّ» paumier كما ويدعى البحر المتقدم الذكر باسم « بحيرة اسفلت » و«البحر المالح » لأنه مالح جداً ، ومرّ الى درجة أنه لا الانسان ولا الحيوان يمكنه أن يشرب منه ، وغالباً ما يقال له « بحر الشيطان » لأنه لا يمكن لأي شيء حي أن يتكاثر هناك ، كما لا يمكن لأي كائن حي أن يعيش في مياهه ، وإلى جانبه هناك جبل مرتفع من الملح ، ، زيادة على هذا ينمو على أطرافه تفاح له منظر خارجي جميل ، لكن لا يوجد في داخله شيء سوى الرماد والغبار اللادغ ، لأن الرب أمطر ناراً وكبريتاً على سدوم وعموره ، وعلى مدن ثلاثة أخرى ، فقد كان سكان هذه المدن على درجة هائلة من الشرور ، وآثمين ضد الطبيعة ، يمارسون الخبائث والأمور الشائنة مع بعضهم بعضاً ، وفي هذا المكان الذي يدعى بنتابولس Pentapolis (المدن الخمسة) تقوم البحيرة المتقدمة الذكر ، التي لا يمكن لانسان إدراك قعرها ، لأن الرب بعدما أمطر النار على هذه المدن ، ألقى بها في قاعها الذي لايدرك، ويقدم نهر الأردن الذي أتينا للتو على ذكره كثيراً من الخدمات لجميع المنطقة القائمة بين ذلك المكان وجبل لبنان، لأنه يروي الحدائق ويجعل الأرض تحمل فاكهة، وهو يعطي ماء عذباً للشرب وكميات من الأسماك للأكل، وشواطئه جيدة لنمو القصب أو البوص، حيث يستخدمه الناس لسقف منازلهم، وتغطية جدرانهم، ويتساقط القطر الحلو من قصب السكر الكثير جداً الذي ينمو في الحقول القائمة على طرف النهر، ويعطي هذا القصب وفرة عظيمة من السكر. واعتاد الحجاج، لابل حتى السكان المحليون على غسل أجسادهم وملابسهم بورع عظيم في مياه الأردن، لأن مخلصنا قد تعمد فيه من قبل القديس يوحنا المعمدان، وقدس هذا النهر بملامسة جسده الأعظم طهارة له، ومنح طاقة مولدة وأضفاها على مياهه، زد على هذا تولى الثالوث المقدس

كلـه تقـديس هذا النهـر السعيـد والجليل جـداً، لأن فوقـه سمع صـوت الأب، وفيه رؤيت الـروح القدس على شكل حمامة، وجرى فيـه تعميدهـم الابن على شكل انسـان،(متى: ٠٣ مـرقص: ٠١ لـوقـا: ٣)، ثم إن كثيراً من كـلا الجنسين، من الـرجـال والنسـاء قـد جـرى تعميـدهـم من قبل القديس يوحنا في المياه المتقدمة الذكر مع تعميد التـوبة، وحولوا أنفسهـم وجعلـوها أهـلاً لتسلم نعمـة المسيح وتعميده، واعتـادوا على الغطس في الماء، وكنمـوذج على الطهـارة التي ستكـون، هنـاك مثل نعمان السـوري الـذي شفي من البرص في تلك المياه، وعـاد جلده نقيـا مرة أخـرى مثل جلـد طفل صغير، وعبر يوشع مع بني اسرائيل على ممـر جاف، في الـوقت الذي توقفت فيـه المياه وتراكمت، أما الميـاه التي هي في الأسفل فتابعت جريـانها نحو البحـر، ومن هنا من قـاع النهر أخذ بنـو اسرائيل اثني عشر حجـراً تبعـا لعـدد أسبــاط بني اسرائيل الاثني عشر، (يشـوع: ٤—٥)، وإلى هذه الأحجار نفسها أشار القديس يـوحنا المعمدان عندما قال: « إن الرب قادر أن يقيم من هـذه الحجارة أولاداً لإبراهيم»(متى: ٣/ ٩)، وعبر أيضـا إيليا واليشع فـوق الممر الجاف، وحـدث ذلك بعـدما ضرب إيليـا الماء بردائه، وباعد فيها بين طرفيه إلى هنا وإلى هناك، ولهذا اتخذ عدد كبير من المتـدينيين أمـاكن اقـامتهم إلى جـانـب النهـر، بسبب قـداسـة النهـر وموائمة مياهه.

الفصل الرابع والخمسون

لقد بنـوا ديراً على جبل الطور احترامـاً وتشريفاً للمكـان، وجبل الطور جبل مـرتفع جـداً وشـديـد الانحدار، وعلى رأسـه تجلى الـرب يسـوع مع مـوسى وإيليـا بحضـور بطـرس وجيمس، ويـوحنا، مظهـراً مجد قيـامتـه المستقبلية (متى: ١٧)،والجبل المتقـدم الذكر قائم في منطقـة طبريا، ليس بعيداً عن النـاصرة، ويوجـد عند سفحـه مسيل كيشون، وعلى طـرف منه

جبال جلبـوع (فقوعه) وعلى الطـرف الآخر منـه بحيرة طبرية، وفيها يتعلق بهذه الجبال، يعلن عبثا بعضهم بأنه لاينزل عليهم لامطر ولاندى مطلقاً، ومـراراً قـد تبرهن هـذا أنـه مـزيف، وذلـك من قبل الـذين يسكنـون في الجوار، وبنى أتبـاع الرهبـة السستر شيـانية والبريمـونستراتنشيانيـة -Pre monstratensianأيضـاً أديـرة في أمكنة منـاسبـة لهم، وتـرك كثير من النـاس بـلادهم وأقـربائهم وبيـوت آبـائهم، وذلك رغبـة منهم بـالأرض المقـدسـة، ومع أن الازدحـام وضغط النـاس معيق للـدين لقـد اختـاروا وفضلوا العيش وسط جمهور الناس على أن يحرموا من ميزه فضيلة العيش في المدن المقـدسـة مثل القـدس، وبيت لحم والنـاصرة، التي مع أنها بقع تعبق بالشـذى، إنها تعبق أكثر بحضور المخلص، لأنـه في الناصرة حملت العذراء مـريم بالرب بوسـاطة الروح القدس، وقـد ولد في بيت لحم، وفي القدس صلب من أجل خلاصنا، ومات ودفن.

الفصل الخامس والخمسون

القـدس هي مـدينـة المدن (مـراثي إرميـا: ١/ ١) وقـدس الأقـداس، وعظيمة بين الأمم، وأميرة بين المقـاطعات، وبامتياز خاص دعيـت مدينة الملك العظيم، وهي قـائمة في وسط الأرض، وفي قلب العـالم، وكل الأمم تجري إليهـا (إشعيـا: ٢/ ٢)، وكـانت ملكـاً للبطـارقـة، والأم الحاضنـة للأنبياء، والمعلمة للرسل، ومهد ايماننا، وبلد ربنا، وأم الايمان، حتى مثل رومـا التي هي أم المؤمنين، ولقـد اختيرت من قبـل الـرب، وقـدست من قبله، لسيره بها على قدميه، ومجدت من قبـل الملائكة، وترددت عليها كل أمـه تحت قبـة السماء، وتقوم القـدس على جبل مـرتفع، مع منطقـة تليـة تحيط بها من كل جهـة، في تلك المنطقة من سوريـة التي تدعى اليهـودية وفلسطين، وهي تفيض بـالحليب والعسل، وفيهـا وفـرة من الحبـوب، والخمرة والـزيت، وجميع النعم الـدنيوية، وهـي على كل حال تفتقـر تماماً

إلى الأنهار، كما أنه ليس فيها أية ينابيع باستثناء نبع واحد يدعى سلوان، الذي يتدفق تحت جبل صهيون في خلال وسط وادي يهو شافاط، ويعطي هذا النبع أحياناً وفرة من المياه، مع أن مياهه بالعادةقليلة جداً، أو تنعدم تماماً هناك، لكن يوجد في المدينة وفي خارجها الكثير من الصهاريج من مياه الأمطار، وهي كافيه لكل من البشر والبهائم ولجميع الاحتياجات الأخرى، وللمدينة العديد من الأسماء، وهي متنوعة تبعاً لتقلبات أيامها، ووفقاً لمختلف الأمم واللغات، ودعيت أولاً باسم يبوس، وبعد ذلك باسم سالم، ومن هاتين الكلمتين جاءت التسمية الثالثة، أي أورشليم، ودعيت أيضاً باسم سوليما وهيروسوليما، ولوز، وبيت ايل، وكان آخر الأسماء التي حملتها هو اسم إيلياء، وذلك نسبة إلى إيليوس القسطور(كذا) الروماني الذي أعاد عمارتها، وذلك بعد دمارها من قبل تيتوس وفاسبيان،وكان أول أسافقتها جيمس الرسول الذي ضرب في القدس بهراوة القصار، وانتقل إلى الرب شهيداً، وامتلكت القدس بعده مجرد أساقفة عاديين بدون مكانة أو تمجيد، وذلك حتى أيام الامبراطور جستنيان، ففي أيام هذا الامبراطور المحب للرب، وزوجته الامبراطورة التقية، وفي أثناء مجمع مسكوني عقد في القسطنطينية، وصدوراً عن الاحترام للمدينة المقدسة عينوا فيها بطريركاً، وأعطوه بعض الأساقفة المساعدين الذين أخذوهم من الاسكندرية ومن انطاكية، لرؤيتهم أن هذه البطركية قد تأسست على حدود هاتين المدينتين، وبالنسبة لكنيسة الرب يأتي ترتيب بطريرك القدس الرابع بعد الكرسي الرسولي، وله تحت سلطانه أربعة مطارنة، الأول بينهم هو مطران صور الذي له سلطة على أربعة أساقفة مساعدين، هم: أساقفة عكا، وصيدا، وبيروت، وبانياس، وبانياس هي المدينة التي تعرف الآن بشكل عام باسم بلنياس، وهي واقعة على سفوح جبل لبنان، وهي على مقربة من مدينة دمشق، وهي تشكل حدود أرض الميعاد، والمطران الثاني، أو رئيس الأساقفة، هو رئيس أساقفة قيسارية، الذي تحته أسقف مساعد واحد، أي أسقف سبسطية.

- ٢١١٤ -

الفصل السادس والخمسون

وكانت سبسيطة تعرف باسم قديم آخر هو اسم السامرة، حيث فيها دفن يوحنا المعمدان، وإيليا، وعوبديا النبي، وليس للمدينة المسماة حيفا أو بورفيريا أسقفاً، بل تقع مباشرة تحت إدارة رئيس أساقفة قيسارية، والمطران الثالث هو مطران الناصرة، الذي لديه أسقفاً مساعداً واحداً، هو أسقف طبرية،وطبرية هي مدينة قائمة على شاطىء بحر الجليل في منطقة الجليل، وتكثر فيها الحنطة والخمرة والأسماك، وكان مقر رئيس الأساقفة فيما مضى في مدينة سيتوبولس Citopolis (سكيثوبولس) التي تدعى الآن بيسان، وهي قائمة فوق سهل قائم بين جبال جلبوع (فقوعة) ونهر الأردن، وهي مدينة كثيرة الثمار، وتروى بمياه جداول وآبار، وكانت طبرية فيما مضى مقر مطرانية فلسطين الثالثة وجميع الجليل، لكن المقر نقل الى مدينة الناصرة، بسبب عظمة المكان واحتراماً لمفهوم الرب، والمطرانية الرابعة هي مطرانية البتراء التي تمتلك أسقف مساعد واحد، هو الأسقف الاغريقي (الأرثوذكسي) لجبل سيناء، والمقيم في كنيسة القديسة كاترين العذراء، وهناك راعي دير الرهبان الموجود في ذلك المكان، والبتراء قلعة حصينة جداً، وهي التي تدعى باللغة العامية باسم الكرك، وبتراء القفار، وهي قائمة في منطقة هضبية مرتفعة بعض الشيء، فيما وراء الأردن على حدود مآب، وهي المدينة الحاضرة للعربية الثانية، وهي المكان الذي تحدث عنه النبي إشعيا بقوله :« أرسلوا خرفان حاكم الأرض من سلع (جانب البتراء) نحو البرية» الخ، (أشعيا: ١٦/ ١)، وهي على مقربة من مدينة قديمة جداً تدعى ربوث Rabboth، التي قتل أمام بابها أوريا بتحريض من داود.

الفصل السابع والخمسون

ولبطريرك القدس أيضاً أساقفة مساعدين، هم تحت سلطته المباشرة، ومن هؤلاء على سبيل المثال، أساقفة بيت لحم، والخليل، واللد، وكانت كنيسة بيت لحم ديراً للكهان المترهبنون حتى أيام الملك بلدوين، أول الملوك اللاتين لمملكة القدس، وصدوراً عن احترام عظمة المكان، وتمجيداً لمكان ميلاد الرب، رقاها إلى مرتبة كاتدرائية، وأقام فيها أسقفاً، تحت اشراف البابا باسكال صاحب الذكرى الطيبة وبمباركة منه، الذي منحه اشرافاً مباشراً وسلطة على مدينة عسقلان، وبالطريقة نفسها، رقيت كنيسة الخليل، التي كانت من قبل ديراً، إلى مرتبة أسقفية، بسبب عظمة المكان، حيث دفن فيه آدم وحواء، وثلاثة من الآباء هم: إبراهيم، واسحق، ويعقوب مع سارة ورفقة، وقد دفن الجميع في كهف مزدوج، وجاء هذا العمل أيضاً احتراماً لعبيد الرب، والاسم القديم لحبرون هو «أربعة» و «قريات أربعة». وعرفت مدينة اللد في يوم من الأيام باسم ديوسبولس Diospolis ، وتدعى في هذه الأيام باسم القديس جرجس.

الفصل الثامن والخمسون

وزيادة على ماتقدم كان تحت سلطة البطريرك المتقدم الذكر، رعاة ديره ورؤساء رهبان لهم الحق في حمل شارات التمجيد الحبرية، من ذلك: العصا، والتاج الأسقفي، والخاتم، والصندل، وهم يساعدون بكل احترام السيد البطريرك في القداسات الدينية، وللكنيسة البطركية التي هي كنيسة الضريح المقدس، عند سفح جبل الجمجمة، رهبانها المنتظمون الذين يرتدون الألبسة الكهنوتية في ظل أحكام القديس أوغسطين، ولهم رئيس الذي واجبه مع الرهبان السالفي الذكر القيام بانتخاب البطريرك،

الـذي هو بمثـابـة راعي دير بـالنسبـة لهم، وفي كنائس هيكل الـرب على جبل صهيـون وجبل الـزيتـون رعـاة ديـرة ورهبـان يتعبـدون الـرب وفقـاً لأحكام النظام المتقدم الذكـر أي نظام القديس أوغسطين، وفي كنائس أو ديـرة (القديسـة مـريم) اللاتين، وتلك التي في وادي يهوشـافـاط، يوجـد رعاة ديـرة مع رهبـان سود، يتعبدون الـرب وفقاً لأحكـام نظام القـديس بنت Benet ،وفي بيت حنينا، التي هي قرية مريم، ومرثا، وقرية أخيهما لازاروس (لعازر)، والتي هي على مسافة خمس عشرة غلوة Stadia ، عن القدس، وراء جبل الـزيتون على منحـدرات ذلك الجبل، في هذه القـرية ديـر القديس لازاروس (لعـازر)، ويدعى بيت حنينـا، حيث هناك راعيـة ديـر سوداء وراهبـات، يأخـذن بأحكـام وتنظيمات القديس بنت، وهنـاك بيت حنينـا أخرى (بيـت عبرا وراء الأردن) حيث قام يـوحنـا بالتعميـد. وينتمي إلى هذه الطريقة نفسها ديـر القديسة حنة، التي حملت أم الرب، وهو قائم قرب الباب المدعو باب يهوشافاط، قرب بركة الضأن، في البقعة التي يقال بأن مـريم المباركة قد ولـدت فيها، وهناك يوجد راعيـة دير مع راهبات سوداوات يتعبـدن الرب في ظل أحكام نظام القـديس بنت، وهو أشبه بوعـاء للبخور، كان مليئاً بشخصيات مقدسـات، وورعات وتقيات، من الـلائي مع أنهن لم يـرغمن بـوساطـة أيـة معيقـات أو بالفقـر فقـدن الالتـزام الصـارم لـديـانتهـم، وشرف وأمـانـة حيـاتهم، ودفء حنـانهم وإحسانهم، ويوجد على جبل الطور هنـاك دير للرهبان السود تحت سلطة رئيس أساقفة الناصرة، وليس لمدينة يـافا أسقف، بل تدار مباشرة من قبل رئيس وكهنـة الضريح المقدس، ومثل هـذا مدينـة نابلس —التي تعـرف (وهماً) في الانجيل بـاسم سوخـار (يوحنـا: ٤)، حيث هناك بئـر يعقوب، الذي إلى جـانبه تحادث الرب مع المرأة السامـرية— ليس لها أسقف، بل تتبع مبـاشرة إلى راعي ديـر هيكل الـرب، وهنـاك أيضـاً كثير من المدن الأخرى في أرض الميعـاد، كان فيهن أسـاقفة مـن كنائسهن السريـانية أو الأرثوذكسيـة (الاغريقيـة) وذلك قبل عصر اللاتين، لكن بسبب عـددهن

وفقرهـن تولى اللاتين اخضـاع كثير من الكنـائس الكاتدرائيـة، وكثير من المدن لمدينـة كـاتـدرائيـة واحـدة، وذلك خشيـة من تقليل قيمـة مـرتبـة الأسقف ومكـانته، ودعـونا الآن نضيف وصفاً لهذه الأماكن الـلائي لهن مكانة سامية بسبب قداستهن بين الأماكن المبجلة الأخرى.

الفصل التاسع والخمسون

الناصرة مـدينة صغيرة، قـائمة تقـريباً عنـد مدخل الجليـل، وتقوم بين جبلين، وبينهـا وبين صفوريـة هنـاك نبع يتدفـق بمياه صـافيـة، ومياهـه المنبعثة منه غـزيرة، وهو يعرف باسم نبع (عين) الصفوريـة، واعتاد ملوك القدس أن يحشدوا هنـا جيوشهم بسبب منافع الماء المتوفرة هنـاك، ولتوفر الكلأ، وتبعاً لبعضهم، ولدت العذراء مريم المبـاركة في هذه المدينة (لوقا: ١)، ومما لاشك فيـه أن العذراء المقـدسة قد عـاشت هناك بعـد خطبتها ليـوسف، وإلى هاهنـا أرسل الملك ليعلن بدايـة خلاصنـا، وهذه المدينـة المقدسة هي محبوبة الرب [ففيها صارت الكلمة جسداً (يوحنا: ١)، والـزهـرة التي فـاق شذى أريجهـا كل الطيـوب، نمت في رحم العـذراء، ولهذا فسر اسمها بشكـل صحيح أنه الـزهرة] .وتتميز هـــذا المدينة على سـواها أنـه فيها تمّ الحمـل بالـرب صاحب انقـاذنـا، وفيها نشأ وتـربى، وتحت قدميه وضع الـرب كل الأشياء في الأرض والسماء، وتلطف بجعلها خاضعة لـوالديه، وتقوم بيت لحم على سفوح جبـال القدس، ليس بعيداً عنها، أي أن تقـول تبعد أربعة أميـال عن المدينة المقدسـة، ومعنى كلمة بيت لحم: بيت الخبـز، ففيهـا ولـد الخبـز الحقيقي الـذي نـزل من السماء، ويوجد في مـدينة داود هذه الكنيسة الكـاتدرائية المقدسـة والمبجلة، التي كرست للعذراء المبـاركة، وهنا أيضاً المزود الذي تلطف للتمـدد فيه، وهو الـذي عرشـه السموات، والأرض مـوطىء قدمـه (إشعيا: ٦٦/ ١)، وقـد وضع تبعاً للجسـد في القش لتغذيـه المخلوقات التقيـة (لوقـا: ٢)، وهنا

المكان الـذي وجد فيه الـرعاة —بنـاء على أمر الملائكة— الطفل ملفـوفاً بقماط من ثيـاب رثة مع أمـه مـريم، وإلى هناك جـاء المجـوس الثلاثـة، الـذين استرشدوا بـالنجم، فـوصلوا إلى المدينـة المتقدمـة الـذكر، وعبـدوا بتواضع الملك الـذي قد ولد، وقدمـوا إليه بعض الهدايا الرمـزية، وهنا في هـذه المدينـة قـام الملك الآثـم هيرود، عـدو الايمان، في أثنـاء بحثـه عن المسيح، بقتلـه بـوحشية عـدداً من الأطفـال الصغار، وهنـا أيضـاً ضريح راحيل زوجـة يعقوب، التي تـوفيت في هـذا المكان نفسـه بعـدما ولـدت بنيـامين، ومن هنـا جـاءت المرأة نعمى التـي جلبت راعـوث المآبيـة من البتراء في الصحـراء، وهي التي اتخذها بـوعز زوجـة له، والتي من نسلهـا كـان الحمل، سيد الأرض، حيث جـاء لابنـة صهيون (إشعيـا: ١٦/ ١)، واشتاق داود لميـاه بئر بيـت لحم، رغبة منـه في شرب ماء الحكمـة والانقاذ من بئـر العـذراء المبـاركـة، واختـار القـديس جيروم، الـذي تـولى تـرجمة الكتابات المقدسة إلى اللاتينية السكني في هذه المدينة المقدسة، والمحبوبة من الـرب، حيث هناك تعبـد الرب، وهنـاك دفن جسده الثمين المصنـوع من طين، ووهبت بـولا المقـدسـة وكـذلك ابنتهـا يـوستـوكيـوم -Eus tochiumوكذلك عـدد كبير من العذراوات الأخـريات، وهبن أنفسهن وكرسوهـا على عبادة الرب، والتأمل اللاهوتي، في ديـر هناك، واحتقرن كل مظاهـر البهجة الخارجية في سبيل حب مـولانا يسوع المسيح، وتفـانيا من أجل هذا المكان المقدس.

الفصل الستون

تتفوق مدينـة القدس — التي صنع فيها الرب وهـو ظاهر بجسـده ، أسرار خـلاصنـا — على غيرهــا من الأمـاكن والمدن في قداستهـا ، كما وتتفوق أيضاً بعظمتها ، حتى كأنها حقل مثمـر يفوح شـذى لأن الرب قـد بـاركـه ، ولهذا جذبت إليهـا عـدداً كبيراً من

الرجال المتدينين ، الذين زاروا الأماكن المبجلة الكثيرة في أوقات مختلفة مناسبة ومواسم ، مع توقد بالروح ، انبعثت وتصاعدت وصولاً الى حد الانقطاع التعبدي الكلي ، وذلك واحداً تلو الآخر ، ولم تعان أرواحهم ، لتتراخى من خلال إعيائهم ، بل أبقتهم متيقظين من خلال عبق حبهم ، وتقوم هذه المدينة التي غالباً ما ذكرت وستظل تذكر ، تقوم كلها على جبل مرتفع ، وهي محاطة من جميع الجهات بوساطة سور قوي ، وهي لا تشعر بالضيق لصغرها الى أبعد الحدود ، ومثل هذا ليست منزعجة من حجمها الكبير الزائد ، وقياس امتدادها من سور الى آخر هو أربع رميات قوس ، وفيها في الجانب الغربي قلعة من الحجارة المربعة ، مبنية بشكل متماسك غير قابل للكسر ، بوساطة الملاط والرصاص المذاب ، وهي تقوم من أحد الجوانب بمثابة سور للمدينة ، وتعرف باسم برج داود ، وعلى الجانب الجنوبي للمدينة جبل صهيون ، حيث سكن داود في قلعة صهيون بعدما طرد منها اليبوسيين ، ودعاها باسم «مدينة داود» وعلى جانبها الشرقي يقع جبل الزيتون ، وجبل أكرا (الجمجمة) هو المكان الذي صلب عليه الرب ، ويعرف الآن باسم الجلجلة ، وموقع ضريح الرب قائم قرب ذلك المكان عند سفح جبل أكرا (الجمجمة) وظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريانوس خارج أسوار المدينة ، لأن الرب تألم ودفن خارج الباب ، لكن ايليوس هدريانوس المتقدم الذكر أعاد بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفسبسيان ، وقد بناها بشكل لائق ، ورصف شوارعها وأزقتها ، وعمل مصارف من خلالها يمكن في أيام المطر للمدينة أن تتنظف من أوساخها .

- ٢١٢٠ -

الفصل الحادي والستون

وقـد قـام بتوسيـع المدينة كثيراً ، الى حـد أنـه أدخل مكـان ضريح الرب داخل إطـار الأسوار ،وفيها بعد بنى المسيحيون فـوق هذا المكان، وصدوراًعن الاحترام لضريـح الرب ، كنيسة القيـامة الـرائعة ، بنـوها بمهـارة واتقـان على شكل فوريـوم ، لـه شكل دائري مع فتحـة من الأعلى ، وبذلك شكلت هـذه الكنيسة مثلاً يحتـذى ويقلد من قبل جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، والمبجلة ، ففي هذا المكان تمدد جسد الرب الثمين بشكل لائق مع المر والألـوة حتى اليوم الثـالث ، لكنه قام في اليوم الثالث من جديد ، وهنا ظهر الملائكة إلى المرأة ، وغدا الجنـود الذين تـولوا حفظ الضريـح وكأنهم رجال مـوتى، ومنذ ليلـة قيامـة الرب فصـاعداً صارت النـار المقدسـة تنزل من السماء ،والآن عنـدمـا تجري في كل أنحـاء الـدنيـا قـراءة كلمات :« قـام الـرب من الضريح ، وهـو الـذي من أجلنـا على الشجـرة » ، عندمـا تقـرأ هـذه الكلمات للمؤمنين ، نجـد كهنة كنيسـة الضريح المقـدس ، يتمتعون لوحـدهم بامتيـاز القول :« قـام الرب من هـذا الضريح » ويشيرون بشكل مـرئي الى ذلك المكـان ويحدث مثل هـذا عنـدمـا نقـرأ في الإنجيل من أجل عيد الفصح :« إنـه ليس هنا ،هو قد قـام » ، يقوم الشماس الذي يقرأ الانـجيل بالاشـارة بإصبعه إلى ضريح الرب ، ويقوم المكان المدعـوأكرا (الجمجمـة) ، والذي اسمـه بالعبريـة الجلجلة ، الى جـوار كنيسـة ضريـح الـرب ، وهـو رفيع المكـانـة جـداً بين الأمـاكن المقدسة ، ولـه قوة مؤثرة كبيرة جـداً على القلب بسبب ذكريات آلام الرب ، وهنا عانى الرب من أجل خلاصنا ، فقد جرد من ملابسه، ووضع على الصليب ، وثبت على الصليب بـالمسـامير ، وقـد أعطي المرّ والخل ليشرب ، وسخـر منـه من قبل اليهـود وعـدّ مع المعتـدين ،

وحكم عليه بالموت بشكل مهين ، وصلى من أجل قاتليه وعهد بالعناية بأمه الى حوارييه ، ووعد اللص بالخلاص ، وبكى بصوت مرتفع ، وسلم الروح وهو يبكي ، وسال منه الدم والماء من جنبه ليغسل العالم ، وهنا تقاسموا ملابسه فيما بينهم ، ورموا القرعةعلى ردائه واهتزت الأرض وتشققت الصخور وسقط دمه على الأرض وأظلمت الشمس واختفى الضوء منها وعندما يزور الحجاج هذا المكان المقدس تلامس هذه الأشياء قلوبهم المرهفة والمتواضعة ، وتسبب معاناة الآلام ذرف دموع الحزن والأسى منهم

والآن إنه بالنسبة لمدينتنا القوية ، صهيون جبل يتسم بالوفرة ، حيث الرب كان مسروراً بالسكنى به ، وهو جبل يدر الحلاوة لا بل يدر حتى أقراص العسل والورود ذوات الأريج الطيب ، وهو يلامس شغاف القلب ويجلب الراحة ويعيد عقل التقي ، وبواسطة قداسته المتناهية ينشط العقول ويغذيها ، وبقي الرب هنا مع حوارييه ، ووضع منشفة حول وسطه ، وغسل أقدام الحواريين ، ضارباً مثلاً بالتواضع ، ثم ارتدى ملابسه مرة ثانية وأكل وشرب مع حوارييه ، وأقر قواعد العهد الجديد ، حيث الخبز تحول الى جسده والنبيذ الى دمه ، وعلم حوارييه بكلام مقدس ، وهنا إتكأ يوحنا على صدره المقدس ، وهنا سكنت العذراء المقدسة بعد وفاة ابنها طوال المتبقي من حياتها مع يوحنا ، الذي إليه عهد بأمر العناية بها ، وهنا ظهر الرب لحوارييه فيما هم جلوس وراء أبواب مغلقة ، زيادة على هذا ، بقي الحواريون في هذا المكان ، بعد صعود الرب حتى يوم عيد الحصاد ، وذلك بانتظار قدوم الروح القدس ، وكانوا طوال ذلك الوقت صائمين مصلين ، وعندما جاء يوم عيد الحصاد ، ازدادت قوتهم بتلقي روح القدس على شكل لهب النار ، وكان ذلك مع معرفة كل اللغات ، وفوق ذلك المكان اجتمع حشد كبير من اليهود ، لدى سماعهم صوتاً مفاجئاً من

السماء ولهم شرح القديس بطرس نبوءة يوئيل ، وتولى تحويل كثيراً منهم للايمان بالرب ، وجعلت جميع هذه الأشياء هذا المكان متفوقاً بمجده على جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، ومنحته وقاراً خاصاً وعظمة مميزة

الفصل الثاني والستون

وهيكل الرب المقدس ، الذي بنى على جبل موريا من قبل سليمان، على أرض بيدر أورنان اليبوسي ، ليس هناك ما يضاهيه بالقداسة والمكان المبجل ، ومع ذلك كان قد دُمر أولاً من قبل البابليين ، وبعد ذلك من قبل الرومان ، ومع هذا أعيدت عمارته مرة أخرى على البقعة نفسها من قبل المؤمنين والرجال المتدينين على شكل بناء مستدير بمهارة معماريه وبراعة متفوقة بجمالها وبأبهتها ، وفي هذا المكان ، وعلى الصخرة التي ما تزال في الهيكل ، يحكى بأن ملاك التدمير قد وقف وظهر لداود ، وقد تولى هذا الملاك نفسه قتل آلاف كثيرة من الشعب الاسرائيلي بسبب الذنب المتعلق بتعداد الناس،الذي أجري بناء على أوامر داود،ولهذا السبب يدعو المسلمون حتى هذا اليوم هيكل الرب باسم«الصخرة»،وينظرون إليه نظرة وقار عظيمة الى حد أن مامن واحد منهم يتجرأ على تدنيسه بأي نوع من أنواع الدنس،كما يفعلون بالأماكن المقدسة الأخرى،ومنذ أيام سليمان حتى الآن يأتون من مناطق بعيدة للتعبد هناك،وكلما استولوا على المدينة المقدسة يقيمون تمثال(كذا)محمد«ﷺ» في الهيكل،ولايدعون مسيحياً يدخل الى الصخرة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم،ولهذا أمر الملك يوشع ملك اسرائيل— وقد رأى أن خراب المدينة بات قريباً رأي العين— بوضع قدس الأقداس في الهيكل في مكان خفي،هذا ونقرأ في سفر المكابيين الثاني أن النبي إرميا توجه الى الجبل الذي صعد ه موسى ،ورأى ميراث الرب

هنـاك حيث أخـذ خيمـة العهـد ، والتـابـوت ، ومـذبح البخـور ، ووضعهم في كهف وجده هنـاك ، ووقف عند بـاب الكهف قائلاً: « إنه بالنسبة لهذا المكان سيبقى غير معروف حتى الوقت الذي سوف يجمع فيـه الـرب شعبـه ولسـوف يظهر مجد الـرب »، وحـدث في هـذا المكان المقدس والمبجل ، أنه عندما أنهى سليمان عمله ، وكان يقدم أضحية الى الرب ، أن قامت غمامـة فملأت البيت ، وظهر مجد الرب ، ونـزلت نار من السماء والتهمت تقـدمـة الحرق والأضاحي ، ومـلأ مجد الـرب البيت ، ولم يتمكن الكهنـة من الـدخول الى بيت الـرب : وهكـذا رأى أبناء اسرائيل كيف نـزلت النار، ورأوا مجد الـرب على البيت، ثم جثا سليمان على ركبتيه وبسط يـديه نحو السماء وصلى الى الـرب داعياً : أن كل من يـدخل الى الهيكل ويسأل شيئاً مـا ، على الرب الاصغـاء الى دعـائه ، وظهر الـرب اليـه قائلاً:« لقـد سمعت دعـاءك ، والتقدمـات التي وضعتها أمـامي ، ولقد قدست هذا البيت الـذي بنيته لي ، والآن إن عيني ستظل مفتوحتان ، وأذني تصغيـان الى الدعاء الذي يصنع في هـذا المكان ، لأنني اخترت هـذا المكـان لنفسي ، ولنفسي قدستـه » ، ونقرأ في سفر المكابيين الثاني أنه عنـدما جرى ارسال هيليود وروس He-liodorus من قبل الملك انطـوخيوس (اقـرا: سلـوقس) ليقوم بخـرق حرمة المعبد ، وليأخـذ بالقوة المال الذي كان مودعاً بالخزانة ، ظهر هنـاك فـرس على ظهـره راكب مـرعـب ، مـزين بغطـاء جميل جـداً ، وركض الفرس مسرعـاً وبحدة ركل هيليـودوروس بقائمتيـه الأماميتين ، وبدا الذي جلس على الفـرس لديه مقود كـامل من الذهـب ، زيادة على هـذا ظهر أمـامـه رجلان شـابـان ، عظيما القـوة بهيان بـالجمال ، وحسنا اللبـاس ، ووقفا الى جـانبه كـل واحد منهما على طـرف وجلداه بشكل مستمـر ، وسـددا اليه الكثير من الضربـات المؤلمة ، وقيل إنـه هنـا خـدمت العـذراء المبـاركـة قبل أن تخطب الى يـوسف، وذلك مع فتيـات أخـريـات ، كن يعملن على تجهيـز الأوعيـة والملابس للكهنـة

الـذين كـانـوا يـدرسـون الكتابـات المقـدسـة ويصـومـون ، ويتأملـون، ويصلون ، ويـدرسون بحكمـة وبتواضع النصـوص المقدسـة فضلاًعن هـذا عندمـا جلبت من قبل والـديها الى الهيكل ، وهي طفلـة ، لتمثل أمام الرب ، يحكى بأنها صعـدت لوحدها جميع الـدرجات المؤدية الى الهيكل بدون صعوبـة ، الأمر الذي بدا أنه أمراً مـدهشاً في أعين الناس جميعـاً ، ولم يسمع بشيء من هـذا القبيـل قـد صنع مـن قَبل، من قِبل طفل صغير،وحدث في هـذا المكان أنه عنـدما كـان زكريا المقـدس يقدم بخـوراً الى الـرب،أن ظهر الملاك لـه،وأخبره أن دعـاءه قـد سُمع من قبل الـــرب—حيـث كـــان جميع الكهنـــة يصلـــون الى الـــرب في وقت البخـور،ويدعـونه من أجل قـدوم المسيح وتخليص الناس—وأضـاف أن زوجته العـاقر إليـزابث ستحمل منـه ولداً،وفي هـذا المكان أحضر مـولانا يسـوع المسيح من قبل والـديه مـع حمامة وفـرخ طـائر،ووضع على ذراعي سمعان،ثم كان أن تحدثت إليهم جميعاً حنـة الأرملة المقدسةفي أن ينتظروا الخلاص في القـدس،وهنـا،عنـدمـا وصل الى سن الثـانيـة عشرة،ولكي يضرب مثلاً على فهمـه ودراسته للكتـابات المقدسـة،جلس وسط الحكماء يصغي إليهم ويسألهم أسئلة،وهكذا دهش الـذين سمعوه بسبب فهمـه وإجابـاته،وعنـدما صعد الى الهيكل للصـلاة،طرد من هنـاك الذين كـانوا يبيعـــون ويشترون،وقلب منـــاضـد الـــذين كـــانـــوا يقـومـــون بتبـــديل النقود،وكـذلك مقاعد الذين كـانوا يبيعون الحمام،وألجمهم بقولـه:«سوف يـــدعى بيتي بـاســم بيت الصـلاة»،وصعــد في احـدى المرات الى بـــرج الهيكل،حيث حاول الشيطـان إغواءه،بأن اقترح عليه أنـه ينبغي أن يرمي بنفسه الى الأسفل،وعنـدما بـاتت آلامه وشيكـة الوقـوع،كان يتـولى الوعظ والتبشير طـوال النهار،ويـذهب في المساء الى بيت حنينـا،ويعود مع بـزوغ نور الصباح،ولدى مـوته تشقق حجاب هذا الهيكل من الأعلى الى الأسفل حتى يفسح الطـريق نحـو قدس الأقـداس،وسقط من بـرج هـذا الهيكل القديس جيمس الرسول بينما كان يصلي،ثم تلقى تاج شهادته بضربة من

عصا القصار،ويوجد في القدس هيكل آخر له حجم كبير واتساع،ومن خلاله نالت الأخوانية العسكرية للداوية اسم فرسان الهيكل،وكان يدعى هذا الهيكل باسم هيكل الرب،ويقع جبل الزيتون،جبل الخصب،وجبل الزيتون،وجبل الأنوار الثلاثة،وهو التل المقدس والمقبول،على مسافة ميل من القدس، وعلى منحدره تقوم«بيت فاج»، التي تفسر بمعنى«بيت الفك»،وهي قرية الكهنة،وبيت حنينا،وهي قرية:مرثا،ومريم،ولعازر،وهناك دهنت مريم قدمي الرب،ومسحتهما بشعرها،وعندما كانت مرثا مشغولة بصنع قداس للرب،جلس عند قدميها يصغي بتشوق الى الكلمات التي كانت تتفوه بها،وعلى هذا الجبل أقام المسيح لعازر،والى هناك غالباً ماتلطف وتنازل أن يكون ضيفاً،حتى يقوم بالتبشير وصنع المعجزات،وعلى هذا الجبل الأعظم قداسة وتبجيلاً،كان الرب جالساً عليه مقابل الهيكل،عندما سأله حواريوه: ماهي العلاقات التي ستكون حول قدوم حكمه،ونهاية الدنيا؟وغالباً ماذهب الى هذا الجبل مع حوارييه للصلاة،وبخاصة بشكل أكثر كثافة عندما باتت الآلام وشيكة الحصول،وعلى هذا الجبل جرت تحيته بشكل تمجيدي من قبل الأطفال العبرانيين الذين التقوا به،وهم يحملون سعف النخيل،ومن هذا المكان سار منتصراً راكباً على ظهر أتان،مع تراتيل الكهنة،وصعد من هذا الجبل،بحضور حوارييه،بمجد الى السماء.

الفصل الثالث والستون

وهناك أماكن أخرى مقدسة ومبجلة في كل من داخل المدينة وخارجها، نذكر منها:وادي يهوشافاط،بين جبل صهيون وجبل الزيتون،ولقد أخبرنا أنه خلف وادي قدرون هناك قرية صغيرة اسمها جيسماني،وعلى مقربة منها الحديقة التي ألقي فيها القبض على الرب من قبل اليهود،وقد دفنت العذراء المباركة في هذا الوادي،ومن المعتقد أن

الرب سوف يأتي الى هنا ليحكم بالعالم،وتوجد هنا بركة استحمام سليمان حيث شفي الرجل من العمى،وهناك كنيسة القديس ستيفن، أول شهيد على تلك البقعة حيث رجمه اليهود بالحجارة.وتقوم قرية عمواس على نحو ستين غلوة بعيداً عن القدس،وعلى مقربة منها مودين،مدينة المكابيين،ومدينة جبعون أيضاً على مقربة منها،وفي مدينة عمواس قام الرب بكسر الخبز وبتقديم الشكر، وكان معروفاً بينهم تكسير الخبز،وهناك أماكن أخرى كثيرة تفضل الرب بزيارتها وبتقديسها بحضوره الجسدي،لأن أي مكان داسه الرب بقدميه عدّه المؤمنون مقدساً،وكرسوه،ومن الآثار الثمينة،ولاعجب— بناء على هذا—أن أرض الميعاد تفيض بالحليب والعسل،وهي أطيب ريحاً من العطور،ولهذا جذبت الى نفسها ليس فقط رجال الدين،أو العلمانيين،بل كل من الفرسان والمدنيين، جذبتهم الى حد التخلي عن آبائهم وعن ماورثوه عن أسلافهم، وعاشوا هنا في ظل نظام ما، وبعض هؤلاء في القدس هم الاسبتارية،أو أخوانية مشفى القديس يوحنا،وآخرون هم أخوانية فرسان الداوية،وآخرون أيضاً هم أخوانية مشفى القديسة مريم من الألمان(التيوتون).

الفصل الرابع والستون

كانت بداية مشفى القديس يوحنا في أيام السريان والأرثوذكس(الاغريق) عندما كانت المدينة المقدسة ماتزال تقبع تحت سلطان المسلمين، على النحو التالي: ومهما يكن الأمر،فقد حدث بسبب آثامنا، أنه في الزمن الذي سيطر فيه المسلمون سيطرة كاملة على جميع أرض الميعاد،مع هذا كره كثيرون من المسيحيين من الأمة السورية ترك بلادهم، واستمروا يعيشون بين المسلمين، مع أنهم أنزلوا الى حالة متدنية،واضطهدوا بنير للعبودية شديد،وكان أمير مصر،الذي كان سيداً

لجميع البلدان من اللاذقية في سورية حتى الاسكندرية التي هي أبعد مدينة في مصر،قد منح ربع مدينة القدس الى جانب الضريح المقدس الى السريان وبطريكهم للسكنى فيه،آخذين بالاعتبار دفع جزية سنوية، هذا وسكن المسلمون في الأجزاء الثلاثة الأخرى، وكان المسيحيون قد اعتادوا على القدوم من الغرب الى أرض الميعاد،بعضهم من أجل التجارة،وعرض بعضهم أنفسهم الى مخاطر عظيمة وجاءوا بدافع من ايمانهم للقيام بالحج،لزيارة الأماكن المقدسة،وكانوا يدفعون الجزية للمسلمين، وكان بعضهم من اللومبارد وخاصة من الأمالفيين،أي أهل مدينة أمالفي،التي لاتبعد أكثر من سبعة أميال عن مدينة سالرنو المجيدة،وكان هؤلاء يجلبون التجارات الأجنبية،وقد جعلوا أمير مصر صديقاً لهم بإعطائه الجزية وهدايا،وقد حظيوا بمكانة علية لديه،وبسهولة أقنعه هؤلاء الناس في أن يسمح لهم ببناء كنيسة لاتينية تبعد رمية حجر عنها، وكان السبب لهذا هو أن السوريين كانوا يتبعون عادات وأحكام الكنيسة الأرثوذكسية (الاغريقية) أثناء أدائهم للقداسات الدينية،وبناء عليه ماتزال هذه الكنيسة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم تعرف بكنيسة القديسة مريم للاتين،ذلك أنهم أقاموا هناك راعي دير مع رهبان يتولون إدارة القداسات وفقاً للطقوس اللاتينية،ومع مرور الأيام،كان الدير المذكور بلا أسوار،وقد رأى الرهبان فيه أنه من غير اللائق تمكين النساء من الحجاج من الإقامة فيه،ولهذا أسسوا ديراً آخر كرسوه للقديسة مريم المجدلية،وجعلوا فيه أخوانية نسائية من النساء المتدينات،ليتولين شؤون النساء اللاتينيات في ذلك المكان والترفيه عنهن،وفيما بعد ومع تدفق الحجاج الى هناك ،ولكون الديرين سالفي الذكر لم يعودوا يكفيان لإقامة الفقراء والمرضى والمصابين من الناس،قام راعي الدير المتقدم الذكر والرهبان،باختيار مكان في الموقع نفسه بجوار كنيستهم،فبنوا مشفى وبيعة لاستخدام الناس المرضى والفقراء،وكرسوهما للقديس يوحنا المعطاء،وكان هذا الرجل المقدس،مرضياً من قبل الرب

وجديراً بالثناء في كل شيء،وكان قبرصياً من حيث الانتماء،وبفضل قداسته جرى تعيينه بطركاً للاسكندرية،ولأنه كان متميزاً بكرمه وبالأعمال التقوية الأخرى، صار يدعى باسم«المعطاء»،أي أن تقول«المحسن»، ورأى في البداية راعي دير القديسة مريم اللاتيني أن المشفى المتقدم الذكر أو الـ Xenodochium ،أي مشفى القديس يوحنا كان بلاموارد وليس له لاميزانية ولاممتلكات،وبحكم مكانته الدينية السامية،اعتاد أن يزود المرضى والمحتاجين من فتات الطعام وفضلات الموائد في الديرين،ومن خلال صدقات المؤمنين،لكن عندما تفضل الرب برحمته فأمكن بوساطة الدوق غودفري وبقية الشعب المسيحي المؤمن،تحرير مدينة مخلصنا من الكفار واعادتها الى الديانة المسيحية، كان هناك رجلاً صاحب حياة مقدسة، وإيمان مجرب،اسمه جيرارد،قد قام بناء على طلب من راعي الدير بادارة شؤون الفقراء من الناس في المشفى المتقدم الذكر،لمدة طويلة وبإخلاص،وكان يعاونه آخرون من الرجال الشرفاء والمتدينيين،وقد أخذ الجميع على أنفسهم عهد الرهبان النظاميين، ووضع هو صليبا أبيض على ثيابه الخارجية فوق صدره،وربط نفسه بميثاق للاحتراف رهيب،في أن يرعى جميع أحكام النظام والعادات الحسنة،وانضم اليه في ادارته لشؤون الفقراء سيدة اسمها أغنس،وكانت من أصل روماني،وكانت نبيلة من حيث الانحدار الجسدي،لكنها كانت أعظم نبلاً فيما يتعلق بحياتها المقدسة، وكانت قد شغلت منصب راعية دير للنساء،وأخذت على نفسها الآن العهد بمراعاة أحكام النظام نفسها مع الحياة المتواضعة،وخدمت الأخت المتقدمة الذكر الرب بتواضع واخلاص، وأدارت بنشاط شؤون الفقراء والمحتاجين،وكانت تتولى دفن الموتى منهم في حقل حمل اسم أكلداما،أي حقل الفاخوري،وكان قد شري من قبل اليهود لدفن الغرباء،وكان ثمنه ثلاثين قطعة فضية،ألقاها يهوذا في الهيكل،وطوال الوقت الذي كانوا فيه فقراء لم يرفضوا طاعة راعي دير القديسة مريم

للاتين واحترامه،لأنه هو الذي أسس المشفى سالف الذكر،وأطعم فقراء مرضاه من مائدته،وقد احترموا أيضاً احتراما زائداً القديس يوحنا المعطاء،لأنه راعيهم الأول ومعينهم،ولأنه المدافع المسؤول عنهم وعن مشفاهم أمام الرب،واعترفوا به شفيعاً لهم وسيداً،وفي الوقت نفسه أطاعوا بإخلاص السيد بطريرك القدس،ودفعوا له بدون تردد عشر بضائعهم وذلك تبعاً لقوانين ومفاهيم العهدين القديم والجديد،وكانوا ملازمين للصلاة،ينهكون أنفسهم بالصوم وبالسهر،ويكثرون من أعمال الرحمة،وعاشوا عيشة تميزت بالاقتصاد والتقشف بالنسبة لهم أنفسهم،غير أنهم اعتادوا على الانفاق بسخاء على الفقراء الذين اعتادوا على دعوتهم باسم«سادتهم»، وكانوا يؤثرون المرضى بخبز القمح النقي،ويبقون النخالة لاستخدامهم الشخصي،وكان إذا ما أذنب واحد منهم واقترف أي خطيئة،لم يتركوه مطلقاً دون عقوبة،خشية أن يؤدي التساهل تجاه الذنوب الى التشجيع على اقترافها، وكانوا يعالجون الأمر حسبما يقتضيه الحال، بالنسبة لدرجة الذنب ووضع المذنب،فبعض هؤلاء كان ينزع الصليب من على ملابسهم، ومن ثم يطردون وينبذون تماماً كأنهم أعضاء فاسدين،وكان بعضهم يصفدون بالسلاسل ويودعون في السجن،وكان يقضى على بعضهم الآخر بأكل وجبات ضئيلة جداً على الأرض عند أقدام أخوانهم،حتى يكونوا قد أدوا الكفارة المناسبة، وكانوا محبوبين من قبل الجميع،لأن الرب كان معهم،ولهذا مضى صوتهم في البلاد كلها، ووصل صيت تقواهم الى أواخر الدنيا،وكان بعدما جرى استرداد الأرض المقدسة أن تقاطر الناس المؤمنون من كل أمة، وعشيرة ولغة على القدس، لزيارة ضريح الرب،وأصبحوا بفضل مساعدات الأمراء وصدقات المؤمنين في وقت قصير أغنياء جداً، وحصلوا على موارد وافرة من كل بلد في الغرب، وصاروا متملكين لبلدات وقرى ،وتملكوهاوأداروها وكأنهم سادة البلاد.

- ٢١٣٠ -

الفصل الخامس والستون

والآن بعد هـذا، أخذ الناس مع مضي الـوقت من جميع أجـزاء العالم، مـن بين غني وفقير، وشـاب وفتـاة،وشيخ وطفـل، أخـذوا بـالذهـاب الى القدس لـزيارة الأمـاكن المقدسـة، واعتاد بعـض اللصوص، وعصـابات الرجالة، وقطاع الطـرق على نصب الكمائن للحجاج غير الحذرين، ونهبوا كثيراً منهم، كما قتلوا بعضهم، وهنا عزم بعـض الفرسان الأتقياء، الـذين أحبهم الرب،بـدافع من العاطفـة المتشوقة لأداء الاحسان، الأمـر المشهور في العـالم، فجعلـوا مـن أنفسهـم عبيـداً مكـرسين للمسيـح،وبـواسطـة الاحتراف الـدينـي، ويمين التكريـس،أوقفـوا أنفسهـم على الدفـاع عـن الحجاج ضـد اللصوص المتقدمي الـذكر،وكذلـك حراسة الطرق العـامة، والعيـش مثل الـرهبان النظـاميين في الفقـر والعفة والطـاعة،حسبما يليـق بجنـود ملـك الملوك،وكـان مقـدمـومهم رجـالاً محترمين مبجلين، يحبهـم الرب:هيودي بينزPayens ،وجيوفيري دي سينت أومر،وفقط انخرط في البدايـة تسعة في هذا المشروع المقـدس، وظلوا يخدمون لمدة ثمانيـة أعوام، يرتدون لباساً مـدنياً،وذلك حسب مانالوه من الصـدقات، وقام الملك مع فرسانه، وقـد رحموا وعطفوا على هؤلاء النبلاء السالفي الذكـر،الذين تخلوا عن كل شيء مـن أجل المسيح، وتعاونوا مـع السيد البطريرك،فـدعموهم من مصادرهم الخاصـة، وأعطوهم فيها بعد الهبات والمنح مـن أجل راحة أنفسهم،وبما أنهم لم يكونـوا قد تملكوا بعد أية كنيسـة خاصة بهم أو أي مقـر إقامـة محدد، سمح لهم مـولانـا الملك بـالاقـامة لبعـض الوقـت في قصره،قرب هيكـل الرب،وأعطـاهم راعي ديـر هيكل الـر ب مع رهبـانه مكانـاً مكشوفاً،امتلكـوه قرب قصر الملـك لاستخدامه مكـاتب لهم، وبما أنهم سكنـوا قرب هيكـل الرب، عـرفوا فيها بعـد باسـم«أخوانيـة فرسـان الهيكـل» وبعـدمـا أمضـوا تسـع سنـوات في هـذا الاحتراف ،وفي فقـر

مقدس،عاشوا حياتهم بشكل جماعي بفقر مقدس،وبعدما أقاموا بوئام وبتفكير واحد في البيت،حدث في سنة النعمة ١١٢٨، في ظل رعاية مولانا البابا هونوريوس، والمولى ستيفن بطريرك القدس،أنهم منحوا نظاماً(طريقة)ورداءً ابيض بدون صليب مطلقاً،وجرى اقرار هذا في مجمع عام عقد في ترويTroyesفي شامبين تحت رئاسة المولى أسقف ألبا،نائب الكرسي المقدس،وذلك بحضور رئيسا أساقفة الرايمس وسنس،ورؤساء الديرة السستر شيانية، ورؤساء كنائس آخرين، وحدث بعد هذا، أنهم قاموا في أيام مولانا البابا يوجينوس(الثالث:١١٤٥—١١٥٣)، بتعليق صلبان حمراء على الجوانب الخارجية من ملابسهم، واستمروا بارتداء الملابس البيضاء بمثابة رمز على البراءة، وأشاروا بوضعهم للصلبان الحمراء الى الشهادة، ووفقاً لشروط أحكام نظامهم، كانوا مكرسين لسفك دمائهم دفاعاً عن الارض المقدسة،وليتغلبوا برجولة على أعداء صليب المسيح،ولطردهم وابعادهم عن حدود المسيحية، وكانوا يباشرون القتال بناء على أمر قائدهم، وليس الاندفاع بشكل فوضوي، بل العمل بحكمة مع جميع الاحتياطات، وذلك أنهم كانوا أول من يهاجم وآخر من يتراجع، ولم يكن مسموحاً لهم بادارة ظهورهم والفرار ولا التراجع بدون أوامر، وهكذا باتوا جند المسيح الأقوياء والشجعان، مثل جيل ثان من المكابيين، الذين لم يعتمدوا على قواهم الخاصة،لكن كان أملهم في قوة الرب، وكانت ثقتهم كلها في صليب يسوع المسيح،ولقد عرضوا من أجله أجسادهم للموت، التي كانت ثمينة جداً في نظر الرب،ولقد قاتل الرب معهم، وقاتل من أجلهم، وهكذا باتوا مرعبين جداً لأعداء الايمان المسيحي،حتى اعتاد واحد منهم على مطاردة ألف وألفين منهم،لابل عشرة آلاف، ولدى استدعائهم لحمل السلاح، ماكانوا يسألون كم عدد الأعداء الذين كانواهناك،لكن أين هم،فلقد كانوا أسوداً في الحرب،ووداعاء مثل الحملان في البيت، وكانوا على أرض القتال جنوداً حادين،وكانوا في الكنيسة مثل النساك أو الرهبان، وكانوا قساة

ومتوحشين نحو أعداء المسيح، لكنهم كانوا لطفاء وخيرين نحو المسيحيين، وكانت رايتهم بيضاء وسوداء،أسموها بوسنتBauceant، حملوها أمامهم، وكانت تدلل على أنهم كانوا لطفاء ورحماء نحو أصدقائهم، لكنهم سود، ومرعبين نحو أعدائهم، والآن وقد رأوا أن الحماسة الدينية لايمكن الحفاظ عليها من دون نظام دقيق، أقدم هؤلاء الرجال العقلاء و المؤمنين منذ البداية على تحصين أنفسهم، واتخاذ الاحتياطات من أجل الادارة الجيدة لخلفائهم من بعدهم، وبالعزم على عدم التراخي المطلق، أو ترك أي اهمال أو خرق لنظام أخوتهم، وكانوا يزنون بكل عناية، ويقيسون بالتمام بشاعة الجريمة، وظروف المذنب، ولقد انتزعوا من بعضهم صلبانهم وطردوهم طرداً أبدياً ،خشية أن ينقل الجدي المريض العدوى الى جميع قطيع الماشية، وحكموا على آخرين بأن يأكلوا وجبات صغيرة جداً على الارض، من دون غطاء للمائدة، وذلك أن قيامهم بالتكفير عن ذنوبهم بشكل مناسب،وبوسيلة الإهانة العلنيةهذه،يمكن أن يتوردوا خجلاً، ويمكن للآخرين أن يخافوا، وزيادة في فوضاهم وعقوبتهم لم يكن يسمح لهم بطرد الكلاب الذين أكلوا معهم،وجرت العادة بالنسبة لآخرين بصفدهم بالسلاسل، وسجنهم إما لوقت محدد، أو لمدى الحياة، وبعد هذا،ووفقاً لما يرونه مناسباً، كانوا يطلقون سراحهم من سجن جهنم،ووفق طرائق أخرى، تبعاً لمبادىء انظمتهم بشكل عام، بما أنهم كانوا متمردين ومعاندين رافضين للسير وفقاً لطرائق وأحكام النظام، والمحادثة المشرفة، وقد أظهروا طاعة لائقة واحتراماً وتواضعاً للمولى بطريرك القدس، الذي يدينون له بتأسيس حركة رهبنتهم، وتزويدهم بالأشياء الدنيوية،بإعطاء العشور وبقية الأشياء الدنيوية وفق قاعدة:«أعط ماللرب للرب،وما لقيصر لقيصر»(لوقا:٢٠ متى:٢٣)،ولم يشكلوا عبئاً على أي أحد، بل كانوا محبوبين من قبل الجميع، بسبب تقواهم وتواضعهم، وهكذا حدث أن انتشرت شهرتهم مع مجدهم،وسمعة قداستهم في جميع أنحاء العالم، مثل

وعاء البخور ذي الرائحة الفواحة، ولقد ملأ عبيرهم جميع البيت للكنيسة المقدسة،وكانت ذكراهم حلوة مثل العسل في فم جميع المؤمنين،ولسوف تتم تلاوة أخبار شجاعتهم، ومعاركهم، وانتصاراتهم الرائعة على أعداء المسيح في جميع كنائس القديسين، وحذا حذوهم فرسان من جميع أجزاء العالم— ليس الفقراء فقط، بل دوقات وأمراء— فحطموا قيودهم الدنيوية، وتنازلوا عن كل شيء في سبيل المسيح، وتدفقوا عليهم،عن رغبة منهم بالانتماء الى رهبنتهم الدينية:لقد تخلوا بالكامل عن جميع مظاهر الابهة،وغرور هذه الدنيا، وجميع مسرات الجسد، ونظروا إليهم على أنهم مجرد قذارة، وفي ظل الهام رباني تبنوا بإيمان عظيم، خدمة المسيح، وتواضع الرهبان، ولهذا تزايد عددهم في وقت قصير كثيراً، حتى بات لديهم في ديرهم أكثر من ثلاثمائة فارس،جميعهم يرتدي الأردية البيضاء، وذلك دون أن نحسب رجال الخدمة الذين كانوا لا حصر لهم، وقد تزايدوا بشكل استثنائي بوساطة ممتلكاتهم على كل من هذا الجانب وفيما وراء البحار،ذلك أنهم تملكوا القرى،والمدن والبلدات،وذلك وفقاً لطرائق أخوانية مشفى القديس يوحنا،حيث اعتادوا على ارسال مبلغ محدد كل سنة من أجل الدفاع عن الارض المقدسة،وذلك الى مقدمهم الاعلى،الذي كان مقره الرئيسي في القدس،ووفق الطريقة نفسها أرسل أمناء صناديق بيوت رهبانية مشفى القديس يوحنا— الذين يدعونهم باسم المعلمين— مبلغاً محدداً سنوياً الى مقدمهم الاعلى، لأن أخوانية المشفى المتقدم الذكر،في تقليد منهم لفرسان الهيكل أذرعة الجسد،تقبلوا الفرسان مع أتباعهم في زمرتهم،ربما ليتحقق ماتكلم به النبي إشعيا حول قيام الكنيسة ووضعها الذي ستكون عليه:«سوف أجعلك فخراً أبدياً فرح دور فدور»(إشعيا:٦٠ / ١٥)،وقوله ثانية:«الذئب والحمل يرعيان معاً والأسد يأكل ومعهما ستسكن الأغنام»(إشعيا:٦٥).

- ٢١٣٤ -

الفصل السادس والستون

والآن،بما أنه ليس من السهل قطع الثلاثي البرم،تفضلت الحكمة الربانية باضافة بيت ثالث الى البيتين المتقدمي الذكر،وهو بيت كانت الارض المقدسة بحاجة ملحة إليه،وقدتشكل وفقاً لنظامي البيتين الآخرين، واتبع هؤلاء الرجال أحكام وتنظيمات رهبانية فرسان الهيكل في كل من السلم والحرب،وكانوا مثل أخوانية مشفى القديس يوحنا يقدمون العون الى المرضى والغرباء وآخرين في مشفاهم، الذي عرف باسم مشفى القديسة مريم للتيوتون في القدس،وأن يكونوا جيدين،ويقدموا خدمة كافية مع جميع التقوى والتبجيل بطاعة وتواضع للمولى البطريرك ولبقية رجال الكنيسة الآخرين،وقدموا الأعشار الكاملة عن كل ماامتلكوه، تماشياً مع متطلبات الشريعة والأوامر المقدسة،وألا يسيئوا الى رؤساء الكنائس، وهؤلاء الذين بدأوا من مصدر ضئيل ومتواضع،قد ازداد حجمهم الى نهر عظيم، وقد خدموا القديسة مريم راعيتهم بتقوى وتواضع،لأنها جعلتهم يزدهرون، وأعطتهم الزيادة في كل من الأشياء الدنيوية والروحية، وبعدما جرى استرداد المدينة المقدسة المتقدمة الذكر،سكنت هذه المدينة من قبل المسيحيين وكثير من التيوتون والألمان الذين ذهبوا الى القدس للحج، وكانوا غير قادرين على التحدث بلسان أهل المدينة، وهنا ألهم الرب واحداً من أعيان التيوتون ومتدينيهم،ممن سكن في المدينة مع زوجته، ألهمه لبناء مشفى على حسابه الخاص،حيث يمكن فيه استضافة فقراء ومرضى التيوتون،لكن بما أن كثيراً من فقراء الحجاج اعتادوا على ارتياد بيته،حتى يمكنهم التكلم باللغة التي عرفوها،قام بموافقة من البطريرك، بإرادة طيبة فبنى بيعة خاصة قرب المشفى المتقدم الذكر، وكرسها لأم الرب،مريم المباركة، وقام لوقت طويل، وفي ظل فقر عظيم، بمعالجة شؤون المرضى والمحتاجين

من مـوارده الخاصة، ومن المساعـدات التي كان يجمعها مـن المؤمنيين،ثم إن بعض النـاس، وبشكل رئيسي من أمـة الألمان، عندما رأوا صـدقات الرجـل المتقدم الذكـر، وأعماله الجيدة،تخلوا عـن كل ماامتلكـوه، وخلعوا ووضعـوا جانبـاً ثيابهم الـدنيـوية،وربطـوا أنفسهـم بعهد،حيـث كرسـوا أنفسهـم للـرب،وللمشفـى المتقـدم الذكـر، لخدمـة الفقـراء، ومـع مضي الوقت، وبما أنه ليـس فقط فقراء الناس،بل الفرسـان الأتقياء والنبلاء من ألمانيـا،قطعـوا على أنفسهـم عهـود المشفى السـالـف الـذكـر، واختـاروا لأنفسهـم عن طـواعية الفقـر،وفضلوا أن يسكنـوا كرجـال فقراء في بيـت ربهم على أن يسكنوا في خيـام غير الاتقياء، واعتقدوا أنـه سيكون مـرضياً للرب ومقبولاً لديه ليس مجرد معالجة شؤون المرضى والمحتاجين،بل أيضاً أن يكـرسوا حيـاتهم مـن أجل المسيـح،في أن يصبحـوا جنود المسيـح في الجسد وكذلـك بالروح، بالقيام بـالدفاع عن الأرض المقدسـة ضد أعداء المسيـح،وبناء عليـه،لقد تبنـوا—كما قلنا مـن قبل— أحكـام وممارسـات فـرسـان الهيكـل،وفضـلاً عـن هـذا حتـى لايتخلـوا عـن أعمال التقـوى والضيـافة التـي تـرضي الرب،مثـل مخلـوقات الكتـاب المقـدس، الذيـن امتلكوا في وقـت واحد وجـه انسان ووجـه أسد، صرفـوا أنفسهم بتقـوى عظيمة وبحماس للعمـل في المجالين معـاً،وبذلك نـالوا النعمـة والحظوة لـدى كل مـن الرب والانسـان،ولكي يتميـزوا ارتدوا صلبـاناً سـوداء على عبـاءات بيضاء فضفـاضة، واستمـروا حتى هـذه الأيام في فقـر وتواضـع وغيرة دينية، وإننـي أدعو الى الرب حتى يحميهـم من الثروة، التـي تجعل النـاس متكبريـن،وجشعين، ومشـاكسين، وممتلئين بالقلـق، ومـن أعـداء الدين،لأنه مالذي سيفيد الانسان إذا ربح العالم أجمع وخسر روحه.

- ٢١٣٦ -

الفصل السابع والستون

فضلاً عن هذا،ازدهرت الأرض المقدسة مثل حديقة للبهجة، وذلك بكثير من التنظيمات الكهنوتية، وبأشخاص متدينين،ونساك ورهبان،وكهنة، وراهبات، وعذارى منقطعات كرسن أنفسهن للرب،وأرامل عفيفات مقدسات، وعبقت بشذى عطر جميل كأنه صادر عن الورود، والزنبق،والبنفسج،وبارك الرب بداية السنة بخيراته، وجعل القفار زاخرة الى حد أن الأماكن التي كانت تقطنها التنينات والأفاعي كان هناك نباتات خضراء وقصب، ومع أن الرب كان قد تركها لبعض الوقت مقفرة،غير أنه بحبه العظيم ولطفه قد جمع أبناءها وحشدهم، وجعل الارض مكتظة بالسكان من مختلف الاعراق،ومختلف الالسن والامم،حيث بدا هناك تحقيق النبوءة القائلة:«يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الايدي،حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأن تتحول إليك ثروة البحر ويأتي غنى الامم»ورأت البلاد ذلك جليا، فتعجبت، وكان قلبها مسروراً،عندما تدفقت الحشود الى هناك من البحر،خاصة من جنوى،والبندقية وبيزا،وإليها جاءت قوى الامم لاسيما من فرنسا وألمانيا،وجاءها رجال الحرب، وكانت الامة الاولى أكثر قوة في البحر،أما الثانية فكانت أقوى على الارض،والامة الاولى أفضل في القتال البحري، وأحسن قدرة على القيام بمعارك فوق وجه الماء بوساطة ممارساتهم واستخداماتهم.

أما الآخرين فكانوا جنوداً أحسن على الارض، وبارعين في الحرب،ومقاتلين أشداء على ظهور الخيول بوساطة السيف والرمح، وكان مجد المتقدمين في غلايينهم،والمتأخرين في خيولهم.والايطاليون أكثر جدية وبراعة، ويتسمون بالحكمة والحذر،ومقتصدين بالاكل، ومعتدلين في الشراب،ويلقون خطابات طويلة ومنمقة،ويتسمون بالعقلانية في

استشاراتهم،وغيوريـن ومتحمسين على تـوسيـع مصالـح دولهم،ولـديهم الحرص والـزاد للمستقبـل،ولا يـرغبـون بـالخدمـة تحت إمـرة الآخـريـن، ويـدافعـون عـن حـريتهـم فـوق كـل شيء، وهـم يصنعـون شرائعهـم وأحكامهم الخاصـة بهم تحت إمرة مقدم من اختيارهـم، ويحافظون عليها بشكـل دقيـق،والارض المقـدسـة بحـاجة إليهـم،ليـس فقـط مـن أجـل القتـال،لكـن مـن أجـل أعمال الملاحـة،ونقـل التجـارات،والحجـاج،والأطعمـة،ولأنهم يقتصـدون بـالطعـام والشراب،أمكنهم العيش في الشرق أطول من الأمم الغربية الأخرى.

وإن الالمان، والفـرنسيين،والبريتـانيين، والانكليز،والآخـريـن مـن وراء الألب، أقل جدية، وأكثر كسلاً، وأقـل عناية في معاملاتهم، وأكثر إسرافاً في المأكـل والمشرب،وأكثـر تبـذيـراً في النفقـات،وأقـل حـذراً في الكـلام،ومتسرعين وأقل حكمـة في خططهم،وفي الكنيسـة أتقياء، وأكثـر إحساناً في تقـديم الصدقات وبقيـة أعمال الرحمة،وكانوا أكثـر شجاعة في القتـال،ولاسيما البريتـانيين منهـم،فهـؤلاء صـالحين جـداً لـلارض المقدسة،ويخافهـم المسلمون الى أبعد الحدود، ونظراً لإفراطهـم بالمسكرات ولطيشهم دعـاهم البوليـان باسم الحمقى،والبـوليان هو اسـم أطلق على الـذين ولـدوا في الارض المقدسـة بعد تحريـرهـا،إما لانهم كـانوا قـادمين جدد— وكأنهم فـراخ، أو مقارنة بالسـوريين— أو لأن القسم الأكبر من أمهاتهـم— تبعـاً للجسد— كـن من الامـة الأبوليـة،لأنه كـان بين شعبنا الذيـن جلبوا الى الأرض المقـدسة هنـاك عدد ضئيـل من النسـاء،مقارنـة بالرجال الذين كانـوا في جيش الأمراء الغربيين، والذين بقيوا في الأراضي المقدسـة استدعوا نسـاء من مملكة أبـوليا،لأنها كانـت الأقرب الى الأرض المقدسة من سـواها،وتزوجوا منهن،وعلاوة على ذلـك في الأراضي المقدسة المتقدمة الذكـر كثير من الأمم الأخرى، مع عادات مختلفـة، وهـم يختلفون كثيراً عن بعضهم بعضاً في قـداساتهم اللاهوتية وطقوسهـم الـدينية،ونذكر

منهـــــم: السريـــــان، والأرثــــوذكــــس، واليعـــــاقبـــة.والموارنـــــة، والنساطـرة،والارمن،والكـرج،الذين لهم فـائدة كبيرة للأرض المقـدسة،ولها بهم حاجـة عظيمة من أجـل التجارة، والزراعـة،والمصالح الأخـرى،ذلك أنهم يبذرون الأرض، ويغرسون الكروم،لتعطيهم غلالاً أكثر.

الفصل الثامن والستون

وعندمـا رأت الارض المقدسة أن الغيوم أنـزلت الخصب،بنـاء على أمر الـرب،أعطـت ثمارهـا،وركـض الناس هنـاك بمـرح،تماشيـاً مـع البهجـة بالحصـاد، وفعلوا كما يفعل الناس عنـدما يقتسمون الأسلاب،ونـادى نبي نبي آخـر، والذين سمعوه،سمعـوه يقول:« هلم نصعد الى جبـل الرب،الى بيت إله يعقوب»(إشعيا:٢ / ٣)،لأن الرب زار الأرض،وباركها، وجعلها مثمرة جداً، ليس فقـط من سبأ،بل من جميع أنحـاء العالم،جاءوا يحملون الـــذهــب والبخـــور الى القـــدس،معلنين الحمـــد للـرب،وكـــان ضريحه ممجداً،ولهذا إن النبوءة قد تحققت حرفيـاً:«سيتأسس جبل بيت الرب على قمة الجبال،وسوف يعلو على جميع التلال،وسـوف تتدفق جميع الأمم إليه، ولسوف يذهب كثير من الناس....... وسيقـولون عن القدس الذي نقرأه في سفـر طـوبيـا: تتـلألئين بسنـــى بهيـج، وجميـع شعـوب الأرض لـك يسجـــدون . تـزورك الأمـــم مـن الأقـــاصي بقـرابينهـــا وتسجـد فيــك للرب»(طوبيا:١٣ / ١٣— ١٤)،ثـم شوهد أنه قد تحقق فيهـا مالم يحققه الرب في أيام اليهود،حيـث ورد مكتوباً في سفر التثنية:«كل مكـان تدوسه بطون أقـدامكم يكون لكـم. من البريـة ولبنان.من النهـر نهر الفرات الى البحـر الغربي يكـون تخمكـم»(تثنيـه:١١ / ٢٤)،والآن عندمـا تنفشت كروم الـرب المتقدمـة الذكر شـذى حلواً يصل حتـى الى نهاية البـلاد،لن يستطيع الثعبـان القديم، والتنين السام،عـدو البشرية،تحمل هـذا الأريج لـوقت طـويـل،ولاسيما عندمـا يـرى التغيير العظيم الـذي أحـدثته اليـد

اليمنى للعلي الأعلى في الشرق،والتهديد الخطير، ومن ذلك نذكر وجوب اتساع الكنيسة المقدسة،وإنتشار العبادة اللاهوتية،واضطراب الكفار،وسرور المسيحيين وارتفاع شأنهم، ووجوب تجدد شارات ومعجزات،مثل نزول النار في عيد الفصح من السماء على كنيسة قيامة الرب،واجتماع الناس معاً بإيمان لإظهار مجد الرب،ولتعظيم أعماله الرائعة،ولكي يتقلص الكفار،وليبتهج المؤمنون بالرب،والذي أبهره النور العظيم، وأصيب بجرح مميت،بسبب شروره،بدأ يتحرك ويخطط، ويبدع خططاً متنوعة،يمكنه بوساطتها صب سمومه بشكل سري،ويجتث كرم الرب،ويبذر بيقية في حقل الرب.

الفصل التاسع والستون

وبحث(الشيطان عن مكان) يرتع فيه،فلم يجد في البداية أحداً بين أوائل الحجاج،الذين كانوا مايزالون فقراء،أضنتهم المتاعب الكثيرة،لكنه وجد في النهاية بيتاً كان فارغاً ،نظيفاً ومزيناً، والمقصود بهذا:رجال الترف، الذين كانوا يعيشون بدون خوف، والذين ازداد قمحهم وخمرهم وزيتهم،والذين كانوا ممتلئين حتى الثمالة بجميع الامتعة الدنيوية،ثم اتخذ سبعة أرواح أخرى أكثر شراً منه نفسه،أو بالحري أن تقول اتخذ سبعة ذنوب مميته،وقد دخل في هؤلاء الناس،الذين أدى بهم كفران النعمة الى الانحطاط،وباتت حالتهم الأخيرة أسوأ من حالتهم الأولى،ولقد أنتنت جراحهم، وفسدت بسبب حماقاتهم،ولقد سمنوا وغلظوا واكتسوا شحماً،ومن بين غناهم وترفهم ظهرت شرور الحماقات،وعندما أكلوا حتى شبعوا،اقترفوا الزنا،وحشدوا أنفسهم على شكل أرتال في مواخير الزواني، حتى أنهم تدفقوا مثل الماء،وسعوا وراء شهواتهم الجسدية،ولم يصبوا من إناء الى إناء،بل استلقوا مثل البهائم في روثهم، وكانوا مثل الخيول المعلوفة، يصهل كل واحد منهم خلف زوجة جاره، وقد تلاشوا وتبددوا،

ولم يعـودوا يرون الشمـس،ولقد أداروا عيـونهم نحـو الأرض، لأنهم كانـوا متكبريـن، ومتعجـرفين،ورافضين،ومتمـرديـن،يقـاتـل أحـدهـم الآخـر، ويـذرعـون الخلاف بين الأخـوة، وكـانـوا كـريهين،استسلمـوا الى السحـر والشعوذة، والى الغضـب وعدم العـدل،وعرفوا بـالكسل والفسـاد،وغلب عليهـم الجشـع، يكثرون مـن الشرب،تـراهـم سكـارى ،تلوثـوا بـالشرور والآثـــام،لصـــوص،وقطـــاع طـــرق،يمارســـون اللـــواطـــة،ورجـــال دمويين،وخـونة،وعاقين لـوالديهم وللشيوخ، وكـانوا حمقى سـاذجين،ليس لديهم، لااخـلاص،ولارحمة،ونستخدم بحقهم كلمات النبي:«لعـن وكذب وقتل وسرقـة وفسق يعتنفون ودماء تلحـق دماء»(هو شع:٤ / ٢)، وبناء عليـه وسع الشيطـان حـدود نفسه بـلا نهايـة، وأعدّ أمـاكـن لكل رذيلـة وجريمـة ليسكن فيهـا، ووسع تعـذيبه كثيراً، وهكـذا اتجهت أفكـار جميع هؤلاء الناس الأشرار نحـو الشيطان، ولقد أفسدوا طـريقهم على الأرض، وتبددت جميع الطيبـة، والتدين الحقيقي، وفترت حماسـة الكثيرين وغدت باردة، ولم يجد ابـن الانسان إيماناً على الارض،لأنـه بات مـن النادر إيجاد أي واحـد يمكـن أن يبـدي تمييـزاً بين المقـدس والمدنـس،أو بين الثمين والرخيـص،وكان الجميـع منحدرين نحـو الدمـار،والفوضـى،ومن أخمص القدمين الى قمـة الرأس، لم تكن هنـاك سلامـة فيهم،وصار النـاس سواء الكهنة فيهم والناس العاديين.

الفصل السبعون

لنبدأ بمعبـد الرب،الذي يـدفع العالم كله تقـريباً له الجزيـة على شكل صدقـات وتقاديـم قرابين،ويقـدمون مختلـف أنواع الأعطيـات الى رؤساء الكنـائس، والكهنة النظـاميين ،ولقـد أطعـم الرعـاة أنفسهـم بـأخذهـم الصوف والحليـب من قطعانهم،دون إعطاء أي اهتمام لأرواحهـم،بل إنهم ضربوا مثـلاً للذين أدنـى منهم،مثل ثـور سمين في جبال السامـرة ،ولقد

أصبحوا أثـريـاء مـن خـلال فقـر المسيـح،ومتكبريـن من خـلال تواضعه،ووقحين مـن خلال حيائه،وسمنوا، وازدادوا ثروة بـوساطة ميراث المصلـوب، وعنـدمـا قـال الـرب لبطـرس« ارع خـرافي»(يـوحنـا:٢١ / ١٦—١٧)،لم نجـد في أي مكـان أنـه قال:«جـز خـرافي»،ولقـد اهتمـوا بأربـاحهم، ولم يحرصـوا على الاشياء العائدة ليسـوع المسيح، وغـدوا قادة عميانـا لكلاب عميان وخرسـان، لايمكنها العواء،وذهبوا الى بيـت الرب بأبهة وفخـر،وكان معهم مفتاح المعـرفة،لكنهم لم ينهلوا منهـا،ولم يسمحوا للآخرين بالأخذ منها، ولقـد أصيبوا بجذام جيحزي(انظر الملوك الثاني:٥ / ٢٧)،ولقـد أقامـوا في كل مكـان في كنـائسهم كـراسي لهم،حيث يبـاع الحمام، وحيـث موائد مـال الصيارفـة،التي قلبهـا الرب،وقـالوا مثلما قـال يهوذا الخائن:«ماذا تـريدون أن تعطـوني وأنا أسلمـه لكم»؟(متـى:٢٦ / ١٥)،ولقد أحبـوا جميعاً الهدايـا،وسعوا وراء العـائدات المالية،وقـد أخذوا المفاتيح مـن سمعان بطرس وأعطوها الى سمعـان مجوس،وغرقوا في الترف مـن مختلـف الأنـواع، وبـاتـوا ضعفـاء وسـط كسـل مخزي، ولم يكتفـوا باستخـدام الفتات الـذي سقط من مـائدة الرب،بـل الأرغفة كلهـا التي توفرت لإطعـام النسل الذي حصلوا عليـه من الخليلات الفاجـرات، مع فجور أعظم لأنفسهم.

الفصل الحادي والسبعون

بعد ما تـأثر رجال الديـن النظاميين بعدوى سموم الأغنيـاء، وحصلوا على كثير من الممتلكات، تخلوا عن طـاعتهم لمن هم أعلى منهم، وحطموا روابطهم، وألقوا جـانباً بالتزامـاتهم نحو هؤلاء، وأصبحوا عـدوانيين ليس نحو الكنيسة فقط وشعب الكنيسة، بل أصبحوا يحسدون بعضهم بعضاً، ويقلل أحدهم من شأن الآخر، مما شكل فضيحة قاسية للمسيحية كلها، وسعـوا نحو الإهـانـات المكشوفـة، وأظهروا الكـراهيـة، ووصلوا إلى حـد

القتال بين أحدهم والآخر، وغالباً مـا تشاجروا ليس فقط بالكلمات ولكن باللكمات، وعندما شرعوا ببناء بـرج بابل، كانوا منفصلين، ومنقسمين بين بعضهـم بعضاً بتخليـط اللسـان، ولم يكونـوا مختلفين فقـط بين أحدهـم والآخر، بل أقاموا تحزبات، وتجسسوا على بعضهم بعضاً.

ومع هذا كان العـديد منهم يمتلكون طباعاً أحسـن، وكانوا مستقيمين ويخشـون الرب، ولقـد حـافظوا بقـدر مـا استطـاعوا في ذلـك الحين على الأنظمة بشكل عام، وعلى المؤسسـات المقدسة لرهبانياتهم، وكـانوا بذلك مثل القمح بين التبـن، والسوسن بين الأشواك، ولقد أحـزنهم هذا، وقطع نياط قلوبهم، وأصابهم الأسى الشـديد ولم «يسلكوا في مشورة الأشرار، ولا في طريق الخطاة وقفـوا، وفي مجلس المستهزئين لم يجلسوا» (المزامير: ٧١). وتعاظمت أعمال اللاتقوى والانحراف عن الطـريق القويم لهؤلاء الرجال الأشرار، حتـى أنهم لم يخشـوا من الاقـدام على تقـديـم القربـان المقـدس لأناس وضعـوا تحت الحرمان مـن قبل الأساقفـة، وجرمـوا بالاسـم، وكان الـذين تـوجب عليهـم الابتهاج معهـم عنـدما ابتهجـوا، والبكاء معهـم عندمـا بكوا، وحدهم الـذين ابتهجوا عنـدما بكى الآخرون،، وبنـاء عليه إن الالتزام بـأنظمة الكنيسة بدأ يتراخـى، وضرب رجال الدنيا الفـاسدون عرض الحائط بقـرارات الإدانة التي صدرت بحقهـم من قبل أسـاقفتهم، ولم يعبـأوا قط بسيـف العدالـة الـروحي، ورمـى رعـاة الديـرة، ومقدمـوا الرهبـان مع رهبـانهم المأجوريـن، وصغار القسـاوسة، جـانبا الخوف مـن الـرب، ولم يترددوا في وضـع منجلهم في قمـح الآخـريـن، وتضافـروا مـع الخارجين على الشريعة، أو الأشخاص الأشرار في الـزواج المقدس، وزاروا المرضى بدافع الجشـع، وليس بدافع الشفقة، وأقامـوا القداسات لهم ضد ارادة رعاة أبـرشياتهم الشرعيين، وبذلـك كانوا يـربطون نفوسـاً ويطلقون حريـاتهم، أمر العنـاية بها ليـس معهوداً إليهـم، وذلك مـراغمة لشريعـة الرب وللقوانين المقدسة حيث يقول الرسول: « من أنت الذي تدين عبد

غيرك». (روما: ١٤/ ٤)، واعتاد هؤلاء على السماح بدفن الموتى بحرية ضد إرادة الأساقفة، وبذلك منحوا بشكل غير قانوني أنفسهم حقوق كهنة الأبرشيات، فواجبات الرهبان البكاء والصلاة وليس القيام بأعمال القداسات لعوام الناس، وليس فقط الرهبان هم الذين لم يطيعوا رؤساءهم، بل الراهبات فعلن الشيء نفسه، حيث ألقين جانباً الالتزام بالنظام، وخرجن من عزلتهن «فانهالت حجارة المعبد في رأس كل شارع» (مراثي إرميا: ٤/ ١)، وترددن بشكل لاديني على الحمامات العامة برفقة أشخاص مدنيين، وأنا لم أدون الأشياء أعلاه لأنسب جرائم سلفهم إلى الأجيال التالية، أو إلى الأجيال الحالية، لكن لكي يقوموا بغسل أيديهم بدماء غير الأتقياء، وليتعلموا تقليد الأتقياء، ولكي يكرهوا الشر ويمقتوه، ويتوجب عليهم أن يتعلموا كيف يتواضعون بأنفسهم مع المسيح، وليحتضنوا فقره بشكل نقي، وكذلك إحسانه، ولكي يقوموا بالتخلي عن العالم الخارجي، ليس فقط في ملابسهم، فبصبرهم يمكنهم اقتناء أنفسهم.

الفصل الثاني والسبعون

وكانوا كلما ازدادوا قوة وأصبحوا أعظم مكانة بين الشخصيات الكنسية والعلمانية، كلما أصبحت طرقهم أكثر دماراً وفساداً، فلقد كانوا جيلاً شريراً ومنحرفاً، وأبناء أشرار ومنحطين، ورجالاً فاسدين، هؤلاء الذين انحدروا من الحجاج المتقدمي الذكر، ومن الرجال المتدينين، المقبولين من الرب والذين امتلأوا نعمة، صافين صفاء الخمرة من التفل، والزيت من العكارة ، والقمح من البقية، والفضة من الصدأ، ولقد ورثوا آباءهم في ممتلكاتهم، لكنهم لم يرثوهم بأخلاقهم الحميدة، ولقد بعثروا الثروة الدنيوية التي كسبها أسلافهم بسفك دمائهم، وبقتالهم برجولة ضد الكفار في سبيل مجد الرب.

ونشأ أولادهم الـذين يدعون باسـم «بوليان» في ترف ورفاهيـة، ونعومة وفسولة، وكانـوا معتادين على الحمامات أكثر من اعتيـادهم على المعارك، وأدمنوا الاعتياد على الحيـاة القذرة والصاخبة، وكانوا يلبسـون مثل النساء ثيـاباً نـاعمة، ويتـزينون حتـى مثل زوايـا الهيكل المزخـرفة، ولكـم كانـوا بطيئين وكسالى وجبنـاء ومتراخين، فهذا مـا برهنـوه بأنفسهـم أمام أعـداء المسيـح، ومـامن أحـد يشـك بـالقـدر الكبير الذي هـم فيـه محط إزدراء المسلمين، فلقد كان الحشد من المسلمين يفر من أمام آبائهم حتى لو كان عددهـم قليل، فلدى سماعهم لصـوتهم الذي شابـه الرعد كانـوا يبادرون إلى الفرار، لكنهـم لايخشون الآن من أبنائهـم أكثر من خشيتهم مـن أية امرأة، ما لم يكـن معهم بعض الفرنسيين أو غـربيين آخرين، ولقد أقـاموا معاهـدات مع المسلمين، وتـراهم مسروريـن لكونهم يعيشـون بسلام مـع أعداء المسيـح، تراهم يبادرون مسرعين إلى التخـاصم أحدهم مـع الآخر، ويتنـاوشون وينشبـون الحرب الأهلية فيما بين بعضهـم بعضاً، وغـالباً مـا يستنجدون بأعـداء العقيدة ليساعدوهم ضـد المسيحيين، ولايستحون من تبديد القوى والأموال التي يتوجـب استخدامها ضد الكفار في سبيل مجد الـرب، إنهم يبددونها في القتـال ضـد بعضهـم بعضاً ولإيـذاء المسيحيـة، ولقـد أجادوا تعلـم إخفـاء مقاصـدهم بكلمات منمقـة ، مغطـاة ومزينـة بـأوراق لكن بـدون ثمار، مثل شجـرة جوز عـارية، وبلـغ الأمر حـداً أن الذين لم يجربونهم ويعـرفونهم تمام المعرفة، يتعذر عليهم فهـم مقاصدهم، وكشف خداع كلماتهم، أو النجـاة من أحابيلهم، وهم يشكـون بزوجاتهم ويغارون عليهـن، ويغلقون عليهن في سجـون مقفلة، ومحروسة بكـل دقة وعناية إلى حـد أن أخواتهن وأقربائهـن المقربين يمكنهم بصعوبـة القدوم إليهـن، ويحظـرون عليهن حظـراً مطلقـاً زيـارة الكنائس، والمشـاركـة في المسيرات والاستماع للـوعـظ بكلمات الـرب، ومسـائل أخـرى تتعلـق بخلاصهـن، حتى أنـه من النـادر بالنسبـة لهن الحضور إلى الكنيسـة مرة واحـدة في السنة، ومـع ذلـك هناك بعـض الأزواج يسمحـون لزوجـاتهم

بالذهاب ثلاث مرات في الاسبوع إلى الحمام تحت حراسة مشددة، وأقدم بعض ذوي القوة منهم، بقصد اظهار أنهم مسيحيين، ولكي يسوغوا سلوكهم بعض التسويغ، على إقامة مذابح قرب أسرة زوجاتهم، ومن ثم عقد القداسات بوساطة بعض الشمامسة المحتاجين والكهنة أنصاف المشهورين، لكن كلما زاد البوليان من تضييق الخناق على زوجاتهم، زادت هذه الزوجات من ابداع آلاف الحيل، ومالانهاية له من وسائل النضال حتى يجدن طريقهن الى الخروج، فلقد تعلمن بشكل مريع ولايمكن تصديقه، السحر، ومكائد لاعدّ لها ولا حصر، وقد تعلمن ذلك على أيدي النساء السوريات، ونجد الآن أن الحجاج الذين جاءوا وسط مشاق عظيمة، ونفقات مدمرة، ومن أماكن نائية، يدفعهم الايمان لتقديم المساعدة لهم، حيث يقدمون أنفسهم وكل ما يملكون إلى الرب، نجدهم لايُعاملون بالجحود من قبل هؤلاء البوليان فقط، بل جعلوا من أنفسهم عدوانيين نحوهم بمختلف الطرق، ذلك أنهم يؤثرون الانغماس في كسلهم، وإشباع رغباتهم الجسدية والدنيوية على حرب المسلمين، عندما تخرق الهدنة أو تنتهي، ولقد أقدموا بجشعهم على أخذ مبالغ كبيرة مقابل الإسكان، والنقل، وتبديل العملة، وأنواع أخرى كثيرة من التجارة، وتولوا غش الحجاج وسلبهم، وبذلك حصلوا على ثروات كبيرة، ثم صبوا خساستهم على هؤلاء المحاربين، والمتغربين من أجل المسيح، وأهانوهم، ودعوهم بـ «الأغبياء»، وكأنهم حمقى وأنصاف عقلاء، وتولوا لوم هؤلاء الناس الذين كانوا على نية القتال لصالحهم... والأعظم من هذا كله والأشد سوءاً هو الفساد الذي لايمكن مجاراته، والشرور الهائلة لهؤلاء الناس الذين يبتهجون بفعل الشر، وينتشون في ممارسة الشرور، فلهم تمّ حفظ السواد والظلام إلى الابد، وهم في الحقيقة يمضون أيامهم وسط الأشياء الجيدة بالفعل، وسيمضون في لحظة إلى أعماق الجحيم، والآن إننا لنكره شرور غير الأتقياء، ونفعل ذلك مثلما قال النبي « إنه ليحزنني رؤية المعتدين، لأنهم لايحافظون على شريعتك». (المزامير: ١١٩/ ١٥٨)،

ومرة أخـرى. (إنني أكرههــم كراهية تـامة، وأعدهــم أعدائي». (المزامير: ١٣٩/ ٢٢)، وهكذا نـودع الرب الأنـاس الطيبين إذا كان قـد بقي أحـد منهـم، وإذا مـا غضب أحد مما قلته، عليه أن يبرهـن أنه هو نفسـه ليس كذلك.

الفصل الثالث والسبعون

وبالنسبـة لهؤلاء الناس الـذين هـم من المدن النبيلـة: جنوى، وبيـزا، والبندقيـة، مع بقية أجـزاء إيطاليا، والـذين يسكنـون في سورية، والـذين كسـب أبـاؤهـم وأجـدادهـم لأنفسهـم شهــرة لاتفنـى، وتـاجـاً أبـديـاً لانتصـاراتهم الرائعـة على أعـداء المسيح، سُـوف يكـونـون مرعبين جـداً بالنسبة للمسلمين لو أنهم توقفـوا عن غير تهم وجشعهم، ولم يستمروا في القتـال والخصام فيما بين بعضهـم بعضـاً، ولكـن بما أنهم ينشبون القتـال أحدهـم ضد الآخـر وليس ضد الكفـار الخونة، ويهتمـون أكثر بـالتجارة والسلع من الاهتمام والانـزعاج من أجل المسيـح، فإن هؤلاء الذيـن كان آباؤهـم الشجعان والمولعين بالحرب مـرعبين جداً للكفار، قـد جعلوا الآن من أنفسهـم سببا للبهجة ولانعدام الخوف.

الفصل الرابع والسبعون

هنـاك قوم آخـريـن ، قد سكنـوا البلاد منـذ العصـور القديمـة ، وعاشوا في ظل سادة متنوعين ، وحملـوا نير العبودية بشكل متتابع ، تحت سلطان الرومان ثم البيزنطيين (الإغـريق)، ثم اللاتين والبرابرة ثم المسلمين والمسيحيين وهؤلاء النـاس عبيد في كل مكان ، ويـدفعون الجزية دوماً ، محتفظ بهم من قبل سـادتهم من أجل الأعمال الزراعية والاستخدامـات المرزولة الأخرى، وهـم جميعاً ليسوا مـن أهل الحرب ،

ومثل النساء بلا فائدة في القتال ، باستثناء بعضهم الذين يستخدمون القوس والنشاب ، وهم غير مسلحين وجاهزين للفرار ، ويعرف هؤلاء الناس باسم «السوريين » ، إما اشتقاقاً من اسم مدينة صور ، التي كانت في العصور القديمة المدينة الرئيسية بين مدن سورية ، أو من اسم Syria بتبديل حرف y بحرف u، والذين عرفوا من قبل الكتاب القدماء باسم السوريين يعرفون الآن باسم «السريان» ، وهؤلاء على العموم لا يمكن الوثوق بهم، وذوي وجهين ، وثعالب ماكرين ، مثلهم مثل الاغريق ، كذبة ، يبدلون الولاءات ، ويحبون النجاح وخونه ، ومن السهل كسبهم بالرشوة ، وهم أناس يقولون شيئاً ويعنون شيئاً آخر ، ولا يكترثون بالسرقة والسلب ، ففي مقابل مبلغ صغير من المال يصبحون جواسيس ويخبرون بجميع أسرار الصليبيين الى المسلمين ، الذين نشأوا بينهم ، والذين يتكلمون بلغتهم بدلاً من الكلام بلغة أخرى ، كما أنهم يقلدونهم بطرقهم الملتوية ، ولقد اختلطوا بالكفار ، وتعلموا أعمالهم ، ويتولون حجر نسائهم تماشياً مع اسلوب المسلمين ، ويلفونهن مع بناتهم بالثياب حتى لا يمكن رؤيتهن ، وهم لا يحلقون لحاهم مثلما يفعل المسلمون والأرثوذكس ومعظم المشارقة ، بل يعتنون بهن عناية فائقة ،ويمجدوهن تمجيداً خاصاً ، ويرون في اللحى علامة على الرجولة ، وعلى شرف الوجه ، ودليلاً على إباء الانسان ومجده ، ومثل حال الخصيان الذين هم بلا لحى تماماً ، وينظر اليهم من قبل اللاتين على أنهم أخساء ومخنثين ، وهكذا يعتقد هؤلاء أن أعظم الإهانات لا في قص اللحى ، بل بانتزاع شعرة واحدة منهن ، ولهذا عندما حلق حانون ملك العمونيين أنصاف لحى عبيد داود ليظهر استخفافه بداود ، لم يقم هؤلاء بحلاقة البقية بل اختبأ وا في أريحا حتى نمت لحاهم . ومثل هذا ، عندما أطلق بلدوين ، كونت الرها لحيته وفق الأسلوب الشرقي ، وتزوج من ابنة دوق نبيل اسمه

جبرائيل ، وكان من أصل أرمني ، لكن أرثوذكسي الديانة ، ولأنه كان رجلاً فقيراً ، ولكي ينال المال من ختنه الغني ، عندها أخبره أنه أرغم على رهن لحيته لبعض الدائنين ، مقابل مبلغ كبير من المال ، وبناء عليه دهش جبرائيل كثيراً وحزن ، وبات على استعداد لإنقاذ ابنته وصهره من عار أبدي ، وأعطاه ثلاثين ألف قطعة نقدية bezants ، شريطة أن لا يقوم بعد الآن برهن لحيته مطلقاً، مهما كان فقيراً ، أو مهما كانت المشاكل التي نزلت به . ويستخدم السريان اللغة العربية في استخداماتهم العامة وحديثهم ، كما ويستخدمون الكتابة العربية في صكوكهم وأعمالهم مع الكتابات الأخرى ، باستثناء الكتابات المقدسة والكتب الدينية الأخرى حيث يستخدمون الحروف الإغريقية وبناء عليه فإن سوادهم الأعظم ، الذين يعرفون اللغة العربية فقط لا يفهمون عليهم لدى استخدامهم في القداسات الدينية الإغريقية هذه ، بينما نجد الاغريق الذين يستخدمون اللغة نفسها في محادثاتهم العامة وفي كتاباتهم ، يستطيعون أن يفهموا على كهنتهم في كنائسهم ، وفي لغتهم المكتوبة ، التي هي لغة الحديث نفسها ، ويتبع السوريون تماماً أحكام وعادات الاغريق في الطقوس الدينية والمسائل الروحية الأخرى ، ويطيعونهم على أنهم رؤساء لهم ، أما فيما يتعلق بالأساقفة اللاتين الذين يقيمون في أبرشياتهم ، فإنهم يطيعونهم كلاماً ، لكن ليس فعلاً ، ويظهرون فقط أنهم يطيعونهم ويقولون ذلك خوفاً من سادتهم تبعاً للجسد ، لأن لديهم أساقفة أرثوذكس (إغريق) خاصين بهم ولا يخشون من الحرمان أو أي قرار يتخذ ضدهم من قبل اللاتين ولا بشكل من الأشكال ، هذا ويتجنب السواد الأعظم من قومنا جميع المعاملات معهم أو العلاقات والشؤون الأخرى : لأنهم يقولون بين أنفسهم : إن جميع اللاتين واقع عليهم الحرمان ، وبناء عليه لا يمكنهم اصدار قرار عقوبة بحق أي كان ، وفي

مجمع نيقية الذي كان واحداً من المجامع الأربعة الرئيسية ، المتقبلة قراراتها من قبل جميع الكنائس كلياً مثل تقبل الأناجيل الأربعة، كان عدد الحضور في ذلك المجمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، وقد تقرر هناك بين نقاط عديدة ، بأن روح القدس انبثق عن الآب ، وأعلنوا في الختام أن أي واحد يضيف أي شيء ، أو يحذف أي شيء من أعمال المجمع سوف يكون محروماً من الكنيسة ، ومع أنهم قالوا مقررين أن روح القدس صادر عن الأب ، لم يقولوا : إنه غير صادر عن الابن : ذلك أن أشياء كثيرة لم تقرر أو تعلن في البداية غير أنها تقررت وحددت من قبل الرجال المقدسين في أوقات تالية لنفي أية غلط ، وبناء عليه في الوقت الذي لدى الأرثوذكس (الاغريق) في عقيدتهم : « إنني أومن بروح القدس ، وبالرب ، وبواهب الحياة » ، يقول الاغريق بوضوح أكبر : «انبثق عن الأب وعن الابن »، ومثل هذا عندما يقول الأرثوذكس :« إن روح القدس من الأب ، لم يصنع ، ولم يخلق ولم يولد ، لكن انبثق » ، يضيف اللاتين : «روح القدس من الأب ومن الابن » ، ولا يضيفون أي شيء مخالف : ولهذا توجب فهم الجملة الأخيرة ، وأنها موجهة ضد الذين أضافوا أية أشياء مضادة ، وهكذا قال القديس بولص في رسالته الى الغلاطيين : « إن كان أحد يبشركم بغير ما تلقيتم فليكن ملعوناً (أناثيما) » (غلاطيه : ١/ ٩) ، والآن من المؤكد أن القديسين بشروا بأشياء كثيرة الى جانب ما بشر به بولص ، لكن مضاد لما بشر به بولص : ولهذا ينبغي أن نفهم هذا التحريم ، ومن المحزن من أجل ذلك أن كل من السريان والأرثوذكس أساءوا فهم ما تمت صياغته من قبل الآباء المقدسين في مجمع نيقية ، وأعلنوا أن روح القدس لم ينبثق عن الابن ، ومهما يكن الحال لقد نفخ المولى يسوع على حوارييه وقال لهم : « اقبلوا الروح القدس » (يوحنا : ٢٠/ ٢٢) وبذلك يتبرهن بوضوح أنه نفخ روح القدس . وأن روح القدس قد انبثق

منه مـع أنه انبثق من الأب ، وذلـك بمثابة عهد محبـة منهما ، وبناء عليه يقـول هو نفسه في الانجيل :« إننـي علمت أن قوة قد خـرجت مني » (لـوقا : ٨/ ٤٦)، لأنـه بفضل قوة روح القـدس التي خـرجت منه شفى المرأة التـي لمست طرف كسائه ، لأنه عندمـا قال للأب : « كل مالي هـو لك ومالك هو لي » (يوحنـا : ١٧/ ١٠) واضح أنه كما أن روح القدس مـن الأب ، إنه كـذلك مـن الابن ، وهكـذا قال القديس بـولص : « أرسل الرب روح ابنه الى قلـوبنا ، ولهذا ننادي أبا ، أيها الـرب » (غلاطيـة : ٤/ ٦) ويقول القـديس يـوحنا أيضـاً في رسالته العامة : « مسحته مسحتكـم عن كل شيء » (يوحنا : ٢/ ٢٧) ويقول مرة أخرى : « المسحة التـي نلتموهـا منه تثبت فيكـم » ومن هـذا نرى بـوضـوح أن روح القدس ــ أو المسحة ،التي هـي الشيء نفسه هو روح الابن مثلما هو روح الأب ، أي أن الابن أرسله ، مثلما أرسله الأب ، وذلك من خلال شهادتـه حيث قال :« إن ذهبت أرسله لكـم » (يـوحنـا :١٦/ ٧) ، وعلى هـذا روح القـدس مشترك بين الشخصين وانبثـق منهما معاً ، ويقـول دانيال : « ومـن أمامـه يجري ويخرج نهر من نـار » (دانيال :٧/ ١٠) ولهذا السبب نجـد مثلما اللاتين يعتقدون كلهـم أن روح القدس انبثـق من الابـن ، كذلـك العقلاء من الأرثـوذكس لا ينكـرون هذا ، مع أنهم لا يـؤكدون ذلـك رسمياً ، لأن عبارة « انبثـق من الابن » غير موجـودة في عقيدتهم ، والآن بما أن الأرثوذكـس والسريان ــ كما سلف القول ــ يرون أن الـلاتين جميعاً محرومين ، اعتـادوا على غسـل المذابـح ، حيـث كـان الـلاتين يقيمـون القداسـات ، وذلك قبـل قيامهـم بقداسـاتهم ، زد على هذا ، هـم لا يقيمون أدنى اعتبار لقرابيننا المقدسـة ، ولا يقومون عندما يمر كهنتنا عـابريـن وهم يحملـون خبز القـربان لـزيارة المرضـى ، وفي الوقـت الذي نجد فيه الكنيسة الرومانية المقدسة وجميـع الغربيين ، يقومون تقليداً منهـم للرب فيصنعـون خبز القـربان خبـزًا فطيراً ، لأنه بعـدما

أكل حمل الرب مع خبز فطير ـ وذلك تقليداً لليهود ـ تولى تحويل الخبز الذي استخدم عند العشاء الى جسده : نرى أن الأغريق من الجهة الأخرى ، يرفضون هذا الطقس ، ويحتفلون بالقربان المقدس بخبز مخمر ، ومع هذا تعلمنا : « لنعيّد ليس بخميرة عتيقة ، ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الاخلاص والحق »، (كورنثه: ٥/٨) ، هذا ويخالف هؤلاء المنشقون تعاليم كنيسة روما المقدسة ، والسامية في أشياء أخرى كثيرة ، منتهكين بذلك النظام الرباني الذي عين روما لتكون المطرانية والمدينة العاصمة للعالم أجمع ، ولحكم المؤمنين بالأمور الروحية مثلما تحكم بالأمور الدنيوية : لأن كيفاس — الذي معناه الحرفي : الرأس ، والمعني بهذا بطرس — قد عينه الرب رأساً لجميع العالم، عندما قال الرب ، دون أن يعطي أي استثناء « سأعطيك مفاتيح ملكو ت السموات ،فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات »(متى : ١٦ / ١٩) ، وقال أيضاً « ارع غنمي » (متى:٢١/ ١٧) ، وهو لم يقل اللاتين فقط أو الغربيين ، بل قال ببساطة : «غنمي» ، أي أن يكون هناك قطيع واحد وراعي واحد ، ثم إنه من الواضح أن كنيسة المسيح قد بنيت على هذه الصخرة ، أي بطرس الذي صلى من أجله الرب حتى لا ينقص إيمانه ، وكل الذين ابتعدوا عن كنيسة روما عبثاً يعملون ، لأنهم بنوا من دون أساس ، وانفصلوا عن الذي دعاه الرب باسم « كيفاس » ، وسوف يعدون تنينات رهيبة بلا رؤوس . ويتفق السريان مع الأرثوذكس بعدم السماح بزواج رابع ، والكهنة والشمامسة لديهم غير مسموح لهم أثناء ارتباطهم اللاهوتي بعقد الزواج ، ومع هذا مسموح لهم باستخدام الزوجات اللائي تزوجن منهن قبل رسامتهم، وهم لايعدون من كان بمرتبة مساعد شماس ضمن الهيئة المقدسة، ويقوم الكهنة برسم علامة الصليب بالزيت المقدس على جباه الأطفال بعد تعميدهم مباشرة،

الأمر غير المسموح بالقيام به لدى اللاتين إلا لـلأساقفة فقط ولرؤسائهم، لأن الأساقفة يقومون مقام الرسل في كنيسة الرب: لأنه بالاستلقاء على أيدي الرسل وهبت روح القدس للتقوية والراحة، ويعدون يوم السبت يوماً مقدساً جداً إلى حد عدم السماح بالصوم في يوم السبت إلا إذا كان السبت يوم عيد الفصح، ويقيمون القداسات العظيمة في يوم السبت مثل التي يقيمونها يوم الأحد، ويحتفلون بشكل رائع في ذلك اليوم، ويأكلون اللحوم تقليداً لليهود، لكن هذه المراعاة الطقوسية ملومة من قبل اللاتين خشية الظهور بمظهر المتبع لعادات اليهود.

الفصل الخامس والسبعون

فضلاً عن هذا، هناك في الأرض المقدسة، وفي أجزاء أخرى من الشرق أمماً بربرية أخرى، تختلف في كثير من النقاط عن الإغريق واللاتين، من هؤلاء قوم عرفوا باسم اليعاقبة، وقد نالوا اسمهم من معلم لهم اسمه يعقوب، وكان من تلاميذ بطريرك الاسكندرية، وكانوا قد تعرضوا منذ زمن بعيد إلى الحرمان الكنسي، وجرى طردهم من قبل الكنيسة الأرثوذكسية (الإغريقية) على يد ديوسكورس Dioscorus ، بطريرك الاسكندرية، وسكنوا بأجزاء كبيرة من آسيا وجميع الشرق: ويقطن بعضهم وسط المسلمين، ويمتلك بعضهم الآخر بلداناً خاصة بهم، دونها انسجام مع الكفار، ومن هذه البلدان: النوبة المتصلة بمصر، والجزء الأكبر من أثيوبيا، وكل البلاد امتداداً حتى الهند، وهي أكثر من أربعين مملكة، وقد أعلنوا أنها عائدة إليهم، وهم جميعاً مسيحيين وجرت هدايتهم من قبل الحواري القديس متى، وبعض الرسل الآخرين، لكن بعد أمد زرع العدو البيقية بينهم، وهم تاهوا لوقت طويل وسط ظلام محزن وخطيئة، ويقومون في أعظم الأجزاء بختن أولادهم من كلا الجنسين وفق طرائق المسلمين، دونها فهم أن نعمة التعميد قد جعلت الختان بلا

فعاليـة، مثل زهـور سقطت وذبلت عنـدما تكـون الثمار جاهـزة للقدوم، وهكذا يقول القديس بولص برسالته إلى غلاطية: «إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» وقال ثـانية: «لكن أشهد أيضاً لكل انسـان مختتن أنه ملتزم أن يعمـل بكل النـامـوس. قد تبطلتـم عـن المسيـح أيها الذيـن تتبررون بالنـاموس، سقطتـم من النعمة» (غـلاطية: ٥/ ٢—٣)، وخطيئـة أخرى من أخطـائهم، ليست أقـل مما تقدم هـي أنهم يعترفون بذنـوبهم ليس إلى الكهنة بل إلى الـرب وحده بشكل سري، ويضعون البخـور على النار إلى جانبهـم، وكأن ذنـوبهم سوف تصعد مـن هناك مـع الدخـان إلى الرب، وهـم بهذا يخطئون بتعـاسـة، غير فاهمين للكتـابـات المقـدسة، ويهلكـون خلال عقيدة مزيفـة، ويخفون جراحهم عن أطبائهـم الروحانيين، ولفرض الكفارة عليهـم، وللربط وللحـل، وفقاً لما تسلموه مـن مفاتيح، وليقـوموا بتأديـة الصلوات خاصة للـذين اعترفوا لهم، ولهذا قال الـرب في الإنجيل للمجذومين: «إذهبـوا واعرضوا أنفسكـم على الكهنة» (لـوقا: ١٣/ ١٤)، وقرأنا عـن القديس يوحنا المعمـدان بأن رجالاً «كانوا يتعمـدون من قبله ويعترفـون بـذنـوبهم» (متـى: ٣/ ٦)، ثم إن الشعـور بـالخجـل، والقلـق والعار، والتـواضع، أثنـاء الاعتراف هو الجزء الأكبر مـن الكفارة، ويكـون النـاس أكثـر عـرضـة للـذنـب إذا اعتقـدوا أنهم لايحتـاجـون إلى إظهـار أفاعيلهـم الشريرة للناس، لأنـه قد كتب: «مـن يكتم خطايـاه لاينجح، ومن يقرّ بها ويتركها يرحم» (أمثـال: ٢٨/ ١٣)، والخطيئة الثالثة، والجهل القبيح مثل الظلام الذي يمكن الشعور بّه لهؤلاء اليعاقبة المتقدم ذكرهم، أن عدداً كبيراً منهم يقومـون قبل تعميد أولادهم، بوسم أولادهـم بحديدة محماة حتى الإحمرار، وبـذلك يـرسمون وسماً على جبـاههم، ويقـوم آخرون بـوســم أطفـالهم بشــارة الصليـب على الــوجنتين، أو على الصـدغين، مفترضين بشكـل خـاطـىء أنهم يقـومون بـالتكفير عـن ذنـوبهم بـالنـار الفعلية، لأنه كتب في إنجيل القديس متـى بأن القديس يوحنا المعمدان قـد قال عـن المسيح: «هـو سيعمدكـم بالـروح القدس وبـالنار» (متـى:

٣/ ١١) مع أنـه من الـواضح لجميـع المؤمنين أن غفران الخطـايا سـوف يكون بنار روحيـة، أي بالروح القدس، وليـس بنار مرئية، ونجـد في كتب الأنبياء أن الـرب غالباً مـا وجه اللوم إلى بنـي اسرائيل، وهددهـم بعنف لأنهم قامـوا ومرروا أولادهـم خلال النـار كما فعل غير اليهـود، لأن الرب يقـول في سفر التثنيـة على لسان النبـي مـوسى: «لاتتعلـم أن تفعل مثـل رجس أولئـك الأمم. لايوجـد فيك من يجيـز ابنه أو ابنته في النـار، ولامن يعـرف عـرافـة ولاعائف ولامتفـائل ولاسـاحـر» (التثنيـة: ١٨/ ٩—١٠) والمسيحيـون جميعـاً يعلمــون أنـه لاالـرب ولارسلـه، أو أي مــن الآبـاء المقدسين، تركوا أيـة عادة من هذا النوع في الكنيسة، أو أمـروا بعمل مثل هذا النوع من الـوسم، وأنا رأيت بنفسي كل من اليعاقبـة والسريان الذين يسكنون بين المسلمين، مـع صلبان وسمت على أذرعتهم بحـديدة محماة، وكأنهم يـريدون أن يقولوا إنهم يفعلـون ذلك لتمييز أنفسهم عـن الكفار، وصدوراً عن الاحترام للصليب المقدس، قـاموا بطبع صورة الصليب على أنفسهـم، وتقصيت بـالبحث بين السريـان والأرثوذكـس، فوجـدت أنهم يبغضون اليعاقبـة، وقد طردوهـم مـن جماعتهم، وقالوا إن السبـب الرئيس أنهم وقعـوا في أعمال الارتداد شراً وإدانـة، بإعـلانهم أن المسيـح كان لـه اقنوم واحد فقط، وبذلك له طبيعـة واحدة فقط، والهراطقة من هذا النوع محرومين كنسيا ومـدانين من قبـل مجمع خلقـدونية (سنـة ٤٥١م)، وأصر بعضهم بشكل خاطىء على أن المسيح بعدما اتخذ طبيعتنا لم يعد موجوداً بطبيعتين، بل بقيت فيـه الطبيعة اللاهوتية فقط، وجلـب هذه الخطيئة إلى الكنيسة يوتيخس Eutyches ، وكان راعي دير في القسطنطينية، وأعلن آخـرون أن الطبيعتين في المسيـح صـارتا واحـدة، ومقترف هـذه الخطيئـة وفاعلها أسقفـان من الاسكندرية اسمهما ثيـودوسيوس Theodosius ، وغالانـوس Galanus ، هـذا ونحن نعـرف بشكل مـؤكد أن يسـوع المسيـح: جاع، وعطـش، وشعر ببقيـة الحاجيات تبعـاً لطبيعته البشريـة، لابل حتـى إنه عانـى من الموت على الصليب، وقام بـالوقت نفسـه تبعاً

لطبيعته اللاهوتية، بإقامة الميت وعمل معجزات أخرى، ووفقاً لهذه الطبيعة قال: «قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن» وقال ثانية: «أنا من البدء ما أكلمكم به أيضاً» (يوحنا: ٨/ ٢٥، ٥٩)، ومرة أخرى: «أنا وأبي واحد» (يوحنا: ١٠/ ٣٠)، وقال الشيء نفسه بالنسبة لطبيعته البشرية: «أبي أعظم مني» ومرة أخرى عندما كان عليه تناول كأس المضي من الحياة: «ليس كما أريد بل كما أنت تريد»، والآن عندما يرون هناك طبيعة واحدة فقط في المسيح، قالوا بالنفي، وأنا لاأعرف هل هم قد تأثروا بالخوف أو بسبب آخر، وعندما سألتهم: لم يستخدمون اصبعاً واحداً ليصلبوا أنفسهم بها، أجابوا بأنهم يرمزون بالاصبع الواحد لكائن إلهي واحد هو الثالوث في ثلاثة أشخاص، وأنهم بذلك يحصنون أنفسهم بشارة الصليب باسم الثالوث المتحد، لكن الأرثوذكس والسريان يقولون في نقد لهم، بأنهم يرسمون على أنفسهم باصبع واحد بسبب الطبيعة الواحدة التي يمتلكها المسيح حسب اعتقادهم. ويستخدمون الأحرف الكلدانية، وبعضهم الآخر العربية التي ندعوها الاسلامية، ويستخدم سواد الناس منهم لهجات مختلفة في كلامهم العام، وذلك تبعاً لاختلاف أممهم وبلدانهم، ولايفهمون اللغة التي يستخدمها رجال الدين لديهم في الكتابات المقدسة، لأنه صحيح أن هؤلاء يستخدمون الأبجدية العربية، إن الذي يكتب ليس اللغة العامية العربية، بل لغة خاصة مفهومة فقط من قبل المتعلمين.

الفصل السادس والسبعون

هناك أمم أخرى لاتقطن فقط في الأرض المقدسة وبين المسلمين، بل يقطنون مستقلين بأنفسهم في الجزء الأكبر من الهند، وهم قوم يعرفون باسم النساطرة، صدوراً عن مهرطق رئيس اسمه نسطور، الذي أصاب معظم الشرق بالسموم القاتلة لعقيدته، وخاصة الذين يسكنون في بلاد

ذاك الأمير القوي جداً والهمجي الذي يعرف باسم «برسترجون» وجميع هؤلاء مع ملكهم نساطرة، وقد قيل إنهم مع اليعاقبة أكثر عدداً من اللاتين أو الأرثوذكس، وعن أولئك الذين سكنوا منفردين، والذين أعدادهم لاتحصى، سوف لن نتحدث، لكن هناك بين المسلمين كثير من المسيحيين وهم منسجمين مع المسلمين، ويخضعون لقانونهم مثل خضوع المسلمين أنفسهم، وصحيح أن هؤلاء الناس لم يأخذوا بالشريعة المثيرة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) إنهم مع ذلك فسدوا بشكل بائس بالهرطقات، ويذهب نسطور ابن الجحيم، الذي كان (رئيس) أساقفة القسطنطينية إلى القول مع زبانيته: إن مريم العذراء المباركة لم تكن أماً لرب، لكنهم يقرون أنها كانت أم المسيح الانسان، ويعلنون أنه لم يكن في المسيح شخص إلهي وشخص بشري، وأنه تبعاً لطبيعته يوجد في المسيح شخصين متميزين، وهم لايعتقدون أن كلمة الرب والجسد كانا مسيحاً واحداً، بل يؤمنون بوجود شخصين منفصلين متميزين: أحدهما ابن الرب، والآخر ابن الانسان؛ وكانت هذه الهرطقة البغيضة قد أدينت من قبل مجمع افسوس (٢٢ حزيران ٤٣١ م) الذي شهده ثلاثمائة من آباء الكنيسة، لأنه كما هو معقول النفس والجسد في انسان واحد، كذلك معقول وجود الرب والانسان في مسيح واحد، ومع أن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسد، ليس هناك انسان واحد تبعاً للروح وآخر تبعاً للجسد، ثم مع أن طبيعة الحديد شيء، وطبيعة النار شيء آخر، نجد أن الحديدة المحماة حتى اللون الأحمر شيء واحد، وتبعاً للهرطقة المتقدمة الذكر، ينبغي أن لايستخدم الانسان كلمات: «المسيح هو رب وانسان؛ وتوفي ابن الرب ودفن»، لأنه احتراماً له لكونه ابن الرب، لايمكنه أن يعاني ولا أن يموت، ومع هذا يقول إشعيا:«لأنه يولد لنا ولد....ويدعى اسمه....إلهاً قديراً»(إشعيا:٩ / ٦)،وكان هذا الرب طفلاً صغيراً، وهذا معارض لعقيدتهم الهرطقية،ويتحدث إرميا بالاسلوب نفسه عن ابن الرب قائلاً:«وتراءى فيما بعد على الأرض وتحادث مع الناس»(باروخ:٣ /

٣٧)،وذلك مع أنه كرب هو غير مرئي ،وقال القديس بولص:«أرسل الرب ابنه مولوداً من امرأة،مولوداً تحت الناموس»(غلاطية:٤/ ٤).وواضح من هذا أن ابن الرب ابن العذراء،وهكذا كانت مريم أم الرب،:« وسيقال هذا الانسان ولد فيها، وهي العلي يثبتها»(المزامير:٨٧/ ٥)،وهكذا فإن الانسان الذي ولد من العذراء مريم قد تولى أيضا خلقها،وأن ذلك الانسان كان هو الرب،وبالطريقة نفسها ينبغي أن نقّر أن ذلك الطفل قد خلق السموات، ومن أبد الآبدين كان من عنصر الآب نفسه ومساوياً له،لأن« الكلمة صارت جسداً وحل فينا»(يوحنا:١/ ١٤)الآن ونحن نرى أنه قد قال هو نفسه:« أنا ذلك الذي كلمتكم عنه منذ الابتداء»(يوحنا:٨/ ٢٥-الترجمة اللاتينية لجيروم)،مامن انسان عاقل يمكنه أن يشكك أن ذلك الشخص نفسه هو الابتداء والخالق لجميع الأشياء،وأنه تحدث مع البشر،وأنه بناء عليه واضح بدون أدنى شك أن الشخصين:الإلهي والبشري هما واحد ونفسه، الأمر الذي ينكره النساطرة التعساء.وهم يستخدمون الأبجدية الأكادية في الكتابات المقدسة،والخبز المخمر في القداس مثل الاغريق.

الفصل السابع والسبعون

هناك شعب آخر يسكن فوق جبال لبنان،في مقاطعة فينيقيا،ليس بعيداً عن مدينة جبيل ،وأعداد هذا الشعب كبيرة،ويستخدمون القسي والنشاب، ويتسمون بالسرعة والمهارة في القتال،ويعرفون باسم الموارنة نسبة الى معلمهم،وهو انسان اسمه مارون، وكان مهرطقاً،بشر بأن المسيح كانت له ارادة واحدة ونشاط واحد، وكان مقترف هذه الخطيئة أسقفاً لأنطاكية واسمه مكاريوس، وقد أدين مع أتباعه على أنه رأس للهرطقة،وطرد من كنيسة الشعب المؤمن بالمسيح،وقيد بقيد الحرمان واللعنة من قبل المجمع السادس للقسطنطينية،الذي اجتمع فيه مائة

وخمسين من آباء الكنيسة،لأنه كما يوجد في الانسان العادي إرادة عقل واحد وإرادة أخرى للشهوة، كذلك كان في المسيح إرادة بشرية جعلته يرغب بالأكل وبالشرب،الى أن عبرت الكأس عنه،ورغبة لاهوتيه أخرى، وهي التي كانت واحدة مع رغبة الآب، وقد أظهر بشكل واضح هاتين الرغبتين عندما قال:«ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت»(متى:٢٦/ ٣٩)،ومن الذي لايعرف أن الأكل والشرب والحاجيات الأخرى التي خضع لها المسيح كإنسان ليست سوى عمليات بشرية، وليس لها أدنى علاقة مع أبدية الرب ؟ لكن لأن يقيم الميت ، ولأن يستأنف الحياة بعد الموت لا علاقة لهما بالبشرية بل بالقدرة الإلهية فقط ، وبهذا إنه لمن الواضح أن عمل الانسان يختلف عن عمل الرب ، ووفق هذه الطريقة علمنا القديس بولص بوضوح أن ارادة الانسان مزدوجة ، وذلك عندما قال في رسالته الى الرومان : « إني لا أعرف ما أنا عامله ، لأن ما اريده من الخير لا أعلمه بل ما أكرهه من الشر إياه أعمل » (رومية : ٧/ ١٥, ١٩) وانظر كم هو الصراع عظيم هنا بين إرادة العقل وإرادة الشهوة ، وقال مرة ثانية : « الإرادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد » (رومية ٧/ ٨) « وأما الروح فنشيط » (متى : ٢٦/ ٤١) ولكن الجسد ضعيف ، لأنه يعمل وفقاً للارادة المنطقية ، وتبعاً لهذا أخذ أحدهم بطرس وقاده الى حيث لم يرغب ، ومع هذا فإنه بوساطة عمل إرادته العقلانية عاد الى روما طواعية ، واختار أن يصلب ، وبين الرسول بولص هاتين الارادتين على أنهما ناموسين متنازعين معاً داخل الانسان فقال :« ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطية الكائن في أعضائي » . (رومية : ٧/ ٢٣) ، والآن إن مارون المتقدم الذكر ، الذي كان أعمى بقوة باهرة أرسلها الشيطان،كان له أتباع كثرة في خطيئته، وهم الذين عرفوا باسم الموارنة، وظلوا لقرابة الخمسمائة سنة

منفصلين عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وعن الاتصال مع المؤمنين يقيمون القداسات بأنفسهم منعزلين:ومع هذا عادوا فيما بعد الى قلوبهم،وقاموا بحضور الأب المبجل أما لرك،بطريرك أنطاكية بالإعلان عن إيمانهم بالعقيدة الكاثوليكية، وأقلعوا عن الخطيئة المتقدمة الذكر، واتبعوا عادات كنيسة روما، ومعروف أن الأساقفة الشرقيين —باستثناء اللاتين فقط— لايستخدمون الخواتم،ولاالقلانس الأسقفية ،ولايحملون الصولجانات الأسقفية بأيديهم ولايستخدمون النواقيس بل اعتادوا على دعاء الناس الى الكنيسة، بالضرب على لوح من الخشب بعصا أو بمطرقة، وقام الموارنة المتقدم ذكرهم إظهاراً منهم للطاعة لروما،فاتبعوا عادات وطقوس اللاتين،وهكذا كان بطركهم حاضراً في المجمع الكنسي الذي انعقد في اللاتيران(١٢١٦م)وسط احتفال مهيب أيام ولاية البابا المبجل انوسنت الثالث،وهم يستخدمون الأبجدية الكلدانية،ولغة المسلمين الشائعة.

الفصل الثامن والسبعون

وللشعب الأرمني الذي يسكن لوحده في مقاطعة(دولة) أرمينيا(الصغرى) بين المسيحيين والمسلمين،تميز واختلاف عن جميع أمم المسيحيين، لامتلاكه لطقوس غريبة ولعادات شاذة خاصة به،وللأرمن المتقدمي الذكر رئيس خاص بهم يدعونه الجاثليق،وهم جميعاً من الأدنى الى أكثرهم علواً بينهم يطيعونه مع أقصى درجات التشريف، ويبجلونه وكأنه بابا آخر، وبينهم وبين الاغريق نزاعات لايمكن فضها، وخلافات لايمكن تسويتها،وتكره كل فئة وتمقت ممارسات وطقوس الطائفة الأخرى،ولهم لغتهم الخاصة، مع أبجدية، ويقرأون الكتابات المقدسة بلغة عامية،وبهذا بات من الممكن فهم كهنتهم ورجال الاكليروس منهم في كنائسهم من قبل العامة،وذلك حسبما تحدثناه عن الحالة مع

الاغريق،وهم لايحتفلون بعيد ميلاد الرب وفقاً للجسد،بل يصومون في يوم ميلاد الرب،وعندما ينتهي الصيام يحتفلون بعيد ميلاد الرب(٦— كانون ثاني) مع عيد القديس يوحنا المعمدان ويعلنون أنه في ذلك اليوم الذي يقيمون فيه العيد هو يوم ميلاد الرب تبعاً للروح، ومع هذا لايمكن القول بأن الرب قد تجدد روحياً أو ولد مرة ثانية،لأنه وهو الذي لم يقترف ذنباً لم يتطهر بماء التعميد« لم يفعل خطية ولاوجد في فمه مكر»(بطرس:١/ ٢/ ٢٢). وهم يقومون بالصيام قبل قيامة الرب،ويراعونه بشكل صارم حتى أنهم لايمتنعون عن اللحم والجبنة، والبيض،والحليب فقط،بل إنهم لايأكلون السمك،ويستخدمون الزيت،ولايشربون الخمرة:ومع هذا إنه لمن الصعب تسميته صوماً،لأنهم يأكلون الفواكه والخضار بقدر مايرغبون في اليوم،ولكي يختلفوا عن الطائفتين المنافستين:الاغريق(الارثوذكس)والسريان، يتولون أكل اللحوم في بعض أيام السبت،وهم لا يمزجون الماء بالخمرة في يوم القربان المقدس لدم المسيح، وهم يظهرون بهذا الطقس الهرطقي وقد اقترفوا إثماً عظيماً،لأن ربنا يسوع عندما وضع العشاء على المائدة مزج الخمرة ليس وفقاً لعادات جميع الشرقيين،الذين لايشربون الخمرة بدون مزج، وعمل قربانه من خمرة ممزوجة بالماء،وفي الحقيقة مامن أحد في هذه المناطق يمكنه أن يشرب الخمرة صرفة من دون ماء إلا ويقع مريضاً، وبناء عليه يقول القديس سيبريان cyprian حول مزج الماء بالخمرة:« إذا لم يراع واحد من أسلافي، سواء عن طريق الجهل أو السذاجة القانون الذي علمنا إياه الرب عن طريق ممارساته وسلطته، فإن سذاجته يمكن أن تنال الغفران من الرب،أما نحن فلا يمكن أن يغفر لنا،لأننا قد حذرنا، وتلقينا التعليمات من الرب في أن نقدم كأس الرب ممزوجة بالماء،مثلما قدم الرب الشيء نفسه»،ومن الواضح أن الرب قدم في العشاء الأخير كأساً من الخمر ممزوجاً بالماء،وبناء عليه فإن الأرمن المتقدمي الذكر لايقلدون الرب في عيد القربان المقدس في المذبح،ولم يدركوا أسرار

الطقس،لأن الماء الذي هو شيء لايعرف الثبات،بل دوما ينساب،هو يرمز الى الشعب الفاني،الذي لايعرف الثبات،ولهذا يمزج الماء بالخمرة ليبين أن الناس اتحدوا بالمسيح،مثل الانضهام الى دم مخلصنا،لأنه إذا ما قدم أحدهم الخمر صرفاً،كأنه بدأ بدم المسيح بدوننا، وإذا ما قدم الماء لوحده سيكون ذلك الناس لوحدهم من دون المسيح،ولن يحمل معنى المزج المتقدم الذكر،ذلك أن القربان ينبغي أن يكون علامة على شيء مقدس،ولايجوز— بناء عليه— أن يكون الرب المقدم لامن الماء لوحده ولامن الخمرة لوحدها،لأننا نقرأ أنه في آلامه صدر عنه من جانبه كلاهما معا.

ومهما يكن من أمر لقد وعد الأرمن الآن بإطاعة البابا والكنيسة المقدسة في روما،وذلك عندما تلقى ملكهم(ليون الكبير ١١٨٥—١٢١٩) بلاده من الامبراطور هنري،امبراطور، الامبراطورية الرومانية المقدسة،وجرى تتويجه(في طرسوس سنة ١١٩٨) من قبل رئيس أساقفة مينزmainz،ومع ذلك لم يغيروا عاداتهم القديمة الراسخة.

الفصل التاسع والسبعون

ويوجد في الشرق أيضا شعب مسيحي آخر،مولع رجاله بالحرب كثيراً، وهم شجعان في القتال،ذلك أنهم أقوياء في الجسد، وأشداء في أعداد مقاتليهم التي لاتحصى، وهم مرعبون يخافهم المسلمون كثيراً،وغالباً ماأحدثوا بغاراتهم أضراراً عظيمة ألحقوها بالفرس،وبالميديين، وبالآشوريين، الذين سكنوا على حدودهم،ذلك أنهم مطوقون تماماً من قبل الأمم الكافرة، ويعرف هؤلاء القوم باسم الجورجيين(الكرج)لأنهم يبجلون بشكل خاص ويعبدون القديس جورج،الذي هو شفيعهم وحامل رايتهم في قتالهم مع الكفار،ويمجدونه

فـوق جميع القـديسين الآخـريـن، ويقـرأون الكتـابـات المقـدسـة بـالاغريقيـة،ويقدمـون القـرابين وفق الطـريقـة الإغريقيـة، ويحلق رجـال الاكليروس لـديهم رؤوسهـم بشكل مستـديـر،أمـا السواد الأعظـم منهـم فبشكـل مربـع،وكلما جـاءوا للحـج الى ضريح الـرب،يسيرون في المدينـة المقدسـة بأعلام مرفـوعة دون أن يدفعوا الجزيـة لأي انسان،لأن المسلمين لايتجرأون أبداً على التحرش بهم، خشية أنهم عندما يعـودون الى بلادهم يقـومون بـالانتقـام لأنفسهم مـن مسلمين آخـريـن من جيرانهم، وتشبـه نساؤهم النبيـلات الأمازونيات ويحملن السلاح في القتال مثـل الفرسان، وكان الجورجيون ساخطون جداً وهـددوا المعظم عيسى، أمير دمشق، لأنه استأنف تدمير أسوار القدس ضد رغبتهم، وكان هذا عندما كان اللاتين يحاصرون دمياط، وهـم يطلقون شعـورهم وشعـور لحاهم حتى تصل إلى طول ذراع تقريباً، ويرتدون قبعات على رؤوسهم.

الفصل الثمانون

يـدعى المسيحيـون الـذي يسكنون في أفـريقيـا واسبـانيا بين مسلمـي العرب باسـم المستعربين، وهم يستخدمـون الأبجدية اللاتينيـة، ويقرأون الكتابـات المقدسة باللغـة اللاتينية، وهـم مثل اللاتين الآخريـن يطيعون بتواضـع وعن إيمان الكنيسـة الرومـانية المقـدسة، دون الانحـراف في أي سبيـل والابتعاد عـن تعاليمهـا الـدينية أو الطقـوسيـة المتعلقة بـالقربـان المقـدس، وهم يحتفلـون بالقـربـان المقدس بخبـز فطير، مثلما يفعل بقيـة اللاتين، ويقسـم بعضهم — على كل حـال— قداس القربـان إلى سبعة أجزاء، وبعضهم إلى ثمانية، في حين تقسـم الكنيسة الرومانية مع رعـاياها الآخـرين القـربان المقـدس إلى ثلاثـة أجزاء فقـط، وبما أن هذا التقسيـم لاعلاقة له بجوهر القداس فإنه لايغيره أو يعيق فضيلته.

الفصل الحادي والثمانون

ويوجد في الشرق شعوب أخرى تعيسة، يبغضهم الرب، وهم أخساء يستحقوق الازدراء، ويدعى بعض هؤلاء باسم «الايسينيين*»، وهم انحدروا من أصل يهودي، ويرى بعضهم أن الحياة بعد الموت مسألة إيمانية، ويثقون أنهم سيحرزون الشيء نفسه مرة أخرى، وهم لايتزوجون خشية من فجور النساء، الذين يرون أنهن لم يكن قط مخلصات لرجل واحد، ويتزوج بعضهم الآخر، لكن لا يتحدثون مع زوجاتهم عندما يكن حوامل، ليظهروا أنهم اتصلوا بهن فقط من أجل الحصول على الذرية، وليس من أجل المتعة، ويقولون لاتتلقي الأرواح بعد الموت لاعقوبة ولاتمجيد، لكن وهم يسعون ضد هذه الطوائف، يبدد هؤلاء القوم المفتتنون جهودهم.

ومن هؤلاء الايسينيين طائفة الحشيشة المتقدمة الذكر، وقد قيل بأنها الطائفة الرئيسة بينهم، وهم يحتفظون بجزء من الأبجدية اليهودية، ويستخدمون مزيجاً من الحروف العبرية والكلدانية.

وآخرون هم الصدوقيين، الذين لايؤمنون ببعث الموتى، وهم قد تلقوا أسفار موسى، لكنهم لم يفهموها، وقد وبخهم الرب في الانجيل قائلاً: «تضلون إذ لاتعرفون الكتب ولاقوة الرب» (متى: ٢٢/ ٢٩)، وبعدما اقتبس سلطانه من أسفار موسى بقوله: «أنا رب إبراهيم، ورب اسحق،

*— الايسينيون: طائفة يهودية نشطت بشكل رئيسي في دير قمران على البحر الميت، وقد زالت هذه الطائفة مع سنة ٧٣م، وتعرف العلماء مجدداً عليها من خلال المخطوطات التي كشفت حديثاً في خرائب وكهوف دير قمران، ومزج المؤلف المعلومات وأخطأ كثيراً، ويرجح أنه أراد طائفة الحشيشية الاسماعيلية، وهو لم يفقه عقائد الاسماعيلية، واختلط عليه الأمر، وهذه لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة.

ورب يعقوب»، أفحمهم وأنهى كلامه على هذه الصورة بقوله: « هو ليس رب الأموات، بل رب الأحياء» وآخرون هم السامرة الذين يعتمدون الأبجدية العبرية مثل اليهود، وقد تقبلوا أسفار موسى الخمسة فقط (البنتاتوخ)، ولم يعترفوا بالأنبياء الآخرين أصحاب الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى، وعندما اقتاد شلما نصر ملك آشور سبي الأسباط العشرة من بني اسرائيل ونفاهم، بعث بالسامرة المتقدم ذكرهم إلى بلاد السامرة لكي يقوموا بفلاحة الأرض في مكان اليهود، وعندما تلقى السامرة كلمة الرب بوساطة تبشير الرسل، استمر بعضهم بالتمسك بأخطائهم القديمة، ولهذا لعنهم الرب وعاقبهم بالرحم العقيم وبالصدور الجافة، ولعن كذلك تماما هذه الأرض الشريرة والفاسدة، وقضى عليها بالنار الأبدية مع الجفاف والقحط، ولهذا قيل لايوجد منهم أكثر من ثلاثمائة انسان حي يمكن العثور عليهم في جميع أنحاء العالم، وتقبل آخرون منهم أسفار موسى والأنبياء وجميع العهد القديم، لكن فقط بمعناه الحرفي، وهؤلاء هم الذين قال القديس بولص ضدهم: « لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي» (كورنثه: ٢/ ٣/ ٦)، ويقول الرب في الانجيل: « الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يوحنا: ٦/ ٦٣)، ولهذا من الواضح أن الكتاب المقدس ليس له فائدة عند اليهود، لابل إنه يؤذيهم كما قال النبي داود: «لتصر مائدتهم قدامهم فخاً وللآمنين شركاً. لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دوماً. صب عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهم خراباً وفي خيامهم لايكن ساكن» (المزامير: ٦٩/ ٢٢— ٢٥)، وتعني هنا كلمة «مائدة » الكتابات المقدسة، هذا ومازال الجزء الأكبر منهم يسكن منعزلاً في ذلك الجزء من الشرق، حيث يحكى أن الاسكندر ملك مقدونيا قد حجزهم دون جبال قزوين، ومن هناك سوف يجلبون في أيام المسيح الدجال، ويقادون عائدين إلى الأرض المقدسة، وبين جبال قزوين تلك وبحر (قزوين) حبس هذا الاسكندر نفسه قوم يأجوج ومأجوج الذين

لايمكـن تعدادهـم لأنهم مثل رمـال البحـر، لأنه كـره عاداتهم البغيضـة بأكلهم لحوماً بشرية ولحوماً نيئة لحيوانات نجسة.

وفئة أخـرى من اليهـود، الذيـن كان آبـاؤهم قـد صرخوا: «دمـه علينا وعلى بنينا»(متـى: ٢٧/ ٢٥) قد تشتتوا في جميع أنحـاء العالم، وإلى حيثما هبت الرياح من السماء، « تراهـم في كل مكان عبيداً، ودافعين للجزية»، تحولـت قواهـم إلى رماد حسـب كلمات النبـي إشعيا، لأنهم أصبحـوا في الحقيقة ضعفـاء غير محبين للقتال مثل النسـاء، ولقد قيل بـأنهم يحيضون وتتدفـق منهم الدماء كـل شهر، ولقد ضربهم الرب في الأعضـاء الخلفية، وجعلهـم في عـار دائم، فمنذ أن قتلـوا أخـاهـم هـابيل جعلـوا هـائمين ومشردين على وجـه الأرض مثل قـابيل الملعون، الـذي له رأس مـرتعش، أي قلب خـائف ، يمضون أيامهم وليـاليهم في رعب، ويعيشـون في ظل الشعور بالخوف من الموت، ويكرههم المسلمـون الذين يعيشون فيما بينهم ويحتقـرونهم أكثـر مـن المسيحيين، ولما كـان الجشـع المقيـت لـلأمـراء المسيحيين جعلهم يتسـاهلون معهـم في سبيل الربـح الدنيـوي، وسمحوا لهم بالاحتفاظ بـرجال مسيحيين سجناء لديهم، وجعـل المسيحيين يعانون من السلب مـن قبلهم بوساطة الـربا الذي يمارسونه والـذي لايطاق، أما بين المسلمين فيعملون بأيديهم بالحرف الأسـوأ والأشد قساوة، وهكذا هم أقنان وعبيد للمسلمين ويعـانون ليعيشوا معهم في أدنى مرتبـة من الحياة، ومـع هذا لايتعـرضـون للقتـل على أيدي المسلمين مثلما يتعـرضـون على أيـدي المسيحيين، لأن الرب يبقيهـم للـوقت المنـاسـب مثلما يبقي جـذع شجرة من الغـابة لكي يحرق في الشتاء، ومثـل كرم خبيث حتى النهـاية، أي نهايـة الدنيـا، عنـدما يتـم انقاذ بقـايـا اسرائيل، لكنـه تحول الآن إلى المرارة، وهو يعطي فقـط عنباً وحشياً، وهو ربما سيعطـي ثماراً ثمينة وعنباً حقيقياً، وهكـذا قال النبـي داود حولهم: « الرب سـوف يريني رغبتي في أعـدائي. لاتقتلهم لئـلا ينسى شعبـي، تيههـم وشردهم». الـخ (المزامير:

٥٩/ ١٠— ١١) لأنهم يذكروننا بموت المسيح، ولقد تلقينا شهادتهم من الكتابات المقدسة حول الأشياء التي صنعها الرب من أجلنا، حسبما يقول دانيال: «يُقطع المسيح، وليس له، وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس» (دانيال: ٩/ ٢٦)، ويقول داود: « بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (المزامير: ١٨/ ٤٥)، هذا ولايوجد أي نبي لم يقدم لنا شهادة ضدهم، وقلب هذا الشعب أعمى إلى حد أنه يلتمس طريقه ويسلب وسط النهار، وكأنه في الظلام، ذلك أن آذانهم صماء، وعيونهم مغلقة، وكذلك لايفهم هذا الشعب الأحمق والمعاند، ولايعرف المدى المرعب الذي أغضب فيه الرب ضده بموت المسيح، لابل إنه قد أغضب الرب حتى قبل موت المسيح، بطرق مختلفة، منها عبادة الأصنام، واقتراف لمنكرات أخرى، ولهذا ألقى بهم الرب في أيدي أعدائهم، ليخدموهم أحياناً لمدة عشر سنوات، وأحيانا لمدة عشرين، وأحياناً أخرى لمدة أربعين، وذلك حسبما نجد في سفر القضاة، فقد مكثوا في احدى المرات في السبي في بابل لمدة سبعين سنة، وأطلق الرب بعد ذلك سراحهم، لكنهم بعد ما قتلوا الرب يسوع، لم نعد نسمع أنهم عبدوا الأصنام، لكنهم وقعوا في السبي لمدة تزيد على ألف سنة، ولم ينالوا بعد عفو الرب ومغفرته. ولكن كما صلى المسيح للرب قائلاً: « أما أنت فارحمني وأقمني فأجازيهم» (المزامير: ٤١/ ١٠)، وهكذا نال صلاته من الرب الآب، ومثل هذا كان قد تنبأ لهم قبل وقت طويل، قائلاً باسم الرب شخصيا: «الانتقام لي وأنا أجازي» (التثنية: ٣٢/ ٣٥)، وقال ثانية: «فيصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تقترفون الشر أمام الرب حتى تثيروا غيظة بما تجنيه أيديكم» التثنيه: ٣١/ ٢٩).

وتحدث النبي دانيال عن هذا السبي الأخير بهذه الكلمات: «وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس، وانتهاؤه بطوفان، وفي نهاية الحرب خراب قضي به. ولسوف يوقف الذبيحة والتقدمة. وفي الهيكل سيكون

هنـاك رجاسـة الخراب، وسيستمر هـذا الخراب حتـى الاكتمال والنهايـة» (دانيال: ٩/ ٢٧).

الفصل الثاني والثمانون

ومنـذ بدايـة استرداد الأرض المقدسـة وإنقاذهـا، بات مـؤكداً بشكـل صحيح مـن قبل الـذين عـرفوا أوضاعهـا بشكل دقيـق، وعرفـوا تبدلات تقدمهـا وسعدها، ونظـروا بعناية نحـو ازدهارها وانتكـاساتها، أنه مـا من جنس من البشر، وما مـن وباء كان له قوة الأذى عليها أكثـر من رجالها: المجـــرمين والآثمين، والأشرار، وغير التقـــاة، والمدنسين، واللصـــوص، والسارقين، وقتلة النفـس، وقتله الأباء، وحانثي اليمين، والـزناة، والخونة، والقراصنـة — أي لصوص البحر— والـداعريـن، والسكيرين، والمغنين، ولاعبي النرد، والمهرجين، والممثلين، والرهبان المرتـدين، والراهبات اللائي مثل المومسـات العموميات، والنسـاء اللائي تخلين عن أزواجهـن ليعشن في بيوت الـدعارة، أو الـرجال الذيـن هربـوا من زوجـاتهم الصحيحات واتخذوا أخريات بديلاً عنهن، ولقـد عبر مثل هؤلاء الناس الأشرار الذين كانـوا في الغرب، البحر المتـوسط، واتخذوا ملاذاً لهم في الأرض المقـدسة، حيث غيروا المناخ فقـط، لكنهم لم يغيروا أخلاقهم، ولقد دنسوهـا بأعداد لاتحصى مـن الجرائم، والأفاعيـل المخزيـة، لأنهم لم يخافوا لا الـرب، ولم يقيمـوا أدنى اعتبـار للناس، بـل أذنبـوا دونما خجل، واقترفـوا ما اعتـادوا عليه من آثـام، وكلما ازدادوا وقاحة كلما ابتعدوا عـن معارفهم وأقربـائهم، كما أن السهولـة التي جعلتهـم ينجون مـن العقاب زادت وقـاحتهم على اقتراف الإثم، وأطلقـوا العنان لفسوقهـم، ذلك أنهم بعـد اقترافهم لشرور عظيمة يقومـون إما بنكران المسيح، والالتحـاق بالجيران من المسلمين، أو يعتلـون ظهـر غليـون أو سفينة، ويحملـون أنفسهـم إلى جـزر البحـر، أو يتخذون ملاذاً في واحد من بيوت الكهنـة النظاميين، ومثل هؤلاء الرجال

الهاربين من العدالة تجدهم في كل مكـان على طرقاتهم، حيث أن الامتياز المخرب يحمـي فاعلي الشر، وهكـذا يهربون من تسـديد المقتضـى عليهم، وينجح بعـض الرجـال الدمويين وأطفـال الموت بعد القبـض عليهم في بلادهـم وهم متلبسون بجـرائمهم، وبعد مـا يحكم عليهم بفقـدان عضو من الأعضاء أو الشنـق، هؤلاء ينجحون عن طـريق الوساطـة أو الرشوة، حسبما جـرت العـادة في الحصـول على حكم بـالنفـي المؤبـد إلى الأرض المقـدسة دونما أمـل بـالعـودة. وصار هـؤلاء النـاس متجنسين في الأرض المقدسـة، ليس عـن طريـق التوبـة بل بـالقوة، ولقـد اعتادوا على تـأجير مساكـن الحجاج بأسعار معتـدلة، والقيام بخديعـة الغرباء الأبريـاء بكل طريقـة يمكنهم فعلهـا، ينتزعون المال منهـم بالحيلة لأجـل الديـون التي لايمكنهم الوفاء بها، وهكذا نجدهـم يعيشـون حياة بائسة بنهب ضيوفهم وسلبهـم، ولقـد اعتـادوا على إيــواء القتلـة واللصـوص، ولاعبـي الميسر، والعـاهـرات العموميـات، على أمـل الحصـول على مـرابح أعظـم، وهـم يـدفعون جـزيـة سنويـة للرجـال الأغنيـاء والأقويـاء حتـى يتمكنوا مـن الحصول على حمايتهـم، ودعمهم في آثامهم المتقـدمة الذكر، وكـل هذا في سبيـل الشرور الأعظم واللعنـة والخزي لكلا الفئتين: لأن الـذين حصلـوا مقابل دفع مبلغ كبير مـن المال على امتياز الحفاظ على المومسات ولاعبي الميسر، يستخرجـون المزيد من الأمـوال من هـؤلاء المومسات والمقامـرين، هذا وإن الـذين يتسلمـون إيجار المومسات، معانـدة منهم لأوامـر الرب، يتولون بـأنفسهم مشاركتهن في جميـع ذنوبهن وآثامهن، ذلـك أن الشريك في الجريمة يتلقـى العقوبة نفسهـا التي يتلقـاها المجرمين، وذهـب بعض الناس من ذوي العقول الخفيفة، للقيام بالحج إلى الأماكن المقدسة، ليس بدافع التقـوى، بل بدافع الفضـول ومحبة الأشياء الجديدة، أي أن يـرتحلوا إلى بـلاد غير معروفـة، ويمكنهـم مـع جهد كبير أن يبرهنـوا على صحـة الحكايات الغريبة الاعجازيـة التي سمعوها عن الشرق، للناس الجاهلين، وفي الحقيقة صنـع الرب الكثير من الأعمال الاعجـازية المدهشـة في هذه

المنـاطق، التـي تجعـل العقـلاء وذوي التفكير السليم مـن النـاس ينبرون نحو حمد الرب وتمجيده، حتى أن القـديس براندان Brandan(٤٨٤—٥٧٦م) أبحـر حـول البحـار لمدة طـويلـة (سبـع سنـوات) حتـى يـرى عجائب الـرب في الأعماق، غير أن ذوي العقول الخفيفة، والـرجال ذوي الفضـول حـولـوا إلى حماقـات هذه الاشيـاء التـي تفضـل الـرب وتنـازل بالبرهنـة بها على قوتـه ولإظهار حمده وشكـرانه، ورأينـا أنه مـن المناسـب إضافة قليـل من هذه الأشياء إلى الكتـاب الحالي، لعل ذلك يكون نـافعاً إلى القراء النبهاء والمتيقظين.

الفصل الثالث والثمانون

غالباً مـا تحدث زلازل خطيرة ومرعبة، ليس فقط في مملكـة القدس بل أيضاً في البلـدان من حولها، خاصـة على شواطىء البحار، وذلـك بسبب عنف الرياح، التـي تتشكل من هياج الأمواج وقوة اندفـاعها في الأماكن الكـائنـة تحت الأرض وفي الكهـوف في الأرض، وبما أن الهواء المضغـوط والمندفـع لايجد فتحات متيسرة يقوم بهز الأرض بضربـات قويـة ومقلقلة، وإذا لم تستطـع الأرض مقاومـة هـذا الضغـط، تنفجر منفتحـة، ويكـون هنـاك خليجاً عظيماً، ولهذا يتـم أحيـانـاً ابتـلاع بعـض المدن ونـزولها إلى الهاويـة، وعنـدما لاتنفجـر الأرض، تهتـز بمثـل هذه الضربـات العنيفـة الناجمة عـن الرياح، ممـا يجعل مدنـاً تنهار فجأة هـي وأسوارها وأبـراجها والأبنيـة الأخـرى فيهـا، وتفـاجىء النـاس، وتـأخـذهـم على حين غـرة، فتغمـرهـم وتقهـرهـم، وبنـاء عليه فـإن النـاس العقلاء في هـذه المناطـق، الذين لايعرفون السـاعة التي ستهب فيها العاصفة سالفـة الذكر عليهم، يترقبـون ذلـك بكـل يقظـة، ولا يهملـون إعـداد أنفسهـم للمـوت، غير مفترضين القـدرة على العيش في وضـع لايتجـرأون فيه على الموت، وكـان بمثـل هذا النـوع من الـدمـار الشامـل قد دمـرت مـدينة صـور، بعدمـا

أصبحت في أيدي اللاتين، فلقد دمرت كلها تقريباً مع جميع سكانها. وفي الوقت الذي يحدث فيه البرق والرعد في الغرب أثناء الصيف، يحدثان في الأرض المقدسة أثناء الشتاء، لأن الأمطار لاتهطل في الصيف فيها، أو نادراً مايحدث ذلك،لكن غالباً ماتتساقط الأمطار لمدة ثلاثة أيام أو أربعة معا،وينتج عن هذه الأمطار فيضانات مياه عظيمة،مثل طوفان آخر يغرق الأرض كلها ويوحلها،ونادراً ماتتساقط الثلوج في الأرض المقدسة،باستثناء على قمم الجبال العالية،كما في لبنان،وفي خلال الصيف كله،لاسيما في أوقات الحر الشديد أيام الشعرى dog-days ،وفي شهر آب،يجلب الثلج البارد الى القدس، ويحمل إليها خلال رحلة يومين من لبنان، وعندما يمزج هذا الثلج مع الخمرة يجعلها باردة مثل الثلج، ويحفظ هذا الثلج بتغطيته بالقش،حتى لايذوب بحرارة الشمس أو بدفء الهواء.

الفصل الرابع والثمانون

وجدت الينابيع التي تتدفق بماء عذب في كل من البحر والبر،وواحد من هذه الينابيع في السامرة(نابلس)،قيل بأن مياهه تتبدل الى أربعة ألوان مختلفة في السنة، وهذه الألوان هي:الأخضر،ولون الدم،ولون الصدأ أو لون الوحل،واللون النقي تماماً، وهكذا توفر تغييراً مدهشاً ومبهجاً للعيون أن تراه ،ولايرسل نبع سلوان مياهه العذبة كل يوم من القعر دونما انقطاع،بل يرسلها على دفعات،لمدة ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع،وهناك في قرب جبل لبنان،بين بلدتي عرقة ورفنية(بارين،أو بعرين) نهر سريع الجريان وكثير المياه يدعونه نهر السبعتا كال sabbatical (أي نهر السبعة أوفوار الدير) لأنه لايعطي أية ماء خلا ل ستة أيام من الاسبوع،وتتدفق المياه منه فجأة في اليوم السابع وتجري في مجراه الجاف، ويصنعون في منطقة صور وعكا الزجاج النقي جداً،ببراعة حرفية،ويتم

التصنيع من رمال البحر، أي أن تقول من رمل البحر وحصبائه.

××　　××　　××

الفصل الثاني والتسعون

وهكذا سلم الرب شعبه تماماً للسيف ،وكان حانقاً جداً على ورثته، وهكذا صار أعداؤنا بشكل تام هم الرأس ونحن الذنب،وهكذا أخذوا منا بالقوة ليس فقط أرض الميعاد،بل جل المناطق، والمدن،والقلاع من تخوم مصر حتى الجزيرة،وتركوا لنا من مدن شاطيء البحر مدينتين فقط هما: صور وطرابلس،وذلك بالإضافة الى انطاكية،وعدد قليل من الأماكن الحصينة،مثل قلعة تعرف باسم قورس،قرب أنطاكية وحصن (الأكراد) والمرقب،والحصن الأبيض (برج صافيتا) وعرقة ، وبرج طرطوس ، وقلعة نفين (رأس شكا) في منطقة طرابلس وسقطت جميع المدن والأماكن الحصينة في الداخل في أيديهم الآثمة ، وكانت البداية التعيسة بالنسبة لهذه الكارثة ، والمحنة المريرة ، والبلوى ، مع كونتية الرها : لأنه بعد وفاة جوسلين الشجاع والحكيم ، الذي كان كونت الرها ، قام ابنه جوسلين الثاني الذي انحرف عن طريق والده في المكانة والشرف وأسلم نفسه الى الفسوق المشين ، وأهمل الدفاع عن مدينة الرها ، ففقدها لصالح زنكي صاحب الموصل ، التي هي عاصمة ومطرانية اقليم آشور ، فقد قام زنكي بحصار المدينة ، وشق طريقه بالقوة الى داخلها من خلال الأسوار واستولى عليها ، وبعد هذا أنزل انتقام السماء حكمه على جوسلين المتقدم الذكر ، وقد أخذ أسيراً من قبل المسلمين ، ومات بشكل تعيس ، حيث جاع حتى الموت في السجن في حلب ، وبناء عليه قامت زوجته بالتنازل عما بقي لها من مناطق لصالح امبراطور القسطنطينية ، مقابل دخل سنوي وأرسل الامبراطور حشداً جباراً من الاغريق ، ووعد أنه سوف يدافع عن البلاد ضد المسلمين وفرح نور الدين بن زنكي

المتقدم الذكر ، لدى تراجع اللاتين ، مع أنهم كانوا قلة ، واكترث قليلاً بحشد الاغريق غير المولع بالحرب ، والذي كان يعرف أنه كان ضعيفاً وجباناً ، وبناء عليه أدخل المنطقة كلها تحت سلطانه ، وقتل بعضاً من رجال جيش الاغريق الغرير وأسر البقية، وقام نور الدين هذا نفسه أيضاً بحصار قلعة اسمها حارم ، كان تعود بملكيتها الى امارة انطاكية ، وتبعد مسافة عشرة أميال عن مدينة انطاكية ، وقتل في تلك الآونة ريموند أمير انطاكية في معركة ، وكان ابنه بوهيموند وخليفته في حكم الإمارة أسيراً في أيدي المسلمين، وبسهولة اقتحم نور الدين القلعة ، وقد واجه القليل من المقاومة ، ومثل هذا انتزع من ايدينا بالقوة مدينة بانياس وأضافها الى ممتلكاته، لأن عموري ملك القدس كان آنذاك بعيداً متغيباً في مصر ، ومنذ ذلك الحين بدأت قوانا تنهار ، ومع هذا دافع شعبنا عما بقي لنا من أرض ، ما دامت مملكتي مصر ودمشق باقيتان في أيدي حكام مختلفين ومتنازعين ، لكن عندما ـ بسبب آثامنا — قامت المملكتان المتقدمتا الذكر بمضاعفة قواهما عن طريق الاتحاد تحت قيادة سيد واحد، بدأت مملكة القدس التي قامت فيما بينهما تعيش في فوضى واضطراب عظيم ، وجعل شيركوه — وكان واحداً من القادة لدى نور الدين — من نفسه بالقوة سيداً لمملكة مصر ، وتركها عند موته الى ابن أخيه صلاح الدين وكان صلاح الدين هذا حكيماً في تصرفاته، وبارعاً في السلاح والحرب بعيد النظر ، وحازماً في عمله ، وكان كريماً جداً، ومبسوط اليدين ، ليس فقط لشعبه، بل أيضاً لبعض من شعبنا، الذي جذبهم إلى جانبه بالهدايا والوعود، ويعلم العالم كله كم من الأذى ألحقه بنا ، مثل سوط عذاب الرب ، وقد دمر الصليبيين ومزقهم إرباً إرباً ، لأنه بعدما قام هذا المتقدم الذكر بقتل (اقرأ : بعزل) مولاه خليفة مصر بشكل خياني (كذا) ، استولى على مملكة دمشق ، وانتزعها من مولاه الطفل الذي

كان يعيش في حلب ، وهو ابن نور الدين الذي كان الآن متوفى ، ذلك أنه كسب الى جانبه أعيان المملكة إما بوساطة الهدايا ، أو أرعبوا بوساطة العنف ، حتى يوافقوا على خيانته ، وقد مضى في سبيله للاستيلاء على بعض المدن الغنية العائدة للمولى المتقدم الذكر ، مع أنه كان شخصياً وأبوه من قبله عبيداً له، ومن هذه المدن : حماه، ومنبج، ومدينة حمص، التي تعرف بشكل عام باسم كاميلا، وقيسارية الكبرى، وكان بعد وفاة نور الدين قد وقع الابن المتقدم الذكر صاحب حلب ، تحت سيطرة عمه، صاحب الموصل، بموجب حق الوراثة، وقد انتزع صلاح الدين من صاحب الموصل المتقدم الذكر بالقوة ليس فقط حلب، بل منطقة الرها أيضاً، والبلاد جميعها حتى الفرات ، وكذلك مدن الجزيرة الجليلة مثل الرها، وجعبر، وجميع البلاد تقريباً ، وشكل قيامه ونجاحه رعباً بالنسبة لشعبنا وخطراً واكتئاباً ، خاصة وأن المسلمين كانوا في البداية — عندما قدم اللاتين الى البلاد أولاً— غير بارعين في الحرب ، وكانوا يذهبون نحو القتال وكأنهم غير مسلحين ، لا يحملون شيئاً سوى القسي والنشاب،ومن خلال الممارسات المستمرة ، والمواجهات المتوالية مع شعبنا في أرض المعركة، تعلموا النظام العسكري، وقلدوا اللاتين في استخدام الدروع والخوذ، والرماح والسيوف والترسة، ولزيادة مصائبنا وتتويجها آلت مملكة القدس ووقعت في يدي واحد لم يكن من ذرية الذين تولوا تحرير أرض الميعاد، ولهذا كانت هناك صراعات كبيرة وانشقاقات بين بارونات المملكة .

الفصل الثالث والتسعون

وكان أول اللاتين الذين تولوا الحكم في مملكة القدس هو غودفري، المحبوب من السماء، الذي حقق الرب من خلاله وصنع

واحدة ، وقد ألحق الهزيمة أثناء القتال بالقائد الأعلى لدى سلطان مصر، مع عدد لا يحصى من الكفار، وبعدما غادرت روحه الجسد، خلفه أخوه بلدوين كونت الرها، في حكم المملكة، فكان الملك الأول للقدس، لأن أخاه رفض ارتداء التاج الملكي في البقعة التي ارتدى فيها معلمه تاجاً من شوك، وتمكن بلدوين هذا مع مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجالة، من الحاق الهزيمة بالقائد الأعلى لدى خليفة مصر، الذي قاد أحد عشر ألفاً من الخيالة وثلاثين ألفاً من الرجالة ضده، وقتل بلدوين القائد الأعلى نفسه مع خمسة آلاف من قومه، بينما أخذ بعضاً من البقية أسرى، وتمكن بعضهم من انقاذ أنفسهم عن طريق الفرار، وتمكن في معركة أخرى مع قوة صغيرة جداً من هزيمة حشد كبير من الناس من عسقلان ومن مصر، واستطاع في المعركة الثالثة ومعه خمسمائة فارس وألفين من الرجالة، أن يهزم عشرين ألفاً من المصريين، وقد قتل أربعة آلاف منهم، كان بينهم صاحب عسقلان، وأرغم البقية على الفرار . ولقد حكم لمدة ثمانية عشر عاماً ثم مات. وكان خليفته، والملك اللاتيني الثاني للقدس، بلدوين بورغ، وكان من أقربائه، وهو الذي التحم في السنة الثانية من حكمه بمعركة ضد (ايل) غازي أحد امراء الأتراك الأشداء جداً ، وكان بلدوين وقتها على رأس سبعمائة فارس.

وهزم غازي هذا في القتال، وكان يقود حشداً لا يحصى من الأتراك، وقد قُتل أربعة آلاف من قومه، ووقع بالأسر عدد كبير، وهو نفسه نجا بكل صعوبة مع البقية، وهزم في المعركة الثانية ، وهو على رأس ألف ومائة فارس وألفين من الرجالة، ملك دمشق، الذي قيل كان معه خمسة عشر ألفاً من الفرسان، الذي قتل منهم ألفين، وأسر عدداً كبيراً ، وجرح عدداً كبيراً جداً، وهرب البقية مع قائدهم، وسقط من جانبنا أربعة وعشرون. وفي المعركة الثالثة هزم هذا الملك العسقلانيين مع المصريين

الذيـن جاءوا لمساعـدتهم، وقد سحق في المعـركة الرابعـة طغتكين، ملك دمشـق، وقتـل ألفين من الأعـداء ، وخسر فقـط أربعـة وعشرين فـارسـاً وثمانين من الجنود الرجالة . ولقد حكم لمدة ثلاثة عشر عاماً، ثم مات.

وكان خليفتة على العـرش فولك، كونـت أنجو، ولا مانس وتـور، وهو الذي زوّجـه الملك المتقدم الذكـر ابنته الكبرى ميليساند، وقـد خاض معركة قاتـل فيها قرب أنطاكية ضد حشـد لايحصي تعداده من الترك، الذين تقـاطروا من منطقة الخليـج العربي، ونال نصراً مدويـاً، حيث قتل ثـلاثة آلاف منهـم، وأخـذو عـدداً كبيراًمن الأسرى وأرغـم البقيـة على الفرار ، وقد حكـم لمدة أحد عشر عاماً ، لكن عندما كان يصطاد أرنباً بـرياً قـرب عكـا، تقنطـر فرسـه معـه، وهلـك بشكل مفـاجـىء ومحزن ومأساوي، وقد خلف من بعده ولـدين: كان الأكبر بينهما بلدوين الذي خلفه على العرش، ثـم عموري، ونال بلدويـن هذا في السنة الثالثـة من حكمـه وهـو على رأس جيشـه كلـه، نصراً على عـدد مـن نبـلاء القـادة الأتـراك، في هـذا الجانـب من أريحا، وقتـل خمسـة آلاف منهـم، وجعـل البقيـة يفرون وهـم مجللين بالعـار، وفي السنة الخامسـة عشرة من حكمـه قاتل هـذا الملك نور الديـن، أمير دمشق، وبقي سيداً للمعـركة، في حين هرب نـور الدين مع بعض قواته، بينما تعـرض البقية للقتل، وقـد حكم لمدة أربعة وعشريـن عاماً، ومات بـدون أولاد، وقد خلفه أخـوه عموري، وحـارب عمـوري في السنـة الأولى مـن حكمـه ضرغـام، أمير الجيـوش المصرية، في أرض مصر، ونـال النصر بشكل عجـائبي ، بعـدما قتـل من الأعداء أعـدادا كبيرة ، وقاتـل في السنة الثـانية في قفـار مصر، وهو على رأس ثلاثمائة وسبعين فـارساً، ضـد شيركوه ، الـذي كان القـائد الرئيسي لـدى سلطان دمشـق، وكان في جيـش شيركـوه هذا اثنـي عشر ألفاً مـن الأتراك ، وأحـد عشر ألفاً من العـرب، ولقد غـادروا ، عندما قتـل مائة من رجالنا، ولقد قيل بأن ألفـاً من الأعداد قد هلكوا، ولقد حكـم لمدة

اثني عشر عاماً، وعندما مات خلفه ابنه بلدوين على العرش، ولقد قدرت عليه السماء الإصابة بمرض الجذام، ومع هذا كان ملكاً قديراً، وفي السنة الثالثة من حكمه، التقى بصلاح الدين قرب عسقلان، وكان معه ثلاثمائة وخمسة وسبعين فارساً، بينما كان مع صلاح الدين ستة وعشرين الف فارس، وقد ألحق الهزيمة به، وهرب صلاح الدين مع بعض رجاله، أما البقية فقد قتلوا أو وقعوابالأسر، وفقط أربعة أو خمسة من رجالنا — كما قيل — قتلوا. وتواجه مع صلاح الدين في معركة أخرى قرب طبرية، وقد هزمه، وكان معه سبعمائة فارس، في حين قيل كان مع صلاح الدين عشرين ألف فارس، وقتل بلدوين ألفاً من الأعداء، ومات من جانبنا عدد ضئيل فقط، ولم يكن بإمكان هذا الملك الزواج بسبب مرضه، وقام بتزويج أختيه: سيبيلا وكانت الكبرى، وايزابيلا، وكانت الصغرى، من اثنين من النبلاء: وأعطى سيبيلا الى وليم صاحب السيف الطويل، مركيز مونتفرات، وايزابيلا الى همفري صاحب تيرون (تبنين)، وعندما توفي وليم المتقدم الذكر، خلف طفلاً صغيراً اسمه بلدوين، وقد زوج الملك أخته المتقدمة الذكر من شاب من بواتو اسمه غي لوزغنان، وبسبب إزدياد مرضه وإثقاله له ، سلم ادارة المملكة كلها اليه، لكن بعد أمد أغضب غي الملك، وهكذا فقد الاشراف على المملكة ، ثم دعا الملك الى الاجتماع أعيان المملكة، وجعل ابن اخته بلدوين يرسم ملكاً، وعهد ببلدوين وبالاشراف على المملكة والدفاع عنها الى كونت طرابلس، وبعد مدة وجيزة غادر الملك بلدوين المجذوم هذه الحياة، وكان الملك بلدوين الصغير قد مات أيضاً واعتلى غي العرش، من خلال مساعي زوجته سيبيلا، وبموجب حقها بالوراثة، وذلك دون أخذ موافقة كونت طرابلس، الذي كان الوصي على المملكة كلها، وبناء عليه كان الكونت ساخطاً جداً، لا سيما وأنه كان يحدث نفسه بالوصول الى العرش ، ولهذا عقد هدنة مع صلاح الدين، دون موافقة الملك ، الذي بات عدوه اللدود، ولكي يزيد من

قوته في المملكة، حتى يتمكن من مقاومة الملك، ومن أجل امتلاك الوسائل لإثارة النزاع، تزوج من الوارثة لطبرية وجميع الجليل، ومن هنا برز خطر عظيم وخلاف مدمر في المملكة ، حيث وقف بعضهم الى جانب الكونت ، وبعضهم الأخر الى جانب الملك .

الفصل الرابع والتسعون

كان صلاح الدين رجلاً عاقلاً، عارفاً بتجارب الحرب وقدأدرك من خلال الخبرة أن المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها الصمود ، وأن بإمكان الخلاف أن يدخل بسهولة من خلال ثغرةعظيمة، واستغل بشكل خاص الفرصة، بسبب أن (أرناط) صاحب الكرك قد خرق الهدنة التي عقدها شعبنا مع المسلمين، واستولى على الكثير من الأسلاب، وقد حشد حشداً عظيماً من المحاربين من جميع البلدان الواقعة تحت حكمه ، واستدعى كل من الفرسان والرجالة من مصر، ومن العربية ، ومن دمشق، ومن حلب، ومن الجزيرة، للقتال ضدنا ، وبعث أمامه عشرة آلاف من نخبة فرسانه، الذين عبروا خلال أراضي بلاد طبرية والناصرة حتى حدود عكا، وذلك أنهم أرادوا — حسب عادتهم— اثارة معركة مع شعبنا بغاية استدراجه وجعله يلاحقهم باندفاع وبدون نظام، ومن ثم الاطاحة برجالنا أو أخذهم أسرى، ولم تنطل خديعة المسلمين هذه علينا ، وأخفقوا في تحقيقها، لكن اندفع نحوهم المقدم الأعلى لفرسان الداوية ومعه أكثر من سبعمائة فارس، وذلك مع المقدم الأعلى لفرسان الاسبتارية، الذي كان عائداً مع عشرة من الفرسان من قلعته كوكب الهوا، وقد كانوا قد فصلوا بوساطتهم عنهم قرب قلعة كفركنا (روبرتي)، ومع أنه كان برفقتها مائة وعشرين فارساً فقط وقفوا في وجه عشرة آلاف من المسلمين، فإنهم قاوموا برجولة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، لكنهم أنفسهم إما قتلوا أو أخذوا أسرى، ونجا المقدم

الأعلى للـداوية مـع عـدد قليـل مـن الأتبـاع، وقـد قتـل المقـدم الأعلى للاسبتـارية، وهكذا نـال العدو في اليـوم الأول من أيار نصراً دمـوياً على شعبنـا، وقام المسلمـون، الـذين تشجعـوا بهذا، فحشـدوا جميـع قواهـم، وقامـوا في حزيران التـالي بحصار أقصى مـدينة في مملكتنا بـاتجاه دمشق، وأعنـي بهذا مدينـة طبريـة، لأن كـونت طـرابلـس، التـي عادت المدينـة بملكيتهـا إليه، قـد انسحب مـن التعامـل مـع المسلمين عندمـا خرقـت الهدنـة، لأنه قـد قيل لـه بأنـه كان حليفـاً للمسلمين، وأنه جلـب شروراً كثيرة ضد الملـك وضد المملكة، وبناء عليـه تولى تحصين المدينة المتقـدمة الذكر ضـد المسلمين، وترك زوجته فيها مـع حامية من الجنـد. وقام الآن اللـورد غي، ملـك القدس، وريمـونـد كونـت طـرابلس مـع جميع نبـلاء المملكة وكل الفـرسان والرجالة الذيـن كانٍ بإمكانهم حشدهـم، قاموا في ساعة نحس، وقد حرموا من مسـاعدة السماء، وتوجهوا نحو قتال صلاح الديـن وقومـه، ونصبوا خيمهـم قرب نبع الصفـورية، ووثقـوا بأعـدادهم الكبيرة واعتمدوا عليهـا أكثر مـن اعتمادهم على المعونة السماويـة، لأنه منذ دخـول شعبنا الأول إلى الأرض المقـدسة لم يكـونوا قـط قادريـن على حشد مثلما حشـدوه الآن من جنـود للقتال في معـركة واحـدة، وقد قيـل كان معهـم اثني عشر مائة مـن الفرسـان الدارعين وحوالي العشريـن ألفاً من الـرجالة المسلحين بـالسيوف والقسي، والقسي العقارة ، فهـؤلاء جميعاً شـاركوا في هـذه الحملـة التعيسـة، وفي اليوم التـالي عنـدمـا كان جيشنـا يزحـف باتجاه المدينة المحـاصرة، هاجمه حشد مـن فرسان جيـش صلاح الـديـــن الخفــاف بشكـــل شرس جـداً مـــن على اليمين ومـــن على اليسار،وضـاعفوا الجراحـات التي أصيـب بها كل مـن الخيول والفـرسان حتى أرغموا الجيش على العسكرة ونصب خيامـه في بقعة جافة ليس فيها ماء،وراقب صـلاح الدين بحكمة هـذا كله،وواجه جيشنا في اليـوم التالي قبل أن يستطيـع الوصول الى الماء،وكـانت المواجهة في حطين،على مقـربة مـن ترعـان،وانقض بقـواته المعبـأة بصفوف وفـق النظام العسكـري،على

عساكرنا،الذين كاد الفرسان فيهم والخيول يهلكون عطشاً،وكان اليوم آنذاك حاراً جداً،لأن المعركة كانت في شهر تموز في اليوم الرابع منه،وهو يوم عيد انتقال القديس مارتن،وذلك في عام ألف ومائة وثمانية وسبعين لتجسيد الرب،ولذنوبهم الكثيرة ألقى الرب الشعب المسيحي في أيدي المسلمين،لأن شعبنا فرّ لدى تلقيه الصدمة،وكان أفراده كلهم من الكبير الى الصغير إما أن قتلوا أو وقعوا أسرى، وجللهم الرب بالعار، مع الرعب والجبن، وبات الآن دور كل واحد من الأعداء ليقوم بمطاردة مائة من رجالنا، وقد رمى بعضهم بأسلحتهم، وألقوا بأيديهم واستسلموا عن طواعية الى أيدي المسلمين، وبعد مقتلة كبيرة اقتيد غي دي لوزغنان مع المقدم الأعلى للداوية وأعداد أخرى كبيرة من ذوي المراتب العليا،اقتيدوا أسرى، وكانوا قد فروا بشكل جبان من أمام مطارديهم، ولهم أن يعرفوا بعلامة مؤكدة،وبرهان واضح، أن الرب كان غاضباً عظيم الغضب منهم، وأن ستر وقايته الربانية قد سحب عنهم،ولقد واجهوا حظاً عاثراً في ذلك اليوم الأسود بفقدانهم خشبة صليب انقاذنا،الذي كانوا قد حملوه معهم الى المعركة، وارتأى صلاح الدين أن يقوم بتدمير كلي لرهبنتي الداوية والاسبتارية في الشرق،لذلك أصدر الأوامر بقطع رأس كل واحد منهم يقع في أيدي رجاله.

الفصل الخامس والتسعون

بعد مضي وقت طويل على هذه الكارثة، بذل عدد كبير من المسيحيين جهودهم للنجاة،وغدا الذين بقيوا في المدن وفي الأماكن الحصينة جبناء مثل النساء وانقبضت قلوبهم، ولهذا لم يتجرأ العديد منهم على انتظار الهجوم من قبل أعداد قليلة من المسلمين،وهكذا،إثر الانتصار المتقدم الذكر،وصل صلاح الدين الى أمام عكا،فاستسلموا إليه على شرط الإبقاء على حياتهم،وزحف من هناك الى بيروت،واستسلمت

تلك المدينة اليه بدون أدنى مقاومة من قبل سكانها القانطين رعباً،وكذلك حصل على جبيل بدون صعوبة، ولم تتجرأ مدينة من المدن القائمة على الساحل من عكا الى عسقلان على مقاومته،هذا وقام شعب قيسارية الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاتزام بإيقاف تقدمه لبعض الوقت،وأجابوا أنهم لن يستسلموا حتى يعلموا هل شعب القدس سيبقى صامداً أم سيستسلم، وعندما نصب خيامه أمام القدس،تخلوا عن المدينة إليه على شرط أن يخرجوا منها أحراراً، وأن يحملوا من مقتنياتهم ما يمكنهم حمله،وأن تجري مرافقتهم الى أرض يأمنون فيها،وهكذا نجوا من أيدي الأعداء، لكنهم عندما وصلوا الى طرابلس وقعوا في أيدي أعظم سوءاً،وهي أيدي آثمة مدنسة،فكل ما جلبوه معهم أخذه بأكمله وانتزعه منهم بوهيموند كونت طرابلس،مع أبناء الشيطان من أتباعه، الذين كان من المتوجب عليهم اظهار الرحمة نحو اخوانهم المنفيين،غير أنهم برهنوا أنهم أكثر وحشية تجاه المسيحيين من المسلمين،ولقد قيل فعلت هناك أفاعيل خسيسة لم يسمع بمثلها في القرون الخالية،فقد كانت هناك أم تحمل على كتفها طفل صغير لها،فسلبت من قبل هؤلاء الأعداء الأشرار، ذلك أنهم لم يوفروا أحداً لامنصبه ولا لجنسه(رجلاً كان أم امرأة)،ولم يتحلوا لابالحياء ولا بالخجل اثنار سلبهم،وعندما رأت هذه المرأة أن مقنياتها التي تركها لها المسلمون،للحفاظ على نفسها وعلى طفلها،قد أخذت منها وانتزعها الذين فرت إليهم للالتجاء، تحولت الى حالة من اليأس والألم والهياج والقنرط،الى حد أنها قذفت بولدها الى البحر.

وعاد صلاح الدين الى عسقلان،واستسلمت المدينة اليه على شرط أن يطلق سراح الملك والمقدم الأعلى للداوية،اللذان كانا مسجونين لديه،ثم تابع زحفه كعسكري نشيط وفعال الى طرابلس حيث وجد سكان المدينة مع اللاجئين جاهزين لمقاومته، ولاعتقاده أن هذه المدينة لن تنجو منه

إذا ما عاد إليها في وقت آخر مناسب،بعد احتلاله لبقية الأماكن الحصينة، زحف نحو أنطاكية،لأنه في ذلك الوقت لم يكن مهتماً بشغل وقته كثيراً مع القلاع القائمة على شاطىء البحر،ذلك أن زعيم القراصنة واسمه«مرجريت» وكان رجلاً واسع النفوذ في البحر،قدم من مملكة صقلية مع ثمانين من الغلايين لمساعدة شعبنا، حيث أنه أرسل من قبل الملك الشجاع والشهير وليم صاحب صقلية،فعندما سمع هذا الملك بالسقوط المحزن لمملكة القدس، من الذين هربوا بوساطة البحر والتجأوا الى بلاده،بادر على الفور في ذلك الصيف، ولم يكتف بارسال الغلايين المتقدمة الذكر،بل بعث بخمسمائة من الجنود،وثلاثمائة من التوركبلي،وكميات هائلة من المؤن لمساعدة المتبقي من البلاد،وللأناس الطيبين والذين يخشون الرب.

ودفعت روح صلاح الدين اللجوجة به للقيام بمتابعة نجاحاته بكل نشاط، فاستطاع خلال ثلاثة أشهر أن ينال إمارة أنطاكية كلها باستثناء قلعة بطريرك أنطاكية التي كانت لاترام واسمها قورس Cursatus ، ومدينة أنطاكية نفسها، التي رفع الحصار عنها لدى تسلمه مبلغاً كبيراً من المال من البطريرك، مع القناعة والتأكد أنه بعد الاستيلاء على الأماكن الحصينة المنتشرة هناك، فإن مدينة واحدة لن يكون بإمكانها مقاومته، لأنه جعل نفسه سيداً لأكثر من خمس وعشرين مدينة وبلدة في تلك الإمارة، ولهذا عاد إلى مملكة القدس، وقام مستخدماً جيشه بأكمله، فحاصر مدينة صور براً وبحراً، وهي المدينة الوحيدة التي تركت بين مدن الأرض المقدسة، وكان في صور آنذاك نبيلاً شجاعاً هو كونراد مركيز مونتفرات، الذي أبحر إلى هناك على ظهر سفينة من القسطنطينية، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي أطيح به بشعبنا في المعركة المتقدمة الذكر، ووعد هذا الرجل سكان المدينة أنه سيتولى الدفاع عن المدينة إذا وعدوا بتسليمه إياها إذا تولى حفظها من العدو، ووافق سكان المدينة

متطوعين وشاكرين على فعل ذلك،لأنهم كانوا قانطين،ولم يعتقدوا أنه كان من الممكن لهم الصمود في وجه جبروت صلاح الدين،الذي جعل الآن من نفسه سيداً لجميع البلاد،وقاوم كونراد صلاح الدين برجولة من جانب البر،وألقى النار في غلايينه في البحر،ولهذا قام وهو غاضب ومضطرب برفع الحصار والمغادرة على الفور، وكان قد فكر بتضييق الحصار على سكان صور،وارغامهم على الاستسلام دونما تكاليف كبيرة وخسائر،وبدون سفك لأي من الدماء، وكان من الممكن له أن يحقق هذا بسهولة لولا أن الرب أمدّ بالعكس، لأن صلاح الدين كان قد أرغم قلاعاً قوية مثل: صفد، وكوكب الهوا، وتبنين، والشقيف في الجبال، على الاستسلام، وعلى كل حال كان بإمكان هذه القلاع المقاومة طيلة الوقت الذي توفر فيها المؤن، وكيف كان بالحقيقة لعدد قليل من الرجال المرعوبين والذين بلا عون الصمود من دون هذا الأمير الشجاع، في وجه الذي جعل من نفسه سيداً، ليس فقط لأرض مصر بل لكل سورية تقريباً، أي من نهر الدجلة حتى مصر، ومن قليقيا حتى البحر الأحمر.

الفصل السادس والتسعون

يدعى القسم الأول من سورية، القائم بين نهري الفرات والدجلة باسم الجزيرة السورية، ويدعى القسم الآخر باسم سورية المجوفة، ويقوم في هذا الجزء مدينة أنطاكية، مع المدن الخاضعة لها، وهي تصل حتى نهر بانياس تحت قلعة المرقب، ويدعى القسم الثالث من سورية باسم سورية الساحلية أو سورية الفينيقية، وفيه يقع مدن: طرابلس، وصور، وعكا، وهو يبدأ عند النهر المتقدم الذكر، وينتهي عند lapis In-cisa التي تعرف باسم عثليت Districtum ، واسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج، ويدعى القسم الرابع باسم سورية اللبنانية، حيث يقوم جبل لبنان، وكذلك يعرف باسم سورية دمشق، لأن دمشق هي

العاصمة، ويعرف أحيانا بكل بساطة باسم سورية، ذلك أن الجزء قد يأخذ اسم الكل، حسبما في جاء القول: «رأس آرام— سورية— دمشق» (اشعيا: ٧/ ٨)، وهناك ثلاث فلسطينيات، التي هي جزء من سورية الكبرى وعاصمة الجزء الأول القدس، ويدعى هذا الجزء بشكل خاص باسم «اليهودية»، والجزء الثاني هو الذي عاصمته قيسارية فيليب (اقرا: فلسطين)، والقسم الثالث هو الذي عاصمته سكيثوبولس، التي تعرف في هذه الأيام باسم بيسان، زد على هذا إن كل من العربيتين جزء من سورية: والجزء الأول هو الذي عاصمته بصرى، والجزء الثاني هو الذي عاصمته البتراء في القفار، هذا وإن سورية سوبال Sobal ، (النقب) التي عاصمتها سوبال هي جزء من سورية الكبرى، والجزء الأخير من سورية هو أدوم، المتجهة نحو مصر، وهكذا فالعدو بهذه العظمة والقوة، ذلك أنه يسيطر على مثل هذا العدد من الممالك؛ وعدد كبير من الرؤوس الهمجية، أقامها الرب ضدنا، كما هو الحال الآن، لتكون سوط انتقام الرب بسبب آثامنا.

الفصل السابع والتسعون

وهكذا هزت مصائبنا المؤسفة، والأخبار المحزنة لما حل بنا، جميع بلدان الغرب، ولقد ارتاع كل من سمع بما حدث، وأصيب الناس بجراح محزنة، وتقدم هؤلاء وتصدرهم أوربان الأب المبجل، الذي كان آنذاك بابا الكنيسة الرومانية المقدسة، فعندما سمع بالأخبار استولى عليه حزن لاعزاء له، لأن الكنيسة الشرقية قد تعرضت للدمار بشكل مؤسف، وباتت مشعثة بشكل لايمكن ترميمها فيه، وعندما علم بأن الأماكن المقدسة قد تدنست، وديست من قبل كلاب غير نظيفة، وأن خشبة الصليب الثمينة، صليب خلاصنا قد استولى عليها وتداولها أناس غير أتقياء وغير جديرين بالاحترام، وأن الأرض المقدسة — التي سلف

وحررت لقاء سفك الكثير من الدماء المسيحية — قد احتلت ثانية من قبل القوم الكفار والمدنسين، أثر به الحزن وأزعجه كثيراً إلى درجة أنه وقع مريضاً مصاباً بالحمى، ولم يمض وقت طويل حتى مات، بسبب الحمى، وبسبب الحزن، وبسبب الضعف، وكان خليفته على العرش البابوي غريغوري (الثامن ٢٩ت١ — ١٧ك١ ١١٨٧)، وكان رجلاً جيداً، وجديراً بالقبول التام، لكن لذنوبنا توفي بعد سبعة أشهر، وجاء بعده كليمنت الثالث (١٩ك١ ١١٨٧— ٢٧آذار ١١٩١)، الذي رفع إلى أعلى مقام لاهوتي، وقد عمل مع أخوانه الكرادلة في جميع السبل الممكنة للحفاظ على المسيحيين الذين تركوا في أعداد قليلة، بمثابة شياه وسط ذئاب، ولقد دعا أمراء الغرب وهددهم وناشدهم،وكذلك جميع الشعب المسيحي المؤمن، للقيام بتحرير الأرض المقدسة، ومنحهم غفراناً تاماً من جميع ذنوبهم، وذلك بالإضافة إلى أنهم سينالون التأييد من السماء، وحثهم على عدم التأخر في القدوم لإنقاذ كنيسة المسيح ومدينة خلاصنا، وبناء عليه حدث أن قام: فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية، وفيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا،، مع جميع الأمراء تقريباً والدوقات، والإيرلات، والنبلاء في ممالكهم، وبرفقة رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، وبقية الشخصيات اللاهوتية، والناس من الأنواع المنحطة، وكانوا أكثر من أن يستطيع انسان تعدادهم، هؤلاء جميعاً قاموا فوضعوا على أكتافهم رباط الصليب المانح للحياة، وأعطوا عهداً مقدساً أكيداً بالحفاظ على الأرض المقدسة، وشجع أحدهم الآخر بالكلام وبالفعل بضرب المثل بنفسه وبإلهاب الحماس لدى الآخرين، حتى بدا من العار ومن المهانة بالنسبة لهم البقاء في الوطن مثل الكسالى والجبناء في حين كان الآخرون ذاهبون لأداء صليبيتهم.

- ٢١٨٥ -

الفصل الثامن والتسعون

وكان الملك غـي في الصيف الذي أعقب فقـدان الأرض المقدسة غير قادر على استرداد صور، لان المركيز المتقدم الذكـر قد تولى الحفاظ عليها، وادعى ملكيتهـا بموجب الاتفـاق الذي عقـده (مع أهلها)، ومـن جميع المملكـة التي كـانت بحـوزته لم يبـق لغي ولا حتـى مقدار قـرية واحـدة يتخـذها مقـراً له، وكـان ممتلئا بـالشعور بـالعار وبـالفوضـى، لاسيما وأن الأرض المقدسـة قد ضاعت أثنـاء حكمه، وبما أنه لم يعـرف الاستقرار في حياته، قام مع عدد صغير جداً من الأتباع تولى حشدهم، بإلقاء الحصار على عكـا، ونصب خيمتـه على هضبة مـرتفعـة قرب المدينـة، وكان معـه أخوه غيـوفري دي لوزغنـان، وكان رجلاً شجاعـاً ومقداماً، وقـد استطاع بفضل أخيـه أن يصبح المقـدم على جميع الحجاج الآخـرين، ويحكـى أنه عنـدما سمـع صلاح الـدين بهذا حمد اللـه لإيقاعـه بقية الصليبيين مـع ملكهم بين يديه، وفي الحقيقة لم يكن بإمكان مثل هذا العدد الضئيل من الـرجـال أن يصمد في وجـه سكـان عكـا، فكيـف أمـام صلاح الـديـن وحشوده التـي لاتعد ولاتحصى، وعنـدما طلـب منه أمراؤه الاسراع بـأخذ الجائزة التي وضعها اللـه على طريقه، يحكى أنه أجابهم، بـأنهم لن يفلتوا منه، وأنه يرغب في انتظار وصول أخيه— الـذي كان متوقعاً وصوله قريباً — ليشارك في متعة النصر، لكنـه علم من خلال التجربـة بعد مضي عدة أيام أن التأخير والتقاعس عن العمـل سوف يسبب الضرر، ذلك أن أحد النبلاء، وكـان من عبيد الرب المجـريين جداً اسمه جيمس أوفـرين Auvergne ، جـاء وقـت الحاجـة، وعسكـر أمـام عكـا ومعـه قـوة مـن الفلمنكيين، والبرابـانتيين والفريـزيين، فضـلاً عن هـذا لم يمـض طويـل وقت حتـى وصل حشـد من النبلاء مـع آخريـن من شـامبين وبيرغندي وبعض الناس مـن إيطاليا، وعسكروا أمـام المدينة السالفة الـذكر، ولكي

يتجنبوا هجمات غير متوقعة ومفاجئة من قبل المسلمين حصنوا معسكرهم بخندق امتد على جميع الجوانب، وتحتاج المسألة إلى وقت طويل للحديث عن المآسي والمصاعب والمخاطر والخسائر التي عانوا منها قبل قدوم ملكي فرنسا وانكلترا، لأن المسلمين غالباً ما أحرقوا أدوات حصارهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأصابوا الكثيرين منهم بجراحات مميتة بوساطة النشاب والحراب، في حين مات كثير منهم على الرمل أمام المدينة من الجوع، ومن الإعياء، وبالوباء، والآن وقد رأى رجال شعبنا أنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على المدينة، وأن صلاح الدين مع جيشه يناوشهم دوماً حول خندق معسكرهم، قرروا في أحد الأيام الزحف والخروج من معسكرهم لقتال العدو، ومع أن المسلمين كانوا كثرة متفوقة بالعدد على شعبنا، لم يتجرأوا على انتظار هجوم رجالنا، وهربوا تاركين معسكرهم خلفهم، وعندما وصل شعبنا إلى معسكر المسلمين بدون مقاومة، خافوا واستبدبهم الرعب، وكأنما كان ذلك صادر عن حكم سري من الرب، فهربوا، مع أن ما من انسان طاردهم.

وعندما رأى المسلمون هذا استردوا ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم، وعادوا يطاردون شعبنا، وبدأوا في عقر الخيول وجراحة الفرسان بوساطة موجات متواصلة من السهام المتطايرة، وتمكن المسلمون من تطويقنا بفضل عددهم، وقتلوا عدداً لابأس به من نبلائنا الكبار، الذين ثبتوا في مواقعهم، ورأوا من العيب والعار إدارة ظهورهم، وكان بين هؤلاء المقدم الأعلى للداوية، وأندرو دي بريين، اللذان قتلا في هذا اليوم مع آخرين كثر، وكان الخوف الذي استبد بشعبنا هائلاً، وكذلك الفوضى، وكان الذي أصاب رجالنا أثناء فرارهم من رعب كبيراً جداً، ووصل الأمر إلى حد أنه ما كان بإمكان واحد من الذين زحفوا النجاة، لولا قيام غيوفري دي لوزغنان، الرجل الشجاع، والجندي المجرب، السالف الذكر— الذي

بقي في المعسكر لحراسته — بالمبادرة لتقديم العون إلى شعبنا مع ما قدر على جمعه من الرجال.

ويحكى أن شعبنا دبت بين صفوفه الفوضى في ذلك اليوم بسبب حادث غريب، فقد شرد فرس من صاحبه وهرب، وعندما ركض عدد كبير خلفه وهم يصرخون، اعتقد الآخرون أن رجال شعبنا كانوا يفرون من أمام العدو، وهكذا فر الجميع واتخذوا طريقهم نحو المعسكر إلى خيمهم، أو لنقل إلى عارهم العظيم وإلى إلحاقهم الأذى العظيم بقضية المسيحيين.

وبعدما انتظر شعبنا في أرض المعركة لمدة سنة ونصف السنة وصول الامبراطور والأمراء الآخرين الذين كانوا سيتبعونهم، عانى أفراده من مجاعة شديدة وندرة في الأطعمة داخل المعسكر وصلت إلى حد إرغامهم على أكل لحوم الخيول وأجساد الحيوانات الميتة، لأن مكيال (بوشل) الدقيق الواحد الذي كان يباع في الأوقات العادية بنصف قطعة نقدية (بيزنت) بيع وقتذاك بستين قطعة، وبناء عليه أعلن الجنود الرجالة في الجيش أنهم لايمكنهم الاستمرار بتحمل مثل هذا العوز، فانطلق منهم ثلاثون ألفاً في عددهم ضد أوامر قادتهم، بغية مهاجمة المسلمين، ونهب الأطعمة من معسكرهم، وتظاهر العدو الماكر بالفرار، وجعل هؤلاء الناس الطائشين يثقلون أنفسهم ليس فقط بالأطعمة، بل أيضاً بالذهب وبالفضة وبالأثاث من مختلف الأنواع، وعندما كانوا في طريق عودتهم مثقلين هكذا، ومعاقين بالأوزان الثقيلة تحولت قيثارتهم إلى النحيب والمناحة (يعقوب: ٣٠/ ٣١ — الأمثال: ١٤/ ١٣)، وكانت نهاية هذا المرح التعاسة: لأن المسلمين حملوا عليهم بأصوات عالية، ولم يوجد بينهم واحد كان قادراً على مقاومة الأعداء، فلقد ألقوا بأثقالهم وتخلوا ليس فقط عن الذهب والفضة، بل حتى عن سلاحهم، وسقط تقريباً كلهم على الطريق أو سيقوا إلى داخل البحر وغرقوا، وأصيب بعض

الذيـن نجوا منهم لـرعبهم بالجنـون، وهكذا جعل الـرب تذمرهـم وعدم طـاعتهم سبباً لعقـابهم، وفي تلك الأثنـاء توفيت سيبيـلا زوجة الملـك السالف الذكر، في داخل المعسكر، وهكـذا آل التاج بموجب حق الوراثة إلى أختها ايـزابيلا، زوجة همفـري أوف تيرون (تبنين)، ويحكى أنه عنـدما سمع بهذا مركيـز مونتفرات، الذي كـان قد جعل من نفسـه سيداً لصور، استبدت به مطامحه السلطـوية والرغبة في العرش، فانتزع ايـزابيلا المتقدمة الذكـر من زوجهـا، وتزوجها على الفـور، ومهما يكن الحال، كـان الحجاج غير راضين ومزعـوجين كثيراً تجاه مثل هذه الجريمـة العظيمة، ومـع هذا، لقد رفضوا طلـب الكونت المتقدم الذكـر، وصرفوه بأعذار، عنـدما سألهم الإنصاف ورفـع الغبن عنـه، لأنه لم يكن بـإمكانهم الحصـول على الطعام من أي مكان غير صـور، وذلك عبر يدي المركيز السالف الـذكر، فضلاً عن هذا لقد رشا بعضا من مقدمي الجيش لدعم قضيته.

الفصل التاسع والتسعون

بينما كـانت هـذه الأقـدار المتغيرة هي حـال الـذيـن كانـوا على أرض المعركة، انطلـق فردريك، امبراطور الرومان، وشرع بـرحلته عبر البر ومعه قـدرات عظيمة، وحشـد مـن المقاتلين لايحصـى تعـداده، وبعد مـا عبر حدود ألمانيا، اجتـاز هنغاريا، ومكدونيـا، وبلاد الاغريق، وزحـف خلال بـلاد المسلمين بقوة وجبروت وسيطـرة، واستولى على قـونية ثـم فيلومينـا، (إلغين) ومدناً أخـرى كثيرة، ووصل إلى أرمينية (كليكيا)، ونـزل وسط حر عظيـم إلى نهر يـدعـوه السكـان المحليـون بـاسـم (نهر الحديـد) «النهـر الأزرق»، وكـان يـريد الاستحمام، لكنـه غـرق بشكـل مأسـاوي، بسبـب ذنوبنا، ومات مما شكـل خسارة عظيمة لجميع المسيحيين، وخشي صلاح الـديـن كثيراً مـن وصـولـه لهذا أمـر بهدم أسـوار: الـلاذقيـة، وجبلـة ، وطرطوس، وجبيل، وبيروت، وأبقى الحصون فقط أي القلاع والأبراج.

والآن بعد ما أمضى كل من فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد، ملك انكلترا الشتاء في برنديزي، بإنتظار إلتحاق ساقة جيشهما بهما، بعد هذا أبحرا إلى ميناء عكا، وكان ذلك في الربيع الذي جاء إثر ذلك الشتاء، وكان معهما سفن وغلايين، وخيول كثيرة، وآلات حرب، ومخزونات من المؤن، وقد جعلا جيش شعبنا يمتلىء بسرور هائل. وكان أولهما بالقدوم ملك فرنسا، لأن رتشارد، ملك انكلترا، قام قبيل وصوله، بالاستيلاء على جزيرة قبرص، وأطاح بالاغريق الذين كانوا هناك.

وقاموا الآن بإلقاء الحصار على عكا، رطوقوها من جميع الجهات، وهاجموها بشكل متواصل خلال الصيف كله، في حين قاوم الذين كانوا بداخلها برجولة، وكانت آلاتهم مكافئة لآلاتنا، وأحرقوا بالنار الاغريقية القلاع الخشبية التي بناها شعبنا مقابل نفقات عالية، وألحقوا بشعبنا الكثير من الأضرار، لكن حدث في أحد الأيام، أن صلاح الدين كان مرسلاً بنجدات من الرجال الجدد المسلحين إلى المدينة، ومعهم عتاد وسلاح ومؤن، على ظهر سفينة كبيرة جداً تدعى «درمون» فالتقى ملك انكلترا بهذه السفينة عند مدخل ميناء عكا، وكان معه غلايينه، ولقد أغرقها وأنزلها إلى قاع البحر مع جميع الجنود الذين كانوا فيها، مما بعث السرور العظيم وسط المسيحيين، وسبب اضطراباً بين المسلمين، وقد قيل إنها حملت بالاضافة إلى بقية حمولتها بعض الثعابين، كانوا عازمين على إرسالها ونشرها في جيشنا، وأعتقدوا أنهم بذلك سيلحقون بنا أذى عظيماً، وقصف فيليب ملك فرنسا أسوار المدينة، وأبراجها، ودفاعاتها بشكل متواصل في كل من الليل والنهار، بوساطة حجارة ضخمة، وبذلك دمر آلات العدو، مع أبنية في داخل المدينة، ولم يعط المحاصرين راحة، ومن جانب آخر قام ملك انكلترا بحملات متوالية مرعبة على المحاصرين، ونتيجة لهذا، أخذ السور يضعف ويترنح نتيجة القصف بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة

بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة المقاومة لمدة طويلة، لهذا قاموا بتسليم المدينة على شرط أن يتمكنوا من الزحف منها بحرية وبدون إعاقة ولا أذى، وتعهدوا أنهم سوف يسلمون صليب الصلبوت ويعيدونه وهو الذي خسره الصليبيون في المعركة، لكن بما أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، غضب ملك انكلترا غضباً عظيماً، وأمر بجعل الأسرى الذين هم في شطره من المدينة طعمة للسيف، لكن ملك فرنسا تعامل مع المسلمين الذين كانوا في أسره بشكل أكثر لطفاً، وألقى بهم في السجن لمبادلتهم مع شعبنا، ومع هذا عمل ملك انكلترا المزيد من الأعمال لإيذاء العدو واضعافه بقتل عدة آلاف منه، الذين لو أنهم عاشوا لأمكنهم فيما بعد الحاق الكثير من الأذى بالصليبيين، وعندما رأى صلاح الدين أن المدينة قد جرى الاستيلاء عليها، وأن قسماً كبيراً من قواته قد دمر، شعر بالإحباط إلى حد كبير، وفقد الأمل بالقدرة على الدفاع عن المدن الأخرى ضدنا، ولهذا أمر بتدمير أسوار المدن القائمة على شاطىء البحر، وهي مدن: بروفيريا (قرب حيفا)، وقيسارية، ويافا، وعسقلان، وغزة، والدارون (دير البلح)، وأعاد الملك رتشارد بناء يافا وحصنها، وألقى بعد هذا صلاح الدين الحصار عليها، لكن الملك بادر الى هناك على متن غلايين بوساطة البحر، وتبعه جيشه بصعوبة كبيرة على الطرق البرية، وتمكن من انقاذ المحاصرين، وطرد حشد المسلمين، وارتعب المسلمون الآن كثيراً، وحلت بين صفوفهم الفوضى، وانهزموا مع أميرهم من أمام وجه شعبنا ، وبات الآن بإمكان شعبنا بسهولة ليس فقط نيل مملكة القدس، بل الأجزاء الكبرى من بلادهم، لولا أن عدو الجنس البشري، وأعني به الغيرة، حقق نجاحات كبيرة بين المسيحيين، وبذر الزوان بين الملكين، وكان هناك توتر شديد بين الأمراء، وبسبب هذا تيههم في القفار حيث لم تكن هناك طرقات، وحاولت كل مجموعة أن تنال مجداً لنفسها ، وسعت وراء مصالحها، وليس وراء الأشياء العائدة ليسوع المسيح، وأدخلت إهاناتهم لبعضهم

بعضاً، وغيرة أحدهـم من الأخر السرور الى قلوب أعدائهـم، وأنزلت بين صفـوف المسيحيين والمسيحيـة اضطرابـاً عظيماً، وكـان الخلاف والحسـد، والتباغض،وانعدام الـوفاق بين الملكين قد وصل إلى حد، أنه عنـدما كان ملـك فرنسـا يقوم بـالهجوم على واحـد من جـوانب المدينـة، كان ملـك انكلترا يرجع شعبه ويمنعه من الحملـة، ويحول بينهم وبين معاناة الهجوم والقيام بـه على جانـب آخر، فضـلاً عن هـذا ربح إلى جـانبه أكبر عـدد ممكـن من الأمـراء والبـارونات بـالهدايـا وبالـوعـود، وجعلهم يقفـون إلى جانبـه، وانزعج ملك فـرنسا كثيراً وتوجـس شراً من كل هذا، ولأنـه كان مريضـاً، ذهب عـائداً إلى بلاده مباشرة بعـد الاستيلاء على عكـا، وخلف من ورائه دوق بيرغندي مـع جزء كبير من جيشه، لكنـه لم يكن حكيماً في نشره أخبار عـودته المبكرة إلى وطنه، فقـد قيل: كان صـلاح على استعداد للتخلي عن البـلاد كلها لنـا، لو أن الملكين تظـاهرا بـأنهما كانـا على وئام بالنسبـة لغزوها، وكانـا متسالمين وعلى وفاق بين بعضهما بعضـاً. وانطلق الآن ملك انكلترا مع جيشـه، وبرفقته دوق بيرغندي، من عكا نحـو يافا، وذلك بنيـة إلقاء الحصـار على القدس، وواجهـا وهما على الطريـق عدداً كبيراً مـن المشـاكل، لأن صـلاح الـديـن لاحـق القـوات الزاحفـة بعـدد لايحصى من الجنـود والتوركبلية مع مسلمين كانوا يطلقـون النشاب عليهما من الجانبين مثـل السحب، ولهذا تمكن شعبنـا بصعوبـة بالغة جـداً من الوصول إلى مدينة أرسوف، بين قيساريـة ويافا، وذلك بعد عقرعدد كبير من الخيـول، وإصابة فـرسانها بجراحـات خطيرة، وقد جرح الملـك نفسه بنشابة أثنـاء ذلك الزحف، وقام عندمـا كان قرب القلعة المتقدمـة الذكر بحملـة عنيفـة جـداً على المسلمين، وأراد من ذلـك دفعهـم إلى الخلـف، وتولى الضغط عليهـم أثناء التراجع فقتل عدداً كبيراً منهـم، لكن ذلك لم يكن بدون خسائر فادحة عانى منها الجيش المسيحي، لأنه في ذلك اليوم سقط الفـارس النبيل، والمقاتل الشجـاع جيمس أوف أو فرين مـع عدد كبير من الآخرين الـذين نالوا تاج الشهادة، وذلـك أثناء قتالهم المسلمين

في مكان منعزل، لم يكن معروفاً من قبل شعبنا، وحمل صلاح الدين نفسه مع الفارين الى القدس وفي الوقت نفسه أقام شعبنا معسكره في مكان يدعى بيت نوبة بين يافا والقدس، على نية الزحف من هناك الى القدس لإلقاء الحصار عليها ، وفي هذا المكان وصلت أخبارالى الملك رتشارد تحدثت عن قافلة عظيمة قادمة الى جيش صلاح الدين من مصر، مع أعداد لا تحصى من البغال، والخيول، والجمال، محملة بالأطعمة والبضائع الأخرى،وشرع على الفور مبادراً لاعتراض سبيلها، وزحف خلال الليل، وعاد الى جيشه وقد جلب معه الكثير من الأسلاب، غير أنه كان قد ترك جيشه في حالة رعب عظيم، لأنه أخذ الجزء الأعظم من أتباعه معه، وخلف وراءه عدداً ضئيلاً مقارنة بقوات صلاح الدين، وبعد هذا عقد شعبنا مجلساً حربياً، قرروا فيه عدم القاء الحصار على القدس في الشتاء، ذلك أنهم رأوا أنهم لا يمتلكون بين القدس وعكا موقعاً حصيناً باستثناء يافا، وأنه لا يمكنهم جلب المؤن لإطعام الجيش من دون خطر عظيم واضح، ولهذا تخلوا عن مغامرتهم مع أن ذلك كان وسط بكاء الكثيرين، والحزن المرير للجزء الأعظم من الجيش، وفي الحقيقة قال كثير من الناس، وأناس عرفوا بشكل دقيق أوضاع المسلمين أن صلاح الدين لم يكن متوقعاً قدوم جيشنا، وأنه ما كان بإمكانه ايجاد أي انسان يفكر بأخذ موقف الدفاع في القدس، أو يتجرأ على البقاء فيها وتحمل الحصار هناك: ذلك أن المسلمين كانوا مرعوبين تجاه حادثة رجال جماعة عكا ، الذين لم يستطع صلاح الدين تقديم العون لهم، ولهذا عانوا إما من جعلهم طعمة للسيف ، أو من القائهم في السجن، مع أنه كان بإمكانه شراء حريتهم. وذهب ملك انكلترا الآن مع جيشه الى عسقلان، ولم يتوقف عن ترميم أسوارها، وذلك خلال الشتاء كله، مقابل جهد كبير ونفقات عالية ، فضلاً عن هذا قام بإعادة بناء بلدة الدارون الصغيرة، وبتحصينها، ورمم غزة ومنحها الى الداوية، الذين كانت ملكيتها عائدة اليهم من قبل ولقد منحهم إياها للاحتفاظ بها،

وحدث خلاف بين دوق بيرغندي والفرنسيون الـذين بقيوا معه من جهة وبين الانكليزمن جهـة أخرى، لذلك تركوهم وذهبوا الى صـور، وأمضوا الشتاء هناك مع المركيـز، وعندما اجتمع الجيشان في الربيـع التالي في بيت نوبة للقيـام بحصار القدس، تبدل الملك رتشـاد وتغير الى انسان آخر، فقد قال إنـه يتوجب عليه بكل الـوسائل العودة الى بلاده ثانيـة، مدعياً أن أخاه جون يطمـح بالمملكة ويتطلع لـلاستيلاء عليها، وقد جعـل من نفسه سيداً لجزء من بـلاده، وكان من جانب آخر محقـاً في ريبته في ملك فرنسـا، الذي افترق عنه وهـو غاضب، ولقـد كان يخشى أن يقـوم الملك فيليب في أثناء غيابه بغزو دوقية نـورماندي بالقوة، ولدى سماع المسلمين بهذه الأخبـار امتلأوا بـالسرور، وتشجعـوا وكأنهم استفـاقـوا من سبـات عميق، بينما اضطـربت أحوال عنـاصر شعبنا وحـزنوا وفقدوا كـل أمل في استرداد المدينة المقدسة، ولقد بكـوا وانتحبوا بسبب أن خاتمة تضحياتهم قد بترت، ورأوا أن جهودهـم قد بـدأت لكن لم تنته، وأنها وصلت الى لا شيء، ولـو أن ملـك انكلترا، قام قبيـل مغـادرتـه بـإخفاء نيتـه لبعـض الوقـت، لربما كان من الممكـن لنا الحصول على شروط أفضـل وسلام مشرف مع المسلمين، لكنه وهو الرجل العنيـد، كان على الرغم من تسببه بحدوث ضرر عظيم للمسيحيـة كلها ، متشوقاً ومتعجـلاً للمغادرة، ولهذا وافـق على الشروط التي عـرضهـا عليه صـلاح الديـن للهـدنة مهما كـان نوعهـا، ولم يثر أي اعتراض، كما لم يسبـب أية مصـاعب، وهكـذا قضت الشروط بارغام شعبنا على تخريب عسقلان، والـدارون وغزة، وقد تركوا لنا أمر الاحتفاظ بيـافا ، وببقية الساحل حتى عكـا، وبهذا أظهر المسلمون بشكل مـؤكد أنه عنـدما تكون أمـاكننا الحصينـة قد دُمرت، لـن نستطيع بعـد ذلك الـدفـاع عن المنطقـة السهليـة، وحمايتهـا ضدهـم، ولا سيما أيضاًبعـد ذهاب جيشنا وعودتـه الى الوطن، وكان بـالوقت نفسه مـركيز مونتفرات قـد قتل من قبل مسلمين كانـا تعمدا، وعملا لوقـت طويل في خـدمته في بيتـه، كما أن هنـري كـونت شـامبين كـان قـد تزوج مـن

ايزابيلا، أرملة كونراد، وذلك بناء على اقتراح ملك انكلترا، وقد بقي في الأرض المقدسة، وعندما كان ملك انكلترا في طريقه عائداً الى وطنه اعتقل وبات سجيناً في ألمانيا ، وقد احتفظ به الامبراطور حتى دفع فدية مقدارها مبلغ كبير من المال، وهكذا تمكن بعد صعوبة من الوصول الى انكلترا.

ومع أن الكونت هنري قد تزوج من الملكة وبات سيدًا لكل من عكا وصور، رفض أن يتوج ملكاً، لأنه كان مثل البقية متشوقاً للعودة الى الوطن ، ثم إنه بعدما أقام في الأرض لعدة سنوات، وعمل جميع الاستعدادات للعودة الى الوطن، سقط من احدى نوافذ بيته فوق حجارة الخندق العائد لمدينة عكا،فاندقت رقبته ومات، وقام الآن عموري ملك قبرص، الذي هو أخ لغي لوزغنان— وكان الآن متوفى— بالزواج من الملكة ايزابيلا، وهكذا تولى حكم وحكومة الأرض المقدسة خليفة للكونت السالف الذكر.

وكان المسلمون بعد مغادرة ملك انكلترا وبقية الحجاج، قادرون على الفور على اظهار مدى الرعب الذي أحاط بحال القلة المتبقية من المسيحيين مع بقاياهم في الأرض المقدسة وإيضاحه، لولا أن صلاح الدين قد مات، وبناء عليه انبعث الخلاف والتمزق فيما بينهم، الأمر الذي قاد الى خصام وحرب أهلية، مما كان له عظيم الفائدة بالنسبة للمسيحين، وانتزع أخو صلاح الدين من أبناء أخيه جميع ممالكهم باستثناء مملكة حلب فقط، وأثار بعمله هذا جميع المسلمين ضده، ولم يستطع شعبنا القيام بأي عمل ضده، كما أنه لم يتجرأ على محاولة ذلك: ولقد اعتقدوا أنه من الخير لهم العيش والحفاظ على امتلاكهم لأراضيهم الى جانب المسلمين في جميع الأحوال، مع أنهم تلقوا اهانات كثيرة من قبلهم، وكان بعض رجال المسلمين قد أبدوا استعدادهم لتسليمنا مدينة جبيل وحصنها مقابل رشوات تلقوها، وذلك بدون إعلام

السلطان، التي هي ملك له بحق الوراثة، وحدث مثل هذا مع مدينة بيروت وقلعتها، حيث تخلت عنها حاميتها المسلمة، فأعيدت الى المسيحية.

وأرسل الامبراطور الروماني هنري (السادس: ١١٩٠ — ١١٩٧) حشداً من الألمان الى الأرض المقدسة، وأمر رجاله بخرق الهدنة، وبناء عليه ألقوا الحصار على حصن يدعى تبنين قرب صور، وكانت حامية القلعة على استعداد للاستسلام شرط الإبقاء على حياة أفرادها، لكن الألمان أجلوا استسلام المكان لليلة واحدة، معتقدين أنه لا القلعة ولا حاميتها يمكن لهم النجاة من بين أيديهم، لكن حدث في اليوم التالي أن تجمع حشد لا يحصى من المسلمين للقيام بالتفريج عن القلعة، وهكذا تراجع الألمان في فوضى، وعندما اقتربوا من بيروت فر المسلمون الذين كانوا باقين فيها ، برعب، وتركوا المدينة والقلعة لهم، لكن عندما سمعوا أن سيدهم وامبراطورهم هنري قد مات (في صقلية، وخلفه فردريك الثاني) لم يقوموا بأية أعمال أخرى وعادوا مسرعين الى وطنهم.

وفي ظل هذه الأوضاع تشجع بعض قومنا بحضورهم، فتولوا تحصين يافا ضد المسلمين، لكن تمكن المسلمون بعد ذلك في وقت قصير، وبدون الكثير من المتاعب من الاستيلاء على القلعة التي بنوها ، وسووها بالأرض، وأسروا جميع الذين وجدوهم فيها ، وبناء عليه أعيد تجديد الهدنة،الأمر الذي وافق عليه المسلمون برغبة، لأن جميع مملكة القدس تقريباً كانت في أيديهم، وكانوا ممزقين ، ومتخاصمين بشكل حاد فيما بينهم، ولم يعد قومنا تواقين أبداً لخرق الهدنة في أية مناسبة مهما كان نوعها، لإنجاز حصار أي موقع حصين، أو لإعادة بناء أية قلعة مهدمة، وهكذا عندما جاء بعد وقت قصير بعض النبلاء من شامبين ومقاطعات فرنسا الأخرى، ووصلوا بحراً ، رفض قومنا خرق الهدنة، وذهبوا إلى انطاكية لخدمة أميرها، الذي كان آنذاك في حالة حرب،

لكنهم وقعوا فيها بين طرابلس وأنطاكية في أسر المسلمين، الذين حملوهم الى حلب، ولقد قام قومنا بخرق الهدنة مرتين بعد مغادرة الألمان السالفي الذكر: مرة عندما جاء بعض النبلاء من فرنسا، وأعني بذلك سيمون دي مونتفورت— وهو من أصل نبيل، وكان رجلاً تقياً، وجندياً جيداً مع أخيه غي، وبعض الآخرين الذين كان منهم كونتسه فلاندرز، التي تبعت زوجها(بلدوين) الذي تم (سنة١٢٠٤) تتويجه امبراطوراً على القسطنطينية ، والمرة الثانية، إثر وفاة الملك عموري وزوجته، حيث جرى استدعاء جون، كونت بريينBrienne لتسلم عرش القدس، فعبر البحر، وتزوج من وارثة المملكة، ابنة المركيز كونراد والملكة ايزابيلا، لكنهما أنجزا القليل، أو بالحري لم يفعلا شيئاً مفيداً، لأنهما لم يلقيا الحصار على أي مكان حصين، ولم يرمما أية قلعة مهدمة ، وكل ما فعلاه اقتصر على الدخول الى الأراضي الاسلامية وإحراق عدد قليل من القرى والاستيلاء على بعض الأسلاب.

وإثر تتويج جون المتقدم الذكر، وتعميده ملكاً قام المسلمون بتحصين جبل الطور ضدنا،وذلك من أجل إهانة المسيحية وإلحاق الضرر بها ، وأكثر من هذا بغية تضييق الخناق على مدينة عكا، وجدد رجال شعبنا هدنتهم مع المسلمين، وعاشوا في ظل الحزن والنحيب، مع كثير من المآسي والمظالم ، وطلبوا العون من عليين يوماً إثر يوم، وانتظروا الغفران والمدد من الرب، ومن الكنيسة الرومانية المقدسة .

هنا انتهى تاريخ القدس

رهبان تحت السلاح

(ملاحق كتاب الاسبتارية في الأرض المقدسة . تأليف إ . ج. كنغ)

الملحق أ
التنظيمات العسكرية الدينية

لما كانت التنظيمات العسكرية الدينية للعصور الوسطى قد ولدت من خلال الحروب التي لم تتوقف بين المسيحية والاسلام، كان من الطبيعي أن تنقسم الى مجموعتين متميزتين، وقد قامت أشكال تنظيمها جميعاً في جميع الأحوال على التنظيمات التي أرساها كل من الاسبتارية والداوية ،وهؤلاء هم :

١— الذين تأسسوا في سورية وهم : الاسبتارية ، والداوية ، وفرسان القديس لازاروس (لعازر)، وفرسان التيوتون، وفرسان القديس توما س لعكا، هذا ولا ينبغي أن يخلط بهم تنظيم فرسان الضريح المقدس، الذي أخذ اللون العسكري في القرن الخامس عشر فقط

٢— الذين تأسسوا في شبه الجزيرة الاسبانية ، وهم : فرسان قلعة رباح(كالاترافا Calatvava) وفرسان القديس جيمس أوف كومبو ستيلا compostella ، وفرسان القنطرة،وتنظيات فرسان المسيح، وفرسان سيدتنا أوف مونتيزا Monteza، والمجموعتان الأخيرتان قد نبعتا عن فرسان الداوية.

وهناك تنظيهان اسبانيان كانا أدنى أهمية ، وقد ذابا فيها بعد في التنظيات الأكبر،وهما : فرسان القديسة مريم لجبل البهجة، وقد تأسس سنة ١١٨٠ ، وصار تنظيمهم يعرف بعد ١١٩٨ باسم فرسان مونتفراك Montfrac، وقد اندمج في سنة ١٢٢١ في تنظيمهم فرسان قلعة رباح، والثاني هو تنظيم فرسان أرغون للقديس جورج أوف ألفاما

ALFAMA، وقد تـأسس في سنـة ١٢٠١، ثم اندمـج في تنظيم فـرسان مونتيزا في سنة١٣٩٩ .

والى جانـب هاتين المجموعتين الكبيرتين ، كـان هناك تنظيمان تـأسسا على شـواطـىء البلطيـق بقصـد شـن الحرب ضـد الـوثنيين الصقـالبـة (السـلاف) لشمالي شرقي أوروبـا ،وأولهما فرسـان السيـف في ليفونيـا -Li vonia وقد تأسس تنظيمهم سنـة ١٢٠١ من قبل البرت أسقف ريغا Riga، وقد اندمجوا في فـرسان التيوتون في سنـة ١٢٣٧، وقد ارتدوا رداءً أبيـض عليه سيـف أحمر ونجمـة، والتنظيم الثـاني هـو تنظيـم دوبرزيـن Dobrzinفي فيستولا vistula، وقـد أسسـه كـرستيان أسقـف بـروسيـا، وذلك بعـد وقت قصير مـن التنظيم الأول، وقد انـدمج فـرسانـه في سنة ١٢٣٥ في فرسان التيوتون.

١ — المجموعة السورية

١ — الاسبتارية :

٢ — الداوية :

ان تـاريخ هـذين التنظيمين متسـاوق ومتقارب كثيراً منـذ تأسيـس الداويـة في ١١١٨ حتى سنـة ١٣١٢، وهي سنـة سحقهما، ولذلـك لا يمكن فصلهما عـن بعضهما بعضاً، ولا يمكن كتابـة تاريخ للاسبتـارية دون تضمينـه خلاصـة كافيـة وافية عـن تاريـخ رفاقهـم وأندادهـم ، أي الداويـة ، ولهذا لا توجـد حاجـة للحديـث أكثر عنهما في هـذا الملحق، (فلقد تقدم الكثير من أخبارهما في الأجزاء المتقدمة من موسوعتنا).

٣— تنظيم القديس لازاروس (العازر)

توجد أصول تنظيم القديس لازاروس لدى الاسبتارية في القدس من أجل المجذومين، وهو تنظيم قديم جداً، وصار بعد استيلاء اللاتين على المدينة مثله مثل تنظيم مشفى القديس يوحنا رهبنه دينية نظامية، وكان هدف هذا التنظيم العناية بالمجذومين ، وقد أضاف أصحابه الى مؤسستهم فرعاً يضم أخوانية دينية، وأدخل لويس السابع هذا التنظيم الى فرنسا في سنة ١١٥٤، ومنحه قلعة بسويني Boginyقرب أورلينOrleans، وفي سنة ١٢٥٣ نقل مقدم التنظيم مركز قيادة رهبانيته من عكا الى فرنسا، وكان ذلك بموافقة القديس لويس التاسع، الذي عهد بحماية ميناء ايوس — مورت- Aigues mortes إليه، ومنحه بيتاً في باريس، غير أنه تبنى الآن أحكام وقوانين القديس أوغسطين، ومع انتقاله الى فرنسا، انتشر سريعاً في جميع أنحاء أوربا، حتى بات يمتلك مع منتصف القرن الرابع عشر ما يزيد على ثلاثمائة مؤسسة، وقمع البابا انوسنت الثامن في سنة ١٤٩٠، التنظيم وألغاه وحول ممتلكاته الى تنظيم القديس يوحنا، لكن مرسومه لم يتم تسلمه في فرنسا، ولم يكن له تأثير في تلك البلاد، وأعاد في سنة ١٥٦٥— البابا بيوس الرابع تأسيس التنظيم، وأكد امتيازاته القديمة، ودمجه في سنة ١٦٠٨ هنري الرابع ملك فرنسا، في تلك البلاد مع تنظيمه الجديدالذي اسمه فرسان سيدتنا سيدة جبل الكرمل، وقضي في فرنسا على التنظيم المدموج في أيام الثورة، وكان يمتلك في ذلك الوقت خمسة قادة عظام ومائة وأربعين قيادة أدنى ، وكان شعار فرسان القديس لازاروس عبارة عن صليب له ثماني نقاط (رؤوس) ملونة بالأخضر وقد رسم عليه قيامه لازاروس، وكان يتدلى بوساطة شريط أخضر ، أما شعار فرسان سيدتنا سيدة جبل الكرمل فكان أرجوانياً مزيناً بتمثال سيدتنا، ويتدلى أيضاً من شريط أرجواني ، ودمج التنظيمان

المندمجان الشعارين واللونين.

وفي إيطاليا ، تميز تاريخ فرسان القديس لازاروس تماماً عن تاريخ هذا التنظيم في فرنسا، وكانت بقايا التنظيم التي تركت في الأرض المقدسة قد استقرت أخيراً في نابل في سنة ١٣١١، وعدّ هذا الفرع وحده فيما بعد على أنه المنحدر الشرعي الوحيد للتنظيم الأصيل، وأضعفته تمزقاته الداخلية ومشاكله خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مع قمعه ثم إعادة تأسيسه، فتحول الى وضع هامشي، وفي سنة ١٥٧٣، اندمج هذا التنظيم في تنظيم سافوا لفرسان القديس موريس، الذي كان قد تأسس قبل سنوات من أجل الحماية ضد الكلفينيين Calvinists من جنيف، وكان دوق سافوا هو المقدم الأعلى لهذا التنظيم، فأمادوسAmadeus الثامن، دوق سافوا هو الذي أسس هذا التنظيم في سنة ١٤٣٤ ، وقد تولى خلفاؤه من بعده مقدمية هذا التنظيم ، مع أن بعضهم وصفه باللاعسكري، وأنه توقف فعلياً عندما اختير دوق سافوا ليكون بابا باسم فيلكس الخامس في سنة ١٤٣٩، وكان هدف التنظيم المندمج العناية بالمجذومين، كما كان الحال من قبل، والمشاركة في الأعمال الحربية ضد غير المسيحيين، وقد شاركت غلايينه في عدة حملات ضد الأتراك والأنواع الأخرى من القرصان، ومع نهاية القرن الثامن عشر فقد التنظيم سماته العسكرية ، وكان قبل زوال الملكية من ايطاليا موجهاً من قبل ملك ايطاليا للقيام بخدمات متميزة ، لا سيما الخدمات ذات الطبيعة الخيرية، وكرس دخل التنظيم كلياً لأعمال الاحسان، وكان شعاره صليب القديس موريس الأبيض وهو متوضع فوق الصليب الأخضر للقديس لازاروس متدلياً من شريط أخضر قاتم.

٤— *فرسان التيوتون*

يمكن العثور على أصل فرسان التيوتون في مشفى القديسة مريم

للألمان، الـذي تأسـس في القدس مـن قبل واحـد من حجـاج الألمان في سنة ١١٢٧، لصالـح أبناء بلاده، وفي أثناء حصـار عكا في سنة ١١٩٠، أسـس بعض التجـار مـن بريمـن Bremen،ولوبـك Lubeek، مشفـى ميـدانيـا مـن أجـل استخـدامـات الصليبيين الألمان، وقـام الآن الـرهبان الألمان الـذين طـردوا من القـدس بربـط أنفسهم بهذا المشفـى، وتحول هـؤلاء الاسبتـاريـة الألمان في آذار ١١٩٨، إلى تنظيـم عسكـري، قصد منـه أن يكون مكافئـاً ألمانيا لكل من الاسبتـارية والداويـة، اللذان كانا لاتينين بالدرجة الأولى،وقد ارتـدى هؤلاء أردية بيضاء عليها صلبان سـوداء، واتبعـوا أحكـام القـديـس أوغسطين، وكـان الاسـم الكـامـل والعنوان لهذا التنظيم الجديـد هو «فرسان التيـوتون لمشفى القديسـة مريم المقـدسة»، وكـان مسمـوحاً بنيـل العضـوية فيـه لـلألمان فقط، ووطـدوا أوضاعهـم في عكا، وفي سنة ١٢٢٧، بنـوا قلعتهم الكبرى ستـاركن بيرغ Starkenburgأو مونتفورت Montfort(القريـن) على الجانب الغـربي من تخوم الجليـل، وهـي قلعـة استولى عليهـا السلطـان بيبرس في سنة١٢٧١، وكان الامبراطور فردريك الثـاني قد جعل في سنة ١٢٢٦ من مقدم التيـوتون أميراً في امبراطـوريته، ومنـح التنظيم امتيـاز وضع النسر الامبراطـوري على أسلحته، وكـذلـك أهدى المقـدم خـاتماً ثميناً جـداً، جرت العادة بعرضه يوم تنصيب كل مقدم أعلى جديد.

وفي سنـة ١٢١١، دعـا الملـك أنـدرو الثاني ملـك هنغـاريـا فـرسـان التيوتون لمسـاعدته ضد جيرانه الـوثنيين من الكومان، ثـم طلب في سنة ١٢٢٨ أسقف بروسيـا مساعدتهم في حروبـه ضد الوثنية، الأمـر الذي نتج عنه دمجهم فيهـم لتنظيم دوبرزين dobrzinالذي كان قائماً آنذاك، وازدادت قوة هؤلاء الفـرسان بسرعة كبيرةعلى البلطيق حتـى أنهم في سنة ١٢٦٠، كانوا يحكمون كل ما بات يعرف فيما بعد باسم مقاطعتي شرقي بروسيـا وغربها، وحصلـوا أيضاً في سنـة ١٢٣٧ على ليفونيـا Livonia،

باتحادهم مع فرسان السيف، وقبل سنوات طويلة من فقدان الأرض المقدسة، أخذت اهتمامات فرسان التيوتون في مناطق البلطيق تحتل المقام الأول وتفضل على عملهم الأساسي في سورية، وعندما سقطت عكا جرى نقل ديرهم الى البندقية، وذلك لبضع سنوات فقط، ثم أسس هذا الدير نفسه في سنة ١٣٠٩ في مارينبيرغ Mrienburgعلى الفستولا، وهناك حكم المقدم الأعلى بمثابة حاكم اقليمي قوي، وكان تحت سلطانه مقدمين أدنى مرتبة في ليفونيا وألمانيا، وكان مقر الأخير في ميرنثيم mergentheimفي سوابيا

وأوقف تحول ليتوانيا الى المسيحية في القرن الرابع عشر الحروب الدينية ضد الوثنيين، وأنهى بذلك الهدف الحقيقي لفرسان التيوتون، وتلا ذلك نهضة سلافية كبيرة، ودمرت معركة تاننبيرغTannenbergالمأساوية في سنة ١٤١٠ سمعة الفرسان ، وجرى الاستيلاء على غربي بروسيا سنة ١٤٦٦ من قبل البولنديين، وتمّ فقدان مارينبيرغ، ومع ذلك استمر المقدم الأعلى يحكم شرقي بروسيا بمثابة تابع لملك بولاندا، وكانت عاصمته في كونسبيرغkonigsberg وفي سنة ١٥٢٦ تحول البرت أوف براند نبيرغBrandenburgالى البروستنتانية، ,وكان هو المقدم الحاكم، كما كان من اسرة هوهنزليرنHohenzollern،وجعل مقاطعاته علمانية، كما حولها الى دوقية وراثية، وبذلك توقف تنظيم فرسان التيوتون عن الوجود في شرقي بروسيا، وفي سنة ١٥٦١ حذا غوتهارد كتلر Ketteller Gotthardالذي كان مقدم ليفونيا ، حذو ألبرت أوف براندينبيرغ، وأصبح بروتستنتياً، وصار دوقاً وراثياً لـ «كورلاندGourlandå .

وانفصل في الوقت نفسه المقدم في المانيا عن المقدم الأعظم، عندما صار تابعاً بولندياً، وأخذ مكانه بمثابة أمير تابع للامبراطورية، وعندما صار ألبرت أوف براندينبيرغ بروتستنتياً ، جرى انتخاب وولتر فون كرونبيرغ Kronberg مقدم المانيا مقدماً أعظم للتنظيم، وصارت ميرنثيم

المقر، ووجهت الثورة الفرنسية الى فرسان التيوتون ضربة مميتة، حيث انتزعت منهم ممتلكاتهم على الراين ، وفي سنة ١٨٠٩، قمع التنظيم وألغي، ثم أعيد من قبل امبراطور النمسا في سنة ١٨٤٠، واستمر هذا التنظيم موجوداً حتى تفجر الحرب العالمية الأولى،بمثابة تنظيم فرساني نصف ديني،مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع أسرةهابسبورغ،وكان الدوق الأعظم وليم هو المقدم الأعظم حتى سنة ١٨٩٤،عندما خلفه الدوق الأعظم يوجين،الذي كان معاونه، وجرى في ٤ —كانون الثاني ١٩٢٦ انتخاب الموسنيور نوربيرت كلين مقدماً أعظم في مكان الدوق الأعظم يوجين الذي أقيل،وكان كلين أسقفاً معلماً للسين،ومن قبل أسقفاً لبرن، والآن وقد تذكر فرسان التيوتون هدفهم الأساسي،كرسوا أنفسهم تماماً لأعمال الإحسان المرتبطة بالمشافي،وخاصة بأعمال الاسعاف في أوقات الحرب،

٥—تنظيم القديس توماس في عكا:

تأسس تنظيم القديس توماس أكون— حسبما يعرف بالعادة— في عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة،وكان تنظيما انكليزياً محضاً،مثلما كان تنظيم فرسان التيوتون تنظيماً ألمانيا،فقد قام واحد من الكهنة الانكليز واسمه وليم،وكان شماساً لدى رالف ديسيتو،الذي كان عميد كاتدرائية القديس بولص،تنفيذا لعهد قطعه على نفسه ببناء بيعة ومقبرة في عكا من أجل الصليبيين الانكليز الذين قتلوا أثناء حصار عكا،وكرسها على اسم القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري،وتعاونت معه مجموعة صغيرة من الرجال الانكليز، وشكلوا من أنفسهم تنظيماً دينياً،صار وليم مقدمه،وكانت أهدافهم تأمين طقوس دفن مسيحيه للموتى من الصليبيين، والدفاع عن العقيدة المسيحية ، ولقى تأسيس التنظيم الجديد ترحيباً حاراً من قبل أسرة القديس توماس بكت ، وباتت أخته وختنه المؤسسين والممولين ، وصار مشفى القديس توماس أكون، المشفى الرئيس للتنظيم في انكلترا،وقد بني في لندن في موقع البيت التي كان

في آيونمنرلين Iuonmongerحيث كان رئيس الأساقفة الشهيد قد ولد، وكان هذا التنظيم دوماً صغيراً جداً، ولم يكن عدد الفرسان فيه كبيراً، ومن المؤكد أنه كان دوماً فقيراً، وقد امتلك هؤلاء الفرسان بعض الممتلكات في يوركشير، ومدلسكس، وسري، وايرلاندا، وفي بعض البلدان الأجنبية، ونعلم هذا من أوصاف مقدمهم، الذي وصف على أنه«مقدم جميع فرسان القديس توماس الشهيد، في مملكة قبرص، وأبوليا، وصقلية، وكالبيرا، وبرونودوسيوم Brundusiun،وانكلترا، وفلاندرز، وبرابانت، وسكوتلندا، وويلز، وايرلندا، وكورنول»، وقام في سنة ١٢٣١ بطرس دي روشيRoches،أسقف ونشستر، وكان وقتذاك في فلسطين، ببناء كنيسة جديدة للتنظيم، ووضعها تحت اشراف الداوية، وترك لها هبة قدرها خمسمائة مارك، أودعها في وصيته، وأسهم فرسان القديس توماس بدور فعال في الدفاع عن عكا، وإثرفقدان الأرض المقدسة، تمركزوا في نيقوسيا في قبرص، حيث عرفت كنيستهم باسم كنيسة «نيقولا الانكليزي»، وهي ما تزال قائمة، وتستخدم بمثابة مخزن للحبوب ، ولابد أن قمع الداوية والغاء تنظيمهم قد وجه ضربة قاصمة لتنظيم القديس توماس، وذلك للعلاقة الوشيجة لفرسان القديس توماس مع الداوية، ومنذ ذلك الحين صار بيتهم في لندن، أي مشفى القديس توماس أكون مشفى عادياً حسب أحكام القديس أوغسطين، وانتقل اثناء حقبة المواصلات الدينية الى أيدي شركة ميرسيرز Mercers وسمعنا أنه في سنة ١٣٥٧ أن رجلاً اسمه رتشارد أوف تكهل Tickhill قد قبل في تنظيم كنيسة القديس نيقولا الانكليزي، لكن لابد أن التنظيم كان قد اختفى من الوجود قبل سنوات طوال، ولقد اتبع فرسان القديس توماس أحكام القديس أوغسطين، وارتدى أحدهم عباءة بيضاء عليها صلبان حمراء مزينة بما يشبه الصدفة من الفضة، لتمييزها عن عباءة الداوية .

٦— *تنظيم الضريح المقدس:*

لم يصبح هـذا التنظيم تنظيماً عسكرياً إلاّ بعـد مدة طويلة مـن فقدان الأرض المقدسـة،ثم إنه لم يحتـوقط على رهبـان عسكريين مثل الاسبتـارية والداوية، وكانت قوانين تنظيم الضريـح المقدس قوانين أخوية تسير وفق أحكام القديس أوغسطين،وقد تأسس مـن قبل غودفري دي بوليون،وكان رئيـس رهبان هـذا التنظيـم هـو بطريـرك القـدس،الـذي تشاركـوا معـه وتقـاسمـوا ممتلكـات الضريـح المقــدس،وبسرعــة أصبحـوا واسعـي الشعبية،فتلقـوا هبات هامـة من الأراضي والبيـوت في كل بلد مـن بلدان أوربا، لابل حتـى أنهم حاصصوا الاسبتارية والـداوية في الأعطية الشهيرة لألفونسو صاحب أراغون، ودمج في سنـة ١٤٥٩ البابا بيوس الثاني هذه الرهبانيـة مع رهبانية عسكـرية جديدة حملـت اسم«تنظيم سيدتنـا لبيت لحم»،ودمجها في سنـة ١٤٨٩ البابـا انوسنت الثـامن مـع تنظيم القـديس يوحنـا،الذي مـايزال مقدمـوه يحملون حتـى اليوم الحالي اللقـب الاضافي التالي:« مقدم التنظيم العسكري لضريح ربنا المقدس»، لكن مع هذا قام البـــابـــا الاسكنـــدر الســـادس،دونما نقــض لأعمال الـــدمـــج المتقدمـة،وبغيةتشجيع الحجاج الى الأرض المقـدسة،فنظم قوانين رهبـانية الضريح المقدس، بحيث غدت رهبانية عسكرية،واحتفظ لنفسه ولخلفائه بمنصـب المقـدم الأعظم،وأوكـل البـابـوات دومـاً حق منـح التنظيـم الى «منظمة الفرنسيسكان لحماية الأرض المقدسـة»،وهو حق جرى تحويله الى البطريرك الـلاتيني،عندما قام البـابابيوس التاسع في سنـة ١٨٤٧،بإعادة تأسيـس بطركيـة القدس،وجرى الاعتراف رسميـاً برهبانيـة تنظيم فـرسان الضريح المقـدس من قبـل البابابيـوس التاسع في ٢٤ كـانون الثـاني عام ١٨٦٨، ومن قبل البابابيوس العاشر في ٣— أيار ١٩٠٧،على أساس أن البابـا هوالمقـدم الأعلى،والبطريرك الـلاتيني هو المقـدم المساعـد للمقدم الأعلى لـلأرض المقـدسة،وكـان الشعـار هـو صليب القـدس الأحمر،مـع

صلبان لاتينية متوضعة في الزوايا،وهو معلق بوساطة شريط أسود.

وينبغي عدم مزج هذا التنظيم مع التنظيم الفرنسي لإعمار الضريح المقدس، الذي تأسس من قبل لويس السابع في سنة ١١٤٩،وكان يحتوي على عشرين راهباً ،وقد عهد إليهم القديس لويس التاسع في سنة ١٢٥٤ بأمور بيعة القديسين مع آثارها المقدسة،وقد أزيلوا من الوجود بوساطة الثورة الفرنسية،وأعاد لويس الثامن عشر تنظيم الضريح المقدس في فرنسا مع تنظيم الإعمار، ودمج التنظيمان فيما بات فعلياً تنظيماً جديداً،لكنهما قمعا معا وأزيلا في سنة ١٨٢٣ بفضل نشاط وفعالية تنظيم الفرنسيسكان.

٢ — *المجموعة الإيبيرية*

١ — *فرسان أفيز* Aviz

هو التنظيم البرتغالي للقديس بندكت أوف أفيز،تأسس بالأصل من قبل عصابة من المحاربين، الذين كرسواأنفسهم في سنة ١١٤٧ لاتباع الملك ألفونسو الأول في حروبه ضد المسلمين، لكن دون أخذ أية تعهدات دينية،لكنهم تحولوا في سنة ١١٦٢ الى تنظيم ديني كامل، وقد اتبعوا الأحكام السسترشيانية،وقد عرفوا أولاً باسم فرسان يابرة Evora، ثم بعد ذلك باسم فرسان أفيز، نسبة الى حصنهم الذي قام على الحدود الاسلامية، وهو الذي اتخذ مقراً للتنظيم، ونقل فرسان قلعة رباح(كالاترافا Calatrava) في سنة ١٢١٢ ممتلكاتهم في البرتغال الى فرسان أفيز، على شرط أن يكون مقدمهم الزائر لدى التنظيم الأخير، لكن فرسان أفيز مالوا نحو عدم مراعاة هذا الشرط،مما نجم عنه خلاف حاد وطويل بين التنظيمين، وفقط وجد حلاً في القرن الخامس عشر،عندما قرر مجمع بازل Basle وجوب التزام فرسان أفيز باتفاقيتهما، وفي النهاية تولى البابوات حق تسمية المقدم الأعظم للتنظيم حتى سنة

١٥٤٠، عندما دمج البابا بولص الثالث المقدمية بالتاج البرتغالي، وفي سنة ١٧٨٩ صار التنظيم علمانيا، له سمة عسكرية فقط، ونظم في أربع طبقات، وشعار هذا التنظيم صليب أخضر ليلكي، معلق بوساطة شريط أخضر.

٢—فرسان (كالاترافا)قلعة رباح

قام الملك شانجة الثالث ملك كاستيلا في سنة ١١٥٨، بإهداء قلعة رباح وهي مدينة حدودية تقع الى الجنوب من طليطلة الى دير الرهبان السسترشيان في فيترو Fitero في نافار، وذلك بناء على اقتراح واحد من رهبانها، واسمه ديغو فيلازقويز Diego velaś guezعلى شرط أن يتولوا حمايتها، وجنّد راعي الدير ريموند عصابة من الفرسان لتتولى الدفاع عنها، وإثر موته التمسوا من البابا أن يعترف بهم بمثابة تنظيم ديني عسكري،وتمت الاستجابة لهذا الالتماس من قبل البابا الاسكندر الثالث في سنة ١١٦٤، واتبع فرسان قلعة رباح الأحكام السسترشيانية، وقد ارتدوا أردية بيضاء عليها صلبان حمراء، وبفضل أصلهم، كانوا عندما يزورون سيتيو Citeaux ،لم يكونوا يعاملون مثل الغرباء الآخرين،بل كانوا يقبلون داخل الدير بمثابة أخوة من الرهبان السسترشيان، وعانى فرسان قلعة رباح من خسائر فادحة أثناء معركة الأرك في سنة ١١٩٥،التي حقق فيها الموحدون نصراً عظيماً،وبعد عامين، استولى الموحدون على قلعة رباح، حيث قاموا بقتل جميع أعضاء التنظيم الذين وجدوهم، وصارت قلعة شلبطرة (سالفاتيرا Salvatierra) مقراً للتنظيم،حتى أعيد الاستيلاء على قلعة رباح واستردت من الموحدين في ١٢١٢ .

اندمج في سنة ١٢٢١،تنظيم مونتفراك Montfracالصغير— وهو ماكان قد تبقى من التنظيم الديني العسكري للقديسة مريم لجبل البهجة— مع تنظيم قلعة رباح، وتولى عملية الدمج القديس فردناند

ملك كاستيلا، وكان التنظيم الأصيل قد تأسس بموجب مرسوم صدر عن البابا الاسكندر الثالث في ١٥— أيار سنة ١١٨٠، وكان شعاره صليباً مؤلفاً من اللونين الأحمر والأبيض، وكان أول مقدم له كونت اسمه رودريو Rodriguez، وكان من قبل فارساً من فرسان سانتياغو Santiago، وقد اتبع الأحكام السسترشيانية، وامتلك التنظيم بيتا مع كنيسة في القدس، وكان معهوداً إليه بالدفاع عن برج الفتيات مع ثلاثة أبراج أخرى في عسقلان،وكان قد وهب ممتلكات قيمة في اسبانيا، وذلك مع مركزه في الفمبرا Alfambra ،وفي سنة ١١٩٨ سلمت الأراضي العائدة للتنظيم في أراغون الى الداوية، وجرى تأكيد هذا التسليم في مرسوم صدر عن البابا انوسنت الثالث في ٢٤— تشرين أول ١١٩٨، وأصبح بعد هذا التاريخ فرسان هذا التنظيم في كاستيلا يعرفون باسم فرسان رهبانية مونتفراك.

وفي القرن السابع عشر أصبح فرسان قلعة رباح متورطين في الحروب الأهلية لبلادهم، وكانت هناك خلافات حول انتخاب المقدمين، الذي كان له أثره الحاسم على سمعة تنظيمهم،ونالوا أثناء الحروب ضد المسلمين وكسبوا شهرة واسعة لأنفسهم،ومن أجل تجنب المؤامرات والخلافات أثناءانتخاب المقدمين أعطى البابا نفسه الحق في تسمية المقدمين الكبار، وفي سنة١٤٨٩،استحوذ الملك فردناند الكاثوليكي على المقدمية لنفسه،التي منحت أخيراً للتاج الاسباني في سنة ١٥٢٣، وأعطي الفرسان حق الزواج في سنة ١٥٤٠، وصار التنظيم في سنة ١٨٠٨ تنظيماً عسكرياً محضاً، وقد أعيد تنظيمه في سنة ١٨٧٤،وله طبقة واحدة،وشعاره صليب أخضر ليلكي،معلق بوساطة شريط أخضر.

٣— *فرسان القديس جيمس أوف كومبو ستيلا* Compostella

كان هذا الموقع واحداً من أهم المواقع التي قصدها الحجاج في العصور الوسطى،حيث كان مزار القديس جيمس أوف كومبو ستيلا في

غاليشيا Galicia،فهناك يفترض أن جسد الحواري القديس جيمس بن زبدي قد دفن ،وكان الحج الى هذا المزار هاماً وشعبياً،وقد تفوق بأولويته على جميع المزارات الأخرى، باستثناء :روما والقدس،وكان دوما مفضلاً بشكل خاص من قبل الانكليز،وكانت الطرق في الأزمان المبكرة مليئة بقطاع الطرق،كما كانت عرضة للغارات من قبل المسلمين،ونتيجة لهذا قرر ثلاثون من الفرسان،الذين بلا شك قد تأثروا بالمثل الذي ضربه الداوية في الأرض المقدسة،أن يكرسوا أنفسهم للواجب المقدس القاضي بحماية الحجاج وهم على طريقهم الى كومبو ستيلا،وشكلوا أنفسهم أخيراً في تنظيم ديني له أحكامه، وفي سنة ١١٧٥(*)،تلقوا قانوناً وتنظيماً من البابا الاسكندر الثالث،وباتوا يعرفون باسم فرسان القديس جيمس أوف كومبوستيلا،أو فرسان السيف للقديس جيمس،لكنهم شهروا أكثر باسمهم بالصياغة الاسبانية، وهو فرسان سانتاغيو، وحصل هذا التنظيم على احترام كبير خلال الحروب ضد المسلمين،وبات ثرياً الى ابعد الحدود، وأخذت أحكامه القديمة بالتغيير لتلبية التبدلات التي تطلبتها الأيام،وتسلم الفرسان في سنة ١٣٩٦ الأذن بالزواج،وفي سنة ١٤٩٣،استحوذ الملك فردناند الكاثوليكي على المقدمية،وفي١٥٢٢ منحت المقدمية بشكل دائم الى التاج الاسباني من قبل البابا أدريان السادس ،وفي هذه الأيام يتألف التنظيم من ثلاث طبقات، وشعاره سيف له قراب ليلكي، هوسيف القديس جيمس، ويتدلى من شريط أحمر.

وتأسس فرع لهذا التنظيم في البرتغال في تاريخ مبكر، وكان الحديث يتناول بشكل عام تنظيم سيف القديس جيمس أكثر من كومبو ستيلا،وجرى تحرير فرسان البرتغال من إشراف مقدم كومبوستيلا، من

*—تبعاً لإحدى الروايات أوجد الملك راميرو الثاني صاحب ليون تنظيم فرسان القديس جيمس أوف كومبوستيلا في القرن العاشر،تخليداً لذكرى انتصار له على المسلمين.

قبل البابا نيقولا الرابع،وكان ذلك في نهاية القرن الثالث عشر، وبات هؤلاء يقفون مستقلين عن سواهم،وتحول تنظيمهم الى الوضع العلماني سنة١٧٨٩، وفي سنة ١٨٦٢ بات تنظيماً يهتم بالعلوم،والآداب،والفنون،يتكون من خمس طبقات،وشعاره سيف له قراب ليلكي هو سيف القديس جيمس،ومزين بخيوط حمراء ومذهبة،ويتدلى من شريط أرجواني.

ويذكر أن التنظيمات البرتغالية الثلاثة:تنظيم البرج،وتنظيم سيف القديس بندكت أوف أفيز، وتنظيم سيف القديس جيمس قد منحوا شعاراً واحداً في سنة ١٧٨٩، حيث وحد فيها بين الصلبان الثلاثة المنفصلة عن بعضها في ميدالية ذهبية كبيرة، وصار الشريط أحمر وأخضر وأرجواني، ومن أجل فصل الصلبان أضيف قلب مقدس أحمر وصليب أبيض صغير.

٤— *فرسان القنطرة:*

قام في سنة ١١٦٥ أخوان هما:دون سواريز Don Suarez ،ودون غومس دي بارنتوس Gomez de Barrientos ببناء قلعة القديس يوليان ديل بيريرو Pereyroعلى حدود ليون،لحماية المنطقة من غارات المسلمين،وشكلوا جماعة من الفرسان للدفاع عنها،وقد منحت هذه الجماعة نظاماً من قبل رئيس أساقفة سلامنكا Salamanca،وتأكد في سنة ١١٧٧ تشكيل الرهبانية بمرسوم صدر عن البابا الاسكندر الثالث،الذي وضعها تحت أحكام رهبانية القديس بندكت، ومنحها الإعفاء من سلطات الأساقفةوارتدى كل واحد من الفرسان رداءً أبيض مع صليب أخضر ،واستولى في سنة١٢٠٠ الملك ألفونسو التاسع، ملك ليون—المعروف بلقبه الكريه:Slobberer—على القنطرة القائمة على نهر تاجة، وانتزعها من المسلمين، ومنحها الى فرسان قلعة رباح،شريطة أن يجعلوها المركز الرئيسي لهم ولتنظيمهم في ليون،غير أن فرسان قلعة

رباح،وجـدوها بعيدة جـداً عن ديرهـم،فتنازلوا عنهـا في سنة ١٢١٣ الى فرسـان القديس يـوليان ديل بيريـرو،شريطة قيـام التنظيمين بالاتحاد، ولم يكن الاتحاد بالفعـل مؤثراً، وكل مـا في الأمر أنه منـذ هذا التاريـخ بات فرسان القديس يوليان ديل بيريرو يعـرفون باسم فرسان القنطرةولقد بقيوا لبعض الوقت،والى حـد ما خاضعين لفرسان قلعـة رباح،لكنهم أكدوا في النهـاية استقـلالهم، وانتخبـوا مقدمـاً خاصـاً بهم،وأدى فـرسان القنطـرة واجبهم كاملاً في الحروب ضد المسلمين،وازدادت ثـروتهم وتعاظم نفوذهم الى حد بـاتوا فيه ليسـوا أقل قوة من الملك نفسـه،غير أن تنظيمهم دخل في خـلال القـرن الـرابع عشر حقبـة من الانحـدار،وشـارك الفـرسـان في الحروب الأهليـة لتلك الأيـام، وكـانـت هناك خـلافـات مستمـرة حـول المقدمية،التي غالباً مانجم عنها مؤامرات من قبل المقدمين المعارضين،ولا تتحدث أخبار التنظيم إلا عن النزاعـات وسفك الدماء،وفي سنة ١٤٩٥ أضفـي منصب المقـدم الأعظم على التـاج،من قبل الملـك فـردنـانـد الكـاثـوليكي،وأكـد هـذه الترتيبـات البـابا الاسكنـدر السـادس،وبـات الاضفاء دائميـاً في سنة ١٥٢٣ بأمر من البـابا أدريان السـادس،وفي سنة ١٥٤٠ منح البـابا بـولص الثالـث الفرسان أذنـا بالـزواج، مع أنـه حرم الزواج الثاني،وتغيرت التعهدات الثلاثة:بالاحسان،والطاعة،والفقر الى :

Obedientiea,Castitas con jugalis and conversio morum

وعندما في سنـة ١٨٠٨ صار جوزف بونـابرت ملكاً على اسبانيـا،حرم التنظيم من مـوارده، وجزء فقط مـن الفرسان كـانوا قادريـن على التعافي عندما أعيد فردناند السـابع الى عرشه في سنة ١٨١٤،وتوقف التنظيم عن كـونه تنظيما روحيـا في سنـة ١٨٣٥، والتنظيم الآن هـو تنظيم عسكـري مؤلف من طبقة واحدة، شعـاره هو صليب أحمر ليلكي،يتدلى من شريط أحمر.

٥- تنظيم المسيح:

انحدر تنظيم المسيح مباشرة من الداوية،ومن الممكن القول إنه تنظيم الداوية تحت اسم آخر،وعندما جرى قمع الداوية في سنة ١٣١٢،رفض الملك دنس ملك البرتغال بشكل صريح تصديق تهمة الارتداد التي اتهموا بها،كما رفض الانضمام الى أعمال تعذيبهم،ووضعهم تحت حمايته الملكية، لكن كان من غير الممكن بالنسبة للبابوية السماح بتحدي سلطاتها هكذا بشكل علني مكشوف،ولكي يواجه دنس هذه المشكلة توصل في سنة ١٣١٨ الى تسوية،بتأسيس تنظيم عسكري ديني جديد،أطلق عليه اسم تنظيم المسيح،والى هذا التنظيم نقل الداوية ومعهم ممتلكاتهم،وأكد البابا يوحنا الثاني والعشرين عملية التأسيس هذه للتنظيم الجديد،واحتفظ لنفسه بحق الانتساب إليه،وحول إليه الفرسان الداوية الذين وجدوا ضمن ممتلكاته والذين كانوا ذوي أخلاق حميدة وسمعة جيدة،وتألف هذا التنظيم من طبقة واحدة،وكان شعاره صليب أحمر طويل مع نهايات مسطحة طويلة تحمل صليباً صغيراً لونه أبيض، وهو معلق بوساطة شريط أحمر.

وأصبح تنظيم المسيح في البرتغال تنظيماً وطنياً مستقلاً،وكان ذلك سنة ١٥٢٢، وتميز تماماً عن التنظيم البابوي، وأضفي في سنة ١٥٤٠ منصب المقدم الأعلى على التاج البرتغالي، وتوقف في سنة ١٧٨٩ عن كونه تنظيماً روحياً، وبات علمانياً تماماً،مع استثناء واحد،هو وجوب انتماء أعضائه الى عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية،وقد جرى تنظيمه في طبقات ثلاث،ويمتلك الآن شعاراً يختلف عن شعار التنظيم البابوي،وهذا الشعار هو صليب أزرق مطرز فوق إكليل من الغار الأخضر،وتحتوي الميدالية البيضاء القائمة في الوسط على الصليب الأبيض والأحمر القديم،لكن الشكل البابوي القديم يرتدى مع ياقة من قبل الصلبان الأعظم للتنظيم.

٦ — *تنظيم سيدتنا أوف مونتيزا* Monteza :

انحدر تنظيم مونتيـزا مباشرة من الداوية،حسب الطـريقة نفسها التي انحدر فيهـا تنظيم المسيح،فقد حـذا الملك جيمس الثاني،ملـك أراغون، حـذو الملك دنـس،ملك البرتغـال،فأوجـد في ٢٢— تموز ١٣١٩ تنظيماً دينياً عسكـرياً جـديداً،دعاه بـاسم تنظيم سيدتنـا أوف مونتيـزا،وإلى هذا التنظيم حول الـداوية مع ممتلكاتهم في بلنسية،وكان مقـر التنظيم الجديد في مونتيزا، ومثله مثل الداوية تبع أحكـام رهبانية القديس بندكت، وتبنى ارتـداء العبـاءة البيضـاء والصليـب الأحمر السـاذج،العـائد لأسـلافـه واستـوعب في داخلـه في سنة ١٣٩٩ التنظيـم الدينـي العسكري الأقـدم منه،المعروف بـاسم تنظيم القديس جـورج أوف ألفاما Alfama، الذي كان قـد تأسس سنة ١٢٠١ من قبـل الملك بطرس الثاني،ملـك أراغون، وكان فـرسان مونتيـزا آخر فـرسان التنظيمات العسكريـة الاسبانيةالـذين فقدوا استقلالهم،وقـد منح هؤلاء الفرسان الأذن بـالزواج في سنة ١٥٧٢، وفي سنـة ١٥٨٧ أضفيـت المقـدميـة على التـاج الاسبـاني،وكـان شريـط التنظيم أحمر قانيء.

الملحق ب
تاريخ وفيات المقدمين

(ملاحظة— إن هذا التاريخ هو إطراء رسمي لمقدمي الاسبتارية، وهو موجود على رأس معظم المخطوطات القديمة حول أنظمة وأحكام الاسبتارية، ولعله صنف فيها بين ١٣٥٣ و١٣٥٥، وذلك لأنه اختتم بهذه الكلمات: «بعد مقدمية بطرس كورنلين Cornelian » وهو لم يعط تفاصيل حوله، وتم التقليل أحياناً من قيمة هذا السجل الذي هو الرواية المدونة الأقدم حول الاسبتارية، بسبب أخطاء الناسخ، الذي شوش تسلسل الأسماء، وعزا إلى بعض المقدمين أوصافاً، من الواضح أنها عائدة إلى آخرين، غير أن الأخطاء بشكل عام هي بديهية، ومن السهل تقويمها بدون جهد كبير؛ وقد نشر هذا التاريخ باللاتينية في:

Dygdale's Monasticon, Vol VI, part 2 pp 796 _ 797

— كان المقدم الأول هو جيرارد، الذي كان رئيس مشفى الفقراء في القدس، وقد كان موجوداً هناك عندما استولى غودفري دي بوليون مع الحجاج المسيحيين الآخرين على المدينة.

٢— وكان بعده ريموند دوبوي، الذي كان الراهب الأول في المشفى، وهو الذي نظم الأحكام وأسسها وذلك مع الأنظمة، وجعلهم يتأكدون بوساطة البابايوجين (الثالث، ١١٤٥ — ١١٥٣)، وقد فقدوا في القدس.

٣— وكان المقدم من بعده يوغردي بالن Auger de Ballen ، وكان رجلاً يفيض بالتقوى، وعظيم الاستقامة.

٤— وكـان المقـدم مـن بعـده أرنـولـد دي كـومـب Arnold de Comps، وكان رجـلاً عالي المقاصـد، وفي ظله إزدادت الرهبـانية في كل من عدد الرهبان وفي حجم الممتلكات، وقد صنع تنظيمات جيدة، الخ..

٥— وكان من بعده غلبرت أسيلي Gilbert Assilli هو المقدم، وكان رجلاً متقدماً جـداً بالسن، وحصـل خلال الوقـت القصير الذي عـاشه على كثير من المنافع للرهبانية، وخدم ساداتنا المرضى بلطف عظيم (١).

٦— وكان المقـدم من بعده هو كـاست Caste ، وكان رجـلاً مليئاً بالفضـائل ذات العمق الانسـاني، ونافعاً جـداً، ولطيفاً في قلبـه، وبفضل معامـلاته المستقيمة، وسمعتـه الطيبة، جلب منافـع عظيمة لرهبـانيتنا في جميع أنحاء العالم.

٧— وكـان جـوبـرت Jobert ، هـو المقـدم من بعـده، وقـد وضـع أحكاماً جيدة من أجل خدمة (الـرب والكنيسة، ومن أجل خدمة مرضى بلادنا).

٨— وكان مـن بعده غيوفـري دي دنسون (٢) Dinson ، هو المقدم وهـو الذي استـولى على الحصن (حصـن الأكراد) والمرقـب، وكان رجـلاً جيـداً، وتقياً، وصـاحب تفكير رفيـع، وقد أحـب أخوانـه كثيراً، وكـذلك ساداتنا المرضى.

١— من الـواضح أن الـوصف الذي أعطـي لغلبرت دي أسيلي، يعود إلى سلفـه آرنولـد دي كومـب، بسبب الاشارة إلى سنـه المتقدم، وإلى قصر مـدة حكمه، وبناء عليـه إن الوصـف الذي أعطي لأرنولد دي كومب يعود تماماً إلى غلبرت دي أسيلي.

٢— ينبغي قـراءة الاسم: روجر دي مـولين، الذي تنطبق عليـه الأوصاف، فهو الـذي امتلك المرقـب في سنة ١١٨٦، لكـن ليس بالقوة، بيـد أن حصن الأكراد كان متملكـاً قبله بزمـن طويل، ومن الـواضح أن الوصف الـذي سيرد في الفقرة العاشرة بعـد الحديث عن آرمنغود داب هـو جزء من الفقـرة الثامنـة، خرج من مكـانه الصحيح بطريقة مـا، لأن البابـا لوشيـوس الثالـث كان في السلطة من ١١٨١ حتى ١١٨٥.

٩— وكـان مـن بعـده آرمنغـود داب Armengaud Daps ، هـو المقدم، ولقد عذب كثيراً من قبـل أعداء الإيمان (١)، وفقد المسيحيون في أيامه القدس، وقد عاش أمداً قصيراً بعد ذلك.

١٠— وكان مـن بعده روجـر دي مولين Molins ، هو المقـدم، وهو الـذي حصل على تثبيت لـلأحكام من البـابـا لوشيـوس، وأرسى قواعـد الأنظمة الجيدة.

١١— وكان من بعده غـارنيير دي نابلس Garnier de Nablus، هو المقـدم، وقد أظهر شجـاعة كبيرة في أعمال القتال ضـد أعداء الإيمان (٢)، وحافظ بنشاط على المنح المعطاة للرهبـانية، وحكم الرهبان وقادهم بإباء.

١٢— وكـان من بعده ألفـونسـو البرتغالي هـو المقدم، وفي أيـامـه تم ترسيـخ العادات الجيدة التي كـان قد وضعها المقـدم روجر وتأكيـدها في المرقب، وقـد عمـل نظماً جيـدة، وحـدث أنـه أصـدر بعض الأوامـر إلى رهبـانيته، ولأن الـرهبـانية لم تطعـه، استقـال من منصبـه، ورمى بخـاتمه، فتناول الخاتم أعيان الفـرسان، وقاموا بانتخاب مقـدم آخر، ثم إنه انطلق عائداً إلى البرتغال، وقد سقي السم من قبل أبناء جلدته، الخ ...

١٣— وكـان من بعده غيـوفري لى رات هـو المقدم، وقـد كان رجـلاً مستقيماً جداً، وقد انـزعج كثيراً بسبب استقالة المقدم ألفونسـو، لأنه كان

١—يفترض أن هذا يعني أنه كان في وقت من الأوقات أسير حرب لدى المسلمين، مالم تكن الاشارة هنا إلى أنه أرغم على الاستقالة من منصبه كمقدم.

٢— لعله ينبغي علينا أن نقحم الكلمات التـالية من الفقرة الثامنة: «وكان مـن بعده غيوفري دي دنسون، هـو المقدم»، ومن ثـم فإن الجملة التـالية تكـون مرتبطة بـه، وذلك أنـه من الصعب ربطهـا بغارنيير دي نـابلس، الـذي انحصرت مقدميتـه بالأعمال العسكـرية فقـط، وهي الأعمال المتعلقة بالحملة الصليبية الثالثة.

يقـدره كثيراً بسبب أخـلاقه الحميـدة، وفي هـذه الآونة قـدمت أعطيـات كثيرة لرهبانيتنا في مملكة فرنسا.

١٤— وكان من بعـده غارن دي مونتـاغيو Garinde Montagu ، هـو المقدم، وكـان في شخصـه قويـاً ونشيطاً وحـامياً متيقظاً لممتلكـات الرهبنة، وقد عاش لمدة قصيرة فقط (١).

١٥— وكان من بعده بـرتراند دي جكسي Gexi ، (اقرأ تكسي) هو المقدم، وكـان صاحـب سمعة مستقيمـة جداً، وتقيـاً، وخلوقـاً، ولقد زاد ذلك كثيراً، وقـدم للرهبانيـة في سوريـة كثيراً من الممتلكات، وكـان غيوراً جداً في تأدية واجباته نحو ساداتنا المرضى.

١٦— وكـان من بعـده غـوريـن Guerin ، هـو المقـدم، وقـد كـان اقتصادياً مـدبراً إلى أبعد الحدود، ومتواضعـاً لايحب الأبهة والتفاخر، وجمع أموالاً كثيرة، لأنه حافظ على السلم مع أعدائه.

١٧— وكان من بعده بيرتراند دي كون cons ، هو المقدم، وقد تمكن باستقـامته وتصريفـه الأمور بحكمة من إعـادة اخضاع كثير من المنـاطق الاسلامية ووضعها تحت سيطرة الرهبـانية، واستطاع بفضل ثروته العظيمة اعـادة كثيرة من الامتيـازات لصـالح الـرهبنـة وزيـادتها، وقـام بكثير من التنازلات لصـالح أخوانه الرهبـان الفرسان، وأعلى شأنهم داخل الـرهبنة، وزاد منّ مكانتهم، وجعلهم أعلى من بقية أنـواع الفرسان، وذلك أكثر مما فعله أي مقدم آخر.

١٨— وكان من بعده بطرس دي فيلا بريدا Villa Brida هو المقدم، وقـد مارس نفـوذاً عظيماً بـاستقـامته، وبـأخلاقـه الحميـدة، وحـافظ على

١— الوصف الذي أعطي هنا إلى غارن دي مونتاغيو، واضح تمام الوضوح أنه يعود إلى سلفه غيوفـري لى رات، بسبب الحديث عن أن حكمه كـان قصيراً، وعلى هذا إن الوصـف الذي أعطي إلى غيوفري لى رات، أحق أن يعطى إلى غارن دي مونتاغيو.

النظـام بكل دقـة، وجرى نتيجـة لجهـوده تأسيـس ثلاثـة فـروع للرهبنـة والحصول على كثير من الممتلكات.

١٩— وكان من بعده وليم دي كاستلو نوفو Castello Novo ، هو المقدم، وكان نموذجاً بالاستقـامة الخلقية، وقام بأعمال شجاعة كثيرة، وفي أيامه استأنف الاسبتارية التوازن بـالحقوق مع الداوية، الأمر الذي اشتراه فيما بعد من مقدم الـداوية، الذي كان أخاه، مقـابل ثمن حصان، الخ.. (١)

٢٠— وكان من بعـده هيوج دي رايفل Ryvell ، هو المقـدم، وكان رجلاً مدهشاً بـالنسبة لصحة أحكامه ولطاقاته، وقـد أرسى شؤون الرهبنة على قـواعــد صحيحـة، لأن المقـدمين الآخــريـن أسـلافـه لم يقــومـوا بالاصـلاحات، بل حـافظوا على العادات الجيـدة للرهبنة، غير أنـه رسخ كل شيء مـن جـديد، ليـس فقط بتنسيق أحكـام الآخـرين، بـل بـوضع أحكام جديدة ومفيدة هو أبدعها.

٢١— وكان من بعـده نيقولا دي لورن Lorgn هو المقدم، وفي أيـامه جـرى استخـدام الترسة الحمـراء مـع صليب أبيـض، وتقرر أن يـرتـدي الرهبان أردية سـوداء، كما جرى اعتماد خاتم الرهبنة، وذلك بـالاضافة إلى كثير من الأحكام الجيدة التي عادت بالنفع على الرهبنة.(٢)

٢٢— وكان من بعده أودو Odo ، هو المقدم و ..... و ....

١— من الـواضح أن الحادث الأخير يعود إلى ولايـة غارين دي مـونتاغيـو، الذي كـان أخوه الأصغر بطرس دي مونتاغيو هو مقدم الداوية، وذلك من سنة ١٢١٨ حتى سنة ١٢٣٣.

٢— كان ينبغي أن يتبع هذا ذكر اسم جون دي فيلير Villirs، وهو الذي في أيامه فقدت عكا، لكنه حذف.

الملحق ج
أختام المقدمين وأعيان الرهبنة

جرى خلال القرنين اللذين أقام فيهما الاسبتارية في الأرض المقدسة استخدام ثلاثة أختام من قبل مقدمي الاسبتارية:

١-الختم الكبير للمقدم،أو Leaden bulla (ختم الرصاص)

٢-الختم الخاص بالمقدم،أو Seal in wax (ختم الشمع)

٣-الختم الكبير للرهبنة،أو Leaden bulla (ختم الرصاص)

وفي استخدام مقدم الاسبتارية للختم المعدني،كان يقلد البابوات ويحذو حذوهم،وأيضا أباطرة الشرق،وبعض البطاركة الشرقيين، ولايشمل اصطلاح ختم الطبعة فقط بل الوثيقة التي أثبت عليها.

١—الختم الكبير للمقدم

صنع هذا الختم من الرصاص، ومساحته أنش ونصف الأنش،وله وجهين،ويربط بالوثائق بشريط أو بخيط يمر خلالها،ولابد أنه كان بالاستخدام منذ أول تأسيس الرهبنة،وأقدم ختم معروف بالوجود هو ختم المقدم كاست مورول Caste de murols(١١٧٠—١١٧٢) وهوعلى الشكل التالي:

الوجه: مقدم الاستبارية متوجه نحو اليمين، ويداه متشابكتان وهو يصلي، حيث جثا على ركبتيه أمام صليب بطريركي،على كل طرف من طرفيه الحرفين: AW، والجميع محاط بدائرتين خطاهما عبارة عن حبيبات، وقد نقش بينهما:(كاست) CASTVS : CVSTOS +

الظهر: هناك أمام خيمة للعهد جسد ممدد على محفة ،والرأس متجه الى

اليمين، ويوجد صليب عند رأسه وعند قدميه،وفوقه قبة تغطيه مع ثلاث قبب صغيرة، ويتدلى من القبة مصباح،والجميع محاط بدائرتين خطاهما عبارة من حبيبات،وقد نقش بينهما:

+اسبتارية • القدس

ولقد بقي هذا التصميم للختم بدون تغيير تقريباً حتى مابعد وفاة المقدم غارين دي مونتاغيو(١٢٠٧—١٢٢٨)،لكن واحداً من خلفائه عدل تصميم الوجه بجعل مقدم الاستبارية يتجه نحو اليساربدلاً من اليمين، مضيفاً الى مانقش كلمة«أخ»وواضعاً تحت الصليب البطريركي جمجمة آدم، فهكذا وصلنا تصميم ختم المقدم نيقولا دي لورن(١٢٧٧ — ١٢٨٥)، لكن من غير المؤكد أهو الذي غير التصميم أو مقدم آخر تقدم عليه، وذلك بسبب فقدان كثير من الأختام.

وبالنسبة للتعديلات التالية في تصاميم هذه الأختام فإنها تعود الى حقبة متأخرة ، عندما صار فرسان الاسبتارية فرسان رودس.

٢ — الختم الخاص بالمقدم

دعي هذا الختم بالعادة باسم الختم بوساطة الشمع، ولقد ورد ذكره للمرة الأولى في أحكام المقدم ألفونسو البرتغالي (١٢٠٣ — ١٢٠٦)، ووصلتنانماذج فريدة منه تعود الى المقدمين غارين دي مونتاغيو، وهيوج رايفل(١٢٥٨ — ١٢٧٧) ، والختم على شمع أسود، ومساحته إنش وربع الإنش، وبما أنه مثبت على وثائق بطريقة عادية ، فله وجه واحد، وقد تطور في النهاية وفي تاريخ متأخر الى ختم على الورق، وجاء تصميم أقدم الأختام التي وصلتنا، وهو العائد الى غارين دي مونتاغيو كما يلي:

الوسط الأعلى لمقدم الاسبتارية مع الوجه الكامل، وهناك صليب على الجانب اليساري من ثوبه، والجميع محاط بخيطين دائريين من

الحبيبات ، نقش بينهما:

Cvstos(غارين) Gvarinvs

ونقش على الختم المشابه له والعائد الى هيوج رايفل ما يلي :

+Frater : Hvgo (الأخ هيوج) Gvarinvs

وهناك تنوع في عرض المقدم.

وتبعاً لأحكام ألفونسو البرتغالي ، كان بإمكان القائد الأعلى استخدام ختم المقدم على الشمع في أي مكان ، حيث يحدث أن يكون المقدم غير موجود فيه، أي أن تقول أنه كان يقوم مقام المقدم، هذا وكان بامكان المتسلم للخزينة أن يقوم بختم الوثائق باسم المقدم، وذلك بختمه على الشمع.

ولا شك أنه جرى بعد هذا تبني ختم أقل أهمية ، وحصر استخدام «الختم الكبير للمقدم» في عمليات نقل الملكيات ، والتعليمات القانونية، ووثائق الدولة الهامة، في حين جرى استخدام الختم الصغير في المراسلات ، والمسائل العادية لأعمال الادارة اليومية،

٣— الختم الكبير للرهبنة

ان الحديث بشكل عام عن « الختم الكبير للرهبنة» هو حديث عن ختم مقدم الرهبنة ، الذي يعني المقدم في الاجتماع والتداول، وقد أوجد هذا الختم المقدم نيقولا دي لورين في سنة ١٢٧٨، وكان مصنوعاً من الرصاص مثل الختم الكبير للمقدم ، وبالحجم نفسه، وكان له أيضاً وجهين، ويثبت على الوثائق بالطريقة نفسها ، وبما أن هذا الختم لا يذكر اسم المقدم ، لم يكن من الضروري تبديله لدى موته، وأقدم تصاميمه هي كما يلي:

الوجه: المقدم وستة من أعيان الرهبنة متوجهين نحو اليسار ، وأيديهم متشابكة في الصلاة، وهم جاثين أمام صليب بطريركي، على كل طرف من طرفيه الحرفين A W ، وتحته جمجمة آدم ، والجميع محاط بدائرتين من الحبيبات، نقش بينهما العبارة التالية:

+ ختم المقدم والرهبنة

الظهر : التصميم والكتابة هما متطابقان مع ما جاء على ظهر الختم الكبير للمقدم. وأعيان الرهبنة الستة الممثلين على هذا الختم هم : راعي الدير، والقائد الأعلى، والمارشال ، واسبتاري ، ومسؤول عن الأكسية، ومسؤول عن الخزينة، وذكر ديلا فيل لى رول

Dela Vill leRoulx أن عدد الأشخاص الممثلين على الوجه قد ازداد في أوقات متأخرة مع ازدياد عدد أعيان الرهبنة، ولحق تصميم الختم القليل من التغيير وهو ما زال قيد الاستعمال حتى هذا اليوم.

وذكرت أحكام نيقولادي لورن أن الختم الكبير للرهبنة كان لا يستخدم إلا على الوثائق المتعلقة بالمنح، والبيع، ونقل عمليات الممتلكات، التي تكون لها فعالية مع موافقة المقدم والرهبنة ، وعلى وثائق الإرغام والمصادرة ، والشراء، التي تتطلب السلطات نفسها، لكن بالنسبة للقضايا الأخرى فإن ختمي المقدم يكونا كافيين ، سواء الختم المصنوع من الرصاص أو المختوم على الشمع.

وفيما يتعلق بأختام أعيان الاسبتارية فقد أعطيت في الوثيقة التالية ، التي ربما أعدت في منتصف القرن الثالث عشر، بحكم أنها تتضمن ذكر قسطلان (شحنة) المرقب وقسطلان حصن الأكراد ، ولم تأت على ذكر ختم الرهبنة ، وتضمنها لذكر رعاة ديرة كاتا لونيا، الذين أقيموا وأعترف بهم في حوالي ١٣١٩، لابد أنه جاء بمثابة إضافة متأخرة.

ما يتعلق بالأختام التي استخدمت من قبل مقدم الاسبتارية والآعيان الآخرين

١— في المقام الأول أختام المقدم مع ختمين أولهما من الرصاص، والآخر على الشمع، وعلى الذي هو من الرصاص: من الجانب الأول المقدم وهو جاث أمام الصليب ، وعلى الجانب الآخر جسد انسان ميت أمام خيمة للعهد، وعلى الختم الآخر طبع على شمع أسود نصف انسان.

٢— ثم أختام القائد الأعلى، أي أختام قائد ما وراء البحار مع ختم ، مثل ختم المقدم على الشمع.

٣— القائد الأعلى على الجانب من هذا البحر مع ختم على شمع أخضر مع طائر الغريفن .

٤— ختم المارشال على شمع أخضر مع فارس شاكي السلاح ومعه علم بيده.

٥— الاسبتاري مع ختم على شمع أسود مع فراش عليه رجل مريض ، ومع راهب يقدم له الطعام.

٦— أختام قائد قبرص، مع ختم عليه قارب بدون سارية وبدون أشرعة.

٧— أختام قائد أرمينية، مع نصف أسد.

٨— أختام قسطلان(شحنة) المرقب، مع علم ملكي .

٩— قسطلان الحصن مع قلعة.

١٠— ختم كل من صاحب الكسوة والخازن، مع أختامهما.

١١— راعي دير القديس جايل (صنجيل) مع واحد على الشمع الأسود مع حمل الرب.

١٢ — الراهب الأول لفرنسا مع ختم على الشمع الأخضر مع نسرين بين زهرتي زنبق .

١٣— أختام القائد الأعلى لألمانيا مع ختم على شمع أخضر عليه القديس يوحنا المعمدان .

١٤— أختام قائد اسبانيا مع ختم عليه نسر ليختم على شمع أخضر.

١٥— قسطلان أمبوستاAmposta، مع ختم يختم على شمع أخضر عليه قلعة .

١٦— أختام الراهب الأول لنافار مع ختمه.

١٧— الراهب الأول لكاستيل مع قلعة على شمع أسود

١٨— الراهب الأول لكاتوليا (أي كاتالونيا) (١) مع ختم يختم على شمع أخضر، ونصف ختم ملك أراغون، والنصف الآخر هو صليب.

---

(١) تبعاً لديلافيل لى رول ، لم يكن مقام الراهب الأول لكاتالونيا قد أوجد حتى سنة ١٣١٩ انظر «الاسبتارية في الأرض المقدسة ص : ٣٧٩ ، ٣٨١ ».

الملحق د

حول رنوك المقدمين

بدأ اتخاذ الرنوك واستخدم بشكل عام في أوروبا الغربية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وبينما كان اعتماد هذه العادة متأرجحاً ، سبب تجمع الفرسان من كل أمة تحت رايات الحملة الصليبية الثالثة، تبلوراً مفاجئاً، وصار الأمر رائجاً بين جميع الارستقراطية العسكرية لأوروبا ، ومع سنة ١٢٠٠ بدأ علم الرنوك تترسخ قواعده في كل مكان ، وبعد مضي قرن قادت أحكامه المعقدة وأشكاله المتباينة نحو الاستخدام العام ، وبدأت عادات الأحجام والأماكن والاستخدامات ونماذج التباين والرتب بالظهور، وظلت أحكام ونظم الرنوك منذ ذلك الوقت حتى اليوم الحالي بدون تغيير فعلي.

وأول اشارة محددة تتعلق بوضع الرنوك على أسلحة فرسان الاسبتارية، قد وردت في مرسوم صدر عن البابا الاسكندر الرابع في عام ١٢٥٩، حيث ورد فيه أن راية الرهبنة كانت في ذلك الوقت كما هي اليوم الحالي « صليب أبيض ــ فضي مصبوغ بالأحمر» وليس لدينا من دليل يظهر لنا التاريخ الذي تمّ فيه تبني هذه الراية ، ولابد بشكل مؤكد أنها استخدمت من قبل الاسبتارية أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، لابل في وقت أبكر، وفي ظل مرسوم ١٢٥٩ جرى تحويل الفرسان بارتداء هذه الشعارات ، وفي أيام ولاية المقدم نيقولا لى لورن (١٢٧٧ــ ١٢٨٥) جرى تبني طلاء الشعارات على الترسة.

وفي حوالي الوقت ، الذي صدر فيه مرسوم البابا الاسكندر الرابع ، جرى تنفيذ نظام المقدم هيوج رايفل ، وهو الذي أوجب على فرسان الاسبتارية تقديم بينه أصيلة على حقهم في حمل الشعارات،ولابد أنه

توفر لدى الرهبنة في مقرها سجل بشعارات الأسلحة التي حملها الفرسان،ونمتلك في هذه الأيام قائمة بالشعارات التي حملها جميع مقدمي الاسبتارية منذ وقت التأسيس من قبل جيراد المبارك ، ومن المحتمل أن هذه القائمة قد صنفت عندما كان دير الرهبنة ما يزال في عكا ، ومن المنطقي الافتراض أنه عندما بدأت الرهبنة بالاهتمام بمسألة الشعارات لدى رهبانها العسكريين، أن تجري محاولة بشكل طبيعي لتدوين سجل بأسماء مقدمي الرهبنة ، وبما أنه لم يكن قد مضى على الاستخدام العام للشعارات إلاّ حوالي نصف قرن ، لم تكن هناك صعوبة حقيقية في تصنيف قائمة أصيلة يمكن الاعتماد عليها ، وأن تشكل هذه القائمة قاعدة للقوائم التالية، وبناء عليه نمتلك التسويغ في افتراض أن شعارات المقدمين منذ أيام غارن دي مونتاغيو ، لا بل ربما أقدم من ذلك ، أي من أيام غارنيير دي نابلس كانت هي كما رسمت لنا ووصفت ، لكن بالنسبة لشعارات المقدمين الأبكر لم تكن موجودة أبداً ، لسبب بسيط هو أن حمل الرنوك لم يكن موجوداً في ذلك التاريخ المبكر، وبناء عليه إن هذه الشعارات مفيدة فقط، على أنها شعارات الأسر ، التي اعتقد المصنف أن المقدمين أصحاب الشأن قد انتموا اليها ، وإلى هذا الحد هي بلا شك لها بعض القيمة، التي لا يجوز تجاهلها ، ومع هذا ان بعضها افتراضي تماماً ، اخترعت فيما بعد بقصد ملي الفراغات في القائمة، أو لربما بقصد تمجيد بعض الأسر بشكل محدد، ومثال على هذا عندما عزي شعار القديس ديدير Didiar إلى جيرارد الملك ، أو شعارات دي سلي De sulle عندما عزيت الى غلبرت دي اسيلي .

وبعد فقدان الأرض المقدسة بوقت طويل نمت بعض العادات التي كانت تتعلق بالرنوك بين فرسان الاسبتارية، وهي معروفة بالنسبة للذين لديهم معرفة بالرنوك والشعارات ، لأنها ما زالت مستخدمة حتى هذا

اليوم ، كما بات من المعتاد عليه بالنسبة لمقدمي الاسبتارية أن يضعوا شعاراتهم الشخصية الى جانب شعارات الرهبنة وكذلك الرنوك أو الصلبان الكبيرة، حتى يُحمل فوق شعاراتهم الشخصية الشعارات الرئيسية للرهبنة، ولعل العادة الأولى درجت وجرى استخدامها خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أما العادة الأخيرة فقد استخدمت في أوائل القرن الخامس عشر، ثم تطور الأمر، فبعد فقدان رودس صار من المعتاد بالنسبة للفرسان عرض شعاراتهم بوضعها فوق الصليب ذي النقاط الثمانية العائد لرهبتهم .

وكانت رنوك مقدمي الاسبتارية في الأرض المقدسة كما يلي :

١ــ **جيرارد المبارك** ــ «لازاورد، وأسد واقف ، وأبيض ــ فضي»، هذه هي الشعارات العائدة الى اسرة القديس ديدير أوف لاندوك Lan-guedoc ، وهي الأسرة التي ادعي بأن جيرارد كان مرتبطاً بها ، وقد حملت الأسرة فيما بعد هذه الشعارات في :

bordure gules besantee

٢ــ **ريموند دي بوي المبارك** ــ « ذهب وأسد أحمر واقف ، ولازاورد فرنسي وسلاح» وكانت هذه شعارات أسرة ريموند دو بوي ــ مونتبرون Montbrun أوف دوفين Dauphine، التي من المفترض أن أسرة ريموند دو بوي قد انتمت إليها بالعادة.

٣ــ **يوغر دي بالن**ــ «أرضية سوداء، بين خطين متماوجين لونهما أحمر، وثلاثة حمامات فضية»، وعادت هذه الشعارات إلى أسرة بالبين أوف دوفين.

٤ــ **آرنولد دي كومب**ــ «فضي، ونسر فارد جناحيه، وواقف وأحمر وأسود» لقد كانت هذه بلاشك شعارات أسرة دي كومب أوف دوفين وبروفانس، وانظر برتراند دي كومب.

٥— **غلبرت دي أسيلي**— «لازاورد، ونجوم صغيرة، وأبيض— فضي، وفوق ذلك كله أسد واقف، وذهب»، وهذه الشعارات متطابقة إلى أبعد الحدود مع شعارات أسرة دي سللي Sully، باستثناء أن النجوم هي خماسية.

٦— **كاست دي مورل**— «أحمر، وصليب مدبب، وفراء»، ويستنتج من اسم الأسرة أنها جاءت من أوفرين.

٧— **جوبرت**— «ذهب على صليب فرائي، وخمس صدفات، وأبيض — فضي» وهذه كانت شعارات أمراء دي بارولت Barrault، وهم فرع من أسرة دي جوبرت.

٨— **روجر دي مولين**— « أبيض — فضي على صليب فرائي معكوف الأطراف، وصدفة ذهبية»، وباستثناء الصدفة، هذه هي شعارات أسرة دي مولين في نورماندي المنخفضة التي زالت مع نهاية القرن الثالث عشر.

٩— **آرمنغود داب**— «أبيض فضي، وبرج لازاوردي، وحجارة فرائية»، وتعود هذه الشعارات إلى أسرة داب أوف بيرن Bearn.

١٠— **غارنيير دي نابلس**— «فراء، وصليب هائل، وفضي — أبيض»، وكان الفرع السوري من أسرة دي ميللي Milly الفلمنكية، قد اتخذ اسم دي نابلس، ومن المفيد أن نلاحظ أن شعارات دي ميللي حوت المكونات نفسها لشعارات دي نابلس، أي «فراء، وبشكل رئيسي فضي— أبيض».

١١— **غيوفري دي دنجون**— «أحمر، وسهم فضي— أبيض» ويقول بعضهم «لازاورد وسهم داكن»، ويبدو أنه فعليا حمل هذه الشعارات، وإلا عندما جرت محاولة لتمجيد أسرة دي دوسون Duisson ورفع شأنها، باعطائه ذلك الاسم ،فإن شعاراتها التي تختلف تمام الاختلاف

كانت بلاشك ستنسب إليه.

١٢— **ألفونسو البرتغالي**— «أبيض — فضي، وخمسة ترسة تعطي شكل صليب، ولازاورد، في كل واحد من الترسة خمس قطع نقدية (بيزنت) موزعة ولها في وسطها فراء، والجميع داخل ترس أحمر، تحيط به سبع قلاع، وذهب»، ولاشك أن هذه الشعارات لم تحمل من قبله، لأنها شعارات البرتغال التي تعود إلى تاريخ متأخر، ولعله حملهم من دون إطار القلاع.

١٣—**غيوفري لى رات**— «لازاورد، وحصان مجنح واقف، وأبيض — فضي»، ومن المفترض أن هذه شعارات أسرة لى رات أوف تورين.

١٤— **غارن دي مونتاغيو**— «أحمر، وبرج مؤلف من ثلاث طبقات، وأبيض — فضي، وحجارة فرائية»، وكانت هذه شعارات أسرة دي مونتاغيو — شامبي Champeix، وهي تتباين بشكل واضح بالنسبة لمختلف فروع تلك الأسرة.

١٥— **برتراندي ثيسي**— «ذهب ومستطيل معدني في الوسط، وأحمر»، فهذه الشعارات تعطي ببساطتها المتناهية الانطباع بأنها كانت أصيلة.

١٦— **غورين**— «فضي— أبيض ونسر برأسين باسط جناحيه، وفراء»، ونحن لانعرف شيئاً عن أسرته، لابل أكثر من هذا، لانعرف حتى لقبه.

١٧— **برتراند دي كوم**— «أحمر، ونسر باسط جناحيه، وشطرنجي، وفضي— أبيض، وفراء»، لاشك أن هذه شعارات قديمة لأسرة دي كوم أوف دوفين وبروفانس، مع أن لى شيني— دسبويس Lachenaye-Desbois قال بأن النسر: «شطرنجي أو وفراء»، وعرض كتّاب آخرون شعارات مختلفة.

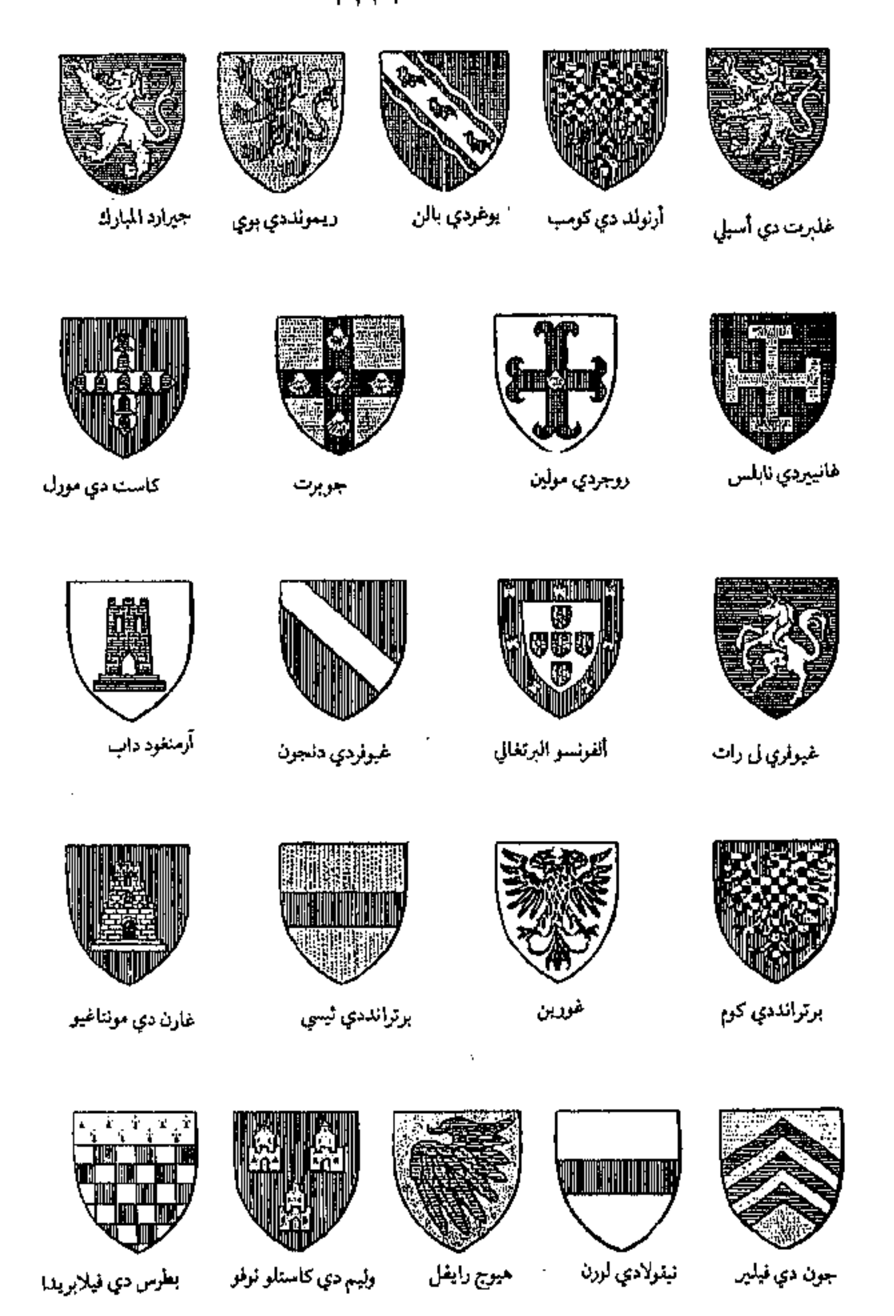
١٨— بطرس دي فيـلا بريـد— «شطرنجـي وفضي— أبيض، وأحمر، وفـــراء أبيـض رئيسي»، وليس هنـاك مـن سبـب لــلافتراض أن هــذه الشعارات ليست أصيلة تماما، وتأصلت الأسرة في أوفرين.

١٩— وليم دي كـاستلـونوفـو— «أحمر ، ثـلاثـة أبراج ذوات ثـلاثـة طوابـق، أو حجارة فرائيـة». ولايوجـد سبب للشك في هـذه الشعارات، ولعلــه انتمـى إلى أسرة مــا مـن أسر شمالي فـرنســا التـي حملـت اسـم «كاستلونوفو— القلعة الجديدة» الذي كان دارجاً.

٢٠— هيوج رايفل— «ذهب، ونصف طائر، ولازاورد»، فهـذه كانت شعارات أسرة رايفل أوف دوفين، التي بلا شك قد انتمى إليها.

٢١— نيقـولا دي لـورن— «فضي— أبيض ومستطيـل معـدني أحمر». لعله انتمى إلى الأسرة البروفنسالية التي حملت الاسم نفسه.

٢٢— جون دي فيلير— «ذهب، ثـلاث شارات يشبه كل منهـا رقم ثمانيـــة، ولازاورد». ولقـــد انتمـى إلى أسرة دي فيلير في الـــــ «بـــو فايسيس» Beauvaisis.



الشعارات والرنوك المحموله لمقدمي الاسبنارية

الملحق هـ

قانون ريموند دوبري

هذا هو النظام، أنا ريموند الخادم لفقير المسيح،ومدير مشفى القدس، قررت هذه الأحكام والأنظمة في دار اسبتارية القدس،وذلك بمساعدة ومشورة جميع أفراد الرهبنة من كل من رجال الدين والرهبان العلمانيين:

١— **كيف ينبغي أن يمارس الرهبان وظيفتهم**—أولا:إنني أقضي أن على جميع الرهبان العاملين في خدمة الفقراء وجوب الحفاظ—بعون الرب—على الوعود الثلاثة التي قطعوها للرب،وهي:الاحسان،وإطاعة كل شيء يصدر به الأمر من مقدميهم،وأن يعيشوا بلا ممتلكات شخصية،لأن الرب سوف يطالبهم يوم الحساب الأخير بالوفاء بهذه الوعود الثلاثة.

٢—**ماالذي ينبغي على الرهبان الادعاء أنه حقهم**—وعليهم عدم الادعاء بأي شيء أنه حق لهم يتجاوز: الخبز،والماء، وارتداء الملابس التي وعدوا بها، ولتكن ملابسهم متواضعة،لأن مولانا الفقير،الذي نحن أنفسنا نؤمن أننا خدمه،يسير عريانا أومرتدياً بشكل مزري،وخطأً أن يكون الخادم متفاخراً ومولاه متواضعاً.

٣— **مايتعلق بسلوك الرهبان،وخدمة الكنائس واستقبال المريض**—زيادة على هذا،لقد تقرر أن يكون سلوكهم في الكنيسة لطيفاً،وحديثهم لائقاً،أي أن يقوم رجال الدين بخدمة الكاهن عند المذبح وهم في لباس أبيض،وذلك إذا كان الكاهن شماساً أو مساعد شماس،لكن إذا اقتضت الحاجة،يمكن لرجل آخر أن يشغل هذا المنصب، ويتوجب وجود ضوء يحترق دوماً في الكنيسةخلال النهار وأثناء

الليل،وعلى الكاهن المضي لزيارة المريض وهوبلباس أبيض،ويحمل باحترام جسد ربنا،وينبغي أن يسير أمامه الشماس أو مساعد الشماس، أو على الأقل قسيس،وهو يحمل بيده مصباح عليه شمعة تحترق،واسفنجة مع الماء المقدس.

٤—كيف ينبغي أن يذهب الرهبان الى الخارج،وكيف يوجهون أنفسهم—زد على ماتقدم،عندما يتوجب على الرهبان الدخول الى المدن أو القلاع، ينبغي ألا يذهب واحد لوحده بل كل اثنين وثلاثة،لكن ليس مع الذين يريدونهم،بل مع الذين يأمرهم المقدم بمصاحبتهم،وعندما يأتون الى المكان المقصود، عليهم البقاء معاً،وعليهم بالنسبة لثيابهم وحركاتهم عدم القيام بأي شيء قد يؤذي رؤيته أي إنسان، بل عليهم الالتزام بواجبهم المقدس، وزيادة على هذا، عندما يكونون في بيت أو في كنيسة أو أي مكان فيه نساء حضور، عليهم الحفاظ على لطفهم وعدم السماح لأي امرأة بغسل رؤوسهم أو أقدامهم، أوترتيب فرشهم، وليحفظهم الرب الذي يقيم في عليين ويبقى حارساً عليهم .آمين.

٥— من الذي يطلب المساعدات وكيف ينبغي أن يفعل ذلك— أيضاً يتوجب على الأشخاص الدينيين من كل من الكهنة والرهبان العاديين الخروج لالتماس المساعدات للفقير المقدس، وعندما يجدون أنفسهم أنهم بحاجة إلى الضيافة، عليهم الذهاب إلى الكنيسة، أو إلى انسان لائق، وهنا عليهم طلب الطعام لأنفسهم من باب الاحسان، ولاينبغي لهم شراء أي شيء آخر، وفي الحقيقة إذا لم يجدو من يساعدهم مطلقاً، عليهم شراء ما يساوي وجبة واحدة فقط، من أجل الحفاظ على حياتهم.

٦— ما يختص بالمساعدات المجموعة واستخداماتها في مقرات الرهبان— يتوجب عليهم أيضاً عدم الحصول على أرض أو ضمان من المساعدات المجموعة، بل عليهم تسليم هذه المساعدات إلى المقدم، مع

حساب مكتوب، وأيضاً ينبغي على المقدم إرسال المساعدات وتحويلها إلى المشفى القائم تحت ادارته، وذلك من أجل الاستخدام من قبل الفقير، وعلى المقدم تسلم ثلث الهبات من الخبز والخمرة، وجميع الأطعمة، وإذا ما بقي شيء ما وفاض، عليه إضافته إلى المعونات وارساله إلى القدس، تحت اشرافه، كي يستخدم من قبل الفقير.

٧— من الذي عليه الذهاب إلى الخارج للتبشير وبأية طريقة—ولايجوز لأي واحد من الرهبان، تحت طاعة من كان، المضي للتبشير أو بجمع المعونات، ماعدا فقط الذين يرسلهم الكهنة ورئيس الكنيسة، وعلى الرهبان الذين جرى اختيارهم للذهاب من أجل جمع المعونات، الدخول في طاعة أية قيادة سيصلون إليها، ويتوجب عليهم قبول الطعام نفسه، الذي يتولى الرهبان توزيعه بين أنفسهم، وعليهم عدم اثارة أي اضطراب هناك، وعليهم حمل مصباح معهم، وعليهم اشعال المصباح أمامهم في أي بيت استضيفوا به لإمضاء الليل فيه.

٨— ما يتعلق بثياب الرهبان وبطعامهم— وزيادة على ما تقدم نحرم على الرهبان أن يقوموا في أي وقت من الأوقات بارتداء ملابس ذات ألوان براقة، والمخمل، وعدم ارتداء فراء الحيوانات في ظل أي ظروف، وعليهم أن لايأكلوا أكثر من مرتين في النهار، ويتوجب عليهم عدم أكل اللحوم في اليوم الرابع من الاسبوع وفي يوم السبت، ومنذ الأحد الثالث قبل الصوم حتى يوم عيد الفصح، وذلك باستثناء غير المتوازنين والضعفاء، وينبغي عليهم عدم التمدد وهم عراة، بل أن يكونوا لابسين قمصانا من الصوف أومن الكتان أو مايشابه ذلك من الملابس.

٩— ما يتعلق باقتراف الرهبان للزنا— وإذا حدث واقترف واحد من الرهبان ما ينبغي عدم حدوثه، أي اقترف الزنا بقوة إغراء الشيطان، فإذا حدث وأذنب بشكل سري، عليه أن يفرض على نفسه توبة مناسبة، وأن يتوب بشكل سري، لكن إذا ما بات هذا معروفاً تمام المعرفة وتبرهنت

صحته بدون شك، عندها يتوجب عليه، أن يقوم في البلدة التي اقترف فيها الذنب في يوم الرب بعد القداس، وبعد ما يكون الناس قد غادروا الكنيسة، بالتعري أمام الجميع، وينبغي أن يجلد من قبل رئيسه الديني، وهذا إذا ما كان هو راهبا دينيا، لكنه إذا ما كان مدنيا فهنا ينبغي جلده وضربه بشدة متناهية بوساطة أسواط أو عصي وذلك من قبل رجال الدين أو من قبل من يفوضه رجال الدين، وينبغي أن يطرد تماما من رهبانيتنا، وعلى كل حال إذا حدث فيما بعد وهداه الرب، وأراد العودة إلى بيت الفقراء، وقرر الاعتراف شخصياً بأنه كان مذنباً آثماً، ومخالفاً لشريعة الرب، ووعد بالتوبة، ينبغي تقبله، وفرض عقوبة مناسبة عليه، ويتوجب أن يعامل لمدة سنة بمثابة غريب، وعلى الرهبان مراقبته خلال هذا الوقت وتقرير هل سلوكه مرضٍ أم لا، وعليهم بعد هذا أن يفعلوا ما هو أفضل بالنسبة لهم.

١٠ — ما يتعلق بالشجار بين الرهبان وضرب أحدهم للآخر — وإذا ما اختلف راهب مع راهب آخر، ولاحظ المشرف على البيت الاضطراب، ليكن مايلي: العقوبة التي يفرضها على المذنب: عليه أن يصوم لمدة سبعة أيام، وأن يكون صيامه في اليومين الرابع والسادس على الخبز والماء، وأن يأكل على الأرض من دون منضدة أومنديل، وإذا كان قد وجه ضربة عليه أن يصوم لمدة أربعين يوماً، وإذا ما تغيب عن مقرّ الرهبنة، أو عن المقدم المسؤول عنه بدون ترخيص، ثم عاد بعد ذلك، يتوجب عليه تناول طعامه على الأرض لمدة أربعين يوماً، وأن يصوم في اليومين الرابع والسادس من الاسبوع على الخبز والماء، وينبغي معاملته بمثابة غريب بما يساوي المدة التي تغيبها، ما لم تكن المدة طويلة جداً، ورأى المجلس الديني للرهبنة أنه من المناسب تعديل المدة.

١١ — ما يتعلق بصمت الرهبان — زيادة على ما تقدم ينبغي أثناء الجلوس إلى المائدة الالتزام بما قاله الرسول: على كل واحد أكل خبزه

بصمت (انظر رسالة بولص إلى سالونيك: ٢/ ٣/ ١٢)، وعليه بعد الفراغ عدم شرب شيء باستثناء الماء الخالص، وفي الفراش يتوجب على الرهبان الالتزام بالصمت.

١٢— ما يتعلق بالسلوك غير المرضي للرهبان— وإذا ما كان سلوك أي واحد من الرهبان ليس مرضياً، ينبغي تقويمه وتقريعه ثلاث مرات من قبل المقدم أو من قبل الرهبان الآخرين، وإذا ما رفض تقويم سبله بناء على تحريض له من الشيطان، ينبغي إرساله إلينا ماشياً على قدميه مع تقرير مكتوب حول ما اقترفه، ومع هذا ينبغي أن يعطى القليل من الزاد يكفيه حتى يصل إلينا، ونحن سوف نتولى تقويمه، ولايجوز ضرب الخدم المرتبطين به، بل على مقدم الرهبنة والرهبان انزال العقوبة به أمام الجميع، وذلك من أجل الحفاظ على العدل والعدالة في الرهبنة دوماً.

١٣— ما يتعلق بالرهبان الذين عثر معهم على ممتلكات خاصة— وإذا ما تولى واحد من الرهبان توزيع ممتلكاته الشخصية عند موته، التي لم يفصح عنها لمقدمه أثناء حياته، ينبغي عدم قيام أية جهة دينية بأية اجراءات نحوه، بل يتوجب دفنه بمثابة رجل محروم كنسيا، وإذا ما اكتشف وهو حي أنه يمتلك ممتلكات شخصية ، وأنه قد أخفاها عن مقدمه، لكنها اكتشفت فيما بعد معه، ينبغي لف المال حول رقبته، ثم يجر عاريا خلال مشفى القدس، أو خلال أحد البيوت الأخرى حيث مكان سكناه، وهنا ينبغي أيضاً أن يضرب من قبل رجل دين إذا كان هو من رجال الدين، لكنه إذا كان علمانيا فليضرب من قبل واحد آخر من الرهبان وعليه بعد هذا أن يصوم لمدة أربعين يوماً، وأن يكون صومه في اليومين الرابع والسادس على الخبز والماء.

١٤— ما يتعلق بالقداسات التي ينبغي أن تقام للرهبان الموتى— زيادة على ما تقدم، بما أنه من الضروري بالنسبة لنا إقامة نظام لكم، إننا نرسم، ومع رسمنا نأمر أن كل من ينتقل من هذه الحياة الجسدية، تحت

إمرة مـن كان، ينبغي انشاد قـداس لراحـة روحه لمدة ثلاثين يـوماً، وعلى كل واحد من الـرهبان أن يقدم في القداس الأول تقدمـة هي شمعة مع قطعة مـن المال، وينبغي إعطاء ذلـك المال إلى الفقراء، مهما كـان مقداره كبيراً، وللكاهن الذي أنشد القداس، إذا لم يك منتمياً إلى البيت، ويعطى أيضاً مـا ينفقه على نفسه خـلال تلك الأيام، وعنـدما يكمل القـداسات على المقدم القيام بتكريمه، وينبغي إعطـاء جميع ثياب الراهب المتوفى إ لى الفقراء، وعلى الرهبان الـذين هم كهنة، عندما يقومون بـانشاد القداسات مـن أجل راحـة الميـت، أن يقـدمـوا بعـض الصلـوات إلى الـرب يسـوع المسيح، ويتـوجب أيضاً على كل واحـد من رجال الـدين إنشاد مـزمور، وعلى كل واحـد من العلمانيين أن يقـوم بمائة وخمسين صلاة للـرب، وفيما يتعلق بجميع الذنوب الأخرى والأعمال والشكـاوى يتوجب البت فيها في المجلس الديني، ومن ثم التفوه بالحكم العادل.

١٥— كيف يتـوجب الحفاظ بدقـة على الأحكام التي وضعـت هنا— وبالنسبة إلى جميع هـذه الأشياء التي كتبناها أعلاه ، باسـم الرب القدير، ومريم المبـاركة، ويوحنـا المبارك، والفقراء، نأمـر بالحفاظ عليهـا، بأعظم قدر من الحرص، وبكل احترام.

١٦— كيف ينبغي استقبال ساداتنـا المرضى، وكيفية خدمتهم— وفي تلك الطاعة وحيث يسمح مقدم الاسبتـارية، يتوجب عند استقبال رجل مريـض، أن يستقبل وفق مـا يلي: عليه أولاً أن يعترف بذنوبه إلى كـاهن الرهبنـة، ثم عليه أن يشارك في قـداس عام، ثم ينبغي حمله بعـد هذا إلى الفـراش، ويتوجـب أن يتلقى هنـاك، — وكأنـه السيد— أفضـل رعايـة حسنـة كل يوم على نحـو أحسن مـا تستطيع الـرهبنة تقـديمـه، وقبل أن ينهي الرهبان صـومهم، وفي كل يوم هو للرب يتوجب انشـاد مقاطع من الانجيل ومـن رسـائل الرسـل، في بيت الـرهبنـة، وفي أثنـاء اجـراء ذلك يتوجب رش الماء المقـدس، وزيادة على ما تقـدم إذا ما كان هنـاك واحد

من الرهبان ممن بيده عدة مسؤوليات في مختلف البلدان، وقام بإعطاء أي شخص من المدنيين مال الفقراء من أجل أن تزداد قوته ليمتلك السلطة ضد مقدمه واخوانه الرهبان هنا، ينبغي طرده من الهيئة العامة للرهبنة.

١٧— **في أي طريقة يمكن للرهبان تقويم الرهبان**— وإذا كان إثنان من الرهبان أو أكثر يعيشون معا، وقام واحد منهم بسلوك مسلك فاجر، وبالحياة حياة شريرة، ينبغي على الراهب الآخر عدم التشهير به لا أمام الناس ولا أمام الراهب الأول، بل عليه تقويمه بنفسه، وإذا لم يسمح له بتقويمه عليه استدعاء اثنين أو ثلاثة آخرين لمساعدته على تقويمه، وإذا لم يقوم سبله ويصلحها، عليه استخدام التهديد ضده، لكن إذا وجده على غير استعداد لتقويم سلوكه، هنا على المقدم أن يكتب ذنوبه ويدونها، ثم ليرسلها بشكل سري إلى المقدم، ومن ثم ينبغي أن يعامل وفقاً لأوامر المقدم.

١٨— **كيف ينبغي لراهب اتهام راهب آخر**— وينبغي أن لايقوم أي واحد من الرهبان باتهام رجل آخر من الرهبان ما لم يكن قادراً على البرهنة على صحة التهمة، وإذا ما فعل ذلك (بدون برهان) سيكون بذلك راهباً غير صحيح، وعليه هنا أن ينال العقوبة نفسها التي كان سينالها المتهم، لو أنه كان قادراً على البرهنة على صحة تهمته.

١٩— **حول وجوب حمل جميع الرهبان شارة الصليب على صدورهم**— وزيادة على جميع ما سلف يتوجب على جميع الرهبان في جميع المراكز، من الذين وهبوا أنفسهم للرب وإلى مشفى القدس المقدس، أن يحملوا صلباناً تشريفاً للرب وللصليب المقدس، يضعوها على صدر كل واحد منهم فوق ثيابه وفوق الرداء تكون سواء، وذلك من أجل أن يتولى الرب حمايتنا من خلال مظهر هذه الشارة، ومن خلال الايمان، والأعمال والطاعة، وأن يحمينا من قوة الشيطان في هذا العالم وفي العالم المقبل، في الروح والجسد، مع جميع المحسنين إلينا من مسيحيينا. آمين.

—٤—

وصف الأرض المقدسة

تأليف

جون أوف وورزبيرغ

(١١٦٠ — ١١٧٠)

-٢٢٤١-

استهلال

إلى

وصف جون أوف وورزبيرغ للأرض المقدسة

إنه بالنسبة للقول: من هو وورزبيرغ Wurzburg ما من شيء مؤكد معروف حوله، باستثناء ما يخبرنا هو نفسه به، من أنه كان كاهنا في الكنيسة في وورزبيرغ، ولقد كتب على الصفحة الأولى من مخطوط تيغرنسي Tegernsee بخط مخالف لخط المخطوط: « يعود هذا الكتاب إلى دير القديس قورينوس Quirinus في تيغرنسي، وهو يحتوي على وصف الأرض المقدسة، وخاصة مدينة القدس، من قبل السيد جون أسقف وورزبيرغ»، وكتب على غطاء الكتاب إلى جانب ثبت محتوياته الكلمات التالية:« تأليف جون أسقف وورزبيرغ» لكن في عودة إلى سجل أساقفة وورزبيرغ كان من غير الممكن الحصول على اسم جون، هذا من جانب ومن جانب آخر نعلم أن واحداً اسمه ثيودورك كان أسقفاً لـوورزبيرغ،وفي لائحة أسماء أساقفة الكنيسة الكاتدرائية لوورزبيرغ، الموجود في المكتبة الوطنية في ميونيخ، نجد أن ثيودورك قد جرى تعيينه أسقفاً في سنة ١٢٢٣، وأنه شغل منصبه لمدة سنة واحدة وشهرين وأربعة عشر يوماً، فهو قد توفي سنة ١٢٢٤ (تبعا لبوتهاست Potthas : في شباط ١٢٢٥)، في أيام حكم فردريك الثاني، وعلى هذا يبدو من المحتمل كثيراً أن ديترخ Dietrich الذي إليه وجه صاحبنا جون خطاب إهدائه هو ثيودورك نفسه. وعلى افتراض أنه قام برحلة حجة إلى الأرض المقدسة عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، لقد كان في السادسة والسبعين من عمره عندما اختير أسقفاً، وهذا محتمل الوقوع كثيراً، وأبعد من هذا ما من شيء مؤكد معروف عن جون أوف وورزبيرغ.

وبالنسبة للتاريخ الذي تمت فيه رحلة حجة، نعلم من ج.أ. فبريكوس في كتابه «مكتبة العصور الوسطى اللاتينية: ٤/ ١٧٠» أن جون قد كتب كتابه ليس بعد مدة طويلة عن سنة ١٢٠٠، وذهب برنارد بيز Pez في كتابه «الكنوز» (١/ ٨٧) إلى أنه لابد أن جون أوف وورزبيرغ قد شرع بكتابة ما رآه في القرن الثالث عشر، لكن فحصاً دقيقاً لأوصافه لايدع أي مكان للشك في أن زيارته للقدس قد تمت في أثناء وجود المملكة الفرنجية فيها، ويبدو من المحتمل من خلال مقارنة الكاتبين، أن جون أوف وورزبيرغ قد زار كنيسة الضريح المقدس قبل ترميمها، وأن ثيودورك فعل ذلك أثناء الترميم، حيث نقرأ في الفصل الثاني العشر من رحلتنا الحالية أن قبة بيعة الضريح المقدس كانت فضية اللون، وأنه تبعا لهذا كتبت الترنيمة الجماعية «قام المسيح» حول قبة البيعة بأحرف فضية، هذا من نحو، ونعلم من نحو آخر من خلال فوقاس (الفصل: ٢١) أن الامبراطور البيزنطي مانويل كومينوس قد غطى الضريح المقدس باللون الذهبي، ويقول ثيودورك (الفصل:٥) بأنه قرأ الترنيمة وهي مكتوبة بأحرف ذهبية، ويجعلنا هذا نحاجج بأن ثيودورك لابد وقد رأى الكنيسة بعدما فعل ذلك جون، ولربما كان جون في القدس فيما بين سنة ١١٦٠ وسنة ١١٧٠، ومن المؤكد أنه كان موجوداً في يوم عيد القديس جيمس (٢٥— تموز)، وأثناء الاحتفال بيوم القديسة آن (حنة) (الفصل: ٢٦).

وكان الحاج رساماً ألمانيا متحمساً بحرارة، وذلك حسبما يظهر من ملاحظاته في الفصل الثالث عشر، وهي الملاحظات التي أزعجت الكاتب الفرنسي فيرير Verrier، ودعا برنارد بيز دفاعه عن الصليبين الألمان «بالصفحة النبيلة، وهي صفحة هي الأكثر تشريفاً لأمتنا، حيث قدم جون براهين كثيرة، أنه من العدل أن يعزى إلى الألمان استرداد الأرض المقدسة، وليس إلى الفرنجة وحدهم».

أمـا بـالنسبـة لمحتـويـات كتـابـه، فصحيح أن إ. روبنسـون (أبحـاث توراتية: ٢/ ٥٣٨، بـوستن ١٨٥٦) قد قال: « للرحلة قيمـة قليلة» لكن هـذا حكم متسرع جـداً، قد صـدر من دون قـراءة مـا جـاء فيها ووزنـه بشكل نـاضج ودقيق، ذلك أن وصفه للكنـائس في القرن الثـاني عشر له فائدة كبيرة، ولائحتـه بالنقـوش المكتوبـة ليست أقل قيمـة، ومن الممكن تقديم وصفـه لهيكل الرب وكنيسة الضريـح المقدس بمثابـة مثال، وذلك مع إيلاء الجغرافيا الاهتمام أيضاً، وبناء عليه نمنح كتيبه مكانة عالية.

ونعلم من استهلال المؤلف أن الوصف المقدم هنا ليس كل ما شاهده الحاج المؤلف شخصياً، لكن بعضه كان هو شـاهد عيان له، وقد استعار بعضه الآخـر من آخـرين، ولعل ذلك كـان من وصف تـاريخي وجغرافي لـلأرض المقدسـة وللمناطق المجـاورة كان متـوفراً آنـذاك في كتاب كـان رائجاً، ومنه كما يبدو استقى معظم كتّـاب تلك الآونة رواياتهم، ويمكننا أن نفترض أن جون نزل في عكا، ثم ركب الطـريق المعتاد للحجاج، وأنه زار شخصيـا النـاصرة (الفصـل الأول) ثـم ذهب مـن هنـاك عبر جينين ونابلس إلى القـدس، ويعني هذا أنه زار أيضاً بيـت لحم، وعاد إلى وطنه عبر يافـا، وهكذا قدم جون نفسـه بمثابة شـاهد عيان، وأنـه تولى وصف الذي رآه بنفسـه، وأكثر من ذلك أكـد كلامه عما رآه بشكل دقيـق، ولقد قال في رسـالة التكريس في مستهل كتـابه أنه كان ينـوي أن يكتب حول الذي هو موجود في داخل القـدس، وليس بعيداً عن أسوارها، لكن ليس حول الأمـاكن البعيـدة، وهنا لايجوز أن نفهـم العبـارة بشكل حـرفي، لأنه ذهب إلى القول في الفصـل الأول نفسه بأنه ينوي أن يقـدم وصفاً مختصراً فقط للناصرة وللأماكن القائمـة بينها وبين القدس، وينبغي ألا ننسى هنا أنه على الرغم من وجود الحكومة الفـرنجية، كانت مناطق كثيرة غير آمنة، وكـان على الحاج أن يـرضي نفسـه بـزيارة أمـاكـن قليلـة، وكـانت هـذه الأماكن بـالنسبة للأتقياء هـي الأكثر أهمية، ونستخلص من هـذا كله أن

- ٢٢٤٤

وصفه للكثير من الأماكن يعوزه الاشراق والجدة والحداثة التي يأتي بها شاهد العيان، لابل أكثر من هذا نجد في كثير من الأوصاف لأماكن قد زارها كاهننا وورزبيرغ أنه نسخ بشكل مصطنع أوصافها عن آخرين، مثلما يفعل في أيامنا حب النسخ حيث حرك عدداً كبيراً من الأقلام للعمل، وعلى كل حال سواء أدعينا هذه أعمال نسخ، أو مشاهدات حاج، نجد أنها إذا كانت قد صنعت بلطف ومرونة وليس بشكل آلي، تمتلك العذر، لا بل تستحق التشجيع، لأن الحقائق التاريخية للعصور القديمة لا يمكن اختراعها .

ولغة المؤلف لغة لاتينية عادية للعصور الوسطى، لكنها أقل صقلاً من لغة ثيودورك، وكثير من أوصافه واضحة ومميزة، وبقدر ما يمكن أن يكتبه رجل متعلم، ومن غير الممكن اضفاء الكثير من المدح على ترتيبه لمواده، لأن هذا الترتيب متداخل ومشوش جداً، وقد صنع عدة ايماءات إلى الأختام السبعة لرؤيا القديس يوحنا، وقد جرى حذف هذا كله في هذه الطبعة .

- ٢٢٤٥ -

رسالة تكريس

يتمنى جون الذي هو الآن بنعمة الرب في كنيسة وورزبيرغ : الصحة، ورؤية القدس السماوية لأصدقائه المحبوبين ولتابعه ديترخ الذي نصيبه في ذلك هو نفسه .

إن معلوماتي عن أوضاعكم المعنوية، مشابهة تماما للمعلومات عن الرجال الجيدين، وكذلك بشأن حماستكم العظيمة لخدمة الرب وإطاعته، وذلك إلى جانب الروابط المتعلقة بالشؤون المنزلية، وحثني هذا بوساطة الحب لتنفيذ رغباتكم ـــ التي أفترض أنها دوما من جانبكم عادلة ولطيفة ـــ وما من رغبة من رغباتكم، تحتاج إلى جهودي لانجازها، وهي بقدر ما يمكن لطاقتي الوصول إليه، سوف لن تتحقق بشكل كامل ومرض، ولهذا السبب، إنني عندما ذهبت للحج إلى القدس من أجل حب ربنا يسوع المسيح، مع هذا إنني لم أنسكم أنتم الذين كنتم غياب، ومن خلال عواطفي نحوكم توليت وصف الأماكن المبجلة، التي قدسها ربنا، منقذ العالم بحضوره الجسدي، مع أمه مريم الرائعة، العذراء دوماً، وعساكره المحترمين من الحواريين، وأكثر بشكل خاص مدينة القدس المقدسة، وسيكون وصفي واضحاً ودقيقاً بقدر ما أستطيع، وأيضاً بذلت جهدي بوساطة قلمي لأن أقوم بجمع النقوش الكتابية الموجودة هناك، سواء ما كان مكتوباً منها نثراً أو شعراً.

وأعتقد أن هذا الوصف سوف يكون مقبولاً لديكم، للسبب التالي، وهو أن كل واحد من هذه الأماكن سيكون معروفاً لديكم من خلال هذا الوصف، حتى إذا حدث وذهبتم إلى هناك بقدر رباني وحماية سماوية، سوف تقدم هذه الأماكن نفسها إلى أعينكم بشكل طبيعي، ولسوف تجدونهم بدون تأخير أو صعوبة، بمثابة أماكن معروفة تماماً، أو

إذا حدث ولم تذهبوا إلى هناك ولم تروهم بأعينكم مباشرة، مع هذا يمكنكم بمثل هذه المعرفة تخيلهم والحصول على المزيد من الشعور الديني بقداستهم، وأنا أعرف تمام المعرفة، أنه قبل الزمن الحالي قد وصفت هذه الأماكن كتابة من قبل رجل محترم (لعله أركولف أوبيد)، وشمل الوصف ليس فقط هذه الأماكن نفسها الموجودة في القدس، لابل حتى الأماكن الواقعة على مسافة كبيرة منها، ومهما يكن الحال، بما أن المدينة غالباً ما تمّ الاستيلاء عليها وتهديمها من قبل الأعداء، خلال المدة الطويلة التي مرت منذ ذلك الحين،نجد أن هذه الأماكن المقدسة نفسها، التي نقدرها كثيراً، مما هو موجود داخل أسوارالمدينة، أو مما هو موجود على مسافة وجيزة خارجها، قد تعرض للهدم، وربما لتغيير الشكل فيما بعد، ولهذا السبب إن عنايتنا الدينية نحو مواقعها، التي تولينا وصفها كشهود عيان، ينبغي أن لايظن أنها من نافلة القول أو غير ضرورية، وعلى كل حال إنه فيما يتعلق بالأماكن القائمة بعيدا في المناطق المجاورة، لم نكلف أنفسنا بالكلام عنها، لمعرفتنا أنها قد وصفت بما فيه الكفاية من قبل آخرين.

وصف جون أوف وورزبيرغ للأرض المقدسة

الفصل الأول

إنه الآن بما أن انقاذنا قد بدأ في مدينة الناصرة، من خلال تجسيد ربنا، فهناك تم الاعلان بوساطة الملاك، لذلك نقترح أن يبدأ الوصف مع هذه المدينة نفسها، التي تقع على نحو ستين ميلاً عن القدس، وأن نمر بسرعة وباختصار بالأماكن القائمة بينها وبين المدينة المقدسة، على أننا نعلم بأن آخرين قد كتبوا أكثر حولهم.

ومدينة الناصرة التي تبعد عشرة أميال عن طبرية هي البلدة الرئيسية في الجليل، وقد تدعى « مدينة المخلّص»، لأن الحمل به جرى فيها،

وفيها أيضاً نشأ، ولهذا دعي بالناصري(١)، ويفسر بعضهم كلمة الناصره بأن معناها هو «الزهرة» أو «النبتة»، وهي حقاً جديرة بهذا الاسم، لأن هناك نمت الزهرة التي فاح شذاها فملأ العالم أجمع، والزهرة هي العذراء مريم، التي أعلن إليها هناك رئيس الملائكة جبرائيل أنها سوف تحمل بابن العلي الأعلى حيث قال لها: «سلام لك يامريم»الخ، وقد أجابته بقولها : «هو ذا أنا أمة الرب». (لوقا: ١/ ٢٨—٣٨)، وعن الناصرة قيل: « هل يمكن لشيء جيد أن يأتي من الناصرة»؟، ويجري في الناصرة النبع الصغير الذي اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء، ويأخذه إلى أمه.

وعلى ميل من الناصرة باتجاه الجنوب يوجد المكان الذي يدعى «الجرف»، ففي أسفله وقف الذين رغبوا في رميه نحو الأسفل، لكنه في لحظة اختفى عنهم، وفي هذا اليوم يدعى هذا المكان باسم «قفزة الرب».

والمدينة الثانية التي تبعد عن الناصرة مقدار ميل هي مدينة صفورية، وهي قائمة على الطريق الذي يقود إلى عكا، وقد جاءت حنة أم مريم، التي هي أم ربنا، من صفورية، وقد قيل أيضاً بأن العذراء المباركة مريم قد ولدت في صفورية، لكن تبعاً لجيروم، حسبما يخبرنا في توطئة الكتاب حول ميلاد مريم المباركة، الموجه إلى هيليودوروس Heliodorus :

١— ينبغي أن نميز هنا بين كلمة «ناصري» و«نصراني»، فالنسبة إلى الناصرة «ناصري» لكن ليس نصراني، هذا ويعتقد بعضهم بأن التسمية الأخيرة. قد استخدمت للمرة الأولى في أنطاكية من قبل بولص الرسول، لأنها الاسم المناسب للعقيدة الجديدة المزيجة بالغنوصية، وذلك استناداً إلى إللغة السريانية ووثائقها التي تعود إلى تلك الآونة، وأحدث من هذا مارآه بعضهم أن النسبة هي إلى نوع من السمك يصاد في خليج العقبة يحمل اسم نصراني، ويمضي هؤلاء إلى القول بأن مسرح احداث الانجيل المبكرةهي شواطيء العقبة، لأن مدينة الناصرة لم تكن موجودة آنذاك، وتبقى هناك مشكلة تحتاج إلى حل، هي أن صائبة العراق يسمون أنفسهم نصارى، ويقولون إن نبيهم هو يوحنا المعمدان، أي النبي يحيى عليه السلام.

قد روي بأنها ولدت في مدينةالناصرة نفسها، وفي الغرفة نفسها تحدثت فيها بعد وهي طفلة مع الملاك، وهذا ما يزال يرى في بعض الأماكن الخاصة، وذلك حسبما رأيت أنا ولاحظت.

وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة، وميلين عن صفورية، باتجاه الشرق، تقوم قانا الجليل التي جاء منها فيليب وناثائيل، وحيث كان المسيح الطفل وقت جلوسه مع أمه أثناء حفلة عرس، فحول الماء إلى خمرة. وعلى مسافة أربعة أميال من الناصرة، بإتجاه الشرق، يقوم جبل الطور، حيث تحول يسوع بحضور حوارييه، ونذكر منهم: بطرس وجيمس، ويوحنا، وكذلك موسى والياس، ويحتفل بعيد ذلك بشكل مهيب في القدس وذلك في يوم عيد القديس سكستوس Sixtus (٦— آب)، ولاسيما من قبل السريان، لأن هناك سمع صوت الآب يقول: «هذا هو ابني الحبيب» الخ. (متى: ١٧/ ٥)، وقدمنع بطرس ويوحنا وجيمس من إخبار أي إنسان بما رآه، وذلك حتى يقوم ابن الانسان من الموت، وهنا قال بطرس: « يارب جيد أن نكون هنا» (متى: ١٧/ ٤) الخ. وعلى مسافة ميلين من الطور، بإتجاه الشرق يقوم جبل حرمون، وعلى الطريق عند سفح حرمون، التقى ابراهيم وهو عائد من قتل أمالك بالمولى ملكيصادق، الذي كان هو نفسه سام بن نوح، وكاهن سالم، وهو الذي منحه خبزاً وخمرة، وهو نمط مذبح المسيح تحت النعمة.

وعلى ميلين من الطور مدينة «نعين» التي رد يسوع عند بابها إلى الحياة ابن الأرملة، الذي يسميه السكان المحليون باسم بارثلميو، وهو الذي أصبح فيما بعد حواريا، وفوق نعين جبل عين دور (جبل الدحي)، الذي عند سفحه، إلى جانب نهر كادوميم Cadumim، والذي يدعى أيضاً باسم نهر قيشون، غلب باروخ بن عمون الأدوميين، وذلك بناء على رأي النبية دبوره، وذلك عندما قتل سيسرا من قبل ياعيل زوجة حابر القيني، وطارد بساروخ ذئب، وزبح، وصلمناع عبر الأردن وقتلهم

بالسيف، ودمر جيشهم تحت جبل عين دور وقربه (القضاة: ٤؛ ٧/ ٢٥؛ ٨/ ١٢)، وهكذا جاء في المزامير: «الطور وحرمون باسمك يهتفان» (المزامير: ٨٩/ ١٢)،الخ، وعلى مسافة ستة أميال من الناصرة وخمسة أميال من نعين تقوم مدينة يزرعيل التي تعرف أيضاً باسم زرعين، وهي التي تعرف الآن بشكل عام باسم «جينين الصغرى» ومن هذه المدينة كانت ايزابل، الملكة الأكثر شراً، التي انتزعت من نابوت اليزرعيلي كرمه، وهي التي لجشعها رميت نحو الأسفل من أعلى قصرها وقتلت، ومازال جبلها (هرمها) يُرى حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من يزرعيل سهل مرج ابن عامر، الذي فيه غُلب أوزياس Ozias وقتل من قبل ملك السامرة، ثم حمل فيما بعد إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى مسافة ميل من يزرعيل يقوم جبل جلبوع (فقوعه) الذي تحارب عليه شاؤول ويوناثان، ولهذا قال داود: « ياجبال جلبوع لايكن طل ولامطر عليكن» (صموئيل: ٢/ ١/ ٢١) الخ. وعلى مسافة ميلين من جلبوع باتجاه الشرق تقوم مدينة بيسان، وهي المدينة الرئيسية في الجليل، وهي تعرف أيضاً باسم بيت شان (بيت الثعبان) أي بيت أو مدينة الشمس، فعلى أسوارها علقوا رأس شاؤول، وعلى خمسة أميال من يزرعيل تقوم مدينة «جينين»، التي تدعى الآن الكبرى أو جينين الأكبر.

الفصل الثاني

ومع مدينة جينين تبدأ منطقة السامرة، ويمتد بينها وبين سبسطية سهل يدعونه باسم دوثان، ففي هذا السهل هناك إلى جانب الطريق الصهريج القديم الذي وضع فيه يوسف من قبل أخوته، وعلى بعد عشرة أميال من جينين تقوم مدينة السامرة التي تدعى أيضاً باسم سبسطية، وأوغسطة نسبة إلى أوغسطس، وفيها دفن رائد الرب، يوحنا المعمدان، الذي قتل صبراً من قبل هيرود، فيما وراء الأردن، وذلك على مقربة من البحر الميت في قلعة مكور،لكن جسده حمل من قبل حوارييه

وجلب إلى سبسطية، ودفن فيها بين إليجيا وعوبيديا، وأخذ جسده فيها بعد من هناك من قبل يوليان المرتد، حيث يقال بأنه قد أحرق، وذر رماده في الريح، لكن ذلك كان بدون الرأس، حيث كان قد حمل قبل ذلك إلى الاسكندرية، ومن هناك إلى القسطنطينية، وأخيراً إلى فرنسا حيث دفن في مقاطعة بواتو، وذلك من دون اصبع السبابة التي أشار بها إلى يسوع ليأتي حتى يعمد، قائلاً: «انظروا حمل الرب»الخ، وأخذت هذه السبابة وحملت من قبل العذراء المباركة تقلا، إلى جبال الألب، وحفظت هناك وسط كثير من الاحترام في كنيسة (القديس يوحنا دي) مورين Maurienne. ويطلق اسم السامرة ليس على المدينة فقط بل على المنطقة أيضاً.

وعلى مسافة أربعة أميال من السامرة تقوم مدينة نابلس، التي تدعى أيضاً باسم شكيم، وهي قائمة فيها بين دان وبيت إيل، وحملت هذه البلاد اسم شكيم نسبة إلى شكيم الذي كان والده حمور، وشكيم هو الذي اغتصب دينه، عندما كانت تتمشى في بريته. وإلى شكيم جلبت عظام يوسف من مصر، وفي شكيم، وقرب النبع صنع يربعام العجلين من الذهب، ومثله مثل هرون جعلهما يعبدان من قبل عشرة أسباط تمكن من إغوائها، واقتادها معه، مبعداً إياها عن القدس، وأقام واحداً من هذين العجلين في دان، ووضع الآخر في بيت إيل، وقد دمر أبناء يعقوب مدينة شكيم هذه، وقتلوا حمور، لأنهم قد غضبوا كثيراً بسبب مضاجعة أختهم دينة،، وتدعى شكيم في هذه الأيام باسم نابلس، أي المدينة الجديدة، وتقع العسكر أمام شكيم (إلى الشرق)، قرب الحقل الذي أعطاه يعقوب إلى ابنه، وفيه يوجد بئر يعقوب، وهو أيضاً البئر، الذي حكي لنا في الإنجيل بأن الرب يسوع قد جلس فوقه، عندما كان متعباً من السفر، وتحدث إلى امرأة سامرية، وقد بني الآن في هذا المكان كنيسة، وعلى مقربة من شكيم توجد البطمة التي أخفى يعقوب تحتها

الأصنام في بيت إيل، وعلى مسافة ميل واحد عن شكيم تقوم مدينة لوز (خربة لوزه)، ففيها عاش إبراهيم لمدة طويلة، وهناك أيضاً رأى يعقوب في المنام السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة ينزلون ويصعدون بوساطته، وقال مباشرة عندما أفاق :« ما هذا إلاّ بيت الرب، وهذا باب السماء» (التكوين: ٢٨/١٧). وأقام عموداً ذكرى لهذا، وصب عليه زيتاً، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، حيث كان اسمه من قبل لوز، وتقوم بيت إيل الآن على جانب جبل جرز يم، وهو الجبل الذي يتوجه نحو جبل جبعال (عيبال) باتجاه الشمال، مقابل دان، ووراء شكيم ، ويحكى أنه في جبل شكيم هذا حاول إبراهيم أن يضحي بابنه.

وعلى مسافة عشرين ميلاً من شكيم وأربعة أميال من القدس، وذلك على الطريق الذي يقود إلى اللد،هناك سيلو Silo (النبي صموئيل) وهو جبل ومدينة، تدعى أيضاً راما، فهناك بقي تابوت العهد وخيمة عهد الرب من أيام قدوم بني اسرائيل حتى أيام النبي صموئيل والملك داود.

الفصل الثالث

تقع القدس على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من شكيم، وستة عشر ميلاً من بيسان، وسبعة عشر ميلاً من الخليل، وعشرة أميال من أريحا، وأربعة أميال من بيت لحم، وستة عشر ميلاً من بير السبع، وأربعة وعشرين ميلاً من عسقلان، والقدر نفسه من يافا، وستة عشر ميلاً من الرملة، والقدس هي المدينة الأكثر قداسة في اليهودية، وتدعى أيضاً باسم صهيون، ومن هذا المنطلق قد قيل: « قد قيل بك أمجاد يا مدينة الرب» (المزامير: ٨٧/ ٣)، وعرفت أيضاً باسم إيليا، ذلك أنها نالت هذا الاسم من إيليوس هدريانوس، الذي بناها، أو بالحري غيرها.

وتبعاً للفلاسفة تقوم القدس التي هي الحاضرة الرائعة لليهودية في وسط العالم، وقد حكم فيها داود أربع وثلاثين سنة ونصف السنة،

ويوجد في القدس جبل موريا، الذي عليه رأى داود الملاك يطعن الناس ويضربهم بسيف مجرد (صموئيل: ٢٤/ ١٦—١٧)، وخشية منه أن يتعرض هو والمدينة للعقوبة لأنه أذنب في تعداد الناس، انكب على الأرض في توبة حقيقية، وانفعال عميق، وقد سمعه الرب، ونال العفو، وعن داود قال الرب:« لقد وجدت رجلاً مطابقاً لقلبي»، وكان على جبل موريا عندما كان داود ملكاً مكان بيدر عرونة اليبوسي، ومنه أراد داود أن يبتاعه ليبني هناك بيتاً للرب، لأنه تلقى رحمة منه ومغفرة في ذلك المكان، وأمسك ملاك الرب بيده وأبقاه هناك، وقد اشتراه، لكنه منع من قبل الرب من الشروع بمثل هذا العمل، بسبب أنه كان رجل دماء (أخبار الأيام: ١/ ٢٨/ ٣)، وبناء عليه سلم الكنز الذي أعدّه لهذا الغرض إلى ابنه سليمان، الذي أذن له من قبل الرب ببنائه، وذلك حتى يتمكن من بناء بيت للرب.

وبنى سليمان على أرض البيدر هيكلاً، صار يدعى باسم بيت إيل، ومذبحاً، كرسه مقابل نفقات واسعة، وسأل الرب أن كل من سوف يبتغي الاستخارة حول أي مسألة مهما كانت، ينبغي أن يصغى إليه وهو المطلب الذي ناله ومنح له من قبل الرب، وبناء عليه إن بيت الرب هو بيت الاستشارة، وعاقب الرب فيما بعد ذنوب الأمراء والشعب بجعل«نبوخذنصر» يقوم بتشعيث الهيكل على أيدي «نبوز دان» الذي كان كبير قواده، وحدث ذلك أيام الملك صدقيا، الذي حرم من مدينته، وحمل كل شيء جميل كان في المدينة أو في الهيكل إلى بابل من قبل نبوخذ نصر، وأمر بسوق الناس أمامه إلى بابل، وبعد أمد وجيز هدم الفرعون نيكو Necho كل من الهيكل والمدينة، والآن على كل حال، خشية مني أن تبدو الحكاية مضحكة بالنسبة للمروية له، ومتعبة للمستمع، كنت سأقوم بتعداد تحت أي ملوك وبوساطة من كان البناء، ثم كان تهديم الهيكل الأول، ثم الهيكل الثاني، ثم الهيكل الثالث، ومتى حدث ذلك،

وإنني سوف أحاول جاهداً ياأحبائي الأصدقاء، أن أقدم أصدق رواية بإمكاني تقديمها حول مدينة بيت إيل الحالية، فبالنسبة لبيت إيل الحالية، إنه غير معروف تماماً في أيام حكم أي ملك قد استردت وأعيد اعمارها، ذلك أن بعضهم يقول إنها بنيت من جديد في أيام حكم الامبراطور قسطنطين، وذلك من قبل أمه هيلانة (حنة).وذلك تشريفاً للصليب المقدس، الذي عثر عليه من قبلها: وبنيت أماكن أخرى من قبل الامبراطور هرقل، تشريفاً لصليب الرب الذي أعاده من خلال نصره على فارس، كما وبنيت أماكن أخرى من قبل الامبراطور جستنيان، وشيدت أماكن أخرى من قبل ملك القاهرة (ممفيس) في مصر، تشريفاً لـ «الله الكبير»، لأن إليه تتحد جميع اللغات في التعبير عن عباداتها التقوية، وأقول أنا، إن الهيكل الحالي، هو المكان الذي— حسبما روي لي — جرى فيه ختن الطفل يسوع في اليوم الثامن من ولادته، وحملت غرلته بوساطة ملاك من السماء، من القدس وقدمت إلى شارلمان، وهذا الملك الكبير هو الذي جلبها إلى بلاد غاليا، إلى اكس لاشابيل (آخن)، ثم نقلت فيما بعد بوساطة شارل الجريء إلى أكوتين، إلى مقاطعة بواتو إلى كنيسة تشارو Charroux ، التي بناها لنفسه تشريفاً لمخلصنا، ومنحها بشكل ملكي بوفرة وافرة من الممتلكات، ووضعها تحت الاشراف الديني للرهبان، وهذا الأثر المقدس محفوظ فيها منذ ذلك الحين بشكل مهيب، وهو يُتعبد هناك.

الفصل الرابع

ودعونا الآن بالنسبة لتقديم ربنا نضيف أنه على كل حال فيما يتعلق بختانه — الذي حدث في هيكل الرب في اليوم الثامن — أن هذا الطقس وإن كان قطع الجلد يرمز فيه في أذهان الناس إلى طرح الشرور جانباً، إنه في الحقيقة ينتمي إلى العهد القديم، وبالمسيح وصل إلى كماله، وينبغي من ذلك الوقت فصاعداً أن يتوقف، ولا يعد الختان بين طقوس

القداسات في العهد الجديد، كما أنـه لايتعلق مع أي من الأختام السبعة، وكما قلنا من قبل، أحضر ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل بـوساطة أمه، وقد وضع بين ذراعـي سمعان المقـدس، الذي بـدأ يقـول باسم روح النبـوة: «أيها الرب، ذق الآن أنت فراق عبدك»، الـخ، وبينما كان ربنا يسوع مقيماً في القدس، وكـان قد وصل إلى الثانيـة عشرة من عمره، أخـذ يتناقش في الهيكل مع اليهـود، وغالباً مااعتـاد فيها بعد على تعليمهم، مع أنهم كـانوا يكـرهـونه، وامتـدح في الهيكل تقـدمـة الأرملـة الفقيرة، التي وضعتهـا في الخزينـة، لأنها أعطت كـل مـا كان لـديها، وأوقـف الشيطـان عيسى على الـزاوية العليـا للهيكل، المعتقـد أنها فوق طـرف الجدار الخارجي، وكـان تحتهـا نـوافـذ بـدت وكـأنها بينـاس Pinnas ، أو سينـاس Cinnas ، (كذا؟)، وأغـراه للمرة الثـالثة، وبسبب تعميـده وصومه قـال: «إذا كنت ابن الرب ارم نفسك من هنـا». ويروى أن المباركة مريم عنـدما كانت في الثالثة من عمـرها، كانت موجودة في هيكـل الرب، وذلك في يوم ٢١ — تشرين الثاني، وذلك حسبما تعلمنا هذه النقوش المكتوبة شعراً:

«في الثالثة من عمرها، ومعها سبعة من الرفاق الأعزاء

كرست أمة الرب ووهبت هناك».

وكانت غالباً ماتتلقى الارشاد من الملائكة، حيث جاء في الشعر:

«بخبز الحياة أطعم الملائكة

العذراء المباركة وقت حاجتها».

وكان تقـديم العـذراء المباركـة وحضورهـا في الهيكل قد وقـع يوم ٢١ تشرين الثاني، ولهذا يتلى الدعاء التالي في الهيكل نفسه:

دعاء

«يارب، يـامن كنت بعد ثلاث سنـوات مسروراً لتتلقى في الهيكل الأم

المقدسة للرب، التي هي هيكل الروح القدس، تفضل بقبول صلوات شعبك المؤمن، وامنحنا نحن الذين نحافظ الآن على عيد تقديمها، أن نتمكن نحن أنفسنا فنكون في هيكل يُجعل لك لتقيم به، من خلال مولانا»، الخ، الخ.

ولقد رمى مولانا يسوع المسيح وطرد البائعين والشراة من الهيكل، والبرهان على هذا أنه مايزال هناك في الجانب الأيمن من الهيكل مرئياً حتى هذا اليوم صخرة تعامل بتبجيل كبير، وهي مغطاة بمصباح وبزينة، لأن الرب مشى عليها، وهي ماتزال تحمل علامة قدم الرب، وكان قد وقف عليها لوحده بوساطة القوة الربانية، وتصدى لعدد كبير من الرجال، وألقى بهم بالقوة إلى الخارج: وهذه الصخرة موصولة بصخرة أخرى، ويوجد فوقها كما لوكان فوق مذبح رسماً لحضور مولانا هناك، وهذا مرئي في الصورة هناك وفي النقش الكتابي الفائق عليها الذي جاء فيه مايلي:

«ملك الملوك الذي ولد من أم عذراء

كان موجوداً هنا. هذه أرض مقدسة.

هنا رأى يعقوب السلم، وهنا بنى

مذبحه. علّنا نتمكن من تعليق أعطيات حوله».

لكن بالنسبة ليعقوب، الذي رسم وقد وضع رأسه فوق الصخرة نفسها، عندما رأى في منامه السلم الواصلة حتى السماء، الذي كان الملائكة يصعدون عليه وينزلون، ومع جميع الاحترام للهيكل، هذا ليس صحيحاً، مع أن الشعر التالي قد كتب هناك:

«يعقوب، هذه ستكون أرضك

وأولادك من بعدك»

لكن هـذا لم يحدث هنا، لكن في مكـان آخر بعيـد جداً، لأنـه كان في طـريقه إلى بـلاد الرافـدين، أي كـان على مقربـة من مـاهو ميريـا Ma-humeria ، الكبرى (البيرة).

وفي الهيكل أطلق ربنا سراح المرأة التـي أمسكت بتهمة الزنا، وحـررها من الـذين اتهموهـا بقولـه: «من هـو الذي بـلا ذنب» الخ، وقـال أيضاً عنـدمـا كان متهمـوهـا يـذهبـون بصمت: «أيتهـا المرأة، اذهبي بسـلام، ولاتذنبي من بعـد الآن». ويعرض المكان للمشاهـدة داخل كهف صغير في الهيكل نفسه، ومدخله هو على الجانب الأيسر للهيكل ويدعى «مكان الاعتراف»، وقد قيل بأن زكـريا قد دخل إلى المكان نفسه، عندمـا أكد له الملاك خبر الحمل بيحيى، وكل هـذا قـد شرح بـوسـاطـة صـورة، كتب عليهـا مـايلي: «قال الملاك لـزكـريـا: لاتخش يـا زكـريا لأن دعـاءك قـد استجيب» الخ، وعلى الافريز فوق البـاب هناك تمثال للمسيح مع النقش التالي:

«من الذنب حررت أنا الناس

إذاما اعترفوا بذنوبهم لي».

وفي الهيكل، وقرب مذبح قـائم في الهواء الطلق، يبعد عن الهيكل أكثر من اثنتين وعشريـن خطوة، عـانى زكـريا بـن براخيـا من الموت شهيـداً، وعلى هـذا المذبح اعتـاد يهود العهد القـديم على تقـديم الطيـور والحمام، وقد غير بعد ذلـك من قبل المسلمين إلى مزولة، ومن الممكـن رؤيته حتى هذا اليوم، وهـو ملاحظ لأنه حتى هذا اليـوم يأتي كثير من المسلمين إليه للصـلاة، لأنه يشير نحـو الجنـوب، وهـو الاتجاه الذي يتجهـون إليـه في صلاتهم.

والآن إن هذا الهيكـل نفسه، هيكل الـرب، قد زيـن من قبل أحـدهم بألـواح رائعة من الـرخام وذلـك من الداخـل ومن الخارج، ولهذا الهيكل

شكل مستدير، أو بالحري دائري ثماني، أي له ثمانية أضلع، منتظمة على شكل دائرة، وجدرانه كلها مزينة من الخارج، من الوسط نحو الأعلى بأجمل أنواع الفسيفساء، لأن البقية من الرخام، وهذا الجدار المنخفض نفسه مستمر، باستثناء أنه مخروق بأبواب أربعة، حيث يتجه أحد الأبواب نحو الشرق، وهو ملتصق ببيعة مكرسة للقديس جيمس، لأنه رمي من ذلك الجانب من سقف الهيكل نحو الأسفل، ثم قتل بعصا القصار، ذلك أنه كان أول كاهن أعلى في ظل الشريعة الجديدة للنعمة في القدس، ولهذا فإن الأبيات الشعرية التالية قد نقشت في البيعة نفسها، على جانب الجدار:

«ابن ألفيوس، شبيه المولى بالوجه

رمي من الهيكل، فهلك في هذا المكان

هنا الجمهور الضال، بعصا القصار

قتل جيمس العادل، لأنه بشر بالمسيح علناً»

وكتب في أعلى وداخل قبة السلسلة للبيعة نفسها مايلي:

«ابن ألفيوس، أخو ربنا

ناصرياً كان جيمس الذي بشر بالكلمة

اسرائيلياً، في الحقيقة، لم يوجد

به عيب — صياد سمك لبعض الوقت كان.

بأيد مدنسة رمي من أعلى الهيكل،

وضرب بعصا، وطارت روحه إلى المسيح».

ويوجد في الجانب الشمالي باب (باب الجنة) يقود إلى دير القانون،

وعلى الافريـز فوقـه كثير من الكتـابات الاسـلامية قـد نقشت، وفي ذلك المكان نفسه إلى جـانب ذلك الباب نفسه موقع الماء العـذب، الذي قال عنـه النبي: «رأيت مـاءً يخرج من هـذا الجانـب» الخ، وعنـد المدخل إلى الهيكل باتجاه الشرق، يوجد فوق السابـاط تمثال للمسيح، وقد نقش حوله النص التـالي: «بيتـي سـوف يـدعى بيت الصـلاة»، ولـه أيضـاً بـاب في الجنـوب (باب القبلـة)، يطل بـاتجاه بناء سليمان، وهنـاك بـالغرب أيضـاً باب (البـاب الغربي) يطل بـاتجاه ضريح ربنا، وهنـاك أيضاً بوابـة جميلة (باب السلسلـة)، من خلالها كـان بطرس مـاراً مع يوحنـا عندمـا أجاب الرجـل الأعرج الـذي سأل احسانـاً بقولـه: «ليس معي لافضـة ولاذهبا» الخ، ولكل مـن هذين المدخلين — أعني ذاك الـذي على الشمال والذي على الجانب الغربي — ستـة أبواب مرتبـة، كل باب بمصراعين: أي على الجانب الجنـوبي هنـاك أربعـة، واثنان فقـط على الجانب الشرقـي، ولكل مدخل من المدخلين مظلة جميلة.

هـذا فيما يتعلق بـالقسم المنخفض من الجدار، أمـا في القسم العلـوي حيث أشكال الفسيفساء الرائعة فهناك الآن نوافذ مقحمة بالجدار بشكل جميل، حيـث يوجـد خمس نوافـذ على كل جـانب من الجوانب الثمانيـة، باستثناء الجوانب التـي فيها أبواب الهيكل، فهذه في كل منهـا أربع نوافذ فقط، وهكذا يكون العدد الاجمالي للنوافذ سـت وثلاثون نافذة، وبين هذا الجدار الذي يشكل الاطـار الخارجي، والأعمدة الرخاميـة العظيمة، التي عـددها اثنـي عشر عموداً والتـي تدعـم الرواق الـداخلي الضيق، جـدار أعلى، وهـو جدار مستـديـر فيه اثنتي عشرة نـافـذة، ولها تحتها أربـع من السـواري الحجـرية المربعـة، ثم أعـود لأقـول: بين الجدار الأول والجدار الآخـر ستة عشر عمـوداً وثمانية مـن السواري الـرخاميـة المربعة، وهنـاك ثماني خطـوات بينهـم، وتدعـم كل سـارية على الطـرفين سقفاً، قـائماً بين الجدار الأكثـر اتساعـاً؛ والجدار الداخلي الأضيـق، موفـرة بذلـك مسافـة

للسير في أي اتجاه، وفيــهأنابيب من الرصاص لنقل مياه الأمطار، ويقوم فوق هذا الجدار الداخلي الضيق قبة مستديـرة عالية، مطلية من الداخل، ومغطـاة بـالـرصـاص من الخارج، ويـوجـد في أعـلاهـا تمثـال للصليب المقـدس، وكـان الـذي تـولى وضعه هـم المسيحيـون، وهـو مـزعج جـداً للمسلمين، ويـود كثير منهم عن طـواعيـة إنفـاق الكثير من الـذهب في سبيل إزالته، ومع أنهم يؤمنون بـآلام المسيح، إلا إنهم يحترمون هذا المعبد، لأنهم يعبدون خـالقهم فيـه، وهذه العبـادة ينبغي عدّهـا وثنية، بنـاء على رأي القـديس أوغسطين، الـذي أعلن أن كل شيء هـو كفـر، إذا لم يكن فيه إيمان بالمسيح.

ويوجـد حول الهيكل، وجـزئياً تحت سقفه في الجانـب الخارجي وذلك وأنت ذاهـب نحو الغـرب هذا النقـش: «علّ هـذا البيت يتمتع بسـلام دائم من الآب السرمـدي، ولتكن المبـاركة هـي المجد للـرب في موضعـه المقدس». وكتب على الطرف الجنوبي مايلي: «بني بيت الرب بشكل جيد على صخرة ثـابتة. مبـاركون الذين يسكنـون في بيتك، ولسوف يحمـدونك ويحمـدونك إلى الأبـد». ونقش على الجانب الشرقـي: «في بيتك أيها المولى سـوف يتحـدث جميع النـاس عـن مجدك». وكتب على الجانـب الشمالي: «هيكل الرب مقدس، والرب يعتني بـه، والرب هو الذي بناه». وكتب في داخل الهيكل بأحـرف كبيرة فوق «الكورنيش» الأعلى حول البنـاء، الدعاء التالي: «أيها الرب اسمع ترنيمتي» مع جوابها الشعري: «انظر إلي يارب»، وكتب على الكـورنيش أيضاً بـأحـرف ذهبية عـدة أبيـات من تـرنيمـة: «القدس المباركة».

وبني هـذا الهيكل وزين بشكل جميـل، وله على جـوانبه جميعـاً عتبات واسعة ومستـوية، مبلطة بحجارة متناسقة مع بعضها، وهناك عتبـة منها مربعـة الشكل ويصعد إليهـا من ثلاثـة جوانب، وفي الحقيقة بنيـت هذه العتبة بشكل رائع جـداً، وذلك تماشياً مع طبيعة الأرض، ولها في جـدارها

الشرقي مدخل واسع من خلال خمسة أقواس، قد تم وصلها بوساطة أربعة أعمدة عظيمة، وبهذا الشكل ينفتح هذا الجدار نحو البوابة الذهبية، التي مرّ خلالها ربنا في موكب نصر قبل اليوم الخامس من آلامه، وكان راكباً على ظهر أتان، وقد جرت تحيته من قبل أطفال يهود كانوا يحملون سعف النخل، وكانوا ينشدون أماديح ويقولون: «التحيات لابن داود»، الخ، وبقيت هذه البوابة دوماً بوساطة الوقاية الربانية دون أذى، مع أن القدس جرى الاستيلاء عليها منذ ذلك الحين وهدمت من قبل جيوش معادية؛ زيادة على هذا تحمل هذه البوابة ذكريات دينية بشأن دخول مولانا الرباني المليء بالأسرار، عندما قدم من بيت عنيا عبر جبل الزيتون إلى القدس، وكانت البوابة مغلقة من الداخل، ومسدودة بالحجارة من الخارج، ولم تكن تفتح لأحد من الناس إلا يوم أحد السعف، وهو يوم محدد كل سنة اتخذ تذكاراً لما حدث، وهي تفتح بشكل مهيب للمسيرة ولجميع الناس سواء أكانوا من سكان المدينة أو من الغرباء، وبعدما ينهي البطريرك موعظة القداس إلى الناس عند سفح جبل الزيتون، وعندما ينتهي القداس لذلك اليوم تغلق ثانية طوال السنة، كما كان الوضع من قبل، اللهم إلا يوم تمجيد الصليب المقدس. ففي هذا اليوم تفتح أيضاً، وعند نهاية أسوار المدينة وقرب أسفلها على مقربة من هذه البوابة يقوم موقع المقبرة المشهورة.

وللعتبة عند طرفها الجنوبي مدخل واسع، خلال ثلاثة أقواس واسعة موصولة مع بعضها بوساطة عمودين، ولها عند الطرف نفسه مدخل آخر أوسع من الأول، ويوجد على الطرف الغربي باتجاه المدينة مدخل جميل، من خلال أربعة أقواس موصولة بوساطة ثلاثة أعمدة من الرخام، وعلى الطرف الغربي من هذه العتبة جزء ضيق بسبب وجود دير قانوني بني فوقها، لكن المتبقي من ذلك الجانب هو جميل واسع، وله مدخل أخّاذ، ويوجد أيضاً على الطرفين الجنوبي والغربي فسحة مستوية، أنيقة وذات

حجم وافر، ويـوجد على الطرف الشمالي أيضاً قطعة مستـوية من الأرض، امتداداتها فيما وراء العتبة.(١)

ليكن هذا الـوصف للهيكل المتقدم الـذكر مع مـايحيط به كافيـاً، ولن نحسد أي إنسان يمكنه أن يكتب أفضل.

الفصل الخامس

وعندمـا تنزل إلى الشارع الرئيسي، تجد بـاباً كبيراً، بالدخـول منه تصير في داخل ساحـة واسعة تعود للهيكل، ويوجد على الطـرف الأيمن باتجاه الجنوب قصر قيـل إنه بني مـن قبل سليمان، حيث يـوجد هنـاك اسطبل رائع، له حجـم هائل يمكن أن يستوعـب أكثر من ألفي فـرس، أو ألف وخمسمائة جمل، ويمتلك فـرسان الداويـة إلى جانب هـذا القصر كثير من الأبنيـة الـواسعة المتصلـة مع بعضهـا، وهنـاك أيضـاً أساسـات لكنيسـة جـديدة وواسعـة، هي لم تنتـه بعـد، لأن تلك الـرهبنة تمتلـك الكثير من الممتلكـات وموارد لاتعـد ولاتحصى في كل مـن هذه البـلاد وفي منـاطق أخـرى، وهي تقـدم مبلغاً كبيراً مـن المساعـدات إلى الفقـراء في المسيح، لكن ذلك لايعدل عشر مايقدمه الاسبتارية، ويمتلك بيت الداوية أيضاً عـدداً كبيراً جـداً من الفـرسـان لحمايـة أرض المسيحيين، لكنهم أصيبـوا بانتكاسة، لست أدري أهي صحيحة أم مزيفة، لطخت سمعتهم وسببت إتهامهم بـالخيانـة، الأمر الذي تبرهنـت صحته بشكل واضـح، في قضية دمشق المعـروفة، في ظل قيـادة الملك كـونراد (الثـالث ملك ألمانيـا الذي حاصر دمشق مع قوات الحملة الثانية).

١ـــ في العبارة الأخيرة إشارة إلى منطقـة الحرم، وبما أن حديث الرحالة هنا ووصفـه قد تناول المسجد الأقصى، فالقيمة كـامنة في وصفه للتغييرات والإضـافات التي أحـدثها الصليبيـون، أما مابناه مـن معطيات تاريخية فـلا قيمة له، لأن المسجد بني بعـد الفتح الاسلامي على بقعة فـارغة بـدون بنـاء، كما ثبت مـن خلال الحفـريـات الأثـريـة أن القـدس لم تعـرف لاهيكل أول ولاثـاني ولاثالث.

وإلى جانب أبنية الداوية، على الجانب الشرقي، وفوق سور المدينة، كان مسكن سمعان العادل، حيث قيل بأنه استقبل فيه مراراً مريم العذراء المباركة، أم ربنا، باكرام وترحيب، حيث رعاها وأعطاها طعاماً، وقد فعل ذلك ليلة النهار الذي كان اليوم الرابع عشر لميلاد ربنا، ولقد كان عليه تقديم الطفل وأمه في الهيكل، وبينما كان حاملاً إياه بين ذراعيه، وكان سيقدمه أمام المذبح، شعر بروح النبوة، أنه سيكون هو، المنتظرمنذ أزمان طويلة مضت، والمتطلع إليه برغبة صامتة من قبل الآباء الأقدمين، فغنى بشكل نبوي وقال: «مولاي، دعو أنتم الآن عبدكم يغادر بسلام» الخ، وفي هذا البيت نفسه، الذي تحول الآن إلى كنيسة يرقد مدفوناً سمعان المبارك، وذلك حسبما يخبرنا به الشعر الذي كتب هناك، وفي الأسفل، في قبو هذه الكنيسة نفسها، مايزال المهد الخشبي العائد للمسيح موجوداً، ومحفوظاً، وهو معروض بتبجيل عظيم.

الفصل السادس

عندما كان وقت آلام ربنا يقترب، جاء ربنا يسوع إلى بيت عنيا في وقت متأخر في المساء، قبل أحد السعف، وفي اليوم التالي — أي في يوم الرب — دخل إلى المدينة المقدسة بالشكل المهيب الذي كنت قد تحدثت عنه، وتقع بيت عنيا على مسافة ميلين عن القدس، وهي البلدة التي غالباً ماكان يستقبل سمعان أو لعازر فيها المولى يسوع كضيف وعندما كانت مريم ومرثا تعتنيان به بإيمان واخلاص، وفي بيت عنيا كسرت مريم المجدلية الصندوق المرمري، ولكي تظهر تفانيها وإيمانها صبت الدهن الثمين على رأس المخلص، عندما كان جالساً إلى المائدة، وامتلأ ذلك البيت بشذى رائحة ذلك الدهن، وقيل أيضاً أن مريم المجدلية قامت في المكان نفسه، أو بالحري في مكان آخر، هو بيت سمعان المجذوم، وذلك قبل وقت طويل، عندما كانت ماتزال مذنبة، دفعتها توبتها للإرتماء عند قدمي مولانا، عندما كان جالساً إلى مائدة، وغسلت

قدمي يسوع بـدموعها، وجففتهما بشعرها، ودهنتهما بدهـن آخر، هو دهن التوبة، وذلـك حتى تنال من الرب العفـو عن ذنوبها. وبناء عليه عنـدما نجد في أي مكان من الكتابات المقـدسة بأن مريماً أخرى جاءت وارتمت عند قـدميه، وواحـدة أخرى هي التـي دهنت رأسه، شرح ذلـك علماؤنا وبينـوا أنها كـانت واحـدة أخـرى — أي كـانـت امـرأة متغيرة — لأنها جاءت في المرة الأولى كمذنبة تتحرق للتوبـة، وجاءت في المرة الثانية امرأة قد تيسب عليها وهي مليئـة بالـوجد والإيمان، ويـوجد الآن داخـل أسوار المدينة المقدسـة كنيسة، قائمة على مقـربة من كنيسة القـديسة حنة، على الجانب الشمالي قرب سـور المدينة، هي مكرسة على شرف القديسـة مريم المجدلية، ويعيش فيهـا رهبان يعاقبة، قد ذكـروا أن بيت سمعان المجذوم كـان قائماً على تلـك البقعـة، وهو الـذي دعـا ربنـا إلى عشاء، في أثنـائه جاءت مريم المجـدلية وارتمت على قدمي يسوع، وقد غسلتهما بـدموعها، وقبلتهما، ومسحتهما بشعـرهـــا، ودهنتهما بـدهـن، وهـم يـؤكـــدون هــذا، وبالفعل يعرضـون للمشاهدة المكان عينه (وقد رسم على الأرض بـوساطة صليب) المكـان الـذي ارتمت فيه مـريم على قـدمي يسـوع، وبرهنـا على ذلك بوسـاطة صور، وهـم يعرضـون للمشاهدة في هذه الأيام شعـر مريـم الموجود داخل وعاء شفاف موضوع فوق تلك البقعة.

وقالوا أيضـاً هناك مريـم أخـرى، هي التي كانت أختاً لكـل من لعازر ومرثـا، وهي التي كسرت صنـدوقاً مـن المرمر في بيت عنيـا، التي كـانت هي البلـدة التي عـاش فيها الثـلاثة، وصبت زيتـاً ثميناً على رأس ربنـا: ويحكى أن ضريحهـا مـرئي في هذا اليـوم في طبريـة،مع جسـدها المدفـون هناك، وهـم يقرون أن جسـد مريم المجدلية يرقـد في بلادنا،لأنها دفنت في فيزيليا Vezelai(في بيرغندي)، وهـم يعلنون هذا،ذلك أنني سمعته بأذني شخصياً، لكن حسبما قيل أعـلاه يقول العلماء المختصون لدينـا بأن مريـم التي دهنـت قدمي يسـوع ورأسـه،وأخت لعازر كـانتـا امرأة واحـدة هي

نفسهـا،فهي قد كـانت في إحـدى المرات مـذنبة،هـذا ويلاحـظ أن نص الإنجيل حـول هذا الموضـوع صعب جـداً حتى يمكن فهمـه حول هـذه النقطة،ويجعـل،حتى أكثر القـراء حرصـاً غير متأكد فيما إذا كـان سمعان الفريسي قد امتلـك بيتـاً في بيت عنيـا،ودعا ربنـا إليـه،وهـو أمر بعيـد الاحتمال،لأن تلك البلـدة كلهـا كانت ملكاًلـ «لعـازر»وأختيه،وإذا كـان سمعان قد امتلـك بيتاً في مكان آخر—ربما في المكان الـذي تقدم وصفه أعلاه— يبـات من الضروري متابعـة القول أنه هنـاك،لابد أن مريـم قد قامت للمرة الأولى هناك فدهنت ليس فقـط قدمي يسوع بل رأسه أيضاً، فهذا مايمكن فهمه من كلمات ربنـا في الانجيل، حيث قال:«سمعان إني قد دخلـت بيتك»(لوقـا:٧/ ٤٤)الخ،لكن عنـدما كـان في مرة أخـرى في بيت عنيا—وكأنه كـان في بيته— قامت مريم هذه نفسهـا فدهنت رأسه لـوحـده،وكسرت صنـدوقـاً من المرمـر فـوق رأسـه،ولهذا نقـرأ في الانجيل:«وفيما كان يسـوع في بيت عنيا»الخ(متـى:٢٦/ ٦)، وإذا مارغب أي واحد أن يتلقى معلومـات أكثر تأكيداً حول هذه المسألـة،دعوه نفسه يأتي ويبحث حول كيفية هذه المسألة وصدقها من سكان محليين من هذه البلاد،لأنني عرفت هـذا من خلال الكتـابات المقـدسة،وليس تمامـاً من هؤلاء الناس.

وبين بيت عنيـا هذه وقمـة جبل الزيتـون،في حوالي منتصف الطـريق، كانت تقـوم قرية بيـت فاجي،وهي قريـة كهنة،وماتـزال آثار منها قـائمة ممثلة في برجين حجريين،واحد منهما هو كنيسة.

الفصل السابع

وعندما كان— كما قلنا— وقت الآلام يزداد قـرباً، وبعدما أقام لعازر، (من الموت)قدم الى القـدس في يوم أحد السعف، وبعد الـدخول المهيب لذلـك اليوم، الأمر الـذي تحدثنا عنه،عـاد الى جبل الزيتـون،ناويـا البقاء هناك حتى اليوم الخامس من الاسبوع،وهـو اليوم الذي قصد أن يأكل فيه

مع حوارييه العشاء الذي جلب العهد القديم الى نهايته،وبدأ العهد الجديد،وعندما سأله حواريوه·أين يرغب أن يتناول العشاء الأخير، بعث بواحد منهم الى المدينة،علّه يذهب ويعدّ له مكان إقامة، أو مكاناً مناسباً،لإقامة قداس هذا العشاء،الذي نقرأ عنه بتوسع أعظم في الانجيل قوله:« إذهبا الى المدينة ولسوف تلتقيان برجل يحمل جرة ماء»الخ(لوقا:٢٢/ ١٠)،وعثر على مكان«علّية العشاء الأخير» هذا فوق جبل صهيون،في المكان الذي يقال بأن سليمان قد بنى فيه بناء عظيما،وهو البناء الذي نقرأ عنه في نشيد الانشاد قوله:« الملك سليمان عمل لنفسه تختاً» الخ(نشيد الانشاد:٣/ ٩)،وكانت عليّةالعشاء الأخير في الطابق الأعلى من البيت،وكانت كبيرة وواسعة،ويحكى أن ربنا تناول في أحد الجوانب مع حوارييه العشاء وذلك من أجل الاحتفال بالقداس، وأومأ هناك بشكل حذر الى الذي سيتولى خيانته،مطمئنا البقية حول ما يتعلق بآلامه،التي سوف تكون بعد قليل،وأعطاهم جسده على شكل خبز ليأكلوه،وأعطاهم دمه على شكل نبيذ ليشربوه قائلاً:« افعلوا هذا مرارا بقدرماتستطيعون»الخ.

وبعد ماتعشى في الجزء العلوي من ذلك البيت،يبدو من المعقول أن مولانا عندما كان يعرض ذلك القداس،ضرب لحوارييه مثلاً عن تواضعه بقيامه بالقسم الأسفل من البيت بغسل أقدامهم،وسواء أخترت أن ترى ذلك قد حدث قبل العشاء،أو بعده،حسبما أشارت الى ذلك بعض الشروح حول ذلك النص الوارد في انجيل القديس يوحنا قوله:« قام عن العشاء» الخ(يوحنا:١٣/ ٤)، وسواء أحدث هذا قبل العشاء أم بعده، فهذا ليس بعظيم قيمة،ومع هذا يسود الانسان أن يعرف ماحدث،لأن عرض المسألة في هذه الأيام في الكنيسة على جبل صهيون،يومىء الى أنها قد حدثت في مكانين مختلفين،لأنه يوجد في هذه الكنيسة نفسها في الجانب اليساري منها،في الطابق العلوي صورة

للعشاء، وفي الطابق الأسفل— أي أن تقول في القبو— من الممكن رؤية منظر يمثل غسل أقدام الحواريين.

الفصل الثامن

وبعد الفراغ من هذه القداسات،عاد مع تلاميذه الى الصلاة فوق جبل الزيتون،الذي أضاع عند سفحه ومنحدره حوارييه،وابتعد عن هناك لوحده مسافة حوالي رمية حجر،أي الى جيسماني، وصلى الى أبيه قائلاً:« أبي،إذا كان من الممكن»الخ،حيث أنه من آلام جسده صار عرقه يتصبب وكأنه نقاط من دم،وعاد الى حوارييه فوجدهم نيام،وعندها قرعهم وقرع بطرس خاصة قائلاً:«ألم يكن بإمكانك السهر معي ساعة واحدة»؟وقال للحواريين الآخرين: «ناموا الآن وخذوا راحتكم»الخ،ثم ابتعد عنهم للمرة الثالثة وعاد الى المكان نفسه،وقدم الصلاة نفسها الى الرب الآب، وبعد طول لأي تطمأن من الآب،واطمأن في نفسه ،وبعدها عاد المولى الى حوارييه للمرة الثالثة وقال:« اسهروا وصلوا»، وهذه الأماكن التي بقي فيها الحواريون في الخلف والمكان الذي صلى فيه الرب،واضحة ويمكن رؤيتها في وداي يهوشافاط(شعفاط)،لأنه على مقربة من الكنيسة الكبرى،التي يوجد فيها قبر العذراء مريم المباركة— الذي سوف نتكلم عنه بعد قليل — هناك في اليوم الحالي على الجانب الأيمن من المدخل المؤدي إليها بيعة فيها قبو،بقي فيه الحواريون،ومكثوا حزينين ونائمين نوماً ثقيلاً،في حين ابتعد الرب عنهم ثلاث مرات ثم عاد إليهم العدد نفسه من المرات،ومن الممكن رؤية هذا بوساطة صورة ماتزال موجودة،لكن المكان الذي صلى فيه ربنا محاط بوساطة كنيسة جديدة،وهي الكنيسة التي تدعى باسم كنيسة المخلص»فعلى أرضيتها تقف ثلاث صخور غير منجورة،قيل بأن الرب صلى عليهن،وجثا ثلاث مرات،ويتعبد الناس المؤمنون بالمسيح هذه الصخور بتقوى عظيمة جداً ويقدمون لهن التقدمات،وفي هذا القبو المتقدم الذكر عرف مولانا أن

يهوذا كان يقترب منه ومعه أوباشه،لأنه بعد انقضاء العشاء بوقت قصير،وفي الوقت الذي بقي فيه الحواريون الآخرين مع مولانا،ذهب يهوذا وابتعد لوحده ماضياً الى اليهود ليتساوم معهم حول خيانة مولانا، وبعدما استلم ثلاثين قطعة من الفضة ثمنا لخيانته،كان الآن يقترب مع حشد من الناس، وأقول:عرف يسوع بهذا، فقال في القبو نفسه لحوارييه:« انهضوا،ودعونا نذهب،انتهبوا إنه قد اقترب» الخ، وغادر جيسماني،وقد تم التعرف عليه بوساطة قبلة يهوذا،ولهذا اعتقل،وحمله الحشد معه،وهو الحشد الذي أرسل لاعتقاله،ومن الممكن الآن أن يرى الانسان في هذا القبو المتقدم الذكر خمس علامات على صخرة واحدة، حيث قالوا بأنها انطبعت عليها بوساطة الأصابع الخمسة لمولانا، وعندما أقول: لمولانا، أعني عندما اعتقل وأبقى نفسه في الخلف بعيداً عن معذبيه، الذين كانوا يجرونه بعنف لإبعاده وأخذه، وهذا على كل حال ممكن الحدوث، مع أننا نعلم بدون أدنى شك أنه كان قادراً على تنفيذ أفعال أعظم قوة وأكثر قدرة.

الفصل التاسع

لقد جرت خيانة ربنا— كما قلنا— من قبل حوارييه، وقد حمل وكتف من قبل جندي روماني، وجلب إلى جبل صهيون، حيث قام في تلك الآونة الـ Praetorium أو قاعة القضاء لـ «بيلاطس»، التي عرفت باسم «الرصيف» أو جباثا Gabbatha»، لأنه كان في ذلك الوقت أجمل أجزاء المدينة كلها وأقواها موجوداً على ظهر ذلك الجبل، وكذلك برج داود، الذي كان برج المراقبة والمكان الحصين لبقية المدينة، فهو قد بني هناك، وعلى هذا كان الجزء المنخفض من المدينة وكأنه قد جيء به واعتني به مثل أم دعت ابنتها، ومن هنا جاءت الكلمات التالية:«أخبرك ياابنة صهيون»الخ، لكن بعد هذا عندما هدمت المدينة التي كانت قائمة هناك، ونقلت إلى مكان آخر، حيث هي الآن قائمة في

هذه الأيام، وذلك من قبل الامبراطور إليوس (هدريان)، اقتطع من ظهر الجبل ومن ارتفاعه كثيراً، وجعل أكثر انخفاضاً، وجرت إزالة البرج من عليه مع الأبنية الأخرى. وعلى كل حال من الممكن في هذه الأيام رؤية المكان الذي قامت فيه قاعة المحكمة وبرج داود، وقام في ذلك الحين بناء كبير إلى جانب قاعة المحكمة، على الطرف الجنوبي منها، ففي هذا البناء تناول الرب العشاء مع حوارييه، وعلى مقربة من قاعة المحكمة، وعلى الطرف الشرقي منها كانت القاعة التي اقتيد إليها مكتوفاً، وأبقي فيها طوال الليل، وهو تحت رقابة الحرس ورقابة مقدمي اليهود، وذلك حتى ساعة ظهوره في المحكمة في صباح اليوم التالي، وفي قاعة المحكمة هذه أنكر بطرس الرب ثلاث مرات قبل صياح الديك، وهناك أيضاً عندما صاح الديك، التفت الرب ونظر إليه، وبتقوى تذكر كلمات يسوع، وكان بالفعل صبوراً، وبكى بمرارة، وعاد إلى القبو الذي يدعى في هذه الأيام «مكان صياح الديك» ومن قبل العامة «الجليلي».

وظهر المسيح على جبل صهيون لحوارييه، ولهذا جرت كتابة البيتين التاليين على جانب الطرف الأيمن من الكنيسة:

«هنا قام المسيح حسبما رئي من قبل رجال الجليل

والجليلي هو الاسم الذي سوف يعرف به هذا المكان دوما»

وعلى الطريق الذي يقود نزولاً من صهيون إلى وادي يهوشافاط، وتحت باب جبل صهيون، وفوق هذا القبو، تمّ بناء كنيسة، هي في هذه الأيام بأيدي رهبان إغريق.

وحدث في اليوم التالي، بعد صدور الحكم غير العادل، جرى جلد الرجل المُدان في مكان قائم أمام قاعة المحكمة، وضرب وأهين وبصق عليه، وألبس ثوباً أرجوانيا، وتوّج بتاج من شوك، حسبما هو معروض بالنقش التالي الموضوع فوق تلك البقعة، ونص هذا النقش هو كما يلي:

«هنا بسخرية توّج

الذي يحكم العالم كله»

زد على هذا، لقد تمت الاشارة الى هذا المكان أيضاً بوساطة بيعة قائمة إلى جوار الكنيسة الكبرى القائمة على صهيون، على الطرف الأيمن منها، وهي تحتوي على صورة لما حدث، مع النقش التالي:

«إن الذي جعل القديسين قديسين قد أدين بصوت المذنبين،

وهو الذي من أجل عبيده جلد ولطم،

وتحت الصليب قد سقط، لكن سمعان أعانه جيداً،

ولن يعاني من خسارة الذي يحمل ذلك الصليب المبارك».

وفي هذا المكان نفسه، وبعد قرار الحكم، وإبلاغه بالادانة والصلب، وضعوا على كتفي الرب الصليب الذي كان قد أُعدّ من أجله، وذلك من أجل حمله إلى مكان الصلب، ومن أجل أن تتحقق النبوءة التي تقول:«وتكون الرئاسة على كتفه» الخ (اشعيا: ٩/٦)، وصدف أن جاء رجلاً قيروانيا، أرغموه على خدمتهم بجعله يحمل الصليب إلى مكان الجمجمة، لأسباب طقوسية.

الفصل العاشر

وكان هنالك في ذلك الوقت في مقابل موقع المدينة القديم، موقع اسمه أكرا (الجمجمة)، وكان خارج المدينة، وقد أقيم منعزلاً من أجل الذين حكم عليهم بالاعدام، وبسبب صلعهم— لأن شعورهم قد قصت، وتغير لون جماجمهم بسبب الرياح، وجردت من الجلد ولم تدفن في الأرض— أطلق على المكان اسم الجمجمة، أو بسبب أن المجرمين كانت شعور رؤوسهم تقص، أي تنفذ العقوبات هناك، وكان هذا المكان المسمى بالعبرية الجلجلة صخرة قديمة، ومثلما الحال في كثير من المدن

في هذه الأيام، يتم عـزل الأماكن المرتفعة خارج الأسـوار، وتفرد من أجل تنفيـذ حكم الإعـدام بـالذيـن حكم عليهم بـالموت، وفي الـوقت الـذي أعدت فيه الصخـرة لاستقبال الصليب، أبقي مولانا مكتـوفاً، واحتفظ به في سجن كـان موجوداً هنـاك بين الحقول، ولقـد أخذ هذا المكـان شكل بيعـة، ومـازال حتى هـذا اليـوم يدعـى بـاسم «سجن الـرب»، وهـو في مواجهـة الجمجمة تماماً، في الجانب اليساري المقبب مـن الكنيسة، وعلى كل حـال، لآخرين مـواقف أخرى حـول هذا المكـان، حسبما سمعت في تلك البقعة.

وبعد هـذا، وفي موقع الجمجمة جرد الجنـود الرومان الـرب من مئزره، وذلك بنـاء على أوامـر بيلاطس وعلى تحريـض من اليهـود، وأعطوه خـلاً ممـزوجـاً بمرارة ليشربـه، وربطـوه إلى الصليـب، وبينما كان يسـوع يعـاني الآلام فوق هـذا الصليب، استقبل صـديقه يـوحنا— بنـاء على أوامره— أمه ووضعهـا تحت رعايته، وذلك حتى تتمكـن عذراء من رعايـة أخرى، لأن يسوعـاً قال لأمـه: «انتبهي أيتها المرأة لابنـك»، وهناك خـلاف حول تفسير هـذا، فبعضهم يقول مـع يوحنـا، وبعضهم يقول معـه هو نفسـه، ومع هذا فقد قال:«إنني أعاني من هـذا منذ طفولتي، التي جاءت بسبب أمومتـك، ثم إنني لم أمتلك من خـلالها القدرة على صنـع معجزات»، في حين قـال في مكان آخـر، أي في العـرس في قـانا الجليـل:«أيتها المرأة مـا الـذي يمكننـي أن أفعل معـك»؟، فهكـذا قـد تكلم إلى أمـه، ثـم قـال ليوحنا:«انتبه لأمك»، يعني في مسائل الخدمات العائلية والعناية.

وفي الجمجمـة، بينما كان الضحيـة يقـدم للعـالم أجمع وهو يعـاني على الصليب، وعـد بثوب مـن الخلود اللص الـذي صلب على يمينـه وسأل الغفران، وفيما هـو معلق على الصليب، طُعـن برمح، وتـدفق منـه دم مع ماء، وسببـت نقاط من هـذا استرداد يوجينيـوس لبصره(١)، ويوجينيـوس

١ —تبعاً للتقاليـد كان يوجينيوس أعمى أو بعين واحـدة، لكن عندما أصـابت بعض نقاط الدم والماء عينيه استرد بصره، وتحول عن دينه.

هو الذي طعنـه صدوراً عن شعوره بالشفقة نحـوه، وإقراراً، أي أن تقول أنه بفعله ذلـك لن يعيش ينوع مدة أطول تحت العـذاب، وفيما كان ربنا يمـوت على الصليب، ويسلم الـروح بإرادتـه، إنهارت ستارة الهيكـل من الأعلى إلى الأسفل، وانشطرت الصخـرة التي كان الصليب مثبتـاً عليها،، من وسطها، وذلك في المكان الذي لامسـه دمه، ومكّن هذا التصدع الدم من الانسياب نحو الأسفل، حيث يقال بأن آدم كـان مدفوناً هناك تحتها، وبذلك يكون آدم قـد تعمد بدم المسيح، وقد قيل إنـه تخليداً لهذا، ترسم دومـا الجمجمة في أسفل الصليـب، لكن هـذا التعميد لآدم بـدم المسيح لايعني أكثر من أن آدم قـد أُنقذ بدم المسيح ذلك أن الكتابـات المقدسة تروي لنـا أنه قد دفـن في الخليل، وبالحري إنـه الموت والدمار هـو الذي جُسد بصورة وجـه الانسان المرعب، الذي اعتيد، على رسمـه تحت قدمي المصلوب، لأن مـولانا قـد قال:« أيها الموت، انني سـوف أكون مـوتك»، يعني دمارك. ومكـان الجمجمة موجود على جـانبك الأيمن وأنت داخل إلى الكنيسـة الأكبر، وفي الجزء الأعلى منها شـق الصخرة المشهـور، وتجري عبـادة هذا الشق بـاحتفاء عظيـم، ويعرض بـوضوح ليراه حتى في هـذه الأيام الزوار، وهـذا الجزء العلوي مزين بشكل جميل بوسـاطة الفسيفساء الأكثر أنـاقـة، التي تمثـل مشهـد آلام المسيح ودفنـه، مـع نصـوص من النبوءات التي فيها شهادة حول الحادثة.

ولاحظ في ذلك المكـان نفسه، سواء أكـان الصليب مثبتاً حـول الثلمة التي هـي ظـاهرة مـرئيـة حتى هـذا اليـوم، والتي تُـرمـى فيها تقـدمـات المؤمنين، أو في المكـان الذي يـوجـد فيـه صدع شـاقـولي داخل صخـرة مستـديرة، وهـو أيضاً مـرئي، حيث يعلن بعضهم أن هـذا هو المكـان، وبـالفعل إن هذا المكـان زيـادة على ذلك واضح أنـه يتماشى أكثـر مع شكل الأرض وجـريـان الـدم مـن طـرفـه الأيمن في الثلمـة الموجـودة في الصخرة، ويحكى أن وجه مولانا عنـدما كان معلقاً على الصليب، كان

دوماً ملتفياً نحو الشرق بحكم الضرورة، وبسبب وضعه.

وإلى جانب هذا المكان في الجزء الأعلى باتجاه اليمين يوجد مذبح مكرس على شرف آلام مولانا، وتلقى هذا المكان كله اسمه من الآلام نفسها، ويحتوي القسم السفلي من الجمجمة نفسها مذبحاً، وهو يدعى باسم بيعة الدم المقدس، لأنه يحكى بأن دم الرب قد جرى خلال الثلمة الموجودة في الصخرة إلى المكان المعلم في هذه الأيام عند ظهر المذبح المتقدم الذكر، وقد حدث الجريان بسبب نوع من التصدع في الصخرة، وهناك جرى تعليق مصباح يتقد دوماً، ومكتوب على المدخل الخارجي للجمجمة الأبيات التالية:

«أحضر مولانا إلى هنا، جرت خيانته، وصلب وغسل،

ولهذا إن هذه الجمجمة الشهيرة أرض مقدسة، لأنه من المؤكد

أن دماء يسوع التي سفكت وسالت فوق هذه الرابية سوف تنقذنا

وتنجينا، وتحمينا، ولسوف تغسل ذنوبنا وتمحوها».

الفصل الحادي عشر

في وسط شرفة الكهنة، ليس بعيداً عن الجمجمة، وفي بقعة صنعت لتأخذ شكل مذبح بوساطة ألواح واقفة من الرخام مدعومة بحاجز مفتوح من الحديد له شكل صليب، وتحت ألواح الرخام هذه دوائر صغيرة على البلاط، يقولون إنها علامة على مركز الأرض، وذلك تبعاً لما جاء في النص الذي يقول: «صنع خلاصه في وسط الأرض»، ويقال بأن الرب قد ظهر في هذا المكان نفسه لمريم المجدلية المباركة، وكان هذا بعد قيامته، وهذا المكان مبجل جداً، وفيه مصباح معلق في داخله، ويذهب بعضهم إلى القول بأن يوسف (النجار) قد حصل على جسد يسوع من بيلاطس لأجل دفنه، وكان ذلك في اليوم نفسه، أي في اليوم السادس

من الاسبوع، فلقـد أخذ جسده من على الصليب وغسلـه بتبجيل، ودهنه بدهن ثمين وبعطر، ولفه بقطعة نظيفـة من قماش الكتان، ودفنه في مكان ليس بعيـداً كثيراً، وكـان ذلك في حديقتـه، في القبر الجديـد الذي نحتـه لنفسـه في الصخر، ونـزل من هنـاك إلى رابيـة لتحـرير الـرجل، وفي هـذا المكـان نفسه قـام الـرب حقـاً من الموت، وظهـر هنـاك ملاك الـرب إلى النساء المقـدسات، عنـدما انزاحت الأحجـار بعيداً، عن وجـه الضريح، وأخبرهـن أن يسـوع قـد قـام حقيقـة من الموت قـائلاً: «اذهبـن وأخبرن أخواني» وقال ثانية: «أخبرن حوارييه وبطرس».

وفي اليوم نفسـه، وبعدمـا مضت سحـابة النهـار، اختفى المسيح تحت مظهر رجـل غريب، وظهـر لاثنين من حـوارييه، وهما يسيران وقـد استبد بهما الحزن بسبب مـوته، وذلك على الطـريق إلى نيقـوبولس، أي عمـواس (الأصح: قـالونية) وهي بلـدة على مسافة ستـة أميال من القـدس باتجاه الغـرب، حيث استقبـل من قبلهما كضيـف لهما، وقد تعـرفـوا إليـه بكسره للخبـز، لكنـه مـالبث أن اختفى على الفـور، وظهـر بعـد ذلك لجميـع الحواريين، باستثنـاء تومـا، وكان ذلـك على جبل صهيون، عنـدما كـانت الأبـواب مغلقة، قـائلاً:«سلام لكـم»، زد على هذا لقـد ظهـر على الجبل نفسه بعد مضي ثمانيـة أيام إلى توما وإلى بقية الحواريين، وقدم لـه جراحه ليشعـر بها، وبناء عليـه قال تـوما: «مـولاي وربي»، وأعمال الظهور هـذه مرئية على صورة، على أنها حدثـت في مكان ما على جبل صهيون، أي أن نقـول في قبـو الكنيسـة الكبرى، وهناك في الصـورة تمييـز في تقـديـم كل حـادثة وعـرضهـا، وفي هـذا المكان رسـم ربنا أيضـاً وهـو يغسل أقـدام حوارييه، وأظهر يسـوع نفسه بعد القيامة ثلاث مـرات أيضاً إلى حوارييه إلى جانب بحيرة طبرية وفوقها، وكذلـك في أماكن أخرى إلى جانب هذه الأماكـن، وذلك من أجل أن يبرهـن أنه قد قـام من الموت، وأننـا سوف نقوم فيها بعد.

الفصل الثاني عشر

والأبدة الحاوية للضريح المقدس لربنا دائرية تقريباً في شكلها، ومزينة في الداخل بأشكال فسيفسائية، ويدخل إليها من الشرق من خلال باب صغير، يوجد أمامه غرفة معاكسة ذات شكل رباعي تقريباً، مع بابين، يدخل من أحدهما الأشخاص الذين دخلوا إلى الآبدة، وسمح لهم بالدخول إلى الضريح، ويمر من خلال الأخرى المغادرون، ويسكن في هذه الغرفة المعاكسة حرس الضريح، وهناك فيها باب ثالث يؤدي إلى الشرفة، وهناك خارج هذه الآبدة نفسها، أن تقول عند رأس الضريح، يوجد مذبح، قد بني فوقه نوع من أنواع المظلات المربعة الشكل، وجدران هذه المظلة الثلاثة مصنوعة من الحديد الذي أخذ شكل صلبان متداخلة، ويدعى هذا المذبح باسم مذبح الضريح المقدس، وللآبدة قبة فوقها مثل الكأس، الجزء العلوي منها مغطى بالفضة، وهذه القبة شاهقة الارتفاع في الفضاء المفتوح المتجه نحو السماء، وهذا جعل من البناء الذي قامت فوقه بناء كبيراً، وهو بناء أخذ شكلاً مستديراً، لأنه قام على أرض ذات خطة دائرية، مع وجود فسحة واسعة حول الآبدة (أي آبدة الضريح المقدس)، ويوجد في نهايتها جدار متواصل مزين بصور تمثل مختلف القديسين على مستوى واسعاً، وهو مضاء بعدد كبير من المصابيح، ويوجد في الإطار الضيق لهذا البناء الواسع ثمانية أعمدة مستديرة من الرخام، التي لها ثماني قواعد مربعة، مزينة من الخارج بالعدد نفسه من الألواح الرخامية، وهي موضوعة جميعها حول (النقطة المركزية)، وتدعم مجازاً تحت السقف الذي كما قلنا هو مفتوح في الوسط.

وفي الأسفل أبيات شعر متنوعة، يمكن رؤيتها في أماكن مختلفة،وقد كتب فوق اسكفة الضريح المقدس:

«لماذا أيتها المرأة تبكين، ولماذا تجثين أمام الذي يبتغي الموت؟

لاتلمسيني، انتبهي أنني وأنا حي جدير بأن أعبد».

وكتب فوق اسكفة المدخل الداخلي لضريح الرب:

«يشهد المكان والحارس على قيامة المسيح،

كذلك القماش الكتاني، والملاك، والفداء».

وكتب في الداخل حيث كان الرب قد مددّ:

«أنزل جسد الرب من على الصليب وسط الدموع من قبل أصدقاء،

لقد تحمل الآلام من أجلنا، الذي يلبس التاج الآن»

وكتب في الداخل على مقربة من ضريح الرب:

«بالعطر مدهون هذا القبر الذي رقد المسيح فيه،

وبالفضيلة يمكن للاستقامة أن ترتفع إلى السماء،

الانسان مسرور، الأرواح تحركت، وجهنم كلها تزمجر،

لأن ذنب حواء ألغاه قدوم المسيح»

وكتب في المكان نفسه، لكن في الوسط:

«هنا جرى تمديد المسيح في داخل هذا الضريح الصخري

ولقد فتح دفنه باب السماء للفانين»

ولقد قلنا أن الأعمدة التي عددناها من قبل قد صفت على شكل دائرة، لكن الآن على الجانب الشرقي اختلف عددها وصفها وترتيبها، وذلك بسبب الكنيسة الجديدة التي تبنى الآن عليهم، والتي مدخلها الآن قائم عند تلك النقطة، ويحتوي هذا المبنى الجديد، والذي أضيف حديثاً على شرفة واسعة للكهنة النظاميين، وحرم واسع فيه مذبح مرتفع،

مكرس على شرف القيامة المقدسة، وذلك حسبما هو مشاهد من الصورة المصنوعة من الفسيفساء الموضوعة فوقه، لأن هذه الصورة تحتوي على صورة المسيح أثناء القيامة وقد خرق أبواب جهنم، وأخرج منها أبانا آدم القديم، وخارج حرم هذا المذبح، وداخل الإطار المغلق للبناء فسحة واسعة بها فيه الكفاية من جميع الاتجاهات، وذلك خلال كل من هذه الكنيسة الجديدة، وكذلك البناء القديم القائم من حول الآبدة المتقدمة الذكر، وذلك حتى تكون موائمة من أجل المسيرات التي تجري ليل كل أحد من الفصح حتى عشية العشاء الأخير، وتتجه هذه المسيرات إلى الضريح المقدس، وهي تردد نشيد «قام المسيح»، وقد نقش نص هذا النشيد على الإفريز الخارجي الأقصى للآبدة بأحرف من فضة، وعندما كان يجري ترداد هذا النشيد وغنائه، يبدأ قادة الكورس يغنون على الفور قائلين: « لكن في المساء»الخ، وذلك مع مزمور: «تمجد روحي الرب» الخ، مع المجمل المتعلق بالقيامة، الذي نصه: «الجبار والسرمدي» الخ، مع استهلال بشطر البيت التالي: «قام الرب من هذا الضريح»، ويحتفل بالطريقة نفسها بقداس القيامة، في كل أحد، خلال هذه الآونة.

الفصل الثالث عشر

وعند رأس هذه الكنيسة الجديدة نفسها، بإتجاه الشرق، وإلى جانب دير الرهبان، مكان عميق جداً، على شكل قبو واسع جداً، يحكى أن الامبراطورة هيلانة (حنة) وجدت فيه صليب الرب، ويحتوي هذا المكان على مذبح بني على شرف هيلانة المذكورة، وقد حملت هذه الامبراطورة معها إلى القسطنطينية الجزء الأكبر من الخشبة المقدسة، لكن البقية تركت في القدس، وقد حفظت بعناية وتبجيل، في مكان محدد، في قسم آخر من الكنيسة المواجهة للجمجمة.

وصحيح أن هذا المكان قد تكرس وتقدس منذ زمن طويل بدم المسيح الذي سفك فيه، لقد أعيد تكريسه في الزمن الحالي من قبل

الكهنـة المبجلين، في يوم ١٥— تموز، وتخليـداً لهذه الحقيقة كتبت أبيـات الشعر التالية تحت عمل مذهب، وهي تحمل شهادة دائمة :

«تقدس هذا المكان من قبل بدم المسيح،

وتكريسنا له لايمكن أن يجعله أكثر قداسة

وتاريخ تكريس هذه الأبنية حول هذه الصخرة

هو الخامس عشر من تموز»

وكانـت القدس قـد جرى تحريرهـا من قبل الجيـش المسيحي في مثل هذا اليـوم نفسه للشهـر نفسه، وذلـك بعدمـا بقيت في الأسر تحت حكم المسلمين من مختلف الأنـواع، واحتفاء بذكـرى هذه التحريـر يحتفلون في هذا اليـوم، وذلك بعد تجديد التكـريس، ويكون ذلك على شكـل قداس ديني، ويغنـى في القـداس الأول: «Jerusalem Laetare» ويغنى في ذروة قداس التكريس: «Terriblls estloeus».

وجرى في اليوم نفسـه أيضاً تكريس أربعة مذابـح في الكنيسة نفسها، وهي: المذبح العـالي، والمذبح العلوي في الجمجمة، ومـذبحين في الجناح المقابل من الكنيسـة، وقد كرس أحدهما تشريفاً للقـديس بطرس، وكرس الآخر على شرف القديس ستيفن رائد الشهداء.

ويقومـون في اليوم التـالي أثناء تقـديم المسـاعدات وخـلال الصلوات بـذكـر مهيـب لجميع المؤمنين الموتـى، وبشكل خـاص الـذيـن سقطـوا بمناسبـة اقتحام القـدس، وهم الـذين مكان دفنهـم مشهور جـداً، وهو القائم قرب الباب الذهبي، وتصادف بعـد ثلاثة أيام ذكرى الدوق النبيل غودفـري، وهو صاحب الـذكرى الطيبة، فهـو قد كان مقـدم وقائد تلك الحملة المقـدسة، وقـد ولد مـن أسرة ألمانية، وتجري مـراعاة ذكـراه بشكل مهيب من قبل المدينة، بتقديم مسـاعدات وافرة في الكنيسة الكبيرة، وفقاً

لما كان قد نظمه أثناء حياته.

لكنه يكرم في هذه المدينة بهذه الطريقة لشخصه، مع هذا إن الاستيلاء على المدينة لايعزى فضله إليه مع ألمانه، الذين لم يكن نصيبهم صغيراً في الجهد والتعب في تلك الحملة، بل إنه يعزى إلى الفرنسيين وحدهم، ولهذا استخف بعضهم بأمتنا ولم يعترفوا بأنهم شوهوا ما نقش على قبر ويغر Wigger (أوويكر Wicker صاحب سوابيا) الشهير، الذي قام بأعمال رائعة كثيرة، لأنهم ما كان بامكانهم إنكار أنه كان ألمانيا، ومن ثم كتبوا نقشا أفاد بأن القبر يعود إلى فارس فرنسي أو آخر، وهذا يمكن رؤيته في هذه الأيام، لأن تابوته مرئي، وما زال موجوداً في زاوية قائمة بين الكنيسة الكبيرة، وبيعة القديس يوحنا المعمدان، وقد حذف اسمه وألقي جانباً وكتب اسم آخر هناك، وكبرهان وكمثل على النكران الذي عومل به شعبنا، ومدحاً للفرنسيين، من الممكن قراءة النقش التالي على الطرف الخارجي للأبدة:

«ألف سنة ومائة سنة، إلاّسنة،

منذ أن حملت مريم المباركة بابنها الرائع،

عندما أشرقت شمس الخامس عشر من تموز،

نيلت القدس بقوى الفرنجة»

وجواباً لهذا كتبت:

«ليس الفرنجة، بل المحاربون الألمان الأعظم شجاعة،

أنقذوا القدس وحرروها من نير الكفرة،

كان ويغر ألمانيا،وهذا ما يعرفه كل فرنجي،

وألمانيا أيضا كان غونترام وكذلك الدوق غودفري،

ومن السهل البرهنة على أن كلماتي صحيحة».

وعلى كل حال بما أن الدوق غودفري وأخاه بلدوين الذي اتخذ ملكاً في القدس من بعده، كانا من رجال بلادنا، ثم بما أن قلة من شعبنا بقيوا هناك معهما، وعادت أعداد كبيرة من الآخرين بسرعة كبيرة إلى بلادها الأصلية صدوراً عن شدة شوقها إليها، وقعت القدس في أيدي أبناء الأمم الأخرى، هذا ومعروف أن الدوق غودفري رفض التاج من باب التواضع، ثم إن أبناء الأمم الأخرى الذين آلت القدس إليهم هم من: الفرنسيين، واللوريين، والنورمانديين، والبروفناساليين والأوفرانتيين، والايطاليين، والاسبانيين، والبرغنديين، الذين أسهموا في الحملة الصليبية (الأولى)، ومع هذا لم يتركوا في المدينة ولاحتى جزئاً صغيراً في أصغر شارع، وعزلوه جانباً لصالح الألمان، وذلك بسبب أن الألمان أنفسهم لم يهتموا بهذه المسألة، ولم تكن لديهم نية بالبقاء هناك، ولهذا لم تذكر أسماؤهم قط، وعزي فخار تخليص المدينة المقدسة إلى الفرنجة وحدهم، وهؤلاء الفرنجة مع أبناء الأمم الأخرى المتقدمة الذكر، يسيطرون في هذه الأيام على السلطة ويتصرفون بشؤون الحكم في القدس والمنطقة المجاورة، وفي الحقيقة كان من الممكن لهذه المنطقة المسيحية أن تمدّ حدوها منذ وقت طويل مضى إلى ماوراء النيل نحو الجنوب، وإلى ماوراء دمشق نحو الشمال، لو كان فيها عدداً كبيراً من الألمان كما هو الأمر في المقاطعات الأخرى، وعلى كل حال دعونا الآن نتخلى عن هذه الإعتبارات، ومن ثم العودة إلى موضوعنا المحدد.

الفصل الرابع عشر

ويوجد على جبل الزيتون مكان صعود الرب، وهو معلم في وسط كنيسة قد بنيت منذ زمن طويل فوق البقعة، وهناك فتحة في سقف هذه الكنيسة من أعلاها، وحمل من هذا المكان وسط الغمام إلى السماء، في وقت وقفت فيه أمه وحواريوه وأناس آخرون من الجليل، ينظرون لصعوده

بـدهشة، وكـان من قبل قـد أمر حـوارييه بعـدم مغادرة القـدس قبل أن يتسلمـوا من الآب روح القـدس الموعودة، والاطمئنـان، حتى يستكملـوا سكـون أنفسهم، وحـدث هذا في اليـوم العـاشر بعـد صعود الـرب، وفي اليـوم الخامس عشر إثـر قيـامته، أي في يـوم عيـد الحصـاد، ووقتها كـان الحواريـون مقيمـون في احـدى غـرف المبنى المتقـدم الـذكـر، فـوق جبل صهيون، وهو المكان الذي يقال بـأن ربنا قد تعشى فيه (العشاء الأخير)، وكانوا أثناء اقامتهم ينتظرون تنفيذ الـوعد، وهذا كله مرئي حتى هذا اليوم في المكان نفسه، في صورة فسيفسائية مـوجودة في داخل قبة حرم الكنيسة المتقدمة الذكر، ففي هـذه اللوحة مثلما رسم في الصورة، الحواريين الاثني عشر مع صـورهم الشخصية، وروح القـدس نازلـة فوق رأس كـل واحد منهم على شكل ألسنـة من اللهب، مع النقش التالي: «فجأة جـاء صوت من السماء»، الخ.

وفي الكنيسـة نفسها، على جهتك اليمنى وأنت داخل إليهـا، هنـالك مكان يدعى مـذبحاً، يتألف من ألواح ملمعة من الـرخام، مصنوعة على شكل قبـة، قائمـة على البقعة التـي يقال أسلمـت عليها مـريم المباركـة الروح، وغادرت هـذا العالم العالي، وهناك أيضاً ابنهـا، ربنا يسوع المسيح مثـلاً على صـورة على الجدار المقـابل، وهـو يتسلـم روحهـا بحضـور حوارييه، ويـوجد حول المبنى الـذي شيد فوق هذا المكـان النقش التالي: «حملت الأم المقدسة للرب ممجدة فوق تراتيل الملائكة».

الفصل الخامس عشر

وبعدمـا فرغنا من رؤيـة هذه الأشياء، ووصفنا بشكـل رئيسي الأماكن التي وقعـت فيها، ووصفنـا أيضاً الأمـاكن المجاورة لها، دعـونا نعـود إلى مدينة القـدس المقدسة نفسها، لنتـولى وصف الأماكن المقدسـة الجديدة، والأمـاكن المبجلة القـديمة، التـي أعيد إعمارهـا حديثـاً وكرست لخدمـة الديانة.

وبالمناسبة لنلاحظ أن يهوذا تسلم في هذه المدينة ثلاثين قطعة من الفضة ثمناً لخيانته لربنا، وبهذا المبلغ شري الحقل المسمى أكلداما —أي حقل الدم— وعزل ليكون مدفناً للغرباء حتى هذا اليوم، وهذا الحقل قائم على الطرف الأيمن من جبل صهيون على طول الطريق الذي يقود إلى بيت لحم.

وعبر هذا الحقل، وملاصق له يقوم جبل جيون Gion ، الذي عليه تسلم سليمان التاج الملكي، كما جرت العادة بمسح الملوك الآخرين على ذلك الجبل.

ويلاحظ أن ربنا أقام فتاة من الموت في وسط القدس، كما وصنع عدداً من المعجزات فيها، وعبر كنيسة الضريح المقدس، التي وصفناها أعلاه، وفي الطرف المواجه (للطريق) المتجه نحو الجنوب، هناك كنيسة جميلة بنيت تشريفاً ليوحنا المعمدان، ومضاف إليها مشفى فيه غرف مختلفة تحتوي في داخلها على حشد كبير من الناس المرضى، من النساء والرجال، الذين يلقون العناية فيها حتى يستردوا صحتهم يومياً مقابل نفقات عالية جداً، وسمعت عندما كنت هناك وعلمت أن عدد هؤلاء المرضى قد بلغ الألفين، يموت منهم أحياناً خلال يوم واحد وليلة أكثر من خمسين، وفي الوقت نفسه يدخل إليها ويصل أعداد جديدة، وماذا يمكنني أن أقول أكثر؟ فهذا المشفى يزود بالأطعمة أعداداً كبيرة من الناس في الخارج بقدر الذين هم في الداخل، وذلك إلى جانب مالايحصى عدّه من أعمال الاحسان التي تقدم يومياً للناس الفقراء، الذين يتسولون طلباً للخبز من باب إلى باب، ولايسكنون في بيت، وعلى هذا من غير الممكن جمع المبلغ الاجمالي لنفقاته وحصره حتى من قبل مديريه والعاملين فيه. وبالاضافة إلى هذه الأموال التي تنفق على المرضى وعلى الناس الفقراء، تقوم دار رهبنة هذا المشفى بالانفاق، في قلاعها العديدة، على عدد كبير من الناس، الذين تدربوا على جميع أنواع

التمارين العسكرية، من أجل الدفاع عن أراضي المسيحيين ضد غزوات المسلمين، وإلى جانب كنيسة القديس يوحنا هذه، يوجد دير للراهبات بني على شرف مريم المباركة، ورأس هذا الدير ملاصق تقريباً لأبنية الكنيسة المتقدمة الذكر، وهو يسمى: دير القديسة مريم الكبير، وليس بعيداً عن هناك، وعلى الطرف نفسه من الشارع نفسه، هناك ديرللرهبان، بني أيضاً على شرف مريم المباركة، ويدعى أيضاً باسم دير القديسة مريم للاتين، ومحفوظ فيه وسط تبجيل عظيم رأس القديس فيليب الرسول، وهو أيضاً معروض للذين يأتون ليتعبدوه، ويطلبون رؤيته.

وفي الشارع الذي يقود من برج داود نزولاً من التلة نحو الهيكل، وعلى الطرف الأيمن، على مقربة من برج داود أيضاً هناك دير للرهبان الأرمن، بني على شرف القديس سابا، وهو راعي الدير الأعظم احتراماً، لأنه عندما كان مايزال حياً، صنعت له العذراء مريم المباركة كثيراً من المعجزات، وفي هذه المنطقة نفسها، وليس بعيداً، وفي أسفل النزول خلف شارع آخر، هناك كنيسة كبيرة بنيت على شرف القديس جيمس الكبير، وهي مسكونة من قبل الرهبان الأرمن، ولديهم في المكان نفسه مشفى واسعاً لاستقبال الفقراء من شعبهم، وفي هذا المشفى محفوظ وسط تبجيل عظيم رأس ذلك الرسول، لأنه قتل صبراً من قبل هيرود، وقد وضع جسده من قبل تلاميذه على ظهر سفينة عند يافا، وقد حملته إلى غاليشيا، غير أن رأسه بقي في فلسطين، وهذا الرأس معروض في هذه الأيام في هذه الكنيسة للحجاج.

وأنت نازل في الشارع نفسه، وإلى الباب الذي يؤدي إلى الهيكل، وعلى الطرف الأيمن، هناك نوع من أنواع الممرات، خلال ساباط طويل، يوجد في شارعه مشفى وكنيسة بنيت حديثاً تشريفاً للقديسة مريم، وهي تعرف باسم بيت الرهبان الألمان، ومن النادر أن يتلقى هذا البيت أية مساعدات من الذين يتكلمون لغة أخرى غير الألمانية.

الفصل السادس عشر

ويوجد في الشارع نفسه، قرب الباب الذي يذهب إلى جبل صهيون، بيعة، بنيت تشريفاً للقديس بطرس، فيها قبو عميق جداً ومظلم، حيث يقال فيه سجن القديس بطرس، وبقي تحت الرقابة المشددة بناء على أوامر مشددة من هيرود، وقد صفد بسلاسل من حديد، وتولى حراسته الجنود من كل من الداخل ومن الخارج، لكن هذا الحرص كله لم يفد شيئاً أمام القدرة الربانية، ففي الليلة نفسها، وبوساطة واحد من الملائكة، اقتيد القديس بطرس من قبل الملاك، وخرج دونما أذى، وذلك بعدما تقطعت سلاسله، وفتحت أبواب السجن، وكذلك أبواب المدينة، وقد قال: «عرفت الآن بشكل مؤكد أن الرب قد أرسل ملاكه»، الخ. وعندمدخل البيعة، كتبت الأبيات الشعرية التالية، شارحة المعجزة التي صنعت هناك:

«قم يابطرس، وخذ رداءك، لقد تحطمت سلاسلك،

قم غادر هذا المكان، فقد غدوت حراً بفضل السماء».

«علمت الآن في الحقيقة، أنني قد تحررت من السجن،

حمداً لحب المسيح لي، ذلك أنه خلصني من الأصفاد».

وفي قبو القيود في هذه الكنيسة، قمت في يوم عيد القديس بطرس بالاحتفال بقداس، مع الدعاء المناسب للاستخدام في ذلك المكان وهو: «أيها الرب الذي سببت اطلاق سراح القديس بطرس من قيوده، ونجيته دونما أذى» الخ، وهذه البيعة بيعة فقيرة، وهي ليست غنية بالأعطيات أو مزينة بالزينة اللائقة بمثل تلك المعجزة العظيمة التي حدثت لرئيس الحواريين، ويدعى الباب الذي يقود نحو جبل صهيون باسم باب

الحديد، وقد فتح عن طواعية للملاك ولبطرس.

وفي مقابل ساحة الهيكل، أي على الجانب الشمالي، قرب الباب الذي يذهب منه الانسان إلى وادي شعفاط، هناك كنيسة واسعة بنيت تشريفاً للقديسة حنة، وفيها يمكن رؤية كيف تمّ بالقدر الرباني وبلاانذار ولادة العذراء المباركة منها ومن يواكيم، وحسبما هو مروي بتفصيل وطول عظيم في حياة القديسة حنة، التي يحتفل بعيدها في تلك الكنيسة في يوم عيد القديس جيمس الكبير، بأبهة عظيمة، فقد كنت أنا شخصياً بين الحضور. وتتم عبادة الرب في هذه الكنيسة، من قبل معهد للراهبات المكرسات، اللائي آمل أن يكن مقبولات، وإذاما غادر الانسان هذه الكنيسة، يجد على طرفه اليساري، على مسافة ليست كبيرة، أسفل زقاق هناك، باب بركة الضأن، أو Piscina Probatica ، ومياه هذه البركة اعتاد ملاك أن يحركها في أوقات محددة أيام يسوع، وكان أي انسان مريض يدخلها بعد تحرك الماء فيها يشفى من أي مرض كان يعاني منه، وقد عرفت باسم «بركة الضأن» Probaton ، بالاغريقية، لأن العادة جرت وقت الأضاحي بغسل الأوعية الداخلية للأضاحي فيها: وفي الحقيقة كان لون الدم أحمر بسبب (دماء) الأضاحي التي نظفت هناك، وأمام بركة الضأن هذه أعاد يسوع إلى الصحة، رجلاً مريضاً، بقوله له: «خذ فراشك واحمله واذهب».

ومن هذا الشارع نفسه، الذي يقود إلى خارج باب شعفاط، وفوقه في الشارع الآخر الذي يتفرع عن هذا الشارع، وعلى الطرف اليمين، صعوداً باتجاه سور المدينة يصل الانسان إلى كنيسة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، وفيها رهبان يعاقبة، وقد تحدثنا عنها بكل مانعرفه؛ ويمضي الانسان عبر هذا الشارع المتقدم الذكر، مباشرة من باب شعفاط إلى الشارع الذي يؤدي إلى باب القديس ستيفن، ومن هنا (يمضي الانسان) من الاتجاه الشمالي نحو الشوارع الثلاثية، أو بالحري الشوارع الكثيرة

الفروع والتشعبات، التي تحتوي جميع الأشياء التي هي للبيع (الاسواق)، وتمتد حتى واجهة الكنيسة الكبيرة للضريح المقدس، وأقول يوجد في وسط هذا الشارع، قوس حجري قديم عبر الشارع، استراحت تحته مريم العذراء المباركة، مع ابنها المبارك، الذي كان طفلاً رضيعاً، وأنها قد أرضعته هناك، وجرى تخليد ذكرى هذه الحادثة بوساطة صورة، وقد عزل المكان وأغلق بشكل لطيف دون المارة، لأنه مكان مقدس، لكن لم تعمر هناك كنيسة لرعاية المكان وتعبده بالتبجيل اللائق.

ويوجد أيضاً عبر هذا الشارع الذي يقود من باب القديس ستيفن إلى طرف كنيسة الضريح المقدس، وليس بعيداً عن شمال الضريح المقدس، شارع صغير، فيه في كنيسة عائدة للسريان يرقد الجسد المبارك للشهيد المقدس شاريتون Chariton ، وهو محفوظ هناك وسط تبجيل عظيم من قبل الرهبان السريان، وجسده في هذه الأيام كامل تقريباً، وهو محفوظ في داخل تابوت خشبي، يرفع غطاؤه، عندما يعرض أمام الحجاج ليروه. وكان هذا الأب المبارك قد قتل من قبل المسلمين في داخل ديره (قرب تقوع) على ضفاف نهر الأردن، وقتل معه رهبانه، لأنه اعترف باسم المسيح.

الفصل السابع عشر

وخارج باب القدس الذي يتطلع نحو الغرب، وهو الجانب الذي جرى فيه تحرير المدينة من قبل اسرائيل الثاني، سقط رائد الشهداء المبارك ستيفن، بعدما أنهكه الرجم بالحجارة، وقد نقل جسده من هناك إلى كنيسة صهيون، ودفن فيمابين نيقوديموس وجمالئيل، وأبيبون، ثم أعيد دفنه فيما بعد في القسطنطينية، ودفن أخيراً في روما بوساطة القديس لورانس، ولهذا كتب على قبره بيت الشعر التالي:

«أرسلت بيزنطة إلى هنا ضحية صهيون البريء».

وخارج باب القدس— إلى جانب بركة (ماملاّ)— المتجه نحو الجنوب يمكن رؤية الكهف الذي حمل إليه أسد أجساد اثني عشر ألفاً من الشهداء الذين هلكوا على أيدي كسرى، وكان ذلك بناء على أمر الرب القدير، ولهذا أطلق على الكهف اسم «مدفن الأسد».

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى شكيم، يقوم جبل جبع، في منطقة سبط بنيامين.

وعلى ميل من القدس، على كتف جبل الزيتون، يقع جبل (بطن الهوا) العدوان الملاصق له، لكنه منفصل عنه بوساطة الطريق الذي يقود من شعفاط خلال بيت فاجي إلى بيت عنيا، وهو يدعى باسم جبل «العدوان» (بطن الهوا)، لأن سليمان أقام هناك صنم مولوخ Moloch، وعبده.

وملاصق للقدس تماما، وعلى جانب الهضبة، تحت قصر سليمان، في وادي شعفاط، تقوم بركة سلوان، التي إليها أرسل يسوع الرجل الأعمى، الذي رد إليه بصره، ليغسل عيناه فيها، وذهب وغسل عيناه واسترد بصره، وهكذا فسرت كلمة سلوان بـ «أرسل»، وليس إلى هذا الماء نفسه أرسل نعمان أمير سورية من قبل النبي اليجيا، بل أرسل إلى الأردن، على أمل أنه إذا ما اغتسل فيه ثلاث مرات، يمكن أن يبرأ من جذامه، وقد نظر إليه باستخفاف وقال: «أوليس أبانا وفرفر» —النهران الموجودان في بلاده —«نهران أفضل من هذا»؟ ووافق على كل حال أخيراً على الأخذ بنصحية خادمه، حيث نفذ أمر النبي فشفي، وسلوان تبعاً لتقاليد السريان، ينبع من سيلو، ويسيل ماء سلوان بصمت، لأنه يجري من تحت الأرض، وعلى مقربة من سلوان هناك شجرة بلوطة روجل، التي دفن تحتها إشعيا المقدس.

وقد دفن في وادي شعفاط جيمس المبارك ابن ألفيوس، الذي حسبما

روينا من قبل قد رمي من أعلى الهيكل، وهنـاك بيعة جميلة في هذا الوادي نفسه، فيها برهان على دفنه، وقد كتبت عليها الأبيات التالية:

«هاجم الكفار اليهود ابن ألفيوس

وهو من أجل اسم الرب، وحباً بالموت فعل.

رمي ابن ألفيوس من أعلى الهيكل

وبأيد تقية دفن هنا أخيراً»

وعلى كل حـال نقل رسـول الرب فيها بعـد من هنا إلى القسطنطينيـة. ودفن في وادي شعفاط الملك يهوشافاط تحت هـرم حاد الذروة، ومن هذا الملك نال الوادي اسمه، ومعنى هـذه التسمية هو «وادي الحكم»، وذلك إشـارة الى النص الـذي يقول :«سـوف أجمع معـا جميع الأمم»، وفي هـذا الوادي نفسه الكثير من الكهوف في كل جـزء منه، يعيش فيها رجال دين حياة النساك.

وتعود ملكيـة الوادي بأكمله الى الـدير الذي يقـوم في الجزء الأعلى من الـوادي القائم فـوق نهر قدرون الصغير، وذلك الى جـانب الحديقـة التي غالبـاً ماالتقى فيها ربنـا مع حوارييه، ومعـروض في قبو هذا الـدير— في الوقت الحالي— ضريح العـذارء مريم المباركة، الذي سـوف نتحدث عنه بشكل أطول.

الفصل الثامن عشر

في اليوم الذي حدث فيه انتقال جسد العذراء مريم الأعظم مباركة ، حمل هذا الجسد إلى الكنيسة القـائمة في وادي شعفاط، وكان الاثنى عشر حواريا من حـواريي الرب جميعاً حضوراً، وذلك بناء على رغبتهـا، وكانوا هناك حيث دفنت بالتشريف اللائق في وسط القبو، المزين بأعمال رخامية رائعة، ولوحات مرسومة جميلـة جداً بالألوان المختلفة، وضريحها —مع أن

جسدها لم يعد فيه— بهي جداً بسبب لوحاته الرخامية، ومايشبه بناء قبة من الذهب والفضة، فبهما مغطاة، وقد نقش عليها مايلي:

«من هنا ومن وادي شعفاط، ممر يؤدي إلى السماء،

كانت العذراء هنا مرة راقدة، وهي الفتاة موضع ثقة الرب،

من بقعة غير محددة، من هنا قامت، ولها فتحت بوابة السماء،

للفقراء المذنبين وللدروب، أضاءت أمهم آمالهم».

وجسدها المبارك ليس هناك، بسبب هو كما أخبرنا، أن القبر عندما جرت زيارته في اليوم الثامن تماشياً مع العادة العبرية، ونظر في داخله لم يكن الجسد موجود هناك، ومن هذا نشأ اعتقاد قوي أنه ليست روحها فقط بل جسدها كذلك أقيم وسط مجد عظيم من قبل ابنها ورفع إلى السماء،الأمر الذي أشار إليه جيروم بشيء من الشك، بدلاً من التأكيد، وجاء ذلك في رسالة مطلعها: «أنتما ترغماني يابولا ويايوستوخيوم»، الخ. وهذا على كل حال ربما ممكن، لأننا نعتقد أن مريم العذراء المباركة، وحدها —لأنها وجدت جديرة بحمل خالقها— جديرة بكل تشريف وتطويب، وذلك بالنسبة لكل من جسدها وكذلك روحها، وبما أن ابنها حي أبداً وكله قدرة، فقد كان راغباً وقادراً على فعل هذا، وضريحها مشرف أيضاً وتجري عبادته، لأن هناك بعض الترابط والتشابه بمجده ومكانته، والذي يقدم لضريح ابنها المبارك. ومن الممكن أن نرى عند مدخل القبو الصورة التالية مع النقش التالي:

«أيها الوارث للحياة، تعال، واحمد الرب، الذي

حياتنا له، وهو الذي قرر مصيرنا».

ويوجد على الجانب الأيسر صورة جيروم، وهو حامل للنقش التالي:

(هذا النقش مفقود في جميع المخطوطات)

والآن ضريحها معروض للمشاهدة في هذه الأيام في وادي شعفاط، ولقد شهدناه أثناء حضورنا، في وسط الوادي، حيث هناك كنيسة بنيت على شرفها، بتزيينات رخامية رائعة، ولقد تأكد من قبل الجميع أنها قد دفنت هناك، ويوجد عند الطرف الأيمن من المدخل إلى هذه الكنيسة تمثال لباسيل المقدس، وهو يحمل هذه الكلمات:

«أشد أعداء أم الرب

يوليان المرتد قد قام

الأول في القوة وفي المكان

من العرق الكافر المتوحش،

وبعزيمة من أم الرب، هو

قد هلك في طغيانه.

المجد دائماً أبداً

إلى الملكة التي نعبدها،

والتي دفنت مرة تحت هذه الأرضية».

وهذه الأماديح وأماديح أخرى كثيرة قيلت بالعذراء، قد وضعت عند مدخل القبو، وفي الداخل على الجدران التي تحيط بالضريح وعلى السقف كتبت النقوش التالية: على الجدار في الجهة اليمنى: «حملت مريم العذراء إلى قصر في الجنة»، الخ. زد على هذا، جاء على وصلة إطار الكنيسة النص التالي: «انتبهي أنت جميلة، يا حبيبتي، انتبهي أنت جميلة، أنت لك عينتي حمامة»، الخ، حتى إلى «ليلك الوادي»، وأضيف إلى هذا: «بنات صهيون قد رأينها»، «من مكان الصدق هذا صعدت العذراء الرائعة إلى السماء، أتمنى عليكم أن تبتهجوا، لأنها صعدت إلى

الأعـالي بـدون كـلام وحكمت إلى الأبـد مـع المسيح»، وكتـب على الجزء الأمامي: «حملت مريم إلى السماء» وعلى الجزء المقـابل: «تمجدت أم الرب المقدسة»، الخ، وفي الـوسط: «حشود الملائكة واقفة حول مـريم المباركة، وهي تنظر إلى العرش، معلنة أنها أخذت طريقها إلى مملكة السماء».

ويـوجد عنـد سفح جبـل الـزيتون، على الجانـب الأقرب إلى المدينـة، حيث الآن ضريح العذراء مريم المباركـة، يمكن رؤية قرية صغيرة تدعى جيسماني.

الفصل التاسع عشر

بيت لحم الذي يعني اسمها «بيت الخبز» هي مدينة في اليهودية، وهي تعرف أيضاً باسـم إفراتا، وهذا ليس بدون سبب، لأنـه من زهرة الناصرة تنامت هنـاك وجاءت ثمرة الحياة، وأعنـي بذلك من العذراء مـريم، جاء ابن الـرب الحي، يسوع المسيح، الـذي هو خبز الملائكـة والحياة بـالنسبة لجميع العالم، ويـوجد في بيت لحم، في مكان ولادته المزود الـذي تمدد فيه الطفل يســوع نفسه، ومـن هنا كـان قول النبـي: «يعرف الثـور أصحابـه، وتعرف الأتـان مزود صـاحبها»، وجـرى حمل التبن من هـذا المزود —أي التبن الذي تمدد عليه الطفل يسوع، وأخذتـه الامبراطورة هيلانة إلى روما، وهـو معروض وسـط مظاهـر التبجيـل في كنيسة القـديسـة الكبيرة، ومن الممكن أن نقرأ في موضع مهد ربنـا البيتين التاليين وقد نقشا داخل عمل فسيفسائي مذهب:

«من محاسن مقدّم الملائكة التي لانظير لها،

حملت العذراء هنا بالرب نفسه»

وإلى بيت لحم جاء الملـوك الثلاثة من الشرق يقودهـم النجم الجديد، لعبـادة الطفل يسوع، ولكـي يقدمـوا احترامهم لملـك الملائكة قـدموا لـه الهدايا الـرمزية المؤلفة مـن الذهب والبخور والمر، وفي بيـت لحم والمناطق

المجاورة لها، أمر هيرود بقتل الأطفال الأبـرياء، ويرقد القسم الأكبر منهم مـدفونين في الجانب الجنـوبي، على بعد أربعـة أميال مـن بيت لحم وعلى ميلين من تقوعه.

وفي بيت لحم، دون الكنيسة نحو الأسفل، وليس بعيـداً عن مزود ربنا، يرقـد جسد القـديس جيروم، وجسد بـاولا، وجسد يـوستوخيوم، اللـذين كتب إليهما جيروم نفسه رسائل، وهما مدفونان مثله في بيت لحم.

وعلى مسافـة ميل واحد عن بيت لحم أضاء النجـم للرعاة عندمـا ولد الرب، وظهـر ملاك وهو يردد قـائلاً: «المجد للرب بـالأعالي وعلى الأرض السلام وللنـاس المسرة».(لوقا: ٢/ ١٤)، وعلى بعـد ثلاثة أميـال من بيت لحم تقوم تقوعه، وهي بلدة عاموس الـذي يرقد مدفوناً هناك، وعلى أربعة أميال من بيت لحم وبـاتجاه الجنوب تقوم كنيسة القديس شـارتون، حيث عندمـا غادر هو نفسـه من هذا العـالم هلك رهبانـه معه، ذلك أنـه كان معلمهم التقي، وكـانوا قد تلقـوا من قبل انذاراً مـن الرب، لأنه كـان أباً تقياً لهم، وفي الحقيقـة كانوا يهيمـون حباً به، ولهذا لم يـرغبوا بالعيـش بعد مـوته، وفي الكنيسـة المتقدمـة الذكـر يمكن رؤيـة هياكلهم العظميـة في الأوضـاع التي كانـوا عليها، عنـدما استبـدت بهم آلام الحزن عند مـوت أباهـم، وقد نقلوا منذ أمد إلى القدس.

وعلى مسافة ميـل من بيت لحم، وعلى الطريق الذي يقـود إلى القدس، تقوم قبة راحيل، وهو المكان الذي تـوفيت به راحيل، بعد حملها ببنيامين، وقد دفنت هنـا من قبل زوجها يعقـوب، في قبر وضع يعقوب فـوقه اثنتي عشرة صخـرة عظيمة، وذلـك بمثـابة ذكـرى ابنـائهـا الاثني عشر، والهرم الذي تشكـل من هذه الصخور يمكـن رؤيته من قبل الـذين يعبرون من هناك.

الفصل العشرون

عندمـا كان ربنـا في التاسعـة والعشرين وثـلاثة عشر يـوماً من عمـره —حسبما يروي لنا لوقا— ولدى شروعـه بدخول سن الثلاثين، ورغبة منه في وضع نهاية لـلاختتان، وليجدد الانسان العجوز بـالماء المقدس، ذهب إلى الصحراء إلى يـوحنا، الذي كان رائده، وتعمـد من قبله في نهر الأردن، في مكان يبعـد ثلاثـة أميال عـن أريحا، وهناك سمع صـوت الآب يرعـد فوقه قائلاً: «هـذا هو ابني الحبيب» الخ؛ وينبع نهر الأردن من نبعين هما: «أر» و «دان»، وهـو ينبع عند سفـح جبال لبنـان، وبعدمـا يسير لمسافـة طويلة يتشعب، ثم تعـود مياهه إلى الاندماج قرب جبـال جلبوع، وزيادة على ماتقدم، عندمـا كان المسيح يتعمد، جاء الروح القـدس، وحلق فوقه على شكل حمامة، وبـذلك أظهر، أنه هـو، وليس يوحنا الـذي يمتلك قوة تقـديس الماء، وقـرب البقعة نفسهـا، أي أن تقول على مسـافـة ميلين من أريحا، وعلى الجانب الأيسر، تـوجد الصحـراء التي اسمها القـرنطل، وعلى رابيـة صخريـة فيها عمل المسيـح صيامـه الذي دام أربعين يـوماً وليلـة، وعندما كان جائعاً هنـاك جاء الشيطان لاغرائه قائلاً: «قل أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (متى: ٤/٣)، ويقوم على ميلين من القرنطل باتجاه طبرية الجبل العظيـم الارتفاع، الـذي حاول الشيطـان فيه ثـانية إغـراء المسيح، حيث أراه جميع ممالك الدنيا وقال له: «كل هذا سوف أعطيه لك»، الخ.

وعلى مقربـة من القرنطل نهر صغير يصـدر عن النبع الذي شفـى فيه ألسيوس المقدس المرأة العـاقر، وجعله حلواً بـدلاً من المرارة، وقبل أريحا، وعلى طرف الطريق كان هناك متسول أعمى، وعندما سمع أن يسوع كان ماراً عبر الطريق صرخ: «يايسوع، أنت يـابن داود، ارحمني»، وكان جديراً أن يتلقى النور منـه في كل من الخارج ومن الـداخل، وعلى مسافة ثـلاثة عشر ميـلاً من القـدس بـاتجاه الشمال تقـع أريحا، وهي مـدينـة راحـاب العاهرة، التي استضافت أربعة من الجواسيس من بني اسرائيل، وأنقذت حيـواتهم، وأخفتهم وأطعمهتم، وهـي أيضاً مـدينة زاخـايـوس (زكريـا)

الـذي عندمـا سمع بـأن يسوع كـان يسير في تلك الأطـراف، ولأنه كـان قصير القامة فقد تسلق شجرة جميـز، حتى يمكنه أن يراه، ويتحدث إليه، حـاكماً على نفسه وسـائلاً مـن أجل العفـو، وهي أيضـاً مـدينة الأطفـال الذين سخـروا من الياس المقدس، عندمـا كان ذاهباً إلى القدس، وقـالوا له: «ابتعد فأنت أصلع الرأس»، الخ.

وعلى ثلاثـة أميال من أريحا، وعلى ميلين من الأردن تقـوم بيت حجلة، التي فسر اسمهـا على أنـه يعنـي مكـان الـدائرة، لأنـه في هـذا المكـان، وحسب عـادات الندب، عمـل أبناء يعقـوب والناس معهم دائرة حـول قبره، عندما جلبوه من مصر إلى الخليل.

وعين الجدي، في منطقة سبط يهوذا، حيث أخفـى داود نفسه في أيلون Aulon ، أي أن تقول في سهل منطقـة أريحا، وعلى كل حال هناك قـرية يهوديـة واسعـة إلى جوار البحـر الميـت اسمها عين الجدي، وفيهـا ينمـو شجـر البلسم، ومنهـا يصـدر، وهذا هـو السبـب الذي دعـا إلى إطـلاق اصطلاح عين جدي على الكروم.

الفصل الحادي والعشرون

وعلى الجانب الآخـر من القدس، وبـاتجاه الجنوب قليـلاً، تقوم مـدينة الخليل، التي كانت في يوم من الايـام المدينة الرئيسية في فلسطين، ومكان إقامة العمالقـة، وهي على مسيرة يوم واحد من القدس، وقـد أعدت هذه المدينة ونظمت لتكـون مدينة كهنة ومدينـة لاجئين في منطقة سبط يهوذا، ففي تلك المنطقـة صنع الخالق أبـانا العـام آدم من طين، ونفخ فيـه روح الحيـاة، وتـدعـى الخليل بـاسم «قـريـة — أربعـة» حسبما ورد بـاللغـة السريانية، ومعنى هـذا وتفسيره «مدينة الأربعة» فمعنى كلمة «قـرية» هو «مدينة» و (Arba) «أربعة» وسبب هـذا أن أربعة من الآباء «البطـارقة» قـد دفنـوا في الكهـف المزدوج الموجـود هنـاك، وهـم: آدم وإبـراهيـم،

واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، أمهاتنا: حواء، وسارة، ورفقة، وليا، وتقوم الخليل الآن على مقربة من وادي الدموع، وعرف وادي الدموع بهذا الاسم، لأن آدم ناح هناك على ابنه هابيل لمدة مائة سنة، وحدث هناك أيضاً فيما بعد، أن تعرف — بناء أمر من ملاك— على زوجته، التي حملت منه فيما بعد ابنه شيث، الذي انحدرت منه أسرة المسيح، وعلى مسافة ميلين من الخليل يقوم ضريح لوط، ابن أخي ابراهيم، وفي الخليل حقل، التربة فيه حمراء، ويحفر هذا من قبل السكان، وتؤكل تربته من قبل السكان ويصدرونها إلى مصر، ويبيعونها هناك بثمن مرتفع، وبأمر من الرب، نجد هذا الحقل الذي يحفر عميقاً وعريضاً، يتجدد ويعود كما كان دوما في نهاية السنة.

وعلى مقربة من الخليل يوجد جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد شجرة تدعى «دربسDirps أي البلوطة المقدسة والخضراء دوما، أو البلوطة فقط، وهي التي سكن ابراهيم تحتها لوقت طويل، وتحتها رأى الملائكة الثلاثة، وقد تعبّد واحداً منهم، وأكرم وفادتهم بقدر ما أمكنه، وطمأنهم وأكل معهم.

وأوضح جيروم أن البلوطة المتقدمة الذكر ظلت موجودة حتى أيام الامبراطور ثيوديوس، ومنها تفرعت البلوطة الموجودة الآن، وهي مرئية في هذه الأيام ومحط رعاية شعب ذلك المكان وعنايته، ومع أنها مازالت تمتلك سمات الإبراء كما تبرهن من خلال حقيقة أنه إذا ما قام فارس وحمل قطعة منها معه، فإن حصانه لن يكبو أبداً، وكانت الخليل أول مكان وصل إليه يشوع وكالب، ومعهما رفاقهما العشرة، وحكم داود في الخليل لمدة سبع سنوات ونصف السنة.

الفصل الثاني والعشرون

وعلى بعد عشرة أميال من الخليل، وباتجاه الشرق تقوم بحيرة اسفلت التي تدعى أيضاً باسم «البحر الميت»، وهو بالحقيقة بحر ميت، لأنه لايحتوي على شيء حي، ويسمى أيضاً«بحر الشيطان»، لأن المدن الأربعة غير السعيدة بأعمالها غرقت فيه، وهي: سدوم، وعموره، ودومه، وساعور، لأنها ثابرت على اقتراف شرورها، فأحرقت بالنار، وبنار الكبريت، ومن ثم أغرقت في تلك البحيرة.

وعلى قرب من البحيرة، على منحدرات اليهودية تقوم سيجور، التي عرفت أيضاً باسم بلع، وزرع، وهي المدينة الخامسة من هذه المدن، وهي التي حفظت من الغرق بسبب صلاة لوط، ومن الممكن رؤيتها في هذه الأيام، وهي تعرف أيضاً باسم «قلعة النخيل»، وكانت زوجة لوط قد حولت إلى عمود من ملح، وعلى الطريق عندما يخرج الانسان من سيجور، يمكن أن يراها باقية ومن الممكن مشاهدتها، وعلى شواطىء البحيرة المتقدمة الذكر هناك الكثير من الشب، والقار، ويتولى جمعه السكان المحليون، ويستخرجون من البحر الحمر، أو الفحم القاري الذي يعرف باسم الحمر اليهودي، وهو ثمين يستخدم لأغراض كثيرة، وعلى كل حال تدعى سيجور من قبل سكانها باسم بلدة النخيل.

وليس بعيداً عن بحيرة اسفلت، عندما يذهب الانسان هبوطاً نحو العربية يوجد كهف الكرك، في جبل المآبيين، ففيه قاد بلك بن باعور النبي بلعام، علّه يقوم بلعن بني اسرائيل، ويدعى هذا الكهف بـ «الانقطاع» لأنه قائم وسط شعاب منحدرة، وتفصل بحيرة اسفلت اليهودية عن العربية، وكانت العربية في أيام بني اسرائيل صحراء مهجورة بلا سكان، ومعزولة، لايمكن المرور بها، ولاماء فيها، وأبقاهم الرب هناك لمدة أربعين سنة، وهو يمطر عليهم المن ليأكلوه، ويجعل الماء ينبع من الصخور.

ويوجد في العربية جبل سيناء، الذي بقي موسى عليه لمدة أربعين يوما والعدد نفسه من الليالي بدون أي طعام، وهناك أعطى الرب موسى الشريعة وقد كتبت باصبعه على ألواح من الحجر، ويوجد في العربية وادي موسى، ففيه ضرب الصخرة مرتين، فأرسلت نهرين من الماء من أجل شعب الرب، منهما ما تزال المنطقة كلها تشرب، وفي العربية سار عمود من نار أمام بني اسرائيل في الليل، وأظلتهم غمامة كل يوم، وفي العربية حليم Helim (وادي وسيط، أو وادي غُرنُدل) حيث قيست مساحة معسكر بني اسرائيل، وبما أن مكان هذا المعسكر كان في الصحراء، فإنهم عندما خرجوا من البحر الأحمر، وجدوا اثني عشر نبعاً وسبعين شجرة نخيل، ويوجد في العربية أربعين محطة توقف فيها بنو اسرائيل، ويوجد في العربية جبل حوريب، الذي دفن عليه هرون، وفي العربية أيضاً جبل عبريم Abarim، الذي دفن فيه الرب موسى،الذي لايمكن رؤية قبره في أي مكان، وفي العربية هناك الجبل الملكي (مونتريال)، الذي استولى عليه الملك بلدوين، الملك الأول للفرنجة في القدس، وألحقه بالأراضي التي كانت بحوزة المسيحيين، وعمل عليه حصناً قوياً (الشوبك) من أجل أرض داود، وتتصل العربية بأرض أدوم قرب بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، وعلى كل حال أدوم تابعة لسورية، ورأس سورية دمشق.

الفصل الثالث والعشرون

وعلى مسافة أربعة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب، تقوم البلدة التي كان زكريا يسكن فيها عندما جاءت مريم أم يسوع، وهي حامل في رحمها بابن الرب، مسرعة لتقديم التحية إلى خالتها إليزابث، حيث كانت وقتها حاملة بابنها يوحنا، الذي يقال بأنه ولد في ذلك المكان.

وعلى ستة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب على الطريق الذي يقود إلى الرملة يقوم جبل مودين Modin، الذي جاء منه متيتا -Mathath

ias، أبـو المكابيين، الـذين يـرقدون مـدفونين هنـاك، ومن الممكن رؤيـة قبـورهم هنـاك حتـى هـذا اليوم، وعلى ثمانيـة أميـال مـن مـودين، وعلى الطريق الـذي يقود إلى يافـا، تقوم مدينـة اللد، والتي تعرف أيضـاً باسم ديوبولس، ففيها مدفون جسـد القديس جرجس، وهو معروض هناك على مسافة ميل من الرملة.

وعلى ستـة عشر ميلاً من جبـل الكرمل، وبـاتجاه الجنـوب تقع مدينـة قيساريـة الفلسطينية، التي هي مطـرانية، ومـدينة كورنيلـوس، قائد المائة الروماني، الذي عمده القديس بطـرس هناك، وعمله أسقفاً، وهناك يوجد برج ستراتـو، وهناك أيضـاً بنى هيرود ميناءً مـن الرخام الأبيـض لمواجهة قـدوم أغسطس، وبنى هيرود نفسـه البرج الذي يتحكم بـالقدس، وهـو الذي يعرف باسم برج داود، ويخبرنـا يوسفيوس بأنه بنى هذا البرج وسماه «أنطونيا».

وعلى مسـافة ثمانيـة أميـال من النـاصرة، وبـاتجاه الكـرمل يقـوم جبل قيمون، فعنـد سفحه وإلى جـانب نبع هنـاك قتل لامخ أبـو نوح مقـدمه قاين بقوسـه ونشابه، ولهذا قال في ثورة جنونه وغضبـه: «لقد قتلت رجلاً أنـا معجب بـه، وذبحـت رجـلاً شابـاً لإيـذاء نفسي» وعـن قـاين قـال الرب:«إن الذي قتل قاين على هذه الصورة سـوف يعاقب عقاباً مضاعفاً سبع مرات». وعلى بعـد سبعة أميال من جبل قيمون يقـوم جبل الكرمل، الـذي نقـرأ عنه في نشيـد الإنشـاد قـولـه: «رقبتك مثل جبـل الكـرمل»، وللعيش عليـه اختـار ذلـك اليـاس المقدس لمدة طـويلـة ومعـه تلميـذه «إليشا».

الفصل الرابع والعشرون

يفصل لبنـان أدوم عن فيقيقيا، وفي فينيقيـا مدينـة صور، وهـي المدينة الأكثر شهـرة بين مدن الفينيقيين، وهي الحاضرة، التـي — تبعاً لـروايات

السريان— رفضت استقبال المسيح داخل أبوابها عندما كان يسير على شاطىء البحر، وهي أيضاً المدينة التي — وفقاً لصفحة مقدسة وبشهادة منها — قدمت شهداءً للرب، علمه فقط يمكنه أن يخبر عن عددهم، وفي صور قبر أورجين، وخارج صور تقوم الصخرة الرخامية الكبيرة التي جلس عليها يسوع، والتي بقيت بدون أذى منذ أيام المسيح حتى أيام إخراج المسلمين من المدينة، لكنها قطعت فيها بعد من قبل الفرنجة والبنادقة، وعلى كل حال لقد بني فوق المتبقي من تلك الصخرة كنيسة على شرف المخلص.

وعلى بعد ثمانية أميال من صور باتجاه الشمال، وعلى طرف البحر، تقوم الصرفند، وهي صربتا، Sarepta في أرض صيدا، حيث سكن هناك النبي إلياس مرة من المرات، فهناك أرجع إلى الحياة يونه، ابن الارملة التي أكرمت وفادته، وطمأنته وأطعمته، وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا، وهي مدينة نبيلة، جاء منها ديدو، وديدو هو الذي أسس قرطاج في إفريقية، وعلى مسافة ستة عشر ميلاً من صيدا تقوم بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، وحدث في بيروت أنه ليس بعد مدة طويلة من آلام مخلصنا، كان هناك تمثال له، أخذه اليهود ووضعوه على صليب سخرية منهم ولاظهار كراهيتهم ورفضهم له،(وطعنوه) فصدر عنه دم وماء، وبناء عليه آمن كثيرون به، وهو الذي صلب فعلاً، وتعمدوا، وكان جميع الذين دهنوا بنقاط مما تساقط من التمثال قد تحرروا كلياً من كل مرض كانوا يعانون منه.وأرفات (تل ارفاد أو أرواد) مدينة تابعة لدمشق.

الفصل الخامس والعشرون

من أجل دمشق في سورية انظر التاريخ، فدمشق هي عاصمة سورية، وهي حاضرة مبجلة، وقد بنيت دمشق في سورية من قبل هيليزر He-liezer خادم إبراهيم،في الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، و

سكن عيسوفي دمشق، و سعير في أدوم، و سعير تعني صاحب الشعر الكثيف، ومعنى أدوم الاحمر، أو ذي الشعر الأحمر، ومن اسم أدوم عرفت تلك المنطقة كلها باسم أدوميا الذي ورد ذكرها في المزامير: «فوق أدوميا سوف أرمي حذائي» الخ، وتدعى أدوم أيضاً، ولذلك قال النبي: «من الذي جاء من أدوم، والذي يرتدي ثياباً ملونة من بصرى»؟ وجزء من تلك البلاد يعرف باسم حوران (Hus)، ويدعى أيضاً باسم سوتا -Sue ta (السواد)، التي كان منها بلداد السوتي (السوادي)، وفيها أيضاً تيماء، التي هي المدينة الرئيسية في أدوميا، ومن تيماء جاء علفز Eliphaz التيمائي، ويوجد في موضعه مدينة نعمان، التي جاء منها زفر Sophar النعماني، وهؤلاء الثلاثة كانوا المطمئنين ليعقوب.

وفي منطقة أدوم، وعلى مسافة ميلين من الأردن، هناك مخاضة يبوق(غربي الزرقا)، وكان يعقوب، بعد عبوره لها، عندما كان عائداً من بلاد الرافدين قد تصارع مع الملاك، الذي غير اسمه من يعقوب إلى اسرائيل، وفي أدوم يوجد جبل سعير (حرمون)، الذي تقع دمشق على مقربة من سفوحه، وعلى مسافة ميلين من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول، قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني»؟، وهناك أشع نور عظيم جداً من السماء حول بولص، وفي دمشق تولى أنانيس تعميد شاول،، ومنحه اسم بولص، ومن فوق أسوار دمشق تمت تدلية بولص إلى الأرض، لأنه خاف من غضب معذبيه.

وفسر اسم لبنان بأنه البياض، وورد ذكره في نشيد الإنشاد قوله: «تعالي ياحمامتى من لبنان»، وينبع من لبنان نهرا: أبانا (نهر القاسمية)، وفرفر (العاصي)، وهما نهري دمشق، ويجري أبانا خلال جبال لبنان، وفي سهول منطقة أركاسArchasمتخذا طريقه نحو البحر الكبير، حيث الأمكنة التي اتخذها يوستاخيوس Eustachius مقراً لحياته بعد فقدانه لزوجته وأولاده، بينما يجري فرفر خلال سورية إلى أنطاكية،.وبعد عبوره

لأسـوارها، يصـب هو نفسـه في البحـر المتـوسط، وذلك على بعـد عشرة أميال من أنطاكيـة، في ميناء السويدية الذي هو مينـاء القديس سمعان، وكـانت أنطـاكيـة لمدة سبع سنـوات الكـرسي بالنسبـة للقـديس بطـرس الرسـول، الذي لبس التـاج البابوي هنـاك لمدة سبع سنوات وعنـد سفح لبنان تقوم مدينة بانياس أوبلنياس، التي هي تدعى أيضا باسم: قيسارية فيليب.

وعنـد سفح لبنـان ينبـع نبعـا «ار» و «دان»، ويشكل هـذان النبعـان الأردن، عنـد سفح جبال الجليـل، ويدعى الـوادي القائم فيما بين جبـال جلبوع وبحيرة أسفلـت باسم «الغـور» أو أولون Aulon، التي هي كلمة عبريـة (كـذا واقـرأ: اغـريقيـة)، وأطلق هـذا الاسـم أيضـاً على الـوادي الخصب والـواسع، المحـاط بالجبـال على الجانبين، من لبنان إلى صحـراء فـاران، ويفصـل الاردن الجليل عـن أدوم، وعـن أرض بصرى، التي هـي المدينة الثانية في بلاد أدوم، ومعنى الاردن هو «النزول».

ويجري دان تحت الأرض تقـريباً مـن نبعه حتى مـزيـريب (Medan) فهناك يستأنف مسيره بشكل مكشوف فـوق الأرض، ويدعى هذا السهل باسـم «مدان» لأن دان في وسطه، وهكـذا يعرف بلغة المسلمين، وبـاسم «بلاتيـا Platea » بـالـلاتينية، وتعـرف «مـدان» أيضـاً باسـم «مـوضع السوق»، لأن أعداداً لاتحصـى من الناس تجتمع هناك في بـداية الصيف، ويجلب هؤلاء النـاس معهم جميع أنواع الأشياء للبيع، ويبقـى هناك عدد واسع مـن الفرس والعـرب طوال الصيـف بغرض القيـام بحماية النـاس ورعي مـواشيهـم، وتتألـف كلمة «مـدان» مـن كلمتي: «مـد» و «دان»، وتعني كلمة «مد» بلغة المسلمين «مـاء» و«دان» نهر، وبعدما يغادر «دان» السهل المتقـدم الذكـر، يصبح نهراً يجري خلال السـواد (Sueta) حيث الهرم التذكـاري ليعقوب المبارك، وهو مـايزال موجـوداً، وهو محط احترام من قبـل الملـوك والأمم، وينعطف دان نحـو الجليل الاسـلاميـة، ويجري

خلال مـدينة جدر (أم قيس) إلى جـانب الحمامات الطبيـة، خلال سهل الأشواك، وينـدمج «بالأر»، و«الأر» يصنع بحيرة (الحولة) ليـس بعيداً عن بـانياس، ومنهـا نفسها يـأخذ طـريقه فيما بعـد إلى بحر الجليـل بين بيت صيدا وكفرنا حوم، حيث تكون هنا بدايته.

الفصل السادس والعشرون

وجاء من بيت صيـدا بطرس، ويوحنا، وأنـدرو، وجيمس بن ألفيوس، وعلى مسافة ستةأميال من بيت صيدا تقع كوروزين Chorazain (قلعة الحصن) فهناك المسيح الدجال المضلل للعالم سوف ينشأ وينتعش، وعن كوروزيـن وبيت صيدا قـال يسوع: «الـويل لك كـوروزين، والـويل لك بيت صيـدا»، وعلى بعد سـتـة أميال مـن كوروزين تقـوم بلدة جـدر (أم قيس)، وهي المدينـة الأعظم مجداً، وهي التـي نقرأ عنهـا في المزامير: «لقد سكنت بين سكـان جـدر»، وتفسير كلمة جـدر هـو «في الظـلام»، وتقع كفـرنا حـوم (تلحوم) على الطـرف الأيمن من البحـر، وهي مـدينة قـائد المائة، وفيها شفـى يسوع ابن قائد المائة، والـذي قال عنه: «إننـي لم أجد مثل هـذا الايمان العظيم في اسرائيل»، وصنـع يسوع في كفـرنا حـوم كثيراً من المعجـزات، وقام بـالتعليم في الكنيس، وتفسير اسم كفـرنا حـوم هو: «البيت الأعظم جمالاً» أو «ابنة الجمال»، الذي يعني بالنسبة لنا ويشير إلى الكنيسة المقـدسة، فجميع الـذين يأتون إليهـا من لبنان، أو بـالحري من بياض الفضيلة، سوف يتحولون فيها وبها إلى أكثر ألقاً.

ويقوم على ميلين من كفـرناحوم سفـح الجبل (خان منية) الـذي وعظ فيـه الـرب الحشـود، وبعـث أمـامـه حـوارييـه لتعليمهم، وشفـى هنـاك المجذوم، وعلى ميل من هـذا السفح يوجد المكان الذي أطعـم فيه خمسة آلاف انسـان بخمسة أرغفـة وسمكتين، ولهذا يـدعى هـذا المكـان بـاسم المائدة، لأنه كان موضع الاطعام، ودونـه غير بعيد يقوم المكان الذي ظهر فيه في السـاعة الرابعـة من الليل لبطرس وأندرو، عنـدما كانـا يصطادان

السمك، ووقتها رغب بطرس بـالتوجه إليه فوق البحر، وبـدأ يغرق، فقال المسيح لـه: «ياقليل الايمان لماذا شككت»؟، وهنـا قام مرة أخـرى بتهدئة البحـر، عندمـا كان حـواريوه في خطـر، وعند رأس البحـر، وعلى الجانب الأيمن هنـاك انهدام في الجبل اسمه جنسـارث (الغويـر)، وهو «المكـان الذي يرعى الريح»، الأمر الذي مازال يشعر به حتى الآن الذين يزورونه.

وعلى بعد ميلين مـن جنسارث يقـوم المجدل، وهـو مكان ولادة مـريم المجدلية، وتـدعى هذه المنطقة باسم جليل المسلمين، وهـي قائمة في دار سبطي: زبلـون ونفطليم، وفي الجزء الأعلى من هذا الجليـل تقوم العشرون مدينة اللائي أعطاهـن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور، وعلى ميلين من المجدل تقـوم مدينة سينيرث، التي تـدعى أيضاً بـاسم طبرية، ذلك أنها نالت اسمها من القيصر تايبيروس، وهـذه المدينة غالباً مازارها يسوع عندمـا كان شاباً، وعلى مسافـة أربعة أميال من طبرية تقـوم مدينة بيت أوليا (كـذا، والاشارة هنا إلى صفد، ولعل بيت أوليـا الآن هي مثليا) التي تنتمـي إليها يـودث، التي قـامت أثنـاء حصار مـدينتهـا بعمل على درجـة كبيرة من البراعة بقتلهـا أولوفـرنس، وأنقـذت شعبها، وعلى أربعـة أميال مـن طبرية باتجاه الجنـوب (اقرأ: الشمال) تقوم دوثيم (خـان جب يوسف) فهناك وجد يوسف أخوته يـرعون قطعانهم، ولكراهيتهم له باعوه إلى الاسماعيليين هنـاك، وعلى بعـد ستة عشر ميـلاً من النـاصرة، وبـاتجاه الشرق، عبر بحر الجليل تقوم جـرجوسيا Gergesa ، وهي القريـة التي رد فيها المخلـص إلى الصحة الذيـن تلبسهم الشيطان، وأرسل مـن هناك قطيع الأوز عبر مكان شديد الانحدار إلى البحر.

الفصل السابع والعشرون

إلى القارىء

هكـذا قمت بقـدرمـا أستطيع بـوصف الأمـاكـن المقـدسة في مـدينـة

القـدس، شروعـاً من كنيسـة الضريح المقـدس، وطفت مـن حـولها، من خلال باب داود، حتى عدت إلى المكـان نفسه، وأسقطت ذكر عدد كبير من البيع والكنائس الصغيرة، المدارة من قبل أنـاس من مختلف الشعوب واللغـات، لأنـه هناك: الاغـريـق، والبلغار، والـلاتين، والألمان، والهنغـار، والسكوتلنديين، والبوهيميين، والجورجيين، والأرمن، والكفتوريين Caph-eturici ، والموارنـة، وعـدد كبير آخـر يحتـاج ذكـرهم إلى وقـت طـويل: وهكذا دعونا مع هذا ننهي هذا الكتاب الصغير، آمين

صيغة الـدعاء بمناسبة عيـد ذكرى استرداد مدينة القـدس من الكفار، وذكرى تبدل شكل ربنا، الذي يستخـدم في الكنيسة الكاتدرائية للضريح المقدس في القدس.

صيغة الدعاء بمناسبة استرداد مدينة القدس

اليـوم الخامس عشر من تموز هـو يـوم عيـد تكريـس كنيسـة الضريح المقدس، حيث يقـام في ذلك اليوم احتفـال عظيم بمناسبة ذكـرى تحرير القدس مـن قبل المسيحيين، وفي إيماءة إلى هذا يتكون المدخـل الطقوسي الغنائي الذي يجري قبل القداس، من الأناشيد التالية:

Laetare Jerusalem, Kyrie Eleyson, Cunctipotens» . « genitor Deus

والدعاء كما يلي:

«أيها الـرب القديـر، والسرمـدي، لقـد أنقذت القـدس بفضل جـودك الرائع، أنقذت القـدس مدينتك من أيدي الكفـار، وأعدتها للمسيحيين، كن معنـا أيها الرب، فنحن نتوسـل إليك، وساعـدنا، نحن الذيـن نداوم على الاحتفـال بهذا اليوم المقـدس كل عـام، بكل تقـوى، علّمنا أن نكـون أهلاً لنيل متع القدس السماوية من خلال ربنا» الخ.

وبعـد النـص الـرسـولي يغنـى شعـر «Surgeilluminare» وتكـون الهلالـوليا (أو الأنـاشيد التـي تغنى قبل الانجيـل) هي: -Dies Sanc tificatus ، بالتدريج ، أو بالترتيلة الجماعية Omnes de saba .

ويغنـى بعـد الانجيـل شعـر:«-Cum Intruret Jesus Hier osolymam » .

وبعـد الطقس تأتي التقـدمـة Offertoria ، أو جمل تُقـرأ عنـد وقت التقدمة الأولى هي: الـ Secreta ، أو دعاء وقت التكريس للعناصروهو:

«أيها الرب، نلتمس منك أن تتقبـل بكرمك هذه التقدمة التـي نقدمها إليكم بتـواضع، وأن تمنحنا بـأسرار قدرتها نحن الـذين نحافـظ على هذا اليوم الذي أنقذت فيه القـدس من أيدي الكفار، في أن نكون لائقين لأن نصبح من أهل القدس التي هي في السماء، من خلال ربنا» الخ، الخ.

ويُغنى عنـد القداس العـام، أو الدعاء وقـت تسلـم عناصر التكـريس النشيد التالي: «Jerubsalem surge » الخ.

الدعاء

«امنحنـا يـارب، أن تكون التضحيـة التـي قمنا بها، صحـة لكـل من أجسادنـا وأرواحنا، وأن نكون نحن الـذين نبتهج هذا اليـوم بسبب تحرير مدينـة القدس، جديـرين بوراثة القـدس التي هي بالأعلى، مـن خلال»، الخ.

القداس في يوم تبدل هيئة الرب

دعاء

«يـارب، يـامن كنـت مسروراً في تغيير هيئة ذاتـك فـوق الجبل، وفقـاً لتركيبتنـا، نلتمـس منك أن تمنحنـا أيضـاً النـور الـذي تكـرمـت وأريتـه لحوارييك، والذي هو مع الآب»،الخ

ويحتفل بعيد تغيير هيئة ربنا على جبل الطور في اليوم الثامن من قبل اليوم الرابع عشر من آب. (٦ — آب).

والمدخل الطقوسي الغنائي هو: «Benedicta sit sancta . Per Dominum».

الدعاء

«يارب، يامن قمت في هذا الوقت بالكشف عن ذاتك على أنك ولد مولود فقط، وتحولت بشكل رائع في السماء وعدت إلى الآب للعهدين القديم والجديد، نلتمس منك أن تمنحنا، بعملنا هذه الأشياء التي هي مرضية لك، أن ننال التأمل الأبدي في أمجاد من أنت أبوه، أنت يامن أعلنت عن نفسك ورضاك، وذلك من خلال ربنا»، الخ.

والـ Secreta، أو الدعاء لدى تكريس العناصر:

«يارب، أيها الأب المقدس والقدير، نلتمس منك أن تتقبل التقدمات التي نقدمها في ذكرى تغيير الهيئة الرائع لابنك، وامنحنا برحمتك أن نتحرر من الاضطرابات الأرضية، وأن نشترك في البهجة السماوية من خلال ربنا»، الخ، الخ.

والقداس العام، أو الدعاء لدى تسلم تكريس العناصر:

«يارب، يامن جعلت هذا اليوم مقدساً بتغيير هيئة كلمتك المتجسدة، وباعترافك به بصوتك على أنه ابنك، نلتمس منك أن تمنحنا بفضيلة الطعام المقدس هذا، أن نكون جديرين لأن نصبح أعضاءً في جسده، جسد الذي أمرنا أن نفعل هذا، في تذكر لنفسه، إنه يسوع المسيح، ابنك ياربنا، الذي هو معك»، الخ، الخ.

حواشي كتاب الاستيلاء على دمياط

١— كانت الهدنة التي انتهت في سنة ١٢١٧، قد عقدت بين العادل الأيوبي، وبين إما عموري لوزغنان، أو جون دي إيبلين عندما كان نائباً لملك القدس.

٢— كان مجمع اللاتيران الرابع (المجمع(المسكوني الثاني عشر) الذي عقد عام ١٢١٥، أعظم مجامع العصور الوسطى، ولهذا يشار إليه أحيانا بكل بساطة باسم مجمع اللاتيران، وقد عقد بناء على دعوة البابا انوسنت الثالث (ت: ١٢١٦)، ورفض هذا المجمع التجسيد والأسرار الأخرى، مراغمة للألبينين، وأدان أخطاء جوشيم حول التثليث واعترف بالمكانة الثانية لبطريرك القسطنطينية، ومنع تأسيس رهبانيات دينية جديدة، واتخذ موقفا مضاداً للثنوية، وأقر بطلب اعتراف واحد على الأقل كل سنة وبقربان.

٣— جون أوف بريين، ملك القدس (١٢١٠— ١٢٢٥)، وأمبراطور القسطنطينية (١٢٢٨— ١٢٣٧)، وقد تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري دي مونتفرات في سنة ١٢١٠، وفقده سنة ١٢٢٥ عندما تزوجت ابنته ايزابيل فردريك الثاني، ولقد كان قائداً عسكرياً، فهو الذي قاد الحملة ضد دمياط، لكنه كان متغيباً وقت المصاعب بسبب خلافه مع بيلاغوس، ولأنه انشغل بمطالبته بعرش أرمينيا.

٤— أندرو الثاني، ملك هنغاريا (١٢٠٣— ١٢٣٥)، كان ابن بيلا الثالث ومرغريت أميرة فرنسا، وقد ترك الحملة الصليبية في بداية عام ١٢١٨، وغدا فيما بعد في سنة ١٢٣٣ زوجاً ليولاندا كورتني، امبراطورة القسطنطينية.

٥— هيوج أوف لوزغنـان، ملك قبرص (١٢٠٥— ١٢١٨)، كان ابن عمـوري وإشيـف دي إيبلين، وقــد تـزوج مـن أليـس أوف شـامبين— القدس، ابنـة ايزابيلا صاحبـة القدس وهنري أوف شـامبين، الذي شغل بعد وفاة هيوج دوراً هاماً في سياسات الدول اللاتينية.

٦— ليوبـولد السادس، الدوق المشهـور للنمسا (١١٩٨— ١٢٣٠)، الذي قـاتل في اسبانيـا في سنة ١٢١٢، لكنه وصل متـأخر جداً بـالنسبة لمعركة «لاس نافاس دي تولوزا».

٧— أوتـو السـابع، دوق ميران (١٢٠٤— ١٢٣٤)، وقـد انتمـى إلى أسرة بطـركيــة شهيرة، وكــان والــداه: بيرثــولــد الــرابـع، دوق ميران (ت:١٢٠٤)، وأغنس أوف غروتـش— روشلتز (ت: ١١٩٤أو ١١٩٥). وتزوج أوتـو من بيتريس أوف هـوهنستوفن، وارثـة بيرغندي. وكـان أخوة أوتـو هـم: هنـري مرغـريف أوف استريـا (١٢٠٤— ١٢٠٩)، وبيرثولـد الخامس، بطريـرك أقويليا، وايغبيرت، أسقـف بامبيرغ، أما أخـواته فكن: أغنس (ت:١٢٠١)، زوجـة الملك فيليب الثاني، ملـك فرنسـا، وغيرترود (ت: ١٢١٣)، زوجـة أندرو الثـاني ملك هنغـاريـا، والقديسـة هيـدويغ (ت: ١٢٤٣)، زوجة هنري دوق سيليزيـا— برسلو. وحمل أوتو الصليب في سنة ١٢١٥، وعاد في كانون الثاني ١٢١٨.

٨— يوستـورغيوس أوف مونتاغيـو، رئيس أساقفة نيقـوسا (١٢١٧— ١٢٥٠)، ووردت الإشارة إليـه بمثابـة نائب لبطريـرك القدس في رسـالة تعلقت بالحملـة الصليبية، كتبها ثيبـود، كونت شامبين، وكـذلك الاشارة إلى بـارونات فـرنسيين آخـرين، وكـان يـوستورغيـوس أخـاً لغـورين دي مونتاغيو، مقدم الاسبتارية، ولبطرس مقدم الداوية.

٩— بطرس، أسقف رآب (في هنغاريا)، ١٢١٧— ١٢٢٤.

١٠— توماس، أسقف ايرلو في هنغاريا (١٢١٧— ١٢٢٤).

١١— بيرثولد الخامس أوف ميران، رئيس أساقفة كالوكزا وبكس (في هنغاريا)، ١٢٠٦— ١٢١٨، انتقل إلى أقوييا ليشغل وظيفة البطريرك ١٢١٨— ١٢٥١، وكان أخا للدوق أوتو أوف ميران، وعن ايغبيرت أسقف بامبيرغ انظر الحاشية رقم /٧/ المتقدمة.

١٢— روبرت أوف أبليغ، أسقف بيو Bayeux (١٢٠٦— ١٢٣١).

١٣— ايغبيرت أوف ميران، أسقف بامبيرغ (١٢٠٣— ١٢٣٧)، وهو آخ آخر لأوتو أوف ميران.

١٤— إيغلبيرت، أسقف زيتز (من قبل: نامبورغ) في أبرشية ماغبورغ (١٢٠٧— ١٢٤٢).

١٥— أوتو أوف ألدنبيرغ، أسقف أوف مونستر، (١٢٠٤— ١٢١٨).

١٦— أوتو السادس، أسقف أوف أوترخت (١٢١٥— ١٢٢٨).

١٧— أوتو أوف أفسن، (في فلاندرز)، ترك الوطن في ١٢١٧، غير أنه كان قد عاد في ربيع ١٢١٨، وقدمت أسرته عدة أعضاء للصليبيين، كان منهم جاك دي أفسن، الذي كان بارزاً في الحملة الصليبية الثالثة.

١٨— رالف أوف ميرنكورت، أسقف سالف لصيدا، وبطريرك القدس (١٢١٤— ١٢٢٥).

١٩— إلى الجنوب من عكا، وتعرف في هذه الأيام باسم خربة كرداني.

٢٠— في معركة حطين (٤— تموز ١١٨٧) عندما دمر صلاح الدين جيش مملكة القدس.

٢١— الفولة، جنوب شرق الناصرة مباشرة.

٢٢— غرب الناصرة، وتعرف في هذه الايام باسم عين طبعون.

٢٣- منطقة جبلية ومدينة، شرقي الأردن، ويعرف الجبل في هذه الأيام باسم جبل عشه.

٢٤- جنوب- غرب بحيرة طبرية، وبيسان هي سكيزوبولس القديمة.

٢٥- بلدة مدمرة على الطرف الشمالي لبحيرة طبرية، عند مصب الأردن ولعل موقعها هو الذي يعرف في هذه الأيام باسم التل.

٢٦- مدينة مدمرة على الشاطىء الغربي لبحيرة طبرية، ولعلها تلحوم الحالية.

٢٧- توجهت هذه الحملة إلى شقيف أرنون، وهي قلعة شقيقة لتبنين، وقائمة عند الطرف الآخر من نهر الليطاني.

٢٨- هيوج الأول لوزغنان مات في ١٠- كانون ثاني ١٢١٨، وعمره ثلاث وعشرون سنة.

٢٩- أصبح أندرو مريضاً، أثناء المرحلة المبكرة من الحملة الصليبية، وقد ذهب إلى عكا، وكان حاضراً في طرابلس أثناء زواج بوهيموند الرابع من ماليساند، أخت هيوج الأول، وعاد بعد أمد وجيز في أوائل عام ١٢١٨ إلى أوربا عبر طريق الأناضول.

٣٠- تأسست رهبانية فرسان الاسبتارية، أولا على شكل مشفى في القدس سنة ١٠٩٢، وكانت هذه الرهبنة قوية وثرية، طبقت أحكام القديس أوغسطين، وعرفت من سنة ١٣٠٩ حتى ١٥٢٣ باسم فرسان رودس، ومن ١٥٣٠ حتى ١٧٩٨ باسم فرسان مالطا، ومازالت قائمة دينيا ومدنيا في الكنيسة الكاثوليكية.

٣١- تأسست رهبانية الداوية في سنة ١١١٨، من أجل الدفاع عن المملكة اللاتينية في القدس، وقد كتب لها أحكامها القديس برنارد،

وكانت رهبنة قوية وثرية جداً، وقد سحقهـا الملك فيليب الجميل، ملك فرنسا سنة ١٣١٢، إرضاء للبابا كليمنت الخامس.

٣٢— ارتبطت رهبانية التيوتون بمشفى أقيم في خيمة أثناء حصار عكا في سنة ١١٨٩، وكانت ألمانية صرفة.

٣٣— عثليت، على الشاطىء الفلسطيني، وقد جرى تحصينها في الوقت الذي حُصنت فيه قيسارية.

٣٤— توفي الأسقف أوتو في ٦— آذار ١٢١٨، في قيسارية.

٣٥— ليس هناك من معلومات إضافية عنه.

٣٦— عرفت قلعة تل الصافيه باسم قلعة ابن الرب.

٣٧— جاء وصف هـذه الرحلة في: De Itinere Frisonum، وقد أخذت من تاريخ إمو، وحققت من قبل روهرخت في: Quinti Belli sacri scriptores Minores ص ٥٩— ٧٠، فلقد جرى اعداد ثلاثمائة سفينة في كولون، وبعضها بقي وقسم هلك، لكن الأكثرية جاء إلى لشبونة في البرتغال، وغادر الاسطول لويرزي Lauwerzee يوم ٣١— أيار ١٢١٦، وكان أمام عكا في ٢٦— نيسان ١٢١٨.

٣٨— قصر أبي دانس على نهر سادو غربي سيتوبال Setubal في البرتغال.

٣٩— وليم الأول كونت هولاندا (١٢٠٤— ١٢٣٦)، من بيت بيترشيم، كان تحت الحرمان الكنسي عندما حمل الصليب، وقد قاد الفريزيين في اسبانيا، وقاتل بشجاعة ضد المسلمين، وفي ١٥— ايلول ١٢١٩، استعد لمغادرة الحملة الصليبية وتركها، وفي ١٩ نيسان ١٢٢٠ كان مع فردريك الثاني.

٤٠— كان الكونت جورج أوف ويد قائداً للأسطول الفريزي ضد

اسبانيا ومصر، وكان أخا لـ «ديتريخ» رئيس أساقفة ترير (١٢١٢— ١٢٤٢)، وكان شريكاً (مع الكونت وليم صاحب هولاندا) في قيادة الإسطول الذي أبحر من لويرزي.

٤١— استخدم أولفر اصطلاح اسبارطي للدلالة على فرسان رهبانية القديس جيمس صاحب السيف، وهي رهبانية قد تأسست في اسبانيا في حوالي سنة ١١٥٨، وكان هدف هؤلاء الفرسان مساعدة المسيحيين في الحرب ضد المسلمين، وكان شعارهم سيفاً أحمر مثبتاً على عباءة بيضاء.

٤٢— كان ملك البرتغال من ١٢١١ حتى ١٢٢٣ هو ألفونسو الثاني، وكانت زوجته التي اقترن بها سنة ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ اسمها أوراكا Urraca، ابنة الفونسو الثالث، ملك كاستيلا.

٤٣— تعطي الـ Gesta crucigerorum Rhenorum (Qcinti Belli sacriscrptores Minores, ed Rohrieht, pp 27- 56) and De Itinere Frisonum (ibid, pp 57- 70) قليلاً من التفاصيل حول القصر (المعروف لدى العرب باسم قصر أبي دانس تحت حكم عبد الله بن محمد بن وزير— ويعطي Rohricht, Beitrage, II, 241- 242 تفاصيل وافية).

٤٤— جرى أعلاه التعريف بالبطريرك رالف، وبأسقفي نيقوسيا وعكا، وبدوق النمسا، أما أسقف بيت لحم فكان رينير (حوالي: ١٢٠٧— ١٢٢٧).

٤٥— ألبيرك، رئيس أساقفة الرايم منذ ١٢٠٧، وقد توفي في ٢٤— كانون الأول سنة ١٢١٨.

٤٦— جون دي فيراك، أسقف ليموزيز Limoges ١١٩٧ (١١٩٨)— ١٢١٨.

٤٧— سيمون الثاني كونت أوف ساربروكن ١٢١١— ١٢٣٣.

٤٨— تاريخ الاسكندر الكبير: ٤/ ٤٠، وكانت هذه هي الإحالة الوحيدة التي تمت إلى اسم كاتب كلاسيكي خلال الكتاب الحالي كله.

٤٩— الكونت أدولف الخامس ١١٨٩— ١٢١٨، ولقد توفي أمام دمياط في يوم ٧— آب ١٢١٨.

٥٠— القديس انغلبيرت الثاني، جُعل رئيساً للأساقفة في وقت مبكر، أي في سنة ١٢١٨، وقد توفي في سنة ١٢٢٥.

٥١— آب وإيلول لسنة ١٢١٨.

٥٢— بيلاغوس غالفاني، ولد في اسبانيا أو في البرتغال، كردينال— أسقف لألبانو، ١٢١١— ١٢٤٠، وقد وُجه اللوم إليه من قبل كثيرين بسبب الاخفاق الكامل للحملة الصليبية، وكان عدم قبوله لشروط التهادن— وهو ما أيده فيه بعض القادة المدنيين— لرغبته العارمة بالاستيلاء على القاهرة نفسها، وأبعد عنه حبه للتسلط واستبداده بالرأي كثيراً من القادة المدنيين، وكانت له في الكنيسة أعمال متميزة، لذا جعل منه البابا انوست الثالث— كاردينالاً — شماساً، للقب سينت لوشيا، ثم كاردينالا — كاهنا في سنة ١٢٠٦، وكان هو النائب البابوي في الحملة الصليبية، وذلك حسبما ذكر أولفر، وعاد بعد الاخفاق الذريع للحملة إلى أوربا، وقد استخدمه البابا هونوريوس الثالث في كثير من المناسبات. وقد توفي في مونت كازينو في ٢٧ كانون الثاني لعام ١٢٤٠.

٥٣— كان هذا تبعاً لهوغويغ (ص ١٨٧— حاشية٢) هو جيمس كونت أوف أدريا، ولربما كان قريباً لهيوج الأول دوق أندريا (حوالي ١١٧٣— ١٢٤٠).

٥٤— وليم الثاني، Amanieu de Genies (١٢٠٧— ١٢٢٧).

٥٥— وليم أوف بيومونت، أسقف أنغر (١٢٠٢— ١٢٤٠)، وقد صار رئيساً للأساقفة في سنة ١٢٠٧.

٥٦— هنري أسقف مانتو (١١٩٣— ١٢٢٠) (٢٢٥؟).

٥٧— جيرارد الثالث، ورد ذكره للمرة الأولى في سنة ١٢٠٤، وكان ميتاً في سنة ١٢٢٨.

٥٨— غير معروف.

٥٩— رئيس جامعة باريس، وكاردينالاً ١٢١٢— ١٢١٩، وكان أخاً لوولتر أوف شامبرلين في فرنسا، وتخلى الأخوان عن الحملة الصليبية في ١٢١٨.

٦٠— بيتر أوف نيموروس، رئيس أساقفة باريس ١٢٠٨— ١٢١٩.

٦١— ريموند أوف بالافول، رئيس أساقفة جيرونا ١٢١٤— ١٢١٨.

٦٢— من أجل أسقفي ايرلو وهنغاريا انظر ما تقدم تحت رقمي: ١٠ و ١١، ولم يمت توماس أوف هنغاريا— حسبما ورد هنا— بل عاد إلى وطنه في إيلول ١٢١٨.

٦٣— انظر الحاشية ٦٨ المقبلة.

٦٤— هيوج الثاني أوف أنغوليم أوف لامارشي ١٢٠٨— ١٢٤٩.

٦٥— ميلو الثالث، كونت أوف بار— سور— سين منذ ١١٨٩، وقد توفي في ١٨— آب ١٢١٩، أثناء حصار دمياط، وقد قتل ولداه هناك أيضاً.

٦٦— وولتر أوف بوزيت، ابن ميلو.

٦٧— وليم أوف بوزيت، كان يدعى باسم وليم أوف تشارترز، ابن

ميلو، ولقد كان أخاً لوولتر مقدم الداوية ١٢٠٩— ١٢١٩.

٦٨— هرفيه الرابع أوف دونزي، كونت نافار من ١١٩٩ بزواجه من ماهوت ابنة بيتر أوف كورتني، وزوجته أغنس، وقد توفي في ٢٢— كانون الثاني ١٢٢٣.

٦٩— لعله انحدر من اثيير الثالث، أكبر أولاد نارجوت الأول لورد أوف توسي ١١٤٧— ١١٧٣، وكان ايثيير قد شارك في الحملة الصليبية مع لويس السابع.

٧٠— كان أولفر ابنا غير شرعي لجون بلا أرض، الذي صار ملك انكلترا من ١١٩٩ حتى ١٢١٦.

٧١— هذه غلطة تأريخية، فقد وقع فقدان السفينة في أوائل تشرين الثاني قبل العاصفة. انظر هوغويغ ص ١٩٤، الحاشية ١.

٧٢— كان رانولف ايرل أوف شيستر قد ساعد جون بلاأرض في الحرب الأهلية في انكلترا، وفي أربعاء الرماد لعام ١٢١٥، حمل الصليب، وانطلق في ١٢١٨ نحو الشرق، وقد وصل إثر الاستيلاء على برج السلسلة، وعاد إلى انكلترا في حوالي ١— آب سنة ١٢٢٠.

٧٣— غالبا مابعث سكان مدن الشمال الايطالي بوحدات عسكرية مع الصليبيين مقابل منافع اقتصادية، ولهذا وقفوا إلى جانب بيلاغوس بالاصرار على الاستيلاء على دمياط، وهي مدينة بدت واعدة بالنسبة للعمل التجاري.

٧٤— كان تعداد فرسان قبرص حوالي المائة، وكانوا تحت قيادة وولتر صاحب قيسارية الذي كان متقلداً لهذا المنصب في سنة ١٢١٧، كما كان قسطلان قبرص على الأقل من سنة ١٢١٠ حتى ١٢٢٠، وقتل في ٢٤— حزيران ١٢٢٩، أمام نيقوسيا أثناء قتاله من أجل جون دي

إيبلين ضد مؤيدي الامبراطور فردريك.

٧٥— وولتر الثالث أوف بيرثوت، وكان نبيلاً برابانتي، وصاحب مكلين (١١٨٠— ١٢١٩) (١٢٢٠؟).

٧٦— كان الأسقف المنتخب لبوفياس هو ميلون أوف تشاتلون— نويلي (١٢١٧— ١٢٣٤) ابن غوشر لورد تشاتلون—— سور— مارن وهلفي سيدة نانتويل، وقد غادر الشرق لدى سماعه بأخبار وفاة ألبيرك رئيس أساقفة الرايمز، الذي كان يدير له أسقفيته، ولم يطلق سراحه من أيدي المسلمين حتى سنة ١٢٢٢.

٧٧— أندريه أوف نانتويل، وقد كان بين «فرسان الأعلام» تحت قيادة فيليب أوغسطس.

٧٨— كان حاجب فرنسا من ١٢٠٥ هو وولتر الثاني أوف فيلابون Villebeon، وقد توفي في الأرض المقدسة بعيد سنة ١٢١٩، وغدا ابنه آدم دي فيلابون بدوره الحاجب في سنة ١٢٢٣، ومات في سنة ١٢٣٨.

٧٩— من المحتمل أن رتشارد، فيزكونت أوف بيلمونت (أو بيمونت) ولورد أوف سينت— سوزان، كان هو أخو وليم أوف بليمونت وأسقف أنغر، وقد توفي رتشارد في معركة عند غزة في سنة ١٢٣٩.

٨٠— هناك اشارة لجون أوف أرسيز لدى ألبيرك دي تروي فونتين باسم يوانس دي أرسيز، ووردت الاشارة إليه في تاريخ لييج باسم «آرشي»، ولقد كان معه ابن غير شرعي هو أندريه أوف إبيسيس، وكان الأب مع الملك فيليب في معركة بوفين، وقاتل وقتها بشجاعة نادرة عند البرج حتى صار يعرف بـ «بيريز» وهذه الكلمة ربما تصحيف للكلمة العربية «بارز».

٨١— كان هنري مشاركاً في الحروب الصليبية منذ الاستيلاء على

القسطنطينية وقد حمل معه إلى وطنه الكثير من الآثار المقدسة المسروقة.

٨٢— كان مارشال الاسبتارية هو أيمار دي ليرون، الذي كان صاحب قيسارية، ١١١٩٣ ١٢١٣، عن طريق زواجه بجوليانا صاحبة قيسارية، ولعله دخل في رهبنة الاسبتارية بعد وفاة جوليانا، وظهر مارشالاً للاسبتارية خلال الحملة الصليبية الخامسة، ومع أن ما قاله أولفر غامضاً، اننا نفترض أن أيمار قد قتل في هذا الوقت، ذلك أنه لم يظهر على مسرح الأحداث بعد ذلك.

٨٣— ساعد سافاري أوف موليون— في بواتو، وابن رالف دي موليون— كونت طولوز في النزاع ما بين فرنسا وانكلترا، وخدم فيما بعد في الجيش الانكليزي، وشارك في سنة ١٢٢٤ في المساعدة على الدفاع عن لى روشيك ضد لويس الثامن، وقدم أخيراً الولاء للملك فرنسا، وعين حاكما للجزر القريبة من لى روشيل، وقد قاوم نائب الملك أثناء طفولة القديس لويس، ومات في سنة ١٢٣٣، وكان أيضاً شاعراً شهيراً، لكن بدون امكانات عظيمة، وذلك حسبما جاء في تاريخ الآداب الفرنسية (ط. باريس ١٨٩٥) : ١٨/ ٦٧١.

٨٤— ركز الايطاليون اهتماماتهم على المنافع التجارية التي ستؤول إلى بيزا، وجنوى، والبندقية من استيلاء الأوربيين على الدلتا، ومن هنا جاءت معارضتهم لرفع الحصار عن دمياط، ومن الواضح هنا موقف أولفر المؤيد لبيلاغوس في معالجته لهذه الحادثة.

٨٥— هذا غير صحيح لأن كل من رمسيس وتنيس هما في جنوب دمياط.

٨٦— استولى بوهيموند صاحب العين الواحدة على السلطة في انطاكية بمساعدة الداوية، وانتزعها من ابن أخيه روبن— ريموند، ابن أخيه الأسن منه، وابن ابنة ليون صاحب أرمينيا، وعمل ليون لصالح

حفيده، وهكذا وضع روبن مرتين حاكما في أنطاكية بوساطة القوة الارمنية ، لكنه طرد أخيراً، وقد مات وهو يحاول تأكيد حقه في عرش أرمينيا.

٨٧— صحح أولفر هنا غلطته التي وردت في الفصل السادس والثلاثين.

٨٨— لعل ذلك كان في الفصح ففي ٢٩— آذار بات جون كثير الانزعاج من سلوك بيلاغوس، وقد استغل مشاكل أرمينيا عذراً له، وتزوج ستيفاني ابنة ليون الثاني، الذي توفي في سنة ١٢١٩، ورغب جون بالمطالبة بالعرش لنفسه باسم زوجته، وسيأتي أولفر على ذكر تطلعات جون الارمنية في الفصل الخامس والاربعين.

٨٩— هنري سيبتالا، رئيس أساقفة ميلان ١٢١٣— ١٢٣٠.

٩٠ — أسقف كريت غير معروف، وكان أسقف فانيزا هورولاند (١٢١٠ — ١٢٢١) .

٩١ — أسقف لاندو(١٢١٦ — ١٢٣٤) .

٩٢ — ألبيرت ريزاتو (١٢١٣ — ١٢٢٨) .

٩٣ — هناك اشارة الى متى جينتايل في وثيقة تاريخها ١٢٢٩ باسم « ماثيوس جينتالس كونت اليسين (ليسينا حاليا) و القائد المدني وقاضي أبو لياوأراضيها» ، وكان الامبراطور فردريك قد جعله مسؤولاً عن ابوليا ، و بناء على أوامره التحق بالحملة الصليبية .

٩٤ — كان وليم ايرل أرونديل وسسكس ، فعالاً في الصراع مابين جون بلا أرض و ملك فرنسا ، وقد مات في ايطاليا في سنة ١٢٢٠ أو ١٢٢١، بعد عودته من الحملة الصليبية .

٩٥ — انظر الحاشية المتقدمة رقم ٨٨ .

٩٦ — الجاثليق هو اللقب الذي منح لـرؤساء الكنائس : الأرمنية، و الجورجية و النسطوريـة، وعدّ هذا اللقب اعلى من لقـب مطران و أدنى من لقب بطريـرك، لكنه بات الآن يساوي لقب بطريـرك، مع استثناء أن في الكنيسة الأرمنيـة ثلاثـة برتبة جـاثليق مع بطـريركين ، و المرتبـة العليا هي لجاثليق اتشميدزين Etshmiadzin، وكان الجاثليق عنـد وفاة ليون هو جون ميدزابرو Medzabaro .

٩٧ — كـانت زابل ابنـة ليون الثـاني، من زوجتـه الثانيـة سيبيلا ابنـة عموري دي لـوزغنان ملك قبرص ، وكانــت قد تزوجت مـن فيليب بن بـوهيمونـد الـرابع صـاحب انطـاكيـة، و من بـلا سـانس Plaisance صـاحب جبلـة، و قتـل فيليب في السجن بنـاءعلى أمـر الـدوق الكبير قسطنطين، الذي تـزوج إثرها ابنة هيتـوم من زابل (١٢٢٤ — ١٢٢٥)، و مارس هيتـوم قليلاً من السلطـة حتى وفاة والده، وقـد خلع ١٢٧٠، و دخل الدير حيث نال اسم مكاريوس .

٩٨ — كان هذا في تموز ١٢٢٠، وكانـت هذه المرة الاولى، التي تقدم بها الجيش بنـاء على أمـر بيـلاغـوس، وفيما عـدا حملة النهـب هـذه، بقي الجيش بلا نشاط بقية سنة ١٢٢١ حتى تموز ١٢٢١ .

٩٩ — كما يبـدو بيلمـونـت أخـرى (دي بيلـومـونت)، و مـن هـذا القيـاس قيل في اسم الفيـزكـونت رتشـارد (دي بـولكرو مـونت)، انظـر الحاشية ٧٩ ـ المتقدمة .

١٠٠ — بيترو زياني دوج البندقية (١٢٠٥ — ١٢٢٩) .

١٠١ — هنري الأول الأسد، دوق سكسوني وكـونت شويرن (١١٦٠ — ١٢٢٧) وهو معروف لارتبـاطه باعتقال دولـدمير ملك الدانيمارك في سنـة ١٢٢٣، وقد بقي في الحملـة الصليبة مـن ١٢٢٠ حتى عودتـه الى الوطن في آذار ١٢٢٢ .

١٠٢ — ديثر الثاني كونت كاتزنلنبوغن Katzenellenbogen (١٢١٩ — ١٢٤٤) و هـو ابن ديثـر الأول (١٢١٤ — ١٢١٩) و قد عاد إلى وطنه سنة ١٢٢٢ .

١٠٣ — أليس، أرملـة هيـوج أوف لـوزغنـان انظـر الحاشيـة رقم /5/ المتقدمة، و هي قـد كانت ابنة هنري الثاني دوق شامبين، وايـزابيلا ملكة القدس .

١٠٤ — بطرس دي مـونتاغيـو، وكان أخـاً لكل من : يـوستورغيـوس Eustorgius أوف نيقوسـا، و غارن مقدم الاسبتـارية، وقـد خلف وليم أوف تشارتـز في مقدميـة الداويـة لدى مـوت وليم في سنـة ١٢١٩، وقد بقي في منصبه حتى سنة ١٢٢٩ .

١٠٥ — بوهيمـوند الرابع صاحـب العين الواحده كونـت طرابلس . انظر الحاشية رقم /86/ المتقدمة .

١٠٦ — جـون دي إيبلين صـاحـب بيروت (١١٧٧ — ١٢٣٣)، كان أكثر البارونات نفوذاً في القـدس، و كان نائباً للمملكه (١٢٠٥ — ١٢١٠)، و بالنسبة لحفيـدته ماري (انظر . ج . ل .لامونـت في بيزنطة ١٢ (١٩٣٧) (٤١٧ — ٤٤٨) .

١٠٧ — كان غـي صاحب جبلـة اينا لهيـوج الثاني صاحـب جبلة، ولإيتينتي Etienette ابنـة هنـري أو ميللي، صاحـب نابلـس، و كـانـت أخته بـلايسانس Plaisance زوجة لبـوهيموند الرابع أمير أنطـاكية، و خلف غي أباه في جبلـة عندما كان مايزال صغيراً، وقـد تزوج من أليس، زوجة بـوهيموند السـالفة، وقد عـاش مأساة الصليبين، و أعان فـردريك ضد الإيبلينيين (انظر الفصل ٨٧ المقبل) .

١٠٨ — انظر الملحق أ — المقبل .

١٠٩ — كـان فـردريك الثـاني مـن أسرة هـو هنستـوفن ابنـا لهنـري السادس و لكونستانس صاحبة صقليـة ، وقد توج ملكاً لصقلية، و كان قد توج من قبل ملكاً لألمانيا، و تتويجه الآن كان امبراطوراً في روما .

١١٠ — لودويغ أوف وتلزبـاخ، دوق بافاريا، و كونـت بالاتاين في الرايـن (١٢١٤ — ١٢٣١) و قد حمل الصليب مـع فردريك في سنـة ١٢١٥ .

١١١ — أولـريـخ أوف أنـدخ — ديسين، أسقف بـاسـو منـذ سنـة ١٢١٥، وقـد تـوفي في رحلـة عـودتـه نحـو الـوطن في ٣٠ تشريـن أول ١٢٢١، و قد حمل الصليب مع لودويغ صاحب بافاريا في سنة ١٢١٥ .

١١٢ — هرمان الخامـس، مركيز بادن، أخـو هنري الأول أوف بادن (١٢١٢ — ١٢٣١)، و كان هـرمان قـد عاد إلى وطنـه في آذار ١٢٢٢ ، وقد توفي سنة ١٢٤٣ .

١١٣ — تبعا لـروهرخت، Regesta regni hieros ص ٢٥٠، كان هـذا هو وولتر الرابع أوف بـريين، و ابن أخي الملك جـون صاحب القـدس، وقد تـزوج من ماري القبرصيـة ابنـة الملك هيوج الأول ، و قـد صار كونت يافا، و قتل أثناء حربه ضد المسلمين .

١١٤ — كانت التعليمات لـدى بيلاغوس تقضي بـالاتصال بالبـابا و إعـلامـه بأيـة مقترحـات للهدنـة، و عنـدمـا علم البـابـا هونـوريـوس . بمقترحات الكامل، ردّ بـأنه قد أسف لفقدانه الحيـاة و الجهد والنفقات، ممـا دفعه إلى رفض المقترحـات، و قـد جعله تأكيـد فـردريك بعزمـه على الابحار نحو الشرق، يتخذ موقفه ضد هـذه المقترحات، وكان هونوريوس قد تأثر بـالتقارير التي شاعت عن « بـرسترجون » و « الملك داود » التي بنيت على انجـازات جنكيزخان و المغـول ، يضاف إلى هذا أن فـردريك قد حظر في رسائل صدرت عنه المبادلة مابين دمياط و القدس .

١١٥ — كانت أقدم الاشارات إلى وجود الصليب الأصيل قد جاءت على لسان القديس سيرل المقدسي سنة ٣٤٧، و يحكى بأن الامبراطورة هيلانه قد قسمته إلى ثلاثة أقسام، و قد أرسلت قسماً واحداً إلى القدس، و كان هذاالقسم هو الذي استولى عليه المسلمون في حطين، (و مع ذلك تحتاج المسألة إلى كثير من التدقيق) .

١١٦ — احتل هذا الكرسي منذ سنة ١٢١٩ من قبل أثناسيوس أوف كليرمونت في أوفرين .

١١٧ — كان هنري بسكاتور، كونت مالطا، قد أرسل من قبل الامبراطور فردريك، قائداً لأسطوله .

١١٨ — كان مقدم فرسان التيوتون في هذه الآونة هو هرمان فون سالزا المشهور، و هو الذي كان المستشار الأخير لفردريك الثاني .

١١٩ — كان غارن أوف مونتاغيو، فرنسيا من مقاطعة أوفرين، و أخا ليو ستوغيوس رئيس أساقفة نيقوسيا، ولبطرس مقدم الداوية، و كان يعمل مارشالاً للاسبتارية عندما رقي إلى مرتبة المقدم الأعلى في سنة ١٢٠٨، وقد ميز نفسه أثناء حصار دمياط، و أسهم في تتويج جون أوف بريين في سنة ١٢١٠ ، و كان حاضرا في المؤتمر الذي عقد في عكا سنة ١٢١٧، و قد توفي سنة ١٢٢٨، و خلفه في المقدمية برنارد أوف تكسي .

١٢٠ — كانت المناوشات أمراً عادياً في شمالي المملكة، حتى بعد عقد الهدنة، و رفض غي بكل بساطة في هذه المناسبة الاعتراف بالهدنة، و قد أرغم من قبل المعظم عيسى على عقد هدنة منفردة .

١٢١ — حدده روهرخت (Beitrage ,11 , 197 , nlos) على أنه صندقلي في فريجيا .

المحتـــــوى

رقم الصفحة	الموضوع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية السادسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الرابع والثلاثون

دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١— حروب فردريك الثاني ضد الإيبلينيين في سورية و قبرص

٢ — وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة

٣ — رحلة يوانس فوقاس في الأرض المقدسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الرابع والثلاثون دمشق ١٤١٩/ ١٩٩٨

(١)

حروب فردريك الثاني ضد الإيبليين
في
سورية و قبرص

تأليف

فيليب دي نوفار

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أوجد انتصار حطين و ما أعقبه من تحرير للقدس و لعدد كبير من المدن و الحصون واقعاً جديداً، كاد أن يصبح صاحب تأثيرات شاملة دائمة، لكن اخفاق صلاح الدين في تحرير صور، و سياسته تجاه أعيان أسرى حطين و كذلك الأفراد شكلت بداية تراجع، إن لم أقل انتكاسة، ووضح هذا أثناء وقائع الحملة الثالثة، حيث فرضت واقعاً جديداً، تمثل بشكل رئيسي بإزاحة بيزنطة من على مسرح الأحداث، و بتأسيس حكم لاتيني في قبرص، و بإعادة تأسيس مملكة القدس في عكا، و كان بالين دي ايبلين من أبرز شخصيات الفرنجة التي تعاملت مع صلاح الدين أثناء استسلام القدس له، لابل بعد ذلك ايضاً، و نظراً للفراغ الكبير الذي تكون في اوساط الفرنجة البلديين — البوليان — تقدمت أسرة بالين إلى الصدارة، و تابعت تقدمها لاسيما بعد وفاة صلاح الدين.

فبعد وفاة صلاح الدين انشغل رجالات الأسرة الأيوبية بالحروب الأهلية الداخلية، و هكذا فرطوا رويداً رويداً بجل مكاسب صلاح الدين بعد حطين، و استرد الفرنجة عدداً من مدن الساحل الشامي حرباً، أو تخاذلاً أو خيانة، و كان من بين ما استردوه مدينة بيروت، التي فرط بها واليها عزالدين سامة، و كان بالأصل من مماليك صلاح الدين، و عبر أحد الشعراء عن مشاعر الناس آنذاك تجاه ماكان يحدث فقال مخاطباً صاحب حصن تبنين عندما حاصره الفرنجة سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨ م، و قاومهم :

سلم الحصن ماعليك ملامة   لايلام الذي يروم السلامة

عطاء الحصون من غير حرب   سنة سنها ببيروت سامة

وآلت بيروت بعد ضياعهابوقت قصير إلى حكم الأسرة الإيبلينية، و استطاعت هـذه الأسرة بحكمها لبيروت أن تجمع ثروة كبيرة و بـالتالي أن تشغـل دوراً عظيماً في تاريـخ الفـرنجة في كـل مـن مملكـة عكا و مملكـة قبرص،و ظهر هـذا الدور أثنـاء الحملة الصليبيـة الخامسة، لكنـه اتضح تماماً أثناء الحملـة الصليبية السادسة، ففي هذه الحملـة لم تقم معارك بين السلطان الكامـل محمد بن العادل و بين الامبراطور فردريـك الثاني، فقد تسلم هذا الامبراطور القـدس من الكامل عن طريـق المفاوضات، و لأن الكامل استولت عليه الرغبة بالتفرغ لقتال أخوانه في الشام و أفراد بيته و الصراعات التـي تمت أثناء وجود فردريـك الثاني في المشرق كانـت بينه و بين الايبلينين، و هكـذا استمرت و تحولـت إلى حروب فـرنجية داخليـة بعد عودته إلى إيطاليا .

و غـاب الأيـوبيـون عن استغـلال هـذه الصراعـات و الحروب لأنهم انشغلوا هم أيضـاًبشؤونهم الداخلية، و هذه صورة مفجعـة دوّن أخبارها بالتفصيـل من الجانـب الفرنجـي فيليب دي نـوفار، الـذي نقدم تـاريخه الآن، و ما دونـه فيليب هو الأهـم، وهو الذي يـؤخذ عليه ليـس انحيازه للبيت الإيبليني فحسـب، بل الشعر الغث الذي نظمه و أودعـه في ثنايا صفحات كتـابه، لكـن مع ذلـك هذا الكتـاب بشعره وثيقـةثمينة تصـور واقـع الفرنجـة في المشرق في النصـف الأول مـن القرن الثـالـث عشر، و تفيدنـا أن كل مـن الحملة الخامسـة و السادسـة كان الألمان هـم الذيـن أسهموا فيهما أكثـر من سـواهم، لكـن بالوقـت نفسه كـان دور البابـوية معادلاً، إن لم نقل متفوقاً على الدور الألماني، و كان للصراع بين البابوية و الامبراطورية أبعد الآثار على مصير الحملتين.

و فيما الصراعات الداخليـة في الشام شاغلة للقوى كلهـا، كان المغول قد أسسوا امبراطـوريتهم المترامية الأطراف، و استولـوا على واحة خوارزم، و أزالوا أسرتها الحاكمة، و دفعـوا بجلال الدين منكبرتي سلطـان خوارزم

مع فلول جيوشه نحو الجزيرة الفراتية و أعالي بلاد الشام .

و تورط الخوارزمية بالصراعات الأيوبية، الأيوبية، و ساعدوا الصالح أيوب على استرداد القدس من الصليبين، و من ثم الوصول إلى عرش السلطنة في القاهرة، مما أثار مايعرف بالحملة الصليبية السابعة، و تزامنت أحداث هذه الحملة مع تدمير قوى الخوارزمية، و بالتالي انفساح المجال للمغول للتقدم من العراق نحو الجزيرة و بلاد الشام، و لقد ورد بعض أخبار هذا في بعض المصادر العربية المتقدمة و سنرى المزيد حوله في غير العربية حول الحملة السابعة و ماتلاها مع عدد من النصوص الجغرافية الهامة.

من اللّه أستمد العون، و أستلهم الرشاد، و أطلب التوفيق، و له جل و علا الحمد الدائم و الشكر، و الصلاة و السلام على نبينا المصطفى و على آله و صحبه و سلم.

سهيل زكار

دمشق ١٩ — شعبان ١٤١٩ / ٨ — كانون الأول ١٩٩٨

مدخل

١— إن أخبار أعمال الحرب « Gestes des chiprois » و حوليات أمادي هما أساس نص هذا التاريخ

لايوجد — بقدر ما نعلم — في هذه الأيام مخطوط يحتوي على النص الأصيل لتاريخ فيليب دي نوفار ، و النص الذي نقدمه اليوم قام بالأساس على ما صنفه بحرص شديد ، و أعّده شارل كوهلر من خلال مصدرين رئيسيين كان كتاب فيليب قد دمج فيهما، و هما « أخبار أعمال الحرب » و «حوليات أمادي »، و جاء عمل كوهلر عملاً علمياً دقيقاً جداً، و لاشك أن النص المصنف ، هو أقرب ما يمكن إلى نص فيليب الأصلي، و سيظل كذلك حتى يجري اكتشاف مخطوط المؤلف نفسه .

و كان كتاب «أخبار أعمال الحرب » ، والذي هو المصدر الرئيس لتاريخ فيليب ، هو حولية كتبت بالفرنسية القديمة ، في قبرص في القرن الرابع عشر ، و هو متوفر في مخطوط واحد تاريخه ١٣٤٣، و قد نسخ في سيرينا Cerines من قبل جون لي ميج Miege ، و كان سجيناً لدى عموري دي ميمار Mimars ، قسطلان قلعة سيرينا ، القلعة التي استخدمت آنذاك ـ كما الحال اليوم ـ سجناً حكومياً ، و تم اكتشاف هذا المخطوط في سنة ١٨٨٢ من قبل م . كارلو بيرين Perrin في بيدمونت ، و ما برح في الملك الخاص لأسرته ، و قد اتخذت عنه نسخة تحت إشراف م . بيرين و أرسلت الى الكونت بول رينت Riant ، الذي كان مؤرخاً واسع الشهرة في ميدان تاريخ اللاتين في الشرق ، و قد أودع هذه النسخة في المكتبة الوطنية حيث تحمل الرقم «٦٦٨٠ ـ مخطوطات فرنسية حديثة التملك »، و اعتماداً على هذه النسخة أعّد غاستون رينود Raynaud طبعته المحققة التي نشرها في عام ١٨٨٧ تحت رعاية

جمعية الشرق اللاتيني، و قد تولى م . بيرين تصحيح تجارب هذه الطبعة اعتماداً على النسخة الأصيلة التي بحوزته، و جرى فيما بعد إعداد طبعة ثانية للنص اعتماداً على نسخة رينيت من قبل الكونت لويس دي ماس لاتري ، بغية إلحاق هذا النص بنصوص مجموع روشيل :«تواريخ الحروب الصليبية » المنشور من قبل «أكاديمية النقوش و الآداب الجميلة »، و ظهرت هذه الطبعة عام ١٩٠٦ في المجلد الثاني من «الوثائق الأرمنية »، و بما أن الكونت دي ما س لاتري قد توفي قبل نشر هذا المجلد ، عهد بإكمال عمله إلى غاستون الباريسي، ثم عهد به فيما بعد إلى شارل كوهلر، و قد حمل النص المنشور مقدمة كتبها كوهلر، و عانت هذه الطبعة من الإقحامات الثقيلة، و لأن النص كان مبسطاً ، فقد أقحمت فيه كلمات كثيرة في أماكن عديدة بهدف توضيح معانيه، و قد أدى هذا الى تغيير النص بعض الشيء، كما جرى توحيد لفظ الكلمات، و مع أن الترجمة الحالية عادت مراراً إلى هذه الطبعة ،لقد اعتمد نص أخبار الأعمال ـ باستثناء نص فيليب الذي صنعه كوهلر فيما بعد ـ على طبعة رينود .

وكتاب « أخبار أعمال الحرب » هو تاريخ لمملكة قبرص من الأزمان المبكرة حتى سنة ١٣٠٩، و قد جرى تصنيفه في حوالي سنة ١٣٢٥ ، من قبل مصنف غير معروف تمّ التعرف عليه على أنه جيرارد دي مونتريال ، وجرى تقسيم هذا المصنف إلى ثلاثة كتب هي : «تاريخ الأرض المقدسة » و « تاريخ فيليب دي نوفار » و« تاريخ داوية صور » ، وذلك مجاراة لرينود فهو الذي أطلق هذه الأسماء عليهم ، و «تاريخ الأرض المقدسة»، هو سلسلة من الحوليات ،التي تقصت تاريخ العالم من الخليقة حتى سنة ١٢١٨، و قد فقدت الأوراق الأولى من المخطوط،وعلى هذا تبدأ الحوليات فعلياً بسنة ١١٣٢، ولقد ورد في الفقرة ٨١ أنه جرى في الفقرات المتقدمة عرض تاريخ العالم من آدم

حتى فردريك الثاني ، مما يعني أن الأجزاء المتقدمة كانت تحتوي على عرض مختصر لتاريخ العالم ، أما بالنسبة لقسم ١١٣٢ حتى سنة ١٢١٨، فهو كله مجرد حوليات مختصرة، مع تفاصيل أطول أحياناً لبعض الأحداث المحلية الهامة ، و يتفق غاستون الباريسي و شارل كوهلر بالاعتقاد على أن الفقرات من ٨٢ حتى ٩١ قد أقحمت في تاريخ الأرض المقدسة بعدما انتزعت من السيرة الذاتية المفقودة لفيليب دي نوفار، ولسوف تتوفر هذه الفقرات في الملحق الأول في آخر هذا المجلد .

و الكتاب الثاني من تاريخ «أخبار الأعمال » هو بشكل أساسي تاريخ فيليب دي نوفار ، و قد شكل هذا القاعدة بالنسبة لنص كوهلر، و كان مصنف «أخبار الأعمال » قد ضمنه فقرات من مصادر أخرى ، ولاسيما من تاريخ هرقل (أي تكملة تاريخ وليم الصوري) ومن كتاب « حوليات الأرض المقدسة » ، و قام كوهلر بمقارنة دقيقة بين نصوص «الأعمال» و «هرقل » و «الحوليات» و أخرج أثناء إعادة بنائه للنص الأصلي لفيليب جميع ما أقحم به وضمنه .

و الكتاب الثالث في « الأعمال » أي «تاريخ داوية صور » هو تكملة لتاريخ قبرص و سورية من ١٢٤٣ حتى ١٣٠٩، و الصفحات الأخيرة من المخطوط هي مفقودة أيضاً ، و من الممكن الإفتراض أن الكتاب بصيغته الأصلية لم يتجاوز بالتاريخ أبعد من عام ١٣٢٤، وهي سنة وفاة هنري الثاني ،فمع هذه السنة أنهى فلوريو بوسترون Florio Bustron ـ الذي استخدم «الأعمال » مصدراً له ــ الجزء الثاني من تاريخه ، و هذا بلا شك أفضل مصدر عن هذه الحقبة من تاريخ اللاتين في الشرق، وصحيح أنه أدنى مكانة من كتاب فيليب دي نوفار إلا أنه يمتلك بالفعل مكانة معيارية تظهر أن المصنف كان جيد المعلومات و قد تملك فهماً و تقديراً تاريخياً له قيمته .

والكتاب الهام الثاني المبني إلى أبعد الحدود على تاريخ فيليب هو «

حوليات فرانسيسكو أمادي » وهذا الكتاب تاريخ بندقي لقبرص ، منذ أيام الخليفة عمر حتى اعتلاء الملك جون الثاني للعرش في قبرص سنة ١٤٣٢ ، وقد كتب قبل سنة ١٤٨٩ ، ويستدل من محتوياته أنه كان ملكاً لعالم بندقي و لغوي هو فرانسيسكو أمادي ، الذي ربما كان ـ أو ربما لم يكن ـ هو المصنف ، مع أنه يعزى إليه بشكل عام ، ويلاحظ أنه بالنسبة لحوادث السنوات من ١٢١٨ حتى ١٢٤٣ ، في هذا الكتاب أنها ترجمة حرة لكتاب تاريخ فيليب إلى لغة البندقية ، مع بعض أعمال الاختصار والضبط و التحسين في أجزاء مختلفة ، وعلى افتراض أن أمادي هو الذي كتب الحوليات ،من الواضح أنه كان أمامه النسخة الأصلية من «تاريخ فيليب » أو نسخة من « الأعمال » ليس فيها النقول من «هرقل » ،ويلاحظ أنه في كل مرة نسخ فيها كتاب الأعمال عن «هرقل»، إمتلك أمادي قراءة مختلفة ، ففي الوقت الذي لا يوجد فيه أي من شعر «الأعمال » لدى أمادي ، نجد في حوليات البندقي دوبيت ليس في محتويات «الأعمال »،وهي تتحدث عن الأحوال المتأخرة لـ «فيلنغزز Fi-langers »، وقد أقحمت في وسط الرواية،وفي الوقت الذي لم يكن فيه كوهلر شاعراً بالثقة تماماً بأن هذه الفقرة هي خاتمة فيليب حتى ينشرها في مكانها المفترض،وارتضى بأن يضعها في الحاشية،أخذت زمام المبادرة وأعطيت نفسي الحرية في إعادتها إلى خاتمة التاريخ ،ولقد استخدم كوهلر أمادي لضبط نص «الأعمال »،وفي كل مناسبة رددت «الأعمال»كلمات هرقل حرفياً،اعتمد كوهلر على نص أمادي في بنائه لنص فيليب الافتراضي،واعتمدت هذه الترجمة على نص كوهلر،بدون أدنى ملاحظات،إلّاعندمااقتضى الحال اضافة بعض المعلومات الجديدة بالاضافة،فضلاً عن هذا توليت جمع جميع الفقرات المنقولة عن هرقل وهي التي أخرجها كوهلر من نص«الأعمال»،وأثبتها في الملحق الثاني لهذا المجلد.

وبالإضافة لكتاب «الأعمال» وأمادي، هناك عدة كتب أخرى استقت بعض معلوماتها من تاريخ فيليب، وقد استخدمها كوهلر كلها، من ذلك «حوليات أخبار قبرص» تصنيف فلوريو بوسترون Florio Bustron وهو قبرصي صار ايطالياً، وجد في القرن السادس عشر، وقد أسس هذا الكتاب إما مباشرة على تاريخ فيليب أو على «الأعمال»، وقد استقى ماريو سانوتو في كتابه «كتاب الأسرار» المكتوب سنة ١٣٠٧ ــ ١٣٢١، بعض المعلومات من فيليب، لكنها معلومات ضئيلة، وإطار معالجتها ضيق، ولها قيمة قليلة، ولا دور لها في عملية بناء النص .

ولقد جرى اعتماد تاريخ فيليب دي نوفار من قبل كل كاتب عالج تاريخ قبرص خلال القرن الثالث عشر، وجاء هذا الاعتماد إما من خلال «الأعمال» وأمادي وبوسترون أو من خلال سانوتو، فلقد اعتمد على واحد من هذه التواريخ كل من: لوردانو Lordano، وجوانا Ju-ana، ورينهارد Reinhard، وماس لاتري، ولوهر Loh-er، وموللر Muller، وروهرخت Rohricht، ولقد استخدم موللر وروهرخت جميع هذه التواريخ، وفقط ايتين Etienne دي لوزغنان، الذي كتب في القرن السادس عشر، يبدو أنه لم يعرف فيليب، ومن الظاهر أنه استقى معلوماته واعتمد في تحصيلها على ميراث أسرته مع معلوماته الشخصية، ومن بين الكتاب الذين كتبوا حول فيليب الثاني نجد أن كل من وينكلمان Winkelmann وكانتوروز Kantorowiez قد استخدما الأعمال، واعتمد كل من كنغتون Kington وهولارد ـ بريهولز Huillard-Breholles على هرقل، وعرفا فيليب من خلال سانوتو فقط .

وعلى هذا من الممكن أن يعد تاريخ فيليب المصدر الأول للحقبة الأعظم أهمية وخطورة في تاريخ قبرص، وكذلك بالنسبة لميدان أعمال فردريك الثاني الذي لانعرف عنه سوى القليل، ويقدم هذا التاريخ قصة

حرب رواها فارس شارك بها،وهي حرب لم تكن من النوع الذي هزّ أركان العالم،بل كانت من الحروب الإقطاعية العادية،وتزداد أهمية لأن فردريك الثاني كان من بين الشخصيات التي تورطت بها،هذا ولا يوجد سوى القليل من المصادر التي تعطي صورة أوضح عن الحضارة المتميزة للدويلات الصليبية و توابعها الإقطاعية ،مما أعطاه فيليب في تاريخه،ففي هذا التاريخ صور الإجراءات القانونية ،والسياسات المتقلبة،والفردية المتصلبة ،ولقدأعطتنا الدويلات الصليبية اللاتينية فرصة لدراسات ممتعةللإقطاع تحت ضوء المجهر،وصحيح أن الصور صغيرة ،لكنها كاملة،ذلك أنه من غير الممكن أن يحصل الإنسان على صورة دولة إقطاعية خالصة أفضل مما توفره دولة القدس اللاتينية،ثم أنه لايمكن لإنسان أن يرى القدس أفضل من رؤيتها من خلال تاريخ فيليب دي نوفار .

٢—فيليب دي نوفار :الرجل والمصنف

بالنسبةللايطالي من القرن السادس عشر،كان المثل الأعلى لرجل النهضة هو«الرجل العالمي»الذي جمع في شخص واحد سمات العالم،والمحارب،والسياسي،والخطيب ،و الرياضي،والفنان،والأديب ،ولقد عدّ كل من لورانزو الفاخر،وألبيرتي،وليوناردو،أفضل النماذج لهذا الإنسان المثالي،فهكذا نظر إليهم من قبل أهل عصرهم والذين جاءوا من بعدهم،وقام جميع الأقل منزلة بشرية بإدعاء الإنتماء إليهم وإلى الحضارة التي أنتجتهم ،ونادراً ما عزيت أية إشارة تمجيد إلى الأيام الأبكر ،وإلى الثقافة التي تقدم وجودها على عصرهم مباشرة ،أي عصر التنوير،والمعني بهذا العصر الأبكر الذي أطلق عليه الإنسانيون ظلماً اسم العصر «القوطي»ومع هذا هناك كاتب من كتاب القرن السادس عشر،كان من بين نماذج الإنسانيين ،هو فلوريو بوستورن،وهو إيطالي قبرصي،كتب تاريخاً عن بلاده ،وقد استخدم اصطلاح«الرجل العالمي»وأطلقه إطراءً

على فيليب دي نوفار،الذي كتب في قبرص في القرن الثالث عشر، ولاشك أن هناك عنصراً من التفاخر الفروسي لدى صاحبنا القبرصي في ما وسم به نوفار، مع شيء من المغالاة الأمر الذي غالباً ما أخذبه انسانيو النهضة، لكن مع هذا أن يقوم عالم من عصر النهضة باطلاق هذه السمة على كاتب من القرن الثالث عشر، هي حقيقة جديرة بالملاحظة، ويزيد من أهميتها أن فيليبَ دي نوفار كان بكل وضوح خصماً للرجل الذي كان حقاً هو «الرجل العالمي» للقرن الثالث عشر، أي الامبراطور فردريك الثاني«Stupos Mundi » .

وفيما يتعلق بفليب دي نوفار، القليل من المعلومات هو المتوفر عنه، وذلك باستثناء ما حدثنا به شخصيا عن نفسه، وظل لمدة طويلة معروفاً على أنه فقط كاتب إحدى الرسائل القانونية، التي كونت «أطروحة القدس»، وفقط احتل في منتصف القرن الماضي مكانة كمؤرخ وشاعر من خلال إكتشاف ثم نشر تاريخه وكتابه «Quatre Ages de homme » .

وكان فيليب قد ولد في حوالي أواخر القرن الثاني عشر، ولعل ذلك كان حوالي سنة ١١٩٥، في مدينة نوفار في لومباردي، ومضى إلى الشرق في سن مبكرة، وكان ذلك سنة ١٢١٨، وكان غلاماً في خدمة بيتر شابي، الذي كان فارساً قبرصياً، ولقد كان بين حاشيته أثناء حصار دمياط، وفي أثناء وجود الفرنجة في دمياط انتقل من خدمة شابي إلى خدمة رالف صاحب طبرية، الذي كان قانونياً شهيراً، ومنه تعلم علم القانون، الاختصاص الذي نال منه فيما بعده وبسببه شهرته، وبهذا الصدد قال فيليب نفسه:

«وحدث أنني كنت لدى الحصار الأول لدمياط مع السير بيتر شابي، وقد تناول السير رالف صاحب طبرية الغداء معه، وبعد الفراغ من الطعام جعلني السير بيتر أقرأ لهما من الرومانسي، وقال السير رالف

بأنني أقرأ بشكل جيد، ومرض السير رالف فيها بعد، فقام السير بيتر بناء على طلب السير رالف، بإرسالي إليه لأقرأ له، وهكذا أمضيت هناك ثلاثة أشهر أو أكثر، وكنت منزعجاً جداً، بالذي توجب عليّ أن أسرّبه كثيراً، ونام السير رالف قليلاً وبشكل سيء، وعندما كنت أقرأ عليه بقدر ما أحب، أخبرني بأشياء كثيرة تتعلق بمملكة القدس، وبالاستخدامات وبالأحجام، وقال: ينبغي أن أتذكر كل هذه الأشياء، وتقبلت أنا، الذي خفت كثيراً من طباعه، كل شيء، وكنت بعد هذا بصحبة مولاي الأسن في بيروت حتى موته، ولقد أخبرني بأشياء كثيرة بكياسته وذلك بناء على طلبي، لأنه لم يقدم قط على الكلام طواعية مثلما فعل السير رالف، وتعرفت بعد هذا معرفة جيدة على مولاي صاحب صيدا، وكان ذلك في بيروت، وفي عكا، وفي قبرص، وأخبرني بأشياء كثيرة عن طواعية بلطفه المعتاد، وبعد هؤلاء الرجال العظماء والحكماء، أمضيت وقتاً طويلاً في المحكمة مع السير وليم فيزكونت والسير أرنيس Arneis والسير وليم دي رايفت Rivet الأصغر، الذي كان محامي استئناف عظيم، وتعرفت في مملكة القدس بشكل جيد على السير نيقولا أنتيوم -Anti aume، والسير فيليب بيسديون Baisdion، الذي كان محامي استئناف عظيم في داخل المحكمة وخارجها».

وانتقل فيليب من خدمة رالف صاحب طبرية إلى خدمة جون أوف إيبلين صاحب بيروت، واستقر في قبرص حيث تزوج، ولابد أن الزواج قد قام قبل عام ١٢٢٦، ذلك أن بالين ابن فيليب كان قد جُعل فارساً في سنة ١٢٤٣، وكان بالين دي ايبلين عرابه، هذا وكان فيليب هو الأول من أسرته الذي استقر في الشرق، وما لبث فيليب أن حصل على مركز له مكانة هامة، حيث أصبح واحداً من أهم مستشاري جون دي إيبلين وابنه بالين، ومن أتباعهما الاقطاعيين، ذلك أن فيليب استحوذ على اقطاع منهما.

والسنوات مابين ١٢٢٩ إلى ١٢٥٣ هم الأكثر أهمية في حياة فيليب وبالنسبة للجزء الأعظم من هذه الحقبة يزودنا تاريخه برواية كاملة، وكان أول بروز له في سنة ١٢٢٩، عندما حاول وكلاء الامبراطور الخمسة في قبرص اغتياله لأنه رفض قبول حكمهم وتمنع عن أداء القسم ليعترف بوكالتهم، وكان في هذه الأونة متملكاً لاقطاعية، وكان قد نال سمعة جيدة في محكمة قبرص، حيث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالايبلينيين، وكان عندما نجا من وكلاء الامبراطور، التجأ إلى مشفى القديس يوحنا في نيقوسيا، حيث بعث من هناك إلى مولاه بالين دي إيبلين يطلب مساعدته، وشارك فيليب في معركة نيقوسيا، التي قاتل فيها الإيبلينيون في سبيل انقاذه وانقاذ السيدات النبيلات اللائي حوصرن معه، وقاد مجموعة من الجنود ضد وكلاء الامبراطور، وأسهم في تحقيق النصر، (١٤ تموز ١٢٢٩)، كما وقدم فيليب مساعدته أيضاً أثناء حصار ديودامور Dieudamor وكنتارا Kantara، وقد جرح أثناء العمليات حول ديو دامور.

وعندما خطط القبارصة في سنة ١٢٣٢ لرفع دعوى لدى البلاطات الغربية ضد الامبراطور، كان فيليب هو الذي سيحمل دعواهم، وقد منع من الذهاب فقط بسبب استسلام الحامية الامبراطورية، وهي حادثة جعلت الدعوى غير ضرورية، وكان فيليب حاضراً مع جون دي إيبلين لدى التفريج عن بيروت في سنة ١٢٣٢، وذهب مع بالين دي إيبلين إلى طرابلس في سفارة لدى بوهيموند لجذب ذلك الأمير للدخول في الحلف القبرصي، والتحق فيليب بعد هذا بالكتلة الأساسية للقوات القبرصية وذلك بعد معركة قلعة إيمبرت Imbert ، ثم ذهب مع هذه القوات إلى قبرص حيث شارك في مباحثات استسلام قلعة فيا غوستا وقلعة كنتارا، وقد شارك في معركة أغريدي Agridi، وكان واحداً من خمسة رافقوا بالين دي إيبلين في هجومه الخطير على طرف الرابية.

وبعـد معركـة نيقـوسيـا وفي أثناء حصـار سيرينـا منـح فيليب حكـم نيقوسيا وعهد إليه بالاشراف على الأسرى الـذين حجزوا هناك، وكان هو مع أرنيس Arneis صاحـب جبلة قـد أعدّا شروط استسـلام سيرينا في سنـة ١٢٣٣، وأخبار السنـوات الثـلاثة التـاليـة غير متـوفرة في روايـة فيليب، لكنـه عاود الظهـور في سنة ١٢٣٦ قـرب فراش مـوت جون دي إيبلين صاحـب بيروت، وكان حـاملاً للصليب أمـام مولاه وهـو يموت، وكانـت قمة أعمال حياتـه عندما استطـاع في عام ١٢٤٣ اقناع صـاحبي بيروت وتبنين والمحكمة العليا للقـدس لتأجيل هجومهـم على صور حتى يصـل الملك كـونراد إلى السـن القانـوني، وإقـامة أليـس صاحبـة قبرص حـاكمة لمملكـة القـدس، وكوفىء فيليـب مكـافأةجيـدة مـن قبل الملكـة الممتنة، التي سددت عنـه جميع ديونه، التي وصلت إلى مبلـغ ألف مارك من الفضة، ومنحته اقطاعاً يدر عليه مبلغ ألف قطعة ذهبية في العام من موارد عكا، وإثر هذا أسهم فيليب في حصـار صور، وعمل بمثابة الحاكم الملكي في تجهيـز الاسطول، وكـان الوكيـل الذي عهـد إليه بـالعمل على ابرام شروط استسلام قلعة صور.

وهذه الاشـارات جميعاً مستخرجـة من تـاريخ فيليب، ويعتقـد بعض النقاد أنه بـالغ في إبراز أهمية دوره في هذه الحوادث، هذا ولايـوجد سبب للتشكيك في صحـة هذه المعلومات، ذلـك أن ما من واحد مـن المصادر الأخرى عزت أياً من الأعمال التي عـزاها فيليب إلى نفسه إلى إنسان آخر، فمن المؤكـد أن فيليب دي نـوفار كـان خلال حيـاة الملك هنـري الأول، ملك قبرص واحـداً من المستشارين الـدائميين للملك، فقد ظهـر اسمه على عدد كبير مـن الوثـائق على أنه كـان واحداً مـن أتباع هنـري، وبعد وفاة الملك هنري في عام ١٢٥٣، كان فيليب مع غي دي إيبلين وروبرت دي مونتغيو سكارد Montgeuiscard بين الذين أشرفـوا على تنفيذ وصية الملـك المتوفى، وهذا واضـح من خلال رسـالة بابـوية تاريخهـا عام

١٢٥٥، جاء فيها تهديد بالحرمان الكنسي للمشرفين على تنفيذ الوصية إذا لم يسددوا العشر المحدد للكنيسة بموجب شروط الوصية، وجاء آخر ظهور لفيليب في وثائق كان هو الشاهد بها على ثلاث منح إلى فرسان التيوتون، قدمها جون دي إيبلين صاحب بيروت، وكان جون ابن مولى فيليب المتقدم ورفيقه، والمقصود هنا هو بالين دي إيبلين، ووردت إشارة إليه في عام ١٢٦٤ في جدل قانوني أمام المحكمة العليا في عكا، على أنه « يعدّ أفضل محامي استئناف في هذا الجانب من البحر»، وبعيد هذا بأمد وجيز، لربما في عام ١٢٦٥، عندما صار في السبعين من عمره كتب الـ «Quatre ages de L'homme »، وبالنسبة لتاريخ وفاته هو أمر غير مقرر، حيث لم ترد إشارات إليه بعد عام ١٢٦٤، ولعله مات بعد هذا التاريخ، ففي سنة ١٢٦٩ ظهر ابنه بمثابة شاهد على وثيقة لهيوج الثالث، ولعله استحوذ في هذا التاريخ على اقطاعات والده التي نالها من التاج.

ورست شهرة فيليب دي نوفار بين معاصريه ورجال بلاده على براعته كمحامي استئناف في المحكمة، وعلى الترتيب الذي صنفه حول الإجراءات القانونية الـ « Livre de forme de plait » أو باسمه الآخر الذي عرف به وهو الـ «Livre a un sien ami »، وهو من أهم الأعمال التي شكلت «اطروحة القدس»، وفي الوقت الذي جاء فيه كتاب فيليب على أنه ليس دراسة في شؤون العدالة، ولايرقى إلى المستوى العظيم لكتاب تلميذه جون دي إيبلين صاحب يافا، الذي تم في سنة ١٣٦٩ تبني كتابه: «Assies de La houte cour » على انه القانون الأساسي لملكة قبرص، مع هذا من الواضح أن كتاب فيليب كتاب عملي لعرض القوانين وللإجراءات التي اعتمدت في محاكم القدس وقبرص، ولابد من أن تأثير نوفار على إيبلين كان كبيراً، وفي الوقت الذي ليس من الواضح القدر الذي نهله إيبلين من كتاب نوفار، ليس هناك

من شك أنه تعلـم القانون منه، وبفضل تعليم فيليـب له، امتلك إيبلين حبه لعلم القانـون، ويقف نوفار بمثابة حلقـة وصل بين «قوانين الضريح المقدس» القديمة، التي عادت للملكة اللاتينية في القدس، التي لابد أنه قد تعلمهـا من رالف صاحـب طبرية، والقوانين القبرصية الجديـدة التي وضعهـا إيبلين، وتختلف قـوانين إيبلين في كثير مـن الحالات عن قـوانين مـاوراء البحار، وتظهـر المقارنـة فيما بين القوانين المبكـرة المعروفـة باسـم «القوانين الملكية» وبين كتـاب نوفار، وكذلك كتـاب إيبلين التطور الذي ألم بقانـون القدس، وأن هذا التطور لم يلـم بمحتوى القانون فقـط بل ألم بطرائق مقـاربة القـانون، وتعـدّ «القوانين الملكية» أقـدم مجموعـة قانـونية وصلتنا مـن قوانين مـاوراء البحار، حيـث يعود تـاريخها إلى أواخـر القرن الثـاني عشر، وهي تحتـوي على مجرد بيانـات قانـونية فعليـة، والذي تـولاه نـوفار هـو تأكيـد ما هـو قانـوني، كما عرض كيـف ينبغي التماس ذلـك، وكتب إيبلين رسـالة في علـم القانـون، وسعى جـاهداً لتـأكيد الأسبـاب والمبادىء الـراسية خلف القوانين بطـريقة جديـرة بأحسن علوم العـدالة والقضاء.

ويتألف كتاب نـوفار من ثلاثة أقسام: في القسـم الأول عرض لأحكام الإجراءات العـامة التي استخدمـت في محاكم ماوراء البحـار، وفي القسم الثـاني نقـاش للأنماط الخاصـة مـن أعمال العـدالة، لاسيما التقـديـرات، والنقاط القـانونية المتعلقـة بكل قضية، وآراء كبـار رجال العدالـة حولها، أمـا في القسم الأخير فبحـث في السمات والإحالات المطلـوبة للمختـص المحترف للقانون، والكتاب هو مرشـد للمحامين ودليل من أجل الممارسة الفعلية للقانـون، حيث يمكن لمحامي الاستئناف أن يتعلـم طرائق تجنب الهفوات أمـام المحكمة مـع مذاهب الخداع المستخـدمة، ولايـذكر نـوفار أراءه الشخصيـة حول القـوانين، ولا أفكاره حـول الاجـراءات، بل أقنـع نفسـه بنقل آراء الآخـرين، ولم يقـم بأيـة محاولـة لاستخراج أيـة جوانـب

علمية من القوانين أو فلسفة تشريعية، فقد ترك هذا ليتولى صنعه تلميذه الأعظم كفاءة والأكثر شهرة، ولهذه فإن كتاب نوفار— بسبب طبيعته— لم يمتلك قط لا الاحترام نفسه ولامدى التأثير الذي امتلكه كتاب إيبلين، زد على هذا إن ظهور كتاب إيبلين بعد أمد وجيز من كتاب نوفار، حرم هذا الكتاب من المكانة التي كان ربما سيحظى بها ويتمتع بها، ومع أن الأجيال التالية لم تعط قيمة فعلية لكتابة: «Livre de forme de plaut» لقد استمرت سمعة فيليب دي نوفار حية على أنه كان واحداً من أعظم الشخصيات في تاريخ القانون الإقطاعي.

لكن نشاطات فيليب الأدبية لم تقتصر أبداً على ميادين القانون، ولم تنحصر بها مطلقاً، فقد أتيح لفيليب عندما بات في سن متقدمة أن يمتلك الفرصة ليقوم بإطلالة على حياته الطويلة والمليئة بالأعمال، وليتذكر حماقات حياته، ولقد أسف لبعض الحماقات، ونتيجة لهذا كتب اطروحته الفلسفسة والأخلاقية التي حملت عنوان:

« Les quatre Ages de L'homme ».

وقسم فيليب في هذا الكتاب حياة الانسان إلى أربع مراحل، في كل واحدة منها عشرين سنة، ومنح لكل حقبة سماتها، ففي الحقبة الأولى الطفولة ثم الشباب حيث ينبغي أن يتعلم الانسان من الأسن منه، والحقبة الثانية هي حقبة شباب، وهذه الحقبة بالنسبة لفيليب هي الأخطر لكل من الرجل والمرأة، فالشاب مندفع ونشيط، وسنين الشباب هي سنين الحب، والذنب، والحماقة، وأعمال العنف المتهورة والتمرد، ويعيش الانسان في المرحلة الثالثة في عمره الوسيط من الأربعين حتى الستين، وصور فيليب هذا العمر على أنه عمر الانجازات الحقيقية، فبعدما تعلم الانسان أثناء طفولته، وتعب من حماقات واندفاع الشباب، أصبح جاهزاً لقطف الثمار حتى أقصى قدراته، وهو العصر الأعظم في حياة الانسان، وفيه يجد خيرة فضائله من: حكمة، وإخلاص، وسماحة، وأشياء أخرى،

أما بالنسبة للمرأة فالأمر على عكس الرجل، فالعصر الوسيط يمكن أن يكون أكثر حماقة من عصر الشباب، لأن عدداً كبيراً من ا لنساء يسعين في سنوات نضجهن للحصول على استحسان الشباب، ويسعين لايجاد شباب زائف، والحقبة الرابعة من عمر الانسان هي الشيخوخة، وقد منحت للانسان حتى يتملك الوقت مادام حياً ليتذكر ألطاف الرب نحوه، ولسداد الديون إلى خالقه، ففي سنوات نشاطه كان ميالاً نحو نسيان ربه، ونحو الاستغراق بالأشياء الدنيوية، التي تدفعه نحو إهمال روحه، ويمكن للانسان أن يمتلك في سن الشيخوخة الوقت للاستغفار من حماقاته الماضية ومن ذنوبه، وأن يعد نفسه لمواجهة الموت، فلقد أعطي الانسان هذا السكون الأخير، والحزن، والوحدانية، عندما يمكنه أن يتطلع إلى ما وراء القبر، إلى الحياة القادمة، وختم فيليب كتابه هذا ببحث حول فضائل التسامح، والمساعدة، والشجاعة، والشرف، وهي سمات مطلوبة ومرغوب بها وبوجودها في الإنسان، وهذا الكتاب نوع من أنواع كتابات الشيوخ عندما يصبحون متدينين بعمق، وأخلاقيين في أواخر أيامهم، وهو خلو تماما من الاشراقات، ومن طعم الفكاهة، وهو ما نجده متوفر هنا وهناك في تاريخ فيليب، وهذا الكتاب هو عمل رجل قانوني بات شيخاً مسناً، رجل كان في سنوات شبابه يدرب المحامين الشباب ويعلمهم كيف يرافعون أمام سدة المحكمة العليا للملكة، أما الآن ففي سنوات الشيخوخة قد أراد أن يوجه الشباب ويعلمهم الوسائل التي يحضرون بها مذكراتهم للمرافعة أمام سدة محكمة مملكة السماء.

وفيما يتعلق بكتابات فيليب الأخرى، بقي عنها النص المترجم التالي، وقد ورد في كتاب «الأجيال الأربعة»، فهنا وصف فيليب بنفسه هذا الكتاب حسبما كتب بالأصل:

«لقد كتب فيليب دي نوفار، الذي كتب هذا الكتاب، كتابين آخرين،

وقد كتب في جزء من الكتاب الأول ما يتعلق بنفسه، فهناك تحدث عن البلد الذي جاء منه، وبين لماذا وكيف جاء عبر البحر، وكيف قاد نفسه بنعمة من الرب لمدة طويلة، وجاء إثر هذا عدة تراتيل وأغان هو نفسه قد نظمها حول الحماقات الكبيرة لهذا العالم التي ندعوها باسم الحب، وهناك أيضاً الأشعار التي نظمها حول الحروب الكبيرة التي وقعت في أيامه، فيما بين الامبراطور فردريك، وصاحب بيروت، مولاي جون دي إيبلين الشيخ، كما قدم رواية رائعة جداً عن هذه الحرب نفسها من بدايتها حتى نهايتها، وأودع هناك كلمات وأفاعيل المؤتمرات الكبيرة والمعارك والحصارات، مرتبة منظمة، لأن فيليب كان موجوداً خلالهم جميعاً، ويوجد هناك بالإضافة إلى ذلك أغاني وتراتيل لسيدتنا وللقديسين، التي نظم الكثير منها في شيخوخته، وكتب هذا الكتاب بغية حفظ هذه الاشعار وأخبار أعمال الشجاعة لهؤلاء السادة الجيدين، ولكي تبقى أطول مدة في ذاكرة الذين انحدروا منهم ومن الأصدقاء الآخرين، وفي ذاكرة جميع الذين سوف يسمعونهم».

وتبعاً لما أورده هنا، كان التاريخ على هذا قسماً من كتاب كبير تضمن مايلي: (١) سيرة ذاتية؛ (٢) أشعاراً في الحب؛(٣) أشعاراً حول الحرب، (٤) تاريخ الحرب، و (٥) أشعاراً دينية، ومن هذه الأشعار فقدت أشعار الحب و أشعار الدين كليا، أما التاريخ و معظم أشعار الحرب فقد حفظت في أخبار أعمال الحرب، و لعل جزءاً صغيراً من السيرة الذاتية قد دمج في القسم الأول من « الأخبار » .

و يشكل غياب أي نص أصيل مشكلة تاريخ تصنيف « التاريخ » و يجعل ذلك صعباً جداً، وكان بول رختر Richter ، و هو أول من حاول حل مشكلة تاريخ الكتاب، قد توصل إلى محصلة إلى أنه قد كتب على قسمين، فقد كتب القسم الأول قبل ١٢٤٧، و كتب الثاني بعد ١٢٥٨، و تقوم هذه النظرية على فكرة أن فيليب كتب أولاً رواية

مستقلة حول الأحداث المبكرة، ثم إنـه بعدما اطلع على « هرقل » و على « حـوليـات الارض المقـدسـة »، أعـاد النظـر بماكتبـه و نقحـه وأكملـه بتضمينه مواداً استقـاها من هذه المصادر، و أشار غـاستون الباريسي إلى أن فيليب لربماكتـب التاريخ كله في وقـت واحد ، ثم أعاد النظـر فيه و نقحه فيما بعد، وضمنه الاشارات الواردة حـول الأحداث المتأخرة ، الأمر الذي دفع رختر إلى القـول بأن الأجزاء الأخيرة قد كتبت في زمـن متأخر، وأظهر غاستـون الباريسي أن النقول من « هرقل » و مـن «الحوليات» قد أضيفت مـن قبل مصنـف « الأعمال » و ليس مـن قبل فيليـب نفسه، و ذلك بسبـب أن هذه النقـول غير موجـودة في أمادي ، و قـادت أبحاث كوهلر صاحبهـا إلى المحصلات نفسها التي كان غاستـون الباريسي قد وصـل إليهـا ، و كـان رأيهما الأخير هو أن التـاريـخ قـد كتـب فيما بين ١٢٤٣و ١٢٤٧، و نقح فيما بعد، و لعل ذلـك كان بعد سنة ١٢٥٤، لا بل حتى بعد سنة ١٢٥٨ .

و بما أن التـاريـخ يحتـوي على أخبـار أحـداث وقعـت خـلال عـام ١٢٤٣، من البـداهة بمكان أنـه كتب بعد هـذا التاريخ ، لكـن بما أنه أسقط كل إشـارة إلى كل من تولية بالين دي إيبلين لـوكلاء الامبراطور في ١٢٤٦ — ١٢٤٧، أو موته في سنة ١٢٤٧، لابد أنـه قد كتب قبل وقوع هذه الأحداث ، و قد كـان بالين أقرب أصدقاء فيليب إليـه ، ثم إنه كان مولاه المبـاشر، و على هذا مستبعد عدم إقـدام فيليب على ذكر مثـل هذه الأحداث الهامة في حيـاته، هذا من جهـة و من جهة أخرى كـان فيليب قـد أتى عـرضاً على ذكـر عدد مـن الألقـاب و الوظـائف التي شغلهـا أعضاء في البيـت الإيبليني، لكن فقط الألقـاب والوظائف التي شغلـوها بعد ١٢٤٧، وجاءت الاشارات إلى جون دي ايبلين الأصغـر ،عندما غدا في حقبة متـأخره، صاحـب يافا و هو اللقـب الذي نالـه للمرة الأولى في سنة ١٢٤٧، و أشير إلى غي بمثابة قسطلان لقبرص، وإلى بلدوين بمثابة

مفوض للجيش في قبرص، و لقد شغل هـذان هاتين الوظيفتين فقط بعد عام ١٢٤٧، ووردت إشارة إلى جون دي إيبلين صـاحب أرسوف على أنه قسطلان القدس، وهو قد أصبح كـذلك في عام ١٢٥١ فقط، كما وتسلم عدة مـرات منصب معـاون قاضي المملكـة، فقد تملـك هذا المنصـب في ١٢٤٧ - ١٢٤٨، و ١٢٤٩، و ١٢٥٤ و ١٢٥٦ - ١٢٥٨، وقد كتبـت هذه الإشارات بقصد الرفع من شأن مختلف شخصيات الإيبلينيين، وهي ليست جزءاً مـن التاريخ أو متعلقة به، ويستخلص مـن هذا بينة على أن فيليـب قد أعـاد النظـر في عمله في وقـت مـا بعـد سنة ١٢٥٤ أو سنـة ١٢٥٨، ونقح روايته، لكن ليـس عن طريق إضافة مـواد جديدة تتحدث عن أحـداث جديدة بـل مجرد تعريف بـالشخصيات التي ورد ذكـرها في تـاريخه بألقـابها الأخيرة فقط، وعلى هـذا كتـب النص الأصيـل قبل سنـة ١٢٤٧، أي بعيد عـدة سنوات تلـت آخر الأحـداث التي ورد ذكـرها في آخره .

٣ — تقويم لتاريخ فيليب دي نوفار

من غير الممكـن عدّ كتـاب « تاريـخ الحرب بين الامبراطور فـردريك الثاني وجون دي إيبلين» قطعـة عالية المكانـة في الأدب التأريخي، فهو لا يحتوي على أي فلسفـة معمقة للتاريـخ، ولا حتى على أية أحكـام مسبقة في محاولة لتقرير أسبـاب الأحداث، ووصف فيليب نفسه عمله بقـوله إنه مجرد رواية حـول الأسباب الحقيقـة للحرب :« و كذلـك حول الـرجال و الأفاعيل العظيمة »، لكنه عرض الأسبـاب من خلال وجهة نظر منحازة، و تتعلـق قيمة الكتـاب و أهميتـه بسماتـه أنه روايـة واحـد مـن الغولـف Guelph السوريين، و لأنـه يحتوي على روايـة صحيحة حـول الأحداث التي وقعـت، يضاف إلى هـذا إن الكتاب يعبر عـن موقـف فيليب ضـد الحزب الامبراطوري في الشرق، مع إطـراء للبيت الايبليني الذي أكـد أنه « لايوجد بيت أعظـم منه في كل العالم المسيحي» و فوق هـذا كله كتاب

سيرة ترجم فيها فيليب لـوا حـد مـن كبـار الأبطـال الاقطـاعيين، و هوصاحب بيروت العجوز .

وكتب فيليـب دي نوفار مـن منطلق فـردي مدهش، و فقـط المسائل التي لها عـلاقة مبـاشرة بموضـوعه المختـار من الحرب بين الامبراطـور و الإيبليـنيين وجدت مكاناً لها على صفحاته، فهناك قضايا و أحداثاً رئيسية مثل صليبيـةثيبوت أوف شامبين ورتشـاد أوف كورنوول، التـي وقعت في الإطار الزمنـي لتاريخه قد حذفـت كلياً وأسقطت من روايـة فيليب، و في السنوات التي لم يكن فيهـا من شيءيؤثر بوقـائع الحرب، لم يتحدث فيها فيليـب عـن شـيء أبداً، و هكـذا نجـد سنـوات ١٢٣٤ — ١٢٣٥ و ١٢٣٧ — ١٢٤٠، لم تـدون، و ذكـرت سنة ١٢٣٦ فقـط بسبـب مـوت صاحب بيروت، زيادة على هـذا لم يقل فيليب شيئاً عن أمور كـانت قد حدثت أو لم تكـن قد حدثت بعد، في الـزمن الذي كتب فيـه، من ذلك النقد البـابوي لـلإيبليـنيين، و جهود الكـرسي المقدس في سبيـل الحصول على سلم مـوافق لـلامبراطور، فهذا مـا أسقط، و مثـل هذا أسقـط أيضاً خبر السلـم الذي تحقق، مع تقبل القبارصـة في إطار الحظوة البابوية، و لم يكن لهذه الأحـداث من آثار على النتيجة النهـائية، و لقد مرّ بهم فيليب مـرور الكـرام، ربما لشعـوره أنـه لم يكـن فيهـم فـائدة للكنيسـة، و مـن الأفضـل نسيانهم، و لعـل مـن أفضل الأمثلـة عن عـدم تقـدير فيليـب للمسـائل ذات العـلاقـة، يمكـن إيجاده في روايـة فيليــب عـن حملات فردريك في سورية، و معاهدة يافا لعام ١٢٢٩، و كانت بعض الروايات عـن أعمال الامبراطور في سـورية مـن الضروري إيـرادها لـربط أحـداث قبرص مـع بعضهـا بعضـاً، وهـي الأحـداث التـي وقعـت قبـل الحملـة الصليبية و كذلك ما حدث بعدها، و هكذا روى أخبار الحملة الصليبية في فقـرة صغيرة واحــدة،كما أن روايتـه عـن معــاهـدة يــافـا فقصيرة و غيركاملة، لكنه لم ينتقدها على أنها عمـل غير مسيحي كما فعل البطريرك

جيرولد Gerold، ثم إن الشروط التي أتى على ذكرها و تعدادها فكانت فقط ماله أعظم الفوائد بالنسبة لمملكة سورية .

و لم يكن هجوم فيليب، موجه ضد فردريك شخصيا ، فالفصل الوحيد في كتاب «الأعمال» الذي فيه حملات افتراء وقذف بحق الامبراطور — الفصل ١٠٢ — ليس من صنع فيليب، بل مقحم جرى إقحامه من قبل واحد من المصادر الغربية، فليس فردريك بل برلياس Barlias و فيلنغر Filanger هما الأشرار في تاريخ فيليب، و رسمت صورة فيلنغر على أنه لم يكن منطقيا، و كان طاغية خارقاً للقانون، لكن صوت فيليب ليس أكثر ارتفاعاً في نقد وكيل الامبراطور هذا من صوت صاحب كتاب «هرقل»، و يبدو أن فردريك نفسه قد لاحظ أخطاء وكيله، فتولى سجنه لدى عودته من سورية، وكان برلياس — رينارد Rinard الشعر — شريراً حقا، فقد كان يدين بالكثير للإيبلينيين، فقد استقبل من قبلهم و نال حظوتهم ، و قد تظاهر خداعاً بحبهم و صداقتهم، لكنه تولى خيانتهم في كل مناسبة بشكل شرير جداً، و لم تعبأ مؤامرات برلياس و خساسته مع رفاقه بشرف و شجاعة الإيبلينيين .

و في هذا المقام يتوجب علينا أن نلاحظ أن عداء فيليب نحو برلياس، قد قاده نحو تفسير ابتعد به عن طريق الحقيقة المطلقة، فالحزب الامبراطوري في قبرص قد تكوّن ليس من أدنياء منحطين كلهم، بل من سادة من خيرة أسر ما وراء البحر، فبرلياس نفسه قد جاء من أسرة قديمة لها قرابات جيدة، و كانت أسر:بيسان وجبلة، و بورسليت Porcelets، ودي ريفيت Rivet وشينارات Chenartجميعاً أسراً نبيلة لها سمعتها الطيبة، و ضم الحزب الامبراطوري في سورية أعظم القادة لذلك الحين أمثال : بالين صاحب صيدا، و يودس دي مونتبليارد Eudes Demontbeliard، وغارنيير الألماني، و أسراً أخرى، كثير منها أنفسها كانت من أقرباء أسرة إيبلين، وقد أيدت هذه المجموعة نيابة فردريك

عن الملك كونراد، غير أنها ارتبطت بـالإيبلينيين عندما دفعتهم نحو هذا الأعمال اللاقـانونيـة للوكيـل الامبراطوري رتشـارد فيلنغر، و بـوهيمونـد صاحـب أنطاكيـة، و أعظم أمير محلي في بلاد مـا وراء البحار بعـد ملك القـدس نفسـه ، كـان مـؤيداً امبراطـوريـاً، ولم يتعـاون قـط مـع الحزب القبرصي، و تولى فيليـب عرض الجانـب الإيبليني مـن مجمل الصـورة، و بالنسبة لوجهة النظر الامبراطوريـة كان الإيبلينيون و أعوانهم فئة متمردة، كـانت تسعـى لـلاحتفاظ بسلطـة غير شرعيـة على مملكة قبرص، محاولـة التستر خلف شرعيـة مغلوطـة و امتيازات فـردية، وتمردهـم ضد مـولاهم الشرعي و سلطانهم واضـح تمام الوضوح في بينات معللـة وردت في ثنايا الاشارات إلى الشؤون الشرقية في تاريخ رتشـادر أوف سان جرمانو ولدى مؤرخين آخرين .

و بصرف النظر عـن سمات رسالة فيليب الغـولفية Guelph وكذلك روايتة التـاريخية، إن كتـابه أشبه بـالملاحم، أو بـالحري هو ملحمـة حول بطل عظيـم،هو جون دي إيبلين العجـوز، صاحـب بيروت، فلقـد أضفى فيليب عليـه جميع الفضائل، فبـات سيداً حقيقيـاً، مما يدفـع الانسان الى التفكير بـأن فيليب رأى وهـو في سنـه المتقدم، في مـولاه السـالف المثـل الأعلى لجميع الفضائل، ومنـه استقى الفضائل التي أثنى عليهـا في كتابه الـ «Quatre ages » ، ذلـك أن السمات التـي تجلـت في كـل مـن أحداث حياة جون دي إيبلين هي : الشجـاعة، و الشرف ، و الأمانة، و التقـوى، و كبـح الإنفعـالات، و العـدالـة، والعفـو، واللطـف، وإذا ماأزحنـا جانبـا حتى ظـاهرة عبـادة البطل عنـد فيليب، يقـف صاحـب بيروت بارزاً و كـأنه صنـع من جبلّـة بطوليـة ،وكان في كلماتـه دوما — حسبما روى فيليـب ـ تـوازن رفيع مـن المرونة،والقـوة، وقد انتهـى جوابـه المنطقي لفردريك في ليماسول بـالعبارة الرنانة التالية :«وتأكـد أنه بالنسبة للخوف مـن الموت أو السجن أنا لـن أفعل شيئـاً سوى ما سيطلبـه قرار

المحكمة الجيد و المخلص مني أن أفعله»، و عندما أراد الإيبليني أن يعبر بشكل فعّال و دقيق عن عدم ثقته بالإمبراطو ر وبوعوده، لم يلجأ إلى النقد المباشر لخصمه، بل عبر عن فكرته بقوة أعظم بضربه المثل بالوعل الذي ليس لديه قلب، وهناك تشابه عظيم بين كثير من نصوص رواية فيليب و سمات الأفراد الذين تولى وصفهم في كتابه عن حياة جون أوف إيبلين و بين ما ورد في كتاب جوانفيل عن حياة القديس لويس، فقد مثل كل من الملك الفرنسي و اللورد القبرصي أسمى أشكال تطور الشخصية الإقطاعية، فكلاهما كانا سيدان لطيفان قد حظيا على كثير من حب و إخلاص شعبيهما، و كان كل منهما مستقيماً و متديناً و منطقياً، وقد حظيا بمن يترجم لكل واحد منهما في رجلي عمل أعجبا بهما و كتبا عن حياتيهما بغية أن تعرف الأجيال المقبلة سمات الرجلين اللذين افتخرا في دعوتيهما موليبهما.

و لم يكن كتاب فيليب أقل قراءة و متعة من كتاب جوانفيل، لابل يمكن القول إنه تفوق في إحدى النقاط على منافسه،لأن فيليب امتلك حساً مبطناً وجافاً بالفكاهة، تغلغل خلال روايته، و الشاهد الأكثر وضوحاً هو المشهد في محكمة نيقوسيا عندما جرى اعتقال فيليب من قبل وكلاء الإمبراطور ، فقال : إنه لايمكنه الاتفاق مع اقتراح صاحب جبلة في أن يقتل،«وأن والده السير برتراند قد تكلم مراراً بحكمة أكثر»، وهناك أيضاً لمسات أخرى كثيرة ، هي أقل وضوحاً، لكن ليست أقل بروح الفكاهة، من ذلك الإشارة إلى «الخروف ذي الأذنين الطويلتين» ، الذي أكله المحاصرون في ديودامور، ووصف سمات مختلف الشخصيات في قصائده عن الـ Branche العائد لـ «رينارد»

وبالنسبة لهذه القصائد لاتوجد حاجة للحديث عنها هنا،ذلك أنها تستحق دراسة خاصة،وقد عدّت هذه القصائد في بعض الأوقات قصائد رائعة،ونظر إليها في بعض أوقات أخرى على أنها سيئة

الـوزن،وهـي في كثير مـن الأحيـان واضحـة،وفي بعضهـا ــ كما الحال في القصيدة الأولى ــ غامضـة بشكل يـائس،وهذه القصـائد هامـة كوثـائق تـاريخيـة،لأنها تظهـر ردات فعـل فيليب المباشرة نحـو الأحـداث لـدى وقوعها، و ينبغي أن يـلاحظ أنه بالنسبة لقضية سجـن بالين في ليماسول، أزعـج مـرور الوقـت ذكـريـات فيليـب بشـأن مصاعـب هـذا السجـن ووحشيته،ولم يزلها .

وعلى هذا يعدّ كتـاب فيليب كتاباً منحـاز التوجه،لكنه مـع هذا مترفع فوق مستوى التـوجه الإنحيازي بسبب دقته وصحته في عـرضه للحقائق، ولتركيـزه على السمات الحسنة لـدى بطله ، فلقـد رغـب فيليب أن يبقـي لمستقبل الأيـام حياة صديقـه القديـم، ومولاه، مع ذكـر الأعمال العظيمة لحزبـه، وهو في الحقيقـة حين سعى لتخليـد ذكـرى نجاحـات الآخريـن تمكن من تخليد نفسه .

٤ — صليبية فردريك الثاني و الحرب ضد الإيبلينيين

وفيما يتعلق بتـاريخ فيليب دي نوفـار إنه يقدم رواية عظيمـة الإنحياز المسبق ضـد أهداف وسيـاسات فـردريك الثـاني في الشرق ، وهي تـروي أخبـار الأحداث في الصراع ضـده فقط مـن وجهة نظـر الذيـن كانـوا في حـالة حـرب ضـده ، ولهذا إن تقديـم عـرض مختصر لصليبيـة فردريـك وللصراع الذي نجم عنها، لائق تماماً بهذا المدخـل، وسيكون هذا العرض أفضـل صـورة للأحـداث يمكـن الحصـول عليهـا ، فلقد كتـب فيليـب بطريقة مقنعة إلى حد أنه إذا لم يكن القارىء حذراً، سيجد نفسه مشاركاً فيليب في أحكامـه المسبقة، وداعماً للاتجاه المعادي لـلإمبراطور، و منحازاً إليـه تمام الإنحيـاز، ولهذا ولكي نصحـح فيليـب، ومـع الرغبـة «لإعطـاء الشيطان ما يستحقه» جاء إدخال العرض التاريخي الموجز هنا :

أ —بدايات الحملة الصليبية، ١٢١٥ـ ١٢٢٨

في ٢٥ـ تموز ١٢١٥، وفي الكنيسة الكاتدرائية في آخن، حمل فردريك الثاني الصليب، وكرس نفسه لصالح قضية الحرب المقدسة ضد المسلمين، وجاء هذا إثر تسلمه لتاج المملكة الألمانية من يدي سيغفرايد Siegfried رئيس أساقفة مينز، وحرض أتباعه على أن يكونوا مثله فيكرسوا أنفسهم في سبيل إنقاذ الأماكن المقدسة، ولقد كان هذا استعراضاً احتفالياً رائعاً، فقد رفع الهوهنزتوفني ثانية راية الصليب التي حملها كونراد الثالث وفردريك بربروسا، وجدد أمجاد شارلمان، وأمجاد ذلك السيف الذي هو سلاح المسيحية ، والذي رؤيت أسطورته الشعبية في الحملة الصليبية الأولى، وهو الذي تولى تطويبه بشكل مهيب من قبل فردريك الأول في هذه الكنيسة نفسها، وتوفر لدى البابا انوسنت الثالث السبب ليبتهج تجاه روح مولاه، ولأن يشعر أنه سيحقق بوساطة فردريك الثاني هذا (الذي سماه والداه أولاً باسم قسطنطين) الوصول إلى النتائج التي أخفقت كل من الحملة الصليبية الثالثة والحملة الصليبية الرابعة في تحقيقها .

وغادرت الحملة الصليبية الخامسة في ١٢١٧ متجهة إلى الشرق حسبما كان مخططاً لها، لكن الملك الشاب لكل من ألمانيا و صقلية لم يكن بين أفرادها، واستولى الصليبيون على دمياط، وتقدموا فوق مياه النيل ، فواجهوا هزيمة ساحقة عند المنصورة ، و تركوا خلفهم عدداً كبيراً من حشدهم ميتاً أو أسيراً في مصر، ثم عادوا إلى الوطن، و تسللوا إليه و هم مدمرين تماماً، و كان فردريك ما يزال يؤخر مغادرته، و تقبل البابا هونوريوس الثالث ــ الذي خلف انوسنت على العرش البابوي في سنة ١٢١٦ـ تسويغات فردريك ، ومنحه موافقات متكررة على التأخير من سنة ١٢١٧ حتى سنة ١٢٢٢، ورفع قادة الحملة الصليبية الخامسة، التي كانت سيئة المصير، أصواتهم عالياً في توجيه اللوم إلى فردريك لتوانيه في تقديم الدعم لهم، و أمر البابا بعقد مجمع عام ينعقد في فيرينتينو -Fe

rentino في آذار سنة ١٢٢٣، حيث تقرر مناقشة خطط صليبية جديدة فيه، و كان بين الذين حضروا هذا المجمع الكاردينال بيلاغوس، الذي كان النائب البابوي الذي تولى قيادة الحملة الخامسة، و الذي يعود إليه بالفعل سبب الإخفاق المأساوي لتلك الحملة، و حضر كذلك الملك جون بريين صاحب القدس، ورالف بطريرك القدس ،وهيرمان فون سالزا Salza ، المقدم الأعلى لفرسان التيوتون،مع مقدمي كل من فرسان الداوية وفرسان مشفى القديس يوحنا،وقد اجتمع هؤلاء مع البابا هونوريوس والملك فردريك،وتم التوافق في هذا المجمع أنه يتوجب عدم القيام بأية محاولة عمليات عسكرية لمدة سنتين، كما تم ضمان مصالح فردريك الشخصية في مصير المملكة السورية،على أساس الاتفاق،ومن ثم إقدامه على الزواج من ايزابل دي بريين ابنة الملك جون و الوارثة لعرش القدس من خلال أمها ، وأعد فردريك خططاً معلنة من أجل مغادرته في العامين المقبلين،لكنه في عام ١٢٢٥،عندما كان عليه المغادرة وجد نفسه مرة ثانية غير قادر على المغادرة،وطلب من البابا منحه فسحة للتأخير مرة أخرى حتى سنة ١٢٢٧،ومنحه البابا المتورط ذلك،وبدلاً من أن يقود فردريك جيشه الى الشرق، قام في آب ١٢٢٥ بإرسال أسطول مكون من أربعة عشر غليوناً الى عكا،وحمل هذا الأسطول جيمس أسقف باتي،الذي كان يعمل بمثابة وكيل له لكي يتولى خطبة الأميرة ايزابيل، وجرى الزواج في كنيسة الصليب المقدس في عكا،وبعد مراسم الزواج حملت الملكة الشابة إلى صور،حيث جرى تتويجها في الكاتدرائية بشكل مهيب ملكة على القدس، وذلك بحضور رالف،بطريرك القدس،وسمعان رئيس أساقفة صور،ويودس دي مونتبليارد الذي كان قسطلان المملكة ونائبها،وبالين صاحب صيدا،ووولتر صاحب قيسارية،وجون دي ايبلين صاحب بيروت، وعددكبير آخر، واستمرت الاحتفالات والأعياد بعد التتويج هناك لمدة خمسة عشر يوماً في مدينة صور،ثم توجه معها من هناك نحو الغرب

بمثابة حرس شرف:جيمس دي فيتري،أسقف عكا،وبالين صاحب صيدا،ويودس دي مونتبليارد،وسمعان رئيس أساقفة صور،ودانيال دي تيراموند،وعددكبير آخر من لوردات سورية،وقد نزلوافي برنديزي في شهر تشرين الأول وفي ٩- تشرين الثاني تزوجت الملكة ايزابيل من فردريك شخصياً.

وما أن جرى انجاز الزواج حتى بادر فردريك إلى طلب تاج القدس من ختنه الملك جون مؤكداً على أن ايزابيل ملكة بموجب حقها الشرعي، وأن زواجها قد أنهى بشكل آلي نيابة جون عنها، واحتج جون ولكن بما أنه كان حصل شخصياً على عرش القدس بزواجه من الملكة،لذلك لم يكن بإمكانه إبداء مقاومة شديدة، ومع هذا أصر على أنه كان من بين شروط اتفاق الزواج أن يحتفظ بتاجه طيلة حياته، لكن فردريك رفض هذا، وتجاهل إلتماس جون الذي رفعه إلى البابا،وجعل نفسه يتوج ملكاً للقدس،وقام البارونات السوريون الذين رافقوا ايزابل إلى ايطاليا بالإعتراف فوراً بفردريك ملكاً عليهم، وقدموا الولاء له، وقام الامبراطور على الفور بإرسال أسقف ملفيMelfi إلى الشرق ليضمن الحصول على ولاء البارونات في سورية، وذهب معه الكونت بيرناردو جنتايل أوف ناردو Berardo Gentile of nardo ،والكونت ستيفن أوف كوترون Cotron ، وقوة مؤلفة من ثلاثمائة فارس، لتكون شحنة في البلاد باسم الامبراطور، ويودس دي مونتبليارد،القسطلان الذي شغل وظيفة النائب أثناء غياب الملك جون وكان سوف يتابع العمل في الوكالة حتى قدوم الملك شخصيا الى سورية .

ومع أن البابا رفض الاعتراف بفردريك ملكا على القدس، واستمر في إضفاء ذلك اللقب على جون دي برين، نجد أن بارونات القدس قد بادروا بالفعل بقبول فردريك ملكاً بحكم كونه زوجاً للملكة مريم،ثم

بعد موتها،نـائباً لابنتيهما ايزابل،لكـن بزواجها وبتتويجهـا في صور صارت ايـزابل ملكـة بنفسها للقـدس،وتبعـاً لهذا لقد حملـت اللقب الملكـي الى زوجها، وإذا ما التزم فردريك بقانـون المملكة الذي قضى بوجوب ظهور الحاكم في حدود سنة ويـوم بعد وراثته المملكة ليطالب بميراثـه،لن يكون هناك اعتراض قانوني عليه كملك للقدس.

وتمت اعـدادات كبيرة للحملـة الصليبيـة التي تقـرر اقـلاعهـا في آب ١٢٢٧، ووصلت الجيـوش من ألمانيـا إلى برنديـزي تحت قيادة اللنغـريف لـــويـــس أوف ثـــورنجيـــا Thuringia ،والـــدوق هنـــري أوف ليمبيرغLemburg،وجـاء أربعون ألفـاً من الانكليـز تحت قيادة أسقـف إكسيترExeter وأسقـــف ونشستر ، وهـــو بيتردي روشي Roches المشهور،وتجمعت الحشود الصليبيـة من لومبارديا ومن أبـوليا،ومن صقلية ومـــن أقـــاصي ألمانيـــا في ذلـــك الميـنـــاء الحار وغير الصحـــي،في حّـــر الصيف،وجرى إرسال الكـونت توماس أوف أسيرا Acerraأمام القوات ليعمل في سورية نائباً للامبراطور حتى وصوله شخصياً.

ومـع أن فـردريـك قـد أعلـن فيما بعـــد، أنـه تـولى الإيفـاء بجميـع الـواجبـات والتعهـدات التـي قطعهـا على نفسـه فيما يتعلـق بـالحملـة الصليبية،وجـد الحشد الـذي وصل الى برنـديزي أن الأوضـاع غير مهيأة، وأن العـدد الكـافي مـن السفـن لحمـل هـذا الحشـد الهائل لم يجهـز،وأن الامـدادات سيئـة الاعـداد، وأن الأحـوال الصحيـة في المعسكـر كـانـت تعيسة، وكـانـت مـوارد المؤن والإقامـة غير كافيـة، وفي حر صيـف أبوليـا سقط المحاربـون الشماليون ضحايا للطـاعون ومالبث فتـك المرض وقيام عدد من الوحدات بالتخلي عن الجيش أن أنقص العدد كثيراً.

وتم أخيراً في الثامـن من أيلول لعام ١٢٢٧،اقلاع الامبراطـور،وبذلك بدأت الحملـة الصليبية بالفعـل،لكن الطاعون الـذي كان قد دمـر عدداً كبيراً من الجيش لم يوفـر أحداً حتى أن صاحب الجلالة الامبراطـورية قد

أرغمته أوضاعه الصحية السيئة على العودة الى ميناء أوترانتو Otranto، وذلك بناء على نصيحة فون سالزا وجيرولد، البطريرك الجديد للقدس، وفي أوترانتو مات لويس أوف ثورنجيا، وبعث فردريك على معظم سفن الأسطول بثمانمائة من الفرسان وبعشرة آلاف من الرجّالة، وذلك تحت قيادة دوق ليمبورغ، وأجل البطريرك جيرولد موعد مغادرته حتى تتحسن صحته.

لكن البابا هونوريوس الثالث المهادن لم يعد مستحوذاً على عرش بطرس، فقد توفي في ١٨ ــ آذار ١٢٢٧، وخلفه الكاردينال أوغولينو Ugolino أوف أوستيا، وكان رجلاً عجوزاً، لكنه تمتع بنشاط مدهش، وقد تبنى اسم غريغوري التاسع، ولتصوره نفسه على أنه غريغوري سابع آخر، دعا إلى عقد مؤتمر آخر حول مسألة الإمبراطور المرتد، ثم ما أن سمع البابا العجوز بعودة فردريك حتى أصدر بحقه حرماناً كنسياً، وسوغ عمله هذا بشروط اليمين الذي أقسمه فردريك في سان جرمانو.

وتوفر بالفعل بعض التسويغ في عمل غريغوري، في ضوء سجل أعمال التأجيل المتكررة لفردريك، لكن الذي لم يعرفه البابا هذه المرة هو أن فردريك كان مخلصاً بالفعل في خططه للمغادرة إلى سورية، وأن الظروف التي تجددت جعلت الإبحار في عام ١٢٢٧ مرغوباً فيه من وجهة نظر الإمبراطور بشكل خاص.

وكان الوضع السياسي منذ عام ١٢٢٥ متأزماً وحساساً، فقد انشغل الأميران الأيوبيان: الملك الكامل محمد صاحب مصر، والملك المعظم عيسى صاحب دمشق، في حرب أخويه من أجل السيطرة على فلسطين، وحاول منذ ١٢٢٥، المعظم الإطاحة بخصمه، وقام الكامل بالشروع بأعمال انتقامية من المعظم، فتحالف المعظم مع سلطان خوارزم، و بناء عليه انطلق الكامل يبحث عن حليف يوازن الحلف الذي تشكل ضده،

فكان أن بعث في سنة ١٢٢٦ سفارة إلى فردريك يسأله الإتحاد معه ضد دمشق، وعرض مقابل ذلك وثمناً لمساعدته : القدس وعدة مدن فلسطينية كانت بيد المعظم، وصار إذا ما توجهت صليبية فردريك ضد دمشق، فإن التحالف عرض على فردريك منافع كثيرة، وبناء عليه دخل فردريك في مباحثات مع الملك المصري، وجرى تبادل الرسائل وتطور العمل تطوراً كبيراً عندما شرع فردريك في عام ١٢٢٧ بالإقلاع، لكنه أرغم على العودة، وعلى هذا يمكن القول إن التأخير كان مزعجاً بالنسبة للامبراطور مثلما كان بالنسبة للبابا، ذلك أن فردريك كان بالفعل راغباً بالذهاب إلى فلسطين لاسترداد أراضي مملكته هناك، ولم يعبأ فردريك بانتقادات ولوم البابا الساخط ، الذي أعلن أنه لن يتمكن من الذهاب في حملته الصليبية حتى يرفع عنه الحرمان الكنسي، فلقد تابع فردريك بكل هدوء تنفيذ خططه من أجل المغادرة إلى الشرق، وعرض أن يقوم بتنفيذ أية عقوبة يمكن للبابا أن ينزلها به،لأنه أخفق بالمغادرة بالتاريخ الموعود، وبين أنه قد تولى تنفيذ جميع الشروط التي قطعها على نفسه بالنسبة للحملة الصليبية، وأن مرضه لم يكن بيده، وأن المصاعب في برنديزي لم يكن هو سببها، وكانت فوق طاقته، وتجاهل غريغوري شكواه وحاول جاهداً وضع كل عائق في طريقه، واخترع تهماً مزيفة ومثيرة للسخرية ضد فردريك، من ذلك أنه قد دس السم للندغريف لويس، وابتعد تماماً عن موضوع الحملة الصليبية لدى انتقاده لسياسات الامبراطور نحو الدول البابوية ونحو أسقفية صقلية،ودافع فردريك عن نفسه، وأبقى المناقشة حول المسألة القائمة،أي قضية الحملة الصليبية، وتابع القيام باستعداداته من أجل مغادرته للقيام بها،وبينما كان فردريك يحتفل بعيد الفصح في باري، جاءته رسالة من توماس أسيرا، الذي كان نائبه في سورية، أخبره فيها بأن السلطان المعظم صاحب دمشق، قد توفي، وأرسل الامبراطور بناء على ذلك، على الفور قوة مؤلفة من خمسمائة فارس نحو الشرق ، تحت قيادة رتشارد فيلنغر Filanger ، الذي كان

وأعيقت الامبراطورة ايزابل وسط هذه الاستعدادات بطفل، وولدت في ٢٥ ـ نيسان ١٢٢٨ في أندريا بصبي ذكر منح اسم كونراد،وكانت معاناة الولادة قاسية جداً بالنسبة للامبراطورة ابنة السابعة عشرة، ولقد توفيت بعد عشرة أيام من ولادتها، تاركة كونراد وريثاً لعرشها في القدس، وهكذا انتزع اللقب من فردريك ، قبل أن يشرع بسفره نحو مملكته في القدس، وعندما أقلع أخيراً في ٢٨ حزيران، كان ادعاءه القانوني الوحيد بعرش المملكة الشرقية متمثلاً بوضعه كوكيل لابنه الرضيع، وزيادة على هذا لقد أبحر على الرغم من الحظر البابوي، الذي منع تحت التهديد بالحرمان الكنسي وعدم المصالحة مع الكنيسة، إذا ما قام بالحملة الصليبية.

ب ـ الحملة الصليبية: حزيران ١٢٢٨ ـ أيار١٢٢٩ .

عندما أبحر الامبراطور، وهو في لجة الحظر البابوي، من برنديزي في ١٢٢٨ ، وشرع بحملته الصليبية التي تأخرت كثيراً، كانت قوته صغيرة، تألفت من أربعين مركباً فقط، فقد كان الجزء الأعظم من جيشه قد تقدم أمامه، لكن وإن أخذنا ذلك بعين التقدير كانت الحملة الصليبية الامبراطورية أقل عظمة مما خطط له بالأصل، وبعد ابحار دام أربعة وعشرين يوماً،اجتاز فيها الأسطول الامبراطوري سواحل كورفو، وسيفالونيا، والمورة، و كريت، ووصل يوم ٢١ تموز إلى ميناء ليماسول في قبرص، حيث التقى بتوماس أوف أسيرا وفيلنغر ، وبالين صاحب صيدا، وبعض من أعيان نبلاء المملكة ، وكان يحكم مملكة قبرص آنذاك الملك هنري الأول، وكان صغيراً، وقد ناب عنه جون دي إيبلين صاحب بيروت، حيث كان يعمل وكيلاً يتولى إدارة المملكة، وكان فردريك يعدّ قبرص بمثابة إقطاعية إمبراطورية، بحكم أن الملك عموري كان قد تلقى لقبه الملكي من هنري السادس في سنة ١١٩٧، وكان قد اعترف بالتابعية للامبراطورية، ولهذا قرر فردريك الضغط من أجل حقه

بالسيادة على الجزيرة، وقد شجعه على ذلك: عموري برلياس ومجموعة من البارونات المضادين للايبلينيين ، الذين كانوا قد خرجوا لاستقبال الامبراطور قرب المورة، وقد بينوا له القيمة في الرجال، والمال، والامدادات التي سيؤمنها تملكه لقبرص لحملاته في القارة، وكانت القضية القائمة قضية قانونية، لأنه بموجب القانون الإمبراطوري كان يحق لفردريك بحكم سيادته، توجيه الملك الصغير وريث المملكة لأنه كان تابعاً امبراطورياً، لكن بموجب قانون قبرص كانت نيابة الملك بيد أليس أم هنري، وهي أقرب أقرباء الملك الطفل، وكانت المحكمة العليا لقبرص قد عينت فيليب دي ايبلين ليتولى إدارة المملكة لصالح الملكة أليس، أثناء قصور وريثها، وعندما تولى فيليب مسؤوليات حكم المملكة، قام البارونات بناء عليه بتأدية يمين الطاعة لحكمه حتى يصل هنري الى السن الشرعي، وطالما أن الملكة أليس كانت تتلقى موارد المملكة، فالحكومة مسندة إلى الإيبليني، ولعله بسبب الخوف من الامبراطور بادعاء حق الإشراف على توجيه الملك القاصر، قام الايبليني في سنة ١٢٢٥ بتتويج هنري، وكان هذا عندما سرت أخبار خطط الحملة الصليبية الامبراطورية في قبرص، وتوفي فيليب دي ايبلين في عام ١٢٢٧، وانتقلت إدارة المملكة على الفور - بموافقة من المحكمة العليا - إلى أخيه جون صاحب بيروت ، وأدى النزاع فيما بين الايبلينيين وبرلياس إلى قيام حزب معارض قوي للإيبلينيين، بعدما حاول برلياس تأمين وكالة الملك من خلال الملكة أليس، التي رفضت محاولتها وأحبطت من قبل المحكمة، وكان الحزب المعارض يأمل بأن الإمبراطور سوف يؤكد حقوقه، وينتزع من الإيبلينيين الوكالة لنفسه.

و عندما طلب فردريك من الإيبليني أن يسلمه الملك و حكومة المملكة، استجاب صاحب بيروت إلى المطالب الامبراطورية فيما يتعلق بالملك، معترفاً بسيادة الامبراطور على الملك، لكنه رفض الاستجابة فيما

يتعلق بالوكالة، التي استحوذ عليها بموجب سلطات المحكمة العليا، التي هو مسؤول أمامها فقط، فالملكة أليس قد كانت نائبة الملك، و لها حق التمتع بالموارد، و هو - أي الإيبليني - له حق الحكومة فقط ، الذي منح إليه من قبل المحكمة، و هو على استعداد لتقديم حساب لمحكمة نيقوسيا حول جميع ما قام به، و قام فردريك عن عمد بتعقيدالقضية، بأن طلب بالإضافة إلى ماتقدم تسليمه مدينة بيروت، بحكم أنه كان ملكاً للقدس و الإيبليني متملك لها كإقطاعية من إقطاعيات القدس، ومن الضروري من أجل توضيح الأمور، أن نميز بعناية مسألة العلاقتين اللتان قامتا بين فردريك و الإيبليني : فبما أن فردريك كان يمتلك السيادة على ملك قبرص، فقد كان بإمكانه أن يطلب الولاء من الإيبليني لأنه كان من الاقطاعيين القبارصه، و هذا ماقدمه له الإيبليني عن طواعية، لكن فردريك ادعى النيابة عن الملك هنري، التي هي بموجب القانون القبرصي كانت تعود إلى الملكة أليس، و قد أصرعلى الاعتراف بحقوقه كنائب، الأمر الذي رفض الإيبليني الاعتراف به، و لقد رأى فردريك أن حكم الإيبليني قد توقف بالضرورة عندما وصل هو، لأنه هو النائب القانوني،و طالب بالإعتراف بحقوقه، و بات من المتوجب على الإيبليني تقديم حساب له عن السنوات التي أمضاها بالوكالة، و من جهة ثانية عدّ نفسه الوكيل الإداري للملكة أليس، التي هي النائب الشرعي، وهو مسؤول أمام المحكمة العليا التي منحته السلطات حتى بلوغ الملك السن القانونية، و بالمحصلة كان هو على استعداد لأن يسلم فردريك شخص الملك الطفل القاصر، لأنه امتلك حق السيادة عليه، لكنه رفض تقديم أي حساب إلاّ إلى المحكمة العليا في نيقوسيا، و كانت العلاقة الثانية بين فردريك كملك للقدس و الإيبليني كصاحب لبيروت، و هنا أبدى الإيبليني استعداده لتقديم الولاء لفردريك كملك للقدس، و أن يخدمه مقابل اقطاعه في بيروت الذي هو مستحوذ عليه منه، و طلب فردريك التسليم الفوري للاقطاع

حيث ادعى أنه يعود إلى الأملاك الملكية، و كان الاقطاع قد جرى منحه إلى الإيبليني من قبل الملك عموري الثاني و الملكة ايزابل، و بموجب قوانين القدس كان التابع محمياً في تملكه لإقطاعه ضد المصادرة القسرية للملك، وواضح في القوانين تمام الوضوح أن التابع يمكن أن يحرم من إقطاعه فقط بموجب قرار من المحكمة العليا للقدس، و تعلقت المسألة هنا بجميع امتيازات الحقوق التي تمتع بها ملك القدس، و كان فردريك يحاول أن يفرض امتيازات و أن يمارس أموراً لم يسمع بها فيها وراء البحار، و كان الإيبليني مصراً على التمسك بحقوقه كإقطاعي حسبما هي مضمونة في شرعة المملكة، و على هذا كان الصراع أكبر منه صراعاً بين فردريك و بين صاحب بيروت، فلقد كان صراعاً أساسياً بين نظامين متعارضين: أولهما من جانب القانون الروماني و الامتيازات، ومن الجانب المقابل القانون الاقطاعي مع حقوق الأفراد، و كانت قوانين الدول الصليبية قد تأسست في القرن الثاني عشر على قواعد إقطاعية صرفه، و كانت الحقوق الفردية في جميع الأحوال محمية، و لم تعرف قوانين القدس أي شيء حول الامتيازات، و لم تكن فيها مجموعات القوانين الرومانية أو مؤثراتها، فلقد كان بإمكان فردريك الثاني أن يكون صاحب صقلية بلامنازع و الامبراطور الشرعي لألمانيا، غير أنه كان في القدس ملكاً اقطاعياً، خاضعاً للقانون، وغير قادر على فعل أي شيء بدون موافقة المحكمة العليا، التي كانت مكونة من إقطاعيي المملكة، والتي امتلكت السيادة في جميع الأشياء.

ولقد روى فيليب دي نوفار أفضل تفاصيل أخبار هذا الصراع، وأعطى الإيبليني رهائن مقابل ظهوره في كل من محكمتي قبرص والقدس، وتراجع إلى نيقوسيا، وعندما لحقه فردريك إلى هناك، رفض صاحب بيروت القتال ضد الرجل الذي كان مولاه، وانسحب متراجعاً إلى ديو دامور، متخلياً بذلك عن نيقوسيا لأعدائه، ولو امتلك فردريك

المزيد من الوقت لأمكن القتال من أجل المسألة، ولوجدت حلاً كليا في صيف ١٢٢٨، لكنه تسلم رسالة أخبرته عن العصيان الذي كان البابا يثيره في إيطاليا ضده، وكان قلقاً لإكمال صليبيته ومن ثم العودة إلى الغرب، ونتيجة لهذا أبرمت معاهدة، وبموجبها جرى إعادة الرهائن الإيبلينية الى قلاع المملكة، وهم البينات البديهية للحكم، وتم تسليمهم إلى يدي إقطاعي تابع للملك هنري كان قد جرى اختياره من قبل الامبراطور، وقد احتفظ هذا بهم باسم الملك، ووعد الإيبليني بمرافقة فردريك في صليبيته، وغادر فردريك قبرص في الثالث من إيلول، بعدما أمضى ثلاثة وأربعين يوما في قبرص، وتوجه فردريك إلى سورية، وأخذ الملك هنري معه.

وبعدما أبحر مروراً بالبترون، وببيروت، وبصيدا وبصور، وصل الامبراطور إلى عكا، حيث جرى استقباله بحماس كبير من قبل السكان، مع أن رجال الدين رفضوا منحه قبلة السلام، حتى يتصالح مع الكنيسة، وعاشت هذه الصداقة مع السكان لمدة قصيرة فقط، فبعد أيام قليلة من وصول الاسطول الامبراطوري، وصل بعض الرهبان الفرنسيسكان إلى عكا وهم يحملون رسائل من البابا ضد فردريك، وهي تأمر جميع المسيحيين الطيبين بالابتعاد عنه وبتجنبه، بما أنه محروم كنسيا ولم يتب، وأرسل الامبراطور الكونت هنري صاحب مالطا ورئيس أساقفة باري إلى روما ليعرضا قضيته أمام البابا غريغوري، وليسعيا لضمان السلام حتى تتمكن الحملة الصليبية من المضي دونما إعاقة، غير أنهما وجدا البابا العجوز متصلباً في رفضه في قبول الاعتذار الامبراطوري.

وفي الوقت نفسه أعاد فردريك من عكا المباحثات مع السلطان الكامل، الذي كان معسكراً في نابلس، وكان توماس أوف أسيرا، وبالين صاحب صيدا هما الرسولان الامبراطوريان، وعاد الشيخ فخر الدين رسولاً من السلطان إلى الامبراطور، وكان فردريك راغباً بشدة في إتمام

التحـالف على أسـاس الشروط التي تقـدم بها الكـامل في ١٢٢٦، لكـن السلطان لم تكـن لديه الرغبـة الآن في تقديم التنـازلات الكبيرة، طالما أن المعظم كان الآن ميتـاً، وقد زال الخطر من دمشق، لأنه بعـد وفاة المعظم غـزا السلطان المصري فلسطين واستـولى لصـالحه على القـدس ونابلـس، وبات أقل رغبة في إعطـاء فردريك مدناً هي الآن في يـده وليس كما كان من قبـل— عندما تنـازل عنهن— في أيدي منـافسه، وكان قـد تمكن في آب من عام ١٢٢٨ من نيـل معاهدة من الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة، وأخـوه أيضاً، اقتسما بمـوجبها ممتلكات الملـك المعظم، وبـذلك حرمـا كليا الملك النـاصر داود، وهو ابـن المعظم ووريثه، وعلى هـذا كان وضـع الكامـل قد تمتـن كثيراً، وباتـت حـاجته للتحـالف مـع فردريـك ضئيلة، وكـان فردريـك من الجانب الآخـر، بحاجـة كبرى إلى السلطان، لأنه مع القوة الصغيرة التي كانت تحت تصرفـه، لم يكن ليأمل بالاستيلاء على أي شيء بقـوة السـلاح، وكـان عليـه أن يعتمـد على طيـب نـوايـا السلطان نحـوه، وعلى إمكانية تـأمين أي شيء من خلال المفـاوضات في سبيل الوفـاء بالشروط التي جرى عـرضها من قبل،وازداد وضـع فردريك ضعفـاً بمعرفـة السلطـان بالصراع فيما بين الامبراطـور والبـابا، ولإنعـدام الوحـدة داخل المعسكـر المسيحي، وأكثر مـن هذا لقـد كتب غـريغوري مباشرة إلى السلطان يطلـب منه أن لايقدم أية تنـازلات إلى فردريك، لهذا كـان ما تمكنـت الحملة الصليبيـة من تحقيقـه قـد جاء بـالدرجـة الأولى محصلة لـلإحترام المتبادل الـذي قام بين الامبراطـور والسلطان، وبفضـل الصداقة التـي بذل فخر الديـن جهوده في سبيل إقامتهـا، وتأسيسها فيما بين الحاكمين المتشابهين بالعقلية.

وانتقل الكـامل مـن نابلـس إلى غزة ولحقـه فردريـك باتجاه الجنـوب، حيـث زحـف إلى يافـا في تشريـن الثـاني لعام.١٢٢٨، ونتيجـة لإصـدار البطريرك جيرولد حـرماناً كنسياً ضد الامبراطور، رفض مقـدما الاسبتارية

والداوية الزحف تحت الراية الامبراطوريـة، لكنهما قاما بعمل تسوية، بأن زحفـا على بعد مسيرة يـوم واحـد من جيش فردريـك وأعلنـا أنهما كانـا لايخدمـان في جيـش الامبراطـور بل في جيـش المسيـح، وشكـل الجيـش الصليبي وإن كان صغيراً شيئـاً مـن الرعـب بالنسبـة للملـك الكامـل، وصحيح أن الصليبيين كان عـددهم صغيراً بالفعل، ولايمكنهـم تشكيل خطر حقيقي على مصر، لقـد امتلكوا من القوة ما فيه الكفـاية لأن يجعلوا السلطان غير قادر على تجاهلهـم، وأيضاً غير قادر على متابعـة حروبه في سوريـة حيث كان يتـولى تقليص حجـم ممتلكات الدمشقيين، وقـد أمل الكامل— لبعـض الوقت— بأن يعجز فردريـك عن البقاء في فلسطين، وأنه سوف يرغم على العودة إلى الغـرب دون أن يتمكن من إنجاز ما أراد إنجازه في إعـادة الاستيلاء على القدس، وصحيح أنـه قدر تقديراً صـائباً رغبة الامبراطـور في العودة إلى ايطـاليا، هـو لم يقم تقـديراً كـافياً لإصرار فردريـك على ان يحمل معه بعض النتـائج القيمة لحملته، حتـى لايظهر بمظهـر المخفق في أعين العـالم المسيحي، وقـد التجـأ كل مـن فردريـك وغـريغوري إلى الـرأي العام، وكـان على فردريـك العودة مـع ثمار للنصر كيفما كـان قد تـم الحصـول عليها، ونتيجـة لهذا بينما سعـى الكامـل إلى إطـالة أمـد المفاوضـات، تمسك فـردريك بـإصراره على تسليمه القـدس والبلدات الفلسطينيـة الأخرى، وكـان موقفه لبعـض الوقـت خطيراً، فقد أخرت العـواصف الاسطول الذي كـان يحمل الميرة، ولم يستطع الـوصول إلى يافا لبعض الوقت الذي مضى بعـد وصول الجيش، وعانى الناس من نقص الميرة والإمـدادات، وأصبح الامبراطور يـائساً، لكن الحظ ابتسـم له أخيراً، فقد قـام الملك الناصر داود— الأمير الـدمشقي المخلـوع— بغزو سورية بغيـة إعادة الاستيلاء على ممتلكات أبيه التـي كان عماه يحاربان في سبيلها، وقد حـوصر في دمشق من قبل الأشرف، وبـات الآن هناك خطر يواجه الكـامل فإما أن يتمكن النـاصر داود من استرداد أراضيه ، أو أن يقرر الأشرف احتـلال أ كثر مـن حصته، وصـار الآن على الكامـل حتى

يحافظ على مكتسباته في سورية أن يبذل غاية جهده حتى يتحرر من الانشغال بالحملة الصليبية، وذلك لكي يتدخل بشكل فعال في الحرب السورية، ونتيجة لهذا كان فخر الدين قادراً على إعداد معاهدة تسلم بموجبها فردريك أكثر مما كان يتوقعه، ويمكنه ضمانة،، مما أعطاه القدرة على العودة إلى الوطن وهو جالب إليه« سلام مع مجد»، ويروى بأن الامبراطور قد قال لفخر الدين: «لولا أن أخاف من انكسار جاهي في عيون الفرنجة، ما كلفت السلطان شيئاً من ذلك»، في حين دافع الكامل عن المعاهدة بقوله: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الاسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»، وفي الوقت الذي انتقدت فيه المعاهدة من كلا الطرفين، توفرت لدى المسلمين أرضية أفضل للشكوى والنقد.

وكانت معاهدة يافا هذه التي أبرمت أخيراً في ١٨— شباط لعام ١٢٢٩ عبارة عن اتفاقية شخصية بين السلطان والامبراطور، وقد أعدت بشكل سري، فما من واحد من الأعيان السوريين استشير لدى إعدادها، وقد غضبوا حيال إبرامها، وقد رست تماماً واعتمدت على النوايا الطيبة لكل من السلطان والامبراطور من أجل فرضها وتطبيقها، وقد عقدت من أجل خاطر فردريك شخصياً، وليس لصالح مملكة القدس، أو الكنيسة المسيحية، فقد كانت هذه غاضبة حسبما مثلها رجال الدين، وكانت المواد الاساسية للمعاهدة كما يلي:

١— يسلم السلطان إلى فردريك أو نوابه مدينة القدس.

٢— تبقى منطقة المسجد بما في ذلك قبة الصخرة بيد المسلمين، الذين يتمتعون بالحرية في ممارسة شعائرهم هناك دونما إعاقة.

٣— للمسلمين الحق بحرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديانتهم.

٤— يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة، شرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد بيت الله.

٥— يمتلك المسلمون محكمتهم الخاصة التي إليها يتقاضون.

٦— وعد الامبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب قد تشن ضد السلطان، وأن لايساعد أحداً ضده.

٧— سوف يمنع الامبراطور أي واحد من رعاياه من إثارة حرب ضد السلطان، ويعيق أي إنسان قد يقترح فعل ذلك.

٨— تعهد الامبراطور شخصيًا بفرض شروط المعاهدة، وأن يمنع أي خرق للهدنة.

٩— تترك طرابلس وأنطاكية وطرطوس وقلاع : صافيتا، والمرقب والكرك (قلاع كانت عائدة لكل من الداوية والاسبتارية) كما هي، حسبما كانت (أي هي غير مشمولة بالمعاهدة)، وينبغي على الامبراطور أن يمنع أي من رعاياه: من سوريين وآخرين، من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان.

١٠— ينبغي إعادة القديس جورج (اللد) والقرى القائمة بينها وبين القدس إلى الامبراطور.

١١— ينبغي إعادة الناصرة والقرى الواقعة بينها وبين عكا إلى الامبراطور.

١٢— ينبغي إعادة تبنين مع أراضيها وقراها.

١٣— ينبغي إعادة صيدا وأحوازها.

١٤— ينبغي إعادة بيت لحم والقرى التي بينها وبين القدس.

١٥— يسمح بإعادة بناء أسوار القدس، ويافا، وقيسارية والقرين

(قلعة فرسان التيوتون) من قبل المسيحيين (ذكر المقريزي أن مدينة القدس لم تحصن).

١٦ — لايسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، وإعادة بناء أي حصن قديم طوال أيام الهدنة.

١٧ — سوف يكون هناك تبادل كامل وإعادة للأسرى، بما في ذلك الذين أسروا في حمله دمياط.

١٨ — مدة الهدنة عشر سنوات، وخمسة أشهر، وأربعين يوما.

ومع أن المعاهدة قد حققت لفرنجة سورية أكثر مما حققته أية حملة صليبية أخرى منذ الحملة الأولى، ومع أنها لاقت القبول من قبل السواد الأعظم من الجيش الصليبي، ومن شعب البلاد، كانت غير مقبولة لدى البطريرك جيرولد مع رجال الدين، وانتقدت المعاهدة بتسويغ أعظم من قبل المسلمين، الذين شعروا بأن السلطان كان مسرفاً جداً بكرمه، ورفض الناصر داود بشكل خاص القبول بأداة تصرف بموجبها عمه وأعطى مدناً، شعر بأنها تعود إليه شرعاً، واستغلت هذه الحقيقة من البطريرك جيرولد، الذي ألح على رفض داود واتخذ منه حجة للمعارضة من الجانب المسيحي، كما وعارض البطريرك المعاهدة بشكل رئيسي لأنها سمحت للمسلمين بالعبادة في القدس، وجعلت الامبراطور يتعهد بعدم السماح لأي صليبي بغزو مصر، وهذه الفقرة رأها رجال الدين وعدّوها على أنها أكثر الفقرات لامسيحية.

ولم يؤثر رفض البطريرك والناصر داود لقبول المعاهدة أي شيء على الاطلاق، وذلك فيما يتعلق بفردريك والكامل، وكان الامبراطور الآن قلقاً جداً — أما والمعاهدة قد أبرمت — لكي ينهي أعماله ويعود إلى الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧ — آذار، وجرى في اليوم التالي — أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع

الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع المعاهدة— تتويجه لنفسه بشكل مهيب ملكاً على القدس، وكان ذلك في كنيسة الضريح المقدس، ورفض عدد كبير من البارونات إتباع الامبراطور إلى القدس، وكان ذلك بناء على أوامر من البطريرك، وعادوا إلى عكا، مع أن الصليبيين من الغرب، وفرسان التيوتون وعدد كبير من البارونات المحليين قد رافقوه، وبما أن الامبراطور كان ما يزال محروماً فقد جرى احتفال التتويج بدون موافقة البابوية، مع أن رئيس أساقفة كابواCapual وبالرمو وكذلك عدد كبير من رجال الدين الأدنى مرتبة كانوا بين الحضور، ووضع وقتذاك تاج القدس فوق المذبح في الكنيسة، ومن على المذبح تناوله الامبراطور نفسه، ووضعه على رأسه، ثم تكلم فون سالزا باسم الامبراطور، وتوجه إلى الشعب مؤكداً له أن رغبته العظيمة هي التصالح مع البابا وإقامة سلام معه، وسوغ مواقفه بالنسبة للتهم التي صدرت ضده.

ثم مالبث الاحتفال أن تحول إلى حزن، فبعد التتويج بأمد وجيز قام رئيس أساقفة قيسارية، بناء على أوامر من البطريرك، فوضع الكنيسة والأماكن المقدسة في المدينة تحت الحرمان، وكانت هذه بالحقيقة ضربة مؤلمة للحجاج الذين ارتحلوا إلى المدينة المقدسة، فهم قد حرموا الآن من المنافع الروحية التي توفرت هناك، لابل أكثر من هذا، لقد باتوا عرضة للعقوبة لوجودهم هناك، وبعد ما قام فردريك بكل سرعة ببعض الترتيبات الدفاعية عن المدينة المحرومة، انسحب منها، وزحف عائداً إلى يافا، ثم قام في ٢٥— آذار، أي بعد اسبوع واحد تماما مضى على تتويجه بالعودة إلى عكا.

وأمضى الامبراطور شهر نيسان في عكا، حيث كان لديه عدداً من القضايا عليه ايجاد حل لها قبل أن يغادر البلاد، وتصدر هذه القضايا من

حيث الأهمية ما كان ضد البطريرك وضد الداوية، الذين اتهمهم بأنهم حاولوا قتله بوساطة كمين نصبوه له بناء على طلب من البابا، وقد حاصر لمدة خمسة أيام البطريرك والداوية في بيوتهم في عكا، حيث نصب آلات الحرب، وقاد عمليات حصار نظامية ضدهم، ورد البطريرك على هذا بفرض حرمان لاهوتي على الذين تولوا مساعدة الامبراطور، ووقفوا ضده وضد الداوية، وبشر الرهبان بمضمون هذا المرسوم، وعليهم نزل غضب الامبراطور، الذي أمر بجرهم من فوق منابرهم، وضربهم في شوارع المدينة، مثل اللصوص العموميين، وقام الامبراطور بالوقت نفسه بربط الفرسان التيوتون والبيازنة به أكثر، وجعلهم متعلقين به شخصيا عن طريق عدد من مراسيم المنح الكريمة التي صدرت في عكا في نيسان عام ١٢٢٩، وباع بالوقت نفسه وكالة قبرص إلى عموري برلياس ومعه رفاقه الأربعة، وعين بالين صاحب صيدا، وغارنيير الألماني وكيلين له في سورية، وقد أنهى ترتيباته بكل سرعة، ذلك أنه كان قلقا جداً ومتعجلاً للعودة إلى إيطاليا، حيث كان الجيش البابوي تحت قيادة جون دي بريين يقوم بغزو أبوليا وكابوا، وأقلع الامبراطور يريد الوطن في الاول من أيار، على ظهر اسطول، كان الكونت هنري صاحب مالطا قد جلبه للتو من الغرب.

وتركت مغادرة فردريك لعكا الأوضاع في سورية والمشاكل فيها دونما حلول، حيث مابرح البطريرك مع رجال الدين يرفضون القبول بمعاهدته مع مصر، وكان الداوية معادين للامبراطور بشكل علني، ولم تعرض قضية الايبليني للمحاكمة في المحكمة العليا، وهكذا بقيت دونما حسم، وكان وكلاء فردريك في قبرص يسعون جاهدين من أجل تدمير ثروة الإيبلينيين وقوتهم في الجزيرة، وكانت الحملة الصليبية قد انتهت، لكن مؤثراتها على الدول اللاتينية لما وراء البحار لم يكن الشعور بها قد بدأ تماما.

ج— الحرب الامبراطورية الايبلينية حتى طرد الإمبراطوريين من قبرص، ١٢٢٩— ١٢٣٣.

كان الزمان الذي جاء مباشرة إثر عودة فردريك من الحملة الصليبية موائماً جداً لسعد الامبراطور ولصالح قضيته، فقد تمكن في الغرب بنجاح من طرد الجيوش البابوية من المملكة الايطالية، ومن ثم نقل الحرب إلى داخل الدول البابوية، وفي تلك الأثناء تمكن بالين صاحب صيدا، الذي كان وكيله، من إحباط محاولة قام بها بعض البداة من المسلمين للاستيلاء على القدس، وضمن القبول بمعاهدة يافا من سلطان دمشق، وجرت مصادرة ممتلكات الداوية في صقلية، وأرغموا في الشرق على التخلي عن مطالبهم نحوصيدا وصور، وكان الحزب المعادي للإمبراطور قد اتخذ وضع الهجوم بعد وقت قصير من مغادرة الامبراطور، لكن محاولته لخلع الامبراطور من عرش القدس قد أخفقت، وأعلن بارونات المحكمة العليا عن أنفسهم أنهم تابعين للملك كونراد ولفردريك والده، وتركزت المحاولة حول شخصية أليس صاحبة قبرص التي كانت ابنة ايزابل صاحبة القدس وهنري دي شامبين، فقد مثلت أمام المحكمة تطالب بعرش القدس، على أساس أنها أقرب أقرباء الملكة ايزابل المتوفاة، وقد أقرت بأن كونراد كان ملكاً شرعياً، لكنها أصرت على أنه لم يأت للمطالبة بميراثه في مدة سنة ويوم بعد تسلمه لهذا الميراث، وعلى هذا لقد فقد جميع حقوقه به، وعليه انتقل الميراث إليها،ولم ينكر البارونات بأن القوانين تتطلب وجوب قدوم كونراد إلى سورية للمطالبة بعرشه، لكنهم رفضوا القبول بادعاءات أليس، وعوضاً عن ذلك بعثوا بسفارة إلى فردريك تتألف من جون بيليول Bailleul، وغيوفري لى تور، للطلب بوجوب قدوم كونراد إلى عكا في أقرب وقت ممكن، وغادرت السفارة عكا مع نهاية عام ١٢٢٩، ووصلت إلى فردريك في فوغيا Fog-gia في أيار لعام ١٢٣٠، ووعد الامبراطور السفارة بدون لبس بأنه

سوف يرسل كونراد في أقرب وقت ممكن ،لكن فوق ذلك لم تحصل منه على أي شيء، وتابع في الوقت نفسه وكلاء الامبراطور حكمهم للمملكة، وعلى العموم زادت حكمتهم في إدارتهم من شعبية الحكومة الامبراطورية.

لكن إذا كان الوكلاء الامبراطوريون قد حكموا بعقلانية ، ونالوا الشعبية في سورية، على عكسهم تماما كان حكم البارونات الخمسة الذين ضمنوا الوكالة في قبرص من الامبراطور، ففي مسعاهم لتأمين المبالغ الضرورية لدفعها ثمناً لوكالتهم، فرضوا ضرائب ثقيلة على البلاد كلها، وسلبوا بشكل خاص ممتلكات الإيبلينيين وأصدقائهم، حيث أملوا بإبعادهم نهائياً عن قبرص، وحدث في حزيران ١٢٢٩، أن جون صاحب بيروت عاد من سورية إلى قبرص، وأثار البلاد ضد الوكلاء، وحدثت معركة قرب نيقوسيا في ١٤— تموز، هزم فيها الإيبليني مع مؤيديه برلياس ورفاقه، وأرغمهم على الالتجاء إلى القلاع الشمالية: في ديودامور، وكنتارا، وسيرينا، وبعد أمد وجيز استولى الايبليني على كنتارا وسيرينا، ثم ألقى الحصار على الوكلاء في ديودامور، ومن تموز ١٢٢٩ حتى ما بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، أبقى صاحب بيروت وأولاده الوكلاء تحت الحصار هناك، وأخيراً استسلموا وتخلوا عن شخص الملك هنري وعن القلاع، وتنازلوا عن كل ادعاء لهم بالوكالة، وهذه الحرب هي التي حدثنا عنها فيليب دي نوفار بالتفصيل، وهي التي فيها تناول بالهجاء رينارد.

وفي الوقت نفسه تابع فردريك بنجاح حملاته ضد الجيوش البابوية إلى حد أن الكرسي المقدس بات جاهزاً للسلام، ووصل الصراع إلى النهاية في تموز ١٢٣٠، بسلام سان جرمانو، وهدأت المشاكل الإيطالية، وجرى استقبال فردريك ثانية في الكنيسة بمثابة « الابن العزيز في المسيح»، وذلك من قبل البابا العجوز، وألغي الحرمان الكنسي، وصدرت الاوامر

إلى بطريرك القدس بسحب الحظر الذي فرضه، وأن يقبل معاهدة يافا، وفي الوقت الذي أضعف فيه هذا السحب للتأييد البابوي الحزب المضاد للامبراطور كثيراً جداً،لكنه لم ينه مقاومته ولم يحطمها، وتابع البطريرك والداوية مع الإيبلينيين مقاومتهم للوكلاء الامبراطوريين، وفي شباط عام ١٢٣١، كتب البابا إلى الداوية يطلب منهم الخضوع، لأن الامبراطور قد تشكى ضدهم في أنهم يقاومون أوامر وكلائه، ويثيرون الحرب ضد شروط الهدنة مع مصر، وأعدّ الامبراطور في الوقت نفسه حملة لإرسالها إلى سورية، حتى تقيم حكمه هناك في البلاد بشكل راسخ، ولتتولى القضاء على العصيان، وأمر وكلاءه بمصادرة أراضي القادة : جون صاحب بيروت، وولدي أخيه صاحبي: يافا وقيسارية، وصاحب طبرية .

ووضع الجيش الذي أرسله الامبراطور إلى سورية تحت إمرة رتشارد فيلنغر، الذي كان المارشال الامبراطوري،وقد أرسل على دفعتين، وتألفت الدفعة الأولى من ثمان عشرة سفينة تحت إمرة أسقف ملفي Melfi، وقد وصلت إلى رأس غافاتا Gavata قرب ليماسول في أيلول ١٢٣١، وكان الملك هنري في كيتي Kiti(تشيتي Chiti قرب لارنكا) مع صاحب بيروت، وإليه إلى هناك جاء أسقف ملفي، وهو جون دي بيليول، الذي كان سفير المحكمة العليا إلى فردريك، وكذلك أيمون الألماني حفيد الوكيل غارنيير الألماني، وقد طلبا باسم الامبراطور من الملك هنري أن يقوم بطرد جون دي إيبلين من مملكته ومعه أقاربه، وعلى هذا رد الملك بلسان وليم فيزكونت بأنه لا يستطيع طرد الإيبليني لأنه تابعه، وهو على هذا يستحق حمايته، أما فيما يتعلق بأقاربه، فإنه ـ أي الملك هنري ـ حفيد للإيبليني، وبالتالي لايمكنه نفي جميع الإيبلينيين من ممالكه، ومع هذا الرفض غادر السفيران الامبراطوريان، وبما أنهما كانا غير قادرين على إرساء أسطولهما في قبرص، لوجود قوة كبيرة جداً كان قد حشدها هناك صاحب بيروت، وعسكر بها عند ليماسول، فقد أبحرا

باتجاه بيروت، حيث استوليا على البلدة وشرعا في حصار القلعة، وعندما وصل فيلنغر مع الخمس عشرة سفينة المتبقية من الأسطول، اتجه مباشرة إلى بيروت، ووقعت القلعة الآن تحت الحصار الشديد، ثم إنه ترك شطراً من قواته تحت قيادة أخيه لوثير لمتابعة حصار قلعة بيروت، وتوجه هو إلى صور، التي استسلمت له، ثم ترك أخاه الآخر واسمه هنري، مسؤولاً عن القيادة هناك، ثم تابع زحفه إلى عكا، حيث تولى جمع المحكمة العليا، وقدم مراسيم من الامبراطور تعينه بموجبها وكيلاً على جميع مملكة القدس .

وتم قبول مراسيم اعتماد فيلنغر وتعيينه من قبل بارونات المحكمة العليا من دون سؤال،وبدأ المارشال حكمه في القدس بالالتفات نحو موضوع استسلام بيروت، وكانت هذه حركة سيئة الفأل، لأن الاستيلاء على بيروت كان معناه إلغاء لأحكام القانون الأكثر رعاية، أي قانون القدس حيث قضى أن لايعد إقطاع التابع غير شرعي إلا بموجب قرار المحكمة العليا، ولايجوز لإرادة سيد واحد إعلان اتخاذ مثل هذا الإجراء، وعندما بات واضحاً للبارونات أن فيلنغر ليست لديه نية في عرض القضية عليهم، أدركوا على الفور مدى المخاطر على حرياتهم التي سوف يمثلها حكم الوكيل، وكان بالين صاحب صيدا، وهو الوكيل السالف، وقائد الحزب الامبراطوري في سورية، وهو المتحدث باسم البارونات في الطلب من المارشال إخضاع القضية لقرار المحكمة، والالتزام بقوانين البلاد، وطلب فيلنغر إعطاءه الوقت ليتشاور مع القادة الآخرين من حزبه الذين كانوا في بيروت، وعاد إلى الحصار، وأرسلت إليه وفادة إلى هناك، وذلك حسبما طلب، وذلك حتى يسلم جوابه على مطالب البارونات، لكن المارشال رفض التخلي عن أي مطلب، مدعياً أنه كان يطيع أوامر الامبراطور، واقترح أنهم إذا أرادوا عرض قضيتهم واستئنافها يتوجب عليهم إرسال ممثلين عنهم إلى الامبراطور نفسه، وهو

بلطفه لاشك سوف يعطيهم العدل، ومن أجل حمل هذه الدعوى ذهب بالين صاحب صيدا،ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني في شتاء عام ١٢٣١ إلى إيطاليا حيث كانوا جميعاً حضوراً في كانون الأول يشهدون إصدار فردريك لمرسوم في رافينا .

وكان جون دي إيبلين في الوقت نفسه يحشد القوات للتفريج عن القلعة المحاصرة، وضمان عون ملك قبرص، وقد بدل هذا سمة الحرب إلى حد ما، لأن دخول مملكة قبرص غيّر ما كان ثورة بارونات في صراع شبه محلي، وقام بارونات عكا وسكانها، وقد تحرروا من التأثير المعيق لكل من بالين ويودس، ونظموا أنفسهم داخل «كيمونة متعاهدة» وقد منحوا مقدميتها لجون دي إيبلين، وعهدوا بأنفسهم بالوقوف إلى جانبه، وفي كانون ثاني ١٢٣١، اجتمع جيش الإيبليني مع جيش القبارصة في فيماغوستا، وعبروا في الربيع التالي إلى سورية للتفريج عن بيروت، ونزلت القوات في ميناء القسطلان قرب في طرابلس ومن ثم زحفت باتجاه الجنوب، وتخلى برلياس وأعوانه عن الجانب الامبراطوري، وبادروا مسرعين لتقوية القوات التي كانت في بيروت وكانت تتولى حصار القلعة، وزحف الإيبليني والملك هنري على بيروت، واتخذا مكاناً لهما خارج المدينة، حيث أرسلا من هناك المساعدة إلى الذين كانوا في داخل القلعة،وعندما بات الإيبليني قانعاً بأن القلعة تلقت ما يكفيها من نجدات، وليس هناك من خطر مباشر عليها يهددها بالسقوط، قام بتقسيم قواته إلى قسمين، فأرسل قسماً تحت قيادة ابنه الأكبر بالين إلى طرابلس في محاولة مخفقة لكسب أمير طرابلس ـ أنطاكية إلى جانبهم، بينما قاد هو نفسه المتبقي من الجيش وذهب إلى عكا، وتلقى هناك في نيسان ١٢٣١ قسم«الكومونة»، واستولى على الأسطول الامبراطوري الذي كان راسياً في الميناء، واستهدف فيلنغر في الوقت نفسه إحداث البلبلة بإرسال بر لياس وبعضاً من رجاله إلى قبرص، حيث عاثوا فساداً في

البلاد التي تركها الإيبليني بدون حماية، واستولوا على قلاع الجزيرة، وفقط قلعتا: ديودامور وبوفافينتو Buffavento صمدتا ضدهم، ولكي يقوم بعمل انتقامي خطط الإيبليني لمهاجمة القاعدة الإمبراطورية في صور، وهكذا اضطر فيلنغر مرغماً لسحب قواته من حصار بيروت وذلك بغية تحصين المدينة، وزحف القبارصة شمالاً من عكا حتى قلعة ايمبرت، حيث حدث بعض التأخير سببه بطريرك أنطاكية ، الذي اجتذب الإيبليني للعودة إلى عكا، مع وعود بالمصالحة حيث ادعى بأنه يمتلك السلطة لتأمين ذلك وبحثه، وترك القبارصة معسكرهم نهباً للفوضى،وفوجئوا وهم على حين غرة حينها تعرضوا ليلة ٣ ـ ٤ مايس إلى هجوم مفاجيء جاء من صور، وهرب القبارصة بشكل سيء جداً، ونجا الملك هنري بعدما أصيب بالرعب، وتشتت معظم الفرسان في المنطقة المحيطة، وتشجع فيلنغر بهذا النصر والنجاح في المعركة، وبعث على الفور بقواته الرئيسية إلى قبرص لانجاز احتلال الجزيرة بالكامل .

وعندما سمع الإيبليني بالمعركة المأساوية، بادر بالتوجه إلى قلعة إيمبرت، حيث تولى جمع قواته الممزقة، وقام «بتراجع استراتيجي» إلى عكا، وأبرم هناك اتفاقاً مع الجنويين الذين زودوه ورجاله بالسفن، كما حصل القبارصة على مزيد من الإمدادات، فسلح رجاله للقيام بهجوم معاكس على قبرص، وعبر إلى هناك إلى فياغوستا، وكان ذلك في نهاية مايس، واستولى على فياغوستا على حين غرة، بوساطة هجوم مفاجيء، ثم سارع القبارصة بالزحف نحو نيقوسيا بحثاً عن الأعداء، الذين كانوا مشغولين بحصار ديودامور، وانتقم هناك أغريدية قبرص لأنفسهم ولهزيمة قلعة إيمبرت ، وأنزلوا هزيمة ساحقة برجال الحزب الامبراطوري وأرغموهم على الدخول إلى قلعة سيرينا، واحتاج إعادة احتلال الجزيرة من الإيبليني عدة أيام فقط، واستقبله السكان القبارصة مع رجاله استقبال المحررين، مع أن رجال الحزب الامبراطوري امتلكوا بعض

المتعاطفين في الجزيرة، وترك فيلنغر فيليب شنارت Chenart وولتر دي أكوفيفا Acquaviva مسؤولين عن القيادة في سيرينا التي كانت تحت الحصار الشديد من قبل القبارصة، وتوجه ينشد المساعدة في أرمينيا، وأنطاكية وطرابلس، ولم ينجح فيلنغر في ضمان النجدات، وخشي من أن تستهلك الحامية الكبيرة في سيرينا المؤن الموجودة في المدينة مما يسبب سقوطها السريع، لهذا انسحب ومعه برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وبعدما توقف في صور ليتفقد حاميته هناك، ذهب إلى أبوليا ليطلب العون من الامبراطور، وفي الوقت نفسه شدد القبارصة الحصار على سيرينا، التي قطعت الأمل من وصول أية نجدات، فاستسلمت وفق شروط مشرفة في ربيع سنة ١٢٣٣، ويشكل هذا التفريج عن بيروت وإعادة احتلال قبرص الحلقات الأساسية الثانية من الحوادث التي جاءت في تاريخ فيليب دي نوفار.

وفي الوقت الذي كان فيه فيلنغر يسعى بدون نجاح كبير، لضمان السيطرة الإمبراطورية على سورية بقوة السلاح وكذلك على قبرص، كان البابا يسعى لأن يزيل واحداً من أسباب التمزق على الأقل، ولم يتوقف، في الوقت نفسه، البطريرك جيرولد الذي كان بطريرك القدس، عن معارضة مطامح الامبراطور، ومع أنه لم يقم بأي عمل معلن في مقاومة وكيل الامبراطور، لقد قدم المساعدة المعنوية للحزب الإيبليني، واحتج فردريك بشكل جدي على هذا، وقام غريغوري الذي كان مايزال راغباً بشدة في الحفاظ على الصلح والسلام مع الامبراطور، بالكتابة إلى جيرولد يطلب منه تقديم الطاعة إلى الامبراطور التي هي واجبه، وأن يتوقف عن مساعدة الذين تمردوا عليه، لكن البطريرك لم يستجب تمام الاستجابة، وهكذا لم يتوصل الامبراطور إلى الشعور بالرضى، وبناء عليه كتب البابا ثانية في تموز إلى البطريرك جيرولد يأمره بالقدوم على الفور إلى روما، جالباً معه من يمثل كل من الداوية

والاسبتارية، حتى يمكنهم إيجاد حل للقضايا التي تثير الاضطراب في القدس،وعندما بدا جيرولد متردداًبشأن الذهاب، كتب غريغوري إليه من جديد في ٢٦ ـ تموز، حيث انتزع منه وظيفته كنائب للبابا ما لم يقدم إلى روما في العبور المقبل، وأضفي المنصب الشرعي في سورية على ألبيرت بطريرك أنطاكية الذي كان منحازاً لفردريك، وقد وجهت إلية التعليمات بالتشاور مع مقدمي منظمات الفرسان في سبيل استعادة السلام، وإعادة العصاة إلى حظيرة الطاعة .

وصحيح أن ألبيرت كان من قبل يسعى في سبيل إعادة السلام قبل معركة قصر إيمبرت، بدا الآن غير قادر على تأمين أي حل لقضية الساعة آنذاك، وهكذا باشر فردريك بنفسه العمل في سبيل الحل، فلقد اعتقد أن بإمكانه نيل رضا بارونات سورية بتقديمه لبعض التنازلات لهم فيما يتعلق بقضية الوكيل، وقد بعث برسائل على يد أسقف صيدا،مخولاً تعيين وكيل جديد في عكا، ورشح لهذاالمنصب واحداً اسمه فيليب دي مو غاستلMaugastel ، وكان صديقاً قريب الصلة من فيلنغر الذي كان مرفوضاً كلياً لدى معظم البارونات، ومع أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد آثرا هذا الاقتراح، وسعيا في سبيل تأمين قبول فعلي من قبل المحكمة العليا في عكا، لقد كانت المعارضة قوية جداً، وقد قادها اللورد الشاب لقيسارية، مع مؤيديْ الإيبلينيين، وبدأ شعب عكا بالشغب، مما عطل اجتماع المحكمة وجعل أسقف صيدا مع إثنين من الوكلاء السالفين يفرون طلباً للسلامة، وقوبلت محاولة الامبراطور بالتصالح برفض حاد، ونال حزب الإيبلينيين نصراً نوعياً، إلى حد أن المحكمة العليا قد أعلنت أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد هما الوكيلين الصحيحين للملك كونراد، وكانت النظرية التي رست وراء هذا الاجراء هي أنهما قد انتخبا من قبل المحكمة إثر وفاة الملكة إيزابل، وزيادة على هذاقد جرى تعيينهما من قبل فردريك شخصياً في المحكمة

العليا، وأن الذي إتخذ إجراءاً في المحكمة يمكن نقضه هناك فقط، ثم إن التعيين بوساطة الرسائل غير مقبول، وسيبقى التعيين القديم قائماً حتى يأتي كونراد شخصياً، ويعين وكلاء جدد، وكان هذا الإجراء عظيم القيمة بالنسبة للإيبلينيين ذلك أنه فصل باليان ويودس عن فيلنغر وحزب الامبراطور في صور، وربط مصالحهما جزئياً مع ثوار القبارصة ، وترسخ وضع جون دي إيبلين في منصبه مقدماً لـ «كومونة» عكا.

ومع نهاية سنة ١٢٣٣كان وضع أعوان الحزب الامبراطوري في سورية سيئاً جداً، وجاء هذا محصلة لطرد قواتهم طرداً تاماً من قبرص، ولأن عكا أعلنت الثورة وانتظمت داخل«كومونة» ثورية، وبسبب أن المعتدلين الذين أيدوا بالأصل الجانب الامبراطوري قد باتوا غرباء عن الحامية الامبراطورية وخضعوا لحزب الثوار، وكذلك بسبب رفض التسوية التي عرضها الامبراطور، يضاف إلى ذلك النقص المتزايد في الموارد المادية، وحافظت حامية صور على إخلاصها للامبراطور،وبقي ولاته يحكمون في القدس وفي عسقلان، لكن مع هذا لئن لم تكن القوات الامبراطورية قد طردت نهائياً من سورية، لقد كان من الضروري إقامة سلام ما في الحال.

د — *الصراع مع صور، ١٢٣٤ ـ ١٢٤٣*

ومع أن آفاق المستقبل للامبراطوريين كانت في أدنى حدودها مع بداية سنة ١٢٣٤، لم يكن كل شيء قد ضاع إذا كان أمكن إقامة سلام دائم، وعمل ألبيرت بطريرك أنطاكية بنشاط ومعه هيرمان فون سالزا، الذي أعيد إلى سورية لمساعدة النائب البابوي، في تأمين معاهدة سلام مقبولة من الحزب المعتدل، الذي بقي مخلصاً للملك كونراد لكنه معادٍ لفيلنغر، وقد ضم هذا الحزب أكثرية بارونات المحكمة العليا، ونتيجة لذلك تم في أوائل سنة ١٢٣٤ إقامة سلام مبدئي بين يودس دي مونتبليارد والبارونات وسكان عكا من جانب، وفون سالزا والنائب البابوي من الجانب الآخر، وقد أرسل مشروع هذا السلام إلى البابا وإلى

الامبراطور للموافقة عليه، ووافق غـريغوري في ٢٢ ـ آذار ـ لعام ١٢٣٤، وفي آب التالي بعـث فردريـك مع البـابا رئيـس الأساقفـة تيري صاحـب رافينا بمثابة نـائب خاص ليتولى إبرام الاتفاق في سوريـة، وأرسل البابا في الوقت نفسه رسـالة إلى جون دي إيبلين يأمره فيها بإيقـاف عصيانه ضد الامبراطور، وقد طلـب منه إقامة سـلام على الفور، لكن الإيبليني مـا كان ليهزم بمجرد أمـر بابوي، ونجد في هذا المجـال وفي مجالات أخرى تشابهاً مدهشاً فيها بين الإيبليـنـي والقديس لويس صـاحب فرنسا، ففـي الوقت الذي كـانا فيه متدينين شخصيـاً بعمق، لم يسمح أي منهما للكنيســة بأن تملي عليه ماهو مضاد لما أملاه عليه ضميره وحسن تدبره .

ونتيجة لهذا مـرت السنة وانتهت دون قبول الحزب الثـائر للسلام، وفي تموز عـام ١٢٣٥ كتب البـابـا غريغـوري ثـانية الى الإيبليـنـي طـالباً منـه الخضوع، وقال البـابا بأن الإيبليني كـان يضلل الناس في عكا ويبعـدهم عن خضوعهم الحقيقي للامبراطور، وأنه كـان يخطط لخيانة أعظم بالهجوم على صور، وهـذا ما ينبغـي له عدم القيـام به بل يتـوجب عليـه الخضوع لـلامبراطور، وأن يقيـم سلامـاً يحترم حقوق فـردريك، وفي الـوقت نفسـه أرسلت رسائل إلى عكـا تأمرهم بعـدم مسايرة الإيبليني في خيـانته، وإلى الداوية تطلـب منهم مساعدة فيلنغر ضـد الإيبليني والثوار الذيـن كانوا يخططون لمهـاجمة صور، هـذا ولم يكن غـريغوري راغبـاً في اتخاذ إجراءات قاسيـة جداً ضد عكـا، وعندما وضـع رئيس الأساقفـة تيري المدينة تحت الحرمان الكنسي في محاولة منـه لفرض الطاعة، ألغى البـابا الحرمان، على أساس أن أهـالي عكا كانـوا محاطين بعدد مـن العقائد الأصوليـة، وهكذا من الممكـن خسارتهم خسارة أبديـة بالنسبة للكنيســة الرومانية في حـالة فصلهم وإبعادهم عن جماعتهـم بهذه الوسيلة، ومعنى هذا أن المسيحيين اللاتين فيها وراء البحار قـد يجدون ولاءً جديداً في إحدى العقـائد الأكثر لطفـاً، وشرقية أقـل مـركزيـة، غير مثيرة دومـاً لقسوة البـابـا نحو أخطـاء

الكاثوليك السوريين، ووضع غريغوري بالوقت نفسه عدداً من الحلول، فكر بأنها ستكون موائمة كقاعدة لسلام دائم : وبموجب ذلك كان سيعترف بكل من فردريك وكونراد على أنهما الحاكمين الشرعيين للقدس، وبالتالي سيمتلكان جميع السلطات التي امتلكاها قبل بداية الحرب، بما في ذلك حق تعيين الموظفين الرسميين، والإشراف على القلاع، وفرض الضرائب، وغير ذلك، وقد توجب عليهما إطاعة القوانين والعادات القديمة للمملكة،كما توجب حل«كومونة» عكا، وتهديم برج ناقوسها، وإلغاء مجالسها ومجامعها التي انتخبت بعد العصيان وحلها، كما ينبغي إعادة فيلنغر إلى وظيفته كوكيل حتى بداية أول آذار المقبل، ففي ذلك الوقت ينبغي تعيين وكيل جديد، وسبب ذلك أن فيلنغر قد تعرض للتشكيك به بشكل غير عادل من قبل أهل عكا، وينبغي في الوقت نفسه إبرام إتفاق سلام مع الملك هنري ملك قبرص، وتكفل البابا بتأمين أخذ قبرص بالشروط المقترحة والموافقة عليها، وقوبل هذا البرنامج بشيء من المعارضة من قبل ممثلي الامبراطور، أي بيرو ديلا فيجنا والأسقف المنتخب لباتيPatte ، لكن غريغوري تابع العمل حول محاولة السلام متخذاً هذا البرنامج بمثابة قاعدة، وقامت المحكمة العليا في عكا، بناء على اقتراح فون سالزا، بإرسال رسولين هما هنري صاحب الناصرة،وفيليب دي تروي، وكانا كلاهما من فرسان عكا، إلى البابوية، مع تعليمات بعقدمعاهدة، وفي شباط ١٢٣٦، كان البابا قادراً على أن يكتب إلى فردريك ، بأن السلام قد تأسس على الخطوط العامة لاقتراحاته، وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على الخطة الأصيلة، التي قضت ببقاء فيلنغر في وظيفته كوكيل حتى الأول من أيلول، لكن في تلك الآونة نفسها يتوجب تعيين واحد من الأتباع السوريين للامبراطور، كان قد اختاره يودس دي مونتبليارد، ليقوم بواجبات وأعمال الوكيل حتى انقضاء مدة تعيين فيلنغر، وينبغي أن يقوم فيلنغر في أيلول بالتخلي عن الوكالة ومن ثم إسنادها إلى بوهيموند صاحب أنطاكية،

الذي سوف يتولى جميع الحقوق الملكيـة باستثناء الإشراف على قلعة صور، التي توجـب وضعها تحت حراسة فـرسان التيوتون، وإذا حـدث ورفض بوهيمـوند هذا الشرف، ينبغـي منحه إلى مـونتبليارد، وأيضاً إذا مـا رفض هذا، ينبغي تعيين واحـد من الأتباع الإقطاعيين، ولسوف يتـم العفو تماماً عن جميع الثوار ومسامحتهم، بـاستثناء الإيبلينيين : جون صاحب بيروت، وأولاده، وأولاد أخيه وهما: جـون صاحب يافـا، وجون صاحب قيسـارية، فهؤلاء كـانوا سوف يمنحون العفـو والمسامحة داخل مملكة القـدس، لكن بدون ضمان سـلامتهم في مكان آخر، وإذا مـا رفعت أية دعاوى ضـدهم فالمتوجب معالجتها في المحكمة العليا للقدس، لكن البابا كان قد تصرف من دون استشارة البارونات السوريين، وهكـذا عندما حملت هذه الشروط المتعلقة بـالسلام إلى المحكمـة العليا في عكا بـوساطة الـرسولين اللـذين أرسلا لمناقشة المعـاهدة، شعر بارونات المحكمة بالغضـب الشديد، حتى كادوا أن يبطشـوا بالرسـولين التعيسين، اللذيـن اتهموهما بالخيـانة، وأنهما تصرفا على عكـس مالـديهما من تعليمات، ورفضت المعـاهدة رفضـاً كلياً، ووافقت محكمـة عكا على إرسـال سفير عام مشترك مـع ملك قبرص إلى البابا، ليشرح لـه أسباب معارضتهم للسلام، ووقـع الاختيار على الفارس غيوفري لي تـور للقيام بهذه المهمة الدقيقة، وقد وصـل إلى جنوى في ربيع ١٢٣٧، وقد وجـد البابا في فـايتربو Viterbo حيث قـدم إليه الـرسائل المرسلـة من ملـك قبرص ومن المحكمـة العليـا في عكا وهـي التي كـان يحملهـا، ولقد وجـد البـابا راغبـاً تمام الرغبـة في استقبـاله والإصغـاء إلى شكاويهم، وكان سبـب ذلك أن المشاكل كـانت تفجرت من جـديد بين البابا والامبراطور، ولم يعد غريغوري مهتماً بشـأن مصالحة فردريك وتقوية وضعه، وبـالنتيجة حـرر غريغـوري بكل سرور البـارونات المحتجين مـن المعاهدة، ووعدهم بدعم الكنيسة في الدفاع عن حرياتهم .

وحدث في أثناء سير هـذه المباحثات أن فقد البارونات قـائدهم الذي

كان قد تولى قيادتهم بحكمة في أثناء معارضتهم للامبراطور ووكيله، فقد مات جون دي إيبلين صاحب بيروت العجوز في عام ١٢٣٦، وبدا أن روح الحزب الذي أسسه قد ماتت إلى حد كبير بموته، وفي الغرب كان فردريك مهتماً اهتماماً كبيراً في أن يحاول جاداً استرداد سلطاته في سورية، وقد رضي خلفاء صاحب بيروت بالحفاظ على هدنة مع الوكيل الامبراطوري في صور من سنة ١٢٣٧ حتى سنة ١٢٤١ ، وترك إخفاق خطة السلام البابوية بالطبع المسائل تماماً كما كانت قبل اقتراح المخطط، وتابع فيلنغر حكمه في صور بوصفه الوكيل الامبراطوري، وبالإضافة إلى هذا، حكم يودس دي مونتبليارد ـ على كل حال ـ في عكا بمثابة وكيل لكونراد، وذلك بتأييد المحكمة العليا، وما من واحد من الوكيلين اعترف بالآخر، وادعى كل واحد منهما بأنه الوكيل الحقيقي لكونراد، فقد عمل يودس تحت سلطان تعيين قديم جاء من المحكمة العليا، وعمل فيلنغر في الوقت نفسه في ظل شرعية تعيينه من فردريك، الذي كان هو نفسه الوكيل لكونراد، وبما أن دي مونتبليارد لم يحاول اتخاذ أي إجراء ضد الإيبلينيين، تم قبول حكومة عكا من قبل البارونات الثوار .

وكانت الحوادث الأعظم في تاريخ سورية في هذه الآونة هي التي تعلقت بصليبيتي كل من ثيبوت أوف شامبين، ورتشارد أوف كورنوول، وطلب فردريك من الصليبيين تأجيل هجومهم حتى انتهاء موعد هدنته مع مصر، وعرض أن يتولى قيادتهم بنفسه إذا ما قاموا بإنتظاره، واعترض البابا على التأخير المقترح، وغادر الصليبيون بدون تأييد الامبراطور، مع أنه عرض بكرم تزويدهم بكميات كبيرة من الميرة والأطعمة، وكانت دمشق ومصر مرة جديدة تتحاربان، وفلسطين تعاني من ثم من الصراع بين القوتين الأعظم، وجرى احتلال القدس لوقت قصير من قبل المسلمين، وأرغمت الحامية الصليبية على الفرار، وكان الداويةيتباحثون مع دمشق من أجل التحالف، والإسبتارية مع مصر، وقرر الصليبيون

تحت إمرة ثيبوت الهجوم على مصر، وزحفوا جنوباً حتى تنزل بهم هزيمة ساحقة على أيدي المصريين قرب غزة في تشرين الثاني لعام ١٢٣٩ ، وحدث إثر هذا، أنه تحت ضغط كل من الداوية والاسبتارية قبل الصليبيون المضطربة أوضاعهم بتحالف الداوية مع دمشق، وبتحالف الاسبتارية مع مصر، وعندما وصل رتشارد أوف كورنوول، أعلن عن حياده وتابع زحفه حتى يتولى تحصين يافا وعسقلان، المدينتان اللتان حولها إلى حكم وولتر بنينباي Pennenpie، وكان والي فردريك على القدس، ثم إنه جدد المعاهدة مع مصر وانسحب،وكانت هذه الصليبية عملياً بلا نتائج، مع أن الكونت رتشارد الذي كان صديقاً قريباً من الامبراطور، زاد من تحسين السمعة الامبراطورية ومتن وضعها في المشرق، وتابع فردريك في الوقت نفسه إرسال الامدادات والمساعدات إلى فيلنغر في صور، وذلك بغية المحافظة على سلطته هناك، وتم في سنة ١٢٤١، تأمين إعتراف بالطاعة من قبل : بالين دي إيبلين صاحب بيروت، وفيليب دي مونتفورت صاحب تبنين، وجون دي إيبلين صاحب أرسوف، وغيوفري دي ايسترين Estrainge صاحب حيفا، وكان هؤلاء قادة الحزب الإيبليني القديم، وقد جاء خضوعهم من خلال وساطة الكونت رتشارد، وقد وافق هؤلاء على الخضوع لحكم فردريك إذا وافق هذا الامبراطور على تعيين الايرل سيمون دي مونتفورت أوف ليستر وكيلاً له في المملكة حتى يصل كونراد إلى السن، ومن ثم يقدم لتسلم مملكته، وكان من المفيد توقع ماكان يمكن أن يكون التأثير على تاريخ كل من انكلترا والقدس لو قام الامبراطور بهذا التعيين .

وجاء العمل التالي في الصراع بين الامبراطور والبارونات متمركزاً حول محاولة فيلنغر المخفقة في الحصول على السيطرة على عكا، الأمر الذي دفع بالإيبلينيين بالشروع بأعمال ا نتقامية ضد صور، وشجعت خططهم من قبل مارسيليو جورجيو Marsiglio georgio ، الذي كان الوكيل

البندقي الجديدالتعيين، الذي كان متشوقاً لاسترداد بعض الممتلكات المحددة التي عادت لبني قومه في صور، والتي صودرت هناك من قبل الوكيل الامبراطوري، وكان بالين صاحب بيروت وفيليب دي مونتفورت قد وضعا خططهما للزحف ضد صور، مما يعني تجديد العصيان ضد الامبراطور، عندما اقترح عليهما فيليب دي نوفار خطته، التي يمكنهما بموجبها الحصول بشكل قانوني على صور وبدون إعلان العصيان على حاكمها القانوني، فقد بين أنه في ٢٥ نيسان ١٢٤٣ يكون الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبذلك تنتهي وكالة فردريك عن ابنه بشكل آلي، ومع انتهاء وكالة فردريك تنتهي بداهة سلطة فيلنغر، ونتيجة لهذا إذا ما انتظر البارونات حتى ما بعد ٢٥ ـ نيسان، فإن فيلنغر يصبح بدون وضع شرعي في صور، ويمكن وقتها للبارونات طرده بشكل شرعي كامل وبدون ضرر، وبدت هذه النصيحة جيدة بالنسبة لقادة الحزب وقد قبلوها جميعاً، ولكي يكون وضعهم أكثر ضماناً جلبت أليس القبرصية، التي طالبت بالعرش في سنة ١٢٢٩ بحكم كونها أقرب الورثاء الموجودين في البلادوقد أحضرت ثانية هذه المرة واقترحت لتكون وكيلة، وجاءت إدعاءاتها هذه المرة ليس للمطالبة بالعرش نفسه بل بالوكالة حتى يقدم كونراد شخصياً، ويستحوذ مباشرة على مملكته، وتولى فيليب دي نوفار عرض مطالبها على المحكمة العليا، وقد جرى قبول هذه المطالب، وكان أول عمل قامت به الوكيلة الطلب بأن يجري استسلام مدينة صور وقلعتها إليها، المطلب الذي رفض بالطبع من قبل الحامية العسكرية الامبراطورية التي كانت هناك تحت إمرة لوثير فيلنغر آنذاك لغياب أخيه رتشارد الذي كان قد أبحر إلى الغرب للتشاور مع الامبراطور، وقام بعض سكان مدينة صور بإجراء مفاوضات سرية من أجل تسليم المدينة، وإثر هذا زحفت قوات بارونية ضدها، واستولت عليها بالقوة، وتراجع لوثير فيلنغر والحامية إلى القلعة، وحوصروا هناك من قبل الإيبلينيين المنتصرين ومعهم أنصارهم، وجاء الآن دور رتشارد

فيلنغر، فهو لم يعـرف أخبار الحوادث التي وقعت ، وأبحـر إلى ميناء صور دونما انتباه،وهناك ألقـي القبض عليه من قبل أعضاء حـزب البارونات ، ولم يستطع البارونـات تأمين استسلام القلعة مقابل حيـاة المارشال، لكن مـع هذانجـح فيليب دي نـوفار بضمان استسـلام القلعة وإطـلاق سراح الأسرى، ومع سقوط صور حقق حزب البـارونات انتصاراً كاملاً في شمال فلسطين، وبذلك بات الحكم الامبراطوري منتهياً بالفعل .

هـ ـ خاتمة ١٢٤٣ ـ ١٢٤٧ .

وأنهى فيليب دي نـوفار تاريخه مـع سقوط صـور، ذلك أنه مـع إزاحة الحاميـة العسكـريـة الامبراطـوريـة مـن تلـك المدينـة، وصـل الصراع الامبراطـوري ــ الإيبليـنـي إلى نهايتـه، واستمـرت الحاميـات العسكـريـة الامبراطورية بـالاستيلاء، على القدس وعلى عسقلان في الجنـوب لمدة عام آخـر، ففي عـام ١٢٤٤ جـرى الاستيلاء على القـدس مـن قبل القـوات الخوارزميـة التركية، وتـولى تـوماس أسيرا، الـوكيـل الامبراطوري الجديـد، الذي بعث به فردريك في عام ١٢٤٢ ليحل محل فيلنغر، إعطاء عسقلان إلى الاسبتارية ليتولوا حراستها، وجرى استدعاء رتشارد فيلنغر إلى إيطاليا على الفـور إثر سقـوط صـور، وتعـرض هناك لـلإهـانـة والسجن بسبـب إخفاقه، ونجا أخوه لوثير من الانتقـام الامبراطوري بالفرار إلى انطاكية في عام ١٢٤٧ ، وحلل البابـا انوسنت الرابعه الملك هنـري ملك قبرص من يمينه إلى الامبراطور ووضعه مع مملكته تحت حماية الكرسي المقدس، كما لم يتمكـن أسيرا ، الذي كـان الوكيـل الجديـد من المحـافظة على نفسـه في سورية لمدة طويلـة، وهرب أيضاً في عام ١٢٤٨ إلى أنطاكية ــ طرابلس، وقـد طلب البـابـا طـرده من هنـاك، واستمـرت أليـس بالحكـم على أنها صاحبـة القدس وذلك حتى مـوتها في سنة ١٢٤٦ ، ووقتها خلفهـا ابنها هنري الأول صـاحـب قبرص، لكنه لم يتمكـن من نيل اللقـب الملكي في القدس، لأن الملك كونـراد كان ما يزال هو الملك الشرعـي، وكان الملك

القبرصي هو سيد القدس فقط حتى يأتي الملك كونراد، ويحصل على عرشه ومملكته، والذي حدث أنه فقط مع زوال حكم أسرة هوهنزتوفن إثر وفاة كونرادين في سنة ١٢٦٨، وقتها استطاع هيوج الثالث ملك قبرص أن يضيف إلى لقبه، وهو ملك قبرص، لقب ملك القدس، عاداً نفسه «الملك اللاتيني الثاني عشر للقدس، وملك قبرص» .

وكان تاريخ مملكة القدس من عام ١٢٤٧، عند الانتهاء الفعلي الكامل للحكم الامبراطوري، وإلى فقدان المملكة لصالح المصريين، تاريخاً عاصفاً بما فيه الكفاية، فقد وقف الداوية ضد الاسبتارية، وقاتل البنادقة الجنويين، وادعى شارل دي أنجو حقه بالعرش وذلك ضد دعاوى بيت لوزغنان، وتحارب المصريون والمغول من أجل الاستحواذ على سورية، ولقد تورطت الدول اللاتينية في صراعهم هذا، ووسط هذه الفوضى والاضطراب الشديد تفككت أوصال المملكة ببطىء، وسقطت مدينة تلو الأخرى في أيدي المسلمين، وفقط في الأيام اليائسة الأخيرة في عكا سنة ١٢٩١ ، نسي الفرقاء داخل المملكة صراعاتهم وعداواتهم المتبادلة وكراهيتهم لبعضهم بعضاً، واتحدوا، وعبثاً حاولوا ببطولة إنقاذ المتبقي من المملكة، ولكن جاء متأخراً جداً.

هذا من جانب ومن جانب آخر لئن كانت المملكة التي كان الإيبلينيون مع حلفائهم قد قاتلوا في سبيلها بكل عناد في ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر قد زالت قبل نهاية القرن، فإن المؤسسات الدستورية التي قاتلوا من أجل الحفاظ عليها قد استمرت بالبقاء في قبرص لمدة قرنين إضافيين، وظلت حقوق الأفراد والحد من سلطات التاج حجر الأساس في المؤسسات السلطوية في قبرص طيلة استمرار حكم أسرة لوزغنان، زد على هذا توجب على البارونات الفلسطينيين الرضى بالأسى لدى معرفتهم بمصير عدوهم القديم، حيث كان هذا المصير أسوأ بكثير من مصيرهم، فقد أنهى فردريك حياته وسط مشاكل

الحرب الأهلية وتحت الحرمان البابوي، أما فخار مملكته في صقلية فقد جرى الاستيلاء عليها من قبل الفرنسي شارل دي أنجو، وغدت الامبراطورية الألمانية فريسة للمتنازعين، وليست أفضل حالاً من الذين إنهاروا في القدس، وتهاوت الواجهة الجبارة لأسرة هوهنز توفن وسقطت حتى قبل سقوط المملكة الشرقية الصغيرة التي كانت قائمة على سواحل البحر المتوسط .

وهكذا كانت الخاتمة خاتمة محزنة، ولعل القارىء يشعر في هذه الأيام بالسرور لأن السيد فيليب دي نوفار لم يعش ليرى الأوقات الشريرة التي هوت فيها البلاد التي عاش فيها، فقد انتهى تاريخه مع إشارة لنصر، وكما هي الحالة في الرومانسيات الحقيقية ينال جميع الأبطال الجوائز، لكن الأشرار يتعرضون للمذلة والعقوبة، فلقد كتب فيليب تاريخ حرب رائعة فيها انتصارات، كما تحدث عن انتصار القانون، والفضيلة، والتقوى، على الخيانة والجريمة والاغتصاب للسلطة، ولكم كان محزناً لو أن الرجل العجوز قد رأى النهاية المفجعة لجميع جهوده، ولو أنه أرغم على إدراك أن الصراع الذي خاضه مع أبناء عصره باسم الحرية قد أضعف دولتهم وجلب إليها السقوط ضحية حقيقية لتمزقهم الداخلي ولصراعاتهم، ولاشك أن نصر الإيبلينيين الذي أرخ له فيليب قد حفظ الحريات العائدة لمملكة القدس، لكن من المؤكد أنه أسهم في الخسارة النهائية للمملكة نفسها (*) .

---

* ـ هذا صحيح لو عزونا أسباب سقوط عكا إلى أسباب داخلية محضة، لكنها سقطت نتيجة لما تمتعت به السلطنة المملوكية من إمكانات متفوقة .

تاريخ الحرب بين الامبراطور فردريك
وبين جون دي إ يبلين صاحب بيروت

هنا يبدأ التاريخ مع الرواية الصحيحة حول الحرب التي وقعت بين الامبراطور فردريك والسيد جون دي إيبلين، صاحب بيروت

١(٩٧) : ومن أجل فهم أحسن ومعرفة كيف وقعت هذه الحرب،وكيف بدأت وتوالت، وكيف حدث أن بعضاً من القبارصة التحقوا بالامبراطور، بينها التحق الجزء الأكبر بصاحب بيروت، سيقوم فيليب دي نوفار الذي أسهم في جميع الأعمال والاجتماعات، والذي غالباً ما كان محبوباً من قبل الناس الجيدين لروايته الصدق، ومكروهاً من قبل الأشرار للسبب نفسه، سيقوم بإخباركم بالصدق حولها، وسيحدثكم أيضاً عن الرجال وعن الأفعال العظيمة .

٢(٩٨) : ولقد حدث، بإرادة من ربنا، أن هيوج (١) الملك الطيب لقبرص، الذي كان شجاعاً جداً، قد ذهب إلى الحج في طرطوس(٢)، ومن هناك قصد طرابلس(٣)، حيث كان مريضاً،ثم أنه انتقل من هذا العالم في عام ١٢١٨ وكان ذلك في اليوم العاشر من كانون الثاني، وقد دفن في مشفى القديس يوحنا(٤)، وكانت الملكة أليس (٥)زوجته ماتزال شابة، وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد(٦) : ولد ذكر وابنتين، وكان عمر الذكر تسعة أشهر فقط(٧)، وكان اسمه هنري، وقد عرف باسم الملك هنري غراس(٨) Gras، وكانت الملكة أليس المتقدمة الذكر ابنة أخت (٩) مولاي جون صاحب بيروت(١٠)، وكذلك للسيد فيليب دي إيبلين أخيه (١١) .

٣ : وقدم جميع أتباع الملك الولاء للملكة بمثابة وكيلة، وسأل جميع

الأتباع وطلبوا من السيد فيليب دي إيبلين، أن يكون وكيل قبرص ليتولى حكم البلاد، وأن يستحوذ على البلاط والأمر على الناس(١٢)، وكان الملك هيوج نفسه قد تمنى هذا وأمر به عند موته، وتسلم السير فيليب الوكالة، وقد نال منها الكثير من المتاعب والحزن، في حين استحوذت الملكة أليس على الموارد التي أنفقتها حسبما أرادت(١٣)، وحكم السير فيليب البلاد بشكل جيد وبسلام، وبكثير من الجودة والشرف والاخلاص والإنفراج، وكان مولاي صاحب بيروت قوياً جداً في سورية، وقد قدم وقت كل حاجة المشورة الجيدة والعون العظيم لشؤون قبرص .

٤(١١٠) : وحالما صار هنري الصغير ـ ابن الملك المتقدم الذكر، ملك قبرص ـ كبيراً ما فيه الكفاية (١٤)، توّجه خالاه مع الإقطاعيين الآخرين وسط احتفال عظيم، وتولى ذلك يوستوريو Eustorgue رئيس أساقفة نيقوسيا(١٥)، وهيأ كل ما هو لائق لتتولى الكنيسة القيام به أثناء التتويج(١٦)، وكان الامبراطور فردريك غاضباً جداً، تجاه هذين العملين، عندما سمع بهما، وأعني بذلك الوكالة والتتويج، لأن الملك هنري توجب أن يكون تابعاً إقطاعياً له(١٧)، وقد قال بأن الوكالة له، وأنه ينبغي أن يكون ـ بموجب إجراءات ألمانيا ـ وكيل قبرص حتى يصبح الملك في الخامسة عشرة من عمره(١٨)، وبعث الامبراطور عدة مرات إلى الملكة أليس، ملكة قبرص، أن تدعه يتولى وكالة قبرص بنعمة، فذلك سوف يرضيه(١٩)، وقد غضب أكثر نحو التتويج،وقال،لقد توجب أن لا يتسلم الملك هنري التاج إلا منه، وأرسل في خلال ذلك رسائل مرضية جداً إلى الأخوين : مولاي صاحب بيروت، والوكيل السير فيليب، ودعاهما دوماً برسائله بالخالين، لأنهما كانا خالين للملكة إيزابل ملكة سورية، التي كانت زوجته (٢٠) .

٥(١١١) وكان في هذه الأثناء بعض الرجال الشباب في قبرص، وكان اسم أولهم السير عموري برلياس(٢١)، واسم الثاني عموري صاحب

بيسـان(٢٢ - ٢٣)، وكان هـذان أبنـاء عم مـن بيت واحـد،وكـان اسم الثالث السير جوفيان(٢٤) Gauvian، وكان الرابع هو السير وليم دي ريفت(٢٥)، وكـان هـذان ينتميان إلى بيـت واحـد، وكان اسـم الخامس السير هيوج صاحـب جبلة(٢٦)، وقد انتسب إلى بيت آخر، وكـان قريباً لأبناء مولاي صـاحب بيروت من خلال أمهم، وقد اتفـق هؤلاء الخمسة، وتـآمروا ضـد البيت الإيبليني، مع أنهم عـاشـوا في حظوة ذلـك البيت وتسلمـوا منه كثيراً مـن الممتلكـات وكثيراً من الحب، لاسيما من مـولاي صاحب بيروت أكثر من أي إنسان آخر، وقـد امتلأوا بالتكبر، الذي غالباً مـا صدر عـن الثراء والـدعة، وبما أن كثيراً مـن الناس لايمكنهـم تحمل الـرخاء، فقـد قـادهم ذلك إلى مـا قـالـوه وإلى مافعلـوه، وتـوفرت دومـاً الأسباب، وعن هؤلاء سوف تسمع فيما يلي :

٦(١١٢) وحـدث أن مـولاي صـاحب بيروت جعـل مـن ولـديـه الكبيرين فـارسين في قبرص(٢٧)، وكـان أولهما السير بـالين، الـذي غـدا فيمابعـد قسطلان قبرص وصـاحب بيروت(٢٨)، وكـان الثاني هـو السير بلـدوين، الـذي أصبـح كـافل مملكـة قبرص(٢٩)، وفي أثنـاء تكـريـس الفارسين كانت هنـاك حفلة عظيمة وطويلة كـانت هي الأعظم والأطول مما قام به أي إنسان في هذا الجانب مـن البحر، أو عرفه، وكان هناك كثير من العطـايا والانفـاق والمبارزات، وجـرى إعادة إخـراج(٣٠) مغامـرات بريتاني والمائدة المستديرة، كما كانت هناك عدة أشكال من الألعاب .

٧(١١٣) :وفي أحد الأيـام بعد تكـريس الفرسان، كـانوا يلعبـون لعبة اسمها Barbadaye (٣١)، وقد حـدث آنذاك أن قام فارس تـوسكاني اسمه تـورينول(٣٢) Toringuel وكان مـن حاشيـة بيت السير فيليب الوكيـل، بطعن السير عموري برليـاس كما يفعل الانسان أثنـاء الألعاب، وقد قيل بأن السير عموري قد غضب وقـال بأنه فعل ذلك بشكل شرير وعنيف جداً، ولهذا تـوقفوا عن اللعب، وكمن في اليوم التـالي للفارس هو

وقـواته. وهـاجموه بشكل وحشي حتى أنهم جـرحوه وبـات مهدداً بخطـر الموت، وكـان لهذا السير فيليـب غـاضبـاً جـداً، وأراد مقـاتلـة(السير عموري)، ووقف جميع حلفائه إلى جـانب السير عموري، غير أن القضية لم تـؤثـر شيئاً على قوة السير فيليـب ــ الـوكيل ــ فقـد تـدخل مـولاي صاحب بيروت ــ أخوه ـ فيما بينهم، وفصـل فيما بينهم بالقوة، وأمـر ابنه السير بالين بأن يأخذ السير عموري من هناك إلى حيث أراد .

٨(١١٤) : ولم يمض وقت طـويل حتى غادر السير عموري بـرلياس قبرص ومضى إلى طـرابلـس، وبقي هنـاك كـل الشتـاء، وذهب مـولاي صاحـب بيروت من قبرص إلى بيروت وأمر بـالبحث عن السير عمـوري بـرليـاس في أيـام عيـد الفصح، ثـم حملـه إلى قبرص وأحضره فجأة أمـام أخيه، حيث كان الأخير لايعرف شيئاً عن ذلك، وقال (مولاي صاحب بيروت) لأخيه بأنـه يرغب منـه مسامحة السير عموري بكل وسيلـة وبكل طريقـة، وقال إنه إذا لم يفعل ذلك هـو لن يكلمه أبداً، ولن يـراه مطلقاً، وأنـه سـوف يقبل مصـالحة مشـابهة للتـي هي معـروضـة مـن قبل السير عموري(٣٣)، وقبل الوكيل بالمصـالحة فقد ذهب (٣٤) بعيداً، واستحوذ السير عموري على بـراعة كبيرة، وكـان مؤيـداً لكل واحد مـن اللوردات، وكان رفيقاً وثيـق الصلة بالسير بالين وأظهر نحـوه محبة كبيرة، وحدث في هذه السنة(١٢٢٥) أو بعيد ذلك بقليل، أن الملكة أليس ملكة قبرص قد غضبت مـن خـالها ومن الإقطـاعيين الآخـريـن، وذهبت إلى طـرابلـس، وبدون رضـا أو موافقة خـالها والاقطاعيين تزوجت هنـاك من بوهيمـوند ابن أمير أنطاكية(٣٥)، وأعلن جميع الذيـن كانوا في قبرص وخاصة السير عموري برليـاس أنه إذا صار الأمير وكيلاً لقبرص واستحـوذ على السلطة هناك سيكون معنى ذلك موت مولاهم الصغير ودماره .

٩(١١٥) : وتخلى السير فيليب دي إيبلين بعـد هذا بـأمد وجيـز عن الوكالة،وذلك على الرغم من عـدم رضا جميع أهل البلاد، وأرسلت الملكة

أليس التي كـانت في طرابلس رسـالة أمرت بمـوجبها بأن يكـون عموري برلياس الوكيل إلى أن تتمكـن من القدوم إلى قبرص، وقبل السير عموري بذلك من دون مـوافقة أي إنسان في قبرص(٣٦)، لأنهم نظروا إليـه نظرة إزدراء كبيرة، واجتمعـوا في المحكمـة وقال السير فيليـب دي إيبلين بأنـه يرى في هـذا التعيين إهانة كبيرة بالنسبـة إليه ورعونـة قصوى في أن يمنح السير عموري وأن يتقبل السيـادة عليه وعلى الرجـال الطيبين الآخرين في قبرص، وأنه ليـس هو الـرجل الذي يفعـل ذلك، لأن ذلك معـاكس لما قالـه هو نفسه عندمـا تزوجت الملكة أليس من الأمير، وقـام السير أنسيو Anceau دي بـري وقال : إن السير عمـوري بـرليـاس في كل مـا قالـه وفعلـه فيما يتعلق بهذا الأمـر هو قـد عمل بمثـابة خـائن، ولـو أنه كـان حاضراً هناك لقال هذا بوضوح أكبر ولبرهن عليه(٣٧) .

١٠ : وكـان السير أنسيـودي بـري هـذا ابنـا لابن خـال ألماني لمولاي صاحب بيروت ولأخيـه (٣٨) أيضاً، وكان رجـلاً شاباً، وقـوياً وذا بأس، قوي البنيـة والعظام ونشيطاً وشديـداً، جاهزاً للقيام بـأي عمل ولإنجازه، وأديباً نحـو رفيقه وعـدوه، وكريماً بقـدر ما استطـاع، وأشقراً وجميـلاً، وله بشرة متوردة، وأنـف عريض، مـع وجه مهيب مـرعب يشبـه النمر(٣٩)، وأحبه الأخوان حبـاً جماً، وهو بالفعل قد استحق ذلك، وكان معلـوماً أنه كـان في الحرب الأعظم تقـديـراً بعد الأخـوين وأولادهما واللـورد الشـاب الطيب صـاحب قيسـاريـة الذي كـان ابن أختهما(٤٠)، وعنـدمـا سمع السير عموري بـرلياس بشكل متواتـر أن ما قيل بحقـه كان قاسيـاًجداً ، غادر قبرص وذهـب إلى طرابلس، حيـث قرر الانتظـار هناك حتى قـدوم الامبراطور، الذي جـرى الحديث حوله من يوم إلى يوم، وكـانت مقاصده أنه بعون الامبراطور سوف يكون قادراً على إخضاع البيت الإيبليني .

١١(١١٧) وكـان قـد حـدث قبـل بعض الـوقـت أن تشـاجـر السير جوفيـان Gauvain مع فـارس اسمـه السير وليـم دي لى تـور، وأصيب

وليم المذكـور بجراحة في الليـل هو وواحد من أبنـاء عمه، وقـد قيل بأن هـذا قد اقترف مـن قبل السير جـوفيان وأهـل بيته، وعـوفي الفـارس من جـراحاتـه، وجاء إلى المحكمـة ومثل أمـام الوكيـل واتهم السير جوفيـان بالخيانـة، ودافع (السير جوفيان) عن نفســه، وقدما تعهدتـاهما من أجل القتال، وأنشبـا القتال وأقـاما السـلام على ميدان العـراك، وكان السـلام مغضباً ومذلاً للسير جـوفيان، وقد كبر عليه أن يقوم هذا الفـارس بتوجيه التهمة إليـه، وبدا لـه أن (السير وليم) ما كـان ليقدم على اتهامـه ويتجرأ على ذلك لـولا أنه حصـل على تأييد الإيبلينيين، وكـان (السير جوفيـان) حتى بدون هـذا الحادث على صلات متنافرة معهم، ولم يكن قـريباً منهم كما كان من قبل، ولقـد امتلك بعض العذر، وعلى كل حـال لمعرفة السير جوفيان بالاخلاص العظيم المتـوفر فيهم تجرأ على دخول الميدان ، والقيام هناك بالدفاع عن نفسه .

١٢ ـ وبعدما تـرك(السير جوفيان) الميدان قال بأنـه لم يفهم اتفاقيات السلام التي عقدت عندما كان في الميدان، وأنه لن يتمسك بالعهود التي قطعها آل بيته، ثم أنـه ذهب إلى الداوية وتوجه مـن هناك إلى عكا، ومن عكا عبر البحر إلى الامبراطور ، وقد خـدم الامبراطور لبعض الوقت، وبما أنـه كان يعـرف الكثير عن الطيـور، فقـد حظي بمكـانة عـاليـة في ذلك البلاط(٤١)، وكان الامبراطـور على وشك المغادرة لأن الكنيسة قـد أمرته أن ينفذ تعهداته التي قطعها على نفسه للـذهاب إلى سورية(٤٢)، وتوجه إلى المينـاء(٤٣), ووصلت السفـن، وبات العبـور جـاهـزاً تمامـاً، وأجل الامبراطور جوازه حتـى عبور آخر، وذلك حسب ما يـرضيه(٤٤)، غيرأنه أرسل بعضـاً مـن رجـالـه في سفن عبر البحـر(٤٥)، وهكـذا عـاد السير جوفيان عبر البحر إلى قبرص .

١٣(١٢٢) : ومع هـذه الأخبـار السـاخنة التـي انتشرت وأفـادت بأن الامبراطـور قـادم، وقبل معـرفة أنـه أخّـر عبـوره ، ارتأى السير عمـوري

بـرلياس، الـذي كان في طـرابلس بأنـه سيذهب إلى قبرص إلى المحكمـة ليسوغ نفسـه ويدافع عنها ضـد السير آنسيودي بري وضـد ما قالـه عنه، واعتقد أنه سوف يمنح فرصة أربعين يـوماً قبل القيام بالمبارزة وذلك بعد تقديم عهـوده وضماناته(٤٦)، وأنـه في أثناء ذلك سيكون الامبراطـور قد جاء وأنه سـوف يربح قضيته، وذهب السير عمـوري المذكور إلى قبرص، وتوجـه على الفور إلى المحكمـة، وعرض الكـذب الذي قـاله عنـه السير أنسيو، وتقدم بطلب الدفاع عن نفسه وبضماناته وتعهداته، وتسلم الملك التعهدات وجرى تحديـد يوم المبارزة، وأمر بها بعد مـوافقة المحكمة، وفي خلال أربعين يـوماً وصلـت السفن العائدة لـلامبراطور، وكما تحدثنـا من قبل،عُرف أنه لـن يأتي بعد، ثم سعى البطريرك جيرولد، بطـريرك القدس (٤٧) ومعه الكثير من النـاس إلى إقرار مصالحة بدلاً مـن المبارزة، لكنهم لم يستطيعوا فعل ذلـك، لأن السير أنسيو لم يرغب في عقـد أي اتفاق، أو القبول بأية اقتراحات للتصالح .

١٤ ـــ وقـامت المعركـة ، وفيها خسر السير عموري خسـارة قبيحة، ففـي الصـدام الأول كسر السير أنسيـو رمحه، واستبقـى السير عمـوري الذي كـان ماكـراً جداً، رمحه الـذي كان مصنـوعاً من أحسـن الفولاذ في العـالم، وقد أمسكـه مـن وسطه، وانـدفع ليطعـن بـه ثلاث طعنـات على واجهة خوذة السير أنسيو، وقـد حطم في كل مرة الواجهة وطعنه بـالوجه، ولدى الطعنة الثالثـة أزاح السير آنسيو جانباً سيفه وتركـه من يده، وذلك بعدماسـدد به ضربات عظيمة على خوذة السير عمـوري، وأمسك الرمح من سنانه المعـدني بيده التي كان ممسكاً بها السيف، وهكـذا انتزع الرمح بالقوة من قبضة السير عموري، فقد كان السير آنسيو قوياً جداً، وجذب الـرمح بشـدة، وفقـد السير عموري الـرمح الـذي كـان ممسكـاً بوسطـه، وعنـدما جـذبـه السير آنسيو جـذبـه بعنف كبير حتى أنـه ألقى بـالسير عموري أرضاً، وكان هذا لابسـاً درعاً ثقيلة جداً، ولهذا سقط سقطة كبيرة

على الأرض وجرح جراحة قاسية، وقد قام بقدر ما استطاع وهرب عبر الحواجز نحو المكان الذي كان فيه مولاي صاحب بيروت، وراء الحواجز ١٥. :وكان قد درب حصانه بشكل جيد جداً حتى أنه لحق به إلى كل مكان، وركض هو نفسه وتبعه فرسه، وأمسك سيفه ووضع نفسه فيما بين الحواجز والفرس، وقام السير آنسيو بكل سرعة بإعادة وضع خوذته، وتناول بقية رمحه، وكان السير عموري قد ازداد ألمه وبات مرهقاً نتيجة لما بذله من جهود، ولم يكن هناك أمامه أدنى سبيل حتى يتمكن من امتطاء فرسه ثانية، لأنه كان مثقلاً بدروعه، وكان فارساً صغيراً، وكان الحصان ضخماً وطويلاً ونشيطاً، ثم وضح لمولاي صاحب بيروت وللذين كانوا هناك أن السير عموري لن يستطيع التحمل أكثر، وقد ضغط عليه السير آنسيو عن قرب، ولولا أنه أبعد عن هناك لكان سيترجل لأنه كان مصراً على ذبحه، ودخل مولاي صاحب بيروت إلى الميدان هو وصاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص(٤٨)، ولم يرغبا بالسماح بالمزيد، وتوفر لديهما هناك بعض الفرسان الذين حجزوا السير آنسيو بالقوة بإمساكهم بمقود حصانه،كما أنهم كانوا قد أمسكوا حصان السير عموري الذي كان مرهقاً إلى حد أنه عجز عن التحرك، ومن ثم تحدثوا عن المصالحة(٤٩) .

١٦ : ووقع هذا اليوم السير فيليب دي إيبلين، وهوأخو مولاي بيروت،مريضاً، وقد أصيب بداء مميت، وقد أخبره أخوه صاحب بيروت بأوضاع المتبارزين، ورغب ـ وهو الذي كان يشعر بالموت ـ بإقامة السلام بأي سبيل من السبل، وبعث إلى السير آنسيو ورجاه وتمنى عليه، وضغط بوساطة مولاي صاحب بيروت حتى قبل وأبرم الصلح، وأقيم السلام، وتبين أن المصالحة كانت مذلة للسير عموري، لأنه توجب عليه أن يدفع نصف فدية ودفعات قاسية وحادة، ولكنه مقابل ذلك أنقذ حياته، وغادر السير عموري الميدان هو والسير جوفيان، وبقية الخمسة

الآخرين، وهم : السير عموري صاحب بيسان، والسير وليم دي ريفيت، والسير هيو صاحب جبلة، وبعثوا بشكاوى كثيرة إلى الامبراطور ضد بيت الإيبلينيين، وقالوا عنه كثيراً من الأشياء الشريرة والزائفة(٥٠) .

١٧(١٢٣) : وفي هذه السنة نفسها، وهي سنة ١٢٢٧ توفي السير فيليب دي إيبلين، وكان رجلاً جيداً ونبيلاً، وأخاً لمولاي صاحب بيروت، وحدثت وفاته في قبرص بسبب الداء الذي أصيب به، وكان هناك حزن عظيم عليه، وشكل موته خسارة عظيمة لأصدقائه وللبلاد، وكان الحزن عليه عظيماً، وعظيماً توجب أن يكون(٥١) .

١٨(١٢٦) : عبر في سنة(١٢٢٩)(٥٢) الامبراطور فردريك البحر للقدوم إلى سورية وذلك بناء على أمر البابا غريغوري(٥٣)، وقد وصل أولاً إلى جزيرة قبرص إلى مدينة ليماسول(٥٤)، وكان معه سبعين سفينة وغليون، وسفن نقل الأسلحة وبقية أنواع السفن، وكان الشطر الأعظم من جيشه وأهل بيته وحاشيته ومارشاله وخيوله قد وصلت من قبل إلى عكا(٥٥)، وأخذ السير عموري والسير جوفيان مع مجموعة من أصدقائهما وحاشيتهما سفينة ومراكب مسلحة وتوجهوا لمقابلة الامبراطور، وأبحروا بعيداً حتى سواحل بيزنطة(٥٦)، وما إن التقوا به حتى وجهوا التهم إلى مولاي صاحب بيروت بأنه لم يعاملهم بشكل صحيح، وأشاروا عليه بأسوأ الآراء التي يمكنهم فعلها ضده و ضد ورثته وضد أسرته، وقد روي بأنهم أخبروا الامبراطور أنه إذا ما تمكن من الاستيلاء على قبرص، سيكون بإمكانه تزويد سورية بجميع الضروريات التي سوف يحتاجها هو وآل بيته، وفضلاً عن ذلك سوف يحصل من تلك الجزيرة على ألف فارس .

١٩ : واحتفل بهم الامبراطور احتفالاً عظيماً، وقدم لهم وعوداً كبيرة، وأوضح قائلاً أنه مصدق لهم، وبموجب ذلك كانوا فعلاً مسرورين، وقد وصلوا معه إلى قبرص،ومع هذا بعث الامبراطور برسائل لطيفة جداً إلى

مولاي صاحب بيروت، الذي كان آنذاك في نيقوسيا، يرجوه فيها ويطلب منه بمثابة خال عزيز عليه،أن يأتي للتشاور معه وأن يجلب معه الملك الشاب، وكذلك أولاده الثلاثة وجميع أصدقائه(٥٧)، ثم أرسل إليه رسالة أخرى كانت أشبه بنبوءة بنعمة ربنا، لأنه بعث إليه يقول: إنه هو وأولاده وأصدقائه سوف ينالون الثروة والشرف بقدومه، وهكذا كانوا، والحمدللرب، لكن ليس حسب رغباته، واستقبل رسول الامبراطور استقبالاً جيداً في نيقوسيا، وكان هناك سرور عظيم لدى قدومه .

٢٠ : وجمع مولاي صاحب بيروت رفاقه وطلب منهم إبداء الرأي حول الملك الشاب وحوله شخصياً، وأعلنوا جميعاً بصوت واحد أنه لاهو ولا أولاده ينبغي وضعهم تحت سلطان الامبراطور، كما لايصح ولايجوز لهم ارسال مولاهم الملك إلى هناك، لأن الأفاعيل الشريرة للامبراطور باتت معروفة جداً، وقال مراراً وأرسل تكراراً كلمات ورسائل طيبة، وأتبع ذلك بأفاعيل مرعبة جداً وظالمة، ولهذا أشاروا بأن عليه أن يعتذر بطريقة ما، وقالوا في الوقت ذاته إن جميع أصدقائه وكل قواهم في قبرص كانت تجهز نفسها بسرعة كبيرة، وهؤلاء على استعداد للحاق به إلى سورية في خدمة الرب، وأنهم سوف يخدمونه في سورية بمثابة مولاهم :«وأن هذا كله قد أبدع من قبل أخيك السير فيليب عندما كان حياً»، وكان هذا اجتماعاً جيداً وقراراً حسناً بالنسبة له، لأنه كان هناك في سورية الداوية والاسبتارية مع رجال جيدين آخرين راغبين بالازدهار والسلام، ثم إن الامبراطور لن يكون قادراً على فرض مشيئته على كل شيء .

٢١ : ورد مولاي صاحب بيروت على هذه المشورة قائلاً : بأنهم أشاروا بإخلاص وبحب، غير أنه يفضل أن يؤسر أو يقتل وأن يعاني مما خبأه الرب له، على أن يوافق بأن يكون أي إنسان غير قادر على القول أنه من خلاله ومن خلال أسرته أومن خلال الشعب على هذا الجانب

من البحر، قد جرى تأخير أو إعاقة خدمة الرب في الاستيلاء على مملكة القدس وقبرص(٥٨)،ذلك أنه لايرغب في أن يقترف ذنباً نحو ربنا، كما أنه لايرغب أن يقول الناس في العالم كله :«جاء امبراطور روما عبر البحر مع قوة عظيمة، وكان من الممكن له أن يستولي على كل شيء، لكن صاحب بيروت مع آخرين غير مخلصين من رجال ما وراء البحار أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، ولهذا السبب ثاروا ضد الامبراطور ،ولم يرغبوا في استرداد الأرض المقدسة» .

٢٢(١٢٧) : ولهذه الأسباب التي عرضت أعلاه، ذهب صاحب بيروت إلى الامبراطور ومعه جميع أولاده وكل أصدقائه وقوات قبرص كلها من فرسان وسيرجندية وأخذوا معهم مولاهم الصغير ـ الملك هنري ـ إلى الامبراطور، ووضعوا أنفسهم كلياً تحت سلطانه(٥٩)، وقد استقبلهم باحتفاء عظيم، مع مظاهر من السرور عظيمة، وبدا أن أعداءهم قد خاب ظنهم، وسألهم الامبراطور على الفور إسداء معروف له، بالقيام بخلع الثياب السوداء التي كانوا ومايزالون يرتدونها بسبب موت السير فيليب دي إيبلين، أخوهم، ذلك أنه قال بأن بهجتهم بقدومه ينبغي أن تكون بالنسبة لهم أكبر من الحزن على صديقهم وأخيهم، الذي هو الآن ميت، مع أنه كان أعظم الناس نبلاً وشجاعة، وقبلوا تمام القبول هذا الأمر، وشكروه بإخلاص، وعرضوا عليه أجسادهم كلها مع قلوبهم وجميع ما يملكون، ووضعوها تحت تصرفه، وقيد أوامره، وشكرهم الامبراطور لهذا بسرور كبير، وقال بأنه سوف يجيزهم جوائز كبيرة وثرية .

٢٣ : وأرسل الآن إليهم ثياباً أرجوانية بدلاً من الملابس السوداء، وبعث إلى آخرين بجواهر، وسألهم راجياً بلسانه أن يتناولوا طعام الغداء معه في اليوم التالي، وقد أعدوا ملابسهم بكل سرعة في الصباح التالي، وظهروا جميعاً أمام الامبراطور وقد ارتدوا الملابس الأرجوانية، وقام في الليلة التي تقدمت بفتح باب في جدار الغرفة التي قادت إلى الحديقة،

وكان ذلك بشكل سري ، وكـان ذلك البيت الذي أقام فيه بيتـاً رائعاً،قد بنـاه اللورد فيليـب دي إيبلين في ليماسول،وأدخل الامبراطـور من خـلال هـذا الباب الخلفي بشكـل سري أثناء الليل ثـلاثة آلاف رجـل مسلح أو أكثر مـن السير جندية، ورمـاة القسي العقارة والبحـارة، فلقد كـان هناك تقريبـاً جميع رجاله المحـاربين الذين كـانوا في أسطولـه، وقد وزعهم على الغرف والإسطبلات، وأغلقـت جميع الأبواب عليهم حتى ساعـة الطعام، حيث نصبت الموائد وصب الماء .

٢٤ : وجلـس الامبراطـور وإلى جـانبـه صـاحب بيروت والعجـوز صاحـب قيساريـة الذي كان قسطـلان قبرص، وجلس إلى مـائدة أخرى طويلة في المكان الأول : ملك قبرص، مع ملـك سالونيك(٦٠)، والمركيز حامل الـرمح(٦١)، وبقية بارونـات ألمانيا والمملكة(٦٢)، وأمـر بجلوس جميع فـرسان قبرص بشكل يستطيع فيـه مولاي صـاحب بيروت سماعـه عنـدمـا يتكلم، ورتـب أن يقف ولـدي مـولاي صـاحب بيروت أمـامـه لخدمتـه، يحمل أحـدهما الكـأس ويحمل الآخـر الطشـت، في حين يقـوم الشاب صاحب قيسـارية مع السير آنسيودي بري بتقطيع اللحـوم أمامه، وتوجب على الأربعة إرتداء أزر Tunics وقمصان ضيقة من الرقبة حتى الـوسط فـوق أرديتهم. فهـذا ـ حسبما قيـل ـ كان قـانـون الامبراطوريـة وعرفها، وقـد خدموه بإرادة طيبـة وبنبل، وفعلوا ذلك مرات عـدة وقدموا أطعمة متنوعة .

٢٥ : وفي دور الطعـام الأخير خرج الـرجـال المسلحـون من أمـاكنهم التي كانوا قد تمركزوا فيهـا، واستولوا على القصر وعلى الغرف وعلى البلاط الكبير وعلى الباب الـرئيسي وبقية الأبواب ....(٦٣)، وكان هنـاك رجال مسلحين بشكل جيد في القصر حيـث كان الامبراطور، وكان هنـاك عدد كبير أمامه يمسكون بالأسلحة بـأيديهم، بعضهم ممسك بمقابض سيوفهم وبعضهم بـالخنـاجر، ولاحـظ القبارصة ما يجري، لكنهـم لم يتفوهـوا ولا

بكلمة واحدة، وبذلوا غاية جهدهم لإعطاء مظهر الاسترخاء، والتفت الامبراطور نحو صاحب بيروت وخاطبه بصوت مرتفع قائلاً : أود يا سير جون أن أطلب منك أمرين اثنين، إنك سوف تفعلهما عن طواعية وبشكل لائق إن كنت تعرف ما هو المعقول»، وقد ردّ عيه قائلاً :« قل ما يسرك ولسوف أفعل عن طواعية ما سأراه صحيحاً، أو ما يراه الناس الشرفاء مناسباً» .

٢٦ : وقال الامبراطور :«عليك أن تفعل واحداً من اثنين : إما أن تسلمني مدينة بيروت، لأنك متملك لها بدون حق، أو أن تسلمني كل ما يتعلق بوكالة قبرص والحكم فيها مع جميع ما ربحته وحصلت عليه منذ وفاة الملك هيوج، أي موارد عشر سنوات، لأن هذا كله حق لي بموجب التطبيقات الألمانية (٦٤)»، ورد عليه صاحب بيروت قائلاً:« أعتقد يا سيدي أنك تهزأ بي وتستخف، ومن المؤكد بالنسبة لي أن بعض الرجال الأشرار الذين يكرهونني قد اقترحوا عليك هذا المطلب، ولهذا السبب تقدمت به، ولكن ـ وفقاً لإرادة الرب ـ إنك سيد جيد وعاقل، وإنك تعرف دوماً المدى الذي كنا قادرين به على خدمتك، ولسوف نفعل ذلك عن طواعية،وبذلك إنك سوف لن تصدقهم»، ثم وضع الامبراطور يده على رأسه وقال: «بحق هذا الرأس الذي لبس التاج مراراً، إنني سوف أنفذ إرادتي في هذين الأمرين اللذين طلبتهما منك أو إنك سوف تعتقل وتجعل سجيناً» .

٢٧ : ثم انتصب صاحب بيروت واقفاً وقال بصوت مرتفع وبحضور آمر :« إنني استحوذت على بيروت ومستحوذ عليها بحكم إنها إقطاع لي، لأن مولاتي الملكة إيزابل(٦٥)كانت أختي من خلال أمي، وابنة للملك عموري(٦٦)، وبذلك كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، وقد قامت هي ومولاها الملك عموري(٦٧) بإعطائي بيروت مقابل وظيفة القسطلان، وكانت بيروت عندما استردها المسيحيون مهدمة

لذلك رفضها الداوية والاسبتارية وجميع بارونات سورية(٦٨)،وقد قمت بتحصينها والمحافظة عليها بوساطة مساعدات المسيحيين وبفضل عملي، ولقد استخدمت وأنفقت هناك كل ما حصلت عليه من موارد في قبرص، وإذا كنت ترى أنني متملك لها بشكل غير شرعي فسوف أزودك بالبراهين وأتولى مباشرة عرض المسألة على المحكمة التابعة لمملكة القدس، أما فيما يتعلق بما طلبته مني بشأن موارد وكالة قبرص والحكم هناك، إنني لم أحصل قط على أية موارد، وكذلك لم يحصل أخي عندما كان وكيلاً، وذلك باستثناء مشاكل ومتاعب حكومة المملكة، والذي حصل على الموارد هي الملكة أليس ـ ابنة أختي ـ وقد تصرفت بهذه الموارد حسب مشيئتها، أما فيما يتعلق باستحواذ الوكالة قانونياً حسب تطبيقاتنا، إذا ما طلبت مني البرهنة على هذا الحق، فإنني سوف أزودك بالبراهين وفقاً لتطبيقاتنا، وبوساطة محكمة مملكة قبرص، وتأكد أنه بالنسبة للخوف من الموت أو السجن إنا لن نفعل شيئاً سوى ما سيطلبه قرار المحكمة الجيد والمخلص مني أن أفعله(٦٩)» .

٢٨ : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً ، وأقسم ، وتهدده وقال أخيراً:« لقد كنت قد سمعت من قبل عندما حكي لي عبر البحر منذ وقت طويل مضى بأن كلما تك هي حلوة جداً، وأنك من أكثر الناس حكمة، وبارع في جملك، لكنني سوف أريك أن مهارتك وبراعتك وكلماتك لن تفيد شيئاً أمام قوتي»، وقد ردّ عليه صاحب بيروت بطريقة نالت الاعجاب العظيم من قبل جميع الذين كانوا هناك، وخاف رفاقه خوفاً عظيماً .

٢٩ : وكان رده كما يلي:« لقد سمعت يا مولاي منذ وقت طويل مضى ذكر كلماتي الأديبة، وسمعت أنا كثيراً ومنذ وقت مضى عن أفاعيلك، وعندما فكرت بالقدوم إلى هنا، حذرني جميع مستشاري بصوت واحد من الأشياء التي تتولى القيام بها، ومن الأسوأ، لكن لم

أرغب في أن أصدقهم جميعاً، ولايمكن القول إنني لم أخف منك كثيراً،ومع ذلك قدمت وأنا متيقظ وحذر، وما زلت على استعداد لأن أتلقى منك السجن أو الموت، على أن أرضى بأن يتمكن أحد من القول أي شيء سيء حولنا، أو يكون هناك ضرر بالنسبة لحاجة ربنا والاستيلاء على الأرض المقدسة، أو أن تعاق خدماتك من خلالي أو من خلال أسرتي، أو من خلال الذين في البلاد حيثما كنت، أو أن تصل الأخبار إلى العالم المسيحي، فيقولون: ألم تعرف؟ لقد ذهب إمبراطور روما عبر البحر، وكان سوف يتمكن من الاستيلاء على كل شيء لولا ما فعله الإيبلينيون، أولئك الخونة فيما وراء البحار الذين أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، لأنهم ثاروا ولم يرغبوا باتباع الامبراطور، ولهذا السبب فقد كل شيء، وهذا كله تماماً الذي رويته لكم قد قلته لمستشاري عندما تركت نيقوسيا لآتي إليكم، وقد جئت مستعداً تماماً لمعاناة كل ما يمكن أن يأتي، في سبيل حب مولانا يسوع المسيح الذي عانى من الآلام ومن الموت من أجلنا، وهو الذي سوف يخلصنا من الموت أو السجن، فأنا أشكره من أجل ذلك، وبه سأظل مرتبطاً دوماً»، وبهذا توقف عن الكلام وأجلس نفسه .

٣٠(١٢٨) : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً وتغير لونه مراراً ، وكرر الناس النظر نحو صاحب بيروت، وكانت كلمات التهديد كثيرة، وتدخل رجال الدين والرجال الجيدين الآخرين للمصالحة بينهما، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل زحزحة صاحب بيروت عما قاله وعما قرر فعله، وصنع الامبراطور عدة طلبات غريبة وأعمال تهديد، وتم الاتفاق بالنهاية، حسبما كان صاحب بيروت قد عرض، وليس أكثر من ذلك أمكن للقوة تحقيقه : وجوب أن يسلم إلى الامبراطور عشرين من أعظم أعيان إقطاعيي قبرص، الذين تعهدوا بأجسادهم وبمقتنياتهم وبممتلكاتهم بأن صاحب بيروت سوف يخدمه، ولسوف يذهب إلى

محكمة مملكة القـدس،ويقدم هناك براهينه، وفقط عندمـا سوف يظهر في المحكمة سوف يجري تحرير الرهائن وإطلاق سراحهم .

٣١ : وطلـب الامبراطـــور منـــه ولـــديــه : السير بـــالين والسير بلدوين(٧٠)، وكل ما قـاله لم يرتض به مولاي، ولـذلك وافق بالقوة على أن يأخـذهما الامبراطـور، ثم قـال الامبراطـور مخاطبـاً صـاحب بيروت :« إنني أعرف تمام المعرفة أن بالين هـو الأثير إلى قلبك، وبناء عليه إنني ما دمت مستحوذاً عليه أنا مستحوذ عليك»، وأمـر الامبراطور باستدعائهما، وقـدمـا على الفـور، وأخـذ أبـوهما بيمين كـل واحـد منهما وسلمهما إلى الامبراطور قـائلاً :« إنني أعهد بهما إليك، وأدعهما بـذمة الرب وبـذمتك بوساطـة هذا الميثاق : أنني حالما أقدم إلى محكمة مملكـة القدس مستعداً للبرهنة على حقوقي، سـوف يحرران ويطلق سراحهما، وأنك سوف تحتفظ بهما وتحرسهما بشرف، وأنك سـوف لن تسبب الضرر لهما أو تعـرضهما لأي أذى بـالرضـا أو بـالغضب»، وهنـا قـال الامبراطـور : « وإنني أتسلمهما بذمـة إيمان الرب وإيماني، ولسـوف يثريـان بوساطتـي ويتشرفان، إذا أراد الـرب»، وبهذا غـادر الامبراطور(٧١)، وأمـر بـوضعهما في داخل أقفـاص خشبيـة (٧٢) واسعة وبشكـل بالـغ الوحشيـة، وكـان هناك صليـب من الحديـد قـد ربطا إليـه، ولـذلك لم يكـن بإمكـانهما تحريك لاأيـديهما ولا أرجلهما، وفي أثناء الليل ربط بقية الرجال بالحديد معهم(٧٣) .

٣٢(١٢٩) : وما أن غادر صاحـب بيروت المكان، حتى ذهب أعداؤه إلى الامبراطـور وقالـوا لـه :« ما الـذي فعلتـه يـا مولاي؟ سـوف يـذهب صـاحب بيروت ويشحن القـلاع ضدك، ولسـوف يثير البلاد كلهـا، ولن يتمنع عـن ذلك بسبـب أولاده، ذلك أن معظـم النـاس يحبـونـه وسـوف يتبعونـه، وأفضل نصيحة هي أن تبعث خلفـه على الفور، وأن ترسـل إليه رسالـة لطيفة، وأن تقـول له أنـه إذا ما فعـل ما تطلبـه سوف تعيـد إليه ولديـه، وما أن يأتي تلقي القبض عليـه، فالذي يمتلك الشجـاعة يمتلك

قطيعه، وبهذه الوسيلة تصبح صاحب قبرص وما من أحد سواك»، وأمر الامبراطور، الذي فعل الكثير من الشرور صدوراً عن إرادته الذاتية ودونما تشجيع، باستدعائه وجلبه، لكن صاحب بيروت كان متيقظاً ومحروساً بشكل جيد من قبل الذين يثق بهم، والذين كانوا معه في اجتماع التشاور، وكان معسكراً خارج المدينة في خيام، وكان هو ورفاقه معهم خيول وسلاح، ولم يكن لدى الامبراطور خيول في المدينة، لكنه امتلك السيطرة على داخل المدينة بفضل العدد الكبير من الرجالة الذي كان لديه .

٣٣ : وعقد صاحب بيروت اجتماعاً وقال إنه يرغب بشحن القلاع وحراسة البلاد لصالح حقوق ورثة الملك هيوج، في حال حدث حادث سوء للملك الذي أخذه الامبراطور وهو متحفظ عليه، ثم إن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت ومعه السير آنسيو دي بري ــ وكان هذان شجاعان جداً ونشيطان ــ قالا له :« لاتفعل هذا يا مولاي، بل اذهب إلى الامبراطور وخذنا معك، ولسوف يخفي كل واحد منا مدية في سوطه، وما أن نمثل أمامه حتى نقتله، وسيكون رجالنا على ظهور خيولهم أمام الباب مسلحين بشكل جيد، وعندما سيكون الامبراطور ميتاً، ما من أحد سوف يتحرك ، وبذلك سوف ننقذ أولاد عمنا»، وغضب صاحب بيروت غضباً شديداً ، وهددهما بالضرب و بالقتل إذا ما تكلما حول ذلك ثانية، وقال إن هذا سوف يعدّ عملاً غير شريف إلى الأبد، ولسوف يصرخ المسيحيون في كل مكان :«لقد قتل هؤلاء الخونة فيما وراء البحار مولاهم»، ثم استطرد يقول معللاً:« إنه إذا ما مات وبقينا نحن أحياء وأنقذنا،سيصبح حقنا باطلاً، ولن يتم مطلقاً تصديق الحق والأخذ به، وهو الآن مولانا(٧٤)، ومهما عمل سوف نحافظ على إخلاصنا وشرفنا» .

٣٤(١٣٠) وعندهاغادر صاحب بيروت عند حلول المساء، وكانت

الضجة كبيرة في معسكره لدى مغادرته، وسمع الامبراطور الضجة، وخاف من ذلك خوفاً عظيماً، ولهذا تخلى عن المنزل الذي كان فيه، وذهب إلى برج الاسبتارية الذي كان حصيناً، وقريباً من سفنه، ووضع هناك الرهائن في السجن، وذهب صاحب بيروت مباشرة من ليماسول إلى نيقوسيا، واحتلها مع الذين رغبوا باللحاق به، وشحن بشكل كبير قلعة عرفت باسم ديودامور(٧٥)، وإليها بعث بالأولاد والنساء العائدين إليه وإلى رفاقه، وبقي هو ورجاله المسلحين في مدينة نيقوسيا، وبعث الامبراطور إلى سورية يطلب جيشه مع خيول وكثير من المرتزقة (٧٦)للقدوم إلى قبرص، وجاء الأمير العجوز صاحب أنطاكية(٧٧)، وصاحب جبلة(٧٨)، وصاحب صيدا(٧٩)، وعددكبير آخر من الرجال، جاءوا إلى الامبراطور ووصلوه في ليماسول، وفي الوقت الذي كان فيه هناك، كان السير عموري برلياس وجماعته معسكرين في البيت الذي كان سجناً للرهائن، ويحكى أنه أساء إليهم كثيراً وألحق بهم الكثير من الأذى .

٣٥(١٣١) : وعندما تلقى الامبراطور فردريك ما يكفي من نجدات، ركب وزحف مباشرة إلى نيقوسيا(٨٠)، وأشار المستشارون التابعون لصاحب بيروت عليه أن بإمكانه التصدي له ومنازلته، لكن رجاله الجيدين قالوا إنه لن يفعل ذلك، لأنه لن يقاتل بمشيئة الرب ضد مولاه، وهو لم يرغب قط بالقتال ضده إذا ما أمكنه تجنب ذلك، لأن من عادته البقاء دوماً مستقيماً نحوه عن طواعية، ولقد قام بهذا العمل وهو آسف، ومادام قد بدأ ذلك فلسوف ينهيه، وأعطاه مولانا نعماً فائضة من المشاعر والحكمة والشجاعة والشرف، وأظهر نحوه حبه أكثر من أي إنسان في أيامه، أومثيله في الثروة، وقام الإيبليني بتسليم نيقوسيا إلى الامبراطور وذهب إلى ديودامور، التي كان قد شحنها، ولم يتجرأ الامبراطور على اللحاق به، بل بقي لوقت طويل في نيقوسيا مع عدد كبير من الرجال.

٣٦(١٣٢) واقترب الشتاء وتلقى الامبراطور أخباراً من بلاده بأن البابا غريغوري والملك جون صاحب القدس كانا يشنان الحرب ضده في أبوليا(٨١)، ولهذا كان خائفاً جداً ،وبادر إلى الإسراع للذهاب إلى سورية، ليعقد هدنة مع المسلمين حتى يمكنه العودةإلى بلاده، ولهذا السبب سارع إلى عرض التصالح مع صاحب بيروت، وهكذا جرت المباحثات وتقدمت بوساطة رجال الدين وآخرين بغية الوصول إلى اتفاقية، وكانت المحصلة أن أقسم الامبراطور وجميع باروناته لصاحب بيروت أنه سوف يبعث إليه على الفور ولديه سالمين وصحيحين في الجسد والأطراف، ولسوف يحتفظ بالسلام معه، ولن يلحق الأذى به أو بشعبه ولن يغرمهم، إذا لم يكن ذلك بموجب أمر صادر عن المحكمتين، كما أنه لن يحمل في نفسه أي حقد تجاه هذه الأمور التي انقضت، ولسوف يمكن الملك هنري شخصياً من تسلم القلاع والمملكة، وبما أن الملك ما يزال طفلاً، فإنه سوف يعين واحداً من أتباعه(هنري) ليتولى حراسة القلاع والمملكة حتى يصل الملك إلى السن التي تؤهله للحكم .

٣٧ : وأقسم صاحب بيروت ورجاله أنهم سوف يسلمون قلعة ديودامور بناء على أوامر ملك قبرص المتقدم الذكر، وأنهم سوف يذهبون مع الامبراطور وسوف يخدمونه طيلة الوقت الذي سيبقى فيه في سورية على حسابهم الشخصي، وهو لن يتحمل أي أذى نحوه أو نحو مؤيديه فيما يتعلق بجميع الأشياء التي مضت، وأصر الامبراطور على وجوب اعترافهم بأن الوكالة عائدة إليه، المطلب الذي ردوا عليه بعدم الموافقة، حتى لو فقدوا رؤوسهم، لأنه فيما يتعلق بالوكالة، فهم قد كانوا رجال الملكة أليس، لكنهم لن يترددوا في إقسام يمين الولاء إلى الامبراطور لأنه المولى الرئيسي لمولاهم الملك هنري، وإنهم سوف يقسمون هذا القسم نفسه بموجب الميثاق التالي : إذا كان قد تقرر في الامتيازات التي وردت في المواثيق التي أقيمت فيما بين والد الامبراطور والملك(عموري) هنري،

بأنه يتوجب على رجال الملك إقسام يمين الولاء، فإنهم سوف يتمسكون بأداء القسم، لكن إذا كان هذا لم يرد بين الامتيازات، فوقتها ينبغي تحليلهم من أداء ذلك (٨٢)، وتعهد الداوية والاسبتارية وجميع البارونات والأعيان من كلا الجانبين بالحفاظ شخصياً على هذا السلام، وسلمت قلعة ديودامور وبقية الحصون الأخرى في قبرص إلى الملك، وقام هذا بناء على أوامر الامبراطور وخوفاً منه بتسليمهم جميعاً إلى رجاله الذين كانوا من حزب الامبراطور (٨٣).

٣٨ (١٣٣): وذهب الامبراطور فردريك وأتباعه فوراً إلى فيما غوستا، للاقلاع من هناك (٨٤)، وقدم إليه إلى هناك اسطوله من ليماسول، وأرسل من هناك إلى صاحب بيروت ولديه، اللذان عانيا طويلاً من السجن على اليابسة وفي داخل السفن في البحر، وكانا في حالة مزرية جداً، حتى كان من المؤلم النظر إليهما، ومع ذلك استقبل الامبراطور السيد بالين في بيته وعرض عليه وأعطاه كثيراً، وهو الذي كان شاباً عظيم الشجاعة وفارساً، ونشيطاً وكريماً، وبارعاً، ومقبولاً جداً لدى جميع الناس الذين كانوا على هذا الجانب من البحر، قام بخدمة الامبراطور عن طواعية وبأدب إلى حد أنه كان مسروراً منه، وكان الابن الآخر لمولاي صاحب بيروت اسمه جون (٨٥)، وكان سيداً، وقد احتفظ به الامبراطور طيلة وجوده في سورية، وقال بأنه سوف يعطيه فوغيا Foggia التي هي في أبوليا، ولهذا السبب عرف باسم جون أوف فوغيا(٨٦).

٣٩ (١٣٤): وأقلع الامبراطور مع اسطوله من فيماغوستا في إحدى الأمسيات عند حلول الظلام (٨٧)، وهرب منه في تلك الليلة نفسها أمير أنطاكية العجوز، وتركه على ظهر سفينة حربية حيث وصل إلى إحدى قلاعه التي عرفت باسم نفين (٨٨) Nefin، ثم إنه قدم الشكر للرب على أنه نجا من الامبراطور، لأنه كان قد قدم إلى قبرص بعدما عقد صاحب بيروت السلم معه (٨٩)، وكان الامبراطور قد طلب من

الأمير بأن يأمر جميع أتباعه في أنطاكية وطرابلس أن يقسموا يمين الولاء له، مثلما فعل الذين كانوا في قبرص، وقد عدّ الأمير هذا كأنه قد مات وسلب ميراثه، ولهذا تظاهر بالمرض والوجع وكان دوماً يصرخ « آه— آه— آه— آه»، وقد فعل ذلك بشكل مؤثر حتى تمكن من المغادرة حسبما سمعت، لكنه ما أن وصل إلى نفين حتى تعافى.

٤٠ (١٣٥): ووصل الامبراطور في سنة ١٢٢٩ (١٢٢٨) إلى سورية مع اسطوله كله ووصل الملك معه، وجميع قبارصته معه، وتوجه صاحب بيروت إلى بيروت، حيث استقبل هناك بسرور عظيم، لأنه ما من أمير قد أحبه رجاله مثلما أحبوه، وقد بقي هناك لمدة يوم واحد، ثم لحق على الفور بالامبراطور، والتقى به في صور، واستقبل الامبراطور استقبالاً جيداً في سورية، وقدم له الجميع الولاء، وغادر مدينة صور ومضى إلى مدينة عكا، وقد استقبل هناك بترحاب كبير (٩٠)، ودخل اسطوله الذي تألف من سبعين غليونا وسفينة إلى ميناء عكا، واتخذ هو لنفسه مقراً في القلعة، ثم أمر بجمع الأتباع الاقطاعيين وطلب منهم أداء يمين الولاء له (٩١) بمثابة الوكيل، لأنه كان لديه ولداً صغيراً اسمه كونراد، وهذا كان الوريث الشرعي لمملكة القدس من خلال أمه التي كانت متوفاه، وترك الامبراطور وجميع رجال سورية عكا، وذهبوا إلى يافا (٩٢)، وعقدوا هناك اتفاق هدنة مع الكامل (٩٣)، الذي كان سلطان القاهرة ودمشق (٩٤)، وكان مستولياً على القدس، وعلى جميع البلاد، وبموجب هذه الاتفاقية كان سيسلم القدس والناصرة واللد إلى الامبراطور (٩٥) .

٤١(١٣٦): وفي وسط هذه الأحداث، في هذه السنة نفسها (١٢٢٩) بعث الامبراطور بالكونت ستيفن صاحب البترون (٩٦) إلى قبرص ومعه اللومبارديين الآخرين، ليتولى الاستيلاء على جميع الحصون وعلى موارد التاج ليتولى استخدامها، وقد قال بأنه الوكيل، وأن تلك كانت حقوقه، وكان القبارصة خائفين جداً وكذلك نساؤهم وأطفالهم وقد وضعوا

أنفسهم تحت رعاية رجال الدين حيثما استطاعوا، وهرب بعضهم إلى خارج قبرص، وخاصة السير جون دي إيبلين (٩٧) — الذي أصبح فيما بعد صاحباً ليافا، وقد كان في ذلك الوقت طفلاً— وقد هرب ومعه أخته مع آخرين من الاسر النبيلة، وحدث ذلك في قلب الشتاء، وقد واجهوا أحوالاً جوية صعبة حتى أنهم نجوا بصعوبة كبيرة من الغرق، وقد وصلوا بعون الرب أخيراً إلى طرطوس، واستولى الامبراطور الآن على قبرص، وكان القبارصة في جيشه في غاية الانزعاج، ولو وافقهم صاحب بيروت لتجمعوا واختطفوا الملك الشاب هنري ولتخلوا عن الامبراطور.

٤٢ (١٣٧): وبات الامبراطور مكروهاً من قبل جميع الناس في عكا، وكان مبغوضاً بشكل خاص من قبل الداوية (٩٨)، وكان هناك في ذلك الوقت مقدم الداوية الأكثر شجاعة، الأخ بيتر دي مونتاغيو (٩٩)، الذي كان باسلاً جداً ونبيلاً، وعظيم الإقدام، وحكيماً (١٠٠) أيضاً كان مقدم فرسان التيوتون (١٠١)، ولم يكن شعب السهل (١٠٢)ميالاً نحو الامبراطور، وقد اقترف الامبراطور أعمالاً كثيرة بدت شريرة، واحتفظ ببعض الغلايين مستنفرة تحت السلاح ومجاذيفها في أماكنها، وفعل ذلك حتى في الشتاء، وقد قال بعض الناس بأنه رغب في القاء القبض على صاحب بيروت، وعلى أولاده، وعلى السير آنسيو دي بري، وعلى بقية رفاقه، وعلى مقدم الداوية وعلى أناس آخرين، وأنه كان ينوي إرسالهم إلى أبوليا، وقالوا بأنه رغب في احدى المناسبات بقتلهم أثناء اجتماع دعا إليه وجمعهم فيه، لكنهم أصبحوا مدركين لنواياه، وجاءوا بقوة عظيمة لذلك لم يتجرأ أن يحاول قتلهم، ومهما يكن من أمر، لقد عقد هدنة مع المسلمين، حسبما رغب، وذهب إلى القدس (١٠٣)، وتوجه من هناك إلى عكا، ولم يتخل صاحب بيروت عنه، مع أنه كان هناك من نصحه مراراً بالتخلي عنه، لكنه لم يرغب بفعل ذلك.

٤٣ (١٣٨): وجمع الامبراطور رجاله في عكا، وأمر باحتشاد جميع أهل

عكا، وكان هناك عـدد كبير من البيازنة، الذين كانوا مؤيدين له وميالين كثيراً إليه، وهنـاك خطب فيهم وأبلغهم بما رغـب به، واشتكى في خطـابه كثيراً من الداوية.

وقـام بمحـاصرة بيت الـداويـة (١٠٤)، وتضرر بيت الـداويـة أضراراً كبيرة، لأن الدير كـان كله بالخارج، غير أن كثيراً من الناس تقـاطروا عليه بحـراً وبراً، وإنني لا أعـرف كم دام الحصـار، لكنه غـادره بوضع شريـر جـداً (١٠٥)، وأعـد الامبراطـور العـدة بشكل سري لعبـوره، ودخـل إلى غليونه في اليوم الأول من شهر أيـار عند الفجر، دون أن يعرف ذلك أحد من النـاس، وحين دخـل إلى الغليـون كان ذلـك أمـام شـارع الجزارين، وحـدث هناك أن الجزاريـن والمسنين من أهل ذلـك الشارع الـذين كـان وضعهم سيء جـداً، أنهم ركضـوا إلى جـانبه ورمـوه بـالفضـلات وبقطع اللحم بشكل مهين جداً.

٤٤: وسمع صـاحـب بيروت والسير يودس دي مـونتبليـارد (١٠٦)، ضجة الكـلام حول هذا، فبـادرا مسرعين، وأبعدا الناس بـالضربات، أي الناس الذين كـانوا يرمون هذه الأشياء عليه، وصرخـا إليه من جانب البر حيث كـانا إلى حيث كان في الغليـون بأنهما يدعـانه في رعايـة الرب، ورد الامبراطور بصوت منخفـض جداً بأنه لايعرف هل هـذا سيكون جيداً أم سيئاً، وقال بأنـه تارك في مكانه وكيلاً صـاحـب صيدا (١٠٧)، وغارنيير الألماني (١٠٨)، وكـان الامبراطـور قد جهـز قلعـة صـور بشكل جيـد، وأعطـاها إلى صـاحب صيدا ليتـولى إمـرتها، وجعل الأمور تظهـر أنه قـد وضع ثقـة عظيمـة بـه، وقـد اصطحـب الامبراطـور الملك هنـري ملـك قبرص معه.

٤٥ (١٣٩): وهكـذا غـادر الامبراطـور عكـا، مكـروهـا، وملعـونـا، ومـرزولاً، ووصل إلى قبرص، وحـل في ليماسـول، ونصـب هنـاك الملـك المتقدم الذكر، أي الملـك هنري، وأعطاه زوجة واحدة من قريبـاته، كانت

ابنـة المركيز أوف مـونتفـرات (١٠٩)، وعقـد هناك اتفـاقـات نهائيـة مع الوكـلاء الخمسة ، الذيـن سمعت بأسمائهم من قبـل، والذين كانـوا من حزبـه، وقد باعهم وكـالة قبرص والبلاد بمبلـغ عشرة آلاف مارك، وذلك حتى يصل ملك قبرص المتقـدم الذكر إلى سن الـرشد (١١٠)، وجعلهم يقسمون أنهم لن يمكنـوا صاحب بيروت والمتحزبين معـه من العود ة إلى قبرص، وأمرهم بوجـوب طردهم وتجريدهـم من ممتلكـاتهم، وقد قبلوا بهذا عن طـواعيـة مـن الامبراطور، وبنـاء عليـه حـوّل إليهم مـرتـزقـة وألمان، وفلمنكيين، ولـومبادر تـوجب عليهم أن يـدفعـوا لهم، كما التمسوا أيضـاً اكتراء بعض المرتـزقة مـن عكا ومـن أماكن أخـرى، وقـام بعض الرجـال الـذين كـانـوا من رجـال الملك بـالالتحـاق بهم ووضعـوا أنفسهم تحت إمرتهم، بحكم وجـود الملك هنـري مع الـوكـلاء، ولأنهم أنفسهـم رغبـوا بـالعودة إلى بيـوتهم، لكن القـلاع لم تستسلم إليهـم إلى أن يدفعـوا المال، وسافر الامبراطـور فردريك عبر البحر وترك في مكانـه رجالاً لتسلم المال وليسلموهم القلاع (١١١).

٤٦ (١٤٠): وكان فيليب دي نـوفار وقتذاك في قبرص يقوم بأشغـاله الخاصة (١١٢)، وأمره الوكلاء الخمسة بشكل سري، وذلك بعد ما بحثوا عنه في أثنـاء الليل ورجوه وطلبـوا منه بكل مظـاهر الصداقـة، أن يسعى لإقـامـة سلام بينهـم وبين صـاحب بيروت، وقـالـوا بأن التسـويـة التي صنعـوها مـع الامبراطور كـانت فقـط من أجل استسـلام الملك والبـلاد وتخليصهم من يـديه، وأنهم مـا أن يتسلموا القـلاع حتى سيفعلوا كـل ما يرغب به صاحب بيروت (١١٣).

واتفق فيليب دي نوفار مع الوكـلاء الخمسة أنه سوف يقوم بكل سرور بهذه المهمـة، وذلـك لمعـرفتـه بحكمـة مـولاه وعفـوه، واشترط عليهـم أن يقسمـوا لـه على الإنجيل المقـدس، أنـه إذا لم يتمكن من عقـد السـلام، سوف يأخذونه هو وآل بيتـه وجميع مقتنياته بأمن وسلام إلى بيروت أو إلى

عكا، وناضل فيليب دي نوفار في سبيل السلام ووجد في مولاه كل ما رغب به.

٤٧: وفرض الوكلاء الخمسة الضرائب على فقراء الناس في قبرص وسرقوهم كثيراً حتى تمكنوا من دفع المال وتسلم القلاع (١١٤)، وكان لديهم في ذلك الحين عدد كبير من الرجال، حتى أنهم عدّوا أنفسهم أقوياء جداً (١١٥)، ومن ثم وافقوا وقادوهم بحماقة نحو مايلي:

لقد أصبحوا متعجرفين واعتقدوا أنهم سوف يستحوذون على البلاد ويدافعون عنها، ويتغلبون على مولاي صاحب بيروت وعلى حزبه، ومع هذا تابعوا الحديث بشكل سري عن السلام مع فيليب، ثم أمروا شعب البلاد بالاجتماع في بلاط الملك، وذهب واحد منهم شخصياً لإحضار فيليب ووضع يديه حول عنقه وترجاه أن يذهب إلى الملك، لأنهم رغبوا في عقد اجتماع خاص معه، وقد ذهب عن طواعية، لأنه وثق وثوقاً كبيراً بالقسم الذي أدوه إليه.

٤٨: وعندما دخل فيليب دي نوفار إلى بلاط الملك وجد الأبواب محروسة بكثافة من قبل رجال من أتباع بيوت الوكلاء الخمسة، وقد حفظوا الأبواب بشدة حيث لم يسمحوا لأحد بالجواز إلى الخارج، وكان فيليب خائفاً لكنه لم يظهر أدنى علامة على ذلك، وعندما اجتمع الجميع وقف واحد من الوكلاء، وكان واحداً خطيباً مفوهاً، واسمه وليم ريفت، وقد تكلم لمدة طويلة بكلمات جميلة، وقد قال بين أشياء بأن صاحب بيروت قد فقد بحماقة الملك والبلاد، وأنهم (أي الوكلاء) قد استردوا بعقلانية كلاهما الواحد ثم الآخر، وقد اشتروا الوكالة، ولهذا السبب إنهم يطلبون من شعب المكان أن يقسموا لهم على الاحترام، وأن يقفوا إلى جانبهم وأن يحافظوا عليهم بمثابة وكلاء لهم حتى يصل الملك إلى سن الرشد، وكان الملك في أيديهم وكان خائفاً جداً، وقد تكلم الملك بصوت منخفض، وغالباً مانظر نحو فيليب.

٤٩: وجلب على الفور الإنجيل المقـدس إلى ذلك المكان، وقال السير عمـوري بـرليـاس إلى فيليب دي نـوفـار «إذهـب أنت أولا قبـل الجميع وأقسم، ذلك أننـا نرغب بشكـل خاص أن تكـون أنت الأول»، وانتصب فيليب قـائماً وقال: «تحدث إلي يـاسيد أولاً على انفـراد ، أنت ورفـاقك»، وقد ردوا عليـه جميعاً وقـال الخمسة: «بعـون الرب، لن نفعل ذلـك، لأنه يتوجب علينا أن نفعل كثيراً جداً، إذا ماتشـاورنا مع كل واحد من هؤلاء الذيـن سوف يقسمون، وبـذلك مـا من شيء سوف ينجـز، لكن أقسم ، ولسوف نصنع أشياء أكثر لك مماقـدمه أولئك الذين خدمتهم حتى الآن، وأي واحد منا تريـده سوف يعطيك إقطاعاً لك ولورثتـك، ولسوف ندفع كل ديونك (١١٦)».

٥٠: ورد فيليب قـائلاً: «إنني عظيـم السرور، أنكم عـرضتم علي هـذا العطاء العظيـم على مسامع هـذا العدد الكبير من النـاس، وتشريفكم لي دليل على تقديـركم العظيم، وأنا أشكـركم على ذلك وافر الشكـر، لكنني غير قادر على فعل ما سألتموني أن أفعله، لأنني رجل تابع للملكة أليس بموجـب وكالتهـا، وإذا ما وافقت وأقسمـت على عدكم وكـلاء، عندهـا أكون قـد خرقـت تعهداتي»، وعنـدها صرخـوا بصوت واحـد: «ليس لهذا السبب إنـك تـرفض، بـل لأنك لاتـرغـب في أن تكـون ضـد صـاحب بيروت»، وقال فيليـب: «إنني بمشيئة من الـرب، لن أكون ضد صـاحب بيروت، لأنني أحبـه وأحب أولاده أكثر مـن أي جماعة أخـرى في العالم»، وهنا قال هيوج صاحب جبلة: «هـل سمعتم ماقاله؟ إنني أقترح أن نقوم بشنقه»، ورد فيليـب على هذا بقولـه إنه لايتفق مع مـاقالـه السير هيوج، وكان والـده السير برترانـد قد تكلم مـرارا بشكل أكثر عقلانيـة، ثم إنهم صرخـوا جميعاً، وقـال واحد منهـم: «خذوه» وقـال آخر «اقتلـوه الآن على الفور».

٥١— وازداد اضطـراب فيليب نحو هـذا وقلقه، ويئـس من حياتـه،

وجثا أمام الملك وكرر على مسامعه العهد واليمين الذي قطعه الوكلاء الخمسة معه، وقدم ضماناته وعرض أن يتبارز —وفقا لقرار المحكمة— شخصياً ضد واحد من الخمسة، وذلك تماشياً مع ماادعاه، وقام عدد من أتباعهم، ممن كانوا فرساناً، بتقديم ضماناتهم ضد فيليب، لكنه رفضهم جميعاً بسبب ماقاله، وأصر طوال الوقت على طلب منازلة واحد من الخمسة، ذلك أنه قال بأنه كان من المؤكد معادلاً لهم، وأنه من السهل عليه البرهنة على ذلك، بكفالة عدد من الرجال الجيدين من بلاده الموجودين في قبرص وسورية، وقد أنكر كل واحد منهم ماقاله، لكن مامن واحد منهم عرض ضماناته للمبارزة، وبناء عليه اعتقلوه، ووضعوه تحت الحراسة في واحد من أماكن القصر، وتولى حراسته فرسان حملوا بأيديهم السيوف مجردة، وأعجب الناس كثيراً بماقاله فيليب وبمافعله، وأمر الوكلاء بإحضار قفص كبير، وأمروا بوضعه هناك، لحمله به إلى قلعة ديودامور، وفي الوقت نفسه حرسوه في القصر بشدة طوال الليل، وأدى بقية الناس اليمين للوكلاء.

٥٢— واجتمع الوكلاء الخمسة على انفراد وتشاوروا، وقالوا: «لقد طلب هذا الرجل المحاكمة في المحكمة، وإذا ماأخذناه بدون ذلك، سيكون ذلك خرقاً، لكن دعونا نطلب منه تقديم تعهدات وضمانات بمبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة بأنه سوف يمثل في اليوم التالي في المحكمة، بالشكل الذي هو عليه الآن، ودعونا نقول له إنه إذا ماأقسم هكذا فسوف يحاكم بالمحكمة، وعندما سوف يغادر من هنا دعونا نقتله بحكم أنه عدو خطير لنا، ولنفعل ذلك الليلة»، وهكذا بعدما أعدوا ماأرادوه، طلبوا التعهدات منه، ورد فيليب دي نوفار أنه لايحتاج إلى تعهد وضمانة، وبحكم كونه تابعاً اقطاعياً هو لايحتاج إلى تقديم أي شيء من هذا القبيل، ثم إن سمعته وصدقه واقطاعه ضمانة له، فأخبروه بأنهم سوف يؤمنون له حفظاً جيداً لسلامته، وعرضوا عليه أن يضمنوه

هم أنفسهم، غير أنه شكرهم، وتمنى أنهم سوف يقدمون مثل هذه الخدمة له عندما سيكون بحاجةإليها.

٥٣ (١٥١)— ومأأن غادرهم فيليب دي نوفار حتى توجه مباشرة إلى مقر الاسبتارية، واستطاع أن يتدبر في تلك الليلة نفسها جمع مائة وخمسين رجلاً مسلحاً، وقد وجد هناك نساء وأطفال الذين كانوا في سورية مع صاحب بيروت، ولولا أن فيليب قدم إلى هناك لقام الوكلاء الخمسة يدخول المكان في اليوم التالي، ولتولوا أسره(١١٧)، وهاجموا في تلك الليلة نفسها البيت الذي كان يقيم به من قبل واستولوا عليه، وقد وجدوا فراشه معمولاً، فطعنوا الغطاء برماح كثيرة وبسهام، وكان هناك رجلان يتوليان حراسة البيت، وقد قتل واحد منهما، وأصيب الثاني بجراحة بالغة.

٥٤ (١٤٢)— واستولى الوكلاء الخمسة في اليوم التالي على جميع اقطاعيات مولاي صاحب بيروت واقطاعيات رفاقه، وتدبر فيليب ضخ الماء من أحد الصهاريج وكان موجوداً داخل برج الاسبتارية، وبذلك تم صنع الكثير من الكعك، وشحن البرج بالمؤن وسلحه بأدوات الرمي، وعندما علم الوكلاء الخمسة بأن فيليب كان موجوداً هناك، حاصروا المكان وشددوا الحراسة من حوله ليلاً ونهاراً حتى لايتمكن من الخروج منه، ورغب فيليب دي نوفار بالإخبار بما يجري ولاسيما إعلام مولاي بالين دي إيبلين، الذي كان رفيقه، وعندما شرع بكتابة الرسائل، تولدت لديه الرغبة أن يكتبها شعراً، وبما أن السير عموري برلياس كان الأكثر شراً من البقية، فقد أشار إليه باسم رينارد، ولأنه في جميع قصص رينارد غريمبرت Grimbert ، هو الغرير، وهو ابن عمه فقد دعا عموري صاحب بيسان باسم غريمبرت، ولأن السير هيوج صاحب جبلة له فم ملوي، ويبدو دوماً وكأنه مكشر، فقد دعاه فيليب «القرد».

٥٥ (١٤٣)— وهاهو الكتاب شعراً، الذي أرسله السير فيليب دي

نوفـار، عندما كان محتجـزاً في مقر فرسان القـديس يوحنا في نيقـوسيا، إلى السير بالين دي إيبلين، الذي كان موجوداً في عكا:

أكثر من مائة ألف تحية يرسل إليك،

أيها السيد اللطيف والصديق، والذي هو الآن أخ جديد.

لسنا الآن بصدد الصليب الأبيض، فلدينا الكثير لنعمله

ذلك أنه قد لايتمكن أن يغني هذه السنة لساعات أو أن يقوم بالقداس كاملاً.

أيها الصديق اللطيف، أرضك الآن تمثل اسبانيا،

هناك خمسة وكلاء في جمع واحد فوق سهلها.

لقد أظهروا حباً عظيماً نحوي، وناضلوا في سبيل كسبي

إلى جانبهم، لكنني رفضتهم. بازدراء

وبغضب، وبدون محاكمة قانونية، بل بالقسر

ألقوا القبض علي، ورموني بالأغلال، ولزيادة آلامي

أبدوا نحوي تلك الليلة كل الأعمال الوحشية:

لقد حرسوا الأبواب بقوة، ومامن أحد أمكنه المرور خلال السلاسل.

وصاحب الوجه الحاد أقامهم هناك، وهو الذي كان متشوقاً

ليفدي بنفسه المملكة كلها.

نا لم أر تلك الليلة أي حيوان متوحش

مثل الذي أدخل رأسه إلى الحقل. وإذا حدث

- ٢٤٣٤ -

بمشيئة الرب، وزالت هذه المحنة من حوله

سيقيم عيداً كل سنة لجميع كبار القديسين

وهكذا وضعت خلال تلك الليلة في المحكمة:

الكلام الطيب والتماس العدالة لم يكسبني شيئاً

وعلى الرغم مماقلته، حكموني بلا حق ولاقانون

في داخل القفص أوثقني الخونة بشدة

ثم أرادوا قتلي خيانة أثناء الليل

لكنني أنذرت من قبل واحد، لم يعبأ أبداً بالذي لن يرضى، وقدم لي نصيحة مخلصة في محنتي.

إنني الآن متدثر برداء من أردية الاسبتارية

وإنني لواثق بالرب، في أنني سوف أخرج هذه السنة من هذا الضيق

وعارف أن بالين سوف يأتي بين بني قومنا

وآنسيو، صاحب الأنف المفلطح، أستدعيه هو الآخر

إن الذي وقف فيها بين الحواجز وبين حصانه

قد حاصرني، وضربني، في داخل مقر الاسبتارية بالقوة.

- ٢٤٣٥ -

لو أن الرب ترك الشقي يقتل، لتوقف مصدر

الكثير من المآسي التي وقعت في قبرص

لو أنهم عوضاً عن ذلك اتفقوا مع آنسيو صاحب الأنف المفلطح

عندما رمى بنفسه من على ظهر حصانه فوق رأسه

لكان الجميع قد قال: «لك الشكر من الرب والمنة»

ومن ثم تفوهوا غناء بتبريكاته النهائية

★★★

بالين، لاتنس السجن والأغلال طويلاً

السرور قد يخفي ذلك، لكن الأمر معروفاً من قبل حشد كبير

لئن اعتقلوك، لاتأبه بذلك ولاتستح منه

لأن الذي أخذك، اعتقل ملكاً وكونتا سواء

غير أن الذي يزعجني و يؤلمني أنهم جميعا يقولون:

إن ذلك قد عمله، الذي هو عار بالنسبة للبشرية؛

ويظهر هذا كم هو يخشاك ويخاف من اسمك.

تذكر يابالين أنه قد حدث في أيامك

أن الذي دفع الفدية ليخرج من الميدان يحكمك الآن كعبد.

يتوجب عليك استدعاء مولاي صاحب نابلس

وخالك الطيب، فلعله سوف يفيدك كثيراً

بحق الرب ادع الفيليبين صاحبي نابلس ويبنى

وخال والدك، مولاي بلدوين اللطيف

الذي لم يحن رأسه لانسان حي، ولم يخفض ذقنه مطلقاً،

ولئن تخاذلت أمام خمسة من الأشرار وتوانيت

ليتولى الرب الذي عاقب قاين ودمره لذنبه

تدميرك ومعاقبتك، مالم تنتصر.

من أجل الرب، ضع حب شؤون عكا جانباً

أنت والسير بدغر، الذي ممجداً ارتدى ثوب النمر

من أجل ثعلب خسيس رماه المهر ولم يستطع ركوبه

والذي يتحرك هنا، حتى أن اللومبارد سايروا هذا الاتجاه....

وإذا كنت تحب النساء، فقد أرادا أسرهن

بوساطة الحصار، كل من رينارد وإلى جانبه غرمبيرت،

الذي نشر أمام مقر الاسبتارية علمهم عريضاً.

وقد راقبنا، طوال الليل، وهم مسلحون بنشابهم ورماحهم

ملاك الأراضي، والعدل قد حرمونا وأنكروه علينا

والسيدات وواحد لومباردي فقط في الداخل

وواحد جبان وآخر رعديد، كيف يمكنك التعايش مع هذا؟

لدى رؤيتها، تذكرت، والرب هو مرشدي،

بقلب محترق غداً بعد عيد الفصح

فكل واحد جعل نفسه ملكاً، لكنه واحد بين أربعة

عفوك يارب، إنها لعبة الأطفال في الجري والاختباء

ملك في يوم، وفي الصباح التالي، كل واحد تجارته بائرة.

أنا بحاجة للضحك لدى رؤيتهم في الوكالة:

هيوج صاحب الفم المكشر، الذي تنكر لوالديه،

ووليم دي ريفت، الذي يرى في نفسه حكيماً

وريناد، الذي امتلك الدهاء ليتخلص من المبارزة

وعموري وجوفيان اللذان من أصل مختلف

وإذا ماعرفتهم جميعاً، لن يكون أحد أكثر منك غضباً

وإذا ماغنيت أو نظمت حولهم، فهذا ليس عملاً ساخطاً:

إنني عندليب، وقد وضعوني داخل قفص

ينبغي ألا تلوموني إذا لم أضع بشكل جيد تماماً

الأوزان الشعرية، ولم أصقل كل بيت منه

وإذا كنت مسجوناً، إنهاء الأغنية هي غايتي

بشعر دوبيت أو على الأقل بشعر أبيات منفردة

٥٦ (١٤٤)— وتلقي هذا الشعر واستقبل في عكا ببهجة عظيمة، وصرخ الجميع: «دعونا نذهب على الفور لإنقاذ السيدات واللومباردي» (١١٨)، وأعدوا أنفسهم بكل سرعة، وكان هناك كثير من الرجال

الجيدين والسفن الممتازة، وقدم صاحب بيروت جميع التجهيزات للسفن وللسيرجندية، كما وجهز الفرسان وأعطى الجميع كل مايحتاجونه، وقد عبروا البحر ووصلوا إلى كاستري (١١٩) Castrie ، وقاوم الوكلاء الخمسة بشدة عملية الاستيلاء على الميناء، ومع هذا تم الاستيلاء عليه بالقوة، وتراجع الوكلاء الخمسة وعادوا إلى نيقوسيا، حيث كانوا واضعين الملك تحت الحراسة، وبعث صاحب بيروت والناس الذين معه برسائل لطيفة وودودة إلى الملك، لابل حتى الى الوكلاء الخمسة، قائلين بأنهم قدموا من خدمة الرب (١٢٠)، وأنهم يرغبون بالعودة إلى منازلهم واقطاعياتهم، وأنهم كانوا على استعداد لعمل كل من العمل الصحيح ولفرض حقوقهم، لكن الوكلاء الخمسة لم يتنازلوا بالرد.

٥٧ (١٤٥)— وركب صاحب بيروت وصحبه على تعبئة وزحفوا بصفوف متراصة حتى وصلوا إلى أمام نيقوسيا، وخرج الوكلاء الخمسة من المدينة وأخرجوا معهم شعب المدينة بالقوة، وكان معهم جميع التيركوبليه (١٢١) والمرتزقة، وهكذا تفوقوا عددياً بشكل كبير على قوات صاحب بيروت، ووضع رجال الدين أنفسهم بين الفريقين بغية المصالحة، لكن ذلك لم يفد، وقام قادة الأرتال بتقدير بعضهم بعضاً، واستطلعوا قواتهم من هذا الجانب ومن الجانب المقابل، ووضع كل منهم نفسه أمام الذين كرههم أكثر، وهكذا تقدموا جميعاً، وكانت المعركة هي الأسوأ والأشد قسوة بشكل مطلق مما وقع على هذا الجانب من البحر، وكان عدد الفرسان الذين سقطوا هم وخيولهم كبيراً وكذلك الناس الذين قتلوا، وجرت المعركة في أرض محروثة، وكانت هناك ريح غربية شديدة الهبوب، وكان الغبار كثيفاً حتى أن مامن شيء كان يمكن أن يرى، وقتل في هذه المعركة السير جوفيان العجوز صاحب قيسارية، الذي كان قسطلان قبرص، وابن ختن مولاي صاحب بيروت (١٢٢)، وقتل أيضاً السير جيرارد دي مونتاغيو، الذي كان ابن أخ لكل من مقدمي الاسبتارية

والداوية، ولـرئيس أساقفة قبرص يـوستوريو Eustorgue ، لأن حصانه تمدد فوق جسده لمدة طويلة(١٢٣).

٥٨— وقـام أولاد مـولاي صـاحـب بيروت في هـذه المعـركـة بـأعمال مـدهشـة في القتـال، وأنجـز فـوق الجميع السير بـالين روائع، وانتخـب الـوكلاء الخمسـة خمسة وعشريـن فارسـاً، كـانوا هم الأعظـم نشاطـاً بين رجالاتهم ليحـاولوا قتل مـولاي صاحـب بيروت، وشطر مولاي صـاحب بيروت فم واحـد منهم، لأنه لم يكن لـديه واقية وجـه مثبتة على خـوذته، وبضربته لـه رماه أرضاً مقتولاً، وخـلال المبارزة نفسها سقط فـرس مولاي صـاحب بيروت في الخنـدق، وارتدى الـوكـلاء الخمسـة قلانـس مذهبـة ضخمة فـوق خوذهم ليتميزوا بها، ومع هـذا قهروا وهزموا بمشيئـة الرب، ونجا جميع الوكلاء الخمسة، وفروا أولاً إلى عنـد هيوج صاحب جبلة الذي قاد قوات المؤخرة.

٥٩— وعنـدما كـانت الهزيمة قـائمـة وكذلك الفـرار لبعض الـوقت وانجلى الغبـار، و بينما كان السير بـالين دي ايبلين يقـوم بأعمال المطـاردة بعيداً، وجد مـولاي صاحب بيروت نفسه وحيداً في ميدان المعـركة، ومعه لست أدري كـم من النبالـة على أقدامهـم، و كان أمـامه في الميـدان من الأعداء مـا لايقل عن خمسة عشر فارسـاً، و كانوا هم الأفضـل و الذين نشطوا في القتـال، و عندما انجلى الغبار عـرفوه و عرفهم، و عنـدما رأى صاحب بيروت أنـه كان وحيداً، ترجل ودخل مـن خلال باب صغير إلى سـاحة حيث كـانت هنـاك كنيسة صغيرة، و ذهب سيرجنـديته معـه، و هكذا دافع عن نفسه بقـدر الإمكان و معه سيرجنديته، و طعنوا بـالرماح الذين اقتربوا من الخارج لتدمير الجدران وشق طريق نحو الداخل .

٦٠ : و قضى الـرب أن وصل و قتـذال السير أنسيـودي بري ممتطيـاً ظهر حصان كبير وقـوي، و كان مغطى بالحديد، و فـوق الحديد تجافيف جيـدة، ورمى بنفسـه عليهم، و أبـدى مهـارة كبيرة في استخدام السـلاح

حتى أنه كسر رمحه، وسيفه، لابل حتى خنجره قد انكسر، و تلقى ضربات هائله حتى لم يعد قادراً على استخدام يديه إلاّ بصعوبة بالغة، و بناء عليه وضع ذراعيه خلال المقود، و عندما جاء بعضهم ليهدم الجدار استخدم مهمازية و حال بينهم و بين هدم الجدار، و فعل أشياء عظيمة حتى أن مولاي صاحب بيروت صار صديقه الصدوق طيلة حياته، و حدث بمشيئة الرب أن السير بالين ابنه الذي كان معه عدد كبير من الفرسان، عندما رأى أن والده ليس هناك، عاد إلى الميدان، حيث ما أن رأى خصومه راياته حتى تولاهم الرعب و هربوا نحو مدينة نيقوسيا، وقام السير بالين الذي جاء متقدماً على الجميع بمهاجمتهم بحماس و ضرب حامل رايتهم بشدة متناهية مما أدى به إلى السقوط إلى الأرض، وسقط حصانه معه أيضاً، و أُخذ كثير منهم أسرى و قتل أيضا العديد ، لكن عدداً كبيراً نجا لسقوط السير بالين .

٦١ : و اعتصم السير عموري برلياس ، و السير عموري صاحب بيسان و السير هيوج صاحب جبلة في قلعة ديودامور، في حين مضى السير جوفيان و رجاله إلى كنتارا (١٢٤) ، و أوقع فيليب دي نوفار الذي خرج من دار اسبتارية القديس يوحنا مع رجاله، فيهم أضراراً بالغة، و لاسيا بالذين كانوا في المدينة، و بعث الوكلاء الخمسة المتقدم ذكرهم أعلاه من يجلب هنري الملك الشاب ، قبل أن تبدأ المعركة، و قد حملوه بالقوة ووضعوه في قلعة ديودامور، و احتفظوا به هناك و أبقوه بمثابة سجين تحت الحراسة، ووقعت المعركة السالفة الذكر في مكان أمام نيقوسيا في يوم السبت في الرابع عشر من شهر تموز في سنة ١٢٢٩ (١٢٥).

٦٢ : و في اليوم التالي للمعركة حوصرت القلاع، و تولى مولاي صاحب بيروت حصار سيرينا(١٢٦)، و قام أولاده : السيربالين، و السيربلدوين، و السيرهيوج(١٢٧)، بحصار قلعة ديودامور، و حاصر

السيرآنسيـودي بري قلعـة كنتارا، التي كـان فيها السير جـوفيان، و عقـد مـولاي صـاحب بيروت —الـذي كـان يحاصر سيرينـا —معـاهـدة مع اللومبارد الذين كانت القلعـة المذكورة بأيديهم، شرطت أنهم إذا لم يتلقوا نجدة خلال مدة محددة، سيقومون بتسليـم القلعة له، و هو سيقوم بدوره بـالدفـع إليهم المال المستحق لهم عـن كل من الماضي و الحاضر، و تـولى فيليب دي نـوفار إعـداد هذا الصلح، و تسلم القلعـة في الوقـت المحدد لصالح مولاه، و اصطحب اللومبارد و قادهم إلى خارج قبرص .

٦٣(١٤٧): ثـم نظـم فيليـب دي نــوفـــار أغنيـــة، و بعـث بها إلى القسطلان في عكا، وجاء نظم هذه الأغنية كما يلي :

سوف أقول لكل العالم في أغنية

المتكبر و الأحمق، من درجة عالية جداً

و حيث مامن انسان قد سمع قط أو رأى

مثل و كلاءنا الخمسة الذين ازدروا القانون و الحق.

و قد تجاهلوا العدالة و الحفاظ عليها:

و قد سلبوا زملاءهم و مولاهم

من اقطاعياتهم الموروثة، ثم إنهم ابتهجوا

و لمنع ذلك جاءوا إلى قبرص ثانية

عندما بدون ذنب سلبوا تماما

أولئك الذين كانوا حجاجا قدموا عن طريق البحر

من سورية و من عكا إلى كاستري

- ٢٤٤٢ -

ثم بعثوا مباشرة إلى الملك رسالة لطيفة
أنهم قد جاءوا إليه ، على وفاق و اتفاق
عازمين على فعل الحق، و للحق محافظين
و لم يتنازل هؤلاء الوكلاء الخمسة للإصغاء.

دوماً جلب تكبرهم إليهم محنة محزنة
رجالنا على سهل نيقوسيا
يوم سبت نالوا النصر
و استردوا إقطاعياتهم، و بيوتهم و شرفهم ،بقوتهم
و هلك الخونة القذرين بحد السيف
و ابتغى بعضهم أي مأوى يحصل عليه في أي قلعة
★★★
و أسر بعضهم، وطورد بعضهم الآخر فوق السهل

و كان المقدم و قائد الهزيمة
هو الذي تولى قيادة قوات الساقة
حيث ما أن رأى المقدمة قد هوجمت، حتى على الفور هرب
على ظهر مهره الداكن الذي جرى به بقدر ما استطاع
فقد الحمقى في ذلك اليوم بسبب الخلاف و الخروج

-٢٤٤٣-

الأرض، و الشرف، و الأقرباء، و الرفاق الذي شاركوهم مصيرهم
و حمل هؤلاء و الساذجين وصمة العار معا:
و الأفضل لهم الآن أن يتحولوا إلى رهبان وسط عارهم و آلامهم

شاهدنا في ذلك اليوم سقوطاً مدمراً من ارتفاع شاهق
و لتدمير عجرفتهم المجنونة و باطلهم
هرب صاحب الوجه المشوه مجللاً بالعار
وآخرون كثر منحطين و فرسانا خونه
إلى داخل ديودامور وهناك تخفوا،
و احتجزوا هناك سجينا مولاهم الشرعي
احكم جيداً : أولا ينبغي شنقهم بحبل السجان و قتلهم؟
لقد اعتقلوه، و بذاته سجنوه

هؤلاء الأشرار الذين ينبغي تمزيقهم أثاروا
بعض رجال حمقى ليعتقدوا، بوساطة الخيانة
أن مولاي اقترف جريمة هائلة
بحصاره الملك و بازدرائه الحق .

★★★

تحول الرعاة الآن إلى ذئاب يزمجرون ويزأرون

ومادام خال الملك يحميه، إنه كله باطل

أن تأخذه من الحفظ لبيعه ثانية

امض أيتها الأغنية الموجعة وطيري كالسهم

واحملي حتى إلى سورية أخباراً مني

إلى القسطلان الذي يحبنا بإخلاص

وأخبريه أن عملنا يسير بشكل صحيح

الشكر لخالقنا وإلى ربنا

سوف يضحك كثيراً لدى رؤيته أن لينغير قد اعتقل

أنا مرسل إليك لسانه وأنفه لقطعهم قطعتين

٦٤(١٤٨) وذهب صاحب بيروت إلى حصار قلعة ديودامور، وعسكر عند نبع التنين، وكان أولاده فوق، أمام القلعة، وقامت القلعة في موقع حصين جداً، فوق أعلى الجبال، واحتاج حصارها كاملاً إلى عددٍ كبيرٍ من الرجال، لأنه كان بإمكان الانسان أن يخرج منها من أماكن كثيرة غير بابها، وكان في داخلها حامية كبيرة من الرجال على الخيول وعلى الأقدام، فقد هرب إليها معظم الذين نجوا من المعركة، ولقد حدث قتال شديد أمام الأسوار، وغالباً ما كان أمام الباب، ومع هذا كانت معاناتهم الشديدة من المجاعة، وهكذا أكلوا خيولهم، وبسبب أن الذين كانوا بالخارج شعروا بالأمان، تجول الفرسان ذهاباً وإياباً في البلاد حسبما رأوه مناسباً، ومن ذلك حدث أن صاحب بيروت ذهب إلى كنتارا لرؤية آلة حصار عظيمة Trebuclet(١٢٨)، كان السير آنسيودي بري قد أنشأها، وفي الوقت نفسه انتشر أولاده الثلاثة المتقدم ذكرهم أعلاه وتوزعوا في المنطقة، لهذا بقي عدد قليل من الفرسان يتولون الحصار، وأدرك الذين كانوا بالداخل هذا، وقاموا بإنقضاض عنيف تمكنوا به من

إنزال الهزيمـة بالذيـن كانوا يحاصرونهم، واستـولوا على معسكر الفـرسان وعلى الأطعمة التي كـانت فيه، ولو أن هذا لم يحدث لما استطـاعوا الصبر كما فعلوا .

٦٥(١٤٩) :وكـان السير بالين في نيقـوسيا مع عـدد قليل جـداً من الفـرسان، لأن الموسـم كـان شتاءً، وكـان الفـرسان في بـلادهـم، وكانـوا متراخين يقومون بأعمال الرياضـة، ولدى سماع السير بالين بالأخبار جاء، واسترد المعسكر، وتابع المطاردة حتى بـاب السور، وحطم رمحه على حديد بـاب الســور، وكان معـه عـدد ضئيل مـن الرجـال الأشـداء لهذا كـانت المعركـة مدهشـة، ولم يكن هناك تدمير في كـل الحرب مثل الذي أحـدثه القتـال في ذلك اليوم، وكـان هناك قتـال شـديد من على الجانبين، وقـدم أبوه صـاحب بيروت الـذي كان قـد ذهب لرؤيـة الآلة التـي كانت قيـد الإنشـاء أمام كنتـارا،وذلك لـدى سماعه بـالأخبار، وكـذلك فعل أخـواه، وقدمـا من حيث كانـا، وجاء جميع شعـب البلاد مسرعاً، ثم تـمّ الاتفاق بـوجوب بقـاء السير بالين هنـاك لمدة شهر، ومعـه مـائة فارس، مع عـدد مناسب من الجنود الرجالة، وتـوجب أن يكون أخاه في الشهر التالي، وهو السير بلدوين الـذي كان حكيماً جداً ونشيطاً، مع مـائة فارس أيضاً، وأن يكون هناك في الشهـر الثالث السير هيوج، الذي كـان واحداً من أفضل الفرسان، وكان قـوياً ومرضياً في جميع أنحاء العـالم، وبما أنه تقرر وجوب وجود واحـد من الأخوة هناك، كان بـإمكان الآخرين الـذهاب إلى حيث شاءوا، ولكن عليهم العودة كل منهم في شهره .

٦٦ : واستمـر الحصار لمدة عـام تقـريبـاً (١٢٩) وفق هـذه الطريقـة، وكان هنـاك في كل يوم قتال واستخـدام للسلاح، وكان فيليب دي نـوفار قـد أصيب بجـراحـة في إحـدى المرات أمـام بـاب السـور، كما أصيـب بجـراحـات خطيرة عديـدة، من طعنـات الـرمـاح، ورمايـات النشـاب، والحجـارة، وطعن في أحد الأيـام بسنان رمـح خرق تمامـاً خلال ذراعـه،

ونفـذ في قميص سابغتـه وفي جسده، وبـذلك انكسر الـرمح على طرفـه، وبقي القسـم المكسـور مع السنـان في ذراعـه، وصرخ الـذيـن كـانـوا في الـداخل قـائلين:«مغنيكـم قـد مات، لقـد قتـل»، وأمسكـه أعـداؤه من وسطه، لكن مـولاه وقاه وأنقذه بنشـاط عظيم، ونظم في المساء مقطـوعتي دوبيت على شكل أغنيـة، وغناهما بصـوت مرتفع، وبـذلك عرف الـذين كانوا في القلعة وتيقنوا أنه لم يمت .

٦٧(١٥٠) وفيما يلي الشعـر الـذي نظمـه السير فيليب دي نـوفـار، عندما جرح أثناء الحصار أمام قلعة ديودامور :

لقد جرحت، لكن شفتاي لايمكن إغلاقهما بإحكام

حول السير رينارد وجماعته ـ

الذين من أجله انزلقوا وغرقوا بالعار

في داخل مالكروز Malcreuse، مأواه الأثير

لكن إذا كان الخوف من أجل نفسه قد أقنع رينارد

ما الذي فعله الإقطاعيون الآخرون التعساء ؟

والسيرجنديه؟ لماذا بيعوا ؟ ما هو ربحهم؟

مثل شياه جعلهم يبقون منتظرين

بالنسبة لرينارد يمكنه أن يجلب محناً خيانية

أكثر من غانتلون، الذي باع فرنسا خيانة وخساسة

لقد ملأ وكره ليقترف الدنس

مشبعاً بأمل أن يحكم البلاد وأن يضرب .

وعليهم صب هزواً كلمات سلام .

ياللعار،لخدمة خائن هكذا ضلوا !

في الخارج، لخدمته ذاقوا ألماً مبرحاً

في الداخل، بهلوانيتهم أوصلتهم إلى حبل المشنقة .

٦٨(١٥١) : وعانى الذين كانوا في قلعة ديودامور من المجاعة كثيراً(١٣٠)، حتى أنهم احتفلوا في عيد الفصح (١٣١)احتفالاً عظيماً على حمار ضئيل قد أمسكوه، وإلى هذا الحمار أشار فيليب دي نوفار في قصيدته عن رينارد، وقال بأنهم باركوا الحمل ذي الأذنين الكبيرتين وأكلوه في عيد الفصح، وهذا ما يمكن أن تجده فيها، وضغط السير آنسيو الذي كان يحاصر كنتارا على القلعة بشدة وعن قرب، حتى كان مذهلاً أن تصدق الذي فعله، ورمت الآلة التي كانت لديه هناك جميع الأسوار تقريباً، لكن الصخور كانت قوية جداً تعذر التسلق عليها وتجاوزها، وتحمل الذين كانوا في داخلها مصاعب جمة وخسائر كبيرة، حتى أنهم أ لقوا بأرديتهم وبأسلحتهم عندما هربوا خلال الطرقات ساعة مغادرتهم لميدان المعركة، ذلك أن ميدان المعركة كان على مسافة خمس عشرة مرحلة عن القلعة .

٦٩ : وحدث في إحدى الليالي أن ذهب فيليب دي نوفار مع السير آنسيو ليقوما بالحراسة، وسمعا حديث الذين كانوا داخل برج صغير مهدم، كان قد بقي من القلعة، وكان من دون ذلك هو على دراية بأوضاعهم، ولذلك نظم أغنية جاءت كما يلي :

حرست في الليلة الماضية حتى ظهور الصباح

بصعوبة قرب الأسوار، وحيداً، ومن دون أحد قريب

وسمعت من أعالي برج عويلهم واضحاً

أولئك الذين في كنتارا، امتلأوا حزناً وأسى

-٢٤٤٨-
توجه واحد من الجماعة لآخر بالحديث
وقال :«واأسفي يا إلهي ما الذي سوف نفعل ؟
ليلعن الرب رينارد، لما اقترفه بحقنا من خيانة
ورسائل لاكستري المكتوبة الزائفة
التي وصلت إلينا قبل الفجر» .
« نحن فريسة الحزن وعميق الأسى»
هذا ما أجابه به الآخر، وأنا أسمع بشكل واضح :
«نحرس بالليل وفي النهار بدون توقف
نحن نتعب، مع قليل من الطعام، وثيابنا رثة، وزادنا قليل
نحن نعد لرامي الحجارة قذائفه للرمي
نصيبنا هو الألم، نحن نرمي، ونجر، وننجر :
إذا كنا سنظل نعاني من هذا القدر طويلاً
أتمنى أن يأخذك الموت هذه الليلة ويأخذني
قبل حلول الفجر» .
وسمعت آخر يقول:«يا رفاقي ويا آلي
سوف تنهمر من أجلنا كثيراً من الدموع المريرة
بعد قليل سنموت، أفراننا زلزلت ودمرت
تحت الضربات من قاذفات الحجارة والآلات
لقد دمروا أسوارنا، وأبراجنا، وبيوتنا أيضا .

-٢٤٤٩-

كيف سنحمي أنفسنا، إذا هاجمونا من جديد؟
وبات رجالنا وسلاحنا بندرة مأساوية
لن تعطنا الأسوار المزيد من الضمان
دعونا نهرب من هنا قبل الفجر» .
«الفرن والطاحون دمرا وزالا من الوجود
والبقاء هنا سيكون حماقة واضحة .
كامن لنا بقصد الخيانة والخداع
وكلاء ديودامور الذين جعلوا الصدق كذبا
لقد سرقوا بخيانة مطلية بالسواد
الملك، الذي أقسموا على تسليمنا
إياه، ثم جعلونا نقاتل في نيقوسيا
وكان ذلك موتاً لنا، ولهم أمان
آه، آمل أن لايروا الفجر مطلقاً »

«العون الموعود قدومه يوم عيد الفصح تأخر كثيراً،
ماأخشاه أننا تعطلنا، وفقدنا الأمل .
عندما رأينا الامبراطور للمرة الأولى، كان اليوم
يوم أسى، ينبغي أن نطلب النعمة، أو ندفع لذلك غالياً»
ثم تابع يقول :«هل يمكننا إيجادها، فهذا صحيح،

- ٢٤٥٠ -

لكن قليلاً من النعمة سوف يعطونا، إذا ما التمسناه
والأفضل بكثير هو أن نهرب إلى تركيا
لكن الحراس هناك يراقبون عن قرب
كل الليل حتى الفجر» .

عندما رأى جوفيان حالة رجاله بمثل هذه الحالة البائسة
تغيرت نواياه، ومن ثم بدل خططه
فخاطبهم وهو يتنهد قائلاً :«أيها السادة الأمائل، قد لا
أجد لنفسي رسولاً، من هنا
يتقدم بجرأة ويحمل رسالة ويتقدم بها

★★★

في سورية وقبرص مايزال هناك
من سوف يحزن لموتنا حزناً عظيماً جداً»
وعند هذا انبلج ضوء الفجر .
وعندما سمعت نواحهم بكل وضوح
عدت مسرعاً نحو سيرجنديتنا رسولاً
ومن ثم أخبرتهم، وأنا جزلان مسرورا
بأن الآلام والخلاف استبدا بكنتارا، بكل وضوح
وبما أن واحداً من قادتي سألني التبيان

★★★

هكذا توليت، قص أخبار التعاسة

التي سمعتها، عندما وقعت، وأعلنت عن نفسها بصوت مرتفع

ثم أشرق في كل مكان ضوء الفجر

٧٠(١٥٢) : وقد حدث في أثناء الحصار أن السيد الشاب صاحب قيسارية ـ الذي قتل ابنه في معركة الوكلاء الخمسة أمام نيقوسيا ـ قد وضع ومركز رجاله في المنطقة المجاورة فوق صخرة حادة كانت قريبة جداً من القلعة، وجعلهم يرمون من هناك خلال النهار وأثناء الليل، وكان لديه واحد من أبرع الرماة بالقوس العقارة، وكان قد أبصر السير جوفيان عندما كان يتجول في القلعة، وهكذا راقبه بشكل متواصل بكل تيقظ ونجح في قتله بوساطة نشابة، وكان ابن عمه السير وليم دي ريفت قد ذهب إلى أرمينيا طلباً للمساعدة، وقد توفي هناك، ثم أصبح قائدا كنتارا فيليب شينارت(١٣٢) Chenart الذي كان أخاً للسير جوفيان من خلال أمه، وكان شاباً متسرعاً وبلا خبرة، وأخفى الذين كانوا في الداخل خبر مقتل السير جوفيان، لكن رامي القوس العقارة كان متأكداً من قتله له .

٧١ : ولم يعد بإمكان الذين كانوا في القلعة التحمل أكثر، ولهذا أقاموا سلاماً، وافق عليه مولاي صاحب بيروت بترحيب من أجل ضمان سلامة الملك، ذلك أنه خشي أن يحمل في الليل إلى خارج القلعة ويودع في أحد الأماكن ومن ثم يرسل إلى أبوليا، وسلم الذين كانوا في الداخل أخيراً الملك، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت، وسلموا معه أخته والقلاع إليه، وأقسموا أنهم لن يقفوا ضده أو ضد أولاده، أو ضد الذين هم من حزبه بشكل مطلق ودائم، وأقسم (صاحب بيروت) وأولاده لجميع رجال حزبهم(لأن يأمر)(١٣٣)، بحفظ سلام مشرف معهم، وتم

الاتفـاق أيضاً على أن تقـوم أسرة السير جوفيـان بمغـادرة قبرص، بسبب أنـه قتل القسطـلان، لكن يتوجـب الاحتفاظ بـإقطاعيـاتهم(١٣٤)، وأن يرافقـوا بأمن وسـلام حتى مغادرتهم البـلاد، وأبرم هـذا السلام الـراهب الاسبتـاري الشجـاع الـذي اسمـه الـراهب وليـم دي تينـر Teneres (١٣٥)، وكـان وشيج الصـلات بمولاي صـاحب بيروت، وكـان السرور عظيماً عندمـا خرج والملك من القلعـة، وكانت البهجـة عارمة، وقـدمت هـدايـا كبيرة وأعطيـات، ولم يحضر السير آنسيـو، وفيليب دي نـوفـار، والفارس الذي هوجـم، وكان اسمه تورينول، ولم يرغبـوا أن يكونوا هناك، كما أنهم لم يتحدثـوا قط مع أعدائهم المتقـدم ذكرهم أعـلاه، لكنهم قبلوا السلام، نزولاً عند إرادة مولاهم .

٧٢ ــ وبينما كان السـلام قيد الإعـداد ، أرسل فيليب ليسـافر، وكـان هكذا في ليماسول داخل سفينـة حيث توجب عليه الذهاب بمثـابة رسول إلى بلاد مـا وراء البحار، إلى البابـا وإلى ملك فرنسـا، وإلى ملك إنكلترا، وإلى ملوك إسبانيا الخمسة (١٣٦)، ليخبرهـم، ثم يكرر إخبارهم، وليقدم شكـوى ضد الشرور العظيمـة والآثام التـي اقترفها الامبراطـور فـردريك والناس الذين كـانوا في حاشيته في قبرص وفي سوريـة(١٣٧)، وما أن تمّ إبرام السلام حتـى رغب فيليب في صنع أغنية منظومـة تتعلق به، غير أن صاحب بيروت لم يـرغب بذلك، لكن بعد شيء مـن التردد أذن بحكاية واقعـة رينارد التـي ذكر بها أسماء عـدة وحـوش، وقد أشـار إلى صـاحب بيروت تحت اسم زنغـريـم Zengrim، وإلى أولاده بـاسـم ذئابـه، وإلى السير آنسيو دي بـري باسم الدب، وإلى نفسـه باسم الـديك شانتيكلير Chanticleer، وإلى السير تورينـول باسـم السنور تيمبرت Timbert، وجميع هؤلاء الوحـوش هم من حزب زنغريـم في حكـايات رينارد، وأطلق على السير عموري(برلياس) اسم رينـارد ، وعلى السير عموري(صاحب بيسان) اسم غـرمبيرت الغرير، وعلى السير هيـو اسم القرد، ولقـد دعاهم

من قبـل على هذه الشـاكلة، كما تـذكرون، وهـؤلاء الـوحوش هم حـزب رينارد في حكايات حولهم أنفسهم .

٧٣ : وهـذه هي القصيـدة حول رينـارد وتبيـان كيف أن زنغـريم قـد هزمه :

ظل رينارد في حالة حرب لمدة طويلة جداً

أحرقت البلاد وأحدثت فيها الخراب

وقد قام بالكثير من المغامرات

جلبت له المرارة والآلام

ودنا رينارد مراراً من تلقي ضربة مميتة

عندما كمن له زنغريم الذئب وانتظره

وحاصره داخل مالكروز Malcreuse

وهو حصن قوي كان قيد استعمال رينارد

دون أن يكون لديه ما يأكله أو يملأ به الكأس

ووصل إلى حالة صعبة جداً

ولولا أن نبيلاً تولى المباحثات

لواجه رينارد منيته مع رفاقه

غير أن الرب الذي يرسل جميع التبريكات الطيبة

قضى بوجوب إنهاء هذا الصراع

وأن يتخلص رينارد من مآسيه وآلامه .

ومع هذا لم يكن متأكداً من السلام

وظل موسوماً بالضعف والمرض .
وكان رينارد، وغرمبيرت والقرد أيضاً
هناك، ولم يكن من جماعة أخرى أحد :
والذي أحصي مع رينارد في الداخل، مجرد ثلاثة
فقد تخلى عنه رفاقه بالسلاح
وعندما وضع السلم حداً لرعب الحرب
هذا بحق وبكل تأكيد يمكن للمرء
أن يسميه بأقذر أسماء الخيانة
مرة واحدة فقط عانى رينارد من مثل هذه الجرائم
بينما هو نفسه كذب أكثر من مائة مرة .
وجماعته الثلاثة الذين دونت أسماءهم هنا
لم يكونوا على وفاق بين بعضهم بعضاً ولا مع أحد،
بل عقد سلامهم مع زنغريم لوحده
ومع الذئاب الذين ينتمون فقط إليه ويعودون
وهؤلاء الذئاب، كما بينت لك
لم يحققوا كل ما أرادوا تحقيقه
وعندما أرغموا بالقوة على الوصول إلى نهاية
للصراع، رينارد لن يكون مطلقاً صديقهم .
لأنه عندما لعب دور المعالج، كان هو السبب

- ٢٤٥٥ -

في وقوعهم في مصيدة بين فكي الذئب
وعندما رماهم في وكر الذئاب :
كانوا سيتألمون كثيراً، ما لم يدفع لذلك غاليا .
بالنسبة لهم أن ينشدوا التعويض لائق وصحيح
الرب يمقتهم لأنهم لم يحبوا انساناً قط!
ظل جالساً هناك مع مقاصد قتالية حادة،
لم يقم سلامه مع أي انسان .
مولاي الدب، و تيمبرت السنور أيضاً،
قد وعدا بضربه، و بإلقائه إلى الحضيض
و فوق هذا، السير شانتيكلير الديك
الذي هو على رقعة الشطرنج مثل الصخرة تماما،
مرارا مرّ خلال مملكته و اجتاز
و غنى بصوت مرتفع في أغانيه عن مصائد الذئب
و غنى بشعر منظوم لكل من أراد الإصغاء
و حكى كيف جرى قذف جراء الذئب
و أعاد السير شانتيكلير شحذ مهمازه
و لو أن أي بارون، هكذا أعلن
سيتجرأ بالهجوم على رينارد و الانقضاض عليه
هو— شانتيكلير — سوف يساعده، و يضرب بشده

رينارد الآن في البلاط، كما يمكنك أن ترى،
مبتهجاً، فخراً سوف ينال مع الاحترام .
و من زنغريم اقترب كثيراً :
و تطور به الحال حتى كاد أن يصبح ابن عمه
و قدم التحية لأبناء الذئب واحداً تلو الآخر
و عانق كل واحد منهم عندما التقاه .
و عمل رينارد أعمالاً كثيرة حتى يثير البلاط،
و كان يضحك متصنعا، و يؤدي حركات مبتذله
و كان لدى توليه رواية حكاياته، غالباً ما كان يسمي
و يعيد تكرار ذكر مجده و عاره :
و كانت كلماته مليئة بالحرب و صوت القتال :
و كان يهذبهم و يشذبهم، و يضيف جراحاً إلى الجراح .
و ألقى الدب عليه نظرة ثابته
و نظر إليه السير تيمبرت السنور شزرا
و تساءل ما الذي سيقترفه من جديد.
و على سؤاله أجابه شانتيكلير قائلا :«الآن سوف نرى
فيما إذا كان السير رينارد سيجعل منا أضاحي»!
و تنبه رينارد المرتجف لهذا كله و لاحظه،
و كان يخاف من الدب، الذي في أيام خلت

جعله يرتعد خوفاً، و يشعر بالويل.

و بتذكرة بسيطة تراه أخذ يرتعد خوفاً .

و من ثم بدأ يتشاور مع ابن عمه غرمبيرت،

و صرخ : «يابن عمي، الويل لي، إنني على أبواب الموت» !

وازداد ارتفاع ضغطه، و تحول لون وجهه إلى أصفر فاقع:

و كان مرضه المميت اسمه الرعب .

و طلب رينارد مع أهل بيته و ابتغى الراحة

و إلى جانبه و معه ذهب غرمبيرت الغرير

و ذهب أيضاً القرد، أعني السير كوينترو

و ذهب السير ريناردين النمر أيضاً

و إلى هناك قدم مالبرانش و بيرسيهي

و مثلهما هيرميلاين، زوجته النبيلة :

لقد جاء وا فرادى وجماعات و اندفعو إلى جانبه هائجين:

«أخبرنا ياسيدي، ما الذي حل بك الآن من ويلات»؟

و أجابهم قائلاً :«أنتم ترون حالي ، لذا لاتتوقفوا

و اذهبوا الآن و أحضروا لي الكاهن بدون تأخير»!

و عندما سمعت هذه المجموعة الخبيثة كلماته

اعتقدت بدون أدنى شك أنه يقول الحقيقة،

و أنه بشأن موته هو مرعوب تماما ،

و أن سيدهم الدنيوي سيكون ميتاً.
لكن هذا كله كان غشاً و خداعاً،
و على الانسان أن يحرس نفسه بعناية أعظم
ذلك أننا نفتقر بلا إرادة إلى ذلك الفن الذي يتقنه
و نحن نعلم، حتى يقلع كل ريشنا من جلدنا
بأن رينارد مخادع حتى بقلعه لريشه
فهو ماهر جداً بكل نوع من أنواع الغش والسرقة،
وهو يفكر ويمعن النظر بكل الشرور
ويبدع مؤامرة ذات خداع هائل،
لأنه بتظاهره بالاعتراف
سينال المغفرة، ويطلب المسامحة
من جميع الناس، بما أنه على وشك الموت
ومن الآخرين الذين يخشون العار أو الخطأ
لابل حتى من الدب الذي ألقاه أرضاًوداس عليه
والذي سدد إليه مايستحقه وبشكل عادل
أما بالنسبة لتيمبرت ولشانتيكلير أيضاً
نحن نريد أذاه عن قصد معلن، ونبغي سقوطه
وهو يعرف تمام المعرفة أنه مالم يستل سخيمة نفسيهما
طريقه في الحياة لن يكون سليما ولالينا

بل سيشتهي كثيراً الوقت والمكان
فعندما سيتمكن ثانية من الاستقرار،
سوف يعيد إشعال النار عن طواعية
وذلك عندما سيحصل على الوقت والمكان حسب رغبته .
وهكذا كان ما قاله: « أحضروا لي الكاهن»
كما وطلب إحضار جسد ربنا
وحضر المخلص الآن، لكن كما يمكنك أن ترى
كان السير رينارد معلماً متمرساً بكل أنواع الخداع
والتف صحبه من حوله تماما ودعموه
وشرع يتكلم حتى يجعل اعترافه بهيجاً :
«أيها المولى، إنني بحضورك المقدس أعترف -
فمنك يأتي كل نوع من أنواع الخير -
إنني أعترف، وأقول بأن زنغريم
لم أحبه قط، ولن أحبه مطلقاً
وعندما أديت اليمين منذ زمن مضى، الرب يعلم
إذا حدث وتفوقت وامتلكت السيادة
ليس بنيتي أن أقدم له معروفاً ثانية
ولن أضفي شيئاً من المعروف على أي من رفاقه
على أنني أكره بمرارة أبناءه الذئاب وأمقتهم

-٢٤٦٠-

وكذلك أسرته من أساساتها،

ولقد أبديت لهم هذا فيما تقدم من أيام

لكن أرجوك لاتستشرني هذه السنة.

فأنا واقع في بؤرة من الشر، وجلب ذلك لي العار،

وقد أخفقت بكل شيء آخر، وأعلن عن توبتي

سيدي الآن زنغريم، الذي سيكون

الرعب والأسف هما مصيري .

وها هنا الآن أيها السادة سيادتي :

وهنا في الحقيقة إخفاق خداعي وسقوطه .

ومعه أولاده الذئاب الصغار في الأمام وفي الخلف .

ويبدو كأنما لم أعرفهم أنا قط .

وبما أنني منذ الآن لن أستطيع إيذاءهم أكثر

من أجل الرب، أتخلى وأغادر، لأن قواي الآن لاشيء

وشيء واحد لدي، يعطيني راحة كبرى

هو أنهم سوف يحافظون على سلمهم معي بشكل جيد

لكن هل لدي الوقت والمكان وفقاً لرغبتي،

فقد أحرقت نفسي معهم بنار ملتهبة

وأنا بالنسبة لكثيرين قد اقترفت آثاما بغيضة

ومع هذا إنني لم أفلح بآثامي كلها وأحقق رغبتي

ويبقى الرب الذي يعرف قلبي وتفكيري الباطني،
يمكن أن يغفرلي الآثام التي اقترفتها .
بحق الرب، ضربني مولاي الدب ورماني أرضاً
وترك على ظهري العار والشنار مشهوران .
ولئن كنت قد اقترفت بحق تيمبرت كثيراً من الأذى
هو اقترف أولاً بحقي كثيراً من الشرور
ولو جاء شانتكلير إلى هنا بناء على أمرك :
وبحق الرب، لقد سار راكباً خلال أرضي كما يريد :
ولأن أكون متصالحاً معه، سأكون مبتهجاً،
لأن كل ما أعطاه لي كان مجرد آلام كبيرة
إنني أسامحهم، دعهم الآن يتولون مسامحتي
بهاتين اليدين اللتان صفقتا هنا كما ترى .
وإذا لم يكن لدي قوة غير ما سلف وأعطيتنيه
بناء عليه لن أستطيع إثارة الحرب عليهم أكثر
ومع هذا لئن لم أستطع إمساكهم بأية حيلة
لقد جعلتهم يعرفونها برضا من كل قلبي»
وبسرعة أرسلوا رسالة إلى الديك، يقولون فيها
بوجوب قدومه لتقديم المسامحة على الفور .
ورد الديك قائلاً :«باسم الرب، دعوه يعرف

أنه إذا مات، فهو معفى من كل لوم
وعلى كل حال، إنني أعرف جيداً علته
فهي لاشيء سوى خداع دنيء، وشرور .
ولو أن مولاي زنغريم حكيماً،
لتعامل معه بالطريقة نفسها والخداع
فقد اعتاد البازيار الاغريقي مع النسر أنه :
إذا ما أطعمه مباشرة وبدون تمييز
سوف يغدو متكبراً ومتعجرفاً مع الجميع،
دعه أولاً يقدم إجابة للنداء .
ويؤلمني كثيراً أنه بسلوكه الشرير
قد نجا عشرات المرات من المصيدة .
أشياء غريبة أثناء عيد الفصح بناء على أوامره
قد اقترفت، عندما تجرأ وبارك وقدس
ومن ثم التهم الحمل ذي الأذنين الطويلتين .
وعلى هذا ليس هناك خطر، ولاسبب للخوف
والآن إذا لم نراقبه ونرصده بأعين حذره
سوف يغشنا ثانية بخداعه»
ولم يتمكن المراسل أن يجعله يقول أكثر،
وهكذا عاد إلى رينارد بدون تأخير

وحكى له كلمة كلمة

الجواب، والرأي الذي سمعه .

وبناء عليه قال رينارد للشماس :

«إنني سأموت الليلة، أو عند انبلاج الفجر .

وإذا ما تمكنت من النجاة من هذا الانهيار،

يمكنني تحقيق الراحة والهدوء .

لقد سومحت وسوف أسامح الجميع، الرب يعرف

الوقت الذي سوف أبعث فيه من هذه البقعة .

حللني يا سيدي، أرجوك باسم الرب،

لقد أذنبت كثيراً من الذنوب، يا لعاري

حتى لو أنني عشت مائة سنة

لن أستطيع إلقائهم جميعاً في أذنيك»

وأعطاه الراهب التحليل الآن والغفران

لكن ذلك كان على شرط فقط

أن يأتي إليه إذا ما عاد صحيحاً .

وأجابه قائلاً :«سأفعل، وسأذهب إلى آخر أيضاً

هو الذي سوف يتألم كثيراً عندما سيسمع،

لقد وعدت، ولسوف أذهب، وأقول كلمة» .

وبناء عليه تنازل الراهب وأعطاه الغفران

وحصل على ذلك في ساعة مرض

وغادر يسوع، وبقي رينارد حيث هو

مليئاً بالخداع وبفن الشر .

فللشيطان في داخله جزء جبار :

وفيه شرور عظيمة تحت جلده،

لقد كان وسيكون، مادام حياً

خائناً غارقاً في مفاسد دنسة

حتى تذهب روحه الدنيئة والتعيسة .

٧٤ (١٥٤) : بعد عقد المصالحة أعطى صاحب بيروت الجيد وأولاده كثيراً من الحاجيات الجيدة، والتشريفات العظيمة، ومبالغ كبيرة، إلى أعدائهم، وأعطوهم خيولاً وملابساً، وأسلحة، وهدايا أخرى، وطلبوا صحبتهم وقد ارتدوا الملابس نفسها، ومتعوا نفوسهم مع بعضهم، ولم يبقوا في نفوسهم شيئاً مما كان، غير أن أعداءهم اهتموا برغباتهم المجنونة واعتنوا بها، وما لبثوا أن أظهروا ما في نفوسهم حالما كانوا قادرين على ذلك، وكان فيليب قد توقع بشكل جيد وصوّر في قصيدته عن رينارد ما حدث فيما بعد، وتعمد عموري برلياس بقصد شديد وبذل جهوداً كبيرة لأن يكون بصحبة صاحب بيروت وأولاده وللمشاركة باحتفالاتهم، ودعا السير بالين بأخيه، وغالباً ما تحدث عن المعركة التي وقعت وعن الحصار، ولهذا لم يوثق به، لأنه أن يتذكر الانسان عاره بشكل كبير في ذلك دناءة وانحطاط .

٧٥ : وفي أحد الأيام كان الحضور في البلاط كثيفاً، وكان السير عموري برلياس وصحبه كلهم هناك بين الحضور ، وكان آخر من دخل إلى البلاط معاً السير آنسيو دي بري وفيليب دي نوفار، وتورينول، ونظر

السير عموري متمعناً وعن قرب، فوجدهم يتشاورون مع بعضهم، ولذلك استبد به خوف عظيم، وبناء عليه قال بأنه مريض جداً، وأنه يحتضر، وبناء عليه خرج من البلاط هو ورجاله، وتوجه إلى بيته، واعترف هناك فوراً وتناول القداس قائلاً إنه قد سامح جميع الناس، وبوده أن يطلب رحمة الرجال الثلاثة المذكورة أسماؤهم أعلاه، لأنه يخاف منهم خوفاً عظيماً، لأنهم لم يكونوا حضوراً أثناء المصالحة، ولم يقسموا على قبول المصالحة حتى الآن، وقد بعث برجال دين إليهم يلتمسون منهم القدوم إليه، وهم لم يرغبوا بالذهاب، لكنهم ردوا عليه أنه إذا ما مات سوف يكون مسامحاً من قبلهم، وقد حدث هذا قبل نظم القصيدة المذكورة من قبل، ولهذا السبب ذكر فيليب هذه القضية في القصيدة .

٧٦ (١٥٦) : وأرسل السير عموري وحزبه رسالة إلى الامبراطور - كما قيل - حدثوه فيها عما وقع، وبعثوا بأعذار كثيرة بشأن المصالحة التي صنعت، وبعثوا إليه يخبروه أنهم ما يزالون يتملكون لإقطاعاتهم، وفي حوزتهم جزء كبير من البلاد، وأنه إذا ما أرسل إليهم قوة صغيرة سوف يتولون ثانية إخضاع أولئك الذين كانوا هم أعداءه وأعداءهم، وقد قيل بأنهم راسلوه مراراً، وقد وجدوا في النهاية الذي نشدوه (١٣٨) .

٧٧ (١٥٨) : وحدث ذلك في سنة ١٢٣١ أنه عندما تصالح الامبراطور فردريك مع الكنيسة واسترد جميع ما فقده من أبوليا (١٣٩)، أن قام هذا الامبراطور، أي فردريك ، الذي كره سورية(١٤٠) وقبرص كراهية كبيرة، فأرسل إلى قبرص وسورية جيشاً كبيراً من باروناته من أبوليا وصقلية، مع جميع الذين كرههم كراهية كبيرة وخاف منهم، وقد قيل توفر في هذا الجيش ستمائة فارس بدون نقص، ومائة من السادة الخيالة، وسبعمائة من الجنود الرجالة، وثلاثة آلاف من البحارة المسلحين، وأسطول كبير وجيد من السفن، وسفن النقل، وكذلك اثنين وثلاثين من الغلايين، وكان قائد هذا الجيش هو رتشار فيلنغر، الذي كان مارشال

الامبراطورية(١٤١)، وسمع مولاي صاحب بيروت بهذه الأخبار، وكان آنذاك في عكا (١٤٢)، وقد سمع بقدوم هؤلاء الرجال من رجال سفن الاسبتارية والتيوتون التي قدمت إلى عكا(١٤٣)، فبادر لدى سماعه بذلك فجمع قدر ما استطاع من الناس، وأخذ معه شطراً كبيراً من حاميته العسكرية، الأمر الذي أسف له فيما بعد .

٧٨ : وقدم إلى قبرص، واستدعى على الفور جميع الناس إلى حمل السلاح، وقد قدموا إلى ليماسول، وكان أول القادمين ابنه السير بالين ومعه قواته(١٤٤)، وفي الساعة التي وصلوا فيها، وصل أسطول اللومبارد إلى قبرص إلى رأس غافاتا Gafata ، القائم قرب ليماسول(١٤٥)، وكان الملك هنري الشاب ملك قبرص ومولاي صاحب بيروت على الطريق، وعندما سمعا بالأخبار بادرا مسرعين إلى هناك، ولهذا عقرت خيول كثيرة، ومع ذلك عندما قدما مسرعين جداً، وعندما احتشدوا مع بعضهم، كان هناك عدد كبير من الناس على الخيول وعلى الأقدام، وقد انتظموا بصف رائع، وتوفر هناك من الأصدقاء ومن الأعداء حوالي الخمسمائة فارس، وكان هناك أيضاً أعداد كبيرة من السادة الخيالة والتوركبلية .

٧٩ : وخاف اللومبارد منهم، ولم يتجرأوا على النزول، ولأن الشاطىء كان مدافعاً عنه بشكل جيد لم يتمكنوا من السيطرة لاعلى الأرض ولا على الماء، وجرى تبادل العديد من الرسائل بين الطرفين(١٤٦)، وحافظ مولاي صاحب بيروت دوماً على الاستقامة أمامهم، وتكلم بتواضع كبير، حتى أن رفاقه غضبوا من ذلك، وتشاور اللومبارد والسير عموري برلياس مراراً فيما بينهم، وكان ذلك في أثناء الليل، وكان ذلك معروفاً بشكل جيد، وكان من الممكن إخضاعه للاستجواب بسبب ذلك لو توفرت الرغبة بذلك، لكن السيد النبيل لم يسمح بذلك، وقال من الممكن أنه كان يتحدث خيراً، أوأنه كان يتحدث شراً، وأنه رغب

باقتراف الشر، فإنه لن يفعل ذلك حتى يتضح تماماً أنه حنث بيمينه وخرق المصالحة، لأنه(أي الإيليني) إذا ما أراد اتخاذ إجراء بناء على معطيات هي كلمات فقط،فسيقال بأنه حنث بيمينه، لأنه هنالك فرق كبير بين الكلام وبين الأفاعيل، ولم يستطيعوا زعزعته عن قراره، ولهذا تقرر بالفعل وجوب قتل(برلياس) في خيمته في الليل أثناء وجوده في فراشه، وخشي صاحب بيروت من هذا الأمر، ولهذا أخذه إلى بيته ليقيم، وأمر بحراسته هناك بشكل جيد .

٨٠ (١٥٩): وعرف اللومبارد أنهم لن يتمكنوا من النزول إلى اليابسة بسلام، لهذا انتظروا وقتاً مناسباً(١٤٧)، وغادروا من هناك خلال الليل وذهبوا مباشرة إلى بيروت، وأخذوا المدينة على حين غرة، واستسلم الأسقف إليهم، وكأنه كاهن جبان(١٤٨)، وحاصروا القلعة(١٤٩)، وشددوا الحصار عليها عن قرب، ووجدوها تفتقر إلى الرجال، لأن صاحب بيروت لم يتخذ حذره تجاه هذا، وحمل الجزء الأكبر من الحامية العسكرية إلى قبرص، وقد عرف اللومبارد بهذا عندما كانوا في قبرص، ولهذا السبب قرروا الذهاب إلى بيروت، وكانت القلعة مزودة باللحوم بشكل جيد، وبالخمور وبالسلاح،لكن عدد الرجال فيها كان قليلاً، وكان لدى اللومبارد العديد من الجنود والمهندسين، والخشب الصالح للبناء والحديد والرصاص، وكل ما هو ضروري لصناعة الآلات الحربية، ولهذا صنعوا من الآلات ما هو كبير وما هو صغير، وهاجمت هذه الآلات القلعة بشدة .

٨١ : وكان معهم خائن اسمه دنس، وكان قائداً عسكرياً لدى صاحب بيروت، وسيداً لكل القلعة، ويعرف تمام المعرفة نقاط الضعف عند الناس، وقد بين لهم كيف يمركزون الآلات حيث يكون هناك ضرراً أعظم، وقد نال بالنهاية جزاءًوافياً، حيث علق من رقبته وشنق بمثابة خائن، وأطبق المحاصرون على القلعة، لأن المدافعين عنها كانوا قلة، وتمّ

الاستيلاء على خندق القلعة، الذي كان واحداً من أجمل الخنادق في العالم، وأقاموا عند قاعدة الخندق شارعاً مغطى تماماً مع برج عظيم من الخشب، ولغموا القلعة في كثير من الأماكن، وبنى اللومبارد خارج القلعة في مكان يدعى كوفور Chaufor قلعة من الحجارة، فوقها قلعة من الخشب كانت أعلى من القلعة وقد كشفتها كلها، وسببت أضراراً عظيمة للذين كانوا في الداخل، وهذه الخطة نفسها جرى إرسالها من قبرص، مع نصيحة بوجوب أن يفعلوا ذلك، لأن الخائن الذي بعثها كان يعرف أن صاحب بيروت كان يخشى كثيراً من هذا المكان المرتفع(١٥٠).

٨٢ (١٦٠) : ووصلت الأخبار إلى قبرص، بأن القلعة تحت الحصار، وأن الشتاء كان قاسياً، وجاء صاحب بيروت إلى البلاط، ومثل أمام الملك هنري الشاب، الذي كان مولاه وكان بالوقت نفسه ابن أخته، وامتلأ البلاط بعدد كبير من الناس، من أصدقاء وأعداء، ونهض ووقف على قدميه ـ كان من عادته أثناء الجلوس وضع ساقيه على بعضهما ـ ولأنه كان يعرف ما الذي عليه فعله، فقد تكلم بصوت مرتفع، وتوجه نحو هدفه بقوله :« سيدي، إنني لم أحاول قط أن أمتن عليك من أجل خدمات أسرتي نحو أبيك ونحوك، والآن لابد أنني الآن محتاج لأن أفعل ذلك، ولسوف أقارن نفسي ــ مع أنني قد لا أكون جديراً بذلك ــ مع وليم أوف أورانج، الذي عندما أحتاج إلى نجدة حفيده في كانديا -Can dia، امتن على مولاه الملك لويس من أجل الخدمات التي قدمها له» . (١٥١)

٨٣ : « ويمكنني أن أقول، ولدي الكثير من الضمانات من أجل ذلك والشواهد أنه بوساطتي وبوساطة أسرتي صار والدك سيداً وتملك البلاد، ولولا أننا أيدناه لكان قد حرم من الميراث أو مات، وعندما نزل به قضاء الله، كان عمرك تسعة أشهر فقط، وقد رعيناك، أنت وبلادك ـ شكراً للرب ــ حتى هذا اليوم، ولم نتخل عنك أبداً عن طواعية، ولم

نتركك لوحدك لأن دوق النمسا أراد حرمانك من ميراثك(١٥٢)، وكنت مرتين في وضع سيء أو أسوأ، ولو رغبنا أن نتخلى عنك وعن مملكة قبرص، وعن مملكة سورية لأمر الامبراطور بإعطائنا ملكية بيروت بسلام» .

٨٤ : « والذي حدث الآن أن اللومبارد قد استولوا على مدينتي، وهم يحاصرون قلعتي ويطوقونها عن قرب، وهي مهددة بالفقدان، وبذلك نكون أنفسنا وجميع رجالنا السوريين قد جردنا من أملاكنا، وبناء عليه أتوسل إليك، فأستحلفك بالرب وبشرفك، ومن أجل خدماتنا الكبرى، ولأننا من دم واحد، وقد تغذينا من أرض أم واحدة، وأرجو منك أن تأتي معنا، كما ألتمس الشيء نفسه من الآخرين الذين هم هنا بين الحضور، بحكم أنهم أخواني وأصدقائي المقربين، وأتمنى أن تقوموا شخصياً مع قواتكم بالذهاب معي للتفريج عن قلعتي»، وهنا توقف صاحب بيروت عن الكلام، وجثا وكأنه يريد أن يقبل قدمي الملك، فانتصب الملك واقفاً على قدميه، وجثا الآخرون جميعاً، وقال الملك، وقال الآخرون كلهم أنهم يوافقون عن طواعية، وأنهم يضعون أجسادهم وما يملكون تحت تصرفه وفي خدمته(١٥٣)، وشكرهم صاحب بيروت كثيراً، ثم انتصب واقفاً هو وجميع الآخرين على أقدامهم، لأنهم كانوا ما يزالون جاثين على أقدامهم .

كيف قدم صاحب بيروت ومعه القبارصة من نيقوسيا إلى فيماغوستا للعبور إلى سورية

٨٥ (١٦١) : وتمت الرحلة بدون إبطاء، وحدث هذا في حوالي موعد عيد الميلاد (١٢٣١)، وبسرعة وصلوا إلى ميناء فيماغوستا، وكانت الأحوال الجوية سيئة جداً، وقاسية إلى أبعد الحدود، حتى أنهم اجتازوا سهل فيماغوستا بكل صعوبة وفقدوا أشياء كثيرة على الطريق، ومكثوا مدة طويلة في الميناء بسبب سوء الأحوال الجوية، وانطلقوا أخيراً

لـدى انتهـاء مـوسم الاضطـراب، ومع مـوعـد تحول القمـر(١٥٤)، ولم يدعـوا ولاقائداً واحـداً في قبرص، وتكلم النـاس حول هـذا كثيراً، وأعلم فيليب دي نوفـار صاحب بيروت بذلـك، وقال له هناك كـلام كثير حول هذا، وقد ردّ عليه بقوله :« إذا لم أبـدأ الآن، أعرف تماماً أن القلعة ستفقد وسيتبع ذلك خسـارة البلاد كلهـا، ولئن منحني الـرب نعمة العبـور، كل شيء سوف يتم استرداده، وسيكـون هناك مجد عظيم، وإذا قـدر الرب أن أمـوت، ليكن ذلك على الطـريق، لأنني أفضـل أن أموت قبل أن أعـرف خسارتي، وليـس بعد ذلك، وأفضـل ذلك دوماً ــ بقضاء الـرب ورضاه ــ على أن يحدث في أيامي فقدان لأرضي أو لبلاد مولاي» .

٨٦ :« ويلـومني بعضهم لعـدم تركي قـائداً واحداً في قبرص، سـوف أخبرك لماذا(١٥٥)، ربما قد أتـرك الشخص الذي يمكن أن يـربح كل شيء حيث نحن الآن ذاهبـون، ولقد حدث مـراراً، أنه برجل نبيـل واحد قد نيل كل شيء، وبفقدان رجـل نبيل واحد تم خسران كل شيء، ونحن ذاهبون وفق طـريقة، وإلى مكان يقتضي أن يكون كل واحـد منا على ظهر السفن، وإذا مـا انتصرنـا، لـن تحتاج قبرص إلى قـادة، وإذا مـا خسرنـا، سينتهي كل شيء معنـا، والقائد الذي سيكون في قبرص، سيصمـد هناك لـوقت قصير، ولسـوف يهلك بعـد ذلك، لأننـي لا أعرف مكـانـاً في كل العـالم المسيحي يمكنـه أن يجد فيه مـلاذاً، ولهذا السبب لا أرغب ببقـاء واحـد من أسرتي أو ممن يحمـل اسم إيبلين، وإذا ما انتصرنـا فكل واحـد سينال نصيبـه في المجد والمرابـح، وإذا ما خسرنـا سوف نمـوت جميعاً في سبيل الرب، وفي سبيل حقوقنا في أملاكنـا، فهنا ولد معظم أقربائي، وهنا سوف يموتون» .

٨٧ : وأصغى فيليـب دي نوفـار جيـداً، وبـرغبة لهذا التعليـل، وتركـه وابتعد عنه وكرر كـل ما سمعه لكثير من الناس الذين كـانوا ينتظرونه في الخارج، وبناء عليـه قال كل واحد وردد بأعلى صـوته :«ما قالـه صواب،

هذا الرجل النبيـل، دعونا نذهب في سبيل الرب»، وحـاول الأعداء الذين سميتهم من قبل(١٥٦)، وهم الـذين كانوا معهم تحت غطـاء المصالحة والحب، وسعـوا جـاهـــدين بـوسـاطــة الخداع تسبيب التـأخير، وفكـروا بالاعتصـام في قلعة كـاستري Castrie التي عـادت ملكيتهـا للداويـة، وغـالبــاً مـا روي هـذا لصـاحـب بيروت، وأشير بضرورة إلقـاء القبـض عليهم، لكنـه لم يـرغب قـط في أن يفعل ذلك، وقـال دومـاً بأنـه يـرغب بـالانتظار حتى تظهـر شرورهم وتبـات معـروفة وواضحـة، ووقتها سـوف يقدم مولانا العون للحق .

كيف عبر القبارصة البحر بأمن وسلام ووصلوا إلى ميناء القسطلان في طرابلس

٨٨ (١٦٢) وغادر الجميع معـاً أثناء الليل، ما بين أصدقـاء وأعداء، وكانت الأحـوال الجوية سيئة والأمطار غـزيرة، فهذا ما قضـاه الرب، وقد ساقتهـم الأحوال الجوية إلى مينـاء القسطلان في طرابلـس(١٥٧)، وقد وصلوا إلى ذلك الميناء بأمن وسلام وهرب من هناك الأعداء الذين ذكرت أسماؤهم من قبل مع حـاشيتهم، وكان تعدادهم ثمانين فارسـاً، وقد ذهبوا لـلانضمام إلى الحزب الآخـر، أي إلى بيروت لـلإلتحاق بـاللومبـارديين (١٥٨)، وعبر معظم الجيـش عن استيـائه، وانـزعج بعض النـاس كثيراً، وخاف عـدد كبير من الشعب بسبب ذلك، وأقام مـولاي صاحب بيروت احتفـالاً كبيراً مظهـراً رضاه بـالـذي حـدث، وقال بـأنه الآن يشعـر هـو بالأمان وبـأن رجال شعبه قد تخلصوا من الخونـة وتحرروا منهم، وبين أنه يفضل أن يواجههم بـالقتال، وأن يجدهم أمامه لاخلفه، لأنـه كان ينتظر طوال الـوقت الذي تبعـوه فيه، أن يقومـوا بضربه مـا بين كتفيه، والآن بما أنهم غدروا تجاه مولاهـم، وبما أنهم تخلوا عنه في الميدان، وكـانوا حانثين للعهود نحـوه ونحو رجـاله، لم يعـودوا هم القـوم الذين كـانوا بـالضرورة يخشاهم، ولهذا فإنـه يرى في هذا العمل مربحـاً كبيراً لـه، وخسارة عظيمة

للحزب الآخر .

٨٩ : وانطلق الآن صاحب بيروت وجماعته عبر البر وأسطولهم عبر البحر، ووصلوا في اليوم الأول إلى البترون، وتلقوا هناك أضراراً بالغة لحقت بسفنهم،لأن الميناء كان سيئاً، وقد دفعتهم الأحوال المناخية السيئة وجرفتهم، ولهذا غرقت غالبية سفنهم أو جنحت، وكانت البقية في حالة سيئة جداً، ومع هذا انطلق الناس من هناك، وركبوا وساقوا وسط الأمطار والأحوال الجوية السيئة، وساروا خلال شعاب منزلقة خطيرة، وعلى حواف وديان فائضة بالمياه على أطرافها، وعبروا ممر الكفار، وبممر نهر الكلب (١٥٩)، الذي كان خطيراً جداً حتى يمكن عبوره، وهكذا ناضلوا حتى وصلوا بالقوة والحكمة إلى نهر بيروت، وعبر الذين كانوا في قلعة بيروت عن سرور عظيم وأضاءوا إضاءات كبيرة عندما رأوهم، وكانوا بحاجة كبيرة للنجدة، لأن القلعة كانت قد لغمت إلى حد أنها أخذت تتساقط إلى قطع، وسببت لهم قلعة كوفور أضراراً هائلة (١٦٠).

٩٠ (١٦٣) : وانتشرت الأخبار في أرجاء سورية بأن صاحب بيروت قد جاء للتفريج عن قلعته، وما أن سمع بهذا ابن أخته صاحب قيسارية الشاب، وكان وقتذاك في عكا، حتى وعد بمنح إقطاعيات،وقدم أعطيات كريمة، فحشد جيشاً بقدر ما استطاع، وقدم مسرعاً لتقديم العون إلى خاله وإلى أولاد خاله(١٦١)، وجاء بطريرك القدس، وكذلك مقدما الداوية والاسبتارية، وصاحب صيدا، وقسطلان المملكة للتوسط للمصالحة (١٦٢)، ولدى المرور من أمام صور كان هناك اشتباك فيها بين صاحب قيسارية والحامية العسكرية للمدينة، ذلك أن صاحب صيدا كان قد سلم صور إلى اللومبارد بناء على أوامر من الامبراطور (١٦٣)، ودفعهم صاحب قيسارية حتى أدخلهم إلى قلب أبواب المدينة، ونظر إلى قدومه بسرورعظيم من قبل الجيش، وأن هذا القدوم مفيد جداً، وتحدث اللوردات الخمسة المتقدم ذكرهم عن السلام،

لكـن ذلك لم يتحقـق(١٦٤)، واستمـرت الأحـوال الجويـة السيئـة لمدة طـويلـة، وكـان في المعسكر عـوز عظيـم لـلأطعمـة وللشعير، لهذا أكلت الخيـول كلها تقـريبـاً القصب فقط، وتـوفر القليـل من الخيـام ، ذلك أن معظمها قـد فقد في الأسطـول الذي تحطم أمـام البترون، وكان اللـومبارد يشعرون بالراحة والاطمئنان، وتـوفر لديهم الكثير من الأطعمة والحاجيات مع بيوت مريحة داخل المدينة .

٩١ (١٦٤): وخرج اللـومبارد في صباح أحد الأيـام باكراً، وتقـدموا على شكل صفوف قتـالية، وزحفوا حتى طـرف النهر، الذي كان عـريضاً جداً هنـاك، ولولا أنـه كان عـريضاً إلى هـذا الحد ما كانـوا ليخرجـوا من المدينة على هـذا الشكل، ومكثوا طـوال النهار هنـاك على هذه الشـاكلة، وذلك حتـى حلول الظـلام، حيث أرغمـوا على العودة، وتحسنت أحـوال المناخ، ومال نحـو الهدوء، وانخفضت مياه النهر، وبنـاء عليه عبر جيش الملك هنـري وجيـش صـاحب بيروت النهـر، وزحفـوا حتى وقفـوا أمـام مـدينـة بيروت، على شكـل صفـوف معبأة، وقـد انتشروا حتـى الخنـدق، وجرى هجـوم ضعيف أقلع به الـذين كانوا في المدينـة، لكنهم ردوا بكل عنف وصـدوا عائديـن إلى داخل المدينة، ورتـب الذيـن كانـوا في داخل المدينـة أنفسهم أمام الحصـار، وتقـاسموا مهـام الدفـاع، وتمركز الأعـداء الذيـن تخلوا عن الملـك وعن مولاي صـاحب بيروت، والتحقـوا بالحزب الآخر ـ أي اللومبارد ـ في أحد جـوانب المدينة حيث كان هناك برج كبير، ولهذا السبب غالباً ما دعي هذا البرج فيها بعـد باسم«برج الخونة»، وذلك صدوراً عن خيانة أولئك الذين تخلوا عن مولاهم في ميدان المعركة .

٩٢ : واتخذ اللـومبـارد احتيـاطات للحـراسـة كبيرة مـن جـانب البر، وكذلك مـن جانب البحر، حتى لايتمكـن أحد من الدخـول إلى القلعة، وأعـدوا غـلايينهـم، وربطـوهم بسلسلـة عظيمـة من الحديـد، وصفـوهم بشكل جيـد جميعاً من حـول القلعة في داخـل البحر، وتـركوا ممراً واحداً

ضيقاً يمكنهم الـدخول منه والخروج، وفتش صاحـب بيروت في كل ليلة عن رجـال تحت السلاح، أمكنه أن يـرسلهم سباحة إلى القلعـة، وغطس بعضهـم تحت الغـلايين، وسبحـوا عـراة حتى دخلـوا إلى القلعـة حيـث وجدوا هناك اللبـاس والسلاح والطعام بكميات عظيمة، فالحاجـة توفرت في داخلها إلى الـرجال فقط للقتال وإلى القـادة، وكان عدد الـذين عبروا إلى القلعة ليـس كافياً حتى يتمكنـوا من الدفـاع عن القلعة، وبنـاء عليه أعد صاحب بيروت خطة في أن يقوم أحـد المراكب خلال الليل بالعبور، ووضع في داخلـه واحداً مـن أولاده، الذي كـان يدعى السير جـون أوف فـوغيـا، وذلـك للسبب الـذي سمعتـه مـن قبل، وقـد أصبـح فيما بعـد صاحـب أرسوف(١٦٥)، وقسطـلان مملكة القـدس، وكان وكيـلاً عدة مرات(١٦٦)، وكان حكيماً ولائقاً، وكان مع جـون هذا مائة من الرجال المسلحين، وفـرسـاناً وسيرجنـديـة، وسـادة، وكـانوا جميعـاً مـن آل البيت الإيبليني وأتباعه.

٩٣ : وغضب ابنـه الأكبر بـالين غضباً شـديـداً، لأنـه كان أسـن من أخوانه، ووجه النقـد لأبيه لأنه لم يدعه يذهب، وقـال بأنه الوريث (ولي العهـد) وهناك سبـب عظيم بـالنسبة لـه لأن يـذهب هـو وليس الآخـر، وغالباً ما عـرض السير بلدوين نفسه وكذلك فعل جميع الآخـرين، وكانوا غضاباً جداً لأنه لم يرغب بارسـالهم، وقد رد عليهم بأنه يحتاجهم أكثر في الخارج وليس في الـداخل ، لأنـه كـان ينتظر المعـركة مـن يوم إلى يـوم، وهكـذا جعلهم يهدأون، ومـا أن علم الأتبـاع الآخـرون في الجيش بخطـة العبور حتى بادروا إلى هنـاك متسابقين، وكانوا من الكثـرة بمكان إلى حد أن المركب طفـا بصعوبـة، وأمر صـاحـب بيروت هؤلاء جميعـاً بالمغـادرة، وشكـرهم شكـراً عظيماً، وكان أفـراد أسرته والغـربـاء مرعـوبين جـداً من العبـور بين الغلايين والـدخول إلى القلعـة، ومن ثـم تولي الـدفاع عنهـا، ووضح في هـذه القضية مثلما وضـح في قضايـا أخـرى أن ما من إنسـان

أحب شعبـه مثلما فعلوا، وكان المركب مليئـاً بالنـاس حتى أن الماء وصل إلى حـوافـه، وعنـدمـا وصلوا إلى مـدخـل الطـريق الضيـق الـذي ذهب اللـومبارد من خـلاله إلى غـلايينهم، لاحظهـم الذين كـانوا في الغـلايين وعرفوهـم، فأصدروا صرخات مدوية، ووجهوا نحوهـم رمايات كثيرة .

٩٤ : وبفضل الـرب اجتازوا الممـر، ونجـوا من الغلايين، ووصلـوا إلى صخـرة تحت القلعـة، ونجـوا من الغـلايين، ولم يعـرف الـذين كـانـوا في القلعة شيئـاً عن قدومهـم، ورموا عليهم بـالحراب، وأمطروهم بـالنشاب، لذلـك عانوا كثيراً، لكنهم في النهـاية عرفـوهم واستقبلوهم بفـرح عظيم، مع أنـوار هائلة، وكـانوا عندمـا صدرت الأصـوات العالية مـن الغلايين وقت عبـورهـم من بينهـا، ألقى صـاحب بيروت بنفسـه على الأرض على شكل صليـب باتجاه الشرق، وصرخ : رحمة يـارب، وعنـدما رأى الأنـوار على القلعـة، وشارات دخـولهم، قدم بتـواضع شكـره للرب، وفعـل جميع الذين كـانوا في الجيش مثلما فعل، وبعدما دخـل ابن صاحب بيروت إلى القلعة ومعه عدد كبير مـن الرجال الجيدين، شرعوا بالـدفاع عن أنفسهم بفعـاليـة أعظم، وحفـروا ممـرات لغم مضـادة للغـامي العـدو وأعـادوا الاستيـلاء على الخندق بـالقـوة، وأحرقـوا الشارع الـذي صنعـه اللومبـارد وغطوا به الخندق، وبعد هذا قام الـذين كانوا في القلعة بأعمال انقضاض شجاعـة، وربحوا أشيـاء كثيرة من الـذين كانـوا بالخارج، وأحـرقوا عـدة آلات حصار .

٩٥ (١٦٥): ثم تيقـن صاحـب بيروت وعرف أن قلعتـه بـاتت في وضع دفاعي جيـد، لكنه لم يكن قادراً مع الـرجال الذين كـانوا بصحبته على رفع الحصـار، وإنزال الهزيمـة بأعـدائه، الذين كـانوا متفـوقين عشرة لواحـد، ولم يكن يخشى عـددهم، وكان راغبـاً في قتالهم، غير أنهم كـانوا داخل المدينـة التي كانت محصنـة بشكل جيـد ولها أسوار ممتازة، وكـانت لديهم السيـادة على البحر، لذلك فكر في قـرارة نفسه بالذهـاب إلى عكا

ومن ثـم تأمين عدد كبير مـن الجنود الـرجالـة مع أسطـول كبير، حيث لم يكن لديه أسطـول، كذلك بعث بابنه السير بـالين إلى طرابلس مع الملك الشاب هنري، وفـوضه تماماً للترتيب لـزواج وعقده فيها بين أخت الملك وابن الأمير(١٦٧)، وبـإعطائه إقطـاعيات كبيرة في قبرص وقت الـزواج، وذلك في سبيل أن يقوم الأمير بمساعدتهم بفـرسان وبسفن وبرجال تحت السلاح، وكان الحديث حـول هذا الزواج قد بدأ منـذ زمن طويل مضى، وهكذا نفذ مـا فكر به، لكنه جعل الـذين في القلعة يعرفـون بذلك حتى لايضطـربوا لـذهـابه، وأنـه يمكن أن يعـود في أقـرب وقت ويجلب معـه خلاصهـم، وأجابوه بـأن عليه الاحتياط أثنـاء ذهابـه باسم الـرب وليكن مطمئناً أنهم سوف يـدافعون عن أنفسهم بشكل جيد بعون مـولانا وعون أنفسهم، وهكذا فعلوا .

٩٦ (١٦٦): وعنـدما غـادر مولاي صـاحب بيروت، وترك الحصـار، انطلق ابنـه السير بالين إلى طـرابلس، وذهب معـه السير وليم فيزكـونت(١٦٨)، الـذي كـان رجـلاً عــاقـلاً، وبنـاء على الـرأي الشخصي لمولاي صـاحب بيروت، كان هـو الـذي بدأ المبـاحثات مـن أجل هذا الـزواج، وكان قـدولد في طـرابلس، وفيليب دي نوفـار، الذي لم يفارق قـط(بالين) ذهب إلى هنـاك، كما فعل آخـرون كثر، وكانـت العوائق التـي اجتازوهـا والممـرات الصعبة كثيرة، وكـذلك عبروا كثيراً من الأنهار العـريضة، وقـد مروا أمـام جبلة، التـي عادت بملكيتهـا إلى الحزب الآخر، وزحف الجنـود طـوال الليل خـلال الجبـال، ومـع هذا فبفضـل الـرب شقـوا طـريقهم، ووصلـوا إلى طرابلـس، حيث عسكـروا خـارج المدينة في بيـت الداويـة، الذي دعي بـاسم مونتكـوكو Montquocu، واحتفى بهم أمير طرابلس وأولاده كثيراً، وكان ذلـك في البدايـة، وتباحثـوا في كل يوم حـول الشروط وحول مواثيق الزواج، وأيضاً حول المساعدة التي طلبها صاحب بيروت .

٩٧ (١٦٧): وبـات معـروفـاً في ذلك الحين في طـرابلـس أن جيش

القبارصة قدغادر بيروت، حيث توفر عدد كبير من الناس قد اعتقدوا بأن كل شيء قد ضاع، وهكذا بردت حرارة مباحثات الزواج بشكل ملحوظ غير أنها استمرت، وركب السير بالين في أحد الأيام ومعه جماعته وساروا نحو «تلة الحجاج»(١٦٩)، لمقابلة الذين كانوا يتولون أعمال الإعداد للزواج، ولدى عودتهم وجدوا باب مونتكوكو Mont-quocu مغلقاً في وجوههم، وقال رجال الداوية لهم بأن سبب هذا تجنب التعرض للاهانة من قبل الناس المؤيدين للامبراطور، وبعث السير بالين رسالة طلب فيها المأوى في بيت فرسان الاسبتارية، وكذلك من البوليو Beaulieu الذين كانوا رهباناً سسترشانيين(١٧٠)، وأيضاً من الذين شغلوا تلة الحجاج، التي عادت ملكيتها إلى أسقف بيت لحم، وقد ردّت كل فئة من هؤلاء مثلما جاء ردّ الداوية، وكان في طرابلس فارساً شغل وظيفة نائب أسقف طرابلس آنذاك، وقد تولى إسكانهم في حظيرة للأبقار عادت ملكيتها لكنيسة الأسقف المذكور، وكانت تعرف باسم مخزن الأسقف، وكانت قائمة خارج باب طرابلس، وجرى إعداد البيت للسير بالين وتنظيفه وفرشه بقدر الممكن .

٩٨ : وحدث الآن أن مقدم اللومبارد، كان يعرف تماماً سبب وجود السير بالين أمام طرابلس، فصنع رسائل مزيفة كأنها مرسلة من الامبراطور، وكتبت هذه الرسائل في صور على رقّ إسلامي، وقد ختمت بختم الامبراطورالذي كان لديه، وجاء في هذه الرسائل بعد تقديم أعلى أنواع التحيات، أنه يرجو من أمير طرابلس وأولاده بحكم كونهم أقرباء أعزاء، ورجالاً مخلصين، أن لايمنحوا الملجأ إلى أعدائه وأن لايقدموا أية قوة أو أي عون، وبعث الأمير وأولاده هذه الرسائل إلى فيليب دي نوفار، مع مذكرة أخرى مكتوبة جاء فيها كلمات قالت في تراكيبها:« الأناس الطيبون لايميلون إلى الشر»، وجاء في نهاية هذه المذكرة ملاحظة فيها رجاء لفيليب دي نوفار أن يري هذه الرسائل إلى السير بالين ورجاله،

وأن يبين عذرهم، وكـان قد حدث أن قام أمير طـرابلس فيما مضى بمنح إقطاع إلى فيليب المذكور، وقد منحه إياه بمبـادرة منه وكرم، ذلك أنه كان كريماً مع كل إنسان، وقد أحبه فيليب وقـدر عالياً مبادرته نحوه، غير أنه لم يرغب بـالاحتفاظ بالاقطاع، ولا الخدمة من أجلـه، ولم يكن لهذا معجباً بما طلب منـه، ومع هذا قـرأ الرسـائل لمولاه وأخبره بجميع هـذه الأشياء، وقـام بدون معـرفة مـولاه بنظم مقطوعـة بسيطة وبعـث بها إلى الأمير هي التالية :

أيها الناس الأشرار الموسومون بالجبن

أنا لن أقبل به، مهما كان الثمن

وأن يقول الناس لا، عندما يتحدثون عنكم ...

٩٩ (١٦٨): وعـانى السير بالين وصحبـه في مخزن أسقف طـرابلس مـن كثير من الآلام والحزن، والأذى، ولم يكـن بـإمكـانهم المغـادرة، لأن الطـريق قـد أغلق أمـامهم وكـان محروسـاً بشكل جيـد من كـل من البر والبحر، ولهذا كـان أن بعث إلى سلطان دمشق(١٧١) يطلب منحـه مع رفاقه أماناً ومساعدة حتـى يتمكنوا من المرور خلال بلاد الكفار، ومن ثـم يـذهب إلى عكا، ومنحـه السلطان مـا طلبه بترحـاب، لكن الأمـور التي وقعـت فيما بعـد جعلت ذلـك غير محتـاج إليـه، وكـان السير بـرتـرانـد بـورسليت زوج والـدة السير عموري(١٧٢) مـع مجمـوعة مـن الرجـال العائدين للسير هيوج صـاحب جبلة موجودين في بلاد طـرابلس، وغالباً مـا اعتـادوا على السير وهـم على ظهـور خيـولهم حول مقـر السير بـالين ورفاقـه، وكانوا آنـذاك يشيرون بأصابعهم إشـارات تهديد(١٧٣)، ذلك أنهم كانـوا ينتظرون من يوم إلى يـوم وصول غلايين اللومبـارد، وأملوا أنهم سوف يتمكنون وقتها من أسر السير بـالين ورجاله، وقتلهم في ذلك المقر، وهكذا عانى السير بالين وصحبه من هذا التهديد.

١٠٠ (١٦٩) : وحدث أنه عندما قام جيش القبارصة بمغادرة بيروت، أن أعلن اللومبارد بأن جيش قبرص قد فرّ، وبناء عليه بعثوا إلى قبرص السير عموري برلياس، والسير عموري صاحب بيسان، والسير هيوج صاحب جبلة ورجالهم، والكونت رتشارد الذي كان من اللومبارد، وقد استولى هؤلاء على جزيرة قبرص فيما عدا قلعة ديودامور، حيث اعتصم أخوات الملك وشعب البلاد، وبعد هذا استولوا على سيرينا، وقبل أن تسقط سيرينا كان السير بالين دي إيبلين قد أعد بشكل سري جداً، أن يقوم الجنويون، الذين قدموا إلى طرابلس في مركبين طويلين، بالالتحاق بخدمته وأن يصبحوا من رجاله، وقد أعطاهم إقطاعيات، وعقدوا معه ميثاقاً بأنهم سوف ينقلونه إلى قبرص، ووافقوا على أنه إذا ما استطاع المغادرة سوف يتمكن من غلبة الذين كانوا في قبرص وإخضاعهم، وعلم أمير طرابلس بالأمر، فاعتقل الرجال والسفينتين بالقوة، ومنع مغادرتهم (١٧٤).

١٠١ (١٧٠): ولسوف تسمع الآن أخبار مولاي صاحب بيروت، الذي كان قد ذهب إلى عكا، وقد تولى عرض الأمور، وأظهر منطقاً عظيماً إلى شعب البلاد، الذي خاف من تسلط اللومبارد، وأن ذلك سوف يجلب الدمار إليهم، وبناء عليه جعلوه مقدم«كومونة»عكا (١٧٥) والتحق الجنويةعن طواعية ورغبة به، ودفعهم إلى هذا حبهم الشخصي له، ولأن الامبراطور فردريك كان قد بعث بأوامر إلى سورية قضت بوجوب اعتقالهم شخصياً مع بضائعهم(١٧٦)، وبذل صاحب بيروت جهوداً عظيمة حتى تمكن من تأمين أسطول كبير(١٧٧)، ووصلت أخبار هذا إلى اللومبارد، فبادروا إلى إحراق آلاتهم وتخلوا عن حصار بيروت، وهربوا مجللين بالعار، من هناك، إلى صور .

١٠٢ (١٧١) : وعندما باتت هذه الأخبار معروفة في طرابلس، وجد السير بالين المزيد من الأصدقاء، وحصل على أمان العبور، وبناء

عليه سافر من هناك وتوجه إلى بيروت، فوجد المكان قد تعرض لتخريب كبير،ولهذا حزن وشعر بأسف عظيم، لكنه استقبل ببهجة عارمة وبتحيات حارة، وانتظر هناك أوامر مولاي صاحب بيروت، أي أوامر أبيه .

١٠٣ (١٧٢): وأقلع الملك هنري وصاحب بيروت وجميع جيش القبارصة من عكا باتجاه قلعة ايمبرت(١٧٨)، وقد سمعوا بأخبار التفريج عن بيروت، ولذلك أقاموا هناك وانتظروا للتشاورحول ما ينبغي أن يفعلوه(١٧٩)، ووصل إليهم في اليوم التالي بطريرك أنطاكية الخائن، الذي كان من اللومبارد(١٨٠)، وكان قد اجتاز بمدينة صور، وتحادث هناك مطولاً مع اللومبارد، وجعل من المفهوم من قبل الملك هنري وكذلك من قبل صاحب بيروت، أنه يمتلك صلاحية كاملة وتفويضاً من قبل اللومبارد، لإقامة صلح فيما بينهم، وأن الصلح الذي يعد له سيكون لتمجيد الملك وصاحب بيروت والقبارصة والسوريين ، ويتماشى مع رغباتهم، وقام الرجال النبلاء، الذين لم يرفضوا قط مصالحة معقولة، وهم الذين أقاموا المصالحة من قبل عن طواعية في وقت امتلكوا فيه التفوق، لقد قام هؤلاء باتباع البطريرك إلى عكا، وقد تشاوروا معه وتناقشوا، كما لحق به بعض خيرة رجال الجيش وأفضلهم، وكان جزء كبير من الجيش مايزال في عكا، ولم ينطلق بعد للالتحاق بالذين تقدموهم، وكان الأسطول مايزال بالميناء بسبب الأخبار التي سمعوها عندما وردت من بيروت .

١٠٤ (١٧٣) : وكان الملك هنري قد بقي في قلعة ايمبرت داخل معسكره مع عدد قليل من الرجال، ومع هذا كان معه الأولاد الثلاثة لمولاي صاحب بيروت أي: السير بلدوين، والسير هيوج، والسير غي، الذي صار فيما بعد قسطلان قبرص(١٨١)، وكان غي هذا رجلاً نبيلاً وشجاعاً، كما كان هناك السير جون دي إيبلين، الذي غدا فيما بعد

كـونت يافـا، وكان وقتهـا فارسـاً جديـداً، له مـن العمر سبع عشرة سنـة فقط، وكان هنـاك أيضاً السير آنسيو، الذي كان قـائداً للجيش في مكان مـولاي صـاحب بيروت، وكـانـوا معسكـريـن بشكل سيء، واحـد هنـا، وواحـد هنـا، دون أن يخشوا أحـداً، وفي الحقيقـة كـانوا قـد قـالـوا بأنهم ذاهبون للاستيلاء على صور .

١٠٥ : وتجسس اللـومبارد الذين كـانوا في صور عليهـم، وعلموا أنهم كانوا معسكريـن بشكل سيء، وأنهم كانوا يتكونون من حفنـة من الرجال فقط، ولهذا انطلقـوا من صور وقت حلـول الظلام، وجلبـوا معهم شعب صـور بالقـوة، وكانـت الأحوال الجوية جيدة في البحـر، وقد جـاءوا على ظهـر اثنين وعشرين من الغـلايين، ونزلـوا عنـد قلعة إيمبرت، وهـاجموا جيش القبـارصة خلال الليـل ووجدوهم نيـاماً وغير مسلحين (١٨٢)، وكان بعض الـرجال قد أخبروا السير آنسيو بـأن اللومبارد كانـوا قادمين، لكنه لم يصـدقهم، كما أنه لم يتنـازل بنشر الخبر، ولهذا يستحق لـوماً كبيراً، ولم يكن هنـاك رجال مثلهم فـوجئوا فـدافعوا عن أنفسهـم أحسن منهم، فقـد قـام أولاد مـولاي صـاحـب بيروت: السير بلـدوين، والسير هيـوج، والسير غي بـأعمال قتـاليـة إعجازيـة، وقـد جـرح السير بلـدوين هنـاك جراحة خطيرة، وكذلـك ابن أخته السير جون، الذي كان شابـاً، فقد قام هناك بـأفاعيل جلبت لـه شهرة عظيمة طـوال حياته كلهـا، وأظهر السير آنسيو شجـاعة رائعة، ومـرد ذلك إلى الشجاعة التي تـوفرت لديـه، ولأنه كان القـائد، ولأنه عدّ نفسه مجرمـاً، لأنه سمع بالأخبـار، ولم يقم بنشرها، ونجا الملك وهـو عريان تماماً تقـريباً، وقد وضع على ظهر فـرس، وهرب من هناك إلى عكا (١٨٣).

١٠٦ : ولم يخسر القبـارصة طـوال الليـل معسكرهـم، وقاتلـوا خـلال الليل كلـه، وكان بعـض القبارصـة يقـاتلون على الأقـدام، وبعضهم على ظهور الخيل لكن بدون سرج، وحمل بعضهم دروعـاً، وكان بعضهم الآخر

عراة، وكـان هناك عدد كبير منهم بـدون سلاح تماماً، وكـان بعضهم على ظهور خيـول بدون مقـاود، وبعضهم بلا رمـاح، وآخرون بلاسيـوف، ومع هذا وجهـوا ضربات عنيفـة للومبارد وقتلـوا عدداً كبيراً منهم، وعنـد بزوغ فجرالنهار نزل الذين كانوا في الغـلايين، وأظهر ضوء النهار كم كان عدد القبـارصة قليـلاً، وهكذا تمّ الاستيـلاء على المعسكر، ومـن ثم نهبه كلـه، وكانت هنـاك خسارة كاملة لجميع الخيـول، باستثناء الخيول التـي كانت مـركوبـة، فهـذه نجت، وقد أسروا أربعـة وعشرين فـارسـاً، وقتلوا عـدداً صغيراً، وكـان عـدد الجرحى كبيراً، وجـرى الاستيـلاء على المعسكـر كلـه وعلى غالبية الأسلحـة، ووقف فرسان القبارصة الـذين دافعوا عن أنفسهم بشكـل جيـد، على رابيـة صغيرة تبعـد حـوالي رميـة سهم زنبـورك عـن المعسكر، ورآهم اللومبارد بكل وضوح، غير أنهم لم يقتربوا منهم .

١٠٧ (١٧٥) : ووصل الملك هنـري إلى عكا، ولدى سماع صـاحب بيروت للأصوات خرج ومعه الذين رغبـوا باتباعه(١٨٤)، وهم يشعرون بالحزن وبالألم، وكـان أول عمل قاموا به هو استقبـال الملك، حيث شكر صاحب بيروت الرب على وصـوله، ثم تقدموا لاستقبال الـرجال الآخرين الـذين كـانوا فـارين، وعنـدما رآه(صـاحب بيروت) هـؤلاء، تخلـوا عن الطريق(١٨٥)، وبـدأ واحد من السيرجنديـة يقول بأنـه سيذهب ليرى فيما إذاكان أحداً من أولاد مولاه بين الفـارين، واعترض عليه مولاه قائلاً :« لاتفعل ذلك، سنجدهم كيفما كـان الحال، فهم لن يتجرأوا على الفرار بعيـداً، وهم لن يأتـوا إلى المكان الـذي من الممكن أن أكـون به»، وبعـد مسافة قصيرة إلتقى (صـاحب بيروت) بواحد من سيرجنديتـه القدامى الـذي كان هـارباً: وبكـى هذا الـرجل وقـال له:« لقـد تم فقـدان جميع أولادك الرائعين، وهم الآن موتى»، وقال الرجل النبيل مجيباً له:«وماذا في ذلك، أيها الجبان الدنيء؟ وهكذا ينبغي أن يمـوت الفرسان وهم يدافعون عن أجسـادهم وشرفهم»، ومضـى في طريقـه إلى الأمام مسرعـاً، وعندمـا

وصل إلى قلعة إيمبرت رأى الذين كانوا وقوفاً فوق الرابية، وما أن رآه هؤلاء حتى نخزوا خيولهم وساروا خلف اللومبارد الذين كانوا وقتذاك ينسحبون .

١٠٨ ـ وما أن رأى اللومبارد الذين كانوا قادمين من عكا حتى شرعوا بالفرار، وعبروا مسرعين الشعب الجبلي لممر البوليان(١٨٦)، وهناك وجد صاحب بيروت رجاله، الذين انقضوا على كافة قوات اللومبارد، ولقد رأى وأدرك أن ذلك القتال وتلك المطاردة، لن تحققا شيئاً، لأن أعداءه كانوا قد دخلوا بالممر ولديهم كثير من الرماة ورماة القسي العقارة، ولهذا استدعى رجاله، وحمد الرب كثيراً أنه وجدهم أحياء، وأنهم تصرفوا بشكل جيد ودافعوا عن أنفسهم دفاعاً جيداً، ووجد هناك جميع أصدقائه الأعزاء باستثناء ابنه السير هيوج، وقد وجده في بيت عسكري قديم كان في القلعة، ذلك أن فرسه كان قد قتل قرب ذلك البيت، وكان قد دخل هو وفارس آخر كان رفيقه إلى قلب هذا البيت، وحصناه بالحجارة حتى سمعا أصوات المنقذين، وكان من المعتقد أنه قد قتل أو أسر، ولذلك كان السرور عظيماً عندما وجد هناك .

١٠٩ (١٧٦) : وذهب اللومبارد إلى صور مع غنائم عظيمة، لأن الذين كانوا في الغلايين والذين كانوا على الأرض قد حملوا كل ما وجدوه، ولأنهم أخذوا أشياء تفوق الحصر ـ معظم الخيول،والأسلحة ،والتجهيزات التي عادت إلى القبارصةـ بات موقفهم المضي في حملتهم، وأن أعداءهم لن يستطيعوا التعافي في قبرص، كما لن يتمكنوا من العبور إليها إلاّ بعد وقت طويل، ولهذا رتبوا القيام بشطر قواتهم، فقد تركوا حامية في مدينة صور، وعبروا على الفور إلى قبرص مع قوات كبيرة للاستيلاء على الجزيرة وقد أعانهم على ذلك أحوال مناخية موائمة فوق سطح البحر، وقد حدث هذا في سنة ١٢٣٢ (١٨٧) .

١١٠ (١٧٧): وما أن بات اللومبارد في قبرص حتى استسلمت

قلعة كنتارا إليهم، وقد حدث من قبل استسلام برج ميناء فيماغوستا إلى السير عموري صاحب بيسان، وإلى السير هيوج صاحب جبلة، وكذلك استسلام قلعة سيرينا إليهم، وهكذا لم يبق من جميع قلاع قبرص تابعاً لصاحب بيروت أو للملك هنري، غير قلعة ديودامور فقط، فإلى ذلك المكان كان قد توجه كل من أختي الملك(١٨٨)، والسير أرنيس صاحب جبلة(١٨٩)، الذي كان في ذلك الوقت وكيل الخازن (١٩٠ Secrete)، وكان هناك أيضاً فيليب دي كافران(١٩١) Caffran، الذي كان القسطلان، والتجأ إلى المكان نفسه عدد صغير من الفرسان،و سيدات و فتيات، و كلهن تجمعهن هناك قبل أن يمتلكن الوقت لتجهيز أنفسهن، و كان مع الجميع أناس من بقية الشعب الذين امتلكوا زاداً قليلاً من الطعام، والأشياء الأخرى التي احتاجوها.(١٩٢)

١١١: غير أن معظم سيدات و فتيات و أطفال قبرص قد أخذوا على حين غرة،و لم يكونوا بالتالي قادرين على الذهاب إلى ديودامور، و هكذا التجأوا إلى الكنائس و بيوت الدين الأخرى، و كانت هناك كثرة كثيرة قد التجأت إلى الجبال، و هناك اختبأت أو في الكهوف، و ارتدت هذه السيدات ثياب الراعيات، و أولادهن ثياب أولاد الرعيان، و توجهت هذه النساء نحو العمل على قطف سنابل القمح التي توفرت هناك، و على هذه السنابل عاشوا هن وأولادهن وسط شقاء عظيم من المؤلم روايته، و التجأت اشيف دي مونتبليارد(١٩٣)، التي كانت و قتذاك زوجة السير بالين دي إيبلين ابن مولاي صاحب بيروت، التجأت هي و أولادها إلى مقر الاسبتارية، و عندما سمعت بأن اللومبارد قد وصلوا تملكها خوف عظيم، فارتدت ثياب واحد من صغار الرهبان، و تخلت عن أولادها و اقطاعها، و صعدت إلى قلعة عرفت باسم بوفافينتو، و قد استقبلت هناك من قبل فارس عجوز اسمه غيونارت دي كونشي(١٩٤)، الذي كان مقيماً هناك لصالح الملك، و قد زودت

نفسها، و هكـذا شحنت بوفافينتو بـالأطعمة، و كانت القلعـة قبل ذلك لاتمتلك شيئاً.

١١٢: و قدم اللـومبارد مسرعين إلى نيقـوسيا، و قـد اقترفوا هنـاك كل الآثام و المفـاسد و الشرور التي عرفوهـا و كانوا قـادرين على اقترافها، و اقتحموا الكنـائس و بيت الـدواية مع بيت الاسبتـارية، و جميـع البيوت الدينية، و سحبـوا و جروا إلى الخارج السيدات و الأطفال الـذين تعلقوا بالمذابـح و بالكهنـة الذين كـانوا ينشدون القـداسات، وحـدث في تلك الأثناء أنهم قاموا في أحـد الأماكن فانتزعوا من يدي الكـاهن جسد ربنا، و رموا بالقربان المقدس على الأرض، وقد وضعوا السيدات و الأطفال في عـربـات و على ظهـور الحمير بشكل مهين جـداً، و بعثـوا بـالجميـع إلى سيرينا للسجن هناك، والتقطـوا بالخطا طيف الذين رفضـوا الذهاب على الفور، و كان اللومبارد قد استـولوا على سيرينا، و جلبوا إلى هناك كميات كبيرة من المؤن، ذلك أنهم أرسلوا بغلايينهـم و بمراكبهم إلى ذلك المكان كل ما وجدوه على طول سواحل قبرص.

١١٣(١٧٩): و توجه اللـومبارد مع الخونة الآخرين لحصـار ديودامور، و قد طوقوها و ضغطوا عليها عن قرب، ذلك أنهم عرفوا أن الذين كانوا فيها كانوا مزودين بقليـل من المؤن، وقد بعثوا إلى الحصار، و الضغط على القلعة بلا هوادة، أكثر الناس عداء لكل من الملك و صاحب بيروت، و هكذا بعثوا بها لا أعـرف عدده من طواقم رماة القسي العقـارة، و حانثي الأيمان و الخونة الـذين فروا من جيش القبـارصة و قصدوا جبلة، عنـدما مرّ جيش القبارصة أمامها، و هو على طريقه للتفريج عن بيروت.(١٩٥)

١١٤(١٨١): و أكمل الآن الملـك هنري السنـة الخامسـة عشرة من عمره،(١٩٦) و بات قادراً على التصرف حسب رغباتـه بحكم كونه سيداً قـد وصل إلى السن القـانونيـة، ووعـد بناء عليـه بمنح عـدة اقطاعيـات للذين كانـوا معه، ووعد الجنويين بإعطائهم امتيـازات إعفاء و محكمة في

مملكـة قبرص(١٩٧)، إذا مـــا استمـروا بصحبتــه فقـط حتى يصـل إلى قبرص، و مثل صاحـب بيروت، الذي كان آنذاك مقـدم «كومونـه» عكا، حسبما أوردنـا خبر ذلـك من قبـل، أمـام البطـريـرك جيرولـد، بطـريـرك القـدس، و كـان ذلك بحضـور الملك هنـري و عـدد كبير من الـرجـال الـذيـن كـانـوا هنـاك وتشكى للبطـريـرك، الـذي كـان أيضـاً النـائب البـابـوي،(١٩٨) بسبب الأضرار التـي ألحقهـا اللـومبـارد بـالملك و بـه شخصياً، فيما يتعلـق بالمسألـة التي رويت أخبـارها أعلاه، وكـان من بين المسائل التي تولى عرضها هو أنـه ذكّر الناس وأخبرهم كيف أن اللومبارد كـانوا قـد استـولوا على اسطـول الملك بـأجمعة، عنـدمـا جاء الملـك من قبرص، لأن الملـك كـان قـد أرسـل السفـن التـي نجحت مـن البترون إلى قبرص، فهولاء قـد استولـوا على هذا الاسطول، و على جميـع السفن التي بقيت، و استـولـوا كـذلك على مملكـة قبرص، لابل أكثـر من هـذا لقـد حـاصروا أختي الملـك في إحـدى القـلاع، و يرغـب الملك بـالـذهـاب للتفريـج عنهما، لكنه لايمتلك اسطـولاً يلبي حـاجته، و هنـاك الاسطول الذي قدم بـه اللومبارد ، و هو مـوجود في ميناء عكا، و لهذا فـإنه يطلب من البطريرك، بحكم كـونه النائب البابوي، أن يأمر بـالترخيص له بأخذ سفن الاسطـول الـراسيـة في مينـاء عكـا، لأن أصحـابها مـن المحـرومين كنسيـاً، ومن الذيـن هاجموا قـلاع المسيحيين، والذين انتـزعوا مـن الملك اسطوله و مملكته.

١١٥: ورد عليـه البطريـرك الطيب بأنـه لايـرغب بالتـدخل بمسـائل الحرب و السلام، لكنه قال بأنه رأى في احدى المناسبات في بلاده عندما كان صيادون يصطـادون فرائسهم، وكانت الحيوانات كثيرة، كـانوا يجلبون كلاب صيدهـم، ويشيرون بأيديهم، ويقولون لهم: « اذهبـوا وخذوها»، و عندهـا ركض الفرسان و السيرجنـدية و البوليـان(١٩٩) الذين كـانوا في المينـاء، نحـو البـوارج و السفـن الصغيرة التي وجـدوهـا في المينـاء، ثـم

قصـدوا سفن الاسطـول،واستولـوا بالقـوة على ثـلاث عشرة سفينة منهـا، بمشيئة الرب، أمـا السفن الأخرى وما بقي من سفن الأسطـول فقد هرب الجميع إلى صـور(٢٠٠)، و جنـد الملـك هنـري و صـاحب بيروت أكبر عدد من النـاس قدروا على تجنيده(٢٠١)، و لهذا أقدم صاحـب قيسارية الشاب على بيـع جزء من بـلاده في قيسارية، وكـذلك فعل مـولاي جون دي إيبلين، الذي صار فيها بعد كونت يافا، حيث باع قرية كبيرة امتلكها و كـانت في عكا(٢٠٢)، وأقـرضوا المال إلى الملـك، وقام عـدد كبير من بوليان الميناء بتجهيزأنفسهـم بسرعة و انطلقوا(٢٠٣)، هذا و لست أدري كم عـدد السفـن المسلحـة التي امتلكـوهـا، هـذا وقـد أعطـاهـم الملك اقطاعيات مقابل الخدمات التي قدموها له في البحر .

١١٦ (١٨٢) : وأقلعوا من عكـا للقيام برحلتهم(٢٠٤)، وقـد مروا أمـام صور بسفنهـم، وخرجـت سفن اللـومبارد التـي قدمـت من قبرص لمحـاربتهم، وأطلقت أشرعتهـا للريـح، لكنها لم تتجـرأ على الاقتراب من الجيش، ومـع ذلك ظلت هـذه السفن تتابـع إبحارهـا بالاتجاه المعـاكس للريح، وظلت تترصد الفرصـة لإلحاق الضرر بهم، ووصل جيش القبارصة إلى أمام صيـدا، وإلى هناك جاء السير بـالين الذي قدم من طـرابلس إلى بيروت مع الجماعـة التي سمينـاها أعـلاه(٢٠٥)، كما ووصل إلى هنـاك أخوه السير جون صاحـب فوغيا ومعه أيضاً جماعته التي سمينـاها أعلاه، وهي التي كانـت معه في قلعة بيروت، و...صاحب صيـدا(٢٠٦)، وقد أعطاهم الملك هنري ملك قبرص كثيراً من الإقطاعيات.

١١٧ (١٨٣): وأبحر القبـارصة من ميناء صيـدا، أمام تيار الـرياح، ووصلوا إلى قبرص، ونزلـوا في لى غري(٢٠٧) Gree، وإقتربت في تلك اللحظة غـلايين اللومبارد منهم وكـانت تجري بالاتجاه المعاكـس للريح، وبعثوا أثنـاء الليل إلى البحر من يتجسس لمعـرفة مكان جيش اللـومبارد، وقـد علمـوا بشكـل مـؤكـد أن الجيـش مـع جميع قـواتهم مـوجـودة في

فيماغوستا، وأن غلايينهم راسية في الميناء .

١١٨ (١٨٤) : وزحف جيش القبارصة إلى أمام فيماغوستا، وكان اللومبارد في المدينة ولديهم أعداد هائلة من الرجال، وذلك من الفرسان والرجالة سواء، وكان لديهم الكثير من الخيول والسلاح مما كانوا قد استولوا عليه في قلعة إيمبرت مع ما كانوا وجدوه في قبرص، وكان معهم الخونة الذين تخلوا عن الملك عند ميناء القسطلان، وذلك حسبما روينا من قبل في هذا التاريخ، كما كان معهم رجال آخرين حصلوا عليهم من طرابلس وأرمينيا، وتوركبليه جنّدوهم من قبرص، وبناء عليه كان من المقدر بشكل صحيح أنه كان لديهم ألفي فارس في جيشهم، وكان لدى الملك هنري وصاحب بيروت مائتين وثلاثة وثلاثين فارساً .

١١٩ (١٨٥) : وعندما وصل جيش الملك هنري إلى أمام فيماغوستا، ابتعد قليلاً عن اليابسة، وراقب صاحب بيروت الأوضاع فرأى أن الساحل كان مشحوناً بشكل جيد بالرجال ضده، وكانوا جميعاً مسلحين، وأنه إذا ما حاول النزول إلى اليابسة سوف يتعرض إلى مخاطر شديدة، ولاحظ وجود جزيرة أمام اليابسة حيث كانت هناك مخاضة يمكن للإنسان أن يجتازها إلى اليابسة عندما تكون المياه في أدنى درجات انخفاضها من جانب اليابسة، وذلك عندما يكون البحر هادئاً، ونزل جيش القبارصة في هذا الجانب مع خسائر فادحة بسبب الصخور التي كانت هناك، وبادروا على الفور مسرعين نحو رأس الجزيرة المقابل لليابسة، حيث توفرت المخاضة، ومركزوا هناك عدداً من الرجال المسلحين ليتولوا حراسة المخاضة حتى يكونوا جميعاً قد غادروا السفن، وتهيأوا تماماً.

١٢٠: وأطلق رجال الامبراطور الجروخ باتجاه ذلك المكان، وقدموا كل ما استطاعوه من مقاومة،واستخدموا القسي العقارة، وكان هناك الكثير من رمايات الحراب والنشاب من على الطرفين، ومع ذلك رسا القبارصة

ونزلوا إلى اليابسة صغيراً وكبيراً وفق ما أرادوا، وكان بإمكانهم مع خيولهم المعسكرة على الجزيرة، وقد تولوا الحراسة طوال الليل بشكل جيد، وركزوا اهتمامهم على المخاضة التي يتوجب عبورها إلى أرض الجزيرة القبرصية، وأرسلوا بعد منتصف الليل بوارج ومراكب صغيرة مسلحة إلى الميناء، وبادروا من هناك مسرعين إلى واحد من أماكن المدينة، وكان الجيشان عظيماً، ثم ألقى اللومبارد النار بجميع سفنهم التي كانت في الميناء، وتخلوا عن المدينة وهجروها، وامتطوا خيولهم ومضوا إلى نيقوسيا، وبادر جيش الملك بالزحف مسرعاً، واستولى على مدينة فيماغوستا في أثناء الليل .

١٢١ (١٨٦) : وقام في الصباح التالي الملك وقبارصته بتسليح أنفسهم، وإعداد خيولهم، وامتطوها وعبروا المخاضة إلى أرض الجزيرة وهم على تعبئة، وكانوا يتوقعون مواجهة مقاومة أثناء عبور المخاضة، لكنهم لم يواجهوا أي شيء من هذا النوع، وهكذا وصلوا إلى مدينة فيماغوستا، وأقاموا هناك لمدة يومين أو ثلاثة ليريحوا أنفسهم، وكان اللومبارد قد تركوا برج البحر مشحوناً بالرجال، وتعامل الملك معهم ومنح القادة إقطاعات، وبذلك سلموا إليه برج ميناء فيماغوستا، وقدم إليهم إلى هناك ثلاثة رجال قدموا أنفسهم إلى الملك، وكانوا هم الذين يتولون حراسة كنتارا لصالح اللومبارد، وقد أعطاهم الملك الذي طلبوه، وبالمقابل سلموا إليه كنتارا مع بوفافينتو(٢٠٨)، وسامح صاحب بيروت وأولاده واحداً منهم، اسمه همفري دي مونياري Monaigre، وكان قد سبب لهم شروراً كثيرة، وكان الذي تدبر استرداد كنتارا وبرج فيماغوستا وأعدّ لذلك هو فيليب دي نوفار.

١٢٢ : وبقي ملك قبرص ثلاثة أيام(٢٠٩) في فيماغوستا، عالج في أثنائها الأمور مع قائد الجنويين(٢١٠)، الذي كان اسمه السير وليم دي لى أورت Ort، وكان هو بالوقت نفسه قنصل الجنويين، ورجلاً ثرياً (

٢١١)، وقد منحه الملك كل الذي أراده وطلبه: فهو قد منح إلى الجنويين في جميع أرجاء قبرص امتيازات إعفاءات ومحكمة، باستثناء النظر في ثلاثة أمور قضائية تعلقت بالقتل، والاغتصاب الجنسي والخيانة (٢١٢)، وأعطاهم داراً في نيقوسيا، ومحكمة ذات صلاحيات بحرية(٢١٣)، وقلعة اسمها دسبوير(٢١٤) Dspoire وضمنوا تعهداتهم للملك بيمين أقسموه، وكذلك فعل الملك لهم، وتعلقت هذه التعهدات بالعون، وشروط التحالف (٢١٥)، هذا وكان ما منحهم الملك هنري إياه له استمرارية دائمة وكان ذلك عن طواعية ورغبةمنه ومن مولاي صاحب بيروت، وصعد الجنويون ثانية إلى ظهور سفنهم، وذهبوا إلى ليماسول، وكانوا هناك عندما علموا بأخبار المجد الذي منحه ربنا فيما بعد إلى ملك قبرص وإلى رجاله، وعندما علموا بهذا ذهبوا إلى جنوى، وكانت سفن اللومبارد طوال هذا الوقت في مياه قبرص وكانت مدركة لما كان يحدث، غير أنها لم تتجرأ قط على لمس السفن .

١٢٣ : وعندما باتت سفن(الجنويين) في أعالي البحار، جاءت سفن اللومبارد إلى سيرينا، التي كانت ما تزال بأيدي اللومبارد (٢١٦)، وكان جيش اللومبارد عندما غادر فيماغوستا قد أحرق الحظائر والمخازن والسهل كله، وقد سبب هذا أضراراً بالغة، لأن معظم الحبوب كانت في المخازن، وقد حطموا جميع المطاحن في لى كويتري Quetrie (٢١٧)لابل إنهم دمروا حتى المطاحن اليدويةفي نيقوسيا، وذلك بقدر ما استطاعوا، ولدى سماع القبارصة بهذه الأخبار شعروا باطمئنان عظيم، وقالوا إنه لمن الواضح تماماً لو أنهم خططوا للاستمرار باحتلال البلاد لما فعلوا ذلك، وقد منح ربنا نعمة لامثيل لها للقبارصة، ذلك أنهم كانوا قليلين جداً بعددهم من الرجال إلى حد أنه بدا بالنسبة لهم أنهم ما أن يلقون اللومبارد سوف يهزمون من قبلهم لامحالة .

١٢٤ (١٨٧) : وغادر الملك هنري وصاحب بيروت ومعه قومه

فيماغوستا ، ووصلوا خلال عدة أيام إلى نيقوسيا بعد ما لحقت الأضرار الكبيرة بتجهيزاتهم وبمعداتهم، وبعدما تبقى معهم عدد قليل من الرجال، وتخلى اللومبارد عن المدينة، وعسكروا في الوادي فيما بين جبلين عاليين على الطريق إلى سيرينا، وكان موقع معسكرهم جيداً وحصيناً إلى حد أن ما من واحد كان قادراً على الوصول إليهم إلاّ عبر طريق ضيق فوق جبل عظيم، وكان الممر هناك مدافعاً عنه بشكل ممتاز، كما أنه لم يكن بإمكان القبارصة التفريج عن قلعة ديودامور ونجدتها إلاّ عبر هذا الطريق نفسه، وامتلك اللومبارد كل ما احتاجوه في جانب سيرينا، في حين كان المتبقي من أغذية في قلعة ديودامور يكفي ليومين فقط .

١٢٥ (١٨٨) : ودخل الملك هنري وصاحب بيروت مع رجالهم إلى نيقوسيا حيث وجدوا القليل مما كانوا بحاجة إليه، وكان هناك نقص شديد بالخبز، وكان صاحب بيروت قلقاً جداً لأن رجاله قد تشتتوا بشكل أحمق وعسكروا في أرجاء المدينة، وخاف من أن يقوم أتباع اللومبارد بمهاجمة رجاله أثناء الليل، لذلك قام في وقت العشاء باستنفار الجميع وقال بأن اللومبارد في طريقهم إليهم، وبناء عليه خرج الجميع ووقفوا خارج نيقوسيا (٢١٨)، وما أن أصبح الرجال خارج المدينة وقد تعبأوا واصطفوا للقتال، حتى أعلن لهم صاحب بيروت بأن اللومبارد قد تراجعوا وذهبوا، ثم قام باسم الملك بمنع كل واحد من الجيش من دخول المدينة، وقد اختار أفراد الجيش بقعة خارج المدينة(٢١٩)، حيث توفرت حدائق على أحد الجوانب وخندق صغير، وعسكروا هناك تلك الليلة، وتحرزوا كثيراً بالحراسة، وأقاموا مراكز رصد وإنذار جيدة، ذلك أنهم تذكروا بشكل جيد قلعة إيمبرت .

١٢٦ (١٨٩) : وفي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم ثلاثاء (٢٢٠)، انطلق القبارصة، ووافق هذا اليوم مرور أكثر من خمسة أسابيع على وقوع حوادث قلعة إيمبرت، واقترح الملك وصاحب بيروت مع

مستشـاريهم وجوب ذهـابهم إلى السهل الـواقع دون معسكـر أعـدائهم، فإذا ما انحـدر اللومبارد نحوهم، فتلـك كانت رغبة القبارصـة بإنشاب القتال، وإذا لم يفعلـوا فإنهم سـوف يعسكرون في قلعـة اسمها أغـريدي، قائمـة قرب مكان واقع عنـد سفح الجبل، فمن هنـاك يمكنهم أن يبعثوا خلال الليـل التطمينات والمعونـة إلى الذين في ديـودامور بواسطـة رجال يسيرون على الأقدام عبر ممر ضيـق ومنزلق قائم فوق القلعـة، وتنفيذاً لهذا الاقتراح زحف القبارصة حتى وقفوا فيما بين اللـومبارد وأغريدي(٢٢١)، وما أن رأى اللـومبارد مـن الأعلى كيف أن القبارصـة كان عـددهم قليل، وكيف أن تجهيزاتهم كـانت فقيرة حتى استخفوا بهم، ورأوا أنـه من العار تجنب الإقتتـال معهم، وصرخـوا جميعاً بصـوت واحد: « عليهـم، عليهم، دعونا نذهب ونأسرهم» .

١٢٧ : ثم تـرجل صـاحب بيروت، وجثـا على ركبتيه، وحمد ربنـا، أن الأعداء انحـدروا نحو الاقتتال، لأنه كـان يعرف كما قال بـأن ذلك معناه سيكون تحرير(شعبه)، وأن ذلـك خير ما يمكن أن يحدث لهم، وقد صلى بخشوع وطلب مـن ربنا أن يمنح في ذلك اليـوم المجد والنصر إلى الملك وإلى حزبـه، وقد نذر في تلـك الساعة بشكـل سري ـ الأمر الـذي نفذه فيما بعد ــ أن ينتسب إلى واحد من البيوت الـدينية، وقام بتعبئـة صفوف قواته بشكل مبدع، وكان ابنـه السير بالين دي إيبلين قد قاد دوماً في هذه الحرب الصف الأول مـن القـوات، وقد جعلـه في هـذه المرة يـأتي ويقف أمامه ، وطلب منه أن يقسم على إطاعة أوامر الكنيسة المقدسة، ذلك أنه كان تحت الحرمـان الكنسي بسبب زواجه، وقـد ردّ عليه أن ليس بإمكـانه الاستجابـة لهذا الطلب، ورد عليه الـرجل النبيل وقـال:« بالين لـدي ثقة وإعتماد على الإيمان بـالـرب أكثر مـن الاعتماد على فـروسيتك والثقـة بها، وبما أنك على غير استعداد للاستجابـة لطلبي، اترك الصف، لأنه إرضاء للرب، سوف لن يكون رجـلاً محروماً قائداً لقواتنا»، فهذا ما كـان قد قاله

وهذا ما جرى تنفيذه .

١٢٨ : وأقام قـائداً للصف الأول من القوات السير هيـو ابنه، وجعل السير آنسيـو دي بـري قـائداً للصف الثـاني بعـده، والسير بلـدوين دي إيبلين قـائداً للصف الثالـث، وصاحب قيسـاريـة الشاب قـائداً للصف الرابع، وهو صف ساقة الجيش،ذلك أنه لم يمتلك صفوفاً أكثر(٢٢٢).

وكـان في صف السـاقـة هـذا الملـك، وصـاحب بيروت، وابـن أخته الشاب السيرجـون وعدداً كبيراً آخر ممـن رغبوا في أن يكونـوا في الصف الأول، وأمـر صـاحب بيروت ابنـه السيربـالين أن يكـون معـه في سـاقـة الجيش، وقال له:«باسم الـرب»، غير أنه فعل عكس ذلك، حيث تخلص من مكانه، وذهب إلى الصف الأول حيـث كان أخاه السير هيوج والسير آنسيو، فقـدم لهما النصيحة، وأراهما الـذي عرف أنه مفيـد ونافع، ثـم إنه تـركهما ووضـع نفسـه أمـامهما على الطـرف، وكـان معـه عـدد قليل مـن الرجـال، لأنه كـان آنذاك خمسة مـن الفرسـان فقط هم الذيـن يتكلمون معه، فقد أقسـم الآخرون جميعاً على احترام أوامر الكنيسة المقـدسة، ومن أولئك الخمسـة كـان فيليـب دي نوفـار واحـداً منهم، وكـان الآخـر هـو ريمـونـد دي لى فليس Flace، فهـذان كـانـا مـن أتبـاعـه، وقـد تسلما إقطـاعهما منه، وكـان بيتر دي مونتـوليف Montolif هـو الثالث، وكـان مدفوعاً له ومعطى أشياءً مـن قبله، وكان الاثنان المتبقيان هما روبرت دي مومني Maumeni، ويودس دي لى فيرتي Fierte، وكان هو الذي رباه وجعله فارساً (٢٢٣).

١٢٩ (١٩٠): وعنـدمـا اقتربت مقـدمـة قـوات أول مجمـوعـة مـن اللـومبارد مـن كتلة مـولاي صـاحب بيروت والملك، انـدفع السير بـالين نحـو بقعة خطـرة جداً، مشكلـة من صخـور وحجارة، ومضى إلى قتـال الآخرين فوق في وسط الممر، وقد أعـاقهم كثيراً، وقام بأعمال قتالية رائعة، إلى حد أن مـا من إنسـان كان قـادراً على دخول هـذا الممر أو مغـادرته

وجـوازه، وصبر كثيراً وتحمل إلى درجة أن جميـع الذين رأوه يشهـدون أنهم عاجـزين عن التصـديق أن رجـلاً واحداً قـد استطاع قط أن يفعـل مثل هذه الأفاعيل، وكثيراً مـا ضغط عليه بعدد كبير من الرمـاح، حتى أنه ما من واحد صـدق أن بإمكانه النجـاة مطلقاً، ورآه الذين كـانوا في الأسفل مع الملك وعرفـوه وميزوه تماماً من خلال سلاحـه، وصرخ كل واحد منهم إلى مولاي صـاحب بيروت قائلاً: «آه يـامولاي، دعنا نعـاون السير بالين، لأننا نـرى أنه سـوف يقتل فـوق في الأعلى»، وأجابهم (صـاحب بيروت) بقولـه:« دعوه لوحـده، الرب سوف يعينـه، فهذا يرضيـه، ولسوف نمتطي خيولنـا، ونمضي مباشرة إليـه، ذلك أننا إذا مـا انحرفنـا جانبـاً يمكن أن نخسر كل شيء، وكان القتـال شديداً على كـل جانب في تلك السـاعة، واستمر طويلاً، وسقط وقتذاك العديد .

١٣٠ : وقـاد الكونت وولتر مينبـو(٢٢٤) Manepeau الـرتل الأول من قـوات اللومبـارد، وقد قـاتل بقسـوة متناهيـة، وصمد لجميع صفـوف الملك، وانقـض عليهم بشـدة وحدة ومـر من خـلالهم وتجاوزهم بعيـداً، لكـن دون إحـداث أضرار كبيرة، وأراد بعض الـذيـن كـانـوا في صفـوف الملك مهاجمتـه، لكن صاحب بيروت منعهم بحكمة، وحظـر أن يقوم أي واحد من الالتفات إلى طرف ما، أو الانحـراف إليه، ووجوب متابعة حملة الفرسـان، لأن الفرسـان يحملون بالعـادة باتجاه مباشر، وتخلى عـن القتال، وانحرف نحـو الرتل الـرابع الكـونت وولتر والسير جو فـري دي موسي(٢٢٥) Mosie، ابن متسلم العدالـة، وكان معهما جميع قواتهما(٢٢٦)، وقـد هـربـا من هنـاك حتى كـاستريـا(٢٢٧)، دون القيـام بأيـة أعمال أخرى، وكان الكـونت برارد دي مينوبي(٢٢٨) Menope، الذي قاد الرتـل الثاني فارسـاً مجرباً وتحت إمرتـه مقاتلين جيدين، وقـد حمل بشكل فعـال جداً، وضعضع الـرتل الأول مـن قوات القبـارصة، لكـن عساكـر السير بلـدوين سـاعدوهـم بثبات وتصرف الكـونـت بلدويـن بشجاعـة

وحكمة، وقام بأعمال قتالية عظيمة .

١٣١ : وجاري السير آنسيو دي بري الكونت بيرارد، وأمسكه من خوذته، وحرفه نحو اليسار، ولقد كان قوياً جداً ولديه حصان ممتاز، ولذلك اقتلع الكونت بالقوة من على سرج حصانه، ورماه أرضاً، وصاح«اقتل، اقتل»، ثم وصل وقتها إلى ذلك المكان ما بين الخمسين إلى الستين من السيرجندية، وهم يسيرون على أقدامهم، وكان هؤلاء قد بعثهم القبارصة من قبل إلى أغريدي لإقامة المعسكر، وقد قطعوا رأس الكونت بيرارد، ومعه رؤوس سبعة عشر فارساً من حاشيته وآل بيته، كانوا قد ترجلوا لإقامته، وسرت كلمة«اقتل، اقتل» بين صفوف الجيش، وصرخ الجميع«اقتل، اقتل» .

١٣٤ : وكان في هذه المعركة فارس بين اللومبارد، قيل بأنه كان ألمانياً، وكان مغطى هو وفرسه بمعدن مذهب، وقد قام بعدة حملات، ونفذ أفاعيل قتالية عديدة، وكان قوياً جداً ونشيطاً، لذلك لم يستطع أحد قهره وإسقاطه، لكن في النهاية قتل حصانه، وألقى المقاتلون الرجالة أنفسهم عليه وقتلوه، وكان عدد كبير من فرسان القبارصة قد عبروا في حملاتهم عن بسالتهم، وكان عدد الرجال كبيراً بين اللومبارد الذين خاضوا منازلات مريرة، وكانوا بالفعل رجالاً عظماء، وعلى جميع الأحوال قام الرب بمعجزات عظيمة، لأنه قتل من بين صفوف القبارصة فارس واحد فقط، كان قد ولد في لومباردي ونشأ في قبرص وفيها رسم فارساً، وظل كلامه كلاماً لومباردياً، حتى أنه لم يكن بإمكانه أن ينادي الملك بكلمة Vaillance، بل صرخ Baillance، ولهذا السبب قتل، حيث ظن أنه من اللومبارد(٢٢٩) .

١٣٣ (١٩٥): ومنح الرب مجداً عظيماً وأظهر نعمة كبيرة إلى الملك هنري وإلى صاحب بيروت وإلى حزبهم، حيث تمكنوا في ساعة واحدة من النهار من إلحاق الهزيمة بأعدائهم الأقوياء وساقوهم بعيداً

وطردوهم، وقد فرجوا عن ديودامـور التي كانت محاصرة، وقاموا بمحاصرة سيرينـا التي التجأ إليهـا اللومبـارد، وهرب السير جنـدية الـذين كانـوا يحاصرون ديودامـور لصالح اللومبـارد، وفروا من هنـاك، لكنهم لم يتجرأوا على الفـرار باتجاه سيرينـا خشيـة من القبـارصـة، الـذين كـانوا يتـولـون حصارهـا، ولهذا تشتتوا بإتجاه بليسي Plassie (٢٣٠) ومن ثم انعطفـوا بـاتجاه نيقـوسيا، ولم يتجـرأوا على دخـولها في النهـار، بل أرادوا دخـولها في الليل على أمل العثور على ملاجىء في بيوت الرهبانيات الدينية .

١٣٤ : وحدث آنـذاك أن فيليب دي نوفار، كـان قد عاد إلى نيقـوسيا للقيام ببعض الأعمال التي أمره بالقيـام بها الملك هنري وصاحب بيروت، وقد علم بأن السيرجنـدية قادمون، فحشـد ما أمكنه من الـرجال، وخرج للتصدي لهم خارج المدينة، وقبل منتصف الليل بقليل إنقض فيليب دي نوفار عليهم ومعـه رجاله فقتلوا وأسروا ثلاثمائة أو أكثـر من السيرجندية، والذين نجوا منهم بسبب أن الوقـت كان ليلاً، وجدوا مأوى لأنفسهم في الكنائس وبيوتـات الرهبانيات الـدينية، وأمر فيليب أن يمثل أمـامه قادة السيرجندية الثلاثة الذين كـانوا قد تخلوا عن الملك وعن صاحـب بيروت أمام جبلـة، ذلك أنهم كانوا خـونة وحانثين بـاليمين ، فأمر بهم فمـزقوا(٢٣١)، وكان بوده القيـام بشنقهم، لكنه لم يمتلك الفرصة، لأن مـا توفر لديـه من الـرجال كـان قليلاً جداً مـن حولـه، وكان عـدد الأسرى هناك كبيراً جداً .

١٣٥ (١٩٦) : وصار معلـوماً في اليـوم التالي أن الكـونت وولتر دي مينبو Manpeau وابن متسلم العـدالة وجماعتهما قد التجـأوا إلى خندق قلعة كاستري، لأن الـداوية رفضوا استقبالهم في الداخل، لأنهم كـانوا قد قـاموا مـن قبل بـاقتحام بيتهـم وجروا إلى خـارجـه السيدات والأطفـال، حسبما تحدثنا عن هذا من قبل في سيـاق روايتنا، وبناء عليه بعث الملك وصـاحب بيروت إلى هنـاك السير جـون الشـاب، الـذي صـار فيها بعـد

كونت يافا، مع مجموعة من الفرسان بصحبته، وقد عثر عليهم داخل الخندق، فأخذهم أسرى، وجلبهم إلى نيقوسيا، ووضعوا هناك بالسجن مع الآخرين الذين أخذوا أسرى في يوم المعركة، وقد عهدبالإشراف عليهم جميعاً إلى فيليب دي نوفار، فهو الذي تولى حراستهم، وكان لديه في هذا السجن مائة وخمسة وأربعين سجيناً، وكان عدد كبير قد مات بسبب الجراحات، وكان ممن مات هناك السير هيوج دي سورل Sorel، والسير انتي دي شيلين Ente de cheligen، والسير غنت دي كور Gent de cors، غير أن السير فيليب أوبيسون Obuisson قد تعافى من جراحاته الشديدة(٢٣٢).

١٣٦ (١٩٧): واستمرت أعمال الحصار أمام سيرينا، وكان الذين في داخلها رجالاً عظماء جداً، وكان لديهم جميع سفنهم التي جاءوا بها إلى قبرص، ولديهم أيضاً اثنين وعشرين من الغلايين، وقد عمدوا إلى تعيين قائد يتولى حماية القلعة وأسوارها هو فيليب شينارت(٢٣٣)، الذي كان أخاً للسير جوفيان من جهة أمه، وقد تركوا فيها خمسين فارساً، وضعوهم تحت قيادة شخصية من أبوليا اسمه وولتر أكوفيفا(٢٣٤)، وكان السير رتشارد فيلنغر الوكيل قد ذهب إلى أرمينيا مع عدد كبير من الرجال طلباً للعون، كما بعثوا إلى أنطاكية و طرابلس، و قالوا إنهم سوف يقدمون ثانية و يقاتلون مجدداً ضد القبارصة، و كان في أرمينيا مرض كبير فيما بينهم، و قد عادوا إلى سيرينا دون انجاز أي شيء، و قالوا هناك العديد من الرجال في البر و البحر، وسوف هؤلاء يستهلكون معظم أطعمة القلعة، و لهذا السبب عاودوا الصعود إلى ظهور سفنهم و غلايينهم، وأبحروا عائدين إلى صور، و ذهب مع وكيلهم فيلنغر السير عموري برلياس، و السير عموري صاحب بيسان، ابن عمه، و السيرهيوج صاحب جبلة،وبقي فيلنغر(٢٣٥) وكيلاً في صور، أما هؤلاء الثلاثة فقد ذهبوا إلى أبوليا يطلبون العون من الامبراطور.

١٣٧(١٩٨) :و بقي فيليب شينارت القائد في سيرنيا، و معه خمسين فارسا وحوالي الألف رجل من المشاة: من رماة الزنبورك و البحارة،وكان لديه هناك عدداً كبيراًمن صناع الآلات الحربية، و قد صنع بوساطتهم عدداً من أبراج القتال، وآلات رمي الحجارة و المجانيق، و تمكن من حماية القلعة بشكل جيد لوقت طويل، و كانت زوجة الملك في القلعة، و هي التي عرفت باسم الملكة اللومباردية، لأن الامبراطور كان قد أعطاه إياها، و ظلت واقفة إلى جانب الحزب الامبراطوري، و قد توفيت داخل القلعة، وبعد ما توفيت حملها الذين كانوا في سيرينا إلى الخارج، وأعلنوا أنها الملكة و أنها الآن ميتة، و استقبلها الملك و صاحب بيروت، و أقاما مناحة كبيرة من أجل موتها، وأمرا بحملها مبجلة إلى نيقوسيا على أيدي فرسان ساروا على الأقدام، ثم أمرا بتنظيم موكب مع جميع شعب نيقوسيا لمرافقتها داخل المدينة حتى الكنيسة الكاتدرائية لنيقوسيا حيث دفنت هناك، و بعد هذا عاد الملك و صاحب بيروت لمتابعة حصار سيرينا، و جلبا إلى هناك قوات عسكرية كثيرة .

١٣٨(١٩٩): وأمر الملك هنري بعقد اجتماع عام لبلاطه ، وقدم شكوى إلى محكمة بلاطه ضد السيرعموري برلياس، و السيرعموري صاحب بيسان، و السيرهيوج صاحب جبلة، وضد جميع أتباعه الذين وقفوا ضده في المعركة، منذ أن وصل إلى السن القانونية،(٢٣٦) وتم حرمان هولاء بموافقة عامة من قبل أعضاء المحكمة، وأعلن عن أن الحرمان يشملهم شخصيا و يشمل ممتلكاتهم، وقام الملك بإعطاء إقطاعياتهم إلى الذين خدموه و ساعدوه، و انزعج القبارصة كثيراً لعدم امتلاكهم لغلايين حتى يتمكنوا من حصار القلعة من جهة البحر، و ترددت غلايين اللومبارد فيها بين سيرينا وبين صور، وقضى الرب بوصول ثلاثة عشر من الغلايين عائدة إلى الجنويين، و قد وصلت عبر البحر إلى ليماسول خلال عبورين، فقد وصل في العبور الأول أربعة من

الغلايين، و في العبور الثاني تسعة، و توجه صاحب بيروت مسرعاً إلى ليماسول، و احتفظ بهذه الغلايين مقابل الأجر المالي من قبل الملك، و جلبهم إلى سيرينا .

١٣٩ : و من ثم حوصرت القلعة من جهة البحر و من جهة البر، و ذلك بوساطة هذه الغلايين و الذين أمكن تأمينهم من قبرص، و جرى بناء الكثير من الآلات في الخارج، و ذلك من قاذفات للحجارة، و مجانيق، وآلات كبيرة، كما جرى بناء برجين عملاقين من الخشب،مع سواتر متحركة كثيرة، لتدفع ضد الأسوار و لتقترب منها، و كانت هناك حملات كثيرة في النهار وفي الليل، وكانت هناك منازلات قتالية في كل من الداخل والخارج، و قد جرح العديد من على الطرفين، لأنه قد توفر هناك عدد كبير من القسي العقارة، و تمّ دفع البرجين الخشبيين حتى وصلا إلى الخندق، و امتلك الذين كانوا في الداخل عساكر أفضل من الرجالة مما كان في الخارج، و هكذا تمكن هؤلاء الذين كانوا في الداخل بالقوة من إلقاء النار في البرجين، و قاوموا مقاومة فعالة جداً ، خشية منهم من الايداع بالسجن، أو مواجهة الموت، وامتطى الفرسان في الخارج خيولهم، واندفعوا بها حتى الخندق، وهناك ترجلوا ودخلوا إلى البرجين الخشبيين اللذان كانا يحترقان، و قدأطفأوا النار بالقوة وأنقذاهما، وأعادوهما إلى الخلف، وقد جرح هناك عدد كبير من الفرسان.

١٤٠ : و تحادث الذين كانوا في داخل القلعة خلال الليل مع قائد السيرجندية الذين كانوا في الخارج وكان اسمه مارتن روسو Rousseau ، و قد أعطوه كثيرا، ووعدوه بإعداد معاهدة معهم ليقوم بخيانة الذين كانوا في الخارج، و قد اتفق معهم وأعدّ أنه سيرى الوقت الذي يكون فيه الجيش منهكاً جداً، فعند ذلك سوف يحمل الذين في الداخل أسلحتهم و يخرجون منقضين بقوة، ووقتها سيتولى مارتن هذا وسيرجنديته قتل كل من يستطيعون ممن هو بالخارج، و لسوف يقتلون

بكل سهـولة السير هيوج والسير آنسيـودي بري، اللـذان كانـا معسكران على مقربـة من القلعة أكثـر من الآخرين، و غـالبا ماتـوليا تفقد حـراسة السيرجنديتـه قرب الأسوار و ملاصـق لها، و تمكن مارتن روسـو هذا من إلحاق أضرار بالغـة، لأنه كـان من أكثـر الناس معـرفة بصـاحب بيروت وبأولاده ، و كان معهم خلال معظم مـدة الحرب، و قدأحسنوا إليه كثيراً ووثقوا به ، و كانت إمرة الحرس حول القلعة مـوكولة إليه كلياً، و لذلك أرسل إلى القلعة ماأراده و تلقى منها مارغب به.

١٤١ : و بفضل من ربنا جـرى كشف أمر هذا الخائن بوسـاطة رجل جاء من داخل القلعـة، و حدث في تلك الساعة أن ذهب مـارتن روسو إلى نيقوسيـا للحصول على قسي عقارة وتجهيزات أخـرى رغب في ارسالها إلى داخـل القلعـة، و بعث صـاحـب بيروت فيليـب دي نـوفـار فألقـى القبض عليـه يوم عيد الفصـح من أيار،(٢٣٧)وألقى أيضـا القبض على معلم صـانع للقسي العقارة ،و كـان من أتبـاع الملك، وقد شـارك بهذه الخيـانة، و كـان قد بعث إلى الـذين في داخل القلعـة من خـلال الجيش كثيراً من القسي العقـارة و أسلحة أخـرى، و حملها فيليب دي نوفـار إلى الجيش الذي كـان معسكراً أمام سيرينا، وقـد اعترفا بالخيانـة أمام محكمة كاملة، وقد حكم عليهم(أي على الخونة جميعـاً) بالإغراق أو بالشنق، أما مارتـن روسو فقـد قذف على أسوار القلعـة بوسـاطة آلـة رمي كبيرة، ثم بادر الذين كانوا خارج القلعة إلى نصب آلاتهم أمام الأسوار بدون إبطاء.

١٤٢ (٢٠٠) : وحـدث في أحـد الأيـام لسـوء حظهم العظيـم، أن أصيب السير آنسيـودي بري بجراحـة، وكان آنـذاك يدفع بنفسـه إحدى الآلات ويحث الآخرين على دفعهـا، وجاءت إصابتـه بوساطـة رمية سهـم عقار، كـان طولـه قدمان، وقـد سحب السهم ورمـاه بعيداً، واعتقد بـأنه تخلص من الـرأس المعدني، لكن لسـوء حظه بقي هـذا الرأس في طـرفه، وقد فقد الكثير من الدماء، لكنه لم يـرغب بأن يعلن ولاكلمة عن إصابته

-٢٥٠١-

حتى يتم دفع الآلـة كما ينبغي، ثم لاحظ الذين كـانوا إلى جانبه إصـابته وأدركوا مـداها فساعـدوه حتى عاد إلى مقـره، وقد نزف كثيراً حتـى صار لونه مثل لـون الثلج، وتقاطر جميع أفراد الجيش نحو مقـره وكذلك فعل جميع رفاقـه، وهم يشعرون بالحزن الكبير، وكـان فوق هؤلاء الرجـال جميعاً صـاحب بيروت، الـذي دعاه بـاسم« أسـده الأحمر»، وقد امتلـك السبب لذلك، فقـد كان (السير آنسيو) قـد اهتم أكثر من سـواه ونشط في سبيل مصالح الجيش، وكان أهلاً بالمكانـة العالية أكثر من غيره، وقد حملوه إلى بيته في نيقوسيـا، حيث تمدد في فراشه لمدة نصف سنـة أو أكثر، ولم يمكن العثور على الـرأس المعدني حتى اليوم الثالـث قبل موته، وهكذا نفـذ فيه قضـاء الرب، وسبـب موتـه حـزناً عظيماً للملـك وللرجـال الجيـدين في قبرص أيضاً، وفي اليـوم الذي مات فيـه كان صاحب بيروت في سـورية، ذلك أن قلعـة سيرينا كـانت قـد استسلمت، ولسوف تسمـع الآن كيف حدث ذلك.

١٤٣ (٢٠١) : وكما سمعت أمر الملـك ورجاله ببنـاء عدد كبير من آلات الحرب، وبعث بهذه الآلات أمـامه، متخـذاً الاستعدادات للهجـوم القبرصي، وقـاتل السير بـالين دي إيبلين ورجـاله أمـام القلعـة، وهـاجم صـاحب بيروت وأولاده الأسوار من جميع الجوانب، وبـاتت آمالهم عـالية بـالاستيلاء على القلعـة، لأن الآلات تمكنت مـن إضعاف الأسـوار كثيراً، وكان الذين في الـداخل رجالاً منظمين ومقاتلين جيدين، وكـانوا يخشون من السجـن أو الموت، ولهذا دافعوا عن أنفسهـم دفاعـاً عظيماً وبفعاليـة كبيرة، وقـاتل الـذين في الخارج بثبـات كبير، وكـان هناك عـدد كبير قـد أصيبوا بجراحـة ، وتلقى أولاد صاحب بيروت هناك كثيراً مـن الإصابات البـالغـة، وفي الـوقت نفسـه كـان بين الـذيـن في الـداخل قتلى كثيريـن وجـرحـى، وكـان المهـاجمون يتـوقفـون عـن القتـال مع حلـول الظـلام وينسحبون.

١٤٤ (٢٠٢) : ولام صاحب بيروت نفسه كثيراً وانتقدها، وقال بصوت مرتفع مسموع بشكل واضح:«ياللأسف، لقد أصابني سوء الحظ هذا، في هذا الوقت، وياحزني من الشيء نفسه الذي حدث مرة لرجل من أهل بيتي، فعندما كان الملك عموري، داخلاً إلى مصر، أمر وقتها السير هيوج دي إيبلين(٢٣٨)، بمهاجمة مدينة بلبيس واقتحامها، وهي المدينة التي كان محاصراً لها، وأجابه(السير هيوج) بأنه سيذهب ويقوم بالهجوم، وعندما وصل إلى الخندق نخس حصانه وحمل، فاندقت رقبة الحصان، وانكسرت ساق عمي، وبادر وقتها جميع رجال الجيش إلى إنقاذه، ونجم عن هذا أضراراً بالغة، لأن عدداً كبيراً منهم قتلوا هناك وجرحوا ، وحمل بعد ذلك على الخندق السير فيليب (٢٣٩)، صاحب نابلس الذي كان فارساً جيداً، وكان بالوقت نفسه خاله (عمه)، فلقد حمل بعد حفيده، وهكذا حدث الشيء نفسه، ونجا هذا من الموت بصعوبة بالغة».

١٤٥ :« ثم كان بفضل الرب وإرادته أن تم الاستيلاء على المدينة، ومن ذلك الحين اتخذ الملك عموري ورجاله قراراً إلزامياً بأن لايقوم أي فارس أثناء أدائه لخدمة تتعلق بالاستيلاء على مدينة أو قلعة أو أي مكان،بالقفز إذا لم يستطع حصانه حمله، باستثناء الحالات التي يكون فيها محاصراً أو يدافع عن نفسه(٢٤٠)، وأنا التعيس سيء الحظ الذي يعرف القرار الذي اتخذ لكل واحد من بيتي، قد عرضت اليوم نفسي وأولادي وأصدقائي للموت في الحملة على هذه القلعة التعيسة، التي سوف تستسلم في أحد الأيام من قبل نفسها بسبب المجاعة»، وواساه الذين كانوا هناك وقالوا: «لاتشغل يامولاي بالك ولاتزعج نفسك بهذه الأمور، فالذين قتلوا في الداخل أكثر مما خسرته»، واستمر الحصار وقتاً طويلاً، وكانت النفقات التي بذلت هناك كبيرة جداً، وكانت المبالغ التي دفعت إلى السيرجندية وإلى الغلايين عظيمة، وكانت الضرائب التي

فرضها الملك عالية جداً، ذلك أنهم ما كانوا ليشعروا بالأمان ما لم يستولوا على سيرينا .

١٤٦ (٢٠٥): وسمع الامبراطور فردريك الأخبار من سورية، ولانعرف فيما إذا كان لم يملك الفرصة للقدوم إلى سورية، أو أنه لم يرغب بذلك، المهم أنه لم يقدم، غير أنه أرسل أسقف صيدا إلى سورية، مع رسائل على درجة عالية من اللطف والإطراء، قائلاً أنه ليس لديه أية مشاعر سيئة نحوهم لما فعلوه، ووعد بالعفو عنهم وأن يمنحهم نعمه، وطلب منهم أن يكونوا مخلصين له ولابنه، زد على هذا أنهم إذا لم يرغبوا بوكيله الموجود في صور في أن يكون وكيلهم، إنه سيوافق على الفور أن يكون واحداً من رجاله من أهل البلاد وكيلاً لهم في عكا، وأن يكون رتشارد فيلنغر في صور، وجاء في هذه الرسائل واضحاً سمة المرشح ليكون الوكيل، فقد كان فارساً كان موجوداً في صور، واسمه فيليب موغاستيل Maugastel(٢٤١)، وكان قليل التقدير، وقيل كان يصنع وجهه مثل امرأة، وأنه كان وثيق الصلة بوكيل صور، وقد خيل للامبراطور أنه بهذه الوسائل يمكن أن يربح إلى جانبه الناس في سورية، وأن يبعدهم عن تقديم العون إلى صاحب بيروت وإلى القبارصة، وهو طبعاً ما أن سيملك الفرصة سوف يقترف أسوأ ما يمكنه،(٢٤٢) .

١٤٧ : وبعد ما قام أسقف صيدا، الذي جاء إلى عكا بالتباحث حول عدد من الأمور وبعد إجراء ترتيبات كثيرة، اتفق صاحب صيدا والقسطلان(٢٤٣)، حول هذه الأمور، وجعلا الناس يأتون إلى كنيسة الصليب المقدس، حيث وجد الإنجيل، وبينما كانوا ينتظرون القيام بأداء اليمين، حدث أن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت مولاي صاحب بيروت، كان قد جاء من قبرص لقضاء أعمال خاصة به، فسمع بهذا الشيء، فجاء مسرعاً إلى عكا، ودخل في الساعة التي كان اليمين سيتم أخذه بها إلى الكنيسة الكاتدرائية للصليب المقدس، وأمر بضرب

ناقوس« الكومونة»، وعندما سمع رهبان القديس أندرو صوت الناقوس ، بادروا إلى حمل السلاح(٢٤٤)، وصرخوا جميعاً:«إقتل، إقتل» .

١٤٨ : ورآهم أسقف صيدا فهرب خوفاً منهم إلى بيت أسقف عكا، وتخفى في البيعة، ولولا قدوم صاحب قيسارية، لكان أسقف صيدا قد قتل في ذلك اليوم، وكذلك صاحب صيدا، والقسطلان أيضاً، غير أن صاحب قيسارية استرد الهدوء، وقادهما معه إلى خارج المكان، وبادر على الفور إلى إعلام خاله صاحب بيروت بجميع هذه الأشياء، وكان آنذاك في قبرص مشغولاً بحصار سيرينا(٢٤٥)، وعلى الفور تخلى صاحب بيروت عن الحصار، وعين مكانه ابنه الأكبر السير بالين، ورغب الملك هنري أن يصطحب معه فيليب دي نوفار، لكن السير بالين لم يسمح بذلك .

١٤٩ : وذهب صاحب بيروت إلى عكا، وأجرى ما لزم من ترتيبات، وأمر بتجديد أيمان جميع البوليان، وأنه من جديد هو المقدم، وبعث أسقف صيدا إلى صاحب بيروت يلتمس منه باسم الرب ولأجله ولأجل شرفه وللمنفعة أن يسمح له بالقدوم إليه ليتحادث معه، ورد عليه صاحب بيروت أنه باسم الرب عليه أن يقدم، وأرسل إليه(الأسقف) وجلب إليه إلى هناك، وما أن مثل(الأسقف) بحضرة الإيبليني حتى تولى قراءة رسالة من الامبراطور، بعث فيها(الامبراطور) بتحياته وتطميناته .

١٥٠ (٢٠٧) وقال الأسقف:« لقد ورد في هذه الرسائل وجوب أن تصدقني، فقد بعث إليك الامبراطور رسالة يقول فيها إنه نادم كثيراً لما جرى بينك وبينه، وأنه سوف يتصرف في المستقبل نحوك ونحو الذين يتعلقون بك بأن تصبحوا أغنياء، وذوي أساسات ثرية، لكنه يتمنى عليك الاستجابة لنقطة واحدة فيها تشريف له، بها لن يكون بمقدور الناس القول بأنك قهرته، والتشريف الذي يطلبه منك أن تقدم إلى مكان يبدو أنه خاضع له ومن أملاكه، وأن تقول ببساطة مطلقة، وفق

الطريقة التالية أووفق طريقة أخرى: « إنني أضع نفسي تحت رحمة الامبراطور بحكم أنه مولاي»، وعلى هذا رد مولاي صاحب بيروت قائلاً:« سيدي الأسقف، عندما أنتهي من كلامي سوف أجيب على طلبك، لكن قبل ذلك سوف أضرب لك مثلاً، وهو حكاية كتبت في كتاب حكايات رينارد، وهي بتقديري سوف تنطبق تماماً على هذه المناقشة التي افتتحتها» .

١٥١ :«لقد حدث في غابة كانت كثيفة الأشجار، ومليئة بجميع أنواع الحيوانات، أنه كان هناك أسداً عظيماً، وقد كان شاحباً جداً، ومريضاً، ومضطرباً، وكان في أحد الأيام مستلقياً أمام مدخل كهفه، فرأى يمر أمامه مجموعة كبيرة من الوعول الفتية العائدة لذلك الموسم، وقال الأسد لخاصه أهل بيته: إذا أنا لم آكل ذلك الوعل الشاب الذي سار أمام الآخرين سوف أموت، فهذا ما أخبرني به الأطباء، لذلك بعث إلى الوعل وتوسل إليه باسم الرب أن يقدم ويتحدث معه، لأنه مريض جداً،وهو يموت ، واستجاب الوعل وذهب إليه لأنه مولاه، وما أن دخل إلى الكهف حتى بادر الأسد مسرعاً للإمساك به، وقفز عليه وضربه على رأسه بكفه فمزق جلده حتى مادون جبهته، وكان الوعل قوياً وسليماً، وكان الأسد ضعيفاً ومريضاً، لذلك وقع إلى الخلف نتيجة ضربته التي سددها، وهرب الوعل ورأسه ينزف وقال بأنه لن يدخل إلى بلاطه ثانية، وفي الوقت نفسه تعافى الوعل من جراحاته» .

١٥٢ :« وحدث بعد هذا بأمد طويل، أن الأسد بعث إلى الوعل وقال أنه بعون الرب قد فكر باستقباله بكل ترحاب وسرور عندمدخل بيته وهو يريد أن يعانقه، وأنه لسوء حظه حدث أن لمست مخالبه رأسه، وأن ذلك حدث على الرغم منه، وبسبب ضعفه ووقوعه أصابته مخالبه، وترجاه الآن باسم الرب أن يأتي إليه، ولقد بذل كثيراً من الالتماسات وترجاه طويلاً حتى أنه ذهب إليه ثانية، وخرج الأسد لاستقباله، وقفز

للإمساك به، وأصابته مخالبه وجرحته حتى ذيله، ولقد أصابه في ظهره كله ، وكان هناك في الظهر جرحين عميقين، وقفز الوعل بكل عنف لإصابته بالجراحة، وكان الأسد ما يزال ضعيفاً، وسقط نتيجة لضربته، وهرب الوعل، وإثر هذا ظل مريضاً من جراحاته ، لمدة عام تقريباً» .

١٥٣ : «وفي نهاية العام أرسل الأسد إليه ثانية واحداً من باروناته، وأقسموا له كثيراً وتوسلوا أكثر إلى حد أن الوعل خدع وقدم مجدداً إلى البلاط، وكان الأسد قد تحسن وأنشأ حول نفسه حاشية خاصة به، وأخذ أفراد الحاشية الوعل وقتلوه، وأصدر الأسد أوامره بوجوب سلخه، ووضع التوابل له وتنظيفه لأنه رغب في أكله، وأكل الحيوانات من اللحم، أما أمثال زنغريم ورينارد فقد شغلوا أنفسهم بإعداده، وأدخل رينارد فمه وبوزه في داخله وأخذ القلب وأكله، وقد خاف بقية الحيوانات من هذه الفعلة كثيراً، ولاحظ الأسد ذلك، وحاول ــ كخائن ــ بذل غاية جهده لتسويغ عمله بوساطة كلماته، فقال :لاتظنوا أيها السادة أنني قد قتلت هذاالوعل غدراً أو خيانة، بل إنني فعلت ذلك لشفاء نفسي، ذلك أن جميع الأطباء قالوا بأنني لا يمكن أن أعيش إذا لم آكل قلب هذا الوعل».

١٥٤ :« ولم يتمكنوا من العثور على القلب لأن رينارد كان قد أكله، وأقسم الأسد بأن رينارد قد فعل ذلك، لأن لحيته كانت ملوثة بالدم، وأشار الجميع نحوه بأصابعهم، وحكم الجميع بوجوب موت رينارد لفعلته هذه، وأعلن رينارد على مسمع الجميع بأنه كان مطيعاً لأوامر الملك، ووضع نفسه تحت حكم المحكمة، وهناك قال رينارد : أيها السادة قدم الوعل مرة إلى البلاط، وذهب عائداً مبتعداً برأس ينزف، وجاء مرة ثانية وغادر بجرحين بليغين في ظهره، وجاء بالمرة الثالثة ليموت وهو ضعيف ذليل مثل الذين بلا قلب، لأنه لو كان لديه قلب لما جاء للمرة الثالثة، ويقول المثل : الشيء المفقود هو الذي لايمكن إيجاده، فالوعل لم يكن لديه قلب، وأنا لم آكله، وذقني ملوثة بالدم

بسبب سلخي له وفتحي لجسده، وأنا ألتمس من كل واحد هنا في هذا المكان، باسم الرب، ومن أجل نفسه، أن يحكم علي، وهنا قال الجميع بصوت واحد بأن الوعل لم يمتلك قلباً، وهكذا جرى إطلاق سراح رينارد» .

١٥٥ : وتابع صاحب بيروت يقول :« وأنا أقول لكم يا سيدي الأسقف إن الذي حدثتكم به مثل ينطبق عليّ تماماً وعلى الامبراطور، فهو الأسد وأنا الوعل، وقد تولى خداعي مرتين، وكانت المرة الأولى في ليماسول، وقد عدت منها برأس ينزف، وكانت المرة الثانية عندما تركت قلعة ديودامور، وجئت إليه، فقد قام على الرغم من جميع الاتفاقيات وضدها فاحتفظ بالقلاع وبقبرص جميعها، وباع الملك وقبرص إلى أعدائي، ومثل هذا الجرحين البليغين في ظهري، وإذا ما قمت الآن بوضع نفسي تحت رحمته، أعتقد أنني سوف أقتل مثلما حصل للوعل، ولسوف يحكم عليّ بشكل مؤكد أنني كنت بلا قلب، ولهذا أقول لك أيها السيد الأسقف، وبودي أن يعلم جيداً بأنه سوف لن يضعني تحت سلطانه، فضلاً عن هذا، إذا ما حدث لسوء الحظ، ومثلت أمامه، وهو يمتلك القوى كلها، وأنا ليس لدي لاأولاد، ولا أصدقاء، ولاقوة تتجاوز إصبع يدي الصغير، فبهذا الأصبع سوف أدافع عن نفسي حتى الموت» وهكذا أنهى كلماته .

١٥٦ (٢٠٩): وكان صاحب بيروت قد أسس نفسه وأوضاعه بشكل جيد في سورية، وقد ترك في سورية محله ابن أخته صاحب قيسارية، وعاد على الفور إلى قبرص، ودام حصار قلعة سيرينا لمدة أكثر من عام، وعانى الذين كانوا في الداخل من أشياء كثيرة، وعرفوا أنه من غير الممكن وصول عون إليهم من عند الامبراطور، وعرفوا بأن وكيل صور كان يقوم بإبرام معاهدة، ولهذا تحدثوا عن المصالحة، وتولى أرنيس صاحب جبلة وفيليب دي نوفار إبرام الصلح، ونتيجة لذلك سلموا

القلعة والأسوار وجميع الأسلحة والمؤن والعتاد الذي جلبوه ووجدوه في الداخل(٢٤٦) .

١٥٧ : وحررهم فيليب دي نوفار، وأمن لنقلهم ما احتاجوه من غلايين ومراكب ، وجعلهم يذهبون إلى صور آمنين سالمين هم ومقتنياتهم، وقضى الاتفاق أنهم ما أن يصبحوا في صور، حتى يتوجب على صاحب بيروت المضي إلى عكا،وأن يأخذ جميع الأسرى الذين أسروا في المعركة ومايزالون أحياء، وعليهم تسليمه جميع رجاله الذين أسروا في قلعة إيمبرت، والذين كانوا في صور، وتم تنفيذ ذلك حسبما قيل، فقد أخذ الأسرى معه إلى عكا(٢٤٧)، وكان قد جرى الإعداد من قبل بوجوب أخذ الأسرى من كلا الطرفين إلى وسط الطريق بين صور وعكا، وهنا جرى تبادل أسراهم فيما بينهم، وعاشت قبرص إثر هذا بسلام، لكن سورية بقيت في أوضاع سيئة، لأن السير رتشارد فيلنغر وأخوانه وعدد كبير من اللومبارد قد بقيوا في صور (٢٤٨) .

١٥٨ (٢١٢) : وبعد أربع سنوات من عقد المصالحة، وكان هذا في سنة ١٢٣٦ ، قام مولاي جون دي إيبلين بالاعتراف، فقد كان السيد الجيد لبيروت، الذي أدرك جيداً فضل ربنا عليه ونعمته حيث منحه مجداً وتشريفاً عظيماً، وجاء اعترافه بسبب الوحش الذي انقض عليه، وقام بهذا الاعتراف بشكل نظامي حيث عجب الناس كثيراً من ذاكرته العظيمة، وقد تاب من جميع ذنوبه ونال المسامحة، وقد تاب من كثير من الأشياء التي لايعدها الناس ذنوباً، وقد سدد جميع ديونه لأنه امتلك في ذلك اليوم مداخيل كبيرة، وذلك بالاضافة إلى إقطاعاته، وأعطى الجميع في سبيل الرب، وفي سبيل خلاص روحه، وأعطى ذلك بيديه مع ذكرى طيبة، ولقد منح الكثير من الإقطاعيات إلى أولاده، وأمر بأن يكونوا تابعين لأخيهم الأكبر، ومتملكين للاقطاعيات منه .

١٥٩ : وبعد هذا جعل من نفسه راهباً من رهبان الداوية، وذلك

حسبما كان قـد نذر، وقد عـارض أولاده ذلك معارضة كبيرة، وشعـر جميع شعب البـلاد بأسـف عظيم، لهذا السبب، لكن ذلـك لم يجد شيئاً، لأنـه دخل في رهبانية الـداوية على الرغم من معارضتهـم، وقد فعل ذلك بكل هـدوء، وحمل نفسـه وتوجـه إلى عكـا، ولم يبق طـويـلاً في هذه الـرهبنـة، وبمـوته ختـم حياتـه بشكل يجعل الانسـان ينـدهش ويصعب عليـه أن يصـدق حقيقة مـا شهـده وتلمسه، وعنـدما كـان يحتضر ويسلم الـروح طلب إحضـار صليب ووضعه أمـامه وحمل فيليـب دي نوفـار الصليب، وأمسكه بيديه واضعاً إياه أمامـه، وقد قبل قدمي ربنا يسوع المسيح، وقال بقـدر ما استطـاع:« في عهـدتك، وأمـرك، أضع روحـي»، وهكـذا أسلم الروح إلى الرب، ولم يتغير جسده لدى موتـه، وإذا كان الإنسان يؤمن بأن الأرواح الطيبة تـذهب أمام الرب، يمكن لـلإنسان أن يكون متـأكداً، بأن روحـه قـد مضت من هنـاك إلى الفـردوس، وبقي الآن ابنـه السير بـالين الذي تحكـم بذاتـه وبتصرفاته وكـان نشيطاً، صـاحب بيروت في مكـانه، ولقد تـوفر لديه أخـوان طيبون، وأولاد عم وأولاد خال، وأصدقـاء جيدون ساعدوه مساعدة مفيدة .

١٦٠(٢٢١): وكـان اللومبـارد وقتذاك في صـور، وقد عـاشوا هنـاك لبعض الـوقت بهدوء وسـلام، ونجح رتشـارد فيلنغـرمـارشال الامبراطـور وقتها،وضمن، واجتذب إلى حزبه رهبان مشفى القديس يوحنا، كماكسب اثنين من أهم بـرجاسية عكا، وكـان لهما سلطات واسعة ونفـوذ قوي على شعب المدينـة، وكان اسم أولهما جـون فالين Vaalin، واسم الآخر وليم دي كونشي Conches، وحـدث في ذلك الـوقت في عكـا أنـه لم يكن هنـاك فيها أحـد من حـزب الإيبلينيين، فيما عـدا واحد فقـط كان اسمـه السير فيليب دي مـونتفورت(٢٤٩)، وكـان قد قـدم عبر البحر عنـدما جاء ملـك نافار إلى عكـا، وقد تـزوج من سيدة نبيلـة من البلاد، عـرفت باسم سيدة تـورون (٢٥٠) (تبنين)، ولزواجه منها دعي بـاسم صاحب

تورون، وكـان عن طـريق أمه ابـن خال لـواحد ألماني اسمـه السير بالين الأصغر، صاحب بيروت، وابن خال أيضاً لأخوانه(٢٥١) .

١٦١ : وكان السير بـالين دي إيبلين صاحب بيروت قد عـاد في ذلك الحين من جيش ملك نافـار، بعدما أمضى فيه وقتاً طويـلاً، وبعدما صنع لنفسه اسماً عظيماً، وقـد أقام إقامـة مؤقتة في بيروت، وكـان أخواه : السير غي والسير بلدوين ـ اللـذان حققا فيها بعد مكانة هامـة جداً ـ آنذاك في قبرص، وكان أخوهما السير هيوج، وكذلك صـاحب قيسارية الأصغر قد انتقـلا من هـذا العالم، وسبـب انتقالهما هـذا حزنـاً وخسـارة كبيرة لجميع أصـدقائهما وإلى المملكتين، وكـان أخـوهما السير جـون صاحـب فوغيـا آنـذاك في أرسـوف(٢٥٢)، ويـودس دي مونتبليـارد القسطـلان، وهـو الذي تزوج مـن ابنة خالهما(٢٥٣)، وهو الذي تسلـم منصب الوكيل في عكا(٢٥٤)، لقـد كان آنـذاك في قيساريـة هو والـداوية في الجيـش مع قسم من فرسـان المملكة، ولهذا كله كان بإمكان رتشـارد فيلنغر هذا، أن يقوم بمغامرته وهو كبير الاطمئنان .

١٦٢ (٢٢٢): وهكـذا كان أن حـدث مـايلي:بعـدما تجسـس وكيل صـور السير رتشـارد فيلنغـر، واكتشـف الكثير، ورتـب الأمـور مـع البرجاسيين،المشار إليهم أعلاه، انطلـق وجاء بشكل سري إلى عكا، وكان ذلك خلال الليـل، وقد دخل إليها من بـاب خلفي مموه كان مـوجوداً في السور، وقاده هذا الباب إلى حـديقة المشفى، ومن هناك مضى مباشرة إلى مقر فرسـان مشفى القديس يوحنـا، وتمّ استقباله هنـاك، ومكث لمدة يوم وليلة، ومـا يزال البـاب الخلفي يـدعى«باب مـدخل الشيطـان»، وذهب البرجاسيـان المتقدم ذكرهما إلى مقر فـرسان الاسبتارية، وتشـاوروا معه، ثم مضيـا بعد ذلك يتجـولان في شـوارع المدينة يبحثـان عمن سـوف يقسم لهما، وقد جعلا كل الـذين أبدوا الرغبة في تصديقهما يقسمـون أن يكونوا قيد أمر الوكيل الذي جاء من صور.

١٦٣ : وكشفت أخبار أفعالهما من قبل واحد من الذين أقسموا لهما، وبذلك عرف فيليب دي مونتفورت بأخبارهما، وكان هناك هياج عظيم في المدينة، وقد انطلق حاملاً سلاحه ومعه أكبر عدد من الرجال استطاع تجنيدهم، وقام الجنويون والبنادقة الذين لم يحبوا الامبراطور أو أتباعه، فتسلحوا على الفور، وخلال ساعة من الزمان حصنوا شارعهم، ونشط السير فيليب دي مونتفورت فاستطاع إلقاء القبض على البرجاسيين، ووضعهما بالأغلال، وبعث على الفور بخبر هذه الأوضاع إلى صاحب بيروت، وجاء صاحب بيروت مسرعاً، وجلب معه جميع قواته وعدداً كبيراً من سيرجندية الجبال، ولقد قدم مسرعاً جداً ومرّ أمام أبواب صور، وعلم رتشارد فيلنغر الوكيل ـ الذي كان متخفياً في عكا في داخل مقر الاسبتارية ـ بقدوم صاحب بيروت، وباعتقال صديقيه، فهرب على الفور أثناء الليل من خلال الباب الخلفي المموه، وعاد إلى صور، وقام بجهد قليل للتصدي لصاحب بيروت، وقد أخفق في ذلك .

١٦٤ : وعندما دخل صاحب بيروت عكا، غدت المدينة على الفور خاضعة لسلطانه، وقد فهم بأن الاسبتارية كانوا طرفاً في هذه العملية، فحاصر المشفى من جميع الجهات وضغط عليها عن قرب عظيم، وألحق بها أضراراً فادحة، وقد تمكن من أن يفعل ذلك بسهولة لأن المقدم الأخ بيتردي فيلابرايد(٢٥٥) Villebride،وهيئة قيادة الاسبتارية كانوا آنذاك في المرقب بسبب الحرب التي كانت ناشبة آنذاك مع سلطان حلب(٢٥٦) من أجل السيطرة على تخوم المرقب ومدينة جبلة، وعلم آنذاك صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر الوكيل، قد هرب من مقر الاسبتارية وذهب إلى صور، وعاد القسطلان ورجال بلاده الذين كانوا في قيسارية من الجيش وصاروا تحت إمرة صاحب بيروت، وهكذا مكثوا مدة طويلة في عكا .

١٦٥ (٢٢٣): وحاصر صاحب بيروت بيت فرسان القديس يوحنا

في عكا لقرابة ستة أشهر(٢٥٧)، وهكذا ما من إنسان سمح له بالدخول إلى البيت والخروج منه من دون أن يكون قادراً على أن يفعل أي شيء أكثر، لأنه وجد أيضاً في البيت عدد كبير من الرجال الجيدين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم فيه، وكان في البيت عدد ضئيل من الاسبتارية لأن المقدم وهيئة القيادة كانوا بعيدين مسافرين، حسبما ذكرناه أعلاه، وبناء عليه قرر المقدم وهيئة قيادة الاسبتارية واتفقوا على إيقاف حملتهم ومن ثم العودة إلى عكا، وفعلوا ذلك وعسكروا خارج المدينة في الكروم الجديدة.

١٦٦ : وتدخل الأصدقاء المشتركون وتوصلوا إلى عقد صلح فيما بين الاسبتارية وصاحب بيروت، ومن ثم جرى التخلي عن حصار الاسبتارية، حيث أعلن صاحب بيروت عن نفسه مخطئاً جداً بحق الاسبتارية بسبب قيامه بهذا العمل وترجى من أجل المسامحة، وأعلن أمام الناس، بأن بعض الناس الذين لايحبون الاسبتارية جعلوه يفعل ما فعله بإعطائه صورة وبجعله يعتقد بأن الأشياء التي رغب رتشارد فيلنغر القيام بها في مدينة عكا مع جميع الاضطرابات التي تمت، قد جرى ترتيبها من خلال بيت الاسبتارية، وبفضل مساعدته وتأييده، حيث كان رتشارد فيلنغر باقياً في داخل بيت الاسبتارية، ولهذا السبب حاصر هذا البيت، وبناء عليه إنه يمتلك الامكانات العظمى للأسف .

١٦٧ : ثم قال مقدم الاسبتارية لصاحب بيروت :« عليك يا صاحب بيروت أن لاتصدق أن يقوم بيت الاسبتارية بمثل هذا العمل الخطير الكبير أو أن يكون شريكاً، عندما تكون هيئة قيادتنا بعيدة عن عكا، وعلى مسافة عظيمة، وحسبما كنا مشغولين خارج المرقب، ولقد كنا قد تركنا عدداً قليلاً من الرهبان في البيت في عكا، وذلك كما يعرف كل واحد، لابل حتى في هذه الحالة من المؤكد أن أخواننا الذين كانوا آنئذ في البيت لايمكن أن يشاركوا بأية صورة بمثل هذه الأشياء، ولهذا

السبب ينبغي عدم اتهام بيت الاسبتارية بأية تهمة قذرة، أو أن يوصموا بمثل هذا العار الكبير حتى يحاصروا لمثل هذا السبب، وعلى كل حال، بما أن المسائل قد سويت بما حقق الرضا لكل من الطرفين، فإن هذه الأشياء التي مضت يتوجب نسيانها كلياً».

كيف غادر رتشارد فيلنغر صور ليذهب عبر البحر

١٦٨ (٢٢٤) : وحدث في هذه الآونة أو قبل ذلك بوقت قليل أن أرسل الامبراطور فردريك رسالة إلى السير رتشارد فيلنغر، الذي كان وكيله في صور، بوجوب حضوره إلى عنده، ذلك أنه يرغب في أن يرسل إلى سورية واحداً يحل محله، وغادر السير رتشارد المتقدم الذكر وسافر من صور، وكان معه أخوه السير هنري، وابن أخته جون أوف سورنتو Sorrento، وزوجاتهم وأولادهم وحواشيهم وآل بيوتهم (٢٥٨)، وقد صعدوا جميعاً ظهر سفينة كبيرة، وسافروا عليها، وعندماغادر رتشارد فيلنغر ترك أخاه لوثير في مكانه، ومعه ما يكفي من الرجال والسلاح، فهو كان سيتولى حكم مدينة صور، لأنه كان مارشال مملكة القدس من جهة الامبراطور(٢٥٩)، وكان سكان صور يكرهون اللومبارد كراهية عظيمة، ولهذا جاء أربعة منهم(٢٦٠) إلى صاحب بيروت وعرضوا عليه تسليم مدينة صور إليه، وأعدوا معه الترتيبات، وقد عقد مجلساً استشارياً هناك حول الموضوع مع السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، ومع فيليب دي نوفار الذي كان وثيق الصلة به وقريباً جداً منه، وقرر الاجتماع مايلي : أن يتوصل إلى اتفاقية مع هؤلاء الرجال، ثم تلقى اليمين من هؤلاء البرجاسية الأربعة من أهل صور .

١٦٩ (٢٢٥): وفكر فيليب دي نوفار ملياً في هذه المسألة خلال الليل، ثم إنه ذهب إلى مولاه، صاحب بيروت وقال له:«لقد فكرت يامولاي حول شيء يحميك من الملامة، فأنت تعرف أنك أنت مع الآخرين من أهل مملكة القدس قد أديت يمين الولاء للامبراطور على

أساس أنـه الوكيل عن ابنه الملـك كونراد، ولقـد حافظت بأمانـة وصدق على يمينك دومـاً بينما حافظ هـو بشكل سيء على يمينه كما هـو واضح(٢٦١)، وأعلمك أن الملك كـونراد قـد وصل إلى السن القـانونيـة(٢٦٢)، ولهذا السبب قد تحررت أنت من الامبراطور، ولسـوف يكون من المفيد جداً أن يعـرف هذا الوضع كـل إنسان قبل أن تستولي على صـور أو قبل أن تأخـذ منـه الـوكـالـة، فـوقتهـا يظل النـاس ينـادون بمنع الامبراطـور وبحرمـانه من صـور كوكيل، ولسوف تكـون قادراً أن تمتلك سبيـلاً جيداً ومشرّفاً إذا ما رغبت بمثل ذلك» .

١٧٠ :« لأن العادة في مملكـة القدس إن أكثـر الناس شرعيـة في وراثة السلطـة، هو الأكثـر ظهوراً، ويتسلم هـذا الميراث السلطوي بحـق حتى يأتي واحد أكثر شرعيـة منه بوراثة السلطة، ولديك في هـذه المدينة السيدة الملكة أليـس، أم الملك هنري، التي هي ابنـة أختك الألمانية، وهـي أكثر الناس شرعيـة ظهوراً في مملكـة القدس بوراثـة السلطة، لأنها ابنـة الملكة إيـزابل، التي هـي نفسها الـوريث الشرعـي للمملكة بحكـم كونها ابنـة الملك عموري، وصحيح أن الملك كونـراد منحدر من الأخت الأكبر، وأنه لوكـان حاضراً لاستحـق الميراث، لكن حتى يقـدم هي الوريـث الشرعي الأكثر ظهوراً(٢٦٣)» .

١٧١ : « ولهذا السبـب أشير عليـك أن تقـوم بجمع رجـال مملكـة القـدس، وأن تمثل الملكـة أليس أمـامهم، وأن تطـالب بمملكـة القـدس بمـوجـب الحق المبين أعـلاه، وحسبما بينـت كيف يمكـن التخلص مـن الامبراطـور والانفصـال عنـه، وبهذا تعـد الترتيبـات لـوصـول الملكـة إلى سلطانها، وعندمـا تطالب بصور، إذا لم تُسلم إليها،أو لم تخضـع لأوامرها، أو تدخل في خـدمتها، سوف تقـوم ـ إن شاء الـرب ـ بموجـب الاتفاق الذي عقـدته مع أهل المدينـة، بالاستيـلاء على مدينة صـور بحق شرعي كامل وبشرف ومجد لذاتك، ولسوف تطرد اللومبارد من سورية» .

١٧٢ : وعندما سمع صاحب بيروت هذا العرض المنطقي، كان مسروراً جداً به، ووافق تماماً عليه، وبعث على الفور وراء مولاي فيليب دي مونتفورت صاحب تورون، وتولى فيليب دي نوفار ـ بناء على أوامر مولاه صاحب بيروت ـ فأعاد على مسامع صاحب تورون حكاية جميع ما قاله من قبل، ووافق(صاحب تورون) على الفور، وأشار بالقيام بهذه المحاولة، وكان واثقاً بها، وقد توفرت لديه أسباب جيدة لذلك، وكانت كافية بالنسبة له، لأنه كان عاقلاً جداً، وصاحب رأي صائب، وقد أخبرا على الفور فيليب دي نوفار بوجوب ذهابه إلى الملكة أليس وإلى السير رالف دي سوا سون Soissons، الذي كان بارونا فرنسياً، وكان زوجها (٢٦٤).

١٧٣ : وأخبرها فيليب دي نوفار بما رغب به الشخصيتان المذكورين أعلاه، واللذان كانا معاً أبناء خال ألمان للملكة أليس، ولقد ابتهجا لهذا الترتيب كثيراً، وقالالفيليب دي نوفار بأنهما يرغبان في أن يكون هو السكين، وهما اللحم، حتى يستطيع أن يقسّم ويوزع كيفما يشاء، وبحث فيليب في المسألة، وذهب وعاد حتى تمّ إعداد كل شيء وترتيبه، وكانت عقود الاتفاقات المبرمة كثيرة، وكان بين الأشياء التي جرى الاتفاق عليها وأدوا الأيمان حولها، أن يقوم صاحب بيروت وكذلك صاحب تورون بالسيطرة على جميع قلاع المملكة وتجهيزها وشغلها، حتى يأتي الملك كونراد إلى هناك، وكانا قادرين على القيام بهذا، وهو ما ينبغي القيام به، وقام فيليب دي نوفار بالتعاون مع برجاسي اسمه فيليب دي بوديون Bauduyn، الذي كان عاقلاً، ووثيق الصلة مع صاحب تورون، ولقد قاما فيما بينهما برسم خطوط الاتفاقيات ومن ثم كتابتها بشكل سري جداً، حتى أن ما من كلمة واحدة قد عرفت في أرجاء البلاد .

١٧٤ (٢٢٦): وتدبر صاحب بيروت وصاحب تورون عقد اجتماع لجميع إقطاعيي عكا وأعيانها، في بيت بطريرك القدس(٢٦٥)، وكان

الجنـويون والبنـادقة والبيـازنة هنـاك(٢٦٦)، وجميع الـرهبانيـات الدينيـة العـائدة للمـدينـة أيضـاً،وقـدمت الملكـة أليـس زوجهـا مع رالـف دي سـواسـون إلى الاجتماع، وتولى فيلـب دي نـوفـار الذي كـان مستشـارهما دعواهما، وطرح بكل وضوح جميع الأسبـاب والإدعاءات التي سمعتها من قبل، وخـلاصتها : إن الملكة أليس الـوريث الشرعي الأكثر ظهـوراً،وهي التي تستحـق تسلم سلطـان مملكـة القدس، وبنـاء عليـه إنها قـدطلبت ومعها زوجهـا، أن يقدم الحضور الـولاء والخدمات المتعلقة بـا لمملكة، ثم إنهما عـرضـا الحفـاظ على الاستخدامـات الجيـدة وعلى العـادات الطيبـة للمملكة .

١٧٥ : واعتزل الذين كـانوا من أهل المملكة جانبـاً، واستدعوا فيليب دي نوفار للتشـاور معهم، وسألوه الرأي والاجتهـاد الممكن اعتماده للقيام برد، وقـد أوضح لهم جميع الأسبـاب التي تقدم وسمعتهـا، وبين كيف أن الملكـة أليس هـي أكثـر الـورثـة الشرعيين ظهـوراً للسلطـة، وكيف أنهم انفصلوا عن الامبراطـور فردريك وتحرروا من التبعية إليه، لأن ابنـه كونراد قـد وصل إلى الســن القـانـونيـة، ونصحهم بشكـل جيـد وأشـار عليهم بوجوب وضـع الملكة أليس في موقع المتسلم لسلطـة مملكة القدس، لأنها أوضح الورثـة الشرعيين حقاً با لمملكة، وأنـه يتوجب عليهم تقـديم الولاء والخدمات إليهـا، بشرط أنه ما أن يقـدم الملك كونراد إلى مملكـة القـدس، حتى يبـادروا إلى التخلي عن الارتباط بـا لملكة أليـس، ووقتها يحولـون إليه وينقلون كل ماهم مدانون به إليه ومتوجب عليهم نحوه.

١٧٦ : ووافق الحضور جميعاً على رأي فيليب دي نـوفار، والتمسوا منه أن يقوم شخصيـاً بتقديم جوابهم إلى الملكـة أليس، وقد تـولى تنفيذ ذلك على الفور وبكل رغبـة وطواعية، وقـد قيل له بمثـابة إيماءة بأنه طـا لما هو نفسه عرض المطـالب والادعاءات، وقدم أيضـاً الجواب، عليه أن يعطي القرار، وإثـر هذا جُعلت الملكة أليـس متحكمة بمملكة القـدس، وكان

أول من قـدم لها الـولاء صـاحب بيروت، وتـلاه صـاحـب تـورون، ومن بعدهما جميع الفـرسان الآخرين العـائدين لعكا، وقد حدث هـذا في سنة ١٢٤٢ (١٢٤٣) .

١٧٧ : وبفضل ما حدث نال فيليب دي نوفار التشريف والثروة، لأن الملكة أليـس أعطته مائة دينـار إسلامي بمثـابة إقطـاع، وأمرت بتسـديد جميع ديونه التي بلغت ألف مـارك فضي، وصار فيليب الوكيل والمعلم في كل شيء(٢٦٧)، وتمكـن بنجاح أن يجمع الإيجارات حتى أنه استطـاع في ثلاثة أيام أن يدفع إلى المرتزقـة وللغلايين التي كانت ذاهبة إلى حصار صـور، لأن الملكـة أليس كـانـت قد طـالبـت بصـور، ورفض اللـومبـارد استسـلامها، وحشـد السير رالف سواسـون، زوج الملكـة أليس المتقدمـة الـذكـر هـو ومولاي صـاحـب بيروت وصاحـب تـورون عـدداً كبيراً من المرتزقـة والغلايين المسلحة، وجلـب فيليب دي نوفـار سفينة كبيرة لهؤلاء السادة، وكانت مشحونة بشكل جيد بعدد من الرجال المسلحين، وذهب الجنويون والبنادقة إلى هناك، وتوفر هناك عدد كبير من الرجال.

١٧٨ : وانطلق الجيـش في أثنـاء الليل وزحـف بـراً وبحـراً، وحـاصر صور، ورتـب صـاحب بيروت الأمور بأن تحدث مع بعض الذيـن كان قد اتفق معهم على تسليم المدينـة، حسبما ذكرنا من قبل، وهـؤلاء لم يتمكنوا من المتابعة وفق الطريقـة التي تمّ الاتفاق عليها لتسليم المدينة، غير أنهم أخبروه بـوجـود بـاب خلفي قـرب شـارع الجزاريـن، على الجانب بـاتجاه البحـر، وأنـه إذا مـا أراد المرور مـع جيشـه على طـرف الشـاطـىء، وأن تتمكن غلايينـه من الاقتراب من سلسلة الميناء، فوقتهـا سيفتحون الباب الخلفي، ويفكون سلسلـة الميناء، وهكذا يمكنه الـدخول بأمان، وعنـدها سيقـوم الذيـن في داخل صـور من حـزبـه بحمل أسلحتهم والثـورة على رجـال الامبراطـور، وعنـدمـا سمـع صـاحب بيروت بهذه الخطـة وعـد بتنفيذها، غير أنه أصر على أن يقوم الذيـن بالداخل بالتخلي عنه، وأخبره

البرجاسية بردهم أنهم سوف ينفذون الخطة بدون إحباط .

١٧٩ : وعبأ صاحب بيروت جيشه وصفه على اليابسة وفي البحر، ورتب إشارات بينه شخصياً وبين الذين كانوا على اليابسة، وردد البرجاسية الذين تحدثوا مع صاحب بيروت كل ما حدث على مسامع البرجاسية الآخرين، الذين كانوا متفقين معه، وعندما رأوا أن الفرصة قد تهيأت أعطوا الإشارات، وعندما رؤيت هذه الاشارات أعطى صاحب بيروت نداء إلى السلاح، وأصدر إلى الذين كانوا على ظهور الغلايين الأوامر بالاقلاع، وبدخول الميناء مهما كان الثمن، حتى وإن كلفهم التنفيذ فقدان حياتهم، ثم إنه ركب وزحف هو ورجاله(٢٦٨) إلى المكان الذي كان رفاقه ينتظرونه فيه قرب الباب الخلفي بجوار شارع الجزارين، وكان البحر عالياً، ووقعت الخيول على الصخور، وكان عدد كبير من الناس، لهذا عرضة لخطر الموت، وسقط الذي حمل العلم في البحر، وكان فارساً شاباً، وابناً لفيليب دي نوفار اسمه بالين، ونال اسمه هذا من صاحب بيروت الذي كان عرابه، وقد وصل إلى الأسفل وتمكن من استرداد العلم ومن ثم رفعه خفاقاً في البحر، وحمله بعد هذا حتى الاستيلاء على المدينة .

١٨٠ : ودخل صاحب بيروت ورجاله إلى المدينة عبر الباب الخلفي بكل ثبات،وكادوا أن يتعرضوا للقتل من قبل الذين كانوا في الأبراج مع المدافعين عن المدينة، ودخل الذين كانوا في الغلايين أيضاً بكل شجاعة، وعندما رآهم الرجال الآخرون من الجيش، ممن لم يكن يعرف ماهذا، بادروا بالركض في جميع أجزاء المدينة، وصعد السير رالف دي سواسون على الأسوار بكل شجاعة وإقدام(٢٦٩)، ولحق صاحب تورون بصاحب بيروت من خلال الباب الخلفي، وعندما رآهم أهل المدينة وقد دخلوا بمثل هذه الأعداد، انقضوا على اللومبارد وعندما سمع لوثير فيلنغر، واستوعب ما كان يحدث وينجز، سلح نفسه، وغادر البيت

حيث كان، ومضى يركض إلى القلعة، وركض الذين كانوا بالمدينة من الأبوليين، متسابقين بين بعضهم بعضاً إلى القلعة، وقُتل عدد كبير ممن كانوا هناك واعتقلوا، وقد فقدوا كل ما امتلكوه في المدينة .

١٨١ : وهكذا جرى الاستيلاء على مدينة صور، التي كانت من أحصن المدن في العالم، وانطلق الذين استولوا على المدينة، وشغلوا أنفسهم بحصار القلعة، وشددوا عليها الحصار، وضيقوا عليها الخناق، لأنه توفر عدد كبير من الرجال أثناء الحصار، وكذلك أعداد كبيرة جداً من الجنود الرجالة(٢٧٠)، وتم صنع عدد من الآلات وأبراج الحجارة، التي تولت قصف القلعة، وأرهقت الذين كانوا في الداخل إلى الحدود القصوى، وتولى السير لوثير فيلنغر الدفاع عن القلعةبنشاط عظيم، ذلك أنه كان فارساً نشيطاً، وقائداً للذين كانوا في الداخل، وكان هؤلاء مجموعة جيدة من المقاتلين قادرين على الدفاع عن القلعة، لذلك لم ينل الذين كانوا في الخارج منهم شيئاً .

١٨٢ (٢٢٨): وبينما كان الذين خارج القلعة يتولون حصار القلعة، حدث حادث عظيم لهم حسبما ستسمع عنه، وبه أنجزوا مقاصدهم فيما يتعلق بالقلعة المذكورة، فقد منحهم الرب نعمة لاتقدر، وكنا قد تحدثنا من قبل عن رتشارد فيلنغر الذي غادر صور، هو وأتباعه على ظهر سفينة كبيرة، توجهت تريد أبوليا، وقد ساقته الأحوال الجوية إلى سواحل برباري، وجنحت سفينته، وتعرضوا جميعاً إلى خطر الموت غرقاً(٢٧١)، وكان هو ومن معه قد حشروا أنفسهم في القارب المرافق للسفينة مع الكثير من مقتنياتهم التي كانوا يحملونها، وكان قبل هذا قد أخذ سفينة من المسلمين، مما يدعوه المسلمون قراقي Karaque(٢٧٢)، ووضع فيها واحداً من أصدقائه الجيدين، واسمه بيتردي غريل Grail الذي كان برفقته وكان رجلاً عظيماً ورائعاً في الحرب، وقد ساعده كثيراً في النزول من السفينة إلى القارب، ومن ثم في القراقي، والقيام بجمع شمله

وشمل حاجياته.

١٨٣ : ولم يتجرأوا على ركوب البحرالمفتوح، لأن مركبهم كان صغيراً، مع أنه كان من السهل عليهم الذهاب إلى صقلية، لكن الأحوال الجوية كانت معاكسة لهم كثيراً، لذلك عادوا يسايرون سواحل سورية، فهذا ما أراده الرب، وقضت إرادة ربنا بقيام الأحوال الجوية بدفعهم من شواطىء برباري حتى ميناء صور، ولم يكونوا قد علموا بالأخبار، وقد وصلوا خلال الليل، وهم مثل الذين خيل إليهم أنهم وصلوا بأنفسهم بسلام إلى بيوتهم، حيث أنهم لم يعلموا شيئاً عما حدث في مدينة صور، لأنهم لو علموا بشيء من هذا القبيل لذهبوا إلى طرابلس أو إلى أرمينيا، وقد وصلوا وأنزلوا أشرعتهم مباشرة إلى جانب السفينة الكبيرة التي اشتراها فيليب دي نوفار وجهزها لحمل السادة عندما جاءوا إلى الحصار، وقد سألوا إلى من تعود السفينة، ومن هذا عرفهم الذين كانوا على السفينة وألقوا القبض عليهم واستولوا على بضائعهم، وحملوهم إلى السفينة.

١٨٤ : ووصلت الأخبار إلى صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر قد وصل إلى الميناء، وتولى هو إخبار صاحب تورون، وذهب هذان الاثنان إلى رالف دي سواسون، وقامت ضجة كبيرة في جميع أرجاء المدينة، وركض جميع الناس إلى الميناء، وأقلع كثيرون في بوارج ومراكب أخرى واتجهوا نحو« القراقي» المذكورة، وتوقف السير رالف دي سواسون وصاحب بيروت عند السلسلة وبعثا صاحب تورون وفيليب دي نوفار إلى السفينة، وقام هذان باعتقال رتشارد فيلنغر وجماعته كلها وكل ما كان معه من بضائع وثروات أخرى، وذلك بدون أية مقاومة جاءت من قبله أو من قبل أي واحد من رجاله، لأنهم لم يكن لديهم قوة، وحملوهم إلى اليابسة، حيث بعثوهم إلى مسكن السير رالف دي سواسون، وضربهم الأطفال والنساء بالحجارة حتى كادوا أن يقتلوهم هم والذين تولوا

قيادتهم .

١٨٥ : وطلب صاحب بيروت تمكينه منهم ليضعهم في السجن،بحكم أنهم أعداءه الألداء الذين دمروا قلعته في بيروت، وسببوا له أذى عظيماً، ولم يرغب السير رالف دي سواسون بتسليمهم له، وقال فيليب دي نوفار: «باسم الرب يامولاي، امنحهم له،لأن فيلنغر سوف يخاف خوفاً عظيماً منه، فيقوم الآن بتسليمك القلعة» وبناء على ذلك أعطاهم له، وبعثهم إليه، وصنع صاحب بيروت سلاسل من الحديد مثل التي كان الامبراطور قد صنعها له عندما اتخذه سجيناً عنده ورهينة في ليماسول، وكان فيلنغر مرعوباً منه كثيراً ومن جماعته، ثم جاء السير جون دي إيبلين، الذي صار فيها بعد كونت يافا، للمشاركة بحصار قلعة صور، واجتمع القادة للتشاور، ثم أخبروا السير رتشارد فيلنغر وجماعته بأنه يتوجب عليهم ترتيب استسلام القلعة، وإلاّ فإنهم سوف يشنقونه من رقبته أمام الذين كانوا في القلعة .

١٨٦ : وبعث السير رتشارد فيلنغر إلى أخيه السير لوثير الذي كان قائد القلعة، وأخبره بأوضاعه، وما من أحد يعرف فعلاً بالذي أخبره إياه وبالجواب الذي حمله الرسول، لكن الذي عرف تماماً أنه ردّ على الذين كانوا بالخارج أن بإمكانهم أن يفعلوا بأخيه ما يشاءون وكذلك بابن أخيه، ذلك أنه لن يسلم القلعة، مطلقاً، ثم نصبت أعمدة ذات شعب خماسية، ووضعت فوق برج مرتفع كان قريباً من مواجهة القلعة، وجرى اقتياد السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخيه إلى هناك، وكانوا قد غطوا أعينهم بأربطة، ووضعوا حلقات حول رقابهم، وجرى تعليقهم إلى الأعمدة بوساطة حبال ربطت حول أقدامهم، والذي كان يحتاجه الإنسان هو أن يشد نهاية الحبال، ووقتها سوف تنشد الإنشوصات، وتنغلق وساعتها سيبقى كل واحد معلق من رقبته .

١٨٧ : ورآهم السير لوثير في هذه المحنة، فحزن كثيراً وأشفق عليهم،

وصرخ عـاليـاً(٢٧٣)، وأرسـل فيليـب دي نـوفـار إلى هنـاك، وجـرى الإعـداد إلى استسـلام تـم بـوسـاطتـه، على أسـاس تسليمهـم للقلعـة، واستلام فيليب دي نـوفار لها، وقد أقسم لهم، وجعلهم يقسمـون بأن يتم تحرير السير رتشـارد فيلنغر وإطـلاق سراحه مع جميـع أصحابـه، وأن ترد إليـه كـل الأشيـاء التي أخـذت منـه، وأن يجري استـلام الأسرى سـالمين جميعـاً، ولسـوف يتـم إعطـاء الذيـن في القلعـة الأمـان وأن يمكنـوا مـن الذهاب حيث شاءوا مع مقتنيـاتهم، وأن يصاحبهم رجل من الإيبلينيين، ويقـودهم حتـى مأمنهـم أينما كان هـذا المأمن حسـب رغبتهم، وجـرى الاتفاق في هذا العهـد على أن يُدفع إلى المرتزقة كل مـا يعود إليهم، وأن يعوضـوا عن جميع الخسـائر التي تعرضـوا إليها في المدينـة، عندما هـربوا بشكل غير متوقع إلى القلعة .

١٨٨ : وقـد مكث فيليـب دي نـوفار وقتـاً طـويـلاً في القلعة للقيـام بإعـداد الاتفاقيـات حتى أن الـذين كـانوا في الخارج اعتقـدوا أن الذيـن كانوا في الداخل قد قتلوه، ولذلـك تمنع السير بالين بصعوبة بالغة وضبط نفسه عـن قتل السير رتشارد فيلنغر وجماعتـه كلها، وأمر صـاحب بيروت بالين ابن فيليـب دي نوفار وقال لـه:«إذا وجدت والدك قد قتـل، اقتلهم جميعاً بيدك» .

١٨٩ : وعندمـا أكمل فيليب دي نوفـار هذه الاتفاقيات، وعقـد هذه العهود مع الذين كانوا في القلعة، خرج من القلعة، وروى أخبار جميع ما صنعه، وتمت الموافقـة على ذلك كله، وجرى تنفيـذه بسرور عظيم، وإرادة طيبة، ورغبة كبيرة، وزيد على ذلك عطـاءات كثيرة لم يكن فيليب قد أتى على ذكـرهـا في الميثـاق، وخـرج الجميع في الصبـاح التـالي مـن القلعـة، وأعطى فيليب دي نـوفار القلعة إلى صاحب بيروت وإلى صـاحب تورون الذي كـان عليه القيام بحـراسة الحصـن، وذلك وفقاً لما جـاء في المواثيق التي عقدت في عكا بين الملكة أليس وبينهما، وقاد السير جون دي إيبلين

اللومبارد الذيـن كانوا هناك إلى المكان الذي رغبوا بالـذهاب إليه، وهكذا اجتـث عش شر اللـومبـارد وأطيـح به ورمـي جـانبـاً، وهكذا لم يعـودوا يمتلكـون أيـة قـوة في سـوريـة أو في قبرص، وعلى هـذه الصـورة جـرى الاستيلاء على مدينة صور وعلى القلعة في سنة ١٢٤٢ (١٢٤٣)(٢٧٤) .

(وعاش ملـك قبرص والبيت الإيبلينـي بعد هذا مـدة طويلـة بمجد عظيم، وحكمـوا مملكتي قبرص والقدس، واحتفظـوا بهما بأحـوال جيدة، مرفوقة بشكر جميع الناس، ذلـك أنهم عرفوا كيف يحافظوا على حقوق كل واحد بوساطة إخلاصهم، وحسن أخلاقهم وكرمهم نحو الجميع، لكن بما أن الحكاية طـويلة جداً لأن يحاول الانسان أن يحكي كـل الذي فعلوه في حياتهم، سـوف أسكت مـؤكداً لكم أنـه لايوجـد في العالم المسيحي بيتاً أكثر شجاعة من البيت الإيبليني)(٢٧٥) .

الملاحق

الملحق الأول

فقرات من الجزء الأول من كتاب« تاريخ أعمال الحرب»، اعتقد كوهلر أنه مقتبس من الترجمة الذاتية لفيليب دي نوفار، وقد تولى نشره تحت عنوان:« قطعة من ترجمة ذاتية»

١ (٨٢) : حدث أن كان في سنة ١٢٢٣ لتجسيد مولانا يسوع المسيح في مملكة القدس فتاة اسمها إيزابل، ابنة الملك جون دي برين، وقد كانت الوريث الشرعي لمملكة القدس وسيدة لها من خلال أمها الملكة ماريا التي كانت حفيدة الملك عموري، ملك القدس .

٢ (٨٣): وكان لهذه الفتاة النبيلة التي أرغب بالحديث عنها، والتي كانت الوارث الشرعي لمملكة القدس، أخت تزوجت من ملك قبرص، الذي كان اسمه هيوج، وكانت تعرف باسم الملكة أليس .

٣ (٨٤): ووجد في هذه الآونة على هذا الطرف من البحر رجل نبيل كان اسمه جون دي إيبلين، وقد كان صاحباً لبيروت، وكانت لديه في مملكة قبرص موارد عظيمة جداً أتت من قلاعه ومن ممتلكاته الأخرى، وكان صاحب بيروت هذا شجاعاً، وقاسياً جداً، ونشيطاً، وعبقرياً، وأديباً، وصاحب أخلاق حميدة تجاه جميع الناس، ولهذه الأسباب كان محبوباً جداً، ومشهوراً في كل مكان، وكان فوق كل شيء حكيماً، وواسع المعرفة، ورجلاً عالي التقدير، ومخلصاً تجاه الرب .

٤ (٨٥): وكان لصاحب بيروت أخاً اسمه فيليب دي إيبلين، الذي امتلك أيضاً موارد كثيرة وإقطاعات، وكان مثله شجاعاً، ونشيطاً، وكان هذان السيدان خالان للفتاة المتقدمة الذكر، أي ملكة القدس، ولأختها الملكة أليس ملكة قبرص .

٥ (٨٦) : ولقد حدث في هذه السنة(١٢٢٠) أنه جرى تنصيب فردريك ــ الذي يعرف باسم يتيم أبوليا ـ امبراطوراً من قبل البابا هونوريوس، وشرع يحكم بمثابة امبراطور في هذه الآونة، متمتعاً بقوة كبيرة، وشهرة عظيمة، كما وحدث في هذا الحين(١٢٢٢) أن ذهب الملك جون دي بريين إلى البلاط في روما، أي إلى البابا، الذي كان اسمه هونوريوس، واتفق معه أن يقوم البابا المذكور بترتيب زواج الفتاة المتقدمة الذكر، أي إيزابل ملكة القدس، التي كانت ابنته، من الامبراطور فردريك المتقدم الذكر، كما تقدم وأخبرتكم .

٦ (٨٧) : وكان قبل هذا قد بعث الامبراطور رسلاً إلى الملك جون وإلى بارونات مملكة القدس، للإعداد لزواجه من الفتاة المذكورة التي كان قد سمع بأخبارها، غير أنه عندما مضى رسل الامبراطور إلى سورية، كان في الوقت نفسه، قد ذهب الملك جون إلى بلاط روما، وهكذا لم يعرف أي طرف شيئاً عن أخبار الطرف الآخر، وضمن الملك جون موافقة البابا على الزواج المذكور كما سمعتم .

٧ (٨٨) : وتمت الموافقة على الزواج، وأكمل من على الطرفين، وبناء عليه أعدّ الامبراطور مجموعة من الغلايين وسلحها، وذلك بغية الذهاب إلى سورية لجلب الفتاة المذكورة، أي ملكة القدس، وأناب الامبراطور عنه رجلاً عاقلاً وله مكانته، هو أسقف باتي، وإليه أعطى الامبراطور خاتمه، فبذلك الخاتم كان الأسقف سيقوم بتزويج الفتاة المذكورة من الامبراطور، ونالت القضية موافقة الكنيسة المقدسة، وانتدب الامبراطور عدداً من فرسانه والأعيان لديه للسفر على متن الغلايين المذكورة، لمرافقة السيدة المذكورة لدى قدومها، وبعث الامبراطور بهدايا جيدة من أجود المجوهرات إلى السيدة المذكورة، وإلى خاليها، وإلى أقربائها الآخرين، وأقلعت الغلايين وقدمت إلى مدينة عكا .

٨ : وصدف أن كان في تلك الأيام بارون بيروت النبيل وصاحبها، في

عكـا، حيث استقبـل أسقـف بـاتي وفرسـان الامبراطـور الآخـرين بكـل تشريف وترحاب عظيم، لأنه كان مـن أعظم اللوردات أدباً، وكان معتاداً تماماً على مثـل هذه الخدمـات، ويعرف جيـداً كيف يقـوم بأدائهـا، وأمن الإقامـة لهم، مع الخدمات الجيدة ووافـر الحاجيات، وجمع كل البـارونات الذين كـانوا في عكا، وقد تلقـوا رسائل البابا، والامبراطـور والملك جون، وأعطوا الأخبـار اهتماماً جيداً، واحتراماً عظيماً، وأبدوا سرورهـم وغبطتهم نحو أخبار الزواج المذكور .

٩ (٨٩) : وقـام صاحـب بيروت مع أخيـه الـذي قدم مـن قبرص، وأيضـاً جميع بـارونـات سوريـة وقبرص وفـرسانها، والعـامـة والبرجاسيـة والآخرين من الناس بارتداء ثيـاب الفرح، وأعدوا الأشياء الأخرى اللائقة للاحتفال بمثل هـذا الزواج النبيل، وهذا التتويج الرفيـع جداً، وقد بعثوا بالفتاة المذكورة إلى صـور، وهناك جرى تزويجها وتتويجهـا من قبل سمعان رئيس أسـاقفة صور، واستمرت الاحتفـالات خمسة عشر يومـاً، وفي رقص وغناء ونشاطات اجتماعية، وفي تبادل ثيـاب الفرح ومنح الثياب، وأشكال أخرى كثيرة من أشكال الاحتفال .

١٠ (٩٠) : وعندمـا انتهت الاحتفالات في مـدينة صـور، وسط كثير من الأبهة كما هـو لائق ومناسـب لمثل هـذا الزواج الهام بين هـذه الملكة النبيلـة ملكة القـدس وشخصيـة عظيمة هـي شخصيـة الامبراطور، قـام صاحب بيروت الذي هو خالها وأخوه مولاي فيليب دي إيبلين والآخرون من أقربائهـا بتعيين بعض الأشخاص للإرسال مع الملكـة حتى تصل إلى الامبراطور ورتبوا أن يكـون الذين سيرافقونها هم : سمعان رئيـس أساقفة صـور، والسير بـالين صـاحـب صيــدا، وهـو ابـن خـال ألماني للملكـة المذكـورة، وذلك مـع فرسـان آخريـن وأعيان وسيـدات ووصيفات، وقـد رافقوهـا حتى أوصلـوها إلى الامبراطـور فردريـك، لكن خـالها صاحـب بيروت وبعض البارونات الآخرين اكتفوا بمرافقتها حتى قبرص فقط .

١١ (٩١): وعندما حل اليوم الثامن من شهر تموز لسنة ١٢٢٤ (١٢٢٥) حملت الملكة المذكورة نفسها إلى الغلايين العشرين المتقدم ذكرها، التي كان الامبراطور قد أرسلها، ولدى مغادرة الملكة رافقتها أختها(عمتها) الملكة أليس، ملكة قبرص والسيدات الأخريات إلى الشاطىء وهن يبكين، وكأنهن قد شعرن أنهن لن يرينها مرة ثانية، كما حدث بالفعل ولم يرينها، ولدى مغادرة السيدة المذكورة نظرت نحو البلاد وقالت:«أدعك بحفظ الرب، يا سورية الجميلة، لأنني لن أراك مرة أخرى»، وما تنبأت به هو الذي حدث .

الملحق الثاني

فقرات من الجزء الثاني من «تاريخ أعمال الحرب» كان كوهلر قد حذفها لدى إعداده لطبعته لنص فيليب دي نوفار

(٩٩): مضى في هـذه السنة نفسهـا (١٢١٨) جيش سوريـة بوسـاطة البحر، إلى دمياط، وانتزعها مـن أيدي المسلمين، وجاء بعد هذا (١٢١٩) من رومـا إلى عكا المعلـم بيلاغوس، أسقـف ألبانـو، ونائب البـابا، وأمير الرومان.

(١٠٠):واستـولى في سنـة ١٢١٩ بوهيمـونـد صـاحب أنطـاكيـة على أنطاكية وانتزعها من ابن أخيه روبن، بوساطة مؤامرات وليم فارابل Far-abel.

(١٠١): ومات في هذه السنة نفسها ليون ملك أرمينيا (كليكية).

(١٠٢) وتوج امبرطوراً في هذه السنة (١٢٢٠) في رومـا فردريك ملك صقليـة، وكـان ذلـك في كنيسـة القـديـس بطـرس، وبـوسـاطـة البـابـا هونوريوس الثالث، وأظهر فردريك هـذا نفسه عندما كان شاباً، وقبل أن يصبح امبراطـوراً، على أنه رائع جـداً، لكنه بعـدما صـار امبراطوراً بـذل غاية جهده في سبيل ايذاء الكنيسـة المقدسة والحط من شأنها، وفي سبيل تدمير الـرجال النبلاء، وقـد رفع من شـأن الأقنان والرجـال ذوي الأصل الدنيء، واعتنى باللصوص ودافع عنهم وكـذلك عن القتلة وعن آخرين، لأن مثل هـذه الأشياء فعلهـا هو نفسه أكثـر من هؤلاء الآخـرين الـذين دافع عنهـم، وأكبر مما استطاعـوا أن يفعلوه، فقـد كان شريراً بـلا حدود، حتى أنه لم تتـوفر أية شفقة لديـه، وكان خائنا وشريراً، ولايمكـن الوثوق بأي من أيمانه أو وعوده التي قطعهـا على نفسه، وكان متمنعا دوما، لابل نشيطاً جـداً في عدم فـرض احترام الايمان الكاثـوليكي، وقـد قام دون أن يـوفر أحـداً أو يصون كـرامـة الناس أو الكنيسـة، أو الجنس، أو السـن،

بتعذيب الأرامل، والأطفال، والمسنين، والضعفاء، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين بشكل هائل، وبطريقة لم يسمع بمثلها من قبل، فقد حرم هؤلاء من قبله من حياتهم ومن مقتنياتهم، أما النسبة لمسألة الجنس فإنه قد خالف الطبيعة، لذلك تفوق في دعارته على نيرون، وكانت أفعال عهره تفوق الاحصاء، وكذلك أفعال الزنا لديه، فقد كان سدوميا في جميع الأحوال، وقد سجن ابنه هنري، ملك ألمانيا، وهكذا فإنه مات بالسجن، حسبما ستجد خبر ذلك فيما يلي، وقام أخيراً البابا هونوريوس المتقدم الذكر بحرمانه كنسياً، وقاتل ضده كثيراً، حسبما ستسمع حول ذلك فيما بعد.

(١٠٣): استعاد المسلمون في سنة ١٢٢١ دمياط من المسيحيين، وأخذ في هذه السنة وكيل أرمينيا روبن المتقدم الذكر إلى طرسوس، ووضعه في السجن، حيث توفي، وماتت في هذه السنة كونستانس امبراطورة ألمانيا.

(١٠٤): وعاد في سنة ١٢٢٢ النائب البابوي بيلاغوس المتقدم الذكر إلى روما، وذهب معه الملك جون، ملك القدس، والبطريرك رالف، والراهب غورين دي مونتاغيو، مقدم الاسبتارية، وتحادث الملك جون المذكور مع البابا حول زواج ابنته من الامبراطور، وذلك بمباركة من البابا هونوريوس الثالث.

(١٠٥): وتزوج في هذه السنة فيليب بن بوهيموند أمير أنطاكية من ابنة الملك ليون ملك أرمينيا، وتسلم المملكة كلها، وأخذه الوكيل بعدها ووضعه في السجن حيث مات.

(١٠٦) :وكانت في هذه السنة هزة أرضية كبيرة في قبرص، دمرت بافوسPaphos.

(١٠٧):وعاد في سنة ١٢٢٣ البطريرك رالف، بطريرك القدس من روما إلى عكا.

(١٠٨): ومات في هذه السنة الملك فيليب ملك فرنسا، وتوج ابنه لويس ملكاً على فرنسا،وأخذ في هذه السنة لى روشيل La Rochelle.

(١٠٩): وجاء في سنة ١٢٢٣ (١٢٢٥) إلى عكا أسقف باتي، وحمل الخاتم الى ايزابل ابنة الملك جون، ملك القدس، وذلك لصالح الامبراطور فردريك، ومات في هذه السنة (١٢٢٥) البطريرك رالف بطريرك القدس،واختير بعده جيرولد بطريركاً للقدس.

(١١٦): وجرى في سنة ١٢٢٥ تتويج ايزابل ابنة الملك جون ملك القدس في صور،وعبرت بعد هذا البحر لتتزوج من الامبراطور فردريك، وقد ذهبت إلى هناك مع سمعان رئيس أساقفة صور ومع بالين صاحب صيدا.

(١١٨): وجاء في سنة ١٢٢٦ (١٢٢٧) من عبر البحر الكونت توماس، من جهة الامبراطور فردريك، وصار وكيلاً في عكا.

(١١٩): وبدأت في هذه السنة أعمال بناء قلعة مونتفورت (القرين) من قبل رهبان فرسان التيوتون، وهي قلعة في سورية في مملكة القدس، ومات في هذه السنة (١٢٢٦) الملك لويس ملك فرنسا، وجرى بعده تتويج ابنه لويس، الذي أدار المملكة بتقوى وسلام طوال حياته.

(١٢٠): ومات في سنة ١٢٢٧ البابا هونوريوس الثالث المتقدم الذكر، الذي شغل كرسي روما لمدة عشر سنوات، وستة أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً.

(١٢١): وصار بعده البابا غريغوري التاسع، وهو قد ولد في شامبين في مدينة أنيان Anaine، وقد اختير في سبتيسوليوم Septisolium في اليوم الثامن من آذار بعد عيد القديس جورج، وقام بتطويب القديس فرانسيس، والقديس أنثوني، والأخوة الصغار، والقديسة ايزابل الألمانية، التي كانت زوجة اللاندغريف، وقد اختصر مختلف مصنفات المراسيم،

وأضاف أوامره، بحيث أن أشياء كثيرة كان مشكوكاً بها باتت جلية، وتولى حرمان الامبراطور فردريك كنسياً مرتين وفي مناسبتين، وشن الامبراطور الحرب لمدة طويلة ضده، وقد شغل كرسي روما لمدة أربعة عشر عاماً وستة أشهر وثلاثة أيام، وقدم في هذه السنة من روما إلى عكا البطريرك جيرولد بطريرك القدس، الذي كان نائباً عاماً للبابا، وجاء أيضاً دوق ليمبورغ Lemburg ، وأسقف وينشستر، وأسقف اكسيتر، والسير جوفيان الذي خدم الامبراطور لبعض الوقت، حسبما تحدثنا من قبل، وقد جاء انذاك عائداً من عبر البحر إلى قبرص.

(١٢٤): وتوفي في هذه السنة (١٢٢٧) الراهب غورين دي مونتاغيو، مقدم فرسان القديس يوحنا.

(١٢٥): وبنيت في هذه السنة قلعتا قيسارية وصيدا، وتوفي في هذه الآونة كورودين (الملك المعظم عيسى) سلطان دمشق.

(١٥٧): وبنى في سنة ١٢٢٩ البطريرك جيرولد برجين في يافا مقابل عسقلان، كما أعيد بناء كنيسة الضريح المقدس، وجاء بطريرك أنطاكية إلى عكا بمثابة نائب لبلاط روما، وانتزعت بعد هذا نيابة البابا من بطريرك (القدس) بوساطة الامبراطور فردريك الذي تشكاه إلى البابا، ولهذا ذهب إلى روما واسترد استلام وظيفة النيابة البابوية طوال بطريركيته.

(١٩١): وعندما طال أمد القتال كثيراً، لم يعد بامكان الأبوليين التحمل أكثر، فقد تلقوا خسائر كبيرة وأضراراً فادحة، لذلك تخلوا عن أرض المعركة، ومضوا متعبين عبر الممر إلى سيرينا، ولاحقهم القبارصة، وطاردوهم، وظلوا يتشابكون معهم ويتبادلون الطعن والضرب معهم حتى أبواب سيرينا، حيث أعادوا تجميع أنفسهم بعد صعوبات جمة، وبعد ما ربح القبارصة المعركة، واستولوا على الميدان، وطاردوهم حسبما سمعتم، عادوا إلى مكان كان عبارة عن أرض منخفضة عند سفح

الجبل، وهناك عسكروا.

(١٩٢): ورأى رتشارد فيلنغر قائد جيش اللومبارد أنه قد حوصر، وأن ليس لديه ما يكفي من الرجال أو الطعام، لذا عقد اجتماعاً للتشاور وبعث إلى بافوس لجلب السفن التي كانت هناك، وعندما جاءت السفن إليه، انتخب الرجال الذين أرادهم أن يبقوا في سيرينا، وصعد هو والآخرون ظهور الغلايين، وتوجهوا إلى أرمينية (كليكية)، ووصلوا إلى طرسوس، واستقبلهم هناك الملك هيتوم وأبوه قسطنطين، ورحبوا بهم ترحيباً كبيراً، وقد مكثوا مدة طويلة في تلك البلاد، وأصابهم الطاعون هناك، ولذلك مات عدد كبير منهم، ووقع عدد أكبر مرضى، وعندما رأوا أنهم لايمكن لهم الاستمرار أحياء في تلك البلاد، لذلك غادروها وقدموا إلى صور.

(١٩٣): وما أن ذهب الذين سمعت عنهم، وغادروا سيرينا للتوجه إلى أرمينيا حتى عسكر الملك هنري ورجاله قرب أسوار سيرينا، وهكذا أقاموا ملاصقين للأسوار إلى حد أن مامن انسان كان قادراً على الخروج أو الدخول، ونتيجة للمعركة التي وقعت قبيل قليل بقي الملك هنري يتمتع بسلطانه بسلام ودونما ازعاج، وكذلك فعل الرجال الذين كانوا معه، واستمر الحصار أمام سيرينا حتى ما بعد عيد الفصح، وقد انتهى أخيراً بقيام الملك هنري باطلاق سراح جميع الأسرى الذين أخذهم في صور، والذين أخذوا في قلعة ايمبرت، وكذلك جميع السيدات اللائي اعتقلن في نيقوسيا في الكنائس وفي بيوت الرهبانيات، عند قدوم (اللومبارد) إلى البلاد، وبذلك جرى تسليم قلعة سيرينا إلى الملك وإلى صاحب بيروت في سنة ١٢٣٣.

(١٩٤): وفي هذه الآونة، أي أثناء استمرار الحصار أمام سيرينا، حدث للملكة أليس زوجة الملك هنري، وابنة مركيز أوف مونتفرات، والتي كانت تعرف باسم اللومباردية، لأن الامبراطور كان قد أعطاه

إياهـا، وكانـت قد وضعـت نفسها في قلعـة سيرينا مـع الأبولين، وتحت إمرة الامبراطور، حدث أن أصيبـت بداء عضال، وبذلك ماتـت، وعندما ماتت قام الذين كانوا في داخل سيرينا بالباسها كما ينبغي إلباس الملكة، ثم طلبـوا الأمان لارسال رجـل ليتحدث مـع الملك، وجاء الـذي حصل على الأمـان إلى الملـك، وأخبره أن زوجتـه الملكـة قـد انتقلـت مـن هـذه الحياة، وأن الذيـن كانوا في الداخل يـرسلون إليه رسالة أنـه إذا ما تفضل وتسلمها للقيـام بدفنهـا بما يتناسـب معها كملكـة، وأنه ينبغـي أن يفعل ذلك لها لأنها زوجتـه، ووافق الملك، وأعطيت هـدنة بأن لايقوم بـاطلاق النشاب أو رمـي الحراب من الخارج أو من الـداخل في أثنـاء حمل الملكة إلى معسكـر الملك، ثـم وضعها الـذين كـانوا في سيرينـا خارج القلعـة، وتسلمها الذيـن كانوا من معسكـر الملك، وحملت بعد ذلـك إلى نيقوسيا في مـوكب عظيـم على أيدي الفـرسان وهـم جميعاً يسيرون على الأقـدام، وأدخلت بكل تشريف إلى كاتدرائية كنيســة القديسة صوفيا، وتولى رئيس الأساقفة يوستوريو دفنها.

(٢٠٣): وذهبت الملكـة أليس ملكة قبرص في سنة ١٢٣٢ إلى فـرنسا لاسترداد مقاطعة شامبين.

(٢٠٤): وتعرض البطريرك جيرولد للتهمـة في روما من قبل الامبراطور فردريـك، وانتزعت منه سلطـة نيابة البابـوية، وبناء عليه ذهـب إلى روما واسترجع النيابة البابوية لتكون في بطريركيته بشكل دائم.

(٢١٠): ثـم عادت الملكـة أليس ملكـة قبرص سنـة ١٢٣٥، بعدمـا استردت مقاطعـة شامبين، وقـد وصلت من بـلاد ماوراء البحـر إلى عكا سالمة وصحية.

(٢١١):: ذهـب في سنـة ١٢٣٦ صـاحب بيروت وابـن أختـه جـون صاحب قيساريـة وفرسان الاسبتارية وفرسان الداويـة لحصار مونتفيراند،

وقدموا لـلاسبتـارية مجداً كبيراً، وخـدمة عظيمـة، وعـادوا بعد ذلـك إلى قبرص مع كثير من البهجة، وكانوا في سلام عظيم، وحالة جيدة.

(٢١٣): وحدث في هـذا الموسم في سنـة ١٢٣٩، أن بدأت في مملكـة فرنسـا حركة صليبيـة عظيمة للذهـاب إلى الارض المقدسة، وذهـب عدد كبير من الصليبيين عبر مرسيلييـا، وذهب آخرون عبر برنـديزي، وكان في هذه الحركـة ثيبوت ملك نـافار، الذي كـان كونت شـامبين، وهيوج دوق بيرغندي، وبيتر دي دروكس Dreux الذي دعي بـاسم بيتر موكليرك Mauclerc ، كونت أوف بريتاني، وجون دوكـس أوف ماكون، كونت أوف فورزForez وكونت أوف نيفر Nevers، وهنري كونت أوف بار لى دوك Duc ، وعمـوري كـونـت أوف مونتفـورت، وعـدد كبير آخـر مـن الأعيـان، ومن هـؤلاء ذهـب كونـت أوف بار، وكـونـت أوف مونتفـورت وجماعتاهما من مـرسيليا، وعرفت هـذه الصليبية باسم صليبيـة البارونات، لأنه وجد بها عـدد كبير جداً من البارونات حسبما سمعت، وعنـدما قدم هؤلاء البارونات ووصلوا إلى عكا في يوم عيـد القديس جايل (صنجيل)، الذي يقـع في اليوم الأول من شهـر ايلول، كـان هناك حوالي الألـف من الفرسان، وقـد عسكروا في أرجاء المدينة وخارجهـا على السابلون Sabe-lon، وعقـدوا هناك مـؤتمراً، واتفقـوا على الـذهاب نجـدة إلى عسقـلان، وركبوا وانطلقـوا إلى يافا، ومعهم شعـب البلاد، وعندما وصلـوا إلى هناك أخبرهـم جاسـوس بأن هناك ألف من الترك معسكريـن في غزة، وأن اسم أميرهـم وقائدهـم ركـن الديـن، وعندمـا سمـع الصليبيون بهذه الأخبـار اتفقـوا على أنهم يحتـاجـون إلى أربعمائة فارس لهذا الغـرض، وبنـاء عليـه انطلق كونـت أوف بار لى دوك، وكونت عموري أوف مـونتفورت، وبالين صـاحـب صيدا، ويـودس دي مـونتبليـارد، وجون دي إيبلين صـاحـب أرسوف، وغادروا يـافا في مطلع الليل، وسـاروا وبذلك كانـوا عند الفجر تقريبـا قرب غـزة، وتسلحوا، وزحفـوا على شكل أرتـال إلى المكان الـذي

كـان فيه الترك، وعنـدما رآهـم الترك ركبوا خيـولهم وتراجعـوا نحو رابيـة صغيرة، وعقد هناك ركن الـدين اجتماعاً مع رجاله حـول ما الذي ينبغي عليه القيـام به، وقد أشـاروا بوجـوب الابتعاد عن هنـاك وضرورة المغادرة لأنه ليس لديه ما يكفي من الرجال للقتال ضدهم، وأجابهم ركن الدين بأنـه سوف يغـادر في الوقت المنـاسب لـه، غير أنه سوف يبعـث برجـاله المسلحين بشكل ثقيـل ليكتشفوا أوضـاع الأعداء وأحـوالهم، ثم إنـه نفذ ماقـاله، وأرسـل مائتين مـن أتراكه ليتنـاوشوا معهـم، وحدث أنـه ما أن وصـل المنـاوشـون إلى الصليبيين حتـى بـدأوا بـالتراجـع، وهنـا شرع الصليبيـون بـالدوران ومـن ثـم الاصطـدام ببعضهم بعضـاً، ورأى ركـن الديـن الاضطراب والفـوضى السيئة للصليبيين، وبنـاء عليه انحـدر من الرابية حيث كـان، وزحف بسرعة كبيرة نحو موقع القتـال، وما أن وصل حتى انقض هو ورجاله بجرأة متنـاهية، وضربوا في وسط الفرنجة، بسبب المظهـر السيء الذي رأوه، وأوقعـوا فيهـم أضراراً بـالغة، وهكـذا خضـع الصليبيون بشكل فـوضوي، وبدون اتفاق بالرأي إلى الهزيمـة، ونجا منهـم الـذيـن استطاعـوا الفـرار، وأسر المسلمـون هنـاك عموري كـونـت أوف مونتفـورت، وقتل هناك هنري كـونت أوف بارلى دوك، وكان هنـاك عدداً كبيراً مـن الفـرسـان الـذي قتلـوا أو أسروا، وتـم فقـدان جميـع الـداويـة والاسبتـارية وبقيـة الرجـالـة، كما أن معظم العتـاد والتجهيزات فقـدت، ووصل الـذين نجوا مـن القتال إلى عسقلان، ووجـدوا هناك ملك نـافار وكـونـت أوف بـريتـاني، وجيشهما كله، ومـا أن وصلـوا إلى هنـاك حتـى استبدبهم خـوف عظيم، وشعروا جميعـا، وبدا لهم أن المسلمين بـاتوا على الابواب ولسوف يأسرونهم جميعا، ولذلك مـا أن حل الظلام وباتت الدنيا ليلاً حتـى انطلق كل منهـم نحو يافا بـدون نظام أو تلقي أوامـر وبدون انتظـار بعضهم بعضـاً، وبتراجعهـم على هـذه الصورة وكـأنهم مهـزومين تركـوا كميات كبيرة مـن الأطعمة والتجهيـزات، وعندمـا وصلوا إلى يـافا مكثوا هنـاك لبعض الوقـت فقط، وفي الحقيقـة غادروها إلى عكـا وساروا

بدون توقف حتى وصلوا إلى هناك، وقد مكثوا هناك لمدة طويلة دون أن يقوموا بأي شيء مفيد، وكان من بين الذين نجوا من هذه المعركة بين آخرين من رجال البلاد، بالين صاحب صيدا، وفيليب دي مونتفورت، وجون دي إيبلين، صاحب أرسوف، ويودس دي مونتبليارد، وعدد كبير آخر من الحجاج.

(٢١٤): وكان في هذه الآونة رجل دين في طرابلس اسمه«وليم»، وكنيته « دي شامبين»، غير أنه كان قد ولد في طرابلس، وكان على معرفة عظيمة بصاحب حماة، وقد خدمه مراراً، وقد جاء إلى جيش ملك نافار، وقال للبارونات بأن سلطان حماة قد أرسل إليهم رسالة، بأنهم إذا مارغبوا بالقدوم إلى بلاده، حيث يتمكن من نيل قوة الصليبيين وعونهم، فإنه سوف يضع في أيديهم قلعته وسيصبح مسيحياً، وحول هذا الموضوع بعث إليهم رسالة يترجاهم فيها ويقول كل شيء يتوقف عليهم، إذا ما رغبوا بالوصول إلى هذه الغاية، وبناء عليه غادر الجيش عكا وزحف على طول الساحل حتى وصل إلى طرابلس، ووقف هناك، وعسكر رجاله أمام المدينة في أسفل تلة الحجاج، وبعثوا من هناك برسل إلى سلطان حماه برفقة رجل الدين وليم المتقدم الذكر لمعرفة فيما إذا كان يرغب بالاستمرار في الأشياء التي أرسل رسالة من أجلها وإكمالها، واصطنع السلطان معاذير بأن طلب عقد مواثيق، وشغلهم لبعض الوقت بالكلمات، غير أنه في النهاية تخلى عنهم وخذلهم في كل شيء، مثله مثل انسان لم يفعل شيئاً سوى أنه هزأ بهم، والعذر الذي قدمه هو أنه تراجع من خلال خوفه من صاحبة حلب، أم السلطان، التي كانت في حالة حرب معه، فقد كانت هذه السيدة متملكة للسلطةفي حلب، لأن ابنها ، سلطان حلب، كان دون السن القانونية، وعندما بات الصليبيون مدركين للخداع وللغش الذي مارسه سلطان حماة، وبعدما مكثوا لبعض الوقت أمام طرابلس، حيث احتفى بهم بوهيموند أمير أنطاكية احتفاء عظيماً،

واحتفل بـوجودهـم، غادروا وعـادوا إلى عكا، غير أن جـون كونـت أوف ماكـون مات في طـرابلس، ودفـن هناك في واحـد من بيـوت الرهبـانيات الدينية.

(٢١٥): وعندمـا عاد حجاجنا إلى عكـا، لم يمكثوا هناك وقتاً طـويلاً حتـى ذهبوا لـلإقامـة في بيت الـرعايـة في حيفا بغيـة تمكين خيولهم مـن الرعي، وعنـدما لم يعد هناك مـرعى، ذهبوا للإقـامة قرب نبع الصفـورية، وفيما هم هناك جاءهـم رسول من عند سلطان دمشق للبحـث معهم من أجـل إبرام هـدنـة، وكان اسـم هـذا السلطـان الصالـح، وكـان مايـزال صاحـب بعلبك، وهـو ابن سيـف الديـن العادل، وتطـورت الأمور على الجانبين، وهكـذا أعـدت الترتيبـات بين السلطـان والصليبيين، وتخلى بـوساطـة هـذه المعـاهدة عـن قلعتـي بلفورت وقلعـة صـافيتـا لصالـح الداوية، وسلـم كذلك جميع الأراضي العائدة للقدس، وهـي التي بحوزة الفـرنجة، وذلـك امتداداً مـن الساحـل إلى نهر الأردن، وعقد الصليبيـون ميثاقاً معـه بأنهم سوف لن يعقـدوا معاهدة أو يقيموا صلحـاً مع سلطان القاهرة بدونـه وبدون موافقته، وأنهم سوف يذهبـون للعسكرة في عسقلان أو في يافا مـع قواتهم كلها، للحيلولة دون سلطـان مصر، ولمنعه من المرور خلال تلك الأراضي والبلاد عمـوماً ، ومن ثم الذهاب إلى سـورية، وكان على السلطان المتقـدم الذكـر العسكرة على مقـربة منهـم حيث ينبـع نهر يافا، وأقسم على جميـع هذه المعاهدات التي سمعتم عنهـا، جميع بارونات الجيـش، كما أقسـم عليها السلطـان مـع جميـع أمـرائه، وبموجـب هـذه الموافقة سلم إليهم قلعة بلفورت وكذلك أراضي صيدا وطبرية .

(٢١٦): وعندما اكتمل التحليف على المعـاهدة، كما سمعتم، ذهب الصليبيون للعسكـرة قرب يـافا ومعهم سلطـان دمشق، وصـاحب حمص أيضاً، وقدعسكروا عنـد نبع النهر مع جيشهم كله أيضـاً، وجرى الإعداد لهذه المعاهدة التي سمعتم عنها وإبرامها من قبل الداوية، وبدون موافقة

فرسان مشفى القديس يوحنا، وبناء عليه رتب فرسان القديس يوحنا لأن يعقد سلطان مصر معاهدة معهم ومع جزء من الصليبيين ، وحلف على هذه المعاهدة ملك نافار، وكونت بريتاني، وعدد كبير آخر من الحجاج، دون إقامة أي تقدير لليمين الذي حلفوه وعقدوه مع سلطان دمشق، وهكذا عقدت تلك المعاهدة وفق الطريقة التي سمعتم عنها وغادر يافا وذهب إلى عكا كل من ملك نافار، وكونت بريتاني والحجاج الآخرون الذين حلفوا على هذه المعاهدة مع سلطان مصر، وفي عكا أمنوا سفناً لعبور البحر إلى بلدانهم، أما مقدم الاسبتارية الراهب بيتر دي فيلابرايد، الذي حلف على هذه المعاهدة، ولم يحلف شيئاً إلى سلطان دمشق، فقد غادر يافا مع فرسانه كلهم، وقد ذهب إلى عكا، وبقي هناك، وبقي رجال البلاد والداوية وكونت نفري وجزء من الحجاج، في يافا، ولم يرغبوا في خرق المعاهدة ولا الانسحاب من المواثيق التي عقدوها مع سلطان دمشق، وأوجد هذا بين صفوف الصليبيين حالة تمزق وعدم اتفاق، ذلك أن بعضهم ارتبط بمعاهدة، وبعضهم الآخر بمعاهدة أخرى .

(٢١٧): ومات في هذه السنة السير بالين صاحب صيدا .

(٢١٨): وفي ذلك الوقت الذي كان فيه الحجاج في عكا، تزوجت الملكة أليس، ملكة قبرص من نبيل فرنسي كان اسمه سير رالف دي سواسون، وكان هو أخ لكونت أوف سواسون .

(٢١٩): ومجدداً وصل إلى عكا في سنة ١٢٤٠ اللورد رتشارد أوف كورنوول Cornwall وكان أخاً للملك هنري ملك إنكلترا، وقد قاد كوكبة ممتازة من الفرسان، وقد حملوا معهم مقتنيات كثيرة، وأقام عندما جاء إلى عكا في بيت مشفى فرسان القديس يوحنا وبعدما أقام هناك لبعض الوقت جهز فيه رجاله وألبسهم، ذهب إلى يافا وأقام مع الصليبيين الآخرين الذين كانوا هناك، وفيما هو هناك ضغط عليه

الداوية حتى يـأخذ بمعاهدتهم ومواثيقهم مـع سلطان دمشق، وأن عليه أن يحلف عليها، وطلب منه الاسبتاريـة وحثوه على الأخذ بمعاهدتهم مع سلطان مصر، وتحدثـوا معه في عكا كثيراً حتى أنـه لم يرغب بالـوقوف إلى جانب ضد الآخـر، ولهذا قال إذا ما رغب الصليبيون الذين كـانوا في يافا بـالمعسكـرة في عسقـلان، فهـو على استعـداد لتحصين القلعــة، وعقـد بارونات الجيش والـداوية والاسبتارية والتيوتون مـؤتمراً للتشاور، وقالوا إن ما اقترحـه يتماشى مـع المعاهدة التـي عقدوها مـع سلطان دمشـق،وهي مربحـة للصليبيين، وعلى هذا تـوافقوا، وانطلقوا مـن يافـا، وعندمـا أمنوا العمال وكـل ما يحتـاجونـه للعمـل، ذهبوا إلى عسقـلان، ولدى وصـولهم إليها، وضعوا تجهيزاتهم، وانطلقـوا نحو العمل، وتمت أعمال تحصين قلعة عسقلان، وفق طريقة الملك رتشارد ملـك إنكلترا، الذي هو عم للكونت رتشارد هذا، الذي تولى الآن تحصينهـا، وأكمل تحصينها وجهزها على خير ما يمكنـه، ومن ثـم بعث إلى القدس فـارساً اسمـه وولتر بينبناي -Pen nenpie، الـذي كان وكيـلاً هنـاك للامبراطـور فـردريـك، وكان يحكـم القدس وفقـاً للمعاهدة وللشروط المبرمـة مع سلطان مصر، ومـا أن وصل وولتر بينبناي هذا إلى عسقـلان، حتى سلم الكونت رتشـارد القلعة إليه، وجعله حـاكماً لها مسؤولاً عن حمايتهـا لصالـح الامبراطور، وبعدمـا صنع الكـونت رتشـارد أوف كـورنوول هـذا، وافق على المعـاهـدة المعقودة مـع سلطـان مصر، وتمكن بـذلـك من إطـلاق سراح الكـونت عمـوري أوف مونتفـورت والفرسان الآخـرين الذيـن كان ركن الـدين قد أسرهـم لدى إلحاقه الهزيمة بالصليبيين عنـد غزة، وبعدما عمل هذا كلـه عاد الكونت رتشارد إلى عكـا، وأمّن سفنه وعاد إلى بـلاده في هذه السنة نفسهـا، وكان حيثما ذهب جيـش الفرنجة ذهب سلطـان دمشق، وعسكر إلى جـانبهم، وبعدمـا أمضى الحجـاج وقتاً في يافـا، وأعني الحجاج الـذين مكثـوا بعد ذهاب الآخريـن، رغبوا الآن في العودة إلى بلدانهم، وبنـاء عليه ذهبوا إلى عكا، وأمّنـوا هناك سفنهـم، وسافـروا عائديـن، وقام الصليبيـون الآخرون

كلهم بالعودة آنذاك إلى عكا .

(٢٢٠): وشرع في سنة ١٢٤١ جون دي إيبلين صاحب بيروت بتحصين قلعة أرسوف.

(٢٣٠): ووضع رتشارد فيلنغر نفسه في سفينة مع مقتنياته وأناسه وبقية رجال الامبراطور الذين كانوا في القلعة، وعبر إلى أبوليا، وبمجرد وصوله وضعه الامبراطور بالسجن هو وهنري وجون أوف سورنتو -Sor rento ابن أخته، وقد بقيوا في السجن مدة طويلة حتى أطلق سراحهم بوساطة الكونت ريموند أوف طولوز، وذلك حسبما ستسمعون حول ذلك فيما بعد .

(٢٣١): وذهب لوثير أخو رتشارد فيلنغر المتقدم الذكر إلى أمير أنطاكية، الذي استقبله بترحاب كبير، ومنحه زواجاً نبيلاً، وسيدة ثرية في أنطاكية، حيث عاش بشكل جيد حتى موته .

(٢٣٢): وطلب رالف دي سواسون من السير بالين صاحب بيروت ومن السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، منحه مدينة صور لنفسه وللملكة أليس زوجته، ذلك أنه رغب في نيلها بالطريقة نفسها التي نال بها بقية الأشياء العائدة لمملكة القدس، وأجاباه أنهما لن يسلماه إياها، ولن يوكلاها له، بل سوف يتوليا حمايتها حتى يعلما إلى من عليهما تسليمها، ورأى السير رالف آنئذ أنه لايمتلك قوة ولا سلطة وما هو إلا مجرد خيال، ونتيجة لهذا الاستخفاف والإهانة التي واجهها في هذه القضية، تخلى عن كل شيء، وترك الملكة زوجته، وذهب إلى بلاده، وقال بعضهم بأن هذا الطلب قد تقدم به السير رالف سواسون والملكة أليس أمام قلعة صور قبل الاستيلاء عليها، لكن سواء أكان ذلك قبل الاستيلاء أو بعده، لم ينالا أبداً ما طلباه .

كيف ذهب الكونت ريموند أوف طولوز إلى روما يطلب

التحليل من البابا غريغوري

(٢٣٣): وذهب في هذه الآونة الكونت ريموند صاحب طولوز إلى روما، فهو كان متهماً بالهرطقة ومحروم كنسياً لهذا السبب، واستهدف تطهير نفسه وإلغاء حرمانه كنسياً وتحليله من قبل البابا غريغوري، واستقبله البابا بلطف بما فيه الكفاية، وبعد كلام كثير رسم البابا وجوب تحليله، وعهد بأعمال تحليله إلى رئيس أساقفة القديس نيقولا أوف باري، الذي كان آنذاك في روما، وكان رئيس الأساقفة هذا كاهناً عظيماً، ورجلاً حكيماً، وواحداً من الرجال النبلاء للملكة، ذلك أنه كان أخاً ألمانياً للسيررتشارد فيلنغر، الذي سمعت الحديث عنه من قبل، وقد أصبح على صلة وثيقة مع كونت طولوز، وعدّ الكونت نفسه مداناً له .

(٢٣٤): وحدث أن استأذن كونت طولوز من البابا المذكور وودعه ليذهب ويرى الامبراطور، لأنه امتلك - كما قال - رغبة عظيمة لأن يعمل على إيجاد اتفاق ما بين البابا وبين الامبراطور، وعندما حان الوقت لمغادرته روما ترجاه رئيس أساقفة باري كما طلب من عدد من الكرادلة أن يترجوه ليعمل على إطلاق سراح أخويه وابن أخته الذين كانوا في سجن الامبراطور، ووافق الكونت بترحاب ووعد أن يفعل كل ما يمكنه، وعند ذلك ذهب الكونت إلى أبوليا واستقبل بترحاب عظيم وعومل معاملة مشرفةمن الامبراطور، وبقي هناك لبعض الوقت، وتباحث مراراً هو والامبراطور، حول ما كان يرضيهما، أما بشأن المصالحة فيما بين الامبراطور والكنيسة فإنه لم يكن قادراً على فعل شيء، لذلك تخلى عن الموضوع، ثم إنه طلب من الامبراطور منحه هدية حسب طلبه، ووافق الامبراطور، وعلى هذا طلب منه رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخته الذين كانوا في السجن، وأزعج طلب الكونت هذا الامبراطور كثيراً، وود كثيراً لو أن الكونت توقف عن هذا الطلب، واتهم السير رتشارد فيلنغر وصحبه بتجاوزات عظيمة وجرائم كان قد اقترفها بحق امبراطوريته،

وفعـل هذا كلـه لعـل الكونـت يتـوقف عـن القيـام بهذا الطلب، ولكـن الكونـت ما كان ليتخلى عـن طلبه مهما كان الأمـر، وتمسك به بقـوة حتى أمر الامبراطور بـإخراجهم من السجن، وأعطاهـم إلى الكونت، على شرط أن يغـادروا مملكتـه تماماً، وشكـره الكـونـت، ثـم قـام الكونـت بتـوديـع الامبراطور وعاد إلى بـلاده، آخذاً معه السير رتشارد فيلنغر مـع أخيه وابن أخته، وأعطاهم هناك إقطاعية فرسـانية جيدة، وقد مكثوا هناك حتى جاء الوقت الذي خلع فيه فردريك من قبـل البابا أنوسنت الرابع، ومات وهو محروم كنسياً حسبما سوف تسمع حول ذلك فيما بعد .

(٢٣٥): وانتهى هـذا الكتاب في يـوم الأربعاء في اليـوم التاسـع من نيسان من سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين لتجسيد المسيح .

(٢٣٦): وقـد كتب مـن قبـل جون لى ميـج Miege سجين مولاي عموري دي ميمار Mimars، والموقوف في قلعة سيرينا .

الملحق الثالث

اقتباسات تتعلق بصليبية فردريك الثاني من :

Breve chronicon de rebus siculis a robert guiscardi temporibus Inde AD Annum 1250"(Huillard - Breholles,Historia diplomatica Friderici Secundi (897 - 904)

في سنة ١٢٢٧ لتجسيد ربنا، وفي شهر أيلول، وفي أوله، قام السيد الامبراطور باستعدادات عظيمة، ورغب في عبور البحر مع الجيش الصليبي الذي كان يقوم في ذلك الحين بحشده من جميع أرجاء العالم في برنديزي، ولأنه هوجم بالمرض لم يستطع العبور، ومع ذلك لم يؤخر إرسال الجيش، بل أرسله مع بطريريك القدس، الذي كان مسرعاً يود الوصول إلى سورية بمثابة نائب للبابا وللكنيسة الرومانية، لكنه هو نفسه قد مكث مريضاً في أوترانتو، وهي مدينة في أبوليا، وقام في الشهر التالي، وهو تشرين الثاني، في السنة نفسها، البابا غريغوري، الذي خلف البابا هونوريوس، بجمع كل أساقفة إيطاليا، بعد مضي ثمانية أيام على عيد القديس مارتن، في هذا الشهر نفسه، في روما، في كنيسة القديس بطرس، وهناك تولى حرمان الامبراطور فردريك كنسياً لأنه لم يذهب، وقام الجيش الصليبي الذي عبر إلى سورية في العبور نفسه ببناء قلعتي صيدا، وقيسارية .

وفي سنة ١٢٢٨ لتجسيد الرب، وفي شهر نيسان، في مطلعه، ولدت الامبراطورة إيزابل التي هي زوجة الامبراطور فردريك، وابنة الملك جون، ولداً ذكراً كانت قد حملت به من زوجها الامبراطور فردريك، وحدثت الولادة في أندريا، وهي مدينة في أبوليا، وعندما علم الامبراطور ـ أبوه ـ بولادته، وكان آنذاك في ترويا Troya وهي مدينة في أبوليا، منحه اسم كونراد، وعلى كل حال انتقلت أمه بعد ولادته بعشرة أيام إلى الرب،

وكان ذلك في مدينة أندريا نفسها، وحضر مراسم دفنها جميع أساقفة مملكة صقلية، وذلك بسبب أن الامبراطور نفسه كان يرغب في العبور إلى سورية، حتى يتمكن من الوفاء بعهده، وفي الحقيقة انطلق السيد الامبراطور من ميناء برنديزي، وكان ذلك في شهر حزيران التالي من هذه السنة نفسها وفي الخمسعشرية نفسها، وحدث هذا بعدما جمع بعض السفن من مملكته الصقلية، وعندما انطلق كان معه أربعين من الغلايين، وكان ذلك عشية عيد القديس بطرس، أي في شهر حزيران المذكور أعلاه(٢٨ حزيران)، ووصل في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس نفسه إلى أوترانتو، وهي مدينة في أبوليا، ثم غادرنا أوترانتو في مساء ذلك اليوم، ووصلنا في اليوم التالي إلى جزيرة رومانيا التي تدعى أوثرون Othronos(فانو Fanu)، وغادرنا من هناك في اليوم التالي (١ ـ تموز)في حوالي الساعة السادسة، ووصلنا إلى جزيرة وقلعة تدعى كورفو، وتأخرنا هناك حتى المساء، ثم أبحرنا، ووصلنا في اليوم التالي بعد غروب الشمس إلى ميناء غويسكارد، واسترحنا هناك تلك الليلة، ووصلنا في حوالي الساعة السادسة من اليوم التالي إلى جزيرة سيفالونيا، التي كان فيها الكونت لورد مويان Maione، الذي كان من أبوليا، وغادرنا ذلك المكان عند حوالي غياب الشمس، وقد ثار البحر كما هو المعتاد، ووصلنا في اليوم التالي(٤ ـ تموز) في حوالي الساعة التاسعة إلى مودون Modon، وانتظرنا هناك حتى الصباح، وقد غادرنا من هناك قرابة إشراق الشمس، ووصلنا مع المساء إلى ميناء بورتوكاغلاي portocaglie، وبعد المكوث هناك طوال الليل، غادرنا في الصباح ووصلنا في مساء اليوم نفسه إلى جزيرة سيرجو Cerigo، وتأخرنا هناك حتى فجر اليوم التالي حيث غادرنا وأبحرنا نحو كريت، ووصلنا إلى هناك إلى الجزيرة نفسها في حوالي ساعة صلاة العشاء أو قرابة المساء، وكان ذلك إلى مكان يدعى سودا Suda،ومكثنا هناك طوال الليل، وفي الصباح التالي، أي في الثامن من تموز من الخمسعشرية نفسها، ثم شرعنا في العاشر من الشهر نفسه

بالإبحار حول سواحل هذه الجزيرة نفسها، ووصلنا في اليوم الحادي عشر في حوالي الساعة الثالثة إلى إحدى مدن هذه الجزيرة، وتدعى كانديا(الخندق)، وقد نزلنا دونها وبقينا هناك طوال اليوم والليلة، وفي اليوم التالي، أي أن تقول في الثاني عشر من تموز، غادرنا كريت وأقلعنا داخل البحر، ووصلنا في الثالث عشر من هذا الشهر الذي هو شهر تموز إلى جزيرة رودس، ولأننا كنا منهكين بعض الشيء استرحنا هناك طوال ليلة يوم الرابع عشر، وأبحرنا من هناك في ذلك اليوم نفسه، أي أن تقول في الرابع عشر من شهر تموز، ووصلنا إلى المدينة التي اسمها رودس، وكان ذلك في حوالي الساعة التاسعة، ولم ننزل إلى اليابسة، ومع ذلك مكثنا هناك في الميناء النهار كله مع الليل، وغادرنا في الصباح، وأبحرنا على طول ساحل مقاطعة ليكيا Lycia، ووصلنا في المساء إلى مدينة باتارا التي ولد فيها نيقولا معترف الرب، وبقينا هناك طوال الليل، وغادرنا من هناك في الصباح(١٦ ــ تموز)، ورأينا في حوالي الساعة الثالثة مايرا Myra المدينة التي تميز فيها القديس نيقولا خلال معجزاته الربانية، وحيث كان أسقفاً، ووصلنا بعد الساعة التاسعة في اليوم نفسه إلى فينيقيا، حيث وجدنا ماء بارداً جداً بكميات عظيمة، قادماً من أنهر كبيرة، ومكثنا هناك ذلك اليوم واليوم التالي(١٦ ــ ١٧ تموز)، وأرحنا أجسادنا بعض الشيء، وشرعنا بعد هذا في يوم الثامن عشر من الشهر نفسه بعد إشراق الشمس بالابحار نحو جزيرة قبرص، وعبرنا البحر في اليوم العشرين من الشهر نفسه ووصلنا إلى الجزيرة، ووصلنا في اليوم التالي إلى ليماسول وهي مدينة في تلك الجزيرة، وبعد اليوم الثاني أو اليوم الثالث جاء الملك هنري ملك الجزيرة مع جميع فرسانه إلى عند الامبراطور في ليماسول، ذلك أنه بالنسبة للامبراطورية التي هو من أتباعها يتوجب عليه نحوه أداء الولاء، وفي الحقيقة حدث أنه منذ كان الملك طفلاً أن استولى بعض الناس من جزيرته على كل مقتنياته، ولهذا السبب طلب الامبراطور منهم وجوب تقديم حساب

حول بلاد الملك، وخشي هؤلاء أنه لن يكون بمقدورهم تقديم حساب كامل، لذلك قاموا في اليوم الخامس أو السادس ليلاً بمغادرة خيامهم حيث تركوها وما فيها من حاجيات، وانسحبوا سراً بدون أن نعرف، وقد ذهبوا إلى نيقوسيا، وهي إحدى مدن الجزيرة، وشرعوا في أعمال تحصين لثلاث قلاع موجودة في الجزيرة نفسها قائلين:«لن يبدو ظهورنا أقل من ظهور الامبراطور»، وعلى كل حال عندما رأى الامبراطور هذا بقي في ليماسول حتى يوم السابع عشر من شهر آب التالي، وذلك في الخمسعشرية الأولى، ثم إنه مضى إلى مدينة نيقوسيا المذكورة أعلاه، والتحق بنا أمير أنطاكية النبيل، وبعد البقاء هناك لعدة أيام جاء الذين عصوا عليه، وركعوا عند قدمي الامبراطور، وبعدما قام هكذا بتنظيم المملكة وتلقى أيمان الولاء من الجميع، قمنا في اليوم الثاني من شهر أيلول في الخمسعشرية الثانية، بأخذ الطريق إلى سورية، ووصلنا في اليوم الخامس من الشهر نفسه إلى البترون، ثم اجتزنا بيروت، وصيدا والصرفند، ووصلنا قبل الفجر إلى ميناء صور، ولم نمكث هناك طويلاً، بل وصلنا في ذلك اليوم إلى عكا، ووجدنا هناك الجيش الصليبي الذي تولى بناء قلعتي صيدا وقيسارية، وعندما نزلنا هناك، بدأ الامبراطور يبحث إلى أين يذهب مع جيشه، وبعث في الوقت نفسه سلطان مصر الذي جاء من مصر، والذي كان آنذاك مقيماً في شكيم، التي تدعى الآن باسم نابلس أميراً كبيراً إلى الامبراطور مع هدايا فاخرة، ووعد بوساطة هذا الرسول نفسه أن يرد إليه الأراضي المقدسة التابعة للقدس مع جميع ممتلكات تلك المملكة، وجميع الأسرى الذين لدى ابن أخيه، وبناء عليه أعاد الامبراطور هذا الرسول نفسه، وبعث معه رسوله الخاص، وبوساطة هذا الرسول بعث إلى السلطان كثيراً من الهدايا، وأعد الامبراطور بالوقت نفسه العدة للزحف مع جيشه لإعادة بناء يافا، ووصل الجيش في السادس عشر من تشرين ثاني من الخمسعشريةالثانية نفسها إلى يافا، وبدأ بكل نشاط بإعادة بناء قلعتها، ومن خلال المباحثات بين السفراء

الذين بذلـوا الجهد في سبيل إقامة سلم بين الامبراطـور والسلطان، أمكن في شهر آذار(شبـاط ١٢٢٩) تحقيق الوصـول إلى اتفاق ومن ثـم تنفيذه، أي أن تقول بأن السلطـان نفسه أعاد بسلام وبهدوء إلى الامبراطـور مدينة القدس والأجزاء الأخرى العائدة لهذه المملكـة، وفي اليوم الثامن عشر من شهـر آذار نفسـه،وفي يوم الأحـد آنـذاك جـرى غنـاء:«ابتهجي يـاقـدس الـرب،وكونـوا كلكم مبتهجين يـا من تحبـونـه»، وتم تنفيـذ هذا، ودخـل الامبراطور نفســه مع الجيـش الصليبي كلـه إلى المدينة مبتهجين، والـذي كتب هذا كـان شخصياً هناك، ولم ينحرف عن طريـق الحق، وقدم روايته بناء على ما رآه ومن معلـوماته المؤكدة، زد على هذا، إنه عنـدما تتم قراءة التاريخ والعودة إليه مراراً نجد أنه منـذ أيام الامبراطورين هرقل وكونراد، ما مـن امبراطور دخـل إلى تلك المدينة إلاّ الامبراطـور فردريـك هذا، كما ويقرأ كيـف أن الصليبيين احتفظوا بها بسلام وهـدوء حتى مجيء الـوقت الذي تقـدم ذكره أعـلاه، وهو وقت احتـلال الخوارزمية لها،....، ثـم عاد الامبراطور فردريـك في شهر نيسان، في الخمسعشرية المذكـورة أعلاه، إلى مدينة عكا، حيث سمع بأن الجيش البابوي قد غزا مملكة صقلية، واحتل البـلاد كلهـا حتـى كـابـوا Capua..... ثـم أقلـع على سطـح البحـر الامبراطور المذكور أعلاه، وكان ذلـك في الأول من أيار من الخمسعشرية المذكورة أعـلاه، وأبحر مـع سبعة مـن الغلايين المسلحـة، كان الكـونت هنري صـاحب مالطـا قد جلبهم معـه في ذلك الحين من مملكـة صقلية، وقد وصل إلى ميناء برنديزي في العاشر من حزيران .

(١٢٣١): وقد بعـث مارشالـه اللورد رتشـارد فيلنغر مع جيـش من فـرسان المملكـة إلى جـزيرة قبرص، ولم يستطـع النـزول هناك لأن اللـورد جون صاحـب بيروت وقف ضده مع جيشـه الكبير، وقد ذهبوا إلى بيروت في سورية ونزلـوا في بلاد هذا اللورد جون نفسه، ولقـد استطاعوا السيطرة على المدينة غير أنهم أخفقوا في الاستيـلاء على القلعة، وعندما جـاء شهر

أيار من هذه السنة(١٢٣٢)، أبحر جون صاحب بيروت هذا نفسه من قبرص إلى مدينة عكا مع جيشه، وانضم إليه جميع سكان عكا، وبعدما جمع جيشاً استطاع أن يرفع الحصار عن بيروت، وقام اللورد رتشارد هذا نفسه بركوب غلايينه وصحب سفنه التي كانت معه، وذهب إلى جزيرة قبرص، التي كانت متروكة بدون مدافعين، وتمكن بوساطة جيشه من الاستيلاء عليها كلها لصالحه وأخضعها لإرادته ولحكمه، وقام صاحب بيروت بعد هذا بحشد جيش، فعبر البحر وجاء إلى قبرص مع الجنويين، واقتتل الطرفان قرب نيقوسيا مع جيوشهما، وهزم اللورد رتشارد مع جيشه، ووقع ما لايقل عن أربعمائة من فرسانه بالأسر أو قتلوا، ونجا اللورد رتشارد من خلال فراره مع بعض الفرسان التابعين له، وتراجعوا إلى غلايينهم التي تركوها على مقربة من شاطىء البحر هناك، وعادوا بوساطة هذه الغلايين إلى صور، التي كانت بيد اللورد رتشارد، وكان قد حصنها لصالح الامبراطور .

الملحق الرابع

روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على صور

أ: رواية مرسيليو جورجيو الوكيل البندقي (Tafel und Thomas (Urkun den) Zur Alteren Handels- und staatges chichte Der Republik venedig) I I,354-356

(تشرين أول ١٢٤٣)

روى مرسيليو جورجيو، الوكيل البندقي في سورية أخبار عدد من الوقائع التي وقعت في ذلك المكان وفق تسلسلها، وذلك من أجل أي واحد يريد أن يدخل ضمن أحكام كومونة البنادقة، حتى يتمكن من حماية نفسه والاحتراز لها، ولكي يستطيع تدبر هذه الأعمال المتعلقة بمجد وازدهار وصلاح السيد الدوج وكومونة البندقية، ولهذا تدبرت أنا مرسيليو جورجيو، الوكيل البندقي في سورية أمر تدوين ماسوف يظهر أدناه كتابة.

ذلك أنني عندما دخلت سورية للمرة الأولى، وجدت اللومبارد، الأشرار جداً، الذين كانوا مستولين على صور لصالح السيد الامبراطور فردريك، وكانوا يتصرفون وكأن جميع الموارد التي ينبغي أن تكون لكومونة البنادقة جميعها في داخل مدينة صور وفي خارجها هي حق لهم وملك، وبذلك حرمونا من كل شيء كلياً، ولقد رغبت في أن أعرف من الوكيل الذي كان هناك عن الامبراطور المذكور لماذا كان يفعل هذا، ورؤية فيما إذا كان من الممكن له اعادة ذلك إلينا، وقد بعثت إليه برسلي فرفض الاستماع إليهم، لابل رفض حتى رؤيتهم، وهذا لاشك هو الأسوأ، كما جعلني أعرف من خلال قوم أدنياء أنه لايثق بي خاصة، ولايثق بالبنادقة الآخرين بالأشخاص وبالأشياء، وبناء على هذا إنه إذا ما أراد أن

يؤذيني شخصياً أو يـؤذي البنادقة الآخرين، يمكن أن يعـد بمثابة خائن، ورأيت إثـر هذا أن الـوكيل المذكـور كان يـوجه جهـوده كلها في محاولـة الاستيلاء على مـدينة عكا مـن أجل حرمـاننا وطردنـا مع جميع الآخـرين المرتبطين بـالكنيسة الـرومـانية، وبـدأت بحكمـة في محاولـة إقناع اللـورد فيليب دي مونتفـورت، الذي كان صاحـب تورون، مع آخريـن اعتقدت أنهم كانوا قادريـن على القيام بأعباء مثل هذه المواجهـة الهامة، واستطعنا في النهـاية أن نحتفـظ بعكا، ومـن ثـم إعادة الاستيـلاء على صور، وقـام الذيـن كانوا بـالحقيقة يمعنون التفكير حول هـذه الأشياء التي حـدثتكم عنها، والـذين كـانوا يقلبـون الرأي في عقـولهم عما يمكن أن يحدث لهم، قاموا بالموافقة على الأمور التي اقترحتها عليهم.

وقـام البارونـات المتقـدم ذكرهـم، وقد رأوا المخـاطـر التي يمكـن أن يتعرضـوا لها في عكا من وكيـل الامبراطور، وكـانوا واثقين من المعـاهدات المعقـودة مع الجنـويين، قـاموا بـالإعداد للمشروع التـالي ومـن ثم القيـام بتنفيذه: يتوجـب على ملكة قبرص التي اسمها أليس أن تطـالب بمملكة القدس مـن رئيس أساقفـة صور، الذي كان نـائب البطريرك ومـن جميع الأساقفة الآخريـن في المملكة المذكورة، ومن بيوت الرهبـانيات النظامية، ومن كـومونة مـدينة عكا، ومن كـومونتي البنـادقة والجنويين، ومـن جميع الآخرين بموافقـة صامتة على أساس أنها وحدها فقـط في المملكة، كانت وفقاً للعادات هي الأكثـر شرعية من أي انسان آخر كان في ذلـك الوقت موجوداً في المملكة، ورأى الأسـاقفة والبارونات مع الآخريـن الذين تقدم ذكرهـم أعلاه، بعد تشـاورهم مع بعضهم بعضاً بكل دقة، أن مـا طلبته الملكـة أليـس كان حقـاً، ولـذلـك وافقـوا على التماسها على أنـه مطلـب شرعي، وأقسمـت الملكة المذكـورة— وفقاً للعـادات— بين يدي رئيـس أساقفة صـور والبارونات أنها سوف تحكـم المملكة وفق الطريقـة التالية: إنها سوف تحافظ على عـادات المملكة فيما يتعلق بالبارونات، وبـالفرسان

وبجميع الشعب، وستحـافظ أيضاً على أوضاع الكنيسة وأحـوال الدين، ولسـوف ترعـى امتيازات الأفـراد وتحافـظ عليها، ولسـوف تحفظ بشكـل خـاص وتبقـي بشكل سليـم المعـاهـدة والامتيـازات مع دوج البنـدقيـة وكومـونة البنـادقة، وبعدمـا حلفت الملكة قـام زوجها واسمـه رالف دي سـواسون فـأقسـم مثلها ، وبعـد إقسـام الملكة هـي وزوجهـا، قدم كـل البارونات، والفرسـان وشعب المملكة الولاء للملكة ولزوجهـا، وذلك وفقاً لعادات المملكة، وكان هذا هواليوم الخامس منـذ بداية شهر حزيران من السنة المذكورة أعلاه.

وبعدما تم انجـاز جميع ماورد ذكره أعلاه، قامـت الملكة المذكورة، وقد استحوذت على حكـم المملكة، وطلبت منـي تسليح واحد مـن الغلايين على حسابها، بما أنها تـرغب به من أجـل مقصد الذهاب لـلاستيلاء على صور، على أساس أنها بـلادها التي من مسؤولياتها المطـالبة بها والحصول عليها، ورتبـت معنا أن نعيد الاستيـلاء على حصتنا، وبناء عليـه اجتمعنا للتشاور، ورددت عليهـا بنفس راغبـة بأننا سـوف نمنحها الغليـون، لكن ليس كما سألـت على حسابها، بل على حسابنا كلياً، وكـان هذا بسبب أن السيـد الـدوج وكـومـونـة البنـدقية لم يعتـادوا على القيـام بـأيـة خـدمـة لأصدقـائهم على حسـاب هؤلاء الأصـدقاء، بـل على حسابهم هـم كلياً، هذا وطلبت منها ومـن البارونات مايلي: إنه بمشيئة الـرب سوف نحصل على تملك البـلاد مع البارونـات، ووقتها سـوف تعيد إلينا — تماشيـا مع اليمين— كل ما كان قد صودر وانتزع مما كنا نمتلكه في صور في كل من الداخـل ومن الخارج وفي كل مكان آخـر من المملكة كلهـا، وأنها سوف تحافـظ على امتيازاتنـا كـاملة دونما نقـص، وردت السيـدة الملكة واللـورد رالف زوجها، وكذلك رد صاحـب بيروت واللورد فيليب دي مونتفورت، بأن ذلك سـوف يكون خدمة عظمـى، ووعد كل واحد وفقـاً لما وعدوا به وحلفوا على ذلـك— ذلك أنهم كانوا مـرتبطين بتحالف معقـود فيما بيننا

وبينهم، وكان قد أقيم لدى قدوم الامبراطور— وتعهدوا بمواثيق الفروسية بأنه إذا ما أعطاهم الرب البلاد سيعيدون تنظيم الأمور الادارية وسوف ينفذون هذه الأشياء، وذلك حسبما طلبت، وقمت أنا بناء عليه، وقد وثقت بوعودهم وباخلاصهم وصدقهم، فأعطيتهم الذي طلبوه مني، وذهبت معهم على الطريق البري، وكان معي ثلاثين فارساً مسلحين بشكل جيد، وكان هذا في التاسع من الشهر المذكور.

وبعد ما وصلنا إلى صور، استولينا على المدينة في نهاية اليوم الثالث، وكان هذا بمعاونة بنادقتنا الذين كانوا برجاسية فيها، وأعدنا الاستيلاء على القلعة في نهاية اليوم الثامن والعشرين بعد جهد كبير، لأننا أنشأنا هناك آلة حصار، ومالبثنا أن استولينا عليها، وما كنا لنستولي عليها لولا أن وكيل الامبراطور الذي كان ذاهباً إلى أبوليا قد جنحت به سفينته في ممر جبل بارشي Barche، وقد عاد بالمركب الصغير العائد للسفينة التي أبحر فيها، ورجع إلى صور، وهكذا اعتقلناه، وقد أنشأنا منصة فوق برج مرتفع مواجه للقلعة، وأعلنا أننا سوف نشنقه، وارتعب الذين كانوا في القلعة من عزمنا على شنقه، وسلموا القلعة وفق الشروط التالية: إنهم سوف يحصلون على حريتهم، وبعدما اكتمل الاستيلاء على المدينة وعلى القلعة، أخذت الملكة طريقها إلى صور، وقد جئت إليها عبر الطريق الرئيسي وطلبت منها ومن البارونات وجوب أن يعيدوا إليّ جميع الأشياء التي وعدوا بها، وأن يجعلونا نتملك الأشياء التي انتزعت منا، وقد ردت الملكة عليّ مع البارونات بأن لديهم الرغبة بفعل ذلك بكل سرور، وأنهم متمسكون بها وعدوا به، لكنهم سألوني الانتظار حتى يعودوا إلى عكا، من أجل أن يتمكنوا من ايضاح الأمور لرجال المملكة، وبذلك يحولون ضد أي تحرك شرير يعزى إليهم، وبذلك سوف يكون ضمانة عظمى لنا، وقالوا بأنهم على يقين أنه بالنسبة لهذه القضية لن يكون هناك أي عمل معارض من قبل أي انسان، ولايمكن أن يكون، ولمعرفتي بأنه لن يكون

هناك من سوف يعارضهم، كما قالوا، فقد وافقت.

(ثم تابع مرسيليو يعدد جميع الممتلكات والامتيازات التي عادت إلى البنادقة في صور وعكا وفي جميع أرجاء مملكة القدس).

ب: رواية جون دي إيبلين صاحب يافا حول «الوثائق المتعلقة بالوصول إلى وكالة المملكة ونيابتها» قوانين القدس: ٢/ ٣٩٩— ٤٠

عندما وصل الملك كونراد إلى السن الشرعية بعث برسائل وبرسل لوضع رجل محله، وبناء عليه اجتمع رجال الاقطاع، وكان بين الحضور يستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا، الذي كان آنذاك نائب البطريرك، وقد قالوا مايلي: إذا كان يرضي الملك كونراد أن يقدم لتسلم سلطاته، سوف يستقبلونه بمثابة سيدهم الشرعي، ذلك أن أحكام المملكة المذكورة وممارساتها لايمكن أن تدار بالرسائل وبالرسل، وهم لن يتمكنوا من فعل ذلك له، لأن هذا الأمرسيكون معاكساً لأيمانهم ولإخلاصهم، وبالنسبة له الذي هو سيدهم، وسوف يرتبط بهم بالثقة والاخلاص، هم متأكدون بأنه لايرغب مطلقاً بالعمل وفق أي طريقة يبدون هم فيها أو يكونون مقترفين لعمل أي شيء زائف أو معاكس لأحكام وممارسات المملكة المذكورة التي متوجب عليه حكمها والحفاظ عليها، ولأنه قد بدا لهم أنه لايعرف جيداً الممارسات المذكورة، فإنهم قد أخبروه بها، غير أنهم سوف يحمون المملكة وفقاً لممارساتهم حتى يتفضل ويأتي، وكان عندما وصل الملك كونراد إلى السن الشرعية، اجتمع رجالات المملكة، ومثلوا بحضرة يستوريو رئيس أساقفة نيقوسيا، والذي كان النائب البطريركي في نيقوسيا في الوقت نفسه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبل، وبينوا بأحاديثهم كيف أن مولاهم الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبما أنه وصل إلى السن القانونية، لم يعد والده الامبراطور فردريك وكيل البلاد، ذلك أن أحكام وممارسات مملكة القدس، وكذلك مملكة قبرص هي كما يلي :عندما يصل الوريث الشرعي إلى السن القانونية يفقد الأب

وكذلك تفقد الأم حقـوق الوكالة، ولهذا السبب فقد الامبراطـور فردريك حقـوق الوكـالة، وبـودهم تنصيب رجـل يتولى السلطـة وفقا لمقتضيـات ممـارسـاتهم، وبما أن السير بـالين، صـاحب صيـدا متـوفى فقـد اختـاروا القسطلان السير يودس دي مونتبليـارد، ليتولى الاشراف على السيادة، لأن لا ابن عمـي صاحب قيساريـة ولا أنا رغبنا بهذه الولايـة لأسباب محددة خاصـة، وعندما عرفـت ابنة عمتي الملكـة أليس بأن الامبراطور قـد فقد الوكـالة بوصـول ابنه إلى السن القـانونية، تـدبرت جمع كل الأعيـان التي أمكنها الحصـول عليهم، وذهبـت إلى الاجتماع بحضور رئيـس الأساقفـة المتقدم الـذكر، وكـان بين الحضور مقـدم الداويـة، الراهـب أرمانـد دي بيرغورد، وقنصـل جنوى، ووكيل البندقيـة، وطالبت بمملكة القـدس من خـلال ابنة أختهـا الامبراطورة ايـزابـل، على أساس أنها الـوريث الأكثـر ظهوراً بشرعيتـه، وقدطـالبت بحقها في الاجتماع، وقـالت بما أن حفيـدها الملك كونراد قـد وصل إلى السن القانونية ولم يقـدم شخصيا للدخول إلى مملكتـه، إنها أقـرب وريـث ينبغـي أن يدخـل إلى المملكـة، وهـي أقـرب وريث في خـط الأسرة المتداولـة لحكم المملكة، وهـي جاهـزة للبرهنة على ذلـك، إذا ما رغـب الاجتماع بذلـك، أو إذا ما اعتقـد أنه مـن الضروري قيامها بالبرهنـة على ذلك، وبناء عليه رجت وطلبت عـدم تسلم الرسائل التي أرسلها الملك كـونراد، أو التي سوف يرسلها، وعـدم استقبال الرسل الذين أرسلهـم أو سوف يرسلهم، لأن ذلك سوف يكـون مضاداً لأحكام المملكـة المذكورة وممـارسـاتها، التي لايمكنهـم بـأي حـال من الأحـوال الوقوف ضـدها، واجتمع الأعيان للتشاور، ووافقوا جميعـاً على قبول الملكة أليـس، بـاستثناء القسطـلان فقـط، الـذي رغـب بعدم قبـولها وتسلمهـا السلطة قبل إرسال رسالة إلى الملك كونراد بأن عليه القدوم، أو أن خالته سـوف تقبل ملكـة، ورأى صـاحب بيروت ورأيـت أنـا وكـذلك ارتـأى الآخرون أنه ليس من الضروري الارسال لـه، وبذلك دخلت الملكة أليس إلى السيـادة، وقدّم لها الـولاء على أنها الـوريـث الشرعي الأكثـر ظهـوراً،

وأقـوى أصحاب الإدعـاءات بـالعرش أمـام الاجتماع الـذي أخذ شكـل محكمـة البلاط، وذلـك باستثنـاء الملك كـونراد،ثـم حركـت قضية جميـع العطاءات التي منحهـا الامبراطور وألغيت حتى أن وظيفة كـافل المملكة التي منحت إلى السير ريموند صاحب جبلة قد ألغيت، لأن ما من شيء قانـوني عمل خارج إطار أحكـام وممارسات المملكة ولهذا السبـب ألغيت هـذه الأشياء، وبعثـت الملكة أليـس المذكورة رسـالة إلى قبرص إلى ابنهـا الملك هنـري وإلى أقرباتنا الـذين بادروا فقـدموا أولاً، ثم ذهب صـاحب بيروت، والسير رالـف دي مونتفـورت صـاحـب تورون، والسيرجـون دي إيبلين صـاحب أرسـوف، وأنا، وفـرسان عكـا، عبر البر مع السير رالـف دي سواسون، زوج الملكة المذكورة، وذلك لـلاستيلاء على صور وانتزاعها من السير بيتير Ytier (لوثير) فيلنغر الذي كان هنـاك لصالح الامبراطور، وقد استولينـا عليها، ووضعها أعيان المملكة تحت حمايـة صاحب بيروت، ووضعوا قلعة عكا تحت حماية صاحـب تورون ومعه السير نيقولاس أنتيوم Antiaume، لأنه ينبغي على الأعيـان حراسة الحصون العـائدة للمملكة عندما يكون الورثة تحت السن القانـونية، أو عندما يكونون خارج البلاد، ولم يـدخلـوا بعــد إلى مملكتهـم كما ينبغـي أن يفعلـوا، كما أننــا لم نقبـل بوضعهم تحت أمرة السير رالـف دي سواسون المتقدم الذكر لتـوفر مخاطر محددة قد تنجم عن ذلك.

ج: من هرقل: ٣٣/ ١/ ٤٢٠

عندما كان الحجاج في عكا، تـزوجت أليس، أم ملك قبرص من رجل نبيـل فرنسي، كـان اسمـه رالـف دي سواسـون، وكـان هـو أخ الكونـت سواسون، وبعد زواجه منها تقدم بنـاء على موافقة جزء من رجال المملكة وطالب لزوجته الملكة، بحماية مملكـة القدس والسيادة عليها، وقد طالب بذلـك لأنها كانـت أكثر الورثـة شرعية بين ورثة الملـك عموري جـدها، وذلك بين الموجوديـن في البلاد، أو كانوا مـوجودين منذ وفـاة الامبراطورة

ايزابل، التي كانت زوجة الامبراطور، والتي لها ولد كان في أبوليا، وهو قد كان الوريث الشرعي للملكة، لكن بما أنه لم يكن حاضراً، ولم يحضر من قبل، كانوا على استعداد لاستقبالها بمثابة سيدتهم، ويوكلون إليها المملكة لتتولى حمايتها، وسوف يربطونها بها باستثناء حقوق الملك كونراد وامتيازاته، وكونراد هو ابن الامبراطورة ايزابل، التي هي ابنة أختها، وهذا ما تم صنيعه، وعندما نال رالف دي سواسون السيادة وفق الطريقة التي سمعتم بها، أمسك بالسلطة بشكل ضعيف جدا، لأن الذين تمت توليتهم من قبله— والذين كانوا أقرباء زوجته— امتلكوا سلطة أكبر وصلاحيات أعظم مما تملكه، لذلك بدا بأنه مجرد خيال، ولهذا الحال، وبسبب الاذلال والاهانة التي تعرض لها، تخلى عن كل شيء، وترك زوجته، وذهب عائداً إلى بلاده.

الحواشي

١— كان هيوج دي لوزغنان، ملك قبرص(١٢٠٥ ـ ١٢١٨) ابن عموري دي لوزغنان ملك قبرص، واسشيفي دي إيبلين، ويقدم كتاب هرقل(ص ٣٦٠) وصفاً لشخصه ولأخلاقه، وقد عدّ ملكاً قديراً، مع أنه كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما مات، وقد مضت السني المبكرة من حكمه تحت وصاية وولتر دي مونتبليارد، زوج أخته بورغوني Borgogne، وتنبع أهميته في التاريخ من مشاركته في الحملة الصليبية الخامسة.

٢— كان مزار بيعة سيدتنا في طرطوس واحداً من أكثر الأماكن المقدسة شعبية في سورية، فقد كان هدفاً لعدد كبير من الحجاج، وكانت طرطوس تابعة لكونتيه طرابلس، لكنها أصبحت منذ ١١٧٠ تابعة لفرسان الداوية، وما تزال كنيستهم التي بنيت حسب النظام القوطي واحدة من أجمل الأبنية الصليبية المتبقية في سورية.

٣— عاد الملك هيوج من عكا عبر طرابلس، حيث ذهب مع أندرو صاحب هنغاريا وجون دي بريين، إلى الحملة الصليبية .

٤— نقل الجسد فيما بعد إلى المشفى في نيقوسيا، حيث بقي بشكل دائم.

٥— كانت أليس أوف شامبين، ملكة قبرص، ابنة هنري أوف شامبين وإيزابل بلانتغنت صاحبة القدس، وتزوجت إيزابل بشكل متتابع من همفري صاحب تورون، ثم من كونراد دي مونتفرات، ثم من هنري دي شامبين، وأخيراً من عموري دي لوزغنان، وكانت مريم صاحبة القدس ابنتها من خلال كونراد، وأليس من خلال هنري، وتم نيل الموافقة الكنسية على السماح بزواج أليس من هيوج الذي كان ابن زوج أمها الرابع.

٦— البنات كن: مريم التي تزوجت من وولتر الرابع أوف بريين،

وإيزابل التي تزوجت من هنري صاحب أنطاكية الابن الصغير لبوهيموند الرابع.

٧— نقرأ في الأعمال«شهرين» حسب تصحيح كوهلر.

٨— هنري الأول صاحب قبرص(١٢١٨ ـ ١٢٥٣).

٩— كانت إيزابل صاحبة القدس، وأم أليس أختاً غير شقيقة لجون ولفيليب دي إيبلين، بحكم أن أمها كانت مريم البيزنطية التي تزوجت أولاً من عموري الأول ملك القدس وبعد موته من بالين دي إيبلين.

١٠— كان جون دي إيبلين، صاحب بيروت، ابن بالين دي إيبلين صاحب نابلس، وكذلك مريم البيزنطية، وجون هو بطل تاريخ فيليب دي نوفار، وكان جون قد جعل قسطلان القدس من قبل هنري دي شامبين، وقد حمل هذا اللقب من سنة ١١٩٤ إلى ١٢٠٠، عندما استبدل وظيفة القسطلان بإقطاع بيروت، وقد تزوج من هلفيس أوف نفين Helvis of nefin، وقد أنجبت له ولداً، توفي شاباً بعد وفاتها، ثم تزوج بعد وفاتها من ميليساند صاحبة أرسوف، التي رزق منها بخمسة صبيان، أشير إليهم في تاريخ فيليب، وكان صاحب بيروت العجوز واحداً من كبار الحقوقيين في بلاد ما وراء البحر، كما كان واحداً من أساتذة نوفار، وقد كان جون صاحب بيروت أثناء كون مريم صاحبة القدس دون السن القانونية هو وكيل القدس من ١٢٠٦ إلى ١٢١٠ .

١١— كان فيليب دي إيبلين ـ أخو جون صاحب بيروت ــ صاحب بيرستيرونا Peristerona في مقاطعة ميسورا Messorea القبرصية(ماس لاتري: ٣ / ٦٠٨ ـ ٦٠٩)، وقد تزوج من أليس دي مونتبليارد الذي كان أبوها وكيلاً أثناء صغرسن هيوج الأول،

وقد ولد لهما جون دي إيبلين صاحب يافا، ومصنف Livre des assises de la haute cour، وقد امتلك فيليب قصراً في ليماسول، احتله فردريك الثاني عندما توقف في قبرص أثناء كون هنري الأول صغيراً، وتنبع مكانته في التاريخ من أنه كان وكيل قبرص في أثناء صغر سن هنري الأول.

١١— قدم كتاب هرقل(ص ٣٦٠ ـ ٣٦١) رواية تختلف بعض الشيء عن هذه الحادثة:«عندما تسلمت(أليس) الولاء، وضعت في مكانها للاشراف على المملكة خالها ـ أخو أمها ـ الذي كان اسمه فيليب دي إيبلين، وقد فعلت ذلك بحماقة، ذلك أنها عندما حاولت التراجع، لم تستطع فعل ذلك، كما ستسمع».

وتبعاً لقوانين كل من القدس وقبرص يمكن انتقال الوكالة على وريث قاصر إلى الحي من الأبوين، حيث لايمكن لميراث المملكة الضياع من خلاله(قوانين القدس: ١/ ٦٠٩ ـ ٦١٠)، وكانت المحكمة العليا دوماً جاهزة للمحافظة على حق الوكالة وترتيب الأفضل لها، وخرجت في هذه الحالة على الحكم العام، بإعطاء أليس كلاً من الوصاية على ابنها مع موارد المملكة، ولأن العادات المقبولة قضت بأن لاتوكل أمور الوريث إلى الشخص نفسه الذي سيكون وكيل الدولة، وأعطي الوكيل بالعادة أمر الإشراف على الحكومة مع التمتع بالموارد، مع طلب حساب دقيق عندما يسلم الوكيل وظيفته، ولقد أعطيت أليس في هذه الحالة الوكالة والموارد، والوصاية على الوريث، غير أن الإيبليني قد جرى تعيينه وكيلاً للوكيل لإدارة المملكة، وسواء أكان تعيين فيليب من قبل المحكمة نفسها، أو من قبل أليس بحكم كونها وكيلة، فإن اليمين الذي أعطي للايبليني قضى حتى يصل هنري إلى السن القانونية، وهذا لايمكن نقضه بأمر أليس، ويحتاج إلى أمر من المحكمة(إنظر لى

مونت :الملكية الإقطاعيـة في المملكة اللاتينية في القدس ص ٤٩ ـ ٥٤).

١٣— قال أمادي(ص ١١٨) بأن أليـس قد أعطت عشر موارد قبرص إلى الكنيسة وذلك بموافقة البارونات .

١٤— قال هرقل(ص ٣٦٧) بأن هنري قد جرى تتويجه في سنة ١٢٢٨، عندمـا كان في الحاديـة عشرة من عمـره لمدة ثلاث سنـوات، وهذا يجعله قد تتوج في الثامنة من عمره في سنة ١٢٢٥ .

١٥— يورستوريو، رئيس أساقفـة نيقوسيا(١٢١٧ ـ ١٢٥٠) وكان أخاً لفـولـق أسقف ليماسـول، وبيتر دي مـونتـاغيـو، مقدم الـداويـة، وغورين دي مونتـاغيو مقدم الاسبتارية، أما جيرارد دي مـونتاغيو، فكان فـارساً قبرصياً، وزوج اسشيفـي دي مونتبليارد، الـذي قتل في معركة نيقوسيا سنة ١٢٢٩، كان حفيـده(انظر ماس لاتري:«تاريخ الـوثائق الـلاتينية في جـزيرة قبرص»«وثـائق الشرق اللاتينـي: ٢ / ٢١٤— ٢٢٩، ديـلا فيـلا لى روكــس، «الاسبتـاريــة في الأرض المقدسـة»ص ١٣٧، وفيمايلي فصل ٥٧) وكـان يوستـوريو واحـداً من أعظم رؤساء الأساقفة الذيـن عرفتهم نيقوسيا، وقد عمل الكثير لإغناء رئاسة أسقفية نيقوسيا وتقويتها .

١٦— جرت العـادة بتتويـج ملوك قبرص في كنيسة القـديسة صـوفيا في نيقوسيا، التي كـانت الكاتدرائية الرئيسـة في قبرص، وجرى تتويج ملوك القـدس ، طوال بقاء مملكـة القدس في القـدس أو في صور، وبعـد سقـوط المملكة، وعنـدمـا بـات ملـوك قبرص أيضاً ملـوكـاً للقدس، جرى تتـويجهم ملوكاً لقبرص في نيقوسيا، وملـوكاً للقدس في فيماغـوستا، في الكنيسيـة الكاتـدرائية للقـديس نيقـولا، وكانـت كاتـدرائية القديسة صـوفيا في نيقوسيـا أيضاً المكان المفضل لـدفن

ملوك قبرص.

١٧— عندما اشترى غـي دي لوزغنان قبرص من رتشـارد ملك إنكلترا، احتفـظ لنفسه بلقـب ملـك القـدس، ولم يمتلك أخـوه عمـوري، الـذي خلفـه في قبرص، أي لقـــب ملكـي، ولـذلـك طلـــب مـن الامبراطور هنري السادس أن يمنحه التـاج الملكي مقابل الاعتراف بالتابعية إلى الامبراطورية، ووضـع التاج على رأس عموري من قبل الأسقـف كونـراد أوف هيلدزهيـم Hildesheim، العامـل باسـم هنري السادس، وكان ذلك سنـة ١١٩٧، وليس هناك من اعتراض على حـق ادعـاء الامبراطـور بالسيـادة الشرعيـة على قبرص، وكـان جون دي إيبلين نفسه على استعـداد تام للاعتراف بسيادة فـردريك على الملك هنـري، وجاء الاعتراض عندما بعـث فردريك بتـوماس دي أكينو، كونت أسيرا، وكيلاً لعكا.

١٨— جاء في نـص«الأعمال»:«في السنة الخامسة والعشرين مـن العمر»، وصحح كوهلـر ذلك من أمادي ص١١٨، وفي حين اختلـف سن الـرشـد في أوربـا في القـرن الثـالـث عشر، كـان على العمـوم سـن الخامسـة عشرة أكثر شيـوعـاً من الخامسـة والعشريـن، وكان سـن الخامسة عشرة هـو السن القانـوني في كل من القـدس وقبرص، أما بـالنسبـة«لعـادات ألمانيـا» التي طـالـب بها فـردريـك استنـاداً إلى ملاحظاته عن الـ Sachsens piegel و Schwabens pie-gel، وذلـك استنـاداً لما جـاء في كتـــاب(غـولهيرمـوز Guil-hiermoz أطروحـة حول أصل النبـالة» ص ٣٩٣ ــ ٤٢٥ ،) فقد أراد فردريك أنه عنـدما يصل الوريث إلى سن الثـانية عشرة يمكن أن يوضع تحت عناية Avoue، يتولى خدمة إقطاعه حتى يصل إلى سن الحادية والعشرين.

١٩— غيرت طبعة RHC(ص ٦٧٢)هذه الفقرة بحيث أصبحت:« أنها

ينبغي أن تلتمس في أن يـدعها تستحوذ على الوكالـة بنعمة»، وهذا التعـديل غير مسـوغ في النـص، ومع الاقـرار أنـه أكثر منطقيـة في القراءة.

٢٠— كان الايبلينيون أخـوالاً كباراً لايزابل صاحبـة القدس، ذلك أنهم كانوا أخوة غير أشقاء لجدتها من جهة أمهـا ـ الملكة إيزابل صاحبة القدس.

٢١— كان عمـوري برلياس، الرجـل الشرير في حكايـة نوفار ابناً لـرينو برليـاس الذي كان فـارساً من بواتـو، استقر في قبرص، وكانـت أمه إيزابل لى روكس دي بيسان، وهي وريثة إقطاعي«عربي وزكنين» في القدس، وقد تزوجـت إيزابل فيما بعد بيرتراند بـورسليت الذي كان حليفـاً لأبنائهـا، وكـان عموري قـد تـزوج مـن قبل سنـة ١٢١٧، أغنس ابنـة بيرترانـد صاحب المرقـب، ويبدو أنـه تمتع بثقـة أليس صاحبـة قبرص، وكان واحـداً من أكثـر أعضاء المحكمـة العليا في قبرص نفوذاً .

٢٣ (٢٢)— كان عمـوري صاحـب بيسان ابـن وولتر صاحـب بيسان وداوس Douce بورسليـت، حاجـب قبرص ١٢١٨ — ١٢٢٠، وكان أبـوه خال إيزابـل صاحبـة بيسان، أم عموري بـرلياس، وعلى هذا كـان العموريـان أبناء خـال، وقد ذهـب عموري بـرلياس إلى أبوليا بعد هزيمة الحزب الامبراطوري في قبرص، وأصبح صاحباً لـ « تـريكاريكـو Tricarico، وقـد تزوجـت أخته مـن بلدويـن دي إيبلين .

٢٤— كـان جوفيـان دي شنشي Chenchi(أو دي روسي Rossi ـ تبعاً لأمادي)زوج إرمـالاين Ermaline دي سواسـون، وأخاً غير شقيـق لفيليب شينـارت Chenart، وذلـك حسبما أكده نـوفـار،

وقليل هو المعلوم عنه باستثناء رواية نوفار، وقد ظهر اسمه في مراسيم فردريك الثاني لعام ١٢٢٦ باسم«جوفيانوس دي سيبرو Cipro، وقد وقع تحت رئيس أتباع الامبراطو (H - B. 11.536 38 -)، وكان هذا عندما كان منفياً في قبرص .

٢٥— كان وليم دي ريفت أخاً لجيمس دي ريفت الذي تزوج من إيزابل دي سواسون، أخت إرمالاين دي سواسون التي تزوجت من جوفيان دي شنشي، وكان على هذا قريباً بعيداً من جوفيان، والقرابة جاءت فقط من خلال الزواج، وينبغي عدم مزجه بوليم دي ريفت الأصغر، الذي أثنى نوفار عليه كثيراً على أنه محامي استئناف عظيم في المحاكم، وكان وليم الأصغر ابن كل من جيمس وإيزابل، وأهمية وليم موضوع البحث هنا فقط لأنه كان واحداً من الوكلاء الخمسة في ظل فردريك الثاني .

٢٦— كان هيوج صاحب جبلة ابن برتراند صاحب جبلة، ودولت الأرمنية، أخت الملك ليون الأول«وكتاب أسر ما وراء البحار» الذي هو مصدري لمعظم تفاصيل أنساب هؤلاء، غامض جداً، وغير مؤكد بالنسبة لهيوج، غير أن إ.ج.ري، قد صحح المادة في مقال في (١٨٩٥) R.o.l ص ٣٩٨— ٤٢٢. وقال: كان هيوج والد برتراند الابن الثالث لوليم الثاني وحفيداً لهيوج الأول صاحب جبلة وميليساند صاحبة أرسوف، وزوجة جون دي إيبلين.

٢٧— امتلك جون صاحب بيروت خمسة أولا هم: بالين، وبلدوين، وهيوج، وجون، وغي، وقد ظهروا جميعاً في رواية نوفار.

٢٨— كان بالين دي إيبلين، صاحب بيروت (١٢٣٦— ١٢٤٧)، وقسطلان قبرص (١٢٣٦— ١٢٣٩) ووكيل القدس (١٢٤٦— ١٢٤٧) قد تزوج من استشيفي دي مونتبليارد، أرملة جيرارد دي

مونتاغيـو، وقد تعرض للحرمـان الكنسي لزواجه منها بسبـب وجود درجة من القرابة تحظر ذلك، وكـان بالين هو السيد المباشر لفيليب دي نـوفــار، وعلى هـذا حـرص فيليـب على الالحاح على بســالتـه وأخلافه الحميدة في ثنايا روايته.

٢٩— تزوج بلـدوين دي إيبلين، كافـل قبرص، (١٢٤٦— ١٢٤٧) من أليـس، ابنه وولتر صـاحب بيسـان، وقـد أخذ أسيراً في المنصـورة، عندما كان في خـدمة الملك لويس صاحب فرنســا، وقد مات سنة ١٢٦٧، مخلفـاً عدداً كبيراً مـن الأولاد كان منهـم فيليب قسطـلان قبرص سنة ١٣٠٢.

٣٠— قال أمادي (ص ١١٩): «قرأوا»، ويبدو هذا تفسيراً معقولاً.

٣١— نوع من أنواع المبارزات.

٣٢— قال كتاب «الاعمال» :«تور»، وصحح كوهلر إلى «تورننغيل» وذلك اعتماداً على نـافار (٧١) وكـذلك مـن بوسترون، وبـاستثناء الـدور الذي شغلـه في الحرب ضد الامبراطـوريين، الذي أتـى نافـار على ذكره، هو غير معروف اطلاقاً.

٣٣— « Etqueil Feroit autel Fin Come Sire Heimexy» ألح فيليب على وضع جون هذا لكـي يظهر الأعمال التالية لبرلياس على أنها أكثر انحطـاطاً وخيـانة، واقترح مـاس لاترى (ص ٢٣١) أن جـون كان مهتماً بـالحفاظ على السلـم بين البارونـات العائديـن للمملكة،، وللحيلولة دون الخلاف في أثناء النيابة.

٣٤— ويقـول النـــص «Forspassa» ممـــا يعنـــي « مضـــى»، غير أن تورينول لم يمض بعيداً، ويمكن معرفة هذا من خلال عودة ظهوره بعد وقـت قصير، حاملاً ضغينته ضـد برلياس، وغير راغـب مطلقاً في إقامة صلح معه.

٣٥— بوهيموند الخامس ولد بوهيموند الرابع صاحب أنطاكية، كان قد ورث مناصب أبيه، وحكم أنطاكية— طرابلس من ١٢٣٣ حتى ١٢٥١، ولم يوافق البابا هونوريوس الثالث على زواجه من أليس على أساس قرابة الدم، وأخيراً فسخ، وبما أن بلاد طرابلس كانت تحت الحرمان وقت الزواج، ذهب الزوجان إلى جزيرة أمام الساحل للاحتفال بالعرس، وتزوج بوهيموند في سنة ١٢٣٧ لوس Lucie ابنة بول دي سيني Segni، وهي ابنة أخت كبيرة للبابا انوسنت الثالث.

٣٦— كان أن يقبل عموري بالتعيين بالوكالة من قبل الملكة خرق لامتيازات البلاد، ولقواعد الدستور، وحسبما ورد أعلاه كانت المحكمة العليا صاحبة السلطة العليا، وأي عمل أو قرار اتخذ في المحكمة، يمكن أن يغير فيها فقط، وأقسم البارونات في المحكمة على قبول فيليب كوكيل حتى يصل الملك إلى السن القانونية، وفي المحكمة فقط، وبقرار يتخذ فيها كان من الممكن احداث أي تغيير في الوكالة، وهكذا جرت الأمور، حيث أعيد فيليب إلى الوكالة، ولعل هذا كان بقرار من المحكمة، واحتفظ بوظيفته حتى تاريخ وفاته، عندما قبلت المحكمة أخاه جون صاحب بيروت ليكون وكيلاً حتى بلوغ الملك السن القانونية.

٣٧— أعطى هرقل (ص ٣٦١— ٣٦٢) رواية أكثر تفصيلاً حول الحادث كله: « عندما تزوج (بوهيموند) منها (أليس) أرسل رسلاً إلى قبرص، واجتمع جميع أعيان المملكة في قصر الملكة، وقال الرسل: « ترسل إليكم ياسادتي الملكة التحيات، بحكم أنكم رجالها المخلصين وأصدقائها، وبودها أن تخبركم أيضاً بأنها كوكيلة لابنها، وبإرادة منها ورغبة، وبدون أي اكراه وبدون أي سبب آخر غير رغبتها، كانت قد وضعت، وأقامت في مكانها خالها فيليب

دي إيبلين، غير أنها لم تعد ترغب ببقائه وكيلاً من الآن فصاعداً، وبناء عليه ترسل إليكم أوامرها، بحكم كونكم رجالها، بأن لاتكونوا من هذا اليوم فصاعداً تحت أوامره، وأن لاتفعلوا شيئاً له، وأن تستقبلوا في مكانه عموري برلياس، وأن تكونوا تحت إمرته»، وعندما فرغ الرسل من قولهم هذا، نهض فيليب دي نوفار، وقال: «أيها السادة إنكم تعلمون بأنكم قد أقسمتم لي بأمر من الملكة على أن تطيعوني وأن تنفذوا أوامري حتى وصول الطفل إلى السن القانونية، لأنه هو وريثنا الشرعي، وبودي أن أعرف هل ستبقونني وكيلاً أم لا؟، ثم إنه طلب من كل واحد منهم على انفراد قول ما الذي يريده حول الموضوع، وقال الجميع بأنهم متمسكون به وكيلاً لهم، وذلك باستثناء فارس اسمه بلدوين دي بيليمي Beleme، الذي قال بأنه لن يعترف بوكيل آخر في قبرص غير الملكة أليس، وانقض عليه أقرباء ورفاق فيليب دي إيبلين، ونجا بصعوبة من الموت، وهكذا بقي فيليب دي ايبلين في الوكالة، وصارت الملكة خارجة دون أن تتمكن من استردادها».

وتختلف هذه الرواية عن رواية نوفار، عن قبول فيليب بالتعيين، على أساس أنه جاء من عند أليس وليس من قبل البلاط، ولعل نوفار قد شعر بأنه صنع قضية أقوى لصالح الايبليني، إذا ما ترك ذكر التعيين على أنه كان بوساطة المحكمة، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن رواية نافار تمثل تقاليد روايات البيت الإيبليني، بينما تقدم رواية هرقل نصاً كان هو المقبول بشكل عام في سورية، ولعل هذا النص هو الذي فضله آل لوزغنان ورعوه، وعلى كل حال، وحسب ما جاء أعلاه، من الممكن أن التعيين في هذه الحالة جاء من قبل الملكة أليس، وإنه قد جاء تماما في إطار ما تقوم به المحكمة، ومن غير الممكن فسخه من دون موافقة المحكمة وهذا واضح في كل

رواية من الروايتين حول القضية.

٣٨— لم تكن العلاقات وشيجة كما يبدو من اشارة فيليب، وقد تزوجت هليفس أوف راما بالين دي إيبلين، ومن ماناسيس دي هيرجس، وكان بالين ابنها من الزواج الأول، وهو قد كان والد كل من جون وفيليب دي إيبلين، وتزوجت ابنتا هلفيس من ماناسيس من آنسيو دي بري، وكانت جدة مانسيو دي بري الذي ورد ذكره لدى فيليب دي نوفار، وتزوج آنسيو هذا من أنسيلي Ancelle، أرملة بيتر شابي وقد مات دونها انجاب.

٣٩— كانت كلمة فيليب هي Vayrs، وقد ترجمناها إلى «بشرة متوردة»، وقد حذف أمادي (ص ١٢٠) هذا الجزء الاخير من الوصف، وقال عوضاً عن ذلك ما هو أكثر فائدة للبطل: «وكان له مظهر بهي».

٤٠— جون صاحب قيسارية، وابن وولتر صاحب قيسارية، ومرغريت دي إيبلين، أخت كل من جون وفيليب دي إيبلين، وقد تزوج جون من أليس حفيدة يوستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا.

٤١— هذه اشارة مفيدة، تشهد على حب فردريك للطيور، ومن أجل البحث بشأن معرفته بالطيور انظر : «Dearto venandi Cum avibus» في كتاب س.هـ. هاسكن «العلم في العصور الوسطى» (كمبردج، ماس، ١٩٢٤) ص ٢٩٩— ٣٢٦؛ وكان جوفيان في ايطاليا في كانون ثاني ١٢٢٦، عندما شهد على مرسومين لفردريك (هـ.ب: ٢/ ٥٣٦— ٥٣٨).

٤٢— حمل فردريك الصليب وتعهد بنفسه القيام بحملة صليبية، بمناسبة تتويجه في سنة ١٢١٥، ومرة ثانية أثناء زواجه من ايزابل دي بريين في سنة ١٢٢٥.

٤٣— برنديزي.

٤٤— هذا صعب تصديقه بالنسبة للامبراطور، وهو غير عادل، فقد وقع فردريك مريضاً بالوباء الذي اجتاح معسكره في برنديزي، وكان قد أقلع من الميناء غير أنه كان مريضاً جداً، لهذا أرغم على العودة إلى اليابسة، وذلك بناء على نصيحة الجميع، حتى بناء على نصيحة جيرولد بطريرك القدس، وقد ظن البابا غريغوري التاسع أن ذلك مجرد محاولة ثانية لتجنب السفر، فلذلك قام على الفور بحرمانه كنسياً.

٤٥— كان الاسطول الذي بعث قبله تحت إمرة توماس دي أكينوAquino، كونت أوف أسيرا، ورئيس العدالة في Terra di Lavoro ، الذي عينه فردريك وكيلاً له في سورية ، وتحت هنري أوف ليمبورغ.

٤٦— طلب القانون مضي أربعين يوما بين تسليم ضمان المبارزة والقتال، ووقوع المبارزة نفسها (انظر قانون القدس: ١/ ١٦٠— ١٦٢. الملكية الاقطاعية ص ٢٧٩).

٤٧— جيرولد أوف لوساني Lausanne ،راعي دير موليم وكلوني من قبل، وأسقف فالنس، وقد جرى تعيينه بطريركاً للقدس من قبل غريغوري التاسع مع صلاحيات نيابة البابا، وكان موضوع دراسة لـ: و. يعقوب «جيرولد بطريرك القدس» (آخن ١٩٠٥)، وكان جيرولد فعالاً جداً في معاداته لفردريك الثاني، وقد استدعي أخيراً، بناء على اصرار الامبراطور.

٤٨— كان وولتر صاحب قيسارية قسطلان قبرص (١٢١٠— ١٢٢٩)، زوج مرغريت دي إيبلين، أخت جون وفيليب، وكان والد الشاب جون صاحب قيسارية، وكان من أعوان الايبلينيين الصلبين، وقد

مـات في معركـة نيقـوسيا، حيـث قتـل من قبـل دي سنشي حسبما روى نافار.

٤٩— أعطـى أمــادي (ص ١٢٢— ١٢٣) وبسترون (ص ٦٢— ٦٣) روايات أكثر تفصيلاً حول هذه المبارزة.

٥٠— قـال أمـادي (ص ١٢٣) بشكــل محدد بـأنهم اتهمـوا الايبلينيين بالتمييز ضدهم لأنهم أحبوا الامبراطور.

٥١— أعطـى كتاب «حـوليات الأرض المقـدسـة» (ص ٤٣٨) تاريـخ ١٢٢٧ نفسه، وجاء في هرقل (ص ٣٦٥) قـوله: «في الصيف الذي جاء بعده في سنة ١٢٢٨ لتجسيد مولانا يسوع المسيح».

٥٢— أبحر فردريك من برنديزي في ٢٨ حزيران سنة ١٢٢٨، والتاريخ الذي أعطاه نافار هو خطأ.

٥٣— أصر غريغـوري التاسـع بالأصـل على ذهاب فـردريك في حملتـه الصليبية، لكـن عندما شرع فـردريك ثم عـاد، قام البـابا بحرمـانه كنسياً، وحظر ذهابـه، وقد سعى بكل وسيلة ممكنة بعـد ذلك، عند مغادرة فردريك لاغلاق الفرص بالنجاح أمامه، ولإحباط مساعيه.

٥٤— قال أمـادي (ص ١٢٤): في الأول من حـزيران؛ وقـال بوسترون (ص ٦٣): في الأول مـن حزيـران سنـة ١٢٢٨، وكان الامبراطـور مـايزال في بـرنديـزي في حـزيران، كما ظهـر في وثائق في (هــ.ب: ٣/ ٦٩، ٧١)، وكان التاريخ الفعلي لـوصوله إلى ليماسول في ٢١— تموز ١٢٢٨.

٥٥— كان رتشـارد فيلنغر مـارشال الامبراطـورية، وتـوماس أوف أسيرا، وهيرمان فـون سالزا، وهنري أوف ليمبـورغ، والجماعة التي تقـدمت بالسفر على الامبراطور، في عكا هو والجميع ينتظرونه.

٥٦— أضيف ما بين الحاصرتين من أمادي (ص ١٢٤)، ذلك أن نص نافار بلا تحديد، ويمكنني أن أستخلص أن هذه العبارة في النص الأصيل لفيليب، لكنها حذفت من قبل مصنف «الأعمال» وكان على كوهلر اضافتها.

٥٧— جاء نص هذه الرسالة — عند د. جونا في «تاريخ قبرص» — المرسلة من فردريك إلى جون دي إيبلين حسب مايلي:

«مولاي وخالي الممجد جداً: غاية الرسالة الحالية هي اخبارك بوصولنا إلى ليماسول في طريقنا إلى فلسطين، من أجل تقديم العون لعبيد يسوع المسيح، ولإخبارك أننا نرغب قبل مغادرتنا إلى تلك البلاد، أن ننال الرضا برؤيتكم مع الملك ومع أولادكم أولاد خالنا الأعزاء والمحبوبين، وأن نحظى بمتعة معانقتكم والتعرف إليكم شخصياً، وأكثر من هذا إننا نرغب بالتشاور معكم حول المنهج الذي ينبغي اتباعه من أجل استرداد الأرض المقدسة، ونحن نقدر بدون حدود نصيحتكم، والآراء الصادرة عن رجل حكيم وعظيم التجربة مثلكم، وعلى قناعة أن التحالف القائم بيننا ينبغي أن يسهم في النجاح السعيد لمشروعنا، ولهذا نرجوكم أن تقدموا على الفور إلى ليماسول بسبب أن حالة الاستعجال لقضايانا لاتسمح لنا بالاقامة طويلاً هناك. في ليماسول ١٧— ايلول ١٢٢٨. ابن أختك المحب جداً. الامبراطور فردريك».

وأعطى لورانـدو في كتابه « تاريخ ملوك قبرص» (الطبعة الفرنسية، باريس ١٧٣٢) ج١ ص ٥٥، جوهر الرسالة نفسها، إنما بشكل مختصر بعض الشيء، وهذه الرسالة غير موجودة لدى ماس لاتري أوفي Huillard -Breholles ، ومع هذا تحمل هذه الرسالة سمات فيليب دي نوفار، ومع أنها قد تكون غير صحيحة تماما، ونسخة غير دقيقة عن رسالة الامبراطور، من الممكن أنها استقيت

من الأصل.

٥٨— ليس للعبارة الأخيرة أي معنى، لأن قبرص لم تكن قد قهرت من قبل الصليبيين.

٥٩— قال هرقل (ص ٣٦٧) «طلب هو (الامبراطور) أن يتملك الوكالة بموجب حق الامبراطورية أي وكالة الملك الذي كان قاصراً، ووكالة بلاده، وولاء الملك وولاء رجاله، وفي هذا المقصد لم يكن هناك من يعارضه، وفي الحقيقية جرى التنفيذ تماماً حسبما طلب، وعندما تلقى الولاءات، احتفظ بالملك في بيته»، وقد بدا تسليم الملك له شخصياً في البداية على أنه قبول بإدعاء الامبراطور بالوكالة، لذا مالبث أن اتضح، أن ذلك كان مجرد اعتراف بسيادته على الملك، وليس موقفاً متقدماً ضد حق الايبليني بالوكالة.

٦٠— ديمتريوس أوف مونتفرات، ملك اسمي لسالونيك، وهو ابن بونفيس الثاني دي مونتفرات.

٦١— مانفرد الثاني، مركيز لانكيا Lancia ، والنائب الامبراطوري العام في لومباردي.

٦٢— أفترض أن عبارة Dou regne تعني IlRegno،أي الصقليين، أما بالنسبة لقوله :«بارونات ألمانيا وبارونات المملكة» ففيه ربما إشارة إلى مملكة صقلية وليس إلى مملكة قبرص.

٦٣— فراغ بالأصل المخطوط، لعله حوى عدد الرجال.

٦٤— هذا يفيد أن السيادة كانت لاتعني فقط التسيير الكامل والاشراف على التابع القاصر، بل أيضاً على موارد الاقطاع أثناء حقبة الاشراف والتسيير.

٦٥— إيزابل بلانتغنت، ملكة القدس(١١٩٠ — ١٢٠٦).

٦٦— عموري الأول ملك القدس(١١٦٢ — ١١٧٤).

٦٧— عموري الثاني صاحب القدس(١١٩٧ — ١٢٠٥).

٦٨— شغل جون وظيفة القسطلان(١١٩٤ — ١٢٠٠)، وقد قايضها ببيروت، حسبما ذكرنا أعلاه، وفتحت بيروت من قبل صلاح الدين، واستردها الصليبيون وكانت في حالة سيئة جداً، وقد بقيت في حوزة المسلمين من ١١٨٧ حتى ١١٩٧.

٦٩— كان من المبادىء الرئيسية في قانون ما وراء البحر، أن المقطع يمكن أن يحرم من إقطاعه بقرار من المحكمة، وقد طالب الإيبليني بتطبيق هذا المبدأ الأساسي.

٧٠— قال هرقل(ص ٣٦٧):«ولداه، بالين الأقدم ولادة، وهيوج الثالث».

٧١— قال أمادي(ص ١٢٩): «ماأن غادر والدهم، عندما الامبراطور، إلخ»، وهذه القراءة أفضل بكثير مما هو مثبت بالنص الأصلي.

٧٢—Traversains.

٧٣— أكد هرقل(ص ٣٦٨) هذا السجن وسوءمعاملة السجناء.

٧٤— كلا الأمرين: كنائب للقدس وسلطان على ملك قبرص.

٧٥— ديودامور هو الاسم القديم لقلعة القديس هيلاريون في الجبال ما بين نيقوسيا وسيرينا.

٧٦— ترجمت اصطلاح Sodceerإلى «مرتزقة» لكن هذا الاصطلاح غالباً ما شمل الفرسان والسيرجندية الذين خدموا مقابل الدفع.

٧٧— بوهيموند الرابع صاحب أنطاكية(١٢٠١ — ١٢٣٣)، وتبعاً لهرقل(ص ٣٦٨) كان قد قابل الامبراطور في بيروغي على الطريق

فيما بين ليماسول ونيقوسيا.

٧٨— غي الأول صاحب جبلة(١١٩٤ — ١٢٤٠)، كان مسانداً صلباً للامبراطور، وقد أقرضه مبلغ ثلاثين ألف قطعة ذهبية.

٧٩— بالين الأول صاحب صيدا(١١٩٨ — ١٢٤٠) ابن رينو صاحب صيدا وهلفيس دي إيبلين ابن أخت جون صاحب بيروت، وقد كان من أهم لوردات سورية، وقد تزوج حفيدة جون دي بريين، وشغل دوراً هاماً في الصليبية ضد دمياط، وكان واحداً من البارونات المقادسة الذين رافقوا الملكة إيزابل إلى أبوليا، عندما تزوجت من فردريك، وقد بقي مدة من الزمان في إيطاليا بعد الزواج، وورد ذكره لدى ساليمبني Salimbene على أنه كان في بادوا في سنة ١٢٢٥، أثناء تعميد ذلك المؤرخ، وظهر اسمه أيضاً على عدد من صكوك مراسيم فردريك في سنة ١٢٢٦(هـ . ب : ٢ / ٥٣٦، ٥٣٨، ٦٧١)، وعندما وصلت أخبار وفاة إيزابل إلى سورية، انتخبه البارونات واحداً من الوكلاء للامبراطور، وقد أبقى عليه فردريك في هذا المنصب، وقد كان سفيراً مهماً بين الامبراطور والسلطان المصري،وساعد في مباحثات معاهدة يافا، وعندما غادر فردريك سورية عينه وكيلاً، وذلك حسب رواية نوفار،وقد مثل خيرة مجموعة البارونات السوريين الذين رغبوا باحترام حقوق الامبراطور، ومع هذا رفض الوقوف إلى جانبه عندما خرق نوابه الأصول المعتمدة بادارة المملكة.

٨٠— ١٧ — آب سنة ١٢٢٨ .

٨١— عندما شعر جون دي بريين بأنه خدع وأبعد عن تاج القدس العائد إليه، تحالف شخصياً مع البابا في معاداة الامبراطور، وقد غزا أبوليا على رأس جيش بابوي، وأثار الثورة ضده بين النبلاء

غير الراضين، وكـانت حملتـه ناجحة تماماً، وقد استحـوذ على جزء كبير من ممتلكات فردريك في القاهرة.

٨٢— لقد تـرجمت هذه الفقـرة المشوشة بتصرف كـامل، ولابـد أن هنري خطأ بدلاً من عموري، وكما أوضح ماس لاتري(تاريخ قبرص : ١ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، هناك أهمية كبيرة في هذه الاتفاقية بالاقسام على التابعية، لكـن رفض تقديم الولاء، وتبعـاً «لقوانين القدس» (٢ / ٣٩٨) لايحتاج التـابع تقديم الـولاء إلى الوكيل أو إلى سيـد قاصر، ذلـك أن الولاء لايجوز إلاّ أن يطلـب مـن قبـل السيدفقـط، لكـن يمكن للـوكيل أن يصادر ممتلكـات أي تابـع يرفض أن يقـدم إليه الولاء خلال مـدة الوكالة، علماً أن التـابع إذا ما قدم الـولاء للسيد عنـدما يصـل إلى السـن القـانونيـة، يتـوجـب على السيد أن يعيـد الإقطاع إليه(انظـر الملكية الاقطاعية في القـدس ص ٥٣ ـ ٥٤)، وبـالنسبة لـوضع فـردريك الثـاني، كـان البارونـات القبارصـة على استعداد تـام لتقديـم الولاء إلى مولى ملكهـم، لو أن الاتفـاقية بين الملك عموري والامبراطور هنري السادس قضت بذلك، لكن كان على الملك هنري نفسـه أن يقدم الولاء إلى فردريـك على أنه مولاه، وكان الإيبلينـي مستحوذاً على الـولاءات التي قـدمت إليـه كوكيـل للملك القاصر.

٨٣— قـال هـرقـل(ص ٣٦٩): « قضى اتفـاق الصلـح أن يستحـوذ الامبراطور على وكالة الملك بـالنسبة لبلاد قبرص، وينبغي أن تكون كل الموارد له، وعليـه أن يحرر الرهائن، ويحلل مـن التعهدات، وأن يتلقى ولاء جون دي إيبلين، باستثناء المطـالب التي طلبها منه..... وقـد عين شحناً في القـلاع تابعين لـه، مع وكـلائه في جميع أنحـاء البلاد لجمع الموارد وإرسالها إلى سورية».

ورفض الإيبلينـي تقديـم ولائه إلى فردريـك في إطاركـون فردريـك وكيلاً

لقبرص، ولابد أن معنى ذلك أن الإيبليني قـدم الولاء إلى فردريك، كنائب لملك القدس.

٨٤ — ٢ — أيلول سنة ١٢٢٨ .

٨٥ — هل معنى هذا أن جون كان الرهينة الثانية وليس بلدوين؟ أو أن معنى ذلك هو أنه بعدما أعـاد فردريك الرهينتين: بالين وبلدوين، أخذ الأخ الأصغر جـون، ووضعه في حاشيته؟ إن المرجـح هو الأمر الثاني.

٨٦ — يقول روهرخت في(تاريخ ملوك القدس ص ٧٧٥) بأنه عاد إلى إيطاليـا مع الامبراطور، وينقل عـن«الأعمال» لتوثيق ماذهـب إليه، لكـن ليـس في النـص مـا يشير إلى أن جون عـاد إلى إيطـاليـا مـع فردريك، وفوغيا موجودة في Capitanate.

٨٧ — ٣ — أيلول ١٢٢٨، ويؤكد هرقـل(ص ٣٦٩)بوضوح بأن جون دي إيبلين ووولتر صاحب قيسارية قد رافقاه.

٨٨ — نفين قائمـة في منطقة طـرابلس، على السـاحل، إلى الجنـوب من مدينة طرابلس مباشرة.

٨٩ — وكان فيليب قد قال في مقطع ٣٤ المتقدم بـأن بوهيموند قد جاء إلى الامبراطور قبل أن ينطلق إلى نيقوسيا لمطاردة الايبليني.

٩٠ — استثنـى الحرمـان البـابـوي الـذي نشر في سـوريـة بعـد وصـول فـردريك: رجـال الديـن، والداويـة، والاسبتاريـة، على أن فرسـان التيوتـون وقفوا إلى جـانب الامبراطـور، وأولاه البارونـات السوريـون القليل من الاهتمام.

٩١— أقحـم هذا النـص الـذي بـدايته«تـرك صـور..» ونقـل من عنـد أمادي(ص ١٣٣) وكان ذلك من قبل كوهلر، ولعله يومىء إلى أن

فردريك قد توقف أولاً في صور ثم ذهب إلى عكا، والحقيقة هي أن جون دي إيبلين قد التحق به في صور، بعد التوقف أولاً في بيروت، مما يؤكد هذا الانطباع، وتظهر رواية Chron-iconsicul(انظر الملحق الثالث) إن الاسطول الامبراطوري قد توقف في ميناء صور، لكن دون أن ينزل منه أحد، ولم يبق هناك لوقت طويل، ومن الممكن أن يكون الايبليني قد التحق بالأسطول في الميناء، وكان أول نزول لفردريك إلى اليابسة في سورية، في عكا، التي كانت عاصمة المملكة.

٩٢— وأضاف أمادي(ص ١٣٣):«على مسافة أربع وعشرين من عكا»، وحصن جيش فردريك يافا أثناء سيرالمفاوضات.

٩٣— الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب(١٢١٨ ـ ١٢٣٨)، أسن أولاد سيف الدين، وابن أخي صلاح الدين، وقد كان حاكم مصر بعد موت أبيه.

٩٤— غير صحيح لم يكن الكامل في ذلك الحين سلطان دمشق، وحكم المعظم عيسى، وهوأخ أصغر للكامل، وقد حكم دمشق(١٢١٨ ـ ١٢٢٧)، وقد خلفه ابنه الملك الناصر داود، وكان داود في البداية قادراً على الدخول إلى ميراثه مع موافقة عمه الآخر، الأشرف موسى، صاحب الجزيرة، لكن حدث في سنة ١٢٢٨أن دخل الملك الكامل والأشرف في تحالف اقتسما خلاله ديار دمشق، وتسلم الكامل بموجب هذا التحالف فلسطين، في حين توجه الأشرف إلى دمشق وإلى الشطر الشمالي من أملاك المعظم، وكان حصار دمشق من قبل الأشرف طوال الوقت الذي كان فيه فردريك في القدس، وكانت رغبة الكامل الجامحة في أن يتحرر من خطر فردريك ليشارك في الصراع حول دمشق من أهم الأسباب التي دفعت هذا السلطان لتقديم شروط معاهدة مغرية.

٩٥— لقد تقدمت مناقشة هذه المعاهدة وبنودها في المدخل.

٩٦— هذا ينبغي أن يكون«Cotron»وليس«بترون Botron»، وكان ستيفن أوف كترون هذا، هو الـذي أرسله فردريك إلى سوريـة مع ثلاثمائة فارس من صقلية لمرافقة أسقف ملفي، ولتلقي الولاء من البارونات المقادسة بمناسبة زواج الامبراطور وملكة القدس(هرقل ص ٣٥٩ . هـ . ب :٢ / ٩٢١ _ ٩٢٤)وجاء عند أمادي (ص ١٣٣)« كان الكونت ستيفن في البترون».

٩٧— كان جـون دي إيبلين صاحب يـافا، وابن فيليـب دي إيبلين، هو الـذي سيصبـح فيها بعـد مـولى فيليب دي نـوفـار وتلميـذه، وهـو مصنـف العمل العظيـم حـول قوانين القـدس، وكـان في السابعـة عشرة من عمـره في سنة ١٢٣٢ ، ولابـد أنه كـان في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الحين.

٩٨— رفض كل من الداوية والاسبتارية إتباع فردريك، لأنه كان محروماً كنسياً، وتحت الحظـر البابـوي، ولقد وافقـوا أخيراً على التعاون مـع جيشه بمثـابة حلفـاء يخدمون في ظـل«رباط المسيـح»، وليس تحت إمـرة الامبراطور(هـرقل ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣) وعبثاً حـاول فردريـك الاستيـلاء على قلعة الـداويـة في تل الصـافيـة(ري ـ التحصينـات العسكرية ص ٩٩)، واتهم الداوية بمحاولة اغتياله(متى باريس : ٣ / ١٧٧ ــ ١٧٩)، وخـدم فـرسان التيـوتـون الامبراطـور عـن طواعيـة، وكانـوا مخلصين له طـوال الوقـت، لكن تنظيمات الـرهبنة الأخرى احترمت الأوامر البابويـة، ورفضت إطاعة الامبراطور، وورد ذكر معارضة الرهبانيـات والبطريرك في رسائل جيرولد، وهيرمان et al،وريكاردوس سينت جرمانو(ص ٣٥٥).

٩٩— بيتردي مونتاغيو، المقـدم الأعظم(١٢١٩ — ١٢٣٢)، وكان أخاً

ليوستوريو رئيس أساقفة نيقوسيا.

١٠٠— أقحم كوهلر هذه العبارة من أمادي(ص ١٣٤)، وأوضح أمادي تداخل مادة« الأعمال»بقوله:«كان في ذلك الوقت عدد كبير من الرهبان الشجعان من الداوية، وكان المقدم هو بيتردي مونتاغيو، ومثل هذا امتلك فرسان التيوتون مقدماً شجاعاً وحكيماً».

١٠١— هيرمان فون سالزا، المقدم الأعلى(١٢١٠ ـ ١٢٣٩)، وقد كان واحداً من أعظم مستشاري فردريك ثقة، وكان هو الذي ساعد على مناقشات الزواج من ملكة القدس لتأمين عرش القدس لفردريك، وأفضل ما هو معروف به هو تأمينه الامتيازات للفرسان في بروسيا، مما شكل فيما بعد القاعدة من أجل دولتهم الإقليمية.

١٠٢— لعل في قوله:«شعب السهل» إشارة إلى سكان السهل الساحلي من حول عكا.

١٠٣— هذه هي الاشارة الوحيدة لتتويج فردريك في القدس في ١٨ ـ أيار ١٢٢٩، التي قدمها نوفار، وقدم هرقل (ص ٣٧٤)رواية التتويج من وجهة النظر السورية، ملاحظين أن الكتيبة القبرصية قد بقيت في يافا، ولم ترافق الامبراطور إلى المدينة المقدسة، ويمكن لهذه الأوضاع شرح كل إشارة إلى التتويج لدى نوفار، ولم يعترف الإيبلينيون بهذا التتويج ، واعترفوا فقط بفردريك على أنه وكيل لكونراد فقط، وكونراد هو الوريث الشرعي،.(انظر : Roh-richt,Geschichte,P 791, Kantorawicz,Fredrik 11,P.197)

١٠٤— استمر الحصار وفقاً لرواية جيرولد لمدة خمسة أيام(MGH Epis,1,315-17.) (ففي رسالة من جيرولد صادرة في أيار ١٢٢٩ (هـ . ب : ٣ / ١٣٥ ـ ١٤٠)تشكى من أن فردريك قد

حاصره في قصره العائد للبطريركية ، وادعى كانتورووكز(ص ٢٠٤ - ٢٠٥) بأن الشعب قد أثير من قبل البطريرك ضد فردريك ويلاحظ أن عدوانيته نحو الداوية قد استمرت بعد عودته إلى إيطاليا حيث صادر جميع ممتلكاتهم في بلاده.

١٠٥— تحدث كل من أمادي(ص ١٣٤ ـ ١٣٥) وبوسترون(ص ٧٢) عن محاولات قام بها الامبراطور لاعتقال جون صاحب بيروت في ذلك الحين، وقد شكل الداوية والجنوية مع جون صاحب بيروت حلفاً عملياً ضد الامبراطور لحماية أنفسهم.

١٠٦— كان يودس دي مونتبليارد، قسطلان القدس قد عين وكيلاً للقدس من قبل الملك جون دي بريين في سنة ١٢٢٣ ، وقد استمر في مركزه بتكليف من فردريك في أيام زواجه، واستبدل في تموز ١٢٢٧ بالكونت توماس أوف أسيرا، ثم أنه اختير من قبل البارونات بعد وفاة إيزابل ليكون وكيلاً لكونراد، وذلك مع بالين صاحب صيدا ليكون زميلاً له، وكان هذان يشغلان وظيفة الوكالة عندما وصل الامبراطور إلى عكا، وعاد يودس إلى الوكالة عندما استقال غانير الألماني ليصبح داوياً في سنة ١٢٣٩، ومرة ثانية عندما بلغ كونراد في سنة ١٢٤٣ السن القانونية، وقد آثر حقوق الملك كونراد ضد الإيبلينيين، مع أنه كان قريباً جداً من تلك الأسرة : فقد كان هو ابن وولتر دي مونتبليارد وبورغوني دي لوزغنان ، وكانت عمته(خالته) أليس زوجة فيليب دي إيبلين، وأخته اسشيفي قد تزوجت بالين ابن جون صاحب بيروت، وهو نفسه قد تزوج من اسشيفي صاحبة طبرية حفيدة هيلفيس دي إيبلين وابنة أخت(أخ) بالين صاحب صيدا، وقد تزوجت ابنته من فيليب دي إيبلين ابن بلدوين.

١٠٧— انظر أعلاه الفقرة ٣٤، الحاشية ٧٩ .

١٠٨ــ جرى تحديد شخصية غـارنيير الألماني من قبل إ. وكليهان على أنه ويرنرفـون إيشيم Egisheim،وكان ألسـاتيانيalsatian(فردريك الثاني : ١/ ١٣٥ ــ ١٣٦) وقد كان واحـداً من أقدم أفـراد أسرته في الشرق، وأسهم في وصولها إلى مـوقع الأهمية، وقد تـزوج من باڤي Pavieصاحبة جبلة، وغدا ابنهما سيداً لقيسارية من خلال زواجه، وكـانت أسرتـه ذات عواطـف امبراطـورية، وكـان حفيده غـارنيير الأصغـر عضواً في المستعمـرة الامبراطوريـة ـ القبرصيـة في كورفـو، تحت قيـادة فيليب شينـارت Chenart، وقـال روهرخـت -Bei) trage,1,47 و(Geschichce P.745بـأن الألماني وجــون صاحـب بيروت (Zweitreue Anhanger Friedrichs)قد تركـا بمثابـة وكيلين في حين جعل بالين صـاحب صيـدا قسطلان صور، هذا وأعطى هرقل(ص ٣٨٨) اسم أيمون دي لارون على أنه هو الـذي كان قسطلان صور، ولم ينقـل روهرخت عـن أي مصدر بشأن هذه الرواية المدهشة، التي لاتتماشى بشكل مؤكد مع سياسة فردريك نحو الإيبلينيين.

١٠٩ أليس دي مـونتفرات، ابنـة وليم الرابـع دي مونتفـرات وبيرثا أوف غريفساني Gravesaneالتي لم تكـن لابنة خال(عم) لفـردريك ولا لوليـم، وجاءت قرابتهـا لهنري مـن كونها حفيدة كبرى لكـونراد زوج إيزابـل صاحبـة القدس، ووهـم أمادي في (ص ١٣٦) حين جعلها ابنـة وليم صاحب السيـف الطويل، حيث خلـط بينه وبين كونراد، ولقد مضى دوكانج(الأسر، ص :٦٣)حتى أبعد من هذا ، حيث جعل وليم صـاحب السيف الطويل، كونـت سالسبري، ابناً طبيعيـاً لهـنري الثـاني ملـك إنكلترا، ووالـداً لأليـس، وكـان وليـم الثـالــث أوف مـونتفـرات الجد الأعلى العــام لكـل مــن أليـس وإيـزابل،زوجـة فردريـك المتوفـاة، وأن زوجته صـوفيا كـانت ابنـة

فـردريك الأول، وعمـة(خـالة)فـردريـك الثاني، وحسبما بين مـاس لاتـري(المصـدر نفسـه :١ / ٢٥٣)لم تكـن في جميع الاحتمالات موجـودة أثناء حفلة العـرس، ولعلها تزوجـت من واحد مـن وكلاء الأعمال.

١١٠— باع فردريك الـوكالة إلى عموري برلياس ورفـاقه الأربعة قبل أن يغادر عكـا(هرقـل،ص ٣٧٥)، وجددت الاتفـاقية في ليماسـول، وكانت الوكالة لمدة ثلاث سنوات.

١١١— قـال هرقـل في (ص ٣٧٥) :«وأخبرهـم بـوجوب تسليـم العشرة آلاف مارك إلى بالين صـاحب صيدا ومعه غـارنيير الألماني، اللذان بقيا في موضعه كوكيلان للقدس».

١١٢— هذا هـو أول ظهور لفيليب على أنـه شخصية فعالـة في أحداث روايتـه، ولعلـه استقـى مـواده الاخبـاريـة المتقـدمـة مـن بعـض الإيبلينيين، لكن مـن الآن فصاعـداً غدت الـرواية روايـة شخصية عن الأحداث التي أسهم فيها شخصياً بدور كبير.

١١٣— أوضـح غاسـتون الباريسي(دوريـة الشرق اللاتينـي ٩(١٩٠٢) ١٩٤) أن هذا قـد يفيدبـأن الإيبلينيين كانـوا آسفين بعض الشيء بشـأن أعمالهم، وأن الحزب الامبراطـوري كـان على الأقـل حـزبـاً شعبياً، ومن المؤكد أن مقاصد فيليـب كانت لإعطاء هذا الانطباع، وهذا واحد مـن الأماكن التي أبـاحت سمات فيليب الدعـائية عن نفسها.

١١٤— قال هـرقل في(ص ٣٧٦) بـأن الوكـلاء قد سلبـوا أراضي جون دي إيبلين ومتحزبيه الذين كانوا مـا يزالون في عكا ، حتى يتمكنوا من تأمين جمع مبلـغ ثلاثة آلاف مارك لـدفعها إلى الامبراطور (ربما القسط الأول من العشرة آ لا ف).

١١٥— قد يومي هذا بأن موقف الإيبلينيين لم يكن الموقف الأكثر شعبية، وأن الوكلاء قد امتلكوا أتباعاً لهم قدرهم، انظر وقارن الحاشية رقم / ١١٣ / المتقدمة، وقد لجأ فيليب إلى الميول الاعتذارية للوكلاء في الفقرة التالية.

١١٦— كان معنى قبول فيليب للاقطاع من الوكلاء أن عليه تأييدهم والارتباط بهم بموجب قانون العلاقات الاقطاعية، وكان منح الاقطاعات شائعاً لربط إنسان ما بآخر من أصحاب السلطة، وهذه هي المرة الأولى التي ورد فيها ذكر ديون فيليب التي أصبحت فيها بعد كبيرة جداً.

١١٧— قال أمادي في(ص ١٤٠)«كان قد قتله»، وهذه الفقرة غير واضحة كثيراً فما الذي قصده فيليب من الالتجاء إلى مقر الاسبتارية، حيث كانت النسوة هناك، وكيف حشد مائة وخمسين رجلاً عسكر معهم في المقر، وبذلك تولى خدمة نفسه وخدمة النسوة؟.

١١٨— قام كوهلر بالتصحيح بعد قراءة تصحيح غاستون الباريسي(رومانيا ١٩(١٨٩٠) ٩٩)، وقراءة«الأعمال»هي«Bonlait »وقال أمادي (ص ١٤٠) :«لإنقاذ ديودامور والسيدات اللاتي هناك»، وهذا خطأ لأن السيدات لم يكن في ذلك الوقت في ديودامور.

١١٩— غاستريا Gastria الحديثة، في أسفل جزيرة كراباس، جنوبي كنتارا، وشمالي فيماغوستا.

١٢٠— أي عائدين من الحملة الصليبية التي رافقوا فيها الامبراطور.

١٢١— كان التوركبلية فرساناً خفيفي التسليح جرى تجنيدهم من خليط من السكان الفرنجة والسوريين، وكانت لهم مكانتهم الهامة

كإحتياط لفرسان الإقطاع الثقال.

١٢٢— كان وولتر صاحب قيسارية، قسطلان قبرص(١٢١٠ ـ ١٢٢٩) الزوج الثاني لمرغريت دي إيبلين، أخت كل من جون وفيليب ، وكان ابنهما جون« صاحب قيسارية الشاب الطيب»، كما كان مساعداً فعالاً للإيبلينيين.

١٢٣ كان جيرارد دي مونتاغيو بالإضافة إلى كونه حفيد بيتر، وغورين، ويوستورغ، زوج اسشيفي دي مونتبليارد، ابنة بيتر وبوروني ، وأخت يودس الوكيل، وتزوجت اسشيفي بعد وفاة جيرارد بالين دي إيبلين، وتؤكد حوليات الأرض المقدسة (ص ٤٣٨) موت جيرارد وولتر في هذه المعركة.

١٢٤— كنتارا قائمة في كراباس، وإلى أقصى الشرق للثلاث قلاع العظيمة أي قلاع الشمال وهي: ديودامور، وبوفانتو، وكنتاراً،وتبعاً لهرقل(ص ٣٧٧) كان وليم دي ريفت مع برلياس وصاحب بيسان في ديودامور، وقال بوسترون (ص ٧٨) بأن دي ريفت قد هرب إلى بوفافنتو، وأضاف ماس لاتري في(التاريخ : ١/ ٢٥٩) بأن نوفار قد حاصره هناك، لكن رواية فيليب تظهر أنه لم يكن في بوفافنتو، وليس هناك من بينة تشير بأن دي ريفت قد ذهب إلى هناك، ومن المؤكد لو أن فيليب ربح حصار مثل هذه القلعة الهامة لما أخفق في ذكر ذلك، لأنه قدم تفاصيل واسعة عن حصارات أخرى.

١٢٥— أعطى هرقل في(ص ٣٧٧) التاريخ على أنه السبت ٢٤ حزيران لسنة ١٢٢٩ كان يوم أحد، في حين كان يوم ١٤ تموز كان يوم سبت، وقال أمادي في(ص ١٤٣) كان ١٤ ـ حزيران، وقال ماس لاتري(المصدر نفسه : ١/ ٢٥٨): بأن ذلك كان يوم

السبت ٢٣ حزيران، وأعطى روهرخت(التاريخ ص ٨٠٣) ١٤ ـ تموز ، وذلك اعتماداً على «الأعمال»، لكن علينا أن نلاحظ أن أمادي ربما صحف في قراءته Jjugnet الذي ورد في «الأعمال» كحزيران، عوضاً عن تموز.

١٢٦— كيرينا الحديثة على الساحل الشمالي، إلى الشمال من نيقوسيا مباشرة.

١٢٧— توفي هيوج الابن الثالث لجون من دون ورثة، وكانت وفاته في حوالي سنة ١٢٤٠، وقليل هو المعروف عنه.

١٢٨— كانت الـ Trebuchet آلة حصار هجومية، وكانت سلاحاً أكثر فعالية وقوة من أية آلة قديمة لرمي المقذوفات، واستخدمت أول ما استخدمت في القرن الثالث عشر، ويبدو أنها شرقية الأصل، ذلك أنها استخدمت كثيراً من قبل المسلمين(انظر أومان :تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى،(ط . ثانية، لندن ١٩٢٤)٢ / ٤٣ ـ ٤٦).

١٢٩— قال هرقل في(ص ٣٧٧): عشرة أشهر، وكان الحصار قد بدأ في تموز ١٢٢٩، أي مباشرة بعد معركة نيقوسيا، وانتهى بعد بعض الوقت، بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، الذي جاء في ٧ ـ نيسان.

١٣٠— قال هرقل في(ص ٣٧٧):«ولهذا عانى الملك هنري ، الذي كان في الداخل، من آلام عظيمة ومن الحاجة إلى الطعام والملابس، وعانى كذلك الذين كانوا معه في الداخل، ولهذا انتقد كثيراً الذين أمسكوه داخل الحصار، واشتكى إلى إخلاصهم بحكم كونهم أتباعه، ووبخهم على أنهم خونة، وأمر جون دي إيبلين بجمع المال من جميع أرجاء الجزيرة، وبذلك تابع الحرب، واستمربالحصار.

١٣١— ٧ ـ نيسان ١٢٣٠ .

١٣٢ — كان فيليب دي شينـارت واحداً من اللوردات السـوريين الذين رافقوا إيزابيل دي بريين إلى إيطـاليا في سنة ١٢٢٥ (هـ . ب :٢ / ٥٣٦ ـ سينـارد)، غير أن القليل هو المعروف عنـه قبل الدفـاع عن كنتارا، وقـد ارتقى فيها بعد إلى مرتبـة هامة في الخدمة الامبراطـورية في إيطاليا وكـورفو(انظر مايلي المقطـع ١٣٨ — الحاشية رقم ٢٢٢).

١٣٣— أضاف أمادي في (ص ١٤٥) :«لاسترداد إقطاعاتهم».

١٣٤— أضـاف أمادي في(ص ١٤٥):«وينبغـي أن ينيـب واحداً يتـولى استلام الموارد من أجلهم».

١٣٥— ظهـر وليم دي تينـر، على صك وثيقـة تـاريخها أيلـول ١٢٣٢ ، على أنـــــــــــــــــــــه مقدم الرهبان الاسبتارية في فرنسا،

.(Delaville le roulx,cartulaire general de l`ordre

de st jeande jerusalem, ii,does 1996.2036)

١٣٦— البابا غـريغوري التاسع(١٢٢٧ — ١٢٤١)، والملـك لويس التـاسع(١٢٢٦ — ١٢٧٠)(وكـانـت بـلانشي أوف كاستيـل في ذلـك الحين هي النـائبة)، وهنـري الثالـث(١٢١٦ — ١٢٧٢)، وفيرنـانـد الثالـث أوف كـاستيـل، وألفـونسـو التاسـع أوف ليـون، وسانشـو الرابع أوف نافـار، وجيمس الأول أوف أراغون، وسـانشو الثاني أوف برتغال.

١٣٧— أضاف أمادي في(ص ١٤٦):«لكن عنـدما تمت المصالحة أقلع عن الذهاب،ولم يرسله(صاحب بيروت)).

١٣٨— أضاف هرقـل(ص ٣٨٠) هنا ذكر واقعة حذفهـا فيليب بالمرة، وكـان لها أثـرهـا الكبير على الصراع مع الامبراطـور، ووقعـت هـذه

الواقعة في سنة ١٢٢٩، ونص الرواية في هرقل هي كما يلي:«في ذلك الوقت الذي غادر فيه الامبراطور بلاد سورية وقبرص، قدمت الملكة أليس أم الملك هنري إلى عكا، وطالبت بمملكة القدس على أساس أنها الوريث الأكثر شرعية كان ظاهراً بين أولاد جدها الملك عموري، واجتمع رجالات البلاد للتشاور، وردوا عليها بأنهم ليسوا رجال الامبراطور فردريك، المستحوذ على البلاد وكالة عن ابنه كونراد، ولهذا السبب هم كانوا غير قادرين لتلبية ما طلبته، لكن بما أنهم لم يروا قط كونراد ابنه هذا، كما أنه لم يحضر مطلقاً إلى المملكة، لما تقدم بعثوا رسالة إلى الامبراطور بأنه يتوجب عليه أن يرسل خلال عام ابنه إليهم، وإذا ما بعثه إليهم سوف يحافظون عليه سيداً لهم، وإذا لم يرسله سوف يفعلون من أجله الذي هو متوجب عليهم، وبغية تقديم هذا الطلب إلى الامبراطور بعثوا كرسل إثنين من الفرسان، كان أحدهم غيوفري لى تور، الذي كان باروناً في البلاد، وكان الآخر جون دي بيلول Bail-luel، الذي كان باروناً في فلاندرز، وعبر هذان الفارسان البحر إلى أبوليا في غليون، وقد وصلا إلى برنديزي، وسافرا من هناك حتى وجدا الامبراطور في سان لورانزو، حيث كان متوجهاً إلى كابوا، حسبما سمعت، وأعطياه هناك رسالتهما، وقد أجابهما بأنه سوف يفعل المطلوب منه خلال المدة المحددة ».

١٣٩— أقام فردريك مصالحة مع البابا غريغوري في سان جرمانو سنة ١٢٣٠.

١٤٠— هذا واضح أنه موقف مسبق وحكم غير عادل إلى حد ما، وقد أعطى هرقل(ص ٣٨٣ — ٣٨٦) سبباً إضافياً لإرسال فردريك الحملة هو الاضطرابات التي واجهها المقادسة في عملهم للسيطرة على القدس، فقد كان المسلمون يؤذونهم ولايحترمون المعاهدة، وقد

ناشد سكان القدس وكلاء الامبراطور لتقديم العون لهم، وناشد هؤلاء بدورهم الامبراطور، ولكن في الوقت الذي بعث الامبراطور فيه الأسطول للقيام جزئياً بإعادة السيطرة على المدينة المقدسة، كان إخضاع الإيبلينيين هو السبب الرئيسي لإرسال الحملة.

١٤١— كان رتشارد فيلنغر واحداً من رجالات فردريك المعتمد عليهم، وقد جرى تعيينه نائباً إمبراطورياً في الشرق، ووكيلاً في قبرص وسورية، وطالبت رسالة بعث بها غريغوري التاسع تاريخها ١٢ — آب سنة ١٢٣١ ، السوريين من رجال دين وشعب قبول فيلنغر كوكيل لفردريك ملك القدس، وليس كنائب امبراطوري.(MG H. Epis, 1,363 - 64)

١٤٢— تبعاً لما ذكره جون دي إيبلين صاحب يافا(القوانين: ١ / ٣٢٥) قام بالين صاحب صيدا، وهو يعمل بناء على أوامر الامبراطور، فجرد صاحب بيروت من جميع ممتلكاته في مملكة القدس، وقال فيليب دي نوفار(القوانين : ١ / ٥٢٨) بأنه قد جرد من إقطاعاته في عكا، وجرى أيضاً تجريد كل من جون صاحب يافا، وروهارد صاحب حيفا، وفيليب لى آسن، صاحب قيسارية، من قبل بالين، وبما أن هذا الإجراء لم يجر بوساطة المحكمة، بل فقط من قبل الوكيل، كان عملاً غير شرعي،وقام البارونات بمساندة المجردين في جهودهم للحفاظ على إقطاعاتهم.

١٤٣— قال هرقل(ص ٣٨٦) بأنه جرى استخدام جاسوس من قبل الإيبليني، كان قد جاء على السفينة من برنديزي، ويبدو أن هذا كان منطقياً بما أن التيوتون أنفسهم كانوا على صلة وثيقة بالامبراطور.

١٤٤— قال هرقل(ص ٣٨٦) بأن الإيبليني والملك قد ذهبا إلى لى

كويت Quit(كيتي قرب لارنكا) مع عدد قليل من الفرسان والسيرجندية احتشدوا في ليماسول تحت قيادة بالين.

١٤٥— جاء الأسطول على قسمين: فقد وصل القسم الأول إلى رأس غافاتا، بينما كان القسم الثاني مايزال في برنديزي، وجاء فيلنغر نفسه بعدما كان رجاله من القسم الأول يحاصرون بيروت.

١٤٦— قدم هرقل(ص ٣٨٦ — ٣٨٧) رواية أكثر تفصيلاً حول المناقشات، ونص روايته هو التالي:«وصل في هذا الحين غليونان إلى ليماسول كان فيهما أسقف ملفي مع اثنين من الفرسان، كان إقطاعهما في عكا، وأولهما أيمون الألماني، وثانيهما جون دي بيلول، الذي كان من الفلمنك، وقد طلبا الملك ليتحدثا إليه، وقد أخبرا أنه كان في لى كويت، وقد غادرا ليماسول في غليونيهما، ومضيا إلى لي كويت، فهناك كان الملك معسكراً.

وعندما وصلا إلى هناك قالا للملك بحضور صاحب بيروت:«بعث إليك الامبراطور رسالة يطلب بها منك بحكم كونك تابعاً له، أن تقوم بطرد جون دي إيبلين وأولاده، وأحفاده وأقربائه، وبمغادرتهم لبلادك، لأنهم اقترفوا الخطأ، وبناء عليه يرسل إليك أوامره، ويحظر عليك بحكم كونك تابعاً له، أن تمنحه مأوى أو ملجأ في أراضيك»، وعقد الملك الذي كان دون السن القانوني المشاورات، وجرى إعداد جواب له ليقدمه إلى الفارسين بوساطة فارس كان من أتباعه واسمه وليم فيزكونت، الذي قال لهما:« أيها السادة، لقد أمرني الملك، وفوضني في أن أقول لكما: إنه مندهش جداً لقيام مولاكم الامبراطور بتقديم مثل هذا الأمر، لأن صاحب بيروت هو خاله من جهة أمه، ومعروف بشكل جيد أنه هو وحفيده وجزء من أقربائه هم من أتباعه، ولهذا لايمكنه أن يتخلى عنهم، وبصرف النظرعن لطف الامبراطور، لايمكن للملك، ولا

يجوز له أن يفعل ما أخبرتماه به، وإنه إذا ما فعل ذلك، يكون قد أخطأ بحقهم»، ونهض بعد هذا جون دي إيبلين وقال مخاطباً الملك:«مولاي إنني من أتباعك، لذلك أرجوك أن تدعمني وفقاً للعدل،لأنني على استعداد لتقديم العدل وأخذ العدل أمامك وفي بلاطك إذا ما طالب أي إنسان بذلك». وهنا قام الرسولان وقالا للملك:«مولاي لقد سمعت ما قلناه لك وأبلغناه إياك عن الامبراطور، ولقد سمعنا جوابك» وبناء عليه غادرا على الفور، ومضيا إلى غليونيهما، واعتليا ظهريهما وسافرا إلى غافاتا حيث كان أسطولها راسياً».

١٤٧— قال هرقل(ص ٣٨٧) بأنهما تمهلا هناك، انتظاراً لوصول المارشال فيلنغر.

١٤٨— أدرج يوبل Eubel في كتابه«تاريخ الكاثوليكية» اسم غوليرانوس Gualeranus على أنه كان أسقف بيروت في سنة ١٢٣٣ — ١٢٤٥، ولعله كان الأسقف الذي استسلم في سنة ١٢٣٠ .

١٤٩— تبعاً لجونا«تاريخ قبرص»(١/ ٥٣٦، ٥٣٩) : كان جون غونيمي Goneme هو المتولي لقلعة بيروت.

١٥٠— دون تاريخ هرقل(ص ٣٣٨ — ٣٩٢)أخبار وقائع حدثت في عكا، وقد أسقط ذكرها نوفار مع أنها كانت ذات تأثير مباشر على الرواية، مثلما يلي:

«بعدما أمضى المارشال مدة وجيزة في بيروت مضى إلى عكا مع قوة صغيرة فقط،وعندما وصل إلى هناك حشد جميع الفرسان والبرجاسية، وما أن اجتمعوا في قلعة القصر الكبير، حتى أمر بقراءة رسائل عليهم بحضورهم، وهي رسائل كانت مختومة بالذهب، وأرسلت من قبل الامبراطور فردريك إلى جميع الذين في

المملكة، وقد حوت كلمات كثيرة لطيفة ومهدئة ومطمئنة، وقد قال بين أشياء:«لقد بعثت إليكم مارشال الامبراطورية،رتشارد فيلنغر نائباً يعمل لصالحي، وليكون وكيلاً للمملكة للحفاظ على الحق والعدالة، وليحمي حقوق الكبير والصغير، والغني والفقير»، وعندما اكتملت قراءة هذه الرسائل، نهض رتشارد وقال:«أيها السادة لقد سمعتم رسائل مولاي الامبراطور، وحسبما قد أمرني، أنا جاهز للعمل بوساطة التشاور مع نبلاء الناس في هذه البلاد»، ولو أن السلوك والأعمال كانت مثل هذه الكلمات والرسائل، لرضي أهل البلاد تماماً، واستقبلوه كوكيل، لكن ما أن وصل إلى البلاد، حتى كانت أعماله مخالفة تماماً،فقد أباح عما كان في قرارة نفسه مما أضمره في عقله، فبدا متجبراً ومتكبراً، وغير مزود بالعقل، وبناء عليه شعر كل انسان وأدرك أن مقصده هو تدمير كل شيء، وتحويل كل شيء إلى لا شيء، وبعدما أدركوا هذا كله، وباتوا متأكدين من سوء نواياه، اجتمعوا وتشاوروا، وبناء عليه وقف بالين صاحب صيدا وقال:«لقد فوضوني أن أقول لك كلمة باسمهم وباسمي شخصياً: عليك أن تعرف أنه عندما جرى الاستيلاء على هذه البلاد، لم يكن ذلك بفضل قائد من الحكام، بل جرى الاستيلاءعليها بوساطة الصليبيين، وبفضل أعمال الحجاج والشعب الذي احتشد، وعندما استولوا عليها، اتخذوا رئيساً لهم بالاتفاق وبوساطة الانتخاب، وأعطوه السيادة على المملكة، وصنعوا فيما بعد بموافقة الشعب كله وبمعرفته «قواعد» و«قوانين»، رغبوا بالحفاظ عليها واستخدامها في المملكة، لسلامة الحاكم وبقية الشعب، وللحفاظ على الحقوق، وأقسموا بعد ذلك على الحفاظ عليهم، وجعلوا الرئيس يقسم أيضاً، ومنذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي أقسم جميع الحكام الذين عرفتهم المملكة عليها، وكذلك فعل الامبراطور، ويوجد في هذه القواعد وقواعد

أخرى وقوانين هـذا القانون القاضي: إنه لايمكن للحـاكم(الملك) ولايستطيـع ولايجوز لـه حـرمـان تـابعه الاقطـاعـي بـدون مـوافقـة المحكمة، ومـن المعروف بشكل جيد بـأن صاحب بيروت هو تـابع للامبراطـور، وقد قمت أنـت، الذي حللت محل الامبراطـور لحماية الأرض، وللحفـاظ على الحقـوق، بـوضـع يـدك على ممتلكـاتـه الاقطـاعيـة، وحرمتـه مـن مـدينـة بيروت، والمناطـق المحيطـة بها، وتـوليـت حصـار القلعـة من دون قـرار مـن المحكمـة، ومـن دون صدور حكـم عنها بهذا الشأن، ولهذا نطلـب منك، بمـوجب الحق والعقل، وبغية الحفاظ على اليمين والإخـلاص والثقة العائدة لمولانا الامبراطور، أن تقوم أنت ورجالـك بمغادرة بيروت، وإذا ما توفرت لديك الـرغبة في خلع صاحـب بيروت وحرمانه، وإذا كنـت ترغب بـأن تطلـب وأن تدعـي أي شيءعليـه، اطلـب دعـوته بمـوجـب ممـارسات المملكـة، ودع قـرار الحكـم للمحكمة، وإذا كـان قـرار المحكمة لصالحك، نحن على استعداد لمساعـدتك، وأن نضع قوتنا لدعم القضية التي تحتاج إلى ترضية وإصلاح».

«وعندمـا سمع المارشـال رتشارد فيلنغـر هذا الكـلام استولى عليـه العجب كيف تجرأوا على مخاطبته به،لأنـه لم يعتقد بوجود أي إنسان يمكنـه أن يتجرأ على معـارضـة أي شيءأراد هـو صنعه، وقـد رأى الآن أن الأمـر ماضيـاً حسبما فكر، وهـو لن يمضي كـذلك أيضـاً، ومع هذا أخفـى ضغينته في قلبه، لأنه لم يكـن بإمكانه فعـل ما هو أحسن، وبناء عليه قال لهم: بأنـه لايستطيع الرد عليهم، فيما يتعلق بهذا، حتى يتشاور مـع أعيان رجال الامبراطور، الذين قـدموا معه، والـذين هـم الآن في بيروت، وهو سـوف يذهـب إلى هناك، ليقـوم بعقد مشـاورات معهم، وعليهم أن يبعثـوا إليه إلى هنـاك للحصول على جـوابـه، وإثر هـذا غـادر في صبـاح اليوم التـالي، وذهـب إلى

بيروت، وعندما حصل هناك شدد الحصار على القلعة وضيق عليها أكثر مما فعل من قبل».

«وبعث بالين صاحب صيدا، وجون صاحب قيسارية، ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني والفرسان والآخرون بفارسين إلى بيروت يطلبون الجواب من المارشال، وذلك بناء على ما وعدهم به، وكان أحد الفارسين رينو دي كيفاس، حاجب المملكة، وكان الآخر دانيال دي مولمبك Molembec، وعندما جاء هذان الرجلان إلى بيروت أخبرالمارشال أنهما قدما إليه للحصول على الجواب الذي وعد به أتباع الامبراطور، وهو ما جاءا يطالبان به، وكان جوابه هو التالي:«أخبركم أيها السادة أنني تابع للامبراطور، وأنا قائم لتنفيذ أوامره، وبودي أن يعلم كل واحد أنني سوف لن أجلب الأذى إلى أي واحد طالما أنا قادر ، في أي جانب هو معقول(وذلك أنه معلوم كيف تصرف جون دي إيبلين بذاته، وسلك نحو الامبراطور)، وأكثر من هذا إنني أفعل ذلك بسبب أنني عبد الامبراطور، والامبراطور هو المولى، وإذا ما شعرتم بين أنفسكم بأن الامبراطور فعل لكم أشياء ينبغي أن لايفعلها، ابعثوا رسلاً إليه، وهو بحكم كونه سيد مخلص وجيد، سوف يفعل ما يرضيكم، فهذا ما ينبغي»، وعاد الرسولان إلى عكا، وأبلغا بجواب المارشال الذين بعثوا بهما».

«وعندما سمع رجالات المملكة الجواب، وأدركوا أن إرادة المارشال كانت بالفعل حسبما أرغموا على الاعتقاد، وبناء عليه إذا لم يقوموا بالتشاور فيما بينهم بشأن أعمالهم سوف يلجون في مضيق خطر، وتنفيذاً لهذا اجتمع أكثرهم حكمة وأبعدهم رؤية للتشاور فيما بينهم، وأنه ليس أمامهم من منهج غير المنهج التالي: من المتوجب عليهم جميعاً ربط أنفسهم برباط القسم بالقيام بحماية حقوقهم،

وامتيازاتهم وإعفاءات المملكة من التكاليف والمحافظة عليها، ثم إنهم تذكروا أنه يوجد في المملكة أخوانية(رهبانية)، عرفت باسم رهبانية القديس أندرو، التي كانت قد تأسست من قبل الملك بلدوين، وتأكدت بالامتياز الذي منحه، وقد توفر في هذه الرهبانية قواعد وطرائق، بحكم شريعة امتيازات أعضائها، ولقد كان من بين الأحكام فيها: يمكن لكل من يود الانضمام إلى الأخوانية أن يفعل ذلك، وعلى أعضاء الأخوانية استقبالهم، ثم اجتمع الأعيان والفرسان والبرجاسية، وعندما كانوا مجتمعين بعثوا يطلبون مستشاري الأخوانية مع امتيازاتها، وعندما حضروا إلى هناك طلبوا قراءة الامتيازين، وبعد ذلك أقسموا على الانتماء إلى الأخوانية، ثم قام معظم الناس بالاقسام على الانتماء إلى الأخوانية، وقد فعلوا ذلك برغبة كبيرة بسبب الخوف الذي انتابهم نتيجة شرور المارشال رتشارد، وهكذا ارتبطوا جميعهم واحدهم بالآخر، ثم أرسلت إثر هذا رسالة إلى قبرص لإخبار جون دي إيبلين، وعندما سمع هذا بالإجراء الذي اتخذ في عكا من قبل رجال المملكة، وفق الطريقة التي سمعتم بها، كان عظيم السرور بذلك، وبدا ذلك بالفعل عظيم العون له في الحفاظ على وضعه».

١٥١ــ الاشارة إلى وليم أوف أورانج بطل ملحمة ألسكانز Aliscans وملاحم إقطاعية أخرى، على أنه طلب العون لمساعدة حفيده، هي موجودة في (نهاية الأغنية الرابعة)من: Roman de Foulque de candie

١٥٢ــ كانت لدى ليوبوند صاحب النمسا نواياه تجاه عرش قبرص أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

١٥٣ــ قال هرقل(ص ٣٩٢): كان هناك من رفض المساعدة بدافع الغيرة.

١٥٤— في قوله«انتهاء موسم الاضطراب» إشارة إلى الاعتدال الربيعي، وقال هرقل(ص ٣٩٢): بأنهم غادروا في أول أيام الصيام، الذي كان في سنة ١٢٣٢ يوم ٢٥ — شباط.

١٥٥— هذا يعني أي قائد كبير أو مهم، وكان آرنس صاحب جبلة وكيل صاحب الشؤون المالية في قبرص، وقد ترك قائداً للجزيرة خلال غياب الإيبليني والملك(هرقل ص ٣٩٩)، وتبعاً لجونا(تاريخ قبرص: ١ / ٥٣٧ ، ٥٤٥)تُرك فيليب دي نوفار نفسه حاكماً لقبرص، وهذا خطأ واضح.

١٥٦— هذا يعني: برلياس، صاحب بيسان، وصاحب جبلة.

١٥٧— كان مرسى القسطلان قائماًعلى الساحل فيما بين البترون ونفين.

١٥٨— قال هرقل(ص ٣٩٣)بأن فيلنغر قد بعث غليوناً إلى طرابلس لجلبهم إلى بيروت، وأضاف:«وسبب تخليهم عن الملك وعن جيشه هو كما قالوا: كان الملك قاصراً وتحت سلطان الآخرين، وهم كانوا بشكل رئيسي أتباعاً للامبراطور، ومرتبطين به أكثر من ارتباطهم بالملك».

١٥٩— ممر ضيق على الطريق البحري بين جبلة وبيروت.

١٦٠— قدم أمادي(ص ١٥٣)دوبيت معزو إلى نافار، أسقط من رواية«الأعمال»، وأدخله كوهلر في حواشيه، على أنه بلا شك جزء من النص الأصيل لفيليب، ونصه كمايلي:

«منحنا الرب كثيراً من القوة والصحة

كافية لنا للحفاظ على شرفنا وعلى ثروتنا».

١٦١— أضاف هرقل(ص ٣٩٣ — ٣٩٤)رواية حادثة هامة قال عنها:«عندما جاءوا إلى هناك(إلى بيروت)أرسل جون دي إيبلين

رسولاً إلى عكا، وكـان واحداً من رجاله اسمه درويـن، وبعث بعدة رسـائل إلى بالين صـاحـب صيدا، وإلى جـون صـاحـب قيساريـة اللذان كانـا ابني أخته، وإلى عدد كبير آخر من أصـدقائه، وأرسل رسائل إلى رجـالات البلاد بشكـل عام، وقد حـوت هذه الـرسائل، وأوضحت مايلي بعد التحيات:«أيها السـادة، أنا هنا لأعلمكم بأن رجالاً غـرباء من بلـد آخر قد قـاموا بمهـاجمتي، وقد استـولوا على مدينتـي وأخذوها، وكـذلك فعلوا بـأرضي، وقاموا بحصـار قلعتي، ولهذا السبب ليـس لدي قـدرة للقدوم إليكـم، أو لإرسال أي مـن رجالي، لأنهم محاصرون في قلعتـي، ولايمكنهم الخروج منهـا، وبناء عليـه تدبـرت أمر إعـلامكم بما أحتـاج إليه، بهذه الـرسائل، التـي أدعوكم فيهـا وأطلب منكم بحكم كونكم أخـوان لي وأصدقاء، أن تقوموا بنجـدتي فوراً، وذلك وفقاً لممارسات مملكـة القدس ولعاداتها، وأن تقـدموا المسـاندة لي حتـى أتمكن مـن إنقاذ مـدينتي والحفـاظ عليها، وعلى قلعتي وأرضي».

وقرئت هذه الرسائل في بيت بالين صاحب صيدا،حيث كان معظم رجـال الامبراطـور مجتمعين، وبنـاء عليـه طلـب جـون صـاحـب قيسارية، الجواب لتقديمه لخالـه جون دي إيبلين، وتطور الأمر بناء عليـه إلى انقسـام النـاس إلى قسمين، قسـم منها رأى أن عليهـم تقـديم العـون إليـه ومسـاندته في هـذا الموقـف، وعرضـوا القيـام بالـذهاب لمساعـدته ومساندتـه، وقال القسم الآخـر إنهم لايتفقون مع أصحـاب هذا الموقف، وكـان الذيـن وافقوا على الذهـاب هم: صاحب قيسارية، ورِوهارد صاحـب حيفا، مع أخيه رينو، وغيوفري لى تـور، وغيـوفـري دي استروني، وبلـدويـن دي بـون فيسين، مـع فرسـان آخرين، حيـث توفر منهـم ثـلاثة وأربعون، واستعـد هؤلاء، وانطلقوا، وزحفوا إلى حيث كان ملك قبرص وجون دي إيبلين».

١٦٢— البطريـرك جيرولد، والمقدم أرمانـد دي بيريغورد مقدم الـداوية، والمقدم غوريـن مقدم الاسبتارية، وبالين صاحـب صيدا، ويودس دي مونتبليـارد، القسطلان، وبـالإضافة إلى هـؤلاء ذكر هـرقل(ص ٣٩٤): بيتر، رئيـس أساقفـة قيسـاريـة، ووكيل البنـادقـة، وقنصلي الجنوية والبيازنة.

١٦٣— قال هرقـل في (ص ٣٨٨) بأن صور قد استسلمـت إلى هنري، أخـو فيلنغـر، وكـان مسلمها إليـه إيمـون دي لارون، الـذي تـولى حراستهـا، وكان بالين صـاحب صيـدا وكيل فردريـك في المملكة، وربما كان بالين قد أمر دي لارون الذي كان قسطلان صور بالقيام بعملية النقل.

١٦٤— أضاف هرقل في(ص ٣٩٤) أنهم عادوا بعد ذلك إلى عكا.

١٦٥— قال كتاب«الأعمال»:«صور»،لكـن أمادي صححها إلى«أرسوف» وكذلك فعل كوهلر.

١٦٦— كان وكيلاً في ١٢٤٦ ــ ١٢٤٨، و١٢٤٩ ــ ١٢٥٤ ، و١٢٥٦ ــ ١٢٥٧ ، و ١٢٥٨ ــ ١٢٥٩، وذلك في ظـل أليس ملكـة قبرص، وبليسـانـس Plaisance، وهيـوج الثـاني، وكان القسطـلان مـن ١٢٥١ إلى ١٢٥٨ .

١٦٧— كـان الزواج فيما بين ايـزابل دي لـوزغنان، وهنـري الابن الثـاني لبوهيمـوند الرابع، وصـار بوهيموند بعـد عودته من قبرص معـادياً تماما لفردريك الثاني، وراهن الايبلينيون على هذا آملين بمساعدته، وفي النهاية تـم الزواج، وكانت المحصلة أن أصبح هيـوج صـاحب انطاكية— لوزغنان، هيوج الثالث صاحب قبرص.

١٦٨— كان السير وليـم فيزكـونت واحـداً من أشهـر رجال العـدالة في وقته، وقـد أورد نافـار ذكره على أنـه كان مـن أبرز رجـال العدالـة

الذين عرفهم، وكان هو المتحدث باسم القبارصة عندما طلب فردريك طرد الإيبلينيين. (انظر أعلاه، الفصل ٧٩— الحاشية ١٤٣).

١٦٩— قامت تلة الحجاج آنذاك خارج طرابلس مباشرة، فهناك كانت قلعة كان قد أقامها ريموند صنجيل، عندما كان يحاصر طرابلس.

١٧٠— بيمونت أو بيوليو، اسم دير سسترشياني كان هاماً خارج طرابلس.

١٧١— الملك الأشرف، سلطان دمشق (١٢٢٨— ١٢٣٧).

١٧٢— تزوج بيرتراند بورسليت من ماري لى روكس دي بيسان، وقد باعوا في سنة ١٢٣٤، اقطاعاتها في «عربي وزكنين» إلى فرسان التيوتون (Strehlke,pp.61-62)، وكان بورسليت قد فقد اقطاعاته في قبرص في سنة ١٢٣٢.

١٧٣— قال النص: (et mostroyentau doit porou il mon-teroyent) وقد جرى ترجمة ذلك بتصرف لأن المعنى غامض.

١٧٤— قال أمادي (ص ١٥٩) بأنهم رفعوا مقابض تحريك مراكبهم، حتى لايمكن لها المغادرة .

١٧٥— قال ريكاردوس سان جرمانو (ص ٣٦٨) بأن جون صاحب بيروت قد تسلم عكا في نيسان ١٢٣٢، (Inodium imperator-is)، وأعطى هرقل (ص ٣٩٥) هنا موعد حادثة تحطيم اسطول اللومبارد، التي ذكرها نافار فيا بعد (فصل ١١٥)، حيث أثار الإيبلينيون سوادالشعب بعكا ضد اللومبارد إلى حد الاقدام على تحطيم الاسطول الذي كان راسيا في الميناء هناك، وتم الاستيلاء على سبع عشرة سفينة، وسمحوا لواحدة فقط بالنجاة، ويبدو في

هذه الحالة أن تحديد هرقل لموقع الحادث صحيح، وأن نافار تذكر الحادث، دون أن يعرف تماما متى وقع، ولهذا أورد الخبر في روايته بالمكان غير الصحيح ولم يحسن الربط، فقد كان نافار نفسه في طرابلس وقت حدوث الحادث ، وقد سمع به فيها بعد من الإيبيلينيين، وبالنسبة لمسألة كومونة عكا، انظر أي مقال من مقالات «أبحاث ذكرى هاسكن Haskins، ص ١١٧— ١٣٢».

١٧٦—كان الجنويون دوما من حزب الغولف، ولم يكونوا مرة كذلك أكثر مما كانوا عليه أثناء صراعهم مع فردريك الثاني، وكانت بيزا من حزب الغبلينيين، وتصارعت المدينتان في خارج ايطاليا في البحر، وفي السواحل السورية.

١٧٧— قال هرقل (ص ٣٩٥— ٣٩٦) بأن الايبلينيين حشدوا جنوداً لحصار صور، حيث كان فيلنغر مقيماً، وأنه عندما سمع فيلنغر بالخطة للهجوم عليه، أرسل أوامر إلى أخيه لوثير، بأن يرفع الحصار عن بيروت، وأن يجلب قواته إلى صور.

١٧٨— اسمها حاليا خربة الحمصين، وهي على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال من عكا.

١٧٩— قال هرقل (ص ٣٩٦) بأنهم عندما سمعوا بأمر الانسحاب الذي قام به جيش اللومبارد من بيروت إلى صور، تخلوا عن خطتهم بالهجوم على صور.

١٨٠— ألبرت ريزاتو أسقف بريسيشا Brescia، وبطريرك أنطاكية (١٢٢٨— ١٢٤٦)، وبعد صلح سان جرمانو قام البابا بمساندة القضية الامبراطورية في سورية، وقام في تموز ١٢٣٢ بتجريد جيرولد بطريرك القدس— الذي كان معادياً عنيفاً للامبراطوريين— من منصب نائب البابا، الذي منحه إلى ألبيرت

بطريرك أنطاكية، وقد عهد إلى ألبيرت بالقيام بمهمة استرداد السلم في الشرق، وأن يرد بارونات قبرص إلى طاعة الامبراطور.

١٨١— كان غي دي ايبلين، الابن الخامس لجون صاحب بيروت، قسطلان قبرص في سنة ١٢٤٧، وقد ميز نفسه في أثناء حملة القديس لويس على مصر، وتزوج من فيليبا ابنه عموري برلياس.

١٨٢— أعطى هرقل (ص ٣٩٧) مزيداً من التفاصيل: كان الحرس تحت إمرة جون دي إيبلين متمركزين، لكن في الجانب الخطأ من المعسكر، أي في الجانب المتجه إلى عكا، وليس نحو صور، وكان الحراس جميعاً نياما في خيمهم.

١٨٣— كان في هذا أذى للملك الذي كان مايزال طفلاً، وتبعاً لهرقل (ص ٣٩٧) قام جون بابن فوضع الملك على فرسه، وأرسله تحت الحراسة إلى عكا، بينما بقي هو نفسه في القتال، حيث أصيب بجراحة خطيرة، وأخذ أسيراً.

١٨٤— ذكر هرقل (ص ٣٩٨) أسماء: بالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتبليارد، وجون صاحب قيسارية، وروهارد دي كيفاس.

١٨٥— قال أمادي (ص١٦١) بشكل مؤكد: «وهكذا هجروا الطريق ومضوا عبر الحقول لشعورهم بالعار بسبب هذه الهزيمة».

١٨٦— ممر ضيق قرب درج صور على الطريق من عكا إلى صور.

١٨٧— أعطى هرقل (ص ٣٩٨) تاريخا دقيقاً لمعركة قلعة ايمبرت هو الثالث من أيار لسنة ١٢٣٢، وهو اليوم الذي وصل فيه الملك هنري إلى سن الرشد أي إلى الخامسة عشرة.

١٨٨— اسمها في «الأعمال»: مريم وايزابل.

١٨٩— ظهر هذا الاسم بأشكال: آرنس، آرنسيوس، هيرنس، وهينرس،

فهكـذا ورد على عـدد الصكـوك مـع الإيبلينيين في السنـوات ١٢٢٠— ١٢٣٩ (لى مـونـت: «سجـلات محفـوظـات الكنـائس والديرة في نيقوسيـا» (بيزنشن: ٥/ ١٩٣٠) أرقام: ١٢، ٣٨— ٤٢، ٤٥، ٤٦).

١٩٠— أضـاف كل مـن «الأعمال» وهـرقـل (ص ٣٩٩): «الذي تـركـه صاحب بيروت قائداً للبلاد».

١٩١— كان فيليب دي كافران واحداً من الشهود على معاهدة هنري مع الجنويين في سنة ١٢٣٣، وكان قريبـاً من أسرة مورف في قبرص عن طريق الزواج، ذلك أنه تزوج من أغنس ابنة بلدوين دي مورف.

١٩٢— أضـاف كـل مـن «الأعمال» وهـرقـل (ص ٣٩٩): «وكـادوا أن يضيعوا بسبب نقص الطعـام وكانوا في حالة قنوط وحـزن حتى تم انقاذهم».

١٩٣— كانت إسشيفـي دي مونتبليارد ابنة وولتر وبـوروني دي لوزغنان، كما كانت أرملة جيرارد دي مـونتاغيو، الذي قتل في معركـة نيقوسيا في سنة ١٢٢٩—، وقـد تزوجت مـن بالين دي إيبلين، لكـن أعلن أن الزواج يفتقـر إلى الشرعية لأنهما قـريبان إلى درجـة تمنع الـزواج، لأن عمتها (خالتهـا) قد تزوجت مـن فيليب عم بالين، وقـد حرما كنسيا في الخامس من أيار عام ١٢٣١، من قبل غريغوري التاسع، واستمر الحرمان لم يرفع حتى مابعد ١٢٣٢، لكن قبل ١٢٣٩.

١٩٤— غوينارت، أو جيراردو، أو جيرارد.

١٩٥— أقحـم «الأعمال» هنا الفقـرة ١٨٠ مـن أجـل احداث نقلـة إلى الموضوع التالي بقولـه : «هنا عبرت بصمت حكاية اللومبـارد الذين كانوا في قبرص، وفكروا بأنهم حصلوا على كل شيء، فانعطفوا نحو الملـك هنـري ونحـو صـاحب بيروت، اللـذان بـادرا بكـل سرعـة

ونشاط وتصرفا في وسط المصاعب التي وجدا نفسيهما فيها».

١٩٦— ٣— أيار ١٢٣٢.

١٩٧— لم تحفظ هذه المعاهدة الأولى، بل جددت ومددت بوساطة معاهدة فييا غوستا، انظر ما يلي ص ١٥٦— ١٥٧.

١٩٨— جرد غريغوري جيرولد من سلطات نيابة البابوية في تموز ١٢٣٢، وحوّل هذه السلطات إلى بطريرك أنطاكية.

١٩٩— كان البوليان فرنجة من مواليد سورية.

٢٠٠— وفقاً لرواية هرقل (ص ٣٩٥) وقعت حادثة الاستيلاء على الاسطول العائد للومبارد كلها قبل معركة قلعة ايمبرت، وذلك عندما قدم جون دي إيبلين إلى عكا، واتخذ مقدماً للكومونة في نيسان ١٢٣٢ (انظر المقطع ١٠١، والحاشية ١٧٤)، ويبدو أن التاريخ الأبكر هو الأكثر احتمالا لعدة أسباب، وهو المقبول من قبل روهرخت، وموللر مع آخرين، وقال فيليب نفسه في المقطع / ١٠١/ بأن الإيبلينيين قد حشدوا اسطولاً بهذه المناسبة، وأثار في المقطع / ١٠٣/ إلى أن هذا الاسطول كان راسياً في ميناء عكا، وفي ١٧— حزيران، أي قبل وصول أخبار معركة أغريدي إلى روما،لأنها وقعت في ١٥ حزيران، وكان البابا قد كتب إلى جيرولد يحذره من التعاون ضد الامبراطور مع أعدائه (MGH.Epis. I.NO 467)، ولو أن هذه الحادثة وقعت في نيسان لكانت في ذهن البابا عندما كتب تحذيره، وعلى هذا لابد أنها قد وقعت بعد هزيمة قلعة ايمبرت، وبيّن موللر أن نافار كان في ذلك الحين في طرابلس مع بالين، وبذلك حصل على القصة بعد تداولها، ولابد أن التغيير في سياسة بوهيموند صاحب أنطاكية— طرابلس تساعد أيضاً على التوضيح، إذا كانت ثورة عكا والاستيلاء على

اسطول اللومبـارد قد حدثا في تـاريخ أبكر. (موللـر— اللومبارد في قبرص ص ٣٩).

٢٠١— قال هرقـل (ص ٣٩٨) بأن عدداً من اللوردات قـد ارتعبوا بعد هزيمة قلعـة ايمبرت ولهذا التحقوا باللومبـارد، وعلى هذا بات على الإيبليني والملك تـأمين عدد كبير من الرجـال الجدد حتى يتمكنوا من الصمود مجدداً.

٢٠٢— يبدو أن عملية البيع التي ذكرها نافار هنا، قد تناولت بيع بعض الحاجيات من قبـل جون دي إيبلين في الـRue de La vielle Reine في عكـا الاسبتـاريـة، وكان ذلـك في نيسـان سنـة ١٢٣٢ (Delavielle Le Roulx, Cartulaire, II, docs, 2015, 2016)، وقال هـرقل (ص ٣٩٨) بـأنه بعـد هزيمـة قلعة ايمبرت باع جون صاحب قيسارية قلعته التي اسمها كفرلت إلى الاسبتارية مقابل ١٦,٠٠٠ قطعـة ذهبية، وأن جون دي إيبلين صاحـب يافا باع قلعته التي اسمها عرامس Arames إلى الداوية، مقابل مبلغ ١٥٠٠٠، ويبدو هنا أن نافار قـد مزج البيعين العائدين للحقبتين، وذلك عنـد ذكره بيع الأرض في قيسـارية، الـذي وقع بعد المعـركة، وبيع الأمـلاك والحاجيات في عكا، الذي حـدث في نيسان، وروى هرقـل بأن الاستيلاء على الاسطول والمشـاكل الأولى في عكا كـانت في نيسان، وأن بيع الأراضي ومحاولة تجنيد الرجـال، كانتا بعد معركة قلعة ايمبرت، وبما أن نـافار قـد كتب متأخـرا من السهـل التصور بأنه مزج بين الحادثتين المتشـابهتين، لأنه تم في الحالتين بيع أراضي وحصول على سفن.

٢٠٣— قال أمادي (ص ١٦٤) بأن الجنويين التحقوا بهم.

٢٠٤— أعطى هرقـل (ص ٤٠٠) تاريخاً للمغادرة على أنه كـان مع عيد

الحصاد، أي في ٣٠ أيار.

٢٠٥— قال أمادي (ص ١٦٥) بأنهم قدموا من طرابلس مع الجنويين.

٢٠٦— هناك فراغ في نص «الأعمال»، ولعل معنى المفقود هو «أولئك الصيداويين»، لأنه من الصعب الاشارة إلى بالين صاحب صيدا، كوكيل للامبراطور.

٢٠٧— رأس إلى الجنوب من فيا غوستا.

٢٠٨— قال فيليب أعلاه بأن أستشيفي زوجة بالين دي إيبلين قد تولت تحصين قلعة بوفافينتو ضد اللومبارد، ولعل الاشارة إليها هنا جاءت خطأ، ذلك أنها حذفت في الجملة التالية.

٢٠٩— قال هرقل (ص ٤٠٠) «يومان» ، وتاريخ معاهدة الجنويين هو ١٠ — حزيران.

٢١٠— جرى نشر نص المعاهدة من قبل ماس لاتري «التاريخ: ٢/ ٥١—٥٦»، وفي:

Liber Jurium reipublicae Ianuensis (تورين ١٨٥٤— ج١ ص ٨٩٩— ٩٠٢)، وقد منح جون دي إيبلين الجنويين حقوقاً في بيروت منذ تاريخ مبكر هو تشرين ثاني ١٢٢١، (ماس لاتري: ٢/ ٤٣— ٤٤).

٢١١— في «الأعمال» «وليم دي لور»، لكن الذي ورد في نص المعاهدة هو «دي أورتو»، وقد دعته باسم «نائب قنصل»، وأبرمت المعاهدة فيما بين الملك وهيوج فيراريو Ferrario ووليم دي أورتو، قنصل ونائب قنصل الجنويين.

٢١٢— الشرط الأول من المعاهدة، وتبعاً لقوانين القدس: ١/ ١٢٨— ١٢٩، حوكمت هذه القضايا في المحكمة الملكية، وقد حفظت

جميع حقوق منح البلاط للطوائف التجارية (انظر لى مونت: الملكية الاقطاعية ص ١٠٢، ٢٣٥— ٢٣٦).

٢١٣— الشرط الرابع من المعاهدة، واعتقد محققو الطبعة الأكاديمية (ص ١٧٣) أن هذه تشير إلى الاعفاء من الجمارك، وأنا أعتقد أنها تعني منح الحق بعرض قضايا في محكمتهم البحرية كانت بالعادة تعرض في Cour de la chaine الملكية، وأعطاهم الشرط الأول محكمة خاصة بهم، وأعطاهم الشرط الثاني حرية الابحار مع الاعفاء من الضرائب.

٢١٤— قلعة قرب ليماسول؛ المادة الثالثة من المعاهدة، وقد أعطيوا أيضاً بيوتاً وأراضي في فيماغوستا وبافوس.

٢١٥— ترجمنا كلمة ounement التي وردت في النص بـ «تحالف»، وقرأ محققوالطبعة الأكاديمية هذه الكلمة بـarmement.

٢١٦— استقيت الكلمتان اللتان جاءتا بين حاصرتين من أمادي (ص ١٦٧) لأن ذلك أوضح.

٢١٧— لى كوثيري أو كيثيرا قرب نيقوسيا، وكانت دوما مركزاً للطحن.

٢١٨— أضاف «الأعمال»: «وذلك في اليوم نفسه الذي جاءوا فيه».

٢١٩— أضاف «الأعمال»: «الذي كان اسمه تراهونا Trahona » وورد هذا الاسم أيضا في هرقل (ص ٤٠٠).

٢٢٠— قال كل من «الأعمال» وهرقل (ص ٤٠٠): «الثلاثاء الخامس عشر من حزيران».

٢٢١— أضاف «الأعمال» من هرقل (ص٤٠٠): «وهكذا جرى ارسال جزء من تجهيزاتهم وسيرجنديتهم .

إلى القعلـة المذكـورة، وكـان الجزء الآخـر سيصـل فيما بعـد »، ولم يـــوضـــح فيليب تمام الإيضاح استراتيجية القبارصة في أغريدي، فبعـدما أنقـذ الإيبلينـي أغـريدي زحـف مبـاشرة نحـو ديودامـور، واجتاز الشعـب الضيق الذي كـان فيه اللومبـارد، وقد قاتـل هؤلاء الجيـش القبرصي من على جنـاحيه، لكنهـم لم يتمكنـوا من إيقـاف تقدمه، وتمكن باليـن وفرقته عنـد فم الشعب من احداث فراغ كبير بين الفرقتين الأوليتين للومبارد، والكتلة الأسـاسية من جيشهم، وتم ربح المعركـة تماما قبل وصول فيلنغر مـع القوة الكبرى، وقدم سير جندية الإيبليني الذي احتلوا أغريـدي في الوقت المناسب، ليقدموا مسـاعدة ثمينـة، وهـذه المعـركة هـامـة لأنها معـركة أحسـن فيهـا القبارصة استخـدام المشاة، فقد قلب ذلك الموازين: وصـار فرسان اللومبارد الثقال تحت رحمة المشاة القبارصة، الـذين تولوا قتلهم عند سقـوطهـم مـن على ظهـور خيولهم، وسـاعـدوا في الـوقـت نفسـه فرسانهم على التمكن من امتطاء خيولهم ثانية.

٢٢٢— استخرج كـوهلر هذه القـراءة من أمـادي (ص ١٦٩) مصححاً بذلك «الأعمال» الذي جاء فيـه: «وأقام في قيادة الرتل الأول السير هيـوج — ابنه—، والسير آمسيـودي بري في الـرتل الثـاني، والسير بلدوين دي ايبلين في الثالث، وصاحب قيسارية الشاب في الرابع، ووقف هـو في الساقـة، لأن أكثر مـن ذلك لم يكـن هناك أرتـال»، وقال جونـا (١/ ٥٥٠) بأن فيليب دي نوفار قد تسلـم قيادة قوات الساقة.

٢٢٣— كان يودس دي لى فيرتي فيـزكونت عكا في سنـة ١٢٥٠، وكانت أسرة مونتوليـف أسرة لها أهمية عالية في قبرص في أثناء القـرن الرابع عشر، وقـد ظهرت على صكـوك عائدة لكـونت طـرابلس في القـرن الثاني عشر، وغير هـذا لم يكن هـؤلاء الرجـال معروفين، وقـد جعل

دوم جونا (١/ ٥٥٢) صاحب أرسوف بطلاً لعملية الدفاع المنفردة هذه، وقد أصبح لى فيرتي، دي فيرتي، ولى فليس ناسيو، في هذه الرواية.

٢٢٤— وليم دي باليريا، كونت أوف مانوبيلو، ونائب عام للامبراطور، وقد كان واحداً من مستشاري فردريك المعتمد عليهم.

٢٢٥— غيوفري دي مونتفوسكولو Montefoscolo، وقد أصبح هو نفسه فيما بعد متسلم العدالة في كالبيرا.

٢٢٦— قال أمادي (ص ١٧١): «انعطفوا نحو أغريدي».

٢٢٧— كاستري أو كاستريا.

٢٢٨— ربما كان هذا بيرارد دي مانيوبيلو Manupello، أحد أقرباء بيرارد دي مانيوبيلو كونت لوريتو، الذي كان في سنة ١٢٣٩ واحداً من الفرسان الذين عهد إليهم فردريك بأمر الأسرى اللومبارد.

٢٢٩— أعاد كوهلر بناء هذا الجزء الأخير كله من هذا المقطع اعتماداً على أمادي ص: ١٧١— ١٧٢، وجاء نص الأعمال كما يلي: «وشيء واحد توفر هناك قد ساعد القبارصة كثيراً، وأعني بذلك السيرجندية الرجّالة، وهكذا حدث أنه عندما كان يقع أرضاً واحد من فرسانهم كانوا يساعدونه على إمتطاء فرسه ثانية، وعندما كان يقع واحد من فرسان اللومبارد كانوا يقتلونه أو يأخذونه أسيراً، ولهذا السبب قتل عدد كبير من أبوليا، أو أخذوا أسرى، في حين فقد القبارصة فارساً واحداً، كان اسمه سيرجي، وكان قد ولد في توسكانيا، لكنه نشأ في قبرص وفيها صار فارساً، وقد قتل من فرسان أبوليا أكثر من ستين فارساً، ووقع بالأسر، أكثر من أربعين».

٢٣٠— بليشيا Blessia أو بليتشا Pletcha في السهل جنوب ديودامور.

٢٣١— فسر ماس لاتري (التاريخ: ١/ ٢٩١) هذا على أن معناه قطع أيديهم أو أقدامهم، وهي عقوبة غالباً ما نفذت بحق من لم يكونوا من النبلاء وذلك بموجب «قانون أنظمة البرجاسية» (القوانين: ٢/ ٥٦).

٢٣٢— اقترح روهرخت (التاريخ ص ٨٢٣— ٨٢٤) أن انتي دي تشيلجن ربما هوهانس فون شيلجن، أما البقية فتعذر التعرف عليهم.

٢٣٣— كان فيليب شينارت قد صار قائداً لكنتارا بعد وفاة جوفيان.

٢٣٤— في الأبروزي Abruzzi، كان وولتر أوف أكوافيفا ابن رينارد أكوافيفا.

٢٣٥— ذكر كوهلر اسم فيلنغر اعتماداً على أمادي ص ١٧٤، وجاء سياق رواية «الأعمال»، وكأن هيوج صاحب جبلة قد بقي الوكيل في صور، في حين ذهب فيلنغر، وبرلياس، وصاحب بيسان إلى الغرب، وقد تقبل هذه الرواية كل من روهرخت (التاريخ ص ٨٢٤)، وموللر (اللومبارد، ص ٥٤)، لجعل صاحب جبلة وكيلاً في صور، وقال ماس لاتري (التاريخ: ١/ ٢٩١) بأن فيلنغر قد ذهب إلى الغرب، مخلفاً أخاه لوثير وكيلاً في صور، وأن صاحب جبلة قد التحق مؤخراً بلوثير هناك، وأنا أميل إلى مراجعة التصحيح الذي قدمة كوهلر على أساس أن فيلنغر قد اختفى ولم يكن حاضراً في سورية لمدة طويلة بعد هذا الحادث.

٢٣٦— هذه هي المرة الأخيرة التي تذكر فيها رواية فيليب مجموعة: برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وأعطى أمادي (ص

١٧٤— ١٧٥) أسماء آخريـن أعلن عن مصـادرتهم في ذلك الحين وهـم: فيليب شينارت، وهيوج شـابوت (زابوك)، وهيوج دي ماري، ورينـو لى شـامبرلين (زامبر لاني) وهيـوج بـورسليـت، وبيرتـرانـد بورسليت، وسادة حصون: الطور، وكرباسو، وميسوريا.

٢٣٧— هـرب شيعـة الامبراطور بعـد نفيهـم ومصـادرتهم في قبرص إلى بلـدان صـديقـة، أو إلى بلـدان تحت حكــم الامبراطـور، فقـد فـرّ عموري بـرلياس وأسرته إلى طرابلـس، وهناك مات قبل وقـت قليل من عـام ١٢٣٦، وإلى طرابلس التجأ أيضـاً هيوج صاحـب جبلة، وبـرترانـد بورسليـت، وكـان أمراء طـرابلـس — أنطاكيـة يؤثـرون الامبراطور، ولهذا رحبـوا بهؤلاء اللاجئين، وأقروهـم ببيوت جـديدة، وقـدم لوثير فيلنغـر فيما بعـد إلى هناك، وهـرب إلى أبـوليا عمـوري صاحــب بيسان، وشينـارت، وشابـوت، ودي مير، وعدد كبير آخـر من القبـارصة، حيث منحـوا هناك اقطـاعيات من قبـل الامبراطور، وأدخلوا في الخدمات الامبراطورية، وقد ترقى فيليب شينارت الذي كان المدافـع عن سيرينـا إلى أعلى المراتب، حيـث تزوج مـن وارثة أبولية، وغـدا كونتاً لكونفيرسـانو conversano (١٢٤٢)، وإليها أضـاف السيـادة على أكـوافيفـا، وعين في سنـة ١٢٤٧ قسطـلانـاً لبـاري، وعين في السنـة نفسهـا مـع : عمـوري صـاحـب بيسـان، وتوماس دي أكينو— كونت أسيرا، الوكيل الامبراطوري السالف في سوريـة— وعموري سـافارين الـذي كان قبرصيا منفيـاً آخر، نـواباً لصقلية، عنـدما كان الامبراطـور بعيداً في الشمال، ثم جـرى تعيينه قائداً أعظم لصقلية من قبل مانفرد في سنة ١٢٥٥، وهو الذي قاد اسطول الصقليين أثناء هجـوم مانفرد على سواحل ألبـانيا، ثم عين نائبـاً امبراطوريـا صقليا في كورفـو وإبروس، ومنـح في كورفـو عدة اقطاعيـات لعدة قبارصـة، وأسس هناك مستعمـرة ثانية للقبـارصة،

الـذين كـان من بين البـارزيـن بينهم أسرة بيـت ألمان، وعند وفـاة مانفـرد أعلن فيليب نفسـه سيداً مستقلاً لكـورفو، لكن مـالبث أن قتل إثـر ذلك بتحريـض من زوجته الثانيـة، التي كانـت ابنة أمير اغريقـي لإبروس، وأقام ابنـه، بعد مقاومـة يائسة، سلماً مـع شارك أوف آنجو، واستمر في المكـانة نفسها والتملك والشرف في كـورفور تحت حكـم الأسرة الجديدة. وتـزوج عموري صـاحـب بيسان مـن وارثة تريكاريكو Tricarico في أبوليا، وأصبح من خلالها الوريث هنـاك، وصار هيـوج شابـوت سيـداً لغرومـو Grumo والأراضي المجاورة، واستخدم مـن قبل الامبراطور فردريك الثـاني حيث بعثه سفيراً إلى انكلترا في سنة ١٢٣٩، وأصبح هيوج دي ماري صاحب شامبـو مارينـو، وأرسل رسولاً إلى فـرنسا، ولحق جـون جوفيـان ابن جوفيـان دي شنشي، بعمه فيليـب شينارت، واستحـوذ على أراضي في أبـوليـا، وشكـل هـؤلاء نـواة مستعمـرة قبرصيـة في الأراضي الامبراطورية، وبـات مقدراً بأن هؤلاء القبارصـة قد استحوذوا على جميع أراضي منطقـة باري تقـريباً. (انظـر إ. بيرتوكـس Bertaux: «فـرنجـة مـاوراء البحـر في أبـوليـا وفي ايبري Epire » الـدوريـة التـاريخيـة، ٨٥ (١٩٠٤)، ٢٢٤— ٢٥١، والحواشي التـي لـدى: «غ. غودشيGodici» « العـلاقات الـدبلـومـاسية أيـام حكـم شارل الاول وشـارل الثاني دي أنجـو، ١/ ٢٩٨— ٢٩٩، ٣٠٧— ٣١٠).

٢٣٧— اعتماداً على أمادي (ص ١٧٦)، واستـدرك ر. دي ماس لاتـري هنا أن ذلـك لابد أنه كان في عيـد الحصاد، لأن عيد الفصـح لعام ١٢٣٢ حل يـوم ١١— نيسان، في حين كـان عيد الحصـاد في ٣٠ —أيار.

٢٣٨— كان هيـوج دي إيبلين هو الابـن الأكبر لبالين دي إيبلين، وعـم

جون دي إيبلين صاحب بيروت، وقد تزوج من أغنس دي كورتناي، بعد طلاقها من عموري الأول ـ ملك القدس ١١٦٢ — ١١٧٤ ـ وظل رأساً لأسرة آل إيبلين من سنة ١١٥٥ حتى تاريخ وفاته في سنة ١١٧٤ .

٢٣٩— كان فيليب دي ميللي Milly صاحب نابلس ابن غي دي ميللي صاحب نابلس وستيفاني، وتزوجت ستيفاني بعد وفاة غي من بلدوين صاحب الرملة، وتزوجت ابنتها هلفيس صاحبة الرملة من بالين دي إيبلين، وجاء من هذا القران هيوج دي إيبلين، وعلى هذا كان فيليب خال هيوج، وورث فيليب في سنة ١١٦١ السيادة على الكرك والشوبك، وأرغم على التخلي عن إقطاعه الذي شمل نابلس لصالح التاج ليحصل على الموافقة الملكية على ميراثه الذي ضم إقطاعية أكبر(Strehlke,p.3) وتخلى في سنة ١١٦٩ عن إقطاعياته لوريثته، وصار المقدم الأعلى لفرسان الداوية.

٢٤٠— حول هذه المسألةانظر Schlumberger,Campagnes du Roi Amaury I,PP 192 - 93 ولى مونت«الملكية الاقطاعية» ص ٩٩، وبينوت ــ القوانين :١ / ٤٥٥، الحاشية، وبيّن شلمبيرغ أن هذه القاعدة كانت مجرد أمر صدر في ذلك اليوم، ولم تكن حكماً دائماً، لأنها غير موجودة في أي من كتب القوانين.

٢٤١— كان فيليب موغستيل ابن توماس دي موغستيل، أحد إقطاعيي قيسارية، وأخاً لسمعان دي موغستيل رئيس أساقفة صور، وقد تزوج من مرغريت دي دياسبري Diaspre ،والأخت تزوجت من دانييل دي تيريموند.

٢٤٢— بالفعل إذا ما تخلينا عن الأحكام العدوانية والمواقف العنيفة المسبقة لفيليب، يبدو أن هذه كانت محاولة مخلصة من جانب

الامبراطور للوصول إلى صلح مع البارونات السوريين، وكان هنري وصاحب بيروت يحاولان أن يكسبا الناس إلى جانبيهما عن طريق منح الاقطاعيات، لكن كانت الغالبية العظمى من البارونات السوريين متمسكة بشدة بإخلاصها لكونراد وللامبراطور، مع أنهم اعترضوا على تجاوزات فيلنغر، واعتقد الامبراطور أنه بتعيينه لواحد من البارونات من أسرة محلية جيدة وكيلاً مشتركاً مع فيلنغر، سيزيل بعض أسباب الشكوى لدى السوريين، وسيقوي من وضعه، ومن الجدير بالملاحظة أن باالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد كانا راضيين بهذه الترتيبات، ولهذا رفضا من قبل الاعتراف بفيلنغر وكيلاً، واستمرا يعدان نفسيهما الوكيلين الصحيحين للامبراطور في سورية.

٢٤٣— خلف يودس دي مونتبليارد غارنيير الألماني كشريك صاحب صيدا في وكالته.

٢٤٤— أضاف أمادي(ص ١٧٩):«وكوكبة كبيرة من الجنويين».

٢٤٥— يوجد لدى جون دي إيبلين صاحب يافا في «قوانين القدس»: ٢ / ٣٩٩ رواية أخرى حول هذه الحادثة نفسها هذا نصها:«وعندما عاد الامبراطور ترك في مكانه صاحب صيدا مع السير غارنيير الألماني، وبقي السير غارنيير في (مركزه)وقتاً قصيراً، ومن ثم انتسب إلى الداوية، وحل القسطلان محله، وحدث بعد ذلك أن أرسل الامبراطور أسقفاً إلى هذه البلاد، يحمل رسائل إلى صاحب صيدا، وإلى القسطلان، يأمرهما فيها بوجوب تولي السير فيليب دي موغستيل للسيادة، وجمع صاحب صيدا والقسطلان رجال الاقطاع في كنيسة الصليب المقدس، وكان البطريرك جيرولد موجوداً هناك، وصدر الأمر بقراءة الرسائل التي تحتوي على أمر الامبراطور المذكور أعلاه، وقدم ابن خالي جون صاحب قيسارية

إلى هناك، وتفوه برد الاقطاعيين بسبب أن صاحب بيروت ونحن جميعاً كنا في قبرص، وتحدث كيف أن الامبراطور ثم القسطلان وصاحب صيدا ـ اللذان كانا هناك ـ قد أقسما عندما بقيا في محله على التمسك بالقوانين وبالممارسات وبالعادات العائدة لمملكة القدس، وأنه هونفسه وجميع الاقطاعيين الآخرين متمسكين بإخلاصهم ـ وخاصة باليمين ـ وتعهدهم بالتمسك بالقوانين، وبالعادات الجيدة لمملكة القدس، وبالمحافظة عليها، وأن هذا الذي أمر به الامبراطور مضاد لهذه القوانين وللممارسات، لأنه أراد أن ينقض بوساطة الرسائل ماجرى إبرامه أمام المحكمة، وهذا ما لايسمحون به ولن ينفذوه للأسباب المبينة أعلاه، وحدث هياج عظيم، وقرع ناقوس الكومونة، وغادر الأسقف، وبقي صاحب صيدا والقسطلان حيث كانا بإدارة السلطة، ومات صاحب صيدا، وبقي القسطلان في إدارة السلطة.

٢٤٦— قال جونا(١ / ٥٥٥) بأن سيرينا قد وضعت تحت إمرة بلدوين دي بري، وهو أخ لـ «أنريان Anrian دي بري» الذي قتل أثناء الحصار.

٢٤٧— قال أمادي(ص ١٨٢): خمسين أسيراً.

٢٤٨— ترك فيليب دي نوفار الذي اهتم بالصراع الإيبليني ـ اللومباردي فقط، سياق الأحداث هنا، وعبر مباشرة نحو وفاة جون دي إيبلين في سنة ١٢٣٦ ، فقد استمر الصراع بين الإيبلينيين والامبراطور، وتدخل البابا لصالح فردريك حسبما كنا قد رأينا، ولم يذكر نوفار مطلقاً حقيقة وقوف الإيبلينيين ضد البابا، وأهمل كلياً ذكر السفارات التي تنقلت فيما بين سورية وروما، وقدم هرقل(ص ٤٠٦ — ٤٠٧)حكاية بعض هذه المباحثات بقوله:«في هذه الآونة(خطأ فتاريخ سنة ١٢٣٣ يتوجب أن يكون سنة ١٢٣٥)

أرسل رجال مملكـة القدس رسلاً إلى روما، وذلـك بناء على تحريض من هيرمان مقـدم اسبتارية التيوتون، للعمل على عقـد صلح بينهم وبين الامبراطور، وكـان الرسل فـارسان من عكـا وهما: فيليب دي تروي، وهنـري صاحـب الناصرة، وعنـدما قـدما إلى رومـا فعلا مـا أراده مقـدم التيـوتـون تماماً وذلـك وفقـاً لإرادة الامبراطـور، وختما رسائل مـواثيق السـلام، وعندما عـادا إلى عكا، قـدما الـرسائل إلى حيث قرئت، وعندما سمـع أهل المملكة بشكل السلم كما ورد في فحوى الـرسائل غضبوا غضبـاً شديداً، وكـانوا يمتلكون التسـويغ لفعـل ذلك، لأن هـذا السلـم كان عـاراً عليهـم وخسارة ومضـاداً لسلطـانهم وللتعليمات الصـادرة إلى الـرسـولين، ولهذا لامـوهما، وعدوهما خـائنين وزائفين، وكادوا أن ينزلـوا بهما عقوبات جسـدية، واجتمع رجـال المملكة للتشـاور، وبإتفـاق جماعي بينهـم بعثوا إلى ملك قبرص، وبنـاء عليه بعث ملـك قبرص ورجال مملكـة القدس رسولاً عاماً عنهم يمثلهم جميعاً إلى روما إلى الحبر الأعظم، وجاءت مراسلتهم إلى البـابا فيما يتعلق بهذا الأمر،ولأن هـذا الصلح الزائف قد أبـرم أمامه وبمعـرفته، وكان الـرسول الذي بعثـوا به فارسـاً من قبرص، كان قد ولـد في سورية، لكنه ذهـب للعيش في قبرص على إقطـاع كبير كان الملـك هنـري قد منحـه إيـاه، وقـد جعله هنـاك حاجـب قبرص، وكان اسـم هذا الفـارس غيوفـري لى تور، ووضـع الملك هنري نفسه في هذا كله مع جماعة رجال مملكة القدس، فلقد تضرر الملك كثيراً من هذه المعاهـدة التي تكلمنا عنها أعلاه حسبما جاءت بـالرسـائل، وغادر غيوفـري لى تور قبرص، وقـدم إلى عكا، وتسلم رسائل بارونات البلاد واعتراضـاتهم،وذلك بالاضافة لما كان قد تسلمه من ملك قبرص، ودخل مسـافراً إلى سفينة جنوية، وعبر بوساطتها إلى جنوى، ومضى من هناك إلى فيتيربو، حيث كان البابا مـع بلاطـه كلـه، وحمل معـه هدايـا فـائقـة وثمينة إلى البـابـا وإلى

الكاردينـالات، وسلم رسائلـه، وأظهر للبابـا النقاط التي بمـوجبها والأسباب التي ينبغـي للصلح أن يتم قبوله، واستقبله البـابا بشكل لائق، وسمع منه بكل رغبة، وردّ عليه بأنه غير مندهش أبداً إذا ما رفضوا تلك المعاهدة، لأن الذي قـامت عليه زائفاً وشريراً، ولم يكن بإمكانـه فعل أي شيء آخر،لأن السفيرين اللـذان أبرماها قـالا بأن لـديهما أوامـر بصنـع ما صنعـاه،وإذا كـان(البـارونـات)غيرراغبين بالموافقـة على ما عقـده(الرسـولان)فهذا ممكـن لهم وحق في حـدود سلطتهـم، وهو لـن يـرغمهم أبـداً، بـل وعدهـم بتـأييد الكنيسـة ودعمهـا، وأرسـل إليهـم رسـائل رغـب فيهـا إليهـم بـأن تتخـذ المملكتـان الموقـف نفســه، وأرسـل إلى عكـا، وإلى الـرهبـانيـات العسكريـة الثلاث، وإلى الكومونـات يطلب فيها مـن ملك قبرص ومن بلاده، ومـن الذين في مملكة القدس وجـوب التعاون في حماية أنفسهم وحقوقهـم والدفاع عنها، وأمرهـم بإلحاح بضرورة التمسك بذلك، وبعث بـالرسالة نفسها إلى معتمد الجنـويين وإلى كومونتهم بالـرسالة نفسهـا، وحمل غيوفري لى تور هـذه الرسائل كلهـا وأشياء كثيرة أخرى تسلمهـا من البابا غـريغوري، وهكذا عـاد إلى جنوى، ومن هناك ركب سفينة وعبر إلى عكا، ومنها ذهب إلى قبرص.

وكـان الصلح الأول قـد عقد عنـدمـا كان البـابا والامبراطـور على وئام، وجاءت سفارة غيوفري إلى غريغوري بعدما فسدت العلاقات ثانية بينه وبين فردريك.

٢٤٩— فيليب دي مـونتفورت، صـاحب كـاسترا Castres في ألبيوس Albigeois، وابن غي دي مونتفورت، وبـالتالي حفيد سمعان دي مونتفورت الـذي استولى على الألبينسيين Alebigensians،وابن خال(عم) ايرل ليستر المشهور.

٢٥٠— ماري أوف طـرابلس ـ أنطـاكية ــ ابنة ريمونـد روبين وهلفيس

دي لوزغنان، وقد ورثت اللقب المعزو إلى تورون(التي كانت داخل الأراضي الاسلامية) من جدتها أليس صاحبة أرمينيا، وكان هذا بعيد سنة ١٢٣٦، وقد تزوجت في سنة ١٢٤٠ فيليب دي مونتفورت.

٢٥١— كانت أمه هلفيس دي إيبلين، أخت جون صاحب بيروت،وكانت تعرف باسم سيدة صيدا.

٢٥٢— قال«الأعمال»صور، لكن هذا من الواضح أنه خطأ، وقد صححه كوهلر.

٢٥٣— اسشيفي صاحبة طبرية، ابنة رينو صاحب طبرية، ومرغريت دي إيبلين، وأخت غير شقيقة من خلال أمها لجون صاحب قيسارية.

٢٥٤— أوضح أمادي(ص ١٨٧) بأن بالين صاحب صيدا، الذي كان وكيلاً في عكا، كان ميتاً، وكان يودس قد صار وكيلاً بالزمالة مع بالين عندما استقال غارنيير الألماني من الوكالة.

٢٥٥— بيتر فيلابرايد المقدم الأعلى للاسبتارية ١٢٣٩ / ٤٠ — ٤٣ .

٢٥٦ — الناصر صلاح الدين يوسف ــ سلطان حلب(١٢٣٦ — ١٢٦٠)، وكان آخر سلاطين الأيوبيين في حلب.

٢٥٧— يبدو أن هذا الحصار قد وقع في سنة ١٢٤١، وذلك اعتماداً على بينة فيليب ومن خلال التطورات المنطقية للأحداث، ومع أن«حوليات الأرض المقدسة» (ص ٣٨٢)تجعله في سنة ١٢٤٣، بعد الاستيلاء على صور، وقال ريكاردوس دي سان جرمانو(ص ٣٨٢)بأن مدينة عكا قد ثارت ضد الامبراطور في سنة ١٢٤١، وأن ذلك كان في تشرين الأول وعلى هذا نجعل تاريخ الحصار من

تشرين الأول ١٢٤١ إلى نيسان ١٢٤٢.

٢٥٨— روى كل من هرقل(ص ٤٢٢) وأمادي(ص ١٩٢) بأن مغادرة فيلنغر حصلت بعد اجتماع المحكمة العليا التي انتخبت الملكة أليس لتولي السلطة.

٢٥٩— أضافت الأعمال هنا:«عندما غادر رتشارد فيلنغر»، وكان فيلنغر مارشال الامبراطورية لكن ليس في سورية، وإذا كان لوثير قد عين مارشالاً للقدس من قبل فردريك، فهذه هي البينة الوحيدة على ذلك.

٢٦٠— قال أمادي(ص ١٨٩): أربعة برجاسية بنادقة وجنويين، ويتوافق هذا بشكل جيد مع ما قاله مرسيليو جورجيو فيما يتعلق بالمبادرة المتعلقة بخطط الاستيلاء على صور(انظرالملحق).

٢٦١— سقط قوله:«حفظ بشكل سيء» من«الأعمال»، وأقحمه كوهلر نقلاً عن أمادي(١٨٩)،وأنا أميل إلى التساؤل حول ضرورة هذا الاقحام، لأنه حتى فيليب كان قد أقبل على إظهار أن بالين قد حافظ على إخلاصه، وفردريك لم يفعل ذلك.

٢٦٢— ولد كونراد في ٢٥ — نيسان ١٢٢٨، وبناء عليه وصل إلى سن البلوغ في ٢٥ نيسان ١٢٤٣، وبناء على هذه القاعدة جرى التأريخ للاستيلاء على صور في ١٢٤٣(انظر حاشية المقطع ١٨٩، أي رقم ٢٧٤).

٢٦٣— ينبغي التذكر أنه في سنة ١٢٢٩، ادعت أليس الحق في المملكة على أساس أنها وارثة لإيزابل، وأن المحكمة العليا قدرفضت ادعاءاتها على أساس أن كونراد كان الوريث الشرعي، وحثها فيليب هنا على المطالبة بالمملكة على أساس أن تكون وكيلة، بحكم أنها أحق الورثة وأقربهم من كونراد، الذي امتلك بموجب

قانـون البلاد سنة ويـوماً بعد وصـوله إلى سـن الرشد ليقـدم نفسه شخصياً للمطـالبة بميراثه، وعليـه كان يمكنها تسلـم الميراث حتى يأتي شخصياً ويطالب به.

٢٦٤— كان رالـف دي سواسـون الأخ الأصغر لكـونت أوف سـواسون، وكان قـد قدم إلى سـورية مـع صليبية ثيبـوت ملك نـافار، وتـزوج الملكة الثرية لكن المسنة.

٢٦٥— كان هذا في ٥ — حزيران ١٢٤٣، وكان البطريرك متغيباً، وكان رئيس أساقفة صـور يعمل ممثلاً له، ولدينا أربـع روايات حول هذا الاجتماع الهام للمحكمة العليا وهي:رواية مرسيليو جورجيو، ورواية جـون دي إيبلين صاحـب يافـا، وروايـة فيليب دي نـوفار،وروايـة هرقل، وجرى تقديم الروايات الثلاث ـ باستثناء رواية نافار ـ في الملاحق، ولروايـة مرسيليو جورجيو أهميـة خاصة بتحديـد التواريخ بـدقة، وسـاقـت«حوليـات الأرض المقـدسة»(ص ٤٤١) سلسلـة الأحداث كلها في حـولية سنة ١٢٤٢، وقال فقط:«طـالبت في هذه السنة الملكة أليس بمملكة القدس، وبنـاء عليه استقبلها أهل عكا بمثابـة ملكتهم الوارثـة،وقدمـوا الولاء إليها وإلى زوجهـا رالف دي سواسون، وزحـف أهل عكا وصاحب بيروت وطردوا اللـومبارد من صور ومـن سورية، وأسروا وكيل صـور، واستولوا على السفينـة التي كـان فيهـا، ذلك أنـه لسـوء حظـه كـان عائداً»، ونـص الحوليـات القصير هـذا أخطأ في قـولـه بـأن «أليس استقبلـت كملكـة»، وأن صاحب أرسوف قد استولى على صور.

٢٦٦— الاشارة هذه إلى البيـازنة خطأ، وقال أمـادي(ص ١٩٠) بشكل محدد:«وليس البيازنة لأنهم كانـوا متحزبين إلى الامبراطور»، ويتوافق هذا مـع سياسة البيـازنة التي كـانت غبلينيـة بشكل ثابـت، ولقد قبل روهـرخت بـوجودهـم في هذا الاجتماع، لكنني لا أدري كيف

كـان ذلك، ولم يـذكـرهـم مرسيليـو جـورجيـو، ومثله فعلـت بقيـة الروايات.

٢٦٧- قال أمـادي(ص ١٩٢):«كان الـوكيل والمسـؤول عن الموارد»، واعتقـد روهـرخـت(ص ٨٥٧)إن المقصـود هنـا هـو فيليـب دي مونتفـورت، لكن بحكم أننـا رأينا فيليـب دي نوفار يقـوم بتجهيز السفينة، يبدو من الطبيعي أكثـر أن نعتقد أنه المقصود، لاسيما وأنه ذكر ذلك مباشرة بعد حديثه عن مكاسبه المالية.

٢٦٨- أضاف«الأعمال» :«وتابعـوا الاندفاع وساروا عبر البحـر بمحاذاة أسوار المدينة بوساطة اسبتارية التيوتون».

٢٦٩- تبعاً لهرقل(ص ٤٢٣)جـاء رالف دي سواسون إلى صـور، فقط بعد الاستيـلاء على المدينة، وقـال مرسيليـو بأن الملكـة قدمـت فيها بعد، غير أنه لم يذكر رالف.

٢٧٠- أضـاف أمـادي(ص ١٩٤) :«كـان الجزء الأعظـم جنـويين وبنادقة».

٢٧١- نقرأ في أمادي(ص ١٩٤) وفي«الأعمال» :«بعد إمضـائهم تسعة أيام في البحر سـاقهم الحظ إلى برباري، ووجـدوا هناك سفينتهم في حالة مؤسفة، حيث كان الماء يدخـل إليها من عدة أماكن»، ونجد هذا نفسه في هرقل(ص ٤٢٦).

٢٧٢- كانت القراقي سفينة ذات أشرعة ثلاثة، عالية الدكة، مع أشرعة أمامية مربعة، ومع شراع مثلث في النهاية القصوى.

٢٧٣- أضـاف أمـادي(ص ١٩٦):«وصرخ الـذيـن كـانـوا في الخارج بوجوب التوقف، وإرسال واحد ليتحدث معه».

٢٧٤- ينبغـي أن يكـون هـذا في سنـة ١٢٤٣، والتـواريـخ الخطـأ غير

موجودة في أمادي، وعزاهم كوهلر إلى مصنف«الأعمال»، ومن السهل التعرف إلى تاريخ الاستيلاء على صور بشكل صحيح من خلال رسالة مرسيليو جورجيو، التي كتبت في تشرين أول ١٢٤٣، وفيها روى أحداث شهر حزيران من ذلك العام، ومن غير الممكن القبول بتاريخ أبكر للهجوم على صور، أي أن يكون قبل ٢٥ نيسان ١٢٤٣، وهو التاريخ الذي وصل فيه كونراد إلى السن القانونية، وأكد كل من الإيبليني ونافار بأن ذلك كان بعد الاعتراف بأليس، فبعد هذا الاعتراف جرى الهجوم، وجعل هيولارد ــ بريهول(تاريخ الدبلوماسية، ص ٣٥٧ من المدخل) تاريخ الاستيلاء على صور في سنة ١٢٤٠، وذلك اعتماداً على ماريو سنوتو(ص ٢١٦)، لكن مصداقية الإيبليني، ونافار، وجورجيوأعلى من مصداقية سنوتو، ومما ورد لدى هرقل(ص ٤٢٠)، حيث جعل حادث الاعتراف بأليس يقع في سنة ١٢٤٠(بعد حديثه عن زواج أليس من رالف قال هرقل بأنه بعدما تزوج رالف طالب بالاستحواذ على المملكة، غير أنه لم يذكر بالتحديد أكان ذلك على الفور أو بعد زواجه منها)، وكان فيلنغر مايزال الوكيل في صور بتاريخ ١٧ — أيار ١٢٤٢(روهرخت، السجلات،الوثيقة رقم ١١٠٧)، ولم يظهر اسم توماس أوف أسيرا بمثابة وكيل في الشرق حتى آب ١٢٤٣، (السجلات، وثيقة رقم١١٢)، ومع أن ريكاردوس دي جرمانو قال بأنه عين في سنة ١٢٤٢، وعلى هذا يكون تعيينه وقت مغادرة فيلنغر، أي قبل الهجوم على صور(انظر توماس لاتري — التاريخ : ١ / ٣٢٤، الحاشية كوهلر ص ١٣٨ .روهرخت — التاريخ ص ٨٥٤ — ٨٥٩).

٢٧٥ — غير موجود في«الأعمال»، ووضعه كوهلر في الحاشية، ويبدو أن هذا النص المأخوذ من أمادي(ص ١٩٧)يشكل النهاية الحقيقية

- ٢٦٢٦ -

لتاريخ فيليب دي نوفار، وبنـاء عليه أدخلته على أنه المقطع الأخير في كتاب نافار، مـع أنه من الممكن لم يكتب من قبـل فيليب الذي حرص في كل مكان على تجنب الحديث بلغة الشخص الأول.

جريدة
أهم المصادر

MANUSCRIPT

Paris, Bibliothèque Nationale, Nouvelles Acquisitions français 6680: Les Gestes des Chiprois.

EDITIONS OF THE TEXT AND WORKS USED IN ESTABLISHING IT

Kohler, Charles, Les Mémoires de Philippe de Novare, 1218-1243. Paris, Champion, 1913. "Les Classiques français du moyen âge," t. 10. (This is the edition followed in the present translation.)

Raynaud, Gaston, Les Gestes des Chiprois. Paris and Geneva, 1887. "Société de l'Orient latin, Série historique," t. 5.

Paris, Gaston, and Louis de Mas Latrie, Les Gestes des Chiprois. Paris, 1906. "Recueil des historiens des croisades; Documents arméniens," II, 651-872.

Mas Latrie, René de, Chroniques d'Amadi et de Strambaldi. 2 vols. Paris, 1891-93. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France"; t. 1, Chronique d'Amadi, t. 2, Chronique de Strambaldi.

——— Chronique de l'île de Chypre par Florio Bustron. Paris, 1886. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France, Mélanges historiques," t. 5.

OTHER WORKS OF PHILIP DE NOVARE

Novare, Philippe de, "Le Livre de forme de plait," edited by Count Beugnot in Assises de Jérusalem, I, 469-571. Paris, 1841.

——— Les Quatre Ages de l'homme, edited by Marcel de Fréville. Paris, 1888. "Société des anciens textes français."

WORKS ABOUT PHILIP DE NOVARE

Beugnot, Count, "Notice sur la vie et sur les écrits de Philippe de Navarre," Bibliothèque de l'École des chartes, II, 1-31. Paris, 1840-41.

——— "Introduction aux Assises de la Haute Cour" in Les Assises de Jérusalem, I. Paris, 1841. "Recueil des historiens des croisades: Lois," I.

Grandclaude, Maurice, Étude critique sur les livres des Assises de Jérusalem. Paris, 1923.

Herzog, Annie, Die Frau auf den Fürstenthronen der Kreuzfahrerstaaten. Berlin, 1919. (Pages 118-38 are a study of Philip.)

Lajard, F., "Philippe de Navarre, Jean d'Ibelin et al . . . redacteurs . . . des Assises de Jérusalem," in Histoire littéraire de la France, t. XXI, Paris, 1847.

Langlois, Charles, La Vie en France au moyen âge d'après quelques moralistes du temps, pp. 205-40. Paris, 1926.

Paris, Gaston, "Philippe de Novare," Romania, XIX (1890), 99-102.

——— "Les Mémoires de Philippe de Novare," Revue de l'Orient latin, IX (1902), 164-205.

Pastoret, E., "Philippe de Navarre jurisconsulte," in Histoire littéraire de la France, t. XIII. Paris, 1814.

Richter, Paul, "Beiträge zur Historiographie in den Kreuzfahrerstaaten vornehmlich für die Geschichte Kaiser Friedrichs II," Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung, XIII (1892), 255-310; XV (1894), 561-99.

CONTEMPORARY CHRONICLES AND COLLECTIONS OF DOCUMENTS

Abou'l Feda, "Annals," in Recueil des historiens des croisades: Historiens orientaux, t. I. Paris, 1872.

"Annales de Terre Sainte, Les," edited by R. Röhricht in Archives de l'Orient latin, II, Part B, 427-61. Paris-Geneva, 1884.

Assises de Jérusalem, edited by Count Beugnot. 2 vols., Paris, 1841-43. "Recueil des historiens des croisades: Lois."

Bedr ed Din Alaïny, "Le Collier de perles," in Recueil des historiens des croisades: Historiens orientaux, t. II. Paris, 1887.

"Breve Chronicon de rebus Siculis" in Huillard-Bréholles, Historia diplomatica Friderici Secundi, t. I, Paris, 1852.

Burchardi et Conradi Urspergensium Chronicon, Hanover, 1874. "Monumenta Germaniae historica: Scriptores," XXIII.

Delaville Le Roulx, J., Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem, 4 vols. Paris, 1894-1904.

"Estoire, L', de Eracles empereur et la conqueste de la Terre d'Outremer; la continuation de l'Estoire de Guillaume arcevesque de Sur," in Recueil des historiens des croisades: Historiens occidentaux, t. II. Paris, 1859.

Giudice, G., Codice diplomatico del regno di Carlo I e II d'Angiò. 2 vols. Naples, 1863-69.

Huillard-Bréholles, J., Historia diplomatica Friderici Secundi. 6 vols. in 12. Paris, 1852-61.

Ibelin, Jean d', "Documents relatifs à la successibilité au trône et à la régence," in Assises de Jérusalem, II, 397-422. Paris, 1843.

——— "Le Livre des Assises de la Haute Cour," in Assises de Jérusalem, I, 21-430. Paris, 1841.

Joinville, Jean de, Histoire de St. Louis, edited by N. de Wailly. Paris, Firmin Didot, 1874.

Laffan, R. G. D., Select Documents of European History, 3 vols. London, 1930-31.

La Monte, John L., "Register of the Cartulary of the Cathedral of Santa Sophia of Nicosia," Byzantion, V (1930), 439-522.

Liber iurium reipublicae Ianuensis, edited by Ricotti. 2 vols., Turin, 1854. "Historia patriae monumenta," t. 7, 9.

"Les Lignages d'Outremer," in Assises de Jérusalem, II, 435-74. Paris, 1843.

Lusignan, Étienne de, Histoire contenant une sommaire description des généalogies, alliances, et gestes de tous les princes et grans seigneurs . . . qui ont iadis commandé és Royaumes de Hierusalem, Cypre, Armenie, et lieux circonuoisins. Paris, 1579.

——— Description de toute l'isle de Cypre, et des roys, princes, et seigneurs, tant Payens que Chrestiens, qui ont commandé en icelle. Paris, 1580.

Makrizi, "Histoire d'Égypte," translated by E. Blochet in Revue de l'Orient latin, VI-XI. Paris, 1898-1908.

Matthaei Parisiensis chronicon majora, edited by H. R. Luard. 7 vols., London, 1872-83. "Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland."

Michaud, J. F., Bibliothèque des croisades. 4 vols. Paris, 1829.

Monumenta Germaniae historica: Epistolae XIII saecula spectantes, edited by Reiffenberg. 3 vols. Berlin, 1883-94.

Monumenta Germaniae historica: Leges, 4th series, t. 2, edited by L. Weiland. Hanover, 1896.

Röhricht, Reinhold, Regesta regni Hierosolymitani. Innsbruck, 1893. Additamentum, Innsbruck, 1904.

Ryccardi de Sancto Germano notarii chronica, edited by Prutz, Hanover, 1866. "Monumenta Germaniae historica: Scriptores," XIX.

Sanuto, Mario, Liber secretorum fidelium crucis, edited by Bongars, Hanover, 1611. "Gesta Dei per Francos," t. II.

Strehlke, E., Tabulae ordinis Theutonici, Berlin, 1869.

Tafel, G., and G. Thomas, Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig. 3 vols., Vienna, 1856-57. "Fontes rerum Austriacarum," Section II, Vols. 12-14.

Winkelmann, E., Acta imperii inedita. 2 vols. Innsbruck, 1880-85.

MODERN WORKS

Archives de l'Orient latin. 2 vols. Paris-Geneva, 1881-84.

Bertaux, E., "Les Français d'outremer en Apulie et en Épire au temps des Hohenstaufen d'Italie," Revue historique, LXXXV (1904), 225-51.

Blochet, E., "Les Relations diplomatiques des Hohenstaufens avec les sultans d'Égypte," Revue historique, LXXX (1902), 51-64.

Bréhier, L., L'Église et l'Orient: les croisades. 5th edition, Paris, 1928.

Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. Paris, 1904.

Du Cange, C. D., Les Familles d'Outremer, edited by E. G. Rey, Paris, 1869. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France."

Guilhiermoz, P., Essai sur l'origine de la noblesse en France au moyen âge. Paris, 1902.

Iorga, N., France en Chypre. Paris, 1931.

Jacobs, W., Patriarch Gerold von Jerusalem. Aachen, 1905.

Jauna, Dom, Histoire générale des royaumes de Chypre, Jérusalem, Arménie, et Égypte. 2 vols. Leyden, 1785.

Kantorowicz, E., Frederick II. English translation by E. O. Lorimer, London-New York, 1931.

Kington, T. L., History of Frederick II, Emperor of the Romans. 2 vols. London, 1862.

Lafiteau, Jean, Histoire de Jean de Brienne. Paris, 1727.

La Monte, John L., Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100-1291. Cambridge, Mass., 1932. "Monographs of the Mediaeval Academy of America," No. 4.

——— "The Communal Movement in Syria in the Thirteenth Century," Haskins Anniversary Essays. Boston, 1929.

Löher, F. von, Kaiser Friedrich II Kampf um Cypern. München, 1878. "Abhandlungen der K. Bayer. Akademie der Wissenschaft." IIIte Klasse, XIV (2).

Longnon, Jean, Les Français d'Outremer au moyen âge. Paris, 1929.

Loredano, G. F., Histoire des rois de Chypre de la maison de Lusignan, traduit de l'Italien du Chevalier Henri Gibelet. 2 vols. Paris, 1732. (Loredano wrote under the name of Gibelet; the first edition of this work appeared at Bologna in 1647.)

Mas Latrie, Count Louis de, Histoire de l'Ile de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan. 3 vols. Paris, 1852-61.

——— "Généalogie des rois de Chypre de la famille de Lusignan," Archivio Veneto, XXI (1881), 309-59.

Müller, Hans, Der Longebardenkrieg auf Cypern, 1229-1233. Halle, 1890.

Reinhards, J. P., Vollständige Geschichte des königreichs Cypern. 2 vols. Erlangen-Leipzig, 1766-68.

Revue de l'Orient latin, 12 vols. Paris, 1893-1911.

Rey, E. G., Étude sur les monuments de l'architecture militaire des croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre. Paris, 1871. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France."

Röhricht, Reinhold, Geschichte des Königreichs Jerusalem. Innsbruck, 1898.

——— Die Kreuzfahrt Kaiser Friedrichs des Zweiten. Berlin, 1872. Also reprinted with corrections and revisions in his Beiträge zur Geschichte der Kreuzzüge, I. Berlin, 1874. (The edition of the Beiträge has been cited throughout.)

Schlumberger, Gustave, Les Campagnes du roi Amaury Ier de Jérusalem en Égypte. Paris, 1906.

Stevenson, W. B., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Storrs, Sir Ronald, A Chronology of Cyprus. Nicosia, 1930.

Stubbs, William, "The Mediaeval Kingdoms of Cyprus and Armenia," Lectures and Addresses on Mediaeval and Modern History. Oxford, 1900.

Winkelmann, E., Kaiser Friedrich II. 2 vols., Leipzig, 1889-97. "Jahrbücher der deutschen Geschichte."

(٢)

وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة

(١١٧٢م)

مدخل

يبدو أنه مامن شيء يقيني معروف عن ثيوديرك، باستثناء اسمه، ومن المحتمل أنه ديترخ الذي ورد ذكره لدى جون أوف وورزبيرغ في مطلع كتاب رحلته، لكن لايوجد برهان يؤكد ذلك، كما أننا لانمتلك أية وسيلة لمطابقته مع ثيوديركوس برابوستيوس دي ويردا Praepositus de werdea،أو مع ثيوديركوس برابوستيوس أونولسباخ -Onols bach،الذي نقف على ذكره في السجلات الموجودة في وورزبيرغ والعائدة إلى أواخر القرن الثاني عشر، ولعله حسبما تقدم القول في مدخل رحلة جون أوف وورزبيرغ، كان هو ثيوديرك الذي صار أسقفاً لوورزبيرغ في سنة ١٢٢٣، ونعرف أنه كان ألمانياً، ومؤكد أنه كان من منطقة الراين، ذلك أنه حدثنا كيف تولى هو ورفاقه في يوم أحد السعف دفن رفيقهم الحاج أدولف أوف كولون في حقل الفاخوري قرب القدس، كما أن قيامه بعقد مقارنة بين كنيسة الضريح المقدس في القدس وبين الكنيسة في أكس لى شابيل(آخن) فيه برهنة على معرفته بتلك البلاد.

وهناك توافق قريب في كثير من الأجزاء بين ما ورد لدى جون أوف وورزبيرغ وثيوديرك، خاصة ما جاء في روايتيهما في وصف الأماكن التي لم يشاهداها، ذلك أنهما استخدما الجمل نفسها وكذلك الكلمات، ولعلهما هنا نقلا عن بعضهما بعضاً، لكن المرجح أكثر أنهما معاً — أو بالحري جون أوف وورزبيرغ، مثله مثل يوجيسبوس فرتللوس مع كتاب آخرين نقلا هذا الجزء من مصدر مختصر عن جغرافية وتاريخ الأرض المقدسة وجوارها، كان آنذاك متداولاً بكثرة، والذي سوف ندعوه هنا بسبب الاختصار:«الخلاصة القديمة الوافية»، وحصلنا على بعض التوضيح لخطته من ذكر جون أوف وورزبيرغ لنيته القيام بالكتابة فقط عن القدس وأحوازها:«وعن الأماكن المقدسة الموجودة داخل الأسوار وخارجها....

وبناء عليه ليس لدينا نية بتقديم أية رواية عن الأماكن القائمة في المناطق المجاورة، لمعرفتنا أن ما قيل عنهم فيه الكفاية، من قبل أي كاتب»، وجدير بالملاحظة أن ثيتمار Thietmar(ط.لورنت -Laur ent،٢٦)فعل عكس هذا تماماً، لأن الكثير قد قيل عن القدس،ولأن تلك المدينة وصفت وصفاً مفصلاً من قبل عدد كبير من الكتاب، ومع هذا يلاحظ أن جون أوف وورزبيرغ لم ينفذ ما نواه،لأنه أعطانا وصفاً عن أحوال الأماكن المقدسة في الجليل أيضاً، وهذا أمر يثير الشبهات، ويدفع إلى القول أن كل ما فعله كان هو النقل عن غيره، هذا إذا لم نقم مكرهين بالافتراض أن وصف الأماكن البعيدة عن القدس قد أضيف إلى وصف خطط القدس وأحوازها من قبل يد أخرى، ولقد بدأ ثيوديرك عمله بالاعلان بشكل محدد بأن وصفه قائم في جزء منه على ما رآه، وفي جزء آخر على روايات موثوقة استقيت من آخرين، لكن حتى وهو يتعامل مع هذه «الروايات الموثوقة» أو مع«الخلاصة القديمة الوافية» يمضي بعيداً في الاعتماد على الذات أكثر من جون، زيادة على هذا في روايته — بالاضافة إلى أنها مليئة أكثر — كثيراً من اللمسات المضيئة، المعدومة لدى الآخرين، فقد نشد الناس«العون من الرب» ومن«الضريح المقدس» عندما كانوا ينتظرون نزول النار المقدسة يوم عيد الفصح، والدموع تنهمر من أعينهم، وأيضاً قام الحجاج بغرس صلبانهم فوق صخرة الجمجمة، وأشعلوا النيران عشية عيد الفصح، كما قام الجهلة من الحجاج فصنعوا كوماً من الحجارة في وادي حنون متوقعين الجلوس عليها يوم القيامة، ووصف كيف أنه أصيب بالرعب هو ورفاقه من المسلمين، الذين دعاهم بالعرب، والذين كانوا قد شرعوا بفلاحة حقل وقع إلى جانب الطريق إلى نابلس، فقد كانوا يصرخون بشكل مرعب،«فتلك كانت عادتهم عندما كانوا يتولون القيام بعمل ما»، وقد شهد بنفسه ووصف ثراء الاسبتارية وأعمالهم الخيرية، وقوة الداوية، وذكر الأسماء النورماندية ـ الفرنسية مثل:«بلمونت» و«فونتنويد»و«جبل

البهجة»، التي باتت غريبة في فلسطين، كما تحدث عن جموع السفن في ميناء عكا الخطر، حيث كان مركبه بين تلك السفن،والمشهد من جبل الغواية فوق السهل المظلم الواسع، المغطى بأعداد لاتحصى من الحجاج، وكل واحد منهم حامل مشعل، وهم يتولون الحراسة ومراقبة المسلمين فوق التلال العربية لما وراء الأردن، وهذه الأوصاف والروايات لها قيمة لاتقدر بثمن، لأنها تساعد على رسم صورة الأرض المقدسة في أيام ملوك الفرنجة، ولابد من التمييز بين ما رآه ثيوديرك، وما وصفه اعتماداً على الآخرين، فقد جاء وصف الذي رآه واضحاً وكاملاً، ومليئاً بالحقائق الجديدة، بينما جاء المنقول مختصراً، متداخلاً ومضطرباً دوماً، ويبدو أنه نزل أولاً في عكا، وسافر من هناك إلى القدس، وزار أريحا والأردن، وعاد عبر الطريق نفسه، مع أنه قد يكون تولى شخصياً زيارة الناصرة، وطبرية وجبل الطور، وروايته عن بحر جنسارث مضطربة بشكل مرعب، ولعل مرد ذلك إلى أخطاء النساخ، وهو على كل حال لم يصف ما رآه فقط بشكل واضح، بل جاء وصفه ساذجاً وذكياً بغية كسب تقدير القارىء، وكان المخلّص مقيماً إلى جانب قلبه، لايزاحمه على مكانته سواه، وقد تحدث عن أمه بالاحترام اللائق، دون أثر لعبادتها الذي تميزت به العصور المتأخرة، ونجده متفوقاً على كثير من رحالة أيامنا هذه،أي أنه لم يتملك مشاعر الكراهية ضد الديانات الأخرى، ومع هذا لانجد لديه روح النقد المتوفرة لدى المؤرخ المعاصر، ولايحتوي الكتاب سوى على القليل من ردات الفعل الدينية التي غالباً ما يخفي الناس وراءها جهلهم بأمور هذه الحياة، ولهذا يرغب الانسان لو أن الكاتب أعطانا تعبيراً أوفى عن مشاعره الشخصية بشكل صادق، ومستقيم وصادر عن القلب، ومع أننا نتعرف من الفصل(٢٩) بأن الكاتب كان رجل دين، هو لم يحاول قط أن يفرض مكانته الدينية علينا، والمثير حقاً والغريب أنه لم يشر قط إلى قيامه بالدعاء أو بأية أعمال تعبدية أخرى في أي من الأماكن المقدسة، ففي الحقبة التي كتب فيها احتلت الأمور الروحية

مكانـة سامية، ومع هـذا بدا أنـه من غير الضروري بـالنسبة لـه القيام بإثارة مشاعر القرّاء أو المستمعين.

وليـس هناك مـن شك بـأن رحلـة حج ثيـوديـرك قد قـامت في أيـام الحروب الصليبيـة، أي قبل طـرد الصليبيين مـن القدس سنـة ١١٨٧ م، وهناك شواهد متميـزة عديدة بأنه أقام في القدس في الوقـت الذي كانت ما تزال فيـه تحكم من قبل ملوك الفـرنجة، وكل الذي بقـي علينا هو أن نحاول تحديد السنة تماماً، وهكذا نقـرأ في الفصل الثلاثين بأن عماد الدين زنكي، واسمـه لديه«سنجينوس» أو«سنجيـونيوس»، قد قطـع رؤوس ستة من الرهبان في أحد الأديرة على شواطىء الأردن.

ويبـدو أن هـذا قـد حدث سنـة ١١٣٨، عنـدمـا عبر المسلمـون نهر الأردن، وأغاروا على منـاطق أريحا وتقوع، وبعد هـذه الغزوة بأعـوام ثمانية اغتيل عماد الـدين، ونجد في الفصل الثـاني عشر اسم البطريـرك فولتشر، الذي تولى كرسي البطركية من سنة ١١٤٦ حتى سنة ١١٥٧.

وقـرأ ثيـوديـرك(الفصـل ١٥) بأن هيكـل الـرب قـد انتهـى في السنـة السادسة والثلاثين بعد الاستيـلاء على القدس، وذلك بعد سنة/ ١١٠١/ ويقودنـا هذا إلى سنـة ١١٦٤ م، وذكر في الفصل(٤٥) بـأن بانيـاس قد استولى المسلمـون عليها في سنـة ١١٧١، وينقلنا وصـف قبور الملـوك في الفصل / ١٢ / إلى عموري الذي مات في ١١ — حزيران سنة ١١٧٣.

وهكـذا بدا أن سنـة ١١٧٣، كانـت آخـر تاريـخ ورد ذكره: والنقطـة التاليـة المتوجـب فحصها هي : هـل أتيح له رؤيـة القبور الملكيـة، وهي مسألة لم تكن سهلـة مطلقاً، فقد جاء ثيوديرك من بيعـة القديسة حنة في كنيسة الضريـح المقدس الكبرى، وتابـع سيره نحو الممر الجنـوبي، حيث هنـاك مذبـح ملاصـق للاتجاه الجنـوبي، وأتـى هنا على ذكـر خمسة قبـور وجدت على الجانب اليمينـي أمام الباب، وكان القبر الأول هـو قبر أخي

الملك الحاكم في القدس(بلدوين الثالث)، وكان موضوعاً فوق شرفة جوقة الكهنة، المعروفة الآن باسم«جاثليقية» الكنيسة الإغريقية، وفيها يتعلق بكلمات:«قبر أخي ملك القدس الذي اسمه بلدوين» هي غير واضحة بما فيه الكفاية، وأعتقد أن التعليل موجود في جملة:«القبر الرابع هو قبر والد الملك الحالي، أي الملك عموري»، وكانت القبور حسب الترتيب التاريخي هي حسب مايلي:

أولهم قبر غودفري، وهو يقف ثالثاً بعد قبر بلدوين الثالث، إذا ما انطلقت منه نحو الشرفة، وهو القبر التالي لقبر بلدوين الثاني.

والقبرالثاني هو قبربلدوين الأول، وهو الثاني في الصف.

والقبرالثالث هو قبر بلدوين الثاني(دي بورغ)، والد الملكة ميليساند، ويودس راعية دير لعازر في بيت عنيا، وهو الخامس بالصف.

والقبرالرابع هو قبر فولك، والد بلدوين الثالث، وعموري، وهو الرابع بالصف.

والقبر الخامس هو قبر بلدوين الثالث، وهو الأول بالصف.

ولا يمكن الآن لإنسان أن ينكر بأن ثيوديرك قد قام بحجة إلى الأرض المقدسة في أيام حياة الملك عموري، الذي حكم من سنة ١١٦٢ حتى سنة ١١٧٣، ومن المهم تبيان أن قبر بلدوين الثالث أشير إليه على أنه قبر أخي الملك،لأن من المفترض معرفة الملك الحاكم بشكل جيد وبديهي، ولهذا يمكن بسهولة تعليل لماذا لم يرد ذكر قبر عموري في اللائحة، لأنه كان مايزال حياً، وبناء عليه يمكننا أن نفترض أنه رأى القبور سنة ١١٧١ م لكن ليس بعد سنة ١١٧٣، التي مات فيها عموري، ونصل الآن إلى محصلة أن حج ثيوديرك حدث بين سنة ١١٧١ و ١١٧٣.

وهناك نقاط أخرى جديرة بالتقدير، وهي وإن كانت أدنى دقة، لكنها مع ذلك تشير إلى التاريخ نفسه، فقد قال ثيوديرك في الفصل الخامس بأن بيعة الضريح المقدس كانت ألوان الطلاء فيها باهتة، ولهذا لم يستطع قراءة النقوش التي حفرت على الأقواس، وفي هذا دليل على أن الزيارة التي قام بها قد حدثت في تاريخ متأخر، لكن ليس متأخراً كثيراً بالنسبة لوجود المملكة اللاتينية في القدس، ففي التاريخ المتأخر كثيراً لم نعد نسمع بأن البيعة كانت مقسومة إلى قسمين(انظر رحلة فوكاس، ورحلة المجهول: ٤ فصل ١٥) وقد اعتمد فوكاس على حقيقة أن الامبراطور مانويل كومينوس الذي حكم من سنة ١١٤٣ إلى سنة ١١٨٠ قد تولى تذهيب القيامة كلها، وهناك احتمال كبير بأن ثيوديرك قد رأى بيعة الضريح المقدس أيام ترميمها، حيث مع أنه لم يستطع قراءة النقوش الباهتة الألوان، أخبرنا أنه استطاع أن يقرأ الترنيمة التجاوبية«قام المسيح» بأحرف ذهبية، في حين أن جون وورزبيرغ وصفها على أنها كانت مكتوبة بأحرف فضية، ولقد رأى ثيوديرك البريج التزييني فوق البيعة مع القبة بلون ذهبي، وهذا اللون الذهبي كان براقاً، ومعه أيضاً لون الصليب فوق القبة، وكأنه لون جديد، وتحدث جون فقط عن قبة صغيرة مغطاة بالفضة، وفي هذا كله برهان على أن جون كان المتقدم بالحج على ثيوديرك، ونعرف من ثيوديرك أن الداوية كانوا مشغولين ببناء كنيسة جديدة فوق جبل موريا، وقد استخدم حولها العبارة التالية التي وردت نفسها عند جون وورزبيرغ:

extructione nove ecclesiae nondum tamen consummatae

زيادة على هذا إن نظرية أن جون كان هو الحاج الأول مدعومة بالملاحظة التالية، وهي قوله:«في شكيم هناك كنيسة قيد البناء» فوق بير أيوب، حيث أن ثيوديرك تحدث عنها على أنها كانت مبنية خالصة، وعلى كل حال يبدو أن هذا لايتماشى مع البينة التالية، وهي أن ثيوديرك قد

تحدث عن كنيسة بيترنوستر، أو كنيسة مخلصنا بأنها«الآن قيد البناء» حيث أن جون قد تحدث عنها على أنها كانت مبنية، وفي جميع الأحوال، يمكن أن نستخلص من هذا أن الفارق الزمني بين الحاجين كان قصيراً جداً، وأخيراً يمكننا الإفادة من إشارة ثيوديرك إلى وجود بركة جديدة على الطريق من القدس إلى بيت لحم، وجاء هذا لدى وصفه لوادي حينوم، ولاشك أن المقصود هنا هو بركة السلطان في هذه الأيام، وهي بركة لانمتلك إشارة إليها قبل تاريخ ١١٧٦، ونعرف من جهة أخرى أن بير أيوب القائم عند التقاء وادي حينوم وقدرون قد اكتشف أولاً في سنة ١١٨٤ من قبل جرمانوس، وبناء عليه كان من غير الممكن الإشارة إليه من قبل ثيوديرك.

ونعرف من بينة داخلية بأن رحلة حج ثيوديرك قامت في ربيع السنة أيام«العبور الأول» في آذار أو في وقت الفصح وليس أيام«العبور الثاني» في آب يوم عيد القديس يوحنا، ذلك أن ثيوديرك رأى شعيراً ناضجاً في سهل أريحا في يوم أحد جاء بعد يوم أحد السعف، وفي يوم الأربعاء من أسبوع الفصح كان في عكا في طريق العودة إلى الوطن.

وصف ثيوديرك

يبدأ هنا الكتاب الصغير الذي كتبه ثيوديرك حول الأماكن المقدسة.

استهلال

يتوجه ثيوديرك أحقر الرهبان جميعاً ورجال المسيحية بنفسه إلى عباد الثالوث المثلث المتحد، وبشكل خاص إلى محبي مولانا الكريم يسوع المسيح.

لكي يعلموا على الأرض أنهم بمشاركتهم بآلام مخلصنا.

يمكنهم أن يستحقوا فيما بعد الحكم معه.

وحرصنا أن ندون كتابة على الورق، كل شيء متعلق بالأماكن المقدسة، حيث عاش بالجسد بارينا ومخلصنا بشكل فعلي، وأنجز مهامه مع الأسرار المرتبطة برجولته المباركة، وبخلاصنا، وذلك حسبما رأيناه بأعيننا، أو تعلمناه من مصادر رجال آخرين موثوقين وصنعنا هذا وفق أفضل ما نستطيعه، وذلك بغية إشباع رغبات الذين هم غير قادرين على الذهاب إلى هناك بأجسادهم الفعلية، بوساطة الأشياء التي لم يستطيعوا رؤيتها بأعينهم أو سماعها بآذانهم، وليكن معلوماً من قبل كل واحد من قرائنا بأننا بذلنا الجهد في هذا العمل من أجل أن يتعلموا تذكر المسيح دوماً، لأننا بتذكره يمكن أن نتعلم حبه، وبحبه يمكن أن نشفق عليه وهو الذي عانى قرب هذه الأماكن، ومن خلال الشفقة عليه يمكن أن نحصل على الشوق إليه، وبشوق المرء يمكن أن يتحلل من ذنوبه، وبالتحلل من الذنوب يمكن الحصول على نعمته، وبالحصول على نعمته يمكن للمرء أن يغدو شريكاً في مملكته في السماء، وبذلك سوف يعد جديراً من قبله الذي هو مع الرب ومع روح القدس، يعيش ويحكم إلى

الأبد. آمين.

يبدأ هنا الكتاب الصغير الذي كتبه ثيوديرك حول الأماكن المقدسة.

١ — *خراب البلاد وتغير أسمائها:*

من الواضح لكل من قرأ العهدين القديم والجديد، بأن بلاد كنعان قد منحت بأمر رباني إلى الأسباط الإثني عشر من أبناء إسرائيل ليتملكوها، وهذه البلاد مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي:

اليهودية، والسامرة، والجليل، وقد كانت في الماضي غنية بعدد كبير من المدن، والبلدات والقلاع، وأسماء هذه المدن القديمة ومواقعها معروفة لكل إنسان، غير أن المحدثين بحكم كونهم غرباء في البلاد، وليسوا من سكانها الأصليين يعرفون فقط عدداً قليلاً من الأسماء وهي الأماكن التي سوف نتولى وصفها في مواقعها الموائمة، وبما أن مولانا العزيز يسوع قد طلب الانتقام لدمه الذي سفك على الصليب على أيدي المجرمين اليهود، دخل الحاكمان الرومانيان فاسبسيان وتيتوس إلى اليهودية مع جيش تولى اجتثاث الهيكل والمدينة، وهدم جميع المدن والقرى في أرجاء اليهودية، وطرد القتلة أنفسهم وأخرجهم من ديارهم وأرغمهم على العيش بين الغرباء، ونتيجة لهذا كله فإن جميع أعمال ومنشآت ذلك الشعب والمقاطعة كلها قد تهدمت، ومع أن بعض الآثار في بعض الأماكن ما تزال باقية، إن جميع الأسماء تقريباً قد تغيرت.

٢ — *اليهودية:*

دعونا على هذا نتحدث أولاً عن اليهودية، فالمعروف أنها كانت المنطقة الرئيسية للملكة اليهودية، والتي تمكنا من تفحصها بأعيننا وبآذاننا، وهناك كما تقوم العين في الرأس تقوم مدينة القدس المقدسة، التي منها ـ بوساطة الرب ـ تدفقت نعمة مولانا يسوع المسيح، وخلاصه، وحياته، إلى جميع الأمم، ويحدّ اليهودية من جهة الغرب البحر

الكبير(المتوسط)، وهي مفصولة من جهة الجنوب ، بوساطة الصحراء عن جبال العربية ومصر، ويحدها من جهة الشرق نهر الأردن، ويتاخمها في الشمال السامرة وأدوم، وتتكون اليهودية من الجبال في معظم أجزائها، وترتفع حول المدينة المقدسة على شكل سلاسل عالية، منحدرة من جميع الجهات إلى حدودها المتقدمة الذكر، وكأنما ينزل المرء منهم إليها، وهذه الجبال في الوقت نفسه وعرة وكثيفة بصخورها القاسية، وهي مزينة من جهة أخرى بصخور موائمة جداً ليقتطع منها حجارة مربعة منحوتة صالحة للبناء، وهذه الحجارة في أماكن أخرى جميلة بألوانها البيضاء، والحمراء، والرخام المنوع، وكل بقعة وجدت بين هذه الصخور الكثيفة أرضاً صالحة للزراعة استخدمت لإنتاج كل نوع من الثمار، وهكذا رأينا الروابي والجبال مغطاة بالكروم، وغراس أشجار الزيتون، وأشجار التين، والوديان مليئة بالقمح وبمنتوجات الحدائق.

٣- القدس. وادي شعفاط وجهنم. جبل البهجة(جبال الجودي). قبرشعفاط. وضع المدينة المقدسة. تحصيناتها. أبوابها. شوارعها. بيوتها. بركها. أخشابها.

تقوم مدينة القدس على ذروة هذه الجبال وهي محدودة بكل من شعفاط وجيروم، وتعد مدينة القدس هي الأقدس والأشهر بين المدن الأخرى والأماكن في جميع أنحاء العالم، وهي ليست مقدسة بنفسها، أو تقدست بنفسها، لكنها تقدست وتمجدت بحضور الرب نفسه فيها، وبحضور مولانا يسوع المسيح وبحضور أمه المقدسة، ولأنه وجدت فيها عقيدة، ودعوة، وشهادة الآباء، والأنبياء، والرسل والرجال المقدسين الآخرين، ومهما يكن من أمر هي مطوقة بشعاب جبلية أعلى منها نفسها، ثم إنها هي نفسها مدينة مرتفعة، لأنها مبنية فوق جبل، ومن هنا إنها تجذب أنظار الذين يتطلعون إليها من جميع الجبال التي تحيط بها، ويقوم الآن فيما بين جبل موريا، الذي يقع عليه هيكل الرب، وبين جبل

الزيتون، الذي ترتفع قمته فوق كل الجبال الأخرى، بركة قدرون، ووادي شعفاط، وهو وادي يبدأ من جبل البهجة(جبال الجودي)، ومن هناك يدخل الانسان إلى المدينة من الجانب الشمالي، فيمر بكنيسة القديسة مريم، التي حملت اسمها منها، ثم يمر بقبر شعفاط، ملك اليهودية، فمن موته نال هذا المكان اسمه، ثم يمر قريباً من بركة سلوان للاستحمام، حيث هناك واد آخر يلتقي به، ويعطف هذا الوادي مجراه من عند زاوية المدينة الجنوبية، فيجتاز البركة الجديدة القائمة فيما بين جبل صهيون وحقل الفاخوري، وبذلك يحتضن طرفين من أطراف المدينة بمجرى عميق جداً، ويقوم قبر شعفاط في وسط هذا الوادي، وهو مبني من حجارة مربعة على شكل هرم، ويوجد حوله عدد كبير من القاطنين من عبيد الرب، أو النساك، وكلهم تحت رعاية راعي دير القديسة مريم، هذا وأطول قسم من المدينة هو الممتد من الشمال إلى الجنوب والقسم الأعرض هو الممتد من الغرب إلى الشرق، وهي محصنة بأسوار وبحصن على قمة الجبل القائم فوق الوديان المتقدمة الذكر، وهناك حاجز أو خندق موجود خارج الأسوار، مزود بشرافات وفتحات رماية، يدعونها«حصن أمامي»، وللمدينة سبعة أبواب، يغلقون منها بإحكام ستة كل ليلة من حلول المساء حتى إشراق الشمس، والباب السابع مغلق بجدار، ويفتح فقط يوم أحد السعف، وفي يوم تمجيد الصليب، وللمدينة شكل المستطيل، ولها خمس زوايا، إحداهن عريضة، وشوارعها جميعاً مبلطة بالحجارة، وهي مقنطرة، مخروقة بكثير من النوافذ من أجل مرور الإضاءة، وترتفع البيوت بوساطة حجارة مصنعة بدقة وعناية، ولكنها لاتنتهي بسقف«جملوني» حسب طرائقنا، بل هي مستوية ومسطحة الشكل، ويتولى الناس جمع مياه الأمطار التي تتساقط عليهم، ويتولون تخزينها، بصهاريج لاستخداماتهم الذاتية، ولايستخدمون ماء آخر، لأنه لا يوجد لديهم، والأخشاب صالحة للبناء وللنار، وهي نادرة هناك، لأن جبل لبنان هو الجبل الوحيد المليء بأشجار الأرز والسرو،

والصنوبر، وهذا الجبل بعيد عنهم، ولايمكنهم الوصول إليه خوفاً من هجمات المسلمين .

٤— برج داود. جبل صهيون وجبل موريا. حقل الفاخوري. جبل جبعون. بيت بيلاطس. أنطونيا.

كان برج داود ملكاً لملك القدس، وهو متفوق الحصانة، حيث بني بحجارة مربعة ذات حجم هائل، وهو قائم قرب الباب الغربي، ومنه يقود الطريق إلى بيت لحم، وإلى جانبه ومعه القاعة الجديدة البناء والقصر الملاصق له، وهو محصن بشدة بخنادق وسواتر دفاعية، وهو قائم على جبل صهيون، ولهذا نقرأ في سفر الملوك«استولى داود الآن على صهيون»، وهو قائم متوضع في مواجهة هيكل الرب، في جزء المدينة الممتد جانبياً، حيث أن جبل صهيون موجود على اليسار، وجبل الزيتون في الشرق، ويمتد جبل صهيون من البرج حتى كنيسة القديسة مريم، لكن بدون الأسوار، ومن الكنيسة تقريباً حتى قصر سليمان، وإلى الطريق الذي يؤدي إلى الباب الجميل إلى البرج، وهو هنا أعرض، غير أنه أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، ومع أن جبل موريا المطل على وادي شعفاط، والذي يقوم عليه هيكل الرب وقصر سليمان، يمكن أن يظن أنه رابية عالية، مع هذا إن جبل صهيون أعلى منه بأكثر مما هو متصور، وكما قيل من قبل حتى أنه يطل على وادي شعفاط، ويوجد في حقل الفاخوري، المفصول عنه بوساطة الوادي المذكور، مقبرة الحجاج، وفيها تقوم كنيسة القديسة مريم، أي العذراء أم الرب، وفيها أيضاً دفن في يوم أحد سعف النخيل المقدس، أخانا المعروف باسم أدولف، وهو من أهالي كولون، ويطل على هذا الوادي جبل جبعون، الذي جرى عليه تتويج سليمان، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك.

وفيما يتعلق بالأبنية الأخرى سواء العام منها أو الخاص، لم نستطع العثور على أي أثر، أو لنقل على قليل جداً، وذلك باستثناء بيت

بيلاطس، قرب كنيسة القديسة حنة، أم سيدتنا، وهي قائمة قرب بركة الضأن، ومن جميع الأبنية التي يخبرنا يوسفيوس أنها بنيت من قبل هيرود، لم يبق الآن شيء منها، وهي جميعاً قد هدمت تماماً وذلك باستثناء جانب واحد مايزال قائماً في القصر الذي عرف باسم أنطونيا، مع باب موجود في الخارج قرب باحة الهيكل.

٥ــ كنيسة الضريح المقدس، وبداية البيعة التي فيها .

وهكذا إن المتبقي علينا هو وجوب الحديث عن الأماكن المقدسة، التي بسببها دعيت المدينة نفسها بالمقدسة، ولقد رأينا أن علينا أن نبدأ مباشرة بقدس الأقداس، أي أن ننطلق من الضريح المقدس للرب، وكنيسة الضريح هي أجمل بناء وأروعه، ومعروف أنه تأسس من قبل الامبراطورة حنة، وبما أن الجدار الخارجي جاء على شكل الدائرة فقد جعل ذلك الكنيسة نفسها دائرية، ويحتل ضريح مولانا النقطة المركزية في الكنيسة، وشكله هو شكل البيعة التي بنيت فوق الضريح نفسه، وهو مزين بشكل جميل، ومغلف بالرخام، وشكله ليس شكل دائرة كاملة، بل ينطلق من محيط الدائرة جداران منخفضان باتجاه الشرق، ويلتقيان بجدار ثالث، وتحتوي هذه الجدران على ثلاثة أبواب، بعرض ثلاثة أقدام وبارتفاع سبعة أقدام، وينفتح واحد منها على الشمال، وآخر على الشرق، وآخر على الجانب الجنوبي، ويتم الدخول بوساطة الباب الشمالي، ويكون الخروج بوساطة الباب الجنوبي، أما الباب الشرقي فمفرد لاستخدام حراس الضريح.

ويوجد بين هذه الأبواب الصغيرة الثلاثة، والباب الرابع الذي يمضي منه الانسان إلى الضريح نفسه، مذبح، مع أنه صغير له قداسة عظيمة، فعليه ـ كما قيل ـ جرى تمديد جسد مولانا من قبل يوسف ونيقوديموس، زيادة على هذا، يوجد فوق الفتحة الفعلية لمدخل هذا الضريح، القائمة خلف المذبح صورة هذين الرجلين نفسيهما مصنوعة من الفسيفساء وهما

يضعـان جسد مـولانـا في القبر، مع مـولاتنـا أمـه واقفة جـانبـاً وكذلـك المريمات الثلاث الـلائي نعرفهـن معرفـة جيدة مـن الانجيل، وذلـك مع وعاء عطـر، ومع ملـك أيضاً، جالسـاً فوق الضريح، وهـو يزيـح الحجر قـائلاً: «انظروا هـا هو المكـان الـذي مددوه فيـه، وبين الفتحة والضريـح نفسـه خط ممتـد أخـذ شكل شبـه دائرة، تحتـوي على هـذين البيتين مـن الشعر:

«يشهد المكان والحارس على قيامة المسيح»

«وأقمشة الكتان ، والملاك، والفداء»

وقد صورت هذه الأمـور جميعاً ضمـن عمل فسيفسـائي رائع، وبهذا العمل جرى تـزيين البيعة الصغيرة، ولكل واحد من هـذه الأبواب بواب حريص، لايسمح بـدخول أقل من ستة رجال دفعـة واحدة، وليس أكثر من اثني عشر رجلاً، ذلك أن المكان ضيـق جداً ولايمكنه استيعاب عدد أكبر، وبعـد قيـامهـم بتعبـداتهم يـرغمـون على الخروج عبر بـاب آخـر، ولايمكـن لانسـان أن يـدخل إلى فتحـة الضريـح نفسـه إلاّ زحفـاً على الـركب، وبعبـوره للفتحة يجد أثمـن الكنـوز المرغوب بها، وأعنـي بذلـك الضريح حيث تمدد مـولانا يسوع المسيح — الأعظم نعمـة — لمدة ثلاثة أيام، وهذا الضريح مـزين بشكل رائع بوساطة الرخـام الأبيض والذهب والحجـارة الكـريمة، ويـوجـد على الطـرف ثـلاث فتحات، يمنـح فيهـا الحجـاج المتشوقين جـداً، قبلاتهم، إلى الصخـرة نفسهـا التي تمدد عليهـا مولانـا، والتي مساحتهـا قدمان ونصف القـدم بالعرض، وطـولها بمقدار ذراع رجـل واحـد مـن المرفـق، وقـدم واحـدة أيضـاً، والأرضيـة فيما بين الضريـح نفسه والجدار واسعـة بما فيـه الكفايـة لاستيعـاب خمسة رجـال يقـومون بـالصـلاة وهـم جاثين على ركبهـم، ورؤوسهـم معطـوفة بـاتجاه الضريـح، وهناك خـارج هـذا المبنى سلسلـة مكـونـة من عشرة أعمـدة، تشكل مع الأقواس التـي تدعمها ساحة مستديرة مغلقـة، وتحتها قاعدة

تحتوي على النقش المحفور التالي، المذهبة أحرفه:«قام المسيح من الموت، ولن يموت ثانية، وليس للموت سلطان عليه بعد الآن. لأنه في ذلك قد عاش، قد عاش مع الرب»، وعند رأسه الذي أدير باتجاه الغرب، يوجد مذبح مطوق بجدران فاصلة، وأبواب، ومزاليج من الحديد، مع شعرية من الخشب القبرصي، مزينة بمختلف الألوان، وبسقف من النوع نفسه، ومزين بالطريقة نفسها، وهو قائم فوق الجدران، وسقف العمل نفسه مكون من ألواح من النحاس المذهب، مع فتحة مستديرة في الوسط، يقف من حولها أعمدة صغيرة على شكل دائرة تحمل قناطر صغيرة فوقها، وهي تدعم سقفاً على شكل كأس، ويوجد فوق السقف نفسه صليب مذهب، وفوق الصليب حمامة مذهبة أيضاً، ويتشكل بين كل عمودين في الدائرة قوس، معلق في وسطه مصباح، وبالطريقة نفسها معلق أيضاً مصباحان بين كل من الأعمدة المنخفضة حول الدائرة كلها، وحول كل قوس من الأقواس المنخفضة، كتبت أشعار، بعضها فوق بعض الأقواس لم نكن قادرين على قراءتها، لأن لون الطلاء كان باهتاً، وكنا قادرين فقط على قراءة ستة بشكل واضح، وقد كتبت فوق ستة أقواس:

تمدد في هذا الضريح

الذي تولى صنع هذا العالم:

أنت يا من ترى ضريحه

أسرع لتكون

هيكلاً يلبي حاجتي.

حمل الرب بارك!

الآباء القدماء

متشوقون هنا في مرقدهم

إليه لرؤيته.

طلع في عفراتا Ephrata

عانى في الجلجلة

هو من فراشه الصخري

قاد أبانا آدم،

فرفعه عالياً

وقهر فنون الشيطان وألاعيبه

وقال للقلوب الغارقة:

«انهضي، إنه أنا»!

وأيضاً حول الاطار الحديدي الذي - حسبما قلنا من قبل - هو موضوع عند رأس الضريح، والذي فوقه شعرية حجرية، يوجد مدرج مكتوب عليه يحتوي الأبيات التالية:

«إنه هنا تمّ نيل النصر على الموت

وبدأت الحياة من أجلنا

إلى الرب جرى تقديم الأضحية المرضية،

وسقطت الضحية،

وعن ذنوبنا عفي

وكانت هناك بهجة في السماء

وحزن وأسى في جهنم

ولقد انتهى العهد القديم

وأرسل الله عهداً جديداً

ونعلم من هذا، أيها المسيح، الذي نزف دماً هنا،

أن الأرض هذه مقدسة، التي عليها نمشي»

٦ — *الكنيسة أو المبنى المستدير نفسه*

لقد تم رصف بلاط هذه الكنيسة بشكل جميل جداً، وقد رصع بالخزف وبمختلف أنواع الرخام الملون، وتستند الكنيسة في الأسفل وترتفع على ثمانية أعمدة مربعة، مما يدعى باسم سواري، وستة عشر عموداً حجرياً مفرداً، لكن بما أنها مقنطرة في الأسفل والأعلى، هي بالأعلى تشبه الكنيسة في أكس لاشابيل، فهي مدعومة بالطريقة نفسها، وهي مرفوعة على ثماني سواري، وستة عشر عموداً، والاطار المحيط بالكنيسة كلها، مغطى بنقوش كتابية بالأحرف الإغريقية، ويتلألأ وجه الجدار القائم بين الاطار الوسطي والاطار الأعلى بفسيفساء لامثيل لها بالجمال، ومن الممكن من هناك من أمام شرفة جوقة المرتلين، أي فوق قوس المعبد ، رؤية جسد يسوع وقد صنع من الفسيفساء نفسها، لكن ذلك صناعة قديمة، وقد رسم بألوان براقة، وذلك حتى السرة، مع وجه هو الأكثر جمالاً، وقد وقفت إلى يساره أمه، وإلى يمينه جبرائيل رئيس الملائكة، وهو يتفوه بالتحية المعروفة جداً:«سلام يا مريم، المليئة بالنعمة، الرب معك، باركك بين النساء، وبارك ثمرة رحمك»، وقد كتبت هذه التحية في كل من اللاتينية والاغريقية حول المولى المسيح نفسه، ويوجد بعد هذا، على طرف اليمين الحواريون الاثني عشر، وقد جرى رسمهم في وصف متسلسل في الفسيفساء نفسها، وقد رفع كل منهم يديه شكراً للمسيح بكلمات تشير إلى الأسرار المقدسة، وفي وسطهم ، وفي موضع خاص مجوف قليلاً داخل الجدار، جلس في أبهة ملكية الامبراطور

قسطنطين، وهو يرتـدي اللباس الملكي Trabea، ذلك أنه هـو ووالدته حنـة قد أسسـا الكنيسـة، وهنـاك أيضاً خلـف الرسـل رئيس الملائكـة ميكائيل وهو يتلألأ بأشعة رائعة، ويتبـع هذا على اليسار صف فيه ثلاثة عشر نبياً، كلهـم قد أداروا وجوههـم نحو الطفـل الجميل، وتوجهـوا إليه بالخطاب بكـل احترام، حاملين في أيديهم نبواتهم التـي أوحي لهم بها في القديـم، وجلست في وسطهم الامبراطورة حنـة المباركة، في مقابـل ابنها، وهي تتلألأ بشكل مجيـد، ويرسو فوق الجدار نفسه سقف مـن الرصاص، مستند على عـوارض خشبية قبرصية مائلـة، وفي وسط هذا السقـف فتحة دائرية كبيرة، يدخـل من خلالها الضوء مـن الأعلى، وينير الكنيسة كلها، لأنها لاتمتلك نافذة أخرى مهما كان نوعها.

٧— شرفة جوقة الرهبان النظاميين

زيـادة على هـذا، هنـاك إلى جـوار هـذه الكنيسـة، معبـد، أو قـدس الأقداس، وهو عمل فني رائع، وقد بني بالتتابع من قبل الفرنجة، الذين يغنون هنـاك بشكل جميـل جداً أغـان الشكر والمدح، في خـلال كل مـن النهـار والليل، أو أن تقـول خـلال السـاعات النظـاميـة، وفقـاً لطريقـة العذراء مريم، وفي أيديهم أوقاف كنسيـة، ومخصص لهم نصف التقدمات إلى الضريح المقـدس بمثابـة دخل، بينما جـرى تخصيص النصـف الآخر لاستخدامات البطريـرك، وجرى تكريس المذبح العلوي على اسـم مولانا ومخلصنا وعلى شرفه، ويوجـد خلفه كرسي البطريرك، الذي علّـق فوقه من قـوس المعبـد، صـورة كبيرة مـزينـة لسيدتنـا، وصـورة للقـديـس يـوحنـا المعمدان، وصـورة ثالثـة لجبرائيل المقدس الـذي كان إشبينهـا، وجرى في السقف الـداخلي تمثيل مولانا يسـوع المسيح، وهو يمسك صليبـه بشماله، وحامل آدم بيمينه، وهـو ينظر بأبهة ملكية نحو السماء، وقد رُفعـت قدمه اليسرى في خطوة هـائلة، بينما ظلـت قدمـه اليمنى مستنـدة على الأرض، وقد فعـل ذلك وهو يـدخل إلى السماء، وتبع هـذا وقوف أمه، والقـديس

يوحنا المعمدان وجميع الرسل من حوله، ويوجد تحت قدمه مدرج مكتوب عليه، وهو ممتد عبر القوس كله من طرف جدار إلى الطرف الآخر، وهو يحتوي على النقش التالي:

«إحمده وهو الذي صلب بالجسد،

ومجّده وهو الذي دفن من أجلنا،

اعبده فهو الذي قام من الموت.»

ويوجد خلف هذا مدرج مكتوب أعلى امتد عبر القوس نفسه، وقد نقش عليه مقطع من الكتابات المقدسة هو التالي:«صعد المسيح إلى الأعلى، وقاد معه جسداً أسيراً، وأعطى أعطيات إلى الناس»(المزامير : ٦٨ / ١٨)، وهناك في حوالي وسط شرفة الجوقة مذبح صغير مفتوح، له قداسة عظيمة، ورسم على البلاط هناك صليب، نقش داخل دائرة، وفي هذا إشارة وتنبيه على أنه على هذه البقعة مدد يوسف ونيقوديموس جسد ربنا، من أجل غسله بعد إنزاله من على الصليب، ويوجد قبل باب شرفة جوقة المرتلين مذبح له حجم ليس صغيراً، وهو على كل حال يستخدم من قبل السريان في طقوسهم، وعندما كانت تنتهي طقوس اللاتين اليومية، اعتاد السريان على إنشاد تراتيلهم إما خارج شرفة جوقة المرتلين أو في واحد من أركان الكنيسة، وفي الحقيقة لديهم في الكنيسة عدد من المذابح الصغيرة، معدّة ومكرسة لاستخداماتهم الخاصة، وهناك طوائف دينية تمارس طقوسها الدينية في الكنيسة في القدس هي: اللاتين، والأرمن، والإغريق، واليعاقبة، والنوبيين، وتختلف هذه الطوائف عن بعضها بعضاً في كل من اللغة، وفي طريقة أداء الطقوس المقدسة، ويستخدم اليعاقبة البوق في أيام أعيادهم، وذلك وفق طرائق اليهود.

٨— النار المقدسة

جرت العادة في كنيسة الضريح المقدس، أي في كل من الكنيسة نفسها وجميع الكنائس في المدينة، أنهم كانوا يقومون في صباح ليلة الفصح باطفاء جميع المصابيح الدنيوية، ويقومون بانتظار قدوم الضوء من السماء، ويعدون لتلقي هذا الضوء واحداً من المصابيح الفضية، التي جرى تعليق سبعة منها، استعداداً لذلك، ثم يقف جميع رجال الدين والشعب ينتظرون بقلق عظيم وتوقعات كبيرة، حتى يرسل الرب يده نحو الأسفل من الأعلى، وغالباً ما يكون هناك بين الصلوات صرخات بصوت مرتفع، لكن ليست بدون دموع فيها:«أعنا يارب» و«أعيننا أيها الضريح المقدس»، ويحمل في تلك الأثناء البطريرك، أو واحد من الأساقفة الآخرين، الذين احتشدوا هناك لاستقبال النار المقدسة، ومعهم بقية رجال الدين، صليباً فيه قطعة كبيرة من صليب مولانا قد أدخلت فيه، وذلك مع آثار مقدسة أخرى للقديسين، الذين غالباً ما يزورون الضريح المقدس للصلاة هناك، ويقومون أيضاً بانتظار هل أرسل الرب نور نعمته إلى الوعاء المعد لاستقباله، واعتادت النار على الظهور في ساعات محددة وفي أماكن معينة، وكانت تظهر في بعض الأحيان في حوالي الساعة الأولى، وأحياناً أخرى في حوالي الساعة الثالثة، أو السادسة، أو التاسعة، أو أنها قد تتأخر حتى آخر ساعات القداس، زد على هذا أنها كانت تأتي أحياناً إلى الضريح نفسه، أو إلى هيكل الرب، وأحياناً إلى كنيسة القديس يوحنا، وعلى كل حال عندما كنا نحن العبيد الحقراء ننتظر النار المقدسة مع الحجاج الآخرين، وصلت تلك النار المقدسة بعد الساعة التاسعة مباشرة، وعلى الفور قرعت النواقيس في الكنائس، وبدأت طقوس القداسات تحكى في المدينة كلها، وكانت طقوس التعميد والطقوس الأخرى قد جرى الاحتفال بها من قبل، وما أن وصلت النار المقدسة حتى نقلت إلى هيكل الرب، كما جرت العادة، وذلك قبل نقلها إلى أي مكان آخر، باستثناء أن البطريرك أشعل شمعته منها.

٩ــ بيعة القديسة مريم والصليب المقدس. سجن الرب. مذبح القديس نيقولا. الباب الذي يؤدي إلى الدير.

ويوجد على الجانب الغربي من الكنيسة، قرب الباب، الذي يصعد منه الانسان أكثر من ثلاثين درجة من الكنيسة إلى الشارع، وفي مواجهة الباب نفسه، بيعة مكرسة للقديسة مريم، وهي ملك للأرمن، كما ويوجد على الجانب الأيسر من الكنيسة، باتجاه الشمال، بيعة مكرسة للصليب المقدس، وفيها جزء كبير من الخشبة المبجلة نفسها،محفوظة في وعاء من الذهب والفضة، وهذه البيعة بأيدي السريان، ومجدداً، هناك على الطرف نفسه، مقابل هذه البيعة، باتجاه الشرق، بيعة ذات قداسة خاصة، حيث فيها المذبح الأكثر قداسة، والمكرس للصليب المقدس، وقطعة كبيرة من الخشبة المقدسة نفسها مغطاة بالذهب والفضة والجواهر، ومحفوظة في وعاء هو الأجمل، ومن الممكن رؤيتها بسهولة، ولدى مقتضيات الحاجة اعتاد الصليبيون على حمل هذا الرمز المقدس ضد المسلمين في المعارك، وهذه البيعة مزينة أيضاً بشكل رائع بالفسيفساء، وكان امبراطور الرومان هرقل قد أنقذ هذا الصليب واسترده من كسرى، امبراطور الفرس، أثناء الحرب التي استعرت ضده، وأعاده إلى المسيحيين، وقرب هذه البيعة وعلى الجانب الشرقي منها، يدخل الانسان إلى بيعة مظلمة، وبوساطة حوالي العشرين خطوة، حيث فيها المذبح الأكثر قداسة، ومن الممكن أن يرى تحت البلاط علامة صليب، ويقال بأن مولانا يسوع المسيح قد سجن في هذا المكان، وقد انتظر في هذا المكان بيلاطس في موضع آلامه لمدة طويلة، حتى تمت تغطية وجهه، وأقيم الصليب ونصب فوق الجمجمة، وصار من الممكن تعليقه عليه، ويوجد أيضاً خلف هذه البيعة مذبح مكرس للقديس نيقولا ، وخلف هذا هناك باب الدير، الذي منه يدخل الانسان إلى دير الرهبان النظاميين، القائم قريباً من هناك حول المعبد، وبعدما يدور الانسان حول الدير، ويعاود الدخول

إلى الكنيسة من الجانب الآخر لهذا الباب، يلاحظ وجود صورة للمسيح على الصليب، مرسومة فوق الباب العائد للدير، وهي تلمع بشكل أخاذ، وتجعل الناظر إليها يشعر بالأسى العظيم، وقد كتب حول هذه الصورة الأبيات التالية:

«أنت يا من مضيت في هذا الطريق،

أنت قد سببت لي حزناً عظيماً،

أنا عانيت هذا من أجلك،

ومن أجلي تحاشى الآثام»

١٠ — *بيعة القديسة حنة. القبو الذي عثر فيه على الصليب.*

وينزل الانسان باتجاه الشرق ثلاثين درجة، لابل أكثر، إلى بيعة القديسة الامبراطورة حنة المبجلة، التي هي قائمة خارج الكنيسة نفسها، حيث هناك مذبح مقدس مكرس لها، وثانية ينزل الانسان من جهة اليمين خمس عشرة درجة أو بالحري أكثر من ذلك إلى كهف تحت الأرض، وعلى الجانب الأيمن من هذا الكهف يمكن للانسان أن يرى مذبحاً مفتوحاً، وتحته صليب محفور على البلاط، ويحكى أن الامبراطورة عثرت في هذه البقعة على صليب مولانا، وهناك صليب مذبح للقديس جيمس، وليس لهذه البيعة من نافذة غير الفتحة الكبرى الموجودة في سقفها.

١١ — *بيعة الجلد. قبر الدوق غودفري وقبور ملوك القدس. البيعة تحت برج الناقوس. بيعة القديس يوحنا المعمدان وأحوازها.*

هناك في جزء آخر من الكنيسة، أي في الجهة اليمنى، في خلف شرفة الجوقة مذبح لطيف، وذلك حيث يقوم العمود الذي ربط إليه مولانا

وجلد، ومن الممكـن رؤية خمسة قبور، خلف هذا في الجنـوب، قبل باب الكنيسة، وأحد هذه القبور هو الأقـرب إلى الباب، وهو مصنوع من رخام أبيض وعمـل فني ثمين، وهو قبر أخي ملـك القدس، واسمه بلـدوين، والقبر الثاني هـو قبرالملك بلـدوين أخي الـدوق غودفـري، ويوجـد عليه نقشت الكتابة التالية:

«يرقد هنا بلدوين، الذي هو يهوذا المكابي الثاني،

أمل بلاده،وفخر الكنيسة وقوتها، هو كان،

الأرز ومصر،ودان، ودمشق المتغطرسة،

خافت قدرته، وإليه بذلّ أرسلت الهدايا والجزية.

آه، في يوم من الأيام، تمدد تحت هذه الآبدة الفقيرة».

والقبرالثالث الـواقع خلف هذا، هـو قبر أخيه الدوق غودفـري نفسه، الذي تمكن بسيفه وبحكمتـه من استرداد مدينة القدس، التي كـانت قد غزيت مـن قبل المسلمين ومن قبل الترك، وأعـادها إلى الصليبيين، وأعاد إلى عـرشه البطـريـرك، الـذي كان قـد طـرد مـن قبل المسلمين، ووضـع مجموعة من رجـال الدين في الكنيسة، وأعطاهم منحاً مقـررة حتى يكونوا أقوياء، ويقاتلـوا في سبيل الرب، والقبرالرابع هو قبروالـد عموري، الملك الحاكـــم الآن، والخامـــس هـــو قبر رئيســـة وراعيـــة ديـــر القديس(لازاروس)لعازر.

ويوجد في الجنوب باب، يدخل الانسـان من خلاله إلى البيعة القائمة تحت بـرج الناقـوس، ومنها يجتـاز الانسـان إلى بيعة أخـرى ذات قداسـة عظيمة مكـرسة ليـوحنا المعمـدان، وهناك أيضـاً جرن للمعمـودية، ومـن هناك يذهـب الانسـان أيضاً مرة ثانية إلى البيعة الثـالثة، ويصعد الانسان من البيعة الأولى إلى الشارع بوساطة أربعين درجة أو أكثر.

١٢ — جبل أكرا. الدهليز الخارجي أمام الجلجلة. بيعة الصلب. بيعة الجلجلة باب الكنيسة.

بقي علينا أن نتحدث الآن عن جبل أكرا(الجمجمة)، التي يتلألأ في الكنيسة مثلما تتلألأ العينان في الرأس، فمن هناك سوف يتدفق النور والحياة الأبدية علينا، من خلال موت وسفك دماء ابن الرب، وقبل المدخل، أو باب الكنيسة، المغطى ببرونز قوي، والذي شكله مضاعف، يصعد الانسان بوساطة خمس عشرة درجة إلى حجرة صغيرة لها سياج ومزينة بالصور، ويقف عند رأس السلم حرس يحرسون الباب، ويسمحون للعدد الذي يريدونه من الحجاج بالدخول، خشية أن يحدث بالضغط الشديد — كما حدث مراراً هناك — دهس أو خطر على الحياة، ويصعد الانسان من ذلك الدهليز إلى بيعة ذات مكانة رفيعة جداً بالقداسة، ذلك أنها أقدس مكان تحت الشمس، وهذه البيعة مكونة بوساطة أربعة أقواس لها قوة عظيمة، وهي مبلطة ببلاط جميل، مكون من مختلف أنواع الرخام، وقبتها من الداخل، أو سقفها، مزين بشكل بديع بصور الأنبياء، مثل داود، وسليمان ، واشعيا، وآخرين، وهم يحملون في أيديهم نصوصاً تشير إلى آلام المسيح، وقد مثلت هناك على الفسيفساء بشكل فائق الجمال، حتى أنه لايوجد عمل يمكن أن يقارن به تحت قبة السماء، فقط بشرط إمكان رؤيته بوضوح، لأن هذا المكان مظلم بعض الشيء بالبناء المقام من حوله، والمكان الذي نصب عليه الصليب الذي عانى المخلص عليه الموت، موجود على الجانب الشرقي، وهو الآن مرفوع فوق درجة عالية، مغطاة من جانب اليسار بأجمل أنواع الرخام، وظاهر هناك دائرة واسعة بما فيه الكفاية لتستوعب رأس إنسان ، ذلك أنه من المعروف بأن الصليب نفسه قد أثبت هناك، ويرغب الحجاج صدوراً عن حبهم واحترامهم الذي يحملونه للذي صلب هناك، في إدخال رؤوسهم ووجوههم في تلك الفتحة، ويوجد في جهة اليمين جبل

أكرا نفسه، وهو أكثر ارتفاعاً ويشكل شعباً جبلياً طويلاً وعريضاً وعميقاً في طرفه، لأن الصخور قد تفتت عندما مات المسيح، وتصدعت وانفتحت من الأعلى ومن الأمام مشكلة جرفاً مخيفاً، وبهذا تبرهن أن الدم الذي تدفق من طرف المسيح، وهو معلق فوق الصليب قد وجد طريقه تماماً إلى الأرض، ومن عادة الحجاج، نصب الصلبان التي يحملونها معهم من بلدانهم، على قمة هذه الصخرة، وقد رأينا كميات كبيرة منهم هناك، وقد اعتاد حراس الجمجمة على إحراقهم بالنار عشية عيد الفصح، ويوجد في تلك البيعة مذبح له قداسة كبيرة، حيث يحتفل بجميع القداسات عليه يوم الجمعة الحزينة، ويتولى ذلك البطريرك وجميع رجال الدين، وهناك على الجدار على الجانب الأيسر من المذبح صورة جميلة جداً لمولانا وهو على الصليب، ولوجينوس واقف إلى يمينه وهو يطعن طرفه برمحه، ووقف إلى يساره ستيفتون وهو يقدم له خلاً، واسفنجة وقصبة، وأمه واقفة على يساره، والقديس يوحنا على يمينه، وهناك في الوقت نفسه لوحان عظيمان غطيا كلياً بكتابة نقشت بالاغريقية، وهذان اللوحان محيطان بالصخرة كلها .

وعلى طرف اليمين للمذبح نفسه يوجد أيضاً صورة تظهر نيقوديموس ويوسف وهما ينزلان المسيح الميت من على الصليب،ونقش هناك أيضاً مايلي:«إنزال مولانا يسوع المسيح من على الصليب»، وينزل الانسان خمس عشرة درجة إلى الكنيسة، فيصل إلى البيعة المسماة«الجلجلة»، وهي ذات قداسة عظيمة، لكنها مظلمة جداً، ويوجد في ظهرها حفرة عميقة يمكن منها للمتطلعين هناك رؤية نهاية جرف الصخرة المنحدر من أكرا، ويقال بأن دم المسيح قد وقف في ذلك المكان بعدما جرى نحو الأسفل إلى هناك من خلال الصدع، زيادة على هذا يوجد فوق القوس الذي يشكل حد الجلجلة، أو بكلمة أخرى: فوق الطرف الغربي من أكرا، صورة مرسومة فوق الجدار، فيها يمكن رؤية

هذه الأبيات المكتوبة بأحرف ذهبية:

«تقدس هذا المكان من قبل بدم المسيح،

وتكريسنا له لايمكن أن يجعله أكثر قداسة

وتاريخ تكريس هذه الأبنية حول هذه الصخرة

هو الخامس عشر من تموز، وجرى تكريسه

من قبل البطريرك فولتشر في وضع مهيب»

ويقف خارج باب هذه الكنيسة، في الفراغ ما بين البابين مولانا المسيح في ثوب لاهوتي، وكأنه قد قام الآن من الموت، بينما تمددت مريم المجدلية ساجدة عند قدميه، لكن دون أن تلمسها، ويحمل الرب باتجاهها مدرج يحتوي على هذين البيتين:

«لماذا أيتها المرأة تبكين، ولماذا تجثين أمام الذي يبتغي الموت؟

لاتلمسيني، انتبهي أنني وأنا حي جدير بأن أعبد».

١٣ — *بيعة المريات الثلاث. بيعة الأرمن. بيعة صغيرة أخرى. الشارع والسوق. كنيسة ومشفى القديس يوحنا المعمدان. كنيسة القديسة مريم الكبرى. كنيسة القديسة مريم اللاتينية.*

ولدى خروج الانسان من الكنيسة باتجاه الجنوب، يجد نوعاً من أنواع الساحات المربعة مبلطة بحجارة مربعة، وعلى الجانب الأيسر منها، الذي هو قرب الجلجلة، في الجانب الخارجي، هناك بيعة مكرسة للمريمات الثلاث، وهي ملك للاتين، ويوجد بعد مسافة منها باتجاه الجنوب بيعة أخرى هي بأيدي الأرمن، وبعدها بقليل أيضاً هناك بيعة أخرى صغيرة، وعندما يخرج الانسان من هذه الساحة المكشوفة، يوجد على اليسار شارع مقنطر مليء بالبضائع للبيع، ويوجد في مقابل الكنيسة موضع

السوق ويقف هنا أمام الكنيسة ستة أعمدة، مع أقواس عليهم، وهناك على الجانب الجنوبي من الكنيسة، تقوم كنيسة ومشفى القديس يوحنا المعمدان، وبالنسبة لهذه الكنيسة ما من إنسان يمكنه أن يتحدث بشكل موثوق إلى إنسان آخر، ويخبره كم هي جميلة بنائها، وكم هي مزودة بعدد وافر من الغرف والأسرة والمواد الأخرى لاستخدامات الفقراء والمرضى من الناس، وكم هي غنية بوسائل انعاش الفقراء، وكم هي منصرفة للعمل للحفاظ على المحتاج وبالفعل لايمكنه القيام بذلك مالم تتهيأ له الفرصة ليراها بأم عينيه، وفي الحقيقة مررنا بهذا المكان، ولم نكن قادرين بأية وسيلة من الوسائل من اكتشاف عدد الناس المرضى الذين كانوا متمددين هناك، لكن رأينا أن عدد الأسرة كان أكثر من ألف سرير، وليس هذا بقدرة أي انسان، بل إن أقوى الملوك والأباطرة هم وحدهم فقط الذين بامكانهم رعاية هذا العدد الكبير من الناس، كما يفعل هذا البيت كل يوم، ثم إنه لاعجب، أن الاسبتارية بالاضافة لامتلاكهم بيوتاً في البلدان الأخرى (التي من غير الهين معرفة عددها الإجمالي) قاموا مع الداوية بالاستيلاء على جميع المدن والقرى تقريباً التي هي تابعة لليهودية، والتي كانت قد دمرت من قبل فسبسيان وتيتوس، وذلك مع جميع أراضيها وكرومها، ولديهم قوات متمركزة خلال المنطقة كلها، والقلاع هناك محصنة بشكل جيد ضد المسلمين، وبعد هذه إلى الشرق من موقف الانسان هناك، يأتي إلى كنيسة القديسة مريم، التي فيها راهبات تحت إدارة راعية دير، وهي لها شهرتها الواسعة للقداسات اللاهوتية يومياً، ويقال بأن هذا المكان قد كرس للقديسة مريم، بسبب أن مولانا عندما كان تحت العذاب وهو على طريق آلامه، كانت محبوسة في داخل حجرة كانت آنذاك موجودة في تلك البقعة وذلك بناء على أوامره، زيادة على هذا يليها كنيسة أخرى ملاصقة لها وإلى الشرق منها، أيضاً مكرسة لسيدتنا، لأنه بينما كان مولانا يعاني من الآلام من أجل خلاصنا، أغمي عليها من شدة حزنها، وحملت على أيدي الرجال من

هنـاك إلى قبو تحت الأرض هنـاك، حيث أنها مـن حزنها وآلامهـا نزعـت شعرهـا من رأسها، وهذا الشعـر مايزال محفـوظاً حتى هذا اليـوم في وعاء زجاجـي في تلك الكنيسة، ويوجـد في هذه الكنيسة أيضاً رأس القـديس فيليب الـرسول، وهـو مزيـن بشكل بهي بـالذهـب، وهناك كـذلك ذراع القديس سمعان الرسول، وذراع القديس سيبريان Cyprian ، الأسقف، وفي هذه الكنيسة رهبان تحت حكم وسلطان راعي دير.

١٤— هيكـل الرب: الصحـن، السلالم. الكهـف تحت الأرض. البركـة الكبيرة. البيـوت. الحدائق. مـدرسـة القـديسـة مـريـم. الصخرة الكبيرة. الـدير والأبنية الـديريـة لرجال الـدين. والبرك الأخرى.

وينعطـف الانسان مـن هناك قليـلاً نحو الجنـوب عبر الشارع فيجـد نفسه داخـل الباب الجميـل لمعبد الـرب، وهو عبر حـوالي وسط المدينـة، ويصعد الانسان من هناك الساحة المنخفضة إلى الساحة العلوية بوساطة اثنتين وعشرين درجـة، ويدخل الانسان مـن الساحة العلويـة إلى المعبد، ويـوجد أمـام هـذه الدرجـات نفسهـا في الساحـة السفلى خمس وعشرون درجة أو أكثـر تقود نـزولاً إلى بركـة كبيرة، وقد قيـل يوجـد من هنـاك ممر تحت الأرض يوصـل إلى كنيسة الضريح المقـدس، ومن خلال هـذا الممر يقال بـأن النار المقدسة، التي تشتعل بشكل إعجازي في تلـك الكنيسة عشيـة عيد الفصـح، تنقل مـن تحت الأرض إلى هيكل الـرب، ويجري في هـذه البركة غسـل الضحـايـا التي تقـدم إلى معبـد الـرب تبعـاً لمبـادىء القـانـون، والساحـة الخارجيـة تبلـغ بالحجـم ضعـف مسـاحة السـاحـة الداخلية، أو أكثر، والساحة الداخليـة مثلها مثل الساحة الخارجية مبلطة بحجارة عريضة وكبيرة، وطـرفان من الساحة الخارجية مـايزالان موجودان حتى هـذا اليوم، وجـرى أخـذ الطـرفين الآخـريـن لاستخدام الـرهبـان والـداوية، الـذين بنـوا بيوتـاً وزرعـوا حدائق عليهما، وفي الجهـة الغربيـة

يصعد الانسان إلى الساحة العليا بوساطة سلسلتين من السلالم، وكذلك الحال نفسه في الجهة الجنوبية، ويوجد فوق الدرجات التي تقوم البركة أمامهن، ويقوم أربعة أعمدة، فوقهم قناطر، وهناك أيضاً ضريح لرجل غني، محاط بسياج حديدي ومغطى بالمرمر بشكل جميل، ويوجد في جهة اليمين أيضاً، فوق الدرجات في الجهة الجنوبية، أربعة أعمدة مشابهة، وفي جهة اليسار ثلاثة، ويوجد في الجهة الشرقية أيضاً خمس عشرة درجة مزدوجة، يصعد الانسان بوساطتها إلى المعبد من خلال البوابة الذهبية، وتبعاً لهذا العدد يقوم الذين ينشدون المزامير بنظم خمسة عشر مزموراً، ويقف فوق هذه الدرجات أيضاً أعمدة، وإلى جانب هذا، وفي الجهة الجنوبية، فوق زاويتي الساحة الداخلية، يقوم مبنيان صغيران، وقد قيل بأن الذي هو باتجاه الغرب يضم مدرسة العذراء المباركة، ويوجد بين المعبد وبين طرفي الساحة الخارجية —أي بين الطرف الشرقي وبين الطرف الجنوبي— صخرة كبيرة، على شكل مذبح، هي تبعاً لبعض التقاليد فم بعض البرك التي وجدت هناك، وهي أيضاً تبعاً لبعض معتقدات الآخرين، تشير إلى المكان الذي قتل فيه زكريا بن براخيا، ويوجد على الجانب الشمالي دير وأبنية ديرية لرجال الدين، كما وهناك حوالي المعبد نفسه برك كبيرة للماء تحت البلاط، ويوجد بين البوابة الذهبية والدرجات الخمس عشرة صهريج ماء قديم مهدم، فيه كانت في العصور القديمة يجري غسل الضحايا قبل تقديمها.

١٥ — *وصف الهيكل: المكان الذي عرض فيه المسيح، والمكان الذي رأى فيه يعقوب السلم.*

من الواضح أن الهيكل نفسه له شكل ثماني في جزئه السفلي، وهذا الجزء السفلي مزين حتى الوسط برخام رائع جداً، ومن الوسط حتى إطار النهاية القصوى، أي إلى حدود استناد السقف، مزين بأجمل أنواع أعمال الفسيفساء، ويوجد حول هذا الاطار الذي يمتد حول دائرة المعبد

كله، النقـش التالي، وهو يبـدأ من الواجهـة، أو من الباب الغـربي، ومن المتوجب قراءته شروعاً من اتجاه الشمس كما يلي:

في الـواجهة: «سـلام دائم على هـذا البيـت، من الأب الـدائم»، وعلى الجانب الثـاني: «معبد الـرب مقدس، الرب يـرعاه، وهـو الذي قـدسه»، وعلى الجانب الثالـث: «هذا هو معبد الرب، مبني بثبات،»، وعلى الجانب الرابـع: «في معبد الرب رجال سـوف يتحدثون عـن مجده»، وعلى الجانب الخامس: «مبارك مجد الرب من مكـانه المقدس»، وعلى الجانب السادس: «بورك في الذيـن يقطنون في بيتك يارب»، وعلى الجانب السابـع: «صدقا الرب في مكـانه المقـدس هذا، وهذا مـالاأعرفـه»، وعلى الجانب الثـامن: «بني بيت الـرب بشكل جيد على صخرة ثـابتة»، وإلى جانب هـذا يوجد على الجانب الشرقـي في مواجهـة كنيسة القديـس جيمس عمـود ممثل في الجدار بعمـل فسيفساء، جـاء عليـه النقش التـالي: «العمـود الرومـاني»، ويشكل الجدار الأعلى دائرة ضيقـة، تقوم على أقواس داخل البنـاء، وهي تسنـد سقفاً مـن الـرصاص، هنـاك على ذروته كـرة كبيرة فـوقها صليـب مذهـب، وهناك أربعة أبواب تقـود إلى داخل البناء وإلى خارجـه، ويتجه كل بـاب نحو ربـع من أربعـة أرباع العـالم، وتستند الكنيسـة على ثمانية أجزاء مـربعة، وستـة عشر عموداً، وقد زينـت جدرانها وسقفهـا الداخلي بـالفسيفساء بشكـل رائع، وتحتوي دائرة شرفـة جـوقة المرتلين على أربعـة أعمدة أساسيـة، أو دعامات، وعلى ثمانية أعمدة تـدعم الجدار الداخلي، مـع سقفـه الجملوني المرتفـع، وفـوق أقـواس شرفـة جوقـة المرتلين نقـش مكتوب يمتـد حول البناء كلـه، يحمل النص التـالي: «سوف يدعـى بيتي بيت الصلاة» فهكذا قال الرب، «من سأل فيه شيئاً تلقاه، ومن نشد أمراً وجده، ومن يقـرع على بابه، سوف يفتـح له، اسأل ولسوف تتلـق، وانشد ولسوف تجد»، وفي الـدائرة العليا هناك نقـش مماثـل موضوع حـول البناء وفيه النص التـالي: «فالتفت إلى صلاة عبـدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي

واسمع الصراخ والصلاة التي يصليها عبدك أمامك اليوم. لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلاً ونهاراً على الموضع الذي قلت إن اسمي يكون فيه لتسمع الصلاة التي يصليها عبدك في هذا الموضع..... واسمع أنت في موضع سكناك في السماء» (الملوك: ١/٨/ ٢٨).

وعند المدخل إلى شرفة جوقة المنشدين، هناك مذبح مكرس للقديس نيقولا، وهو محاط باطار حديدي، ويوجد على الحافة العليا النقش التالي، أولاً في الواجهة:«في سنة ١١٠١، في الخمسعشرية الرابعة، وفي ١١ من الجبيرة Epact»، وعلى الجانب الأيسر :«من ٦٣ سنة من الاستيلاء على طرابلس على القدس»، وعلى الجانب اليميني« من ٥٢ سنة من الاستيلاء على طرابلس، و٥١ سنة من الاستيلاء على بيروت، و١١ سنة من الاستيلاء على عسقلان».

زيادة على هذا، هناك مكان، باتجاه الشرق على صف طرف شرفة جوقة المغنين، محاط بسياج حديدي مع أبواب، وهو جدير بالاحترام العظيم، حيث يعتقد أن هناك جرى تقديم مولانا يسوع المسيح، من قبل والديه، عندما جلب إلى الهيكل مع تقدمة،وكان ذلك بعد أربعين يوماً من ولادته، وكان قد أخذه سمعان الشيخ عند المدخل، وحمله على ذراعيه إلى مكان التقدمة، ويوجد في واجهة هذا المكان البيتان التاليان:

«ابن العذراء، ملك الملوك، قدّم هنا

ولهذا زينا هذا المكان بالهدايا وبالتبجيل».

وقريب من هذا المكان، وعلى مسافة غلوة تقريبا، توجد الحجرة التي وضعها البطريرك يعقوب تحت رأسه، وعليها نام عندما رأى سلماً يصل إلى السماء، كانت الملائكة تنزل عليه وتصعد فقال:«حقاً الرب هنا في هذا المكان، وأنا لست أدري»، وفي واجهة هذا المكان البيتان التاليان:

«يعقوب مع جسم مستريح، لكن مع عقل مستيقظ

هنا رأى السلم، وهنا أقام مذبحه»

١٦ — *بيعة القديس جيمس خارج الهيكل. المكان الذي سئل فيه مولانا عن وسط العالم. المكان الذي رأى فيه حزقيال الماء. السرداب الموجود تحت السدة. النوافذ. المذبح العالي. تاريخ(الهيكل).*

ويدخل الانسان من هناك من خلال الباب الشرقي إلى بيعة القديس جيمس الرسول أخي ربنا، الذي كان قد قتل من قبل اليهود الفجار، حيث رمي من أعلى الهيكل، وحطمت جمجمته بوساطة عصا القصار، وقد دفن أولاً في وادي شعفاط قرب الهيكل، ثم نقل إلى ها هنا فيما بعد من قبل المؤمنين، بكل تشريف يليق به، ووضع داخل ضريح، كتب فوقه النقش التالي:

«قل أيها الصخر والقبر، هل وجدت عظام الملك مكاناً لها هنا؟

القديس جيمس العادل: يرقد في داخل هذا القبر»

وهذه البيعة مستديرة في نفسها، وهي واسعة في الأسفل، وضيقة بالأعلى، وهي مدعومة بوساطة ثمانية أعمدة، ومزينة بشكل رائع باللوحات المرسومة، وعندما نعود منها بالطريق نفسه، يوجد على جهة اليسار، خلف عضادة الباب، مكان طوله خمسة أقدام وكذلك عرضه، فهناك وقف ربنا عندما سئل في أي مكان كان هو من القدس، حيث أكدوا بأنه موجود في وسط العالم، وقد أجابهم:«يدعى هذا المكان القدس»، ويوجد أيضاً خلف الباب نفسه في الجهة المقابلة لمشهد المكان المتقدم الذكر، وعلى الزاوية الشمالية، مكان آخر يحتوي على المياه التي رآها النبي حزقيال تتدفق نازلة من تحت الهيكل، على جهة اليمين، وفي طريق عودتنا إلى الكنيسة الكبرى، هناك في جهة الجنوب قرب السدة، لابل في الحقيقة تحت السدة، باب، يدخل الانسان من خلاله بعد نزوله

خمساً وأربعين درجة، إلى السرداب إلى حيث كان الكتاب والفريسيون قد جلبوا امرأة، أخذت لممارستها البغاء، إلى المولى يسوع واتهموها، وقد عفا المعلم المقدس عن ذنوبها وحللها منها، وفي ذكرى لهذا سمح للحجاج بالنزول إلى هذا المكان، وللكنيسة في دورها الأدنى ست وثلاثين نافذة،وفي دورها الأعلى أربع عشرة، وهم إذا ما جمعوا مع بعض يصبح تعدادهم خمسين، وهي مكرسة لمولاتنا القديسة مريم، ولها أيضاً مكرس المذبح العلوي، ويقال بأن الكنيسة نفسها قد بنيت من قبل الامبراطورة القديسة حنة، وابنها الامبراطور قسطنطين.

ودعونا نستعرض الآن ونقوم بتفحص كم مرة بني الهيكل ومن قبل من، وأيضاً كم من المرات قد هدم ومن قبل من، وحسبما نقرأ في سفر الملوك، كان الملك سليمان أول من بنى الهيكل، بناء على أمر إلهي، ومقابل نفقات عالية، لكن ليس على شكل مستدير حسبما نراه في هذا اليوم، بل على شكل مستطيل، واستمر هذا الهيكل موجوداً حتى أيام صدقيا، ملك اليهود، الذي وقع أسيراً لنبوخذ نصر، ملك بلاد بابل، واقتيد وهو أسير إلى بابل، وكان معه يهوذا وبنيامين، مثله قد اتخذا أسيرين، واقتيدا إلى بلاد آشور، وقدم بعد ذلك بوقت قصيرحاجبه نبوزردان إلى القدس، وأحرق كل من الهيكل والمدينة،وكان هذا هو الخراب الأول للهيكل، وبعد سبعين سنة من النفي عاد بنواسرائيل إلى أرض اليهودية، يقودهم زوروبابل، واسداراس، وذلك بفضل وسماح من الملك قورش، ملك الفرس، وقد أعادوا بناء الهيكل نفسه، في المكان نفسه، وزينوه حسب أفضل ما استطاعوه، ويحكى أنهم بإعادة بنائهم للهيكل والمدينة قد عملوا وهم يمسكون حجرة بيد والسيف في اليد الأخرى، بسبب استمرار الحملات عليهم من قبل الشعوب التي عاشت من حولهم، وعلى هذا كان هذا البناء الثاني للهيكل، وبعد هذا، وحسبما نقرأ في سفر المكابيين، هدمت المدينة — لكن ليس كلياً — من قبل

انطيخوس، ملك سورية، وظل معظم المدينة مهدوماً، وقد تدمرت كل تزيينات الهيكل، وجرى منع الأضاحي، وهدمت الأسوار وسويت بالأرض، وبات الهيكل، وكذلك المدينة، مقفرين، وتمكن بعد هذا يهودا المكابي مع أخوته ـ بعون الرب ـ من إلحاق الهزيمة بأنطيخوس وإرغامه على الفرار، وطرد قادته من اليهودية، وأعاد بناء الهيكل وترميمه، ورد المذبح وأقام الأضاحي والتقدمات وأرجعها كما كانت في القديم بوساطة كهنة نظاميين، وكان هذا البناء الثالث للهيكل، وقد بقي حتى أيام هيرود، الذي قام ـ وفقاً لما أخبرنا به يوسفيوس، مع أن اليهود ينكرون ذلك ـ بهدم الهيكل وسواه بالأرض، وبنى واحداً أعظم، وأكثر إحكاماً في عمارته، وكان هذا البناءالرابع للهيكل، الذي استمر حتى أيام تيتوس وفسبسيان، اللذان استوليا على البلاد كلها عنوة، وهدموا كل من المدينة والهيكل واجتثوا كل شيء من الأساسات، وكان هذا التدمير الرابع للهيكل، وكما تقدم بنا القول، إن الهيكل الحالي، الذي بأيدينا، قد بني من قبل الامبراطورة حنة مع ابنها الامبراطور قسطنطين، وذلك تشريفاً لمولانا يسوع المسيح، وأمه المقدسة، وكانت هذه خامس عملية إعادة بناء للهيكل.

١٧ — قصر سليمان. بيت الداوية واسطبلهم. حديقتهم. مخازنهم للخشب وللماء. مخازنهم للحبوب وحجر الطعام لديهم. قاعتهم القديمة والجديدة. كنيستهم الجديدة.

ثم يأتي إثر هذا في الجنوب، قصر سليمان الذي هو مستطيل، ومدعوم بأعمدة في داخله مثل كنيسة، وهو في نهايته مستدير مثل معبد، وهو مغطى بقبة مستديرة عظيمة، ولهذا قلت إنه يشبه كنيسة، وقد انتقل هذا المبنى مع جميع ملاحقه إلى أيدي فرسان الداوية، الذين يقطنون فيه وفي المباني الأخرى المرتبطة به، ذلك أنهم يمتلكون مخازن كثيرة للسلاح، والثياب والطعام، وهم دوماً متيقظين لحراسة البلاد وحمايتها، ويوجد

تحت الأبنيـة اسطبلات للخيـول كـان قد بنـاهـا الملك سليمان نفسـه في الأيـام الخوالي، ملحقة بقصره، وهـو بنـاء واسـع ورائع يقوم على دعـائم، ويحتوي على مـا لا يمكن تعـداده من الأقـواس المعقدة والقنـاطر وهـذا الاسطبل، أعلن أنـه بتقديري وتبعاً لما لاحظته، يمكـن أن يستوعب عشرة آلاف رأس من الخيول مع ساستها، ومـا من إنسان يمكنه أن يرسل سهماً من طـرف مبناهـم إلى الطرف الآخـر سواء بـالطول أو بـالعرض، وذلـك بطلقـة واحدة مـن قـوس عقار، ويـوجـد فـوقه عـدد وافـر من الغـرف، والقاعات المفـردة، والأبنية الموائمة لجميع أشكال الاستخـدامات، ويرى الذين يمشـون على السقف عدداً وافراً من الحدائق، والسـاحات، وحجر الانتظار، والـردهات، وصهاريج ميـاه الأمطار، بينما يحتوي تحتـه على عدد مـن أروع الحمامـات، والمخـازن، ومخازن القمـح، والمستودعـات لخزن الأخشاب وحـاجيات العتـاد الأخرى، وشيد الـداوية على الجانـب الآخر مـن القصر، أي في الجانـب الغـربي، بنـاء جـديـداً يصعـب عليّ إعطـاء مقاسات ارتفاعـه،وطوله، وعرض أقبية مخازنه، وقاعـات طعامه، وسلالمه، وسقفه المرتفع بشكل هرمي، وليـس مثل السقوف المسطحة لتلك البلاد، ولـو أننـي تمكنـت من إحصـاء ذلـك، مـن الصعـب على المستمعين إليّ تصديـق ذلك، وقد بنـوا هناك ديراً جديـداً بالإضافـة إلى الدير القـديم، الذي هو موجـود لديهم في جزء آخر من البناء، زد على هـذا إنهم يرسون الآن أساس كنيسـة جديـدة، بحجم رائع، وبعمـل فني في هـذا المكان، وذلـك إلى جـانب السـاحـة الكبيرة، وليـس من السهـل على أي إنسـان تكوين فكرة عن مدى قوة الداويـة وغناهم، ذلك أنهم مع الاسبتارية قد استـولوا على جميـع المدن والقرى التـي كانـت اليهوديـة غنية بهم، وهـي المواقع التي جرى تدميرها من قبل الـرومان، وقد بنوا قلاعاً في كل مكان، وشحنـوها بـالحاميات العسكـريـة، كل هـذا بـالاضافـة إلى ما لايحصـى تعـداده في الحقيقة مـن الممتلكـات، التي مـن المشهـور امتلاكهـم لها في البلدان الأخرى.

١٨— الأسوار القديمة حول الهيكل. خرائب أنطونيا. موريا. كنيسة الحمام. أو مهد ربنا. بيت سمعان العادل.

ويحيط سور المدينة من جانبي الجنوب والشرق بجميع السكان هناك، وإنما نجد من جهتي الغرب والشمال، أن السور الذي بني من قبل الملك سليمان لايحيط بالبيوت الموجودة هناك، بل يحيط أيضاً بالساحة الخارجية للهيكل نفسه، وبقي في الجانب الشمالي من الساحة جدار واحد، وبوابة واحدة بين مجمل خرائب أنطونيا، التي بناها هيرود، وكانت الرابية التي يقوم الهيكل عليها تدعى في القديم باسم موريا، وفوقها رأى داود ملاك الرب، وهو يضرب الناس بسيف مجرد، ووقتها قال للرب:«ها أنا أخطأت، وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي»(صموئيل:٢/ ٢٤ / ١٧)، وكان على هذه الرابية ساحة بيدر أرونا اليبوسي، التي اشتراها داود منه لبناء بيت للرب، ويوجد هنا في الخلف ممر ضيق بين السور الشرقي للمدينة وحديقة الداوية، التي يأتي الانسان عبرها إلى أعظم الكنائس قداسة، المدعوة كنيسة الحمّام، أو كنيسة مهد مولانا المخلص، ففيها تتم عبادة مهد مولانا المسيح، وهذا المهد موضوع في مكان تشريف عند النهاية الشرقية للجدار العالي، في مواجهة نافذة هناك، ويمكن للانسان أن يرى في الجانب الجنوبي جرن كبير من الحجارة، موضوع فوق الأرض، من المعروف أنه استحم فيه وهو طفل، ويوجد في الجانب الشمالي فراش سيدتنا، الذي تمددت عليه وهي ترضع طفلها من صدرها، ويهبط الانسان إلى هذه الكنيسة بوساطة الخمسين درجة، وهي قد كانت فيما مضى بيت سمعان العادل، الذي يرقد فيها هناك بسلام.

١٩— بركة سلوان للاستحمام

وإذا ما مضى الانسان جنوباً من هذه الكنيسة، أو من زاوية المدينة نفسها، وذلك عبر الجانب المنحدر من الرابية، على محاذاة البناء الخارجي

الذي بناه الداوية لحماية بيوتهم وديرهم، وهو المكان الذي قامت فيه المدينة نفسها في العصور القديمة، هناك ممر صغير يقود إلى بركة سلوان للاستحمام، التي أُخبرنا أنها حملت هذا الاسم لأن الماء الصادر من ذلك النبع يصل إلى هناك بوساطة مجرى قائم تحت الأرض، ممتد من جبل سيلو، ويبدو لي هذا أمراً مشكوكاً به، لأن جبلنا الذي تقوم المدينة عليه مع جبال أخرى عديدة قائمة فيما بينهم، كما لايوجد واد يمتد مباشرة من الجبل إلى البركة، كما أنه من غير الممكن توفر ممر تحت الأرض خلال جبال بمثل هذه الضخامة بسبب المسافة، لأن جبل سيلو يبعد ميلين عن المدينة، وبناء عليه ودون التلفظ بأي قرار حول هذه النقطة، دعونا نخبر المستمعين إلينا مانعلم أنه الحق، ونعلن أن الحق هو أن الماء يفور من الأرض مثل أي نبع، وبعدما يملأ البركة ويسيل إلى بركة أخرى مجاورة، يتوقف عن التدفق، وينزل الانسان إلى البركة بوساطة ثلاث عشر درجة، ومن حولها سواري تحمل قناطر، تحتها جرى تبليط ممر مستدير حولها، وهو مصنوع من حجارة كبيرة، يمكن للواقفين عليها شرب الماء منها وهم نازلين، والبركة الثانية مربعة ومحاطة بجدار وحيد، وكانت بركة الاستحمام هذه فيما مضى في داخل المدينة، لكنها الآن خارجها، لأن المدينة تقلصت مرتين في هذا الاتجاه ذلك أنها توسعت في الأجزاء القريبة من الضريح المقدس.

٢٠ — بيت عنيا. بيت فاجي. البوابة الذهبية مع بيعتها.

وينبغي أن نقوم الآن بترتيب سياق روايتنا حول آلام المسيح، الذي بنعمته سمح لنا بالمشاركة في آلامه حتى نكون قادرين بوساطة ذلك على المشاركة في مملكته فيما بعد، وعلى بعد ميل من القدس تقع بيت عنيا، حيث يقوم فيها بيت سمعان المجذوم ولعازر، وأختيه مريم، ومرثا، فهناك كان مولانا يستقبل على الدوام ضيفاً، وتقوم بيت عنيا قرب وادي الزيتون، الذي ينتهي فيه الجبل باتجاه الشرق، وحدث في يوم أحد سعف

النخل أن انطلق مولانـا يسوع المسيح، العزيز جداً، مـن بيت عنيا، وجاء إلى بيت فاجي، القائمة في منتصف الطريق بين بيت عنيا وجبل الزيتون، وهنـاك بنيت الآن بيعـة جميلـة على شرفه، ومـن هنـاك أرسـل باثنين مـن حوارييه لجلـب أتان وابنها، ووقف فوق حجـرين عظيمين يمكن رؤيتهما في البيعـة، وجلـس فـوق ظهـر الأتـان، ومضـى عبر جبـل الـزيتـون إلى القدس، وقـد استقبل من قبل حشـد كبير وهو ينزل منحدراً مـن الجبل، وتابـع طريقه إلى مـا وراء وادي شعفاط، وبـركة قدرون، حتـى وصل إلى البوابة الـذهبية، التي هي مزدوجـة، وعندما وصل إليها انفتـح واحد من الأبواب من قبـل نفسه، لأن القفل سقط منه، وخرج بعنـف من دائرته، فجعل الباب الآخر ينفتـح سريعاً مع صوت مرتفع، ولهذا جـرى تكريس بيعة هناك على شرف ذلك، وفيها دائرة القفل مغطـاة بالذهـب، وهي محل تبجيل عظيم، ولاتفتح هذه البوابـة نفسها إلاّ في يوم سعف النخيل، وفي يوم عيد تمجيد الصليب(في ١٤ — أيلـول)، وذلك بسبب أن الامبراطور هرقل عبر من خلالها مع قطعة كبيرة مـن خشبة الصليب، كان قد جلبها مـن بلاد فـارس، ودخل مـولانا إلى الهيكـل في ذلك اليـوم نفسه، وبقـي هناك يُعلّم كل يوم، حتى اليوم الرابع من الأسبوع.

٢١— سجن بطرس

ولهذا أرغب أن أصعـد معه إلى جبل صهيون، ومشـاهدة ما فعلـه بعد هذا، لكنني أرغب أولاً في أن أسجن مـع بطرس، حتى يمكنني أن أتعلـم مـن المسيح أن لا أنكـره، بـل أن أصلي له، وعلى الطـريـق الـذي يركبـه الناس مـاضين من الهيكل إلى جبـل صهيون، يمـرون ببيعة جميلة، يـوجد فيها حفـرة على عمق عظيـم تحت الأرض، ينزل إليهـا الانسان بـوساطـة عشرين درجـة أو أكثر، حتـى يدخل إليهـا، فهنا السجـن الذي غـلّ فيه هيرود الأصغر القديس بطرس، ومن هذا السجـن قام ملاك الرب بقيادته وإخراجه، وقد نقش عند مدخل هذه البيعة الأبيات التالية:

«قم يابطرس، وخذ رداءك، لقد تحطمت سلاسلك

قم وغادر هذا المكان، فقد غدوت حراً بفضل السماء»

«علمت الآن في الحقيقة، أنني قد تحررت من السجن

حمداً لحب المسيح لي، ذلك أنه خلصني من الأصفاد».

٢٢— جبل صهيون. كنيسة القديسة مريم. المكان الذي ماتت فيه. حجرة العشاء الأخير. المكان الذي نزل فيه روح القدس. المكان الذي غسل فيه المسيح أقدام الرسل. المكان الذي شعر فيه توما بجرح الرب . قبرالقديس ستيفن.

تقع معظم أجزاء جبل صهيون القائمة باتجاه الجنوب خارج أسوار المدينة، وهي تحتوي على كنيسة مكرسة لسيدتنا القديسة مريم، وهي محصنة بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية ضد هجمات المسلمين ، ففيها يعيش كهنة نظاميون تحت ولاية راعي دير، وعندما تدخل إليها سوف تجد فيها في جهة اليسار قسماً بارزاً، فهذا هو المكان المقدس الذي تسلم فيه مولانا يسوع المسيح روح أمه المحبوبة، سيدتنا مريم المباركة، ورفعها إلى السماء، وهذا الجزء البارز مربع في الأسفل، ومستدير في الأعلى، وهو يسند قبة، ويصعد الانسان حوالي الثلاثين درجة في جهة اليمين، إلى القاعة العلوية، القائمة في الطرف الأقصى من القسم البارز، ومن الممكن أن نرى هنا مائدة عليها تناول مولانا العشاء مع حوارييه، وبعد مغادرة الخائن أعطى إلى الحواريين جسده الرمزي ودمه، ويقف في هذه القاعة العلوية نفسها، وعلى مسافة أكثر من / ٣٠ / قدماً، باتجاه الجنوب في ذلك المكان، مذبح، وذلك في المكان الذي نزل فيه روح القدس على الحواريين، وينزل الانسان من هناك العدد نفسه من الدرجات التي صعدها،فيرى في البيعة القائمة تحت القاعة العليا، الجرن الحجري، المبني في الجدار، حيث غسل مولانا أقدام الحواريين في ذلك

المكـان، وإلى جواره، في جهـة اليمين،يقوم مـذبح في المكـان الذي شعـر فيه تـوما ولمس طـرف الرب بعـد قيامتـه، وهو لهذا يـدعى بـاسم مـذبح الاصبـع، ويمـر الانسـان مـن هـذا المكان مـن خـلال نـوع مـن أنـواع الردهات حول حرم الكنيسة، وبنـاء عليه يجد على الجانب الأيسر مذبحاً مقدساً، تحته بـدون شك جسد القديس ستيفن الشهيـد الرائد، وكان قد دفن هناك مـن قبل يوحنا أسقـف القدس، ونقل هذا الجسـد فيما بعد— حسبما نقـرأ في التـاريـخ— مـن القـدس إلى القسطنطينيـة مـن قبـل الامبراطـورة حنـة، ثـم مـن القسطنطينية إلى رومـا مـن قبـل الامبراطـور ثيودوسيـوس، ويوجـد قبل السـدة عمود مـن الرخـام الثمين قائم قـرب الجدار، وقد اعتاد بسطاء العقول من الناس على الالتفاف حوله.

٢٣— نهر قـدرون. جيسماني. كنيسـة القـديسـة مـريـم. بيعـة الضريح. البيعـة الصغيرة فوق الـدرج. الأسطورة حـول يهودي رغب في سرقة جسد مريم المباركة.

ومن هناك ذهب المولى بعد عشائه عبر نهر قدرون، حيث كانت هناك حديقة، ويمر نهر قدرون في وسـط وادي شعفاط، ويوجد الآن في المكان الذي كانـت فيه الحديقة كنيسة القديسة مـريم، مع أبنيتها الديـرية، وقد تأسسـت حيث دفن جسدهـا، ومن خلال رواق ينزل الانسـان عبر أكثر من أربعين درجـة إلى قبو، فيه يقوم ضريحهـا المقدس، وهو مغطى بـأثمن الزينة من أعمال الرخام والفسيفساء، وعلى مـدخل هذا القبو يوجد هذان البيتان من الشعر.

«أنت ياوارث الحياة تعال وامدح ملكتنا، التي لها

ندين بحياتنا، والتي حركت مصيرنا».

ويـوجد حـول هـذا الضريح عشرون عمـوداً، تحمـل أقـواساً، وسقفـاً فوقها، وقد نقشت على الحواف هذه الأبيات:

«من هنا ومن وادي شعفاط، ممر يؤدي إلى السماء،

كانت العذراء هنا مرة راقدة، وهي الفتاة موضع ثقة الرب،

من بقعة غير محددة، من هنا قامت، ولها فتحت بوابة السماء

للفقراء المذنبين، وللدروب، أضاءت أمهم آمالهم».

زيادة على هذا يوجد فوق السقف قبة مدعومة بستة أزواج من الأعمدة، ومع كرة وصليب فوقها، وجرى تعليق مصباح تحت كل زوج من هذه الأعمدة الصغيرة المحيطة بالقبة، ويدخل الانسان إلى الضريح من الجانب الغربي، ويغادره من الجانب الشمالي، ورسم صعودها بشكل رائع على السقف في أعلاه، وهو يحتوي على الفقرة التالية تحت خط مستقيم: « أخذت مريم إلى السماء، وقد فرحت الملائكة، وباركت سيدتنا، وغنت بحمدها»، ومن حول حرم الكنيسة نفسها هناك مدرج يحتوي على النقش التالي:«حملت أم الرب المقدسة إلى مملكة السماء، فوق تراتيل الملائكة»، ويصعد الانسان من هنا إلى الكنيسة بوساطة عدد كبير من الدرجات بقدر عدد الدرجات التي نزل بوساطتها إلى القبو، والكنيسة نفسها والأبنية الديرية المرتبطة بها محصنة بقوة، بأسوار مرتفعة، وبأبراج حصينة، وبسواتر دفاعية، ضد الحملات المرعبة للمسلمين، ويوجد حولها كثير من الصهاريج، وعندما يخرج الانسان من القبو يرى بيعة صغيرة جداً، موضوعة فوق الدرجات نفسها، ويمتلك السريان في الكنيسة مذبحاً خاصاً بهم، ومرئي أيضاً على السقف الداخلي القائم فوق الدرجات التي ينزل الانسان بوساطتها إلى قبو رفع سيدتنا، وهي صورة فيها ابنها المحبوب، مولانا يسوع المسيح، موجود بين حشد من الملائكة، وقد تسلم روحها، وتولى حملها إلى السماء، في حين وقف الحواريون في حزن عميق، وهم يدعون لها بتعبد وتقوى، وكان عندما مدد جسدها ووضع فوق نعشها المقدس جداً، حاول يهودي أن

يسحب الستارة المغطاة بها، وقد تولى ملاك قطع يديه معاً بالسيف، وقد سقطتا على الأرض، وبقي أثرهما على جسده، ذلك أنه هناك رواية تتحدث أنه عندما غادرت روح سيدتنا جسدها على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في فصول متقدمة، وقام الحواريون المبجلون بكل احترام بوضع جسدها الأقدس على النعش، وبينما كانوا يحملونها على طول الطريق الذي يقود نحو الشرق، خارج أسوار المدينة، لدفنها في وادي شعفاط، كان اليهود، الذين يتحرقون كراهية وحسداً، والذين تولوا تعذيب ابنها لمدة طويلة، غير قانعين بعد، وقابلوها بنية تقديم إهانة ما إليها، وقام واحد كان هو الأوقح من البقية والأقل حظاً، وتقدم نحو النعش، الذي تمدد عليه جسدها المقدس، وحاول جاهداً، بمقاصد شريرة، أن يمزق الستارة التي كانت مغطاة بها، لكن محاسن العذراء مريم المباركة وانتقام السماء، عاقبته بقسوة على اندفاعه، حيث أن يديه وذراعيه قد يبسوا، وألقى هذا بالرعب في قلوب البقية، وجعلهم يفرون مسرعين.

٢٤— كنيسة جيسماني. كنيسة صلوات (مخلصنا). المكان المرتفع الذي يقوم منه البطريرك بمباركة حاملي سعف النخيل. الطريق الذي اقتيد مولانا عبره وهو معتقل.

وعندما ترتحل من هناك باتجاه الجنوب، نحو جبل الزيتون، تلتقي بكنيسة ليست صغيرة الحجم، تدعى جيسماني، إليها دخل مخلصنا، عندما خرج من الحديقة مع حوارييه، وقال لهم: «اجلسوا أنتم هنا، بينما أذهب أنا إلى هناك وأصلي»، وما أن تدخل إليها حتى تجد مذبحاً مقدساً، وتدخل من جهة اليسار إلى كهف تحت الأرض، وتجد أربعة أماكن معلمة، في كل منها تمدد ثلاثة من الحواريين وناموا، وهناك أيضاً في جهة اليسار صخرة عظيمة على زاوية المدخل إلى الكهف، وعليها ضغط المسيح بأصابعه، تاركاً ست فتحات مطبوعة عليها، وفي الحقيقة

قدم في مكان أعلى قليلاً، باتجاه جبل الزيتون، ثلاث صلوات، في مكان يبنى عليه الآن كنيسة جديدة، وواحد من أماكن هذه الصلوات موجود في البروز القائم على جهة اليسار، وهناك واحد آخر في منتصف السدة، والثالث قائم على يمين البروز، ويوجد في الفراغ القائم فيما بين جيسماني وأماكن الصلوات، على طرف جبل الزيتون، حيث التقت الحشود بمولانا مع سعف النخيل، مكان مرتفع قد بني بالحجارة، فيه يتم في أحد السعف، مباركة سعف النخيل من قبل البطريرك، وقرب هذه الأماكن، عندما كان يسوع يرتعد وينهار، جاء يهوذا مع مصابيح ومشاعل وسلاح وقادة من اليهود، واعتقلوه، واقتادوه بعيداً، وجلبوه إلى قاعة الكاهن الأعظم، أو قاعة كيفاس، وبعدما سخروا منه طوال الليل، جلبوه في الصباح إلى أمام قاضيه بيلاطس.

٢٥— *البلاط على جبل صهيون. بيعة مولانا مع عمود الجلد. كنيسة الجليل. الكهف الذي فر إليه بطرس. طريق الآلام.*

وبعدما سأله بيلاطس أسئلة كثيرة، أمر باقتياده إلى قاعة المحكمة، وجلس على طريقة مجلس القضاء، وذلك في المكان المسمى البلاط، الذي يوجد مكانه أمام كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون، وذلك في مكان مرتفع قرب سور المدينة، وهناك بيعة مقدسة مكرسة لمولانا يسوع المسيح، وفيها يقف جزء كبير من العمود الذي ربط إليه الرب من قبل بيلاطس، حيث أمر بجلده، بعدما حكم عليه من قبله بالصلب، واعتاد الحجاج في تقليد له على الجلد، ويوجد على صخرة أمام الكنيسة قطعت على شكل صليب الكلمات التالية منقوشة: «يدعى هذا المكان البلاط، وهنا حكم على الرب»، وخلف هذه باتجاه الشرق، وعلى جهة اليمين، ينزل الانسان إلى جزء آخر من الشارع خمسين درجة إلى كنيسة تدعى الجليلية، حيث تبقّى هناك حلقتان من السلسلة التي ربط بها القديس بطرس، وينزل الانسان بعيد مسافة من هناك، من الجهة

اليسارية للمذبح، حوالي الستين درجة إلى كهف مظلم جداً موجود تحت الأرض، إليه هرب القديس بطرس بعد إنكاره للمسيح، وأخفى نفسه في زاويته، وقد جرى رسمه هناك وهو جالس ورأسه فوق يديه، وهو يبكي بسبب آلام معلمه ولإنكاره له، بينما هناك جارية وصيفة تضغط عليه مهددة، والديك واقف يصيح أمام قدميه، وهذه الكنيسة هي بأيدي الأرمن، ومن هناك اقتيد مولانا للطواف حول سور المدينة، حيث كان هناك آنذاك حدائق، والآن بيوت، وبعد ذلك صلب، لأنه حسبما يقول الرسول:«تألم مولانا خارج البوابة»

لقد تحدثنا حتى الآن، حسب أفضل ما نستطيع، عما رأيناه وتعلمناه عن المسيح بأعيننا، وكذلك عن الأماكن المقدسة، ولسوف نتحدث بما هو معروف حول رفاقه وحول الأماكن الأخرى، وبعد هذا سوف نتحدث عن بعض الأشياء التي رأيناها بأنفسنا، وبأشياء رويت لنا من قبل الآخرين.

٢٦— مكان بيلاطس. كنيسة القديسة حنة. بركة بوابة الضأن. كنيسة المجذومين ومكان إقامتهم. صهريج الاسبتارية الكبير. كنيسة القديس ستيفن. المشفى القائم عند بوابة القديس لعازر. كنيسة القديس شارتون.

إلى جانب هذا الشارع، الذي يقود إلى البوابة الشرقية، على مقربة من البوابة الذهبية، ووراء بيت — أو قصر — بيلاطس، الذي تحدثنا عنه أنه ملاصق للشارع نفسه، تقوم كنيسة القديسة حنة، أم سيدتنا مريم، التي إلى قبرها ينزل الانسان إلى قبو تحت الأرض، بوساطة حوالي العشرين درجة، ويوجد هناك راهبات يتعبدن الرب تحت سلطان راعية دير، والذي يذهب إلى جانبها الشمالي، سوف يجد بركة الضأن،القائمة في واد عميق قرب رابية صخرية، مغطاة ببعض الأبنية القديمة، ولهذه البركة— حسبما أخبرنا في الانجيل— خمسة أقسام، ويقوم في الجزء

الأقصى منها مذبـح، وكل من يقوم بالدوران حـول أسوار المدينة، إذا ما ابتدأ برحلته من عند برج داود، سوف يجد عنـد الزاوية الغربية من المدينة كنيسة المجذومين ومكان إقـامتهم، وهو موقع أنيق، ومحفـوظ بنظام جيد، وإذا ما مـررت بالصهريـج الكبير للإسبتاريـة، وقبل أن تصل إلى البـوابة الشمالية، سـوف تجد فوق رابيـة، كنيسة القديـس ستيفن الشهيـد الرائد، وهو الذي عندمـا ألقي به خارج البوابة، وقذف بالحجـارة من قبل اليهود رأى السموات مفتـوحة في ذلك المكـان، وهناك في وسط الكنيسـة مكان قـائم فـوق درجـات، وهـو محاط بسيـاج حـديـدي، وفي وسطـة مـذبـح مقدس،له شكل مقعر، وهو موجود في المكـان الذي وقف فيه عندما رمي بالحجـارة، وحيث فتحـت السموات من فـوقه، وهـذه الكنيسة خـاضعة لراعي دير القديسة مريم لـلاتين، ويوجد عند البوابة نفسها مشفى محترم يـدعـوه الاغريـق بـ Xenodochium، وعنـدما تسير قليـلاً على هـذا الطريـق، ثم تأخـذ الطريق نحـو اليسار باتجاه الشرق، سـوف تجد كنيسة عـائدة إلى الأرمن، وفيهـا يـرقـد شهيد اسمـه شـارتـون، عظامـة مغطـاة باللحم، وكأنه مايزال حياً.

٢٧ـــ جبـل الـزيتـون. كنيسـة مخلصنـا (أو الصعـود). كنيسـة القديسة بيلاجيا الصغيرة. كنيسة التعليم الرباني.

وبما انه بعـد هذا كـانت سـاعة صعـوده تقترب، تسلق مـولانا جبـل الـزيتون، ووقـف هنـاك فوق صخـرة عظيمة، على مـرأى مـن حوارييـه، وبنعمة منه منحهم تبريكاته، ثـم صعد إلى السماء، وجبل الزيتون حسبما تقدم بنـا القول هو أعلى الجبـال التي تطوق المدينـة، وهوممتلىء بالفـواكه مـن جميع الأنـواع، ويحتوي على نقطـة ذروته كنيسـة، من أعلى الكنـائس قداسة، مكرسة لمخلصنا، وفي الحقيقـة ليس في هذه الأجزاء تكريس وراء ذروة الجبل نفسه، مما تـم بالعادة اضفائه على هذه الأماكـن التي تمجدت بحضـور مولانـا، ويصعد الانسـان إلى الكنيسة بـوساطـة عشرين درجـة

كبيرة، ويقوم في وسط الكنيسة بناء مستدير، مزين بشكل رائع برخام باروسي، وبرخام أزرق، مع بروز مرتفع، وضع في وسطه مذبح مقدس، وتحت هذا المذبح من الممكن رؤية الصخرة التي يقال بأن الرب قد وقف عليها عندما صعد إلى السماء، ويتولى ادارة القداسات في الكنيسة رهبان نظاميون، وهي محصنة بشكل جيد ضد المسلمين بوساطة أبراج كبيرة وصغيرة، مع أسوار،وشرافات، ودوريات حراسة ليلية، وعندما يأتي الانسان إلى الكنيسة يأتي إلى كنيسة صغيرة في الجهة الغربية، وهي مظلمة لأنها كهف تحت الأرض، وعندما ينزل الانسان عشرين درجة إليها، يرى تابوتاً حجرياً كبيراً، فيه جسد القديسة بيلاجيا، التي أمضت حياتها حبيسة هناك في عبادة الرب، ويوجد كذلك في جهة الغرب، إلى جانب الطريق الذي يقود إلى بيت عنيا، على طرف جبل الزيتون، كنيسة ذات قداسة عظيمة،لأنها قائمة في المكان الذي جلس فيه مخلصنا، عندما سئل من قبل حوارييه: كيف ينبغي أن يصلوا، وقد علمهم الصلاة بالقول:«أبانا الذي هو في السماء»، وقد كتب هذا لهم بيده، وهذه الكتابة موجودة تحت المذبح نفسه حتى يتمكن الحجاج من تقبيلها، وهناك أيضاً من وسط الكنيسة طريق يقود نزولا بوساطة حوالي الثلاثين درجة إلى كهف تحت الأرض، قد قيل بأن الرب غالباً ما جلس هناك وعلم حوارييه.

٢٨— بيت عنيا. كنيسة القديس لعازر. كنيسة مريم ومرثا. الصهريج الأحمر مع قلعته. حديقة إبراهيم. الأبراج والبيت هناك.

وهكذا انتهيت من القدس، التي كان لها في روايتي الأهمية نفسها التي للرأس في الجسد، وسأتحول الآن إلى أماكن أخرى، وكأنها الأطراف لهذا الجسد.

ويأتي بعدها بيت عنيا التي هي أيضاً حصينة، وحصانتها الناتجة عن

طبيعة الأرض ليست أقل مـن حصانتها بالبناء هناك، ويـوجد هنا كنيسة مـزدوجة، القسـم الأول منهـا ممجد بجسـد القديـس لعـازر، الذي بعثـه مولانـا من الموت في اليوم الـرابع، وهـو الذي حكم كنيسـة القدس لمدة خمسين سنـة، والقسم الآخـر ممجـد بآثـار أختيـه: مريـم ومـرثا، وتتعبـد الراهبـات الرب هناك في ظـل ادارة راعية، وهنا غـالبا ما جـرى استقبال ربنـا ومخلصنا بمثـابـة ضيف، وبـاتجاه الغـرب فيما وراء بيت عنيـا، وعلى مسافـة أربعة أميال مـن القدس، يقوم هنـاك جبل الصهريـج الأحمر، مع بيعة مرتبطة به، ويحكى أنه في هذا الصهـريج جرى إلقاء يوسف من قبل أخوتـه، وقد بنى الداويـة هنا قلعة حصينة، وعلى مسـافة أكثر من ثـلاثة أميال من هناك تقـوم حديقة إبراهيم، في وسط سهـل جميل قرب الأردن، ذلك أنه يبعد نصـف ميل عنها، وطوله ضعف عـرضه، وفيه منبسط كبير يسقيه نهر جميل.

ويمتـد عرض هـذا السهل حتـى الأردن، ويصـل امتداد طـوله حتـى البحر الميت، وفيه تربة مواتمة لنمو جميع أنواع الفواكه، مع كميات وافرة من الخشب غير أنها شوكية، ورأينا الحديقـة نفسها مليئة بالأشجار التي تحمل مـالا يحصى تعـداده من التفاح، لكـن من الحجـم الصغير، ورأينا شعيراً ناضجاً، في يوم الاثنين بعد أحد السعف.

ويوجد هناك عدد كبير من الأبراج والبيـوت الواسعة في أيدي الداوية وتحت سلطانهم، ويمارس هؤلاء، مثلهم مثل الاسبتـارية، حراسة الحجاج الذيـن يتوجهون إلى الأردن، ويحتـاطون حتى لايكونـوا عرضة لـلأذى من قبل المسلمين، أثناء الذهاب والاياب وأثناء إمضاء الليل هناك.

(يعتقد وجود سقط كبير في النص هنا).

٢٩— *الأردن .جبل القرنطل. نبع اليجا.*

يقـع الأردن على مسافـة ميل مـن هنا، وهـو يجري بشكل متعـرج، أو

بالحري هو نهر كثير الالتفافات، يساير جبال العربية، ويصب في البحر الميت، ولايظهر بعد ذلك مطلقاً، ويوجد بين الصهريج الأحمر والوادي المتقدم الذكر فيافي مرعبة، إليها جلب مولانا يسوع من أجل إغوائه من قبل الشيطان، ففي نهاية هذه القفار جبل مرعب، ومرتفع جداً، وشديد الانحدار حتى أنه يكاد أن يكون متعذر التسلق، ففي الوقت الذي نجد فيه مؤخراته فوقها ذروته العالية، فهذه الذروة يتلوها منحدر يقود إلى واد مرعب، ويدعو الناس من غير رجال الدين هذا المكان باسم القرنطل، ويمكننا أن ندعوه Quadragena، لأنه هنا جلس مولانا صائماً لمدة أربعين يوماً وليلة، ويمضي الطريق إلى حيث جلس مولانا على طول منتصف طرف الجبل، لكن ليس بشكل مستقيم، لكنه شديد التعرج وغير منتظم بسبب طبيعة الأرض، ذلك أنها منزلقة في مكان ما، حتى أنها ترغم أحياناً الحجاج على الزحف على أيديهم، ويوجد في القمة بوابة، وعندما تجتازها وتتابع سيرك قليلاً سوف تجد بيعة بنيت فوق كهف صنع بالأيدي البشرية، وهي مكرسة لسيدتنا، وتصعد من هناك خلال ممر صعب ومتعب نحو الأعلى بدون درج، وتعبر فوق جروف وعرة وهائلة من جروف الجبل، ومن ثم تدخل إلى بوابة أخرى، وتصل من خلال ممر ينعطف مرتان نحو الخلف وهو كثير التعرج، تصل بالتدريج إلى بوابة ثالثة، وبعبورك لهذه سوف ترى مذبحاً صغيراً مكرساً للصليب المقدس، وفي جهة اليمين من البيعة الصغيرة التي تحتويه، هناك ضريح قديس اسمه بيليجرينوس Piligrinus ، الذي ماتزال يده مغطاة باللحم، وهي مرئية هناك.

وبصعودك الآن حوالي ست عشرة درجة إلى الذروة، سوف تجد في جانب الشرق مذبحاً مقدساً، وفي الغرب المكان المقدس نفسه حيث جلس مولانا، وحسبما تقدم بنا القول صام هناك أربعين يوماً وليلة، وهناك أيضاً بعد صومه، قام ملائكة بتقديم قداس له، ويقوم هذا

المكـان في وسط الجبـل، لأن ذروته بعيـدة صعـوداً بقدر بعـد القعر عـن هناك.

ويمكـن أن يرى على ذروتـه صخـرة عظيمة، يقـال بـأن الشيطان قـد وقف عليها وهـو يحاول إغواءه، ويمكن من هذا الجبل رؤيـة مشهد يمتد إلى مسافة عظيمة فيها وراء الأردن، إلى العـربية، لابل حتى إلى تخوم مصر فيها وراء البحر الميت يمكـن الرؤية، وسطح جبـل القرنطل وكهوفـه التي هي تحت الأرض مشحونـة جميعاً بالأطعمة، وبالأسلحة العـائدة للداوية، الذيـن لايمكنهم إيجاد حصن أمنـع أو أفضل بالموقـع لإزعاج المسلمين، وعنـدما يصعـد الانسـان هذا الجبـل أو ينزل منـه، أي عنـدما يكـون في قاعدته، يجد نبعـاً عظيماً يتدفق بالماء الذي يمد حـدائق إبراهيم والسهل الموجـود هناك بـالماء، وهناك في هـذا السهل الـذي يُسقى بـالنهر الـذي يتشكل مـن مياه ذلك النبـع، اعتاد الحجاج — كما قلنـا — على إمضاء ليلـة، حتى يتمكنـوا من الـذهاب إلى القـرنطل للصـلاة، ولكي يغسلـوا أنفسهـم بمياه نهر الأردن، ويحظـون هنـاك بالحمايـة من ثـلاثـة جوانـب بوسـاطة الحديقـة نفسها التي تحميهـم من الكمائن، وتجري حمايتهـم من الجهة الرابعة بوساطة دوريات الحراسة التابعة للاسبتارية والداوية.

٣٠— *المكان الموجود على شـواطىء الأردن الذي تعمد مـولانا فيه. الكنيسة والدير. قلعة الداوية. جبال جلبوع.*

عندمـا زرنا بأنفسنـا المتواضعة هـذا المكان أيضاً، مـن أجل أن نصلي هنـاك، ومع الـرغبة في أن نستحـم في مياه الأردن، نـزلنا مـن الجبل بعـد غروب الشمـس، ومع حلول الظـلام، وكنا قد نظـرنا من أعـالي الجبل إلى السهل المنبسط تحتنا، فرأينا تبعاً لتقديراتنا أكثر من ستين ألفاً من الرجال يقفون هناك، وكلهـم تقريباً يحملون مشـاعل في أيديهم، وكلهم كـان من الممكن رؤيتهـم من قبـل المسلمين، من جبـال العربيـة فيها وراء الأردن، وفي الحقيقة كـان هناك مايزال عـدداً أكبر من الحجاج في القدس، كـانوا

قد زاروا هذا المكان.

ويوجد في المكان نفسه الذي جرى تعميد مولانا فيه من قبل يوحنا، هناك صخرة كبيرة، يقال بأن مولانا قد وقف عليها أثناء تعميده، وبذلك جاء ماء نهر الأردن إليه، وهو لم يدخل إلى النهر، وقد جرى بناء كنيسة على شاطىء الأردن، وفيها جرى إعدام ستة رهبان سكنوا فيها من قبل زنكي والد نورالدين، ويوجد هناك قلعة حصينة للداوية، وإذا ما عدت عبر الطريق المستقيم المباشر من الأردن إلى القدس، من خلال سهل منبسط، وقبل الدخول إلى المنطقة الجبلية، تصل إلى أريحا، حيث يجري بعدها نهر، يتدفق نزولاً من جبال القدس، وقد تحولت أريحا الآن إلى بلدة صغيرة، وهي على كل حال قائمة وسط تربة خصبة، فيها تنضج جميع الفواكه بسرعة، وتنمو هناك الكثير من الورود المتفتحة بوفرة وافرة من الورود الجميلة، ومن هنا جاءت المقارنة بقولهم:«مثل وردة زرعت في أريحا». وهذا ينطبق على سيدتنا، وهي أيضاً موائمة بشكل مدهش من أجل كروم واسعة، وأعناب رائعة، وهذا المكان قائم تحت سلطان كنيسة لعازر في بيت عنيا، لكن كثيراً من الأرض هي غير مزروعة بسبب غارات المسلمين،وإلى الشمال من هذا الطريق، وعلى جهة اليمين تقع جبال جلبوع، وهي قائمة على طرف السهل المتقدم الذكر، ومن الممكن رؤيتها بوضوح.

٣١— صحراء إيليم. وادي موسى. جبال سيناء.: حوروعبريم والشوبك. المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل الأردن.

تقع الصحراء التي قاد الرب من خلالها مرة بني إسرائيل، بعد قدومهم وعبورهم للبحر الأحمر، بين مصر والعربية، وأطعمهم هناك حسبما نقرأ(في التوراة) بخبز السماء، وجعل الماء ينبع من أجلهم من الصخرة، وتدعى الصحراء التي وجد بنو إسرائيل فيها اثني عشر بئراً للماء، وسبعين نخلة وهي قائمة على تخوم العربية، باسم إيليم(الخروج

:١٥ / ٢٧)، وفي العربيـة هناك واد أيضـاً، يدعى بـاسم وادي مـوسى، لأن مـوسى ضرب هنـاك الصخـرة مرتين بعصـاه، وجعـل الماء ينبع مـن الصخرة مـن أجل شعبه، وتشرب مـن هذا النبـع الأرض كلها الآن، وفي المنطقة نفسهـا جبل سيناء، الـذي صام موسـى عليه أربعين يومـاً وليلة، وهناك أيضاً تسلم الشريعـة وقد كتبت باصبع الرب فـوق ألواح حجرية، وجبل حور، الذي دفـن هرون عليه، موجود أيضاً في العـربية، ومثله أيضاً عبريم، الذي دفن الرب عليه موسى، الذي — على كل حال — لم يعثر على قبره، ويوجد في العربيـة جبل يدعى الشوبك، استـولى عليه بلدوين ملـك القــدس، ووضعـه تحت حكــم الصليبيين، وهـذه هــي التخـوم والمقاطعات التـي عبر من خلالها بنو إسرائيـل، عندما خرجـوا من مصر، وعبروا فوق البحـر الأحمر، وقتلوا سيحـون ملك العمـوريين، وعوج ملـك باشان، وتقع بلدان هذيـن الملكين فيها بين أدوميا والعربية، وقد عبروا نهر الأردن، في المكان نفسه الذي جرى تعميد المسيح فيه، وباستيلائهم على أريحا في السهــل، استحـوذوا على ملكيــة أرض الميعـاد، وذلــك حسبما أخبرنا، وفي الأيام التي عبر فيها بنو إسرائيل العـربية، كانت بلاداً مقفرة، إلى حد أنها لم تتميز باسم خاص بها.

٣٢— وادي جهنـم قـرب القـدس. الصهـريـج الجديـد. بيعـة القديسة مريم حيث اعتادت أن تستريح. كفراتا . قبر راحيل.

كـل من يجتـاز الباب الغـربي للمدينـة، قرب بـرج داود، ويوجـه سيره باتجاه الجنوب، سوف يجتاز وادي جهنم، الـذي يتاخم طرفين من أطراف المدينة عند الصهريـج الجديد، وسيصل بعد مسافة أكثـر من نصف ميل إلى بيعة لها قـداسة خاصة، فهـي مكرسة لسيدتنـا مريم المباركـة، حيث اعتادت أن ترتاح هنـاك، عندما كانت تسافـر من بيت لحم إلى القدس، ويقـوم عنـد بـابها صهـريـج، اعتـاد المارون مـن هنـاك على الشرب منـه والاستراحـة هناك، وفي الخلـف هناك حقـل فيـه عدد لايحصـى من كـوم

الحجارة، يبتهج الحجاج البسطاء في جمعها هناك، ذلك أنهم يقولون أنهم سوف يجلسون عليها في يوم الحساب، ومجاور لهذا المكان الذي يدعى كفراتا، حيث توفيت راحيل زوجة يعقوب بعد ولادتها لبنيامين، وبعدما دفنت هناك، وضع يعقوب فوق قبرها اثنتي عشرة صخرة، ويقوم الآن هناك هرم، كتب عليه اسمها.

٣٣— بيت لحم. كنيسة القديسة مريم. بيعة المهد. المزود. قبر يوسف الأرماثي والقديس جيروم. المكان الذي غني فيه«المجد لله في الأعالي».

ونأتي الآن إلى مدينة بيت لحم الشهيرة، التي — تبعاً لتوقعات الأنبياء — ولد فيها مولانا العزيز يسوع المسيح رجلاً، ويوجد هناك كنيسة مقدسة، مشرفة بتمييزها وبجعلها أسقفية وكنيسة كاتدرائية، والمذبح العالي فيها مكرس لسيدتنا مريم المباركة، وعند نهاية جهة اليمين للبروز، وإلى جانب الباب، ينزل الانسان بوساطة عشرين درجة إلى كهف تحت الأرض، حيث هناك مذبح مقدس له شكل مجوف، لأنه يحتوي على صليب مرسوم على الأرض، ويتألف هذا المذبح من أربعة أعمدة، تدعم قطعة كبيرة من الرخام، وقد كتب فوق هذا المكان البيتين التاليين:

«من رئيس ملائكة لامثيل لفضائله

حملت بالفعل عذراء هنا بالرب»

وفي جهة اليمين، أو باتجاه الغرب، في الكهف نفسه، ينزل الانسان أربع درجات، ويصل بذلك إلى المزود، الذي مرة وضع فيه ليس فقط تبناً للمواشي، بل وجد فيه طعام للملائكة، وجرى تغليف المزود نفسه برخام أبيض، وهناك ثلاث فتحات مستديرة في القسم الأعلى، يقدم الحجاج من خلالها إلى المزود قبلاتهم التي اشتاقوا طويلاً لتقديمها، وهذا الكهف — زيادة على هذا — مزين بشكل جميل بوساطة أعمال

الفسيفساء، ويقوم فوق الكهف بيعة مقدسة، مقنطرة بشكل مزدوج، حيث يوجد على جهة الجنوب مذبح مقدس، وعلى جهة الغرب قبريوسف الأرماثي مرئي في الجدار، وليس بعيداً عن مزود الرب يقوم قبر القديس جيروم، الذي يقال بأن قبره قد نقل من هناك بوساطة ثيودوسيوس الأصغر إلى القسطنطينية، وعلى سقف الكنيسة نفسها نجمة من النحاس المذهب بشكل جيد، وهي تلمع فوق رمح، وفي ذلك إشارة إلى الحكماء الثلاثة، الذين حسبما نقرأ في الانجيل، جاءوا إلى هناك، يقودهم النجم، ووجدوا الطفل يسوع هناك مع أمه مريم، فتعبدوه، وعلى مسافة ميل من بيت لحم ظهر الملاك إلى الرعاة وتألق حولهم هناك مجد الرب، وهناك ظهر أيضاً جمهور من الحشد السماوي وهم يغنون:«المجد لله في الأعالي».

٣٤— *الخليل. الكهف المزدوج. الأرض الحمراء. ممرا. البلوطة.*

وعلى مسافة من هناك، باتجاه الجنوب، قرب البحر الميت، تقوم الخليل، حيث يقال بأن آدم قد سكن فيها بعد إخراجه من الجنة، وفيها أيضاً دفن، وكانت هذه المدينة مدينة الكهنة من سبط يهوذا، وكانت مقر سكنى العمالقة، وكانت تدعى في الأيام الخوالي باسم« قرية أربعة» أي«مدينة أربعة»،لأن أربعة من الآباء المبجلين قد دفنوا فيها هناك في كهف مزدوج، وهؤلاء هم: آدم — أول إنسان مخلوق — وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وهم الآباء الثلاثة، ومعهم زوجاتهم: حواء، وسارة، ورفقة، وليا، وكانت هذه المدينة تدعى من قبل باسم«أربعة» وفي أراضيها — أي في طرفها الأقصى — يوجد كهف مزدوج، يتجه نحو ممراء، التي اشتراها إبراهيم بثمن من عفرون بن ساعور الحثي، وفي المنطقة القريبة من المدينة هناك الأرض الحمراء، التي تحفر من قبل السكان، وتؤكل وتصدر إلى مصر، ويقال بأن آدم قد صنع من هذه الأرض، ويقال بأنه مهما بلغ الحفر بهذه الأرض بالحجم أو بالعمق،

تعود في السنة التالية كما كانت بوساطة القوة الإلهية، وقرب هذه المدينة يقع جبل ممرا، الذي تقوم عند سفحه البلوطة، التي تدعى حالياً باسم«الدلبة»، فتحتها رأى إبراهيم الملائكة الثلاثة، والمعبود الواحد، وقد ضيفهم بكرم وعناية، وبقيت هذه البلوطة حتى أيام الامبراطور ثيودوسيوس، وقد نما من جذعها، أو من جذرها بلوطة أخرى، ومع أنها ذبلت جزئياً، هي ماتزال قائمة، ولها فعاليتها، فإذا ما حمل فارس قطعة منها في يده، لن يضل حصانه مطلقاً، وكانت الخليل أول مكان وصل إليه كالب ويوشع ورفاقهما العشرة الذين بعث بهم موسى من برية فاران ليتجسسوا على أرض الميعاد، وكانت هذه المدينة بعد ذلك حاضرة مملكة داود، الذي حكم هناك لمدة سبع سنوات، بموجب الأوامر الربانية.

٣٥— *قبر لوط. بحيرة اسفلت. سيجور. تمثال الملح. كرنيم.*

على مسافة ميلين من الخليل، كان ضريح لوط، ابن أخي ابراهيم، وعلى بعد عشرة أميال باتجاه الشرق، تقوم بحيرة اسفلت، التي تدعى أيضاً باسم «البحر الميت»، لأنه لايوجد فيه شيئاً حياً، ولايقبل شيئاً حياً، ويسمى أيضاً ببحر الشيطان، وذلك في إشارة إلى المدن الأربعة: سدوم، وعاموره، وساعور، ودومه، التي استمرت في ممارسة شرورها، وقد أحرقت بوساطة النيران التي سقطت من السماء، ومن ثم أغرقت في البحيرة، التي ارتفعت في مكان المدن المتقدمة الذكر، ومياه هذه البحيرة مرعبة بسبب شكلها المقيت، وتجعل رائحتها الذين يقتربون منها يهربون، ورؤيت في إحدى السنوات، في يوم ذكرى تهديم هذه المدن أحجاراً وأخشاباً وأشياء أخرى من مختلف الأنواع تعوم على وجه البحيرة، وذلك كشهادة على دمارهم.

وقرب البحيرة تقوم مدينة سيجور التي تدعى أيضاً باسم بلع، وزرع، وهي قد حفظت من الدمار بوساطة دعاء لوط، وهي باقية حتى هذا اليوم، وعندما خرج لوط منها، نظرت زوجته إلى الخلف، فتحولت إلى

تمثال مـن ملح، وهـو مايـزال باقيـاً حتى هـذا اليوم، وهـو يغدو صغيراً عندما يكون القمر قد أخذ بالاضمحـلال، ثم يزداد حجمه عندما يصبح بدراً، ووجههـا ملتف إلى وراء ظهـرها، وتنتـج هذه البحيرة القـار أيضاً، الذي يدعى بـاسم الحمر اليهودي، وهو مفيد جـداً للبحارة، ويعثر عند شـواطئها أيضـاً على الشب، الـذي يدعـوه المسلمون بـاسم «القطـران»، زيـادة على هـذا، يـوجد عبر البحيرة، عنـدمـا يمضي الانسـان نـزولاً إلى العربية، مدينـة كرنيم، وذلك على جبل المؤابيين، الذي أقـام فيه بلك بن باعـور ملك المؤابيين بلعـام الكاهـن ليلعن بنـي اسرائيل، ويـدعى هـذا الجبل بسبـب شعابـه المنحدرة بـاسم «الانقطـاع»، وتفصل هـذه البحيرة اليهودية عن العربية.

٣٦— *غزة. عسقلان. يافا. أرماثيا (رامه). حقل حبقوق.*

وتقوم مـدينة غزة على شـاطىء البحـر المتوسط، وهـي على بعد عشرة أميال مـن الخليل، باتجاه الغـرب، وهي تـدعي الآن «غزرة»، وفيهـا فعل شمشـون أفاعيـل عظيمة، وحمل أبـوابها بعيـداً أثناء الليـل، وعلى مسافـة ثمانية أميـال من غزة، على شـاطىء البحر المتـوسط، تقوم عسقـلان وهي مدينة جيدة التحصين، ومن العادة وجود هاتين المدينتين في فلسطين، أو بـالحري في بلاد الفلسطينيين، وتقـع يـافا على شـاطـىء البحـر المتوسـط نفسه، التي فيها أقام الرسول بطـرس طابيثا من الموت، ويدعو المعاصرون يافا بـاسم يفيس Jafis، وعلى مقربة منهـا تقع أرماثيا (رامـة) التي جاء منها يوسف، المستشار الطيب، الذي تـولى دفن المسيح، ويوجد أيضاً في أرض اليهودية الحقل الـذي حمل منه النبي حبقوق بوساطـة ملاك، وذلك عندما كان يحمـل خبزاً في جعبة، وكان متوجهاً في الحقـل لإعطاء الخبز إلى الحواصيد، وجاء حمله إلى بابل، مـن أجل أن يحمل الطعام إلى دانيال الذي كان في عرين الأسد.

٣٧— *مقبرة بيت الأسد، قرب القدس.*

ولدى خروجك من المدينة المقدسة، والسير باتجاه الغرب، بوساطة الباب القائم قرب برج داود، يوجد في جهة اليمين ممر يقود إلى بيعة، ينزل الانسان منها حوالي المائة درجة إلى كهف عميق جداً تحت الأرض، فيجد فيه مالا يحصى تعداده من أجساد الحجاج، الذين يحكى بأنهم جلبوا إلى هاهنا وفق الطريقة التالية: وجد الحجاج الذين جاءوا في إحدى السنوات للصلاة كما هي العادة، المدينة مليئة بالمسلمين، وبما أنهم كانوا غير قادرين على الدخول إليها، حاصروا الذين كانوا في المدينة، لكن بما أنهم لم يمتلكوا ما يكفي من طعام وسلاح لإنجاز هذه المهمة الصعبة جداً، ظهروا وهم يعانون من عوز عظيم بالمؤن، وفيما هم بهذه الأحوال الشاقة، رأى المسلمون أنهم كانوا غير قادرين على المقاومة، فانقضوا عليهم بشكل مفاجىء بحملة قاموا بها من المدينة، وجعلوهم طعمة للسيف، وعندما تصاعدت روائح الجيف النتنة التي كانت عظيمة الأعداد، قرروا احراقها جميعاً، لكن ظهر في تلك الليلة نفسها أسد أرسله الرب، فقام برمي الجثث في الكهف، الذي امتلك فتحة ضيقة، ومن الممكن حمل كل واحد منهم عبر البحر، وفي الحقيقة عندما كانت جثة أحدهم توضع على ظهر سفينة، كانت السفينة تذهب إلى وطنه بإرادة منها، ودونما قيادة.

٣٨— كنيسة الصليب المقدس. المكان في الغابة أو مكان القديس يوحنا. جبال مودين أو بليمونت. عمواس، أو فونتنويد. جبال صونيم. راماثا. سيلو، أو جبل صموئيل المقدس.

ويقع بعد هذا خلف أحد الجبال واد خصب جداً وجميل، وفيه تقوم كنيسة جليلة مكرسة لمولانا يسوع وإلى أمه المحبوبة، يتعبد الناس فيها تحت مذبح مفتوح، المكان المقدس الذي قام فيه جذع الشجرة، التي كان الصليب قد قطع منها، وهو الصليب الذي علق عليه مخلصنا من

أجل خلاصنا، وهذه الكنيسة محصنة بشكل جيد بأبراج وبأسوار، وبشرافات، ضد الهجمات المفاجئة للمسلمين، وهي فضلاً عن ذلك مزينة ببيوت، وغرف طعام، وقاعات، ومقيمين من جميع الأنواع، وهي صالحة لجميع أنواع الاستخدامات، وهي ذات بناء شامخ من الحجارة، ويحكى بأن هذه الصخرة قد قطعت من قبل الملك سليمان، الذي وضع عليها علامة الصليب، ووضعها جانبا في مكان لائق، لإنتظار قدوم المخلص، لأنه رأى مسبقاً بوساطة الروح أن الخلاص سوف يأتي إلى العالم من خلال وفاة المسيح، ومن هناك يمضي الانسان إلى القديس يوحنا، أو إلى المكان الذي يدعى «في الغابة»، حيث عاش أبوه زكريا مع أمه اليزابث، وحيث ولد القديس يوحنا نفسه، وحيث أيضاً بعدما استقبلت القديسة مريم بالتحيات من قبل الملائكة في الناصرة، جاءت إلى هناك وحييت من قبل اليزابث، وإلى جانب هذا المكان تقوم جبال مودين Modin، التي عليها جلس متتيا مع أولاده، عندما استولى أنطيخوس على المدينة وهزم بني إسرائيل عنوة، وعلى مقربة من هذه الجبال تقوم قلعة عمواس، التي يدعوها المعاصرون باسم فونتنويد، Fontenoid، فهناك ظهر الرب إلى اثنين من حوارييه في يوم قيامته نفسه، وليس بعيداً عن هناك جبال افرايم، التي تعرف أيضاً باسم صوفيم Sophim، وفي الحال نصل إلى راماثا، وهي مدينة كبيرة تدعى الآن باسم راما، ومن أهليها كان ألقانه، والد النبي صموئيل، وحنه أمه، وعلى مقربة من صوفيم بيت عرون Bethoron، التي تعرف الآن باسم بتر Beter وعلى جهة اليمين، أو في الجهة الغربية من تلك المنطقة، وعلى مسافة ميلين من القدس، يصعد الانسان إلى جبل سيلو، الذي ينبع منه نبع ماء عذب، يتدفق في الوادي القائم تحته، وهناك بقي تابوت عهد الرب منذ دخول بني اسرائيل إلى أرض الميعاد حتى أيام الكاهن عالي، الذي أرغم التابوت في أيامه، بسبب ذنوب العبرانيين، على أن يستولي عليه الفلسطينيون، وبقي في أيديهم حتى أصيبوا بالعذاب من

السماء، فوضعوه على عربة، وردوه مكرهين إلى بيتشمس، وكان ذلك بعد سبعة أشهر من استيلائهم عليه، وهنا ثار غضب الرب بشدة على كل من الكهنة والشعب لأنهم احتفظوا بالتابوت، وجاء بعد هذا أهل قرية يعاريم— أو جبعه— وأخذوه من بيتشمس، واحتفظوا به في بلادهم، ثم حمله فيما بعد الملك داود ومعه جميع بني اسرائيل، وسط الغناء والرقص والأناشيد التي أنشدها الكهنة، وأودعوه في مدينة داود، على جبل صهيون. وبعد هذا عندما قام الملك سليمان ببناء هيكل الرب— كما قلنا من قبل— على جبل موريا، حيث كانت أرض بيدر أرونا اليبوسي، وقتها وضع التابوت في الهيكل، وفي سيلو دفن النبي صموئيل، ومنذ ذلك الحين تغير اسمه الأول، وصار هذا المكان يدعى باسم القديس صموئيل، ويوجد هناك دير للرهبان المحترفين الذين يعرفون باسم الرهبان الرماديين.

٣٩— *اللد. كاكو. قيسارية فلسطين. جبل الكرمل والبلدة.*

وعلى بعد ستة أميال إلى الغرب من سيلو، وفي السهل، تقع مدينة اللد، وهي — تبعاً للتقاليد— مكان دفن القديس جورج الشهيد، ولهذا السبب فقد هذا المكان اسمه القديم، وبات يدعى الآن باسم «القديس جورج» وذلك من قبل المعاصرين، ومن هناك ينزل الانسان ويمضي عبر الطريق الذي يقود إلى عكا، وذلك خلال سهل بهيج وجميل، يمتد فيما بين الجبال والمنطقة المنبسطة قرب ساحل البحر، حيث هناك العديد من المدن والبلدات، الجديدة والقديمة، وبين هؤلاء: كفر جمالا، وكفر سمالا، وهي قلعة يدعوها المعاصرون كاكو Cacho، وهي قائمة في سهل خصب جداً، وتدعى البلدة هناك باسم قيسارية فلسطين، وكانت فيما مضى تعرف باسم برج ستراتو، وتقوم جبال حيفا بالقرب، وهناك بلدة نصف مهدمة تحمل الاسم نفسه. ويقال بأنه هنا جرى صنع ثلاثين قطعة من الفضة، وهي التي أعطيت إلى الخائن يهوذا كثمن لدم المسيح،

ويوجد على قمة الجبل قلعة للداوية، تمكن البحارة من رؤية اليابسة من مسافة.

٤٠ — *قلعة عقرون الجديدة. حديقة النخيل. عكا.*

وبعيد هذا هناك على شاطىء البحر، مقابل عقرون قلعة عظيمة، تحمل الاسم نفسه، وهي قائمة في منطقة غنية، وتدعى باسم القلعة الجديدة، وفي جوارها حديقة كبيرة من أشجار النخيل، وتقع على بعد ثلاثة أميال مدينة عكا، وهي مدينة ثرية وكثيرة السكان، وعلى كل حال إن مرسىٰ عكا — أو لنقل الطريق المستقيم إليه — صعب، وخطر للوصول إليه، عندما تهب الريح من الجنوب، وترتجف السواحل تحت الهزات المتواصلة التي تتلقاها من الأمواج، التي تتراكم هناك في مجموعات كبيرة، لأنه بما أن هيجان البحر لايوقفه أي تدخل من قبل أي جبل، تظل الأمواج هائجة أكثر من رمي حجرة على الأرض، وبنى الداوية في هذه المدينة بيتاً كبيراً بفن معماري رائع، وهو قائم على شاطىء البحر، ومثلهم أقام الاسبتارية بيتاً فخماً هناك، وعندما تجلب السفن الحجاج وتنزلهم فيها، يجدون أنفسهم مرغمين على العودة إلى مرسى المدينة لتقلهم ثانية إلى أوطانهم، وذلك بعد عودتهم من القدس، وفي الحقيقة أحصينا في السنة التي كنا فيها هناك — في يوم الاربعاء من اسبوع الفصح — وجود ثمانين سفينة في الميناء، وذلك إلى جانب السفينة التي تدعى «باص Buss» التي جئنا على متنها مبحرين إلى هنا ثم بها عدنا، ويصدف الانسان على الطريق الذي يقود من القدس إلى عكا، من خلال الأماكن المتقدمة الذكر، عدداً كبيراً من المدن المهجورة، والقلاع، مما كان قد دمره فاسباسيان وتيتوس، ويرى أيضاً قلاعاً حصينة جداً عائدة للداوية وللاسبتارية.

٤١ — *الكنيسة الصغيرة القائمة في البقعة التي يرى منها الحجاج القدس للمرة الأولى. قرية ماهوميريا (البيرة) وكنيسة القديسة*

مريم. قرية أخرى. شكيم أو نابلس. المسلمون.

هناك على بعد ميلين من المدينة المقدسة، وعلى الطرف الشمالي كنيسة صغيرة في مكان يمتلىء فيه الحجاج ببهجة عظيمة، لدى رؤيتهم للمرة الأولى المدينة، وقد اعتادوا على وضع صلبانهم أرضاً، وعلى خلع أحذيتهم، وعلى السعي بتواضع للوصول إلى الذي تلطف من أجلنا بالقدوم إلى ها هنا فقيراً ومتواضعاً، وعلى بعد ثلاثة أميال من هناك توجد قرية كبيرة يدعوها المعاصرون باسم ماهو ميريا، وبجوارها أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة مريم، وكذلك صليب كبير منحوت من الحجر، وهو قائم فوق سبع درجات، ويصعد الحجاج هذه الدرجات، ومن هناك يبصرون برج داود، لكن ليس بدون تنهدات، ذلك أن برج داود— كما سلف بنا القول— يقوم على جبل صهيون، على مسافة تزيد على الأربعة أميال، ولم أعد أتذكر الاسم القديم لهذه القرية، وعلى بعد ثمانية أميال من هناك، توجد قرية أخرى كبيرة، وتقوم فوق جبل مرتفع، وينحدر الانسان منها عبر ممر وعر إلى سهل جميل وخصب، ويوجد فوق جبال أخرى مدينة حصينة جداً، عرفت في الأيام الخوالي باسم شكيم— أوشيكار— غير أنها تعرف الآن باسم نابلس، أو المدينة الجديدة، ولدى عبورنا لهذا الطريق صدفنا حشداً من المسلمين معهم ثيران وحمير من أجل فلاحة السهل الكبير والجميل، ومن عادتهم عندما يقومون بأي عمل من الأعمال، إصدار صرخات مدوية مثل أصوات الرعد، وقد أنزلت هذه الصرخات بين صفوفنا رعباً عظيماً، ويقطن في الحقيقة أعداد من المسلمين هناك في أرجاء البلاد، وكذلك في المدن وفي القلاع وكذلك في القرى، ويتولون فلاحة الأرض في ظل أمان حصلوا عليه من ملك القدس، أو من الداوية، أو من الاسبتارية.

٤٢— شكيم ثانية. بئر وكنيسة يعقوب. قابيل وهابيل. بطمة راحيل. بيت إيل أو لوزة. جبل جرزيم وعيبال.

تقوم مدينة نابلس المتقدمة الذكر في السامرة، وفيها الكثير من الينابيع والأنهار والكروم وأشجار الـزيتون، وأشجار من مختلـف الأنواع، ذلك أن تربتها خصبة ومستغلة زراعياً بشكل ممتاز، وعندماجاء مولانا يسوع إلى ها هنا، ولأنه كـان منهكاً بسبب سفره، جلـس إلى جانب نبع، حيـث تكلم مع امـرأة سامـرية، ويقوم البئـر الذي جلس إليـه مولانـا الآن على بعد نصف ميل من المدينـة، وهو قائم أمام المذبح في كنيسة بنيـت فوقه، وفي هذه الكنيسة راهبات يتعبدن الرب، ويعرف هـذا البئر باسم بئر يعقوب، وهو واقع في الأرض التـي منحها لابنه يوسـف، وقد هدمت هـذه المدينة في إحدى المرات مـن قبل أبنـاء يعقوب، الـذين قتلـوا أميرها شكيـم بن عمور الحتي، لأنـه ضاجع أختهم دينا، وتقع هـذه المدينة بين دان وبيت إيـل، وفيهـا صنع يـربعـام ملـك إسرائيـل عجلين مـن الذهـب، وضـع أحـدهما في دان والآخـر في بيت إيـل، ويـوجـد على مقـربة مـن شكيـم جبلين، قدم على واحد منهما قابيل قرباناً إلى الرب من ثمار الأرض الجافة والمهجورة، وعلى شاكلته قدم هابيل قربـاناً إلى الرب كان فيه أسمن ما في قطيعـه، وكثيراً مـن ثمار الأشجار ومـن مختلـف أنـواع الفواكـه بكميـات كبيرة، وإلى شكيم جلبت عظـام يوسف من مصر، وعلى مقربة منه توجد البطمـة التي خبـأت أمـه راحيل تحتهـا الأصنام التـي سرقتهـا من أبيهـا لابان، وعلى بعد ميل مـن هناك باتجاه الشرق تقوم بيت إيل، التـي كانت تعرف من قبـل باسم لوزة، فهناك جـرت حادثة محاولة إبـراهيم التضحية بابنـه إسحق، وهناك أيضاً، رأى يعقـوب وهو نائم، ورأسـه على صخرة، سلماً يصل إلى السماء، والملائكـة يصعدون عليـه وينزلـون، والرب نفسـه واقف فـوقه، وعلى مقربة مـن هناك يرى الانسـان جرزيم، وذلك مقـابل جبل عيبال، الذي منـه أصدر موسى الأمر القاضي بـأن الناس ينبغي أن يباركوا أو أن يلعنوا وفقاً لما يستحقونه.

٤٣ ـــ السامرة أو سبسطية. كهف هيليسيوس وعوبديا. ضريح

الأنبياء السبعين.

وعلى بعد ستة أميال من هناك تقع السامرة، وهي تدعى أيضاً باسم سبسطية، ويدعوها المعاصرون باسم القديس يوحنا، وهي قائمة على جبل حصين، مع أنه غير مرتفع، ومنها نالت منطقة السامرة اسمها، وتعطيها خرائبها العظيمة مظهر مدينة، وهي غنية بتربتها، وفيها وفرة من الكروم وجميع الفواكه، وفي هذا المكان دفن حواريو القديس يوحنا المعمدان جسد معلمهم، وذلك بعدما قطع رأسه من قبل هيرود الأصغر في قلعة مكرونتا، وقدمه هدية لفتاة رقاصة، ويقال بأنه أحرق فيما بعد من قبل يوليان المرتد، وحمل رأسه فيما بعد إلى الإسكندرية، ونقل من هناك إلى جزيرة اسمها رودس، وبعد هذا نقل إلى القسطنطينية من قبل الامبراطور ثيودوسيوس، زيادة على هذا جزء من ذراعه محفوظ هناك، وهو محط قداسة عظيمة، وقد دفن في كهف بين النبيين إلياس وعوبديا، وهو الكهف الذي أطعم فيه ذلك النبي مرة سبعين نبياً، وهم أيضاً قد دفنوا هناك، ويذهب الانسان إلى ذلك الكهف بوساطة خمس وثلاثين درجة.

٤٤— جينين. جرزيل. جبال جلبوع. بيسان. قلعة صفام. جبل حرمون. قلعة أخرى.

وعلى بعد عشرة من أميال تقع بلدة جينين، وهو المكان الذي بدأ منه السامرة، وعلى بعد خمسة أميال من جينين تقع جرزيل(زرعين)، التي تدعى الآن باسم:«أد كورسوم غاليناروم Ad cursum gallinarum»، وهنا كان يسكن نابوت الذي رجم بالحجارة من قبل يزابل المرأة غير التقية، وهي التي جعلها يهوه تنسحق فيما بعد تحت حوافر خيوله هناك، وإلى جانب جرزيل يقع سهل مجيدو حيث واجه يوشع ملك اليهودية الهزيمة ثم القتل على يدي ملك السامرة، ومن الممكن أن نرى هناك الكثير من الخرائب، وكذلك أهرام اسمه يزابل، وعلى ميل من جرزيل،

يمكن رؤية جبال جلبوع(فقوعة)، وعلى ميلين منها تقوم المدينة التي عرفت فيما مضى باسم بيسان«بيت الرب»، وهي تدعى في هذه الأيام باسم سكيزوبولس، ونقرأ أنه جرى تعليق رأس شاول وأولاده على سورها، عندما قتلهم الغرباء(الفلسطينيون) وفي جوارها بنى الاسبتارية، فوق جبل مرتفع، قلعة حصينة جداً وواسعة، حتى يتمكنوا من حماية البلاد من هذا الجانب من الأردن ضد الهجمات المباغتة لنور الدين، حاكم حلب، وهناك أيضاً على مقربة، في جهة الغرب قلعة للداوية اسمها صفام Sapham، وهي محصنة بشكل جيد لصد هجمات المسلمين، وخلف هذا، باتجاه البحر المتوسط، هناك جبل حرمون، الذي بنى الداوية عند سفحه، في الجهة الغربية قلعة ذات حجم كبير، وصنعوا في داخلها صهريجاً واسعاً، مع آلة دولابية لنضح الماء.

٤٥— طبرية. المكان الذي اسمه المائدة. بحر الجليل. الجبل الذي اعتاد مولانا على إمضاء الليل فيه. بانياس أو بلنياس.«أر» و«دان». الأردن. سهل مزيريب. الوادي في الحقول.

ويأتي خلف هذا أجمل الحقول وأكثرها خصباً، التي تقوم في نهايتها باتجاه الشمال، مدينة طبرية، وذلك على شاطىء بحر الجليل، حيث أشبع مولانا خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وثلاث سمكات، ولهذا السبب وإثره عرف هذا المكان باسم المائدة، ومن الممكن رؤية آثار المعجزة حتى هذا اليوم، وعلى مقربة أيضاً المكان الذي ظهر فيه الرب لحوارييه بعد قيامته، وأكل قطعة من سمكة، وقطعة من قرص عسل بحضورهم، وهنا في بحر الجليل حيث جاء مولانا يمشي على وجه الماء نحو حوارييه، وذلك في الهزيع الرابع من الليل، وذلك عندما مشى بطرس فوق الأمواج، وبدأ يغرق، فأخذه من يده وقال:«آه، أنت قليل الإيمان، لماذا شككت؟؟»، وهنا ثانية عندما كان حواريوه في خطر، فجعل البحر يهدأ، وقرب البحر نفسه، ليس بعيداً عن طبرية يوجد الجبل الذي

صعده، فرأى حشداً، وحيث غالباً ما جلس وخاطب تلاميذه والشعب، وعليه نفسه اعتاد أن يمضي الليل، وهنا أيضاً تلطف فقام بشفاء المجذوم، وعند سفح جبل لبنان، الذي هو حد الجليل باتجاه الشمال، تقوم مدينة بانياس، التي أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل فيليب طيطراخ إيطورية، ومنطقة طرخونية، وقد دعيت باسم قيسارية فيليب، وذلك كذكرى لاسمه(فيليب)، وأيضاً تمجيداً للقيصر تاييبيروس، الذي حكم في ظله، وهذه المدينة تدعى باسم بلنياس من قبل المعاصرين، وقد استنقذت من أيدي المسلمين في سنة ١١٦١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، والذي تولى استنقاذها هم الصليبيون الذين أقاموا حصناً لشعبهم فيها، وفي هذه المدينة نبعين هما:«أر» و«دان»، وكل منهما ينبع ويتدفق منفرداً حتى جبل«جبل»، وهناك يشكلان الأردن، ويتدفق نهر الأردن — كما قلنا في فصول متقدمة — من جبال«جبل» إلى بحيرة إسفلت، وذلك في خلال واد يدعى«الوادي الكبير» أو«وادي المروج»، وهذا الوادي محاط من طرفيه بسلسلة متصلة من الجبال، وذلك امتداداً من لبنان إلى صحراء فاران، ويفصل مجراه الجليل عن أدوميا وبلاد بصرى، وبصرى هي العاصمة الثانية لأدوميا بعد دمشق، ويتدفق دان من منبعه تحت الأرض حتى سهل اسمه مزيريب(Medan)، حيث يظهر مجراه بشكل واضح تماماً، وتجتمع حشود لاتحصى من الناس في هذا السهل كل سنة عند بداية الصيف، ويجلبون معهم جميع أنواع الأشياء للبيع، ويأتي معهم عدد كبير من الفرس والعرب لحماية الناس وحماية قطعانهم، ذلك أنهم يبقون في هذه الأماكن خلال الصيف، وبعدما يغادر«دان» هذا السهل، يمر خلال السواد، الذي مازال فيه تمثال يعقوب المبارك، وينظر إليه بقداسة من قبل السكان المحليين، ويجري من هناك باتجاه الجليل الإسلامية ثم إلى مدينة جدر(أم قيس)، ويمر بعدها بسهل الأشواك، حيث أماكن التطبيب، وتندمج(مياهه بمياه)«أر»، وإثر هذا يتدفق الأردن من بحيرة بعيدة عن بانياس، وبعدما

يمـر فيما بين بيت صيـدا، وكفر نـاحوم مـن خلال بحـر الجليل، يصنـع بداية جديدة.

٤٦— *بيت صيـدا. جدر. كوروزين. كفـر ناحوم. بيـت أوليا. بحيرة جنسارث. مجدل. طبرية. جبل الطور.نين. عين دور.*

وبيـت صيـدا هـذه هـي التي جـاء منهـا: بطـرس، وأنـدرو، وجـون، وجيمـس بن ألفيـوس، وعلى مسافـة أربعة أميـال من بيـت صيدا تقـوم كوروزيـن(قلعة الحصن)، التي يعتقـد أن فيها ولد المسيح الـدجال، لأن المولى قد لامها بقـوله:«الويـل لك كوروزين، والـويل لك بيـت صيدا»، وعلى مسافة خمسة أميال من كوروزين تقع جدر، وهي مدينة جميلة، وهي التي قال عنها النبي في المزامير:«لقد سكنـت بين سكان جدر»،وتقوم كفر ناحوم على جانب اليمين من البحر نفسـه، وهي مدينة قائد المائة، الذي أقام مولانا ابنه من الموت، وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقع مدينة بيت صيدا، التـي جاءت منها يودث التـي قتلت هولوفيرنـس، وعلى بعد أربعة أميـال من طبرية، بـاتجاه الجنوب تقع دوثيـم(خان جب يـوسف)، حيث وجد يوسف أخوته، وعلى جهـة اليسار من البحر نفسه، ويوجد في تجويف جبل، سهـل جنسارث الصغير وذلك عند مخرج التجـويف، وبما أن هـذا السهل محاط مـن جميع الجوانـب بالتـلال، فإنـه لايشعر بهبـوب رياح فيه، ويقال بأنه يشكل رياحـه الخاصة من تصاعد الأبخرة الخاصة به، وعلى بعـد ميلين من جنسـارث تقع بلدة المجـدل، التي جـاءت منها المجدلية، وتدعى هذه المنطقة باسم«جليل المسلمين»، وهي قائمة في دار سبطي:زبلون،ونفطليم، وفي الجزء الأعلى من هـذا الجليل، توجد العشرون مـدينة، التـي يقـال بأن الملـك سليمان — كما جـاء في سفـرالملوك، قـد أعطاهن إلى الملـك حيرام، ملك صور، وعلى بعد ميلين مـن المجدل تقع مدينـة سينيرث، التي تـدعى أيضاً بـاسم طبريـة، والتي سلـف وتكلمنا عنها، وعلى مسـافة خمسة أميال إلى الغـرب من طبرية، يقوم جبـل الطور،

الذي ارتفاعه كبير، والذي عليه تغيرت هيئة مولانا يسوع المسيح بحضور حوارييه، وقد بني على هذا الجبل كنيسة رائعة، وقد كرست لمخلصنا، وفيها يتعبد رهبان الرب تحت سلطان راعي دير، ويقال بأن الاحتفال بأول قداس قد تمّ في هذه الكنيسة، وعلى تخوم هذا الجبل إلتقى ملكيصادق كاهن الرب العلي الأعلى، وملك سالم، بإبراهيم وهو عائد من قتل أبيمالك، وقدم إليه الخبز والنبيذ، وعلى ميلين من الطور تقوم مدينة نين، التي عند بابها أقام مولانا ابن الأرملة من الموت، وفوق نين يقع جبل عين دور، الذي انتصر عند سفحه، على شاطىء نهر كدوميم — الذي هو نهر قيسون(نهر المقطع) — باراق بن أبينوعم على يبين ملك الأدوميين، وذلك بعد أخذه بنصيحة النبية دبورة، وطارد أيضاً سيسرا قائد جيوشه كما وقام بمطاردة ذئب Zeb وزئبي Ze-bee(زبح)وسلمانا، ملوك الإسماعيلية، والهجارين، والعمالقة، والعمونيين عبر الأردن، ولدى عودته من مطاردته لهم وجد سيسرا نفسه قد قتل من قبل ياعيل زوجة حابر القيني، وبوساطة وتد خرق صدغه حتى الأرض.

٤٧— الناصرة. كنيسة القديسة مريم وكهف البشارة. قبر يوسف. مكان ولادة مريم المباركة. المعجزة التي تمت عند نبع جبرائيل. مكان الرمي نحو الأسفل.

على بعد أربعة أميال من الطور، وباتجاه الشرق، على الطريق الذي يقود إلى عكا، تقوم مدينة الناصرة الأكثر مجداً، التي فيها الكنيسة المبجلة،والتي تتمتع بشرف كونها كنيسة كاتدرائية، برئاسة أسقف، وهي مكرسة لسيدتنا مريم المباركة، وينزل الانسان من جهة البروز القائم على اليسار، حوالي أربع عشرة درجة، إلى كهف تحت الأرض ، حيث يوجد في نهايته الشرقية صليب صغير مرسوم على الأرض تحت مذبح، وهو يشير إلى المكان الذي أبلغ فيه الملاك جبرائيل سيدتنا بالرسالة حول المسيح، وعلى جهة يسار هذا المذبح، أي إلى الشمال منه، هناك زوجها يوسف،

الذي تولى تربية المخلص، وهو مدفون هناك، ومبني فوقه مذبح، وفي جهة اليمين، أي في الجانب الجنوبي، هناك مكان مع صليب صغير قد رسم على الأرض، وقوس من فوق، فهنا هنا خرجت أم الرب من رحم أمها لدى ولادتها، ويتحدث الناس جميعاً حول معجزة رائعة اختصت بها هذه المدينة، أنه كلما حاول الكفار مهاجمتها، أصيبوا بالعمى أو بداء من هذا القبيل، يأتيهم من السماء، ويرغمهم على التراجع، وهناك نبع في هذه المدينة يتدفق نحو الأمام ويندفع من خلال ما يشبه فم أسد مصنوع من الرخام، ومن هذا النبع غالباً ما اعتاد الطفل يسوع على نضح الماء وأخذه إلى أمه، ويحكى بأن هذا النبع يستمد أصوله من الحوادث التالية: عندما جاء الطفل يسوع في إحدى المرات لينضح الماء من الصهريج انكسر إبريقه بوساطة رفاقه أثناء لعبهم، ونضح هو الماء وحمله إلى أمه في داخل مئزره، وحيث أنها رفضت أن تشرب من الماء، لأنه بدا لها أنه لم يجلبه بشكل نظيف بما فيه الكفاية، قام وهو مغضب بصب الماء من مئزره فوق الأرض، ونبع الماء من المكان الذي مايزال يتدفق منه، وهو المكان الذي انصب ما كان في مئزره عليه، وعلى ميل إلى الجنوب من الناصرة المكان الذي يدعى باسم:«مكان الرمي نحو الأسفل»، لأن اليهود رغبوا في رمي المسيح أرضاً، عندما مرّ من وسطهم، ومضى في سبيله.

٤٨— صفورية. قانا الجليل. قلعة الداوية. عكا. الطريق الذي يقود من هناك إلى القدس عبر الجبال. والطريق الذي يقود إلى القدس على طول شاطىء البحر.

تقع الصفورية على مسافة ميلين من الناصرة، وهي مدينة محصنة على الطريق إلى عكا، ومنها جاءت حنة المباركة أم أم المسيح، وعلى أربعة أميال من الناصرة، وميلين من صفورية باتجاه الشرق، تقوم قانا الجليلة، التي منها جاء فيليب وناثائيل،وفيها أيضاً حول مولانا الماء إلى نبيذ،

وأيضاً هنـاك على بعد ثـلاثة أميال مـن صفورية على الطريـق إلى عكا، قلعة قويـة جداً وحصينة تابعة للـداوية، وعلى بعد أكثر بقليل مـن ثلاثة أميـال، تقع عكـا نفسهـا،ويـدعى الآن هـذا الطـريـق الذي يجري مـن عكا،ومن خـلال الناصرة، والسامرة،ونـابلس، إلى القدس، باسـم الطريق الأعلى، أما الذي يجري من عكا ومن خـلال قيسارية واللد، إلى القدس، فيدعى باسم طريق البحر.

٤٩— دمشـــق. حـــوران. الســـواد. تيهان. نعمان. أرفـــات. حماه.صفـرنثيـم. نهر يبـوق. جبل سعير.المكـان الـذي تحول فيـه شاول إلى بولص. نهرا فرفر وأبانا. سهل أركاس. أنطاكية.

تتصـل العـربيـة بـأدوميا في منطقـة بصرى،وأدوميـا هـي مقـاطعـة في سوريـة، ودمشق هـي المدينة الرئيسـةفي أدوميا، وهي المدينـة التي بنـاها اليعـــازر خـادم إبـــراهيـم في الحقـــل الـذي قتـــل فيـه قـــابيـل أخـــاه هابيـل،(وعاش)فيها مضـى في دمشق عيسـو، وسعير، وأدوم، وتبعاً لـذلك عرفـت تلك البلاد باسـم أدوم، ويدعى قسـم منها باسم حـوران، ومنها جاء المبارك يعقـوب، وجزء آخر اسمه السواد، جاء منـه بلداخ السوادي، وفي هذه المقاطعـة نفسها تقع مدينـة تيهان، التي جاء منها علفـت(علفز) التيهاني، وهنـــاك أيضـاً مـدينـة نعمان التـــي جـــاء منهـا زفـــر النعماني، وأرفـات(أرواد أوتـل أرفـاد) وحماة، وصفـر نثيـم (الصرفنـد)مـدن تـابعـة لدمشق، ويجري في بلاد أدوميـا، وعلى بعد ميلين من الأردن نهر (مخاضة) يبوق، وبعدما قطعهـا يعقوب في طريق عودته من بلاد الـرافدين، تصـارع مـع ملاك، فغير اسمـه مـن يعقوب إلى اسرائيـل، وفي بـلاد أدوميا جبـل سعير (حرمون)، الذي عليه تقـوم دمشق، وعلى ميلين من دمشق، المكان الذي صعـق المسيح فيـه شاول، ثـم أنهضه بـاسم بـولص، جـاعلاً منـه صديقـاً بعدمـا كان عـدواً، ومعلماً للحق ومنفـذاً له، وعنـد سفح جبـال لبنان ينبع فرفر (العاصي) وأبـانا (نهر القاسمية)، وهما نهرا دمشق، حيث

أن أحـدهما ، وهـو أبـانـا، يجري في سهـل أركـاس، ويصب في البحـر المتوسط، وإلى هذه الأماكن عاد يوستا خيوس المبارك ليعيش بعد فقدانه لـزوجته ولأولاده، ويجري فـرفر خـلال سـورية إلى أنطـاكية، حيـث يجري تحت أسوارهـا، ثم ينصب في البحر المتـوسط على بعد عشرة أميـال منها، وذلك في ميناء سـوليم Solim ، (السويديـة) الذي يعرف باسم ميناء القـديـس سمعان، وحصـل القـديـس بطـرس في هذه المدينـة على تـاج البطريركية، وهي ماتزال بطريركية.

٥٠— *فينيقيـة. المطرانيـات. المصيصـة. أنطـاكية. طـرابلـس أو طورسولت. جبلة. بيروت. التمثال الرائع هناك.*

يفصل لبنان فينيقية عـن أدوميا، ومدينة صور هي المدينـة الرئيسية في مقـاطعة فينيقيـا، التـي يقال بـأن سكانها مـن السريـان رفضوا استقبـال المسيح عندمـا سار على شاطيء البحر، مـع أنه هو نفسه قد قـال بأنه لم يرسـل لانقاذ الخراف الضالة مـن بني اسرائيل، والمدن التاليـة هي المدن المسـورة العظيمـة القـائمـة على شـاطـيء البحـر في سـوريـة، ذلـك أن مقاطعتـي فلسطين واليهودية تحت سلطـة الصليبيين وكذلـك: المصيصة، وأنطاكية، وطـرابلس، التي تدعى مـن قبل المعاصرين طـورسولت -Tur solgt ، ومدينـة جبلة التـي تمتلك قلعة حصينـة جداً، والمدن هـذه هي مدن سوريـة المجوفة، ويلي هذه المدن باتجاه الجنوب على شـاطيء البحر، مدينـة بيروت، التي يـدعوهـا المعاصرون بـاسم بـاروت Baruth ، وهي مـدينـة حصينـة وغنيـة وواسعة، وكثيرة السكـان، وفيهـا قـام اليهـود فيما مضى، وهـم أعداء صليب المسيح، فصلبـوا تمثالاً له، ظانين أنهم بـذلك يوجهون إهانـة إليه، وبعدما فعلوا هذه الفعلة النكـراء، مثلما فعل آباؤهم للمسيـح على الصليب — حتـى أنهم قلـدوهـم فطعنوا طـرف التمثـال برمح — وهنا تدفق الدم والماء، مثلما تدفـق من المسيح عندما علق فوق الصليب، ولقـد أضافوا ذنباً إلى ذنـب بجمعهم ماتدفـق في وعاء، وتجرأوا

على تحدي الرب، غير أن الرب القدير حوّل شرهم إلى خير، ولقد امتلكوا أسباباً لكراهيته أكثر، لولا أن مؤثرات فضائل الرب نتجت عن ذلك، حيث أنهم دهنوا أطراف بعض المعوقين بالدم نفسه، وهنا رأوا أن جميع الذين دهنوهم بهذا السائل المقدس، قد استردوا على الفور صحتهم، فما كان منهم إلا أن لووا رقابهم نحو الإيمان المسيحي واعترفوا به، وهذا التمثال محتفظ به حتى الآن بمثابة أثر مقدس في كنيسة المدينة، وهذه الكنيسة سامية المكان لأنها الكنيسة الكاتدرائية للبابا.

٥١- *صيدا. الصرفند. صور. قلعة اسكندرية. قلعة إيمبرت. عكا والقلاع الأخرى القائمة على ساحل البحر.*

تقع صيدا على بعد ستة عشر ميلاً عن بيروت، وهي مدينة جليلة، منها جاء ديدو الذي أسس مدينة قرطاج في أفريقيا، وتبعد الصرفند ستة أميال عن صيدا، التي عرفت أيضاً باسم صرفند الصيداويين، وفيها أطعمت الأرملة النبي إلياس، وفيها أقام الرب بوساطة النبي نفسه ابن الأرملة من الموت، واسم ابن الأرملة هذا يونه النبي، وعلى بعد ثمانية أميال من الصرفند تقوم مدينة صور، التي هي قائمة على ساحل البحر، وتتفوق صور على جميع المدن الأخرى بقوتها وبأبراجها وبأسوارها، وهذه المدينة مربعة في شكلها، ولها مظهر جزيرة، ذلك أن حوالي ثلاثة من أطرافها محاطة بالبحر، أما الطرف الرابع فهو شديد التحصين، بالخنادق، وبالسواتر الدفاعية، وبالأبراج، والأسوار، والشرافات، وفتحات الرماية، ولها مدخلان فقط محروسان ببوابات رباعية وبأبراج على الطرفين، وهي مدهشة ومتميزة مثل عكا، لأنها تمتلك ميناءً مزدوجاً، ففي الميناء الداخلي ترسو سفن المدينة، وترسو في الخارجي سفن الغرباء والأجانب، ويوجد بين الميناءين برجين بنيا من مجموعة ضخمة من الحجارة، وهما داخلين في البحر، وفيما بينهما الطريق أو الباب عبر سلسلة ضخمة مصنوعة من الحديد، وعندما يغلق هذا الباب يجعل الدخول أو الخروج

مستحيلاً، لكن المجاز يصبح ممكناً عند الفتح، وهذه المدينة مشرفة لأنها مقر أسقف، وعلى مسافة أربعة أميال من هناك توجد تقوم قلعة اسكندرية، التي من خلالها تجري المياه التي تنبع فوقها، وتتدفق لتصب في البحر في ذلك المكان، وعلى بعد ثلاثة أميال من هناك قرية واسعة يدعوها المعاصرون باسم قلعة ايمبرت، وعلى مسافة أربعة أميال من هناك نأتي إلى عكا، وعلى مسافة ثلاثة أميال تقوم حيفا القديمة والجديدة، وعلى بعد ستة عشر ميلاً منها تقوم قيسارية فلسطين، التي بنيت مع الميناء المتصل بها بشكل فخم من قبل الملك هيرود، وأيضاً على مسافة أربعة عشر ميلاً منها تقوم يافا، التي لها ميناء خطر للابحار أثناء هبوب الرياح الجنوبية، ووراء هؤلاء بانتظام تأتي غزة، وقلعة عسقلان الحصينة جداً، وهؤلاء جميعاً قد جرى وصفهم من قبل، وجميع هذه المدن قائمة على ساحل البحر، وهم جميعاً مدن واسعة ومحاطة بالأسوار.

وقد استقينا هذه الرواية عن الأماكن المقدسة، التي ظهر فيها مولانا يسوع المسيح بالمظهر الجسدي، حيث أخذ نفسه شكل عبد من أجلنا، ورتبناها وصنفناها، اعتماداً على مارأيناه بأنفسنا من بعض الجوانب، ومن جوانب أخرى مما سمعناه من روايات موثوقة رويت عن رجال آخرين، وقمنا بهذا على أمل أن يثور في عقول الذين سوف يقرأونها أو يسمعونها حبه من خلال معرفتهم الأماكن التي تقدم وصفها.

رحلة حج يوانس فوقاس
في الأرض المقدسة
(في سنة ١١٨٥)

استهلال

لاحظنا فيما تقدم أن معظم الرحالة الذين زاروا فلسطين في أيام الحروب الصليبية، قد قدموا من الغرب الأوربي، أي كانوا من أتباع الكنيسة اللاتينية، ومن المقدر أن لجميع الرحلات مكانة عالية لمؤرخ الحروب الصليبية، فالمواد التي فيها وثائقية، وإذا كانت الغاية التي أعلن عنها الصليبيون من الارتحال إلى فلسطين هي الحج، نستفيد من الرحلات — فيما نستفيد — في دراسة طقوس الحج وتطورها أيام الحروب الصليبية، ولدى امتلاكنا لتقرير رحالة غير لاتيني، نقارب وقتها بين الطقوس اللاتينية والطقوس الأرثوذكسية ونقارن، لنعرف هل الخلافات بين الكنيستين قد وصلت إلى هذا الجانب؟.

والرحلة القصيرة التي نقدمها الآن كتبها رجل دين إغريقي أرثوذكسي اسمه يوانس فوقاس، وقد ولد يوانس في جزيرة كريت، وكان اسم أبيه متى، وقد التحق هذا الأب بالعمل الديري، أي صار راهباً، ومات في جزيرة باتموس Patmos ، وخدم يوانس في سن شبابه في جيش تحت قيادة مانويل كومينوس، وأورد في الفصل / ٢٤ / ذكر إسباني عجوز« الذي مارس لسنوات طوال تقدمت حياة الزهد والتأمل فوق صخرة قرب بحر أضاليا، حيث تحدثت أنا شخصياً إليه عندما كنت أخدم تحت لواء إمبراطورنا الرائع كومينوس بروفيروجنتوس»، وغالباً ما أشار إلى هذا الامبراطور نفسه في كتابه، وقد تزوج وأنجب ولداً ذكراً، لم نستطع التعرف إلى اسمه، وقد سلك فيما بعد مسلك أباه فصار راهباً، وقد زار الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥، وقد أمكن جمع هذه المعلومات من هامش مخطوطة رحلته، ونقرأ على هذا الهامش العبارة التالية:«رواية كتبها الكاهن جون، المقدس جداً فوقاس، الذي مارس العمل الديني في جزيرة باتموس، وذلك حول ما رآه في الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥» وقد كتب في بداية الكتاب العبارة التالية:«أنا ابن فوقاس الكريتي كتبت هذا، باسم....».

- ٢٧١٢ -

وصف مختصر

كتبه

يوانس فوقاس

للقلاع وللمدن من مدينة أنطاكية حتى القدس، وكذلك لسورية ولفينيقية وللأماكن المقدسة في فلسطين

١— هل يتوجب علي أنا الذي تمتعت برؤية الأماكن المقدسة، وأبصرت المناطق التي تجلى فيها الرب بشخصه في إحدى المرات، وذلك عندما جلب شعبه اللاجيء وأخرجه من مصر بوساطة موسى مع شارات ومعجزات، وبقوة جبارة صعق الأمم وحكامها: سيحون ملك العموريين، وعوج ملك باشان، وجميع ممالك كنعان، ومدّ ذراعه فغرس هناك شعباً غريباً، زاد من تعداده، حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وهذه الأماكن هي التي قدسها بالتجسيد المقدس لابنه الوحيد المنجب، وبإنجاز أعمال إعجازية متجددة بنا؟،وسبب سؤالي، هو أنني وحدي قد تمتعت بهذه المباركة، وقلدت سلوك النهم في تعامله مع الطعام، فأين يمكن أن نجد مثل ذلك السلوك المستقيم واللطف الأخوي، التي ظهر بحب أحدنا للآخر، وبذلك عّبرت الألطاف الخاصة في الطبيعة البشرية عن ذاتها، وبناء عليه، أرى من واجبي، بحسب ما أمتلك من قدرة، أن أحاول تصوير البلاد بالكلمات، وكأنها مرسومة على خريطة، وأن أقوم بشكل غير مباشر بتقديم الأوصاف كتابة لطلاب الدين، أي أوصاف الأماكن التي رأيتها بأم عيني مباشرة، وسيبدو عملي هذا عملاً عابثاً بالنسبة للذين رأوا هذه الأماكن، لأنه إذا كان الهدف من كتابتي هو تقليد المشاهد الحقيقي، عندها سوف تكون جميع التشبيهات أدنى من الأصل، ومن الواضح وقتها أنني سوف أمنحهم سروراً أقل مما ترسخ في أعينهم، فماذا إذن سيكون هدف كتابي ؟ يخيل إليّ أن الأشخاص الذين

لم يروا قط هـذه الأماكن الرائعة بـأعينهم، بل تواجهوا بشكـل متكرر مع الإشارة إليها، سوف يتعلمون بتمياز أكبر بوسـاطة كتابي، وأكثر من التعلم من الـذين تحدثـوا عنهم دون القيـام بتحديـد الذي هـم عليه، وينبغـي أيضـاً أن نكون قـادرين على تقـديم المزيـد من السرور حتـى إلى الذيـن رأوهم، وذلـك إذا ما راق لهم الإصغاء إلى روايـات حول ما سيكـون من الممتع رؤيته.

٢— تقع مدينة أنطاكية الربانية على ضفاف نهر العاصي، وهي تشتهر بمسارح واسعـة، وبأعمدة جميلة، وبكثير مـن المعابد، وبأعـداد كبيرة من السكان، وبـوفرة من الثراء، ولهذا تفـوقت بمجدها على كـل مدن الشرق تقريباً، وإنما أطفأت الأيام مع أيدي البرابـرة ازدهارها، ومع ذلك مايزال بإمكانها أن تفخـر بأبراجها وبدفاعـاتها القوية، وبتدفق مياههـا الساحر، وبتوزع هـذه المياه، أثناء جـريان النهر بكل لطـف، ليقوم بالانتشـار هناك والإحـاطة بـالمدينة، والـدوران حول أبـراجها واحتضـانها بشكل رطـب، وبـالإضافـة إلى هذا، تتـزود بشكل مـدهش بـالمياه بـوساطـة أنهر صغيرة تتدفـق من نبـع قصطليا(بيت الماء)، الـذي تندفع ميـاهه بقـوة، وتسيل عبرعـدد كبير من الأقنيـة في جميـع أرجاء المدينـة، وتـرويها بـالمياه وذلـك بفضـل الأعمال الواسعـة، وذلك خـلال الجبال إلى المدينـة، وتقع خـارج الأسوار ضاحية دفني المشهورة، المزينـة بحدائق فيها جميع أنواع الأشجار، وبالجبـل الرائع الذي سكنـه سمعان الـرائع، وقرب هذا الجبـل أي جبل طوروس(أمـانوس) شعـاب جميلة بحث فيهـا قوم في العصـور الخوالي عن الرب ووجـدوه، وبين هؤلاء في هذه الأيام الـذين صانوا أرواحهـم، وهم يسكنـون في المنـاطـق الأكثر كثافـة في هـذه الجبـال، ويتمتعـون بجمالها ويفتتنون، وينبع نبع بيـت الماء بين تلتين، وينعطف مجراه على طول سفح التل الذي هو الأقـرب إلى البحر، حيث يتدفق بشكل مفـاجىء بكميات مدهشة من الماء، ورأينا هناك رواقاً يغطـي النبع، حيث يتدفق الماء بوفرة،

فينقسم إلى نهرين، ويتم نقل مياه أحدهما بوساطة أقنية عالية، وبذلك صار نهراً هوائياً، ويصب من الأعلى في المدينة في جهة اليمين ويجري الفرع الآخر على الأرض في الجهة اليسرى من النبع، ويصب في المستنقعات، وبعد سقايته جميع مرج دفني، يلتحق بنهر العاصي من جهة اليسار، والجبال القائمة بين المدينة والبحر رائعة وذات منظر جميل، ومن الممتع جداً النظر إليها، لأن تخومها تصل إلى المدينة وإلى أرسوز، وتتصل هذه الجبال من جهة أخرى بجرف رأس الخنزير كما وتتصل من الجهة الثالثة بالرابية التي تدعى جبل الأقرع، ويجري نهر العاصي وسط عدد لايحصى من المروج ويرويها، ويلتوي حول قاعدة هذا الجبل، وبعد هذا يصب مياهه في البحر، وعاش على ذروة هذا الجبل رجل عظيم حياة تأمل، وحلق بقلبه، وحلق بجسده أيضاً، وبذل جهوده كي يطير في الهواء هو وجسده، فتعلق في منتصف الطريق فيما بين الرب والانسان،أما كيف تهيأت هذه الحياة الغريبة لهذا الرجل المقدس، فهذا ما سوف أشرحه لكم، فقد تمكن بأعمال الحجارين من حفر قمة هذا الجبل الرائع، وصنع بذلك من صخرة صماء حية، ونحت وسطها عموداً طبيعياً وقد اتخذ موقفه فوقه، ووضع قدمه على صخرة، حسبما جاء في الكتابات المقدسة، وبنى كنيسة جميلة اتجاهها نحو الشرق، وهي مكرسة للرب، وفيها اعتاد أن يجمع تلاميذه: وبذلك كان يبقى خارج الأبواب، ويمضون هم الليل بطوله في داخل الكنيسة، ويتعبدون الرب، وبذلك صاروا قديسين.

٣— والتالي لهذا ولمدينة أنطاكية هي مدينة اللاذقية، وهي مدينة عظيمة وكثيرة السكان، وهي أيضاً قد فقدت عظمتها، ويليها جبلة، أو«زبله»، ويلي جبلة قلعة اسمها أنطرطوس، أو طرطوس، وعلى هذه الصورة تقوم قلاع متنوعة على الساحل حتى طرابلس، وهناك في داخل البلاد سلسة جبلية عظيمة، يسكنها قوم يدعون«الحشيسية»، وهم من

الأمة المسلمة، لكنهم لايأخذون لا بالمسيحية ولا بعقيدة محمد(ﷺ)، إنما يعبدون الله وفقاً لهرطقة خاصة بهم، ويدعون المقدم بينهم باسم سفير الرب(شيخ الجبل)، ويتولى الذين يذهبون بناء على أوامره إلى حكام البلدان الكبيرة، قتلهم بالسيف، ويقفزون عليهم وهم غير متيقظين، ويهلكونهم فور إنجازهم لأفاعيلهم، وبعدها يقاتلون وهم قلة ضد حشد، وذلك بعد تنفيذهم لجريمتهم، ويعدون هذا بمثابة شهادة تجعلهم مخلدين.

٤— ويلي سلسلة الجبال هذه جبال لبنان، التي هي جبال جميلة جداً، وعظيمة الشهرة في أسفار العهد القديم، وهي أيضاً جبال ضخمة جداً، مغطاة بثوب من الثلج، المتدلي فوقها مثل جدائل الشعر، وتنمو فوقها بكثافة أشجار الأرز، والصنوبر، والسرو، وهي مزينة أيضاً بكميات هائلة من الأشجار المثمرة من مختلف الأنواع، والطرف الموازي للبحر مسكون من قبل المسيحيين، في حين يقطن المسلمون في الجانب المتجه نحو دمشق والعربية، ويندفع من شعابها وتجاويفها الكثير من الأنهار نحو البحر، وهي فائقة الجمال وباردة جداً عندما يأخذ الثلج بالذوبان، فيجعل الأنهار التي يصب فيها شديدة البرودة، وتقوم مدينة طرابلس عند سفوح هذه الجبال، التي بناها مؤسسها فوق شبه جزيرة، ذلك أن هناك نتوءاً، تفرع من جبل لبنان وامتد في داخل البحر على شكل لسان، ويرتفع هذا اللسان كثيراً في نهايته الشرقية، وعلى ذروة هذه الأرض المرتفعة وضع مؤسس المدينة أساساتها، وهذه المدينة صغيرة جداً بالنسبة لمساحة الأرض التي تشغلها، لكنها جديرة بالإعجاب بالنسبة لارتفاع أسوارها وجمال أبنيتها.

٥— وتأتي بعدها جبيل، وبعدها بيروت، التي هي مدينة واسعة وكثيرة السكان، ومن حولها سهول خصبة، وهي مزينة بميناء جميل، وهذا الميناء ليس ميناءً طبيعياً، وهو قد صنع بشكل فني، وهو يحتضن المدينة

على شكل هلال، وقد توضع عند النهايتين الأخيرتين للهلال برجان عظيمان على شكل قرنين، ويمتد من أحدهما إلى الآخر سلسلة تمنع السفن من الدخول إلى الميناء، وهذا المكان قائم على الحدود ما بين سورية وفينيقيا.

٦— ويأتي بعد هذا صيدا، والميناء المزدوج فيها، الذي أعجب المؤرخ(آخيل تاتيوس Achilles Tatius)فوصفه في(الكتاب الأول من روايته كليتوفون Clitophon)و ليوسيبي Leucippe، لأنك إذا ما زرت المكان مع مرساه، ومرساه الخارجي سوف تجد حقيقة متوافقة مع الوصف الذي قدمه في كتابته، وفي خارج المدينة وعلى مسافة حوالي ثلاث رميات سهم تقوم كنيسة، محاطة بأعمدة ذات طول كبير، ويوجد فوقها شرفة توضعت عليها صخرة ذات جوانب أربعة، يقول العامة بأن المسيح المخلص للعالم اعتاد أن يقف عليها، ويعلم الحشود.

٧— وتقوم قلعة الصرفند بعد صيدا، وقد بنيت فوق شاطىء البحر، ويوجد في وسط المدينة كنيسة مكرسة للنبي إلياس، وقد بنيت فوق موقع البيت ذي النافذة، الذي قدم له الضيافة.

٨— وتأتي مدينة صور بعد هذا، وهي المدينة التي تفوقت بجمالها على جميع مدن فينيقيا تقريباً، وهي مبنية مثل مدينة طرابلس فوق شبه جزيرة مشابهة، لكنها ذات حجم أكبر منها بكثير، وتمتلك أبنية أكثر جلالة وجمالاً مما هو موجود في طرابلس، ويقارن مرساها الخارجي ويشبّه بمرسى بيروت، مع أنهٔ متفوق عليه بالحجم وبالجمال، وكذلك بارتفاع برجيه ، ويوجد خارج المدينة وعلى مسافة حوالي رميتي قوس، صخرة عظيمة جداً، جلس عليها، تبعاً للتقاليد، المسيح عندما بعث إلى داخل المدينة الحواريين المقدسين: بطرس ويوحنا، لشراء خبز، وقد مضيا وجلبا الخبز، ثم توجها معاً مع المخلص إلى نبع مجاور، يبعد حوالي الميل، حيث جلس المخلص أرضاً، وبعدما أكل مع الحواريين وشرب من الماء، بارك النبع،

وصدقاً لقد بقـي النبع أعجوبة لانظير لها حتى هذا اليـوم، ذلك أنه ينبع وسط مـروج هناك، وهو يـدهش عابـري السبيل ويبهجهم، ويقـال أيضاً أنه لاقعر لـه، وعمارته وشكله هو وفـق مايلي: فالذيـن عملوه أولاً صدوراً عن الحب، تـولوا بناء هذا النبـع وأحاطوه ببرج ثماني الشكل، وقـد رفعوه إلى علو منـاسب، وبعـدما بنـوا الزوايـا على شكل فتحـات لتدفـق المياه، عمروا أقنية رفعوها فوق قناطـر عالية، وبذلك أرغموا الماء على الانصباب فوق المروج الموجودة تحت كل فتحة، وكأن هـذه المياه صادرة عن أنبوب، وتنصب الميـاه بصوت مرتفـع، وتتولى سقـاية جميع المروج الموجـودة حول النبع بكميات وافـرة من المياه، والذي يقـف فوق هذا البرج، مثل وقـوفه فوق بـرج حراسة، يمكنه رؤيـة النباتات الكثيفـة تحته، مع سقايـة حقول القمح بشكل متواصل حتى وقت الظهيرة.

٩— وبعد هذا تقوم عكا، التي هـي مدينة واسعة، وكثيفة السكان إلى حـد جعلها تتفـوق على جميع البقيـة، وهـي تستقبل جميـع سفن التجـار، وإليها يقدم جميع الحجـاج الذين قدموا من أجل المسيـح سواء بالبحر أو بالبر، ومنهـا يقلعون، وقد فسـد الهواء هنا بسبب التدفق الهائل للغـرباء، ولهذا انتشرت مختلـف أنواع الأمـراض، التي غـالباً مـا تؤدي إلى وفيـات متتـاليـة بينهم، ممـا ينجـم عنـه روائح نتنـة، وفسـاد للهواء، وسـوء حـظ للمدينة لاعلاج له، ويوجد على جهـة اليمين منها الكرمل، وشاطىء بحر جميع بلاد فلسطين، وتحتوي المناطق الواقعة على اليسار: الجليل والسامرة.

١٠— والمكـان الأول الذي يلي عكـا هو الصفـورية، وهـي مدينـة في الجليل، خاليـة من السكان تقريبـاً، وليس فيها ما يشير إلى ازدهـارها فيما مضى، وتأتي بعدهـا قانا، وهي موقع حصين وصغير، فهـذا حالها في هذه الأيام، وهنا حـوّل مخلصنا الماء إلى نبيذ، ونقدم بعدها إلى مـدينة الناصرة، التي بنيت في قعر وديان، قادمة مـن هضاب متنوعة، وتقف في وسطها في المكان الذي شهد معجزة عظيمة، حين أعلن رئيس الملائكة جبرائيل إلى

العـذراء أم الرب، وذلـك مـن خلال رحمة الـرب العظيمـة والثمينة عـن صنعه مـن أجل خـلاصنا المسيح ربنـا جسدياً، وتجد لـدى دخولـك من الباب الأول لهذه القـرية الكبيرة، كنيسـة جبرائيل رئيـس الملائكة، ومـن الممكن أن نرى هنـاك كهف صغير على طرف اليسار للمـذبح الموجود في الكنيسـة، ينبـع فيه مـاء يتـدفـق، ويجري على شكل نهر شفـاف، فهنـاك اعتـادت أم الرب الطـاهرة على القـدوم يـومياً ونضـح الماء، وذلك أثنـاء إعطائها من قبـل الكهنة إلى يوسف البار، ولدى إقـامتها في بيته، وتلقت في الشهر السـادس(من الحمـل) بالرائد(يـوحنا المعمـدان) الضمة الأولى مـن قبل جبرائيـل، وذلك أثنـاء نضحهـا للماء، كما جرت عـادتها، ولأنها ارتعبت كثيراً، عادت وهي ترتجف إلى بيت يوسف، حيث سمعت الملاك يقول:«سلام لك أيتها المنعم عليها» فأجـابته بقولها:«هو ذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك»، وبناء عليه تلقت كلمـة الرب في رحمها الطاهر، وجرى بعد هذا تحويل بيت يوسـف إلى كنيسة جميلة ويوجد على الجانب الأيسر من هناك كهف، ليس مفتوحـاً في بطن الأرض، بل على وجهها، وفم هذا الكهف مـزين برخـام أبيض، وفوقـه رسمت يـد رسام ملاك مجنـح نازل، قدم التحيات إلى العـذراء أم الرب وحمل إليها البشائر الطيبـة، وكان هذا الرسـام قد وجـد عملاًجنـائزياً في قبر، وهو قطعـة منسوجـة بالإبـرة، وقد رسمه وكـأنه كان يتحدث إليهـا، غير أن العذراء، ارتعبت بسبب الـرؤيا غير المتوقعة، واستدارت حول نفسها بكـل سرعة، وأسقطت من يديها كل شيء حتى الـلآلىء، وكانـت ترتجف وقد تـركت حجـرتها بسبب خـوفها، وقابلت امـرأة كانت قريبتها وصـديقة لها، وعانقتها بتحيات صـداقة، ثم إنها دخلت داخـل فم الكهـف، الذي تنـزل إليه بعـدة درجات، ووقتهـا تشهد بيت يـوسف القديم، الـذي فيه حسبما قلت من قبـل أعلن رئيس الملائكـة البشائر الطيبـة إلى العذراء عنـدمـا عادت مـن البئر إلى البيـت، ويوجد في البقعة التي وقعت عليها حـادثة الإعلان صليب قد نحت من صخرة سـوداء فوق رخـام أبيض، وفـوقها مـذبح، وعلى جهـة اليمين من

المذبح يمكن رؤية حجرة صغيرة، فيها اعتادت العذراء الدائمة أم الرب، أن تعيش، وعلى جهة اليسار من مكان الإعلان من الممكن رؤية حجرة صغيرة أخرى بلا نافذة، تقول مصادرنا المقدسة بأن المسيح ربنا قد قطن فيها بعد العودة من مصر حتى قتل يوحنا المعمدان صبراً، فوقتها — تبعاً للروايات المقدسة — عندما سمع بأن يوحنا قد تعرض للخيانة، ترك الناصرة، وسكن في كفر ناحوم، ويلي هذا سلسلة مكونة من تلال متنوعة، بينها مكان منحدر، إلى أسفله عزم اليهود على رمي مولانا، غير أنه عبر من بين وسطهم وذهب إلى كفر ناحوم.

١١— ويوجد خلف سلسلة التلال هذه سهلاً كبيراً، ويقوم هناك على مقربة من التلال جبل الطور، وهو جنة الأرض، وبهجة النفس، والسرور لكل ذوي الإيمان الصحيح، لأن هناك رعاية ربانية خاصة تظلله، وترسل نفحات النعمة الروحية، وهو هضبة مستديرة، ذات ارتفاع معتدل، يوجد على ذروتها ديرين، فيهما يعيش المسيحيون الذين نذروا أنفسهم إلى حياة الرهبنة، وينشدون رحمة الرب في مختلف اللغات، ويسكن في الدير الذي تغيرت فيه هيئة المسيح من أجل خلاصنا عدد من الرهبان اللاتين، والمكان الواقع إلى جهة الغرب من ذلك المكان المقدس، قد تقدس بالحضور المقدس للناصريين من كنيستنا، وقد وقع حادث التغيير المبارك لهيئة المسيح على قمة الهضبة، حيث يقوم الدير اللاتيني، وفيه يقع المذبح فوق المكان الذي تغيرت فيه هيئة الرب بين إلياس وموسى، وبين ثلاثة من نخبة حوارييه هم: بطرس ،ويوحنا، وجيمس، وهذا المكان محاط بسياج نحاسي،ومن الممكن أن نرى فوق المكان الذي وقفت عليه قدما مولانا حلية بارزة بيضاء ناصعة جداً، وقد حفر عليها شكل الصليب المقدس، ويفوح منها رائحة طيبة لايمكن وصفها، وهي تبهج مشاعر الذين يزورونها، وعلى بعد رمية حجر خارج الدير هناك كهف صغير، دخله المسيح بعد تغييرهيئته الرائع، وأمر

حوارييه بعدم إخبار أي إنسان بما رأوه حتى يقوم من الموت، ويوجد باتجاه الجانب الشمالي من الجبل كهف ملكيصادق، وهو جدير بالرؤية، لأنه حفر بأفواه عدة، ويوجد فيه تحت الأرض وفوقها غرف وأماكن للإقامة متنوعة، وحجيرات تستخدم بمثابة أماكن إقامة للزهاد، حيث أمضى عدد كبير من كبار القديسين حياتهم الزاهدة، وإلى جانب الكهف هناك كنيسة بنيت فوق المكان عينه الذي التقى فيه ملكيصادق بابراهيم لدى عودته من القتال، وباركه وجعله ضيفه، وإذا ما نظرت من هذه الهضبة باتجاه الشرق، سوف ترى سباخ الأردن وأقنيته، وهو النهر المبارك بين الأنهر، وإذا ما مددت بصرك أبعد سوف ترى أقساماً من لبنان، مما يتجه نحو الشرق، وهضبتين عظيمتين بينهما بنيت دمشق، وإذا ما حولت بصرك قليلاً إلى يسار الأردن، فسوف ترى بحيرة طبرية بشكل واضح وبدون أية مصاعب، ويظهر على الجهة المقابلة أرض مرتفعة قليلاً، فهناك بارك مخلصنا الأمواج، وأطعم الخمسة آلاف، وبعد القيامة أكل مع حوارييه، وذلك بعد سحب المائة والثلاث وخمسين سمكة، وعلى الطرف الشمالي للهضبة نفسها، هناك سلسلة أخرى من الهضاب تحيط بالسهل على مسافة تقارب الاثنتي عشرة غلوة أو حتى أكثر، وتقوم في داخل الدائرة مدينة نين، حيث بعث المولى ابن الأرملة من الموت، وباتجاه الجانب الشرقي من المدينة نفسها يمكن رؤية مكان اسمه عين دور، وفيما بين الطور ونين وعين دور يجري نهر قيشون، الذي عنه يقول داود: «افعل بهم كما بمدين، كما بسيسرا، كما بيابين في وادي قيشون. بادوا في عين دور» (المزامير: ٨٣ / ١٠ — ١١).

١٢ — وعلى مسافة سفر يوم واحد من هناك تقوم مدينة سبسطية، التي أعاد هيرود الطيطراخ عمارتها على شرف قيصر، وفيها أيضاً قطع هيرود الأصغر رأس المبجل يوحنا المعمدان، الذي لم يكن هناك قط من هو أعظم منه بين من ولدتهم النساء، وكان ذلك في وسط احتفال، وفي

وسط هذه المدينة هناك سجن ألقـي فيه بسبب انتقاداته للهيروديين، وفيه قطع رأسه، وهـذا السجن سجن تحت الأرض، ويقود إليـه عشرون درجة هبوطاً، ويوجد في وسطه مذبح قائم فوق المكان الذي قطع فيه رأسه من قبل الجندي(سبكولاتور Speculator)ويوجد على جهة اليمين من هذا المذبح نعـش، وضع فيـه جسد زكـريا المقـدس، وهو والـد الرائد(يـوحنا المعمدان)، وهنـاك في الجهة اليسرى نعـش آخر تمدد فيـه جسد إليـزابث المقدسـة، التي هـي أمه، وأودع كـل جانب مـن جوانـب السجن بقـايا قديسين وحواريين للرائد(يوحنا المعمـدان) ويقوم فوق السجن كنيسة قد وضع فيهـا نعشين، وقد عملا من رخـام أبيض، يحتوي أحـدهما — وهو الموجود في جهـة اليمين — رماد جسد المبجـل الرائد(يوحنـا المعمدان)، في حين يوجـد في الآخر جسد النبي إليـاس، ويوجد فوق في وعـاء ذهبي اليد اليسرى للرائد، وهي مغطاة من كل جانب بالذهب، وتقوم في وسط الجزء الأعلى من المدينة رابيـة، عليها قام في العصور القـديمة قصر هيرود، حيث فيه جـرت الحفلة، وفيه رقصت تلك الفتـاة الخبيثة، وتسلمت رأس المعمدان جـائزة لرقصها، وعلى كل حـال صار المكان في الأيـام الحالية، ديراً رومانياً، وكنيسة هذا الدير مغطاة بقنطرة، وهناك على الجانب الأيسر مـن المذبـح حجيرة صغيرة، يـوجـد في وسطهـا تـرصيعـة مـن الـرخـام، موضوعة في قعـر حفرة عميقة، فيها تمّ اكتشاف الـرأس المقدس والمبجل للرائد، وذلك من قبل الملائكة، حيث كـان قد دفن هناك في ذلك المكان من قبل الهيروديين.

١٣— ويلي هـذا بعـد رحلـة تقـارب الخمـس عشرة غلـوة Stadia شكيم، التـي هي المدينة الـرئيسة للسامرة، والتـي دعيت فيها بعد بـاسم نابلس، وهي قائمة فيها بين هضبتين، وقـد وضعت أساساتها على الأجزاء المنخفضة لكل منهما، وامتدت لمسـافة معتبرة، وعلى هذه الجبال، أي على جهة اليمين(جـرزيم)، هناك — وفقـاً لروايـات السامرة — تكلـم الرب

مـع إبـراهيـم، وطلـب منـه التضحية بـاسحـق، وهنـاك أيضـاً — وفقـاً لتقاليدهم — حقق التضحية، وعلى كـل حال هم لايعرفون عما يتكلمون لأن الجبل المقصود هو جبل الجلجلة المقدس، الذي عليه عانى المخلص آلامـه من أجـل خلاص العـالم، وعند سفـح هذه الهضبـة المكان الـذي أعطاه يعقوب لابنه يوسف، وهناك أيضـاً بئر يعقوب نفسه، حيث جلس الرب عندما كـان منهكاً وتكلم مع المرأة السامريـة، وذلك حسبما جاء في الانجيل المقـدس، وقرب الهضبة نفسها قـالت المرأة للرب «تعبد أبـاؤنا في هذا الجبـل»، وعلم الـرب الناس جميعـاً بحديثـه معها، كيـف أن الذيـن يتعبدون بروح وبصدق حق لهم التعبد.

١٤— ويلاحظ أن المسـافة من السامرة إلى المدينة المقـدسة هي خمس وعشرون غلوة Stadia والطريق كله مرصـوف بالحجارة، وعلى كل حال هـذه المنطقـة كلهـا جـافـة وبـلا مـاء، ومـع هـذا هـي مليئـة بـالكـروم وبـالأشجار، وتقـوم المدينـة المقدسـة وسـط وديـان وهضاب، وعلى هـذا منظرهـا رائع، لأنه في الوقـت نفسه تظهر المدينـة عالية ومنخفضـة، فهي عاليـة عندمـا تقارن بمنطقـة اليهوديـة، غير أنها منخفضة عنـدما تقـارن بالهضـاب المرتبطة بها، وينشطر هذا المكـان المقدس إلى شطريـن: المدينة المقدسة، التي هي مبنية على الجزء المنخفض من الرابية من جهة اليمين، ويصل إطـارها حتى الوادي، والجزء الأعلى، مـن هذا المكان مغطـى كله بالكروم، وهنـاك جرى رجم ستيفن، رائد الشهـداء، وإلى يسار هذا، وعلى الجانب الآخر من الوادي، يقوم جبل الزيتـون، حيث غالباً ما أحب الرب أن يتمشى، وقـد قدس المكـان كله بصلـواته، وبتعليمـه، وأخيراً بصعوده الرائع إلى الأب، ويقع صهيون المقدس أمام المدينة المقدسة، ويمتد باتجاه طرف اليمين منهـا، ووصفها هو كما يلي: هنـاك قلعة، فيها كنيسـة صهيون المقـدسة، التـي هي أم الكنـائس، وهـذه الكنيسة ذات حجـم كبير، ولها سقف مقنطـر، ويجد الداخل إليها مـن الأبواب الجميلة التي هـي هناك،

على جهة اليسار، بيت القديس يوحنا الإنجيلي، ففيه سكنت العذراء المثلثة البركات، بعد القيامة، وهناك أيضاً توفيت، ويوجد في ذلك المكان حجيرة صغيرة، محاطة بسياج حديدي، وعقدتين ترصيعيتين فوق البقعة التي سلمت فيها روحها إلى ابنها وإلى الرب، ويوجد على جهة اليمين من الكنيسة، وكذلك على جهة اليمين من المذبح، حجرة علوية، يقود إليها سلم فيه ستين درجة، ولهذه الكنيسة أربعة أقواس وقبة، وعلى جهة اليسار من الحجرة العلوية من الممكن رؤية المكان الذي تم فيه العشاء الأخير للرب، وفي البروز الموجود هناك نزلت الروح القدس على الرسل، وجرى في القسم الأسفل من هذه الكنيسة غسل (أقدام الحواريين)، ومقابلها توجد كنيسة قائمة في موقع البناء الذي دخله المسيح إلى الحواريين، مع أن الأبواب كانت مغلقة، وهنا دفن الرائد الشهيد ستيفن بعد رجمه، وقد نقل من قبل جمالئيل إلى مكان آخر، ويقوم في الجانب الشمالي من المدينة البرج الذي يدعى برج داود، وهو برج كبير جداً، ومع أن جميع الناس الذين يسكنون في القدس يعلنون أن هذا البرج هو برج داود، يبدو لي أن هناك أسباباً معقولة للاعتراض على هذا، لأن يوسفيوس أخبرنا بأن هذا البرج قد بني بوساطة رخام ملمع أبيض، هذا ويلاحظ وجود كل من هذا البرج والكنيسة، ثم هناك البرجين الآخرين اللذان بنيا فيما بعد من قبل هيرود، وأطلق عليهما اسمي فازليس Phaselis، ومريمن، ويبدو مع هذا أن البرج (برج داود) قد بني بحجارة عادية، ولعل البرج الذي نراه في الأيام قد بني فوق أساسات برج قديم جداً، ويوجد قرب هذا البرج باب يقود إلى المدينة، وهو إذا ما دخلت منه سوف تتابع سيرك عبر شارع عريض، يقوم فيه على جهة اليمين، قرب القصر الملكي مشفى القديس سابا، وإذا ما تابعت سيرك حوالي رمية سهم على طول الشارع سوف تجد كنيسة الضريح المقدس المشهورة، ومظهرها مثلما جرى وصفه من قبل العديد من الكتاب، والقبو الذي يقوم مقام ضريح جسد الرب هو مضاعف، ففي الجزء الأول منه هناك

الحجرة التي أزيحت، وأبعدت (عن فم الضريح)، وهي محفوظة بغلاف من الرخام الأبيض، ويوجد في الجزء الآخر، وفي الجانب الشمالي صخرة منحوتة مرتفعة قرابة الذراع فوق الأرض المرصوفة، فهناك مدد الجسد العاري لمانح الحياة، وهو الآن كما يشاهد مزين من حوله بالذهب الخالص، بفضل حب وإيمان مولاي ومعلمي مانويل كومينوس البروفيجنتوس، وبوساطته، وعلى مقربة منها موقع الجلجلة، حيث مكان الجمجمة، والحفرة التي عملت داخل الصخرة من أجل الصليب، والصدع في الصخرة، وهو الصدع التي حدث أثناء الآلام فوق الصليب، ويوجد تحت الصدع مكان مجوف في الصخرة، فيه جمجمة آدم، وبقايا دم ربنا الذي تلطخت به عندما سفك فوقها، وتتشكل الكنيسة التي بنيت فوق الجلجلة من أربعة أقواس وقبة، ويوجد قرب هذه الكنيسة كنيسة واسعة تحت الأرض، ففيها جرى اكتشاف الصليب المبجل للمسيح ربنا والمانح للحياة، ويوجد باتجاه الجانب الشرقي من المدينة كنيسة، هي قدس الأقداس، وهذه الكنيسة فائقة الجمال، ولها سقف مقنطر، وهي قائمة فوق الأساس القديم لهيكل سليمان الشهير، وهي مزينة من كل من الداخل ومن الخارج بالرخام المتعدد الألوان وبالفسيفساء، ويوجد على الجانب الأيسر لهذه الكنيسة قاعتين مقنطرتين، رسم في إحداهن تقديم مولانا المسيح، لأنه في هذا المكان تلقى سمعان الرجل البار مولانا المسيح بين ذراعيه، ورسم في الأخرى السلم الرائع الذي رآه يعقوب، يصل إلى السماء، مع ملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وتحت صورة السلم هذه من الممكن رؤية الحجر الذي وضع يعقوب رأسه عليه، ويوجد على جهة اليمين فتحة تقود إلى كهف تحت الكنيسة، فيه دفن النبي زكريا، الذي قتله اليهود — وفقاً لما جاء في الانجيل — بين الهيكل والمذبح، وهناك في خارج الكنيسة ساحة كبيرة مبلطة، هي — كما أظن — أرضية الهيكل القديم، وقرب الباب الذي يؤدي إلى جيسماني المقدسة توجد كنيسة القديس يواكيم

والقديسة حنـة، وفيها تمت ولادة العذراء الطاهرة، وعلى مقربـة من هناك تنبع مياه«البركة الواقعة قرب باب الضأن».

١٥ — وبعد هـذا، وفي خارج المدينة، باتجاه الجزء الشرقـي، وفي وسط ما يشبـه الوادي العظيـم هوة تقسـم جبل الـزيتون وتفصلـه عن المدينـة المقـدسة، وهنـاك يقـع مـوقع اسمـه جيسماني، فيـه قبر سيـدتنا العـذراء الأعظـم قداسـة، مـع الحديقة التـي غـالباً مـا استراح فيهـا مخلصنا مـع حوارييه، وهنـاك أيضاً ثلاث كنائس أيضاً، القصوى منهـن موجودة على اليسـار، وهي قـائمة في مكـان منخفض تحت الأرض، تحتـوي على القبر المبارك للعـذراء، وهذه الكنيسة طـويلة جـداً، مع سقف نصـف مقنطر، ويقـف القبر في وسـط الكنيسة، وهـو يشبـه منبر، قـد عمل مـن الحجـر، وذلك على شكل مبنـى مؤلف من أربعة أقواس، وعلى الجهـة الشرقية منه ما يشبه الفراش، المعمـول من الصخرة نفسها، وهو مزيـن برخام أبيض، ففوقه جرى تمديـد الجسد الطاهر للعذراء المباركة من قبـل الرسل، وذلك بعـد جلبه مـن صهيون، وفـوق هذه الكنيسـة هناك كنيسـة أخرى، هـي عبارة عن كهـف، فيه تلفظ الرب بـدعائه، وازداد نوم الرسـل عمقاً،ونام، وتقوم الكنيسـة الثالثة عنـد سفح جبل الزيتـون، وذلك على مسافـة رمية حجر، فهنـاك — تبعاً لما يخبرنا بـه الانجيل — قام مـولانا، بعد تـوجيهه اللوم لحوارييـه بسبب كسلهـم، بحمل نفسـه ثانيـة على الصلاة، ووقتهـا تصبـب العرق منـه مثـل قطرات مـن الدم، وحـدثـت في هذه الحديقـة حـادثـة الخيانـة، وقبّـل يهوذا خـداعاً معلمـه، وقـام الـرعاع مـن اليهـود بـالامساك بـه بشـدة، وفي الجهة المقـابلـة من الحديقـة، وفي الجزء الأعلى منها، في مقـابل صهيون، هنـاك كنيسة، وتحتهـا كهف، دخل إليـه بطرس بعد نكـرانه(للمسيـح)، وبكى بمـرارة، وتوجـد هناك صـورة للرسـول في حزنه،وفوق جيسماني وكنيسة دعاء الرب، مـن الممكن رؤية جبل الزيتون، وهو مفصول — كما قلت من قبل — عن المدينـة المقدسة بوساطة وادي

شعفاط، ووادي البكـاء، والمكان — بناء عليـه — هو هضبـة، هي أعلى قليلاً مـن المدينة، تبـدو ليست واسعة جـداً، عندمـا ينظر إليهـا من اتجاه المدينة، لكن عنـدما تنظر إليها مـن اتجاه الأردن وبيت عنيا تبدو بـالفعل مـرتفعة كثيراً، ذلـك أنها تأخـذ بالارتفـاع بشكل لطيـف من الصحـراء، وعلى قمة الجبل المكان الذي غالباً ما تحدث فيه مخلصنا مع حوارييه بعد قيامتـه، وحيث صنـع فيها بعد معجـزة صعوده التـي هي الأعظـم سمواً، وقرب هـذا المكان، في القبـو في الأسفل، من الممكـن رؤية المكـان الذي أمضت فيـه القديسة بيـلاجيا جهادها التـأملي، وحيث يستريح جسـدها المبارك في داخـل نعش حجـري، وقرب هذا هنـاك كنيسة أخـرى، حيث أعطى مولانا حـوارييه دعاء«أبانا الذي»، ويـوجد على الجانب الأيسر من المدينة، دير هـو للرهبان اللاتين، قـد بني — كما قيل — فوق أسـاسات دير قـديم، كان قـد تأسس مـن قبل ميلين Melaneشهور،وأمـــام هذا الجبل، وخلـف المدينة، على طريق قـدومك من السـامرة، يوجد ديـر(دير كفـر جمالا) إليـه جلب جمائـل الجسـد المبـارك والمقدس للـرائد الشهيـد المبارك ستيفن بعد رجمه بالحجارة، وتمدد في المكـان الذي ذكرناه من قبل، ويستمـر الـوادي الـذي يبـدأ مـن جيسماني حتى ديـر القـديـس سـابـا، وصحراء روبا، التي تقوم حول البحر الميت وسدوم.

١٦— خلف جيسماني مبـاشرة، وعلى مسافـة لاتزيـد عن رميـة سهم، يقوم بناء يـدعى«الكتل Kettle (عمود أبسالوم)، قـــد بني فوق صخرة، وله شكل ربـاعي، وهو مرتفع، حوالي رمحين، كما أعتقـد، وهو متدرج على شكل هرمـي من القاعدة حتـى القمة، ويوجد فيـه راهب إيبيري يعيش حيـاة عزلـة، وهو يعمـل في سبيـل خلاصـه الشخصي، ويلي هذا هضبـة عظيمة، فيهـا عدد متنـوع من الكهـوف الاصطناعيـة، حملت اسمهـا من اسـم العـذراء، وهـي مسكـونـة مـن قبـل عـدد ضئيـل مـن الـرهبـان الأرثوذكس، وبعدد كبير من الرهبان الأرمـن واليعاقبة، ويتسع الوادي بعد

هذا عند المكان الذي فيه وادي النواح، ويلي هذا حقل الفاخوري الذي شري بثمن مولانا لدفن الغرباء فيه، ويلي هذا بركة سلوان، التي تتدفق مياهها فوق جميع تلك المنطقة الجافة، وخلف هذه يمكن رؤية مروج ذوات مساحات ضيقة وذلك في الجزء المنبسط من الوادي، وفيها أشجار نامية هناك، أما النبع نفسه فمحاط ومزين بأقواس وبعدد كبير من الأعمدة، ويمتد هذا الوادي — حسبما قلت — حتى دير القديس سابا، مسافة أحد عشر ميلاً، ويتسع الوادي فيشكل فجوة واسعة جافة، فيها من الممكن رؤية: الدير، والكنيسة، وضريح القديس، ويوجد أمام الدير، على جانبي الوادي، كهوف وأبراج صغيرة، مسكونة من قبل الذين تخلوا عن الدنيا وعن مباهجها، من أجل مملكة السماء، فهم قد تحملوا حر الدنيا الذي لايحتمل، وأطفأوا بوسائل إطفاء النار، الذي لايطفأ، وينشطر الوادي، في البقعة التي تقوم عليها الكنيسة مع قبر الأب المقدس سابا، الذي ألهم من قبل الرب، إلى ثلاثة أقسام، ويصبح عميقاً جداً، وقد بنى القديس أبراجاً على حافته، وبنيت الكنيسة في وسط هذه الأبراج الكبيرة، وعمل الذين من حولها هذه الحجيرات الصغيرة للعبادة والتأمل، وذلك حسبما جاء في الرواية التي تحدثت عن حياته الرائعة، وهذه الكنيسة مليئة بها هو هام، ذلك أنها واسعة، وطويلة، ومشبعة بالضوء، وبلاطها مزين بالرخام الذي مع أنه منخفض التكاليف، لأنه جلب من القفار، قد صنع بشكل غريب ، وهناك في واجهة المعبد ساحة مبلطة، وفي وسطها ضريح أبانا الكبير سابا، وهو مرتفع فوق سطح الأرض حوالي القامة، ومزين بألواح من الرخام الأبيض الناصع، وفي القرب، ومن حول هذا، وتحت الأرض، يمكن رؤية قبور الآباء الذين أشع نورهم في الفيافي، وبين هؤلاء الشاعرين القديمين: س.س.كوزماس، ويوحنا(الدمشقي)، ويوجد هنا حوالي الأربعين رجلاً من الملهمين، وهم أعظم من سواهم بكثير، بينهم ستة قد تحادثوا مباشرة مع الرب، وأسماء هؤلاء: ستيفانوس، وثيودوروس، وبولص، وجاء الرابع

بينهم من ميجالبوس Megalopols ، والخامس إسباني، والسادس هو يـوانـس العمودي، الـذي هـو واسـع الشهـرة بين الناس لنفـاذ بصيرتـه الروحانية.

١٧— وإذا ما عدت إلى المدينة المقدسة، ليـس من خلال الوادي بل عبر الشعاب الجبلية المجاورة، من مسافة ستة أميال عنها، سوف تجد دير أبانا المقدس ثيودوسيوس الكانوبيارخ Coenobiach (خربة ديـــــر ابن عبيد)، وكان هـذا الدير محاط بأنـواع من الأبراج، وعلى حوالي رميـة سهم من أمـامه تـوجد القـاعة، التـي فيها — حسبما نقـرأ في ترجمة حيـاته — انطفأ فحم كـان قد اشتعل في يد القـديس، وتقوم في وسط الـدير، وفوق أرض مـرتفعة، الكنيسـة، التي لها سقـف مستـدير، والتـي تحتها كهـف، يوجد فيه ضريح القديس، ومتصل بـه عدة غرف، ترقد فيها آثار قديسين كبار، وعنـدما تنـزل على الدرج إلى هـذا الكهف، سـوف تجد على جانبـه مدخـل كهف آخر، دخـل إليه الحواري القـديس باسيليـوس، وبناء على طلب هذا القديس، قام بـاختيار قبره — حسبما جاء الخبر في تراجم حياة الآبـاء — وتمدد ميتاً هنـاك، وشوهـد بعـد ذلك لمدة أربعين يـوماً ينشـد تراتيل في وقت القداسات مع القديسين والأخوان.

١٨— وفي مقابل الدير المتقدِّم الـذكر، وقليلاً باتجاه اليمين، وفي عمق قفار الأردن يوجد دير القديس يوثيميوس Euthymius الكبير(خربة مرد)، وهو دير محصـن بأبراج وبسواتر دفاعية عظيمـة، وفي وسط هذا كله تقوم الكنيسة التي هي مثل الكنائس الأخـرى لها سقف مستدير، ويوجد تحتهـا كهف، وفي وسـط الكهف ضريـح يوثيميـوس الكبير، الذي يشبـه آبدة سـابا الملهم، ذلـك أنه مغطى مثلـه بالرخـام الأبيض، ومدفـون هنا أيضاً آثـار الأبويـن المقدسين: بـاساريـون Pasarion، ودومشيان Do-mitian.

١٩— ويوجـد خلف هذا الـدير فراغ فـاصل مقداره اثنـي عشر ميلاً،

تجد بعده وادياً عظيماً، يتدفق في وسطه مسيل ماء، ويوجد على الطرف المقابل لهذا الوادي دير كوزيبيا(دير القلط)، وهو شيء لايصدق حين يوصف، وأعجوبة ملهمة حين تبصر، ذلك أن حجيرات الرهبان هي أبواب كهوف، أما الكنيسة نفسها مع المقبرة، فقد حفرتا داخل الصخر الأصم، ويسخن بالعادة إلى درجة عالية بوساطة أشعة الشمس، حتى أن الانسان يمكنه أن يرى فيه ما يشبه شكل الأهرام، من ألسنة اللهب المندفعة من الصخور، أما الماء الذي يشرب منه الرهبان فهو يتدفق من الحال الذي سنصفه الآن: هناك ما يشبه البركة ذات المياه الآسنة، وتسخن هذه بوساطة أشعة الشمس عند الظهيرة في منتصف الصيف، وتسخن سخونة كاملة بوساطة الأشعة النارية، ورأيت في هذا الدير عدداً كبيراً من الرجال المقدسين، كان أحدهم صانعاً للأعاجيب، وهو يتحدث مباشرة مع الرب، واسم هذا الشيخ لوقا، ومع شيء من الخطر تسلقت إلى هذا الدير، ثم نزلت منه وذلك بسبب كل من الشعاب الطبيعية للمكان، والحرارة الشديدة جداً للشمس.

٢٠— ويأتي بعد هذا طريق طويل، وضيق، ووعر جداً، يقود إلى خلف القفار، التي قبل أن تصل إليها ترى في وسطها جبلين، يمر بينهما الطريق إلى أريحا، ولايوجد على هذا الطريق مكان مرصوف بالحجارة، لكن مع هذا من الممكن تقصي الخطوط العامة الباهتة لذلك، وفي هذه الأيام جميع المناطق المجاورة مليئة بينابيع المياه لاستخدام الديرة التي تأسست في القفار، لأن البلاد قد قسمت ووزعت بين هذه الديرة المقدسة، ولهذا صارت مشجرة بشكل جيد ومليئة بالكروم، وقد بنى الرهبان أبراجاً فوق حقولهم، وجنوا محاصيل غنية منهم، ويبدو مظهر جميع الصحراء، والأردن وبحر سدوم الميت، وذلك وفقاً لتقديراتي، شبيه كثيراً بمنطقة أكريس Achris (في إليريا أو مقدونيا) مع استثناء وحيد، هو أن الماء ينبع من بحيرة أكريس، ويروي كثيراً من الوديان

المجاورة، التي يدعوها السكان باسم: «ستروغاس Strougas »، بينما يصب الأردن هنا في البحيرة، فضلاً عن هذا إن عرض القفار أكثر بمرات عدة من عرض سهل أكريس.

٢١— ويقع على طرف اليمين للجبل المزدوج، الذي تحدثت عنه، طرف البحر الميت ومن خلفه سيجور، وخلف هذه الصحراء، من الممكن رؤية صحراء روبا Ruba، الكبيرة وذلك بعد مايجتاز الانسان بين ديرين، وأقصد بهذا ديري القديس يوثيموس Euthymius ، ودير الراعي «اللورا Laura»، وعلى يسار الجبال والطريق من الممكن رؤية الرابية، التي تعرض عليها مخلصنا بعد صومه لمدة أربعين يوماً لغوايتين من قبل الشيطان، الذي تراجع مقهوراً ومجللاًبالعار، وفي مقابل هذه الرابية، وعلى مسافة، يمكن أن أقول، تساوي ستة أميال، هناك كنيسة فوقها، حيث تشاور رئيس الملائكة ميكائيل مع يوشع بن نون.

٢٢— ولقد بني على ضفاف الأردن ثلاثة أديرة هي: دير الرائد (يوحنا المعمدان) ودير خريسوستوم Chrysostom. ، وكان دير الرائد قد سوته زلزلة بالأرض، وقد أعيدت عمارته الآن كاملاً باليد الكريمة لإمبراطورنا مانويل كومينوس البروفيروجنتوس، المتوج من قبل الرب، ذلك أنه الأول بالاهتمام الفائق بأعمال إعادة البناء، وعلى مسافة حوالي رميتي سهم من هناك يجري الأردن، وهو النهر الأكثر قداسة بين الأنهار، حيث فيه قام مولاي يسوع المسيح، وهو متمسك بالفقر، بصنع الأسرار العظيمة لخلاصي بوساطة التعميد، وعلى ضفته، على مسافة رمية حجر تقريباً، هناك بناء مربع مقنطر، وذلك حيث عاد الأردن بمجراه، ليحتضن الجسد العاري للذي غطى السموات بالغيوم، وحيث اليد اليمنى للرائد (يوحنا المعمدان) وهي ترتجف عندما لامست رأسه، وحيث أيضاً الروح وقد نزلت على شكل حمامة على الكلمة القريبة منها، وأخيراً حيث صوت الأب قدم الشهادة على أن المخلص هو ابنه.

٢٣— ويوجد بين دير الرائد (يوحنا المعمدان) والأردن رابية صغيرة هي رابية حرمون، حيث وقف عليها المخلص، وأشار بإصبع يوحنا المعمدان إلى الحشود، وذلك عندما أزال ذنوب العالم، وكان بين ديري الرائد ودير كالامون Calamon ، دير القديس جيراسيموس Ge-rasimus ، الذي أزالته وأزالت أساساته مياه الأردن، ولذلك لم يبق منه أي جزء مرئي، باستثناء القليل من بقايا الكنيسة، وقبوين، وعمود للتنسك، يعيش فوقه شيخ إسباني طويل القامة، وهو شخص لطيف جداً، ويستحق الاعجاب، حيث حصلنا من الحديث معه على كثير من الفائدة، ذلك أن النعم الربانية العظيمة مزينة لهذا الرجل، وإنني أرى من الضروري أن أتحدث إلى جميع الذين يهتمون بسرور بالأشياء الربانية، فعن طريق المعالجة صنعت معجزة من قبل هذا الرجل قبل زيارتنا له، ويوجد لدى دوامات الأردن وتعرجاته، كما هو متوقع، قطع أرض كثيرة متصلة بها، نمت فيها كميات كبيرة جداً من القصب، اعتادت أن تنمو هناك، وهذه الأقصاب مأوى للأسود، وقد اعتاد أسدان على القدوم كل يوم سبت إلى صومعة الرجل العجوز، حيث كانا يحكان رأسيهما، ويطلبان الطعام من خلال تعبيرات أعينهما، وكان الطعام يقدم لهما بكل سرور، ومن ثم يعودان وهما مسروربن، إلى مأواهما قرب تعرجات النهر، وكان طعامهما عبارة عن خضار مبللة بالماء، وخبز مصنع إما من طحين القمح أو من طحين الشعير، وحدث في إحدى المرات أنهما عندما قدما وطالبا بطعامهما المعتاد بحركات أعينهما، لم يكن لدى الرجل العجوز من الوسائل مايرضي به هذين المخلوقين، لأنه حدث أن هذا الرجل المقدس لم يتسلم طعاماً لمدة عشرين يوماً، ولذلك قال لهما: «أيها الوحشان، بما أنني لا أمتلك أية امكانيات للتخلص من ضعف طبيعتي، ولا أي نوع من الطعام منذ عشرين يوماً، ولم أزود نفسي بالضروريات المعتادة، إنه بأمر الرب القادر بكل سهولة على تلبية حاجاتنا، أرى أنه من الضروري وجوب ذهابكما إلى نهر الأردن، وجلب قطع صغيرة من

الأخشاب، يمكنني أن أصنع منها بعض الصلبان الصغيرة، وإعطائها من أجل المباركة إلى الرجال الذين نذروا الحج، وبما أن كل واحد من الرجال من الممكن أن يعطيني بالمقابل بعض القطع النقدية الصغيرة، بهذه القطع ستتمكن من شراء بعض المؤن لكم ولي»، فهكذا تكلم، وأصغى الأسدان إليه، وتوجها نحو نهر الأردن، وكأنهما يمتلكان العقل، وبعد هنيهة، كانت المعجزة، فقد حملا جذعين من الأخشاب فوق رقبتيهما، ووضعاهما عند قاعدة العمود، ثم بادرا بالفرار إلى مستنقعات الأردن، وهذا يكفي، ودعونا الآن نتابع وصف الأماكن.

٢٤— وقد بني دير العمود أيضاً مع أبراج، وأسوار وقاية، وتقوم في وسطه كنيسة بنيت بالملاط القوي، وهي مغطاة بسقف مقنطر متوضع فوق أقواس اسطوانية، وهي متصلة بوساطة هذه الأقواس بكنيسة مقنطرة صغيرة جداً، ويوجد في البروز صورة للعذراء مع المسيح المخلص فوق ذراعيها، وهي تشبه بشكلها، ولونها وحجمها لوحة أياصوفيا في المدينة الامبراطورية، وهناك رواية قديمة بأنها قد رسمت بيد الرسول الانجيلي القديس لوقا، ومما يؤيد هذه الرواية ويدعمها المعجزات المتوالية التي تصنعها هذه الصورة، والروائح الذكية المنعشة التي تصدر عنها، ويلي هذا الدير، على مسافة خمس غلوات تقريباً دير خريسوستوم، وعلى بعد رمية سهم من هناك صومعة يعيش فيها رجل طويل حياة تأمل، وهو رجل اسباني، له عادات بسيطة، وكلام لطيف، كان قد مارس من قبل لسنوات طوال حياة التأمل فوق صخرة كانت قائمة قرب شاطىء بحر أضاليا، حيث كنت قد قابلته، عندما كنت أخدم في جيش الامبراطور المتألق جداً مانويل كومينوس البروفير وجنتوس.

٢٥— وخلف الأردن، في مقابل مكان تعميد مولانا، هناك الكثير من الشجيرات النامية، في وسطها وعلى مسافة قرابة الغلوة الواحدة، يوجد

كهف يوحنا المعمدان، الذي هو صغير جداً، ولايمكنه استيعاب رجل حسن البنية وهو منتصب على قدميه، ومقابل هذا، في عمق الصحراء، هناك كهف آخر سكن فيه النبي إلياس عندما حمل بعيداً بوساطة عربة نارية، وفيما وراء هذين الكهفين، وعلى ضفاف الأردن، توجد — كما يقال — القفار، التي رأى المبجل زوسيموس Zosimus ، أنها لائقة للحياة الملائكية للسيدة المصرية، وخلف الهضاب تقوم القفار التي تقود إلى سيناء، ورأسو Rhaetho والبحر الأحمر، وهنا نهاية حديثي عن القفار.

٢٦— ويوجد على الطرف الأيمن من مدينة القدس المقدسة، باتجاه برج داود، هضبة مغطاة بالكروم، وهناك فوق الجزء المنخفض منها دير للرهبان الاسبان وُجدت في محيطه — كما يقال —شجرة الصليب الرائع، ومن هناك قطعت، وتبدأ خلف هذا المنطقة الجبلية، وهي تسمية مناسبة جداً، لأن الهضاب تغدو لغلوات عديدة منحدرة وأكثر انحداراً، وعلى مسافة حوالي الأربع عشرة غلوة من المدينة المقدسة يمكن رؤية بيت زكريا النبي، لأنه بعد البشارة للعذراء الطاهرة، نهضت وسارت مسرعة، وعانقت اليزابيث، التي قفز طفلها في داخل رحمها، وكأنه بقفزته يقدم التحية للسيدة، وتفوهت السيدة بتلك الأغنية النبوية التي هي محط الإعجاب، وهناك قلعة في هذا المكان، وكنيسة قد بنيت فوق كهف، ففي النهاية القصوى للكهف حدثت ولادة الرائد(يوحنا المعمدان)، وعلى مسافة حوالي رميتي قوس، فوق الجزء العلوي من الجبل، هناك الصخرة التي انشقت، واستقبلت في داخلها أم المعمدان مع ابنها وهو على ذراعيها، عندما كانت هاربة، أثناء قيام هيرود بذبح الأطفال.

٢٧— خارج القدس، وبين الطريقين، اللذان يقودان أحدهما إلى المنطقة الجبلية والآخر إلى دير وبيعة(القديس سابا) هناك جبل، وطريق

فوقه، يقود من جبل صهيون المقدس إلى بيت لحم، وتقع مدينة بيت لحم على حوالي ستة أميال من المدينة المقدسة، ويقوم في منتصف الطريق بينها وبين المدينة المقدسة دير النبي المقدس إلياس، الذي كان قد بُني من قبل رجل رباني في عصور قديمة جداً، غير أنه تهدم كلياً بوساطة زلزال، وعلى كل حال جرت إعادة عمارته على يد المحسن العالمي، معلمي وامبراطوري، فقد رفعه من أساساته بناء على رجاء رجل سرياني، هو مقدم طائفته، ويشكل ضريح راحيل مثلثاً مع الدير ومع بيت لحم، وقد بني على شكل مقنطر، توضع فوق أربعة أقواس، وفي منتصف الطريق بين بيت لحم، ودير الراعي، يمكن للانسان رؤية حقل، وفي منتصف الحقل هناك كهف، فيه سمع الراعي المبارك، وهو يتولى الحراسة في الليل، الملائكة ترتل وتغني قائلة:«المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام والخلاص للعالم»، وبنيت مدينة بيت لحم المقدسة فوق رابية صخرية، وفيها هناك الكهف المقدس والمزود، والبئر الذي رغب داود أن يشرب منه، وكذلك من الممكن رؤية كنيسة طويلة جداً، قد بنيت فوق قمة الكهف، وهي ذات حجم كبير، وعلى شكل صليب، مسقوفة بجذوع من الشجر غير قابلة للتلف، وأخذ السقف فوق المذبح شكلاً حجرياً مقنطراً، وبنيت هذه الكنيسة الجميلة جداً والواسعة، أيضاً باليد الكريمة لامبراطوري المنقذ للعالم، الذي زين أيضاً الكنيسة كلها بأعمال الفسيفساء الذهبية، وقام الأسقف المسؤول في هذا المكان، وهو ممن يمارس الطقوس اللاتينية، فوضع في كثير من الأماكن، ولاسيما في قدس الأقداس نفسه فوق الكهف المقدس، صورة جميلة للامبراطور، ربما تعبيراً عن الشكر له على كرمه، ووضع كهف المزود والبئر هو كما يلي: تقوم على الطرف الأيسر لقدس الأقداس الفتحة المؤدية إلى الكهف المقدس، وإلى جانب ذلك البئر الذي رغب جدنا داود أن يشرب منه جسدياً وروحياً، وقد قام رجلان كانا يحتلان مكانة عالية لديه بشق طريقهما خلال معسكر العدو،ونضحا الماء في دلو، وجلباه لإطفاء عطشه، وقام هو بدوره

بـ المشهـور، بصب الماء وإراقتـه تشريفاً للـرب وتمجيداً، الأمـر الذي ما ..د أصداء شهرته في الخارج، وينزل الانسـان من مدخل الكهف إلى قعره بوساطـة ست درجات، وعلى جانبه الشمالي يوجـد النزل المقدس الـذي ولـدت العذراء فيـه بـالمسيح المخلـص، وبـذلك صـارت جميـع المخلوقات التي خلقهـا الرب بالجسد، والعالم كله، جديـدين، وأنا العبد الفـاني، صرت غنياً بـوسـاطـة لاهوت ربي وخـالقـي الـذي انتزع فقـري ووضعـه على نفسه، وعلى بعـد درجـة تحت هذا مـن الممكـن رؤية مـزود الحيوانـات، الذي له شكـل رباعي متسـاوي الأطراف، وهو الـذي غطاه القدمـاء برخام أبيـض، وقد تركـوا فتحة مستـديرة في وسطه، مـن خلالها يمكن رؤية جـزء من ذلك المزود الذي حـوى الواحد الأبدي، الـذي هو أوسع من السموات، وأضخم بكثير مـن الأرض، والبحر، والأجزاء القائمة تحت الأرض، وقد حواه بسهـولة عندما كـان رضيعاً، مع أنه هـو الذي لم يكـونوا قـادرين على احتـوائه، وقد قفـزت مـرحاوأنـا أكتب، وكنـت كلي روحياً في داخـل ذلك الكهـف المقدس،ورأيت الغطـاء الذي غُطّـي به مولانا عنـد ولادته، والفراش الذي وضع عليه الطفـل الحديث الولادة في المزود، وشعـرت بـالنشـوة من خـلال التفكير بحـب المخلـص لي، ومـن خلال فقـره الشديـد الذي جعلنـي جديـراً بمملكة السماء، ولقـد رأيت الكهف ذاك قصراً، والملـك قد جلـس على صدر العـذراء كأنـه جالـس فوق العـرش، ورأيت أيضاً جـوقة مـن الملائكة تحيط بـالكهف، والحكماء المجوس يجلبـون هداياهم إلى الملـك، ولقد امتلأت بجميع ألـوان النشوة والسرور لدى تأملي لأنـواع النعمة التي رأيت نفسي جديـراً بتلقيها، وتولى الفنان، بيـد بارعة، رسـم جميع العجـائب التي وقعت في ذلـك الكهف، ويـوجـد في البروز صورة العـذراء وهـي مستلقيـة على فـراشها، ويـدهـا اليسرى موضوعة تحت مرفقها الأيمن، وواضعـة وجنتها فوق يدها اليمنى وهـي تنظر إلى طفلهـامبـديـة لطفها الـزائد بـابتسـامتها المعبرة وفي لـون وجنتيهـا، ذلك أن لـونها لم يتغير، ولم يظهـر عليهـا الشحوب، مثـل التـي

ولدت حديثاً طفلاً، وذلك للمرة الأولى، لأنها وهي التي عدّت أهلاً لحمل طفل، كانت أقوى من رجل، ولا بد أيضاً أنها قد تجنبت آلام الولادة، وكان خلفها الثور والأتان، والمزود، والطفل، ومجموعة الرعاة الذين تردد في آذانهم صوت السماء، لذلك تركوا قطعانهم، وسمحوا لأغنامهم بأن ترعى دون مراقبة، الأعشاب التي كانت قرب النبع، وأسندوا لكلبهم مهمة المسؤولية عنهم، في حين رفعوا رقابهم نحو السماء، وأصغوا بتلهف إلى ترداد الصوت، وقد وقفوا باتجاهات متنوعة، وذلك حسبما رأى كل واحد منهم الوقفة الأسهل له، وبدت عصيهم للرعي بلا فائدة، وكانت أعينهم شاخصة نحو السماء، وأيمانهم ممتدة نحو الخلف، وكأنها ترمي سهماً، وآذانهم مصغية بتشوق، ومع هذا لم يحتاجوا لسماع الصوت مرة ثانية، لأن الأعين أكثر وثوقاً من الآذان، حيث أن ملاكاً قد قادهم وأراهم الطفل مستلقياً في المزود، ولم تلتفت الحيوانات لرؤية هذا المشهد بل حملوا أنفسهم بحماقة وصرفوها، بعضهم نحو الأعشاب، وبعضهم الآخر نحو النبع المتقدم الذكر، لكن الكلب، ذلك المخلوق الذي يبدو متوحشاً مع الغرباء، قد ظهر يحدق عن عمد بالمشهد غير المعتاد، بينما قفز الحكماء من على ظهور خيولهم، وهم يحملون هداياهم بأيديهم وجثوا على ركبهم، وقدموها إلى العذراء مع رهبة وتهيب.

٢٨— وعلى حوالي الميلين خارج بيت لحم المقدسة، وفي دير الراعي، هناك كهف فيه أنذر الحكماء بهاتف سماوي بعدم العودة إلى هيرود، وقد عادوا عبر طريق آخر إلى بلادهم، وعلى بعد حوالي الستة أميال خلف هذا الدير، وقرب صحراء روبا، وفي دير القديس شارتون، وعلى مسافة معتبرة خلفه يوجد الضريح المزدوج لابراهيم، الموجود في الخليل، وبلوطة ممرا، التي تحتها استضاف البطريرك إبراهيم الثلاثة المقدسين، وهذه هي أوصاف (الأماكن المقدسة) من عكا حتى القدس، المدينة المقدسة، وذلك عبر الجليل، وكذلك الأردن والقفار المقدسة،

والأماكن القائمة على شاطىء البحر، وهم كما يلي:

٢٩— على بعد حوالي الستة أميال من القدس، المدينة المقدسة، تقع مدينة أرماثم(رامة — النبي صموئيل) التي ولد فيها النبي صموئيل العظيم، وعلى مسافة حوالي السبعة أميال، أو بالحري أكثر، خلفها، تقع مدينة عمواس الكبيرة، وهنا تمتد منطقة الرملة حوالي الأربعة والعشرين ميلاً، ففيها من الممكن رؤية الكنيسة الكبيرة للشهيد الكبير المقدس جرجس(اللد)، وهنا كان قد ولد، وقام بأعمال قداسة عظيمة،وهنا أيضاً قبره المبارك، والكنيسة مستطيلة، وفي البروز تحت المائدة المقدسة، يمكن للانسان أن يرى فتحة ضريحه، المحاط كله برخام أبيض، ومن المفيد أن نروي ما سمعته من الكهنة التابعين للكنيسة حول ما حدث قبل عدة سنوات مضت عند ضريح القديس، فقد قالوا : غامر الأسقف اللاتيني المغتصب الحالي، بمحاولة فتح فم الضريح، وعندما أزاح اللوح الرخامي الذي كان مغلقاً له وانتزعه، تكشف له وجود كهف كبير، وجد في داخله ضريح القديس، وعندما حاول أيضاً أن يفتح هذا، شوهدت نا ر ملتهبة صادرة من الضريح، وقد تركت واحداً من الرجال نصف محروق، والآخر محروقاً حتى الموت.

٣٠— وتقع خلف هذه المنطقة منطقة قيسارية فيليب(اقرأ: فلسطين)، وقيسارية مدينة واسعة وكثيرة السكان، وقد بنيت على شاطىء البحر، وفيها بالفعل ميناء رائع، صنع بالبراعة الانسانية، وقد أنفق هيرود أموالاً عظيمة في سبيل بنائه، وهنا سأل المسيح الحواريين:«من هم الذين يقولون إنني ابن الانسان؟»، وأجابه بطرس قائلاً«أنتم المسيح ابن الرب»، مظهراً بكلماته حرارة حبه.

٣١— وخلف هذا يقع جبل الكرمل، الذي عنه نقرأ كثيراً في كل من العهدين القديم والجديد، وهو جرف طويل، يبدأ عند ميناء عكا وحيفا، ويمتد حتى جبال الجليل، ويقع كهف النبي إلياس عند نهاية السلسلة

الجبلية، في المكان الأقرب إلى البحر، وفي هذا الكهف بعدما عاش ذلك الرجل الرائع حياة ملائكية، رفع إلى السماء، وكان يوجد عند هذا المكان ديراً واسعاً، وذلك حسبما تحدثنا الأبنية المهدمة الباقية حتى اليوم الحالي، ذلك أن الزمان الذي ينهك كل شيء، وغارات العدو المتواصلة، هدمته كلياً، وقام على كل حال منذ بعض الوقت راهب كان كاهناً مرسوماً، وكان صاحب شعر أبيض، وهو من أهل كالبيرا، قام إثر رؤيا للنبي، فجاء إلى ذلك المكان، حيث سكن بين خرائب الدير، وقام ببناء ساتر دفاعي صغير وبرج وكنيسة صغيرة، وجمع حوالي العشرة رهبان، وقام بسكنى المكان المقدس حتى هذا اليوم.

٣٢— ولسوف أوقف هنا أعمال وصفي، بعدما أكملت الطواف حول الأماكن المقدسة، وإذا ما عدّ قارئي ورأى أن هذا عملاً مفيداً، وقتها أعدّ نفسي بأنني نلت التعويض على تعبي، وحظيت بالجائزة، وإذا لم ير ذلك، ليكن مايلي: أعد يا بني إليّ الذي أنجبه، فبثرثرته يذكّرني بهذه الأماكن المقدسة، وذلك سوف ينعشني بحلاوة في خيالي ويذكّرني بهم.

المحتوى

رقم الصفحة	الموضـــــــــــــــوع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الخامس والثلاثون

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

١ــ حياة القديس لويس لجوانفيل
٢ــ التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني
٣ــ رسائل صليبية من الأرض المقدسة(١٢٨١ م)
٤ــ ما جاء عند وولتر ماب عن الحروب الصليبية،

(١)

حياة القديس لويس

تأليف

جين جوانفيل

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعد الحملة الصليبية السابعة من أهم الحملات، لا لأنها كانت الأخيرة، بين الحملات الكبرى، بل لما رافقها من أحداث، فهي أرادت احتلال مصر، وقد اعتمدت على العناصر الفرنسية مثل الحملة الأولى، وأخفقت هذه الحملة، وجاء إخفاقها وترافق مع انتهاء الحكم الأيوبي في مصر، ومع التمهيد لقيام حكم المماليك، كما أن هذا كله ترافق مع ظهور المغول على ساحة الأحداث، فعندما كان لويس التاسع في قبرص راسل المغول، وبعد خلاصه من الأسر ببعض الوقت تلقى الجواب من الخان المغولي، والعلاقات المغولية الأوربية هامة جداً أفردت لها دراسة خاصة، كما أنني جمعت أهم ما كتب من مصادر عن المغول، سأفرد لها عدة مجلدات في نهاية الموسوعة، وذلك بعد الفراغ من الموضوع الصليبي الأساسي.

وكان الملك لويس التاسع هو الذي قاد الحملة الصليبية السابعة، وقد أخفقت هذه الحملة، ووقع الملك لويس بالأسر، وأفضل من أرخ لهذه الحملة ولوقائعها بتفصيل موثق هو جين صاحب جوانفيل، وكان سليل أسرة إقطاعية فرنسية عريقة، هذا وخير مصدر يتحدث عن حياة جوانفيل هو كتابه الذي أرخ به لحياة الملك لويس، وكان هذا الكتاب قد نقل إلى العربية من قبل الدكتور حسن حبشي، ونشر في القاهرة عام ١٩٦٨ ، ولدى تفحصي الدقيق لهذه الترجمة، وجدتها تفتقر إلى الدقة، تعرض النص فيها أحياناً إلى الاختزال وأحياناً إلى البتر، وتكوّن لدي انطباع أن الدكتور حبشي لم يقم شخصياً بالترجمة ، بل عهد بذلك إلى

عدد من تلاميذه، ولهذا ساد التفاوت أجزاء الكتاب، وظلت بعض آثار عمل الطلاب واضحة، ويكفي أن أسوق هنا مثل صارخ ورد في صفحة ٢٦٨ تحت عنوان«جنوح باخرة الملك» بدلاً من القول:«جنوح سفينة الملك»، ذلك أن اعتماد البخار في دفع السفن وتسييرها حديث جداً.

وعاصر جوانفيل في منطقة كليكية، في شمالي بلاد الشام، أمير أرمني اسمه سمباط، ويرجح أنه كان أخاً للملك هيتوم الأول، وقائداً من قادة جيوشه، وقد خدم تحت لواء الملك ليون الثاني، بعد وفاة والده هيتوم الأول، ومن المعتقد أنه اعتمد في تأريخه على متى الرهاوي وعلى غريغوري الراهب، وعلى وثائق أنطاكية وسجلاتها، وذلك بالإضافة إلى مذكراته الشخصية، وقد توقف في تاريخه عند سنة ١٢٧٤ م.

ويبدو أن سمباط كان بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً، كان سفيراً ورجل سياسة، سفر إلى المغول الايلخانيين في إيران، ومن المرجح أنه مات سنة ١٢٧٦ م.

وتاريخه وإن مثل وجهة النظر الرسمية لدولة أرمينيا الصغرى في كليكية تقوم أهميته على المادة الإخبارية التي تعلقت بهذه الدولة، وعلى ما عاصره سمباط من أحداث، لاسيما بعد اجتياح هولاكو لبغداد، ثم هزيمة جيوشه في عين جالوت.

وكان سمباط واسع الثقافة، ومن المعتقد أن الكتاب الذي وصلنا قد حوى مواده الإخبارية، لكن صياغتها قد جرت من قبل إنسان آخر، وهذا لايقلل كثيراً من قيمة الكتاب، وسيظل هو المعتمد حتى تسعفنا الأيام، باكتشاف كتاب سمباط الأصيل نفسه.

وكتاب سمباط هذا هو واحد من كتابين أرمينيين، أرخ ثانيهما لأمة الرماة، أي المغول، وسأنشره — إن شاء الله — مع النصوص المتعلقة

بالمغول.

وهذا وألحقت بمجلدنا هذا رسالتين، لهما ارتباط بادوارد الأول، ملك انكلترا، الذي قاد واحدة من الحملات الصليبية، كانت أشبه بموجة شاردة، وأشار سمباط إلى هذا الملك الانكليزي، وإلى تعرضه لمحاولة اغتيال في عكا.

وعلى هذا أكملت نصوص هذا المجلد بعضها بعضاً، ونظراً لاحتمال أن يكون هذا المجلد، هو الأخير الحاوي لأخبار عسكرية وسياسية حول الحروب الصليبية، مما كُتب بغير العربية، فقد ألحقت به بعض النصوص التي كتبها رجل الدين الانكليزي وولترماب، وكان من معاصري هنري الثاني وابنه رتشارد قلب الأسد، وكنت قد حصلت على مصورة لكتاب ماب الذي نشر سنة ١٩٢٤ منذ أمد وجيز، هذا وأسلوب ماب غريب، وتذكرنا لغته وأسلوبه بالعماد الأصفهاني.

وأملي كبير بأن يمدني الله جل وعلا بالعون لمتابعة العمل بهذه الموسوعة وتحقيق مشروعها كاملاً.

والحمدلله على نعمائه، وصلى على النبي العربي وعلى آله وصحبه وسلم

دمشق ٢٢ محرم ١٤٢٠ ٧ أيار ١٩٩٩

سهيل زكار

تكريس

إلى مـولاه الطيب لويس، ملك فـرنسـا، وبنعمـة الرب ملك نافـار، وكونت بالاتاين Palatine في شامبين، وبري، يبعث جين صاحب جوانفيل، وتابعه المخلص ونائبه في شامبين، بتحياته المخلصة والمحبة.

مولاي العـزيز: أغتنم الفرصة لأخبركـم بأن سيدتنا،الملكة أمكم — منحهـا الرب النعمـة — رجتني بإخـلاص عظيم، أن أكتب كتـاباً لها، يحتوي على الأقوال التقوية والأفاعيل الجيدة لمليكنا القديس لويس، وقد وعـدتها بالقيـام بذلك، وقـد أكملت الكتـاب الآن، الذي قسمتـه إلى قسمين : يتحـدث القسم الأول حـول كيف تحكم الملك لويس في جميع الحالات بحيـاته وفقـاً لإرادة الرب، ولشرائع الكنيسـة المقـدسـة، ويتحدث القسم الثـاني عن شجاعتـه المشهودة وعن براعتـه العظيمة في استخدام السلاح .

مـولاي : بما أنه قد كتب«افعل أولاً الأشيـاء المتعلقـة بخدمـة الرب، وهو سوف يقودك في جميع الأشياء الأخرى»، لقد كرست القسم الأول من كتابي للأشياء الثلاثة التي ذكرتها أعلاه، أي الأشياء المتعلقة بصلاح النفس، وصحة الجسد، والحكم الصالح للناس.

وقمت، فضـلاً عـن هذا، بمعـالجة هذ ه الأمـور بطريقـة تهدف إلى تقديم التشريف اللائق بهذا القديس الحقيقي، لأنني بهذه الطريقة سوف أمكن الناس من إدراك أن مـا من إنسان علماني في أيامنا قـد عاش بمثل حالة الطهـارة التي عاشها طوال حياته، منذ بداية حكمـه وامتداداً حتى وقت وفاتـه، ولم يحدث أنني كنت موجـوداً شخصياً عندما مـات، لكن ابنه بيير دي ألنسون — الذي أحبني تماماً — كان هناك، وأخبرني حول النهاية الطيبـة التي صنعها والده، حسبما ستجـد ذلك موصـوفاً في نهاية

هذا الكتاب.

ويبـدو لي في هـذا المقـام، أن الذيـن أهملوا وضع الملك لـويس بين الشهـداء، لم يقدمـوا له ما يكفـي من التشريف، آخذين بالتقـدير الآلام العظيمـة التي تحملهـا في الأعوام الستـة التي كنت فيهـا معـه في الحملة الصليبية، وبشكل خـاص لأنه حذا حذو مـولانا في حمله الصليب، فإذا كان المسيح قد مـات على الصليب، كذلك فعل هو، لأنه توفي في تونس وهو صليبي يرتدي تلك الشارة المقدسة.

ولسوف يتحدث القسم الثاني من كتـابي عن أعماله العظيمة في ميدان الفروسية، وأفعاله الشجـاعة الرائعة، واتضح هذا في أربع مناسبات — سوف أتحدث لكـم عنها فيما بعد بشكل كـامل — حيث عرض حيـاته عن طواعية للخطر، حتى يحول بين شعبه وبين التعرض للأذى.

وكـانت المرة الأولى التي عرض فيهـا حياته للخطر عندمـا وصل إلى أمام دمياط، فقد نصحـه جميع مستشاروه — حسبما أخبرت — بالبقاء على ظهر سفينتـه، حتى يرى فرسانه — الـذين كانوا على وشك النزول إلى اليابسة — كيف سيتصرفون، وكـان السبب في إسداء هذه النصيحة له، أنه إذا ما نزل إلى اليابسة مع فرسانه وقتل هو وهم، فإن معنى ذلك سيكون إخفـاق المشروع كله، لكنه، مـن جهـة أخـرى، إذا مـا بقي في سفينته، سوف يبقى ليقود حملة جديدة للإستيلاء على مصر، غير أنه — على كل حال — لم يصغ لأحد، بل قفز إلى البحر، وهو شاكي السلاح، ومعه ترسه معلق في رقبته، ورمحه في يده، وكان بين الأوائل في الوصول إلى الشاطىء.

وكانت المنـاسبة الثانيـة، عندما كـان الملك على نية مغـادرة المنصورة والذهاب إلى دمياط، نصحه مستشاروه — حسبما علمت — بالسفر إلى هناك في غليون، وقدمت هذه النصيحة له — كما أخبرت — بسبب أنه

إذا ما حدث لرجاله أية مأساة، سوف يكون في وضع أفضل لإنقاذهم من الأسر، وقدمت هذه النصيحة له بشكل خاص بسبب وضعه الصحي، فقد كانت عدة أمراض قد نخرت جسمه، من ذلك حمى ثلاثية مزدوجة، وإسهال حاد، كما أصابه المرض الذي تفشى في الجيش، وأثرعلى فمه وعلى رجليه، ومرة ثانية ما كان ليصغي إلى أحد وقال بأنه لن يهجر رجاله مطلقاً، وسيقابل المصير نفسه كما فعلوا، وهكذا قام بسبب الهجمات الطويلة للإسهال بقطع الجزء الأسفل من سراويله، وكان في الوقت نفسه الألم الذي عانى منه من حمى الجيش هائلاً، حتى أنه أغمي عليه عدة مرات خلال المساء.

وكانت المرة الثالثة خلال الأعوام الأربعة التي أمضاها في الأرض المقدسة بعد عودة أخيه إلى فرنسا، وكانت حيواتنا وقتذاك في مخاطر عظيمة، لأنه خلال الحقبة كلها التي أمضاها الملك في عكا لم يكن لديه في جيشه سوى رجل واحد مقابل ثلاثين رجلاً في تلك المدينة، وذلك في تاريخ متأخر عندما جرى الاستيلاء عليها من قبل المسلمين، وأنا شخصياً لا أعرف أي سبب، لماذا لم يأت المسلمون في ذلك الوقت لأسرنا في عكا، ما لم يكن هو حب الرب لملكنا حيث وضع خوفاً عظيماً في قلوب أعدائنا، لذلك لم يتجرأوا على الهجوم علينا، لأنه أولم يكتب:«اخش الرب وسيخشاك جميع الناس»؟ وهكذا بقي الملك في الأرض المقدسة مراغمة لنصيحة مستشاريه، واضعاً حياته في خطر، من أجل حماية شعبه في تلك الأرض، فقد كان هذا الشعب عرضة للخسارة لولا أنه أقام لمساعدته.

وكانت المرة الرابعة التي تقبل فيها الملك مخاطرة مماثلة عندما سرنا على محاذاة قبرص في أثناء عودتنا من(بلاد) ما وراء البحر، فقد دفعت سفينتنا بشكل خطير جداً ضد الصخور، حتى أن ثلاثة ياردات من القاعدة التي بنيت عليها قد انفصمت، وبعث الملك خلف أربعة عشر

من معلمي الملاحة، وذلك من سفينته ومن السفن الأخرى التي كانت برفقتها، واستوضح منهم ما الذي ينبغي عليه القيام به، وقد نصحوه بالصعود إلى ظهر سفينة أخرى، لأنهم لم يكونوا يدرون كيف يمكن للسفينة التي هو عليها الصمود في وجه ضربات الأمواج، لأن جميع المسامير التي توجب عليها إمساك قطع الخشب مع بعضها قد تفككت، وضربوا له مثلاً على المخاطر التي كانت السفينة عرضة لها، بإخباره كيف أنهم وهم مبحرون إلى بلاد ما وراء البحر، قد خسرنا إحدى سفننا بالطريقة نفسها .

(أنا شخصياً قابلت لدى كونت دي جويني joiny امرأة وطفلاً كانا وحدهما الناجين من هذه السفينة).

ورد الملك على هذا قائلاً: «أيها السادة الجيدين، إنني أعلم أنني إذا ما تركت هذه السفينة ستعد مهجورة، والذي أعرفه أن على ظهرها ثمانمائة روح أو أكثر، وبما أن كل إنسان يثمن حياته كما أفعل، فإذا ما غادرت السفينة ما من واحد سوف يتجرأ على البقاء، بل سيبقى الجميع في قبرص، ولهذا السبب — إذا قدر الرب — لن أدع مثل هذا العدد من شعبي كما هم الآن عرضة لمخاطر الموت، بل سوف أبقى حيث أنا لإنقاذهم، وهكذا بقي الملك على ظهر سفينته، وحفظنا الرب — الذي وثق به — جميعاً من مخاطر البحر، حتى وصلنا سالمين بعد لأي إلى مرسى.

ويمكن أن أضيف أن واحداً اسمه أوليفر دي تيرم Termes ، الذي تصرف بشكل جيد، وقدم برهاناً على شجاعته عندما كنا فيها وراء البحر، قد تخلى بالحقيقة عن الملك، وتخلف في قبرص، ولم نره مرة ثانية لحوالي سنة ونصف السنة، ومهما يكن من أمر، لقد أنقذ الملك، ببقائه في سفينته، جميع الثمانمائة من شعبه الذين كانوا على ظهرها، وجنبهم التعرض لأي أذى.

ولسوف أحدثكم في القسم الثاني من هذا الكتاب عن وفاة الملك لويس، وعن طريق القداسة التي توفي فيها.

والآن كما أخبرتكم يا مولاي ملك نافار، لقد وعدت سيدتي الملكة، أمك — أراها الرب الرحمة — بأنني سوف أصنف هذا الكتاب، والآن، حتى أفي بوعدي، لقد توليت كتابته، زيادة على هذا، بما أنني لا أرى أحداً له الحق به مثلك، لأنك وريثها، إنني مرسله إليكم، لكي تقوموا أنتم وإخوانكم — وكل واحد آخر سيسمعه يتلى — بإتخاذ بعض الأمثال منه قدوة، وتقوموا بممارسة ذلك، وبذلك سوف تربحون لأنفسكم الفضل بنظر الرب.

القسم الأول

الفصل الأول

عبد الرب

باسم الرب القدير، أقوم أنا جين، صاحب جوانفيل، ونائب شامبين بإملاء سيرة حياة ملكنا الطيب، القديس لويس، حيث سأدون ما رأيته وما سمعته خلال ست سنوات كنت فيها بالحج برفقته فيما وراء البحر، وبعد عودتنا إلى فرنسا، لكن قبل أن أتحدث إليكم عن أعماله العظيمة، وشجاعته البارزة، سوف أخبركم عما لاحظته أنا شخصياً بشأن تبشيره الجيد، وأحاديث القداسة لديه، حتى توضع بنظام لائق لمنفعة الذين سوف يتولون قراءة هذا الكتاب.

لقد أحب هذا الرجل القديس ربنا بكل عواطفه، واحتذى في كل أعماله حذوه، وهذا واضح من حقيقة أن ربنا مات في سبيل الحب الذي حمله لشعبه، وهكذا عرض الملك لويس حياته للخطر، وفعل ذلك مراراً للسبب نفسه، وكان الخطر أيضاً مما يمكن تجنبه، وذلك حسبما سأظهر لكم فيما بعد.

وتجلى الحب العظيم الذي حمله الملك لويس لشعبه فيما قاله — عندما تمدد مريضاً بشكل خطر في فونتبلو — لابنه الأكبر، مولاي لويس، حيث قال:«ولدي العزيز، إنني أتوسل إليك بإخلاص أن تجعل نفسك محبوباً من قبل شعبك كله، ذلك أنني أوثر أن آتي باسكوتلندي من اسكوتلندا ليتولى حكم شعب هذه المملكة بعدل واستقامة، على أن تتولى حكمه بشكل فاسد، أمام نظر جميع العالم»، فضلاً عن هذا أحب هذا الملك المستقيم الصدق كثيراً، حتى أنه — كما سأبين لكم مؤخراً — لم يوافق مطلقاً على الكذب على المسلمين، بالنسبة لكل ميثاق عقده

معهم.

وكان كبير الاعتدال في طعامه، فلم أسمعه في أي يوم من أيام حياتي، يأمر بطعام خاص لنفسه، كما يفعل الناس الأغنياء وذوي المكانة، وعلى العكس كان دوماً يأكل بحمد كبير كل ما كان طهاته قد أعدوه له ووضعوه أمامه، وكان مثل ذلك معتدلاً بكلامه، فلم أسمعه، في أي مناسبة من المناسبات، يتحدث بشكل شرير عن أي إنسان، كما لم أسمعه قط يتفوه باسم الشيطان، وهو اسم يستخدم كثيراً بشكل عام في أرجاء المملكة، وأعتقد أن هذا الاستخدام، ليس مرضياً للرب.

ولقد اعتاد على إضافة الماء إلى خمرته، وفعل ذلك بشكل معتدل، وفقاً لما تسمح له به قوة الخمرة، وسألني عندما كنا في قبرص لماذا لاأمزج خمرتي بالماء، فأجبته بأن مرد ذلك لنصيحة أطبائي، الذين أخبروني أنني أمتلك رأساً قاسياً ومعدة باردة، لذلك لايمكن أن أسكر، فأجابني بأنهم خدعوني، لأنني إذا لم أتعلم مزج خمرتي بالماء وأنا شاب بعد، ورغبت بفعل ذلك في شيخوختي فإن النقرس وأوجاع المعدة سوف يستبدان بي، ولن أكون بصحة جيدة مطلقاً، فضلاً عن هذا إذا ما تابعت شرب الخمرة غير المزيجة عندما أكون شيخاً، سوف أصبح مخموراً كل ليلة، وهذا أمر ملفوظ بالنسبة لأي رجل شجاع، أي أن يكون في مثل هذه الحالة.

وسألني الملك مرة عما إذا كنت أرغب بالتمجيد في هذه الدنيا، وأن أدخل الجنة عندما أموت، فأجبته إنني أرغب بذلك، فقال:« إذا كنت تريد ذلك، عليك أن تتجنب عن قصد قول أي شيء أو فعله، إذا ما أصبح معروفاً بشكل عام، ستشعر بالخجل بالاعتراف بذلك بقولك: أنا فعلت هذا، أو: أنا قلت ذاك»، وأخبرني أيضاً بعدم الاعتراض على أي شيء قيل بحضوري أو وضعه موضع التساؤل، ما لم يقد الصمت بالفعل إلى الموافقة على أي شيء خطأ، أو مضراً بنفسي، لأن الكلمات

القاسية غالباً ما تقود إلى الخصام، الذي ينتهي بموت عدد لايحصى من الناس.

وغالباً ما قال يتوجب على الناس أن يلبسوا أنفسهم ويسلحوها بطريقة لاتجعل الرجال الناضجين في السن يقولون أبداً بأنهم أنفقوا كثيراً جداً على ملابسهم، أو أن يقول الشباب بأنهم قتروا وأنفقوا قليلاً، وقد رددت هذا الكلام على مسامع ملكنا الحالي عندما كان يتحدث عن الملابس المطرزة بإحكام التي عم استخدامها هذه الأيام، ولقد أخبرته أننا خلال كامل رحلتنا فيها وراء البحر، لم أر قط مثل هذه الملابس المطرزة، لاعلى الملك ولا على سواه، وأخبرني أن لديه عدة أثواب من هذا النوع، وقد طرزت عليها رنوكه، وأنهم قد كلفوه ثمانمائة«ليرة باريسية»، وأخبرته كان أجدى بالنسبة له لو أنه أنفق أمواله بشكل أفضل في أن أعطاهم للرب، وجعل ثيابه تصنع من«الساتان» الصرف، وعليها شعاره كما كان أبوه يفعل.

وبعث الملك لويس خلفي في إحدى المرات وقال:«لديك عقل نبيه وذكي مما يجعلني لا أجرؤ على الحديث معك عن أشياء تتعلق بالرب، لذلك استدعيت هذين الراهبين إلى هنا، لأنني أريد أن أسألك سؤال»، ثم قال:«أخبرني أيها النائب ما هي فكرتك عن الرب»؟ فأجبته :«إنه ياصاحب الجلالة شيء ممتاز جداً، وما من شيء يمكن أن يكون أفضل منه»،فقال :«بالفعل لقد أعطيتني جواباً جيداً جداً، لأن هذا التعريف نفسه قد جاء تماماً في هذا الكتاب الذي هو بيدي».

ثم استطرد يقول:« إنني أسألك الآن أيهما تفضل: أن تكون مصاباً بالجذام، أو أن تقترف إثماً عظيماً»؟، وأجبته، أنا الذي لم أكذب عليه قط:«إنني بالحري أفضل أن أقترف ثلاثين ذنباً عظيماً على أن أصبح مجذوماً»، وفي اليوم التالي، عندما لم يعد الراهبان لديه، استدعاني إليه، وجعلني أجلس عند قدميه وقال لي :«لماذا قلت لي ذلك البارحة»؟

فأخبرته أنني مازلت أقول ذلك، فقال: لقد تكلمت من دون تفكير، ومثل إنسان أحمق، وعليك أن تعلم أنه لايوجد جذام أقذر من أن تكون مذنباً ذنباً عظيماً، لأن الروح في ذلك الوضع مثل الشيطان، لذلك ليس هناك من جذام يمكن أن يكون شراً مثل ذلك، يضاف إلى هذا، أن الانسان عندما يموت يبرأ جسده من الجذام، لكنه إذا مات بعد اقترافه لذنب عظيم، إنه لايمكن أن يكون متأكداً طوال حياته بأنه قد كفّر عن ذنبه بما فيه الكفاية حتى يغفر الرب له، وبالمحصلة، لابد أن يكون خائفاً جداً خشية أن يلازمه جذام الذنب، طيلة بقاء الرب في الفردوس»، ثم أضاف«لذلك إنني أتوسل إليك بقدر ما أملك من إخلاص، ومن أجل محبة الرب، ومحبتي، أن تعوّد قلبك على أن تفضل أي شر يمكن أن يحدث للجسد، سواء أكان ذلك جذام أو أي مرض آخر، وعلى أن تدع أي إثم أخلاقي يستولي على روحك».

وسألني الملك لويس في مرة أخرى عما إذا كنت قد غسلت قدمي أي فقير في يوم الخميس المقدس، فأجبته بدهشة:«ماهذه الفكرة المرعبة، ياصاحب الجلالة، إنني لن أغسل قدمي واحد من هؤلاء الأدنياء»، فقال:«حقاً، هذا خطأ عظيم أن تقوله، لأنه يتوجب عليك عدم ازدراء أن تفعل ما فعله ربنا نفسه، وضربه مثلاً لنا، لذلك إنني أتوسل إليك، من أجل محبة الرب أولاً، ثم من أجل محبتي، أن تعود نفسك على غسل قدمي الفقير».

وأحب الملك الطيب كثيراً جميع أصناف الناس الذين آمنوا بالرب وأحبوه، حتى أنه عين جايل لي برن Gilles le Brun ، الذي لم يكن من أهل مملكته كافلاً أعلى لمملكة فرنسا، لأنه احتل مكانة سامية وسمعة عالية لإيمانه بالرب، ولتكريسه نفسه لخدمته، ومن جانبي إنني أعتقد أنه يستحق تماماً تلك السمعة، ووجهت الدعوة إلى شخص آخر هو الأخ روبرت دي سوربون، الذي كان مشهوراً لسمعته الطيبة

ولثقافته، وذلك من أجل تناول الطعام على المائدة الملكية.

وحدث في أحد الأيام أن كان كاهناً جيداً جالساً إلى جنبي أثناء تناول الغداء، وكنا نتحدث لبعضنا بعضاً بشكل هادىء، فانتقدنا الملك وقال:«ارفعا صوتيكما، أو أن صحبكما سيظنون أنكما تتناولوهم بالسوء، وإذا كنتما تتحدثان على المائدة بأشياء تمنحنا السرور، فقولا ذلك بصوت مرتفع، أو إلزما الصمت».

وعندما كان الملك يشعر بالانشراح والسرور، كان يطلق عليّ الأسئلة، من ذلك على سبيل المثال:«أيها النائب هل يمكنك أن تعطيني الأسباب لماذا رجل علماني عاقل ومستقيم أفضل من راهب»؟، وهنا كانت تبدأ المناقشة بيني شخصياً وبين الأخ روبرت،وعندما كنا نتجادل لوقت طويل، كان الملك ينطق بالحكم، حيث كان يقول:«الأخ روبرت، أتمنى لو أنني أعرف أنني رجل عاقل ومستقيم، وتأمل أنني كذلك بالفعل، وبإمكانك أن تأخذ جميع البقية، لأن الحكمة والجودة سمعتان ساميتان جداً، حتى أن التلفظ باسمهما يترك طعماً طيباً في الفم».

هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان دائماً يقول: إنه عمل شرير أن تأخذ أملاك الآخرين، ثم يتابع القول:«وأن ترد، هو أمر صعب لأن تفعله، لابل حتى أن تتلفظ بالكلمة نفسها سوف تتحشرج في البلعوم،لأن فيها«ر» الرد، والراء هذه مثل عملية الجرف للشيطان، الذي يود أن يجذب إلى نفسه كل من يودون«ردّ» ما أخذوه من الآخرين، زيادة على هذا يفعل الشيطان هذا ببراعة كبيرة، لأنه يعمل اعتماداً على مغتصبين كبار، وعلى لصوص عظام، حتى أنهم يتظاهرون بإعطاء الرب ما ينبغي رده إلى الآخرين».

وأعطاني الملك في إحدى المناسبات رسالة لآخذها إلى الملك ثيبوت، نبّه فيها صهره، لأن يأخذ حذره، خشية أن يضع ثقلاً على روحه بانفاقه

مبلغــاً كبيراً من المال على البيت الذي كــان يبنيـه«لـلآباء المبشرين» في بروفانس، وقـال الملك:«يتعامل، الرجال العقـلاء مع ممتلكاتهم، مثل ما يتـوجب على منفــذي الوصيـة أن يفعلوا، وأول شيء يفعلـه المنفـذ هو سـداد جميع الديون المتـوجبة على المتوفى، ورد جميع الممتلكات العـائـدة للآخـرين، ووقتهـا يصبح حــراً في التصرف بما بقي لديه مـن مـال في مقاصد الإحسان».

وحدث أن كان الملك القديس في أحد أيام العنصرة في كوربيل Cor-beil ، حيث كـان جميع الفـرســان قـد تجمعـوا، ونزل بعـد الغـداء إلى الساحة تحت البيعة، وكان واقفاً عند المدخل يتحدث مع كونت بريتاني، والد الكونت الحالي — حفظه الرب — عندمـا جـاء الأخ روبرت دي سوربون، ليبحث عني، وأمسك بطرف عباءتي وقادني نحو الملك، ولهذا قلت للأخ روبرت :«مـاذا تريـد يا سيـدي الطيب مني»؟ فـردّ:«أود أن أسألك فيما إذا كـان الملـك جـالسـاً في هذ السـاحـة، فـأنت قـد ذهبت وجلست على مقعـــده في مكان أعلى منه، ولذلـك ينبغي أن تلام كثيراً لفعلك ذلك» ؟، وأخبرته فعـلاً إنني أستحق ذلك، ثم قال:«من المؤكـد أنك تستحق اللوم، لأنـك ترتدي من الثيــاب مـا هو أثمن من ثيــاب الملك، ذلك أنك ترتدي عباءة من الفراء الجيد، ذات غطاء أخضر ممتاز، وهو لايرتدي مثل هذه الأشياء»، وأجبته:«الأخ روبرت، إذا سمحت لي بالكـلام، إنني لم أفعـل شيئاً يستحق اللـوم في ارتدائـي لملابس خضراء وفــراء، لأنني ورثت الحق بمثل هذا النـوع من اللبــاس عن أبي وعن أمي، لكن من جهــة أخـرى، أنت جــدير أكثـر بالملامــة، لأنه مع أن والديك كانا من العـامة، لقد تخليـت عن نمطيهما من الثياب، وترتدي الآن ثيــاباً من الصــوف أفضل مما يرتـديه الملك نفســه»، ثم أمسكت بالطـرف الأدنى مـن المعطف الخارجي الـذي كــان يـرتديـه، وبطرف معطف الملك، وقلت للأخ روبرت:«إنظر، إذا كنت أنا لا أقـول الحق»،

ووقتها بدأ الملك ينحاز إلى جانب الأخ روبرت، وقال كل ما أمكنه قوله للدفاع عنه وبعد وقت قصير، استدعى الملك ابنه الأمير فيليب — والد ملكنا الحالي — والملك ثيبوت، ثم إنه جلس عند مدخل محرابه، واعتمد على الأرض بيديه، وقال للشابين:«اجلسا هنا، بملاصقتي تماماً، حتى لايمكن سماع ما يدور بيننا»، لكنهما احتجا قائلين:«لكن يا مولانا يجب ألا نتجرأ على الجلوس ملاصقين لك»، ثم قال الملك لي:«أيها النائب اجلس هنا»، وقد أطعته وجلست ملاصقاً له حتى أن ثيابي لامست ثيابه، ثم جعل الإثنين الآخرين يجلسان بعدي، وقال لهما:«لقد تصرفتما بشكل عظيم الخطأ، فأنتما ولداي، ومع ذلك لم تبادرا إلى تنفيذ ما أمرتكما به لحظة إخباركما بذلك، أرجوكما ألا يصدر عنكما مثل هذا ثانية»، وأكدا له أن ذلك لن يكون.

ثم قال الملك لي بأنه دعانا لنكون معاً ليعترف بأنه دافع خطأ عن الأخ روبرت ضدي، وقال:« لقد رأيته قد غلب على أمره، وأنه كان في أمس الحاجة إلى مساعدتي، وعلى كل حال ينبغي ألا تعطيا أهمية كبيرة لأي شيء ربما قلته في الدفاع عنه، ومثلما قال النائب محقاً، عليكما أن تلبسا بشكل جيد، وبشكل يتوافق مع أوضاعكما، وبذلك سوف تحبكما زوجتيكما أكثر، ولسوف يحترمكما رجالكما أعظم، لأنه مثلما قال فيلسوف عاقل : ينبغي أن تكون ملابسنا من نوع ودرجة إذا ما رآها المجربون العقلاء لن يقولوا أنفقناكثيراً عليها، وإذا ما رآها الشباب لن يقولوا أنفقنا قليلاً عليها» .

ولسوف أحدثكم هنا عن واحد من الدروس علمني إيّاه الملك أثناء رحلتنا عائدين من بلاد ما وراء البحر، فقد حدث أن جنحت سفينتنا على الصخور خارج جزيرة قبرص وذلك بوساطة ريح تعرف باسم«الجريان Garbino »التي لم تكن واحدة من الرياح الأربع، ولدى تلقي السفينة للصدمة أصيب البحارة بالهلع، فمزقوا ثيابهم،

ونتفوا لحاهم، ووثب الملك من فراشه عاري القدمين — لأن الوقت كان ليلاً — ولم يكن يرتدي شيئاً سوى مئزره، ومضى نحو تمثال ربنا على المذبح، وتمدد على الأرض ماداً ذراعيه ليكون على شكل صليب أمامه، وفعل ذلك فعل إنسان لم يكن يتوقع شيئاً سوى الموت.

ودعاني الملك في اليوم التالي لهذه الحادثة المنذرة، وانفرد بي، وتحدث إليّ وحدي، وقال لي:«لقد أرانا الرب أيها النائب لمحة خاطفة من عظيم قدرته، لأن واحدة من هذه الرياح الصغيرة، التي هي صغيرة بالفعل إلى درجة أنها بالنادر استحقت اسماً، كادت أن تغرق ملك فرنسا،وأولاده، وزوجته، ورجاله، ولقد قال القديس أنسلم Anselm بأن مثل هذه الأشياء تأتي بمثابة إنذار من ربنا، وكأن الرب قصد أن يقول لنا: انظروا كم كان من السهل علي إنزال الموت بكم لو أن ذلك كان ما أردته، وقال القديس : أيها المولى الرب لماذا أرعبتنا هكذا؟ لأنك عندما فعلت ذلك، لم يكن ما فعلته لمنفعتك، كما أنه لم يكن لصالحك، لأنك لو قضيت علينا جميعاً بالخسران، لما كان من هو أفقر منك، ولن يكون هناك من هو أغنى منك عندما قضيت بإنقاذنا، وبناء عليه إن الإنذار الذي أرسلته إلينا لم يكن لمنفعتك، بل لمنفعتنا، إذا ما عرفنا كيف نستفيد منه».

ثم قال الملك :«ولهذا دعونا نأخذ هذا الإنذار الذي أرسله الرب إلينا، وفق مايلي: إذا كنا نشعر في قلوبنا أو في أجسادنا بأننا غير مرضيين له، سوف نتخلص من ذلك بدون تأخير، هذا من جانب، ومن جانب آخر، إذا كان بإمكاننا أن نفكر بأي شيء سوف يرضيه، دعونا ننظر في كيفية تنفيذه بسرعة كافية، وإذا ما فعلنا ذلك سوف يمنحنا ربنا المباركة في هذا العالم، ولسوف تكون نعمته أعظم في العالم الآخر، وأكبر مما نستطيع أن نفكر، لكن إذا لم نفعل كما ينبغي، فإنه سوف ينزل بنا مثلما ينزله السيد الجيد بعبده غير الوفي،لأنه إذا لم يقم هذا العبد بإصلاح

سبله، بعـدمـا تلقى الإنذار، سـوف يعـاقبـه مـولاه بالموت، أو حتى بعقوبات تحملها أصعب من ذلك» .

ثم قلت أنا جين جوانفيل:«ليكن الملك الذي يحكم الآن متنبهـاً، فقد نجا من مخاطر عظيمة بقدر ما كنا عرضة له، أو حتى أعظم، ولهذا عليه أن يبتعد عن اقتراف الخطأ، وبهذه الوسيلة لن يضربه الرب بقسوة لا في نفسه ولا في ممتلكاته» .

وفي حديث كان للملك معي، فعل هذا القديس كل ما في استطاعته ليعطيني اعتقـاداً ثابتاً في المبادىء الأساسية للمسيحيـة، حسبما أعطيت إلينا من قبل الرب، واعتاد أن يقول بأننا ينبغي أن نمتلك عقيدة راسخة في جميع أركان الإيمان، بحيث لاالخوف من الموت أو من أي أذى يمكن أن يحدث لأجسادنا يمكـن أن يجعلنا قابلين بأن نقف ضـدهم بكلمة أو بفعل، وكـان يضيف :«يبـذل العدو قصـارى جهـده وهو يعمل بذكـاء عندمـا يكون بعض الناس على حـافـة الموت فيجـرب كل مـا بإمكانه ليجعلهم يمـوتون مع بعض الشك في عقـولهم حـول بعض النقـاط في ديانتنا، وهو يقـوم بهذه الأعمال المضـادة ببراعة لإدراكـه أنه لايمكنه أن ينتزع فضيلة أي عمل جيد عمله إنسـان، وهو يعرف أنه قد خسر روح كل إنسان، إذا ما مات في ظل الإيمان الحقيقي».

وكـان الملـك يقـول :«ولهذا إن واجبنا هو أن نـدافع عن أنفسنا وأن نحميهـا ضـد المصائـد، بأن نقـول للعـدو، عندمـا يرسل إلينا مثل هذه الغـواية: ابتعـد، فإنك لن تستطيع تضليلي بإبعـادي عن إيماني الراسخ بأركان عقيدتي، حتى لو قمت بتقطيع جميع أطرافي، سأظل أعيش مؤمناً ولسوف أموت مؤمناً حقيقياً، وكل من يفعل ذلك يتغلب على الشيطان بالسلاح نفسـه تماماً، وهو السلاح الذي أخـذ به عدو الإنسانيـة لتدمير الإنسان» .

وكـــان الملك يقــول أيضاً بـأن الديانة المسيحيــة حسبما هي محددة بالعقيدة هي شيء ينبغي أن نؤمن به إيماناً مطلقـاً حتى لو قام إيماننا فيها على هرطقـة، وحول هذه النقطة سألني: مـا هو اسم أبيك، فأخبرته بأن اسمـه كـان سمعـان، فما كـان منه إلاّ أن سألني كيف عـرفت ذلك، ورددت عليه بأنني متأكد من ذلك، وأؤمن بذلك بدون شك، لأن أمي أخبرتني به وأكدته لي، وعندها قال:«ينبغي أن يكون لديك إيماناً راسخاً بجميع مبـادىء إيماننا اعتماداً على شهادة الـرسل، وفقاً لما سمعتـه يغنى يوم الأحد في العقيدة» .

وأعـاد الملك في إحـدى المناسبـات على مسـامعي، مـا أخبره به وليم أسقف باريس حول أحد اللاهوتيين البـارزين الذي جاء لرؤيته، وقال هذا الرجل للأسقف بأنه يود أن يتحدث معه، فقال له الأسقف:«تكلم بحرية وكما تريد يا سيد»، وعندما — على كل حال — حاول اللاهوتي أن يتحدث إليـه انفجر باكياً، ولهذا قال الأسقف له:«قل مـا تريد قوله ياسيد، ولا تخف، مـا من أحد مهما كان مذنبـاً إلا ويشمله عفو الرب»، فقال اللاهوتي:«في الحقيقة يا سيـدي لايمكنني التحكم بدموعي، خشية أن أكـون مـرتداً، لأنني لايمكنني إرغـام قلبي على الاعتقـاد بالقـربان المقدس الموضوع على المذبح، وذلك وفق الطريقة التي تقول بها الكنيسة المقدسة، ومع هذا إنني أعرف تماماً بأن هذا إغواء من العدو».

فقال الأسقف:«أرجوك أخبرني يا سيـد، هل تشعر بأي سرور عندما يعـرضك العـــدو إلى هذا الإغــواء»؟ فقــال الـلاهوتي:«على العكس ياسيـــدي، فهــذا يضـــايقني أكثـــر من أي شيء ممكن»، فقـــال له الأسقف:«والآن سوف أسألك فيما إذا كنت تتقبل أي ذهب أو فضة إذا ما عرضنا عليك بشرط أن تسمح لفمك بالتفوه بأي قذف ضد القربان المقدس فوق المذبح، أو ضد أي قداس من قداسات الكنيسة المقدسة»؟ فقـال الرجل الآخر:«يا سيـدي يمكن أن أؤكد لكم أن مـا من شيء في

الدنيا يمكن أن يغـريني بفعل ذلك، وإنني بالحري أوثر أن يبتر واحـد من أطرافي عن جسدي على أن أوافق على مثل هذا الشيء» .

فقـال الأسقف:«سوف أقـوم الآن بمقاربة الموضـوع مقاربة مختلفـة، فأنت تعرف أن ملك فرنسا في حـالة حرب مع إنكلترا، وتعلم أيضاً أن أقرب قلعة من خط الحدود بين المملكتين هي قلعة روشيل Rochelle في بواتو، وهكذا سـوف أسألك سؤالاً: افترض بأن الملك قـد أقـامك شحنة لقلعـة روشيل، وأقامني مسؤولاً عن قلعة مـونتلهيري -Montl heri ، التي هي في قلب فرنسا، حيث تعيش البلاد بسلام، فلمن تعتقد أن الملك سوف يشعـر بالدين العظيم عند انتهاء الحرب: لك أنت الذي حميت لي روشيـل بدون خســائـــر، أو لي أنا الذي بقيـت بأمـــان في مـونتلهيري»؟ فصرخ اللاهوتي قائـلاً:«لماذا، باسم الربِ يا سيـدي، إلي، فأنا توليت حماية روشيل، ولم أخسرها لصالح الأعداء» .

فقـال الأسقف:« يـا سيـد إن قلبي مثل قلعـة مـونتلهيري، لأنني لم أتعرض لا للإغواء ولا للشك فيما يتعلق بالقـربان المقدس فوق المذبح، ولهذا السبب سأخبرك فيما إذا كـان الرب مـديناً لي بأية نعمـة لأن إيماني مصون وليس فيه شك، إنه مدين لك بأربعـة أضعاف أكثر مما هو مدين لي، فأنت الذي حفظك قلبـك من الهزيمـة عندمـا تعـرض للمشـاكل، ولديك — زيادة على هذا — نوايا طيبة نحوه، وأنه لا المنافع الدنيوية، ولا الخوف من أذى يمكن أن يلحق بجسدك، يمكن أن يغريك بالتخلي عنه، ولذلك أقول لك: كن مطمئنـاً، لأن وضعك يرضي الرب أكثر من وضعي»، وعندمـا سمع اللاهوتي هذا، ركع أمام الأسقف، وهو يشعـر بالسلام في نفسه، وبالرضا التام.

وأخبرني الملك مـرة كيف ذهـب عـدة رجـال من الألبجيسيين إلى كونت دي مـونتفورت، الذي كـان وقتذاك يتولى حماية بـلادهم لصالح الملك، وسألوه أن يأتي ليرى جسد ربنا الذي تحول إلى لحم ودم في أيدي

الكاهن، فأجابهم الكونت قائلاً:«اذهبوا وانظروا إليه لأنفسكم، أنتم الذين لاتؤمنون به، أما بالنسبة لي فأنا مؤمن به بثبات، تماشياً مع تعاليم الكنيسة المقدسة حول القربان المقدس للمذبح»، وأضاف:«وهل تعرفون ما الذي سأكسبه في هذه الحياة الفانية، لتمسكي بالاعتقاد بما علمته الكنيسة المقدسة لنا؟ سوف أنال تاجاً في الجنة، وسيكون تاجاً أفضل من تاج الملائكة، لأنهم يرون الرب وجهاً لوجه، ونتيجة لذلك لايمكنهم إلاّ أن يؤمنوا».

وحدثني الملك لويس أيضاً عن اجتماع عظيم لرجال الدين ويهود، وأن ذلك كان في دير كلوني، وكان هناك فارس فقير، كان راعي الدير يعطف عليه ويعطيه أحياناً خبزاً في سبيل محبة الرب، وسأل هذا الفارس راعي الدير عما إذا كان بإمكانه أن يتحدث أولاً، وقد استجيب لطلبه، لكن بعد شيء من التلكؤ، وهكذا انتصب واقفاً، واستند على عكازه، وطلب أن يمثل أمامه أهم حاخام وأكثرهم علماً بين اليهود، وجاء اليهودي على الفور، فسأله الفارس سؤالاً قائلاً:«هل يمكن أن تخبرني يا سيد فيما إذا كنت تعتقد بأن العذراء مريم، التي حملت بربنا في جسدها، ووضعته على ذراعيها، كانت عذراء وقت ولادته، وأنها بالحقيقة أم الرب» ؟

وأجابه اليهودي بأنه لايؤمن بأي شيء من هذه الأشياء، وبناء عليه أخبر الفارس اليهودي بأنه تصرف تصرفاً أحمقاً، حين لم يؤمن بالعذراء ولم يحبها، ومع ذلك دخل إلى ذلك الدير، الذي هو بيتها، ثم صرخ الفارس قائلاً:«بحق السماء سأجعلك تدفع من أجل ذلك»، ثم رفع عكازه وضرب اليهودي ضربة، وقعت قرب أذنه، جعلته يقع لما فيه، ثم هرب جميع اليهود، وحملوا حاخامهم الجريح معهم، وبذلك انتهى المؤتمر.

وتوجه راعي الدير إلى الفارس، وأخبره بأنه اقترف حماقة كبيرة، فرد

الفـارس بأن راعي الدير مجرم، لا بـل أكثـر حماقـة، في دعـوته لمثل هذا المؤتمر وحشـده له، لأنه كـان هنـاك عـدداً كبيراً من المسيحيين، كـانوا سينصرفون قبل انتهاء المناقشـة، وسيحملون معهم لدى ذهابهم شكوكاً حـول ديانتهم، مـن خـلال عـدم فهمهـم الكامل لليهـود، ثم قـال الملك:«ولهذا أخبرك، أنه لايتوجب على أحد المغامرة بالنقاش مع هؤلاء القـوم، ما لم يكن لاهوتيـاً خبيراً، أمـا الرجل العلماني، فإن عليه عندمـا يسمع بتـوجيـه الإهانـة للديانة المسيحيـة، ألا يحاول الدفـاع عن عقائدها،إلاّ بسيفه، ويتوجب عليه أن يطعن به المجدف في جوفه، ويظل يدفع به إلى أقصى ما يمكن له أن يدخل» .

الفصل الثاني

خادم شعبه

أعدّ الملك لـويس نهاره لأن يتملك في وسط انشغاله بشـؤون مملكته وقتاً ليستمع إلى ساعـات الغناء بوساطة جوقـة كاملة، وإلى قداس Re-quiemبدون موسيقى، بالإضافة إلى ذلـك إذا كان الوقت موائماً، كان يستمع إلى قـداس منخفض لليـوم، أو قـداس مـرتفـع في يوم جميع القديسين.

وكان يرتاح في كل يوم بعد الغداء في فراشه، وبعدما يكون قد نام ثم صحاكـان يقوم مع واحد من شماسته بقداس للموت في غـرفته بشكل خـاص، وكان يحضر في آخـر النهـار صلاة العشـاء، ثم آخـر الصلوات وتمامها في الليل.

وجاء إليه مرة راهب فـرنسيسكاني، لرؤيته في قلعة هيري Hyeres، حيث كنا قد نزلنا لدى عودتنا إلى فرنسـا، وقد قال في قداسه المخصص للتوجيهات للملك بأنه قـرأ في التوراة وفي الكتب الأخرى التي تحدثت عن الحكام غير المسيحيين، فلم يجد في التـاريخ الخاص بشعوب الكفـار أو شعوب المسيحيين أية مملكة فقدت حاكمهـا أو غيرته، إلا عندما كان يتم تجاهل العدل، وقال:«ولهذا على الملك العائد الآن إلى فرنسا أن يتنبه جيداً أنه يمارس العدل تمامـاً وبشكل كامل بين شعبه، وبذلك يسمح له ربنا بأن يحكم مملكتـه بسـلام حتى نهايـة أيامـه» ولقـد أخبرت بأن هذا الرجل الصالح، الـذي علم ملكنا هذا الدرس الوعظي يرقد مـدفوناً في مرسيليا، حيث صنع ربنا من أجله، وما يزال يصنع كثيراً من المعجزات الكبيرة، وهو لم يوافق على البقاء مع الملـك لمدة تزيد على يوم واحد، مع أن جـلالته ضغط عليـه بقوة حتى يبقى، وعلى كل حـال، لم ينس الملك

مطلقاً موعظة الراهب الجيد، وحكم مملكته بشكل جيد، وبإخلاص وفقاً لشريعة الرب.

وكانت خطة المملكة المتبعة بالنسبة لمعالجة مسائل كل يوم، أنه كان يبعث خلف جين دي نيسل **Nesles** الذي كان الكونت الجيد لسواسون، ويبعث خلف بقيتنا، حالما نكون قد سمعنا القداس، ويخبرنا بالذهاب والإصغاء للتوسلات عند باب المدينة، الذي يدعى الآن باسم باب الالتماسات .

وبعدما يكون الملك قد عاد من الكنيسة، كان يرسل خلفنا، ويجلس عند طرف فراشه، ويجعلنا جميعاً نجلس من حوله، ويسألنا عما إذا كانت هناك قضايا لا يمكن فصلها من دون تدخله الشخصي، وبعدما كنا نخبره بالقضايا، كان يبعث خلف ذوي الشأن بالقضايا ويسألهم:«لماذا لم تقبلوا ما عرضه أصحابنا»؟ وكانوا يجيبونه:«لأن الذي عرضوه علينا قليلاً جداً»، وبعدها كان يقول:«إنكم ستحسنون صنعاً إذا ما قبلتم بكل ما هم على استعداد لإعطائكم إيّاه»، وهكذا كان ملكنا القديس يبذل قصارى جهده في إقناعهم بتبني تفكير منطقي.

وغالباً ما كان الملك يذهب في الصيف، بعد سماع القداس إلى غابة فنسن **Vincennes**، حيث كان يجلس ويسند ظهره إلى شجرة بلوط، ويجعلنا نجلس من حوله، وكان بإمكان كل من لديه قضية يريد تقديمها أن يأتي ويتكلم إليه بدون عوائق من حاجب أو أي شخص آخر، وكان الملك يخاطبهم مباشرة، ويسأل:«هل هناك من أحد لديه قضية تحتاج إلى حل»؟ وكل من لديه قضية كان يقف، ووقتها كان يقول:«الزموا الصمت أنتم جميعاً، ولسوف يستمع إليكم بالدور، واحداً تلو الآخر»، ثم كان يستدعي بيير دي فونتين **Fontaines** وغيوفري دي فيليت **Villette**، و يقول لواحد أو لآخر منهما:«فض هذه القضية لي»، وإذا ما رأى أي شيء يحتاج إلى التصحيح فيما قيل من

قبل الذين تحدثوا باسمه أو باسم أي شخص آخر، كان يتدخل ليقوم بالتقويم الضروري.

ورأيته في بعض الأحيان يذهب في الصيف ليتولى معالجة العدالة لشعبه في حديقة باريس العامة، مرتدياً مئزراً من الصوف الخالص، ومعطفاً خارجياً بلا أكمام، مبطن بالصوف، ورداء من قماش أسود حول كتفيه، وشعره ممشط بشكل دقيق، لكن من دون غطاء لتغطيته، وقبعة من ريش الطاووس الأبيض فوق رأسه، وكان يأمر بمدّ زربية حتى يمكننا الجلوس من حوله، ويقف كل من لديه قضية لعرضها أمامه، على مقربة، ثم كان يصدر حكمه على كل قضية، وكما أخبرتكم كان بالغالب يفعل هذا في غابة فنسن.

ورأيت الملك في مناسبة أخرى، في وقت قال فيه جميع أساقفة فرنسا بأنهم يرغبون بالحديث معه، وقد ذهب إلى قصره ليستمع إلى ما كانوا يودون قوله، وكان الأسقف غي أوف أوكسير Auxerre ابن وليم دي ميلو Melloبين الحضور، وقد خاطب الملك باسم جميع الأساقفة قائلاً:«يا صاحب الجلالة، وجهني السادة الروحيون لهذه المملكة الموجودين هنا لأخبرنكم بأن قضية المسيحية، التي من واجبكم حراستها والدفاع عنها،تلقى الدمار على أيديكم» ولدى سماعه هذه الكلمات، رسم الملك علامة الصليب وقال:«أرجوك أخبرني كيف يمكن أن يكون ذلك »؟

فقال الأسقف:«ياصاحب الجلالة، هذا بسبب أنه في هذه الأيام، ينظر إلى الحرمان الكنسي باستخفاف، حتى أن الناس لايهتمون فيما إذا ماتوا دون أن يطلبوا التحليل، ويرفضون إقامة مصالحة مع الكنيسة، ولهذا يطلب السادة الروحانيون، من أجل حبّ الرب، ولأن ذلك هو واجبكم، أن تأمروا عمالكم ونوابكم، أن يبحثوا عن الذين سمحوا لأنفسهم بالبقاء تحت الحرمان الكنسي لمدة سنة ويوم واحد، ومن ثم

إرغامهم على طلب التحليل، بوساطة الاستيلاء على ممتلكاتهم» .

وأجـابهم الملك أنـه على استعـداد بكل رضـا لإعطائهـم مثل هذه الأوامر، شريطة أن يتمكن هو شخصياً من أن يرى بدون أي شك، بأن الأشخاص ذوي العلاقة مذنبين، وأخبره الأسقف بأن الأساقفة، في ظل أي ظروف لن يوافقوا على قبول هذا الشرط، لأنه يشكك بحقوقهم في إدارة أمورهم، وأجابهم الملك بأنـه لن يفعل أي شيء غير الذي قـاله، لأنه سيكون إجراءاً ضد الرب، ومضـاداً للحق وللعدل إذا ما أرغم أي إنسان على طلب التحليل، إذا كان رجال الدين مذنبين بحقه.

وتابع الملك يقـول:«سأضرب لكم مثـلاً أنقله من قضيـة كـونت بريتـاني، الذي أمضى سبع سنوات تحت الحرمـان، وقـد تظلم وعـرض قضيته ضد أساقفة مقاطعته، ثم استمر في عرض قضيتـه حتى قام البابا بإدانة جميع خصومه، والآن لو أنني أرغمت في نهاية السنة الكونت على طلب التحليل، لكنت أذنبت ضـد الرب، وضد الرجل نفسـه»، وهكذا هيأوا أنفسهم لقبول الأمور كما كانت، ولم أسمع قط من تحدث عن أي مطلب جديد فيما يتعلق بهذه القضية.

وفي مسألة إقامة صلح مـع إنكلترا، تصرف الملك لويس ضد نصيحة مستشـاريـه، الذين قـالوا له:«يبـدو لنا يا صـاحـب الجلالة أنك لست بحـاجـة للتخلي عن الأرض التي أعطيتهـا إلى ملك إنكلترا، ذلك أنه لايمتلك الحق بها، لأنها أخـذت بطـريقـة عـادلة مـن أبيـه»، وعلى هذا أجـابهم الملك، بأنه مـدرك تمامـاً بأن ملك إنكلترا ليـس له حق بتلك البلاد، لكن هناك سبب شعر بأنه ملـزم له بإعطائها له، وقال:«ألا ترون زوجتينا أختين، وأنه نتيجة لذلك أولادنـا أولاد خالة، وهذا هو السبب الذي يجعل من الهام جـداً بالنسبـة لنا أن نكون بسلام فيما بيننا، يضـاف إلى هذا أنني مجدداً زدت من تشريف نفسي وتمجيـدها من خـلال السلم الذي صنعتـه مع ملك إنكلترا، لأنه هـو الآن تابع لي، مع أنـه لم يكن

كذلك من قبل».

ومن الممكن التعـرف إلى حب الملك للاستقـامـة وللتعـامل الحر، واستنتاج ذلك من تصرفـه في قضية واحـد اسمه رينو دي تريت Trit ، فقـد أحضر هذا الرجل إلى الملك وثيقـة تـذكـر بأنه، أي الملك قـد منح منطقة دامارتين Dammartin في غولي Gouelle إلى ورثة كونتسة بولوني المتـوفـاة، لكن ختم الوثيقة قـد انكسر، ولم يبق منه سـوى رجل الصـورة الممثلة للملك، والمسند الذي أراح عليـه قدميـه، وأطلع الملك على الختم جميعنا نحن الـذين كنا أعضـاء في مجلس مستشـاريه، وسألنا تقديم المسـاعدة له للوصـول إلى قرار، وعبّرنا نحن جميعـاً عن رأينا بأن الملك ليس ملزماً بقبول الوثيقـة، ثم طِلب من كاتم سره جين ساراسين Sarrasin ، أن يناوله وثيقة كان قد طلبهـا منه، وما أن صارت الوثيقة في يده حتى قـال لنا:«سـادتي يوجـد هنا الختم الذي استعملتـه قبل الذهاب إلى بلاد ماوراء البحر، ويمكنكم أن تـذكروا بوضوح من النظر إليـه أن الطبعة الموجـودة على الختم المكسور تتشـابه تماماً مع الموجـودة هنا، ولذلك لا يمكنني بضمير صحيح الاحتفـاظ بهذه المنطقـة»، ولهذا بعث الملك خلف رينودي تريت وقال له : «إنني أعيد منطقتك إليك» .

القسم الثاني

الفصل الأول

تمرد البارونات

١٢٢٦ — ١٢٤٢

باسم الرب القدير، كنا قد دونا كتابة بعضاً من الأقوال التقوية، والتعاليم الطيبة، لملكنا القديس لويس، ليقف عليها من يستطيع قراءة هذا الكتاب، وليجد هذه الأشياء معروضة وفق ترتيب لائق، ولعله سيستخرج منهم المزيد من المنافع لو أنهم أدرجوا ودونوا بين أعماله، وهكذا نبدأ انطلاقاً من هذه النقطة، ونمضي باسم الرب وباسم الملك لويس، لنتحدث عن الأشياء التي صنعها.

ولقد سمعت الملك لويس يتحدث مراراً ويذكر أنه قد ولد في يوم عيد القديس مرقص الإنجيلي، بعد وقت قصير من عيد الفصح، وكانت قد جرت العادة أن يحمل الناس في عدد كبير من الأماكن الصلبان في مواكب، ويعرف هؤلاء في فرنسا باسم«الصلبان السوداء»، ويمكن النظر إلى هذا من بعض الجوانب بمثابة نبوءة حول الأعداد الكبيرة التي سوف تموت في الحملتين الصليبيتين، أي الصليبية ضد مصر، والصليبية التي مات فيها الملك نفسه في قرطاج(تونس)، فقد ترتب على هاتين الحملتين حزن عظيم في هذه الدنيا، وسرور عظيم في الفردوس، لأن الصليبيين الصادقين قد ماتوا في مجريات هذين الحجين.

وكان تتويج الملك لويس قد جرى في أول أحد البشارة(٢٩ — تشرين ثاني ١٢٢٦)، وكان القداس يفتتح في يوم الأحد ذلك، بكلمات:«بك أيها الرب أسمو بروحي، وبك أيها الرب أضع ثقتي»، وفي الحقيقة، وضع الملك دوماً ثقة عظيمة بالرب، وكان ذلك منذ طفولته حتى وقت وفاته، لأنه في آخر الكلمات التي تفوه بها وهو ممدد

يموت كانت الدعوة إلى الرب وإلى قديسيه، وبشكل خاص إلى القديس جيمس، وراعيتنا القديسة جنفييف.

ولقد رعاه الرب الذي وضع ثقته فيه طوال حياته منذ الطفولة حتى النهاية، وبشكل خاص في أيام شبابه الأولى، عندما كان بحاجة كبيرة إلى الوقاية، وذلك حسبما ستسمع بعد قليل، فقد حفظ الرب شبابه من الأذى من خلال التوجيهات الجيدة التي تلقاها من أمه، التي علمته كلاً من حب الرب والإيمان به، وربت ابنها ونشأته وسط جماعة من الناس ذوي العقول الدينية، ولقد جعلته يقوم بالتلاوة طوال جميع الساعات، وأن يقوم بالاصغاء إلى القداسات في أيام الأعياد العالية، وكان دوماً يتذكر كيف كانت تخبره في بعض الأحيان أنها تفضل موته على أن يقترف ذنباً عظيماً.

وكان الملك لويس بحاجة إلى عون الرب في شبابه، لأن أمه، التي جاءت من إسبانيا، لم يكن لها لا أقرباء ولاأصدقاء في جميع مملكة فرنسا، ولأن الملك كان مجرد طفل، والملكة أمه أجنبية، اتخذ البارونات من عمه كونت بولونيا Boulogne رئيساً لهم، وتصرفوا نحوه وكأنه كان مولاهم، وبعد تتويج الملك، تقدم البارونات بطلبات إلى الملكة طلبوا فيها منحهم ممتلكات كبيرة، ولأنها رفضت(متذرعة بأنه لم يعد من شأنها التنازل عن أجزاء من مملكة فرنسا ضد إرادة ابنهاالذي توج) اجتمع هؤلاء مع بقية البارونات في كتلة واحدة في كوربيل Corbeil .

وأخبرني الملك القديس مرة أنه لم يتجرأ لاهو ولا أمه على العودة إلى باريس، حيث كانا آنذاك في مونتهليري، حتى جاء أهل تلك المدينة وهم بكامل السلاح لجلبهما، وقال أيضاً بأن الطريق كله من مونتهليري إلى باريس كان مكتظاً بحشود الناس من مسلحين وغير مسلحين، يدعون إلى الرب أن يمنح ملكهم الشاب حياة طويلة وسعيدة، وقد تولوا الدفاع عنه وحراسته من أعدائه، ولقد استجاب الرب لأدعيتهم،

حسبما ستسمع فيها بعد.

ويحكى أنه في الاجتماع الذي عقده البارونات في كوربيل، قرر الذين كانوا حضوراً، أن يقوم الفارس الجيد، كونت بريتاني، بالثورة ضد الملك، وبالإضافة إلى هذا قرروا أن بقيتهم — باستثناء ليس أكثر من فارسين فقط — سوف يرافقون الكونت عندما سيلبي طائعاً دعوة الملك التي سوف ترسل إليه، ورتبوا هذا لأنهم أرادوا أن يروا فيها إذا كان الكونت سيتمكن من نيل الأفضل من تلك المرأة الغريبة، أي الملكة، وقال كثير من الناس بأن الكونت سينجح بالتغلب على الملكة، وعلى ابنها أيضاً، لولا أن الرب قد أعان الملك في ساعة عوزة، مثلما لم يخذله قط.

وتمثل العون الذي أعطاه الرب إياه، بوصول الكونت ثيبوت صاحب شامبين، الذي صار فيها بعد ملك نافار، مع جماعة مؤلفة من ثلاثمائة فارس، ليضع نفسه تحت خدمة صاحب الجلالة، وبسبب تأييد الكونت هذا للملك، أرغم كونت بريتاني على أن يضع نفسه تحت رحمة الملك، وأن يقيم سلاماً معه بتسليمه — كما قيل — كونتيتي آنجو ولي بيرش Perche .

وبما أنه هام بالنسبة لكم الحصول على فهم كامل لبعض الأشياء التي سوف أتناولها فيما بعد، أعتقد أنه مفيد هنا أن نقوم باستطراد لطيف، وبناء عليه سوف أخبركم هنا بأن كونت شامبين الجيد، المعروف باسم هنري الكريم، كان له من زوجته الكونتسة مريم — التي كانت أخت ملك فرنسا، الملك فيليب(أغسطس) وأخت رتشارد ملك إنكلترا لأمه(إليانور) — ولدين، كان اسم الأسن منهما هنري، واسم الآخر ثيبوت، وقد ذهب الابن الأسن إلى الأرض المقدسة حاجاً وصليبياً، وكان ذلك عندما حاصر الملك فيليب والملك رتشارد عكا، واستوليا عليها.

وكـان ما أن جـرى الاستيـلاء على عكا، حتى عـاد الملك فيليب إلى فـرنســا، وهو عمـل سبب له اللوم العظيم، وبقـي الملك رتشـــارد في الأرض المقـدسة، يقـوم بأفـاعيل اتسمت بالشجاعـة وجعلت المسلمين يرتعبـون منه، وبلغ الأمـر إلى بالفعل، كما هو مـدون في الكتـاب حـول الأرض المقدسـة، عندما كـان طفل مسلم يبدأ البكاء، كـانت أمه، حتى يلتزم بالهدوء تقول له:«أوقف هذا،الملك رتشـارد موجود هنا»، وعندما كانـت أياً من خيول المسلمين أو البـدو تجفل في شعراء، كـان أصحابهم يخاطبونهم بقولهم:«هل تظنون إن هذا هو الملك رتشارد»؟

ورتب هذا الملك بعـد مبـاحثـات طـويلة زواجـاً بين الكونت هنري الشاب كونت شـامبين، الذي بقي معه، وبين ملكة القدس، التي ورثت هذه المملكة مـن والدها، ورزق الكونـت هنري من هذه الملكـة بابنتين، الأسن بينهما هي التي أصبحت ملكة قبرص، في حين تزوجت الأصغر من الكونت ايرارد دي بـريين، الذي جـاء منه خط نبيل، حسبما يعـرف كل واحد في فرنسا أو شامبين، ولن أقول الآن شيئاً عن زوجة الكونت ايرارد، بل ســـوف أتحدث إليكم عن ملكة قبرص، لأن لها عـــلاقــة بالقضية التي أنا بصددها.

وعلي الآن استئناف روايتي: بعدما تمكن الملك لويس من غلبة كونت بريتـاني، صار النبـلاء الفـرنسيـون الآخرون غضـابى جـداً مع الكونت ثيبوت، حتى أنهم قـرروا الطلب من ملكة قبرص — التي، كما تعلمون كـانت الابنة الكبرى للابن الأســن لهنري الكريم — أن تقـوم بتجـريد الكونت ثيبوت، الذي كان أبوه هو الابن الأصغر للكونت هنري.

وقام — على كل حال — بعض البـارونات بخطوات للمصالحة بين الكونت بيير والكونت ثيـوت، وقـد نجحـوا في جهـودهم إلى حـد أن الكونت ثيبوت وعـد باتخاذ ابنة كونت بريتاني زوجـة له، وجرى تحديد اليـوم الذي كان سيتـزوج فيه كـونت شـامبين من المرأة الشابة، وتقـرر

حملها للاحتفال إلى واحد من أديرة الأخوان المبشرين قرب قلعة ثيري، وكانت تدعى، كما أعتقد، فال ـ سكرت Val - Secret ، وتولى البارونات الفرنسيون الذين كانوا كلهم تقريباً يمتون بالقرابة لكونت بيير، مرافقة ابنته، وبعدما وصلت إلى فال — سكرت، أرسلت رسالة إلى الكونت ثيبوت، الذي كان آنذاك في قلعة ثيري.

وفيما الكونت في طريقه إلى فال ـ سكرت من أجل الزواج، جاء غيوفري دي شابيل Chapelle إلى مقابلته حاملاً رسالة سرية من الملك، وقال له:«مولاي، لقد سمع الملك أنك عقدت اتفاقية مع كونت بريتاني للزواج من ابنته، ولهذا يحذرك أنك إذا كنت لا ترغب في فقدان كل شيء تمتلكه في مملكة فرنسا، فعليك عدم القيام بهذا العمل، لأنك تعلم بأن الكونت قد ألحق من الأذى بحق الملك أكثر من أي إنسان آخر على قيد الحياة»، وبناء عليه، قام كونت شامبين، بناء على نصيحة الذين كانوا معه، بالعودة إلى قلعة ثيري.

وعندما سمع الكونت بيير وبارونات فرنسا، الذين كانوا يتوقعون وصول كونت ثيبوت إلى فال ـ سكرت، بالذي صنعه، اشتعل غضبهم جميعاً بسبب الإهانة التي ألحقها بهم وبعثوا على الفور لإحضار ملكة قبرص(*)، وما أن وصلت حتى توافقوا على أن يقوموا بتجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال المسلحين، وأن يدخلوا إلى بري وشامبين من الجانب الفرنسي، بينما يدخل دوق دي بيرغندي، الذي كانت زوجته ابنة الكونت روبرت دي درو، إلى شامبين من بيرغندي ، وحددوا يوماً تجتمع فيه قواتهم أمام تروي Troyes ، مع نية الاستيلاء على المدينة إذا تمكنوا من ذلك.

---

* ـ كذا، وقد وقعت هذه الوقائع سنة ١٢٣٠ في حين وصلت ملكة قبرص إلى فرنسا سنة ١٢٣٣ .

ودعا دوق دي بيرغندي جميع الرجال الذين كانوا تحت تصرفه، وحشد البارونات رجالهم، وزحف البارونات نحو الأمام يحرقون كل شيء ويدمرونه على جانبهم، وعمل البيرغنديون دماراً مماثلاً على جانبهم الآخر، وزحف في الوقت نفسه ملك فرنسا من الجانب الآخر لقتالهم، واتخذ كونت شامبين الاحترازات الوقائية، فأحرق جميع بلداته قبل أن يتمكن البارونات من الوصول إليها، وذلك بهدف ألا يجدهم الأعداء مشحونين بالمؤن، وكان من بين المدن التي أحرقها الكونت ثيبوت ودمرها ابرني Epernay ، وفيرتوس Vertus ، وسيزان Se-zanne .

وعندما أدرك سكان تروي أنه ليس بإمكانهم التعويل على مساندة مولاهم، بعثوا يطلبون من سمعان صاحب جوانفيل، والد صاحبها الحالي، القدوم لمساعدتهم، وما أن وصلته هذه الرسالة حتى حشد مقاتليه، وغادر جوانفيل في الليلة نفسها، ووصل إلى تروي في الصباح التالي، ولهذا مروا من أمام تروي دون أن يحاولوا القيام بأي شيء، ومضوا لنصب خيمهم في سهل يعرف باسم حقل آيل Isle ، حيث كان دوق بيرغندي معسكراً .

وسمع ملك فرنسا بأنهم كانوا هناك، فزحف مباشرة نحو ذلك المكان لمحاربتهم، وبناء عليه بعث البارونات إليه ورجوه بأن ينسحب شخصياً من القتال، وهم سوف يمضون ويواجهون كونت شامبين، ودوق اللورين، وبقية رجال الملك، مع أقل بثلاثمائة فارس مما لدى الدوق والكونت في جيشيهما، وبعث الملك إليهم رسالة جوابية قال فيها بأنه لن يدعهم يحاربون ضد رجاله ما لم يكن هو شخصياً هناك معهم، وبعث البارونات بدورهم يخبرون الملك أنهم من جانبهم على استعداد لإقناع ملكة قبرص لإقامة سلام، ورد الملك بأنه لن يوافق على أي نوع من السلام، كما أنه لن يسمح لكونت شامبين بفعل ذلك، حتى يسحب

البارونات عساكرهم من ممتلكات الكونت.

ووافق البارونات على هذا المطلب، لكن بالانسحاب من الآيل فقط وأن يذهبوا للعسكرة في بقعة تقع إلى الجنوب من جولي Jully ، ثم عسكر الملك في المكان الذي طردهم منه، وما أن سمعوا بأنه كان هناك حتى قوض هؤلاء البارونات معسكرهم وذهبوا إلى شورس Chaource ، غير أنهم لم يتجرأوا على الانتظار هناك حتى وصول الملك، بل أزالوا معسكرهم وذهبوا الى لين Laignes للعسكرة هناك، وكانت عائدة لكونت نافار، الذي كان من حزبهم، وهكذا أرغم الملك كونت شامبين وملكة قبرص على التصالح معه، وعقد الاتفاق الذي تم على أساس التفاهم بأن يعطي الكونت الملكة ممتلكات تعطيها كل سنة حوالي الألفي دينار، مع منحة قدرها أربعين ألف دينار.

ودفع الملك المبلغ الأخير هذا لصالح كونت شامبين، وبالمقابل باع الكونت الملك أربعاً من إقطاعياته هي : إقطاعية بليوس Blois ، وإقطاعية تشارترز، وإقطاعية سانسير Sancerre ، وإقطاعية شاتودون Chateaudun ، وقال بعض الناس بأن الملك استحوذ على هذه الإقطاعيات بمثابة رهن فقط، لكن ذلك لم يكن مطلقاً، ذلك أنني سألت صاحب الجلالة حول هذه القضية عندما كنا في بلاد ما وراء البحر، أما فيما يتعلق بالممتلكات التي أعطاها كونت شامبين إلى ملكة قبرص، فإن شطراً منها الآن بحوذة كونت دي بريين الحالي، وشطراً بحوذة كونت دي جواني Joigny ، لأن جدة كونت دي بريين كانت ابنة ملكة قبرص، وهي كانت قد تزوجت من الكونت غوتيير دي بريين الكبير.

ولكي تعرف كيف تملك كونت دي شامبين هذه الإقطاعيات التي باعها إلى الملك، أخبرك بأن جده الكونت ثيبوت الكبير، المدفون الآن في لاني Lagny ، كان لديه ثلاثة أولاد، الأسن بينهم كان اسمه

هنري، واسم الثاني ثيبوت، واسم الأصغر إتيين Etienne ، وكان هنري الذي صار كونت دي شامبين ودي بري يعرف بالعادة باسم هنري الكريم، وكان اسمه لائقاً به، لأنه كان كريماً في تعامله مع كل من الرب، ومع الناس، أما بالنسبة لكرمه نحو الرب، فهذا واضح من خلال كنيسة القديس إتيين في تروي والكنائس الجميلة الأخرى التي بناها في شامبين، أما فيما يتعلق بكرمه تجاه التعامل مع الشؤون البشرية، فهذا واضح في قضية أرتود أوف نوغنت Artaud of Nogent ، وفي مناسبات أخرى، بودي إخباركم بها، لولا خشيتي من إثقال كتابي.

وكان هذا الرجل أرتود من سكان نوغنت، وواحداً ممن وثق به الكونت هنري أكثر من أي رجل آخر في العالم، وقد صار ثرياً جداً، إلى حد أنه بنى قلعة نوغنت لى أرتود Artaud على حسابه، ولقد حدث أن نزل الكونت هنري على سلم بيته الكبير وهو قادم للذهاب لسماع القداس في كنيسة القديس إتيين، ووقتها جاء فارس فقير إلى أسفل الدرج وركع أمامه وقال: «أرجوك يا مولاي أن تعطيني بعضاً من مالك حتى أتمكن من تزويج ابنتي هاتين، الواقفتان هنا أمامك»، وقال أرتود الذي كان واقفاً خلف الكونت للسائل: «ليس من اللائق بالنسبة لك أيها الفارس الطيب أن تسأل مولاي اللورد المال، لأنه قد أعطى وأنفق كثيراً حتى لم يبق لديه ما يعطيه»، والتفت الكونت صاحب القلب الكبير نحو أرتود وقال له: «أيها الفلاح الجيد إنك لم تذكر الحقيقة عندما قلت بأنه لم يبق لدي شيئاً لأنفقه، في الحقيقة، أنت لدي، خذه أيها الفارس، ذلك أنني أعطيك إياه، وفضلاً عن هذا أنا سأكون ضمانة له»، ولم يتقاعس الفارس، بل أمسك برداء أرتود، وقال بأنه لن يخلي سبيله حتى يعقد معه صفقة، وقبل أن يتخلص أرتود عقد صفقة مع الفارس وأرضاه بمبلغ خمسمائة دينار.

وكان الأخ الثاني للكونت هنري هو ثيبوت كونت بليوس، أما الأخ

الثالث، أي إتيين فكان كونت دي سانسير، ونال الأخوان من الكونت هنري كل شيء ورثاه، بما في ذلك كونتياتهما مع حقوقهما غير الاستقلالية، وامتيازاتهما، واستحوذا فيها بعد على هذه الإقطاعيات من أبناء الكونت هنري الذين تملكوا بلاد شامبين، حتى جاء الوقت الذي باع فيه الكونت ثيبوت هذ الاقطاعيات إلى الملك.

ودعوني الآن أستأنف روايتي، وأخبركم كيف عقد الملك لويس بلاطاً كبيراً في سومور Saumur في أنجو، وكان ذلك بعد الحوادث التي رويتها، ولقد كنت هناك، ويمكنني أن أؤكد لكم أنه كان أفضل بلاط منظم قد شهدته قط، فقد جلس خلف منضدة عالية، بعد الملك كونت بواتييه، الذي نصبه الملك فارساً في يوم عيد القديس يوحنا، ثم تلاه كونت التخوم، وجلس بعده كونت بريتاني الطيب، وجلس خلف المنضدة المقابلة لمنضدة الملك، وفي مواجهة الملك كونت دي دورا ثم تلاه بالجلوس مولاي ملك نافار(الذي كان آنذاك كونت شامبين)، وكان يرتدي مئزراً وعباءة من الحرير، رتبت بشكل جميل بوساطة حزام جلدي، وكان يرتدي أيضاً قلادة مذهبة وقبعة من القماش المذهب، وقد جلست إلى جانبه أقطع اللحم له.

وجلس كونت دي أرتو Artois ،أخو الملك، أمام صاحب جلالته، جاهزاً ليقوم بخدمته في توزيع لحمه، وقتذاك إلى جانب الكونت جين دي سواسون الطيب، وبيده سكين التقطيع حيث كان يستخدمها، ووقف لحراسة منضدة الملك، إيمبرت دي بيجو، الذي صار فيما بعدالنائب الأعلى لفرنسا، ومعه انغوراند دي كوسي En-guerrand de coucy ، وأرشيمبود Archimbaud دي بوربون، ووقف من خلفهم حوالي الثلاثين فارساً وهم يرتدون مآزر من الحرير، وكان عليهم القيام بحراسة سادتهم، ووقف خلف هؤلاء الفرسان كوكبة من السيرجندية الذين يرتدون الثياب الفاخرة التي

طرزت عليها رنوك كونت بواتو، وكان الملك نفسه يرتدي مئزراً من الحرير الأزرق مع معطف خارجي أحمر براق، وعباءة من القماش نفسه، مبطنة بالقطيفة، ووضع على رأسه قبعة من القطن بدت غير موائمة لإنسان مازال شاباً.

وعقد الملك هذه الوليمة في قاعة سومور، التي — قيل — بأنها بنيت من قبل الملك هنري الكبير، ملك إنكلترا، وذلك من أجل إقامة ولائمه هناك، وبنيت هذه القاعة وفق نمط قاعات الديرة السسترشانية، ولاأعتقد بوجود أية قاعة تدانيها حتى في الحجم، وسوف أخبركم لماذا أعتقد هذا، لأنه كان يوجد إلى جانب جدار القاعة الديرية التي كان الملك يتناول فيها الطعام محاطاً بفرسانه وسيرجنديته الذين شغلوا مساحة كبيرة، أيضاً غرفة من أجل منضدة جلس إليها عشرون من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وبالاضافة إلى جميع هؤلاء الأساقفة، كانت هناك منضدة للملكة بلانشي الملكة الأم، وذلك على مقربة منهم، في الطرف الأقصى من القاعة الكبرى، في مواجهة المنضدة التي شغلها الملك.

وكان الذي يتولى خدمة الملكة بلانشي ورعايتها الكونت دي بولون، الذي صار فيما بعد ملكاً على البرتغال، وكذلك الكونت الطيب هوغو Hugues دي سينت بول، وفتى ألمانياً كان في الثامنة عشرة من عمره، يحكى بأنه كان ابن القديسة إليزابث أوف تورنجيا، وبناء على هذا — كما قيل — قبلت الملكة بلانشي الفتى على جبينه، وذلك كعمل تقوي خالص، لأنها اعتقدت أ ن أمه، لا بد قد قبلته مراراً هناك.

ووجدت المطابخ عند نهاية القاعة الكبرى، وذلك في الجانب الآخر، وكذلك مخازن النبيذ، والقوارير والزبدة، ومنها كان الملك والملكة الأم يخدمان باللحوم. والخمرة، والخبز، وعلى يمين وعلى يسار القاعة الرئيسة، وفي وسط البلاط، كان هناك عدداً كبيراً من الفرسان يتناولون

الطعام، وكانوا من الكثرة بمكان أنني لم أستطع تعدادهم، ولقد أعلن كثير من الناس، أنهم لم يروا قط في أية مناسبة احتفالية أخرى مثل هذا العدد من الأردية والملابس الأخرى المصنعة من الحرير والذهب، ولقد قيل كان هناك في هذه المناسبة ما لايقل عن ثلاثة آلاف فارس.

وبعدما انتهى المحتفلون ذهب الملك إلى بواتييه، وقد اصطحب كونت بواتييه معه، حتى يقدم أتباع الكونت إليه الولاء من أجل إقطاعاتهم، ولكن ما أن وصل جلالته إلى بواتييه حتى رغب من قرارة نفسه بالعودة إلى باريس،لأنه وجد كونت التخوم الذي تناول الطعام على مائدته في يوم عيد القديس يوحنا، قد حشد من الرجال المسلحين بقدر ما استطاع وتمركز قرب بلدة لوزغنان، وبقي الملك في بواتييه لمدة أربعة عشر يوماً، ذلك أنه لم يتجرأعلى مغادرة المدينة حتى توصل إلى مصالحة مع كونت التخوم، لكن أنا لا أستطيع أن أقول كيف.

ولاحظت في أثناء ذلك الوقت أن الكونت جاء عدة مرات من لوزغنان ليتحادث مع الملك في بواتييه، وقد جلب في كل مرة زوجته معه، التي كانت من قبل ملكة إنكلترا(*)، وأم ملكها الحالي، وهناك عدد كبير من الناس قد أكدوا بأن الملك وكونت بواتييه قد عقدا صلحاً مع كونت التخوم وفق شروط غير مرضية تماماً.

وبعد عودة الملك من بواتييه بوقت قصير، جاء ملك إنكلترا إلى غسكوني لإنشاب الحرب ضد مولاه الملك، وتوجه ملكنا القديس ليقاتل ضده على رأس قوة كبيرة وذلك بقدر ما استطاع حشده، وزحف ملك إنكلترا وكونت التخوم للاشتباك بالقتال مع الملك، أمام قلعة تيليبورغ Taillebourg ، التي تقوم إلى جانب نهر صغير بائس يدعى شارنتي Charente ، وذلك عند نقطة لايمكن للانسان فيها الجواز إلاّ عبر جسر حجري ضيق جداً.

* — هي إيزابل أرملة الملك جون وأم الملك هنري الثالث .

ومــا أن وصل الملك لويس إلى تيليبــورغ، ورأى الجيشــان بعضهما بعضــاً، حتى لم يـوفـر رجالنا الذين كانوا على الطرف الذي قامت عليه القلعة، جهداً للعبور إلى الطرف الآخر، وعبروا النهر بعد مخاطرة كبيرة، وجاء عبـورهم بالقوارب وفوق ذلك الجسر، واستهدفـوا إلقاء أنفسهم على الإنكليـز، ثم نشب قتـال حـاد جـداً، وعندمـا رأى الملك مجريات الأحداث وتقلبـاتها حمل وألقى بنفسه وسط المخـاطر مع الآخرين، غير أن الإنكليــز امتلكوا مقـابل كـل رجل عبر النهـر عشرين رجــلاً على الأقل،ومهما يكن من أمر، فقد قضى الرب أنه في اللحظة التي رأى فيها الانكليـز الملك يعبر، فقـدوا شجـاعتهم وهربوا للالتجـاء في سـانتس Siantes ، ولحقهم بعض رجـالنا، غير أنهم حـوصروا في وسطهم، ومن ثم أخذوا أسرى.

وروى رجـالنا الذين وقعوا أسرى في سـانتس، فيما بعد أنهم سمعـوا كلاماً كان خصامـاً حقيقياً بين ملك إنكلترا، وكونت التخوم، وقد اتهم ملك إنكلترا الكونت بأنـه بعث إليـه يعـده بأنه سيجـد تأييـداً كبيراً في فرنسـا، وفي جميع الأحوال، قام ملك إنكلترا في الليلـة، التي تراجع فيها من تيليبورغ بمغادرة سانتس والعودة إلى غسكوني .

وعندما رأى كونت التخوم، أن لا أمل أمـامه بالمساعدة، استسلم إلى الملك لويس وأخـذ زوجتـه وأولاده معـه إلى السجن، والآن وقـد بات الكونت في قبضتـه، أقـام الملك صلحـاً معـه، كان قـادراً بمـوجبـه على الحصـول على جزء كبير من بلاده، لكن كم كـان حجم هذا الجزء، هذا ما لاأستطيع قـوله، لأنه لم يتوفـر لي دور في هذه القضية، فـوقتها لم أكن قـد صرت فارسـاً بعـد، وعلى كل حـال لقد أخبرت أنه بـالإضافـة إلى الأرض التي حصل عليهـا الملك ونالها من كونت التخـوم، توجب على هذا الكونت دفع عشرة آلاف دينار كـانت له في الخزينة الملكية، ومبلغـاً مماثلاً كل سنة مقبلة .

وعندما كنت مع الملك في بواتييه، قابلت واحداً من الفرسان يدعى غيوفري دي رانكون Rancon ،كان — كما أخبرت — قد تضرر كثيراً من كونت التخوم، ولهذا السبب نذر على الأناجيل المقدسة، أن لايقوم بقص شعره، حسبما كانت العادة مع الفرسان، بل تركه يطول مثل النساء منتظراً الوقت الذي سينتقم فيه من الكونت، إما بيديه أو على يدي سواه، وما أن رأى هذا الفارس كونت التخوم، وزوجته وأولاده يركعون أمام الملك، صارخين طلباً للرحمة، حتى جلس على مقعد صغير، وأمر بقص شعره هناك، وكان ذلك بحضور الملك، وكونت التخوم، مع كل إنسان كان هناك .

وقام الملك لويس في أثناء حملته الأخيرة ضد ملك إنكلترا والبارونات، بمنح أعطيات مالية كريمة، وذلك حسبما أخبرني الذين عادوا من هذه الحملة، والملك لم يطلب قط ولم يقبل أية مساعدة مالية من باروناته، وفرسانه، ورجاله أو من أي من مدنه الجميلة بطريقة قد تنجم عنها شكوى، وذلك فيما يتعلق بالأعطيات التي منحها، أو النفقات التي تحملها أثناء تلك الحملة، أو أثناء أي حملة أخرى في الوطن أو فيما وراء البحار، وينبغي عدم التعجب من هذا، لأنه عمل هكذا بناء على نصيحة أمه الطيبة التي كانت إلى جانبه، وهو قد اتبع دوماً نصائحها، وكذلك بناء على نصيحة بعض الرجال العقلاء والجديرين بالاحترام، الذين ظلوا خداماً مخلصين للعرش منذ أيام أبيه، وأيام جده .

الفصل الثاني
استعدادات لحملة صليبية
(١٢٤٤ — ١٢٤٨)

بعـد مضي عام أو عـامين على الأحـداث التي دونت للتو أخبـارها، وبإرادة مـن الرب، وقع الملـك لويس، الـذي كـــان آنذاك في بـاريس، مـريضـاً جـداً، واقترب أخيراً من لفظ أنفـاسـه، حتـى أن واحـدة من السيـدتين اللتـان كـانتـا تتـوليـان العناية به أرادت أن تمد الغطاء فـوق وجهـه، مقـدرة أنه قـد مـات، لكـن السيـدة الأخـرى التي وقفت على الطرف الآخر من فراشه، لم تسمح لها، وقالت بأنها متأكدة بأن روحه ما تزال في جسده .

وفي الوقت الذي تمدد فيـه الملـك يصغي إلى النقـاش بين السيـدتين، عمل ربنا معـه، وأعـاده بسرعـة إلى وضع صحي استرد به القـدرة على الكلام، مع أنه كـان حتى ذلك الحين غير قادر على التلفظ بكلمـة، وما أن أصبح قـادراً على الكلام حتى طلب صليبـاً ليعطى إليـه، ونفـذ هذا المطلب على الفور، وعندما سمعت أمه أن القدرة على الكلام قد عادت إليـه حتى امتلأت بالحبـور على قدر الإمكان، ولكن عندمـا علمت بأنه قد طلب صليبـاً وأنه قد أخـذه — وهو ما سمعتـه من شفتيه — حتى شرعت بالنواح، وكأنها تراه قد تمدد ميتاً.

وبعـدما تناول الملك الصليب، حـذا حـذوه أخوته الثـلاثة : روبرت كونت دي أرتو، وألفونسو، كونت بواتييه، وشارل، كونت آنجو، الذي صـار فيما بعد ملك صقليـة، وإلى هؤلاء ينبغي أن نضيف هوغـو دوق دي بيرغندي، ووليم كـونت فـلاندرز، وهـو أخـو الكـونت غي دي فلاندرز الذي توفي مؤخراً، والكونـت هوغو الطيب، كونت دي سانت

بولص، وابن أخيه غوتيير، وغوتيير هذا تصرف بشجاعة في بلاد ماوراء البحر، وكان سيبرهن على جدارة أعظم لوأنه عاش مدة أطول.

وينبغي أن أذكر بين الأسماء الذين حملوا الصليب كونت التخوم، وابنه هوغو لى برن Brun ، وكذلك ابني عمي كونت دي ساربروك Sarbruck مع أخيه غوبرت دي أبريمونت Apremont ، وبفضل قرابتنا، قمت أنا جين لورد جوانفيل بالرحلة برفقتهما إلى بلاد ما وراء البحر، وذلك في سفينة استأجرناها معاً، وشكلنا آنذاك فئة مكونة من عشرين فارساً، تسعة منهم كانوا عائدين إلى كونت دي ساربروك ومن رجاله، وكان التسعة المتبقين تابعين لي.

وقمت في يوم عيد الفصح في سنة ١٢٤٨ لتجسيد ربنا بجمع رجالي، وجميع الذين استحوذوا على إقطاعيات مني، وحشدتهم في جوانفيل، وفي مساء يوم عيد الفصح عندما وصل جميع الناس الذين استدعيتهم،ولد ابني جين صاحب أنسرفيل Ancerville من زوجتي الأولى التي كانت أختاً لكونت دي غراندبري Grandpre ، ولقد احتفلنا ورقصنا طوال ذلك الأسبوع، فأقام أخي صاحب فوكولور Vaucouleurs، وكذلك أغنياء الناس وذوي المكانة منهم، ممن كان موجوداً وليمة وكذلك فعل الآخرون واحداً تلو الآخر، وكان ذلك في يوم إثنين الفصح وفي الأيام الثلاثة التي تلت.

وقلت لهم في يوم الجمعة:«إنني ذاهب بالحال إلى ماوراء البحر، ولست أدري فيها إذا كنت سأعود، لذلك على الفور من له دعوى ضدي أن يتقدم بها، فإذا كنت قد أسأت إلى أحد فلسوف أعوض ذلك لكل واحد بدوره، وذلك حسبما اعتدت أن أفعل في حالة الذين تتوفر لديهم طلبات مني، أو من أتباعي»، وتعاملت مع كل ادعاء بطريقة عدّها الناس الذين في بلادي بأنها صحيحة، ولكي لا يكون لي تأثير على قرارهم انسحبت ولم أحضر المناقشات، ثم وافقت بدون اعتراض على

كل ما أوصوا به.

وبما أنني لم أرغب في أن أحمل معي أي درهم ليس لي حق فيه، ذهبت إلى متز في اللورين، ورهنت الجزء الأعظم من أراضيّ، ويمكن أن أؤكد لكم، أنني في اليوم الذي تركت فيه بلادي للذهاب إلى الأرض المقدسة، لم يكن بحوذتي — بما أن سيدتي الأم كانت حية — من دخل تجاوز الألف دينار من ممتلكاتي، ومهما يكن الحال، لقد مضيت، وأخذت معي تسعة فرسان، وفارسين من حملة الأعلام إلى جانبي شخصياً، وقد عرضت هذه الأمور أمامكم ولفت انتباهكم إليها، لتعرفوا أن الرب الذي لم يتخل قط عني، لو لم يأت لمساعدتي، لما أمكنني البقاء متماسكاً طوال الوقت الطويل، وهو الست سنوات التي مكثتها في الأرض المقدسة.

وعندما كنت قد بت جاهزاً للمغادرة، بعث إلي جين لورد أبريمونت،وكونت دي ساربروك، بوساطة زوجته، يخبرني أنه قد أعدّ كل شيء من أجل رحلته إلى ما وراء البحر، وأنه سيصطحب معه تسعة فرسان بالإضافة إلى نفسه، واقترح فيما إذا كنت أوافق وأرغب في أن نستأجر سفينة لنا في مرسيليا.

ووقتها بالذات جمع الملك جميع باروناته في باريس، وجعلهم يقسمون له أنه إذا ما حدث له حادث، بينما هو في بلاد ماوراء البحر مسافراً، أن يبقوا مخلصين وأوفياء لأبنائه، وسألني أن أفعل الشيء نفسه، فرفضت أن أقسم له، لأنني لم أكن من أتباعه الإقطاعيين.

وعندما كنت في طريقي إلى باريس، مررت بعربة فيها ثلاثة رجال أموات، وكانوا قد قتلوا من قبل رجل دين، وكانوا هناك ممددين، ولقد أخبرت أنهم كانوا مأخوذين إلى الملك، ولدى سماعي بهذا بعثت بواحد من أتباعي ليجد لي خبر ما حدث، ولدى عودته أخبرني هذا التابع، أن

الملك عندما خرج من البيعـة توقف على الدرج لينظر إلى هؤلاء الرجال الأموات، وسأل عمدة باريس كيف حدث هذا الحادث.

وأخبره العمـدة بأن الرجال الثلاثة كـانوا ثلاثة من سيرجنديتـه من شـاتليــه Chatelet كـانـوا يتجـولون في شـوارع غير مطـروقـــة، ويسلبون الناس، وقـال للملك أيضاً:«إنهم رأوا رجل الدين هذا، الذي تراه هنا، وجردوه من ثيـابه، وذهب رجل الدين عائداً إلى مقر إقـامته، وليس على جسده سوى قميص، فانتزع قوسه العقار، وجعل واحداً من الأطفـال يحمل سيفـه، ومـا أن وقع نظره على اللصـوص، حتى صرخ عليهم، وقال بأنه سوف يقتلهم، وأوتر قوسـه، وأطلقه نحوهم،فأصاب واحـداً منهم في قلبه، وهرب الآخـران، لكن رجل الدين تناول سيفـه من الطفل الذي كـان يحمله، وجـرى خلفهما تحت ضـوء القمـر، الذي كان مشرقاً وواضحاً».

وأضاف العمـدة يقول:«وحاول واحـد منهما أن يجتاز حاجـز إحدى الحدائق ويدخل إليها، لكن رجل الدين ضربه بسيفه فقطع ساقه، وبقي هذا الســاق داخل الحذاء، حسبما يمكنك أن تراه هنا، ثـم مضى خلف الرجل الآخـر، الذي حـاول الدخول إلى بيـت غريب، كـان سكانه مـا يزالون مستيقظين،لكن رجل الدين سدد إليه ضربة بسيفه جاءت على أم رأسه فشطرته حتى أسنانـه، وذلك كما يمكن لجلالتكم أن ترون أيضاً»، ثم تابع العمـدة حديثه قـائلاً بأن رجل الديـن«قد أخبر الجيران بما فعله بالشـارع، ثم جاء وسلم نفسـه إلى سجن جلالتكم، وقـد أحضرته الآن أمامكم لتفعلوا معه الذي تريدونه، فها هو موجود».

فقال الملك:«أيها الشـاب، أفقدتك شجاعتك فرصـة أن تكون كاهناً، لكن بسبب شجاعتك سوف أدخلك في خـدمتي، ولسوف تذهب معي إلى بلاد ماوراء البحر، وأنا فاعل هذا ليس من أجلك، لكن بسبب أنني أود أن يعلم أتبـــاعي أنني ســـوف لن أحميهم في اقترافهـم لأي عمل

– ٢٨٠٠ –

شرير»، وعندما سمع الناس الذين كانوا هناك مجتمعين هذا، دعوا لمخلصنا، وصلوا له ليتوسط لدى الرب، حتى يمنح الملك حياة طويلة وسعيدة، وأن يعيده إليهم بسرور وصحة.

وعدت بعد هذا الحادث بوقت قصير إلى دياري في شامبين، واتفقت مع كونت ساربروك، على وجوب إرسال أمتعتنا في عربات إلى أوكسون Auxonne لتحمل من هناك في قارب إلى آرل عبر طريق السوان والرون.

الفصل الثالث
رحلة إلى قبرص
(١٢٤٨)

بعثت في اليوم الذي غادرت فيه جوانفيل أستدعي راعي دير شمنون Cheminon ،الذي قيل بأنه أحكم رهبان أخوانية السسترشيان وأفضلهم، وعندما كنت في كليرفون في يوم عيد سيدتنا بصحبة ملكنا القديس، سمعت هذا الموقف يعبر عنه كثيراً من قبل عضو من تلك الطائفة، رشحه لي وأوصاني به، وسألني فيما إذا كنت أعرفه، ولهذا قلت له:«لماذا سألتني ذلك»؟ وقد أجابني على سؤالي:«لأنني شخصياً أعتقد أنه أكثر الرجال مقدرة في طائفتنا كلها وأعظمهم قداسة»، ثم استطرد يقول:« دعني أخبرك بالذي سمعته من راهب تقي قد نام في القلاية نفسها التي نام بها راعي دير شمنون، ففي إحدى الليالي — حسبما ذكر ذلك الرجل — بينما كانا نائمين في الفراش في القلاية، كشف راعي الدير عن صدره لأنه كان يشعر بحرّ عظيم، وقد رأى بنفسه أم ربنا تمضي نحو فراش راعي الدير وتسحب القميص فوق صدره، حتى لاتؤذيه رياح الليل».

وأعطاني راعي دير شمنون هذا نفسه عصا الحج والتلفيعة، ثم غادرت جوانفيل على الفور، ولم أعد إلى قلعتي ولم أدخلها حتى عودتي من بلاد ما وراء البحر، وحين غادرت جوانفيل غادرتها عاري القدمين وأرتدي قميصي فقط، ومضيت باللباس نفسه إلى بليكورت Ble-court ، وإلى سينت أوربين Urbain ، وإلى أماكن أخرى، يوجد فيها آثار مقدسة، وطوال الطريق إلى بليكورت، وسينت أوربين، لم أدع عينيّ تلتفتان نحو جوانفيل، خشية أن يمتلي قلبي بالشوق لدى تفكيري

بقلعتي المحبوبة، وبولديّ اللذين تركتهما خلفي.

وفي طريقنا إلى مرسيليـا، توقفت أنا وصحبي لتناول الطعام عند«نبع رئيس الأساقفـة» وهو قريب على هذا الطـرف من دونجو Donjeux ، وهنا أهـدانا راعـي دير سينت أوربين عـــدداً من الجواهـر الثمينة لي وللفرسـان التسعة الذين كانوا معـي، وذهبنا من هناك إلى أوكسون، ثم انطلقنا مـرة ثانيـة مع أمتعتنا التي كـانت محملة من أجلنا على قـوارب، وهكذا رحلنا معها هبـوطاً في السوان إلى ليون، في حين اقتيـدت خيول حربنا العظيمة على طول شاطىء النهر على محاذاة القوارب.

وفي ليـون ركبنـا متن نهر الرون للذهـاب إلى آرل — لي — بلانك Arles - Le - Blanc ، وفيها كنا هابطين ذهـاباً على النهـر مـــررنا بخرائب قلعة اسمها روشي — دي — غلن Roche - De - Glun، كان الملك قـد خربها، لأن روجر صاحـب القلعة قد وجد مجرمـاً لسلبه التجار والحجاج.

وصعدنا إلى ظهـر سفينتنا في ميناء مرسيليـا في شهر آب(١٢٤٨) وفي يوم ركـوبنا جـرى فتح باب السفينة المصـاقب لجانـب الميناء، من أجل وضع جميع الخيـول التي نريد أن نأخـذها معنا إلى بلاد ما وراء البحـر، وربطها، وما أن أصبحت الخيول في الداخـل حتى جرى إغلاق الباب، وسد جوانبه بالقار بكل عناية، مثلما يصنع بالدن قبل إلقائه في الماء، لأنه ما أن تصبح السفينة في أعالي البحار، حتى يغدو الباب تحت الماء تماماً.

وعندما انتهت هذه العملية ، دعـا قبطاننا بحارته الذين كانوا واقفين قرب مقدمتها وصرخ:«هل أنتم جاهزون» ؟ فصرخوا مجيبين«نعم، نعم، أيها السيد، يمكـن لك استدعاء الكهنـة والقسس للتقدم نحـو الأمام»، ومـا أن كمل اجتماع هؤلاء حتى صرخ قبطاننا لهم قائـلاً:«باسم الرب، اشرعـوا بالغناء»، وبناء عليـه غنت المجمـوعـة كلها بصـوت واحـد

«Venicreater spiritus» ولدى الانتهــاء هتف القبطـان ببحــارته قائلاً:«انشروا الأشرعة باسم الرب» وجرى تنفيذ هذا على الفور .

وسرعان ما هبت الرياح، وأبعدتنا عن مشهد اليابسة، ثم لم نعد نرى شيئاً سوى البحر والسماء من حـولنا، وتابعت الريح دفعنا وإبعادنا أكثر فأكثر عن الأرض التي ولدنا فيها، وإنني إذ أقص عليكم هذه التفاصيل لتقدروا حمق الإنسـان الذي يتجرأ على وضع نفسـه في مثل هذا الوضع الخطر، وهو مغتصب لأمـلاك الآخـرين، أو مقترف شخصيـاً لذنب عظيم،لأن ما من مسـافر يمكنه أن يعـرف عندما يمضي للنوم في الليل، هل سيكون في الصباح التالي متمدداً في قاع البحر أم لا ؟

وشاهدنا نحن أنفسنا أعجـوبة غريبة جداً، عندمـا كنا في البحر، ففي إحدى الأمسيات وفي حوالي وقت العشاء كنا نبحر على طول السواحل المغربيـة، فمررنا بجبل له شكل مستدير كالطشت تمامـاً، وأبحرنا طوال الليل، وبتقـديـري أننا قطعنا مـا يزيد على الخمسين ميـلاً، لكن عند الصبـاح وجدنا أنفسنا في الخلف نسـاير الجبل نفسـه(*)، ولقد حـدث هذا الأمر تماماً لنا مرتين أخرتين أو ثلاث مرات، واندهش بحارتنا تجاه هذه الظاهرة الغريبة، وجاءوا ليخبروننا أنهم يخشون أن سفينتنا في خطر عظيم جـداً، ذلك أننا قـد حبسنا على مقـربة قـريبـة جـداً من سـواحل المغرب، التي هي بأيدي المسلمين.

وبيّن عند هذه النقطة واحـد من الكهنة الجيـدين، الذي كـان عميـد موروبت Maurupt أنه شخصياً عندما كـان يعاني من مشكلة صعبة، سواء في قلة الماء، أو في سقـوط مطر كثيف أو في أية حالة من الحالات المعاكسـة، كان عليه فقط أن يقـوم بثلاث مسيرات خـلال ثلاثة سبوت متوالية، حـول المنطقة، ووقتها سوف يبادر الرب وأمـه إلى منحه تفريج سريع، ولقد قـال هذا عندما حدثت الواقعـة، وكان ذلك في يوم سبت، ولقـد قمنا بمسيرتنا حول صـاريتين من صواري سفينتنا، وكنت أشعـر بالمرض الشديد آنذاك، ولهذا حملت على أذرعة بعض رجالي، ولم نر ذلك

*ـ لعل مرد هذا كان إلى تيار معاكس في البحر المتوسط، وليس عملاً عجائبياً كما تصور جوانفيل .

الجبل ثانية، ووصلنا في السبت الثالث إلى قبرص .

وفي الوقت الذي وصلنا فيه قبرص كان الملك هناك، ووجدنا كميات وافرة من العتاد موضوعة هناك لاستخدام جلالته: من ذلك على سبيل المثال كميات كبيرة من المال في خزانته، ومخزون كبير من الخمرة ومن القمح، وصنع له رجاله نوعاً من أنواع الأقبية في وسط حقل قريب من الشاطىء، لوضع أعداد كبيرة من البراميل الضخمة من الخمرة، وكانوا قد شرعوا بشرائها منذ عامين قبل وصول الملك، وقد صفوها فوق بعضها بعضاً حتى باتت إذا ما نظرت إليها عن بعد خيل إليك أنها بيوت كبيرة.

وجرى تكديس القمح والشعير على مساحات كبيرة حول الحقول حتى باتت أشبه بالتلال العالية، وطال سقوط الأمطار على هذه الأكوام، مما سبب إنباتها حتى ظهرت الأكوام وهي مغطاة بالأعشاب، ولذلك كان بإمكانك أن تتصور هذه الأكوام عندما تلقي نظرة أولى عليها أنها كانت روابي، وعندما حان الوقت لنقل الحبوب إلى مصر،وجدنا الوضع عندما أزحنا الطبقة الأولى الخضراء، أن القمح والشعير تحتها كان في وضع جيد وكأنه قد حصد الآن.

وسمعت فيما بعد في سورية أن الملك نفسه كان يود الذهاب مباشرة إلى مصر، دون التوقف في قبرص، لولا أن باروناته قد نصحوه بالانتظار في قبرص وصول الناس الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد.

وعندما كان الملك مقيماً في جزيرة قبرص، بعث ملك التتار العظيم برسل يحملون كثيراً من الرسائل اللطيفة، وذات المشاعر الصديقة، وقد أومأت هذه الرسائل ضمن أشياء كثيرة، بأنه كان على استعداد لتقديم العون إلى ملكنا في الاستيلاء على الأرض المقدسة واستخلاص القدس من أيدي المسلمين.

واستقبل الملك هؤلاء الرسل بحفاوة كبيرة وأكرم وفادتهم بمشاعر صديقة، وبعث لدى عودتهم برسل من عنده، وقد بقي هؤلاء في سفرهم لمدة عامين، وأرسل صاحب الجلالة مع هؤلاء الرسل إلى ملك التتار بخيمة أعدت لتكون كنيسة، وكانت ثمينةوغالية حقاً، لأنها صنعت من قماش قرمزي ممتاز، فضلاً عن هذا أمر الملك أن يصنع لهذه الكنيسة مجموعة من التماثيل الصغيرة المنحوتة من الحجر، تمثل البشارة التي جاءت إلى سيدتنا مع مواضيع تتعلق بالعقيدة المسيحية، وكان هدفه من هذا جعل ديانتنا تبدو أكثر جاذبية للتتار.

وكان الرجال الذين عهد إليهم بهذه الأشياء عبارة عن رجلين أعضاء في طائفة البندكتيين، وكانا يعرفان لغة التتار، وبالتالي كان يمكنهما تعليمهم مبادىء ديانتنا، وأن يوضحوا لهم ما الذي ينبغي عليهم اعتقاده.

وعاد هذان الراهبان من بلاد التتار في الوقت الذي غادر فيه أخوي الملك عائدين إلى فرنسا، وقد وجدا الملك قد ترك عكا، وأن أخويه قد فارقاه، وتوجه هو إلى قيسارية حيث كان مشغولاً بتحصينها،لأنه لم يكن آنذاك لا صلح ولا هدنة بينه وبين المسلمين، ولسوف أخبركم فيما بعد كيف جرى استقبال رسولي جلالته في بلاد التتار، وذلك حسبما أبلغاه، ووقتها سوف تسمع بأشياء كثيرة غريبة ورائعة، غير أنني لن أتعامل مع هذه القضية الآن، لأنني إذا ما أردت ذلك سوف أقطع سياق الرواية التي بدأت أحكيها وأذكرها.

وأعود الآن إلى سياق روايتي: ومع أنني امتلكت أقل من ألف دينار،وكان هذا دخلي الذي يأتيني سنوياً من بلادي، لقد كان علي — عندما ذهبت إلى بلاد ماوراء البحر — أن أتحمل بالإضافة إلى نفقاتي الخاصة، الإنفاق على تسعة فرسان مع فارسين من حملة الأعلام،وحدث أيضاً، أنه في الوقت الذي وصلت فيه إلى قبرص، لم يكن في يدي، بعد

الدفع لسفينتي أكثر من مائتين وأربعين ديناراً، ولهذا أخبرني بعض فرساني أنني إذا لم أجهز نفسي بالمال سوف يتخلون عني، لكن الرب لم يخذلني قط، وجاء إلى مساعدتي في هذه الحالة الحرجة، حيث أن الملك الذي كان آنذاك في نيقوسيا، بعث إلي، ليضعني في خدمته، وأعطاني ثمانمائة دينار لإضافتهم إلى ميزانيتي، وهكذا امتلكت في النهاية من المال أكثر مما احتجته بالفعل.

وعندما كنا مقيمين في قبرص، أرسلت امبراطورة القسطنطينية رسالة إليّ، أخبرتني فيها بأنها قد وصلت إلى بافوس، وهي بلدة في تلك الجزيرة، وسألتني التوجه لزيارتها هناك، بصحبة إيرارد دي بريين، وعندما وصلنا إلى بافوس، وجدنا أن عاصفة شديدة من الريح قد قطعت حبال المرساة التي تحبس سفينتها وتمسكها، ودفعتها إلى عكا، وبذلك لم يبق معها من جميع ثيابها شيئاً باستثناء عباءة كانت ترتديها،ومعطف خارجي من أجل وجبات طعامها، وقد أحضرناها معنا إلى ليماسول، حيث استقبلها الملك والملكة وجميع بارونات الجيش الفرنسي بحفاوة عظيمة.

وبعثت إليها في اليوم التالي ببعض الأقمشة لصنع ملابس لها، وذلك مع قطعة من فراء الفاقم الثمين لتزيينها، وإلى هذا أضفت قطعاً من القماش الصوفي«التفتاه»والحرير لتستخدم بطانة، وصدف أن قابل فيليب دي نانتيل Nanteuil— وكان فارساً جيداً من فرسان حاشية الملك — تابعي وهو ذاهب، وحامل لهذه الأشياء إلى الامبراطورة، ولما رأى هذا الرجل الجيد ما هو جاري، ذهب على الفور إلى الملك وأخبره بأنني أهنت كل من الملك والنبلاء الآخرين، ببعث ملابس إلى الامبراطورة، في حين أنهم أنفسهم الذين كان عليهم التفكير بهذا الموضوع لم يفعلوا ذلك.

وقد جاءت الامبراطورة لطلب العون إلى زوجها الذي بقي في

القسطنطينية، وقد عرضت المسائل بشكل جيد وبتوفيق حتى أنها كانت قادرة على أن تحمل معها لدى عودتها أكثر من مائتي رسالة، مني ومن أصدقائها الآخرين في قبرص، فيها تعهدنا بأغلظ الأيمان، أنه بعدما يعود الملك من بلاد ما وراء البحر، إذا ما رغب هو أو النائب البابوي في إرسال كوكبة مكونة من ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية، سوف نكون جاهزين للذهاب بصحبتهم .

ويمكنني القول، أنه عندما حان وقت عودتنا إلى فرنسا، قمت أنا شخصياً ببحث هذه المسألة مع الملك، أي مسألة الوفاء بتعهداتي التي أقسمت عليها، وفعلت ذلك بحضور كونت دي أيو Eu ، الذي أحمل كتابه معي، وسألت الملك فيما إذا كان يرغب بارسال ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية، فإذا ما رغب بذلك، فأنا سأذهب برفقتهم، وذلك حسبما تعهدت شخصياً بفعل ذلك، وعلى كل حال، أجابني الملك بأن إمكاناته المالية لاتسمح له، لأن جميع الاحتياطات المالية الكبيرة التي امتلكها فيما مضى في خزانته، قد أنهكت الآن تماماً وتبددت.

وبعدما ذهبنا إلى مصر، مضت الامبراطورة إلى فرنسا بصحبة أخيها، مولاي جون(دي بريين) صاحب عكا، الذي هيأت له فيما بعد زواجاً من الكونتسة دي مونتفورت.

وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى قبرص كان سلطان قونية هو الأغنى في جميع العالم الإسلامي، وقد تصرف على سبيل المثال تصرفاً مدهشاً تماماً، فقد أمر بتذويب جزء كبير من ذهبه، وصبه في جرار فخارية كبيرة، من النوع الذي يستخدم في بلاد ما وراء البحر لحفظ النبيذ، وسعة كل منها ما بين الثلاثة إلى أربعة براميل كبار، ثم أمر بعد ذلك بكسر الجرار،وترك السبائك الذهبية الضخمة غير مغطاة في إحدى قلاعه، حيث يمكن لكل إنسان يدخل إليها رؤيتهم وإمساكهم، وكان هناك ما لايقل عن ست أو سبع من هذه السبائك الضخمة.

ومن الممكن تكوين تصور عن الثروة الضخمة لهذا السلطان من خلال فسطاط يساوي ثمنه ما لايقل عن خمسمائة دينار، كان ملك أرمينيا قد بعث به إلى ملك فرنسا، وأخبره بالوقت نفسه أنه هو شخصياً قد أعطي له من قبل واحد من أتباع سلطان قونية، وأريدكم الآن أن تعرفوا أن التابع هو خادم يتولى الاهتمام بسرادقات السلطان، ويحفظ بيوته نظيفة.

ولكي يحرر ملك أرمينيا نفسه من الخضوع إلى سلطان قونية، ذهب إلى ملك التتار، وصار من أتباعه بهدف الحصول على مساعدته، ولدى عودته إلى أرمينيا جلب هذا الملك معه عدداً كبيراً من الرجال المسلحين، حيث صار في وضع هو فيه من القوة بمكان بحيث يستطيع شن الحرب على سلطان قونية، ولقد استمر الصراع بينهما لوقت طويل جداً، وفي النهاية قتل التتار عدداً كبيراً جداً من رجال السلطان، وهكذا فقد حاكمهم هذا مكانته، ولم يعد يسمع عنه أحد من الناس، وانتشرت في الوقت نفسه تقارير كثيرة مثيرة عن المعركة في قبرص، إلى حد أن بعض سيرجنديتنا، جذبتهم فرصة القتال وأمل الحصول على الغنائم، فعبروا إلى أرمينيا، لكن ما من واحد منهم قد عاد .

وكان سلطان مصر يتوقع وصول ملكنا إلى مصر في الربيع، لذلك ارتأى في الوقت نفسه أن ينتهز الفرصة ويذهب للإطاحة بعدوه اللدود سلطان حمص، ولهذا ذهب لمحاصرته في مدينته، ولم ير سلطان حمص من سبيل للتخلص من عدوه، ولقد أدرك أن هذا العدو إذا ما عاش طويلاً بما فيه الكفاية فلسوف يدمره بدون أدنى شك، ولهذا اتصل بواحد من خدم سلطان القاهرة، ورشاه حتى يتولى دس السم إلى مولاه.

وهاكم خبر الطريقة التي طبقها: كان الخادم يعرف أن السلطان معتاد على أن يجلس للعب بالشطرنج بعد تناول الغداء، وقد اعتاد على

الجلوس على السجاد الممدود عند طرف فراشه، لهذا عمد إلى رش السم على السجادة التي كان يعرف بأن مـولاه اعتاد أن يجلس عليها كل يوم، والذي حدث هو أن السلطان كان يغير طبيعة جلوسه، وفي تلك الأثناء كـان حافي القـدمين، وكان في سـاقه جـرح، وفي هذه الأثناء دخل السم على الفـور إلى الجرح المفتوح، وشل حـركة الطرف الذي سرى فيـه من الجسـد، وهاجم السم قلبه مـراراً، وهكذا بقي السلطان لمدة يومين غير قـادر على الشرب، أو الأكل، أو الكلام، وهكذا تـرك أصحـابه سلطان حمص ينعم بالهدوء، وحملوا سيدهم عائدين إلى مصر.

الفصل الرابع
النزول في مصر
(١٢٤٩)

مع بدية شهر أيار، وبناء على قرار ملكي، صدرت الأوامر إلى جميع السفن العائدة إلى الملك، والبارونات ولبقية الصليبيين، بشحنها بكميات جديدة من الخمرة وببقية أنواع الميرة، وأن تكون جاهزة للابحار عندما تصدر توجيهات الملك، وما أن رأى جلالته أن كل شيء قد تمّ على مايرام، صعد هو وملكته إلى ظهر سفينتيهما يوم الجمعة قبل أحد الشعانين، وفي يوم السبت نشر الملك لويس أشرعته، وذلك بعدما أخبر باروناته باللحاق به في سفنهم مباشرة إلى مصر، وانطلق هو وانطلق الجميع يسيرون خلفه، ولقد كان بالفعل منظراً جميلاً أن تنظر إليه، لأن البحر كله بدا بقدر امتداد البصر مغطى بقلوع السفن المبحرة، ولقد بلغ تعداد السفن المبحرة ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وثمانمائة .

وألقى الملك مرساة سفينته عند هضبة صغيرة تدعى باسم رأس ليماسول، وتوقفت جميع السفن من حوله، وكان قد ذهب إلى الشاطىء في يوم أحد الشعانين، وبعدما سمع قداساً، هبت ريح عاصفة شديدة، جاءت عبر البحر من اتجاه مصر، وبدأت بالهبوب بشكل بلغ من العنف أن سبعمائة من الألفين وثمانمائة فارس الذين كان الملك يصحبهم معه في هذه الحملة بقيوا فقط، ولم تفصلهم الريح عن جماعته، ولم تحملهم إلى عكا وإلى مراسي أجنبية أخرى، ولم يستطع هؤلاء الالتحاق بالملك إلاّ بعد مضي وقت طويل.

وسكنت الريح في يوم الإثنين التالي لأحد الشعانين، وقام الملك والذين بقيوا — بإرادة الرب — معه بالابحار على الفور، والتحق بنا

على الطـريق أمير المورة، ودوق بيرغنـدي، الذي كـــان مقيماً في بـلاد الأمير، وفي يوم الخميس التـالي وصـل الملك إلى أمـام دميـاط، حيث وجـدنا صفاً كـاملاً من قـوات السلطان متمركـزاً على الساحل، وكـان منظراً يريح العين، لأن أسلحة السلطان كانت كلهـا مذهبة، وكانت إذا مـا وقعت عليهـا أشعـة الشمس يصـدر عنهـا بريق يخطف الأبصار، وكانت الأصوات الصـادرة عن طبول هذا الجيش وعن أبواق المسلمين مرعبة لسامعيها.

واستدعى الملك باروناته ليسمع آراءهم حول ما يرون أن عليه القيام به، وقد نصحه عدد كبير منهم بالبقاء حتى يلتحق به بقية أتباعه، لأنه لم يكن بقي معـه في تلك السـاعة أكثـر من ثلث قـواته، لكنه لم يوافق على ذلك بأي حال من الأحوال، والسبب الذي قـدمه لهم أن التأخير سوف يفيد في رفع معنـويات الأعداء وتقويتهـا، والأكثر أهميـة من ذلك أنه لم يكن في دمياط مرسى يمكنه أن ينتظر فيـه رجاله، دون التعرض لمخاطر ريح أخرى تهب فتجـرف المتبقي من سفنه، وتدفعهـا إلى بلدان أخرى، كما حدث لبقية السفن يوم أحد الشعانين.

وتقـرر أن ينزل الملك إلى اليـابسـة يـوم الجمعـة قبل يوم أحـد عيـد التثليث، والاشتبـاك بالقتـال مع المسلمين، مـا لم يرفضوا القتـال، وأمـر جـلالته جين دي بيمـونت بأن يخصص غليـوناً لايرارد دي بريين ولي شخصيـاً، حتى نتمكن مع فرسـاننا من النزول إلى اليابسـة، لأن السفن الكبيرة لايمكنهـا الاقتراب بشكل كاف من الشـاطىء، وحـدث بإرادة من الرب، أنني وأنا عـائـد إلى سفينتي أن مـررت بمركب أصغـر، قـد أعطي لي مـن قبل صـــاحبــة بيروت، التي هـي ابنة عم لي شخصيـــاً ولكونت مونتبليارد، وقد حمل هذا المركب ثمانية من خيولي.

وعندما جاء يوم الجمعة توجهت أنا وكونت إيرارد، ونحن مسلحين تماماً إلى الملك، وطلبنا منه الغليون، وبناء عليه أخبرنا جين دي بيمونت

أننا لن نحصل على واحـــد، وعندمـا علم رجـالنا بـأنه لن يكون هناك غليـون سيأتي لنقلنـا، جعلوا أنفسهم يتسـاقطون مـن سفينتنا إلى قـاربها الطويل، واحداً فـوق الآخر، وذلك بقدر ما استطاعـوا من سرعة، لهذا بدأ القـارب بالغـرق، وعندمـا رآه البحـارة يغـرق قليـلاً قليـلاً، هربوا عائـدين إلى السفينة الكبيرة، وتركوا فرساني في القـارب، وسألت وقتها ملاحي كم عـدد الزيادة من الناس في القارب فـوق قدرته على الحمل، فأخبرني بوجـود اثنين وعشرين رجـلاً مسلحـاً، ثم سألتـه فيما اذا كـان بإمكانه تدبر أخذ رجـالنا إلى اليابسة، إذا ما أخـذت عدداً منهم من بين يديه، وعنـدمـا أخبرني أنه يستطيع ذلك، احتفظـت بعـــددٍ كــافٍ من الرجـــال، وجعلتهم ينقلون على ثلاث دفعـــات إلى السفينة التي حملت خيولي.

وبينما أنا مشغول بالإشراف على نقل رجالي، قام فارس اسمه بلونكيه **Plonquet** ، وكان من فـرسان ايرارد دي برين، بمحاولة إلقـاء نفسه من السفينة الكبيرة إلى القـارب الطويل، لكن القـارب دفع بعيـداً، لهذا سقط في البحر وغرق.

وعندمـا عـدت إلى سفينتي وضعت زورقي الصغير في عهـدة واحـد من أتباعي، اسمه هوغو دي فوكولير **Vaucouleurs** ، وقد قمت فيما بعـد برسمه فـارسـاً هناك، وقد أعطيتـه مـرافقين له اثنين من الفرسـان الشبـاب غير المتـزوجين، وهما: فيلين دي فيرسي **Vilain de Versey** ووليم دي دامارتين **Dammartin**، وحـدث أن كـانا يكرهان بعضهما كـــراهيـــة شـــديدة، حتى أنه مـــا من أحـــد استطـاع حتى ذلك الحين مصالحتهما، وكان سبب ذلك أن أحدهما أمسك بشعـر الآخر عندما كانا في المورة، وعلى كل حـال جعلتهما يتخليـان عن خصومتهما ويتعـانقـان، لأنني أقسمت لهما على الأناجيل المقدسـة أننا لن ننزل إلى اليابسة مـاداما مصران على مخاصمة أحدهما للآخر.

ثم وجهنا سيرنا نحـو اليابسة ووصلنـا إلى محاذاة القارب المربوط إلى سفينة الملك الكبيرة، حيث كان جلالتـه على ظهرها، وحيث كنا ماضين بسرعـة أعظم من سرعة رجـال الملك، وشرع الرجال الذين كـانوا على ظهر السفينة يهتفون تحية لنا، وأخبروني بالـرسو إلى جانب راية القديس دنس التي كانت محمولة فوق سفينة أخرى سارت أمام سفينة الملك، ولم أصغ إليهم، بل على العكس رسـوت مع رجـالي أمام كـوكبـة كبيرة من المسلمين، كـان تعـــدادهم في ذلك المكان ستـة آلاف رجـل على ظهـور خيولهم.

وما أن رأونا ننزل حتـى حملوا علينا حملة شديدة، وبالنسبـة لنا عندما رأيناهم مقبلين نحونا غرسنا النهـاية الحادة من ترستنا في الرمال، وثبتنا رماحنا في الأرض، بكل شدة، وجعلنا أسنتهـا مشرعة نحو العدو، لكن في اللحظة التي رأوا فيهـا أن رماحنا سوف تخرق بطـونهم، نكصوا على أعقابهم وولوا هاربين.

وبعث إليّ بلدوين دي رايمـز، وكـان فـارساً جـديراً له مكانتـه، قـد وصل لتـوه إلى الشـاطىء، رسالة حملهـا إليّ تابعـه، يطلب فيهـا مني أن أنتظره، ولقد أعلمتـه بأنني سوف أفعل ذلك بكل تـرحيب، لأن إنساناً له سماته جـدير بالانتظار في مثل هذه الساعـة الحرجة، ويمكنني القـول أنه بسبب جـوابي هذا، كان ينظر إليّ دومـاً نظرة تقدير، وقـد جلب هذا الرجل الجيد معه ألف فـارس للالتحاق بنا، ويمكن أن أؤكد لكم أنني عندما نزلت إلى اليـابسة لم يكن معي لاتابع، ولافـارس، ولاخادم، ممن جلبته معي من مقاطعاتي، ومع هذا لم يتركني الرب غير مجهز بالرجال.

وكان كونت يافـا على وشك الإرساء على يسارنا، وهذا الكونت هو ابن عم مـولاي لورد أوف مونتبليارد، وأسرة جـوانفيل، وحين نزل إلى اليابسة نزل في أبهى مشهد، ذلك أن غليـونه كان مغطى فوق الماء وتحته بصور تحمل رنوكـه، كما كانت محلاة بالذهب مـع شكل صليب محفور،

وكان لديه في غليونه ما لايقل عـن ثلاثمائة مجذف، وكان إلى جانب كل مجذف ترس صغير عليـه رنك الكونت، وقـد ربط إلى كـل ترس علم صغير عليه الرنك نفسه معمول من الذهب.

ولدى اقتراب هذا الغليـون ، بدا وكأنه يطير طيرانـاً، فقـد دفعـه المجذفـون بسرعة كبيرة نحو الأمـام وبقوة بفضل قوة حـركة مجاذيفهم، ومع سماع أصـوات خفقان الرايات، وقـرع الطبول، وزعقـات الأبواق الإسلامية على ظهـر هذه السفينة، كان يمكن أن يخيل إليك أن صواعق كانت تنزل من السماء، ومـا أن دفع هذا الغليون إلى طرف الرمـال بقدر ما هو ممكن حتى قفـز الكونت وفرسانه إلى الشـاطيء، وكانوا مسلحين بشكل جيد، ومجهزين بشكل ممتاز، ومضوا لأخذ مواقعهم إلى جانبنا.

ونسيت أن أخبركم، أنه بعـد النزول إلى اليـابسـة ، أمر كـونت يافـا بنصب خيمه وسرادقه على الفور، ومـا أن رآهم المسلمون يرفعون حتى اجتمعوا معاً في كتلة واحدة أمامنا، ثم قـدموا ثانية، وقد هزوا خيولهم، وكأنهم عزموا على سحقنا، لكن عندما رأوا أننا لانريد الانهزام، نكصوا ثانية على أعقابهم وانسحبوا.

وعلى يميننا، وعلى مسافـة رمية قوس عقـار عنا، رست السفينة التي كـانت تحمل راية القديـس دنس، وحمل واحد من المسلمين، إمـا لأنه لم يستطع ضبط حصـانه، أو لأنه ظن بأن بقيـة المسلمين سـوف يحملون خلفـه، وصـار هـذا المسلم في وسط الرجـال الذين نزلـوا إلى اليـابسـة لتوهم، غير أنه مزق إلى أشلاء.

وعندمـا سمع الملك بأن راية القـديس دنس صارت على الشـاطيء، اعتلى بسرعـة على ظهر سفينتـه، وعلى الرغم من جميع ما قـاله القاصـد الرسـولي الذي كـان معـه،رفـض التخلي عن شعـاره الملكي، وقفـز إلى البحـر، حيث وصل الماء إلى إبطيـه، ومضى نحو الأمـام، وترسـه معلق

من رقبتـه ورمحه بيـده، وخــوذته على رأسـه وتـابع سيره حتى التحق بجماعتـه على الشاطىء، وعندمـا وصل إلى اليـابسة ولمح الأعـداء، سأل من هؤلاء ؟، فأخبر بأنهم مـن المسلمين، فـوضع رمحه تحت إبطه، وحمل ترسـه وجعلـه أمـامـه، وأراد أن يحمل مبـاشرة عليهم، لولا أن بعض الرجال الحكماء الذين كانوا من حوله لم يسمحوا له بذلك.

وأرسل المسلمـون ثلاث مـرات رسـائل بوسـاطة الحمام الزاجل إلى السلطان، يخبرونه فيها بأن الملك نزل إلى اليـابسة، غير أنهم لم يتلقوا أي رسالة جوابيـة منه، وكان سبب ذلك عجز السلطان نتيجـة مرضه الذي استبد به، ولقـد تصوروا لذلك أنه قد مـات، وهكذا تخلى المسلمون عن دميـاط، وبعث الملك بواحد من الفـرسان ليتحقق فيها إذا كـانوا بالفعل قد تركوا المدينة، وقد عاد ليخبر الملك بأنه قد دخل إلى قصر السلطان، وأكـد بأن التقـرير كـان صحيحـاً وأرسل جـلالته على الفـور القـاصـد الرسـولي وجميع الأساقفـة الذين كانوا في الجيش، وعندمـا تجمعوا معـاً أنشدوا«Te deum Laudamus»، وامتطى الملك بعـد هذا فـرسـه، وحذا البقية حذوه، وزحفنا جميعاً، وعسكرنا أمام مدينة دمياط .

وتصرف الترك بشكل غير حكيـم بتخليهم عـن دميـــاط، من دون قطعهم لجسر القـوارب، لأنهم لو فعلوا ذلك لأعاقـونا كثيراً، وهم على كل حال آذونا كثيراً بإلقاء النار بـالسوق، حيث جمعت البضائع والسلع الأخرى التي كانت تباع بالوزن، وكانت نتائج هذا العمل كبيرة بالنسبة لنا، لايعدلها — لاسمح الرب — سوى أن يقوم إنسـان ما غداً، بإلقاء النار على الجسر الصغير في باريس.

الفصل الخامس

احتلال دمياط

(١٢٤٩)

دعونا الآن نعلن أن الرب القدير كان كريماً جداً معنا ونحونا، عندما حفظنا من الموت ومن الخطر، الذي نزلنا فيه إلى اليابسة، ذلك أننا نزلنا مترجلين، وهاجمنا عدواً كان على ظهور الخيول، وأظهر الرب نحونا نعمة كبيرة بمنحنا دمياط ووضعها بين أيدينا، لأنه كان من الممكن الاستيلاء عليها فقط بتجويع الأعداء، ويمكن أن نعد هذا مؤكداً، لأنه بهذه الطريقة نفسها استولى عليها الملك جون(دي بريين صاحب القدس) قبل أكثر من جيل مضى بقليل.

وعلى كل حال يستطيع ربنا أن يقول عنا، مثلما قال عن بني إسرائيل:«نسوا الرب مخلصهم .. ورذلوا الأرض الشهية»(المزامير : ٢١، ٢٤) ثم ماذا قال بعد ذلك ؟ لقد قال بأنهم نسوا الرب مخلصهم، وكذلك نحن نسيناه، كما سأخبركم بعد قليل.

غير أنني سوف أخبركم أولاً، كيف استدعى الملك لويس إليه باروناته، وطلب منهم مساعدته لاتخاذ قرار حول كيف يمكن توزيع الغنائم التي جرى أخذها من المدينة، وكان أول المتحدثين هو البطريرك حيث قال:«أعتقد يا صاحب الجلالة أنه سيكون مفيداً أن تبقى مشرفاً على القمح والشعير، والأرز، وكل ما هو محتاج للتقوت به، وبذلك يمكنكم الاستمرار في إمداد المدينة بالأطعمة، وأعتقد أيضاً أنه يتوجب عليكم الإعلان في جميع أرجاء الجيش أنه ينبغي جلب جميع البضائع إلى أماكن تمركز النائب البابوي، وذلك تحت التهديد بالحرمان الكنسي»، ولاقى هذا الاقتراح موافقة عامة، وكان الذي حدث على كل حال، أن

مجمل قيمة البضائع التي جلبت إلى أماكن تمركز النائب البابوي، لم يتجاوز الستة آلاف دينار.

وبعدما جرى جمع كل شيء، أرسل الملك والبارونات خلف جين دي فاليري Valery ، الذي كان معروفاً بأنه رجل حكيم ومحترم، وقال له الملك:« مولاي صاحب فاليري، لقد اتفقنا جميعاً على أن يسلمك القاصد الرسولي هذه الستة آلاف دينار، لتقوم بتوزيعها حسبما تراه هو الأفضل»، وقد أجابه هذا الرجل الجيد بقوله:«لقد منحتني جلالتكم شرفاً عظيماً، وأشكركم لذلك من قلبي، لكن — إنشاء الرب — لايمكنني قبول هذا التشريف، كما لايمكنني تنفيذ رغباتكم، لأنني لو قبلت، عليّ العمل بشكل معاكس للعادة الحسنة للأراضي المقدسة، التي قضت أنه إذا ما تم الاستيلاء على إحدى مدن العدو، يأخذ الملك ثلث جميع البضائع التي توجد فيها، ويأخذ بقية الصليبيين الثلثان، وقد جرى احترام هذه العادة ومراعاتها من قبل الملك جون، عندما استولى على دمياط، وكذلك فعل — كما يخبرنا المؤرخون — جميع ملوك القدس قبل هذا اليوم، وبناء عليه إذا كنت ترضى بإعطائي ثلثي القمح، والشعير، والأرز، وبقية أنواع الميرة، سوف أتولى بكل سرور توزيعهم بين الصليبيين»، وعلى كل حال، لم يوافق الملك على فعل هذا، وهكذا بقيت المسائل على ما هي عليه، لكن كثيراً من الناس كانوا غير راضين باختيار جلالته تجاهل مثل هذه العادة الجيدة القديمة.

وجعل رجال الملك التجار يدفعون، مع أنه كان متوجباً عليهم المحافظة على علاقات جيدة معهم، ومعاملتهم بشكل كريم، ويقال بأنهم حصلوا منهم أعلى الإيجارات التي أمكنهم فرضها عليهم مقابل الحوانيت التي باعوا فيها بضائعهم، وانتشر هذا التقرير إلى مناطق أخرى، ونتيجة لذلك، تخلى كثير من التجار عن فكرة جلب الميرة إلى المعسكر.

أما البارونات، الذين كان من المتوجب عليهم الحفاظ على أموالهم، لإنفاقها لأفضل المنافع، في الوقت المناسب والمكان الموائم، فقد شرعوا في إقامة احتفالات وولائم عظيمة جرى خلالها استهلاك كميات كبيرة من الأطعمة، أما بالنسبة للسواد الأعظم والأساسي من القوات، فقد انصرفوا نحو معاشرة العاهرات، ولهذا قام الملك بعد عودتنا من الأسر، بصرف عدد كبير من أتباعه، وعندما سألته لماذا فعل ذلك، أخبرني أنه وجد بشكل مؤكد أن هؤلاء الذين عزلهم من جيشه، قد اجتمعوا من أجل فسوقهم في مكان لايبعد رمية حجر عن سرادقه، وأن هذا كان منهم في الوقت الذي كان فيه الجيش كله يعاني فيه من أشد ضروب الشقاء، ومن أعظم ما عرفه قط من آلام.

ولسوف أعود الآن إلى موضوعي الأساسي، وأخبركم كيف قام فرسان السلطان بعد مضي وقت قصير على استيلائنا على دمياط بالاحتشاد أمام المعسكر، وهاجموه من ناحية البر، وقام الملك وفرسانه بتسليح أنفسهم، أما أنا فمن جانبي ، قمت بعدما لبست دروعي بالذهاب للحديث مع الملك، وقد وجدته شاكي السلاح، وجالساً فوق مقعد، مع خيرة فرسانه من حوله، وهم أيضاً في سلاحهم وعدتهم الكاملة، وسألته عما إذا كان يرغب أن أذهب مع رجالي للتمركز خارج المعسكر، لأحول بذلك بين المسلمين وبين تدمير خيمنا، ولدى سماعه لسؤالي، قام جين دي بيمونت بمخاطبتي بأعلى صوته، وأمرني باسم الملك، أن لاأغادر مكان تمركزي حتى تصدر إليّ أوامر الملك بفعل ذلك.

ولقد تحدثت للتو عن الفرسان المحترمين الذين كانوا مع الملك، ولقد كان عددهم ثمانية، وكانوا جميعاً رجالاً جيدين، نالوا جوائز لشجاعتهم وحسن تصرفهم في ميدان المعركة، في كل من بلادهم وفي بلاد ما وراء البحر، وأسماء هؤلاء الذين تولوا رعاية الملك بشكل

خاص كانت كمايلي: غيوفري دي سارجنس Sargines ، وماثيو دي مارلي Marly ، وفيليب دي نانتويل Nanteuil ، وإيمبرت دي بيجو، قسطلان فرنسا، ولم يكن صاحب الاسم الأخير بين هؤلاء حاضراً في تلك المناسبة، وكان في تلك الساعة خارج المعسكر، مع قائد رماة القسي العقارة التابعين للملك، وذلك مع غالبية سيرجندية الملك المسلحين للاحتراز خشية أن يهاجم الترك خيامنا أو يلحقوا أية أضرار بمعداتنا.

وقام في هذه الأثناء غوتيير دي أوتريخ Autreche بتسليح نفسه في جميع أطراف سرادقه ، وبعدما امتطى حصانه، ووضع ترسه عند رقبته، وخوذته على رأسه، أمر برفع جميع سجف سرادقه، وهمز حصانه ليحمل على الترك، وعندما كان ماضياً من سرادقه بدون مرافقه، رفع جميع رجاله أصواتهم وصرخوا«Chatillon »، لكن الذي حدث أنه سقط قبل الوصول إلى الترك، وقفز حصانه فوق جسده، وظل ماضياً نحو الأمام، وهو حامل لأسلحة صاحبه، ودخل إلى وسط أعدائنا، وكان مرد هذا أن غالبية المسلمين كانوا يمتطون ظهور إناث الخيل، ونتيجة لذلك جذب الفحل إلى جانبهم.

وأخبرنا الذين رأوا الحادث، أن أربعة من المسلمين الترك جاءوا مندفعين نحو مولاي غوتيير عندما كان ممدداً على الأرض، وسددوا نحو جسده ضربات شديدة بدبابيسهم، وهم ماضين في حملتهم، ومضى نحوه قسطلان فرنسا مع عدة من سيرجندية الملك، وأنقذوه، وحملوه عائدين على أذرعتهم إلى سرادقه، وعندما وصل لم يكن باستطاعته الكلام، وتوجه لرؤيته عدد من الجرائحيين والأطباء العائدين للجيش، ولأنه بدا لهم أنه ليس في وضع مميت، قاموا بفصده بذراعيه.

وفي وقت متأخر من الليل قال أوبرت دي نارسي Aubert de Narcy بأننا ينبغي أن نذهب ونلقي نظرة عليه، لأننا لم نكن قد رأيناه بعد، يضاف إلى هذا أنه كان رجلاً كان صاحب سمعة رفيعة، وعندما

دخلنا إلى سرادقه تقدم نحونا حاجبه لاستقبالنا، وسألنا أن نتحرك بهدوء، حتى لا نوقظ مولاه، وقد وجدناه ممدداً على غطاء من الفرو، وتوجهنا نحوه بهدوء كبير، ووجدناه ميتاً، وعندما أخبرنا الملك بذلك علق قائلاً: بأنه لا يرغب أن يكون لديه ألف رجل مثل غوتيير، لأنهم سوف يعملون ضد أوامره، مثلما فعل هذا الفارس.

وقدم المسلمون كل ليلة إلى معسكرنا على الأقدام، وقتلوا رجالنا حيثما وجدوهم نائمين، وقتلوا بهذه الطريقة حارس مولاي صاحب كورتني Courtenay وبعدما قطعوا رأسه وحملوه معهم، تركوا جسده ممدداً فوق منضدة، وقد تصرفوا هكذا لأن السلطان أعطى كل من جاء برأس رجل فرنجي ديناراً ذهبياً.

وتوجب علينا تحمل هذا العذاب، لأن كتائبنا، عندما كانت كل منها تنفذ دورها في حراسة المعسكر كل ليلة، قام أفرادها بالدوران حول المعسكر على ظهور الخيول، وعندما كان المسلمون يودون دخول المعسكر، كانوا ينتظرون حتى تكون طوائف الجند الخيالة قد ابتعدت، ولهذا كانوا يتسللون إلى المعسكر خلف الجياد، وبناء عليه أصدر الملك أوامره، أنه بدلاً من القيام بالحراسة على ظهور الخيول، على طوائف الجند تنفيذ واجبهم في المستقبل على الأقدام، ونتيجة لهذا تمت حراسة المعسكر بأمان من قبل رجالنا، الذين انتشروا بشكل كان فيه الرجل لايبعد عن جاره سوى ذراع واحد.

وبعد تنفيذ هذه الترتيبات ، قرر الملك أن لايغادر دمياط حتى يصل أخوه كونت بواتييه، مع احتياطات الجيش الفرنسي، ولكي يحول دون حملات المسلمين على المعسكر وهم على ظهورالخيول، أمر بحفر خندق عميق حول المعسكر، ومركز رماة القسي العقارة مع السيرجندية ليقوموا بالحراسة كل ليلة، ووضعت حراسة مماثلة عند مدخل المعسكر.

وعندما مرّ عيد القديس ريميجيوس Remigius ، ولم تصل أخبار عن كونت بواتييه — الأمر الذي أقلق الملك وجميع جيشه كثيراً، لأنهم خافوا أن يكون قد واجه مأساة ما — ذكّرت القاصد الرسولي، كيف جعلنا عميد موروبت، عندما كنا على وجه البحر، نقوم بمسيرات خلال ثلاثة سبوت متوالية، وكيف أنه قبل حلول السبت الثالث قد نزلنا في قبرص، وأولى القاصد الرسولي اهتمامه لما قلته، وأعلن في أرجاء المعسكر أنه سوف تكون هناك مسيرة في كل واحد من السبوت التالية.

وبدأت المسيرة الأولى من محلات القاصد الرسولي، وتوجهت إلى كنيسة سيدتنا في المدينة، وكان هذا المكان مسجداً إسلامياً من قبل، لكن القاصد الرسولي كرسه الآن كنيسة على شرف أم ربنا، وقام القاصد الرسولي خلال سبتين متواليين بقيادة القداس، وكان ذلك بحضور الملك وأعيان الرجال في الجيش، الذين منحهم توبة كاملة.

وقدم كونت بواتييه قبل السبت الثالث، وفي الحقيقة لم يكن قدومه ذا فائدة أعظم كثيراً لو أنه حاول الوصول أبكر، لأن عاصفة هوجاء قد ثارت بين الأسابيع الثلاثة، وكان هيجانها في البحر خارج دمياط مباشرة، حيث جرى تحطيم ما لا يقل عن مائة وعشرين سفينة ما بين صغيرة وكبيرة، وصارت مزقاً وفقدت كلياً، وغرق جميع الناس الذين كانوا على ظهورها، ولذلك لو وصل كونت بواتييه في وقت أبكر، لهلك هو ورجاله في البحر.

وما أن وصل الكونت حتى قام الملك باستدعاء جميع بارونات الجيش، لاتخاذ قرار بشأن الاتجاه الذي سوف يقصدونه، أي الذهاب إلى القاهرة أم إلى الإسكندرية، وتوافق الكونت بيير الطيب، كونت بريتاني مع غالبية البارونات، على تقديم نصيحة له بالذهاب للقيام بحصار الإسكندرية، لأن تلك المدينة امتلكت ميناء جيداً، حيث يمكن للسفن الحاملة للميرة إلى الجيش الرسو وإنزال حمولاتها، لكن كونت دي أرتو

- ٢٨٢٣ -

Artois كـان مناهضاً لهذا الـرأي، وأصر على أنه لن يوافق على الذهاب إلى مكان آخـر غير القاهرة، لأنها كـانت المدينة الرئيسـة في مملكة مصر، وإذا مـا أردت قتـل الثعبـان، عليك قبل كـل شيء أن تهرس رأسـه، ورفض الملك آراء البارونات لصالح رأي أخيه.

الفصل السادس

عمليات فوق النيل

تشرين ثاني ١٢٤٩ — شباط ١٢٥٠

مع بداية استهلال قـدوم(المسيح) انطلق الملك مع جيشه للذهاب إلى القاهـرة، تماشياً مع نصيحة كـونت أرتو، وأتينا إلى مـوقع كان مـلاصقاً تمامـاً لدمياط، على مجرى مـاء صغير، صدر عن النهـر نفسه، وتقـرر أن يتـوقف الجيـش هناك لمدة يوم ليقـوم بسـد هذا المجـرى، حتى يمكننا الزحف عبره، وتم إنجـاز هذا بسهـولة مناسبة، فقـد تولينا إغـلاق هذا الفرع وسويناه حتى نقطة التفرع عـن النهر، بطريقة جعلت الماء ينساب بدون صعـوبة كبيرة عـائداً إلى المجـرى الأسـاسي، وأرسل السلطان في أثناء عبورنا خمسمائة من خيرة فرسانه الذين وجدهم في جيشه، لمضايقة رجال الملك، وتعويق زحفنا.

وفي يوم عيد القديس نيقولا أمرنا الملك أن نستعد للركوب والزحف نحو الأمـام، ومنع في الوقت نفسـه أي واحد أن يتجرأ ويهاجـم العدو من حـولنا، وحـدث على كل حال أن الجيـش عندما بدأ بـالتقدم نحـو الأمام، لاحظ المسلمـون أن ما من هجـوم قد قـام ضدهم — ذلك أن جواسيسهم أخبروهم أن الملك كف رجـاله عن ذلك — وهنا أصبحوا أكثر جـرأة، وانقضوا بأنفسهم على الداوية، الذين شكلوا المقدمـة، وقام واحد من المسلمين فحمل واحداً من فرسـان الداوية، وألقاه أرضاً أمام حوافـر الفرس الذي كـان يمتطيه الراهب رينودي فيشير Vichiers ، الذي كـان آنذاك مقـدم الداوية، وعنـدمـا رأى هذا المقـدم هذا هتف بأخـوانه الداوية قـائـلاً:«من أجل الـرب، دعـونا ننقض عليهم، فأنا لا أستطيع أن أتحمل ما يجري أكثر»، ثم غمـز فرسه، ولحق به الجيش كله،

وكانت خيول رجالنا آنذاك مرتاحة نشطة، بينما كانت خيول المسلمين مرهقة، وهكذا سمعت أن ما من واحد من الأعداء قد نجا، بل هلكوا جميعاً، فبعضهم سقطوا في النهر وغرقوا.

وقبل أن أستطرد أكثر، عليّ أن أخبركم عن النهر الذي يجري خلال مصر، وكذلك حول الفردوس الأرضي، وإنني إذ أفعل هذا لكي تفهموا بعض الأمور المتعلقة بروايتي.

وعلى هذا يختلف هذا النهر عما سواه من الأنهار، ففي الوقت الذي تُرفد الأنهار فيه وهي جارية نحو البحر بأنهر صغيرة وروافد من مختلف الأنواع، ليس هناك من روافد أو أنهر صغيرة من أي نوع تصب في هذا النهر، والحادث هو أن هذا النهر يجري بمجرى واحد في مصر ثم ينقسم إلى سبعة أفرع تنتشر في البلاد كلها.

وعندما يأتي وقت محدد من السنة في نطاق عيد القديس ريميجيوس(أي في الأسبوع الأول من تشرين الأول)، تفيض هذه الأنهار السبعة، وتنتشر فوق الأرض وتغمر السهول كلها بالكامل، وما أن يتراجع الفيضان حتى يخرج الفلاحون، ليقوم كل منهم بفلاحة حقله، بوساطة محراث بلا دواليب، به يقلبون الأرض من أجل بذارها بالقمح، وبالشعير، وبالكمون،وبالأرز، وكلها تعطي محاصيل عظيمة لايمكن للانسان أن يتأمل أحسن منها، وما من أحد يعرف كيف تتم هذه الفيضانات، اللهم إذا كانت بإرادة من الرب، لكنها إذا لم تحدث، ما من شيء جيد سوف ينبت في الأرض، لأن حرارة الشمس سوف تذبله، لأن الأمطار غير معروفة في هذه البلاد، ومياه هذا النهر دائماً موحلة، ولهذا عندما يود السكان الشرب منه، ينضحون بعض الماء منه عند المساء، ويضيفون إليه أربع حبات مسحوقة من الفول أو من اللوز، ويكون هذا الماء في الصباح التالي صالحاً للشرب دون أية شوائب فيه.

وقبل أن يدخل هذا النهر إلى مصر، يعمد بعض الناس — جرياً على عادتهم — على رمي شباكهم في المساء في الماء ويدعوها ممدودة طوال الليل، وعندما يأتي الصباح سوف يجدون في شباكهم أشياء تباع بالوزن، وتستورد إلى مصر، ومن هذه الأشياء : الزنجبيل، والراوند، وخشب الصبر، والدارصيني، وقد قيل بأن هذه الأشياء تأتي من الفردوس الأرضي، لأن الرياح تقتلع في هذا المكان الفردوسي الأشجار، مثلما تفعل بالأشجار الجافة في غابات بلادنا، أما بالنسبة للأخشاب الجافة من الأشجار في هذا الفردوس، التي تقع في النهر، فتباع لنا من قبل التجار في هذه البلاد، ولمياه هذا النهر طبيعة مدهشة، هي أننا عندما نضع بعضها في أواني فخارية مصنوعة في مصر، ونعلقها بحبال سرادقتنا، تغدو، حتى في أشد الأيام حرارة،باردة مثل المياه المنضوحة من بئر.

وقال شعب هذه البلاد: غالباً ما حاول سلطان القاهرة أن يكتشف منابع هذا النهر، ولتحقيق هذه الغاية أرسل أناساً حملوا معهم نوعاً من الخبز يعرف بالبقسماط، لأنه خبز مرتين، وقد عاشوا على هذا الخبز حتى عادوا إلى السلطان.

ولقد ذكروا أنهم بعدما قطعوا مسافة كبيرة صعوداً مع النهر، وصلوا إلى كتلة كبيرة من الصخور، كانت عالية جداً، وحادة لايمكن لانسان أن يجاوزها، ومن هذه الصخور ينبع النهر وتتدفق مياهه، ويبدو أنه يوجد فوق قمة هذا الجبل وفرة هائلة من الأشجار الرائعة، وقالوا أيضاً أنهم رأوا عدداً من المخلوقات المتوحشة من مختلف الأنواع مثل الأسود، والأفاعي، والفيلة، وقد جاءت تنظر إليهم من ضفاف النهر،وهم يسيرون بالاتجاه المعاكس لجريان النهر.

وسأعود الآن إلى حيث كنت من روايتي، وأكرر أنه عندما يدخل النهر إلى مصر يصنع فروعه البعيدة والعريضة، ويذهب واحد من هذه

الفـروع إلى دمياط، وآخـر إلى الإسكندرية، وثالث إلى تنيس، ورابع إلى رشيد، وعبر الفـرع الأخير جاء ملك فـرنسا مع جيشـه، ونصب مخيمه بين النهر الذي يتدفق نحـو دمياط والفرع الذي يمضي إلى رشيد، وعلى أقصى طرف الفرع الأخير عسكر جيش السلطان بكامل قواته في مقابل عساكرنا،حتى يمنعوا عبورنا، وهو أمر كان من السهل عليهم القيام به، لأن ما من إنسان كان يمكنه العبور للوصول إلى الأعداء،إلاّ سباحة.

وقـررالملك بناء جسر عبر النهر حتى يمكنه الوصـول إلى المسلمين، ولكي يؤمـن حماية الذين كـانوا يعملون في الجسر، أمـر ببناء برجين متحـركين، وكـان هذان من النوع الـذي يعـرف باسم«بيـوت السنور»، لأنهما يقفان أمام«السنانير»(أويغطون الطـرقات) بوساطة«بيتين» خلفهما، ويكونان بمثـابة غطاء واقي للـذين يقـومـون بالحراسـة ، وذلك من الحجـارة التي تقذفهـا آلات المسلمين، التي كان عـددها ست عشرة آلة قذف،كلها جاهزة للعمل.

وعند وصولنـا إلى النهر، أمر الملك ببنـاء ثماني عشرة آلة قذف، وعين جوسلين دي كـورنوت Cornaut مسؤولاً بمثـابة مهندس رئيسي، وتطايرت قـذائف آلاتنا ضـد الأعـداء وآلاته، وقـامت هذه الآلات بدورها بالرماية علينـا، غير أنني لم أسمع أن آلاتنا قد سببت أذى كبيراً، وتولى أخـو الملك الحراسـة تحت طريق مغطى خـلال النهـار، وقمنا من جـانبنا بـالحراسـة أثناء الليل، وهكذا استمـر الحال حتى وصلنا إلى الأسبوع الذي جاء قبل الميلاد.

ومـا أن اكتمل بناء الطرق المغطـاة، حتى شرع رجـالنا ببناء الجسر، وليس قبل ذلك، لأن الملك لم يرغب أن تصيب رمـايات المسلمين، التي كـانوا يسـددونها من عبر النهـر، رجـالنـا الذين كـانوا ينقلون التراب، وتجرحهم، وكـانت الأمـور كلها بلا فـوائـد، ففي بناء هذا الجسر عمل الملك وباروناته بدون مـا يكفي من بصيرة فيما افترضـوه، لأنهم سـدوا

واحداً من فروع النهر — وهو عمل سهل القيام به، لأنهم شغلوا أنفسهم بردم هذا الفرع عند النقطة التي تفرع فيها المجرى الرئيسي — وكان بإمكانهم سدّ فرع رشيد في نقطة كان يبعد فيها نصف فرسخ عن عمود النهر.

ولكي يعيق المسلمون بناء جسر الملك حفروا طاقات في الأرض عند الطرف الذي عسكر فيه جيشهم، وكانت المياه ما أن تصل إلى الطاقات، حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة مملوءة بالمياه، وهكذا تمكنوا في يوم واحد من تخريب كل الذي صنعناه خلال عمل ثلاثة أسابيع، لأننا كنا كلما أسرعنا في سد المجرى من جانبنا، قاموا بتوسيع عرض مجراه بوساطة الفتحات التي عملوها من جانبهم.

واختار المسلمون مكان السلطان الذي مات نتيجة الإصابة التي نالها أثناء حصاره لحمص واحداً اسمه فخر الدين، الذي كان ابناً لشيخهم، وقد قيل بأن الامبراطور فردريك(الثاني)جعله فارساً، ولقد أمر كوكبة من رجاله بمهاجمة معسكرنا قرب دمياط، وقد انطلقوا على الفور وجاءوا إلى بلدة اسمها شار مساح، التي كانت قائمة على فرع رشيد من النهر.

وكنت في يوم عيد الميلاد أنا وفرساني نتناول الغداء مع بيير دي أفالون Avallon وعندما كنا جالسين إلى المائدة، انقض المسلمون باندفاع هائل على معسكرناوقتلوا عدداً من الأشخاص المساكين الذين خرجوا يتنزهون في الحقول، وخرجنا جميعاً لتسليح أنفسنا، ولكن على الرغم من إسراعنا، لم نستطع الالتحاق بالوقت المناسب بمضيفنا، ذلك أنه كان قد صار خارج المعسكر، وقد ذهب لقتال المسلمين، فأسرعنا نركض خلفه وتمكنا من إنقاذه من العدو، الذي رماه أرضاً، ثم أعدناه إلى المعسكر مع أخيه اللورد دي فال Val ، وتولى الداوية الذين جاءوا لدى سماعهم الاستغاثة، تغطية انسحابنا بشكل جيد وبفعالية،

وجاء المسلمــون خلفنا، وتابعـوا مضـايقتنـا حتى وصلنا إلى المعسكر، ونتيجـة لهذا أعطى الملك الأوامـر بـإغـلاق المعسكر من جهـة دميـاط، وذلك من فرع دمياط حتى فرع رشيد.

وكـان فخر الـدين، الذي أشرت إليه على أنه قـائـد المسلمين، أعظم الناس مكانة في العالم الإسـلامي، وحمل على رايته التي تألفت من ثلاثة أقسام:على القسم الأول رنوك الامبراطور(فـردريك الثاني) الذي جعله فـارسـاً، وعلى القسم الثـاني رنوك سلطـان حلب، وعلى القسم الثـالث رنوك سلطان القاهرة، وقـد عرف باسم فخـر الدين ابن شيخ(الشيوخ) — الذي كـان معناه :«الرجل العجـوز»، فهو على هذا«الرجل العجـوز ابن الـرجل العجــوز» — وكـــان هذا اللقـب يدل على الاحترام بين المسلمين، لأن المسلمين هم الشعب الذين يجلون المتقـدمين بالسن أكثـر من أي شعب آخر في العالم بشرط أن يحفظهم الـرب من أية وصمة عار خلال حياتهم.

وتبجح هذا المسلم الشجـاع — حسبما ذكـر جـواسيس الملك له — بأنه سـوف يتنـاول طعـامـه في سرادق جـلالتـه في يوم عيـد القـديس سبـاستيـان Sebastian (٢٠ — كـــانون ثاني)، ولدى سماع الملك بهذا رتب قـواتـه حسب مقتضيـات الحاجـة، بحيث تـوجب على أخيـه كـونت أرتو القيام بحـراسـة الطرق المغطاة وآلات القذف، وقـام الملك وكـونت دي أنجو — الـذي صار فيما بعـد ملكاً لصقليـة — بحراسـة الجانب المتجه نحـو القاهرة ، وقـام كونت دي بواتييـه وقمنا نحن معه، أي رجال شـامبين، بتولي حـراسة الجانـب المتجه نحـو دمياط، فهـذا ما طلب منه القيام به.

وفي الوقت نفســه أمر فخـر الدين رجـاله بالقيام بالعبـور إلى الجزيرة القائمـة بين فرعي دمياط ورشيـد من النيل، حيث كان جيشنا معسكراً، وعبأ قواته على شكل صفـوف تمتد من الفـرع الأول إلى الآخر، وهاجم

كونت دي أنجو هذه القوات وهزمها، وغرق الكثير في واحد من فرعي النهـر أو في الآخـر، ومع ذلك بقيت أعـداد كبيرة، لم يتجـرأ شعبنا على مهاجمتهـا، لأن آلات المسلمين استمرت في قـذف الصخور على الأرض القائمة بين الفرعين .

وفي الوقت الذي كان كونت دي أنجو خلاله يقاتل(المسلمين)، قام الكونت غي دي فـورز Forezبشق طريقـه، وهو على ظهر حصـــانه، وسط صفـوف المسلمين،واشتبـك هو وفـرسـانه مع كتلـة من المقـاتلين المسلمين، فألقاه المسلمون أرضاً،وكسرت ساقـه، وقام اثنان من فرسانه بحمله على أذرعتهم وأعادوه، ونجا كونت دي أنجـو بصعوبة بالغة من الوضع الخطير الذي وضع نفسه فيه، لكنه ربح لنفسـه سمعة عظيمة في ذلك اليـوم، وفي تلك المناسبة نفسهـا قام المسلمـون بحملة ضد كـونت دي بواتييـــه، وقمنا نحن أنفسنا بحملة بهجـــوم معـاكـس، وطاردناهم لمسافة طويلة، وقد قتل بعض رجالهم، غير أننا عدنا بدون خسائر.

وفي إحدى الليالي عندما كنا نتولى حراسة البرجين اللذان حميا الطرق المغطاة، جلب المسلمون آلـة تسمى«العرادة Petrary »، ولم يكونوا قد صنعوها من قبل، ووضعوا ناراً إغريقيـة(نفوط) في كفتها، وعندما رأى هذا الفارس الطيـب غوتيير دي إيكوري الذي كان معي قـال لنا:«نحن يا أصدقائي في أعظم المخاطر التـي كنا فيها قط، لأنهم إذا ما ألقوا النار في أبراجنا، وبقينا هنا،سوف نحترق ونحن أحيـاء، ومن جهة أخرى إذا مـا تخلينا عن المراكز التي أوكل إلينا حـراستهـا سوف يلحق بنا العـار، وبناء عليـه مـا من أحد يمكنه أن يـدافع عنا في هذا الرعب غير الرب، والذي أنصح بـه هو لجميعنا هو أن ننبطح على مـــرافقنـا وركبنا في كل مـرة يقـذفـون فيهـا نيرانهم نحـونا، وأن نصلي إلى مخلصنا أن يحفظنا في ساعة الرعب هذه».

وما أن رموا بأول قذيفة حتى رمينا بأنفسنا على مرافقنا وركبنا حسبما

وجهنا الفــارس الجيـد، ومــرت أول كتلة من اللهب مــا بين برجينا، وسقطت على الأرض أمـامنا، حيث كانت عسـاكـرنا تقيم سداً، وكـان الرجـال الذين كلفـوا بإطفـاء النـار جـاهزين لإطفـائهـا، وعندمـا رأى المسلمون أنه ليـس بإمكانهم التسديد مباشرة نحـوهـم، بسبب السرادقين ذوي الجناحين، اللذين أقامهما الملك، شرعـوا برمي قذائفهم أفقيـاً نحو السحاب، وبذلك سقطت فوق رؤوس رجال الإطفاء .

وبدت النار الإغـريقيـة وهي تمر مقـذوفــة من الأمـام، باتجاهنا مثل برميل كبير من القــار، وكـان ذيل النار المشتعل خلفهــا مثل قناة رمح طويل، وكـان الصوت الذي تثيره وهي قـادمـة مثل الرعد السـاقط من السماء، وقد بدت مثل تنين يطير في الجو، وكان الضوء الذي نشرته هذه الكتلة النارية من حــولنا مشعـاً إلى حـد أنه كــان بإمكانك أن ترى في خلال المعسكر بوضـوح وكأنك في النهار، وقـذف العدو في تلك الليلة النار الإغـريقية ثلاث مـرات من عرادتهم، ورمـوهاثلاث مرات أيضـاً من قسيهم العقارة المتحركة.

وكـان ملكنا القديس كلما سمـع المسلمون يقـذفـون النار الإغريقيـة نحـونا يجلس في فراشـه، ويرفع يديه بالـدعاء، ويقـول وهو يبكي:«أيها الرب الكريم احمي شعبي لي»، وحقـاً إنني أعتقـد أن أدعيتـه أفـادتنا في وقت حـاجتنا، وكـان في كل مرة سقطت فيهـا النار، يرسل واحـداً من حجـابه ليسألنا كيف تصرفنا، وفيما إذا سببت القذائف الملتهبـة أي أذى لنا.

وعندمـا قذفوا في إحـدى المرات النار الإغريقيـة علينا، سقطت هذه النار قرب البرج الذي تولى رجـالَ بيير دي كورتني حراستـه، وأصابت ضفـة مجرى الماء، وبناء عليـه جـاء فـارس إليّ يدعى لى أبيجــويز Au-bigoiz وقـال:«مولاي، إذا لم تأت لمسـاعدتنا ســوف نحترق كلنا، لأن المسلمين أطلقوا نحـونا عدداً كبيراً من نشـابهم الحامل للنيران حتى بدا

الحال وكأن هناك سياجاً عظيماً من اللهب يزحف نحو برجنا»، واندفعنا نحو المكان ووجدنا ما تكلم عنه صحيحاً، وقمنا بإطفاء النار، وعندما أكملنا عملية الإطفاء، رمى المسلمون كل واحد منا بسهام جاءت من عبر المجرى المائي.

وتابع أخوة الملك حراسة البرجين أثناء النهار، وصعدوا إلى قمتيهما لرماية النشاب من قسيهم العقارة ضد معسكر المسلمين ، وقرر الملك الآن أنه بعدما يتولى كونت دي آنجو الحراسة أثناء النهار، علينا أن نتولى ذلك في الليل، وفي أحد الأيام عندما كان كونت دي أنجو في مركز حراسته، وكنا على وشك المضي لتسلم الحراسة عند حلول الظلام، شعرنا جميعاً بغم عظيم، لأن المسلمين اقتربوا الآن من تحطيم برجينا، فقد جلبوا عراداتهم هذه المرة وأخرجوها في وضح النهار، مع أنهم حتى الآن كانوا يخرجونهم في الليل فقط، وشرعوا في قذف برجينا بالنار الإغريقية.

وسحبوا آلاتهم لتلاصق الجسر الذي بناه رجالنا لسد مجرى الماء، وأخذوا يرمون عدداً كبيراً جداً من الصخور العظيمة على ظهره، إلى حد أن ما من أحد تجرأ على الاقتراب من البرجين، ونتيجة لذلك جرى إحراقهما معاً، وأصيب كونت دي أنجو بانهيار عظيم، وفقد السيطرة على نفسه إلى حد أنه حاول أن يرمي بنفسه على النار حتى يتولى إطفائها، لكن لئن أصيب هو بالجنون لشدة غضبه، حمدت أنا وفرساني الرب على ما حدث، لأننا لو كنا نتولى الحراسة تلك الليلة، لاحترقنا جميعاً.

وعندما سمع الملك بهذه الكارثة، بعث واستدعى إليه جميع بارونات جيشه وتوسل إلى كل واحد منهم أن يعطيه بعض الخشب من سفنهم، لينشيء طريقاً جديداً مغطى، وبذلك تكون المساعدة على سد المجرى المائي، وشرح لهم بوضوح تام أنه ليس هناك خشب متوفر لهذه الأعمال

باستثناء مـا يمكن الحصـول عليـه من السفـن التي جلبت بضـائعنا ومعـداتنا عبرالنهـر، وجلب كل رجل بقـدر مـا كـان راغبـاً أن يعطي، وعندمـا اكتمل بناء البرج، كانت قيمـة الأخشـاب التي استخدمت قـد وصلت إلى مايزيد على عشرة آلاف دينار.

وقرر الملك أيضاً عدم وجوب دفع الطريق المغطى الجديد نحو الأمام فـوق الجسر حتى يحين الوقت الـذي يكون فيـه دور كـونت دي أنجـو القيـام بالحراسـة، لعله يتمكن مـن نيل فـرصـة التعـويض عن إحـراق البرجين الآخرين عندمـا كان مسؤولاً عنهما، وحسبما كان مقـرراً جرى التنفيذ، ومـا أن جاءت نوبة كـونت دي أنجو بالحراسـة حتى أمر الملك بدفع الطريق المغطـى نحـو الأمـام فـوق الجسر، وذلك إلى المكان الذي جرى إحراق البرجين فيه.

وعندما رأى المسلمون ما كان يجري، أعدوا جميع آلاتهم الست عشرة لتقذف بقـذائفها فوق الجسر، إلى البقعة نفسهـا التي جلب إليها الطريق المغطى، ثم لدى إدراكهـم أن رجـالنا كـانوا خـائفين من الاقتراب من ذلك المكان، بسبب الحجـارة التي كانت تتسـاقط على الجسر، عند ذلك جلبوا عـرادة تولت رمي النار الإغريقيـة على المنشأة الجديدة، وأحرقت كل شيء، وأظهـر الرب نفسـه أنه كـريم جـداً نحوي شخصيـاً ونحـو فـرسـاني في هذه المسألة، لأننا لو تـولينا الحراسـة في تلك الليلة، لكنا في خطر عظيم مثلما كـان عليه الحال في تلك المناسبة التي تحدثـت عنها من قبل.

ونتيجـة لهذه الانتكاسـة الجديدة، دعـا الملك إليـه جميـع البـارونات وطلب منهم مشورتهم، ولقد وافقوا بـالإجماع على القول أنه لافائدة من محاولة بناء جسر يمكنهم عليـه الزحف ضـد المسلمين والاقتراب منهم، لأن رجـالنا لا يمكنهم الردم من جهتهم من المجـرى، بقـدر مـا يمكن للأعداء فتحه مجدداً من الجهة الأخرى.

وعند هذه النقطة أخبر القسطلان إيمبرت دي بيجــو الملك أن بدوياً قد جـاء إليه وأخبره أنه يمكنه أن يرينا مخاضة جيـدة، شريطة أن نعطيه خمسمائة دينار، وقال الملك بأنه موافق على دفع المال له، شرط أن ينفذ ما وعـد به، وقال الـرجل إنه لن يرينا المخـاضة مـا لم ندفع له المال سلفـاً، وتمت الموافقـة على وجـوب دفع الدنانير له، وبالفعل دفعت إليـه بدون تأخير.

وقرر الملك وجوب بقـاء دوق بيرغندي وأصحاب المراتب العليا من رجـال مـا وراء البحـر الذين كـانـوا في الجيش لحراسـة المعسكر، حتى لايلحق به ضرر، في حين سيقـوم هو مع أخوته الثـلاثة بعبور المخـاضة في المكان الذي ســوف يريهم البـدوي إياه، ووضعت هـذه الخطة قيـد التنفيـذ، وبات كل شيء معـداً للعبـور في يوم ثلاثاء المرافع(قبل أربعـاء الرماد)، وهو اليوم الذي وصلنا فيه إلى مخاضة البدوي، واجتمعنا هناك مع أول عـلامات الفجـر، من جميع الجهـات، وما أن أصبحنا جـاهزين حتى دخلنا إلى الماء مع خيــولنا تسبح تحتنا، وعنـدمـا غـــدونا في وسط مجرى الماء، لامسنا الأرض، ووجــدت خيـولنا مكاناً آمنـاً تسير عليـه، ورأينا على الضفـة الأخرى ثلاثمائـة من المسلمين مصطفين، كلهم فـوق ظهور خيولهم.

ثم هتفت بفرساني وقلت:«انظـروا أيها السادة إلى يساركم ، واجعلوا طريقكم بهذا الاتجاه، فـالضفة هنا مبللة ومـوحلة، والخيول تنزلق فـوق ركابها وتغرقهم»، وفي الحقيقة كان بعض رجـالنا قدغرقوا أثناء العبور ، وكـان من بينهم جين دي أورلين Orleans الذي كـــان يحمل علماً له خطوط متمـوجة، وهكذا انحـرفنا نحـو اتجاه حملنا نحو نهاية المجـرى، حيث وجدنا مكاناً جافاً للـوقوف عليه، وهكذا عبرنا — والحمد للرب — من دون أن يسقط واحـد من مجمـوعتنا، وما أن رآنـا المسلمون قـد عبرنا النهر حتى شرعوا بالفرار.

وأعدت العـدة، أن يشكل الداوية طليعة الجيش مع قيـام كونت دي أرتو بالسير خلفهم قائداً للفرقة الثـانية، لكن الذي حدث هو أنه ما أن عبر الكونت حتى انقض هو ورجاله على المسلمين الذين هربوا أمامهم، وجعله الداوية يعـرف بأنـه وجّـه إليهم إهانة كبيرة بتـوليـه القيـادة، في الوقت الذي توجب فيه عليه السير خلفهم، ورجوه السماح لهم بالمضي في الطليعة، حسبما جـرى الإعداد من قبل الملك، لكن الكونت — كما حدث — لم يقم بالاستجابة لهم، بسبب خطأ نجم من جهة فوكود دي مارل Foucaud de Merle ، الذي كان ممسكاً بلجـام فرسـه، وكان هذا الرجل فارساً جيداً وبارعاً، لكنه كان أصـم تماماً، ولم يسمع شيئاً مما قاله الداوية لمولاه، واستمر يهتف:«عليهم، يارجال، عليهم».

وهنا اعتقـد الداوية أنه سيكون عاراً عليهم إذا مـا تركوا كـونت دي أرتو متقـدمـاً أمـامهم، لـذلك همزوا خيـولهم واندفعـوا بلا توقف في مطاردة المسلمين، الذين فـروا أمـامهم إلى داخل مـدينة المنصـورة، وإلى الحقـول خلفهـا باتجاه القـاهرة، وعنـدمـا حـاول رجـالنا العـودة، رمى المسلمـون في المنصـورة جـذوع أشجـار ضخمـة وقطع أخشـاب كبيرة عليهم وهـم يمـرون من خلال الشوارع ،التـي كانت ضيقة جـداً، وقتل كونت دي أرتو هناك مع راؤول دي كوسي Coucy ، وعدد كبير آخر من الفـرسان، حتى أن عـدد القتلى جرى تقديره بثـلاثمائة، أمـا الداوية ففقـدوا — حسبما أخبرني مقـدمهم الأعلى فيما بعـد — مـائتين وثمانين رجلاً، كانوا جميعاً من الفرسان المقاتلين.

الفصل السابع
معركة المنصورة
٨شباط ١٢٥٠

وقررت في الوقت نفسه أنا وفرساني المضي ومهاجمة بعض المسلمين الذين كانوا يضعون بعض أمتعتهم في معسكرهم على يسارنا، وهكذا انقضضنا عليهم، وفي الوقت الذي كنا نطاردهم فيه خلال المعسكر، وقع نظري على واحد من المسلمين، كان على نية امتطاء فرسه، وقد أمسك اللجام واحد من فرسانه، وفي اللحظة التي كانت فيها يداه على السرج ليصعد، وجهت إليه طعنة تحت إبطه، فجندلته ميتاً، ولدى رؤية فارسه ماحدث ترك مولاه وترك حصانه، وطعنني برمحه، وأنا مار به، وأصابني ما بين كتفي، مما جعلني أنبطح فوق رقبة حصاني، بطريقة لم أستطع بها سحب السيف المعلق بحزامي، ولهذا توجب عليّ سحب السيف المعلق إلى فرسي، وعندما رآني وسيفي مسلول سحب رمحه وتركني.

ولما غادرت أنا وفرساني معسكر المسلمين، وجدنا ماقدرناه بحوالي ستة آلاف من المسلمين، الذين تخلوا عن خيمهم، وانسحبوا إلى داخل الحقول، وفي اللحظة التي رأونا فيها،قدموا حاملين علينا، وقتلوا هوغودي تركتيل Trichatel صاحب كونفلان Conflans، الذي كان معي يحمل علماً، وركضت أنا وفرساني على ظهور خيولنا، ومضينا لانقاذ راؤول دي وانو Wanou وكان واحداً آخر من أصحابي قد رموه أيضاً.

ولدى عودتي، طعنني المسلمون برماحهم، وتحت ثقل حملتهم كبا حصاني على ركبتيه، وطرت نحو الأمام وصرت فوق أذنيه، ونهضت

بقدر ما أوتيت من سرعة، وترسي في الأمام عند رقبتي وسيفي بيدي، وجاء إليّ واحد من فرساني، اسمه إيرارد دي سيفري Erard de Si-verey — منحه الرب النعمة— ونصحنا بالانسحاب نحو بيت مهدم، حيث يمكننا انتظار الملك، الذي كان على الطريق، وبينما كنا متوجهين إلى هناك، جاءت كتلة كبيرة من المسمين مندفعة نحونا، بعضها رجالة وبعضها الآخر على ظهور الخيول، ولقد طرحوني أرضاً، وبذلك طار ترسي من أمام رقبتي.

وما أن عبروا حتى جاء إيرارد دي سيفري عائداً نحوي وأخذني معه إلى البيت المهدم، والتحق بنا هناك: هوغو دي ايكوت Ecot، وفردريك دي لوبي Loupey ، ورينودي مننكورت MenonCourt ، وبينما كنا هناك هاجمنا المسلمون من جميع الجهات، ودخل بعضهم إلى البيت، وشرعوا يطعنوننا برماحهم من الأعلى، وطلب مني فرساني الامساك بلجم خيولهم، الأمر الذي فعلته خشية فرارها، ثم قاموا بعد ذلك بدفاع فعال ضد المسلمين مما جعلهم ينالون فيما بعد، كما يمكنني القول، الثناء العالي من جميع الرجال ذوي المكانة العالية في الجيش، وذلك سواء الذين شهدوا شجاعتهم، والذين سمعوا عنها فيما بعد.

وفي خلال هذا الحادث تلقى هوغو دي ايكوت ثلاث اصابات في الوجه من رمح، وكذلك راؤول دي وانو، بينما تلقى فردريك دي لوبي طعنة رمح بين كتفيه، فتحت جرحاً كبيراً جعل الدم يتدفق من جسده، كأنه يتدفق من فتحة برميل، وجاءت ضربة من واحد من سيوف العدو الى وسط وجه إيرارد دي سيفري، فقطعت حتى خلال أنفه، وتركته معلق فوق شفتيه، وتذكرت في تلك اللحظة القديس جيمس، وخطر ببالي، فتوجهت بالدعاء إليه قائلاً: «أيها القديس جيمس الطيب، تعال لمساعدتي وأنقذنا في وقت حاجتنا العظيمة هذه».

وما أن تفوهت بهذا الدعاء، حتى قال لي ايرارد دي سيفري: « إذا

كنت يامولاي ترى أنني لن أوصم بالعار وكذلك ورثتي، لإقدامي على الذهاب، وجلب المساعدة إليك من كونت دي أنجو، الذي أراه في الحقول هناك، فأسفعل» فقلت له: «يبدو لي ياسيدي العزيز أنك ستنال شرفاً عظيماً إذا ما ذهبت لجلب المساعدة إلينا لانقاذ حياتنا، وبالمناسبة، حياتك أيضاً في خطر عظيم» (ولقد قلت الحق، لأنه مات من جرحه)، وتشاور مع بقية الفرسان الذين كانوا هناك، وقدم له الجميع النصيحة نفسها التي أعطيتها له،وبعد سماعه ما قالوه، طلب مني أن أخلي له عن حصانه، الذي كنت ممسكاً بلجامه، وهذا مافعلته وتركته يأخذه.

ومضى إلى كونت دي أنجو ورجاه القدوم لانقاذي وانقاذ رجالي، وحاول شخص صاحب مكانة عالية أن يصرفه عن الاستجابة، غير أنه قال بأنه سوف يفعل حسبما سأله فارسي، وبناء عليه عطف رأس فرسه ليقدم إلى مساعدتنا، وقام عدد من سيرجنديته بغمز خيولهم أيضاً، وما أن رآهم المسلمون قادمون، حتى نكصوا ليتركوننا، ورآهم بيير دي أوبرايف Auberive وهم يغادرون، وكان يسوق أمام السير جندية وسيفه في قبضة يده، فحمل على وسط المسلمين الذين كانوا ممسكين لراؤول دي وانو، واستنقذه من بين أيديهم، بعد أن أصيب بجراحه بليغة.

وبينما كنت واقفاً هناك على قدمي مع فرساني، مصاب بجراحة كما ذكرت لكم، قدم الملك لويس على رأس كتائبه، مع زعقات عالية للأبواق ولقرع الطبول، وتوقف مع عساكره فوق جسر مرتفع كان هناك، وأنا لم أرقط فارساً أجمل أو أكثر رشاقة منه، فقد بدا سامياً برأسه وكتفيه فوق شعبه، وكان على رأسه خوذة مذهبة، وبيده سيف من فولاذ ألماني.

وما أن توقف، حتى قام الفرسان الجيدون الذين كانوا في فرقته، والذين سميتهم لكم من قبل مع فرسان شجعان من فرسانه،

بالانقضاض مباشرة على المسلمين، وأؤكد لكم أنه أعقب ذلك ملحمة رائعة، وامتحاناً رائعاً للسلاح، لأن ما من واحد استخدم قوساً أو زنبورك، بل كانت المعركة معركة رماح ضد السيوف بين المسلمين وبين شعبنا، وقد انخرط فيها الطرفان بشكل عنيف جداً.

وكان واحد من أتباعي، الذي كان يحمل رايتي قد هرب، غير أنه عاد الآن والتحق بي وجلب معه واحداً من خيولي الفلمنكية، فامتطيته، ومضيت لآخذ مكاني إلى جانب الملك، وعندما كنا معاً، جاء الفارس الجيد جين دي فاليري إلى الملك وقال ناصحاً له بأن ينتقل نحو اليمين باتجاه النهر، وبذلك سوف ينال دعم دوق بيرغندي، ولإعطاء الفرصة أيضاً لسيرجندية جلالته للشرب، لأن النهار أخذ يزداد حرارة بشكل كبير.

وأمر الملك سيرجنديته بالذهاب لإحضار الفرسان الجيدين من مستشاريه ممن كان على مقربة منه، مشيراً إلى كل واحد منهم بالاسم، وذهب السيرجندية وأحضروهم من وسط القتال الكثيف، حيث كانت الحرب محتدمة بين المسلمين وبين رجالنا، وجاءوا إلى الملك الذي سألهم بماذا يشيرون، فأجابوه بأنهم يعتقدون بأن نصيحة جين دي فاليري صحيحة جداً، بناء عليه أمر الملك حملة الأعلام بالسير مع راية القديس دنس العظمى باتجاه النهر، وعندما شرع الجيش بالتوجه إلى هناك، كانت هناك مرة ثانية أصوات مرتفعة جداً صدرت عن الأبواق وعن الطبول، وكذلك عن النفر الاسلامية.

وما كاد الملك يتقدم بضع خطوات حتى تلقى عدة رسائل من كونت بواتييه، ومن كونت دي فلاندرز، ومن رجال أخر كانوا في القيادات العليا، وكانوا هناك مع عساكرهم، وقد توسل الجميع إليه بعدم التحرك، لأنهم كانوا يتعرضون إلى ضغط شديد من المسلمين، إلى حد أنه لن يكون بإمكانهم اللحاق به، ومرة ثانية استدعى الملك ذوي

المكانة من فرسانه للتشاور معهم، وقد نصحوه بالانتظار، وجاء بعد قليل جين دي فاليري عائداً، وانتقد الملك ومستشاريه بسبب البقاء حيث هم، وبناء على ذلك نصح المستشارون الملك بالتحرك نحو النهر، حسبما أوصى جين دي فاليري.

وقدم في هذه اللحظة القسطلان ايمبرت دي بيجو ليخبر الملك بأن أخاه كونت دي أرتو كان يدافع عن نفسه في بيت في المنصورة، وليتوسل إلى جلالته للذهاب للتفريج عنه، فقال الملك: «امض أيها القسطلان أمامي، وأنا سوف أسير في إثرك»، وأخبرت القسطلان بأنني سوف أسير معه بمثابة فارسه، الأمر الذي شكرني عليه من قلبه، وهكذا شرعنا معا نأخذ طريقنا نحو المنصورة.

وفيما نحن ماضيان إلى هناك، جاء سيرجندي مسلح برمح، وسعى نحو القسطلان في وضع مضطرب جداً من الرعب، وأخبره بأن زحف الملك قد توقف، وأن المسلمين مركزوا أنفسهم بين جلالته وبيننا، والتفتنا فرأينا هناك مايزيد على الألف منهم بيننا وبين جيش الملك، ولم يكن تعدادنا أكثر من ستة، وبناء عليه قلت للقسطلان :«لايمكننا يامولاي العودة إلى الملك من خلال هذا الحشد من الرجال، لذلك دعنا نسير بالاتجاه المعاكس لجريان النهر، ولندع هذا الخندق الذي تراه أمامك بين الأعداء وبيننا أنفسنا، فبهذه الوسيلة يمكن أن نتدبر أمر العودة إلى الملك، وأخذ القسطلان بنصيحتي، لكن يمكن أن أؤكد لكم أن المسلمين لو انتبهوا إلينا أدنى انتباه، لقتلونا بكل تأكيد، وكانوا على كل حال، في ذلك الحين لايولون الاهتمام إلاّ إلى الملك ولكتائب الرجال الكبيرة، مهملين ما سوى ذلك، وهكذا افترضوا بأننا كنا بعضاً من رجالهم.

وبينما كنا عائدين نزولاً على شاطىء النهر، بين المجرى الفرعي والنهر الأساسي، شاهدنا بأن الملك بات قريباً من النهر، وكان المسلمون

يسوقون إلى الوراء كتائبه الأخرى، وهم يضربون ويطعنون فيها بالرماح وبالسيوف، ويرغمونها بالتدريج مع كتيبة الملك الخاصة على التراجع على طول النهر، وكانت الهزيمة هناك كاملة إلى حد أن كثيراً من رجالنا حاولوا السباحة عبر النهر للالتحاق بدوق بيرغندي، غير أنهم كانوا غير قادرين على فعل ذلك، لأن خيولهم كانت منهكة، والنهار صار حاراً جداً، ولهذا عندما كنا نازلين على محاذاة النهر باتجاههم، رأينا النهر مغطى بالرماح وبالترسة، ومليئاً بالرجال وبالخيول الذين كانوا يغرقون في الماء.

ولدى وصولنا إلى جسر صغير قائم على المجرى، قلت للقسطلان: «دعنا نقف هنا ونتولى حراسة هذا الجسر، لأننا إذا تركناه سوف يلقي المسلمون بأنفسهم على الملك من هذا الاتجاه أيضاً، وإذا ما هوجم جندنا من الجانبين لسوف يغلبون»، وهكذا فعلنا حسبما نصحت، وعلمنا فيما بعد أننا كلنا كنا سنقتل في ذلك اليوم لولا الملك، فقد أخبرني بيير دي كورتني وجين ساليني Saillenay بأن ستة من المسلمين قد أمسكوا بمقود فرس الملك، وكانوا يقودونه نحو الأسر، عندما قام بإنقاذ نفسه بدون مساعدة من أحد، بتوجيه ضربات كبيرة نحوهم بسيفه، وعندما رأى رجاله كيف يقوم الملك بالدفاع عن نفسه استردوا شجاعتهم، وتخلى كثير منهم عن التفكير بالنجاة عبر النهر، وتجمعوا للقيام بانقاذه.

وقدم مباشرة نحونا نحن الذين كنا نتولى حراسة الجسر الصغير الكونت بيير دي بريتاني، وقد تلقى ضربة عبر وجهه، كان الدم يسيل منها إلى فمه، وكان يمتطي فرساً رشيقاً جداً، وقد ألقى بمقوده فوق قربوسه، الذي أمسك به بكلتا يديه، خشية أن يقوم رجاله الذين كانوا يسيرون إلى جانبه للحصول على الطمأنينة، بقلعه من مكانه وهم يعبرون الجسر الصغير، ويبدو أن رأيه فيهم كان سيئاً، لأنه كان وهو

ينفث الدم من فمه قد تابع القول بصوت جهوري: «أيها الرب الطيب، هل رأيت قط مثل هـؤلاء الأوغـاد»؟ وجـاء بعـد رجـاله كـونت دي سواسون وبيير دي نوفيل Neuville، الذي كان لقبه «كيرCaier »، وكان كلاهما قد تلقى ما فيه الكفاية من الضربات ذلك اليوم.

وبعد ما عبر هؤلاء الرجال الجسر، رأى المسلمـون أننا نتولى حراسته ووجوهنا منصرفة نحوهم، لهذا توقفوا عن مطاردة كونت بيير وجماعته، ووقتها توجهت إلى كونت دي سواسـون، الذي صدف أنه كان ابن عم (خال) زوجتي، وقلت له: «أعتقـد ياسيدي أنه سيكون أمـراً مفيداً، إذا وقفت هنا لحراسـة هذا الجسر، لأننا إذا تركناه بدون حـراسـة سـوف يندفع المسلمـون عبره، ولسوف يتعـرض الملك إلى الهجـوم من كل من المقدمة ومـن الخلف»، وسألني فيها إذا بقي هو ، هل سأبقى معه هناك، فأجبتـه: «سـوف أفعل ذلك بكـل تأكيـد»، ولدى سماع القسطلان بهذا أخبرني أن لا أتحرك من مكاني حتى يعود، وقال بأنه ذاهب للبحث عن مساعدة لنا.

وبقيت حيث كنت هناك، ممتطيـا ظهـر جـوادي القـوي، وذلك مع كونت دي سـواسون من على يميني، وبيير دي نوفيـل من على يساري، وفجأة قـدم مسلم يركض بفرسـه نحونا من جهـة عساكـر الملك، التي كانت خلفنا، ووجه ضربة عنيفة جـداً لبيير من الخلف بدبوسه، فأرغمه على الإرتماء فوق رقبة حصـانه، ثم قفز عابراً للجسر، واندفع ليكون في وسط جماعته.

وعندما رأى المسلمون أننا لن نتخلى عن الجسر الصغير، عبروا مجرى النهر الصغير، وتمركزوا بينه وبين النهـر، مثلما فعلنا عندما كنا منحدرين على محاذاة النهـر، وبناء عليـه زحفنا نحـوهـم لنكون جـاهزين للحملة عليهم إذا مـا حاولوا المضي باتجاه عسـاكر الملك أو القيـام بعبور الجسر الصغير.

وكان أمامنا مباشرة اثنان من سيرجندية الملك، اسم أحدهما وليم دي بون Boon، واسم الآخر جين أوف غاماش Gamaches، وكان المسلمون الذين وقفوا بين مجرى النهر الصغير والنهر قد أحضروا معهم عدداً كبيراً من الفلاحين سيراً على الاقدام، وقد راح هؤلاء يقذفون هذين الرجلين بكدر الارض، غير أنهم لم يستطيعوا إرغامهم على التراجع إلى حيث كنا، وأخيراً جلب المسلمون رجلاً قصيراً، تولى رمايتهما بالنار الاغريقية ثلاث مرات متوالية، وحدث أن صدّ وليم أوف بون قدر النفط بوساطة ترسه، لأن اللهب لو أمسك أي طرف من ثيابه، لاحترق بكل تأكيد وهو حي.

وتغطينا جميعاً بالنشاب الذي أطلق على السيرجنديين ولم يصبهما، وصدف لحسن الحظ أن وجدت قميصاً إسلامياً محشواً بحشوتين، فقلبته ووضعت الجانب المفتوح باتجاهي، واستخدمته بمثابة ترس لي، وقد أفادني فائدة كبيرة، لأنني كنت مجروحاً بنشاب العدو بخمسة أماكن، مع أن فرسي كان مجروحاً في خمسة عشر مكاناً، وحدث أيضاً أن شخصاً جيداً من جوانفيل جلب إليّ قصبة ثُبت عليها رنوكي إلى سنان رمح، وكنا في كل وقت نرى فيه المسلمين يضغطون فيه بشدة على السيرجنديين، ننقض عليهم، ونجعلهم يفرون.

واستمر في هذا الوضع الصعب كونت سواسون الطيب، وفي تلك الساعة الحرجة كان يمزح ويقول لي بانشراح وفكاهة :«بحق قلنسوة الرب— فهذه كانت صيغة يمينه المحبب إلى نفسه— دع أيها النائب هؤلاء الكلاب ينبحون كما يريدون، ولسوف نتحدث عن هذا اليوم فيما بعد، أنا وأنت، ونحن جلوس في البيت مع زوجاتنا».

وفي ذلك المساء، عندما كانت الشمس موشكة على المغيب، جاء القسطلان مع مجموعة من رماة الزنبورك الرجالة التابعين للملك، الذين انتظموا في صف أمامنا، وما أن رآهم المسلمون يوترون جروخهم

بأقدامهم، حتى تركونا وفروا، وعندها قال القسطلان لي: «حسناً ما كان أيها النائب، اذهب الآن إلى الملك، ولاتفارقه حتى يعود ثانية إلى سرادقه»، وما أن وصلت إلى الملك، حتى جاء إليه جين دي فاليري وقال له: «ياصاحب الجلالة، يسألك صاحب شاتليون أن تعطيه إمرة ساقة الجيش»، ووافق الملك عن طيب خاطر، ثم شرع يتقدم نحو الأمام، وفيما نحن سائرون جعلته يخلع خوذته وأعرته قبعتي الفولاذية، عسى أن يتخلل بعض الهواء رأسه.

وبعدما عبر الملك النهر، جاء الراهب هنري دي روني Ronnay ، مقدم الاسبتارية، وقبل يده المدرعة، وسأله الملك إذا كانت لديه أية أخبار عن كونت أرتو، فأجابه المقدم، بأنه حقاً لديه أخباراً عنه، لأنه متأكد تماما من أن أخاه كان الآن في الفردوس، وأضاف هذا المقدم يقول: «أواه ياصاحب الجلالة، كن مرتاح الضمير، فما من ملك من ملوك فرنسا قد نال من الشرف مثل الذي نلته اليوم، لأنك من أجل أن تقاتل الأعداء، اجتزت النهر سباحة، حتى تهزمهم كلياً وتطردهم من الحقل، وفضلاً عن هذا لقد استوليت على آلاتهم، وكذلك على خيمهم التي سوف تنام فيها الليلة»، وأجابه الملك قائلاً: «دعنا نصلي للرب من أجل كل ما أعطاني إياه»، ثم أخذت دموع غزيرة تنحدر من عينيه.

وعندما وصلنا إلى المعسكر وجدنا بعض الرجالة من عساكر المسلمين يشدون حبال خيمة كانت قيد الفك، في حين كان عدد من عساكرنا يشدونها من الجانب الآخر، وهنا حملت أنا ومقدم الداوية على وسطهم، وهكذا هرب العدو، وبقيت الخيمة في أيدينا.

وفي أثناء مجريات معركة ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الناس، ومن ذوي المظهر الجميل أيضاً، الذين جاءوا مجللين بالعار فارين عبر الجسر الصغير الذي حدثتكم عنه، وقد هربوا والفزع قد استولى عليهم واستبد بهم، حتى أن محاولاتنا لجعلهم يقيمون معنا تبددت بدون فائدة،

وبإمكاني اخبـاركم ببعض أسمائهم، لكنني سأمتنع عن ذلك لأنهم أموات الآن.

وعلى كل حال لن أتجنب ذكر اسم غي موفوسين Mauvoisin ، لأنه عاد ممجداً من المنصورة، وسايرنا أنا والقسطلان طوال الطريق النهر، ولحق هوبنا، وعندما ضغط المسلمون بشدة على كونت دي بريتاني وعلى رجاله، وضايقوا موفوسين ورجاله، نال رجال موفوسين وهو أيضاً مجداً عظيماً لجانبهم في قتال ذلك اليوم، وليس عجباً ما فعلوه في ذلك اليوم، لأن— كما علمت من الذين عرفوا تشكيلة قواته— جماعته تكونت— باستثناء عدد قليل— من فرسان كانوا إما من أفراد أسرته أو من أتباعه الاقطاعيين.

وبعدما هزمنا المسلمين، وطردناهم من خيمهم، وفي حين ترك أصحابنا مخيمهم فارغاً اندفع البداة للقيام بنهبه، لأن المسلمين الذين كانوا معسكرين هناك كانوا رجالاً من ذوي المراتب العالية وأصحاب الممتلكات العظيمة، ولم يترك اللصوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كل شيء خلفه المسلمون، وعلى كل حال، لم أسمع بأن البداة، مع أنهم كانوا رعايا للمسلمين، قد كانوا أقل تقديرا، لاقدامهم على السرقة، ولحملهم هذه الأسلاب، لكن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عدّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم.

وفيما يتعلق بموضوعي، سوف أخبركم أي نوع من الناس البداة هؤلاء: إنهم لايتبعون محمداً (صلى الله عليه وسلم) بل يقبلون تعاليم علي (رضي الله عنه)، الذي كان (ابن) عم محمد (صلى الله عليه وسلم) (ومثل هذا الموقف يتبناه شيخ الجبل، الذي يتزعم الحشيشية، وهذه هي قناعاته أيضاً) ويعتقد هؤلاء القوم أن الانسان عندما يموت في سبيل مولاه، أو لأي سبب آخر جيد، تذهب روحه لتحل في انسان آخر، هو أحسن حالاً وأكثر سعادة من المتقدم، ولهذا السبب لايعبأ الحشيشية

بالقتل سوى قليلاً عندما ينفذون أوامر مقدمهم، وعلى كل حال لن أتحدث الآن أكثر عن شيخ الجبل، بل سأقصر حديثي عن البدو وحدهم:

ولايعيش هؤلاء القوم في قرى أو في مدن أو في قلاع، بل ينامون دوما في العراء، وفي أثناء الليل، أو في أثناء النهار عندما تكون الأحوال الجوية سيئة يتخذون بيوتاً لخدمهم ولزوجاتهم ولأولادهم، مما يشبه أكواماً من البراميل مربوطة إلى أعمدة، تشبه بعض الشيء محفات السيدات، ويلقون فوق هذه الأكوام جلود الأغنام، المعالجة بالشب، والتي تعرف باسم الجلود الشامية.

وارتدى البداة عباءات كبيرة من الصوف، كانت تغطي الجسد كله، بما في ذلك الساقين والقدمين، وعندما كانت تمطر في المساء، أو عندما تكون الأحوال الجوية سيئة في الليل، كانوا يلفون أنفسهم بالعباءات، ووقتها كانوا ينزعون اللجم من أفواه خيولهم، ويتركونها تقتات من الأعشاب قربهم، ويقومون في الصباح بنشر عباءاتهم في الشمس ثم يقومون بفركها واعطائها وجبة جديدة من الشب، وبعد ذلك لايبقى فيها أدنى أثر على أنها كانت مبللة.

وهم يعتقدون أن ما من واحد يمكن أن يموت قبل اليوم المحدد له، ولهذا السبب يرفضون ارتداء أي نوع من أنواع الدروع، وكلما أرادوا شتم أولادهم كانوا يقولون لأحدهم «عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع خوفاً من الموت»، ولايحملون أثناء القتال شيئاً سوى السيوف أو الرماح.

ويرتدي كلهم تقريباً فرجية طويلة تشبه الرداء الخارجي الذي يرتديه الكهنة، ويلفون رؤوسهم بأقمشة تمضي حتى تحت ذقونهم، وهكذا يبدو هؤلاء بألوان شعورهم السوداء كالفحم وكذلك ألوان لحاهم، ذوي

شكل قبيح، ومن المرعب أن تنظر إليهم.

وهم يعيشون اعتماداً على ما يقتـاتونه من حليب مواشيهم، ويدفعون ايجاراً إلى الرجـال الأغنياء الذين يمتلكون بسـائط للرعي، منها تقتـات هذه الحيـوانات، ومـا من انسـان يمكنه أن يذكـر تعـداد هؤلاء الناس، ذلك أنهم يعيشـــون في مملكة مصر، وفي مملكـة القـــدس، وفي البلدان الأخرى العائدة للمسلمين وللشعـوب الكافرة الأخرى، الذين يدفعون إليهم مبالغ كبيرة من المال بمثابة جزية كل عام.

ولقد صـدفت في بلادنا، بعد ما عدت من بلاد مـاوراء البحر، بعض المسيحيين غير المخلصين، الذين يؤمنون مثل البداة، في أن مـا من انسان يمكن أن يمـوت إلاّ في اليـوم المكتـــوب له، وفي هذا الاعتقـاد إنكار لديننا، لأنه يقود إلى القـول بأن الرب لاقدرة لديه على عـوننا، وبالنسبة للذين يعبدون الرب منا، سوف يكونون في الحقيقة حمقى، إذا لم يعتقدوا بأن الرب لديـه القـدرة على إطالة أعمارنـا، وعلى حفظنا من الشر، ومن سوء الحظ، ومن المؤكد تماما وجوب إيماننا به، والاعتقاد أنه لديه القدرة على فعل كل شيء.

الفصل الثامن
نصر وعقابيله
شباط — نيسان ١٢٥٠

ولسوف أتابع الآن حديثي لأخبركم، أنه عند حلول الظلام، قام الملك، وقام المتبقي منا، بعد عودتنا من المعركة المرعبة، التي وصفتها للتو، بالاستقرار في المكان نفسه الذي اقتلعنا الأعداء منه، وجلب لي رجالي الذين بقيوا في المعسكر، الذي انطلقنا منه أولاً، خيمة، كان الداوية قد أعطوني إياها، ونصبوها أمام الآلات، التي استولينا عليها من المسلمين، والتي وضع لها الملك من يتولى حراستها.

وعندما عدت أخيراً إلى فراشي، حيث كنت بالحقيقة بحاجة ماسة إليه، بسبب الجراح التي نلتها أثناء النهار، لم أنل طعم الراحة، فقبل بزوغ فجر النهار دوى صوت خلال المعسكر ينادي:«إلى السلاح، إلى السلاح»، فأيقظت حاجبي الذي كان نائماً عند طرف فراشي، وطلبت منه الذهاب لرؤية ما الذي كان يجري، ولقد رجع وهو يرتجف من الرعب، وصرخ:«انهض، يامولاي انهض، المسلمون هنا،لقد جاءوا حشداً على الأقدام، وخيالة،وهزموا سيرجندية الملك الذين كانوا يحرسون الآلة، وطردوهم حتى حبال سرادقاتنا».

ونهضت، وألقيت قميصاً مبطناً على ظهري، ووضعت قبعة من الفولاذ فوق رأسي، وهتفت رافعاً صوتي إلى سيرجنديتنا:«بحق القديس نيقولا،لن يبقواهنا»، وتحلق فرساني من حولي، مع أنهم كانوا جميعاً جرحى، وطردنا الجنود المسلمين وأبعدناهم عن آلاتنا، حتى وصلوا إلى قواتهم من الخيالة، الذين كانوا قرب الآلة التي كنا قد أخذناها منهم، وبعثت إلى الملك أطلب المساعدة، لأنه لم يكن لابإمكاني ولابإمكان

فـرســاني لبس الدروع بسبب الجراح التي أصبنـا بها، وأرسل الملك لنا غوتيير دي شاتليون، الذي تمركز أمامنا بين المسلمين وبيننا أنفسنا.

وعندمـا رد المدافعون منا الرجـالة المسلمين، تراجع هؤلاء والتحقـوا بكتلة كبيرة من الخيالة المسلمين، الذين اصطفوا أمام معسكرنا، ليحولوا بيننا وبين القيـام بهجوم مفـاجىء على الجزء الرئيسي مّن جيشهم، الذي كان معسكراً خلفهم، وكـان ثمانية من القـادة الرئيسيين لهذه الكتلة، قد ترجلوا، وهم شاكي السـلاح، وأقاموا نوعاً من أنواع السـواتر الدفاعية من الحجـارة المنحـوتة، حتى لا يتمكن رمـاة جـروخنـا من جـرحهم، وأطلق هؤلاء الرجـال الثمانيـة سحـابة إثـر سحـابة من النشـاب إلى معسكرنا، فجرحوا عدداً من رجالنا ومن خيولنا.

وبعدمـا تشاورنا معاً، اتفقت أنـا وفرساني، أنه مـا أن يسدل الظلام، سنقـوم بإزالة الحجـارة التي تحصن خلفهـا هؤلاء الرجـال، ولم يستطع كـاهن تابـع لي كـان بيننا أثناءمناقشـاتنا،أن ينتظر طـويلاً، فغـادر مخيمنا وحده فقط، وكـان يرتدي قميصاً، وقبعـة فولاذية فـوق رأسه، وزحف نحو المسلمين، يجر رمحه خلفه، وقد وضعه تحت ذراعه، وسنانه مصوب نحو الأرض حتى لايبصره المسلمون.

واقترب من المسلمين، الذيـن ازدروه لأنهم رأوه أنه كــان وحيــداً، وسحب رمحه من تحت ذراعــه بسرعة وركض نحوهــم، ولم يفكر واحد من الثمانيـة بالدفاع عن نفســه، بل الجميع نكصوا على أعقـابهم وهربوا، وعندمـا رأى المسلمــون الخيـالة أن سـادتهم يفـرون نحــوهم، بادروا مسرعين نحو الأمـام لإنقاذهم، وفي الـوقت نفسه قـدم حوالي الخمسين من سيرجنديتنا منـدفعين إلى خـارج المعسكر، وتابع الخيــالة المسلمـون حث خيـولهم على التقـدم، ولكنهم لم يتجرأوا على مهـاجمة رجـالتنا، بل انحرفوا جانباً بشكل مفاجىء.

وكرروا هذا الذي فعلوه مرتين أو ثلاث مرات، وقام واحد من سيرجنديتنا بإمساك رمحه من وسطه وقذف به نحو واحد من المسلمون، وبذلك طعنه بين أضلاعه، ونكص الرجل المطعون على عقبيه، ورجع والرمح معلق من سنانه في جسده، ولدى رؤية المسلمين لهذا لم يعودوا يتجرأون على التقدم، وتراجعوا من أمامنا، وتولى على الفور سيرجنديتنا إزاحة الحجارة، ومنذ تلك الساعة وفي المستقبل بات كاهني معروفاً في أرجاء الجيش كله، وكان أحد الناس يقول للآخر وهو يشير إليه: «انظر ذلك هو كاهن مولاي صاحب جوانفيل، الذي هزم المسلمين الثمانية».

وجرت الأحداث التي توليت ذكرها في أول الصوم الكبير، وقام في ذلك اليوم نفسه واحد من المسلمين الشجعان— الذي انتخبه المسلمون قائداً لهم في مكان فخر الدين ابن الشيخ، الذي فقدوه في معركة يوم ثلاثاء المرافع — بحمل سابغة ودروع كونت دي أرتو، الذي قتل في المعركة نفسها، وعرضهم أمام شعبه، مخبراً إياهم بأن المعروض هو دروع الملك وسابغته، وأن الملك نفسه قد مات.

وقال لهم: «إنني أريكم هذه المغانم، لأن جسماً بلا رأس ينبغي ألا يخيف، وكذلك شعباً بلا ملك، ولذلك إذا ما أردتم وكنتم على استعداد، سوف نهاجمهم يوم الجمعة، ويبدو لى إن عليكم أن توافقوا على هذا، لأننا لن نخفق في قهرهم جميعاً، طالما أنهم فقدوا قائدهم»، ووافق الجميع على الهجوم علينا في يوم الجمعة.

وقدم بعد هذا جواسيس الملك الذين كانوا في معسكر المسلمين، إليه، وهم يحملون إليه أخبار مشروع الهجوم، وبناء عليه أمر جلالته جميع الأمراء القياديين لديه والمتولين قيادة مختلف الفرق، بأن يقوموا بتسليح رجالهم في منتصف الليل، وأن يقوموا بصفهم فيما بين الخيم، والسياج الممدود حول المعسكر، وكان هذا معمولاً من أوتاد خشبية طويلة لمنع المسلمين من الإغارة بشكل مفاجيء على معسكرنا، ومع

هذا كانت هذه الأوتاد مثبتة بالأرض بطريقة كان من الممكن المرور فيما بينها على الأقدام، وتم تنفيذ أوامر الملك حسبما كان قد أصدرها تماماً.

ومع إشراق الشمس تماماً، قام المسلم، الذي أشرت إليه على أنه القائد المنتخب للمسلمين، بقيادة أربعة آلاف من الخيالة المسلمين، الذي تولى صفهم وبثهم حول معسكرنا وحوله شخصياً، وذلك في تشكيلة امتدت من النهر الذي يأتي من القاهرة إلى النهر الذي يخرج من معسكرنا نحو بلدة تدعى رشيد(اقرأ : أشموم طناح)، وجلب بعد هذا كتلة كبيرة جداً من المسلمين الرجالة، الذين تولوا تطويق معسكرنا بالطريقة نفسها، وإلى جانب هاتين الكتلتين من العساكر اللتين أتيت على ذكرهما للتو، كانت جميع قوات سلطان القاهرة واقفة بالقرب، وجاهزة لتقديم العون للآخرين إذا ما احتاجوا إلى ذلك.

وما أن جرى تنفيذ هذه العملية، حتى قدم قائد المسلمين لوحده، وكان يمتطي على مهر صغير الحجم، وقد تقدم نحو الأمام لاستطلاع أوضاع عساكرنا، وكان كلما رأى قواتنا في أحد الأماكن كانت أقوى ممن يقابلها، كان يعود ليجلب المزيد من الرجال، ليقوم بدعم كتائبه ضدنا، وأرسل بعد هذا بالبداة، الذين كان منهم هناك ما لايقل عن ثلاثة آلاف، ووجههم للزحف ضد المعسكرالذي كان بأيدي دوق بيرغندي، الذي كان قائماً بين النهرين، وفعل هذا لأنه اعتقد بأن الملك سوف يرسل بعضاً من رجاله لمساعدة الدوق ضد البداة، وبذلك يضعف قواته.

واحتاج هذا المسلم حتى منتصف النهار ليقوم بهذه الترتيبات، ثم أصدر أوامره بقرع الطبول، وعلى الفور قامت القوات الاسلامية جميعها من رجّالة وخيالة بالحملة علينا، حملة رجل واحد، وسوف أحدثكم أولاً عن ملك صقلية(الذي كان في ذلك الوقت كونت دي أنجو)لأنه كان في طليعة جيشنا على الطرف المتجه نحو القاهرة، فقد أنشب

الأعداء القتال معه وفق طريقة اللعب بالشطرنج، حيث أرسلوا أولاً رجّالتهم نحو الأمام لقتاله، وبعثوا أيضاً الذين قذفوا النفوط(النار الاغريقية) نحو عساكره، ثم ضغط المسلمون جميعاً من خيالة ورجّالة بشدة متناهية على عساكرنا، إلى حد أن ملك صقلية الذي كان مترجلاً واقفاً بين فرسانه قد قهر تماماً.

. وجاء رسل إلى الملك لويس لإخباره عن الخطرالعظيم الذي أحاق بأخيه، ولدى سماعه بهذا اندفع وقد غمز حصانه حتى كان وسط قوات أخيه، واندفع بين صفوف المسلمين والسيف بيده، حتى أنهم أحرقوا حصانه وتجافيفه بالنفوط(النار الاغريقية)، لكن بحملة ملكنا هذه، أنقذ ملك صقلية، وطرد المسلمين من المعسكر.

وكان التالي لعساكر ملك صقلية فرقة بارونات ماوراء البحر، بقيادة غي دي إيبلين مع أخيه بلدوين، وتلا هذه القوات فرقة كانت بقيادة غوتيير دي شاتليون، وكانت مشحونة برجال أشاوس تماماً، كلهم مشهور بشجاعته وأعمال فروسيته، ودافعت هاتان الفرقتان عن أنفسهما بفعالية، لهذا لم يتمكن المسلمون من خرق صفوفهما أو ارغامهما على التراجع نحو الخلف.

وكان التالي في تلقي حملة الأعداء الأخ الراهب وليم دي سيناك Sennac، مقدم الداوية، وذلك مع الأعضاء القلة الذين بقيوا من طائفته، بعد معركة ثلاثاء المرافع، وقد امتلك متراساً أقيم أمام رجاله، وقد صنع من الآلات التي استولينا عليها من المسلمين، وعندما زحف العدو لقتالهم قذف بالنفوط (النار الاغريقية) على السواتر الدفاعية التي أقاموها، ولقد التقطت النار بسرعة، لأن الداوية استخدموا كميات كبيرة من الألواح في انشائها، ولم ينتظر المسلمون النيران حتى تخمد بعد اكتمال الاحتراق، بل اندفعوا وقاتلوا الداوية وسط اللهب، وفقد مقدم الداوية في هذا الاشتباك احدى عينيه، وكان قد فقد العين الأخرى في

يوم ثلاثاء المرافع، ولقد نجم عن هذا الحادث موته، منحه الرب الرحمة، وكـان خلف الداوية شريط من الأرض، تسـاوي مساحتـه مسـاحة مـا يمكن لعامل أن يفلحه في يوم، وكانت هذه المنطقة مغطاة بشكل كثيف بنشاب المسلمين، إلى حد أنه لم يكن بإمكانك رؤية الأرض تحتهم.

وكان التالي لقوات الداوية العساكر التي قادها غي موفوزين Mau-voisin ، وهذه العسـاكـر لم يستطع المسلمـون هزيمتهـا أبداً، ومع هذا استطاعوا غمره شخصيـاً تماماً بالنار الاغريقية، حتـى أن رجاله وجدوا صعوبة بالغة في إطفائها.

وشروعـاً من المكان الذي كـان غي مـوفـوزين معسكراً فيـه، امتـد السيـاج الدفاعي الذي أحـاط بمعسكرنا نحو النهـر ولم يبعد إلاّ قـرابة رميـة حجـر، ومرّ هذا السيـاج من هناك من أمـام العسـاكـر التي تولى قيادتها الكونت وليم دي فـلاندرز، وامتد بعيداً حتى النهـر الذي يتدفق باتجاه البحـر، وواجهت فرقتنا السيـاج الدفاعي على الجانب نفسـه مثل فرقـة غي موفوزين، لكن بما أن رجـال كونت دي فلاندرز قـد تمركزوا أمام جيش المسلمين مبـاشرة، لم يغامر المسلمون على القـدوم ومهاجمتنا، وفي هذا المجـال عاملنـا الرب بنعمة عظيمـة، لأنني لم أكن أنا شخصيـاً ولا فـرسـاني نرتدي الدروع أو نحمل الترسـة، بسبب الجراحـات التي أصبنا بها في معركة يوم ثلاثاء المرافع.

وقام المسلمون الرجّالة منهم والخيـالة بهجوم فغال وشجاع جداً على كونت دي فلاندرز، وعندما رأيت الذي يجري أمرت رماة الزنبورك من رجـالي بالرمـي على الخيـالة، ومـا أن رأى هؤلاء الرجـال أنهم أخـذوا يتعـرضـون للجـراحـات من جـانبنا، حتـى بادروا إلى الفـرار، ولدى رؤيتهم يفـرون، غادر رجال الكونـت المعسكر، وقفزوا فـوق الحواجز، وركضوا بين الرجـالة المسلمين وتغلبوا عليهم، وتمّ قتـل عدد كبير من الأعـداء، وتم الاستيـلاء على كثير مـن ترستهم، وأبدى غـوتيير دي لي

هورن Horgne، الذي حمل راية صاحب أبريمونت شجاعة عظيمة، وفعالية في عملية الصد هذه.

وكانت الفرقة التالية التي اشتبكت بالأعداء الفرقة التي قادها أخو الملك كونت بواتييه، وكانت قوات هذه الفرقة من الرجّالة، وكان الكونت وحده هو الذي امتطى جواداً، وقد ألحق المسلمون بهذه الفرقة هزيمة ساحقة، وحملوا كونت بواتييه أسيراً، وعندما رأى الجزارون والعاملون الآخرون في المعسكر، بما في ذلك النساء اللائي تولين بيع المؤن، هذه الواقعة، رفعوا أصواتهم بالصراخ المنذر في أرجاء المعسكر، وبمعونة الرب جرى انقاذ الكونت، وطرد المسلمين من محلاتنا.

وجاء بعد العساكر التي قادها كونت دي بواتييه، القوات التي قادها جوسراند دي برانكيون، الذي كان قد جاء إلى مصر مع الكونت، وكان واحداً من أفضل الفرسان في الجيش، وقد عبأ قواته بأن جعل جميع فرسانه رجّالة، بينما ركب هو نفسه فرساً، ومثله فعل ابنه هنري وابن جوسراند دي نانتون Nanton ، وقد وضعه أيضاً على ظهر فرس لأنهما كانا مايزالان في مقتبل العمر، وكسب المسلمون الجولات القتالية عدة مرات، غير أنه كان كلما رأى رجاله في شدة، كان يغمز حصانه ويهاجم الأعداء من الخلف، وفي عدة مناسبات من هذا القبيل تخلى المسلمون عن مضايقة رجاله ليقوموا بالهجوم عليه.

إلاّ أن هذا كله ما كان ليحول بين المسلمين وبين قتلهم جميعاً على أرض ميدان المعركة، لولا وجود هنري دي كون Cone، الذي كان فارساً عاقلاً، وشجاعاً، وثاقب الرأي تماماً، وكان موجوداً في فرقة دوق بيرغندي، حيث كان كلما رأى المسلمين يضغطون بشدة على اللورد برانكيون وقواته، كان يجعل رماة القسي العقارة التابعين للملك يقومون بالرماية عليهم من عبر النهر، وهكذا بقي جوسراند دي برانكيون سالماً من رعب ذلك اليوم، لكن ليس بدون فقدان اثني عشر فارساً من بين

العشرين الذين كانوا معه، وذلك بصرف النظر عن الرجال الآخرين الذين كانوا من المراتب الأدنى، يضاف إلى هذا أنه هو نفسه قد أصيب إصابة بالغة، حتى لم يعد بمقدوره منذ ذلك الحين الوقوف على قدميه، وفي النهاية مات بسبب الجراحات التي تلقاها أثناء خدمته للرب.

ولسوف أخبركم الآن ببعض المزيد عن جوسراند دي برانكيون، ففي الوقت الذي توفي فيه كان قد شارك في ست وثلاثين معركة واشتباك صغير، وحمل دوماً الجائزة لشجاعته، ولقد قابلته مرة عندما كنا معا في حملة عسكرية قادها ابن عمه كونت دي شالون Chalon ، وقد جاء إليّ في يوم الجمعة الحزينة وقال لي ولأخي: «تعالا ياولدي أخي وساعداني، أنتما ورجالكما، لأن الألمان يقومون بتدمير الكنيسة»، ومضينا معه وانقضضنا على الألمان وسيوفنا مشهورة، وبعد صعوبة كبيرة، وصراع عنيف طردناهم من الكنيسة.

ولدى انتهاء هذه المعركة، ركع هذا الرجل أمام المذبح، ودعا بصوت مرتفع إلى مخلصنا قائلاً: «مولاي، أرجوك أن ترحمني، وأن تنتشلني من هذه الحروب بين المسيحيين، التي أنفقت فيها شطراً كبيراً من حياتي، وامنحني امكانية الموت في خدمتك، ومن ثم التمتع بملكوتك في الجنة».

ولقد أخبرتكم بهذه الأشياء لاعتقادي بأن ربنا قد استجاب لدعائه، حسبما يمكنكم استخلاص ذلك مما قلته من قبل.

وبعد هذه المعركة، التي وقعت في الجمعة الأولى من الصوم الكبير، استدعى الملك لويس جميع باروناته للمثول أمامه، وقال لهم: «ينبغي علينا تقديم الشكر العظيم لمخلصنا، الذي أسبغ علينا فضله وشرفنا مرتين خلال هذا الاسبوع: في يوم ثلاثاء المرافع، عندما طردنا العدو من المخيم الذي نسكنه نحن أنفسنا الآن، وعلى يوم الجمعة التالي، الذي

مرّ للتو، الذي دافعنا فيه عن أنفسنا ضد أعداء هاجمونا وهم على ظهور الخيول، في حين كنا رجالة فقط»، وقال الملك أيضاً أشياء لطيفة وخيرة كثيرة لباروناته، ليواسيهم، وليبعث فيهم روح شجاعة جديدة.

وأجد وأنا أتابع سياق روايتي من الضروري ملامسة بعض القضايا المكملة، ولهذا إنه من المفيد التوقف عند هذه النقطة لأوضح كيف احتفظ السلاطين بقواتهم بشكل حسن، وفي أحوال جيدة، ونحن نعلم بشكل مؤكد أن معظم الشخصيات القيادية في جيوشهم كانوا من الأجانب، الذين جلبهم التجار من بلدان أخرى لبيعهم، وهم الذين كان المسلمون يقبلون بسرور على شرائهم، حتى مقابل أسعار عالية جداً، وجلب هؤلاء الناس الذين أحضرهم التجار إلى مصر، بالغالب من الشرق، لأنه عندما كان واحد من الحكام الشرقيين يهزم حاكماً آخر كان يستولي على البؤساء الذين قهرهم، ويبيعهم إلى التجار، الذين كانوا يقومون بدورهم بجلبهم وبيعهم مجدداً إلى المصريين.

وإذا كان أي من هؤلاء أطفالاً، فقد كان السلطان يتولى تربيتهم في بيته الخاص حتى تبدأ لحاهم بالنمو، وكان يراعي أن يرى في أيديهم قسياً موائمة لقواهم، وعندما كانوا يزدادون قوة كان يأمر بالقسي الضعيفة لتودع في دار الصناعة، ويجعل المعلم العام المسؤول عن النظام أن يقوم بتجهيزهم بأقوى القسي التي يمكن لهم ايتارها.

وكان هؤلاء الغلمان يعرفون باسم البحرية (أو الناس من البحر)، وكانوا يتمتعون بامتياز ارتداء دروع الرنوك نفسها— التي كانت من الذهب— مثلما يرتدي السلطان نفسه، وما أن كانت لحاهم تبدأ بالنمو، حتى كان يجعلهم فرساناً، ويستمرون في حمل رنوكه، لكن مع شيء من الخلاف، أي أن تقول أنهم كانوا يضيفون بعض الأشكال القرمزية، مثل الورود، أو الخطوط، أو الطيور، أو تصاميم أخرى، تبعاً لإختيارهم.

وهم يعرفون الآن باسم (جند) الحلقة (أو الحرس الملكي)، لأنهم ينامون في خيم السلطان، وكانوا يعطون، عندما يكون في المعسكر، أماكن مجاورة له، ويتولون حراسته شخصياً، وكان حجّاب السلطان يعيشون في خيمة صغيرة عند المدخل إلى محلاته مع عازفيه، الذين كانت أدواتهم الرئيسية: الأبواق، والطبول وأنواع من الكوسات، وكانوا يحدثون جلبة عظيمة بهذه الآلات عند اشراق الشمس وعند غيابها، تجعل من المستحيل على الذين قربها سماع أحدهم حديث الآخر إليه، وكان الصوت يسمع بشكل واضح في جميع أرجاء المعسكر.

ولايقدم العازفون مطلقاً على استخدام آلاتهم أثناء النهار، إلاّ بناء على أوامر مقدم الحلقة، ومتى ما رغب السلطان بقيامهم بالعزف كان يرسل هذا المقدم إليهم ويعطي الأمر من خلاله، وعندها كان مقدم الحلقة يعمد إلى اصدار الأمر للعازفين بالعزف، ووقتها يجتمع الجيش كله لسماعهم، فهكذا كانت طبيعة أوامر المقدم، وهي كانت مطاعة بشكل طبيعي.

وإثر ذهاب السلطان إلى حرب ما، كان يقوم بتأمير فرسان الحلقة الذين ميزوا أنفسهم أثناء القتال، ويعينهم قادة لمائتين أو ثلاثمائة من الفرسان، وكانوا كلما برهنوا على المزيد من شجاعتهم، كلما زاد من عدد الفرسان الموضوعين تحت قيادتهم.

وكانت المكافأة الخاصة التي تحفظ لتميزهم في الخدمة هي كما يلي: عندما يصبحون مشهورين جداً، وأقوياء إلى درجة أن ما من أحد يتجرأ على تحديهم، والسلطان يخشى أن يقتلوه، أو أن يغتصبون محله، كان يأمر باعتقالهم واعدامهم، ومن ثم حرمان زوجاتهم من كل شيء كانوا قد امتلكوه، فعلى هذه الصورة تعامل السلطان مع الذين تولوا أسر كونت دي مونتفورت، وكونت دي بار Bar ، وكذلك تصرف أيضاً البندقداري، وفعل مع الذين هزموا ملك أرمينيا، فقد كان هؤلاء

يتوقعون نيل جائزة ما، ولذلك ترجلوا وذهبوا لتقديم احتراماتهم للبندقداري أثناء قيامه باصطياد بعض الحيوانات الضارية، وقد ردّ عليهم بقوله: «لاتحية لكم عندي» لأنهم قطعوا عليه صيده، وأمر بقطع رؤوسهم.

ولسوف أستأنف الآن حكايتي كيف أن السلطان المتوفى كان لديه ولداً (توران شاه) كان حكيماً، ولبقاً وداهية، وخشية من السلطان أن يقوم هذا الشاب بخلعه، أعطاه مملكة امتلكها في الشرق (قلعة كيفا)، وبعد وفاة السلطان بعث الأمراء إلى الابن، الذي ما أن عاد إلى مصر حتى انتزع الصولجانات الذهبية من ذوي المراتب من أمراء أبيه، مثل الأتابك، والاسفهلار وناظر الجيش، وأعطاهم إلى رجال قدموا معه من الشرق.

وعندما وجد الأمراء الثلاثة أنفسهم هكذا محرومين من وظائفهم، غضبوا غضباً شديداً، وكذلك فعل بقية الأمراء من مستشاري السلطان المتوفى، وقد شعر الجميع بالإهانة الكبيرة من الحاكم الجديد، واقتنعوا بأن الابن سوف يعاملهم مثلما تعامل الأب مع الذين كانوا قد أسروا كونت دي بار، وكونت مونتفورت، لذلك دخلوا بمباحثات مع جند الحلقة، الذين كان واجبهم كما أخبرتكم، حراسة شخص سيدهم، ونالوا وعداً منهم أنه ما أن يطلب منهم الأمراء قتل السلطان حتى يقوموا بفعل ذلك.

وبعد انقضاء المعركتين اللتين توليت وصفهما مرّ الجيش بحقبة عصيبة جداً، فبعد مضي تسعة أيام طفت جثث قتلانا الذين فتك المسلمون بهم على سطح الماء، ويقال بأن مرد هذا إلى حقيقة تفجر الصفراء، وجاءت هذه الجثث طافية مندفعة مع التيار حتى وصلت إلى الجسر الذي كان قائماً بين معسكرينا، ولم تستطع هذه الجثث المرور من تحت الجسر، لأن الماء كان عالياً قد وصل حتى القناطر، وكانت هناك

كثرة كثيرة جداً منهم إلى حد أن النهر امتلأ تماماً بالجثث بالطول وبالعرض من ضفة إلى ضفة أخرى، وكان المجرى مغطى بها مسافة رمي حجر صغير.

واكترى الملك مائة من الرجال القساة الأشداء، وقد احتاج هؤلاء مدة أسبوع حتى تمكنوا من تنظيف النهر، وقد قذفوا بجثث المسلمين عبر الطرف الآخر من الجسر، وقد تعرفوا عليهم من ختانهم، وقد تركوهم ليحملهم التيار، وجرى دفن الصليبيين جميعاً في خنادق عظيمة، وقد رأيت حاجب كونت دي أرتو مع عدد كبير آخر من الناس كانوا يبحثون عن أصدقائهم بين الموتى، لكنني لم أسمع أن أياً منهم قد عُثر عليه هناك.

وكان نوع السمك الوحيد الذي أكلناه طوال الصوم الكبير، هو أفاعي الماء، لأنها كانت مخلوقات شرهة، تتغذى على جثث الأموات، وبسبب هذه الأوضاع السيئة، ونتيجة للمناخ غير الصحي — لأنه لم يهطل في مصر ولا قطرة ماء واحدة — انتشر وباء مروع في جميع أرجاء الجيش، وكان من النوع الذي سبب جفاف جلود أرجلنا، ومن ثم أصبح الجلد مغطى ببقع سوداء، ثم كان يتحول إلى لون التراب مثل لون حذاء قديم، ومع الإصابة بهذا المرض الشديد، عانى الذين تعرضوا من مرض آخر سبب تورم اللثث وإصابتها بالغنغرينا، وما من واحد وقع ضحية لهذه العلة، كان بإمكانه بأن يأمل بالشفاء، لكنه كان متأكداً من الوفاة، وكانت العلامة المؤكدة على اقتراب الوفاة الرعاف من الأنف.

وقام المسلمون بعد مضي أسبوعين بإجراءٍ سبب صدمة هائلة لشعبنا، فمن أجل إجاعتنا حملوا عدداً من غلايينهم التي كانت تطفو فوق سطح الماء قرب معسكرنا، وبعدما سحبوها فوق اليابسة، أعادوا إنزالها إلى النهر، على بعد فرسخ دون المكان الذي كانت خيمنا منصوبة فيه،

وسببت هذه الغلايين حدوث مجاعة بيننا،فبسببهم لم يعد أحد يتجرأ على القدوم عبر النهر من دمياط ليجلب لنا ميرة جديدة وأطعمة، وكنا نحن أنفسنا جاهلين تماماً بهذا، حتى تمكنت سفينة صغيرة، كانت عائدة إلى كونت فلاندرز، من الافادة من التيار، فأفلتت من الحاجز، وأعطتنا أخبار وضع العدو، وأعلمتنا في الوقت نفسه أن غلايين السلطان قد استولت على ما يقارب الثمانين من غلاييننا عندما كانت قادمة عبر النهر من دمياط، وقتلت كل إنسان كان على متونها.

والمحصلة كان هناك ندرة عظيمة وانعدام للمؤن في المعسكر، وبلغ الأمر حداً أنه جرى تقدير ثمن الثور في عيد الفصح بثمانين ديناراً، والشاة الواحدة أو الخنزير بثلاثين ديناراً للرأس الواحد، في حين بلغت قيمة البيضة اثني عشر درهماً، وكان عليك أن تدفع عشرة دنانير مقابل البرميل من النبيذ.

وعندما أجرى الملك والبارونات استعراضاً للوضع، قرروا وجوب تغيير مكان معسكره الذي كان قائماً على الطرف المتجه إلى القاهرة، ونقله إلى المكان الذي كان دوق بيرغندي معسكراً فيه، وذلك على طول النهر الذي كان يجري نحو دمياط.

ولكي يضمن الملك جمع قواته مع أكبر قدر من السلامة، أمر بتشييد برج أمام الجسر بين المعسكرين، وقد بني وفق طريقة لايتمكن فيها أحد من دخول الجسر على ظهر حصان من أي من الجانبين.

وما أن أصبح هذا البرج جاهزاً، حتى تولى الجند تسليح أنفسهم جميعاً، وانتهز المسلمون هذه الفرصة، وقاموا بهجوم على معسكرنا، ولم يتقدم على كل حال لا الملك ولا جيشه نحو الأمام حتى كانت الأثقال كلها قد نقلت عبر النهر، وبعد هذا جاز هو على رأس رجاله، وتبعه جميع البارونات، وذلك باستثناء غوتيير دي شاتليون، الذي كان قائداً

لقوات الساقة، وفي الوقت الذي كانت القوات تدخل فيه إلى البرج للجواز، ذهب إيرارد دي فاليري لإنقاذ أخيه جين،، الذي أسره المسلمون وكانوا على نية حمله بعيداً.

وعندما نجز عبور الجزء الأساسي من الجيش، بات الذين بقيوا في البرج عرضة لخطر عظيم، لأن جدرانه لم تكن عالية جداً، وعلى هذا كان بإمكان الخيالة المسلمين الرمي بشكل مباشر نحوهم، في حين تولى الذين كانوا رجّالة رميهم بكدر من التراب على وجوههم مباشرة، وكانوا جميعاً سيموتون لولا قيام كونت دي أنجو بالمضي إلى إنقاذهم، وجلبهم سالمين آمنين، وبين الرجال الذين كانوا في البرج قاتل غيوفري دي موسامبورك Mussambourc ، بشجاعة فائقة، وربح أعظم أمجاد ذلك اليوم.

وسوف أحدثكم الآن عن حادث غريب كنت أنا شاهد له يوم ثلاثاء المرافع، فقد كانوا في ذلك اليوم يدفنون هوغو دي لاندريكورت Landricourt، وكان فارساً يحمل الراية، وكان معي في الجيش، وفيما هو مسجى على نعش في بيعتي، كان هناك ستة من الفرسان، متكئين على بعض الغرارات المليئة بالشعير، ولأنهم كانوا يتحدثون بصوت مرتفع في بيعتي، وكانوا يزعجون الكاهن، ذهبت إليهم وطلبت منهم التزام الصمت، وقلت لهم إنه من غير اللائق بهم كفرسان وسادة التكلم أثناء ترتيل القداس، وشرعوا بالضحك، وأخبروني باستخفاف بأنهم يرتبون الأمور لإعادة زواج زوجة الرجل المتوفى، وتكلمت معهم بحدة، وبينت أن الحديث حول مثل هذه الأشياء لم يكن صحيحاً ولا لائقاً، وأنه يبدو لي أنهم قد نسوا رفيقهم بكل سرعة، ولقد انتقم الرب منهم، ففي اليوم التالي بالذات، وفي أثناء المعركة الكبرى ليوم ثلاثاء المرافع، كانوا جميعاً بين قتيل أو جريح لا يرتجى له شفاء، وبذلك كانت زوجات الستة جميعاً في وضع للزواج ثانية.

ونتيجة للجراحات التي تلقيتها في يوم ثلاثاء المرافع، سقطت ضحية للمرض الذي أصاب الجيش، وقد أثر ذلك على فمي وعلى رجلي، وكنت أيضاً أعاني من حمى ثلاثية مزدوجة، وقد ألمّ برد شديد برأسي حتى أن المخاط قد سال من أنفي، وأرغمت بسبب هذه الأمراض على ملازمة فراشي في منتصف الصوم الكبير، وحدث أن جاء كاهني ليرتل القداس لي إلى جانب فراشي في داخل سرادقي، وكان يعاني مما أعاني أنا نفسي منه من أمراض، وحدث في أثناء التراتيل أن اعترته غيبوبة، وعندما رأيته أنه موشك على السقوط، قفزت وأنا عاري القدمين من فراشي، وليس علي سوى قميصي، وأخذته بين ذراعي، وأخبرته أن يعمل بهدوء وأن يتابع الترتيل وقت راحته، لأنني لن أدعه يذهب قبل أن ينهي القداس، واستعاد وعيه، وبعد ما أكمل الترتيل، أنشد القداس حتى النهاية، لكنه لم ينشد قداساً آخر مرة ثانية.

وبعد أمد قصير حدد مستشارو الملك والسلطان يوماً يجتمعون فيه للوصول إلى اتفاق، وكانت الشروط المقترحة هي كمايلي: كان علينا تسليم دمياط إلى السلطان، وأن يقوم هو بالمقابل بتسليم مملكة القدس إلى ملكنا، وبالإضافة إلى ذلك كان على السلطان القيام برعاية المرضى في دمياط، وأن يحفظ اللحوم المملحة في المخازن من أجلنا — بما أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير — وأن يحتفظ بالآلات العائدة لجيشنا حتى يحين الوقت الذي يكون الملك فيه قادراً على إرسال من يحمل أشياءه إليه.

واستفسر مستشارو السلطان عن الضمانات التي سنعطيها لإعادة دمياط إلى سلطانهم، وعرض عليهم رجالنا السماح لهم بالاحتفاظ بواحد من أخوي الملك، أي إما كونت دي أنجو، أو كونت دي بواتييه، بمثابة رهينة حتى توضع دمياط بين يدي السلطان، وقال المسلمون بأنهم لن يعقدوا معاهدة معنا، ما لم يترك الملك لديهم ضمانة،وهنا أبدى

- ٢٨٦٣ -

الفارس الطيب غيوفري دي سارجين Sargines دهشته وامتعاضه وقال بأنه بالحري يفضل أن يقتلهم المسلمون جميعاً، أو يأخذوهم أسرى على تحمل مسبة ترك الملك رهينة بين أيديهم.

ويبدأ المرض الذي أصاب الجيش الآن بالازدياد إلى درجة خطيرة، وعانى كثير من الناس من تورم اللثث، إلى حد أنه توجب على الحلاقين الجرائحيين القيام بإزالة اللحم المصاب بالغنغرينا، قبل أن يمضغوا أطعمتهم أو يبتلعوها، وكان من المؤلم سماع الصرخات في جميع أرجاء المعسكر، صرخات الذين كانت لحومهم الميتة تزال، وكانت هذه الصرخات تشبه صرخات امرأة في المخاض.

الفصل التاسع
الفرنسيون في الأسر
نيسان ١٢٥٠

وعندما لاحظ الملك، بعد طول لأي، أنه ورجاله يمكنهم البقاء فقط ليموتوا، اتخذ قراره بالمغادرة، وأصدر أوامره إلى الجيش بتقويض المعسكر في أواخر الليل يوم الثلاثاء، وبعد ثامن أيام عيد الفصح، والعودة إلى دمياط، وأرسل يخبر الرجال الذين كانوا مسؤولين عن الغلايين أن يقوموا بجمع المرضى وحملهم إلى المدينة، وأمر كذلك جوسلين دي كورنوت Cornaut مع أخوانه والمهندسين الآخرين القيام بقطع الحبال التي تمسك الجسر الذي كان قائماً بيننا وبين المسلمين، وعلى كل حال هم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل.

وأقلعت في يوم الثلاثاء بعد الظهر، وبعد الغداء، وكان معي اثنين من فرساني هما اللذان بقيا معي وكذلك خدمي، وعند حلول الظلام، أخبرت بحارتي برفع المرساة والابحار نزولاً مجاراة للتيار، غير أنهم قالوا لي بأنهم لا يتجرأون على فعل ذلك، بسبب رجال غلايين السلطان، التي كانت متمركزة بيننا وبين دمياط، فهؤلاء سوف يقتلوننا بكل تأكيد، وأشعل الملاحون الذين شحنوا غلاييننا في الوقت نفسه نيراناً عظيمة للفت انتباه المرضى الذين تدبروا جر أنفسهم إلى ضفة النهر، وعندما كنت أحث بحارتي على الاقلاع والتحرك، دخل المسلمون إلى المعسكر، ورأيت بوساطة ضوء النيران أنهم كانوا يتولون قتل التعساء من الناس على ضفة النهر.

وبينما كان ملاحو سفينتي يرفعون المرساة، قطع البحارة الذين كان واجبهم جمع المرضى، حبال مراسيهم، والحبال التي ربطت غلايينهم،

وجـاءوا إلى محاذاة سفينتنا الصغيرة، واحتشـدوا بكثـافـة من حـولها وبمحاذاتنا من كل جـانب حتى كادوا أن يغـرقوننا، وبعدمـا نجونا من ذلك الخطر، وكنا نازلين نساير التيار، كان بإمكان الملك الذي كان يعاني من المرض الذي أصـاب الجيش، ومن إسهـال شـديد أيضـاً، أن يمضي بسهولة ويبتعـد بوساطة الغـلايين، لكنه قال بأنه لـن يتخلى مطلقاً عن شعبه مرضاة للرب، وقد أغمي عليه في تلك الليلة عدة مرات، وبسبب الاسهـال الشـديد الذي عـانى منه، وأرغمـه على التردد على الكنيف بشكل متواصل، اضطروا إلى قطع الجزء الأسفل من سراويله.

وصرخ إلينا الرجـال الـذين كـانوا على الضفـة، عندمـا شرعنا ننزل مسايرين لتيار النهر، وأخبرونا بوجـوب انتظار الملك، وعندما لم نتوقف لانتظاره شرعـوا يرمـون علينا بنشـابهم من قسيهم العقـارة، ولذلك اضطررنا إلى التوقف، حتى سمحوا لنا بالذهاب.

ولسوف أقطع حـديثي هنا لأخبركم كيف وقع الملك بالأسر، وذلك حسبمارواه لي ذلك شخصياً، فقـد أخبرني بأنه ترك فـرقتـه الخاصـة، وذهب مع غيـوفري دي سـارجين، ليضع نفسـه في الفـرقة التي كـانت تحت قيادة غـوتيير دي شاتليـون، الذي كان يتولى قيـادة قوات السـاقة، وقال بأنه شخصيـاً كان يمتطي على ظهـر مهر صغير، وعليـه برذعة من الحرير، وأخبرني أيضـاً أنه لم يبق معـه من فـرسانه وسيرجنديتـه سـوى غيوفـري دي سارجين، وقد أخـذني إلى قرية صغيرة، كـانت في الحقيقة هي القـرية التي أسر فيهـا أخيراً، وأخبرني الملـك في الرواية التي قصهـا عليّ حـول هذه الحادثة، أن غيـوفـري دي سـارجين قـد دافع عنه ضـد المسلمين دفـاعـاً بطوليـاً، مثلما يدفع الخادم المخلـص الذباب عن كأس مـولاه، ففي كل مـرة حاول المسلمـون الاقتراب منه، كـان يأخـذ رمحه الذي كان قد وضعه بينه شخصيـاً وبين قوس سرجه، ويضعه على كتفه ويحمل عليهم، ويتولى طردهم عن الملك.

وبهذه الطريقة جلب الملك سليماً إلى القرية الصغيرة، حيث حمل إلى بيت ومدد فيه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ووضعوه في حجر امرأة، صدف أنها كانت أصلاً من أهالي باريس، وساد الاعتقاد آنذاك أنه لن يظل حياً حتى المساء، وجاء إليه إلى هناك فيليب دي مونتفورت وأخبره بأنه قد رأى الأمير الذي تباحث معه حول قضية الهدنة، وإذا كان جلالته يرضى، فهو سيذهب إلى هذا الرجل ويجدد المباحثات حول شروط للهدنة ستكون مرضية للمسلمين، وتوسل الملك إليه بأن يذهب، وأضاف بأنه راغب في إنجاز ذلك كل الرغبة.

وبناء عليه عاد فيليب دي مونتفورت إلى المسلم، وقام هذا بخلع عمامته عن رأسه، وانتزع خاتمه من إصبعه دليلاً على أنه سوف يلتزم باخلاص بشروط الهدنة.

وحدث في الوقت نفسه حادث شؤم سبب كارثة لشعبنا، فقد قام سيرجندي خائن منا اسمه مارسل Marcel ، وشرع يصرخ في الجيش ويقول لأفراده:«استسلموا أيها الفرسان، لأن الملك قد أمر بذلك، ولاتكونوا سبباً في قتله»! وقد اعتقد كل إنسان بأن الملك قد أصدر بالفعل هذه الأوامر، وهكذا سلموا سيوفهم إلى المسلمين، ولدى رؤية الأمير بأن المسلمين يقومون بجلب رجالنا بمثابة أسرى، أخبر فيليب دي مونتفورت بأنه قد تحلل من شروط منح الهدنة والحفاظ عليها، بما أنه من الواضح أمام مرأى العين أن رجالنا باتوا في الأسر.

وهكذا سارت الأمور، ووقع جميع رجالنا بالأسر، إنما بما أن فيليب دي مونتفورت كان رسولاً، لم يعان من المصير نفسه، وكان هناك على كل حال عادة سيئة بين المسلمين، هي أنه إذا ما بعث الملك رسلاً إلى سلطان، أو أرسل سلطان إلى ملك، وحدث ومات واحد من هذه الملكين قبل عودة الرسل، آنذاك كان يجري اعتقال هؤلاء الرسل واسترقاقهم، بصرف النظر عن المكان الذي جاءوا منه وسواء أكانوا

مسيحيين أم مسلمين.

وفي الوقت الذي عـانى فيـه بعض من شعبنا من سـوء المصير حيث سيقوا أسرى وهـم على اليـابسة، واجهت أنا ورجـالي — حسبما سأقص عليكم بعـد قليل — سـوء المنقلـب نفسـه على سطح الماء، فقـد كـانت الريح تهب من اتجاه دميـاط، وهكذا حرمتنا من الإفـادة من المنافع التي كـان يمكن للتيار أن يقـدمها لنا، فضـلاً عن هذا كـان الفرسـان الذين وضعهم الملك في المراكب الخفيفة للدفاع عن المرضى قد هربوا، وهكذا لم يكن بمقدور بحارتنا التحرك نحـو الأمام مع مجرى تيار الماء، فدخلوا إلى أحد الخلجان، وأرغمنا بعد هذا على النكـوص عائدين نحو خطوط المسلمين.

وبينما كنا نسير وفق اتجاه التيـــار، وصلنا قبيل بزوغ الفجـــر بوقت قصير، إلى مجاز للنهـر، حيث وقفت غـلايين السلطـان، التي تولت منع ورود الميرة من دمياط، وكانت جميع هذه الغلايين مصفوفة معبأة، وكان هناك فـوضى عظيمـة وجلبـة كبيرة، لأن المسلمين توجهـوا برمـاياتهم نحـونا ونحـــو رجـالنا الذين كـانوا على ظهـــور الخيـول الواقفين على الشـاطىء، بالنشـاب الكثيف المشبع بـالنار الإغـريقيـة، حتى بدا الأمـر وكأن النجوم كانت تتساقط من السماء.

وبعدما أخرجنا ملاحـونا خارج نطاق الخليج الذي كانوا قد أخذونا إليـــه، رأينا السفن الصغيرة التـي كـــان الملك قـــد أعطانا إياها لإيواء مـرضـانا، تسـابق الريح باتجاه دميـاط، ثـم بدأت الريح تهب من جهـة الشمال بشـدة متناهية، حتى أنه على الـرغم من التيار، لم نستطع التقـدم نحو الأمام.

وكان هناك على طول ضفتي النهر عدد من القوارب الصغيرة، تعود، إلى أناس من قـومنا لم يستطيعـوا النزول إلى الماء ومجاراة التيار، ونتيجـة

لذلك توقفـوا وأسروا من قبل المسلمين، وكان هؤلاء الأشقيـاء يتولون قتل رجـالنا ورمي أجســادهم في الماء، ويجرون الصناديق والأمتعـة إلى خارج المراكب التي استولوا عليها، وأطلق الخيالة المسلمون الذين كانوا على الشـاطىء النشاب علينـا بسبب أننا رفضنا الذهاب إليهم، وأعطاني رجالي درعـاً واقياً لأرتديه، حتى أحول دون الإصابة بالجراحـة بوساطة النشاب الذي استمر بالسقوط علينا في القارب.

وفجأة صرخ رجـــالي — الذين كـــانوا يقفـــون في الخلف — لي يقـولون:مولاي، مـولاي، إن بحـارتك سـوف يأخذوك إلى الشـاطىء، لخوفهم من تهديد المسلمين، وهنا وجــدت من سـاعـدني على الوقـوف مستنداً على ذراعي، ومع أنني كنـت ضعيفـاً جـداً، جـردت سيفي على البحـارة، وأخبرتهم أنني سـوف أقتلهم لـو أنهم أخـذوني إلى اليـابسـة، وأخبروني أنني ينبغي أن أعمل اختيـاري: إما بالأخـذ إلى الشاطىء، أو الرسـو في وسط النهر والوقـوف حتى تتـوقف حركـة الريح، وأخبرتهم أنني أفضل الرسو في وسط النهر على أن أحمل إلى الشاطىء، حيث ليس أمامنا غير خيار واحد هو الموت، وبناء عليه توقفوا ورسوا.

وبعد ذلك بقليل رأينا أربعة من غلايين السلطان قادمة نحونا، وعلى ظهورهم ألف رجل، وبناء عليـه دعوت فرساني وبقيـة رجالي للاجتماع معاً، وسألتهم ما الذي يفضلون: الاستسلام إلى غلايين السلطان، أم إلى المسلمين الواقفين على الشــاطىء، واتفقنـا على تفضيل الاستســلام إلى غلايين السلطان، لأن تلك كـانت هي الوسيلة التي تمكننا من البقاء مع بعضنا بعضاً، وذلك بدلاً من الاستسلام إلى الذين على الشاطىء، الذين سوف يفرقون فيما بيننا، ومن ثم يبيعوننا إلى البداة.

ثم قال لي واحـد من أتباعي، وكان هو من مواليـد دوليفانت Dou-levant:«لايمكنني يا مـولاي الموافقـة على هذا القرار»، فسـألته : مـا الذي يمكن أن يوافق أن علي القيام بـه؟ فأجاب:«إن الذي أراه وأنصح

به هو أن ندع أنفسنا نقتل، لأننا بذلك سوف نذهب إلى الجنة»، لكن ما من أحد أصغى إلى نصيحته.

والآن وقد أدركت أن علينا الاستسلام لنؤخذ أسرى، انتزعت صندوقي ومجوهراتي ورميتهم في النهر مع الآثار المقدسة التي كانت لدي، ثم قال لي واحد من بحارتي: «مولاي ما لم تسمح وتأذن لي بأن أقول بأنك ابن عم الملك، سوف يقتلون كل واحد منا، معك شخصياً»، فأجبته بأنني موافق على كل ما سيقوله.

وما أن سمع رجال الغليون الأول، الذي كان قادماً نحونا ليقوم بصدمنا في وسط السفينة، الذي أعلنه هذا الرجل، حتى ألقوا مراسيهم على محاذاة مركبنا، وفي هذه الساعة بعث الرب لي مسلماً كان من بلاد امبراطور ألمانيا، وقد قدم سباحة عبر النهر، وكان يرتدي سراويل من الكتان المانع لتسرب المياه، وصعد إلى ظهر سفينتنا، واحتضنني من وسطي وقال لي: «إنك ما لم تتصرف بسرعة وبشجاعة لسوف تقتل، والذي عليك القيام به هو أن تقفز من سفينتك إلى القيدوم المعلق فوق عارضة هذا الغليون، وإذا فعلت هذا ما من أحد سوف ينتبه إليك، لأنهم الآن مشغولون بالأسلاب التي يمكنهم الحصول عليها من سفينتك»، ورمى لي أحدهم حبلاً من الغليون، وبعون الرب قفزت إلى القيدوم، وبما أنني كنت غير متوازن وغير قادر على الوقوف على قدمي، ولولا أن المسلم قفز خلفي، وأمسكني، لسقطت في قلب الماء.

وسحبت إلى داخل الغليون حيث كان هناك مائتين وثمانين من الأعداء، وتابع في أثناء ذلك المسلم في وضع ذراعيه من حولي، ثم أنهم ألقوني أرضاً، وألقوا بأنفسهم فوق جسمي ليقوموا بذبحي وقطع رقبتي، لأن كل واحد منهم كان يعتقد أنه بقتله لي سوف ينال شرفاً بذلك، غير أن المسلم ما انفك يمسكني بذراعيه وصرخ: «إنه ابن عم الملك»، ومع هذا كان ذلك بلا فائدة، فقد ألقوا بي مرتين إلى الأرض،

وأرغموني مرة على الركوع على ركبتي، وعند ذلك شعرت بالسكين عند بلعومي، لكن الرب أنقذني في هذه المحنة بعون المسلم، الذي قادني إلى واحد من أبراج السفينة، حيث كان فرسان المسلمين مجتمعين.

وما أن قابلتهم حتى انتزعوا درعي، ثم إنهم عطفوا علي فرموا إلي لحافاً قرمزياً من لحفي كان مبطناً بفراء أبيض، كانت أمي العزيزة قد أعطتني إيّاه، وجلب أحدهم إلي حزاماً من الجلد الأبيض، فتمنطقت به فوق اللحاف، وذلك بعد عمل فتحه في هذا اللحاف، من أجل أن أستعمله بمثابة جلباب، وجلب إليّ إنسان آخر قلنسوة وضعتها فوق رأسي، ثم إنه بسبب حالة الرعب التي كنت فيها، وكذلك بسبب مرضي الذي أضرّ بي، أخذتني قشعريرة مرعبة واصطكت أسناني، ولهذا طلبت ما أشربه، وقد جلبوا بعض الماء في جرة، لكنني ما كدت أرفع الجرة إلى فمي حتى أخذ الماء يسيل من أنفي.

وعندما رأيت هذا يحدث، أرسلت خلف رجالي وأخبرتهم بأنني رجل يحتضر، بسبب الدمامل التي كانت في فمي، وسألوني كيف عرفت ذلك، فأريتهم إياها، وما أن شاهدوا الماء ينقذف من حلقي ومن أنفي، حتى شرعوا بالبكاء،وعندما رأى فرسان المسلمين الدموع تنهمر من أعين رجالي، سألوا الرجل الذي تولى إنقاذي: لماذا هؤلاء الرجال يبكون؟ فأجابهم بأنه عرف بوجود دمامل في حلقي، وأنه لا أمل لي بالشفاء، ثم قام واحد من الفرسان المسلمين بإخبار الرجل الذي أنقذنا بأن علينا الاطمئنان، ذلك أنه سوف يعطيني شيئاً لأشربه، وأنه سيشفيني خلال يومين، ويمكنني القول بأن هذا ما كان حسبما فعل.

وكان راؤول دي وانو، الذي كان واحداً من أتباعي، قد أقعد خلال المعركة الكبرى التي وقعت يوم ثلاثاء المرافع، ولم يكن بإمكانه الوقوف على قدمية، ويودي إعلامكم أن فارساً عجوزاً مسلماً كان في الغليون، اعتاد على أن يحمله على الظهر والكتفين إلى المرحاض عندما كان يحتاج

إلى ذلك.

وبعث إليّ القائد العام للغلايين، وسألني فيما إذا كنت بالفعل ابن عم الملك، فأجبته:«لا»، وأخبرته كيف ولماذا قال الملاحون بأنني كذلك، وأعلمني هذا القائد بأنني تصرفت بشكل حكيم، لأنني لو تصرفت بشكل مغاير، لتعرضنا جميعاً للموت، وسأل فيما إذا كانت هناك أية قرابة لي مع الامبراطور فردريك امبراطور ألمانيا، وأجبته أنني أعتقد مؤكداً أن سيدتي الوالدة هي ابنة عمه، وبناء عليه عقب القائد بأنه قد أحبني أكثر لهذا السبب.

وبينما كنا نتناول الطعام، استدعى رجلاً أصله من باريس ليقف أمامنا، وعندما وصل هذا الإنسان قال لي:«مولاي ما الذي تصنعه»؟ فقلت:«لماذا، ما الذي يمكن أن أقوم به»؟ فأجابني:«باسم الرب، إنك تأكل لحماً في يوم جمعة»، وما أن سمعت هذا حتى وضعت الطشت خلفي،وسأل القائد المسلم لماذا تصرفت هكذا، فأخبره، فقال: إن الرب سوف لن ينظر إلى ما قمت به على أنه ذنب قد اقترفته، بسبب أنني لم أنتبه أنني كنت أقترف ذنباً.

ويمكنني أن أخبركم بأن الجواب نفسه قد أعطي لي من قبل النائب البابوي، بعدما أطلق سراحنا من الأسر، ومع هذا لم أتوقف عن الصوم على الخبز والماء كل يوم جمعة في الصوم الكبير منذ ذلك الحين فصاعداً، وجعل هذا النائب البابوي يغضب كثيراً مني، لأنني الرجل الوحيد من ذوي المراتب العليا ممن بقي مع الملك.

وفي يوم الأحد التالي، نقلت والآخرين، بناء على أوامر الأمير، بمثابة أسرى، ونزلنا على ضفة النهر، وعندما كانوا يأخذون، جين، قسيسي الطبيب، من قاع الغليون، وقع مغشياً عليه، فقتله المسلمون وألقوا بجسده في النهر، وأيضاً وقع كاهنه مغشياً عليه نتيجة للمرض الذي

اعترت حمّاه الجيش، فتلقى ضربة قـاتلة على رأسه، وبذلك قتلوه أيضـاً، وألقوا جسده في الماء.

وفي الوقت الذي جرى فيـه إنزال المرضى من الغليـون الذين كـانوا مسجونين فيه، كان هناك مسلمون يقفون جانباً وسيوفهم مسلولة، وهم جـاهزون للتعـامل مع الذين يقعـون كما تعـاملوا مع قسيسي، وبعثت إليهم بمسلمي ليخبرهم أن هذا — كما أعتقـد — ذنبـاً عظيماً لا يجوز اقترافـه، وهو مضاد لتعـاليم صلاح الدين، الذي قـال:ينبغي عليك ألا تقتل أبداً إنساناً شـاركك مرة الخبز والملح، فأجاب القـائد بأن المقتولين موضـوع البحث لاقيمة لهما، بسبب المرض الذي كانا يعانيـان منه، فقد تركهما هذا المرض عاجزين عن القيام بأي عمل مفيد لهما.

وجلب بعد هذا وأحضر أمامي جميع بحارتي، وأخبرني بأن كل واحد منهم قد تخلى عن عقيدته، فحذرته من وضع ثقته بهم، فمثلما تخلوا بكل سرعـة عنا، سـوف يتخلون عنه، عندمـا يجدون إما الوقت أو الفـرصـة لفعل ذلك، وأجابني القـائد بأنه يتفق معي، لأن صـلاح الدين اعتاد أن يقـول، بأنه لم ير قط مسيحياً سيئاً قـد صـار مسلماًصالحاً، وكـذلك لم ير أبداً مسلماً سيئاً قد صار مسيحياً جيداً.

وجعلني بعـد هذا بوقـت قصير أمتطي ظهـر حصـان، وأن أسير إلى جانبه، ولقد عبرنا فـوق جسر من القوارب وذهبنا إلى المنصورة، حيث كـان الملك ورجاله في الأسر، ووصلنا إلى مـدخل سرادق كبير كان فيـه كتّاب السلطان، ودونوا هناك اسمي، وعنـد هذه النقطة أخبرني مرافقي قائلاً:«مولاي، لن أستطيع المضي معـك أبعد فهذا غير ممكن بالنسبة لي، لكن اسمح لي أن أتوسل إليك يا مـولاي أن تظل ممسكاً بيـدك بالطفل الذي هو معك، خشيـة أن يأخـذه المسلمون، وكـان الطفل الذي أشـار إليـه يدعى بارثلمي، وكـان ابناً طبيعيـاً لصـاحب مونتفـوكـون -Mont faucon .

وبعدما جرى تدوين اسمي أخذني القائد إلى سرادق آخر، حيث جرى حشد البارونات مع مايزيد على عشرة آلاف رجل آخر، وما أن دخلت حتى عبر البارونات عن فرحتهم بشكل مرتفع إلى حد صعب فيه على أحدهم سماع كلام الآخر، وقدموا الشكر للرب لحفظه لي، وقالوا بأنهم اعتقدوا أنني قد فقدت.

ولم يطل بنا المقام هناك قبل أن يأمر المسلمون الأعيان بيننا بالنهوض، ونقلونا إلى سرادق آخر، وبقي كثير من الفرسان مع أناس آخرين داخل ساحة مسورةبجدران من الطين، وكانت عادة أعدائنا أخذهم من هناك واحداً واحداً، حيث كانوا يسألون أحدهم:«هل أنت على استعداد للتخلي عن إيمانك» ؟، وكان الذين يرفضون يوضعون جانباً، حيث جرى إعدامهم، أما الذين وافقوا فقد احتفظوا بهم في الجانب الآخر.

وفي هذه الساعة بعث السلطان مستشاريه للحديث معنا، فسألونا إلى من سيؤدون رسالة مولاهم، فأخبرناهم بأن يتوجهوا بالخطاب نحو الكونت الطيب بيير دي بريتاني، وكان معهم بعض من الناس يعرفون بالتراجمة، أي أنهم كانوا أناساً عرفوا لغتنا وكذلك لغتهم، وتولى هؤلاء ترجمة رسالة السلطان إلى الفرنسية لصالح الكونت بيير.

وكان الذي جرى في هذه المقابلة كمايلي:فقد قال المسلمون:«مولاي، بعثنا السلطان إليكم لنسأل فيما إذا كنتم ترغبون في إطلاق سراحكم» ؟ وأجابهم الكونت في التأكيد على الرغبة بذلك، فسألوه إثر ذلك : «ماالذي سوف تعطونه الى السلطان مقابل الحصول على حريتكم»؟ فأجابهم الكونت بقوله:«كل ما نستطيعه، ما دام الأمر في حدود المعقول»فقالوا:«هل ستعطوننا أياً من القلاع العائدة للبارونات من بلاد ما وراء البحر» ؟ وأجابهم الكونت بأنه لايملك القدرة على تسليم أياً من هذه القلاع، لأنها ممنوحة من قبل الامبراطور الحاكم في ألمانيا، ثم سألوه عما إذا كنا على استعداد أن نسلم مقابل الحصول على حريتنا أياً

من القلاع العائدة إلى الداوية أو الاسبتارية، فأجابهم الكونت بأن هذا من غير الممكن القيام به، لأن شحن هذه القلاع، أقسموا — لدى تسلمهم لمناصبهم — على الأناجيل المقدسة أنهم سوف لن يسلموا أياً من هذه القلاع مقابل الحصول على حرية أي إنسان أو إطلاق سراحه من الأسر، وعلق عند ذلك هؤلاء المستشارون بقولهم: يبدو لنا بأنكم ليست لديكم رغبة في إطلاق سراحكم، وأخبرونا بأنهم سوف يرسلون إلينا رجالاً سوف يتدربون بسيوفهم بنا، مثلما فعلوا بآخرين من جيشنا، ثم إنهم ذهبوا.

وما أن انصرفوا حتى اندفع حشد كبير من شباب المسلمين، وسيوفهم معلقة على أجنابهم، إلى داخل سرادقنا، وجلبوا معهم رجلاً متقدماً بالسن، حيث كان شعره أبيض مثل الثلج، وقد سألنا عما إذا كنا نؤمن بالرب الذي اعتقل من أجلنا، وجرح وأميت في سبيلنا، وأنه قام مجدداً في اليوم الثالث؟ فأخبرناه بأن هذا كان كذلك، ثم إنه أخبرنا بأنه ينبغي علينا عدم الخوف إذا ما عانينا من هذا العذاب والشقاء من أجله، وقال: «لأنكم لم تموتوا بعد من أجله، مثلما مات من أجلكم، وإذا كان قد امتلك القدرة على العودة إلى الحياة، عليكم الاطمئنان بأنه سوف ينقذكم، عندما يشاء أن يفعل ذلك».

ثم إنه ذهب مغادراً، ومعه جميع الفتيان المسلمين، ومن جانبي كنت مسروراً جداً تجاه هذا الذي حصل، لأنني كنت اعتقدت بشكل مؤكد تماماً بأنهم قد جاءوا لقطع رؤوسنا، ولم يمض وقت طويل بعد هذا عندما جاء رجال السلطان ليخبروننا بأن ملكنا قد عقد اتفاقيات مع سيدهم من أجل إطلاق سراحنا.

وحدث هذا بعد وقت قصير من مغادرة الرجل العجوز الذي تفوه بتلك الكلمات التي واسانا فيها، وعاد مستشارو السلطان لإخبارنا بأن الملك قد ابتاع لنا إطلاق سراحنا، وأن علينا إرسال أربعة من مجموعتنا

لسماع كيف صنع ذلك، فبعثنا جين دي فـاليري الطيـب، وفيليب دي مونتفورت، وبلدوين دي إيبلين نائب قبرص، وغي دي إيبلين قسطلان الجزيرة نفسها، وكـان واحـداً من أعظم الفـرسان كمالاً ممن رأيتـه قط وعـرفتـه، وكـان من أعظم الناس حبـاً لأهل الجزيرة الذين كـانوا تحت رعايته وقيادته، وجلب هؤلاء الأربعة إلينا رواية بينت كيف تمكن الملك من الحصول على إطلاق سراحنا من الأسر.

الفصل العاشر

مباحثات مع المسلمين

نيسان — أيار ١٢٥٠

اتبع مستشارو السلطان الطريقة نفسها بـاتصالاتهم التجريبية بالملك، مثلما فعلوا معنا وفي حالتنا، وذلك من أجل معرفة، أو اكتشاف، فيما إذا كان هو نفسه على استعداد لأن يعد بتسليمهم أياً من القلاع التي كانت بأيدي الـداوية أو الاسبتـارية، أو أيا من القـلاع التي كـانـت بأيدي بارونات البلاد ، وبمشيئـة الرب جاء جواب الملك مماثـلاً تماماً لجوابنا، ونتيجـة لهذا هدده المسلمون، وقـالوا إنه إذا لم يستجب لرغباتهم سـوف يضعونه في آلة الفلق Barnacle، التي مثلت أصعب أشكال التعذيب التي يمكن لأي إنسان أن يعاني منها.

وصنعت هذه الآلـة من عـارضتين خشبيتين ملتـويتين، تتشـابك أطرافها بأسنان متـداخلة، وتـربطان في النهـايتين بقطع من جلد الثـور القوي، وعندما كان المسلمـون يريدون إخضاع أي إنسان لهذا العذاب، كانوا يمددونه على الأرض على جنبه، ويضعون رجليه بين الأسنان، ثم يطلبون من إنسان أن يجلس على رأس هـذه الآلة، وتكون النتيجة عدم بقـاء نصف قـدم مـن العظم غير مهـروس، زيـادة على هذا — ولكي يفعلو الأسوأ مما يمكنهم، عندما تصبح الأرجل متورمة بعد مضي ثلاثة أيام، كـانوا يضعون الأطراف المتـورمة ثانيـة في الآلة، ويقومـون بسحق العظام من جديد.

ورداً على هذه التهـديدات، أجـابهم الملك بـأنه كـان أسيرهم، وبإمكانهم أن يفعلوا معه كما يرغبون.

وعندما رأى المسلمون أنهم لايستطيعون التغلب على ملكنا الجيد بوساطة التهديد، عادوا إليه وسألوه كم من المال هو على استعداد لدفعه إلى السلطان، وفيما إذا سيسلمه دمياط أيضاً، وأجابهم الملك: إذا كان السلطان على استعداد لقبول مبلغ معقول هو سوف يرسل إلى الملكة وينصحها بدفع ذلك المبلغ فدية لهم، وسألوه:«كيف لا تخبرنا بالتأكيد فيما إذا كنت ستفعل ذلك وتنفذه»؟ وأجابهم الملك بأنه لايعرف فيما إذا كانت الملكة ستوافق أم لا، وصحيح أنها زوجته، ولكنها هي سيدة أعمالها.

وبناء عليه ذهب المستشارون للتداول مع السلطان، وعادوا في وقت متأخر لإخبار الملك أنه إذا كانت الملكة على استعداد لدفع ألف ألف بيزيتة ذهبية، أي ما يعادل خمسمائة ألف ليرة ذهبية بنقودنا، فإن سيدهم سوف يطلق سراحه.

وبناء عليه سألهم الملك أن يحلفوا له أن الملكة إذا وافقت على دفع هذا المبلغ إلى السلطان، سيقوم السلطان بالفعل بإطلاق سراحه وسراح أتباعه، وتوجه المستشارون عائدين ثانية للتشاور مع السلطان ولمزيد من الحديث معه، ولدى عودتهم أقسموا بشكل مهيب إلى الملك، بأن سيدهم سوف يطلق سراحه بناء على هذه الشروط.

والآن بعدما أعطى الأمراء عهدهم وأقسموا عليه، قام الملك بدوره بالتأكيد لهم بأنه سوف يدفع عن طيب خاطر الخمسمائة ألف ليرة ذهبية من أجل إطلاق سراح أتباعه، وسوف يسلم دمياط لإطلاق سراح نفسه، لأنه من غير اللائق بالنسبة لإنسان من مثل مقامه العالي الإقدام على شراء حريته بالمال، وعندما نقل هذا الكلام إلى السلطان تعجب وقال:«والله، إن هذا الفرنجي رجل كريم الطباع، لأنه لم يساوم على دفع مبلغ كبير كهذا، ولهذا اذهبوا وأخبروه بأنني قد أعفيته من دفع مبلغ مائة ألف ليرة ذهبية من مبلغ الفدية».

وأصدر السلطان أوامره بحمل أعيان الرجال بيننا على ظهر أربعة غلايين، وأخذهم نحو دمياط، ووجد في الغليون الذي وجدت فيه، بالإضافة إليّ: صاحب المقام الكونت بيير دي بريتاني، والكونت وليم دي فلاندرز، وكونت جين دي سواسون الجيد، ومولاي اللورد إيمبرت دي بيجو، القسطلان الأعلى لفرنسا، والفارس الجيد بلدوين دي إيبلين مع أخيه غي.

ووجه الذين كانوا معنا في الغليون مركبنا للرسو أمام معسكر أقامه السلطان على طرف النهر، وكان مقاماً حسب الخطة التالية: كان يوجد في الأمام مباشرة برج صنع من أعمدة من خشب الشربين، وكان مكسواً بقماش القنب المصبوغ، وقد استخدم هذا بمثابة المدخل الرئيسي إلى المعسكر، وكان خلف هذا سرادق ترك فيه الأمراء سيوفهم وسلاحهم عندما ذهبوا للحديث مع السلطان، وجاء خلف هذا مباشرة برج آخر مثل البرج الأول تماماً، شكل دهليزاً إلى سرادق كبير جداً، وكان هو القاعة السلطانية، وتلاه برج آخر مماثل في سماته للبرجين الآخرين، وقد قاد إلى محلات السلطان الخاصة.

ومجاور لهؤلاء كانت هناك ساحة قام في وسطها برج، كان أعلى من الأبراج الأخرى، كان يمضي إليه السلطان كلما رغب بتفحص المنطقة المحيطة بالمعسكر، أو كلما أراد معرفة الذي يجري في داخل المعسكر.

وخرج من هذه الساحة ممر انتهى إلى النهر، حيث أقام السلطان خيمة كبيرة امتدت فوق الماء، وقد استخدمها مكاناً للاستحمام.

وكان هذا المعسكر كله محاطاً بسور من التكعيبات الخشبية، وكان الطرف الخارجي منه مغطى بقماش من القنب الأزرق — مثل الذي في الحقيقة استخدم في الأبراج — وبذلك كان من الممكن للذين هم خارج المعسكر رؤية ما فيه.

وكنا قد وصلنا إلى هذا المكان الذي أقيم فيه المعسكر، يوم الخميس، قبل أسبوع كامل تماماً من حلول يوم عيد الصعود، وألقت المراكب الأربعة التي كنا فيها مسجونين جميعاً، مراسيها أمام محلات السلطان، وأخذ الملك إلى سرادق مجاور، ورتب السلطان الأمور على أساس أن تسلم دمياط إليه في يوم السبت قبل يوم عيد الصعود، وكان سيقوم في اليوم نفسه بإطلاق سراح الملك.

وقرر الأمراء الذين فصلهم السلطان من مجلس مستشاريه، ليعين محلهم أناساً كان قد جلبهم معه من مناطق أجنبية، عقد اجتماع، وقام مسلم داهية بالتوجه إليهم بالخطاب، وقال:«تعرفون ياسادتي كيف أهاننا السلطان وجللنا بالعار، بانتزاعه منا المناصب العالية التي كنا قد عينا فيهامن قبل أبيه، وبناء عليه كونوا متأكدين أنه ما أن يستقر في مدينة دمياط الحصينة، حتى سيقوم باعتقالنا، ومن ثم إرسالنا لنموت في السجن، مثلما فعل جده مع الذين أسروا كونت دي بار ، وكونت دي مونتفورت، وبناء عليه يبدو أن الأفضل بالنسبة لنا هو أن نقوم بقتله قبل أن ينجو من أيدينا».

وبناء عليه ذهب هؤلاء الأمراء إلى حرس السلطان الشخصي من جند الحلقة، وطلبوا من هؤلاء الرجال قتل السلطان فور الانتهاء من السماط الذي كانوا هم أنفسهم مدعوين إليه، وهكذا حدث أنه بعد الفراغ من تناول الطعام، وقيام السلطان بوداع أمرائه، وبينما هو مشرف على الدخول إلى سرادقه، قام واحد من فرسان الحرس الشخصي للسلطان، وهو الذي كان يحمل سيف السلطان، بتسديد ضربة بالسيف نفسه إلى منتصف يد مولاه، مباشرة بين أصابعه الأربعة، ففصمها عن الذراع، وهنا التفت السلطان نحو الأمراء الذين حرضوا على هذا العمل، وقال:«أنقذوني، ياسادتي، من حرسي الشخصي، فأنتم ترون أنهم عازمون على قتلي»، وبناء عليه صرخ رجال الحرس هؤلاء بصوت

واحد:«نعم كما تقول نحن نرغب بقتلك، لأن ذلك خير لنا أن نفعله بدلاً من أن ندع أنفسنا أن نقتل من قبلك».

ثم أعطيت الشارة لقارعي الطبول بقرعها، واحتشد جميع جيش السلطان لمعرفة ما هي الأوامر، فأخبرهم الأمراء بأن دمياط قد أخذت، وأن السلطان ذاهب إلى هناك، وهو يأمرهم باللحاق به، وهكذا حملت العساكر أسلحتها وهمزت خيولها باتجاه دمياط، وعندما رأيناهم ذاهبين باتجاه المدينة، شعرنا بغم شديد في قلوبنا، لأننا اعتقدنا بأنها سقطت بأيدي الأعداء.

وفي الوقت نفسه هرب السلطان الذي كان شاباً فتياً، مع ثلاثة من الأئمة كانوا يتناولون الطعام معه، وصعد إلى أعلى البرج العالي الذي كان قد شيده. والذي كنت قد حدثتكم عنه، وأنه كان موجوداً إلى الخلف مباشرة من محلاته الخاصة.

وكان تعداد حرسه الشخصي خمسمائة من الخيالة، وقد قاموا بتقويض سرادقاته، واحتشدوا حول البرج الذي التجأ إليه هو وأئمته، وصرخوا له لكي ينزل، فقال إنه سيفعل ذلك شريطة أن يضمنوا له حياته وسلامته، فأخبروه أنهم سوف يرغمونه على النزول، وذكروه أنه ليس في دمياط، وقاموا بعد هذا برمي البرج بالنفوط، وكان البرج كما تعلمون مصنعاً من ألواح خشب الصنوبر والقنب، فاشتعل على الفور، والتهم بسرعة، وأنا لم أر قط بحياتي لهباً أقوى وأجمل وأكثر فاعلية من هذا اللهب.

وما أن رأى السلطان النار تستبد بالبرج حتى بادر بالنزول منه مسرعاً وسعى يركض طيراناً نحو النهر، وذلك على طول الممر الذي ذكرته لكم من قبل، وكان حرسه الشخصي قد أغلقوا وسكروا جميع المنافذ بسيوفهم، وبينما كان السلطان يركض نحو الماء، سدد نحوه واحد

من هؤلاء الرجال طعنةرمح خرقت أضلاعه، وتابع فراره وهو يجر جر الرمح من الجرح، ولاحقه مطاردوه، حتى أنهم فعلوا ذلك سباحة، وأخيراً أخذوه وقتلوه في النهر، بعيداً عن المكان الذي وقف فيه غليوننا،وقام واحد من الفرسان، واسمه فارس الدين أقطاي، بشطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده، ثم جاء وهو بيده تتقاطر منه الدماء إلى ملكنا وقال:«ما الذي سوف تعطيني إياه، وقد قتلت عدوك الآن، لأنه لوعاش لكان من المؤكد أنه سيقدم على قتلك»، ولم يجبه الملك ولا بكلمة.

وصعد الآن على ظهر سفينتنا ثلاثون رجلاً من المسلمين، وسيوفهم مشهورة في أيديهم، وعلقوا في أعناقهم الفؤوس الدانماركية، وسألت بلدوين دي إيبلين، الذي كان يعرف لغتهم معرفة جيدة، ما الذي يقوله هؤلاء الناس، فأخبرني بأنهم كانوا يقولون بأنهم جاءوا لقطع رؤوسنا، وعلى هذا احتشد عدد كبير من الناس للاعتراف بذنوبهم إلى راهب من الثالوث المقدس، اسمه جين، وكان في خدمة الكونت وليم دي فلاندرز، ومن جهتي أنا، لم أستطع تذكر أية ذنوب اقترفتها، وأمضيت الوقت أفكر أنني كلما حاولت الدفاع عن نفسي، أو الخروج من هذه المحنة، كلما ازدادت الأمور سوءاً بالنسبة لي، وبناء عليه رسمت علامة الصليب على نفسي، وركعت عند قدمي واحد من المسلمين، كان يحمل فأساً دانماركية، مثلما يفعل النجارون، وقلت لنفسي:«هكذا مات القديس أغنس»، وركع غي دي إيبلين قسطلان قبرص إلى جانبي، واعترف لي، فقلت له:«إنني أحللك بكل القوة التي منحني الرب إياها»، وكان على كل حال عندما نهضت واقفاً على قدمي لم أستطع تذكر كلمة مما أخبرني به.

وجعلنا المسلمون ننتقل من حيث كنا، وألقوا بنا في سجن في قاع الغليون، واعتقد عدد كبير من شعبنا بأنهم فعلوا ذلك لأنهم لم يرغبوا

في الحملة علينا كلنا معاً، بل ليقتلوننا واحداً واحداً، ومكثنا في ذلك الحبس طوال ذلك المساء، وخلال الليل كله في عذاب وشقاء عظيم، وملتصقين ببعضنا بعضاً حتى أن قدمي جاءتا في وجه الكونت بيير دي بريتاني الطيب، ولامست قدماه وجهي.

وأصدر الأمراء في اليوم التالي أوامر إلينا بالخروج من سجننا في قاع السفينة، وبعثوا رسائل لإخبارنا بأن علينا الذهاب إليهم، للحديث معهم حول موضوع تجديد المعاهدة التي عقدها السلطان المتوفى معنا، وأخبرنا هؤلاء الرجال بأن يجب أن نكون متأكدين أن السلطان لو ظل حياً لتولى إعدام الملك ونحن جميعاً معه.

وذهب الذين كان بإمكانهم السير لرؤية الأمراء، وبقي كونت دي بريتاني، والقسطلان وأنا حيث كنا لأننا كنا نعاني من المرض الشديد، لكن كونت دي فلاندرز، والكونت جين دي سواسون، والأخوان الإيبلينيان، والذين كانوا في حالة صحية موائمة ذهبوا لحضور المؤتمر.

وتوصل الذين كانوا من جانبنا إلى اتفاق وترتيبات مع الأمراء، قضت أنه ما أن يتم تسليم دمياط إلى المسلمين، فإن هؤلاء سوف يطلقون سراح الملك والرجال الآخرين من ذوي المراتب الذين كانوا في السجن، أما بالنسبة للأناس الذين كانوا أدنى مكانة، فقد كان السلطان قد بعث بهم إلى القاهرة، وطبعاً باستثناء الذين كانوا قد أعدموا، وقد فعل هذا مراغمة للاتفاقية التي كان قد عقدها مع الملك، ولهذا بدا لنا كبير الاحتمال أنه كان ما أن يحصل على دمياط، حتى كان سيتولى إعدامنا أيضاً.

وأضافوا شرطاً آخر هو أن على الملك إقسام يمين يلبي به مطلب المسلمين بدفع مائتي ألف ليرة ذهبية إليهم قبل مغادرته النهر، ومبلغ مماثل لدى وصوله إلى عكا، وتوجب على المسلمين من جانبهم، القيام

— وفقاً لشروط هذه المعاهدة — بتولي رعاية شؤون المرضى في دمياط، وأن يبقوا لديهم القسي العقارة، والدروع، واللحوم المملحةوالآلات، والحفاظ عليها في المدينة حتى يحين الوقت الذي سوف يرسل الملك فيأخذهم.

أما الأيمان التي كان الأمراء سيقسمونها للملك، فقد دونت كتابة، وقد نصت على أنهم إذا لم يراعوا ميثاقهم مع الملك، فسيعدّون بمثابة الرجل الذي فقد سمعته والذي عليه بسبب ما اقترفه من ذنب أن يحج إلى مكة، وهو عاري الرأس، أو إنساناً جديراً بالعار، مثل الذي طلق زوجته وأراد بعد ذلك إعادتها ثانية(لأنه في تلك الحالة، لايمكن لرجل طلق زوجته أن يعيدها ثانية، ما لم تكن قد تزوجت من إنسان آخر وذلك حسب ما قضت به شريعة محمد) (ﷺ)، وكان القسم الثالث حسبما يلي: أنهم إذا ما خرقوا عهدهم مع الملك، فسوف يتلطخون بمثل العار الذي يتلطخ به المسلم الذي يأكل لحم الخنزير، وكان الملك راضياً بهذه الأيمان التي ذكرتها للتو، لأن نيقولا العكاوي، وهو كاهن عرف لغتهم، قد أكد له، أنه بالنسبة لشريعتهم لايمكنهم أداء أيمان أقوى وأكثر توثيقاً.

وبعدما أقسم الأمراء، وضعوا صيغة اليمين الذي أرادوا أن يقسمه الملك كتابة ، وقد صيغ هذا القسم بناء على مشورة كهنة مرتدين، كانوا قد التحقوا بجانب المسلمين، وبدأت هذه الصيغة كمايلي: إنه إذا لم يلتزم الملك بشروط معاهدته مع الأمراء، سوف تتلطخ سمعته كمسيحي أنكر ربنا وأمه، وأصبح خارجاً عن تبعية حوارييه الإثني عشر وجميع القديسين، ووافق الملك على هذه الصيغة عن طيب خاطر.

وكانت الفقرة الأخيرة من القسم تقول: إذا لم يكن الملك وفياً مع الأمراء سوف تتلطخ سمعته كمسيحي وسيكون مثله مثل من أنكر الرب وأنكر شريعته، وازدراه، وبصق على الصليب، ووضعه تحت

قدميه وداسه، وعندما قـرأ الملك ذلك قال: إن شاء الرب هو سوف لن يقسم مثل ذلك اليمين.

وبما أن نيقولا العكاوي، كان يعرف لغتهم، فقد أعطاه الأمراء رسالة ليحملهـا إلى الملك، وقـد قال له:«يـا صاحب الجلالة، الأمـراء حـانقين جداً، ففي الوقت الذي أقسمـوا لك فيه على كل مـا طلبته منهم، قمت من جانبك، برفض القسم على مـا طلبوه منك، وكن متأكداً أنك إذا لم تقسم اليمين سـوف يـأمـرون بقطع رأسك ورؤوس جميع بنـي قـومك أيضاً»، وأجاب الملك بأن الأمراء في وضع يمكنهم فيه أن يفعلوا الذي يريدونه بالنسبة لهذه القضيـة، أما بالنسبة لما يتعلـق به شخصياً، إنه يؤثر أن يموت مسيحياً جيداً، على أن يعيش معادياً لربنا ولأمه.

وقـام بطريرك القـدس، وكـان رجلاً عجـوزاً ووقـوراً في الثمانين من عمره، بالحصـول على أمان من المسلمين، وقدم ليسـاعد الملك في تأمين إطلاق سراحـه، وحدث أن العادة كـانت بين المسيحيين والمسلمين، أنه إذا مـا مـات ملك أو سلطان، فإن الذين كـانوا يعملون رسـلاً في تلك الأثناء، سواء أكانوا في أرض مسيحية أو غير مسيحية، يتخذون أسرى، ويسترقـون، وبما أن السلطان الذي أعطى الأمـان إلى البطريرك هو الآن ميت، فإن هذا الرجل الوقور غدا أسيراً مثلما كنا.

وبعدما أعطى الملك جوابه إلى الأمراء، أعلن واحد منهم بأن هذا قد صنع بناء على نصيحـة البطريـرك، وقـال للمسلمين الآخـرين:«إذا كنتم تثقـون بي، ســوف أجعل الملك يقسم، أو أنني ســوف أرسل رأس البطريرك طائراً إلى حضن جلالته».

ولم يصغ إليه بقيـة الأمراء، وبعـد ذلك أبعدوا البطريرك عن جـانب الملك، وربطوه إلى عمـود السرادق الملكي، ويديه مشدودتان بقـوة وراء ظهـره، حتى أنهما تورمتا وصـارتا بحجم رأسـه، وأخذ الدم يتـدفق من

بين أظافره، فصرخ إلى الملك قائلاً: «احلف يا صاحب الجلالة، بدون خوف ، لأنك بالفعل عازم على الوفاء بيمينك، أو لسوف أحمل على نفسي كل ذنب قد يكون موجوداً، فيما طلب منك أن تقسمه»، ولا أعرف كيف تمت تسوية القضية، لكن في النهاية كان الأمراء راضين عن الطريقة التي جرى إقسام اليمين بها، من قبل كل من الملك والرجال الآخرين من ذوي المراتب من الذين كانوا معه.

وبعد وفاة السلطان بوقت قصير جداً، وضعت شارات السلطنة أمام خيمة الملك، وقد أعلم بأن الأمراء، اجتمعوا للتشاور، وقد عبروا عن رغبتهم العظيمة في جعله سلطان مصر، وسألني عما إذا كنت أرضى بأن يقبل بأخذ هذه المملكة إذا ما عرضت عليه، فأخبرته أنه إذا ما فعل ذلك فسوف يتصرف بحماقة عظيمة، بعدما رأينا قيام هؤلاء الأمراء بقتل سيدهم السالف ، وعلى كل حال لقد أخبرني بأنه لن يرفض ذلك.

ويمكنني القول أن ما من شيء حدث بعد هذا، وتوقفت المسألة عند هذا الحد، لأنه بسبب أن المسلمين قالوا بأن الملك كان أكثر المسيحيين المتصلبين، ولايمكن أن يوجد مثله،وأقاموا دليلاً على هذا بواقعة أنه كان في كل مرة يترك فيها خيمته، كان يتمدد على الأرض على شكل صليب، ويرسم علامة الصليب فوق جسده كله، وقالوا لو أن محمداً(ﷺ) سمح لهم بالتعرض للعذاب مثلما تعرض الملك، ما كانوا ليحافظوا على إيمانهم به، وزيادة على هذا قالوا لو أن المسلمين جعلوا الملك سلطاناً عليهم، كانوا سيصبحون جميعاً مسيحيين، أو أنه كان سيقتلهم جميعاً.

وبعدما جرى إقرار المعاهدة بين الملك وبين الأمراء، وتأكدت باليمين، تم الاتفاق على إطلاق سراحنا غداة يوم عيد الصعود، وأنه ما أن يفرغ من تسليم دمياط إلى الأمراء، حتى سيقومون بفك أسار الملك

وجميع الناس المهمين معـه، وفي مسـاء يوم الثلاثاء قـام المسـؤولون عن غلايينـا الأربعة بالرسـو بهم في وسط النهر، عبر جسر دميـاط، ونصبوا سرادقاً تجاه الجسر، في المكان الذي كان سينزل الملك منه إلى اليابسة.

وعند شروق الشمس دخل غيوفـري دي سارجين إلى دمياط، وتولى مسـؤوليـة تسليمهـا إلى الأمـراء ، ورفعـت أعـلام السلطان فـوق جميع الأبراج،وتدفـق الفـرسـان المسلمـون على المدينة، وشرعـوا يشربون الخمـرة، ولهذا أصبحـوا جميعاً في وقت قصير جـداً سكارى مخمـورين، وصعـد واحـد من هؤلاء الرجـال ظهـر مـركبنا، وسيفـه مسلول وكله ملطخ بالدم، وأعلن أنه من جانبه قد قتل سبعة من شعبنا.

وقبل استسـلام دميـاط، جـرى استقبـال الملكة على متن سفننا، هي وجميع بني قومنا الذين كـانوا في المدينة، وذلك باستثناء المرضى، فهؤلاء كان المسلمون قد تعهـدوا بالحفاظ عليهم، لكنهم قتلوا كل واحد منهم، أمـا آلات الملك، التي توجب عليهم الحفـاظ عليهـا فقـد حطمـوها إلى قطع، وأمـا فيما يتعلق باللحـوم المملحـة، التي كـان عليهم حفظهـا لنا لأنهم لايأكلون لحم الخنزير، فقـد دمروها، فقـد جمعوا الآلات كلهـا في كـومة واحـدة، ولحوم الخنزير المملحـة في كومـة أخرى، والأمـوات في كومة ثالثـة، وألقوا النار فيهم جميعاً، وكانت نـاراً عظيمة استمرت جميع يوم الجمعة، ثم السبت، والأحد.

وكـان المتـوجب إطلاق سراح الملك وجميع الذين كـانوا هناك عند إشراق الشمس لكـن المسلمين احتفظوا بهم حتى غيـاب الشمس، ولم يكن لدينا طوال ذلك الـوقت شيئاً نأكله، ولا الأمـراء أيضـاً، وأمضـوا ذلك النهار كله في الخلاف فيما بينهم، وقـد تحدث واحد منهم إلى الذين وقفـوا إلى جانبـه وأيدوه، وقال للبقيـة:«أيها الأصدقـاء إذا أصغيتم إليّ وإلى الذين يرون رأيي، اقتلوا الملك، وكل الأعيـان الذين معه، ووقتهـا ستكونـون للأربعين سنة المقبلـة بدون مخاطـر، لأن أولادهم مـازالوا

صغاراً، ولقد أخـذنا دمياط ولذلك يمكننا أن نفعل ذلك في ظل الأمان الأعظم».

وعارض مسلم آخر، اسمـه صبر الدين، وكان من أهل المغرب، هذا الاقتراح، وقـال:«إذا مـا قتلنا الملك، بعـد قتلنا لسلطاننـا، سيقـول كل إنسـان: إن المصريين هم أكثر الناس سـوءاً وأعظمهم خيانة في الدنيـا»، أما الذين رغبـوا في قتلنا فردوا قـائلين:«صحيح تماماً أننا تصرفنا بشكل شرير تماماً في التخلص من سلطاننا بقتله، لأننا بفعلنا هذا خالفنا شريعة محمـد(ﷺ) الذي أمرنا بالمحـافظة على مـولانا محافظتنا على بؤبؤ أعيننا، ودونكم مـا جـاء في هذا الكتـاب من وصـايا مكتـوبـة» ثم استطرد يقول:«لكن أصغـوا إلى هذه الوصية التي جاءت بعـد ذلك»، ومع قوله هذا قلب صفحة الكتاب الذي كـان يمسكه بيده وأراهم وصية أخرى، جـاء فيهـا:«حتى تصـونوا إيمانكم، اقتلـوا أعـداء الشريعـة»، وقـال:«ويمكنكم الآن أن تروا كيف عصينا إحـدى وصايا محمـد(ﷺ) بقتلنا مـولانا، غير أننا سوف نكون أعظم عصيـاناً إذا لم نقتل الملك، بما أنه أقوى أعداء شريعتنا الإسلامية».

وتم الاتفاق تقـريباً على موتنـا، وحدث أن قدم واحـد من الأمراء، الذين كـانوا ضـدنا، وكـان يرى وجـوب قتلنا جميعاً، قـدم إلى شـاطىء النهر، وبدأ يصرخ بلسان المسلمين إلى الرجال الذين كانوا مسؤولين عن غلايينا، وانتزع في الوقت نفسه عمامته، وأخذ يلوح بها كإشارة خاصة، وقـام البحـارة على الفور برفع المراسي، وأبحـروا بنا إلى الخلف مسـافـة فرسخ باتجاه القاهرة، واعتقدنا هنا بأننا لابد مقتولون، فذرفنا الكثير من الدموع.

غير أن الرب الذي لم ينس شعبـه، قضى أن تم الاتفاق عند غـروب الشمس، على وجـوب إطلاق سراحنا، وهكـذا أعـدنا، وجـرى سحب مراكبنا وصفهـا على طرف الشاطىء وهنا طلبنا أن يسمح لنا بالذهاب،

لكن المسلمين قالوا بأنهم لن يدعـونا نذهب، حتى نتناول طعامنا، ذلك أنهم قـالوا: «سوف يلحق العـار بأمـرائنا إذا تركنا أسرانا جياعـاً»، وبناء عليـه طلبنا منهم إحضـار بعض الطعـام، وأخبرناهم أننا سـوف نأكل، وتألـف الطعـــام الذي أعطوه لنا مـن الجبن المجفف في الشمـس حتى لاتتوالد فيه اليرقات، وكذلك بيض مسلوق، جرى سلقه قبل ثلاثة أيام أو أربعة، وإكراماً لنا صبغوا قشور هذا البيض بألوان مختلفة.

وبعدما أنزلونا إلى اليابسة، ذهبنا إلى مقابلة الملك الذي كانوا يرافقونه من السرادق الذي حبس فيه إلى شاطىء النهر، وسار خلفه عشرون ألفاً من المسلمين على الأقـدام وقـد تمنطقوا بسيـوفهم، ورسى في النهـر، في مـواجهـة الملك مباشرة غليـون جنوي، بدا أن على ظهـره رجل واحـد فقط، ومـا أن رأى هـذا الرجل الملك على شـاطىء النهـر حتى نفخ بصفـارة، ولدى سماع صـــوتها تدفق ثمانون مـن حملة القسي العقـارة وخرجوا من قاع السفينة، وكانوا جميعاً في سلاح كامل، وقسيهم العقارة مفـوقة، وبلحظة واحـدة وضعـوا سهامهم في تجاويف إطلاقهـا، ولدى رؤية المسلمين للرجـال الذين ظهـروا هربوا مثل الأنعـام، ولم يبق منهم أكثر من اثنين أو ثلاثة إلى جانب الملك.

وجـرى إلقـاء لوح من الخشب مـن الغليـون إلى الشـاطىء، ليتمكن جـلالتـه من الصعـود إلى ظهر السفينة، وذهب معـه أخـوه كـونت دي أنجـو، وغيـوفـري دي سـارجين، وفيليب دي نيمـور Nemours ، وهنري دي متز Mez ، مارشال فرنسا، ومقدم الثالوث المقدس، وأنا، وبقي كـونت دي بواتييـه سجيناً حتى الوقت الذي دفع فيـه الملك مبلغ المائتي ألف ليرة ذهبية، الذي كان عليه دفعه كمال فدية قبل تركه النهر.

وفي يوم السبت التالي ليوم عيد الصعـود — أي أن تقول اليوم التالي لإطلاق سراحنا — جاء كـونت دي فلاندرز، وكونت دي سـواسون، وعدد آخـر من الرجال ذوي المراتـب، ممن كانوا محبـوسين في الغلايين،

جاءوا لوداع الملك، وقال لهم الملك بأنه يرى من المفيد لو أنهم انتظروا حتى يتم إطلاق سراح أخيه كونت دي بواتييه، وعلى كل حال، لقد أخبروه أنه ليس بإمكانهم الانتظار، بما أن غلايينهم جاهزة للابحار، وهكذا أقلعوا وانطلقوا نحو فرنسا، وأخذوا معهم كونت بيير دي بريتاني الجيد، الذي كان مريضاً جداً، حتى أنه عاش ثلاثة أسابيع فقط ومات في البحر.

وجرت استعدادات لدفع الفدية إلى المسلمين، وقد بدأت في صباح يوم السبت، واستغرق الأمر طوال ذلك اليوم واليوم التالي حتى الليل لتعداد المال، وتمت أعمال التعداد بوساطة الوزن بالميزان، وساوت كل وزنة ما قيمته عشرة آلاف ليرة ذهبية، وفي جوالي الساعة السادسة من مساء يوم الأحد، بعث رجال الملك الذين كانوا يتولون وزن المال ، إليه يخبرونه أنهم مازالوا يحتاجون إلى ثلاثين ألف ليرة ذهبية هي النقص في المبلغ المطلوب ، وكان الملك في ذلك الوقت معه فقط كونت دي أنجو، ومارشال فرنسا ومقدم الثالوث المقدس، وأنا شخصياً،فقد انشغل البقية بتعداد مال الفدية.وأخبرت الملك أنه سوف يكون عملاً مفيداً أن يبعث فيستدعي قائد الداوية ومارشالهم، ذلك أن المقدم كان متوفى، ويطلب منهما إقراضه ثلاثين ألف ليرة ذهبية، وهو المبلغ الذي مايزال يحتاجه لفدية أخيه، وبناء عليه بعث الملك واستدعى الداويين، ووجه تعليماته إليّ لإخبارهما بالذي نريده.

وبعدما كلمتهما التفت إليّ الراهب إيتين دي أوتريكورت Etienne d` otricourt قائد الداوية، مجيباً،حيث قال:«مولاي صاحب جوانفيل، إن هذه المشورة التي أسديتها إلى الملك ليست جيدة وغير معقولة، لأنك تعلم أن جميع المال الموضوع بعهدتنا،قد ترك معنا على شرط أقسمنا عليه، بأن لانسلم هذا المال إلى أحد إلاّ إلى الذين عهدوا به إلينا»، وإثر هذا تبادلنا أنا وهو كلمات كثيرة قاسية وشتائم فيما بيننا.

وبينما كنا نتجادل هكذا تدخل الراهب رينو دي فيشير Vichiers الذي كان مارشال الداوية ليقول:«دعنا يا صاحب الجلالة نوقف هذا الخصام بين القائد وبين مولاي صاحب جوانفيل،لأن قائدنا يقول: لايمكننا أن نسلف أياً من هذا المال دون أن نحنث بأيماننا، أما بالنسبة لما أشار به نائبك، بأن تأخذ المال إذا لم يقرض لك، إنني لا أجد شيئاً مدهشاً كثيراً في مثل هذا الاقتراح، وعليك أن تفعل الذي تراه هو الأفضل، وفي جميع الأحوال إذا ما أخذت ما هو عائد إلينا هنا في مصر، لدينا الكثير مما هو عائد إليك وموجود في عكا، يمكنك من أن تقدم لنا التعويض بكل سهولة».

وقلت للملك بأنني ذاهب لأخذ المال إذا كان موافقاً، فأمرني بالذهاب، وبناء عليه ذهبت إلى واحد من الغلايين العائدين للداوية، وكان بالواقع هو الغليون الرئيسي، وعندما كنت على وشك النزول إلى المخزن، حيث حفظت الخزانة، طلبت من قائد الداوية القدوم ورؤية الذي سوف آخذه، غير أنه لم يتنازل بفعل ذلك، وعلى كل حال قال المارشال بأنه سوف يقدم ويكون شاهداً على العنف الذي سأمارسه ضده.

وما أن نزلت إلى الأسفل حيث كانت الخزانة، حتى طلبت من خازن الداوية، الذي كان هناك أن يعطيني مفاتيح الصندوق الذي كان أمامي، ولكنه وقد رآني مهزولاً، قد أنهكني المرض،ردّ عليّ بأنه لن يعطيني مفاتيحه، ورأيت فأساً ملقاة هناك، فالتقطتها وقلت بأنني سأجعلها تعمل بمثابة مفتاح لجلالته، وعند هذا أمسك المارشال بمقبض يدي وقال:«بما أنك عازم على استخدام العنف ضدنا، سندعك تأخذ المفاتيح»، وهكذا أمر الخازن بإعطائي إياهم، ففعل ذلك عندما أخبره المارشال من أنا، وهو أبكم تماماً لدهشته.

ولدى فتحي لواحد من الصناديق وجدته ملكاً لنيقولا دي شوسي

Choisi، وكـان من سيرجندية الملك، و أخرجت مـا وجدت فيـه من مـال، ثم ذهبت عـائداً إلى المركب الذي جلبني، وجلسـت على قوسـه، وأحضرت مارشال فـرنسا وتركته مع مقدم الثـالوث المقدس مسؤولين عن المال الموجـود في الغليـون، وسلـم المارشـال المال هناك إلى المقـدم، وناولني المقـدم إياه على القـارب الذي كنت جـالسـاً فيـه، وعندمـا كنا قـادمين نحو غليـون الملك شرعت أصرخ له قـائـلاً:«مولاي، مـولاي، انظر كيف أنا مجهـز بشكل جيـد»، وكان الرجـل القديس مسروراً جـداً برؤيتي، ورحـب بي ببهجـة بالغة، ونـاولنا المال الذي جلبته إلى الرجـال الذين كانوا يتعاملون مع مال الفدية.

وبعدما أكمل مستشارو الملك الذيـن كانوا مسؤولين عن هذه المهمة، عمليـة تعدادهم جـاءوا إلى الملك وقـالوا بأن المسلمين لن يوافقـوا على إطلاق سراح أخيـه حتى يكون المال بالفعل في حـوزتهم، وارتأى بعض أعضـاء مجلس مستشـاريـه أن على الملك عـدم تسليـم المال حتى يكون أخـوه عنده بالفعل، ورد الملك بـأنه سـوف يسلمهم المال، بما أنه وعـد المسلمين بفعل ذلك، وبالنسبـة إليهم، إنهم إذا ما أرادوا التعامل بـأمانة، فسوف يحافظون على عهودهم معه .

وبعدمـا تمت أعمال الدفع قال فيليـب دي نيمور Nemours للملك أنهم اقتطعوا أثناء تعـدادهـم للمال عشرة آلاف ليرة ذهبية على المسلمين، ولدى سماع الملك بذلك صـار غـاضباً كثيراً، وقـال بأنه وعـد المسلمين بدفع مبلغ مـائتي ألف ليرة ذهبيـة بشكل كـامل قبـل مغـادرته للنهـر، وأصر على إعادة العشرة آلاف ليرة ذهبية لهم، ووقتها ضغطت على قدم اللورد فيليب، وأخبرت الملك أن لايصدق مـا سمعه منه، لأن المسلمين كانوا أذكى وأبرع من هو معـروف في العالم، وأقر مـولاي فيليب أن ما قلته أنا كان صحيحاً، وأضاف أنه كان يتحدث مزاحاً، وأخبره الملك أن هذا المزاح غير مقبـول ويـدل على ذوق سيء جـداً، وقـال لمولاي

فيليب:«إنني آمرك، بحق طاعتك لي، بسبب أنك تابع لي، إذا لم تكن قد دفعت هذا المبلغ، أي العشرة آلاف ليرة ذهبية إلى المسلمين، أن تقوم بدفعهم دون تلكؤ».

ونصح كثير من أتباع الملك، الملك بالانسحاب إلى سفينته التي كانت تنتظره في البحر، وذلك حتى يكون بعيداً عن متناول أيدي المسلمين، لكنه رفض الإصغاء إليهم.

وأعلن أنه سوف يبقى عند النهر، حسبما كان قد وعد المسلمين، وذلك حتى ينقضي الوقت الذي يكون قد دفع فيه المائتي ألف ليرة ذهبية، وعلى كل حال، ما أن كمل الدفع، حتى أخبرنا، دون أن يحرضه أحد، أنه يعد نفسه من تلك اللحظة قد تحلل من يمينه، وأنه بات علينا مغادرة النهر والذهاب إلى السفينة التي كانت في البحر.

وما لبث غليوننا أن انطلق نحو الأمام، وقطعنا مرحلة كاملة قبل أن يتلفظ أي منا بكلمة لرفاقه، وكنا منزعجين لأننا تركنا كونت دي بواتييه ما يزال في الأسر، وفي تلك الساعة صعد فيليب دي مونتفورت إلينا في الغليون، وحيّا الملك هاتفاً:«مولاي، مولاي، تحدث إلى أخيك، كونت بواتييه، الذي هو في هذه السفينة الأخرى»، وهتف الملك في تلك اللحظة:«تمهلوا، تمهلوا»، ونفذ هذا بسرعة، وكانت البهجة التي شعرنا فيها في تلك اللحظة عظيمة، لابل أعظم من أية بهجة كانت، وذهب الملك إلى سفينة الكونت، وكذلك فعلنا نحن، وتلقى صائد سمك فقير، ذهب لإخبار كونتسة دي بواتييه، بأنه قد رأى زوجها قد أطلق سراحه، عشرين ليرة ذهبية باريسية منها.

وقبل أن أمضي أبعد، علي أن لا أنسى إخباركم ببعض الأشياء التي حدثت ونحن ما نزال في مصر، وسأتكلم أولاً عن غوتيير دي شاتليون، وكان واحد من فرساننا، اسمه جين مونسون Monson قد

أخبرني بأنه قد رآه في شوارع القرية التي أخذ الملك فيها أسيراً، وكان هذا الشارع يشق القرية بشكل مباشر، وبذلك كان يمكنك رؤية الحقول المفتوحة على كلا الطرفين، وكان غوتيير في هذا الشارع وسيفه مجرداً في يده، ولدى رؤيته أن المسلمين داخلون إلى الشارع، اندفع نحوهم وسيفه بيده، وتولى طردهم إلى خارج القرية، غير أنهم كانوا قادرين وهم فارين على الرماية بسهولة نحو الأمام ونحو الخلف، وقد غطوه من رأسه إلى قدميه بنشابهم، وما أن فرغ من طردهم إلى خارج القرية، حتى أخذ ينزع النشاب من دروعه، ثم لبس دروعه وامتطى فرسه، ووضع رجليه في ركاباته وسيفه مرفوع بذراعه، وصرخ بصوت مرتفع:«شاتليون يافارس، شاتليون، أين هم رجالي الموثوقين»؟ وعندما التفت نحو الخلف، ورأى المسلمين قد دخلوا الشارع من النهاية الثانية، اندفع نحوهم ثانية، وسيفه بيده، وطردهم وأبعدهم، وقد فعل ذلك ثلاث مرات، مع النتيجة نفسها.

وبعدما أخذني قائد الغلايين للالتحاق برفاقنا الذين أسروا فوق اليابسة، سألت عن أخبار غوتيير دي شاتليون، وتقصيت من الناس الذين كانوا يعيشون معه، فلم أستطع العثور على أحد يمكنه أن يخبرني كيف أسر، لكنني سمعت من الفارس الجيد جين فونون Fouinon ، أنه عندما أسر شخصياً، وحمل أسيراً إلى المنصورة، رأى مسلماً يمتطي فرس غوتيير دي شاتليون، وكان سرجه مغطى بالدم، وسأل الفارس الجيد هذا المسلم: ما الذي فعله للرجل الذي عاد الفرس إليه، وأجابه بأنه قطع عنقه وهو على ظهر ذلك الفرس، حسبما يمكن رؤية آثار ذلك بكل سهولة من الدم الذي يغطي سرجه.

وكان هناك رجل آخر شجاع جداً في جيشنا، هو أسقف سواسون، الذي كان اسمه جاك دي كاسل Jacques de Castel ، فعندما رأى عساكرنا وهي تتراجع نحو دمياط، وبما أن أعظم رغباته كانت في

أن يكون مع الرب، فقد شعر أنه ليس لديه رغبة بالعودة إلى البلاد التي ولد فيها، ولهذا بادر مسرعاً ليكون مع الرب، بغمز حصانه، والاندفاع لقتال المسلمين وحيداً، وقد تناوشه هؤلاء وقطعوه بسيوفهم، وبذلك بعثوا به ليكون برفقة الرب، بين أعداد الشهداء.

وعندما كان الملك ينتظر من أجل إتمام إجراءات الدفع لإطلاق سراح أخيه ، كونت دي بواتييه، جاء مسلم ملابسه جيدة، وبهي الطلعة ووسيم جداً، إلى جلالته ليقدم له هدية، تكونت من جرار فيها حليب، وورود من مختلف الألوان والأنواع، وقدمها له باسم أبناء الناصر، الذي كان سلطان القاهرة، وعندما قدم هذه الهدايا تحدث إلى الملك بالفرنسية.

وعندما سأله الملك أين تعلم الفرنسية، أجابه هذا الرجل، بأنه كان من قبل مسيحياً، وبناء عليه قال الملك له:«انصرف، لاأريد الحديث إليك»، وسحبت الرجل جانباً وسألته أن يخبرني عن ظروفه، فأخبرني بأنه قد ولد في بروفانس، وأنه قدم إلى مصر، وتزوج من مصرية، وأنه الآن شخصية لها أهمية عظيمة، فقلت له:«ألا تدرك أنك إذا ما مت في هذا الوضع سوف تدان، وتذهب إلى جهنم»، فأجاب بأنه يعرف ذلك، وفضلاً عن هذا هو متأكد أن ما من ديانة جيدة مثل الديانة المسيحية» ثم أضاف:«لكنني أخاف من أن أواجه الفقر، وأن أعاني من العار إذا ما عدت إليكم، فكل يوم سوف يقول واحد ما أو آخر لي:«اغرب، أنت جرذ»، ولهذا إنني أوثر أن أعيش هنا غنياً وبيسر، على أن أضع نفسي في وضع يمكنني تصوره»، وقد بينت له، أنه في يوم الحساب، عندما تكون ذنوبه واضحة أمام الجميع، سوف يعاني من عار أعظم مما تحدث عنه في تلك الساعة، وقدمت له كثيراً من النصائح المسيحية الجيدة، لكن ذلك كله كان بلا نفع وبلا تأثير، وهكذا انصرف عني ولم أره ثانية.

ولقد سمعتم حتى الآن عن العذاب العظيم الذي عانى الملك منه

وعانى منه بقيتنا أيضاً، ولم تنج الملكة(التي كانت آنذاك في دمياط)، كما سأخبركم، من الآلام شخصياً، فقبل ولادتها بثلاثة أيام بولد، جاءتها الأخبار بأن الملك قد وقع بالأسر، وقد أخافها هذا كثيراً جداً إلى حد أنها كانت كلما أوت إلى فراشها، خيل إليها أن الحجرة كانت مليئة بالمسلمين، فكانت تصرخ بصوت مرتفع:«النجدة، النجدة»، وخشية منها أن يلد الولد الذي كانت تحمله ميتاً، جعلت فارساً عجوزاً ينام قرب فراشها، ويمسك يدها في كل مرة كانت تصرخ فيها ويقول لها:«لا تكوني خائفة، ياسيدتي، فأنا هنا».

وأمرت قبل أن تلد كل إنسان بمغادرة غرفتها، باستثناء ذلك الفارس، ثم إنها ركعت أمام ذلك الرجل العجوز، وترجته أن يؤدي لها خدمة، وقد وافق، وأقسم أنه سوف يفعل الذي تطلبه منه، وبناء عليه قالت له:«أطلب منك بموجب القسم الذي أقسمته لي، أنه إذا ما استولى المسلمون على هذه المدينة، أن تقطع رأسي قبل أن يأسروني»، وأجابها الفارس:«كوني واثقة ، أنني سأفعل ذلك بدون تردد، لأنني صممت في فكري، بأن أقتلك قبل أسرنا معاً».

وولدت الملكة ولداً ذكراً أطلق عليه اسم جين، وسماه قومها ترسترام Tristram(الحزين) بسبب الحزن العظيم الذي رافق ولادته، ففي اليوم نفسه الذي ولدت فيه أخبرت بأن رجال بيزا، وجنوى والمدن الأخرى الحرة، عازمون على الهرب من دمياط فقامت في اليوم التالي بإحضارهم، فوقفوا إلى جانبي فراشها، وكانت الحجرة مليئة بهم، وقد قالت لهم:«أيها السادة، من أجل الرب، لاتغادروا هذه المدينة، حيث لابد أن يكون واضحاً لكم أننا سوف نخسر بذلك الملك مع جميع الذين أخذوا أسرى معه أيضاً، وإذا كان هذا الالتماس لم يثركم، اعطفوا على المخلوقة الضعيفة المسجاة هنا، وانتظروا حتى أتعافى».

وقد أجابوها:«ما الذي يمكننا فعله ياسيدتي؟ إننا نموت جوعاً في

هذه المدينة»، فأخبرتهم الملكة أنهم لايحتاجون إلى مغادرة المدينة خوفاً من المجاعة، «لأنني — كما قالت — سوف آمربشراء جميع الأطعمة الموجودة بالمدينة باسمي، ومن الآن فصاعداً سوف تعيشون على حساب الملك»، وبعدما تداولوا الأمر فيما بينهم، عادوا إلى الملكة وأخبروها بأنهم سوف يبقون عن طيب خاطر، ثم قامت — منحها الرب النعمة — بتدبر شراء جميع الأطعمة التي كانت بالمدينة بمبلغ ثلاثمائة وستين ألف ليرة ذهبية، لكن قبل أن يحين الوقت الذي كان عليها فيه مغادرة فراشها، اضطرت إلى تركه، لأن المدينة كانت ستسلم إلى المسلمين، وهكذا توجب عليها الذهاب إلى عكا لتنتظر وصول الملك.

وبينما كان جلالته ينتظر إطلاق سراح كونت دي بواتييه، أرسل الراهب راؤول — وكان من الرهبان المبشرين — إلى أمير يدعى فارس الدين أقطاي، الذي كان من أكثر المسلمين أمانة ممن رأيته قط، وقد أخبره هذا الراهب بأن الملك مندهش كثيراً، كيف أنه مع الأمراء الآخرين قد سمحوا بهذا الخرق الفاضح للمعاهدة، لأنهم قتلوا المرضى، الذين توجب عليهم بموجب اليمين العناية بهم، وحطموا جميع آلاته إلى قطع، وأحرقوا أجساد المرضى، وكذلك لحوم الخنزير المملحة، التي كان من المتوجب عليهم حفظها.

وقال فارس الدين أقطاي في جوابه للراهب: «إذهب وأخبر ملكك، أنني بسبب شريعتي لا أستطيع فعل شيء لإرضائه، بل إنني حزين جداً لما حصل، وحذر جلالته أيضاً باسمي، بعدم إبداء أية علائم تدل على أن هذه القضية قد أزعجته، ما دام باقياً في أيدينا، لأن معنى ذلك سيكون موته»، وعبر هذا الأمير عن رأيه، أنه ما أن يصبح الملك في عكا سالماً، يمكنه أن يحرك هذه المسألة من جديد.

الفصل الحادي عشر
الملك في عكا
أيار ١٢٥٠ — آذار ١٢٥١

عندما وصل الملك إلى ظهر سفينته، وجد أن جماعته لم يعدّو له شيئاً لا من الأثاث والفراش، ولا من الثياب، لذلك توجب عليه أن ينام على حشايا أعطيت له من قبل السلطان، وذلك حتى وصولنا إلى عكا، وأن يرتدي الملابس التي أمر السلطان بتجهيزه بها وإعدادها له، وكانت هذه الملابس من الساتان الأسود، المبطن بالفراء الأبيض وبفراء السنجاب الأغبر، ومزينة بأعداد كبيرة جداً من الأزرار، المصنوعة من الذهب الخالص.

وبسبب وضعي الصحي وضعفي أمضيت الأيام الستة، التي قضيناها في البحر إلى جانب الملك، وأخبرني في أثناء ذلك الوقت كيف وقع بالأسر، وكيف تمكن بعون الرب ، من إجراء مباحثات من أجل إطلاق سراحه وسراحنا، ومن أجل الفدية أيضاً.

وجعلني أخبره بدوري كيف أنني أسرت وأناعلى سطح الماء، وبعدما استمع إلى روايتي، أخبرني أنني مدان بالشكر العظيم لمولانا، لأنه خلصني من مثل هذا الخطر الجسيم، وحزن حزناً عظيماً لوفاة أخيه، كونت دي أرتو، وقال لو أنه كان حياً ما كان ليتجنب مرافقته مثلما فعل كونت دي بواتييه، بل كان سيأتي لرؤيته على ظهر غليونه.

واشتكى الملك لي من أخيه الآخر، كونت دي أنجو، فمع أنهما كانا على ظهر المركب نفسه، فإنه اهتم قليلاً بمرافقته، وسأل الملك في أحد الأيام عن الذي كان يفعله كونت دي أنجو، فأخبر بأنه كان يلعب لعبة

حظ مع غوتيير دي نيمور Nemours ، ومع أنه كان ضعيفاً من مرضه، تحامل الملك على نفسه حتى وصل إلى اللاعبين، والتقط النرد والألواح، وألقى بالجميع في البحر، ووجه النقد إلى أخيه بصوت مرتفع لإقدامه على لعب الميسر بمثل هذه السرعة، وتخلص مولاي غوتيير من ذلك، بخير وسيلة، لأنه ألقى جميع المال الذي كان على المائدة — وكان هناك منه الشيء الكثير — في حضنه، وحمله معه وابتعد.

وأريد الآن أن أحدثكم بعض الشيءعن المحن والمشاكل التي عانيت منها أثناء إقامتي في عكا، والتي خلصني الرب منها في النهاية، ذلك أنني وضعت ثقتي فيه، ومازلت أضعها فيه، وهدفي من تدوين هذه الأمور، أن يقوم الذين يسمعون بهم بوضع ثقتهم بالرب، في أوقاتهم العصيبة ، فوقتها سوف يجدونه جاهزاً لمساعدتهم مثلما ساعدني.

ودعوني أخبركم أولاً كيف أنه عندما وصل الملك إلى عكا، خرج جميع رجال الدين وأهل المدينة في موكب، ونزلوا في مسيرة إلى شاطىء البحر للترحيب به ببهجة عظيمة جداً، وجلب لي أحدهم جواداً صغيراً، لكن عندما امتطيته شعرت بغيبوبة فطلبت من الذي جلبه لي أن يمسكني، خشية أن أسقط، وصعدت بصعوبة بالغة درجات السلم إلى قاعة الملك، حيث ذهبت وجلست إلى جانب نافذة، ووقف إلى جانبي طفل صغير له من العمر عشر سنوات، وكان هذا هو بارثلمي الابن الطبيعي لآمي دي مونتبليارد، صاحب مونتفوكون.

وبينما كنت جالساً هناك، غير لافت لانتباه أحد، اقترب.مني خادم يرتدي مئزراً أحمر له خطين أصفرين، وانحنى أمامي، وسألني فيما إذا كنت أعرفه، فقلت: لا إنني لا أعرفه، فعندها أخبرني بأنه جاء من قلعة عمي في أويسلي Oiselay، فسألته: خادم من هو ؟ فقال بأنه غير مرتبط بأحد، لكنه سيبقى معي إذا ما رغبت، وهكذا أخبرته أنني سأكون مسروراً جداً لأن أستخدمه، وبناء عليه ذهب وأحضر لي بعض

الأغطية البيضاء لتغطية رأسي، ومشط شعري لي بدقة متناهية.

وبعد هذا بوقت قصير بعث الملك يستدعيني لتناول الطعام معه، وذهبت إليه مرتدياً المئزر القصير الذي كان قد صنع لي من أثمال من اللحاف الذي ارتديته عندما كنت أسيراً، وقد أعطيت بقية اللحاف إلى الطفل بارثلمي، مع أربعة أذرعة من الموهير، قد أعطيت لي، في سبيل محبة الرب، وذلك قبل أن يطلق المسلمون سراحي، وجاء رجلي الجديد، أي وليم، وقطع لحمتي لي، وحصل على بعض الطعام للطفل، بينما كنا نأكل.

وجاء جوليمين ليخبرني بأنه حصل على بعض الحجر لي قرب الحمامات، حيث يمكنني إزالة القذارة والتعرق وما علق بي وجلبته معي من السجن، وعند إقبال الليل، ووقتها كنت بالحمام شعرت فجأة بفتور وأغمي علي، ووجد تابعي صعوبة كبيرة في إخراجي من الحمام وحملي إلى فراشي، وجاء في اليوم التالي فارس عجوز اسمه بيير دي بوربون لرؤيتي، وقد أبقيته في خدمتي، وصار كفيلاً لي في المدينة بشأن ما احتجت إليه من باب الملابس والتجهيزات.

وما أن لبست بشكل لائق، وكان ذلك بعد أربعة أيام من وصولنا إلى عكا، ذهبت حتى أرى الملك، فلامني، وقال إنني لم أحسن صنعاً بالتأخر كل هذه المدة الطويلة للقدوم لرؤيته، وقد أمرني — لتقديري لمحبته — بالقدوم لتناول الطعام معه كل يوم، في الصباح وفي المساء، حتى يأتي الوقت الذي يقرر فيه، هل سنعود إلى فرنسا، أم إننا سنبقى في بلاد ماوراء البحر.

وأخبرت الملك بأن بيير دي كورتني مدين لي بأربعمائة ليرة ذهبية من عطائي، وقد رفض دفع هذا المبلغ لي، فأجابني جلالته بأنه هو نفسه سيدفع هذا المال لي، وسيقتطعه مما هو مدان به لبيير دي كورتني، وهذا

ما فعله، وقمت بناء على نصيحة بيير دي بوربون بإبقاء مبلغ أربعين ليرة ذهبية للنفقات الجارية، وأعطينا المتبقي للحفظ لدى قائد قصر الداوية، وعندما أنفقت هذه الأربعين ليرة ذهبية كلها، بعثت الأب جين كايم Caym دي سينت مينيهولد Menehould الذي ألحقته بخدمتي في بلاد ما وراء البحر، ليجلب مبلغاً مماثلاً، فأخبره القائد أن لامال لي عنده، وأنه لايعرفني.

وبناء عليه ذهبت إلى الراهب رينودي فيشيه Vichiers ،الذي ساعده الملك ليكون مقدماً للداوية ، وذلك تقديراً منه للموقف الذي أبداه الداوية نحوه عندما كان أسيراً، وشكوت إليه قائده، الذي يرفض إعطائي المال الذي أودعته إيّاه، ولدى سماع المقدم لهذا غضب غضباً عظيماً وقال لي:«ياسولاي صاحب جوانفيل، إنني معجب بك كثيراً، لكن يمكن أن أؤكد أنك إذا لم تتوقف عن إثارة هذا الادعاء لن أتابع النظر إليك كصديق، لأن الذي تحاول القيام به هو أن تجعل الناس يعتقدون بأن أعضاء طائفتنا هم لصوص»، فقلت له: بمشيئة الرب لن أسحب دعواي.

وعانيت لمدة أربعة أيام كاملة، معاناة إنسان لا بد أن يشعر بها عندما يجد نفسه بلا مال لمواجهة النفقات، ومع نهاية تلك الأيام، جاء إليّ مقدم الداوية وأخبرني بوجه مبتسم بأنه استرد لي مالي، وحول الطريقة التي استرد بها المبلغ، يمكنني أن أقول فقط بأنه نقل قائد القصر إلى قرية الصفورية، وقام الرجل الذي حلّ محله بإعطائي مالي وردّه إليّ.

ومكنني أسقف عكا — الذي بالمناسبة كان من أهل بروفانس — من استخدام بيت، كان يعود بملكيته إلى جين كايم Caym كاهن سينت ميشيل من طائفة سينت مينيهولد Menehould ، الذي خدمني بشكل جيد في السنتين الماضيتين، وكان واحداً ممن احتفظت به في خدمتي، مع عدد كبير من الآخرين.

وحـدث أن كان عند رأس فـراشي غـرفة خلفيـة، يمكن من خـلالها المضي لدخـول الكنيسة، وصـدف أن أصبت بحمى طويلة استبـدت بي وبرجالي، ولهذا التـزمنا جميعاً أسرتنا، وخلال ذلـك الوقت كله لم يوجد في أي يوم أحـد من الناس يقـدم لي المسـاعـدة، أو يساعـدني على النهـوض،فضـلاً عن هذا، لم أتطلع إلى شيء سـوى الموت، وذلك من الأصـوات المنذرة التي كـانـت ترن في أذني، ذلك أنه لم يكن يمـر يوم واحـد، دون أن يجلبوا عشرين إنسـاناً ميتـاً أو أكثـر إلى الكنيسة، وكـان بإمكاني أن أسمع وأنـا في فـراشي أنشـودة"Libera me, DoMINE" وكـان كلما حـدث هذا أنفجـر باكيـاً،وأقـدم الشكر للرب، وأخـاطبـه هكذا:«أيها الرب، إنني أعبـدك، وأشكرك، من أجـل هذه الآلام التي بعثتهـا إلي، ذلك أنني تكبرت كثيراً وتجبرت، وأنـا الآن أتمدد نائماً في فراشي، وأنهض منه في الصباح، وأصلي لك يامولاي حتى تخلصني من هذا المرض».

وحـالما تعـافيت، طلبت جـوليمين تابعي الجديد، ليقـدم لي كشفـاً بحساب المال الذي أنفقـه، وعندما أراني إياه، وجـدت أنه غشني بمبلغ زاد عن عشرة Livres Tournois، وعندمـا طالبتـه بـرد هذا المبلغ، أخبرني أنه سيسـدد هذا المبلغ حـالما يستطيـع، فصرفتـه من خـدمتي، وأخبرته أنني سامحتـه بما هو مدان به إلي، لأنه بالفعل يستحق أن يحتفظ بهذا المبلغ، وعلمت فيما بعـد من بعض الفـرسـان البيرغنديين، الذي أطلق سراحهم حديثـاً، وهم الذين جلبوا هذا الرجـل معهم إلى بلاد ما وراء البحر، أنه كان من أبرع اللصوص وأحسنهم خلقاً، ولم يوجد مثله قط، لأنه كلما كان هناك فارس بحاجة إلى سكين، أو حزام، أو قفازات، أو مهاميز، أو أي شيء آخـر، كان يمضي ويسرق المطلوب ، ويعطيه إلى الفارس.

وفي الوقت الذي كـان الملك فيـه في عكا، شغل أخـواه نفسيهما في

اللعب بالنرد، وكان كونت بواتييه لاعباً صاحب أخلاق كريمة، فقد كان في بعض المناسبات عندما يربح، كان يفتح أبواب غرفته تماماً، ويدعو أي واحد من السادة أو السيدات، إذا كان هناك أي واحد منهم — أو منهن — في الخارج، إلى الدخول، ثم كان يوزع المال عليهم بملء يديه، من جيبه، وكذلك من المال الذي ربحه باللعب، وعندما كان يخسر، كان يشتري أموال الذين كان يلاعبهم، وذلك بعد تقدير قيمتها، سواء أكانت الأموال أموال أخيه كونت دي أنجو، أو أموال أي إنسان آخر، ثم كان يعطي كل شيء ويبدده سواء أكان ماله أو المال الذي حصل عليه من الآخرين.

وفي يوم من أيام الأحد، أثناء إقامتنا في عكا، بعث الملك واستدعى إليه كل من أخويه، مع كونت دي فلاندرز، ورجال آخرين من ذوي المراتب الذين كانوا هناك، وقال الملك لهم: «سادتي، لقد بعثت إليّ صاحبة السمو الملكي، الملكة الأم رسالة ترجوني فيها بإلحاح شديد، بالعودة إلى فرنسا،لأن مملكتي في خطر عظيم، لأنه حتى الآن لم يبرم بيني وبين ملك إنكلترا لا هدنة ولا سلام، وأخبرني شعب هذه المناطق الذين تشاورت معهم، أنني إذا ما غادرت فإن هذه البلاد سوف تضيع، لأن جميع الرجال الموجودين الآن في عكا، سوف يلحقون بي، وما من أحد سيجرؤ على البقاء، حيث الناس قلة، لذلك أرجوكم أن تفكروا بهذه المسألة تفكيراً جدياً، ولأنها مسألة هامة جداً، سوف أمنحكم الوقت لتقليب أوجه الرأي حولها، ولسوف تعطونني جوابكم، تبعاً لما ترونه صحيحاً، تماماً بعد أسبوع من هذا اليوم».

وفي أثناء الأسبوع جاء إليّ نائب البابا، وقال لي بأنه لم يجد كيف يمكن للملك البقاء في ما وراء البحر، ورجاني بكل إخلاص أن أعود معه إلى فرنسا في سفينته، فأخبرته أنني لا يمكنني فعل ذلك، لأنني لا أمتلك مالاً البتة، ذلك أنني — كما يعرف جيداً — قد خسرت كل

شيء كنت أمتلكه، عندما أخذت أسيراً على سطح الماء.

وحين أجبته على هذه الصورة، فعلت ذلك لا عن كراهية ولا عن عدم رغبة في مرافقته، بل بسبب شيء آخر كان ابن خالتي لورد بوليانكورت Bouliancourt— ربي امنحه الرحمة — قد قاله لي وأنا على وشك الذهاب بالحملة الصليبية، لقد قال لي:« إنك ذاهب إلى بلاد ما وراء البحر، إنتبه كيف ستعود، لأن ما من فارس — سواء أكان غنياً أم فقيراً — يمكنه أن يعود من دون أن يدنس شرفه، إذا ما ترك عبيد الرب المتواضعين، الذين انطلق برفقتهم، تحت رحمة المسلمين»، وغضب النائب البابوي غضباً عظيماً مني، وأخبرني أنه ما كان يجوز لي أن أرفض عرضه.

ومثلنا ثانية في حضرة الملك في يوم الأحد التالي، وقد سأل أخويه، وكونت دي فلاندرز، وبقية البارونات هل يشيرون عليه بالذهاب أم بالبقاء؟ وأجابوه جميعاً بأنهم عهدوا إلى غي موفوزين أن يتولى إعلام جلالته بما رغبوا أن يشيروه عليه، وبناء عليه أمره الملك بأن ينفذ مهمته، وقد تكلم هذا كمايلي وقال:«لقد قام، يا صاحب الجلالة، أخواك وبقية النبلاء الحاضرون هنا بتفحص وضعك، وتوصلوا إلى محصلة أنك لا يمكنك البقاء في هذه البلاد من دون أن تسيء إلى مقامك وكذلك إلى مملكتك، فمن جميع الفرسان الذين جاءوا برفقتك، وعددهم ألفان وثمانيائة ممن أحضرته معك إلى قبرص، يوجد الآن في هذه المدينة ممن تبقى أقل من مائة فارس، ولهذا نشير على جلالتك بالعودة إلى فرنسا، وأن تقوم بتجنيدالرجال، وتحصيل المال، ومن ثم تعود بكل سرعة لتنتقم من أعداء الرب الذين وضعوك بالأسر.

ولم يكن الملك — على كل حال — راضياً بالموافقة على ما قاله موفوزين، وتوجه بالسؤال إلى كونت دي أنجو، وإلى كونت دي بواتييه، وإلى كونت دي فلاندرز وإلى آخرين من ذوي المراتب العليا الذين

جلسوا إلى جانبهم، وقد وافقوا جميعاً على ما قاله غي موفوزين، وسأل النائب البابوي كونت دي يافا، الذي كان جالساً خلفه، ما الذي يراه، ورجا الكونت الجماعة إعفاءه من الإجابة على هذا السؤال، وقال: «لأن قلعتي قائمة على الحدود، وإذا ما نصحت الملك بالبقاء، سيظن بعض الناس أنني فعلت ذلك لمصلحتي الذاتية ومنافعي» وضغط الملك عليه بشدة متناهية حتى يقدم رأيه، وبناء عليه أجابه الكونت أنه إذا كان ممكناً لجلالته تدبر تمديد حملته لمدة سنة أخرى، فسينال بذلك شرفاً عظيماً، وبناء عليه سأل النائب البابوي الذين جلسوا إلى جانب كونت يافا، فوافقوا جميعاً على ما أبداه غي موفوزين.

وكنت جالساً في الصف القائم أمام النائب البابوي، على بعد حوالي أربعة عشر مقعداً عنه، وسألني ما الذي أراه، فأجبته بأنني موافق على ما قاله كونت يافا، وعندها سألني وهو غاضب جداً، كيف أتصور أن بإمكان الملك متابعة الحملة، مع العدد الضئيل من الرجال المتوفر لديه، وشعرت بغضب شديد شخصياً، لأنني اعتقدت أنه ما قال هذا إلا ليغضبني فأجبته قائلاً: «سوف أخبرك ياسيدي، طالما أنك طلبت لتعرف، يقول الناس — علماً بأنني لا أعرف فيما إذا كان ذلك صحيحاً — بأن الملك لم يصرف حتى الآن أياً من أمواله، بل صرف من مداخيل الكنيسة، وبناء عليه لندع الملك ينفق بعضاً من موارده للحصول على الفرسان من المورة ومن أماكن أخرى من بلاد ما وراء البحر، فعندما يعرفون بأنه يدفع بشكل جيد وبكرم، سوف يتدفق الفرسان علينا من كل مكان، وبذلك سيكون — إنشاء الرب — قادراً على الصمود في الميدان لمدة سنة، وسوف يكون، بالوقت نفسه، ببقائه هنا قادراً على تحرير الأسرى المساكين، الذين أخذوا أسرى، وهم في خدمة الرب وخدمته شخصياً، وهؤلاء طبعاً لن يطلق سراحهم إذا ما سافر وابتعد»، ولم يكن هناك في ذلك المكان أحد لم يكن لديه صديق قريب في الأسر،

ولذلك ما من أحد انتقدني، بل بدأ الجميع يبكون.

وبعـدما أجبت النـائب البابوي، إلتفت إلى الفـارس الجيـد وليم دي بيمونت، الذي كـان آنذاك مارشال فرنسـا، وسأله عن رأيه، فأجابه بأنه يعتقـد بأنني تكلمت بشكل معقول تمامـاً،وأضاف:«سـوف أخبرك لماذا أعتقد ذلك»، وعلى كل حال في تلك اللحظة، شرع عمه، الفارس الجيد جين دي بيمونت، الذي كان متشوقاً جـداً للعودة إلى فرنسا، بمخاطبته بطريقـة مهينة جـداً، فقـد صرخ قـائـلاً:«أيها الوغـد القـذر، مـا الذي تقصــده؟ اجلس وأمسك لسـانـك»، وبناء عليـه قـال الملك لجين دي بيمـونت:«أيها السيـد، هذا خطأ عظيم منك، دعـه يقـول الذي يريد أن يقولـه» ورد عليه الفارس قـائلاً:«حقـاً ياسيدي، لن أسمح لـه»، وشعر المارشال بأنه مرغم على الصمت، ولم يقم أحـد بعدذلك بالوقوف معي، باستثناء صاحـب شاتني Chatenay ، وقال الملك أخيراً:«أيها السادة استمعت لما قلتمـوه، ولسـوف أخبركم في حـدود أسبـوع من الزمـان بالذي أنوي القيام به».

ومـا أن غادرنـا الاجتماع حتى بدأ الناس يهزأون بي من كل الجوانب ويقــولون:«لاشك سيكون الملـك بالفعل أحمقــاً، إذا مــا أصغى إليك مفضلاً إياك ورأيك على رأي مستشاري جميع مملكة فرنسا».

وبعـدما نصبت الموائـد، جعلني الملك أجلس إلى جـانبـه أثناء تناول طعام الغـداء، مثلما كان يفعل دوماً عندما يكون أخـواه غياب، ولم يقل لي شيئاً طوال وقت تناول الطعام، وذلك على عكس معتـاد عادته، لأنه اعتاد أن يوليني بعض الاهتمام في أثناء تناول الطعام، فخيّل إليّ بالحقيقة أنه غاضب علي، لأنني قلت بأنه لم ينفق بعد أياً من أمواله، وينبغي عليه إنفاق أمواله بكرم.

وبينما كـان الملك يصغي إلى صـلاة النعمة، مضيت إلى نـافذة مغلقـة

بقضبـان حديد عند رأس فـراشـه،وأمـررت ذراعي من خلال قضبـان النافذة، ووقفت هناك أفكر أنه إذا ما عاد الملك إلى فرنسا، سوف أذهب إلى أمير أنطاكيـة، الذي كان من أقـربائي، وكـان قد طلب مني القـدوم والالتحـاق به، ولسوف أبقى هناك حتـى يحين وقت قدوم حملة أخـرى إلى بلاد مـا وراء البحر، يمكن بوسـاطتها تحرير الأسرى، وذلك توافقـاً مع ما أشار به صاحب بوليانكورت.

وفيما أنا واقف هناك، جـاء الملك إليّ، واتكـأ على كتفي، ووضع يديه على رأسي، فخيل إليّ أنه كـان فيليب دي نيمـور الذي أزعجني في ذلك اليوم كثيراً، بسبب المشـورة التي أبديتها، ولهذا قلت متبرمـاً:«توقف عن مضايقتي يا فيليبي الجيد»، وصـدف أن أدرت رأسي، فانزلقت يد الملك فوق وجهي، وهنـا أدركت يد من كانت من خـلال خاتم حجـره زمرد كـان في إصبعه، وقـال لي :«اهدأ وابقى كما أنت، لأنني أريد أن أسألك كيف يمكن لشاب مثلك أن يكون جـريئاً ليشير عليّ بالبقاء هنا، وذلك ضد نصيحة جميع عظماء عقلاء فرنسا الذين نصحوني بالذهاب» ؟.

فقلت:«ياصـاحب الجلالة، حتى وإن دخلـت هذه الفكرة السيئة إلى عقلي، فإنني لن أنصحك بالـذهاب مطلقـاً»، فسأل:«هل تريد أن تقـول بأنني أقترف خطأ، إذا ما رحلت»؟ فقلت:«نعم ياسيدي، بعون الرب»، ثم إنه قال:«إذا بقيـت هنا، هل ستبقى أنت أيضاً»؟ فأجبتـه :«أكيد، إذا مـا استطعـت، إمـا على حسـابي أو على حسـاب واحـد آخـر»، فقـال:«يمكنك الاطمئنان من هذه الجهـة، لأنني مسرور جـداً منك، للنصيحـة التي قـدمتهـا، لكن لاتتحـدث عن هذا إلى أحـد حتى ينتهي الأسبوع».

وشعـرت براحـة كبيرة لدى سماعي هذا، ودافعت عن نفسي بجـرأة أعظم ضـد الذين هاجموني، وحدث أن الفـلاحين في تلك المنطقة كـانوا يعرفون باسم«كولت Colts »، وكان الأخ بيير دي أفالون Avalion ،

الذي كـان يعيش في صـور قـد سمـع بهذه الأقـاويل، وبـأنني دعيت كـولت(مهر فتى غـرير)، بسبب أنني نصحت الملك بالبقـاء في بلادهم، ولهذا بعث إليّ يخبرني بهذا، وحثني على الـدفـاع عـن نفسي ضـد الذين وصفـوني بذلك، بالقـول بأنني أفضل أن أكـون«كولت» على أن أكـون فرساً هرماً محطماً مثل أي واحد منهم.

وعدنا في يوم الأحـد التالي جميعاً لرؤية الملك، ومـا أن شاهدنا الملك قـد اجتمعنا كلنا حتى رسم عـلامـة الصليب على فمـه قبل القيـام بمخـاطبتنـا، (ويخيل لي أن قيـامـه بذلك فيـه توجيـه للدعـوة للروح القدس،لأنه كما قالت لي أمي العزيزة في إحدى المرات، يتوجب عليّ كل مرة أود أن أقـول فيها شيئاً أن أنشـد العون من الروح القـدس، ورسم علامة الصليب حول فمي).

وقـال الملك:«سادتي، إنني أشكر بـإخلاص جميع الذين أشـاروا عليّ بالعودة إلى فـرنسا، وكذلك أخص بالشكر الذين نصحـوني بالبقاء هنا، ولقـد توصلت إلى رأي أنني إذا مـا بقيـت هنا لن أواجـه خطر فقـدان مملكتي، بسبب أن الملكة الأم لديها مـا يكفي من الرجـال للدفاع عنهـا، وأقمت أيضاً تقديراً لما أخبرني به البـارونات السكان في هذه البلاد، من أنني إذا ما غادرت سوف تضيع مملكة القدس، لأن ما من واحد سوف يتجرأعلى المكوث بعـدما أغادر، وبناء عليه قـررت أنني لن أهجر مملكة القدس مهما كـانت المعطيات، فقـد قدمت أنا إلى هنا لإعـادة الاستيلاء على أراضيها والدفـاع عنها، ولهذا قررت أخيراً وعـزمت على البقاء هنا في الوقت الحاضر، وأقـول لكم الآن جميعـاً، لكل من النبـلاء الذين هم الآن هنا في هذه اللحظة، وإلى جميـع الفـرسـان الآخـريـن الذين يودون البقـاء معي، أقـول تعـالوا وتحدثـوا إليّ بجـرأة وصراحـة كما ترغبـون، ولســوف أمنحكم شروطاً مغــريـة، حتى لا يكون الخطأ خطـأي بل خطأكم إذا لم تختـاروا الإقـامـة»، وقـد امتـلأ عـدد كبير ممن سمع هذه

الكلمات بالدهشة، وبكى كثير ممن كان هناك.

وقد قيل بأن الملك أمر أخويه بالعودة إلى فرنسا، لكن أكان ذلك بناء على رغبتيهما وطلبهما أم بناء على رغبته، فهذا ما لا يمكنني قوله فعلياً، وحدث إعلان الملك عن نيته بالبقاء في بلاد ما وراء البحر في يوم عيد القديس يوحنا، وبعد مضي شهر، أي في يوم عيد القديس جيمس توجهت للحج إلى مزاره، وقد أضفى عليّ منافع عظيمة، وكان الملك قد عاد إلى غرفته إثر الفراغ من سماع القداس، واستدعى إليه الذين بقيوا معه من مستشاريه، وكان هؤلاء: حاجبه بيير، وكان أكثر من رأيته وقابلته في الحاشية الملكية إخلاصاً، وغيوفري دي سارجين، وكان فارساً جيداً وجديراً بالتقدير، وجايل لى برن، الذي كان يساويه قدراً ومكانة، وهو الذي جعل الملك منه القسطلان لفرنسا بعد وفاة إيمبرت دي بيجو الطيب.

وتحدث الملك بلهجة صوت مرتفع، وبطريقة أبدى فيها عدم رضاه ، حيث قال:«ياسادتي، لقد مضى شهر منذ بات معروفاً أنني مقيم هنا، ولم أسمع بعد أنكم استبقيتم أياً من الفرسان في خدمتي»، فأجابوه: «ياصاحب الجلالة، لقد فعلنا كل ما نستطيعه نحوهم، لكنهم جميعاً — لرغبتهم بالعودة إلى بلادهم — طلبوا أسعاراً عالية جداً مقابل خدماتهم، ونحن لم نتجرأ على إعطائهم الذي سألوه»، وسألهم الملك:«وأيهم يمكنكم الحصول عليهم بشكل أرخص كثيراً»؟فأجابوه:«في الحقيقة ياصاحب الجلالة، سيكون ذلك نائب شامبين، لكننا لم نعطه القدر الذي طلبه».

وصدف أن كنت في غرفة الملك في ذلك الوقت وسمعت ما كانوا يقولونه، فقال الملك:«ليأت النائب إلى هنا»، وبناء عليه ذهبت وركعت أمامه، وطلب مني الجلوس وقال لي:«أنت تعلم أيها النائب أنني كنت دوماً محباً لك، غير أن أتباعي أخبروني أنهم يجدون صعوبة في التعامل

معك، لماذا ذلك»؟ فأجبته:«ياصاحب الجلالة، ليس الأمر بيدي، فأنتم تعلمون، أنني عندما أخذت أسيراً فوق الماء، ما من شيء من ممتلكاتي قد ترك معي، بل فقدت كل ما كان لدي»، فسأل عن الذي أطلبه، فأخبرته أنني أحتاج إلى مائتي ألف ليرة ذهبية، فهذا ما يكفيني حتى عيد الفصح، أي أن ذلك سوف يغطي ثلثي السنة.

فقال :«أخبرني الآن،هل حاولت عقد صفقة مع أي من الفرسان»؟فقلت:«نعم،مع بيير دي بونتمولين pontmolain ، وهو واحد من ثلاثة فرسان حملة للأعلام، سوف يكلفني كل واحد منهم أربعمائة ليرة ذهبية حتى عيد الفصح»، ثم قال الملك بعد ما عدّ على أصابعه:«على هذا سوف يكلفك فرسانك الجدد ألفاً ومائتي ليرة ذهبية »،فقلت :«لكن أرجوك يا سيدي أن تقدر أنني لن أتكلف أقل من ثمانمائة ليرة ذهبية للحصول على حصان وعدة وسلاح لي شخصياً، وكذلك للحصول على طعام لفرساني، لأنني — كما أفترض — لن ترغب في أن نتناول أطعمتنا معك»، وهنا قال الملك لمستشاريه:«أنا لا أرى شيئاً مبالغاًفيه في هذه الحالة»، ثم التفت إليّ وقال:«إنني محتفظ بك في خدمتي».

وبعد هذا بأمد قصير أمر أخوا الملك والنبلاء الآخرون في عكا بإعداد سفنهم، وقبل أن يقوم كونت بواتييه بالمغادرة استقرض بعض الجواهر، ممن كان عائداً إلى فرنسا ، ووزعهم بكرم وأريحية على المتبقين منا وغير المغادرين، ورجاني كل من أخوي الملك بحرارة بأن أنتبه للملك وأرعى شؤونه، وأخبراني بأنه لا يوجد واحد من بين جميع الذين بقيوا معه يمكنهما الاعتماد عليه سواي، وعندما رأى كونت دي أنجو أن وقت المغادرة قد اقترب، أظهر حزناً عظيماً أدهش كل إنسان ومع ذلك مضى عائداً إلى فرنسا.

وبعد وقت وجيز من مغادرة أخوي الملك، وصل رسل من عند

امبراطور ألمانيا وجلبوا معهم رسائل ثقة واعتماد لجلالته، وأن سيدهم قد أرسلهم ليعملوا على إطلاق سراحنا، وعرض هؤلاء الرجال على الملك رسالة كتبها الامبراطور، ووجهها إلى السلطان المتوفى — دون أن يعرف أنه مات — يخبره بها أن يعتمد كل ما سيقوله الرسل له، فيما يتعلق بإطلاق سراح الملك، وقال كثير من الناس إنه كان من المفيد لنا أن وجدنا الرسل، وقد تحررنا من الأسر، فقد اعتقدوا بأن الامبراطور، قد أرسل الرسل لمضايقتنا وليس لإطلاق سراحنا، وعلى كل حال لقد وجدنا الرسل محررين، ولذلك ذهبوا عائدين.

وعندما كان الملك في عكا، أرسل إليه سلطان دمشق رسلاً لرؤيته وللشكاية إليه بمرارة ضد الأمراء المصريين الذين قتلوا ابن عمه، وقد وعد الملك أنه إذا ما رغب بمساعدته سوف يقوم من جانبه بتسليمه مملكة القدس، الذي كانت بحوزته في تلك الآونة.

وقرر الملك أن يرسل جواباً إلى سلطان مصر بوساطة رسل من عنده، ويعث معهم الراهب إيف (البريطاني) لى بريتون Yves le Breton، وكان راهباً من طائفة الأخوان المبشرين، وكان يعرف لسان المسلمين.

وبينما هم على طريقهم من أماكن إقامتهم إلى قصر السلطان، أبصر الراهب إيف امرأة عجوزاً تمشي عبر الطريق، ومعها طشتاً مملوءاً بفحم يحترق كانت تحمله في يمناها، وفي يسراها قارورة مليئة بالماء، فسألها:«ما أنت عازمة على العمل بهذين»؟، فأجابته المرأة العجوز، بأنها عازمة على أن تحرق الجنة وتدمرها تماماً بتلك النار، ولسوف تطفىء بالماء جهنم، وبذلك تزول إلى الأبد، فسألها الراهب إيف:«لماذا تريدين فعل ذلك»؟ فقالت:«لأنني لا أريد أي واحد أن يفعل خيراً من أجل الحصول على الجنة، أو خوفاً من النار، بل أن يفعل ذلك حباً لله، الذي يستحق الكثير منا،والذي سوف يعمل لنا من الخيرات بقدر ما

يستطيع».

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب جون الأرمني، الذي كان معلم صناعة أسلحة الملك، إلى دمشق لشراء مادة قرنية وغراء من أجل صناعة القسي العقارة، ورأى وهو هناك رجلاً متقدماً جداً في السن، جالساً في السوق، واستدعاه ذلك الشيخ العجوز وسأله عما إذا كان مسيحياً، وأجابه جون بأنه كذلك، فقال الرجل العجوز له:«لا بد أنكم أيها النصارى تكرهون بعضكم بعضاً كثيراً، لأنني رأيت منذ زمن قديم مضى الملك بلدوين ملك القدس الذي كان مجذوماً، يهزم صلاح الدين، مع أنه كان لديه ثلاثمائة مقاتل، بينما كان مع صلاح الدين ثلاثة آلاف،غير أنكم الآن بسبب ذنوبكم، تدنيتم كثيراً إلى حد أننا بتنا نتناولكم في ميادين القتال وكأنكم من الأنعام.

وبناء عليه أخبره جون أنه سوف يصنع خيراً إذا ما سكت عن ذنوب المسيحيين،التي نرى أنها لاتعد شيئاً أمام ما نراه يقترف من قبل المسلمين، ورد عليه الرجل المسلم بأنه أجابه بحماقة عظمى، وهكذا سأله جون:لماذا؟ فقال له الرجل العجوز: إنه سوف يخبره لماذا، لكنه سيسأله أولاً سؤالاً، وهكذا سأل جون:هل لديك أولاداً؟ فقال جون:نعم لدي ولد، فسأله العجوز:أيها سوف يغضبه أكثر، أن يتلقى ضربة منه،وهو رجل مسلم، أم من ابنه؟ فرد عليه جون، بأن ذلك سوف يكون مغضباً أكثر مع ابنه، لو أنه فعل مثل هذا الشيء، مما لو الفاعل هو المسلم.

وقال الرجل العجوز:«سوف أعطيك جواباً بالطريقة التالية:أنتم أيها المسيحيون تعدون أنفسكم أبناء الرب، وأخذتم كنيتكم من اسم المسيح، وقد أبدى الرب نحوكم الكثير من النعمة، بأن منحكم معلمين مثقفين، يمكن لكم أن تعرفوا منهم متى تصنعون الصواب، أو متى تقترفون الخطأ، ولهذا نشهد لماذا يغضب هو منكم أكثر بسبب اقترافكم

لبعض الذنوب الصغيرة، مما يغضبه منا لاقتراف بعض الذنوب العظيمة، إنه يفعل ذلك لأننا نحن تماماً جهلة، وكذلك عميان،لأن محمداً(ﷺ) قد أخبرنا أننا سوف ننقذ بالماء لدى موتنا، ونحن نعتقد أننا سوف نتحرر من جميع ذنوبنا إذا ما غسلنا أنفسنا بالماء قبل أن نموت».

وفي إحدى المرات،كنت بعد عودتي من بلاد ما وراء البحر، في طريقي إلى باريس، وكان جون الأرمني بصحبتي، وبينما كنا نتناول الطعام في سرادق كبير، جاء حشد كبير من الناس يستجدون ويطلبون الصدقة من أجل خاطر الرب، وقد أحدثوا جلبة، وقام واحد من رجالنا الذين كانوا حضوراً، باستدعاء أحد الخدم وقال له:«اذهب على الفور، واطرد هؤلاء الناس وأبعدهم»،فقال جون:«أواه، إنه لخطأ عظيم قد اقترفته بقولك ذلك، فلو أن ملك فرنسا قد أرسل رسله مع مائة مارك لكل واحد منا، ما كنا طردناهم وأبعدناهم، ومع ذلك إنكم تطردون هؤلاء الرسل الذي يمنحونكم أعظم ما يمكن أن يُمنح، وبكلمات أخرى إنهم يطلبون منكم أن تعطوهم من أجل خاطر الرب، مما يعني أنكم سوف تعطونهم من بعض ما لديكم،وهم سوف يعطونكم الرب نفسه، لأننا نعلم من كلمات الرب نفسه أن الذين هم في حاجة لديهم القدرة على تقديم مثل هذه العطية، وفضلاً عن هذا لقد أخبرنا القديسون أن الفقراء يمكنهم مساعدتنا على إقامة سلم مع الرب، لأنه مثلما تطفيء الماء النار، تتولى الصدقة إزالة الذنب ومحوه»، ثم قال جون:«ولهذا خذوا حذركم من أن تقوموا بطرد الفقراء وإبعادهم، بل عليكم إعطاءهم والرب يعطيكم».

الفصل الثاني عشر

شيخ الجبل

وصل في أثناء إقامة الملك في عكا رسل بعثوا إليه من قبل شيخ الجبل لرؤيته، وقام بعد عودته من سماع القداس، بالأمر بإحضارهم أمامه، وقد أمر بإجلاسهم بحيث جلس في الأمام أمير ارتدى ثياباً أنيقة جداً، وكان مظهره الخارجي بديعاً، وجلس خلفه شاب من الواضح أنه كان من أسرة جيدة، وهذا ارتدى بدوره ثياباً فائقة، وقد حمل بمقبض يده ثلاثة خناجر، دخلت شفرة كل واحد منها في مقبض الآخر، وكان الغرض من هذه الخناجر تقديمها إلى الملك بمثابة شارة للتحدي، وذلك إذا ما أقدم على رفض مقترحات الأمير، وجلس خلف هذا الشاب شاب آخر، هو الذي لف حول ذراعه قطعة من قماش الكتان،ليقدمها إلى الملك لتكون كفناً إذا ما رفض مطالب شيخ الجبل.

وبعدما سأل الملك هذا الأمير أن يخبره لماذا جاء، قدم هذا الأمير رسائل اعتماده وقال:«لقد بعث بي مولاي ليسألك عما إذا كنت تعرفه»؟ فأجابه الملك بأنه لم يعرفه، لأنه لم يره قط، لكنه غالباً ما سمع الناس يتحدثون عنه، فقال الأمير:«بما أنك سمعت الناس يتحدثون عن مولاي، فأنا مندهش كثيراً لأنك لم ترسل إليه مبلغاً من مالك حتى تستبقيه صديقاً لك، مثلما يفعل امبراطور ألمانيا، وملك هنغاريا، وسلطان القاهرة مع آخرين، سنة إثر سنة، لأنهم يعرفون بشكل مؤكد أنهم يمكنهم البقاء أحياء طالما مولانا راضٍ بذلك»، واستطرد الأمير يقول:«وإذا كان هذا لايوافقك فعله، عندها يتوجب عليك أن ترتب إعفاءه من دفع الجزية التي يؤديها إلى الاسبتارية وإلى الداوية، ووقتها سوف يعدّكم قد أديتم واجبكم».

ويمكنني أن أقول بأن شيخ الجبل كان يدفع في ذلك الوقت جزية لكل من هاتين الطائفتين، لأنه لا الداوية ولا الاسبتارية كانوا يخشون مطلقاً من الحشيشية، لأن قائدهم كان يعرف تماماً أنه إذا ما جرى قتل أي من مقدمي الاسبتارية أو الداوية، سيحل محل المقتول واحد بالجودة نفسها، وعلى هذا ما كان ليكسب شيئاً من موتها، ونتيجة لهذا لم يرغب بالتضحية بحشيشيته في مشروع لن يجلب أية منافع.

وأخبر الملك الأمير بأنه سوف يراه مرة ثانية بعد الظهر، ولدى عودة الرسول وجد الملك جالساً، وعلى يمينه قعد مقدم الاسبتارية، وعلى يساره مقدم الداوية، وطلب الملك من الأمير أن يعيد الرسالة التي كان قد قدمها في ذلك الصباح، فرد عليه هذا الرجل بأنه لا يمتلك الرغبة بإعادة ما تقدم وقاله،إلاّ بحضور الذين كانوا مع الملك في اللقاء الأول، وبناء عليه قال له المقدمان:«نحن نأمرك بإعادة رسالتك»، وأجاب الأمير بما أنهما قد أمراه بذلك فهو سيفعل ذلك، وبعد هذا أمره المقدمان، باللغة العربية بأن يأتي للحديث معهما في مقر الاسبتارية في اليوم التالي.

وعندما جاء الأمير في اليوم التالي، وأظهر طاعته لأوامرهما، قاما بإخباره، من خلال مترجم، بأن مولاه قد تصرف بتهور كبير حين تجرأ على إرسال هذه الرسالة الوقحة إلى الملك، وزيادة على هذا أخبراه، لولا أن الأمور مرتبطة بشرف الملك الذي أرسل إليه مع رفيقيه بمثابة رسل، لقاما بإغراقهم في بحر عكا القذر، وذلك على الرغم من شيخ الجبل، ثم قالا له:«ولهذا نحن نأمرك بأن تذهب إلى مولاك، وأن تعود خلال أربعة عشر يوماً، جالباً معك من عند مولاك رسالة وجواهر يمكن بها الحصول على رضا الملك، وأن تجعله كريماً في سلوكه معكم».

وقبل مضي أربعة عشر يوماً، عاد رسل شيخ الجبل إلى عكا، وجلبوا معهم قميص مولاهم إلى الملك، وقد أخبروه باسم شيخ الجبل، بأن

ينظر إلى معنى ذلك، أنه كما القميص هو الأقرب إلى الجسد من بقية الملابس، هكذا ينظر مولانا إلى الملك ويقدره على أنه الأقرب إلى نفسه في الحب من أي ملك آخر، كما أنه أرسل إلى الملك خاتمه الشخصي، المصنع من أفضل أنواع الذهب، وقد حفر اسمه عليه، ومع هذا الخاتم رسالة قال فيها أنه ربط بهذا الخاتم بتحالف وثيق مع الملك، راغباً بأن يتحدا منذ ذلك الوقت فصاعداً، وكأنهما قد خطبا إلى بعضهما بعضاً.

وكان بين الهدايا التي بعث بها شيخ الجبل إلى الملك تمثال فيل جميل الصنع، وتمثال حيوان آخر يُدعى الزرافة، وتفاح من مختلف الأنواع، كلهم كانوا من الكرستال، وأرسل مع هذه الأشياء ألواحاً للعب وطواقم شطرنج، وكانت هذه الأشياء مطعمة بورود صغيرة مصنعة من العنبر، وقد ربطت بالكرستال بوساطة خيوط دقيقة من الذهب الممتاز.

ويمكنني أن أضيف،أنه عندما فتح الرسل الصناديق الحاوية لهذه الهدايا، صدرت عنهم رائحة طيبة ملأت الغرفة كلها بالعطر.

وأعاد الملك الرسل ومعهم كمية كبيرة من الجواهر، وقطع من الأقمشة القرمزية،وكؤوس من الذهب، وخيول، وقطع من الفضة، وأوكل أيضاً إلى الراهب إيف(البريطاني) لى بريتون أن يذهب معهم، بحكم أنه كان خبيراً بلغة المسلمين، وقد وجد هذا الراهب أن شيخ الجبل لم يكن من أتباع محمد(ﷺ)، بل كان خاضعاً لشريعة علي(رضي الله عنه)الذي كان(ابن) عم محمد(ﷺ).

وكان علي(رضي الله عنه) هو الذي رفع محمداً(ﷺ) إلى مكانة الشرف التي تبوأها، لكن ما أن تمكن محمد(ﷺ) من تثبيت نفسه بأن أصبح سيداً على الناس حتى بدأ يحتقر (ابن)عمه، وصار بعيداً عنه، ولدى ملاحظة علي(رضي الله عنه) لهذا، جمع أكبر عدد من الناس من حوله استطاع جمعهم، وعلمهم عقيدة تختلف عن عقيدة محمد(ﷺ)،

وهكذا ما زال قائماً حتى الآن أن جميع الذين يأخذون بالشريعة التي أرسى علي قواعدها، يؤكدون أن أتباع محمد(ﷺ) ضالون في إيمانهم، في حين أن الذين يؤمنون بتعاليم محمد(ﷺ) يؤكدون من جانبهم أن أتباع علي إيمانهم غير صحيح.

وهناك نقطة أخرى قررها علي(رضي الله عنه) أنه إذا ما قتل إنسان وهو في طاعة أوامر مولاه، سوف تذهب روحه إلى جسد إنسان آخر أفضل من المتقدم، وهذا هو السبب في أن الحشيشية لايتجنبون التعرض للقتل بأي حال من الأحوال، عندما يأمرهم سيدهم بذلك،لأنهم يعتقدون أنهم سوف يكونون أكثر سعادة بعد الموت منهم وهم أحياء.

وهناك عقيدة أخرى يأخذون بها، وهي أن ما من إنسان يمكن أن يموت قبل اليوم المعين لموته، وهذا الاعتقاد لا يجوز لإنسان أن يتمسك به، ممن يرى أن الرب لديه القدرة على إطالة أعمارنا وتقصيرها حسبما يرغب.

ويتبع البدو علياً(رضي الله عنه) في هذه النقطة، ولهذا السبب يرفضون لبس الدروع قبل الذهاب إلى القتال، لأنهم لو فعلوا ذلك، اعتقدوا أنهم سيتصرفون ضد ما أمرت به شريعتهم، ولهذا عندما يلعنون أولادهم يقولون لأحدهم:«عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع لخوفه من الموت».

ووجد الراهب إيف كتاباً قرب رأس سرير شيخ الجبل، مكتوب فيه أشياء كثيرة مما قاله ربنا إلى القديس بطرس، عندما كان على الأرض، وقد قال الراهب له:«آه يا مولاي، من أجل الرب، اقرأ هذا الكتاب مراراً وتكراراً، لأن هذه كلمات جيدة»، وأجابه شيخ الجبل أنه غالباً ما فعل ذلك، وقال:«لأن القديس بطرس عزيز جداً علي، لأنه في بداية خلق الدنيا دخلت روح هابيل بعد قتله، في جسد نوح(عليه السلام)،

وعادت بعد وفـاة نوح فدخلت في جسد إبراهيم(عليـه السلام) وعندما مات إبراهيم(عليه السلام)انتقلت من جسده إلى جسد القديس بطرس، وذلك في الزمان الذي جاء فيه مولانا إلى الأرض».

ولدى سماع الراهب إيف بهذا بين لشيـخ الجبل أنه قـد أخطأ في هذا المعتقد، وشرح له كثيراً مـن العقيدة الصحيحة، لكن شيـخ الجبل لم يعر ما قاله الاهتمام، ولدى عودة هذا الراهب الجيد روى هذه الأشياء جميعاً إلى الملك.

وكان كلما ركب شيخ الجبل وسـار، مشى أمامـه منادي ، يحمل بيده بلطة دانماركية لها حـد طويل مغلف بالفضـة، وقد ثبت عليهـا عدد من الخناجـر، وكـان الرجـل ينادي طوال سيره:«ابتعـدوا عـن طريق الذي يحمل في يديه موت الملوك».

الفصل الثالث عشر

التتار

لقد نسيت أن أخبركم عن الجواب الذي صنعه الملك لويس إلى سلطان دمشق، وقد بين له أن لانية لديه في التحالف معه حتى يعرف فيما إذا كان الأمراء المصريون سيقدمون له ترضيات عن المعاهدة التي خرقوها، وبناء عليه هو مقبل على مراسلة الأمراء، وإذا ما رفضوا القيام بترضيته، وقتها سيقوم عن طيب خاطر بتقديم العون إلى السلطان من أجل الانتقام لابن عمه، سلطان القاهرة، الذي قتله هؤلاء الرجال.

وأرسل الملك جين دي فالنسيان Valenciennes من عكا إلى مصر مع تعليمات بأن يطلب من الأمراء أن يعوضوا للملك على ما اقترفوه بحقه من مساوىء وأضرار، وقد أجابوه أنهم على استعداد لفعل ذلك، شريطة أن يدخل الملك بتحالف معهم ضد سلطان دمشق.

ووجه جين دي فالنسيان إليهم اللوم بمرارة للإثم العظيم الذي اقترفوه بحق الملك، ونصحهم أيضاً، أنه سوف يكون مفيداً لهم، إذا ما رغبوا في أن يجعلوا جلالته يشعر مشاعر طيبة نحوهم، بأن يرسلوا إليه جميع الفرسان الذين ما زالوا أسرى لديهم، وعمل الأمراء كما نصحهم، وبالإضافة إلى ذلك أرسلوا إليه جميع عظام كونت دي بريين، حتى يمكن دفنهم في بقعة طاهرة.

وبعدما جاء جين دي فالنسيان إلى عكا، وجلب معه مائتي فارس أطلق سراحهم من الأسر إلى جانب رجال من مراتب أدنى، قامت صاحبة صيدا، التي كانت ابنة عم الكونت غوتيير، وأخت غوتيير دي رينلReynl — التي تزوجت أنا من ابنتها بعد عودتي من بلاد ماوراء البحر — فأخذت بقايا الكونت الجيد، وتولت أمر دفنهم في كنيسة

الاسبتارية في عكا، وأجرت القداس بحيث يقوم كل فارس بتقديم شمعة ودرهم فضة، بينما قدم الملك شمعة ودينار ذهبي، وكان كل الذي جرى تقديمه على حسابها الخاص، وعلت الدهشة الناس كثيراً عندما وافق الملك على هذا، لأنه لم يعرف حتى ذلك الحين أنه منح مالاً إلاّ من ماله الخاص، وهو حين فعل ذلك في هذه المناسبة كان صدوراً عن لطفه نحو السيدة.

ووجدت بين الفرسان الذين جلبهم معه جين دي فانسيان أربعين فارساً كانوا من فرسان كونت دي شامبين، وقد أمرت بإعداد قمصان ومعاطف من قماش أخضر لهم ليلبسوها، وأخذتهم إلى الملك، فمثلوا أمامه، ورجوته أن يمنحهم عروضاً جيدة حتى يبقوا في خدمته، وأصغى الملك لما طلبوه، لكنه لم يقل شيئاً جواباً لهم.

وأخبرني واحد من الفرسان من مستشاري الملك أنني لم أتصرف بشكل جيد بتقديمي مثل تلك الاقتراحات، بما أنه كان مداناً بسبعة آلاف ليرة ذهبية، وأخبرته أن عليه أن يكون آسفاً لتعليقه هذا، وأضفت بأننا رجال شامبين قد خسرنا خمساً وثلاثين ألف فارس، كلهم من حملة الأعلام، وذلك من بين الفرسان الذي انتموا إلى بلاطنا، ومضيت أقول:«والملك لن يصنع حميداً إذا ما أصغى إليك، وهو يرى مدى حاجته إلى الفرسان»، وعندما أنهيت كلامي انفجرت باكياً، وبناء عليه طلب الملك مني الهدوء، وبين أنه سوف يعطي هؤلاء الفرسان كل ما سألته، وهكذا استخدمهم الملك حسبما رغبت، وألحقهم بفرقتي.

وأعطى الملك الآن جوابه إلى الرسل الذين قدموا من مصر، وأخبرهم أنه لن يبرم معاهدة مع الأمراء مالم يقوموا أولاً:بإرسال رؤوس جميع المسيحيين التي علقت حول أسوار القاهرة منذ الأيام التي أخذ بها كونت دي بار، وكونت مونتفورت أسيرين، وثانياً: مالم يقوموا بتسليم جميع الأطفال الذي أخذوا وهم صغار السن وقاموا بالتخلي عن

عقيدتهم، وثالثاً : مالم يعفوه من دفع مائتي ألف ليرة ذهبية، مازال مدان بها إليهم.

وأعاد الملك الرسل المصريين إلى بلادهم يرافقهم الرجل الشجاع والحكيم جين دي فالنسيان.

ومع بداية الصوم الكبير استعد الملك مع جميع القوات التي توفرت لديه للذهاب والقيام بتحصين قيسارية، وهي بلدة قائمة على بعد أربعين فرسخاً عن عكا على الطريق إلى القدس، وكان المسلمون قد دمروها، وقد رافق راؤول دي سواسون — الذي كان قد بقي في عكا بسبب مرضه — جلالته في هذه الحملة، ولا أستطيع أن أبين كيف أن المسلمين لم يلحقوا بنا الأذى طوال ذلك العام، ما لم تكن تلك إرادة الرب، وبينما كان الملك مشغولاً في تحصين قيسارية، عاد الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى بلاد التتار، وسأروي لكم الآن الأخبار التي جلبوها.

وكنت قد حدثتكم، أنه عندما كان الملك مقيماً في قبرص، قدم إليه رسل من عند التتار وأعطوه شعوراً وفهماً أنهم سوف يساعدونه في الاستيلاء على مملكة القدس، وانتزاعها من المسلمين، وعندما أعاد الرسل إلى الملك بعث معهم، بوساطة رسله، كنيسة صنعت بناء على أوامره من قماش قرمزي، ولكي يجذب التتار إلى عقيدتنا أمر بصنع مجموعة من التماثيل حتى توضع في هذه الكنيسة ممثلة لكل نقطة من ديننا أي: بشارة الملاك، والولادة، واحتفال تعميد الرب، ومراحل الآلام، وقدوم الروح القدس، وأرسل مع الكنيسة أيضاً كؤوساً، وكتباً، وكل ما هو ضروري للاحتفال بالقداس،مع اثنين من الرهبان المبشرين ليقوما بتراتيل القداس أمام التتار.

ووصل رسل الملك إلى ميناء أنطاكية، واحتاجوا من هناك مدة سفر

سنة كاملة، وكانوا يقطعون كل يوم مسافة عشرة فراسخ، وكان هدفهم الوصول إلى ملك التتار العظيم، وقد وجدوا كل البلاد التي مروا خلالها خاضعة لهذا الملك، ورأوا كثيراً من المدن هدمها التتار، وأكواماً من عظام الرجال الموتى.

وقد سألوا كيف استطاع التتار الحصول على مثل هذه السلطة، وقتلوا ودمروا أعداداً كبيرة من البشر، وقد أخبر الرسل الملك بأن التتار تمكنوا من بلوغ ذلك وفق مايلي:

لقد جاء التتار بالأصل من سهل رملي واسع، لاينبت فيه شيء نافع، وكان يوجد في النهاية القصوى لهذا السهل صخوراً ضخمة ومخيفة، وكان ذلك على طرف العالم باتجاه الشرق، وقد أكد التتار أن ما من إنسان تمكن قط من اجتيازهم، وقد قيل إنه في داخل هذه الصخور محبوس عرق العمالقة من يأجوج ومأجوج، الذين سوف يظهرون قبيل قيام القيامة، عندما يأتي المسيح الدجال لتدمير كل شيء.

ولقد عاش شعب التتار على هذا السهل، وكانوا خاضعين لبرسترجون ولشاه فارس(خوارزم شاه) الذي تاخمت بلاده بلاده، وكذلك بلاد عدد من الملوك الكفار، وقد دفعوا (التتار) إلى هؤلاء الجزية، وأدوا لهم خدمات كل سنة مقابل السماح لمواشيهم بالرعي، ولم يكن لديهم وسيلة أخرى للعيش، وازدرى برسترجون، وشاه فارس والملوك الآخرون التتار، حتى أنهم عندما كانوا يجلبون إليهم إيجاراتهم، لم يستقبلوهم قط وجهاً لوجه، بل أداروا ظهورهم لهم.

وكان بين التتار رجل عاقل، ارتحل في جميع أرجاء السهل، وتحدث إلى الرجال الحكماء الذين عاشوا هناك في عدد من المناطق المختلفة، وقد بين لهم حالة العبودية التي كانوا يعانون منها، وحثهم على إيجاد السبل التي يمكنهم بها تحرير أنفسهم من القيود.

ونشط بشكل مؤثر حتى تمكن من حشد التتار كلهم في النهاية القصوى للسهل، وذلك قرب بلاد برسترجون، وشرح القضايا لهم، وطلبوا منه أن يبين لهم ما الذي يريده، وهم سوف يتولون التنفيذ، وأخبرهم الرجل الحكيم أنهم لن ينالوا النجاح ما لم يكن لهم ملك يتولى حكمهم، ثم أوضح لهم كيف يمكنهم العمل على اختيار ملك، وقد وافقوا على الأخذ بنصيحته.

وكانت الطريقة التي تبنوها هي التالية: لقد توجب على كل قبيلة من القبائل الاثنتين والخمسين قبيلة التي تكونت منها أمتهم، جلب سهم كتب عليه اسم القبيلة، ووافق الشعب جميعاً على وضع هذه الأسهم أمام طفل عمره خمس سنوات، والسهم الذي كان الطفل سيلتقطه أولاً، سيعني تعيين القبيلة التي يتوجب اختيار الملك منها، وبعدما التقط الطفل أحد السهام، أمر الرجال الحكماء بقية القبائل بالانسحاب إلى الخلف، وجرى الاتفاق على أن تقوم القبيلة التي سيتم اختيار الملك منها، بانتخاب اثنين وخمسين رجلاً من أفضل رجال القبيلة وأكثرهم حكمة، وبعدما جرى انتخاب هؤلاء الرجال ، أحضر كل واحد منهم سهماً نقش عليه اسمه، ثم تمّ الاتفاق على أن سهم الرجل الذي سوف يلتقطه الطفل ، سوف يتخذ ملكاً.

والتقط الطفل واحداً من الأسهم، وكان السهم هو الذي امتلكه الرجل العاقل الذي تولى إرشاد التتار، وفرح الشعب كله، وأطلق كل واحد منهم لنفسه العنان في التعبير عن بهجته، وطلب الرجل الحكيم منهم جميعاً التزام الصمت، وهنا خاطبهم قائلاً: «أيها السادة، إذا ما رغبتم في أن أكون ملككم، أقسموا لي بالذي صنع الأرض والسماء أنكم ستنفذون دوماً ما آمركم به» وأقسم الناس جميعاً أن يفعلوا كذلك.

وكانت شرائع الرجل العاقل التي أصدرها لهم تستهدف الحفاظ على

السلام بين شعبه، وقد ذهبت إلى: أنه لا يجوز لأحد الاستيلاء على حوائج إنسان آخر، وأن لا يضرب إنساناً آخر أو ابنته، وإذا فعل ذلك تعرض لقطع يده، كما لا يجوز لإنسان معاشرة زوجة إنسان آخر أو ابنته، وإذا فعل ذلك يفقد يده، أو يفقد حتى حياته، كما أصدر شرائع أخرى جيدة، من أجل الحفاظ على السلام بين رعاياه.

وبعدما أرسى قواعد الشريعة والنظام بين التتار قال الملك لهم: «أيها السادة، إن أعظم أعدائنا هو برسترجون، لذلك إنني آمركم جميعاً أن تستعدوا للاقلاع بحملة عسكرية عليه غداً، وإذا حدث وهزمنا — لاسمح الرب بذلك — ليناضل كل إنسان عن نفسه بقدر ما يستطيع، وإذا حدث من جانب آخر وهزمناه، آمر بأن يستمر القتل برجاله لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولا يجوز لأي إنسان خلال تلك الأيام أن يبادر نحو الاستيلاء على أي أسلاب أو وضع يده عليها، بل المتوجب إنشغال كل إنسان بقتل أعدائه، وبعدما نضمن انتصارنا، سوف أوزع الغنائم فيما بينكم بعدل وبإخلاص بحيث يبقى كل واحد فيكم راضياً»، ولاقى هذا الاقتراح قبولاً عاماً.

وهاجم التتار في اليوم التالي أعداءهم، وقضى الرب لهم بهزيمتهم، وأعملوا السيف بكل الذين وجدوهم حاملين للسلاح وقادرين على الدفاع عن أنفسهم وقتلوهم، غير أنهم وفروا حياة الذين وجدوهم يعيشون في البيوت الدينية، والكهنة والرهبان سواء، ووضع الناس الذين هم من بلاد برسترجون، ولم يشاركوا بالحرب، أنفسهم تحت حكم التتار، وصاروا رعايا لهم.

واختفى أمير من القبائل التي قدمت ذكرها لمدة ثلاثة أشهر، وما من أحد سمع أية أخبار عنه، ولدى رجعته لم يشعر لا بالجوع ولا بالعطش، واعتقد أنه مكث بعيداً لمدة لا تزيد عن ليلة واحدة إلى أبعد الحدود، وكانت الأخبار التي جلبها معه أنه مضى إلى قمة رابية عالية جداً،

حيث وصل إلى عـدد كبير جداً من الناس، وكانوا مـن أجمل المخلوقات التي رآها قط، وقد ارتدوا ثياباً ثمينة، وتزينوا بأبهى زينة، ورأى الطرف الأقصى من الرابية ملكاً، وكان رجلاً وسيماً جداً، وأبهى من البقية، وقد ارتدى ثياباً أثمن وأعلى زينة، وجلس هذا الملك فـوق عرش من ذهب، وجلس على يمينه ستة ملوك آخرين، وكلهم ارتدوا تيجاناً تتلألأ بشعاع الأحجار الكريمـة، وجلس عن يساره العـدد نفسه من الملوك، وركعت على مقـربة منه، وقليـلاً باتجاه اليمين، ملكة عـزمت على التـوسل له ليعطف على شعبها، وركع على يساره رجـل متفوق الجمال، له جناحان يتألقان مثل الشمس، ووقف حول الملك جمع من الناس الجميلي الطلعة وكانوا كلهم مجنحين.

واستـدعى الملك الأمير إليه وقـال:«لقـد قدمت من جيش التتـار»؟، فأجـابه الأمير:«هـذا صحيح، ياصـاحب الجلالـة»، ثم قـال الملك له:«عليك أن تذهب إلى ملكـك وأن تخبره كيف رأيتني، أنا الذي مـولى السمـوات والأرض، وعليك أن تخبره أن عليه تقـديم الشكر لي، لأنني منحته النصر على برسترجون وعلى شعبـه، وقل له على لساني، بأنني قد أعطيتـه القدرة على أن يجعل الأرض خـاضعـة له»، وسأل الأمير:«لكن ياصاحب الجلالة، كيف يمكنني أن أجعله يصدقني»؟

فأجـابـه:«سـوف تجعله يصـدقـك بهذه العـلامـات: إنك ستـذهب وستقاتل شاه فارس بوسـاطة ثلاثمائة رجل، بدون زيادة، وبذلك سوف يؤمن ملكك العظيم بـأنني أمتلك القـدرة على فعل كل شيء، فلسـوف أمنحك النصر على هذا الملك، الذي سـوف يزحف ضدك مع أكثـر من ثلاثة آلاف مقاتل، لكن عليك قبل أن تذهب إلى حرب الشاه أن تطلب من ملكك أن يمنحك السلطة على جميع الكهنة والرهبـان الذين أسرهم في المعركـة الأخيرة، ويتوجب عليك وعلى شعبك الإصغـاء إليهم، وأن تتمسكوا بشدة وأن تؤمنوا بما سيعلموكـم إياه»، فقال الأمير:«ياصاحب

الجلالة، لايمكنني أن أجد طريق العودة ما لم تعطيني دليلاً».

والتفت الملك نحو حشد كبير من الفرسان، وكانوا جميعاً مسلحين ومجهزين بشكل رائع، واستدعى واحداً منهم بقوله:«تعال إلى هنا يا جورج»، وتقدم الفارس وركع أمامه، ثم قال الملك له:«انهض، وقد هذا الرجل سليماً ومعافى إلى خيمته»، فنفذ هذا الفارس الأمر في صباح يوم عند انبلاج الفجر.

وما أن رأى شعب الأمير أميرهم حتى شعروا هم وبقية الجيش بالسرور وأظهروا بهجة عظيمة لايمكن وصفها بالكلام، وطلب من الملك العظيم أن يعطيه الكهنة، واستجاب الملك لطلبه، وتأثر هو وشعبه كثيراً بتعاليم الكهنة، حتى أنهم تعمدوا جميعاً، واختار الأمير بعد هذا ثلاثمائة رجل مسلح، وأمرهم بأن يقوموا بالاعتراف، وأن يستعدوا للقتال، ثم مضى وحارب ضد شاه فارس، ولقد هزموه، وطردوه من مملكته، ولهذا هرب، وتابع فراره حتى لجأ إلى القدس(فهذا الشاه نفسه كان الرجل الذي هزم شعبنا، وأسر الكونت غوتيير دي بريين، وذلك حسبما سأخبركم فيما بعد).

وكان تعداد الشعب الذي خضع لحكم هذا الأمير المسيحي كثيراً جداً، فقد أخبرنا الرسل بوجود ثمانمائة بيعة موضوعة فوق عربات في معسكره.

وكانت طريقة التتار بالعيش أنهم لم يأكلوا خبزاً قط، بل كانوا يتقوتون على اللحم والحليب فقط، وكانت أفضل أنواع اللحوم لديهم هي لحوم الخيل التي كانوا ينقعونها بالملح، ثم يدعوها بعد ذلك تجف إلى درجة يمكنهم بها تقطيعها مثلما يقطع الإنسان الخبز الأسود، وكان شرابهم المفضل، وهو بالوقت نفسه الشراب الأقوى، هو حليب إناث الخيل، وجاء في إحدى المناسبات فرس محمل بحمل من الطحين من

مسافة رحلة ثلاثة أشهر، وقد قدم هدية إلى ملك التتار العظيم، وقد أعطى بدوره هذه البضاعة إلى رسل الملك.

وبالإضافة إلى المسيحيين الذين أتيت على ذكرهم، هناك أيضاً أناس يتبعون ديانة أخرى، فهناك بين التتار عدد كبير من الناس المرتبطين بالكنيسة الإغريقية، وكان كلما رغب التتار في شن الحرب ضد المسلمين، كانوا يبعثون بهؤلاء المسيحيين للقتال ضدهم، وكانوا من جانب آخر يستخدمون المسلمين في أي حرب ضد المسيحيين، وكان من عادتهم اصطحاب النساء اللائي بلا أولاد من جميع الطبقات مع الجيش في أثناء الحملات،وكانوا يدفعون لهن الأجر نفسه الذي يدفعونه إلى الرجال، وذلك حسب قواهن وشجاعتهن.

وأخبرنا رسل الملك أن النساء والرجال من الجند كانوا يتناولون وجبات أطعمتهم معاً في محلات قادتهم الذين عملوا تحت خدمتهم، ولم يتجرأ الرجال — طاعة منهم للشريعة التي أصدرها ملكهم الأول — على المغامرة بإقامة اتصالات مع النساء.

وأكل الناس لحوم كل أنواع البهائم التي كانت تموت في معسكرهم، وكانت النسوة اللائي لديهن أطفال يقمن برعاية الأولاد وحفظهم من الأذى، وتجهيز الطعام للرجال الذين يذهبون إلى القتال، وكان الجند يضعون اللحوم غير المطبوخة بين سروج خيولهم وأطراف معاطفهم، وعندما يكون الدم قد خرج تماماً من اللحم يأكلون هذا اللحم كما هو نيئاً، والذي لا يمكنهم أكله في تلك الساعة، كانوا يرمونه في حقائب من الجلد، وعندما كانوا يشعرون بالجوع كانوا يفتحون حقائبهم، ويأكلون القطع الأقدم دوماً، وأنا رأيت شخصياً واحداً من الخوارزمية، وكان من رجال شاه فارس، كان يتولى حراستنا في أثناء أسرنا، رأيته يفتح حقيبته، وعندما كان يفعل ذلك كنا نمسك أنوفنا بأيدينا لنسدها، لأننا كنا غير قادرين على شم رائحة النتن التي صدرت عنها.

ودعوني أعود الآن إلى سياق الرواية التي أنا بصددها، كيف أن ملك التتار العظيم، قام بعدما استقبل سفراء ملكنا، وتلقى هداياه، فجمع عدداً من الحكام الذين لم يكونوا قد دخلوا في طاعته، وذلك بعدما أعطاهم الأمان، وعندما قدموا أمر بنصب البيعة الجديدة ليراها الجميع، وخاطبهم بمايلي:«أيها السادة، لقد بعث ملك فرنسا يلتمس عطفنا، ووضع نفسه تحت طاعتنا، ويمكنكم أن تروا هنا الجزية التي أرسلها لنا، وإذا لم تخضعوا بأنفسكم لنا سوف أرسل إليه ليقوم بتدميركم»، وهنا قام عدد كبير منهم لخوفهم من ملك فرنسا بالخضوع إلى ملك التتار.

وعندما عاد سفراء الملك، جاء بصحبتهم سفراء أخر من عند ملك التتار، وقد جلبوا معهم رسالة إلى ملكنا جاء فيها:«السلام أفضل شيء، لأن أرضاً تعيش بسلام يمكن لمن يدب فيها على الأربعة المضي إلى الحقول للرعي، دون أن يزعجهم أحد، ويمكن في الوقت نفسه للذين يسيرون على اثنتين أن يتولوا فلاحة الأرض — التي تخرج منها جميع الأشياء الجيدة — بأمان كامل، ونحن إذ نخبركم بهذا، نفعل ذلك عن طريق التحذير والإنذار، لأنك لن تعرف السلم ما لم تكن بسلام معنا، فقد ثار برستر جون ضدنا ، وكذلك فعل كذا وكذا من الملوك — وقام هنا بذكر أسماء عدد كبير — وقد جعلناهم جميعاً طعمة للسيف، ولهذا ننصحك بأن تبعث إلينا بكمية كافية من أموالك سنوياً، لتدفع إلينا حتى نبقى أصدقاء لك، وإذا ما رفضت فعل هذا سوف ندمرك، مثلما دمرنا الملوك الذين أتينا على ذكر أسمائهم»، ويمكن أن أؤكد لكم بأن ملكنا قد أسف بمرارة لأنه قام بإرسال رسله إلى ملك التتار العظيم.

الفصل الرابع عشر

إقامة في قيسارية

آذار ١٢٥١ — أيار ١٢٥٢

ولسوف ألتقط الآن المسار الأساسي لروايتي ثانية، ومن ثم أخبركم، أنه عندما كان الملك يقوم بتحصين قيسارية، جاء رجل اسمه أليناردAlenard، وكان نبيلاً من سننغان Senaingan إلى معسكرنا، وأخبرنا بأنه بنى سفينته في مملكة النروج القائمة في نهاية الدنيا، باتجاه الغرب، وقام في أثناء رحلته من أجل رؤية الملك بالإبحار حول ساحل إسبانيا، ومرّ من خلال مضائق المغرب، وواجه مخاوف عظيمة قبل ان يصل إلى قيسارية، وقد احتفظ به الملك وأدخله في خدمته وذلك مع تسعة من فرسانه، وأخبرنا أليناردـ بأن الليل في بلاد النروج قصير جداً في الصيف إلى حد أنك ترى كل مساء ضوء النهار الراحل يتداخل مع فجر النهار المقبل.

وانطلق هو ورجاله لاصطياد الأسود، وقد أمسكوا عدداً منها بعد ما خاطروا بأنفسهم مخاطرة عظيمة، لأنهم عندما كانوا يتقدمون لرمي هذه الحيوانات، كانوا يهمزون خيولهم لتعدو بأقصى سرعة ممكنة، وما أن يفقدوا نشابهم حتى كانت الأسود تثب عليهم، وتمسك بأحدهم وتفترسه لولا أن يلقي من يده قطعة من القماش البالي، بحيث يقفز الأسد عليها ويمزقها ويلتهمها، ظاناً أنه قد أمسك بانسان، وفيما الأسد يتولى تمزيق قطعة القماش، يقوم صياد آخر بالتقدم نحوه والرماية عليه، وهنا يقوم الأسد بترك عملية تمزيق قطعة القماش، ويمضي ضد عدوه الجديد، ويبادر هذا بدوره إلى إلقاء قطعة أخرى من القماش، فيقوم الأسد بالقفز عليها بدون تأخير، ويتمكنون بهذه الطريقة من قتل

الحيوان بأسهمهم.

وبينما كان الملك لويس مايزال مشغولاً في قيسارية، قدم فيليب دي توسي Toucy للالتحاق به، ودعاه الملك بابن العم، لأنه انحدر من أخت للملك فيليب ملك فرنسا، كانت قد تزوجت من امبراطور القسطنطينية، وقد استبقاه الملك في خدمته لمدة سنة مع تسعة من فرسانه، فقد غادر بعد ذلك وعاد إلى القسطنطينية، التي كان قد جاء منها.

وقد أخبر الملك بأن امبراطور القسطنطينية والنبلاء في تلك المدينة قد تحالفوا مع شعب يعرف باسم الكومان، وذلك لكي ينالوا دعم هذا الشعب ضد فاتاسيز Vataces، امبراطور الاغريق.

ولكي يتوثقوا من أن كل فئة سوف تساعد الفئة الأخرى باخلاص، خضع امبراطور القسطنطينية والنبلاء الذين كانوا برفقته إلى عملية استخراج بعض الدم من كل منهم، ووضعوا دماءهم في طشت كبير من الفضة، وفعل ملك الكومان والنبلاء الذين كانوا معه، بدورهم الشيء نفسه، ومزجوا دماءهم مع دماء شعبنا، وبعد إضافة الماء والنبيذ إلى ذلك المزيج، شرب رجال الفئتان من الطشت، وبناء عليه أعلنوا عن أنفسهم أخوة بالدم، ثم جعلوا كلباً يعدو بين شعبنا وبين الكومان، وانهال الطرفان عليه ضرباً فقطعوه إلى مزق بسيوفهم، وتعهدوا بالوقت نفسه أن الذي سيتخلى عن الطرف الآخر في هذا التحالف، سيمزق إلى مزق بالطريقة نفسها.

وحدثنا فيليب دي توسي أيضاً عن أعجب مشهد رآه عندما كان في معسكر الكومان، فقد توفي فارس من مرتبة عالية جداً بينهم، فأمروا بحفر قبر عميق جداً وواسع في باطن الأرض، ووضعوا في هذا القبر الفارس، وقد ألبسوه ثياباً فاخرة جداً، وأقعدوه على كرسي، ثم أنزلوا

إلى القبر أفضل فرس كـان لديه، وكذلك أحسن سيرجنـدي بين رجاله، وهما أحياء، وكانوا، على كل حال، قبل أن يضعوا السيرجندي في القبر، قـد قام هذا باستئـذان ملك الكومان مع السـادة الآخـرين، وفي الوقت الذي كـان يودعهم، قـام كل واحـد من هؤلاء السـادة بوضع كميـات كبيرة من الذهب والفضـة في ملحفته قـائلاً له: «عندمـا سآتي إلى العـالم الآخر، سـوف ترد لي ما أودعتك إياه الآن»، ويجيبـه السيرجندي: «هذا ماسأفعله بكل سرور».

ثم قـام ملك الكومان الكبير باعطاء السيرجندي رسـالة موجهـة إلى أول ملوكهم، أخبره فيها بأن هذا الرجل الصالح قـد عاش حياة جيدة، وخـدم سيده خـدمة حسنة، وبـذلك استحق عن جدارة المكافأة، وبعـد هذا جـــرى إنزال هذا السيرجنـدي إلى القبر ليكون مع مـــولاه، ومع الفرس الحي، وإثر هذا قـاموا بسدّ فتحـة القبر بإلقاء ألواح من الخشب متلاصقة فـوقه، وسعى في الوقت نفسـه جميع رجال الجيش للحصـول على الصخـور والأتربة، وقبل ذهابهم إلى النوم في تلك الليلة. كانوا قـد رفعوا فوق القبر رابية كبيرة، لتكون ذكرى لمن دفنوهم كما وصفنا.

وذهبت في أحـد الأيام، عندمـا كان الملك في قيسـارية، إلى رؤيتـه في محلاته، فـوجـدته يتحـدث إلى النـائب البـابوي، ومـا أن رآني أدخل إلى حجـرته حتى قام وأوقفني جـانبـاً ليتحدث إليّ حيث قـال: «إنك تعلم أنني احتفظت بك في خدمتي حتى عيـد الفصح، وبناء عليه أخبرني من فضلك مـا الذي يمكنني دفعه إليك لإبقـائك معي مدة سنة بعـد ذلك التـاريخ»، فأخبرته أنني لاأريد منه أن يعطيني المزيد من مـاله، أكثـر مما دفعه، غير أنني أود أن أبرم معه صفقة أخرى.

فقلت له بعـد هذا: «بما أنك تغضب عندمـا يوجـه إليك طلب أي شيء، أريد أن أعقـد إتفـاقـاً معك، أنني إذا مـا تقـدمت لك بأي طلب خلال ذلك العام، لن تظهر أي غضب، وفي الوقت نفسه إذا ما رفضت

طلبي، إنني من جانبي لن أغضب أيضاً».

ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر ضـاحكاً، وقال إنه سيحتفظ بي بخدمتـه وفقاً لهذه الشروط، ثم أخـذني من يدي، واقتادني نحـو النائب البابوي، ونحـو مستشاريه، وحدثهم عن الصفقـة التي أبرمناها، وكانوا مسرورين لسماع ذلك، لأنـني كنت أعلى الرجـال مـرتبـة في الجيش، وأكثرهم نفوذاً فيه.

ولسوف أخبركم الآن كيف خططت لحيـاتي ونظمتها أثناء السنوات الأربع التي بقيت فيها في بلاد ماوراء البحر، بعد عودة أخوي الملك إلى فرنسا: فلقد كان لدي قسيسين توليـا القراءة لي طوال ساعاتي، فأحدهما كان يقـوم بتلاوة القداس لي منذ بزوغ الفجر، وكـان الآخر ينتظر حتى يستيقظ فرساني المرتبطين بفرقتي، وكنت بعـدما أفرغ من سماع القداس أذهب إلى رؤية الملـك، فإذا مـا رغب بالخروج راكبـاً، كنت أرافقـه، وحدث في بعض الأحيـان وصول رسل لرؤيتـه، وعلى هذا كانت لدينا أعمال كثيرة لانجازها في أثناء الصباح.

وكـان فراشي مـوضوعـاً في سرادقي بطريقـة يستحيل فيها على أحـد الدخـول إليه دون أن يـراني أنا متمدد هناك، وقـد فعلت ذلك لأحـول دون أي انسان بظن السوء بي فيما يتعلق بالنساء، وقمت كل سنة في يوم عيـد القـديس ريميـوس Remigius (١ — تشرين أول) بشراء خنازير لملء حظائـري، ومواشي أيضاً مـن أجل حظائري، وكـذلك ما يكفي من الطحين والنبيـذ لإبقاء محلاتي ممونة طوال الشتـاء، وقد فعلت هذا بحكم أن المواصلات تصبح في الشتاء غير مـؤكدة وليست مثلها في الصيف، وبذلك تكون المؤن أغلى سعراً وأقل وجوداً.

واعتدت على شراء مائة برميل من النبيذ، وكنا نشرب الأفضل أولاً، وكنت أمـزج الخمـرة بالماء وأقـدمهـا لخدمي، وأعطي الشيء نفسـه إلى

أتباعي، لكن بنسبة أقل من الماء، وكـان يوضع على مائدتي دناً كبيراً من الخمرة وقـارورة ماء، وذلك أمـام كل واحد من الفـرسان حتى يتمكن من مزج شرابه حسبما يرغب.

وأعطاني الملك خمسين فارسـاً للخدمة في فرقتي، وكـان يصاحبني في كل وجبـة طعام عشرة من هؤلاء يجلسـون إلى سماطي وذلك بالاضافـة إلى فرسـاني العشرة، وكانوا يـأكلون تبعاً لعـادات تلك البلاد بمـواجهة بعضهم بعضـاً، بحيث كـانوا يجلسـون على حصر على الأرض، وفي كل مـرة كانت تصـدر فيها الدعـوة إلى السـلاح، كنت أجيب الدعوة فيهما بارسـال أربعـة وخمسين من فـرسـاني، وكـان هؤلاء يعـرفـون بقـادة العشراوات، لأن كل واحد منهم كان يتولى إمرة عشرة رجال، وكنا كلما خرجنا مسلحين، كنت أقدم وجبة طعام في محلاتي لهؤلاء الفرسان لدى عـودتهم، واعتـدت خـلال جميع الأعيـاد السنوية على دعـوة القـادة الرئيسيين في الجيش لتناول الطعـام معـي، حتى أن الملك كـان في بعض الأحيان يستعير بعضاً من ضيوفي.

ولسـوف أحدثكـم الآن عما شهدته في ميـدان العـدالة وإدارتها وعن اصدار الأحكام في قيسارية، في الوقـت الذي كان الملك مقيماً فيه هناك، وسأذكـر أولاً وقبل كل شيء قضيـة فـارس ألقي القبض عليـه وهو في بيت للعاهرات، وكان أمامه تبعاً لعـادات البلاد واحداً من خيارين: إما أن يقاد في أرجاء المعسكر من قبل العاهرة وهولابس لقميص، ومربوط بشكل مذل بحبل؛ أو أن يسلم فـرسه وسـلاحه حتى يطرد من الجيش، وأعطى الفارس فـرسه وسلاحـه إلى الملك وغادر المعسكر، وذهبت إلى صـاحب الجلالة وسألتـه أن يعطينـي الفـرس ليستخـدمـه تابع فقير في الجيش، فأجـابني بأن هذا ليس طلبـاً منطقيـاً، بما أن الفـرس مـايزال يسـاوي مبلغ ثمانين ليرة ذهبية، فقلت لـه: «الآن خرقت الاتفـاق الذي عقـدته معي، لأنك أبـديت غضبك نحـوي لتقـديمـي هذا الطلب»،

فأجابني وهو يضحك من قلبه: « قل ماتريده، أنا لست غاضباً منك»، ومهما يكن الحال، لم أستطع الحصول على الفرس لإعطائه للتابع الفقير.

وكانت القضية الثانية هي التالية: بينما كان فرسان من فرقتي يقومون بصيد حيوان وحشي اسمه الغزال، انقض بعض الاسبتارية عليهم، ودافعوهم وأبعدوهم، ولهذا شكوت إلى مقدم الاسبتارية، فأجاب بأنه سوف ينصفني، وفقاً لعادات الأرض المقدسة، باصداره الأوامر إلى الاسبتارية الذي اقترفوا هذا الاعتداء، بالأكل وهم جالسين فوق أرديتهم حتى يأتي الوقت الذي يقوم فيه المعتدى عليهم بالطلب بأن يقوموا.

وتصرف المقدم معهم حسبما وعد، وعندما رأينا أنهم أمضوا مدة وهم يأكلون جلوساً على أرديتهم، ذهبت إلى المقدم، فوجدته يتناول الطعام، فرجوته أن يخبر هؤلاء الرجال بالقيام، وعمل الفرسان الذين تعرضوا للعدوان الطلب نفسه، فأجاب المقدم بأنه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل، ذلك أنه لن يسمح لأعضاء من طائفته بإساءة السلوك نحو الذين قدموا حجاجاً إلى الأرض المقدسة.

وعندما سمعت هذا جلست على الأرض مع الاسبتارية، وبدأت آكل معهم، وأخبرت المقدم أنني لن أنهض حتى ينهضون، فأخبرني بأنني أرغمه على مالايجب، واستجاب لطلبي، ثم إنه دعاني والفرسان الذين كانوا معي لتناول الطعام على مائدته، في حين ذهب الاسبتارية للالتحاق برفاقهم على مائدة أخرى.

وكان الحكم الثالث الذي رأيت تنفيذه في قيسارية هو هذا: قام واحد من سيرجندية الملك، واسمه لي غولو Goulu بدفع واحد من فرسان فرقتي بيده، فذهبت إلى الملك واشتكيت إليه، فأخبرني أن من المستحسن اهمال المسألة، طالما أن الذي فعله السيرجندي هو مجرد دفع

فـــارسي، فـأخبرت الملك بأنني لن أسحب شكـواي، وإذا لم ينصفني سوف أترك خدمته، مادام سيرجنديته مسموح لهم بدفع فرساني.

وبناء عليـه قام الملك بانصـافي وفقاً لعـادات البلاد، وذلك بالطريقـة التالية: جاء السيرجندي إلى معسكري وهو حافي القدمين يرتدي قميصه وسراويله فقط، وسيفـه مجرد بيـده، وركع أمـام الفـارس الذي اعتـدى عليـه، وأمسك سيفه من ذبابه وقـدمه إلى الفـارس ليأخذه من مقبضـه، وقال: «قـدمت ياسيدي لانصافـك، لأنني دفعتك بيدي، وجلبت إليك هذا السيف حتى تكون قـادراً على قطع يـدي هذه من الرسغ، إذا كـان يرضيك أن تفعل ذلك »، وسألت الفـارس أن يغفر له ذنبـه، وقد وافق على ذلك.

وكانت العقوبة الرابعة التي نفـذت كما يلي: قام مقدم الداوية بإرسال الراهب هوغـودي جـوي Jouy، الذي كـان مـارشـــال الداوية إلى سلطان دمشق للتباحث حـول اتفاقيـة تتعلق بقطعة كبيرة من الأرض، كانـت بيد الداوية، لكن سلطان دمشق رغب باقتسـامها، بأن يأخـذ هو نصفهـا، ويأخـذ الداوية النصف الآخـر، وأبرمت الاتفـاقيـة وفقـاً لهذه القـاعدة، وبات تنفيـذها متعلقاً بمـوافقة الملك، وجلب الراهب هوغـو معه أميراً أرسله سلطان دمشق، مع وثيقة للتصـديق على أن الاتفاق قد نفذ كما ينبغي.

وعلى كل حال، عندما أخبر مقدم الداوية الملك بماتم صنعه، اندهش جلالته كثيراً، وقال له، بأنه قـد تجاوزه وتخطاه بالتباحث حول مثل هذه الاتفـاقيـــة دون التشـاور معـه أولاً، وأخبره الملك أنه لابـد من القيـام باصـلاح مـــا، وكـانت الاجـراءات التي تمت كما يلي: أمــر الملك برفع أجنحـة ثـلاثة من سرادقـاتـه، وسمح لجميع المراتب الدنيـا من الجيش بالقـدوم لرؤية الذي كـان يحدث، وسار مقـدم الداوية وفـرسانه جميعـاً حفـاة الأقـدام مبـاشرة في قلب المعسكر، لأن محلاتهم كـانت خـارجـه،

وجعل الملك مقدم الداوية، ورسول السلطان يجلسان أمامه، ثم توجه بالخطاب بصوت مرتفع إلى المقدم وقال: «أيها المقدم عليك أن تبلغ رسول السلطان باعتذارك وانسحابك من أي معاهدة أبرمتها مع سيده من دون الرجوع إليّ أولاً، وعليك أن تضيف أنه بما أنك لم تستشرني، فإنك تعد السلطان في حل من الاتفاق الذي عقده معك، وأن تسلمه جميع الوثائق ذات العلاقة وتعيدها إليه»، وبناء عليه تناول مقدم الداوية الوثيقة المكتوبة، وناولها إلى الأمير وهو يقول: « أعيد إليك الاتفاق الذي عقدته معك خطأ، وإنني أعبر عن أسفي لقيامي بذلك».

ثم طلب الملك من المقدم ومن الداوية الآخرين النهوض، وقد نفذوا ذلك، ثم قال جلالته للمقدم: «اركع الآن أمامي وكفر عن ذنبك بالاتصال هكذا بالسلطان ضد إرادتي»، فركع المقدم. وقدم طرف عباءته إلى الملك، مسلماً بذلك كل شيء تمتلكه طائفته، حتى يمكن لجلالته أن يأخذ منه كل تعويض يقرره، وقال الملك: « إنني أعلن أولاً بوجوب نفي الراهب هوغو من مملكة القدس كلها، فهو الذي أبرم هذه الاتفاقية»، ولم يستطع مقدم الداوية (الذي كان مع الملك اشبين كونت دي ألنكسون Alencon ، المولود في قلعة الحجاج) ولا حتى الملكة، ولاأي انسان آخر أن يفعل شيئاً لصالح الراهب هوغو، أو انقاذه من مغادرة الأرض المقدسة ومملكة القدس.

الفصل الخامس عشر

حملة إلى يافا

أيار ١٢٥٢ — حزيران ١٢٥٣

في الوقت الذي كـان الملك فيه يقـوم بتحصين مـدينة قيسارية، عـاد رسله من مصر، جـالبين معهم معاهدة قـد كتبت وفقاً لشروط جـلالته التي جـرى وصفهـا من قبل، وقضت بين الملـك وبين الأمـراء، أنه سيـذهب في يوم محدد إلى يافا، وفي الـوقت نفسه تعهـدوا أن يكونوا في اليوم نفسـه في غزة، وذلك وفاء للأيمان التـي حلفوها، وذلك من أجل وضع مملكة القـدس بين يديه، وأقسم الملك مع جميع الرجال القيـاديين في جيشـه على مـراعـاة شروط المعـاهدة، حسبما نقلـت إليهم من قبل الرسل، وكـان معنـى هذا أننا كنا ملزمين بمـوجب أيماننـا التي حلفناها على مساعدة الأمراء ضد سلطان دمشق.

ومـا أن علم هذا السلطان بأننـا قـد تحالفنا نحن أنفسنا مع المصريين حتى أرسل قوة حسنة التجهيز مؤلفة من أربعة آلاف مسلم إلى غزة، إلى حيث وصل الجيش مـن مصر، وقـد فعل هذا لأنـه كـان مـدركـاً تمام الادراك أن هذه القوات إذا مـا استطاعت الالتحاق بنا فـذلك قد يعني خسارتـه، ومع هذا لم يلغ الملك خططه بالزحف إلى يافا، وعندمـا سمع كـونت يافا بقـدومـه، انطلق يعمل في سبيل جعل قلعته تبـدو في وضع قادرة فيـه على الصمود في وجـه هجوم مـا، ووضع أمام كل فتحـة من فتحات الشرافـات— وكان هناك منهـا خمسمائة— ترسـاً ورنكاً، وريشة صغيرة، وكـان هذا من أجمل المناظر الـذي تود العيـون أن تراها، لأن رنوكه كانت من الذهب، أو مزينة بصليب مخطط بخطوط صغيرة.

وقـد عسكرنا في الحقـول حـول القلعة، القـائمـة على طرف البحـر،

والممتدة من الطرفين إلى الشاطىء، وبدأ الملك على الفور ببناء تحصينات جديدة حول القلعة القديمة وتمتد باتجاه اليسار وبإتجاه اليمين حتى البحر، وغالباً مارأيت جلالته يحمل زبيلاً مليئاً بالطين من أجل الخنادق، حتى ينال الغفران المرتجى.

وأخفق الأمراء المصريون بالحفاظ على إتفاقيتهم بالالتقاء بنا، ذلك أنهم لم يتجرأوا على القدوم إلى غزة بسبب أن عساكر دمشق كانت هناك، ومن جانب آخر وفوا بعهدهم المقطوع معنا فبعثوا إلينا برؤوس جميع المسيحيين التي كانت معلقة على أسوار قلعة القاهرة منذ أيام أسر كونت دي بار، وكونت دي مونتفورت، ودفن جلالته هؤلاء في أرض طاهرة، كما أرسلوا إلينا الأطفال الذين أخذوهم عندما جرى أسر الملك، وقد فعلوا هذا وهم آسفين، لأن هؤلاء الأطفال كانوا قد تخلوا عن عقيدتهم، وبالإضافة إلى هؤلاء بعثوا إلى جلالته فيلاً، تولى شحنه إلى فرنسا.

وبينما كنا معسكرين في يافا، جاء أمير من جانب سلطان دمشق، ليقوم بحصد القمح في قرية وقعت على مسافة ثلاثة فراسخ عن معسكرنا، وقد توافقنا على المضي لمحاربته، غير أنه ما أن رآنا حتى هرب، وفي أثناء فراره شرع تابع صغير من أسرة جيدة بمطاردته، وقد تمكن من إلقاء اثنين من فرسانه أرضاً دون أن يكسر رمحه، ثم سدد طعنة قوية نحو الأمير نفسه، وقد بلغت من الشدة حداً أن الرمح انكسر في جسد الأمير.

ووصل الآن رسل من الأمراء المصريين للالتماس من الملك أن يعين يوماً يمكن فيه لقادتهم القدوم لرؤيته، وقد وعدوا بالقدوم من دون اخفاق، وقرر الملك أن لايرفض طلبهم، وحدد يوماً لهم، وقد تعهدوا بالأيمان أن يكونوا في ذلك اليوم في غزة.

وعندمـا كنا ننتظر حلول يوم الاجتماع مع الأمـراء المصريين، جاء الكونت دي إيو Eu الذي كان وقتها بمرتبة تابع، إلى المعسكر، وأحضر معـه الفارس الجيـد أرنول دي غـوين Guines، وأخـويه، وسبعـة أشخاص آخرين ، وقد بقي في خدمة الملك، وقد جرت ترقيته إلى مرتبة فارس من قبل الملك.

وفي حوالي الوقت نفسه عاد أمير أنطاكية إلى المعسكر مع الأميرة أمه، وقـدم الملك له تشريفاً كبيراً، ونصبه فـارساً وسط حفل عظيم، وكـان الأمير آنذاك في السـادسـة عشرة من عمـره، لكنني لم أر قط شـاباً بمثل هذا الذكـاء، وقد طلب من الملك أن يمثل بحضرته ويجتمع به بحضـور أمـه، وعنـدمـا أعطى الملك مـوافقتـه تحدث كما يلي وقـال: «تعلمـون ياصـاحب الجلالة بدون شـك حقيقـة أن أمي سـوف تبقى الوصي الشرعي عليّ لمدة أربعة أعوام مقبلة، وعلى كـل حال، لايحق لها ياسيدي أن تدع بلادي للإهمال وللضيـاع، وأقول هـذا لك ياسيدي لأن مـدينة أنطاكيـة قد خـربت على يديها، ولهذا أتوسل إلى جـلالتك لتطلب منهـا إعطائـي المال والرجـال حتى يمكنني الـذهاب لحماية شعبـي في تلك المدينة، ولكي أقـدم لهم العـون الذي هم بحـاجـة إليـه، وفي الحقيقـة ياسيدي هذا هـو السبيل الصحيح الذي عليها الالتزام بـه، لأنني إذا ما بقيت في طرابلس ستكون هناك حـاجة لنفقات عظيمـة، ولسوف يكون ذلك الانفاق لا لشيء وبدون جدوى.

وأصغى الملك بتعاطف إلى مطلب الشـاب، وبذل جهد طاقته لاقناع أمه لتعطي ابنهـا القدر الذي يمكن استخـراجه منها، وفـور تركه الملك ذهب الأمير إلى انطاكيـة حيث رحب بقـدومـه خير ترحيب، وقـام بموافقة من الملك فوضع رنوكه التي كانت مذهبة مع رنوك فرنسا، لأن الملك قد نصبه فارساً.

وقـدم مع الأمير مـن أرمينيـا العظمى ثلاثة مغنين، وكـانوا أخـوة،

وكانوا ذاهبين إلى القدس للحج، وكان معهم ثلاثة أبواق قد صنعت بطريقة أن الصوت كان يصدر من ناحية وجوههم، وعندما شرعوا يلعبون بهم، كان بامكانك القول بأن الصوت صوت بجعات خارجة من بركة، وقد قدموا موسيقى جميلة ولطيفة وكانت رائعة أن تسمعها، وقام هؤلاء الرجال الثلاثة بحركات قفز بالفضاء مدهشة، وعندما وضعت حصيرة تحت أقدامهم نفذوا قفزات بهلوانية من وضعهم القائم وانتهوا وأقدامهم مرة أخرى فوق الحصير، وكان بامكان اثنان منهم القيام بقفزات بهلوانية في الفضاء نحو الخلف، وفعل المسن بينهم الشيء نفسه أيضاً، وعندما كان يطلب منه الدوران بالفضاء ورأسه إلى الأمام، كان يرسم علامة الصليب على نفسه لأنه كان خائفاً من أن تندق عنقه وهو يدور.

والآن بما أنه عمل طيب أن لاتنسى ذكر غوتيير كونت دي بريين، وكذلك كونت يافا، سوف أتحدث عنه هاهنا، فهو قد ولي أمر يافا لسنوات عديدة، ودافع عنها بشجاعة وبأعمال نشيطة، وعاش معظم وقته على ماكان يربحه من المسلمين ومن أعداء الدين الآخرين، وهكذا حدث مرة أنه هزم جمعاً غفيراً من المسلمين كانوا ينقلون كميات هائلة من الحرير ومن الثياب المذهبة، واستولى على جميع بضائعهم، ثم قام بعدما جلب الأسلاب الى يافا بتوزيع كل شيء بين فرسانه، ولم يترك لنفسه شيئاً، وكان من عادته، أن يقوم بعد توديعه لفرسانه، بحصر نفسه في بيعته، وإمضاء وقت طويل بالصلاة هناك قبل الذهاب ليلاً إلى النوم مع زوجته، وكانت سيدة حكيمة جداً وفاضلة، كما كانت أخت ملك قبرص.

وبعدما كان شاه فارس، الذي كان اسمه بركة خان، قد هزم من قبل واحد من أمراء التتار، حسبما أخبرتكم، زحف مع جيشه كله إلى مملكة القدس، واستولى هناك على قلعة طبرية، التي كان يودس دي مونتبليارد

قد حصنها، وكان هذا هو القسطلان، وصاحب طبرية من خلال زوجته، وأنزل شاه فارس بنا ضرراً عظيماً، لأنه عاث فساداً بالبلاد، ودمر كل شيء أمكنه أن يجده، خارج قلعة تل الصافية، وخارج عكا وصفد، وحول يافا أيضاً، وبعد ما أوقع كل هذه الأضرار انعطف باتجاه غزة لينضم بقواته إلى سلطان القاهرة، الذي كان قادماً لالحاق كل ما يمكنه من أذى بشعبنا.

وقرر بارونات البلاد، مع بطريرك القدس الخروج ومهاجمة الشاه قبل وصول سلطان القاهرة، ولكي ينالوا بعض المساندة بعثوا خلف سلطان حمص، وكان واحداً من أفضل الفرسان بين المسلمين، وقد أظهروا نحوه تشريفاً عظيماً في عكا إلى حد أنهم غطوا الشوراع التي كان سيمر بها بالسجاد، وزينوها بأقمشة مذهبة وأقمشة حريرية، ثم زحفوا جميعاً إلى يافا، وأخذوا سلطان حمص معهم.

وأصدر بطريرك القدس قراراً بحرمان الكونت غوتيير كنسياً، لأنه لم يسلم برجاً كان بيده، كان يعرف باسم برج البطريرك، وتوسل شعبنا إلى الكونت ليذهب معهم، ويحارب ضد الشاه، وأجاب بأنه سيفعل ذلك عن طيب خاطر، شريطة أن يحلله البطريرك حتى عودتهم، ورفض البطريرك فعل أي شيء من هذا القبيل، ومع ذلك أجرى الكونت غوتيير استعداداته، وذهب مع الجيش.

وكانت قواتنا مشكلة من ثلاث فرق، كانت احداهن تحت قيادة الكونت غوتيير، وكانت الثانية بقيادة سلطان حمص، في حين شكل البطريرك وشعب البلاد الفرقة الثالثة، وكان الاسبتارية في فرقة الكونت غوتيير، ومضوا جميعاً على ظهور خيولهم حتى باتوا على مرأى من الأعداء، وما أن رآهم رجال شعبنا حتى توقفوا، وقسم العدو قواته إلى ثلاث فرق أيضاً، وبينما كان الخوارزميون يعبئون رجالهم، التفت الكونت غوتيير نحو رجالنا وصرخ: «أيها السادة، من أجل الرب دعونا

نمضي ونقاتلهم، لأننا نعطيهم وقتاً مادمنا واقفين»، لكن ما من أحد أصغى إليه.

ولدى ملاحظة الكونت لذلك، مضى إلى البطريرك وسأله التحليل وفق الشروط التي كان قد اقترحها، ورفض البطريرك— على كل حال— رفضاً قاطعاً منحه التحليل، وكان يوجد في فرقة الكونت غوتيير رجل دين شجاع، كان هو أسقف الرملة، وكان قد حقق انجازات كثيرة برفقة الكونت، فقال للكونت: «لاتشغلن نفسك، لرفض البطريرك منحك التحليل، لأنه هو المخطىء وأنت المصيب، وإنني شخصياً أحللك باسم الآب، والابن والروح القدس، ودعنا الآن نحمل عليهم».

وهكذا غمزوا خيولهم، وهاجموا إحدى فرق شاه فارس، وهي الفرقة التي شكلت الساقة، وسقط عدد كبير من القتلى على الطرفين، ووقع كونت غوتيير بالأسر أثناء القتال، لأن شعبنا هرب بفوضى معيبة، حتى أن عدداً كبيرا منهم أغرقوا أنفسهم بالبحر لشدة خوفهم، وكان السبب في يأسهم ورعبهم إلى هذا الحد أن إحدى فرق شاه فارس هاجمت العساكر الذين قادها سلطان حمص، وقد فقد هذا السلطان عدداً كبيراً من رجاله في الدفاع عن موقفه، حتى أن الذي بقي من الألفين الذين قادهم في المعركة، كان فقط مائتين وثمانين، فهذا كان عددهم عندما غادر ميدان المعركة.

واعتقد الشاه أنه لن يكون بامكان سلطان حمص الصمود طويلاً، بعدما فقد هذا العدد الكبير من رجاله، لذلك قرر الذهاب والقيام بمحاصرته في قلعته بحمص، وعندما رآه السلطان قادماً، خرج إلى رجال شعبه وأخبرهم أنه عازم على الخروج ومواجهة العدو، ذلك أنه إذا ما ترك نفسه ليحاصر، فسيخسر ويضيع، وقامت خطة عمله على ارسال رجاله المسلحين بشكل فقير عبر واد خفي، وكان عليهم لحظة

سماعهم لقرع طبول السلطان مهاجمة معسكر الشاه من الخلف، ومن ثم الشروع بقتل النساء والأطفال.

وخرج الشاه إلى السهل المفتوح لمحاربة عساكر السلطان التي رآها مصطفة أمامه، غير أنه ما أن سمع صراخ شعبه من المعسكر حتى نكص على عقبيه وعاد باتجاه المعسكر لانقاذ النساء والأطفال، فألقى رجال السلطان على الفور بأنفسهم على الشاه وعلى جيشه، وقاتلوهم بنجاح كبير، إلى حد أنه من الخمسة والعشراين ألف فارسي كانوا موجودين لم يبق رجل واحد أو امرأة، فجميعهم قد قتلوا في المعركة أو هلكوا بحد السيف.

وكان الشاه قبل أن يذهب إلى حصار حمص، قد حمل كونت غوتيير إلى أمام أسوار يافا، وقام الفرس بتعليقه من ذراعيه على عمود ذي شعب، وأخبروه أنهم لن ينزلوه حتى تكون قلعة يافا في حوزتهم، وبينما كان معلقاً على هذه الصورة صرخ بأعلى صوته إلى رجاله في القلعة بأن لايسلموا القلعة بسبب أي عذاب قد ينزله به العدو، وقال بأنهم إذا ما استسلموا فسوف يقتلهم بيديه.

وما أن علم الشاه بهذا حتى بعث بكونت غوتيير إلى القاهرة بمثابة هدية إلى السلطان في تلك المدينة، وذلك مع مقدم الداوية وعدد كبير آخر ممن أخذوا أسرى، وكان عدد الذين حملوا الكونت إلى مصر حوالي الثلاثمائة رجل ، وهؤلاء هم الذين لم يقتلوا عندما واجه الشاه منيته عند حمص، وهؤلاء أيضاً هم الثلاثمائة رجل من الخوارزمية الذين كانوا بين من هاجمنا فيما بعد في يوم الجمعة، عندما كنا مشاه، ولقد حملوا أعلاماً حمراء مشرشرة حتى أسنة رماحهم، التي ثبتوا على رؤوسها رؤوساً صنعت من الشعر، وقد بدت تشبه رؤوس الشياطين.

ورفع عدد من التجار في القاهرة شكاوى إلى السلطان حتى ينصفهم

من كونت غـوتيير، بسبب الخسائر العظيمة التي عـانوا منها على يديه، وأذن لهم السلطان بالانتقـام من الكـونت، وبناء عليـه ذهبـوا وقتلوه بالسجن، فهناك مـات في سبيـل العقيـدة، وبهذا الشأن يمكننا الاعتقـاد بشكل مؤكد أنه الآن في الجنة مع كوكبة الشهداء.

.ونعود الآن إلى سياق حكايتنا، فقد حشد سلطان دمشق رجاله الذين كـانوا في غـزة ودخل إلى مصر، وخـرج الأمـراء وقـاتلوا ضـده وضـد جيـوشه، وهـزمت الفرقـة التي قـادها السلطان الأمـراء الذين اشتبكوا معها، لكن الفرقة المصرية الأخرى هزمت ساقة قوات السلطان، وذهب سلطان دمشق بعد القتال عائـداً إلى غزة، وهو مجروح في رأسه وفي يده، وقبل أن يغادر ذلك المكان بعث الأمـراء المصريون إليه برسلهم لإقـامة سـلام معه، وبذلك عجـزوا عن المحـافظة على أي من الاتفاقيـات التي عقدوها معنا، ولم يعـد منذ ذلك الوقت فصاعـداً لاهدنة ولاسلام بيننا وبين أهل دمشق، أو بيننا وبين أهل القاهرة، ويمكنني القـول، أن العدد الأقصى لقـواتنـا، التي توفـرت لدينا في هذه الآونـة، لم يتجـاوز الألف والأربعمائة.

وبينما كان الملك أمام يافا، قام مقدم رهبان القديس لعازر بالتجسس قرب الرملة— وهي بلدة تبعد مسافة ثلاثة فراسخ— فشاهد عدداً من القطعـان وأشيـاء متنوعة أخـرى، فخيل إليـه أن بامكانه الحصـول على غنيمة ثمينة، وبما أنـه لم يكن رجلاً له مكانته في الجيـش، لهذا كان يعمل تمامـا مـا يروق له، فـانطلـق نحـو ذلك المكان دون أن يقـول كلمـة إلى الملك، وكـان بعـدما جمع أسـلابه هاجمه المسلمـون، والحقـوا به هزيمـة ساحقة، إلى حد أنه لم ينج من جميع الرجـال الذين كانوا برفقته أكثر من أربعة.

ومـا أن عـاد إلى المعسكر حتى رفع صـوته بالدعـوة إلى السـلاح، ومضيت وسلحـت نفسي ورجـوت الملك أن يسمح لي بالـذهاب إلى

ذلك المكان، وقد سمح لي بالذهاب، وأمرني أن أصطحب معي فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا بعض المسلمين، قد جاءوا من المناطق المجاورة ونزلوا إلى قلب الوادي حيث هزم مقدم فرسان القديس لعازر، وبينما كان هؤلاء الرجال ينظرون إلى الموتى، هاجمهم قائد رماة جروخ الملك بشكل مفاجىء، وقبل أن يصل جنودنا، كان قد هزمهم، وقتل عدداً منهم.

وحدث أن واحداً من سيرجندية الملك، وواحداً من المسلمين قد صرع أحدهما الآخر بطعنة من رمحيهما، ورأى واحد من رجال الملك هذا الحدث، فقام بقيادة فرسيهما وأراد الابتعاد بهما كي يسرقهما، ولكي لايراه أحد، أخفى نفسه وراء أسوار مدينة الرملة، وعندما كان يجر الفرسين خارج صهريج قديم، أراد العبور فوقه، فانهار تحته، فسقط هو والخيول الثلاثة، وبعدما أخبرت بأنهم سقطوا إلى القعر، ذهبت لأنظر إلى المكان، فرأيت الصهريج مابرح ينهار فوق رؤوسهم، وكانوا تقريباً قد تغطوا تماماً، وهكذا رجعت إلى المعسكر بدون خسائر، وذلك باستثناء ما خسره مقدم فرسان القديس لعازر.

وبعدما أبرم سلطان دمشق الصلح مع الأمراء المصريين، بعث هذا السلطان واستدعى إليه رجاله الذين كانوا في غزة، وعبرت هذه القوات على مسافة أدنى من فرسخين بعيداً عن معسكرنا، غير أنها لم تغامر أبداً بالهجوم علينا، مع أن عدد جنودهم بلغ ثلاثة آلاف من المسلمين وعشرة آلاف من البدو، وكان قبل أن يقتربوا منا قد قام مقدم رماة الزنبورك لدى الملك وفرقته، بالاحتراز والتيقظ ومراقبة تحركاتهم لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي ليحول بينهم وبين القيام بهجوم مفاجىء على معسكرنا.

وذهب الملك بعد عيد القديس يوحنا الانجيلي، الذي حل مباشرة بعد عيد الفصح، لسماع قداس، وبينما كان الواعظ مايزال يتكلم، دخل

سيرجندي من فرقة قائد قوات رماة الزنبورك، إلى بيعة الملك، وهو شاكي السلاح، وأخبره بأن المسلمين قد طوقوا قائدهم، وطلبت من الملك أن يأذن لي بالذهاب، وتقديم العون له، فأذن لي، وأخبرني بأن أصطحب معي أربعمائة أو خمسمائة من الرجال المسلحين، وذكرلي أسماء من رغب إليّ باصطحابهم، وما أن خرجنا زاحفين من المعسكر، حتى قام المسلمون الذين كانوا متمركزين بين قائد رماة الزنبورك والمعسكر،بمغادرة مكانهم للالتحاق بأمير كان فوق رابية أمام قائد رماة الزنبورك، ومعه ألف رجل مسلح.

ثم بدأ القتال بين المسلمين وبين سيرجندية قائد رماة الزنبورك، وكانوا جميعاً حوالي مائة وثمانين، وفي احدى اللحظات عندما رأى الأمير بأن رجاله قد ضغط عليهم بشدة، بعث إليهم بنجدة، وكان عدد أفرادها كبيراً إلى حد أنهم تمكنوا من دفع سيرجنديتنا نحو الخلف حتى موقف عساكر قائد الرماة، وما أن رأى قائد الرماة بأن رجالنا قد تعرضوا بدورهم إلى ضغط شديد، حتى بادر إلى ارسال نجدة لهم مكونة من مائة أو مائة وعشرين رجلاً مسلحاً، فتمكنوا من صد المهاجمين، وردوهم نحو فرقة الأمير.

وعندما كنا هناك، قام النائب البابوي، وبارونات بلاد ما وراء البحر، الذين كانوا قد بقيوا هناك مع الملك، بإخبار الملك بأنه أخطأ خطأً جسيماً بتعريضي لمثل هذا الخطر، وأرسل الملك، بناء على نصيحتهم، فاستدعاني مع قائد رماة الزنبورك، وعلى كل حال انسحب المسلمون في هذه الساعة، وعدنا جميعاً إلى المعسكر، وتعجب كثير من الناس، كيف أنهم لم يأتوا لمهاجمتنا، وقال بعضنا بأنهم لم يفعلوا ذلك، لأنهم كانوا يعانون مع خيولهم من الجوع في غزة، حيث أمضوا هناك حوالي السنة.

وبعدما انسحب هؤلاء المسلمون من معسكرهم خارج يافا، استقروا أمام عكا، وأرسلوا إلى صاحب أرسوف، الذي كان قسطلان

مملكة القدس، يخبرونه بأنهم سوف يدمرون حدائق المدينة مالم يرسل إليهم خمسين بيزنتة،فبعث إليهم يخبرهم بأنه سوف لن يعطيهم ولابيزنتة واحدة، ولهذا زحفوا بقواتهم، وتمركزوا على طول رمال عكا، وبذلك اقتربوا كثيراً من المدينة حتى باتت على مسافة رمية قوس عقار منهم، وزحف صاحب أرسوف إلى خارج عكا وتمركز على جبل القديس يوحنا، حيث تقوم مقبرة القديس نيقولا، وكان مقصده حماية الحدائق، وخرج سيرجنديتنا المشاة من المدينة أيضاً، وشرعوا بمناوشة المسلمين بقسيهم وبجروخهم.

واستدعى صاحب أرسوف فارساً جنويا اسمه جيانون Gian-none، وأمره بالذهاب باستدعاء العساكر الرجالة الذين خرجوا من عكا، حتى لايتعرضوا للمخاطر، وبينما كان يتولى ارجاعهم وقيادتهم، شرع واحد من الأعداء يدعوه باللسان العربي بأنه يود المبارزة معه إذا ما رغب بذلك، وقال السيرجيانون بأنه يود ذلك بكل سرور،لكن فيما هو ذاهب باتجاه المسلم، أبصر على يساره مجموعة صغيرة من المسلمين تعدادها حوالي الثمانية، قد وقفت لتشهد المبارزة، ولهذا حرف طريقه عن التوجه نحو المسلم، وانطلق نحو الفئة المسلمة، التي كانت واقفة بكل هدوء لكي تشهد المبارزة، وطعن واحداً منها برمحه فجندله قتيلاً.

وعندما رأى رجال الفئة المسلمة ذلك، اندفعوا نحو السيرجيانون، وهو عائد للالتحاق برجالنا، ووجه إليه أحدهم ضربة شديدة على خوذته الفولاذية بوساطة دبوس، وبينما كان هذا المسلم يمر من أمامه، ضربة جيانون بسيفه على عمامته التي كان يلفها حول رأسه، فأطاح بها إلى الأرض (كان من عادة المسلمين ارتداء هذه العمائم أثناء الذهاب إلى القتال، فبوساطتها كان بإمكانهم تحمل ضربات شديدة من السيف)، وجاء مسلم آخر يعدو به فرسه باتجاه هذا الفارس، وهو عازم على طعنه برمحه بين كتفيه، لكن جيانون رأى الرمح قادم نحوه، فانحرف

جانبا، ثم مرّ المسلم به، فسدد إليه ضربة خلفية بسيفه نحو ذراعه، وبذلك سقط الرمح من يده على الأرض.

وعاد إثر هذا جيانون، وأعاد عسكره الرجّالة إلى عكا، ولقد سدد ضرباته الثلاثة هذه على مشهد من صاحب أرسوف، ولقد رآها أيضاً أعيان السكان في عكا، مع جميع النساء اللائي تجمعن فوق أسوار المدينة لمشاهدة القتال.

وكما تعلمون لم يتجرأ الحشد الاسلامي الكبير الذي احتشد أمام عكا على الاشتباك معنا ولا القتال ضد رجال عكا، لكن عندما سمع رجاله خبراً صادقاً، بأن الملك قد بعث بمجرد فئة صغيرة من الرجال الجيدين للقيام بتحصين مدينة صيدا، زحفوا بذلك الاتجاه، وما أن سمع سمعان دي مونتبليارد— الذي كان رئيس رماة القسي العقارة العائدين للملك، وقائد قوات جلالته في تلك المدينة— بأن المسلمين يزحفون ضد صيدا، حتى انسحب إلى حصن صيدا، الذي كان حصيناً جداً، ومحاطاً بالبحر من كل جوانبه، وقد فعل هذا لإدراكه تماماً بأنه لايمتلك القدرة على مقاومة العدو، وتحصن بالقلعة مع أكبر عدد من الناس استطاع جمعه، لكن مع ذلك كان هؤلاء عددهم قليل، لأن المساحة هناك كانت محدودة جداً.

وتدفق المسلمون على صيدا، ولم يلقوا مقاومة، لأن المدينة لم تكن محاطة تماماً بالأسوار، وقد قتلوا مايزيد على ألفين من شعبنا، ثم غادروا المدينة وهم يحملون الأسلاب التي حصلوا عليها من المدينة، وتوجهوا إلى دمشق.

وعندما وصلت أخبار ما حدث إلى الملك، غضب غضباً عظيماً (أواه، لو أنه استطاع فقط أن يعوض الخسائر)، وعلى كل حال، عدّ البارونات ما حدث واقعة سعيدة جداً، لأن الملك كان عازما على

الذهاب، وتحصين قطعة أرض مرتفعة على الطريق بين يافا والقدس، حيث كانت توجد قلعة قديمة منذ أيام المكابيين، لكن ما حدث غير خططه.

فقد رأى بارونات ماوراء البحر أنه ليس مفيداً القيام بإعادة بناء أسوار هذه القلعة القديمة، لأنها ابتعدت خمسة فراسخ عن البحر، لذلك كان من غير الممكن ارسال المؤن والعتاد من الموانىء إليها من دون تعرضها لمخاطر الوقوع في أيدي المسلمين، الذين كانوا أقوى مما كنا، ولهذا عندما وصلت أخبار تهديم صيدا إلى المعسكر، جاء هؤلاء البارونات إلى الملك وأخبروه أنه سوف يكون مفيداً أكثر لصالح سمعته القيام بإعادة تحصين تلك البلدة، بدلاً من بناء حصن جديد، ووافق الملك على الأخذ بنصيحتهم.

وفي الوقت الذي كان فيه الملك في يافا، بلغه أن سلطان دمشق سوف يرحب بذهابه إلى القدس، وسيمنحه أماناً مؤكداً، وعقد الملك مؤتمراً عاماً، لتفحص المسألة، وبالنتيجة ما من واحد أشار عليه بالذهاب، لأنه في النهاية سوف يترك المدينة المقدسة في أيدي المسلمين.

وفي أثناء المناقشات استشهد مستشارو الملك بما حدث في مناسبة متقدمة، عندما رأى الملك العظيم فيليب أنه يتوجب عليه مغادرة عكا ليعود إلى فرنسا، وقد سمح وقتها لجميع أتباعه بالبقاء في الجيش تحت قيادة الدوق هيوج دي بيرغندي، الذي كان جد الدوق الذي توفي مؤخراً، وبينما كان الدوق مايزال في عكا، والملك رتشارد ملك انكلترا معه، وصلتهما أخبار، أنهما إذا ما رغبا، فبإمكانهما الاستيلاء على القدس في اليوم التالي، بما أن جميع قوات سلطان دمشق، بما فيهم فرسانه، قد غادروا للالتحاق به في مكان آخر، وذلك بسبب حرب كانت قائمة بينه وبين سلطان آخر، وبناء عليه جمع الملكان قواتهما، وشكلت قوات ملك انكلترا الفرقة الأولى، بينما كان دوق دي بيرغندي، مع رجال ملك

فرنسا في الفرقة الثانية.

وبينما كانوا على طريقهم، مع فرصة طيبة بالاستيلاء على المدينة المقدسة، وصلت رسالة من معسكر الدوق إلى ملك انكلترا، يخبره فيها بعدم متابعة الزحف، لأن الدوق نفسه قد شرع بالتراجع، وكان ذلك لا لسبب غير أنه لم يرغب في أن يقال بأن الانكليز قد استولوا على القدس، وبينما كان الملك رتشارد وأتباعه يتحادثون حول هذا الموضوع، صرخ واحد من فرسانه قائلاً: «مولاي، مولاي، تعال إلى هنا، ولسوف أريك القدس»، ولدى سماع الملك بهذا، ألقى بسترته الحربية فوق عينيه، وبكى بحرقة، وصرخ إلى مخلصنا قائلاً: «أيها المولى العزيز، أتوجه إليك بالدعاء أن تجنبني رؤية مدينتك المقدسة، بما أنني لاأستطيع تخليصها من أيدي أعدائك».

واستشهد المستشارون بهذه الحادثة أمام الملك، لأنهم شعروا أنه— وهو الأعظم بين ملوك المسيحية— إذا ذهب ليحج إلى القدس، دون أن يتمكن من تخليصها من أعداء الرب، فعندها سوف يجلس جميع الملوك والحجاج الذين سوف يقدمون من بعده راضين قانعين دون أن يفعلوا أكثر مما فعله، ولن يبدو أدنى اهتمام من أجل تحرير تلك المدينة المقدسة.

وأصبح الملك رتشارد مشهوراً جداً بسبب أعماله الجريئة عندما كان في بلاد ماوراء البحر، إلى حد أن أي فرس عاد إلى مسلم جفل في شعراء، كان صاحبه يقول له: «هل تظنن أن ذاك ملك انكلترا»؟، وعندما كان أبناء النسوة المسلمات يبكون، كانت أمهاتهم يقلن لهم: «توقفوا، اسكتوا، أو سنذهب سنجلب الملك رتشارد، وهو سيقتلكم».

وكان دوق دي بيرغندي، الذي ذكرته للتو، فارساً جيداً بالنسبة لما يتعلق ببلاده، لكن لم يعدّ قط حكيماً، لافي علاقاته مع الرب، أو في سلوكه وتصرفاته في الأعمال الدنيوية، وهذا من الممكن فهمه بسهولة مما

أخبرتكم حــوله، ولهذا السبب عندمـا سمع فيليـب الملك العظيم، بأن كونت دي شالون قد رزق ولداً، فسماه هيوج، على اسم دوق بيرغندي، عبر على الفـور عن أمله في أن يجلعه الرب رجـلاً شجاعـاً مثل الدوق، ولما سألوه لماذا لم يقل: رجلاً عاقلاً وفطنـاً؟ قال الملك: « لأن هناك فرقاً عظيماً بين الرجل الشجاع، والرجل العاقل والفطن، ذلك أن هناك عدداً كبيراً من الفـرسان الشجعـان في كل من اراضي المسيحيـة وفي الأراضي الاسلاميـة، ممن لايؤمن بربنا ولا بأمـه» ثم أضاف يقـول: «ولهذا أقول بأن الرب قـد أعطى أعطية عظيمـة، ونعمة خـاصة جـداً، إلى الفارس المسيحي، الذي منحـه شجـاعـة جسـدية، وقـدرة في الوقت نفسـه على الاستمرار في خدمته بحماية نفسه من اقتراف إثم عظيم، والفارس الذي يتحكم هكذا بنفسه جدير بأن يدعى حقـاً عاقلاً وفطناً، لأن قدرته على القيـام بأعمال صالحة، آتيـة من عند الرب، والذين ذكرتهم أعـلاه يمكن دعـوتهم فقط شجعان، لأنهم مع امتـلاكهم لشجـاعـه جسدية عظيمـة، إنهم لايخشون الرب، ولايخافون من الإثم».

ولن أحـاول إعطاءكم تقديـراً صحيحاً عن المبلغ الكبير الذي أنفقـه الملك في تحصين يافـا، لأنه كـان بالفعل مبلغـاً عظيماً جـداً وأكبر من أن يحصى، فقـد حصن البلدة حتى البحـــر من على الطرفين، وهكذا توفـر أربعـة وعشرون بـرجـاً، وباتت الخنـادق خـاليـة من الطين في الداخل والخارج، كما ووجدت ثلاثة أبواب، بني واحد منها على حساب النائب البابوي، مع جزء من السور.

ولكي أعطيكم فكـرة مــا عما أنفقــه الملك، سأخبركم بأننـي سألت النائب البابوي كم كلفـه العمل في الباب وفي جـزء من السور، فسألني كم هو تقديري، فقلت: لقـد قدرت تكلفة الباب بخمسمائـة ليرة ذهبية، وكلفـة حصتـه من السـور بثلاثمائـة، فأخبرني— والرب شـاهد على مـا قال— بأن كلفة الباب مع السور بلغت ثلاثين ألف ليرة ذهبية.

الفصل السادس عشر

حملة إلى صيدا

حزيران ١٢٥٣ — شباط ١٢٥٤

وما أن اكتملت أعمال تحصين يافا حتى قرر الملك الذهاب إلى صيدا، وإعادة بناء دفاعاتها، وانطلق في يوم عيد الرسولين: القديس بولص، والقديس بطرس، وعسكر لإمضاء الليل مع جيشه خارج قلعة أرسوف، التي كانت محصنة تحصيناً جيداً، واستدعى في تلك الليلة أتباعه وجمعهم وسألهم فيما إذا كانوا يوافقون على ذهابه للاستيلاء على المدينة الإسلامية التي تدعى الآن نابلس، لكنها كانت تعرف باسم(شكيم) السامرة في الكتابات المقدسة.

وأجابه الداوية والاسبتارية وبارونات ما وراء البحر جميعاً بأن الخطة كما يرونها خطة جيدة في محاولة الاستيلاء على تلك المدينة، لكنهم ارتأوا أيضاً أن الملك لا يجوز أن يذهب إلى هناك شخصياً، لأنه لو حدث حادث له، فكل الأراضي المقدسة سوف تفقد، فقال الملك بأنه لن يدعهم يذهبون ما لم يذهب معهم، ولهذا بقيت الخطة معطلة لأن البارونات لم يوافقوا على أن يرافقهم.

وبعد الزحف لأيام عدة وصلنا إلى رمال عكا، حيث عسكر الملك مع جيشه، وعندما كنا هناك جاءت مجموعة كبيرة من الناس من أرمينيا العظمى لرؤيتي، وكان أفرادها ذاهبون إلى الحج إلى القدس، وذلك بعد دفعهم مبلغاً كبيراً جزية إلى المسلمين، الذين كانوا يتولون قيادتهم إلى هناك، ورجوني بوساطة مترجم عرف لغتهم ولغتنا أن أريهم ملكنا القديس، وذهبت إليه، فوجدته جالساً في سرادقه، ومستنداً على العمود المركزي، وكان جالساً على الرمل دون زربية تحته، أو دون أي شيءآخر،

فقلت:«هناك ياسيدي عساكـر كثيرة من أرمينيا العظمى في الخارج، هم في طريقهم إلى القدس، وقد رجوني بأن يُسمح لهم برؤية ملكنا القديس غير أنني لم أرغب بعـد في تقبيل عظامك»، فـانفجـر الملـك ضـاحكاً، وطلب مني الذهاب لإحضارهم، الأمر الذي نفذته، وعندما رأوه دعوا الرب له بالحفظ، ورد هو لهم تبريكاتهم.

وفي اليـوم التـالي أمضى الجيش الليلة في مكـان عـرف باسم«مخاضـة المهـار»، حيث كـان الماء جيـد جـداً، ويستخـدم الناس هنا الماء لسقـاية المزروعات التي تنتج السكر، وعندمـا كنا هناك، جاء واحد من فـرساني إليّ وقال:« لقد وجدت يا مولاي محلات لك للعسكرة أحسن بكثير من البقعـة التي كنا فيها بـالأمس، وقام فـارس آخـر، كان هو الذي اختـار أرض عسكرتي السـالفـة، وهو غاضب جـداً، وصرخ:«إنها حماقـة كبيرة منك أن تتعجل هكـذا، وتتحـدث على هـذه الشـاكلـة عن أي شيء أنا صنعتـه»، ثم إنه قفز نحـو الرجل الآخـر، وأمسكه من شعره، وقفـزت نحــوه بدوري، وضربتــه بمقبضي بين كتفيــه حتى يطلق سراحـــه، وقلت:«اخرج فوراً من معسكري، وإذا ما أعانني الرب، لن تكون ثانية واحداً من رجالي».

وابتعد الفـارس، وهو يبدو حـزيناً جداً، وآثار الأسى عليـه، لكنه ما لبث أن عاد بـرفقة جايل لى بـرن، قسطلان فرنسا، الـذي رأى الفارس حقاً آسف لعمله الأحمق، فرجاني بإلحاح بقدر ما استطاع حتى أعيده إلى معسكري، فأجبتــه بأنني لن أعيـده مـا لم يحللني النائب البـابوي من يميني، وبناء عليــه ذهبـا إلى النائب البـابوي، وأخبراه بـالذي حـدث، فأجاب بأنه لا يمتلك السلطة على تحليلي، لأن اليمين كـان صحيحاً، بما أن الفارس جدير حقاً بعقوبته، وإنني إذ أحدثكم عن هذه الواقعة حتى تتمنعـوا عن حلـف أي يمين من دون مسـوغ معقـول، لأنـه كما يقـول الرجل الحكيم:«من يقسم متعجلاً جداً، يكون أعجل في الحنث بيمينه».

وعسكر الملك في اليوم التالي أمام صور، التي كانت تعرف بالكتاب المقدس باسم Tyre ، وهناك استدعى للاجتماع أعيان الرجال من جيشه، وسألهم هل سيكون عملاً جيداً بالنسبة له للذهاب للاستيلاء على مدينة بانياس قبل أن يذهب إلى صيدا، ورأينا جميعاً أنها ستكون خطة جيدة أن يرسل الملك عساكره إلى هناك، لكن ما من أخذ رأى أن من الحكمة له أن يذهب شخصياً إلى هناك، وبعد صعوبات جمة اقتنع بالتخلي عن تلك الفكرة، وتقرر أخيراً أن يذهب كونت دي إيو، وأن يكون برفقته فيليب دي مونتفورت، وجايل لى برن، قسطلان فرنسا، وبيير حاجب الملك، ومقدم الداوية مع أفراد طائفته، ومقدم الاسبتارية مع رجال من طائفته أيضاً.

وقد سلحنا أنفسنا عند حلول الليل، ووصلنا قبيل بزوغ الفجر إلى سهل خارج المدينة التي اسمها الآن بانياس، لكنها عرفت بالكتابات المقدسة باسم قيسارية فيليب، وينبع في هذه المدينة نبع اسمه«أر»، وينبع بالسهل خارج المدينة نبع آخر جميل جداً يدعى«دان»، والذي يحدث الآن هو أنه عندما يلتقي هذين النهرين الصغيرين الصادرين من هذين النبعين يصبحان نهراً يدعى«الأردن»،وهو الذي تعمد مولانا في مياهه.

وتقرر بالوفاق بين الداوية وبين الكونت دي إيو، والاسبتارية، وبارونات البلاد الذين كانوا موجودين هناك، بأن تتخذ فرقة الملك — وهي الفرقة التي كنت أنا فيها،لأن الملك وضع تحت خدمته الفرسان الأربعين الذين كانوا من فرساني — موقفاً لها بين المدينة وبين القلعة، مدعومة بالعساكر الذين كانوا تحت إمرة الفارس الجيد غيوفري دي سارجين، وكان على بارونات البلاد، الدخول إلى المدينة من جهة اليسار، وأن يدخل الاسبتارية من جهة اليمين، في حين توجب على الداوية المضي على طول الطريق الذي جئنا عليه، لفتح ممر من ذلك الاتجاه.

وزحفنا نحـو الأمام حتى اقتربنا تماماً من بانيـاس، فوجـدنا فقط أن المسلمين الذين كانوا في داخلها، قد هزموا سيرجندية الملك، وطردوهم من المدينة،وفور معـرفتي بذلك مضيت إلى القادة المسـؤولين عن قوات الكونت إيو، وقلت لهم:«أيها السـادة، إنكم ما لم تذهبوا إلى حيـث أمرنا نحن أن نذهب، وتتمركـزوا بين المدينة والقلعة، سـوف يقتل المسلمون جميع الذين دخلـوا إلى بانيـاس»، وكـان الـذهاب إلى هناك عمل خطير جـداً، لأن الطريق الذي تـوجب علينا ركـوبه كـان مليئاً بالمخـاطر، والأرض وعرة وشـديدة الانزلاق، وبصعوبـة بالغة كان يمكـن لفرس الاحتفاظ بحـوافره على الأرض دون السقـوط، في حين كانت الجوانب الأخرى من الرابيـة المنخفضة التي توجب علينا الوصول إليها، غـاصة بعساكر المسلمين على ظهور بخيولهم.

وبينما كنت أتحدث إلى الكونت إيو وإلى فـرسـانه، رأيت سيرجنديتنا الرجالة يخترقون الأسوار، وما أن لاحظت ذلك حتى قلت للذين كنت أتحدث إليهم، بأن الأوامـر قـد صـدرت إلى كتيبـة الملـك بالذهاب إلى المكان الذي كان الجند المسلمون يحتلونه، وبسبب صدور هذا الأمر،علي الذهاب، وعندمـا انعطفت مع اثنين من فـرسـاني وأخـذت اتجاه الذين كانوا يهدمـون السور، رأيت واحـداً من السير جندية الخيالـة، قد سقط فـرســه عليـه، وهو يحاول الـوثوب فـوق الســور، ولدى رؤيتي ذلك ترجلت، وأخذت فرسي من مقـوده، وبإرادة من الرب، حدث على كل حال، أن الجند المسلمين مـا أن رأونا قادمين حتى تخلوا عن الموقع الذي أردنا احتـلاله، وكـان هناك جـرف صخري امتـد نازلاً بشكل حـاد إلى المدينة.

وعندمـا وصلنا إلى المكان الذي كـان الجند المسلمـون قـد تخلوا عنه، تخلى المسلمون الذين كانوا في داخل بانيـاس عن القتال، وهجروا المدينة إلى رجـالنا بدون إبداء أية مقـاومـة، وعنـدمـا كنت فـوق الرابيـة سمع

مارشال الداوية بأنني كنت في خطر، فجاء متسلقاً للمنحدر باتجاهي، وجاء الألمان، الذين كانوا في فرقة الكونت دي إيو، في الوقت نفسه خلفي، وعندما رأوا الخيالة المسلمين مغذين الخطى بفرارهم نحو القلعة، تحركوا للقيام بمطاردتهم، فناديتهم:«أيها السادة إنكم تبتعدون عن الصواب بما تقومون به، فنحن في موقع أمرنا باحتلاله، وأنتم تتجاوزون الآن أوامركم».

وتدعى القلعة التي تشرف على المدينة باسم«الصبيبة»، وهي على ارتفاع نصف فرسخ تماماً في أعلى جبال لبنان، وتتناثر على المنحدر الذي يقود صعوداً إلى القلعة، الصخور الكبيرة، التي يبلغ حجم بعضها حجم عدة صناديق كبيرة، وعندما أدرك الألمان بأنهم أقلعوا بعملية مطاردة بلا فائدة قفلوا عائدين، وعندما رآهم المسلمون يفعلون ذلك تحلقوا حولهم، وهاجموهم وهم على الأقدام، وسددوا نحوهم ضربات شديدة من أعالي الصخور بحرابهم، وأخذوا يسحبون التجافيف عن ظهور خيولهم.

ولدى رؤية السيرجندية الذين كانوا معنا الأضرار التي لحقت بالألمان،بدأوا يشعرون بالخوف، وتنهار عزائمهم، وبناء عليه أخبرتهم أنهم إذا ما تزحزحوا عن مواقفهم سوف أطردهم طرداً نهائياً من خدمة الملك، فقالوا:«كفتينا يا مولاي غير متساويتين، لأنك أنت على ظهر فرس، ويمكنك النجاة بسهولة، بينما نحن على الأقدام، ولسوف يقتلنا المسلمون،»، فقلت لهم:«بالنسبة لذلك، أقسم لكم أنني لن أفر، بل سأبقى معكم مترجلاً على الأقدام»، وهكذا ترجلت، وبعثت بفرسي إلى الخلف إلى الداوية، الذين كانوا على رمية قوس عقار إلى الخلف منا.

وبينما كان الألمان يتراجعون، جاءت نشابة رماها أحد المسلمين فأصابت واحداً من فرساني، واسمه جين دي بوسي، في حلقومه، فسقط ميتاً قرب قدمي، وقال لي عمه هوغو دي اسكوت Escot ، الذي

برهن على شجاعته الكبيرة في الأرض المقدسة:« تعال ياMولاي وساعدنا، لنحمل ابن أخي ونتزله عبر المنزلق»، فقلت:«أتمنى أعظم السوء لكل واحد سوف يساعدك، لأنك ذهبت إلى هناك من دون أوامري، وإذا ما حاق بك شر، فأنت تستحق ذلك، احمله بنفسك إلى كومة الفضلات، لأنني لن أتحرك من هنا حتى يُرسل خلفي».

وعندما سمع جين دي فالنسيان بالخطر الذي نحن فيه، ذهب إلى أولفر دي تيرم Termes والرجال القياديين الآخرين للانجدوك Lan-guedoc وقال لهم:«أرجوكم يا سادتي وآمركم باسم الملك أن تقوموا بإنقاذ النائب»، وعندما كان يعبّر عن اهتمامه، جاء وليم دي بيمونت إليه وقال:«إنك تتعب نفسك وتشغلها بلا فائدة فالنائب ميت»، فرد عليه مولاي جين:«لا أبالي إن كان حياً أم ميتاً، إنني سوف أذهب وأحصل على أخباره من أجل الملك»، وهكذا انطلق وجاء إلى المكان الذي ذهبنا إليه فوق الجبل، وما أن اقترب منا حتى صرخ إليّ للذهاب نحوه والحديث معه، وهذا ما فعلته.

وبين أولفر دي تيرم بأننا كنا في وضع خطير جداً، وإذا نزلنا عبر الطريق الذي صعدنا عليه، من الممكن أن لا نفعل ذلك دون خسائر كبيرة، لأن الجرف منحدر جداً ومنزلق، ويمكن للمسلمين الهبوط علينا من الأعلى، ثم أضاف يقول:«إذا أصغيتم إلي، سوف أساعدكم على النجاة من دون خسائر»، فطلبت منه أن يبين ما الذي يريدنا أن نفعل، وسوف أعمل على التنفيذ.

فقال:«أقول لكم، إننا إذا ما ذهبنا مباشرة على طول هذا الجرف، وكأننا نريد قصد دمشق، فإن المسلمين الذين تراهم في الأعلى سيعتقدون بأننا نتوي مهاجمتهم من الخلف، وما أن نصبح بالأسفل فوق السهول، فسوف نعدو بخيولنا ونمضي حول المدينة، ولسوف نعبر النهر قبل تمكنهم من الوصول إلينا، وبالإضافة إلى هذا سنلحق بهم

أضراراً عظيمة، بأن نلقي النار في بيادر القمح الموجودة هناك فوق الحقول».

واتبعنا توجيهاته، وجعلنا نجمع بعضاً من القصب الذي يستخدم لصنع المزامير، وشحناها بفحم يحترق، ورميناها بين بيادر القمح، وهكذا —شكراً لنصيحة أولفر دي تيرم الحكيمة — أعادنا الرب سالمين، وعلى كل حال لا بد من أن أخبركم، أننا عندما عدنا إلى المعسكر، حيث كان رجال شعبنا، وجدناهم جميعاً قد خلعوا أسلحتهم لأن ما من واحد هناك أولانا الاهتمام.

وعدنا في اليوم التالي إلى صيدا، حيث كان الملك مقيماً، ووجدناه شخصياً مشغولاً، بالإشراف على دفن أجساد جميع المسيحيين الذين قتلهم المسلمون عندما هدموا المدينة، وقد حمل بذاته بعض الجثث المهترئة وذات الرائحة النتنة إلى الحفر الكبيرة لدفنها، وذلك من دون أن يغلق أنفه كما فعل الآخرون، وبعث وجلب العمال من جميع المنطقة المجاورة، وشرع بإعادة تحصين المدينة بأسوار عالية وبأبراج، وعندما عدنا إلى المعسكر وجدناه قد تولى شخصياً قياس المواقع التي كنا سننصب خيامنا فوقها، وقد منحني مكاناً إلى جوار الكونت دي إيو، لأنه عرف بأن هذا الفارس الشاب كان يؤثر صحبتي كثيراً.

ولا بد لي من أن أحدثكم هنا عن بعض المداعبات المدهشة التي لعبها كونت دي إيو معنا، فقد اصطنعت لنفسي نوعاً من أنواع البيوت اعتدت أنا وفرساني على استخدامه لتناول الطعام، وكنا نجلس للحصول على الضوء من الباب، الذي حدث أنه واجه محلات كونت دي إيو، وصنع كونت دي إيو، الذي كان رجلاً ذكياً جداً، آلة رمي بدائية صغيرة، كان بإمكانه أن يرمي بها بحجارة إلى داخل خيمتي ، وكان يتولى مراقبتنا عندما كنا نتناول طعامنا، فيجهز آلته لتطول برماياتها مائدتنا، ثم يأخذ بالرمي فيكسر جرارنا وكؤوسنا، وفي إحدى

المناسبات عندما جلبت ميرة من الفراخ والديكة، وصدف أن أعطى إنسان أو آخر دباً إلى الكونت، فما كان منه إلاّ أن أفلت الحيوان بين طيوري، وقد قتل دزينة منهم قبل أن يتمكن أحد من الوصول إلى هناك، وقد ضربت المرأة التي كانت ترعى طيوري الدب بمغزلها.

وعندما كان الملك يقوم بتحصين صيدا، وصل بعض التجار إلى المعسكر، وأخبرونا كيف أن ملك التتار قد استولى على بغداد، وأسر القائد الديني للمسلمين، الذي كان يحكم تلك المدينة، وكان يعرف باسم خليفة بغداد،وقد أخبرونا كيف حصل الاستيلاء على المدينة، والقبض على صاحبها، الأمر الذي حدث كمايلي: أرسل ملك التتار، بعدما ألقى الحصار على بغداد، إلى الخليفة يقول بأنه يرحب كثيراً بترتيب زواج بين أولادهما، وأشار مستشارو الخليفة عليه بقبول هذا الاقتراح، وبناء عليه طلب ملك التتار من الخليفة أن يرسل ما يبلغ تعداده أربعين من مستشاريه ليقسموا على الزواج، وفعل الخليفة هذا ونفذه، وبعد هذا بعث الملك يطلب منه إرسال أربعين رجلاً آخرين من بين أغنى وأعظم أعيان سكان مدينته، وفعل الخليفة هذا أيضاً، ثم بعث الملك للمرة الثالثة يطلب أربعين رجلاً آخر من أفضل رجال بلاطه،ومجدداً استجاب الخليفة ونفذ المطلوب، والآن وقد بات أعيان رجال المدينة بين يديه وتحت سلطانه، شعر ملك التتار أن أهالي بغداد المتواضعين لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بدون قادة، ولهذا أمر بقطع رؤوس هؤلاء المائة والعشرين رجلاً، ثم أمر بالهجوم على بغداد، واستولى على المدينة، وقبض على خليفتها.

ولكي يغطي على خيانته ويلقي باللوم من أجل الاستيلاء على المدينة على الخليفة، أمر بحمل الخليفة وبوضعه داخل قفص حديدي، ثم أبقاه مزوداً بقليل من الطعام يكفي للحيلولة دون موت الرجل جوعاً، ثم سأل الملك الخليفة عما إذا كان جائعاً، وقال الخليفة أنه بالفعل كذلك،

وهو أمر لم يكن مدهشاً أبداً، وبناء عليه أمر الملك بطشت كبير من الذهب، مليء بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة، ووضعه أمام الخليفة وسأله:«هل تعرف هذه الجواهر»، فأجابه الخليفة:«نعم كانت هذه ملكاً لي»، وسأله ملك التتار عما إذا كان يثمنهم كثيراً، وأجابه الخليفة أنهم ذوي قيمة عظيمة لديه، فقال له الملك:« بما أنك تقدرهم تقديراً عالياً، خذ من هذه الجواهر التي تراها هنا ما تريده وكل منها»، وردّ عليه الخليفة بأنه لايمكنه ذلك،« بما أنهم ليسوا طعاماً من الممكن أكله»، وبناء عليه قال قال له الملك:«يمكنك أن ترى الآن ما الذي كانت عليه وسائل دفاعك، لأنك لو قمت بتوزيع ثرواتك — التي لا فائدة منها الآن لك — بين رجالك المسلحين، لكان بإمكانك بالانفاق لها هكذا، القيام بالدفاع عن نفسك بنجاح ضدنا، وها هي الآن ثروتك تتخلى عنك في ساعة حاجتك الماسة».

وعندما كان الملك يقوم بتحصين صيدا، ذهبت في صباح أحد الأيام عند إشراق الشمس لأراه، فوجدته في القداس، وطلب مني انتظاره، لأنه كان يرغب بالركوب للتنزه، وهذا ما فعلته، وبينما كنا نتجول في الحقول في الخارج، مررنا أمام كنيسة صغيرة، ورأينا ونحن نعبر من أمامها، كاهناً في داخلها، يرتل قداساً، وأخبرني الملك بأن هذه الكنيسة قدبنيت تعظيماً لذكرى معجزة قام بها مولانا عندما طرد الشيطان من جسد ابنة الأرملة، وقال لي إذا كنت أرغب، فسيقف لسماع القداس الذي بدأه الكاهن للتو، فأخبرته بأن هذا سيكون شيئاً جيداً القيام به.

ولما حل وقت تسليمنا لوحة«السلام»(لتقبيلها)، لاحظت أن القس الذي كان يتولى المساعدة أثناء القداس، كان طويلاً، وداكن البشرة، وكثيف الشعر، فخفت أن يكون واحداً من الحشيشية الأشرار، وأنه عندما سيقدم لوحة السلام إلى الملك، قد يتولى قتله، ولهذا نهضت وأخذت لوحة السلام وجلبتها إلى الملك بنفسي.

وعندما انتهى القداس، وكنا ثانية على ظهور خيولنا مررنا بالنائب البابوي في الحقول، واتجه الملك نحوه، وبعدما دعاني إلى القدوم قال له:«عليّ أن أشكو لك من نائبي، الذي جلب إليّ لوح السلام، ولم يدع القس المسكين يجلبه»، فأخبرت النائب البابوي بالسبب الذي حداني إلى فعل ذلك، فقال بأنني تصرفت بشكل صحيح، فقال الملك:«لا بالحقيقة إنه لم يفعل ذلك»، وهنا بدأ نقاش كبير بينهما، أما بالنسبة لي شخصياً فقدالتزمت بالصمت، وأنا الآن حين أخبركم بهذه الحكاية، فقط لأوضح عظيم إنسانية الملك وتواضعه.

أما بالنسبة للمعجزة التي قام بها مولانا لابنة الأرملة، فقد وردت روايتها في الانجيل، الذي ذكر أنه عندما قام بهذه المعجزة كانت المنطقة تعرف باسم منطقة Tyre ، وكانت المدينة التي أشرت إليهافي هذا الكتاب باسم صيدا تعرف باسم صيدون.

وعندما كان الملك مشغولاً في تحصين صيدا، جاء إليه رسل من عند نبيل عظيم كان موجوداً في عمق بلاد الإغريق، وكان يدعو نفسه«عظيم آل كومنوس»، وصاحب طرابزون، وجلب هؤلاء الرجال هدية إلى الملك مؤلفة من مختلف الجواهر، وكان بين أشياء كثيرة قسي(زنبورك) مصنوعة من أعواد خاصة، وكانت الفتحات من أجل رؤوس السهام مثبتة في القسي، حتى إذا ما أطلقت رؤوس السهام، كان بإمكانك أن ترى أنها كانت حادة جداً، وجيدة الصنع.

وطلب هؤلاء الرسل من الملك إرسال فتاة غير متزوجة من بين سيدات بلاطه لتكون زوجة لسيدهم، فأجابهم بأنه لم يجلب معه أياً من مثل هؤلاء السيدات من بلاده، وقام على كل حال بنصيحة الرسل بالذهاب إلى القسطنطينية، للطلب من ابن عمه الامبراطور إعطاءهم زوجة لسيدهم ، تكون سيدة قريبة له شخصياً وقريبة للامبراطور، وأعطاهم الملك هذه النصيحة لعل امبراطور القسطنطينية يدخل

بتحالف مع هذا النبيل العظيم والثري ضد فاتاسز، الذي كان آنذاك امبراطور الإغريق.

ووصلت الملكة، التي نقهت مؤخراً بعدما ولدت السيدة بلانشي في يافا، إلى صيدا بوساطة البحر، وما أن سمعت أنها باتت هناك، حتى نهضت من مكاني الذي كنت جالساً فيه إلى جانب الملك، وذهبت لمقابلتها، ومرافقتها حتى تعود إلى القلعة، وعندما عدت إلى الملك، الذي وجدته في بيعته، سألني عما إذا كانت زوجته والأولاد بخير، وعندما أخبرته بالإيجاب علق قائلاً:«عندما نهضت وتركتني عرفت يقيناً أنك ذاهب لمقابلة الملكة، ولهذا طلبت منهم تأجيل القداس حتى عودتك»، وأنا مخبركم بهذا، بسبب أنني لم أسمع الملك مرة واحدة خلال السنوات الخمس التي أمضيتها معه يتحدث إليّ عن زوجته وعن الأولاد، ولم يفعل ذلك مع أي إنسان آخر، في حدود ما أعرفه، والذي أراه، يبدو أنه ليس من اللائق، وغير الصحيح بالنسبة للرجل أن يكون هكذا بعيداً عن أسرته الخاصة.

ودعوت في يوم عيد جميع القديسين جميع أعيان الرجال في المعسكر إلى محلاتي، التي كانت مجاورة للبحر، وعندما كنا نتناول طعام الغداء، وصل في سفينة فارس فقير ومعه زوجته، وأولادهما الأربعة، فقدمت لهم وجبة طعام في محلاتي، وبعدما انتهينا من تناول الطعام، جمعت كل ضيوفي المهمين وقلت لهم:«دعونا نقوم بعمل إحسان، فنفرج عن هذا الرجل الفقير وعن أولاده، بأن يقوم كل واحد منهم فيتعهد واحداً، واختصموا فيما بينهم حول من سيأخذ من، ولدى رؤية الفارس الفقير هذا شرع مع زوجته بالبكاء فرحاً.

وحدث وقتذاك أن الكونت دي إيو، كان عائداً من تناول الطعام مع الملك فتوقف لينظر إلى الرجال الذين كانوا معي، وأخذ الطفل الذي اخترته، وكان في حوالي الثانية عشرة من عمره، وخدم هذا الفتى

الكونت بشكل جيد وبإخلاص، لذلك قام سيده بعد العودة إلى فرنسا بترتيب زواج له، وعمله فارساً، وكان في كل مرة صدف وكنت فيها في المكان نفسه مثل الكونت، كان هذا الفارس نادراً ما يفارقني واعتاد مراراً أن يقول لي:«أثابك الرب يا مولاي، لأنني مدان بكل هذا الشرف الذي أتمتع به، لك»، أما بالنسبة إلى أخوته الثلاثة فلا أدري ماذا حدث لهم.

وطلبت من الملك أن يأذن لي بالذهاب للحج إلى كنيسة سيدتنا في طرطوس، وكان مقامها مكان مقصود جداً من قبل الحجاج، لأنه هناك جرى بناء أول مذبح على الأرض تعظيماً لأم مولانا، وصنعت مولاتنا هناك كثيراً من المعجزات العظيمة، منها أسوق خبر المعجزة التالية مثلاً، فقد كان هناك رجل مخبول تماماً، مسكون من قبل الشيطان، وبينما كان رفاقه الذين جلبوه إلى هذا المقام يصلون إلى أم مولانا من أجل إعادته إلى العافية، صرخ العدو من داخل جسده قائلاً لهم:«سيدتنا ليست هنا، إنها في مصر تقدم العون إلى ملك فرنسا وإلى المسيحيين، الذين ينزلون هذا اليوم بالذات إلى اليابسة، ويقاتلون على الأقدام ضد قوات الخيالة العائدة للمسلمين»، وكتب تاريخ هذه الواقعة على وثيقة جلبت إلى النائب البابوي، الذي حدثني عنها شخصياً، ويمكنني أن أؤكد لكم بأن سيدتنا قد ساعدتنا بالفعل في ذلك اليوم، وكانت ستساعد أكثر لولا أننا أغضبناها وابنها، كما تقدم لي وأخبرتكم.

وسمح لي الملك بالذهاب إلى طرطوس، وأخبرني — بناء على نصيحة مستشاريه — أن أشتري مائة قطعة قماش من وبر الجمل، من مختلف الألوان، لصالحه، حتى يعطيها إلى الرهبان الفرنسيسكان عندما يعود إلى فرنسا، وجعلني هذا أشعر بكثير من الراحة،لأنه بدا لي في ذلك إيماءة بأنه لن يبقى طويلاً في بلاد ما وراء البحر.

وعندما قدمنا إلى طرابلس سألني فرساني عما أنا عازم على صنعه

بكل هـذه القطع القماشيـــة من وبـر الجمل، ورجـــوني أن أخبرهم، فقلت:«إنني ربما قـد استوليت عليهـم لبيعهم للحصـول على الفـائـدة الشخصية»، وقام أمير طرابلس — منحـه الرب النعمة — بالاحتفاء بنا بشكل نبيل، ومنحنـا كل التشريف المستطاع، وكـــان سيعطيني ويعطي فـرساني هدايا ثمينة جـداً، لو أبدينا الاستعداد لقبـولهم، غير أننا رفضنا أخـذ أي شيء باستثناء بعض الآثار المقـدسـة، التي أخـذت بعضهـا إلى الملك، مع أقمشة وبر الجمل التي ابتعتها له.

وأرسلت أيضـاً أربع قطع مـن قماش وبر الجمل إلى صـاحبـة الجلالة الملكة، وكان الفارس الذي توجه لتقديمهم، قد حملهم بعد لفهم بقطعة من الكتـان الأبيض، وعندمـا رأتهم الملكة يدخلون إلى غـرفتهـا ركعت أمـام الفـارس، وركـع هو بدوره أمـامهـا، فقـالت الملكة له:«انهض يا فـارسي الجيد، ليـس من اللائق لك الركـوع عندما تكون حـامـلاً لآثار مقدسـة»، فرد الفـارس قائـلاً:«سيدتي، هؤلاء ليسـوا آثاراً مقدسـة، بل قطعـاً من قماش وبر الجمل أرسلهـم لك مـولاي»، ولدى سماعهـا بهذا بدأت الملكة والسيـدات الـلائي كن عندها بالضحـك، وقـالت الملكة لفارسي:«أخبر سيدك بأنني أتمنى له أسوأ حظ، بما أنه جعلني أركع أمام أقمشته من وبر الجمل».

وفي أثناء إقـامـة الملك في صيـدا، جلب له أحـد الناس حجـراً كـان يتفتت إلى شظايا، وكـان أروع حجر في العـالم،لأنك عندما كنت تنتـزع إحدى شظاياه، تجد شكل سمكة بحرية بين قطعتين من الحجر، وكانت هذه السمكة من الحجر كليـاً، ولم يكن فيها شيئاً ناقصاً في شكلهـا، وقد أعطاني الملك واحـدة من هذه الأحجـار، فـوجـدت في داخلهـا سمكة شبوط، وكان لونها بني، وكانت بكل تفاصيلها تماماً مثل سمكة شبوط.

وعندمـا كنا في صيـدا تلقى الملك أخبـاراً عن مـوت أمـه(مـاتت في تشرين ثاني ١٢٥٢)، فتمـدد حـزينـاً لمدة يومين كـاملين دون أن يتجـرأ

أحـد على التكلم إليه، وبعث بعـد هذا واحـداً من خدمـه من حاشيتـه لاستدعائي، وعندما مثلت بحضرته، ووجدته جـالساً لوحده في غرفته، مـدّ إلى ذراعيـه عندما رآني وقـال:«أواه، أيها النائب لقـد فقـدت أمي»، فقلت له:«ياسيـدي لم تدهشنـي هذه الأخبـار، ذلك أنها مـاتت، لكنني مندهـش منك، في أن تبــدي، وأنت الرجل العـــاقل مثـل هذا الحزن والأسى بهذه المناسبـة،لأنه كما تعلم، قال أحـد الفـلاسفة العقـلاء: مهما كان الأسى الذي يشعر به الانسـان في قلبه، ينبغي أن لا يظهر أي شيء منه على وجهه، لأنه بإظهاره لأساه يعطي لأعدائه سبباً للبهجة، ويجلب الحزن لأصدقائه»، وقـام الملك بخدمات دينية كثيرة للملكة الأم في بلاد ما وراء البحـر، كما وبعث إلى فرنسا بصندوق مليء بالرسـائل وجهه إلى جميع الكنائس، يسألهم فيه الصلاة من أجل روحها.

وجاءت السيدة مريم دي فيرتُس Vertus ، وكانت سيدة فاضلة وتقية، لتخبرني بأن الملكة غـارقـة بالأحــزان، وسألتني الذهاب إليهـا ومواساتها، وعندما وصلت إلى هناك، وجدتها تبكي، ولهذا قلت لها: إن الرجل الذي قال ما من إنسان يمكنه قط أن يخبر ما الذي يمكن للمرأة أن تفعله، قال الصدق، ثم قلت:«لأن المرأة التي كرهتك كراهية عظيمة قد ماتت، وها أنت تبـدين لأجلها مثل هذا الأسف»، فأخبرتني بأنها لم تكن تبكي من أجل الملكة بلانشي، بل بسبب الحزن الذي أظهـره الملك بنحيبه على الميتة، وبسبب ابنتها — ملكة نافار فيما بعد — والتي تُركت الآن لتعيش في ظل رعاية الرجال فقط.

وقد عاملت الملكة بلانشي، الملكة مرغـريت بقسوة شديدة، وبقدر ما أوتيت من قدرة، حيث أنها لم تسمح لابنها أن يكون بصحبة زوجته إلاّ عندما كان يذهب للنوم معهـا أثناء الليل، وكان القصر الذي آثر الملك الشاب أن يعيش به هو قصر بونتوي Pontoise ، لأن هناك كانت غـرفة الملك في طـابق علوي، وغرفـة الملكة تحتـه مبـاشرة، وقد نظمـوا

الأمور بحيث تمكنوا من الالتقاء والحديث معاً فوق سلم دائري يقود من غرفة إلى الأخرى، وكذلك رتبوا أنه عندما كان الحجاب يرون الملكة بلانشي تقترب من غرفة ابنها، كانوا يقرعون على الباب بعصيهم، فكان الملك يبادر مسرعاً إلى غرفته وبذلك تجده الملكة هناك، وفعل الشيء نفسه حجّاب غرفة نوم الملكة مرغريت، عندما كانت الملكة بلانشي تكون ذاهبة إلى غرفة كنتها، حتى تجد الملكة الشابة جالسة لوحدها فيها.

وكان الملك مرة إلى جانب زوجته، عندما كانت عرضة لخطر الموت بسبب جروح عانت منها أثناء ولادتها لولد، ودخلت الملكة بلانشي إلى غرفتها، وأخذت الملك من يده وسحبته جانباً وقالت له: «ابتعد عن ها هنا، فمالك من عمل جيد تؤديه هنا»، وعندما رأت الملكة مرغريت الملكة الأم تأخذ الملك وتبعده صرخت قائلة: «واأسفاه، لن تدعيني أرى زوجي سواء أكنت في الحياة أم في المات»! ثم أغمي عليها، واعتقد الجميع بأنها قد ماتت ورجع الملك الذي تصور أنها كانت تموت، وبصعوبة بالغة أعادوها إلى وعيها.

الفصل السابع عشر
عودة إلى فرنسا
شباط — كانون أول ١٢٥٤

ولدى اقتراب الانتهاء من تحصين صيدا، أمر الملك بالقيام بعدة مسيرات في أرجاء المعسكر، وحث النائب البابوي الناس لدى انتهاء كل مسيرة على الصلاة للرب لكي تسير شؤون الملك حسب إرادته، وأن يتمكن من القيام بكل ما هو عظيم الرضاء في نظره، سواء أرجع إلى فرنسا أم بقي في بلاد ما وراء البحر.

وبعد انتهاء جميع المسيرات، استدعاني الملك من حيث كنت جالساً مع نبلاء بلاد ما وراء البحر، واقتادني إلى إحدى الساحات، حيث جعلني أقف وظهري متجه نحوهم، ثم قال النائب البابوي لي:«أيها النائب، الملك مسرور جداً من خدماتك، وسوف يبتهج في رؤية هذه الخدمات وهي تجلب المنفعة والشرف، ولكي يجلب الطمأنينة لك طلب مني أن أخبرك، بأنه قرر العودة إلى فرنسا في الفصح المقبل»، فأجبته:«يا رب أعنه على تنفيذ رغباته».

ونهض النائب البابوي، وأخبرني أن أرافقه إلى محلاته، الأمر الذي فعلته، واقتادني إلى غرفة خاصة، حيث لم يكن من أحد معنا، وأغلق الباب، ثم وضع يدي في يديه وشرع يبكي بحرقة، وما أن تمكن من الكلام حتى قال لي :«أنا مسرور إلى أبعد الحدود، أيها النائب، وأقدم شكري للرب، أن الملك، وأنت، وبقية الحجاج، قد نجوا من المخاطر العظيمة التي تعرضتم لها هنا، غير أنني حزين في قرارة نفسي إذ توجب عليّ أن أتخلى عن صحبة مثل هؤلاء الرجال المستقيمين، مثلك أنت، والعودة إلى بلاط روما، إلى بين الناس الخونة هناك، وعلى كل حال

سوف أخبرك بما أقترح القيام به، إنني عازم على أن أجعل من الممكن لي البقاء لمدة سنة بعد مغادرتكم، وأن أنفق كل ما لدي في تحصين أحواز عكا، وبهذه الطريقة سوف أري الناس في روما، أن من المؤكد أنني لم أجلب أي مال معي، وأن يدي فارغتين، لذلك سوف لن يسعون راكضين خلفي».

وما أن أخبرت النائب البابوي عن ذنبين اقترفهما واحد من الكهنة المرتبطين بي، حتى قال:«ما من أحد يعرف، مثلما أعرف أنا الذنوب المنحطة والدنيئة التي اقترفت في عكا، ولهذا سوف ينزل الرب بهم انتقاماً، تتطهر به عكا بدماء سكانها، ولسوف يأتي قوم آخرون للسكنى في مكانهم»، وقد تنبأ هذا الرجل بما وقع جزئياً، لأن من المؤكد أن المدينة غسلت تماماً بدماء سكانها، غير أن الذين سوف يعيشون هناك، لم يقدموا بعد، جعل الرب الذين سوف يرسلهم إلى هناك، رجالاً صالحين، تكون أعمالهم وفق مشيئته.

وبعد بعض الوقت بعث الملك خلفي، وأمرني بتسليح نفسي، ولدى سؤاله لماذا؟ أخبرني بأن ذلك لمرافقة الملكة وأولادها إلى صور، على بعد سبعة فراسخ، ولم أقل كلمة واحدة جواباً له، مع أنه كان باعثاً بي في مهمة خطرة جداً، لأنه لم يكن في ذلك الوقت لاصلح ولا هدنة بيننا وبين المسلمين في مصر أو في دمشق، وشكراً للرب، لقد وصلنا إلى صور خلال الليل سالمين تماماً، مع أننا ترجلنا مرتين، وأشعلنا النار من أجل طبخ طعامنا، ولإعطاء الأطفال شيئاً يأكلوه، أو لنمكنهم من الرضاعة.

وقبل أن يغادر الملك صيدا — التي حصنها بأسوار عالية، وبأبراج، وبخنادق واسعة نظفها من الطين من الداخل ومن الخارج — جاء البطريرك مع بارونات البلاد إليه، وخاطبوه كمايلي:«لقد قمت يا صاحب الجلالة بتحصين مدينة صيدا، ومدينة قيسارية، وبلدة يافا،

ولهذا كله منافع واسعة للأرض المقدسة، كما قمت أيضاً بتقوية الدفاعات عن عكا بالأسوار وبالأبراج التي بنيتها من حولها، ولقد تداولنا حول الأمور بين أنفسنا، ولم نر وجه فائدة لمملكة القدس ببقائك هنا لمدة أطول أخرى، ولهذا ندعوك بإلحاح بأن تذهب إلى عكا أثناء الصوم الكبير المقبل، وإعداد نفسك للسفر إلى الوطن، حتى يكون باستطاعتك العودة إلى فرنسا بعد الفصح»، وأخذاً بنصيحة البطريرك والبارونات غادر الملك صيدا، وذهب إلى صور، حيث كانت الملكة مقيمة، ومضينا من هناك إلى عكا، إلى حيث وصلنا مع بداية الصوم الكبير.

واهتم الملك في أثناء الصوم الكبير في إعداد السفن للعودة إلى فرنسا، وكان عدد الموجود من السفن ثلاث عشرة فقط، بما في ذلك الغلايين والسفن، وباتت هذه المراكب جاهزة في الوقت المحدد ليركبها الملك والملكة في عشية عيد القديس مرقص بعد الفصح، وكانت الريح لطيفة للابحار، وأخبرني الملك في يوم عيد القديس مرقص، بأن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلاده، ورددت عليه أن بإمكانه أن يقول في المستقبل بأنه قد ولد مجدداً في ذلك اليوم، لأنه من المؤكد أنه دخل في حياة جديدة عندما نجا من تلك البلاد المرعبة.

وأصبحنا في يوم السبت على مرأى من قبرص، والجبل القائم في تلك الجزيرة واسمه جبل الصليب، وتصاعد في ذلك اليوم ضباب من الأرض وانتشر في البحر، فلهذا خيّل للملاحينا، الذين رأوا قمة الجبل فقط فوق الضباب، أننا كنا أبعد عن قبرص مما كنا عليه بالفعل، ولهذا تقدموا مبحرين بجرأة حتى حدث واصطدمت سفينتنا بشاطىء الرمل تحت الماء، ولولا أننا حظظنا واصطدمنا بذلك الشاطىء الصغير من الرمل، لاصطدمنا بكتلة كبيرة من الصخور المغرقة، ولتحطمت سفينتنا إلى قطع، ولسقطنا جميعاً ولغرقنا.

وعندما اصطدمت سفينتنا، ارتفعت صرخةعالية على ظهر السفينة، وكان كل واحد يصرخ وهو مصاب باليأس، وعصر الملاحون وبقية الناس أيديهم خوفاً من الغرق، وما أن سمعت الصراخ حتى نهضت من فراشي حيث كنت مستلقياً. وذهبت إلى ظهر السفينة للالتحاق بالبحارة في برج السفينة، وعندما وصلت إلى هناك قال الراهب ريموند — وكان داوياً وآمراً للملاحين — لواحدمن رجاله:«ارم الرصاص»، وما أن فعل ذلك حتى صرخ:«الرحمة لنا، نحن فوق الأرض» ولدى سماع الراهب ريموند بهذا، شد ملابسه وشمرها حتى حزامه، وشرع بنتف لحيته، وأخذ بالوقت نفسه يصرخ:«لقد ضعنا، لقد ضعنا».

وقام في تلك اللحظة واحد من فرساني، واسمه جين دي مونسون Monson — وكان والد وليم راعي دير القديس ميخائيل — بتقديم خدمة عظيمة لي، بأن جلب لي رداء مبطناً من أرديتي، وألقاه على ظهري دون التفوه بكلمة، لأنني كنت مرتدياً قميصي فقط، فقلت بصوت مرتفع له:«مافائدة هذا الرداء الذي جلبته لي، ونحن نغرق»؟ فأجابني:«نفسي لك الفداء، إنني أفضل أن أرانا جميعاً نغرق على أن أراك تصاب بمرض ما من البحر وأن تموت بسببه».

ونادى بحارتنا:« أنتم، أيها الذين في الغلايين، تعالواوخذوا الملك»، لكن من بين أربعة غلايين كانت للملك هناك، لم يقترب أي منها منا، وبفعلهم هذا تصرفوا بحكمة كبيرة، لأنه كان على ظهر سفينتنا ثمانمائة إنسان، وكان هؤلاء سيقفزون إلى الغلايين لإنقاذ حياتهم، وبذلك كانوا سيسببون غرقها.

وقام الرجل الذي لديه الرصاص برميه ثانية، ثم جاء إلى الراهب ريموند ليخبره بأن السفينة لم تعد جانحة فوق الأرض، وذهب الراهب ريموند ليخبر الملك، فوجده متمدداً فوق السطح أمام تمثال جسد مولانا الموجود فوق المذبح، وقد مدّ ذراعيه على شكل صليب، وكان

عـاري القدمين في قميصـه فقط، وشعـره مشعث مثله مثل إنسان كـان يتوقع الغرق بلا شك.

وما أن جاء نور الصباح حتى رأينا أمامنا الصخرة التي كنا سنصطدم بها، لولا أن سفينتنا جنحت فـوق شـاطىء الرمل، وجمع الملك في الصبـاح جميع مقـدمي بحـارة السفن، فبعثـوا أربعـة غـواصين إلى قـاع البحـر، وبعـد عـودتهم من الغـوص، استمع إليهم الملك مـع مقـدمي البحارة كل على انفـراد، واحداً بعد الآخر، وبذلك لم يعـرف غواص ما قاله الغواص الآخر، وعلى كل حـال عرف مما قاله الأربعة، أنه في أثناء الجنوح فوق الرمل والاحتكاك به زال أكثر من عشرين قـدماً من القعر الذي بنيت عليه سفينتنا.

وجمع الملك مقـدمي الملاحين، وسألهم مـا الذي يشيرون به في ضـوء الدمـار الذي لحق بالسفينة، وبعـدمـا تبـادلوا الرأي فيها بينهم، أخبروا الملك بأنهم ينصحـونه بمغادرة السفينة وأن يصعـد ظهر سفينة أخـرى، وقـالـوا:«نحن نخبرك أن تفعل هذا، لأننا نعتقـد بشكل يقيني أن جميع خشب سفينتك قـد تفكك، ونخشى أنها عندما تصبح في أعـالي البحار، لن تكون قادرة على الصمـود في وجه ضربات الأمـواج، وسوف تتفتت إلى قطع، ولأنكم تعلمـون، أننا عندمـا كنا قادمين مـن فرنسـا، أصيبت إحدى سفنكـم بمثل الإصابة نفسهـا، ولدى مواجهتهـا للمياه العـاتية، تحطمت، وهلك كل واحد كان على ظهرها باستثناء امرأة واحدة وابنها، فقـد عـامت بسلام على قطعـة من السفينة،(أنا يمكنني شخصياً تأكيـد ذلك، وأنهم كـانوا يقـولون الصـدق، لأنني رأيت المرأة وولدها في بيت الكونت دي جويني Joigny ، حيث أعطاها مأوى، محبة بالرب).

وتشـاور الملك مـع اللورد بيير الحاجب، وجـايـل لى برن قسطلان فرنسا، وجيرفيه دي اسكرين Escraines رئيس طباخي البيت الملكي، ورئيس شمامسـة نيقـوسيـا، المسؤول عن ختم الملك، وهو الذي صـار

كاردينالاً فيما بعد، وأخيراً أنا شخصياً، وسألنا عن الذين نشير بصنعه في هذه الحالة، وأجبناه على الإنسان في جميع القضايا الدنيوية الاقتداء بالذين لديهم أفضل الخبرة والمعلومات، وقلنا:«وبناء عليه، نخبرك من جهتنا أن تفعل ما يخبرك به هؤلاء البحارة».

والتفت الملك إلى مقدمي البحارة وقال:«أستحلفكم بشرفكم، فيما إذا كانت السفينة سفينتكم، ومحملة ببضائعكم، هل كنتم ستهجرونها»؟، وأجابوه معاً أنهم ما كانوا سيقومون بذلك، وأنهم كانوا يؤثرون تعريض أنفسهم لخطر الغرق على أن يقوموا بدفن سفينةكلفتها أربعة آلاف ليرة ذهبية أو أكثر،وهنا قال الملك:«لماذا، إذن تشيرون عليّ بمغادرة السفينة»؟ فأجابوه:«لأن المقارنة غير صحيحة، لأنه لا قيمتك شخصياً، ولا قيمة زوجتك، ولا قيمة أولادك، ولا قيمة الذين معك على ظهر السفينة يمكن تقويمها بالذهب و الفضة ولهذا السبب نشير عليك أن لا تخاطر بحياتك أو حياتهم».

فقال الملك:«سادتي الطيبين، لقد سمعت ما ترونه، وما يراه أتباعي، وسوف أخبركم الآن بالذي أراه، وهو مايلي: إذا ما غادرت أنا هذه السفينة، فهناك خمسمائة إنسان أوأكثر على ظهرها، سيقومون بالنزول في قبرص خشية الخطر على أنفسهم — لأن ما من واحد منهم إلاّ ويحب حياته مثلما أحب أنا حياتي — وربما لن يعود هؤلاء إلى بلدانهم، ولهذا سأضع نفسي وزوجتي وأولادي في أيدي الرب، ولن أسبب مثل هذا الأذى العظيم لمثل هذا العدد من الناس الذين هم هنا».

وكان الضرر الذي سيسببه الملك إلى الناس من الممكن رؤيته مما حدث لأولفر دي تيرم، الذي كان في سفينة جلالته، فقد كان واحداً من أجرأ الناس الذين رأيتهم قط، وقد ميز نفسه فوق بقية أتباعه في الأرض المقدسة، ومع ذلك لم يتجرأ على البقاء معنا خشية الغرق، وهكذا بقي في قبرص، ووجد هنا عوائق كثيرة في طريقه، حتى أنه لم

يتمكن من الإلتحاق بالملك إلاّ بعد مضي سنة ونصف السنة مع أنه كان رجلاً ثرياً وله مكانته، وكان من الممكن له أن يدفع بسهولة نفقات عبوره، ففكروا كيف كان يمكن لأناس من مرتبة أدنى، من دون ما يكفي من المال، كان بإمكانهم أن يدفعوه لنفقات رحلتهم إلى الوطن، وكيف كانوا سيتدبرون الأمر، وقد رأينا إنساناً مثل هذا في مكانته وقد أعيق إلى هذا الحد العظيم.

وما أن نجونا من هذا الخطر، الذي نجانا الرب منه، حتى وقعنا بخطر آخر، ذلك أن الريح التي ساقتنا إلى ساحل قبرص، حيث كان من الممكن أن نغرق بكل سهولة، بدأت الآن تهب بشدة كبيرة وبعنف أرغمتنا به على العودة ثانية إلى الجزيرة، وألقى البحارة بمراسيهم لمواجهة الريح، لكنهم لم يتمكنوا من إيقاف السفينة حتى أنهم ألقوا بخمسة مراسي، ولقد بات من الضروري إزالة جوانب حجرة الملك التي كانت واقعة فوق السطح العلوي للسفينة، فما من واحد تجرأ على البقاء هناك خشية أن تجرفه الريح إلى البحر، وحدث في ذلك الحين أن كنت أنا وجايل لى برن متمددين في غرفة الملك، ففتحت الملكة الباب، معتقدة أنها سوف تجد زوجها في الداخل، فسألتها عن الذي تبحث عنه، فأخبرتني أنها جاءت للتحدث إلى الملك، ولتطلب منه أن يعمل نذراً إلى الرب، أو إلى قديسيه، في أن يذهب في حج ما حتى يمكن للرب أن ينجينا من الخطرالذي كنا فيه، لأن البحارة قالوا بأننا جميعاً عرضة لخطر الغرق، فقلت لها:«سيدتي تعهدي بالقيام برحلة إلى مزار القديس نيقولا في فرنجفايل Varangiville ، وأنا أضمن لك عنه بأن الرب سوف يعيدك إلى فرنسا مع الملك وأولادك»، فأجابتني قائلة:«سوف أفعل ذلك عن طيبة خاطر أيها النائب لكن الملك له طباع خاصة غريبة، حيث أنه إذا ما عرف بأنني عملت هذا التعهد من دون معرفته، لن يدعني أذهب».

فقلت:« في جميع الأحوال، هناك شيء واحد يمكنك القيام به: يمكنك الوعد، إذا ما أعادك الرب سالمة إلى فرنسا، تقديم سفينة من الفضة، قيمتها خمسة ماركات، عن الملك وعنك، وعن أولادك الثلاثة، ووقتها أنا أضمن أن الرب سوف يعيدك إلى فرنسا، لأنني شخصياً نذرت إلى القديس نيقولا أنه إذا ما أنقذنا من الخطر الذي كنا فيه في الليلة الماضية، سوف أذهب من جوانفيل، مشياً على الأقدام غير منتعل، لزيارة مزاره في فرنجفايل»، وأجابت الملكة أنه بالنسبة للسفينة الفضية التي قيمتها خمسة ماركات، فإنها تعد بها إلى القديس نيقولا، وأن أتولى الضمانة والشهادة لديه، وأخبرتها بأنني سأفعل ذلك بكل سرور، ثم إنها ذهبت، لكنها لم تبق بعيدة لمدة طويلة، فقد عادت فوراً وقالت لي:«لقد أنقذنا القديس نيقولا من خطرنا الحالي، لأن الريح قد هدأت».

وعندما عادت الملكة إلى فرنسا — منحها الرب الرحمة — أمرت بصنع سفينة فضية لها في باريس، وكان فيها تماثيل تمثلها، وتمثل الملك، وتمثل أولادها الثلاثة، وكانوا جميعاً من الفضة، واستخدم المعدن نفسه لتمثيل البحارة، والسارية، والعلم، والدفة، أما الأشرعة فقد خيطوا بخيوط فضية، وأخبرتني الملكة أن صنعها كلف مائة ليرة ذهبية، وعندما باتت جاهزة، أرسلت السفينة لي إلى جوانفيل، حتى أتدبر نقلها إلى بيعة القديس نيقولا، وقد فعلت ذلك، وقد رأيتها مازالت في بيعته عندما كنا نصطحب أخت الملك الحالي إلى هاغونو Ha-guenau للزواج من ابن امبراطور ألمانيا.

ودعونا الآن نعود إلى موضوعنا الأساسي، ولنتابع حكايتنا، فبعدما نجونا من هذين الخطرين، جلس الملك على حافة السفينة العليا، وطلب مني الجلوس عند قدميه وقال لي:«تعلم أيها النائب أن الرب قد أظهر قدرته بوضوح كامل لنا، بواحد من رياحه الصغيرة — وليس بواحد من رياحه الأربعة الرئيسية — وكاد أن يغرق ملك فرنسا، وزوجته

وأولاده، وكل من كــان برفقتــه، ولهذا يتــوجب علينا إظهــار امتناننا وتقديم شكرنا لإنقاذنا من مثل هذا الخطر».

ثم أضــاف:«ولقـد أخبرنا القـديسـون أنه عندمـا تلم البـلايا بالناس ويبـاتون عـرضة لمعـاناة مثل هذه المحن، أو الإصـابة ببعض الأمـراض الخطيرة، أو الخضوع لعذاب شـديد، عليهم عدّ ذلك بمثابة إنذارات أو تهديدات من مــولانا ومخلصنا، لأنه كما قــال للذين شفيــوا من بعض الأمـراض الخطيرة: انظروا كيف كـان بإمكاني إمـاتتكم لو أنني أردت، بإمكانه أن يقول لنا الآن: انظروا كيف كان بإمكاني إغراقكم لو شئتكم أن تموتوا».

ومضى الملك بحديثه يقـول:«لهذا علينا أن ننظر في أنفسنا ونتفحصها لنرى إذا مــا كـان هناك أي شيء فينا لا يرضي مـولانا، ويسببــه قـام بإرعـابنا، وإذا مـا وجـدنـا شيئاً في أنفسنا يغضبـه، علينا على الفـور أن نتخلص منه، لأننا إذا ما فعلنا عكس ذلك بعد هذا الإنذار الذي أعطانا إياه، سـوف يعـاقبنا بالموت، أو بمصيبـة أخـرى عظيمـة، سـوف تؤذي أجسادنا وأرواحنا».

ثم أضاف الملك وتابع يقول:«قـال القديس أيها النائب: مولانا الرب لماذا هددتنا؟ لأنك لو دمرتنا جميعاً، فـذلك لن يجعلك أفقر، كما أنك لن تكون أغنـى لو حفظتنـا، وقــال القـــديس: ومـن هذا نـرى أن هذه الانذارات التي بعثها لنا، لم يبعثهـا ليزيد مرابحـه، ولا ليحمي نفسه من الخسـارة، بل أرسلهـم فقط صـدوراً عن حبـه العظيم، ليــوقظنا، لكي نمتلك شعـوراً نظيفـاً بشأن مستقبلنا، وأن نطهــر قلوبنا من كل مـا لا يرضيه».

وبعـدمـا زودنا سفينتنا بما يلزم من مـاء الشرب، وأشيـاء أخـرى كنا نحتـاجهـا، غادرنـا جزيرة قبرص، وأبحـرنا إلى جـزيرة أخـرى اسمهـا

لامبـدوسـا Lampdusa حيث أمسكنا عـــدداً كبيراً من الأرانب، ووجـدنا هناك ناسكاً عجـوزاً بين الصخـور، مع حـديقة كـان النسـاك الذين عاشوا هناك منذ مدة طويلة قد زرعوها، وكانت مزروعة بأشجار الزيتـون، وأشجار التين، والكرمة وأشجـار أخرى ونبـاتات من مختلف الأنواع، وكـان هناك نهر صغير يجري خـلال الحديقـة مـن نبع هناك، وذهب الملك مع بقيتنـا إلى قلب البستـان، حيث وجـدنا في أول كهف وصلناو إليـه كنيسة صغيرة، جـدرانها مطلية بلون أبيض، وهي تحتـوي على صليب من الطين الجاف، ولدى دخـولنا إلى الكهف الثـاني وجـدنا جسـدين لرجلين ميتين، اهترأت جلودهما، ومـا تزال أطرافهما فـوق بعضهـا، وعظام أيديهما فـوق صـدريهما، وكـان جسـديهما ممددين باتجاه الشرق، حسب الطريقة نفسها التي يدفن بها الناس تحت الأرض.

وعندما عـدنا إلى سفينتنا وجدنا واحداً من بحارتنا مفقـوداً، واعتقد مقـدم البحارة أنه لابد بقي في الجزيرة ليكون ناسكاً، ولهذا ترك نيقـولا دي سوسي Soisi ، الذي كان مقدم سيرجندية الملك ثلاثة حقائب من البقسماط، علّ ذلك الرجل يجد شيئاً يقتات به.

وبعدما غادرنا لامبـدوسا وصلنا إلى مرأى من جزيرة كبيرة في وسط البحر، وكانت تعرف باسم بانتالاريا Pantalaria (قوصرة)، وكانت مسكونة من قبل المسلمين الـذين كـانوا خـاضعين لملك صقليـة وملك تونس، وترجت الملكة الملـك أن يرسل إلى هناك ثلاثة غـلايين ليجلبـوا فواكه لأولادها، وقـد وافق الملك، وبعث بمقدمي الغلايين للذهاب إلى هناك، وأمـرهـم أن يكونوا جـاهزين لـلالتحـاق به فـور مـروره أمـام الجزيرة، وأخـذت الغلايين طريقهـا إلى هناك، ودخلت إلى ميناء صغير، لكن الذي حـدث أنه عندما مـرت سفينة الملك من أمـام الميناء، لم تكن هناك علامة على وجودهم.

وبدأ البحـارة يتمتمون فيما بينهم، وبناء عليـه أمر الملك بمثـول جميع

البحـارة أمامـه، وسألهم عن الذي يعتقـدون أنه قـد حدث، فقـالوا بأنه يبدو لهم أن المسلمين قد أسروا رجال الملك وغلاييهم، وقالوا: «ونحن ننصح جـلالتك بشـدة أن لاتنتظرهم، لأنك الآن بين مملكتـي صقليـة وتونس، وما من واحدة منهاتمتلك مشـاعر الحب نحوك، وإذا ما تركتنا نتابع ابحارنا، فسـوف نخرجك من هذا الخطر قبل الصباح، لأننا نكون في ذلك الوقت قد مررنا خلال المضيق».

وقـال الملك: «الحق أقـول، ليس لدي نيـة بالأخـذ بنصيحتكم، وأن أترك رجالي في أيـدي المسلمين، دون بذل غاية جهـدي لإنقاذهم، ولهذا آمركم بإدارة أشرعتكم حتى يكون بإمكاننا مهـاجمة الأعداء»، وعندمـا سمعت الملكة بهذا، بدأت تبدي عظيم جـزعها وقـالت: «واحزناه، هذا كله من صنعي».

وبينما كنا نجهـز أشرعة سفينة الملك والسفن الأخـرى حتى نكون في مجرى الريح نحو السـاحل، رأينا الغـلايين تغادر الجزيرة، وما أن اقتربوا من الملك، حتى سأل الملاحين لماذا تأخـروا كل هذه المدة، فأجـابوه بأن ذلك لم يكن تقصيراً منهم بل فـوق طاقتهم، ومـرد الخطأ إلى بعض أبناء برجاسية باريس، الذين كان عـددهم ستة، فقد تأخر هؤلاء في الحدائق، وهـم يأكلون الفواكه، ولقد كـان من غير الممكن إحضارهم، ولم يرغبوا في تركهم خلفهـم، وأمـر الملك بوضع المجـرمين الستـة في القـارب الطويل، وهنا بدأوا يصرخـون ويعولون، وقالوا: «مـن أجل الرب، خذ ياصاحب الجلالة كل ما نملكه فدية لنا، ولاتلقنا بين القتلة واللصوص، لأن ذلك سيكون عاراً أبدياً لنا».

وبذلت الملكة وجميعنا كل ما نستطيعه حتى يغيّر الملك قراره، غير أنه لم يصغ إلى أي واحد منا، وهكذا وضع الستـة جميعاً في القارب الطويل، ومكثـوا هناك حتـى وصلنا إلى اليـابسـة، وكـانوا في وضع خطر كبير، وضيق شديد، حتى أنه عندمـا كان البحر يثور، كانت الأمـواج العالية

تتدفق فوق رؤوسهم، وتوجب عليهم البقاء جالسين طوال الوقت، خوفاً من أن تجرفهم الريح إلى الماء، وكان هذا العقاب رادعاً لهم واستحقوه، بسبب الأذى الذي ألحقه جشعهم بنا، فقد تأخرت رحلتنا اسبوعاً عما كانت ستحتاجه، لأن الملك جعل السفن تغيّر مسارها، وتعود إلى الخلف.

وقبل أن نصل إلى اليابسة واجهنا مخاطرة أخرى في البحر، فقد قامت إحدى الراهبات العلمانيات، وكانت تتولى خدمة الملكة، بأخذ منشفة الملكة التي كانت ترتديها حول رأسها، عندما وضعت سيدتها في الفراش، وألقت بها بدون انتباه قرب الموقد المعدني، الذي كانت فوقه شمعة الملكة تحترق، وبعدما مضت هذه الانسانة البسيطة إلى النوم في الحجرة المخصصة لنوم النساء، تحت فراش الملكة، تابعت الشمعة احتراقها، حتى بات لهبها منخفضاً بما فيه الكفاية لاشعال المنشفة، وانتقلت النار من هناك إلى الأقمشة التي كانت تغطي الملكة بها لباسها.

وأفاقت الملكة لتجد حجرتها وهي تحترق، فقفزت من فراشها وهي عارية تماماً، والتقطت المنشفة، ورمتها وهي تحترق في البحر، ثم أطفأت النار التي كانت فوق ثيابها، وصرخ الرجال الذين كانوا خلف السفينة في القارب الطويل بهدوء «النار، النار» فرفعت رأسي فرأيت المنشفة وهي ماتزال تلتهب بقوة فوق سطح البحر الهادىء، فارتديت قميصي بأقصى سرعة ممكنة، وذهبت فجلست مع البحارة.

وبينما أنا هناك، جاء تابعي، الذي كان نائماً عند أسفل فراشي، وأخبرني بأن الملك قد استيقظ وسأل عن مكان وجودي، وقال: «لقد أخبرته أنك في حجرتك، فقال الملك لي: انك تكذب»، وفيما نحن نتحدث جاء قسيس الملك الأخ غيوفري بشكل مفاجىء إلينا وقال لي: «لاتخشى شيئاً، كل شيء على ما يرام» فقلت : «الأخ غيوفري إذهب إلى الملكة وأخبرها بأن الملك مستيقظ، واطلب منها أن تذهب إليه لكي

يطمئن باله».

وفي اليوم التالي قال قسطلان فرنسا، وبيير حاجب الملك، وجيرفيه رئيس طباخي الملك، للملك: «ما الذي حدث في الليل، لأننا سمعنا كلمة نار»؟ ، أما أنا من جانبي فقد احتفظت بالصمت، لكن الملك رد قائلاً: «إنه مجرد حادث عرضي، يبدو لي أن النائب يعرف عنه أكثر مني، وعلى كل حال سوف أخبركم كيف أنه صدف أن نجونا بصعوبة من الاحتراق في الليلة الفائتة»، وهكذا أخبرهم بالذي حدث وقال لي: «أيها النائب إنني آمرك من الآن فصاعداً بأن لاتذهب إلى الفراش، حتى تكون قد أشرفت على إطفاء جميع النيران، باستثناء النار الرئيسية في مخزن السفينة، وليكن معلوماً لديك أنني لن أذهب إلى فراشي حتى تأتي إليّ وتخبرني بأن ذلك قد صنع»، وقد نفذت هذا الواجب طوال وجودنا في البحر، ولم يذهب الملك إلى فراشه قط حتى عدت إليه.

وحدث حادث آخر في أثناء رحلتنا، فقد كان اللورد دراغونت Dra-gonet، وهو سيد من بروفانس، نائماً في صباح أحد الأيام في سفينته، التي تبعد متقدمة حوالي الفرسخ أمام سفننا، ولدى استيقاظه دعا واحداً من أتباعه وقال له: «خذ شيئاً ما وغط تلك الفتحة لأن الشمس تضرب وجهي»، ووجد التابع نفسه غير قادر على تغطية الفتحة إلاّ من الخارج، فصعد جانب السفينة، وعندما كان مشغولاً في وضع الغطاء انزلقت قدمه، وسقط في الماء، وبما أن السفينة كانت سفينة صغيرة، لم يكن لديها قارب طويل للنجاة مربوط بها، وهكذا خلفت التابع على مسافة بعيدة منها، ورآه الذين كانوا في سفينة الملك، لكن بما أن الرجل في الماء لم يبذل أي جهد لمساعدة نفسه، ظننا أنه حزمة ما، أو برميلاً.

وقام واحد من غلايين الملك بانتشاله، وجلبه إلى سفينتنا، حيث أخبرنا كيف وقع الحادث، وسألته لماذا لم يحاول مساعدة نفسه، إما بالسباحة أو بأي طريقة أخرى، فأجابني أنه لم تكن هناك حاجة لذلك،

أو ضرورة بالتفكير بالقيام بذلك، لأنه عندما بدأ بالسقوط أوكل نفسه إلى سيدتنا سيدة فوفيرت Vauvert وقد أمسكتـــه هي من كتفيه من وقت سقوطه حتى انتشله غليون الملك، وتشريفاً لهذه المعجزة، تدبرت أمر رسمها على جدران بيعتي في جوانفيل، وكذلك فوق الزجاج الملون للنوافذ في بليكورت.

وبعدما أمضينا عشرة أسابيع في البحر وصلنا إلى ميناء وقع على قرابة الفرسخين من قلعة هير Hyeres ، التي عادت بملكيتها إلى كونت دي بروفانس، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على صقلية، ووافقت الملكة ومعها جميع المستشارين على وجوب نزول الملك هناك، لأن البلاد كانت تابعة إلى أخيه، وردّ الملك، أنه في جميع الأحوال لن يغادر سفينته حتى نصل إلى أيغو— مورت Aigues- Mortes، التي كانت في أراضيه، وتمسك بهذا الرأي ضدنا طوال يومي الأربعاء والخميس ، ولم نستطع اجباره على تغيير رأيه.

وامتلكت جميع السفن التي بنيت في مرسيليا سكانين ارتبط كل واحد منها بذراع دفة بطريقة رائعة تمكنك من إدارة السفينة إلى اليمين أو إلى اليسار بسهولة مثلما يمكنك إدارة الحصان أثناء الفلاحة، وفي يوم الجمعة كان الملك جالساً على واحد من هذين الذراعين، وقد استدعاني إليه وقال: «ما هو رأيك أيها النائب حول هذه المسألة»؟ فقلت: «إنك سوف تستحق ما سيجري لك إذا ما واجهت منيتك بشكل ما، مثلما حدث لمدام بوربون، التي رفضت النزول في هذا الميناء، بل مضت ثانية إلى ايغو— مورت، وبقيت في البحر لمدة ستة أسابيع كاملة».

واستدعى الملك مستشاريه للاجتماع به، وبعدما أخبرهم بالذي قلته سألهم عن الذي يشيرون به، وقد رأوا جميعاً أن عليه النزول هناك، وبالتالي سيكون تصرفاً غير منطقي من جانبه، الآن وقد باتوا خارج الخطر، تعريض نفسه، وزوجته وأولاده لمزيد من المخاطر في البحر،

وقبل الملك هذه النصيحة التي أسديناها له، وبعث قراره بهجة عظيمة في نفس الملكة.

وبالنتيجة نزل الملك مع أسرته قرب قلعة هير، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه هناك للحصول على خيول لرحلته عائداً إلى جزيرة فرنسا، أهداه راعي دير كلوني— الذي صار فيما بعد أسقفاً لأولف Olive — مهرين، تساوي قيمتهما خمسمائة ليرة ذهبية في هذه الأيام، وكانا مهر للملك شخصياً والآخر إلى الملكة، وبعدما أهداه إياهما قال راعي الدير للملك: «سوف أعود غداً، لأتحدث إلى جلالتكم حول مسائل شخصية»، وعاد راعي الدير في اليوم التالي، وأصغى الملك مطولاً وبعناية كبيرة لما قاله، وعندما ذهب مضيت إلى الملك وقلت له: «أود أن أسالك إذا ما سمحت لي، عما إذا كنت أوليت راعي يركلوني العناية وأصغيت إليه باهتمام، بسبب المهرين اللذين أعطاكهما البارحة»؟ وفكر الملك مليا ولوقت طويل، ومن ثم قال: «تريد أن أخبرك الصدق، لقد فعلت».

فقلت: «ياصاحب الجلالة هل تعرف لماذا سألتك هذا السؤال»؟ فقال: «لماذا فعلت ذلك»؟ فأجبته: «بسبب أنني أشير بإخلاص على جلالتك، أنك عندما تعود إلى مملكتك أن تحظر على مستشاريك الذي أقسموا على إدارة أعمال العدالة، قبول أي شيء من الذين لديهم أية قضية لعرضها أمامك، وكن متأكداً، أنهم إذا ما قبلوا أية هدية، سوف يصغون برضا أعظم، وبعناية أكبر إلى الذين أعطوهم شيئاً ما، مثلما فعلت جلالتك في قضية راعي دير كلوني»، واستدعى الملك على الفور مستشاريه إليه، وأخبرهم بالذي قلته، فأخبروه بأن الذي أشرته عليه جيداً.

وسمع الملك تقارير عن راهب فرنسيسكاني اسمه الأخ هوغو، وبسبب سمعة هذا الراهب العظيمة استدعاه إليه، حتى يتمكن من

رؤيته ويستمع إلى عظته، وفي اليوم الذي كان الراهب هوغو قادما فيه إلى هير، تشوفنا على طول الطريق الذي كان قادماً عليه، ورأينا حشداً عظيماً من الرجال والنساء يسيرون خلفه على أقدامهم، وطلب الملك منه أن يعظ، وقد بدأ قداسه بتعليقات على الذين كانوا في التنظيمات الرهبانية، وقال: «سادتي، لقد رأيت عدداً كبيراً من الرهبان في بلاط الملك، وفي صحبته»، ثم أضاف: «في المقام الأول، أنا شخصياً واحد من عدد كبير جداً هنا، وأقول هذا لأن الرهبان هنا في وضع لايمكن انقاذهم فيه، ما لم تكن الكتابات المقدسة تكذب علينا، وهذا غير ممكن، لأن هذه الكتابات المقدسة تخبرنا أن الراهب لايجوز أن يعيش خارج ديره، أكثر من الوقت الذي يمكن لسمكة أن تعيشه خارج الماء، وهنا إذا كان هؤلاء الرهبان يقولون بأن البلاط هو دير، يمكنني أن أقول لهم إنه أوسع دير رأيته قط، لأنه يمتد من شاطىء البحر هذا إلى الشاطىء الآخر، وإذا ما أعلنوا أنهم يمارسون في دير من هذا الطراز حياة قاسية في سبيل خلاص أرواحهم، إنني لا أصدقهم، لأنني أخبركم أنني وأنا موجود معهم هنا لقد أكلت كثيراً من مختلف أنواع اللحوم، وشربت كثيراً من الخمور القوية واللطيفة من أفضل الأنواع، ومن هنا أؤكد لكم بثقة أنهم لو كانوا يعيشون في ديرتهم لما عاشوا مثل هذه الحياة السهلة والرغدة، التي يعيشونها الآن مع الملك».

وأخبر الراهب أثناء عظته الملك كيف ينبغي أن يحكم لصالح شعبه، وأنهى خطابه بقوله بأنه قرأ الكتاب المقدس وكثيراً من الكتابات التي تساعد على شرحه، غير أنه لم يرقط في الكتابات المسيحية أو غير المسيحية، أن أي مملكة أو دولة ضاعت أو انتقلت من حاكم إلى آخر، ما لم يكن تقدم ذلك تجاهل لمطالب الحق والعدالة، وقال: «ولهذا، على الملك العائد الآن إلى مملكته، أن يأخذ بالحسبان حكم شعبه بالعدل والمساواة، فبذلك يكون جديراً بحب الرب، ولن ينتزع الرب مملكته منه

مادام حياً».

وقد قلت للملك يتوجب عليه الاحتفاظ بالراهب هوغو بصحبته بقدر ما يمكنه من الوقت، فأخبرني بأنه قد تولى رجاء الراهب للبقاء معه، لكن لهذا كله رفض، ثم أخذني الملك من يدي وقال: «دعنا نذهب كلانا ونترجاه معاً»، وذهبنا لرؤيته، وقد قلت له: «أرجوك ياسيدي استجب لما طلبه منك الملك، وامكث معه طالما هو في بروفانس»، وقد أجابني بغضب عظيم قائلاً: «في الحقيقة ياسيدي إنني لن أفعل مثل هذا الشيء، ولسوف أذهب إلى حيث يرى الرب أنه أفضل من البقاء مع الملك وبرفقته»، وقد بقي يوماً واحداً معنا، وغادر في الصباح التالي، وسمعت فيما بعد أنه مات ودفن في مدينة مرسيليا، وقد صنع هناك عدداً من المعجزات.

ومضى الملك في اليوم الذي غادر فيه هير نازلاً من القلعة سيراً على الأقدام لأن الرابية كانت شديدة الانحدار، ولقد ابتعد في سيره كثيراً إلى حد أنه لم يستطع العودة إلى مهره، وهكذا توجب عليه امتطاء مهري، وعندما أحضر مهره إليه التفت مغضباً كثيراً نحو خادمه بونس Ponce، وبعدما وجه إلى هذا الانسان المسكين توبيخاً كبيراً، قلت للملك: «يتوجب عليك ياصاحب الجلالة أن تغفر لبونس الخادم كثيراً، لأنه خدم جدك، وأباك، وأنت»، فرد علي: «أيها النائب، إنه لم يخدمنا، بل نحن الذين خدمناه، بالسماح له بالبقاء معنا على الرغم من مواصفاته السيئة، لأن جدي الملك فيليب، أخبرني مرة أن علينا مكافأة خدمنا، بعضهم أكثر، وبعضهم أقل، وذلك تبعاً للطريقة التي أدوا بها واجباتهم، كما أنه اعتاد أن يقول لايمكن لانسان أن يحكم بلاداً بشكل جيد ما لم يعرف كيف يرفض بقسوة وبثبات مثلما يعرف كيف يعطي»، وأضاف يقول: « وإنني إذ أخبرك بهذه الأشياء، لأن العالم جشعون جداً بمطالبهم، إلى حد أن عدداً قليلاً من الناس هم الذين يفكرون بإنقاذ

نفـوسهم، أو يسعـون في سبيـل شرفهم الشخصي، دون أن يكون ذلك على حساب الاستيـلاء على ممتلكات الآخريـن سواء أكان ذلـك حقاً أم باطلاً».

ومـرّ الملك في طريقه عبر مقـاطعة بروفـانس، بمدينة واقعـة في تلك الأرجاء اسمها اكس Aix ، فيها يرقـد جسد مريم المجدلية مـدفوناً، ومضينا للنظر إلى كهف مرتفع كثيراً في منطقة صخرية قيل بأن القديسة قد عاشت فيـه عيشة التنسك لمدة سبع عشرة سنة، وعندما وصل الملك إلى بوكير Beaucaire، ورأيتـه قـد صـار في أراضيـه داخل ممتلكاته، ودعتـه وذهبت لأقـوم بزيـارة ابنة أخي دوفين دي فينا Daufine de Vinne ، ثم زيارة عمي كونت دي شالون Chalon ، وابنه كونت بيرغندي.

وبعـد الاقـامـة لبعض الوقت في جـوانفيل، حيث تـوليت العناية بمصالحي الخاصة، ذهبت للالتحاق بالملـك، الذي وجدته في سواسون، وقد رحـب بي بسرور عارم، إلى حد أن جميع الـذين كانوا معـه تعجبوا من ذلك، ووجدت الكونت جين دي بريتاني هناك مع زوجته ابنة الملك ثيبوت الأول ملك نافـار، وقد قدمـت لتقدم الولاء للملك، بشأن جميع الحقـوق التي يمكن أن تنالها في شـامبين، وعلى كل أجّـل الملك النظر بالقضيـة، وأحالها، وكذلـك أحال الملك ثيبـوت الثاني إلى مـؤتمر سوف يعقد في باريس، حيث يمكن سماع قضيتهما، ولكي تأخذ العدالة مجراها لصالح الفريقين.

وجاء ملك نافـار مع مستشاريه إلى هذا المؤتمر، وكـذلك فعل كونت دي بريتـاني، وفي أثنـاء الاجـراءات طلب الملك ثيبـوت يد ابنة الملك، السيـدة ايزابل، وذلك من أجل الزواج، ولقد قـررت الذهاب إلى الملك للحـديث معه حـول هذا التحـالف، وذلك دون أن أعبأ بالأشيـاء التي قـالها أبناء بلدي من شـامبين، من وراء ظهـري، وذلك حسـداً منهـم لي

إزاء الحب الذي رأوا الملك يبديه نحوي في سواسون، وقال الملك لي: «اذهب إلى كونت دي بريتاني واحمله على القبول، ووقتها سوف ننجز الزواج»، وأخبرته أن عليه عدم إعطاء مثل هذه الاعتبارات أهمية تجعله يتخلى عن فكرة الزواج، فأجابني بأنه لن يوافق بأي حال من الأحوال على حدوث الزواج حتى يتم الوصول إلى اتفاق، لأنه لاينبغي أبدا أن يقول أحد من الناس أنه حتى يزوج أولاده حرم باروناته من ميراثهم.

ورويت هذا الحديث إلى الملكة مرغريت أوف نافار، وكذلك إلى ابنها الملك ثيبوت، وإلى مستشاريهم، وما أن سمعوا ما قاله الملك لويس حتى بادروا مسرعين للوصول إلى اتفاق، وعندما توصلت الأطراف جميعاً إلى اتفاق، جرى الاحتفال بالزواج في ميلون Melun ، بأبهة كاملة وحفل عظيم، وذهب الملك ثيبوت بعد ذلك إلى بروفنز Pro-vins مع عروسه، حيث جرى الترحيب بدخولها من قبل جمع كثيف من البارونات.

الفصل الثامن عشر
إدارة الملك لمملكته

بعد عـودة الملك من بلاد ماوراء البحر، عـاش دون إكتراث بمباهج الحياة الدنيا، حتى أنه لم يلبس ثوباً من فـراء السمور والسنجاب، أو من الأقمشة القرمزية، كما أن ركائبه ومهاميزه لم تكن مذهبة، وصنعت ثيابه إما من وبر الجمـل أو من الأقمشة الصوفيـة الرمادية، وكـان الفراء على هذه الملابس وعلى أغطيـة فـراشـه إمـا من جلود الغـزلان أو من جلود الأرانب، أو جلود الخرفان.

وكـان شديد التقشف في تذوقـه للطعـام إلى حد أنه لم يأمـر قط بأي طعـام خاص لنفسـه، بل كـان يتناول أي شيء أعده الطبـاخ، وأكل أي شيء وضع أمـامه، وكـان يمـزج الماء بالخمـرة ويشربها من قدح عـادي بيـده، عندمـا يقـوم الخدم بتحضير الخمرة خلف مـائـدته، واهتم دومـا بإطعام الفقراء، وبعد تناولهم للطعام، كان يرسل مالاً لتوزيعه بينهم.

وعندمـا كان يأتي بعض المغنين العـاملين في خدمة بعض النبـلاء مع آلاتهم للترفيه عنه بعـد الغداء، كان الملك دومـا ينتظر حتى الانتهاء من الغناء، وذلك قبل ترتيـل الشكر، ثم كـان يقف، ويقف كهنتـه أمـامـه لترتيل الشكر، وفي المناسبـات التي كنا نزوره فيها زيارات غير رسميـة، كان يجلس عند قدمي فراشـه، وإذا صدف وقام بعض الرهبان المبشرين أو الفرنسيسكان الذين كانوا معه بالحديث عن كتاب، رغبوا في أن يقرأ على مسامع الملك، كان يقول: «لاتقرأوه لي، ليس هناك من كتاب يعدل بالجودة بعد الطعـام حديث مفتوح بين الأصـدقاء، وذلك عندمـا يقول كل واحـد ما يرضيـه قـوله، وفي كل مـرة كان بعض الغـرباء من ذوي المكانة يأتون لتناول الطعام مع الملك، كانوا دوماً يجدونه أفضل أنيس.

وسوف أحدثكم الآن عن حكمته، فقد جاءت أوقات عندما سمع الناس يعلنون في الحقيقة أنه لم يكن بين مستشاريه من كان مثل الملك بحكمته، وكان بذلك واضح من حقيقة أنه عندما كان أي انسان يستشيره حول مسألة ما، لم يكن يقول له: « سوف أستشير حول هذه القضية»، بل كان إذا ما رأى الحل الصحيح واضحاً وأبلجاً، كان يقدم الجواب بدون الإشارة إلى مستشاريه، وكان يفعل ذلك على الفور، فهذا ما سمعته عندما أجاب جميع أساقفة مملكته في مسألة الإلتماس الذي قدموه مرة إليه.

ففي هذه المناسبة خاطبة أسقف أو كسير Auxerre باسم جميع الأساقفة من أصحابه بقوله: « ياصاحب الجلالة، كلفني رؤساء الأساقفة والأساقفة الحضور في أن خبرك بأن شرف المسيحية آخذ بالإنحدار على يديك،ولسوف ينحدر أكثر ما لم تعط المسألة بعض التفكير والتقدير، لأن ما من انسان يخاف من التعرض للحرمان الكنسي في هذه الأيام، ولهذا نطلب منك ياصاحب الجلالة أن تأمر نوابك وبقية المسؤولين عن الشريعة بالقيام بإرغام جميع الناس الذين هم تحت عقوبة الحرمان الكنسي أن يقوموا خلال سنة ويوم على إقامة السلام مع الكنيسة»، ورد الملك بدون أخذ أية نصيحة بأنه سوف يلبي طلبهم عن طيب خاطر، ويأمر نوابه وبقية موظفيه بارغام مثل هؤلاء الناس حسب الطريقة المرغوب بها، شريطة إعطائه معرفة كاملة عن الحكم الصادر في كل قضية، حتى يمكنه أن يحكم فيها إذا كان القرار عادلاً أم لا.

وبعدما تشاور الأساقفة فيما بينهم أخبروا الملك أنهم سوف لن يزودوه بمثل هذه المعلومات، لأن هذه قضية من اختصاص المحاكم اللاهوتية فقط، وأجابهم الملك أنه بدوره لن يقدم لهم المعلومات حول القضايا الواقعة في إطار اختصاصاته القضائية، وكذلك لن يأمر موظفيه بالقيام بارغام جميع الأشخاص المحرومين كنسيا للحصول على

التحليل، دون أخذ بالاعتبار سواء أكان قرار الحرمان قد صدر بشكل عادل أو ظالم، وأضاف «لأنني إذا ما فعلت كما تريدون، سأكون سالكاً لسبيل معاكس لشريعة الرب ولمبادىء العدالة، وسوف أضرب لكم مثلاً بالقضية التالية: وضع أساقفة هذه المقاطعة كونت بريتاني تحت حكم الحرمان الكنسي لمدة سبع سنوات، حصل في نهايتها على التحليل من محكمة روما، والآن لو كنت فرضت الإرغام عليه في نهاية السنة الأولى، لكنت قد أخطأت بحقه وظلمته».

وحدث بعد عودته من بلاد ما وراء البحر أن قام رهبان دير القديس أوربين Urbain بانتخاب راعيين، فأقدم الأسقف بيير دي شالون— منح الرب الرحمة إلى روحه— على طردهما وأعطى عصا الرعاية مع المباركة إلى جين دي ميمري Mymeri ، الذي عينه لتولي هذا المنصب، ولم أعترف شخصيا بهذا الرجل راعياً، لأنه آذى الراعي غيوفري، الذي اشتكى ضده، ورفع قضية وأخذها إلى محكمة روما، ولقد أبقيت الرعاية بين يدي حتى ربح غيوفري العصا، والرجل الذي أعطاه الأسقف إياها لم يحصل عليها بعد ذلك مطلقاً، لكن طوال عرض القضية واستمرار الخلاف أبقائي الأسقف تحت عقوبة الحرمان الكنسي، ولهذا السبب تخاصمت بعنف مع الأسقف بيير دي شالون، أثناء المؤتمر الذيس عقد في باريس، مثلما فعلت الكونتسه مرغريت دي فلاندرز مع رئيس أساقفة الرايمز، الذي اتهمته بأنه كان لايقول الصدق.

وفي أثناء المؤتمر الذي عقد بعد ذلك بوقت قصير، إلتمس الأساقفة جميعاً من الملك القدوم للتحدث معهم على انفراد، ولدى عودته من المقابلة مع هؤلاء الأعيان عاد جلالته إلينا، نحن الذين كنا ننتظره في قاعة المحكمة، وأخبرنا ، وهو يضحك من قلبه، عن الاضطراب الذي واجهه مع الأساقفة، فقد قال له رئيس أساقفة الرايمز في البداية: « ياصاحب الجلالة ما الذي سوف تعطيني إياه عوضاً عن الاشراف على

دير القديس ريمي أوف رايمز، الذي سوف تأخذه مني؟ لأنني أقسم بحق الآثار المقدسة التي هي أمامنا، أنني لا أنوي المعصية واقتراف الذنب، مثلما تنوي أنت بالنسبة لجميع مملكة فرنسا»، فأجابه الملك: « أقسم بحق الآثار المقدسة التي هنا أمامنا، أنك بأخلاقك الجشعة سوف تقترف الذنوب من أجل كومبين Compigne وحدها، وعلى هذا واحد منا نحن الاثنين حانث بيمينه وكاذب بدعواه».

ثم قال الملك: «وبعد ذلك طلب مني أسقف تشارترز وجوب أن أعيد إليه كل ما يخصه، وهو الآن بين يدي، فأخبرته أنني لن أفعل ذلك حتى الوقت الذي سيدفع فيه جميع ما أستحقه، وفضلاً عن هذا بينت له أنه على الرغم من تقديمه الولاء لي ويديه بيدي، هو لم يتعامل معي لابشكل صحيح ولا بإخلاص في محاولته حرماني من حقوق قد ورثتها».

واستطرد الملك يقول: «وقال أسقف شالون الآن لي: ما الذي تفكر جلالتك بصنعه فيما يتعلق بمولاي صاحب جوانفيل، وبخصوص ذلك الراهب المسكين الذي انتزع منه دير القديس أوربين» فأجابه الملك قائلاً: «سيدي الأسقف، لقد أقررت أنت وأصحابك الأساقفة بناء على اتفاق بينكم عدم عرض قضية رجل محروم كنسياً في محكمة مدنية، واستخلصت من رسالة مختومة بإثنين وثلاثين ختماً أنك خاضع لهذا النوع من الحرمان، ولهذا لن أستمع إليك حتى تتمكن من تحليل نفسك»، وانني إذ أخبركم بهذا كله، أستهدف فقط أن أريكم بكل وضوح كيف كان بإمكان الملك معالجة أية مشكلات توجب عليه فضها شخصياً، وذلك من دون الاستعانة بغير عقله الجيد.

وبعدما هيأت الأمور كلها لصالح الراعي غيوفري راعي دير القديس أوربين ردّ لي الاحسان بالإساءة، بتقديم شكوى ضدي، حيث أعطى الملك القديس الانطباع أن ديره كان تحت الرعاية الملكية، وطلبت

من الملك البحث في هذه المسألة، حتى يتبين له بدون أدنى شك هل الدير تحت وصايته أم تحت وصايتي، فقال راعي الدير له: « بمشيئة الرب، لن تفعل شيئاً من هذا القبيل ياصاحب الجلالة، بل بالحري رتب لعرض المسألة المختلف عليها فيما بيننا على التحكيم في المحكمة القانونية، ذلك أنه بالنسبة لنا نحن الذين ننتمي إلى هذا الدير بحكم الوراثة نؤثر أن يكون الاشراف عليه من نصيبك وليس من نصيبه»، وقال الملك لي: «هل يقولون الصدق عندما ذكروا أن الدير تحت وصايتي»؟ فقلت: «من المؤكد لا ياصاحب الجلالة، إنه ملكي أنا».

ثم قال الملك للراعي: «قد يكون الدير هو ديرك بالوراثة، لكن هذا لايعني أنك تمتلك الحق في المطالبة بوضعه تحت تصرفك وحدك، وفي الحقيقة تبين لي مما قلته ومما أخبرني به النائب أن قضية الوصاية هي مسألة بيني وبينه لوحدنا، وبناء عليه، إنه على الرغم من كل ما قلته، إنني لن أتمنع عن اتخاذ خطوات للوصول إلى الحقيقة بشأن هذه المسألة شخصياً، لأنني لو أرغمت اللورد جوانفيل على الالتجاء إلى القانون، سوف أكون مخطئاً بحقه، وهو واحد من أتباعي، حين أضع حقه تحت رحمة المحكمة العامة، في حين أنه يمنحني الآن— لأني سيده— فرصة كاملة للوصول إلى الحقيقة»، وبناء عليه أمر الملك شخصياً بالبحث في القضية، وما أن تبينت له الحقيقة حتى أعطاني وصاية كاملة على الدير، مع وثائق مختومة تؤكد حقي.

وعمل ملكنا القديس بشكل متواصل وفعال، حتى استطاع اقناع ملك انكلترا بالقدوم إلى فرنسا مع زوجته وأولاده، للتباحث حول السلام بين بلديهما، وكان أعضاء المجلس الاستشاري للملك مضادين بشدة لإقامة مثل هذا السلام، وقالوا له: «نحن مندهشون جداً أن نجدك ياصاحب الجلالة جاهزاً لإعطاء ملك انكلترا شطراً واسعاً من أراضيك التي ربحتها أنت وأجدادك منه، والتي خسرها بسبب سوء

تصرفه، وإذا كنت تعتقد الآن أنه ليس لديك الحق بهذه الأرض، فإنك لاتكون قد قمت بكامل الارجاع القانوني، ما لم تعد إليه جميع ما استوليت عليه أنت وأجدادك، ومن جهة أخرى إذا كنت ترى أن لك الحق في هذه الأرض، يبدو لنا أنك مهما أعدت أصغيرا كان أم كبيراً هو خسارة لك شخصياً».

وردّ الملك القديس على هذا بقوله: «أنا مقتنع ياسادتي أن أجداد ملك انكلترا قد حرموا بشكل عادل من جميع البلاد التي هي بيدي بحق الاستيلاء، إنما بالنسبة للأرض التي أنا معطيها له، أنا لاأعدها شيئاً أنا مرغم على تسليمه له أو لورثته، بل إن الذي أفعله ما هو إلاّ وسيلة لإقامة رابط للحب بين أولادي وأولاده، الذين هم أبناء خالة، فضلاً عن هذا الذي أعطيه إياه له غاية جيدة، لأنه لم يكن حتى الآن واحداً من أتباعي، وهو الآن سوف يقدم الولاء لي، بحكم أنني مولاه».

وما من انسان في العالم عمل باخلاص أكثر من ملكنا، لإقرار السلام بين رعاياه، خاصة بين النبلاء الكبار الذين كانوا أمراء المملكة وجيرانها، كما فعل — على سبيل المثال— في قضية كونت دي شالون— عم صاحب جوانفيل— وابنه كونت بيرغندي، اللذان كانا منشبان للحرب بينهما، عندما عدنا من بلاد ماوراء البحر، ولكي يقيم السلم بينهما، بعث الملك بعضاً من أعضاء مجلس مستشاريه إلى بيرغندي على حسابه، وبفضل جهوده الحثيثة، أمكن إقامة السلام بين الأب والابن.

وبعد أمد قصير نشب قتال عنيف بين الملك ثيبوت الثاني، صاحب شامبين، وبين كونت دي شالون وابنه كونت بيرغندي حول الخلاف بشأن من سيتملك دير لوكسيل Luxeuil ، ولكي يزيل هذا الخلاف بعث جلالته جيرفيه دي اسكرين Escraines Gervais de ، عندما كان رئيس المطابخ الملكية الذي تدخل في سبيل إقامة صلح بين الفرقاء.

وبعدما وضع الملك حداً لهذه الحروب، نشب خلاف آخر بين كونت ثيبوت دي بار، وبين زوج أخته كونت هنري صاحب لوكسمبورغ، ونتيجة لهذا قاتلا بعضهما بعضاً قرب برني Perny، حيث أخذ الكونت ثيبوت زوج أخته أسيراً، واستولى بعد ذلك على قلعة ليني Ligny ، التابعة لكونت لوكسمبورغ عن طريق زوجته، ولكي ينهي الملك هذا النزاع ويضع حداً للحرب، بعث حاجبه بيير، الذي وثق به اكثر من أي انسان آخر في العالم، وهكذا أمكنه إقامة السلام بين المتخاصمين.

وفي القضايا التي أسهم الملك فيها بفض الخلافات بين الناس خارج مملكته، كان بعض أعضاء مجلس مستشاريه يقولون كان الأفضل لو تركهم يتابعون الاقتتال، لأنه لو تركهم يفقرون أنفسهم، كانوا سيقاتلونه باستعداد أقل مما لو كان خلفهم الكثير من المال، وأجاب الملك منتقديه بشأن هذه المسألة قائلاً، بأنهم كانوا يتحدثون بلا حكمة، ثم قال: «لأنني لو تركت الأمراء الجيران يحتربون فيما بينهم، ورأوا ذلك وأدركوه، من الممكن أن يتحدوا ويقول أحدهم للآخر: الملك يشجع هذا الصراع فيما بيننا صدوراً عن نية شريرة، وهكذا قد تدفعهم كراهيتهم لي للتكتل ومحاربتي، مما قد يسبب خسارة كبيرة لي، هذا دون القول أي شيء عن حقيقة أن ذلك يعني استجلابي لغضب مولانا الرب الذي قال: طوبى لصانعي السلام».

ونتيجة لجهود الملك المتواصلة لإقامة السلام، أحبه الشعب في بيرغندي واللورين، لأنه أقام الصلح بينهم، وأطاعه الناس هناك، حتى أنهم عندما كانوا يختلفون في بعض المناسبات، كانوا يأتون لفض مشاكلهم بعرض قضياهم على محاكمه في الرايمز، وباريس، وأورلين.

وامتلك الملك حباً عميقاً جداً لربنا ولأمه الحنون، حتى أنه عاقب بشدة متناهية جميع الذين أدينوا بالحديث عنهما بقلة احترام، أو

لاستخدامهم لاسميهما في بعض الأيمان الشريرة، وهكذا رأيته يأمر في قيسارية بربط صائغ ذهب، إلى سلم مع أمعاء خنزير وأحشاء أخرى لفت حوله حتى بلغت إلى أنفه، وقد سمعت بعدما عدت من بلاد ما وراء البحر، أنه أمر بكي شفتي وأنف واحد من أهل باريس لاقترافه مثل هذا الذنب، لكن هذا لم أره بنفسي.

واعتاد الملك القديس أن يقول: «إنني على استعداد بالسماح عن طيب خاطر بأن أكوى بحديدة محماة، شرط أن يكون ذلك مقابل نفي جميع الأيمان الكاذبة من مملكتي»، ولقد أمضيت مايزيد على اثنتين وعشرين سنة في صحبته دون أن أسمعه قط يقسم بالرب أو بأم الرب، أو بقديسيه، وعندما كان يود التشديد على أي مقولة كان يقول: «بالفعل كانت كذلك» أو «بالفعل هي كذلك».

ولم أسمعه قط يذكر اسم الشيطان، ما لم يكن الاسم قد ظهر في كتاب ما، حيث توجب ذكره، مثل عندما تكون حياة القديسين هي الموضوع المطروق، وإنه لعيب عظيم بالنسبة لمملكة فرنسا، وللملك الذي يسمح الآن بذلك، فنادراً ما يتمكن انسان في هذه الأيام أن يتكلم دون أن يقول: «فليأخذه الشيطان»، فضلاً عن هذا إنه لسوء استخدام يسبب الذنب أن ننسب إلى الشيطان رجلاً أو امرأة بعدما أعطيا إلى الرب منذ وقت تعميدهما، والمعتمد في قلعتي في جوانفيل أنه إذا ما قال أي واحد مثل هذه الأشياء كان يضرب فوق أذنيه، أو يصفع من أجل ذلك، واللغة السيئة غير موجودة إلى أبعد الحدود هنا.

وسألني الملك مرة عما إذا كنت قد غسلت أقدام الفقراء في يوم الخميس المقدس، فأجبته بأنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل، لأنني أعتقد أن ذلك عملا ممجوجاً، فأخبرني بأن عليّ عدم التمنع عن أداء مثل هذا العمل، مادام مولانا قد قام بمثله، وقال: «إنني أفترض أنك لن ترغب مطلقاً في حذو مثل ملك انكلترا، الذي غسل أقدام مجذومين، وقبلهم».

وكـان الملك قبل أن يأوي إلى فـراشه قـد اعتـاد على أن يبعث خلف أولاده، ويحدثهم عـن أعمال الملوك الجيـــدين والأبـاطرة، ويبين لهم في الوقت نفسه أن عليهم اتخاذ مثل هـؤلاء مثلا يحتذى بالنسبـة لهم، وكان يحدثهم أيضـاً عن أعمال الأمـــراء الأشرار، الذين جلبـــوا الدمـــار إلى ممالكهم عن طريق حياتهم الجشعة، ولفســوقهم وشرورهم، وكان يقول لهم: «إنني ألفت انتبـــاهكم إلى مثل هذه الأشيـــاء، حتـى تتجنبـــوها، ولاتجعلوا الرب يغضب عليكم».

وجعلهم يتعلمون سـاعات صلوات سيـدتنا، وجعلهم يكررون على مســـامعـــه صلوات كل يوم، حتـى يعـودهـم على سماع هذه الصلوات بشكل متواصل عندما يصبحون حكاماً لبلدانهم.

وكان الملك كريماً جداً في تقديم الصدقات، حتى أنه كان حيثما ذهب في مملكته يقـوم بتوزيع الأمـوال على الكنائس ذات الموارد القليلة، وعلى بيوت المجـذومين، وعلى بيوت الاحسـان، وعلى المشافي، وعلى الـرجال والنساء من منبـت أصيل الذين يعانون من الضـائقة، وقـدم الطعام كل يوم إلى عـدد كبير من فقـراء الناس، وذلك بالاضـافـة إلى الذين كـانوا يأكلون في قاعتـه، وغالباً ما رأيته يقطع الخبـز إلى هؤلاء بنفسه ويناولهم شرابهم.

ولقـد بني في عهـده كثير من الديرة، من ذلك على سبيل المثـال: دير رويومونت Royaumont ودير القديس أنطوني قـرب باريس، ودير ليس Lys، ودير موبيسون Maubuisson ، وكثير من البيوت الدينية الأخرى للاخوان المبشرين وللرهبـان الفرنسيسكان، وقد بنى مشفى في بونتي Pontoise، ومشفى في فيرنـون، وملجأ للعميـــان في بـــاريس، وديراً للراهبـات الفـرنسيسكان في سينـت— كلود، وهو الذي أسسته

أخته السيدة ايزابل بتأييد منه.

وعندما كان يقع بين عطاياه أية منحة عائدة إلى الكنيسة المقدسة، كان الملك يقدم دوماً على استشارة الناس الأفاضل، الذين يمكنه أن يعتمد على حسن أخلاقهم، وذلك قبل منح إدارة الأعطية، وبعد التشاور معهم كان يقدم الأعطية مخلصاً، وبضمير مستريح، دون مراعاة لغير رضا الرب، ولم يعط قط أي رجل دين مسؤولية إدارة منحه من المنح مالم يقم أولاً بالتخلي عن جميع الوظائف التي بيده، وكان كلما ذهب للمرة الأولى لزيارة بلدة في مملكته، كان يمضي أولاً إلى الأخوان المبشرين أو إلى الفرنسيسكان الذين هم هناك ويسألهم الدعاء.

وبعد عودة الملك لويس إلى فرنسا من بلاد ماوراء البحر كرس نفسه تكريساً كاملاً لعبادة مخلصنا، وكان عادلاً جداً في تعامله مع رعيته، ولهذا السبب قرر أنه سيكون عملاً مفيداً جداً، ونبيلاً، إذا ما تولى اصلاح مملكته الفرنسية، وكانت أول خطوة اتخذها في هذا الاتجاه هي إصدار مرسوم عام لجميع رعاياه في جميع أرجاء المملكة، كانت صورته كما يلي:

«نحن لويس، بنعمة الرب ملك فرنسا، نأمر نوابنا، وعمالنا، ورؤساء الكنيسة والمديرين لدينا، وجميع الآخرين، في كل الظروف، وفي كل المناصب التي يشغلونها، أن يقسموا، على إقامة العدل للجميع، ماداموا في مناصبهم، وذلك دون مراعاة للأشخاص، أو تفريق بين فقير وغني، وكذلك إلى الناس الذين هم من بلاد أخرى، بحيث يكونوا مثلهم مثل أبناء البلاد، وأن يراعوا الممارسات والعادات الطيبة والمعترف بها.

وإذا حدث أن قام النواب، أو العمال، أو غيرهم من الرسميين مثل السير جندية أو نظار الغابات، بعمل أي شيء معاكس لأيمانهم، وقد أدينوا بفعل ذلك، سوف نعاقبهم بمصادرة أملاكهم أو باعتقالهم

شخصياً، وإلينا سيوكل معاقبة النواب، ومعاقبة الآخرين من قبل النواب.

زيادة على هذا، سوف يؤدي اليمين جميع رؤساء الكنائس، والنواب والسيرجندية أنهم سيكونون مخلصين في حماية مواردنا والمحافظة على حقوقنا، ولن يسببوا انتزاع حقوقنا منا، أو إضاعتها، أو زوالها، وعليهم أن يقسموا في الوقت ذاته على أن لا يأخذوا أو يتسلموا، بأنفسهم أو بوساطة آخرين ذهباً أو فضة أو أية منافع غير مباشرة، أو أية أشياء مهما كان نوعها، باستثناء الفواكه فقط، أو الخبز أو الخمرة، أو الهدايا الأخرى، التي لاتتجاوز قيمتها عشرة سوسات Sous، ولايجوز تجاوز هذا المبلغ مطلقاً.

وعليهم أيضاً أن يقسموا أن لايأخذوا، أو يكونوا السبب في أخذ أية هدية، مهما كان نوعها، من خلال وساطة زوجاتهم، أو أولادهم، أو أخوانهم،. أو أخواتهم، أو أي شخص مرتبط بهم، وفور معرفتهم بتسلم مثل هذا النوع من الهدايا، يتوجب عليهم إعادتها في أول لحظة مناسبة، وبالإضافة إلى هذا، عليهم أن يقسموا على عدم استلام أية هدية، مهما كان نوعها، من أي انسان، عائد إلى وكالتهم، ولا من أي واحد آخر له قضية أو دعوى معروضة أمامهم.

وزيادة على ما تقدم عليهم أن يقسموا على عدم إرسال أية هدية إلى أي واحد من أعضاء مجلسنا الاستشاري، أو إلى زوجاتهم أو أولادهم، أو إلى أي انسان يمت إليهم بصلة، ولا إلى أي واحد جرى تعيينه لتسليم حساباتهم لصالحنا، ولا إلى أي شخص قد نرسله إلى نياباتهم أو مناطقهم حيث يشغلون وظائفهم، وذلك من أجل البحث حول الكيفية التي يؤدون بها واجباتهم، ومع هذا عليهم أن يحلفوا على عدم أخذ أي ربح على أي بيع قد يتم، أو من أية إيجارات عائدة لنا، أو من نياباتهم، أو من أماكن ضرب نقودنا، أو أي شيء آخر عائد إلينا.

فضلاً عـن هذا عليهم أن يقسموا ويتعهـدوا أنهم إذا ما عـرفوا أن أي مـوظف أو سيرجندي، أو مـديـر ممن يعمل تحت إمـرتهم قـد أهمل واجبه، أو تولى السرقة أو الاغتصاب، أو اقترف أية ذنوب، يستحق من أجلهـا الطرد من خـدمتنا، عليهم عـدم الإبقـاء عليـه والاحتفـاظ به بالوظيفة مقابل أية هدية، أو وعد ، أو أية قرابة أو مودة، أو لأي سبب آخر مهما كان نوعه، بل عليهم مخلصين القيام بطرده والحكم عليه.

وزيادة على هذا يتوجب على المديرين والعمال، ورؤساء القرى وجميع الموظفين الآخرين لدينا من المشـاة والخيالة، أن يقسمـوا أنهم سوف لن يقـدموا أية هديـة إلى رؤسائهم، ولا إلى زوجـاتهم أو أولادهم، ولا إلى أي واحد من أتباعهم.

ولما كنا نرغب في تأكيد هذه الأيمان دون أي ريب، نأمر بأدائها كاملة أمـــام جميع الناس، من قبـل رجـــال الـدين والمدنيين، والفـرســـان، والسيرجندية، دون اعتبار لقيـام بعضهـم بالإقسام أمـامنا من قبل وذلك بهدف أن يتمنع الذين أقسموا مثل هذه الأيمان عن اقتراف ذنب الحنث باليمين، ليس خوفـاً من الرب ومنا فقط، بل خشية أن يوصمـوا بالعار أمام الناس جميعاً.

ونحن نرسم ونأمـر بأنه يتـوجب على جميع المديرين لدينا وعلى جميع نوابنا، الامتناع عن قول أي شيء يمكن أن يفسر على أنه معاندة للرب أو لسيـدتنا، أو للقـديسين، وأن يكفـوا كذلـك عن اللعب بأي نوع من أنواع الميسر، وعن غشيـان الحانات، ونحن نـرسم أيضـاً بالتـوقف عن صنع النرد في جميع أرجاء مملكتنا، وبطرد كل النساء اللائي يمارسن حياة الدعـارة من كل بيت، وزيادة على هذا نقضي أن كل إنسـان يؤجـر بيتـاً لنساء من هذا القبيل أن يدفع إيجار بيت لمدة سنة تعـويضاً إلى النائب أو إلى المدير.

وفضلاً عن هذا نمنع نوابنا، ما داموا في خدمتنا، من شراء، أو التسبب بشراء، بوسائل مخادعة، لأي من الممتلكات أو الأراضي، يمكن أن تكون في نيابتهم أو في غيرها، من دون إذن أو تصريح منا، وإذا ما كان مثل هذا الشراء قد تمّ، نحكم ببقاء ما شري في أيدينا.

ونمنع أيضاً نوابنا، ماداموا في خدمتنا، من الزواج هم أو أولادهم أو بناتهم أو أي شخص ينتمي إليهم، إلى أي إنسان موجود في نيابتهم، من دون موافقتنا الشخصية و بالإضافة إلى هذا، نحن نمنعهم من وضع أي إنسان من هؤلاء في البيوت الدينية، الموجودة في نيابتهم، أو تعيينهم للإشراف على أي منحة عائدة إلى الكنيسة المقدسة، أو إعطائهم أي ممتلكات أخرى، ونمنع — زيادة على هذا — نوابنا من الحصول على أية ميرة من أي من البيوت الدينية، أو الحصول على مسكن هناك، أو بجوارها، على حساب الطائفة صاحبة البيت الديني، وعلى كل حال نحن لا نرغب في أن يشمل هذا الحظر المتعلق بالزواج أو الحصول على الممتلكات، حسبما تقدم الذكر: المديرين، ورؤساء القرى، أو الآخرين الذين يشغلون مناصب صغيرة.

ونأمر أن لا يقوم أي نائب، أو مدير، أو أي موظف من موظفي التاج، باستخدام عدد كبير من السيرجندية، أو الشمامسة، خشية أن يشكل ذلك حملاً ثقيلاً جداً على شعبنا، ولسوف يكون تعيين الشمامسة بالموافقة، وإلاّ فإن تعيينهم سيكون غير شرعي، وعندما يُرسل السيرجندية في مهمة ما خارج منطقتهم، أو خارج ممالكنا، نحكم بعدم اعتمادهم ما لم يكونوا مزودين برسائل من رؤسائهم.

ونأمر في أن لا يقوم أي نائب أو مدير في خدمتنا بممارسة أعمال العدالة بطريقة يخرق بها القانون الذي يشمل الناس، إلاّ إذا كان ذلك ضرورياً وعادلاً، كما لا يجوز وضع واحد من رعايانا في السجن إلاّ إذا كان مداناً بدين مستحق لنا نحن أنفسنا.

ونأمر أن لا يقوم أي نائب من نوابنا بفرض غرامة لدين مستحق لدينا على أي واحد من رعايانا، أو فرض غرامة مقابل أية مخالفة، إلاّ إذا تقرر ذلك في محكمة عامة كاملة، حيث يمكن تحديد مبلغ الغرامة وضبطه وتقديره بناء على نصيحة أناس مقتدرين وذوي كفاءة، حتى ولو كانت الغرامة قد دفعت، وإذا حدث أن المتهم لن ينتظر صدور الحكم من محكمتنا عليه، بل عرض مبلغاً من المال مقابل الغرامة، حسب ما يدفع بالعادة في حالات مثل هذه المخالفة، نحكم بأن تقبل المحكمة مثل هذا المبلغ إذا كان معقولاً وموائماً، وإذا كان الأمر غير ذلك، نقضي بتحديد المبلغ كما قيل أعلاه، حتى ولو سلم المعتدي نفسه إلى المحكمة، وفضلاً عن هذا نحظر على جميع النواب، ورؤساء القرى، أو المديرين، القيام بإرغام أي واحد من رعايانا، سواء بالتهديد، أو بالإرهاب، أو بأية وسيلة من وسائل التلاعب لكي يدفع غرامة بالسر، وعليهم عدم توجيه التهمة إلى أي إنسان من دون سبب معقول.

وزيادة على ما تقدم نأمر الذين يشغلون مناصب إدارة المقاطعات أو المديرين، أو أي وظيفة من وظائف التاج، بعدم بيع مناصبهم إلى آخرين من دون موافقتنا، وإذا ما ابتاع عدد من الأفراد متحدين المناصب المذكورة، نحكم بقيام واحد من الشراة بممارسة مهام وواجبات المنصب لصالح البقية، ووحده يتمتع بامتيازات المنصب فيما يتعلق بالرحلات، والضرائب والنفقات العامة، كما هي العادة بالنسبة لمثل ذلك المنصب، ونحرم على موظفي التاج بيع مناصبهم إلى أخوانهم، أو أبناء أخوتهم، أو أبناء عمومتهم، بعدما اشتروهم منا، أو المطالبة بأي مال قد يكون حقاً لهم أنفسهم، باستثناء الديون العائدة لهم بحكم وظائفهم الرسمية، وفيما يتعلق بديونهم الشخصية، فإنهم يستردونها بوساطة سلطات النائب، كما لو كانوا لا يعملون في خدمتنا.

ونحظر على نوابنا القيام بمحاكمة أي مدعي من رعايانا قدم دعواه

أمامهم، عن طريق نقل مكان المحاكمة من مكان إلى مكان، بل يتوجب عليهم الاستماع إلى الدعـوى المقـدمـة لهم حيث اعتـادوا على سماع الدعاوى، وبذلك لن يرغموا رعايانا على التخلي عن حقوقهم المشروعة خوفاً من المشاق والنفقات.

زيادة على هذا نأمر نوابنـا ومـديرينا بعـدم حـرمـان أي إنسـان مما يمتلكه من دون فحص تام، أو بناء على أمر خـاص منا، وكذلك نحظر عليهم فـرض أي مكوس جـديدة، أو ضرائب، أو جمارك، على شعبنا، وعدم استـدعاء أي إنسـان للمشاركة في حملة عسكريـة، من أجل ابتزاز المال منه، ولهذا نأمر بعـدم استدعاء أي شخـص مكلف أمامنا، إلى مثل هذه الخدمـة، أو الالتحـاق بالجيش دونها سبب كـافي، وأن الذين يمكن أن يرغبـوا بالانخـراط في الجيش بنـاء على إرادتهم، لا يجوز لأحـد إرغامهم على شراء الإعفاء من مثل هذه الخدمة بدفع المال.

فضـلاً عن هذا نحظـر على نوابنا ومـديرينا القيـام بمنع إخـراج أي قمح، أو خمر، أو أية بضـائع للبيع، والحيلولة دون تصديرها إلى خـارج مملكتنا، بدون سبب معلل، وعندمـا تستـدعي الظروف مثل هذا الحظر، فإن ذلك يصدر بمثابة أمر عام إلى الناس جميعاً، وذلك بناء على نصيحة أشخـاص أكفـاء، من أجل إزالة كـل الشبهـات بالغش أو التعـامل المزدوج.

ونقضي لسبب مماثـل، أنه لدى خلو منصب مـن المناصب، يتـوجب على النواب جميعاً، وعلى رؤساء المقـاطعات، وعلى رؤساء القرى، وعلى المديرين البقـاء في المنصب الذي سيشغـر، سـواء شخصيـاً أو بوسـاطة وكيل لمدة أربعين يوماً في المنطقة التي مارسوا فيها أعمالهم، بغية الإجابة على أية استفسار يقـوم به الموظف الجديد، فيما يتعلق بأي خطأ ارتكب، أو بشكاية رفعت ضد أحدهم».

وحقق الملك بوساطة هذه الأوامر كثيراً من تحسين مملكته.

وجرت العادة في ذلك الوقت على بيع ولاية باريس إلى واحد من برجاسية المدينة، أو إلى أي إنسان آخر يتمكن من شرائها، والذي حدث أن الذين تولوا شراء هذا المنصب قاموا بتغطية جميع المخالفات الذي اقترفت من قبل أبنائهم أو أبناء أخوتهم، وهكذا اعتاد هؤلاء الشباب المفسدون على الاعتماد على الذين شغلوا وظيفة الولاية، ونتيجة لهذا سحق الناس الذين كانوا من الطبقات الدنيا سحقاً شديداً، ولم يعد بإمكانهم الحصول على العدالة ضد الأغنياء، بسبب الهدايا العظيمة والأعطيات التي قدمها هؤلاء إلى الولاة.

وكان يحدث في ذلك الوقت أنه إذا ما تكلم أي إنسان الحقيقة أمام الوالي، وأصر على التمسك بيمينه برفضه التراجع فيما يتعلق بأي دين أو قضية توجب عليه تقديم الشهادة فيها، اعتاد الوالي على معاقبته بالحكم عليه بأداء غرامة، وزيادة على هذا، وبسبب الظلم العظيم الذي مارسه الولاة، أو بسبب السرقات التي اقترفت أثناء ولايتهم، لم يعد فقراء الناس يتجرأون على البقاء في ممتلكات الملك، بل ذهبوا إلى أجزاء أخرى أديرت من قبل ولاة آخرين، وحُكمت من قبل حكام آخرين، وفي الحقيقة باتت ولايات الملك مهجورة إلى حد أنه عندما كان أحد الولاة يعقد بلاطه لم يحضره أكثر من عشرة إلى اثني عشر إنساناً.

ومع هذا كله كان هناك عدد كبير جداً من المجرمين واللصوص في باريس والمنطقة المجاورة لها إلى حد أن البلاد كلها كانت مليئة بهم، أما الملك الذي جعل مسؤوليته الرئيسية التعرف على كيفية كان العامة من الناس يحكمون، مع كيفية حماية حقوقهم ومصالحهم، فما لبث أن بات عارفاً بالحقيقة، ونتيجة لذلك حظر بيع منصب الولاية في باريس، ووضع الترتيبات لدفع عطاء جيد وسخي للذين سوف يتولون هذا المنصب في المستقبل، وألغى أيضاً جميع الضرائب والمكوس الذي سببت

فرض مضايقات لا ضرورة لها على الناس، وطلب البحث في جميع أرجاء مملكته عن رجال يتولون الحكم وينفذون العدالة بشكل جيد ودقيق، ولا يميزون الغني ولا يقدرونه فوق الفقير.

وكان واحداً من الرجال الذين ذكروا له اسمه ايتين بويلو Etienne Boileauحيث تسلم منصب الولاية، ومارس عمله بشكل جيد، حتى أن ما من مفسد، أو لص أو قاتل تجرأ على البقاء في باريس،لأن جميع الذين اقترفوا الموبقات شنقوا أو أزيلوا من الوجود، ولم ينقذهم لا النسب، ولا النبالة، ولا الذهب ولا الفضة، وهكذا باتت الأوضاع في ولايات الملك تتحسن، وشرع الناس بالعودة للعيش هناك بسبب العدل الذي ساد، وازداد تعداد السكان كثيراً، وصارت الأشياء والأحوال أفضل بكثير مما مضى، حتى أن البضائع اوالممتلكات وكل شيء آخر بيع بضعف الثمن، ومقارنة بما كان الملك يتسلمه من قبل.

وأصدر الملك مرسوماً آخر، أفاد كثيراً، في تحسين الأوضاع في مملكة فرنسا، وذلك بشهادة عدد كبير من الأشخاص الحكماء والمحترمين، وجاء نص هذا المرسوم كمايلي:

«إنه بالنسبة لجميع المسائل التي أمرنا بها لصالح منافع رعايانا ومملكتنا، نحتفظ لأنفسنا بحق التفسير، والتقويم، والضبط أو التأجيل، حسبما نقرر».

وامتلك الملك لويس من أيام طفولته مشاعر الرحمة نحو الفقراء والمنكوبين، ولقد اعتاد حيثما ذهب على استضافة مائة وعشرين شخصاً فقيراً كل يوم في بيته، وإطعامهم الخبز والخمرة واللحم أو السمك، وفي أيام الصوم الكبير، وقبيل الميلاد كان عدد الفقراء يزداد، وغالباً ما حدث أن قام الملك بخدمتهم شخصياً، حيث كان يضع أطعمتهم أمامهم، ويقطع لهم اللحم، ويعطيهم المال بيديه عندما كانوا يغادرون.

وفي أمسيات الأعياد الهامـة والكبيرة، كان الملك يتولى خـدمة الفقراء بجميع هذه الأشيـاء التي ذكـرتها من قبـل، ويفعل ذلك قبل أن يتناول شخصيـاً أية طعام أو يشرب أيـة شراب، وبالإضافـة إلى هذا كـان لديه عـدداً من الشيوخ والرجـال المعوقين، يدعـوهم لتناول طعام الغـداء أو العشـاء كل يوم إلى جـانب منضـدته الخاصـة، وكـان يأمـر لهم بتقـديم الطعام نفسه الذي كـان يقدم إليه، وبعد تناولهم للطعـام كان يعطي كل واحد منهم مبلغاً من المال ليأخذه معه.

وبالإضافة إلى هذا، اعتاد الملك أن يعطي كل يوم صدقات سخية إلى فقـراء الرهبـان والراهبـات، وإلى المشـافي ذوات الدخل القليل، وإلى الأشخاص الفقـراء من المرضى، وإلى الطوائف الدينية التي لديها القليل من المال، وكـان مثل هذا كـريماً في عطاياه إلى الرجـال والنساء الفقـراء من ذوي الأصل الرفيـع، وإلى بيـوت النسـاء السـاقطات، وإلى فقـراء الأرامل، وإلى النساء العـاملات، وإلى رجـال الحرف من الفقراء، الذين ما عـاد بإمكانهم ممارسة عملهـم بسبب تقدم السن أو نتيجـة للمرض، وكـان الذين ينتفعـون منه في الحقيقـة كثـرة كثيرة حتى أنه من الصعب تعـدادهم،وعلى هذا يمكننا القـول بأن الملـك لويس كـان رجـلاً أعظم سعادة من الامبراطور تيتـوس، الذي تحدثنا عنه الكتابات القـديمة بأنه كان يشعر بالحزن والأسى في أي يوم لم يكن فيه قادراً على تقديم بعض المنافع.

ومن اللحظة التي تولى فيهـا شـؤون المملكة، وأدرك فيها مـا يمتلكه من قـــدرات، بدأ الملك لويـس في بناء الكنائس والكثير مـن البيـــوت الدينية، التي كان منهـا دير رويومونت Royaumont ، الذي لا مثيل له بالجمال والعظمـة، وبنى مشـافي في عـدة أمـاكن، من ذلك على سبيل المثال في باريس، وبونتواز Pontois ، وشامبين، وفيرنون، وقد منح الجميع منحاً ثرية، وأسس دير القديس ماثيو في روان Rouen ، لإقامة

الراهبات من طائفة الأخوان المبشرين، وكذلك دير لونغشامب Long-champ ، من أجل الراهبات من طائفة المينورست Minorsits ، وعين لكل طائفة موارد فائضة من أجل نفقات عيشها.

وسمح الملك لأمه بإقامة دير موبوسون Maubuisson قرب بونتواز، وقد منحها موارد كبيرة جداً، وبنى مأوى للعميان في أطراف باريس، وبيتاً لفقراء سكان المدينة من العجزة، وألحق به بيعة يمكنهم فيها حضور القداسات، وبنى الملك الجيد أيضاً ديراً لرهبان الكارثوشيان Carthusians في فوفيرت Vauvert خارج باريس، ومنح إلى عبيد ربنا هؤلاء دخلاً كافياً للانفاق عليه.

وبنى بعد ذلك بوقت قصير مؤسسة أخرى خارج باريس عرفت ببيت بنات الرب، ووضع في هذه المؤسسة عدداً كبيراً جداً من النساء، اللائي أرغمهن الفقر على ممارسة العهر، وأعطاهن أربعمائة ليرة ذهبية سنوياً من أجل الانفاق على أنفسهن، وأقام في عدد كبير من الأماكن في مملكته بيوتاً للتائبات، وخصص لهذه البيوت دخلاً سنوياً يمكنهم من العيش، واشترط للسكن، أن تكون النساء اللائي يرغبن بالإقامة ممن أردن العيش بطهارة.

وحدث في بعض الأحيان أن بعضاً ممن كانوا من خواصه قد اعتقدوا أن من الخطأ إقدام الملك على الانفاق بهذا الشكل، وقد بدا ذلك لهم إسرافاً في الاحسان،وكان في مثل هذه المناسبات يرد على منتقديه بقوله:«إني أوثر إنفاق المبالغ الزائدة صدقات من أجل محبة الرب، وأفضل ذلك على الصرف في سبيل الأبهة والزينة الفارغتين لهذا العالم».

وعلى الرغم — مع ذلك — من الانفاق الزائد للملك في سبيل الصدقات، إنه لم يتمنع أبداً عن صرف مبالغ ضخمة من المال كل يوم من أجل الانفاق على مؤسساته الذاتية، فقد كان كريم اليدين وسمحاً

في تعامله مع الفرسان والبارونات الذين كانوا يحضرون اجتماعاته ومؤتمراته، وكذلك عامل الناس من حاشيته وأهل بيته بتقدير عظيم، حيث وفّر لهم جميع الاحتياجات، ولم يقتصد في تأمين المؤن لهم وكذلك في الحفاظ على بلاطه على مستوى أعلى كرماً مما كان البلاط عليه من قبل في أيام أجداده.

وأحب الملك لويس جميع الناس الذين كرسوا حياتهم لخدمة الرب، بارتدائهم ثياباً دينية، وما من واحد من هؤلاء جاء إليه وذهب من دون أن يعطيه الذي احتاجه من أجل العيش، فقد اشترى للأخوان الكرمليين أرضاً على نهر السين، قرب شارنتون Charenton ، حيث بنى لهم هناك ديراً، ثم زودوه على حسابه الخاص بالملابس والأواني، والأشياء الأخرى الضرورية من أجل عبادة مخلصنا، وبعد هذا تفحص حاجات أتباع القديس أوغسطين، ولم يكتف بأن اشترى لهم ضيعة كانت ملكاً لواحد من أهل باريس وذلك مع جميع مرافقها وملاحقها، بل بنى كنيسة خارج باب مونتمارتير Mont Martre .

أما بالنسبة لرهبان طريقة البنيتنس Penitence (الصوفية)، الذين يعرفون أيضاً باسم الـ «Sack s»، فقد زودهم عن طريق المنحة بموقع على نهر السين، باتجاه سينت جرمين — دي — بري Germain - des - Pres ، حيث أقاموا هناك، لكنهم لم يقيموا لمدة طويلة، لأن طائفتهم قمعت فيها بعد، وبعد استقرار الـ «Sacks»، توصل رهبان طريقة أخرى عرفت باسم طريقة رهبان«الأردية البيضاء»، ورجوه تقديم المساعدة لهم حتى يتمكنوا من البقاء في باريس، وقد اشترى لهم بيتاً، وبعض الأبنية القديمة القائمة من حوله، حتى يمكنهم الاستقرار قرب الباب القديم للهيكل في باري، وذلك بجوار شارع التيسيراندير Tisserandrie(الغزالين)، وقد قمع رهبان الأردية البيضاء هؤلاء من قبل مجمع ليون، الذي عقده البابا

–٣٠٠٥–

غريغوري العاشر.

وجاء إليه بعد هؤلاء طائفة رهبان أخرى، أطلقوا على أنفسهم اسم:«رهبان الصليب المقدس»، وكانوا يرتدون صلباناً فوق صدورهم، وقد التمس هؤلاء من الملك مساعدتهم، فاستجاب عن طيب خاطر، وأعطاهم بيتاً في الشارع الذي كان يعرف من قبل باسم:«Carrefour du Temple»، لكنه يعرف الآن باسم شارع الصليب المقدس.

وهكذا أحاط الملك لويس الجيد مدينة باريس بأناس كرسوا حياتهم لخدمة الدين.

الفصل التاسع عشر
الحملة الصليبية القاتلة
١٢٦٧ —١٢٧٠

وحدث في أحد أيام الصوم الكبير (لعام ١٢٦٧)، وبعد مضي الأحداث التي أتيت على ذكرها، أن استدعى الملك لويس جميع باروناته للاجتماع به في باريس، وقد اعتذرت شخصياً عن الذهاب بسبب حمى رباعية كنت أعاني منها منذ بعض الوقت، وترجوت جلالته أن يعفيني من هذه الرحلة، غير أنه على كل حال أرسل لي رسالة أصر فيها على حضوري، لأنه كان يوجد في باريس أطباء جيدين يعرفون جيداً كيف يعالجون مثل هذه العلة.

وهكذا ذهبت إلى باريس، لكنني عندما وصلت إلى هناك عشية عيد سيدتنا في آذار، لم أجد أحداً، ولا الملكة، ولا أي واحد آخر، كان بإمكانه إخباري عن السبب الذي استدعاني الملك من أجله، وحدث بإرادة من الرب، أن نمت أثناء الفجر، وخيل وأنا نائم أنني رأيت الملك وهو راكع على ركبتيه أمام المذبح، وخيل لي أيضاً أنه كان هناك عدداً من الأساقفة وهم في حللهم التي يرتدونها للقداس، وقد كانوا يتولون إلباسه حلة كنائسية حمراء من قماش الرايمز الصوفي الخشن.

وبعدما رأيت هذا الحلم استدعيت قسيسي وليم، الذي كان حكيماً جداً، وأخبرته بما حلمت فقال لي: «سوف ترى يامولاي الملك غدا وهو يتناول الصليب»، فسألته عما دفعه لاعتقاد ذلك، فقال لي: بسبب الحلم الذي رأيته، لأن الحلة الكنائسية الحمراء تشير إلى الصليب، الذي هو أحمر اللون بسبب الدم الذي سال من جنب ربنا، ومن قدميه، ومن يديه، وأضاف يقول: «ولأن الحلة من صوف الرايمز الخشن، فهذا يعني

أن الحملة الصليبية سوف تكون ذات منافع قليلة، كما سوف ترى إذا منحك الرب الحياة حتى ذلك الحين».

وبعد سماعي للقداس في كنيسة المجدلية في باريس، توجهت إلى بيعة الملك، وقد وجدته هناك، وقد صعد إلى السدة حيث جرى حفظ الآثار المقدسة، وقد أمرنا بانزال قطعة الصليب الحقيقي إليه، وبينما كان نازلاً ثانية، شرع فارسان كانا أعضاءً في مجلسه الاستشاري بالحديث إلى بعضهما بعضاً، وقال واحد منهما للآخر: «لاتصدقني ثانية إذا لم يقم الملك بحمل الصليب هنا في هذه الكنيسة » فردّ الآخر عليه قائلاً: « ذلك سوف يكون أعظم الأيام حزناً بين ما شهدته فرنسا، لأننا إذا لم نتناول الصليب ونأخذه نحن أنفسنا سوف نفقد حظوة الملك ورضاه، وإذا ما أخذناه سوف نفقد عطف الرب ورضاه، لأننا وقتها سوف نأخذه لا من أجل الرب، بل خوفاً من غضب الملك وعدم رضاه».

وكان الذي حدث هو قيام الملك في اليوم التالي لحمل الصليب، ومعه أولاده الثلاثة، وكانت محصلة الحملة الصليبية قليلة المنافع، كما تنبأ لي قسيسي.

وضغط مللك فرنسا عليّ مع ملك نافار، بكل شدة وعاطفة لحمل الصليب، ورددت على هذا بأنني عندما كنت في بلاد ماوراء البحر في خدمة الرب، والملك، ومنذ أن عدت إلى الوطن، تولى سيرجندية الملك وملك نافار تدمير شعبي وافقاره، حتى أنه لم يكن هناك وقت كانوا فيه— أو يمكن أن يكونوا فيه— في وضع أسوأ، وأخبرتهما أنه إذا توجب علي القيام بفعل مايرضي الرب، فذلك ينبغي أن يكون بالبقاء هنا لمساعدة شعبي والدفاع عنه في مقاطعاتي، لأنني وأنا أرى بوضوح تام المدى الذي سوف يتضرر شعبي منه، إذا ما وضعت حياتي عرضة للخطر بالمغامرة بالذهاب في هذا الحج من أجل الصليب، وقتها سوف أغضب ربنا الذي قدم حياته فداءً لإنقاذ شعبه.

وعـددت جميع الذين أشاروا على الملك بالذهاب في هذه الحملة، قـد اقترفوا ذنباً عظيماً، لأن أحوال البلاد كانت آنذاك في وضع آمن ومستقر في جميع أرجـاء المملكة، وكـذلك كـانت العـلاقـات بين فـرنسـا وبين جيرانها، في حين أنه منذ رحيل الملك، لم يحدث لأحـوال المملكة سـوى المضي من سيء إلى أسوأ.

وبالإضـافـة إلى هذا كـان الذنـب الذي اقترفـه الذين نصحـوا الملك بالذهاب ذنبـاً عظيماً من جانبهم، بعـد رؤيتهم أنه كان ضعيفـاً جداً من الناحيـة الجسـديـة، إلى حـد أنه لم يكن بامكانه تحمـل وضعـه في عـربة مجرورة، أو أمتطاء فـرس، وفي الحقيقـة كان ضعيفـاً إلى حـد أنه تركني أحمله بين ذراعي مـن بيت كـونت دي أوكسير Auxerre ، إلى حيث ذهبت إلى وداعه، إلى دير الفرنسيسكان، وصحيـح أنه كان ضعيفاً، لكنه لو بقي في فـــرنســا لكان من الممكـن له العيش بعض الـوقت أطول، ولفعل الكثير من الأعمال الجيدة، ولنفذ العديد من المشاريع الممتازة.

ولن أحـــاول وصف رحلة الملك إلى تونس، ولا اخبـــاركم أي شيء حدث هناك، لأنني — حمداً للرب— لم أشـارك فيها، وليس لدي رغبة في أن أضع في كتابي شيئـاً لست متأكداً منه تمامـاً، وهكذا سوف أتحدث فقط عن ملكنا القديس، وأخبركم كيف أنه بعدما نزل عند تونس، أمام قلعة قـرطاج سقط ضحية حمى تيفيـة، وتمدد ابنه الأكبر فيليب بسبب حمى رباعيـة، كما أنه اشتكى مما اشتكى منه والده، ولازم الملك فراشـه، وشعر أنه لابد سيغادر هذا العالم إلى العالم الآخر بعد وقت قصير.

وبعث واستدعى ابنه الأمير فيليب وأمره— كما لو أنه كان يدلي إليه بوصيتـه— بمراعـاة جميع التعليمات التي سيتركهـا له، ويمكنك أن تجد هذه التعليمات وقد كتبت بالفرنسية، ويقال إنها كتبت بيد القديس نفسه وجاء فيها:

«ولدي العـزيز، إن أول شيء أود أن ألقنك إياه هـو أن تجعل قلبك محباً للرب، لأنه بدون ذلك لايمكن لأحـد نيل النجـاة، وجنب نفسك اقتراف أي شيء لايكون مـرضيـاً للرب، أي الامتناع عن اقتراف أي ذنب عظيم، وخير لك أن تكون مستعـداً لمكابدة كل صنف من صنوف العذاب، على أن تقترف جناية عظمى.

وإذا مـا بعث الرب إليك مصيبة مـا، تقبلها بصبر، وقـدم الشكر من أجلهـا إلى مخلصنا، واعـدد نفسك مستحقاً لها، وكن آمـلاً أنه سيحـولها لصـالحك، وعلى العكس إذا ما بعث الرب إليك سعـادة، اشكره عندها بتـواضع، حتى لايفسـدك الغـرور، أو أي سبب آخـر، في الوقت الذي ينبغي فيـه لمثل هذه المبـاركـة أن تجعلـك أفضل، لأنه يتـوجب علينا أن لانستخدم عطايا الرب للقتال ضده.

امض دومـاً لتأدية الاعتراف، واختر لتلقى اعترافك رجـلاً مستقيماً وعـاقـلاً، يعـرف كيف يعلملك مـاينبغـي ومـا لاينبغي لك أن تفعل، وتصرف دوماً بذاتك بطريقة تجعل فيهـا المعترف إليه مع أصدقائك غير هيـابين لنقـدك عندمـا تقترف خطيئة ما، وأصـغ إلى قداسـات الكنيسـة المقـدسة باحترام وتقـوى، وبدون تمتمـة، ووجه دعـواتك إلى الرب من قلبك مثلما توجههـا من لسـانك، وخـاصـة أثناء القـداس في لحظة التكريس، واجعل قلبك عطوفاً، ومليئاً بالشفقة نحو الفقراء، والتعساء، والمكنوبين، وواسهم وساعدهم بقدر ما تمتلك من قوة.

وحافظ على التقاليـد الجيدة لملكتك، وأزل العادات السيئة، ولاتكن جشعـاً في مطالبك من شعبـك، ولاتفـرض عليـه ضرائب ثقيلة، إلاّ في حالات الطوارىء.

وإذا شعرت بعبء ثقيل على قلبـك، تحدث عنه إلى الذي تعترف إليه أوإلى رجل عـاقل ومستقيم، غير مهـذار بلسانه، وبهذه الطـريقة سـوف

تكون متاعبك أسهل على الحمل.

احـرص على أن يكون من حولك— سـواء من بين رجـال الدين أو العلمانيين— من هو عاقل ومستقيم، ومخلص، وبريء من الجشع، وأكثر من محادثتهم، وابتعـد عن، وتجنب معاشرة الأشرار، واستمع برغبـة إلى كلمة الرب، واحفظها في قلبك، وكن متشوقاً للصلاة وللعبادة، وأحبب كل ما هو جيد ونافع، واكره ما هو شر، أينما وجدته.

ولاتدع انسـاناً يتجرأ على التفـوه بحضرتك بأي شيء يمكن أن يثير، أو يدفع الناس نحـو الإثم، ولاتدع أحـداً يقترف ما هو ضـار، مثل أن يغتــاب واحــد الآخـر حتى يقلل من شـأنه، ولاتسمح أن يقــال في حضرتك أية كلمـة فيها امتهـان للرب ولقـديسيه، وقـدم الشكر للرب بشكل دائم من أجل جميع الأشياء الجيـدة التي أعطاها لك، لكي تكون جديراً في تسلم المزيد من المنافع.

ولكي تتعـامل بعــدل واستقـامـة مع رعـايـاك، كن مستقيماً وثابتـاً، ولاتنحرف لاذات اليمين ولاذات الشمال، بل اتبع دوما ما هو صحيح، واحـرص على مصلحـة الفقير حتى تتضح الحقيقـة، وإذا مـا رفع أحـد دعوى ضـدك، قم باستقصاء كامـل حتى تعرف الحقيقة، فـوقتها يمكن لمستشاريك— وقـد صارت الحقائق أمامهم— اصـدار الحكم بثقة أكبر سواء أكان ذلك لك أم عليك.

وإذا حدث من خـلال عملك، أو عمل أسلافك أن تملكت أي شيء ينبغي أن يعود إلى انسان آخر، وتبرهن على حقه بدون أدنى شك، أعده له بدون تأخير، ومن جهـة أخرى إذا وجد بعض الشك حـول المسألة، اطلب البحث فيهـا، فـوراً، وبكل دقـة، وذلك مـن قبل رجـال حكماء وذوي معرفة.

وينبغي عليك الانتبـاه إلى أن رعاياك يعيشـون بسـلام وباستقامـة في

ظل حكمك، وحافظ فوق كل شيء على مدنك الجيدة، وعلى طوائف مملكتك، واحرص على أن يكونوا في الحالة نفسها، مع الامتيازات ذاتها، التي تمتعوا بها في ظل أسلافك، وإذا كان هناك أي شيء يحتاج إلى الاصلاح، افعل ما هو ضروري لجعله مستقيماً، وأبقهم دوماً في إطار رعايتك وحبك، لأنه بسبب ثراء وقوة مدنك العظيمة، لن يتجرأ ليس فقط رعاياك، وخاصة لورداتك الكبار وباروناتك، بل أيضاً شعب البلدان الأخرى، على القيام بأي عمل ضدك.

وامنح الحب والاحترام لكل الناس العاملين في خدمة الكنيسة المقدسة، واحرص على أن لايتولى أحد حرمانهم أو اغتصاب العطايا والهبات التي منحت إليهم من قبل أسلافك.

ويحكى عن جدي الملك فيليب، أن واحداً من مستشاريه قال له مرة بأن العاملين في الكنيسة المقدسة يسببون له الضرر والأذى، بحيث يتولون حرمانه من حقوقه ويتطاولون على سلطاته، وإنه لمدهش جداً بسماحه لهم بفعل ذلك، وأجابه الملك الجيد، بأن هذا ربما كان صحيحاً، لكن بعد تقديره للمنافع التي أضفاها الرب عليه، والعطف العظيم الذي أغدقه عليه، ارتأى أنه من الأفضل غض النظر عن بعض حقوقه، بدلاً من انشاب نزاع مع رجال الكنيسة المقدسة.

احترم أباك وأمك وبجلهما، وأطع أوامرهما، واعهد بمصالح الكنيسة المقدسة إلى أشخاص مستقيمين في أخلاقهم وطاهرين في حياتهم، وافعل هذا بناء على نصحية الرجال الأفاضل والشرفاء.

واحذر من مباشرة الحرب ضد أي أمير مسيحي من دون تمعن عميق، وإذا كان لابد من مباشرتها، خذ حذرك من ايذاء الكنيسة المقدسة، أو جلب الضرر إلى أي انسان لم يسبب لك الضرر، وفي حالات الحرب وإثارة الفتنة بين رعاياك، أقم السلم فيما بين المتنازعين

بأقصى ما يمكنك من سرعة.

وابذل قصارى عنايتك في أن تعين نوابا صالحين وعمالاً مستقيمين، وافحص دوما شؤونهم وتعرف إلى أخبارهم، وانتبه أيضاً إلى الناس المرتبطين ببيتك، واعرف كيفية سلوكهم، وفيما إذا كان أياً منهم منصرفاً إلى شرور الجشع المفرط، أو الكذب، أو السلوك المخادع، واسع إلى أن تطرد من بلادك جميع الممارسات المعجوجة وغير المستقيمة، وابذل بشكل خاص كل ما أوتيته من قوة لاجتثاث الأيمان الشريرة، والهرطقة، واحرص على إبقاء نفقات بيتك في الحدود المعقولة.

وأخيراً أرجوك ياولدي العزيز على قلبي أن تأمر بترتيل القداسات على روحي، وإقامة الصلوات في جميع أرجاء مملكتك، وأعطني حصة كاملة وخاصة في كل عمل صالح تعمله، وأعطيك ياولدي العزيز كل التبريكات الجيدة التي يمكن لأب أن يعطيها لابنه، ليحفظك الثالوث المقدس مع جميع القديسين، وليدافعوا عنك ويحموك من كل شر، وليمنحك الرب النعمة حتى تنفذ إرادته دوماً، وليكن الرب موقراً من خلالك، وأن نكون أنا وأنت، بعد انتهاء هذه الحياة الفانية، معه معا، وأن نتحد في حمده إلى أبد الآبدين. آمين».

وعندما أكمل الصالح إعطاء هذه التعليمات إلى ابنه، بدأ المرض الذي كان يعاني منه يزداد قوة في الاستبداد به، وقد طلب قرابين الكنيسة المقدسة، وتلقاهم بذهن واضح، ويتملك كامل لسماته وقدراته، ووضح هذا من حقيقة أنه بينما كان الكهنة يمسحونه بالزيت، ويرتلون سبعة مزامير خاصة، ردد بدوره كل بيت شعر خلفهم.

وسمعت ابنه كونت دي ألنكون Alencon ، يقول أنه عندما اقترب الملك من الموت دعا القديسين لمساعدته وحمايته، وخص بالدعاء القديس جيمس، وكان يتلو وهو يدعوه دعاء الرسول الذي يبدأ بـ:

«Esto Domine» الخ، أي أن تقول: «أيها المولى كن مقدساً لشعبك وحامياً»، ثم نشد العون من القديس دنس، القديس الراعي لفرنسا، وتلا أدعيته التي تقول: « امنحنا أيها المولى الرب القدرة التي نتمكن فيها من ازدراء متع هذه الدنيا، حتى نتمكن من الوقوف دون خوف من المصائب».

وسمعت أيضاً كونت دي ألنكون— عليه الرحمة من الرب— يحكي كيف أن أباه بعدما توجه بالدعاء إلى القديسة جنيفيف، طلب هذا الملك القديس أن يمدد فوق فراش مغطى بالرماد، حيث صلب يديه فوق صدره، ونظر نحو السماء، وسلم روحه إلى خالقنا، وكان هذا في الساعة نفسها من اليوم الذي مات فيه ابن الرب على الصليب من أجل خلاص العالم.

وإنه لواجب مقدس، وعمل موائم أن يبكي الانسان من أجل هذا الملك القديس، الذي حكم مملكته وحافظ عليها باستقامة وباخلاص، والذي كان كريما في إعطاء الصدقات هناك، والذي أقام هناك عدداً كبيراً من المؤسسات الخيرية، ومثلما يزين الناسخ، عندما ينسخ مخطوطة كتابه، بالذهب واللازورد، كذلك زين ملكنا مملكته بكثير من الأديرة الجميلة التي بناها فيها، وبعدد من المشافي والبيوت للاخوان المبشرين، والفرنسيسكان، وللطوائف الدينية الأخرى، التي حدثتكم عنها، وفي غداة عيد القديس بارثلميو الرسول، وفي سنة ١٢٧٠ لتجسيد مولانا، انتقل الملك الصالح لويس من هذا العالم، وقد وضعت عظامه في نعش وحملت إلى فرنسا، حيث دفنت في كنيسة القديس دنس، وهو المكان الذي اختاره لدفنه، ومنذ ذلك الحين، أظهر الرب كثيراً من المعجزات الرائعة، تمجيداً له، وبسبب صلاحه.

الفصل العشرون
تطويب القديس لويس
١٢٨٢ — ١٢٩٨

بعـد مضي بضع سنوات على وفـاة الملك لويس، وبناء على طلب مستعجل من الملك الذي كان يحكم فرنسا، وعلى أمر البابا، جاء رئيس أساقفة روان والراهب جين دي سامو Samois — الذي أصبح بعد ذلك أسقفاً — إلى كنيسة القديس دنس في جزيرة فرنسا، وبقيا هناك ردحاً طويلاً من الزمن للقيام بالبحث والتقصي في حياة، وفي أعمال، وفي معجزات هذا الملك القديس، وقد دعيت لمقابلتهما، وقد احتفظا بي هناك لمدة يومين، وبعدما سألوني وسألوا آخرين، بعثا بها وجداه وتيقنا منه إلى بلاط روما، وقام البابا والكرادلة بتفحص البينات ووضعوه في عداد المؤمنين المعترفين.

وعم لذلك سرور عام — وكان هذا جديراً أن يحدث — في جميع أرجاء مملكة فرنسا، وزيادة على هذا، كان ذلك تشريفاً عظيماً للذين هم من نسل الملك ويفعلون مثله الأعمال الصالحة، وبالوقت نفسه وصمة عار للمنحدرين منه ممن لن يسيروا على نهجه في الأعمال الصالحة، وأكرر وصمة عار عظيمة إلى الذين من نسله واختاروا اقتراف الشر، ذلك أن الناس سوف يشيرون بالإصبع إليهم، ويقولون كان الملك القديس — الذي انحدروا منه — سيأنف من العمل بمثل هذا السوء.

وبعد وصول الأخبار الطيبة من روما، أمر ملك فرنسا، بالقيام في غداة يوم عيد القديس بارثلميو(٢٥ — آب ١٢٩٨) برفع الجسد المقدس من قبره، وبعد تنفيذ ذلك، كان أول من حمله رئيس أساقفة الرايمز آنذاك — عليه الرحمة من الرب — مع ابن أخي، الذي كان

وقتذاك رئيس أساقفة ليـون، وتمّ حمله بعد ذلك من قبل عدد كبير من رؤسـاء الأساقفـة الآخرين والأسـاقفـة، وكانوا أكثـر من أن أتمكن من تسميتهم، ورفعوه أخيراً إلى سدة بنيت خصيصاً لذلك.

وفي أثناء القداس تولى الراهب جين دي سامو تقديم الموعظة، ولدى تعداده للأعمال النبيلة التي قام بها ملكنا القديس، أتى على ذكر عدد من الأفعـال البـاهرة التي شهـدت على صحتهـا بأداء اليمين، والتي كنت حاضراً لدى حدوثها، وقد قال:«وهكذا يمكنكم أن تروا أن الملك كان الأعظم إخلاصـاً، والرجل الأكثراستقامة في أيامـه، وسوف أخبركم أنه كان رجلاً حافظ على كلمتـه، ووفى باتفاقية عقدها مع المسلمين، مع أنه عقدها بكلمة تفوه بها فقط، ولو أنه لم يحافظ على وعده ونكث به، لكان وفّـر على نفسـه عشرة آلاف ليرة ذهبيـة أو أكثـر»، ثم روى لهم القصـة كاملة التي سلف وحكيتها في جزء متقدم من هذا الكتاب، وبعدما فرغ من الحكاية أضـاف قـائـلاً:«لا تظنوا أنني أكـذب عليكم، لأنني أرى أمامي الرجل الذي شهد هذه الواقعة، وقد أكد شهادته باليمين».

وبعـد انتهـاء القـداس، قـام الملك وأخـوته بحمل جسـد القـديس، وأعادوه إلى الكنيسة بمساعـدة آخرين من أسرتهم، الذين كانوا جديرين بهذا التشريـف، وفي الحقيقـة لقد شرفـوا تشريفـاً عظيماً، لو أنهم برهنوا فقط أنهم بأنفسهم جـديريـن بذلك، حسبما قلت أعـلاه، ودعـونا نصلي الآن إلى الملك القديس، وندعو الرب أن يعطينا ما نحتاجه إلى أرواحنا، وأجسادنا، آمين.

ولسوف أحـدثكم عن بعض الأمور لصـالح تشريف ملكنا القديس، من ذلك على سبيل المثال مـا رأيته مرة وأنا نائم في الفـراش، فقد خيّل إليّ في منامي أنني رأيت الملك واقفـاً أمام بيعتي في جوانفيل، وقـد كان — كما أعتقـد — مبتهجـاً بشكل رائـع، ومسروراً من قلبـه، وكنت أنا مسروراً جداً لرؤيته في قلعتي،وقلت له:«عندما تذهب من هنا يا مولاي

سوف أقيم مكاناً لك في بيت أنا أمتلكه في قـرية ملكي اسمها شيفيلون Chevillon، فأجـابني وهو يضحك:«مـولاي صـاحب جـوانفيل ليس لدي رغبة بالرحيل من هذا المكان سريعاً».

وعندمـا استيقظت بدأت بالتفكير، وقــد بدا لي أنه سيكون مـرضيـاً للرب وللملك إذا مـا أسكنتـه في بيعتي، وهـذا مـا فعلتـه، لأنني بنيت مذبحـاً من أجله، تمجيداً للرب، وتمجيـداً له أيضاً، ولسـوف تقام هناك القـداسـات تكريماً لذكراه على الـدوام، ولقد أوجـدت وقفـاً دائماً حتى يمكن فعل ذلك باستمرار، وأخبرت بهذا كله مولاي الملك لويس(ملك نافـار) الذي ورث اسمـه، ويبدو لي أنه سـوف يفعل مـا يرضي كل من الرب وملكنا القـديس لويس، إذا مـا اشترى بعض الآثـار المقـدسـة الأصيلة من الجسد المقدس، وبعث بها إلى البيعة المتقدمة الذكر، أي بيعة القديس لورانت Laurent في جوانفيل، وبذلك يتمكن الذين سوف يأتون إلى مذبح الملك القديس، من التعبد هناك بإيمان أعظم.

وبودي أن يعلم الجميع أنني شخصيـاً رأيـت بالفعل وسمعت شطراً كبيراً مما حـدثتكم به هنا، فيما يتعلق بملكنا القـديس، وهناك جـزء كبير منه تأسس على ما وجدته في أحـد الكتب، الذي دون بالفرنسية، والذي قمت بدمجه في هذا التـاريخ، وألفت هنـا انتبـاهكم إلى هذا، حتى يضع الذين يسمعـون هذا الكتاب أو يقـرأونه كامل الثقـة في صدق مـا قلت أنني رأيته وسمعته، أما بالنسبة للأشياء الأخرى المدونة هنا، لا يمكنني كفالة صدقها، لأنني لم أشهدها شخصياً.

وكان الفـراغ من هذا الكتاب في شهـر تشرين الأول من سنة ١٣٠٩ لتجسيد ربنا.

٢
التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني

مدخل

منذ نشوء الأبجدية المصروبية Mesrobia ، تعلق الشطر الأكبر من الأدب الأرمني بالأحداث التاريخية، وذلك لأن الأرمن أخذوا أوضاع بلادهم بعين التقدير، ولقد كان مردّ ذلك إلى التأثير الخارجي.

وكان الأرمن — والحق يقال — أشبه بالصخرة، ارتطمت بها أمواج الفاتحين من الفرس والعرب، والترك، وهكذا عرف الشعب الأرمني أوضاعاً ما كان ليحسد عليها، لكن نظرة إلى الموضوع من زاوية أخرى ترينا حالة الأرمن حالة متميزة جداً، لأنهم كانوا الشهود على قيام كبريات امبراطوريات الشرق التي أطلت على البحر المتوسط، وأيضاً على انهيارها، ومنذ أن اعتنق الأرمن المسيحية، ظلت بلادهم جزيرة مسيحية، على الرغم من جميع التغيرات والتحركات المذهلة التي شهدتها شعوب المنطقة، ولهذا حافظت أرمينيا على ثقافتها، مع أنها تعرفت بشكل مباشر في غالب الأحيان على الشعوب التي وطئت أقدامها المنطقة، ولعل هذا الوضع الحساس للشعب الأرمني، كان السبب الرئيسي في ظهور مؤرخين مشاهير من أمثال: الياس، الذي احتوت مؤلفاته على أخبار الحروب الساسانية، وليون الذي كتب عن الفتح العربي، وأرستاك لاستيفركي، الذي تولى التأريخ للسلاجقة، وتولى متى الرهاوي تدوين أخبار الآثار التي نتجت عن الغزو الصليبي لأرمينيا، خاصة ردات الفعل الأرمنية تجاه هذه الحروب، التي عدّت لمصلحتهم في القرن الثاني عشر م، وجاء غريغوري لي بريتري بعد الرهاوي وأكمل عمله، وكانت أعداد كبيرة من الأرمن هاجرت من بلادها إلى كليكية، وأرض الشام ومصر، وتمكن الأرمن من السيطرة على كليكية، وأقاموا فيها دويلة، شغلت دوراً هاماً في حياة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها مع المسلمين ولا سيا في حلب، وتهتم الدراسات

الحديثة بتاريخ هذه الدويلة، ولاسيما من قبل الأوساط الإسرائيلية التي لها علاقة بها، لأنها قامت في وسط غير صديق من جميع الجوانب، فسكان كليكية العرب كانوا ضد الأرمن الذين تسلطوا عليهم، ولم تكن علاقة هذه الدولة جيدة لا مع البيزنطيين، ولا مع الصليبيين ولا مع المسلمين، لكن استطاع بعض الحكام شغل دور استغلال التوازنات بشكل بارع، ويظل من أهم جوانب تاريخ دولة أرمينيا الصغرى علاقاتها مع أنطاكية ثم تحالفها فيما بعد مع المغول، لدى قدوم هؤلاء للسيطرة على بلاد الشام، ولقد ظلت معلوماتنا عن هذا الجانب غير كافية حتى تم العثور على تاريخ نسب إلى القائد سمباط، الذي عاصر جوانفيل.

ورأينا المدى الكبير الذي اهتم به جوانفيل بالموضوع المغولي، وهو الموضوع الذي سنوليه المزيد من الاهتمام بنشر مصادره الأساسية.

وأثارت مسألة نسبة الكتاب إلى سمباط عدداً من المشاكل، وبداية يلاحظ أن الكتب عن المصادر الأرمنية، فيها إشارة إلى تاريخ صنفه سمباط، وخير مثال على ذلك تم العثور على ثبت فيه أسماء المؤرخين الأرمن، وتاريخ هذا الثبت هو ١٧٩٠ — ١٧٨٩ ، وقد ورد فيه ذكر كتاب اسمه«تاريخ ملكية روبين» قام بوضعه سمباط، وكان الأب ميخائيل تكمتشين قد تحدث عن سمباط في كتاب«تاريخ أرمينيا»،(ط ١٧٨٦ — ج٣ ص ٣٣٥) ، وجاء ذلك في معرض حديث هذا الأب عن بعض المؤرخين الأرمن الذين فقدت كتبهم، وكان علينا أن ننتظر حلول القرن التاسع عشر كي نحصل على ما هو منسوب إلى سمباط دون أدنى ريب.

وجاء العثور الأول على تاريخ سمباط، لدى زيارة المستشرق الفرنسي م.ف.بروسي للمكتبة التي امتلكها دي ايجيمشين، حيث عثر على نسختين من تاريخ منسوب إلى سمباط، ثم تطورت هذه المسألة

وتقدمت بالعثور على العديد مـن النسخ، كان من بينها اثنتين من مكتبة القـديس لعـازر في البندقيـة، ومـع تزايد الاهتمام بهذا الموضـوع جـرى التعـرف على مخطوط أرمني في المتحف البريطـاني(رقم ٥٤٥٨) تشـابه بمضمـونه إلى حـد كبير مع الذي عثـر عليـه عند ايجيمشين، والذي اختلف به مخطوطا ايجيمشين هو أنهما احتويا على بعض الأناشيـد الدينية والقصائد.

وقـام في سنة ١٨٥٦ الـروسي جـورجيـان يوهانسنـك بنشر التـاريخ المنسـوب إلى سمبـاط اعتماداً على إحـدى مخطوطتي ايجيمشين، وقـام في سنة ١٨٥٩ كرابات فـاردابت شاهنزاريان بإعادة نشر التـاريخ المنسوب إلى سمبـاط، ولم تختلف طبعتـه كثيراً على مـا كـان قـدمـه أوسكان إلاّ بوجود قصيدة نظمها غريغوري العينزربي على شرف الملك أوسيم، لكن والحق يقال إن نص كرابات أكثر دقة مما جعل منه قاعدة لأعمال الترجمة المقبلة، وفي الوقت نفسـه لوحـظ أن نص مخطوطتي ايجيمشين ليس فيـه لغة عامية أرمنية.

ونسب علماء القـرن التاسعَ عشر نص ايجيمشين إلى القـائد سمبـاط، وكان من هؤلاء الأب أليكان في كتـابه عن أرمينيا الصغـرى في كليكية، وجاءت معـرفته بهذا الكتـاب عن طريق أخيه سيروف مـارجر أليكان، فهـو قد عثـر في ١٨٧٦ على مخطوط في القسطنطينيـة، وقـدمه إلى أخيـه الأب أليكان، ويرجح أن هذا الأب قـد قـدم هذا المخطوط إلى مكتبـة Mekhitaristtes في البندقية، وهناك منح هذا المخطوط رقم / ١٣٠٨ / ، وسجـل تحت عنوان«تـاريخ متـى الرهـاوي وأخبـــار الكليكيين لسمباط».

واقتبس الأب أليكان في كتـابه عدة مقاطع من هـذا المخطوط، وكان كتابه هـذا قد نشر سنة ١٨٨٥ ، وإثر ذلك عملت دور النشر الفرنسية على ترجمته هذا الكتاب، وكتاب آخـر له عن ليون العظيم، وكان كذلك

قـد اعتمـد فيـه على تـاريخ سمبـاط، ثم قـام هذ الأب بمـزيد من الاقتباسـات من هذا التاريخ في كتـاب عن هيتوم، نُشر في البندقيـة سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، وبعـد هذا بسنوات قـام المستشرق الفـرنسي كلود كاهين بإعداد أطروحته للدكتوراه عن سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبيـة (باريس ١٩٤٠)، وهنا أعـرب عن أهميـة الكتـاب المعـزو إلى سمباط.

ولاقى هذا الكتـاب المزيد من الاهتمام في فرنسـا وإنكلترا والولايات المتحـدة، وقـام في سنـة ١٩٥٦ سيروب أكليـان، بقـراءة نصـوص المخطوطات المتوفـرة قراءة واعيـة، وإعادة صياغتهـا، وسهل هذا ترجمة الكتاب إلى بعض اللغات الأوربية،وتسهيل التعامل مع مواده، ومع هذا لوحظ أن نص مخطوط البندقية قد كتب بعـامية أرمنية، فيه كلمات كثيرة مستعـارة واصطـلاحـات صعبـة التفسير، وقـد أثار هذا مسألـة نسبـة الكتـاب، لأن الذي عرف عن سمبـاط علو الثقافـة وصحة اللغـة. وفي مناقشـات مسألة نسبـة الكتاب إلى سمبـاط أو نفي ذلك لم تتـوفـر أدلة قاطعـة على صحة النسبة، لكن الذي تـأكد هو صحة نسبـة الأخبار له، إنما قـد يكون مجهول قـام بإعـادة صيـاغة الكتـاب، ومن ثم أقحم فيـه بعض المواد من مصادر أخرى لا سيما مما جاء لدى متى الرهاوي.

وخلصت الأبحـاث التي تناولت نصـوص المخطوطات، إلى التسليم بأن الأصل الـذي تم الاعتماد عليـه صنف في القـرن الثـالث عشر، وصـاحبه مـن الأسرة الملكية الهيتـوميـة الأرمنية، ومـواده عن أحـداث الحروب الصليبية المبكرة مختصرة ومتوفرة في مصـادر أخرى أفضل، أما عن كليكية مع المتأخر من أحداث الوجود الفرنجي في المشرق وتداخله مع قدوم المغـول، فهذا هام ويكاد يكون أساسيـاً، وسيظل كذلك حتى تتهيأ فرصة سعيدة يعثر بها على نسخة صحيحة من تاريخ سمباط.

التاريخ المعزو
إلى
القائد سمباط

١ — *دخول مانويل كومينوس إلى أنطاكية*

قـررملك القدس، وأمير أنطاكيـة، وطوروس، والداوية والاسبتـارية إمداد الصليبيين الذين أتوا وخيمـوا أمام أنطاكيـة، وبعث ملك القدس من جهة أخـرى مع بقية القـادة يحثون الامبراطور الاغـريقي(البيزنطي) على القـدوم لمسـاعـدة المناطـق الصليبيـة، ووافق الامبراطور على ذلك، ووعد بالقدوم إلى أنطاكية، لكن وعـوده لم تكن خالصة، ولانيته حسنة، فقد كـان يخطط بالفعل للدخول إلى أنطاكيـة، ليس لانجاز عمل مهم ، ولكن لرغبة جـامحة كانت تدفع به نحو النساء، فقـد كان يفكر بالزواج بواحـدة من بنات بوهيمـوند أمير أنطاكيـة، وقد جـاء ليرى إن كـانت الفتاة تناسب ذوقه، ولم يكن قد أخبر أحداً بما هو عازم عليه .

وقام مـانويل في تلك الأيام بإعطاء بلدوين ملك القـدس — الذي كان رجـلاً له بنية عمـلاقة — هدايا ثمينة، وتوّجـه بتاج ملكي، وخلع عليه ثياباً لها قيمـة عالية، كما منحه سرادقاً ملكيـاً، ملأه بالأواني الفضية والذهبية، وجميع أنواع الأثاث، حسبما جـرت العادة، وأهدى كذلك إلى القـادة التابعين له هدايا ثمينة، وخـص واحداً منهم اسمـه فيليب، ومع هذا توجــه هذا إليــه بخطاب كلماته لا يمكن أن تمحى من الذاكــرة، فعندمـا بعث إليـه الامبراطور بثلاثـة رؤوس من الخيل، محملة بالذهب وبالملابس الثمينة، وقف وقدم شكره له، وبعدها كلف رسوله أن يقول لسيده:«نحـن لم نأت إلى لقائك هنا من أجل كنوز ومـلابس، ولكن من أجل سـلام المسيحيين، وإذا كان هذا مـا ترمي إليه، فسـوف نضع تحت تصرفك رجالنا، وكل فرقنا، وجميع مـا نملك، وحيثما كان القتال سوف ترى أي مقـاتلين لديك، وكـذلك أعط ذهبك إلى الفقـراء، ولكن إذا لم تتصرف كما طلبنا منك، ووعدتنا به بانقـاذ المسيحيين، فإنه ليس لذهبك أدنى قيمة بنظرنا».

وشرعوا بعد ذلك بـالإعداد لدخول أنطاكية حسب الطريقـة التالية:

فقد زينوا أبواب المدينة والأسوار، ورفعوا العلم الامبراطوري فوق الأسوار، ومركزوا جنوداً على أبواب المدينة تحت أوامر قادتهم، وكذلك في الأزقة، وهناك تمركز بعض القادة أيضاً، وأغلقوا داخل أنطاكية بكتائبهم، وزعقت بعد ذلك الأبواق، ودخل الامبراطور مرتدياً الثياب الامبراطورية، والتاج على رأسه، حيث تشع الأحجار الكريمة مثل نجوم ساطعة، وتقدم على حصانه الملجم بلجام ذهبي، وقد اصطفت العساكر على الطرفين: عن يمينه وعن يساره، وسار بخطى صغيرة، وكان يسير أمامه ملك القدس متوجاً بإكليل، وممتطياً حصاناً، وأمير أنطاكية، ولكن سيراً على الأقدام، دليلاً على الذل والإهانة.

وفق هذه الطريقة دخل الامبراطور الاغريقي مانويل إلى أنطاكية مع ملك القدس بلدوين، وبعدما سار حتى وسط المدينة، قصد كنيسة القسيان(القديس بطرس) ومقر الكرسي البطريركي، وهناك قدم نفسه، ثم عاد أدراجه.

٢ — *مراسلة مانويل لنور الدين*

وعندما علم نور الدين بن زنكي بأخبار هذا الحشد الكبير، وكان آنذاك كبير أمراء حلب، استولى عليه الرعب، وخاف من هذا التجمع الكبير للقادة المسيحيين، فاستنفر قلاعه كلها، واستعد للحرب، ونشر القوى والقادة في جميع الأماكن المناسبة، ونقل ذخائره إلى الجانب الآخر من الفرات.

وبعد بضعة أيام بعث الامبراطور رسولاً إلى نور الدين، مع رسالة طالبه فيها بإعادة جميع أراضي أنطاكية، وكذلك بالرها وأراضيها، التي نظفها من الصليبيين، وأمر بإعادة الأسرى المأخوذين من جميع الأمم المسيحية، والذين كانوا يعانون في السجون لديه.

وعندما رأى سلطان حلب، أي نور الدين الرسول، وقرأ الرسالة

التي حملها، ارتاح من الهموم وزالت مخاوفـه التي كانت تراوده، وبما أنه كان مـاكراً، فقـد استطاع أن يقدر مـدى قوة الجيـوش المحتشدة، بما أن المطالب لم تأت بالسيف والرمح، وإنما بالورق والمداد، وبناء عليه أجاب الامبراطور بعدم الطـاعة، ورفض مطالبه كليـاً، ولدى سماع الامبراطور بجـواب نور الدين دعـا إلى اجتماع لجميع القـادة لإقـرار الجواب الذي يتوجب إرساله إلى نور الدين.

٣ — تراجع مانويل بدون قتال

ووقع ملك القدس وأمير أنطاكيـة وباقي السادة على قـدمي مانويل الامبراطور الاغريقي قائلين:«يا مولانا لا تغير فرحتنا الكبيرة إلى حزن، ذلك أن اتحادنا يوهـن أعـداء المسيح، ويغـرقهم باليأس، وإذا مـا وقع اختيارك على إقـامة السـلام معهم عوضـاً عن القتال، فلسـوف يزيلون بضربة واحـدة اسم المسيحيين من على وجه الأرض، ولسـوف يحتقرون المسيحيين ويأسرونهم بـدون وجل، لأننـا سـوف نكـون مـوضع سخريتهم».

ولكن مـانويل لم يهتم بهذا، وأصر على العـودة، واحتج بتوفـر بعض الأسبـاب الطارئـة وقـال:«تلقيت معلومـات من العـاصمـة ولهذا أريد استعجال العودة» وهكذا تعلل كـذباً، ثم زاد من كذبه من أجل العودة، عندمـا رجـاه الجميع وهـم يشعـرون بحزن عميـق، لعدة مـرات، بعـدم العـودة مبـاشرة، وتخصيص ثلاثة أيام فقط لحملة ضـد حلب، وبعـدها يعقد السلام مع المسلمين، إذا كان ذلك ما يريده، ويمليه عليه قلبه.

غير أن مانويل لم يعر توسلاتهم أدنى اهتمام، ولم يرد خدمة مصالح المسيحيين، لذلك بعـث برسـول إلى نور الدين، فعقـد معـه الصلح، واندهش المسلمـون لما حـدث لدى سماعهم الأخبـار، لأن ذلك لم يكن متوقعاً لديهم، فقد كانوا ينتظرون رؤية الهزيمة.

وأدركوا أنهم نجوا بدون سفك للدماء، ولا حرب مخيفة وقاسية، ذلك أنهم كانوا يحسبون السفراء جواسيس، لكنهم تأكدوا الآن من الحقيقة منهم، ومع هذا لعظيم فرحتهم لم يصدقوا، ولم يقنعوا أن ما حدث كان صحيحاً، ولهذا احتاروا أي جواب يعطون، وبعدما تيقنوا من صورة الحال بعثوا إلى الامبراطور أموالاً كثيرة وهدايا نفيسة، وجياداً أصيلة، وبغالاً جميلة، وبعثوا مع هذا كله بخمسين من الأسرى المسيحيين.

وعندما عاد مانويل، الامبراطور الاغريقي الشجاع، الذي قدم كنسر قوي، ورجع كثعلب ضعيف، وابتعد كجبان، على الرغم من جميع الفرسان الذين كانوا لديه، وتابع سيره حتى وصل إلى بلدان السلطان قلج أرسلان، ووقتها انقض عليه التركمان والأوج، وهاجموا ساقة جيشه، وقتلوا اثني عشر ألف رجل من أتباعه، مما نجم عنه عداوة حادة بين الامبراطور والسلطان، أما فيما يتعلق بطوروس فقد تدبر أمر انسحابه بسلام.

(الوقائع من ١١٦٠ حتى ١١٧٥ ، مماثلة لما ورد في مخطوطة الجيمشين).

٤ — *اغتيال ستيفاني من قبل الاغريق*

في سنة ٦١٤(٨ شباط ١١٦٥ — ٧ شباط ١١٦٦) قتل ستيفاني بن ليون، وأخو طوروس أمام هاموس في كليكية، وجاء ذلك نتيجة مؤامرة دبرها دوق الإغريق،فقد استدعاه المسيحيون المحليون باسم الصداقة، وعندما انفردوا به، أزالوه من هذا العالم بموت بشع، حيث سلقوه في قدر، دون أن يبالوا بجندي مثله،وقد ترك ولدين هما:روبن، وليون، أما فيما يتعلق بأخويه طوروس ومليح فقد عبرا عن انتقامهما بطريقة خيانية، حيث صبا انتقامهما على ألف إغريقي بريء سفكا دماءهم،

وهم لا علاقة لهم بها تحمل الدوق مسؤوليته.

٥ — انتصار الجيورجيين

وزحف في السنة نفسها جورجي ملك الجورجيين مع جيشه ضد دوين، وقد خرج المدافعون عنها لصده وقتاله، لكن جورجي هزمهم وأرغمهم على الفرار والاعتصام داخل المدينة، وطاردهم جنود الملك، ولم يرفعوا سيوفهم عنهم حتى أبادوهم، وألقوا النار في المدينة، وبعدما حولوها إلى خراب انسحبوا.

٦ — مؤامرة مليح ضد طوروس

وتصرف في هذه الآونة طوروس المنتصر، ابن ليون بحذر، وأمّن الدفاع عن المناطق الجبلية في جبال طوروس، التي كان هو حاكمها، أما أخوه مليح فكان رجلاً شريراً وقاسي القلب وبلا رحمة، حيث خطط لقتل أخيه، ورسم خطته وقرر تنفيذها مع أشخاص آخرين، وفي أحد الأيام بينما كانوا يصطادون فيما بين المصيصة وأذنة، قرر مليح قتل أخاه هناك في ذلك المكان، غير أن طوروس الذي كان ينتظر مثل هذا العمل اعتقل أخاه، لأنه كان متيقظاً، واستجوبه أمام الجيش مع كبار القادة عن الأسباب التي دفعته لاقتراف مثل هذا العمل، ووبخ مليح بحضورهم توبيخاً قاسي اللهجة، وأعطاه بعد ذلك جياداً وبغالاً ومالاً وسلاحاً وبعض الرجال وطرده إلى خارج البلاد، دون أن يعاقبه أكثر على فعلته، واتجه مليح إلى صاحب حلب، نور الدين، ودخل في خدمته، فأقطعه قورس وأراضيها.

٧ — الأسرة الهيتومية

كانت زوجة ستيفاني ابنة للبارون سمباط صاحب بابيروان(١)، أخو أوشين صاحب لامبرون(٢)، كما كانت أختاً لباكوران، الذي حكم بابيروان بعد مقتل أبيه سمباط من قبل جيوش طوروس على أبواب

المصيصة، وحسبما ذكرنا من قبل، قد قامت هذه الأميرة بالاعتصام في بابيروان بجوار أخيها باكوران، واستقرت هناك، وربت أولادها، وكانت هذه اسمها ريتا، وكانت عاقلة تقية، وتخاف السيدة، وكان لدى باكوران أخ اسمه كاساك، وكان هذا صاحب قلعتي أسكوراس(٣)، ولاماوس(٤) وأراضيهما، وكان باكوران صاحب بابيروان رجلاً طيباً وكريماً، وحريصاً على الجميع ومحبوباً من الرب ومن الرجال، فليبارك الرب ذكراه، وكان لكل من باكوران وكاساك أخ آخر اسمه هلكم، هذا وكان كاساك والد أول البارونات.

٨ — تكريس الجاثليق نرسيس الرابع

في سنة ٦١٦(٨ شباط ١١٦٧ — ٧ شباط ١١٦٨) وجد تير غريغوري نفسه قد تقدمت به السن، ذلك أنه كان قد أمضى أربعاً وخمسين سنة جاثليقاً، بمشيئة الرب، عندها جمع بتحذير من الروح القدس، حشداً من رؤساء الأساقفة والأساقفة والرهبان، وشخصيات دينية أخرى مقدسة، وخص أخاه رئيس الأساقفة نرسيس ضياء الدين، بعرش الجاثليق الأرمني، وذلك بعدما ترجاه كثيراً، إذ أن نرسيس هذا أراد رفض هذا التشريف، لحسبانه أنه كان غير قادر على الاستجابة للنداء الرباني، وقد نظم نرسيس هذا عدة أغاني روحية للكنيسة، وقاد الكرسي البطريركي حسب مشيئة الرب، وكان رجلاً سليماً، بجمال جسماني، وكان منظماً، مليئاً بكل العلوم مع رحمة الروح القدس، وكان متدفقاً كتدفق النهر الغزير الجريان، وكان والحق يقال لا مثيل له بين البطاركة الذين تقدموه والذين تلوه إلى عصرنا هذا، وقد انتشر صيته وذاع حتى وصل إلى القسطنطينية، لا بل حتى امبراطور الإغريق كير — مانويل، الذي طلب منه رسالة إيمانية باسم الكنيسة الأرمنية، وكتب نرسيس الرسالة، وبعدما قرأها أمام الامبراطور، قام البطريرك مع جميع العلماء الاغريق بالاعتراف بالإجماع بأرثوذكسية الإيمان الأرمني.

وعندها أرسل الامبراطور هورومكلي Horomklay الفيلسوف إلى هذا اللاهوتي، وقد أجرى معه محادثات دامت عدة أيام، وعندما عاد إلى الامبراطور أخبره أن علم القديس نرسيس لا يعدله علم بدقتـه، وكرمه لا يعـدله كرم، وأحب الامبراطور القـديس البطريرك، وبادر إلى البعث لإحضاره إليه مرة أخرى، ليعقد الصداقة والاتحاد بين شعبين كانا حتى الآن مفترقين أحـدهما عن الآخـر، ولم ير هذا الامبراطور الماكـر محصلة جهوده، بسبب وفاة البطريرك نرسيس.

٩ — *وفاة طوروس الثاني*

في سنة ٦١٧(٨ شبـاط ١١٦٨ — ٦ شبــاط ١١٦٩) توفي طوروس الأكبر، ابن لاون بن قسطنطين بن روبين الذي احتل المناطق الجبليـة في جبال طوروس،وكـان قد حقق عدة إنجازات في أماكـن أخرى متعددة، وحقق انتصارات في معارك كثيرة، بفضل مهارته، فليرحمه الرب.

واختـار الملك طوروس في ساعـاته الأخيرة وليـاً لعهده تومـاس ابن الأمير روبين، وقد تولى هذا حكم بلاد طوروس لمدة سنة واحدة.

١٠ — *اغتصاب مليح للسلطة*

في سنة ٦١٨(٧ شباط ١١٦٩ — ٦ شبـاط ١١٧٠) تلقى مليح أخو طوروس، تعـزيزات من عند نور الدين صـاحب حلب، وقـد دخل إلى كليكيـة مع الكثير من الترك، واستـولى على إمـارة أخيـه، وحصل الترك على الكثير من الأسلاب،وذلك لدى بحثه عن أعدائه لينتقم منهم، فقد قهـرهم، وسلبهم ممتلكاتهم، ثم ألقـاهم بالسجن، وكبلهم بالسـلاسل، وكـان يستـوقف الناس، ويقلع لهم أسنانهم، وذلك حيث شك بوجـود الذهب أو الفضة بالفم، فهـو لم يوفر شيئاً إلاّ وسلبه، فبالطريقـة نفسها سبى النسـاء المحتشمات، واغتصبهن بوسـائـل معيبـة، وكـدس الذهب والفضة، وأشبع نهمه باغتصاب أرزاق الأثرياء، فقد كان رجلاً متوحشاً

وشريراً، وبلا رحمة، وكـان الجميع يكرهونه ويتمنون الفـرار منه، لكنهم لم يجدوا آنذاك ملاذاً يمضون إليه .

في سنة ٦١٩(٧ شبـاط ١١٧٠ — ٦ شبـاط ١١٧١) ضرب في يوم ٢٩ حزيران زلزال قوي المنطقة، وهدم أسوار أنطاكية وحلب، وانهارت أيضاً الكنيسـة المكرسة على اسم أم الرب، وخلّف هذا الزلـزال ضحايا كثيرة.

١١ — *صراع مليح ضد الهيتوميين*

وبعدما صار مليح سيداً لإمارة أخيه، التجأ توماس إلى أنطاكية، وقد بعث ابن طوروس إلى المقر البطريـركي في هورومكلي، لحصار البطريرك هناك، وقـد توفي الجاثليق في تلك الأثناء، وقام هيتـوم بن أوشين، الذي كان قـد تزوج من ابنة طوروس — كما ذكرنا — ولم يستطـع بعد ذلك هجرهـا والابتعاد عنها في حيـاة طوروس، لعدم قـدرته على فعل ذلك، قام الآن بعد وفاة أبيها بالابتعاد عنها وتطليقها.

وغضب مليح لما حدث، فـذهب لحصار لامبرون، ومعه قـواته، وقد ألحق خسـائر جسيمـة بالسكان، وفي الحقيقـة كـان هناك من قبل صراع مستمر بين الروبنيين وبين الهيتـوميين، وجاء هذا الطلاق ليـؤجج ذلك، ولقد عذبهم مليح كثيراً وآذاهم بالحرب، وبالمجاعة.

١٢ — *تكريس الجاثليق غريغوري الرابع طلاي*

في سنة ٦٢٢(٦ شباط ١١٧٣ — ٥ شباط ١١٧٤) استدعي القديس المنير البطريرك نرسيس إلى جنب المسيح يوم ١٣ — آب، وبذلك أغرق الكنيسة الأرمنية في حزن عميق، وكان قد كتب في وصيته أمراً بإجلاس ابن أخيـه الأكبر باسيل على عـرشـه، أي رئيس الأسـاقفة تيرغـريغـور الملقب بطلاي، وبناء عليه تمّ العمل وفقـاً لأوامره، ووفقاً لما رآه مجلس ضم عدداً كبيراً من رجال الدين، وجـاء الآن ترتيب تيرغريغور الحادي

عشر في سلسلة الذين تسلموا منصب الجاثليق لدى الأرمن.

وكان رجلاً ضخماً، وصاحب مظهر جدي، له وجه بشوش، وقلب كريم مليء بالحكمة، وبالعلم وبالروح الطيبة، وقد حبي بالمرونةفي الكلام، مع موهبة التلاعب بالجمل والمقاطع المقتبسة من العهد القديم، وكذلك من العهد الجديد، وقد زين القديس غريغور الكرسي المقدس ببناء الكنيسة الرائعة، والتي زاد في جمالها ورونقها بالأواني الثمينة من الذهب والفضة، ومن الملابس المذهبة، ولكثرة ما أغنى به هذا المعبد المقدس لم يتمكن الذين تولوا أمره من بعد من تقليص عدد الأشياء التي كانت فيه مع أن كل واحد منهم كان يتولى صهر الذهب والفضة التي فيه.

وكان قد أمر أيضاً بصنع ثلاثة قبور في أقبية الكنيسة، وقد أودع فيها ما تبقى من جثث القديسين البطاركة أي: نرسيس وغريغوري ومتقدمها غريغوري الخامس كياسير، وكان قد أحضرها من منطقة كيسوم، من دير كرميروانك(٥)، وقد عاش حياة ملكية، حيث كان يمنح الهدايا الثمينة، والعطايا العظيمة، واحتفظ بمائدة عامرة.

وتوفي في هذه السنة صاحب حلب نور الدين، وقد خلفه ابنه الملك الصالح.

١٣ — الأعيان يولون روبين الثالث الحكم

بعدما أمضى مليح خمس سنوات في الحكم، اتفق أعيان الأرمن في سنة ٦٢٤(٦ شباط ١١٧٥ — ٥ شباط ١١٧٦) والشخصيات التي كانت محيطة به على قتله في مدينة سيس، بسبب عاداته السيئة، والسلوك الفاسد، فبعثوا إلى بابيروان وأحضروا الابن الأكبر لستيفاني، الذي اسمه روبين، وذلك بهدف إجلاسه على عرش أجداده، وقد تركه خاله باكوروان يذهب من دون تأخير، وأعطاه وفرة من الذهب والفضة،

وعندما وصل روبين، وضع نفسه في خدمة بلد آبائه والأمراء الأرمن الذين أطاعوه عن طيب خاطر، وقد كان رجلاً حريصاً وكريماً، وبهيّ الطلعة، وكان عمره آنذاك ثلاثين سنة، وقد اتسم بالشجاعة في القتال والمهارة بالرمي بالقوس.

وشرع يوزع الهدايا على الجميع بكرم زائد، وأعطى جميع الكنوز التي جمعها مليح كما أنه ملك قلوب الجميع وعقولهم بالمآدب والاحتفالات التي كان يقيمها، وتمكن إلى حيث ذهب مع رجاله من هزيمة الأعداء بكل شجاعة، وهكذا استطاع احتلال طرسوس، وأذنة والمصيصة، وكان في بداية حكمه قد أغرق الأعيان بشكره الكبير، لما أسدوه له من خدمات حين اقتلعوا عمه وأجلسوه على عرش أجداده، ومع هذا وعد بجوائز أفضل وأعطيات أعظم للذين قتلوا عمه، إذا ما عرف الأيدي التي قامت بذلك.

وتقدم إليه رجلان، أغرتهما الفتنة، وقالا له:«نحن اللذان قتلناه بأيدينا حباً فيك»، وشكرهما روبين، وتظاهر بسروره بذلك، ثم أمر باعتقالهما، وبوضع حجر في عنق كل واحد منهما، ورماهما في النهر سراً، وكان اسم أحدهما ياهان Yahan، واسم الآخر — وكان خصياً — ألب الأريب Alpllarip .

وعندما رأى روبين أن قوته قد ازدادت، قرر مهاجمة لامبرون التي مكث فيها ثلاث سنوات، وسبب بذلك الرعب لسكانها، والذي دفعه إلى مهاجمتها ما كان يسود بين الطرفين من نزاع قديم، ومع هذا لم يتمكن من الاستيلاء عليها.

١٤ — *مصاعب البيزنطيين*

في سنة ٦٢٥(٦ — شباط ١١٧٦ — ٤ شباط ١١٧٧) قطع قلج أرسلان، سلطان قونية الطريق على الامبراطور الإغريقي، بعد مدينة

قونية، مقابل أطلال قلعة ملطية، وبعدما أسره، أطلق سراحه، لكن بعد أن عقد معه معاهدة تحالف مختومة وموثقة.

وفي سنة ٦٢٦(٥ شباط١١٧٧ — ٤ شباط ١١٧٨) توفي كير مانويل، امبراطور الإغريق، واعتلى العرش من بعده ابنه ألكسيوس.

وفي سنة ٦٢٧(٥ شباط١١٧٨ — ٤ شباط ١١٧٩) ثار أندرونيكوس على ألكسيوس وقتله، وحل محله في حكم الامبراطورية.

وفي سنة ٦٢٩(٥ شباط١١٨٠ — ٣ شباط ١١٨١) قُتل أندرونيكوس، وتسلمت آن الحكم .

١٥ — *نشوب سوء تفاهم بين روبين وأخيه ليون*

في سنة ٦٣٠(٤ شباط١١٨١ — ٣ شباط ١١٨٢)، ذهب البارون روبين إلى القدس مع وفد كبير، وتزوج من ابنة صاحب الكرك وعاد، وكان أخوه ليون خائفاً منه، لأن الناس كانوا يتهمونه بشدة، ويقولون لروبين بأن أخاه ليون يخطط للثورة عليه، فما كان منه إلاّ أن التجأ إلى طرسوس، ومن ثم سافر من هناك بحراً إلى القسطنطينية، حيث حمته العناية الربانية، وحيث لقي حفاوة كبيرة ، واستقبل باحترام من قبل عدة من رجال الامبراطور.

وفي سنة٦٣١(٤ — شباط١١٨٢ — ٣ شباط ١١٨٣) رجع ليون من القسطنطينية، والتحق بأخيه، الذي أحسن استقباله، وعامله بمودة، وأعطاه قلعة كابان Kapan .

١٦ — *اعتقال روبين في أنطاكية*

كانت لدى روبين مشاريع توسعية، وقد ذهب إلى أنطاكية، وهناك اعتقله أميرها، وألقاه في السجن، أما الأعيان الين كانوا معه فقد هربوا ونجوا سالمين وعادوا إلى بيوتهم، وقد حدث هذا في سنة ٦٣٤(٣

شباط١١٨٥ — ٢ شباط ١١٨٦).

وأرسل بعدها روبين إلى خاله باكوروان، ليبعث إليه برهائن يعطيهم إلى الأمير بدلاً عنه، حتى ينال حريته لكي يجمع فديته، وبناء عليه أرسل باكوروان أخته أم روبين وبعض الأقارب، وتنازل روبين لأمير أنطاكية كفدية عن: ساروانديكار(٧) Sarvandikar ، وتل حمدون، وشكر Cker (٨) ، ووعده بدفع ألف«دهكان Dahkans»، وبعدما أطلق سراحه، عاد إلى بلده، ثم أعطى أمير أنطاكية ما وعده به، وحصل مقابل ذلك على حرية الرهائن.

١٧ — *وصول ليون الثاني إلى الحكم*

في سنة ٦٣٦(٣ شباط١١٨٧ — ٢ شباط ١١٨٨) توفي روبين، فانتقل الحكم إلى أخيه ليون، الذي كان رجلاً عظيماً، لم يبحث في أي مناسبة من المناسبات عن الانتقام من أي كان، بل كان على العكس من ذلك، وقد سلم أموره للرب حتى يدبرها له.

وكان أميراً ذكياً ومقتدراً، وفارساً بارعاً، وشجاعاً في أعمال الحروب، ونبيلاً في تحقيق الأعمال الإنسانية، أو الربانية، و متواضعاً، وصاحب وجه واضح التقاسيم.

١٨ — *بدايات ظهور أمر صلاح الدين*

كان في هذه الآونة يوسف بن أيوب، المسمى صلاح الدين يحكم: حلب، ودمشق، ومصر،وكان هو وأخوه العادل (٩) بالأصل من منطقة دوين، وكان أبوهما فلاح كردي اسمه أيوب ، وكان صلاح الدين وأخوه قد تركا بلدهما ليشربا الخمرة، فجاءا ودخلا في خدمة نور الدين صاحب حلب، وقد أشفق نور الدين عليهما، وتصدق عليهما في كل مناسبة، فصارا خادمين وفيين له، وترقيا بالمناصب وامتلكا يوماً بعد يوم بعض السلطة، وبالمال الذي كسباه أكلا وشربا مع الجميع، وهذا ما

أكسبها صداقة الناس جميعاً، ومكنها من حكم بلاد كثيرة، ولما رأى صلاح الدين ازدياد أهميته وقوته، صار رجلاً فظاً، وأخذ يهدد المسيحيين، وتعاظمت قوته يوماً إثر يوم، واستغل كل مصادر طاقته لضرب المسيحيين، فدمر بضربة واحدة قوتهم في جميع مناطق حكمهم.

١٩ — *فاجعة حطين*

وزحف صلاح الدين في السنة نفسها ضد ملك القدس، فقام الملك، وفرنجة الساحل، والرهبان الذين يرتدون ثياباً تحمل شارة الصليب(من الداوية والاسبتارية)، بالاحتشاد، وذهبوا وعسكروا على مرأى من صلاح الدين، وكان جيش الفرنجة قد عسكر فوق تلة، ولذلك كان يشكو من قلة الماء.

وعندها تنكر صاحب طرابلس لدينه، بعث إلى صلاح الدين يقول:«ماذا تعطيني إذا أزلت معسكر المسيحيين من مكانه، وأخذتهم إلى مكان لا ماء فيه، ويمكنك في الوقت نفسه أنت وفرقك العسكرية إقامة معسكركم إلى جانب الماء»؟ فوعده صلاح الدين بجزيل العطايا، والأموال الكثيرة، ووثق ذلك بعقد مكتوب.

وإثر هذا قرر صاحب طرابلس الخائن أن يقدم إلى الملك والقادة النصائح التالية بقوله:«ليس في صالحنا البقاء هنا، هيا فلنذهب من هنا ولنعسكر على التلة، وبذلك نغطي ساقة قواتنا ونقوي الدفاع عن أنفسنا»، ولقد تمكن من إقناع الجميع، وجعلهم يصدقون كلماته المسمومة، وعندما رحل المسيحيون عن مكانهم، جاء السلطان، وأقام معسكره إلى جنب الماء، وهنا لم يعد بإمكان المسيحيين شرب الماء، ووجدوا أنفسهم في خيبة أمل وحيرة عظيمة، وصعب عليهم إيجاد مخرج لوضعهم.

وعندها استسلموا في يأسهم للموت، ومضوا إلى القتال، وهرب

الحاكم الخائن لطرابلس، وآذى المسيحيين، وسبب خسارتهم، وهزيمتهم، ودخل الذين قرروا الموت إلى الحرب، وقد طال أمد القتال، وكان معظم المسيحيين بالأسفل، وخارت قوى الرجال والبهائم، وانهاروا بسبب العطش، فقد كان هناك حر شديد، وريح حارقة، وضاعف الأعداء ضرباتهم حتى تمكنوا من سحق الجميع.

٢٠ — *استسلام غي لوزغنان إلى صلاح الدين*

وكان الملك قد التجأ مع ثلاثة من المحاربين إلى قمة تلة هناك، فبعث إلى السلطان وطلب منه قبول استسلامه، فأرسل له السلطان قوة لحمايته ومرافقته حتى يلتحق به.

ولدى وصول الملك خرج السلطان إلى استقباله، ووقف أمامه باحترام وصافحه بقوة وقبله، ثم أخذه من يده، وأدخله إلى خيمته، وأجلسه على وسادة إلى جانبه، وذلك حيث جلس بكل احترام وقال له:«أيها الملك المبجل مرحباً بك وألف مرحباً في بيت أخيك، ولا تحزن أبداً من مصير الحرب، فتارة نريد أن نكون الرابحين، وإذا بنا من الخاسرين، وأنت ملك جدير بالتقدير، وعادل تحترم وعودك، وهذا يروق لي، ولهذا لن تنقص شعرة واحدة من رأسك، ولأجلك سوف أعفو عن كثيرين، وذلك تقديراً لك، ولسوف أعيد الحرية إلى العديدين».

٢١ — *النهاية المشؤومة لرينودي شاتيون(أرناط)*

وفيما كانا يتحادثان هكذا، أحضر رينو أمير طرابلس(١٠) إلى أمام صلاح الدين، ولدى رؤيته وقف الملك، فوقف السلطان من أجل وقوف الملك، فقال السلطان لرينو أمير طرابلس، الذي كان قد سلم الملك وخانه من أجل الهدايا:«إعلم أيها الخائن أنني لم أقف من أجلك، بل من أجل ملكك»، فأجابه الكونت قائلاً:«وأنا لا أتوجه إليك

بالشكر، بل أشكر ملكي»، وهنا طلب الملك بعض الماء ليشربه، فأمر السلطان بإحضار كأس من الذهب فيه ماء محلى ومثلج وممزوج بماء الزهر، وتناول السلطان الكأس وشرب منه قليلاً للتذوق، ثم أعطاها إلى الملك، فشرب نصفها وأعطاها إلى أمير طرابلس الذي شرب بدوره، وهناك قال السلطان للأمير:«لم أعط الماء لك، ولكنني أعطيته إلى الملك»، فأجاب الأمير السلطان قائلاً:«وأنا لن أقول لك شكراً بل لملكي»، فقال السلطان للأمير:«أيها الخائن كم من المرات وعدتني وأخلفت الميعاد، وأمنتني وخنت الأمانة، فخرقاً منك لما وعدتني به أسرت وسجنت وقتلت عدداً من الناس، واستوليت على أموالي على طريق دمشق وغير ذلك، وكنت السبب في إراقة الدماء في سيرسيم Sersim ، دون أن تتذكر وعودك، فما الذي عندك لتجيبني به»؟ فأجابه الأمير بالكلمات التالية،ورد على السلطان صلاح الدين بقوله:«لاتنبح عالياً، وافعل ما يطيب لك، لقد مضى عليّ أربعون سنة وأنا أخاطر بدمي ضد المسلمين، والآن إنني لا أبالي مطلقاً بالموت»، وهنا أشار السلطان إلى خدمه، فأمسكوا بالأمير من رجليه ويديه، ويطحوه أمام السلطان، الذي أشهر سيفه وضربه على وسطه، ثم قام الخدم بالإجهاز عليه، ولدى رؤية الملك ما حدث انبهر وارتعب، فقال له السلطان:«لا تأبه لموت من خانك».

٢٢ — *مقتل الداوية صبراً*

ثم جرى إحضار الداوية مع مقدمهم، وأوقفوا أمام السلطان الذي قال للمقدم:«أيها المقدم المحترم للداوية، مهما كانت الأفاعيل التي أوقعتموها بجيشنا، فأنا أحترمكم، وفيما يخصني، ومن أجل شجاعتكم، إذا ما قمتم بالتخلي عن دينكم، ومن ثم الدخول بدين الإسلام، فإنني سوف أمنحكم العطايا وأشرفكم، وأقدمكم في جميع أرجاء ملكي الشاسعة، خاصة لك»، فأجابه المقدم بالكلمات التالية:«أيها السلطان

العظيم، إنه فيما يخصني فأنا موافق، ولكن إذا سمحيت لي وأذنت بالتشاور مع أخوتي حتى أقنعهم بالقبول والطاعة»،فسمع صلاح الدين يقول:«الذي ينفذ أمري يعيش، والذي يرفضه سوف يموت بحد السيف»، وجمع المقدم رجاله من الداوية وخاطبهم قائلاً:«أيها الأخوة، ها قد حلت أيام قوة أرواحنا وصمودها الذي سيخولنا دخول الجنة، إنني أتوسل إليكم أن تظلوا صامدين ومتماسكين في حب المسيح،وسوف نمزج اليوم دمنا مع دمه، ونحن لانخاف من الذين يقتلون الأجساد، ولكن من الذي له سلطة على الروح وعلى الجسم، ولن نعبأ بمتاع هذه الحياة العابرة»، كما قال لهم أقوالاً كثيرة، وأسمعهم مقاطع من الكتاب المقدس، وشجعهم على الموت في سبيل إيمانهم، وبعدما عاد إلى السلطان قال له:«هناك من أبدى الاستعداد للطاعة إليكم، وهناك من اعترض، لذلك أرجو الأمر بإحضارهم أمامكم».

وعندما أحضروا بدأ السلطان يسألهم واحداً تلو الآخر، وحيث أنهم رفضوا الاستجابة لعرضه، أمر بقتلهم، ثم قال بعد ذلك للمقدم:«وأنت كيف تنوي النظر إلى ديننا»؟، ولم يجبه المقدم بل جمع لعابه بفمه وبصقه على وجه السلطان، كي يزداد غضبه ويأمر بقتله على الفور، فبذلك يكون قد أرسله للالتحاق بأخوانه الروحيين، وليكون بجوارهم، ثم أضاف يقول إلى السلطان:«إنني أنا الذي أمرتهم بالموت حتى يتوصلوا إلى الحياة السامية، إذ كيف لي الانصياع إلى أوامرك»؟، فأمر السلطان بقتله أيضاً، وعندما قتلوه، انتشر نور عمّ السماء فوق الأموات، ودام لمدة ثلاثة أيام،وكان ذلك عاراً للخونة وانتصاراً للأوفياء الأمناء، وبعد الفراغ من كل شيء أطلق السلطان سراح الملك ومنحه الهدايا له ولحاشيته.

٢٣ — *فتح القدس*

ثم أمر صلاح الدين أنه يتوجب على كل واحد من سكان القدس

دفع فدية قدرها داهكان مصري واحد، وبإمكانه أن يأخذ معه ما يريده من منزله، ومن ثم يذهب بسلام، أما الذين يودون البقاء فعلى كل واحد منهم دفع جزية سنوية مقدارها داهكان أحمر(١١)، وارتحل عدد كبير كما بقي الكثيرون، وبهذا تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على القدس وعلى المناطق التابعة لها شيئاً فشيئاً، ولقد استولى على كل بقعة من البلاد حتى منطقة أنطاكية، وكان المسيحيون جميعاً يرتجفون رعباً أمامه.

٢٤ — احتلال رستم لكليكيا

وجمع في هذه السنة نفسها تركماني اسمه رستم حشداً من التركمان، ودخل إلى بلد الكليكيين، وعمل جاهداً على إيقاف استمرار اسم المسيحيين، وزحف متقدماً حتى غاية سيس، وقد عسكر أمام هذه المدينة، على محاذاة راوين Rawin، وارتفاعها، وقد اجتاحوا البلاد وغطوها بكثرة عددهم، لكن ليون القوي بالحماية الربانية حاربهم وانتصر عليهم، وقتل قائدهم، مع أنه لم يكن معه أكثر من ثلاثين من الرجال، ولدى فرارهم طاردهم ليون وأنزل بهم الخسائر وبددهم وصولاً حتى سرواندیکار Sarwandikar، وانتشرت إشاعة بين الناس تحدثت عن نزول جنديين قويين من قلعة سيس، وقيامهما بسحق العدو، وكانا هما: القديس جرجس، والقِديس تيودور.

٢٥ — احتلال براكانا من قبل ليون الثاني

في سنة ٦٤٧(٤ شباط ١١٨٨ — ٢ شباط ١١٨٩) قتل القائد السير بلدوين أمام قلعة براكانا(١٢) Prakana ، ذلك أنه حاول احتلالها على حين غرة، هذا وتمكن ليون من الاستيلاء على هذه القلعة بعد مضي شهرين، ووضعها تحت سيطرته بعدما قتل شحنة القلعة الذي اسمه الأمير تبلي Tipli مع مائتين من التركمان، والأمير تبلي هذا هو

الذي كان قتل بلدوين.

٢٦ ـــ أحلاف زواجية بين أسرتي أنطاكية وساسون

وكـــان في هـذه الأثناء أبناء كــورتـونيل Cortuanel صاحب ساسون Sasun والذين كانت أمهم أخت تيرغريغور جاثليق الأرمن، يعيشـون مع ليـون، وكانوا رجـالاً ذوي مظهـر جميل، وكـان ليون قـد أعطى زوجة إلى هيتـوم وهو الأكبر، الابنة الكبرى لأخيه روبين، المسماة أليس، ومنحه معها مدينة المصيصة، وحصل بالوقت نفسه شاهنشاه على سلوقية، أمـا فيما يتعلق ببنت روبين المسماة فيليبا، فقد أقـامت بجوار أم ليون، وبالنسبة إلى ليون نفسه، فقد اتخذ زوجة له من أنطاكية ابنة أخ(أو أخت)زوجـة الأمير، وقد قبلت بزواجـه بكل حـرارة، وشعر ليـون من جانبه بسرور عارم لأنه كان يخاف من أمير أنطاكية، الذي خشيه الأرمن دومـاً، وقد قـدر ليون أن زوجـة الأمير، بحكم قرابتهـا بزوجته سـوف تشفع له عند الأمير، وتدرأ المخاطر عنه، وهذا ما حصل بالفعل.

٢٧ ـــ صليبية فردريك بربروسا

في سنة ٦٣٨(٣ شبـاط ١١٨٩ ـــ ٤ شبـاط ١١٩٠)انطلق امبراطور الألمان على رأس جيش عظيم، وزحف حتى وصل إلى القسطنطينية، ثم سار حتى قونية فتمكن من احتـلالها وإلحاق الهزيمة بقلج أرسلان، وقد أودعه قلج أرسـلان ثلاثين رهينة من أعيان رجاله، ودفع له مـائة ألف داهكان، وعقد هدنة معه وصلحاً، ثم زحف الامبراطور حتى سلوقية، وبما أن الفصل كان حاراً جداً في ذلك الصيف، فقد نزل الامبراطور إلى النهر ليستحم ، فجرفه التيار، ولم يستطع المقاومة، لأنه كان رجلاً كهلاً، فغرق ومـات، ويحكى أنه قيل له بأنه سيمـوت غرقـاً في الماء، وهذا ما دفعه إلى الارتحال براً، وقام بهذه الرحلة الطويلة براً.

ووصل ابنه بعد وفاته إلى عكا، ثم توفي هناك بعد ستة أشهر، فتشتت

قواته ثم عاد معظم الذين بقيوا منها.

٢٨ — *حصار عكا من قبل الفرنجة*

في سنة ٦٤٠(٢ شبــاط ١١٩١ — ١ شبـــاط ١١٩٢) وصل ملك الفـرنجة بالسفينـة إلى عكا مع قوات كثيرة، وحط رحـاله أمـام المدينة، وكـانت المدينة ملكاً لصـلاح الـدين ولهذا بادر مسرعـاً إلى هناك وأقـام مخيمـه أمـام مخيم الفـرنجة، وحفـر الفـرنجـة ثلاثة خنادق من حـولهم، وحصنوا مــوقعهم تحصيناً عظيماً، ونشروا الكمائن من حــولهم، وبذلك وضعــوا المدينة في خطـر شـديد، وحـالوا بين السلطان وبين مســاعـدة سكانها، وقـدم وقتـذاك ملـك الانكليـز، ووصل إلى قبرص أولاً حيث استـولى عليها، وانتـزعها من أيدي الإغـريق، واعتقل دوقها الذي كـان من آل كـومينوس، وحمله معـه إلى عكـا، وهناك وحّـد الملكان قـواتهما، وقاتلا معاً ضد السلطان، وضد سكان المدينة، وعندهابعث السلطان إلى الملوك يقـول:«خذوا مـدينتكم وبيعـوني الرجـال بوزنهم ذهباً وفضـة»، فأجــابوه يقـولون:«كــان يجب علينا أن نفعل مـا طلبتــه ونستجيب لما رجـوته، وذلـك احترامـاً لشخصك، ولكن بما أنه تقــدم وأقسمنا بحق الضريح المقـدس، بأن نستعـرض النـاس جميعـاً بسيفنا، لايمكن لنا أن نحنث بقسمنا»، ثم استولوا على المدينة، وقتلوا ستة وثلاثين ألف رجل، في حين لاذ صلاح الدين بالفرار.

٢٩ — *مجاعة في أنطاكية*

في سنة ٦٤١(٢ شبـاط ١١٩٢ — ٣١ كانون الثاني ١١٩٣) كـانت هناك مجاعـة مــروعـة في أنطاكيـة، وكـانت من القســوة بمكان أنه من الصعب إعطاء فكرة مكتوبة عنهـا، وقد مـات عدد كبير من الناس، إلى حد أنه بات من المتعذر دفن الموتى، ولقسوة الأوضاع، رأى الأحياء أن الذين مـاتوا قد ارتاحـوا، وعندمـا جاء الربيع أكل الناس الأعشـاب في

الحقـول، وفعلوا مثلما ترعى الأغنـام، ولما كـانوا غير معتـادين على هذا النوع من الأطعمة، سقطوا موتى جميعاً.

وتوفي في السنة نفسها قلج أرسـلان، سلطان قونية، ومن جانبـه أخذ صـــلاح الديـن يشن بعض الهجمات الصغيرة على أنطـاكيـــة في سبيل الاستيـلاء عليها، لكن المنجمين قـالوا له:«لايمكنك الاستيلاء عليهـا»، فأقلع عن خطته وتخلى عن فكرته.

وظلت أنطاكيـة تشكو من المجـاعـة، وتعـاني منهـا، لأنه خـوفـاً من السلطان لم يدخل إليهـا أي طعام، وعند ذلك قـال السكان للأمير:«إننا نمـوت الآن جـوعاً، مـاذا سنفعل»؟، فأجـابهم بقـوله:«امنحـوني مهلة خمسة عشر يوماً، ووقتها سوف أعطيكم الجواب».

وانطلق الأمير إثر ذلك مع خمسين من الفـرسـان، للاجتماع بصـلاح الدين، الذي كان ما يزال مخيماً أمام عكا، وعندما وصل إلى غايته، وقف على باب خيمة صـلاح الدين، وقال للحـراس:«قولوا للسلطان إن أمير أنطاكية بالباب يسأل مقابلتـه»، وعندما سمع صلاح الدين بذلك خرج مسرعاً لتلقي الأمير، وقـد صافحه، ثـم أدخله إلى داخل خيمته، وطلب منه الجلوس، وهنا قـال الأمير:«لي عندك حـاجـة، ولن أجلس حتى تقضيها لي»، فأجابه صلاح الدين بقوله:«ما تطلبه مجاب، قل ما تريده»، فقـال الأمير:«إهدائي أنطاكيـة»، فقال السلطان:«طلبك مجاب، وفضـلاً على ذلك ســوف أعطيك أنـت ومـدينتـك طعـامـاً يكفي لمدة ثلاث سنوات»، وبعد هـذا أبرم اتفاق بين صلاح الـدين والأمير، وعاد الأمير إثر ذلك إلى مدينة أنطاكية، التي توفرت فيها الأطعمة بكثرة.

٣٠ — *كمين عند بغراس*

في سنة ٦٤٢(١ — شبـاط ١١٩٣ — ٣١ كـانون الثـاني ١١٩٤)، عندمـا رجع الأمير من عند صلاح الـدين قـرر أسر ليـون واعتقـاله

بمساعدة زوجته، غير أن هذه الأميرة قالت له:«لاتقترف هذه الحماقة لأنه صهري، وقد جاء في كل الأوقات وساعدك، وكان ثانيك في حملاتك الحربية»، لكن الأمير لم يتخل عن أفكاره السوداء، فوجه الدعوة إلى ليون للقدوم إلى عنده، وفي طريقه وقف في بغراس، وهناك أخبرته زوجة الأمير سراً بشأن الخطة المبيتة ضده، وهنا بادر ليون إلى توجيه الدعوة إلى الأمير وإلى زوجته للحضور إلى بغراس، كي يقدم لهما شرف الضيافة، ويذهب بعد ذلك برفقتهما إلى أنطاكية، فحضرا طوعاً، وخرج ليون لاستقبالهما، ورافقهما بأبهة وبحفاوة عظيمة إلى بغراس، وهناك انفرد بالأمير واعتقله، ثم نقله من هناك وسجنه في قلعة سيس، حيث بقي هناك مسجوناً.

٣١ — *تهديد الأيوبيين باحتلال كليكية*

وفي هذه السنة نفسها بعث السلطان صلاح الدين إلى ليون يطلب منه إعادة كليكية إلى المسلمين والتخلي عنها، حيث بإمكانه الذهاب إلى حيث شاء، وهنا تساءل ليون عما يمكن أن يفعله وتملكته الحيرة، فتضرع إلى الرب، وإليه التجأ، ومن ثم قال لرسول السلطان:«قل للسلطان: ليس لدي أرضاً أعطيها له، لكنه إذا قدم إلى بلدي فسوف أسقيه مرّ طعم السيف مثلما حدث لمتقدمه رستم»، وغضب صلاح الدين لدى سماعه هذه الإجابة، وزأر وزمجر مثل الأسد، وجهز عساكره للدخول إلى كليكية لإبادة أتباع المسيح.

وزحف حتى وصل إلى النهر المسمى نهر صو، وعندها داهمه مرض، كما أودى المرض بحياة ابنه وولي عهده«الملك الظاهر»(١٣).

٣٢ — *اعتقال غريغور الخامس كراويز*

وفي يوم ١٦ — أيار من السنة نفسها، استدعي إلى ربه جاثليق الأرمن تيرغريغور، وحدث ذلك في بلاد الكليكيين، وقد دفن في

درازارك(١٤) Drazark ، فخلفه في منصبه ابن أخته بهرام الذي حمل الآن لقب تيرغريغور، وكان طفلاً غريراً.

وتوفي في هذه السنة بعض الأمراء من فئة الأعيان، وكان منهم ابني أخت الجاثليق، ويتقدمهم هيتوم، صهر ليون من خلال زواجه من ابنته أليس وكذلك شاهنشاه، وحدثت وفاتهما في الشهر نفسه الذي توفي فيه خالهما، ويحكى بأن ليون كان سبب وفاتهما، ولكن الله وحده يعلم الحقيقة.

وعندما دخل الجاثليق غريغور بالخدمة، ضاق به الحال ولم يعد يحتمل تلقي الأوامر من الجميع، وكأنه مأمور وليس بآمر، ففعل كما فعل خاله من قبل بالاهتمام بشؤون الكاتدرائية فقط،وهنا جرى إبلاغ ليون بأن هذا الرجل لا يمتلك الحكمة الكافية لإدارة شؤون الكاتدرائية حسب تعاليم وظيفته، وحرضوا ليون عليه حتى استجاب لهم، فبعث به إلى قلعة هورومكلي Horomklay إلى رئيس الأساقفة تير يوهانس، ليتصرف معه حسبما تمليه عليه عقيدته، وبعدما وصل الجاثليق إلى هذه القلعة التقى بتيريوهانس، الذي استقبله كضيف وقريب، لكن عندما اجتمعا حول المائدة لتناول طعام الغداء، أشار رئيس الأساقفة بيده إلى رجال الخدمة من حوله، فبادروا إلى إغلاق أبواب القلعة، وعلا الضجيج لبعض الوقت وسادت الفوضى، فاعترت الجاثليق الدهشة فسأل تيريوهانس: ما هذا الضجيج الذي أسمعه؟ فأجابه بكل برود: أنت سجين، وهكذا جرى اعتقال الجاثليق وألقي به في السجن تحت حراسة فائقة ومشددة.

وعندما انتشر الخبر في خارج القلعة، وفي داخل القرية، احتشد الجميع وزحفوا يحملون السلاح بنية الهجوم على القلعة، وإنقاذ الجاثليق، وحاصروا القلعة لمدة ثلاثة أيام، ورموا نحوها بالنشاب، لكن بدون جدوى.

وحمل تيريوهانس الجاثليق إلى ليون، فقام هذا بوضعه في قلعة كوبيتار Kopitar ، وجعله هناك تحت الحراسة لبعض الوقت، لكن سكان هورومكلي الممزقة قلوبهم حزناً لاعتقال الجاثليق، ولعدّهم ذلك ظلماً، راسلوا الجاثليق سراً، يقولون له: إذا ما وجد طريقة للهروب من القلعة، فسوف يحضرون له حصاناً ليعيدونه إلى هورومكلي حيث سيسترد منصبه، وأخذ هذا الجاثليق بكلامهم وتصرف تصرف الطفل الغرير، حيث أخذ غطاء فراشه، وربطه وتعلق به وتدلى ليلاً للفرار من القلعة، لكن الحلقة التي ربط بها الغطاء انقطعت فهوى الجاثليق، وسقط على الأرض، فمات لساعته.

وحمل — بعد هذا — جثمانه إلى درازارك Drazark ، حيث دفن قرب قبر خاله، وكان ذلك سنة ٦٤٥ بالتقويم الأرمني(١ شباط ١١٩٤ — ٣١ كانون الثاني ١١٩٥).

واختير في السنة نفسها تير غريغور جاثليقاً جديداً، بلقب أبيرات Apirat ، وكان ابناً للقائد، وأخاً لكل من الجاثليق تيرغريغور، وتير نرسيس، وكان رجل حكمة وعلم، يباشر مسؤولياته اليومية، ووصل إلى الشيخوخة بعدما أتم عمله على أكمل وجه.

٣٣ — *تحالف ليون الثاني مع البيت الأنطاكي*

وبعدما اعتقل ليون أمير أنطاكية، أبقاه في السجن بعض الوقت، حتى حضر أمير من الأسرة المالكة من عكا، وكان هذا هو الكونت هنري، وقد طلب هنري من ليون إحضار الأمير، فوافق على ذلك، وهنا عقد هنري بينهما صداقة ووصاية، وبموجب ذلك سمح لابن الأمير ريموند بالزواج من ابنة أخيه روبين، التي كان اسمها أليس، وكانت قدتزوجت من قبل بهيتوم أخو شاهنشاه، شرط أنه إذا ما أنجب ولداً ذكراً، يصبح وريثاً لليون وبعد وفاة أبيه ريموند تدخل أنطاكية في

ظل حكمه، وقد اتفقوا على هذا، وتعاهدوا عليه كتابة وبموجب القسم.

وعاش ابن الأمير مع ليون وصاحبه ولم يفارقه في حله وترحاله، لكنه توفي بعد وقت قصير، وخلف زوجته حاملاً، وعندما حان الوقت، وضعت هذه السيدة مولوداً ذكراً، مليئاً بالحياة، وجميلاً، وبهي الطلعة، ولما كان ليون لا يمتلك ولداً يحق له وراثة الحكم من بعده، فقد عمّد المولود الجديد تحت اسم روبن، وربّاه بعناية فائقة.

٣٤ — *تتويج ليون الثاني*

في سنة ٦٤٥(١ شباط ١١٩٦ — ٣٠ كانون الثاني ١١٩٧)، بعث امبراطور الإغريق إلى ليون تاجاً رائعاً، معبراً بذلك عن التحالف والصداقة، فتقبله ليون بكل فرح.

وفي سنة ٦٤٦(٣١ كانون الثاني ٩٧ — ٣٠ كانون الثاني ١١٩٨) بعث ليون إلى القسطنطينية برئيس الأساقفة تير نرسيس ابن دي أوشين، والأمير النبيل هلكم ابن باكوران، وخال ليون، لطمأنة الإغريق بشأن حسن نواياه نحوهم، وصدقها تجاههم، وبما أن تير نرسيس كان رجل علم وحكمة، فقد تحلق من حوله العلماء الإغريق، وتحدثوا لأيام عدة حول الإيمان والنظام اللاهوتي، وقد تمكن تير نرسيس من إقناعهم.

وفي السنة نفسها أقاموا أعياد الفصح في موعد خاطىء، وفي السنة نفسها أيضاً أرسل ليون إلى عكا رئيس أساقفة مدينة سيس، تيريوهانس، للمطالبة بالتاج الذي كان امبراطور الألمان قد بعث به عن طريق العساكر الذين وصلوا إلى تلك المدينة، وكان البابا قد بعث إلى تلك المدينة برئيس أساقفة نائباً عنه.

وفي سنة ٦٤٧(٣١ كانون الثاني — ٣٠ كانون الثاني ١١٩٩)، وفي يوم العيد من شهر كانون الثاني ويوم العيد هو يوم الاحتفال الرئيسي

بعيد ختان المسيح، جرى تتويج ليون ملكاً على الأرمن، في ظل سيادة الكنيسة الرومانية والامبراطور الألماني، ولقد كانت فرحة الشعب الأرمني كبيرة جداً بتتويج هذه الشخصية التقية الطيبة، وأعني بذلك الملك ليون.

وفي السنة نفسها التحق تيرنرسيس بن أوشين، وأخو قسطنطين صاحب لامبرون بالمسيح.

٣٥ — *أمراء كليكية في حقبة التتويج وأعيانها*

ويتوجب علينا الآن الحديث عن بعض ما تمتع به الشعب الأرمني في عهد ليون، ذلك أن الملك ليون كان رجلاً عاقلاً وماهراً، وجميل الوجه، له قلب كريم إزاء الجميع سواء أكانوا من رجال الكنيسة أم من العلمانيين، وكذلك كان مع الفقراء والضعفاء، وفي أماكن الحج والأديرة، وكان أيضاً يمنح الهدايا التي تدل على طيبته وكرم نفسه، وكان يقيم في عيد الفصح مأدبة كبيرة، يدعو إليها جميع الشخصيات المعروفة، وذلك من جميع الأماكن، أي من كل مكان عرف بوجود شخص نابغ فيه في حقل ما، فقد كان يرسل في طلبه ويعده بالوعود الجميلة، وفعلاً كان ينفذ وعوده ويقدم الهبات السخية.

وهكذا توفر في كليكية عدد كبير من الشخصيات الكنسية، ومن الأمراء ذوي السلطان، وفيما يلي سأورد أسماءهم واحداً تلو الآخر:

— تير داويت Dawit ، رئيس أساقفة المصيصة، وراعي دير أركاكلين(١٥).

— تير غريغور رئيس أساقفة كابان، وراعي دير أريغ (١٦) Areg.

— يوهانس رئيس أساقفة سيس، وراعي دير درازارك Drazark .

— تير يوسيب Yusep، رئيس أساقفة أنطاكية، وراعي دير يسوانك Yisuank .

— تير كوستاندين، رئيس أساقفة عين زربة، وراعي دير كاستالون Kastalawn.

— تير فاردان رئيس أساقفة لامبرون، وراعي دير سكيورا(١٧) Skewra .

— تير ستيفانوس، رئيس أساقفة طرسوس، وراعي دير مليك(١٨) Mlic .

— تير طوروس، أسقف سلوقية .

— تير أستوأكتور Astuactur أسقف مكار Meckar .

— تير يوهانس أسقف سافيلانك Savilank .

— تير جورج أسقف أندرياسانك Anddriasank .

— تير كوستادين أسقف يوهنانك Yohnank .

— تير غريغور، أسقف فيليبوسينك P`ilipposeank .

— تير ستيفانوس، أسقف بيردوس Berdus .

— تير مكسيتار أسقف عين كوزوت Enkuzut .

— آدم، أمير بغراس.

— هوستيوس Hostius ، أمير كير Cker .

— آريوغون Arewgoyn ، أمير هاموس Hamus .

— سمباط أمير سروند ديكآر Sarvandik`ar .

— ليون، أمير الهارونية.

— سيروهي(١٩) Sruhi أمير سيمانيكلي Simanaklay .

— هنري أمير آني.

— القائد أبلاريب (٢٠)Aplla rip ، أمير كوتاف Kqtaf .

— بلدوين أمير عين كوزوت En kuzut .

— استيف Esteve أمير تورنيكا T'omika .

— ليون وغريغور أميرا بيردوس Berdus .

— آشوت(٢١) أمير كنك Kanc .

— أبلا ريب(٢٢)، أمير فاورناوس Fawrnaws .

— تانكرد، أمير كابان.

— كوستاندين(٢٣)، أمير كانكي Canci .

— غريغوري (٢٤)، أمير سولاكان Sola Kan .

— سيمون(٢٥)، أمير مازوت اكساك Mazot Xac .

— روبرت، أمير تل(حمدون).

— طوروس، أمير تلساب(٢٦).

— القائد فازيل(٢٧)، أمير وانر vaner .

— جورج، أمير برجربيرد(٢٨) Barjrberd .

— كوستاندين، أمير كوبيتار Kopitar .

— آزاروسAzaros، أمير مولوفون(٢٩) Mawlovon .

— سمباط، أمير كوكلاك(٣٠) Kuklak .

— هيتوم، أمير لامبرون.

— شاهنشاه، أمير لؤلؤة.

— باكوران، أمير بابروان Paperawn .

— فاساك، أمير أسكوراس Askuras .

— هيتوم، أمير ماناش Manas .

— مكسيل، أمير برداك Berdak.

— تيغران Tigran، أمير براكانا.

— أوشين، أمير سيويل(٣١) Siwil.

— سيمون، أمير كيوريكوس Kiwrikos.

— كونستانس، أمير سلوقية وبونار Punar.

— رومانوس أمير سنت Sinit وكوفاس Kuvas .

— نيكيفاوي Nikifawi ، أمير فيت Vet وفيريسك Veresk .

— اكسرساوفاور Xrsawfawr أمير لافزات Lavzat وتيمتوبولس Timitupawlis .

— هلكم(٣٢)، أمير مانياون Maniawn ، ولماوس Lamaws ، وزرمانيك Zermanik ، وأنامور Anamur .

— القائد هنري، أمير نوربيرد Norberd ، وكوماردياس Ko-mardias

— بلدوين ، أمير أنداوشك Andawsc وكوبا Kupa

— كيرســـاك، أمير ملوا Malva وسيك Sik ، وبالاباول Pal-opawl

— ميكسال(٣٣)، أمير مانوفلات Manovlat ، وألار Alar .

— كوستاندين ونيكيفاور، أميرا لكراون Lakrawen .

— كيرفـــارد Kervard ، أمير كـــلاوناوراوز Kalawnawraws ، وأيزوتاب Ayzutap ، وسينت — صوفيا، ونلاّون Nallawn .

وخضعت قلعـة المصيصة لبعض الوقت لسلطة الملك ليـون، ثم آلت إلى السلطان.

وكان بعد وفاة الأمير بوهيموند أن انضوى العديد من العساكر تحت لواء الملك ليـون وخـدموه، وكـذلك فعل اللوردات التـاليـة أسماؤهـم: أولفـرلى شـامبلين، وروجر دي مـونت جـوارت Juart ، وتوماس ماسلبرن Maslebrun ، وباين لى بوتلير Bouteiller ، ووليم دي آيل l`Isle، وذلك مع أمـراء آخرين وعسـاكـر شجعان، وبوســاطة هؤلاء تمكن ليون من دفع الأعداء.

هذا وتجاوز أبناء قلج أرسـلان الذين كـانوا يحكمـون بلاد الروم كل الحدود، وانصرفوا نحـو انتزاع القـلاع، وتدمير البلاد وإنـزالها إلى حال العبودية، وقـد تصدى ليون لهم بشجـاعة فائقـة، وألقى بنفسه في وسط قوات الأعداء، وكـان مسلحاً من قدمه إلى رأســه، وبذلك كان بطلاً لا يقهر.

٣٦ — *محاولات ردع هيتوم — هلي صاحب لامبرون*

وعلم ليـون بإسـاءات سكان لامبرون، الذين شرعـوا بالقتـال ضـد نصارى كليكيـة، وضد أسرة روبين، وقـام الكونت يادس أوشين Ja-dis Awsin ، والد هيتـــوم بالحاق الهزيمـــة بالأتراك، وهاجـم أذنة،

واستولى عليها بعد قتال عنيف جداً، ويقال بأنه أسر خمسمائة فتاة عذراء، وذلك بصرف النظر عن الأعداد التي لا يمكن حصرها من الأسرى الآخرين، وفكر ليون ملياً بها حدث، وقام بكل حصافة، وهو واثق من نفسه، باستدعاء هيتوم ابن صاحب أوشين، وفي نيته قتل غروره، وقد خطط لذلك ورسم عدة اقتراحات، فعندما لقيه قال له: لدي نية في عقد روابط للصداقة والتحالف بيني وبينك، وأن أزوجك فيليبا ابنة أخي روبين.

وقبل هيتوم كلام ليون بفرح، وجرى إثر ذلك الاحتفال بالعرس، وقدمت الأطعمة الشهية، واستغل ليون الفرصة، فرصة وجود هيتوم مع أسرته وجميع أمتعته، فاعتقلهم جميعاً، وأرسل عساكره ضد لامبرون، فاستولوا عليها لصالحه بكل سهولة وبدون مشقة، وإثر ذلك ألقى بهيتوم في السجن، ثم أخرجه بعد وقت قصير، ومنحه عدة قرى وردّ إليه اعتباره.

وخدمه هيتوم — الذي كان حكيماً وحصيفاً — بكل استقامة لأنه كان رجلاً عاقلاً مدبراً، يمتلك ذهناً عميقاً، وثقافة عالية، ومع هذا ما لبث ليون أن اعتقله،وألقاه مجدداً في السجن، وهنا لبس هيتوم مسوح الرهبان، وعندما زاره الملك في السجن في واهكي Vahkay ، التمس منه العفو، فاستجاب الملك لذلك، ومنحه حريته، ومن ثم صار قديساً في دير درازارك، حيث بقي هناك حتى يوم وفاته .

٣٧— *احتلال كرين من قبل السلاجقة*

في سنة ٦٥٠ (٣٠ كانون الثاني ١٢٠١— ٢٩ كانون الثاني ١٢٠٢) زحف السلطان ركن الدين باتجاه الشرق مع جيش لايحصى لكثرته، واحتل مدينة ثيودوثيوبولس التي تعرف باسم كرين Karin ، وجاء احتلاله لها سلماً لاحرباً، ثم زحف ضد منازكرد، وهاجم قلعتها،

واعترض طريقه جيش الكرج، فهزمه، كما وهزم بهرام شاه صاحب ارزنكا Erzanka ، وألحق به خسائر كبيرة، وأقام السلطان حاكما على كرين أخاه طغرل شاه، ثم عاد إلى بلاده، وكان طغرل شاه رجلاً رحيماً، ربطته بالملك ليون روابط صداقة ومحبة، كما أنه كان محباً للنصارى، وهكذا مالبث أخو السلطان هذا أن عاد إلى بلاده.

٣٨— *تكريس الجاثليق يوهانس السابع*

في سنة ٦٥٢ (٣٠— كانون الثاني ١٢٠٣— ٢٩ كانون الثاني ١٢٠٤) تحدث الجاثليق تيرغويغور صاحب هورومكلي إلى الملك ليون حول موضوع ابن أخته هيتوم الذي كان مايزال في السجن، أي سجنه الثاني، وأطلق الملك سراحه، كما ذكرنا من قبل، وإثر ذلك التحق تير غريغور بالمسيح في دير القديس أركأكلين Ark'akalin .

وفي هذه السنةنفسها عقد الملك ليون مجمعاً دينيا للأساقفة، وقد تولى هذا المجمع اختيار تيريوهانس، رئيس أساقفة سيس، جاثليقاً للأرمن، وكان هذا الجاثليق صاحب معارف عميقة، مليئا بالنشاط، وطبيباً ملكياً، ومتواضع النفس، وبسيطاً اهتم بالمسائل الروحية، وأحب البناء وعرف كيف ينظم الكنيسة بما هو ضروري للأمور اللاهوتية، وقد تولى تدعيم حصن هورو مكلي، كما حطم بعض الاشياء المتعلقة بالطقوس، مع العديد من الأواني الذهبية والفضية، ثم إنه قد عامل بتواضع ولطف كل من جاء ليراه، هذا وكان هذا الجاثليق من أسرة الهيتوميين، وهو ابن لقسطنطين أخو صاحب أوشين.

٣٩— *مشاكل الخلافة بين السلاجقة*

في سنة ٦٥٣ (٣٠ كانون ثاني ١٢٠٤— ٢٨ كانون ثاني ١٢٠٥) مات ركن الدين تاركاً السلطة من بعده لابنه سليمان شاه.

وزحف في سنة ٦٥٤ الملك ليون ضد مدينة ألبستاي (٣٤)

(ألبستان) لاحتلالها، غير أنه أخفق وعجز عن احتلالها، ووصل في هذه السنة أيضاً خسرو شاه بن قلج أرسلان، من القسطنطينية، وأراد الاستيلاء على بلاد آبائه.

٤٠— *طلاق ايزابل الأنطاكية من قبل ليون الثاني*

وذهب في هذا الوقت الجاثليق تير — يوهانس الى الملك ليون، الذي كان ينتظره للبت في موضوع أميرة أنطاكية، التي كان الملك قد تزوجها، وسرت إشاعات بأن الملك الذي كان ميالاً للثأر، قد أمر بقتل عدد كبير من الأشخاص الذين كانوا محيطين بالملكة، وضرب زوجته بعنف، ووضعها بين يديه يريد قتلها في تلك اللحظة، لكن كوستاندين ابن خاله فاساك تمكن من انتزاعها من يديه، وهي نصف ميتة، ولهذا أرسله الملك إلى السجن في واهكي، ورزق ليون منها بابنة سماها ريتا، وقد تولت أمه تربيتها له.

٤١— *اغتصاب بوهيموند الأعور لأنطاكية*

في عام ٦٥٥(٢٩ كانون ثاني ١٢٠٦ — ٢٨ كانون ثاني ١٢٠٧) مات أمير أنطاكية المدعو بوهيموند، وحل محله ابنه الذي(كان كونت طرابلس، وكان أعور) وبعث له الملك ليون رسولاً أخبره بأن أباه قد عقد ولاية العهد إلى ابنه البكر، حسبما ذكرنا من قبل، ولم يعجب هذا الكونت ذلك، ولم يرد أن يكون لأخيه الحق، و قد أرسل من جديد رسالة إلى بطريرك أنطاكية فيها وثيقة تعيينه من قبل أبيه، وقد برهن على حقوقه، غير أن البطريرك لم يوافق عليها، وأعطى الشرعية إلى أخيه دون أن يهتم بالكونت، واستولى الكونت على أنطاكية وهنا حرم البطريرك أنطاكية، وأمر بأن لا تدق الأجراس في أنطاكية، وقضى بتوقف القداسات ودفن الأموات، وذلك قبل عودة الكونت إلى الصواب، وأقدم هذا الكونت، رداً على ذلك، وتجرأ على اعتقال البطريرك، وزجه

في السجن، حيث تعرض إلى إساءات شتى، وذلك إضافة إلى الجوع والعطش، وقال له:«ثق بأن مصلحتي أن أكون أنا حاكم أنطاكية الشرعي، وبرضاك سوف تمتلك الحرية والحياة والخلاص، لكن البطريرك فضل الموت في السجن جوعاً وعطشاً على اقتراف الكذب، هذا ونشبت منذ ذلك الحين صراعات عنيفة بين الملك والأمير.

٤٢ — *سجن كوماردياس وزدة فعل الجاثليق*

في عام ٦٥٦(٢٩ كانون الثاني ١٢٠٧ — ٢٨ كانون الثاني ١٢٠٨)قدم دوج البندقية وكونت فلاندرز إلى القسطنطينية، حيث هاجماها، وقتلا عدداً كبيراًمن الإغريق، واستوليا عليها، وحكماها، واستولى الملك ليون في السنة نفسها على أملاك هنري وأولاده: كوستاند — كوماردياس Kumardias ، وجوسلين وبلدوين، مدعياً حقه بذلك، وقد كبلهم بالسلاسل وألقاهم بالسجن،وكان هنري صهر تير يوهانس جاثليق الأرمن، ونشبت منذ هذه الساعة خلافات حادة بين الملك ليون والجاثليق تير — يوهانس، وكثيراً ما تدهورت الأوضاع بينهما وازدادت سوءاً، وقام مؤيدو الجاثليق من الأعيان وأمراء سيس بخلع الملك، ووضعوا مكانه الجاثليق الأرمني تير — يوهانس الذي كان وقتذاك منفياً في هورومكلي، وقد استفاد من حصانتها وأقام عدداً من التحالفات السرية ضد الملك ليون، وقام من جانبه خسرو شاه بن قلج أرسلان، الذي انفرد بحكم بلاد الروم بالاستعداد لحرب ضد الملك ليون، وقد حرضه على ذلك تير — يوهانس، وشاركه، وهكذا زحف على رأس قوات كبيرة ضد بيردوس Berdus ، واستولى عليها بقوة السلاح والعتاد، وحصل على الغنائم، وصار بذلك سيداً للمكان، وحل هكذا محل غريغور بن ليون، ومع مرور الأيام خرجت بيردوس من تحت سلطان الأرمن، وحدث هذا في مطلع سنة ٦٥٧ حسب التقويم الأرمني(٢٩ كانون الثاني ١٢٠٨ — ٢٧ كانون الثاني ١٢٠٩).

٤٣ — انتصارات تيودور لاسكارس

بعدما احتلت القسطنطينية من قبل اللاتين، كان عدد من الأمراء الإغريق قد هربوا ونجوا، ثم ما لبثوا أن وسعوا نفوذهم وسلطانهم، ومدّوه باتجاه القسطنطينية، واستولوا على نيقية، وسميرنا Smyrne ، مع جميع القلاع والحصون المتعلقة بها.

وقد حكم ملكاً على هذه المناطق، أميراً اسمه لاسكارس، ووجد هذا الرجل الشجاع والمحب للحرب نفسه متاخماً للسلطان خسروشاه، ونتيجة للخلافات بينهما تحاربا في منطقة قونية، وقد قتل السلطان من قبل جنود لاسكارس، وإثر ذلك حل عز الدين كيكاوس محله، وكان ذلك في مطلع سنة ٦٥٨ حسب التقويم الأرمني(٢٨ كانون الثاني ١٢٠٩ — ٢٧ كانون الثاني ١٢١٠).

٤٤ — خلافة روبين لليون

وأنهكت الشيخوخة الملك ليون، وضعف جسمه بسبب إصابته بمرض امتد إلى رجليه وإلى يديه، وكان الملك ليون يعرف بالملك السيء الحظ، فمن سوء حظه أنه لم ينجب أطفالاً ذكوراً، ولذلك وجد نفسه في كثير من المناسبات، وفي مراحل مختلفة مضطراً لاستخلاف روبين، وهذا ما فعله في نهاية حياته حيث أوصى بالعرش لصالحه، وقد تجاوز بذلك الأمير جورج، الذي كان ابناً طبيعياً لمليح، وكان قد فقأ عينه، وفي الحقيقة كان جورج رجلاً شجاعاً، ومقداماً في القتال، وجريئاً يتحدث بكل اعتداد، وأحاط به جماعة من الناس، كان حظي بمحبتهم، وكان جورج هذا يشعر بأن الملك يخشاه بشأن الملك من بعده، وأنه لهذا السبب كان يوجه الاتهامات الكاذبة إلى بعض حاشيته، هذا وتراكمت على عرش ليون تناقضات كثيرة، ومع هذا استطاع في العام نفسه أن يتخلص من قوى المعارضة القوية في أنطاكية، ووضع كل القوى تحت

نفوذه وسيطرته، ورجالاً مع الممتلكات والحقول، واستمر يمارس نهج الضغط لسنوات عديدة، حتى جرى الإعلان بشكل رسمي، وبقوة السلاح عن الوصاية على الشاب روبين وإعداده لاستلام السلطة من بعده، ومع هذا عارضت أنطاكية وقد هاجمها وضغط عليها طوال العام بلا انقطاع.

وعند حلول عام ٦٥٩(٢٨ كانون الثاني ١٢١٠ — ٢٧ كانون الثاني ١٢١١)، أرسل الملك ليون هيتوم صاحب لامبرون رسولاً إلى البابا في روما، وإلى امبراطور الألمان، وكان هيتوم هذا يعرف بهلي Heli ، وقد أصبح فيها بعد راعياً لدير درازارك، وكانت مهمة سفارته الطلب من البابا ومن الامبراطور إضفاء الرعاية على روبين، الذي عدّه الملك ليون بمثابة ابن له، وأدى الرسول الملكي مهمته بنجاح وعاد بالموافقة والتشريف والرعاية، وفي تلك الأثناء قام الملك ليون بزيارة إلى جزيرة قبرص، حيث تمكن من تزويج روبين من أخت ملك قبرص، التي اسمها سيبل Sibylle، وكانت أخت الملك من أمه، وقد امتازت بأنها كانت امرأة عاقلة، وموزونة، وكانت متفانية في طاعة الملك ليون، وهكذا نجح ليون في اختياره بكل دقة زوجة للشاب روبين، لتكون ملكة في المستقبل، وقد اصطحبها معه إلى مقره من أجل إقامة الاحتفالات، ومظاهر الفرح بالمناسبة.

٤٥ — المصالحة بين ليون والأسقف يوهانس الخامس و الحملة ضد قيصري

في العام ٦٦٠(٢٨ كانون الثاني ١٢١١ — ٢٧ كانون الثاني ١٢١٢) خلد الجاثليق تير — يوهانس إلى النوم والتحق بالمسيح، وذهب في العام نفسه هيتوم راعي دير درازارك إلى هورومكلي للاجتماع بالجاثليق تير — يوهانس والتباحث معه، حول المصالحة، وقد تمكن من استمالته، ثم استطاع بعد ذلك أن يحقق المصالحة بين الجاثليق والملك، وبناء عليه

قـرر الملك إطلاق سراح ولـدي هنري: جـوسلين وبلدوين، وإعـادة الاعتبار إليهما، ذلك أن الثالث كان قد مات.

وزحف في العام نفسه صاحب كارين Karin ، طغرل شاه على رأس ثلاثة جيـوش ضـد قيصري، وذلك بناء على توجيهـات ونصـائح الملك ليون، الذي حضر شخصياً لتقديم الدعم والامـداد، والنجدة العملياتية للحرب ضد كيكاوس ابن أخي طغرل شـاه، وبعد عدة أيام من القتال، خاب أملهما، وأخفقـا في تحقيق أي انتصار، ولم يتمكنا من السيطرة على المدينة، فعاد كل منهما إلى بلده.

وتوفي في العام نفسه الأمير الكبير زكـريا، صاحب آني، وأخو«ايواني» وقـريب تأمـار T`amar ملكة الجورجيين، وكـانت هذه الملكة ابنة للملك جـورجي، وقـد حكمت الشعب الجورجي في الأيام التي حكم فيها ليون، وماتت عن عمر متقدم، وإثر ذلك تسلم السلطة ابنها المدعو لاشا Lasa، وهو في الحقيقـة كان قد تسلـم العرش في أواخر أيـامها، وحكم البلاد.

ولدى حلول عـام ٦٦١ حسب التقـويـم الأرمني(٢٨ كـانون الثـاني ١٢١٢ ـــ ٢٦ كـانون الثـاني ١٢١٣) عقـدت اتفـاقيـة وئـام، جـرى تطبيقهـا، فيما بين الملك ليـون، وبين تير يوهانس، وقـد أعـاد الملك بموجبهـا إلى الجاثليق كل الممتلكات، والقلاع التي أخـذت منه، وهكذا عاش الموالون للملك والمعارضون له أجواء الفرح والحبور.

٤٦ ـــ *زواج ريتا من جون دي بريين*

في سنة ٦٦٣(٢٧ كانون الثـاني ١٢١٤ ـــ ٢٦ كانون الثاني ١٢١٥) زوج الملك ليـون ابنتـه ريتا إلى حـاكم القـدس الملك جـون دي بريين، الذي امتـاز برجـولتـه وصـلابتـه، وبكرمـه أيضـاً، فضـلاً عن أنه كـان شجاعـاً، وقد برهن على ذلك في مختلـف الوقائع والمعـارك الحربية التي

خاضها، ووصل بهذه المناسبة مقـدم الاسبتارية، قادماً من عكا على متن سفينة، وقـد رسـا عند نهاية نهر طرسـوس، وكـان الملك قد حـدد معـه شروط الزواج، وحمل العروس بعد ذلك إلى عكا، حيث جرى استكمال الزواج.

٤٧ — سيطرة ليون الثاني على أنطاكية — ولادة ايزابل

في سنة ٦٦٥(٢٧ كـانون الثاني ١٢١٦ — ٢٥ كانـون الثاني ١٢١٧) وفي يوم ١٤ شباط وهو يوم الطهـارة، في هذا اليوم استـولى الملك ليون على أنطاكية، وتمكن من التحكم منها، وذلك بفضل دهائه ومرونته، من دون أن تعترضه مصاعب، ومن دون خوض معـارك ضارية، وقد تمكن من الوصـول إلى أهدافه من خـلال عـدد من الأثرياء والأعيان، وكـان بينهم عدد من الأمراء، فهؤلاء قد تعاونوا معه، وفتحوا له أبواب المدينة في أثناء الليل، وقـد تسلل إلى داخلهـا محاطاً بوحـدات مـن جيشـه من الفرسان والرجـالة، واستطاع أن يسيطر على جميع المواقع الحصينة، وملأ الطرقات بعـدد غفير من الجنود، وتمّ له مـا أراد دون أن يعرف السكان شيئاً، واستيقظ السكان في الصباح البـاكر على وقع الموسيقى العسكرية، واستـولت الدهشـة على الجميع، وفـوجئوا بسقـوط مـدينتهم في أيدي قوات غـازية، ويلاحظ أن هذه القوات لم تمارس أية ممارسـة خاطئة، أو استفـزازية ضـد السكان، ومن جهـة أخـرى استقبل البطريرك وكبـار السـادة الملك ليون وروبين، واصطحبـوهما إلى كنيسة القـديس بطرس، وهناك منح البطريرك الأمير روبين لقب أمير أنطاكية، وقدم له الحضور الولاء.

وأقام الذين كـانوا حضوراً في كنيسـة أنطاكية، والذين قـدموا الولاء لأمير أنطاكيـة، أيامـاً قليلة، ثم غـادروا إلى مواطنهم، وكـان ذلك بعـد تسلم روبين لمهـامه، وكـان الملك ليون آنذاك في منتهى السعـادة، لكونه أدرك أهدافـه بأسلوب وفر عليـه الكثير من الخسـائر والتبعـات، وبات

مسروراً للنصر الذي منحه الـرب إيّاه، وفي المقابل كان الأرمـن ضحايا تلك المرحلة، حيث خضعـوا لسيطرة الملك، أمـا بالنسبة لروبين، فقـد فـرح الملك بما تحقق لهذا الرجل المنحـدر من أصل طيب، وكـان روبين يعبر بسلوكـه عن مستـوى تـواضعـه الأميري، حيث كـان يظهـر عـادة بمظهر الأصل الجيد.

وفي تلك المرحلة ولد للملك ليون ابنة أطلق عليها اسم ايزابيل، وقد دفع ميـلادها الملك إلى التخطيط بشأن صيرورة العـرش والمملكة إليهـا بعد وفاته، وقد أشار عليه بهذا التوجه معظم الأمراء بقولهم:«في الوقت الذي منحك الـرب فيـه ابنـة من صلبك، فهـو قـد أعطـاك من يتسلم المملكة، ومنحك الوارث الطبيعي لعـرشك، ومن سـوف نبـايعـه مثلما بايعنـا روبين، وهكذا اجعلنا على صلة بـابنتك وبعهـدهـا، ونحن على استعداد لخدمتهـا كما لو كانت ولداً ذكـراً، علماً بأنك قد قـدمت الكثير لروبين، عندما رفعت منزلته».

وحقيقـة الأمـر أن الملك هو الذي حـرض الأمـراء، وقـد نجح في دفعهم إلى التصريح بهذا الموقف من أجل الإعداد لما بعد إمارته.

٤٨ — *حصار دمياط من قبل الحملة الصليبية الخامسة*

وصل في هذه الآونة إلى عكا على متن سفينة دوق الألمان في النمسـا، وكان برفقتـه أعداد كبيرة من عساكـر جيوشه، كما كـان بصحبته أندريه ملك المجر مع أعـداد من عساكـره وقواته، وقد احتشـدت قوات دوق النمسا مع قوات جـون ملك القدس، والبارونات، بالإضـافة إلى قوات الداوية والاسبتـاريـة، وكـان مع الجميع نائب البـابا الرومـاني ، وأجمع هؤلاء على التوجـه إلى مصر، ولدى وصولهم إلى دمياط، واجهـوا برجاً حصيناً، كـان قد بنـي في الميناء، وقد جـرى ربطه بسلسلة حـديدية غير قـابلة للقطع، الأمـر الذي حـال دون تقـدمهم إلى داخل المدينة، وقـد

أعيقـوا لمدة أيام، أمضـوها في بناء الأبراج والسـلالم فـوق سفنهم، وبواسطة هذه الوسائل تمكنوا من الوصـول إلى رصيف الميناء، وأحاطوا إثر ذلك بالبرج، واستـولوا عليه، بعـد قتل كثير من الناس، ثم انتشروا في المنطقـةالمحيطة بالميناء، وشرعـوا في إقـامـة جسر فـوق النهـر، تمكنوا بوساطتـه من العبور إلى الضفـة الأخرى للنهر، ووقتهـا بدأوا في فرض حصارهم على دمياط من مختلف الجهات.

أما سلطان مصر الملـك العادل وهو أخو صـلاح الدين فقد قـام هو وولديه(الكامل والأشرف) بنصـب الخيـام قبـالة الذين هاجموا دميـاط، لكن دون أن يقدموا أي عـون إلى المدينة المحاصرة، ودون إلحاق الضرر بالمسيحيين(٣٥).

٤٩ — *تحالف ليون مع أندريه الثاني ملك المجر*

بعـد أمد قصير من مغـادرة قـوات الصليبيين عكا، بقصد الاستيـلاء على مصر، عـاد ملك المجر أدراجـه نحو مـوطنه، ثم توجه إلى كليكيـة، وهناك استقبله الملك ليـون بحفـاوة كبيرة، واصطحبـه إلى طرسـوس، وقـدم له الكثير من المودة وعبارات المحبـة، وقد نتج عن هذه الأجـواء حلف صـداقـة، تضمن الأواصر الأسريـة، والتي بمـوجبهـا قـدم ملك المجر ابنه إلى الملك ليون ليكون بمثابة صهر له، ولكي يكون أيضاً وارثاً للعـرش، وقد تم تأكيـد هذا في عقد مبرم، مـدوّن وموثق، وفي غضـون ذلك أرسل الملك ليون صاحـب تل حمدون صحبة ملك المجر، للبحث عن ابنه، وكان الملك ليـون تطْرف أيضاً مثل هذا، فأقـام روابط أخرى مع الامبراطور لاسكارس، حيث زوجه ابنة أخيه المسماة فيليبا.

٥٠ — *انضمام سلطان الروم*

وعندما استولى ليون على أنطاكية، انضم إليه سلطان قونية كيكاوس، وانطلق معـه على رأس جيش كبير ضـد كـابـان، ولم يكن هذا الأخير

يمتلك القوة الكافية للتصدي، ولم يمكنه فعل أي شيء، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفضل في تحقيق الانتصـار السريع لغـزارة المعلومـات التي حصل عليها ليـون وحليفه من الخونة والعملاء، الذين كـانوا مزروعين داخل بطانة كـابـان، أمـا بالنسبـة لكوستـاندين ابـن خـال الملك ليـون وكوستاندين بن هيتوم، وكذلك كيرساك صاحب ملوا، وعدد كبير آخر من الأمراء والسادة فقد عادوا إلى ديارهـم وبيوتهم.

٥١ — وفاة الملك ليون واعتلاء ايزابل العرش

في العام ٦٦٨(٢٦ كانون الثـاني ١٢١٩ — ٢٥ كانون الثاني ١٢٢٠) قدم الملك ليون حصني لؤلؤة واللوزات إلى الأميرين اللذين أفرج عنهما بعـدما أمضيـا مدة في الاعتقـال، وجـاء في العام نفسـه الجاثليق تير — يوهانس للاجتماع بالملك ليـون، ووضع هورومكلي بين يديه، وذكـر أنه تعرض للمضايقة من قبل المسلمين ومقابل ذلك أعطاه الملك درازارك، لأن هلي كان قد توفي.

وازدادت في هذه السنة آلام المرض على الملك، وأدى ذلك إلى وفاته، وعندمـا كان مـايزال حيـاً قدم الأعيـان إلى زيارته، مع الجاثليق تير — يوهانس وعندما شعر الملك ليـون أنه مغادر لهذه الدنيا، أمر بأن يحملوه إلى خـارج سيـس عبر الطريق إلى دير أكنير Akner الذي كـان قـد بناه، حتى إذا مـات يكون على هذا الطـريق، وفي أثناء سيرهـم نـاداهم واحـداً واحداً، وأمـرهـم أن يظلوا محبين للبـلاد، وحريصين في الدفـاع عنها، وأن يحافظوا على ولاء كامل لا مثيل له لابنتـه إيزابل، التي تركها وريثة لسلطتـه، وقد ترك وصيـاً على ابنته الأمير الكبير السير آدم، الذي كان يمتلك كثيراً من القلاع والولايات في المنطقة الممتدة من سلوقية إلى كالاوناوراوز Kalawnawraws ، والتي ما برحت تسمى حتى يومنا هذا باسـم بلد السير آدم، وكـان هذا الرجل مليئاً بـالحيـوية وبالمروءة الأرمنية، وإليـه عهد الملك بالوصاية على ابنته، وجعلهـا أمانة بين يديه،

وعهد بالشيء نفسه وبالوكـالة إلى السيد البطريرك تير — يوهانس وإلى كل الأمراء، فبعدما وجه عبـارات الشكر إليهم أوصاهم بابنته، وعندما وصل إلى قرية مرفان Mrvan توقف لأن جسده بات مثقلاً بالآلام، وكان القسيس غريغور المسمى أيضاً سكيورين Skewrien موجوداً أيضاً، لسماع الاعتراف منه ولإعطائه القداس والمباركة.

وفيما يتعلق، فيما سلف وذكـرناه، بالنسبـة لموضـوع ابن ملك المجـر، الذي رشح ليكون صهـراً للملك ليـون، أعطى الملك ليـون إلى أمـرائـه باحترام شروط العقـد المبرم والقـاضي بزواج ابنتـه ايزابل من ابن ملك المجـر، وذلـك عندمـا يحضر هذا الابن، ومـن ثم استكمال الرابطة دونما تأخير، فبعد ذلك يستطيع الملك أن يطمئن في خروجـه من الحياة الدنيا، وينصرف وقتهـا للاهتمام بالحاجـات الروحيـة، بما يكفي ويكون مـوائماً لراحـة جسده في المكان المقـدس في دير أكنير، ثم قـام الملك باستدعـاء القسيس غريغـور، وكان رجـلاً قديسـاً، وشرع يعترف أمامه بـأخطائه، وفعل ذلك بنية أورثوذكسيـة، ثم أمسك بيدي القـديس القسيس متمنياً من الرب الرحمة والغفران.

وكـان ذلك في الأول من أيار، وحصل عندئـذ خـلاف حـول المكان الذي سيـدفن فيـه جثمان الملك ليـون، ففي حين رأى الجاثليق تير — يوهانس أن يؤخذ إلى درازارك، اقترح الأعيان نقله إلى دير أكنير، وذلك بناء على رغبـة الملك الشخصيـة ثـم حمل إلى مكان ولادته، وتقـرر بعـد جـدال طويل نقله إلى سيس عبر أكنير، وأن يدفن داخل الكنيسـة في تابوت هناك، تغمده الرب برحمته وغفر له ذنوبه.

٥٢ — *وصاية كوستادين وعصيان النبلاء*

في سنة ٦٦٩(٢٦ كـانون الثاني ١٢٢٠ — ٢٤ كانـون الثاني ١٢٢١) ثار جميع الأمراء الذين كانوا في كليكيـة من الأرمن والإغريق، والبارون

بهرام، إضافة إلى الأمراء الأصيلين في طرسوس، ضد الوكيل المتسلط على الأرمن باسم الملك،وهو البارون كوستادين، وحين ثاروا عليه حشدوا قرابة الخمسة آلاف مقاتل، وكان كوستاندين موجوداً في سيس، لكن في وضع ضعيف، وقام من جانبه بإبداء مقاومة هزيلة، حيث أنه عندما علم بحركة العصيان، ووصول خصومه إلى المصيصة، تحرك للتصدي لهم على رأس ثلاثمائة رجل فقط، ولدى وصوله إلى المصيصة ومشاهدته لحجم قوات خصومه، أيقن أنه لا إمكانية لديه بالعودة، فمال نحو طريق أذنة، وفي منتصف الطريق بين أذنة والمصيصة تأكد من الحجم الهائل لقوات خصومه، فشرع في تشجيع رجاله ورفع معنوياتهم، وحثهم على الصمود في وجه الخصوم، وتوجه بعد ذلك إلى مكان فيه جسر صغير، وقرر هناك هو ورجاله الانقضاض على خصومهم دون الاهتمام بفارق الحجم، وقد تمكن البارون كوستاندين من إلحاق الهزيمة بخصومه، وظل يلاحق فلولهم ويتعقب آثارهم حتى وصل إلى أبواب طرسوس، ووفر فرار خصومه على أنفسهم سقوط الضحايا بينهم، حيث لم يمت أحد منهم، واكتفى البارون بمصادرة أسلحتهم وملابسهم وتموينهم، وتحرير الذين كانوا في أسرهم.

أما أمراء طرسوس، فقد ولوا الأدبار قبل أن يختل ميزان القوى لصالح البارون، وفروا إلى ما وراء أسوار المدينة، حيث قاموا بإغلاق الأبواب بإحكام، واستعدوا لمقاتلة مطارديهم من خلف الأسوار، لكن واحداً من سكان المدينة كان اسمه باسيل اتصل بكوستاندين، وتعامل معه ببراعة وذكاء، وتعهد له بتحقيق مآربه مقابل خدمات معينة، وقام هذا الرجل بفتح الأبواب خلال الليل، وسهل بذلك عملية تسلل الوكيل الملكي، ومن معه من الرجال إلى داخل المدينة، وهنا جرى نهب أملاك الإغريق، أما الأمراء الفارون، فقد قرروا الصعود إلى الأماكن الحصينة في المدينة، غير أن دهاء كوستاندين الوكيل الملكي للأرمن،

واستطاعتــه التعـامل المرن مع خصــومـه من الأمــراء جعله ينجح في إقناعهم بالتسليم إليـه،وهكذا انتصر عليهم دونما قتـال، فبـالحوار تمكن من وضع يده عليهم، فاقتـادهـم إلى السجن، حيث هلك بعضهم هناك، وتحرر بعضهم الآخـر وفي العـام نفسـه مـات الجاثليق تير — يوهانس، ودفن في درازارك.

٥٣ — انتخاب الجاثليق كوستاندين الأول

اجتمع الأساقفـة والقساوسـة للتداول بشأن اختيار جـاثليق للأرمن وقـد اختلف الأمــراء، ولم يكن هناك ملك يحسم الأمــر بإرادة ملكيـة باختيـار جاثليق وتثبيتـه، ومع هذا قـام كوستـاندين، الذي كـان يشغل وظيفـة الوكيل الملكي، فـاختار الـوقوف إلى جـانب برجــربيرد -Barjr berd، وآثر اختياره وكذلك فعل البارون كوستاندين صاحب لامبرون والقسيس غريغور دي سكيورا Skewra ، وآثر كوستاندين الوكيل الملكي للأرمن إرضاء الرب، وتكلم بشكل بارع، وجرى الإصغاء إليه، وهكذا جرى اختيار تير — كوستاندين برجربيرد جاثليقاً للأرمن.

٥٤ — إحلال هيتوم الأول محل فيليب الأنطاكي

في سنة ٦٧١(٢٥ كـانون الثاني ١٢٢٢ — ٢٤ كانـون الثاني ١٢٢٣) أصبح فيليب ملكاً على الأمـة الأرمنيـة، وجدير بالـذكر أن فيليب كـان ابن كـونت طرابلس وأمير أنطاكيـة، وكان قـد تزوج — كما أشرنا — من إيزابيل ابنة الملك ليون، ذلك أن ابن ملك المجر لم يحضر عندما توفي الملك ليون، وبعـدما صـار فيليب ملكاً، أظهر عداوتـه للأمراء الأرمن، وتمادى في تصرفـاته الرعناء، وبلغ به الأمـر أن قام بجمع أمـلاك الملك ليـون وأمـواله، مع أمـوال ورثته، واستـولى عليهـا، ثم شرع بنقلهـا إلى أنطاكية، شيئاً فشيئاً، وغضب أمراء الأرمـن كثيراً ومن ثم قرروا اعتقاله وزجــه بالسجن، الأمــر الذي أثار فيما بعــد كثيراً من التــوتر فيما بين

الأرمن والأنطاكيين.

وفي عام ٦٧٥(٢٤ كانون الثاني ١٢٢٦ — ٢٣ كانون الثاني ١٢٢٧) اجتمع الأمراء الأرمن مع الجاثليق تير — كوستاندين، واختاروا هيتوم ملكاً لهم، وكان هيتوم هذا هو ابن كوستاندين الوكيل الملكي للأرمن، وقد مكنوه من ايزابيل ابنة الملك ليون، وهكذا هيمن السلام والهدوء على الشعب الأرمني سنة تلو سنة، حتى بلغ أعلى مستويات الرقي والعظمة.

وفي عام ٦٧٨(٢٨ كانون الثاني ١٢٢٩ — ٢٢ كانون الثاني ١٢٣٠) قدم امبراطور الألمان من النواحي الكائنة على تخوم المحيط، ثم قصد القدس حيث سيطر عليها بوساطة (سلطان) المسلمين .

(سقط مقدار ورقة ونصف الورقة)

تاريخ سنة ٧٠٠(١٨ كانون الثاني ١٢٥١ — ١٧ كانون الثاني ١٢٥٢)والأحداث التي تلته

٥٥ — وفاة الملكة ايزابيل

في العام ٧٠١ حسب التقويم الأرمني(١٨ كانون الثاني ١٢٥٢ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٣) توفيت ايزابيل في يوم ١٢ — كانون الثاني، وهي التي كانت ابنة الملك ليون، وزوجة الملك هيتوم، والتحقت بالمسيح، وقد عرفت بحسناتها وأعمالها الخيرة، وكانت هذه الملكة قد أنجبت ثلاثة أولاد هم: ليون، وطوروس، وروبين، إضافة إلى خمس بنات، سميت إحداهن باسم فيمي، وهي التي تزوجت واحداً من الفرنجة اسمه جوليان، وكان صاحب صيدا، وقد خسرها في رهان للخيل، وقد اشتراها منه فرسان المعبد.

٥٦ — سفر هيتوم الأول إلى منغوخان

في عـام ٧٠٢(١٧ — كـانون الثـاني ١٢٥٣ — ١٦ كـانون الثـاني ١٢٥٤) غـادر هيتـوم ملك الأرمن بلاده كليكيـة متـوجهـاً إلى الشرق، برفقــة عــدد من الرجــال من أجل زيـارة شعب الرمـاة، أي شعب جنكيزخـان، والمثول في حضرة الخان المسمى منغـو، وقد وصل أولاً إلى أماكن سكنى الإسماعيليين المسلمين في مقـاطعة كبدوكية، وكـان يعتمد في مسيره أثناء الطريق على دليل اسمـه بارسيل، وبارسيل هذا هو الذي رسم لهيتوم خطة السير والسفـر، وقد وصل هيتوم ومن معـه إلى حدود ثيودوثيوبولـس، وذلك على مقربة من مكان اسمه فارديني، وقـد أقاموا في منزل كان يملكـه أمير اسمه كرد، وهناك انتظروا وصـول الهدايا من كليكية، لكي يحملها معه إلى الخان، أما كوستاندين — والد الملك ـ فقد أعـدّ كل ذخـائره وأرسلهـا إلى الملك مع رجـال يثق بهم، ثم قـام الملك هيتـوم بحمل الهدايا جميعها، وقصـد منغـوخان، الذي استقبله بحفـاوة وابتهاج، واستجاب لكل شيء طلبه منه، ووقع اختيار الخان على واحد من خـدمه، وكان رجـلاً أعور لمرافقـة الملك هيتوم في العـودة إلى بلاده كليكية، وكان اسمه ماركاتيا، وأصحبه برجل آخر اسمه باجوني.

وتزوجت في العـام نفسه سيبل ابنة الملـك هيتوم من بوهيمـوند أمير أنطاكية وكونت طرابلس.

٥٧ — غزوة التركماني اسلام بيك

في العام ٧٠٣(١٧ كانون الثـاني ١٢٥٤ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٥) ظهـر من بين البـدو التركمان رجل اسمـه تركمان بيك، وقـد انضم إليـه عدد كبير من بني قومه عرفوا باسم الآغا جيري Aghag - eri ، وقد هاجموا المسيحيين وألحقوا بهم أضراراً بليغة، ونهبوا الكثير من المواقع في لحف جبل طوروس، كما أنهم قـاموا بإضرام النيران، وإشعـال الحرائق،

وقاموا بحصار برج كراكا Krakka ، لكن ما لبث هذا الكلب أن قتل خلال أيام قليلة ومن ثم عاد السلام إلى المنطقة الجبلية.

٥٨ — *العودة المنتصرة لهيتوم الأول*

في العام ٧٠٤(١٧ كانون الثاني ١٢٥٥ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٦) غادر الأمير غيوفري بلاد كليكية، وترك هذا العالم بعد أن استاء من أعمال الناس مع مسيحيي الشعب، وقد توفي بعدما ترك سيرة مليئة بالأعمال المقدسة.

وفي العام ٧٠٥(١٧ كانون الثاني ١٢٥٦ — ١٥ كانون الثاني ١٢٥٧) وخلال شهر أيلول عاد الملك هيتوم ملك الأرمن إلى البلاد قادماً من عند منغوخان، وخلافاً لذهابه الذي كان بصورة سرية، فإنه عاد مثل الأسد، ومرّ بين أعدائه دونما خوف، حتى وصل إلى الحصن الذي كان يقيم فيه والده، وقد عرف باسم حصن البرج(برجربيرد)،وهناك وجد والده، وأطفاله البنات والبنين الذين فرحوا بعودته سالماً.

وبعد ذلك في شهر تشرين من السنة نفسها حشد الملك هيتوم حشداً عظيماً، وكان معه أخوته وأقرباته والنبلاء، وقد بلغ تعداد الحشدمائة ألف، وزحف ضد بلاد الروم في سفوح جبال طوروس وذلك بالقرب من مدينة ايرغلي Eregli وهاجم منطقة «عنق الكنائس» ومنطقة موراندين Murandin ، وسلب الكثير من الحيوانات القرنية من أبقار وجواميس وأغنام، وكذلك الخيول والبغال والذهب والعبيد الأقنان، ثم عاد إلى بلاده مبتهجاً حيث عم السرور أرجاء البلاد لأيام كثيرة.

٥٩— *حفل تنصيب الأمير ليون ولي العهد قائداً للفرسان*

قرر في العام ذاته الملك هيتوم تنصيب ابنه الأكبر قائداً للفرسان،

وتوجـه لهذا الغــرض هذا الملك إلى منطقـة المصيصـة، ثـم بعث برسل. وبسفراء إلى أنطـاكية لتوجيـه الدعوة إلى صهـره بوهيموند أمير أنطـاكية وكونـت طرابلس، من أجل القدوم بصحبـة زوجته لحضـور احتفالات تلك المناسبـة، كما بعث للغرض ذاته إلى جـوليان صـاحب صيدا،طالبـاً حضوره هو الآخـر، رفق زوجته، كما تكرم بتـوجيه الدعوة إلى كـونتسة يافا للحضور إلى كليكية، ووجه الدعوة إلى جميع أصدقائه أيضاً، كما قام بجمع جميع حـاشيتـه وكل المراتب الإدارية على اختـلاف درجـاتها، لحضور مـراسم الحفل البهيج، وهكذا جرى تنصيب ليون قائـداً لسلاح الفرسـان بتاريخ ١٥ تشريـن الثاني من العـام ٧٠٥، وفرح الملك فـرحاً عظيماً، وذلك بالإضافـة إلى والده وأسرته، وكل الذين احتشدوا في هذه المناسبة بالذات.

٦٠ — *استيلاء المغول على بغداد*

في عـام ٧٠٧(١٦ كـانون الثـاني ١٢٥٨ — كـانون الثـاني ١٢٥٩) زحف شعب الرمـاة باتجاه مـدينةبابل، برفقـة جميع قـادة المئات، وقـواد الألف، وذلك تحت لواء القائد الكبير الخان هولاكو، الذي اجتاح تلك البـلاد بكل عنف، وفي مـواجهـة الغـزو المغـولي، استعـد أهالي بابل من المسلمين، قبل وصول هولاكو، وكان ذلك لسببين:

أولهما: لأن السكان كـانـوا على علم مسبق بهجـوم المغــول والتتـار، وكـانوا يعـرفـون حجم الحملة المعـدة ضـدهم، ولهذا قـامـوا بالتجهـز والاستعداد، وحضروا ما يلزم لخوض الحرب.

وثانيهما: لأن الخليفة كـان مقيماً من قبل في القاهرة، وقـد جرى تغيير مقر إقـامته ونقله أيام حكم الملك بلدوين، الذي أقـام في القدس وتهدد مصر، وأراد احتـلالها، فكـان أن قُتل الخليفـة بأمــر من سلطان حلب، وبعد هذا نقلت الخلافة إلى بغداد.

وخرج سكان المدينة للتصدي للغزاة في ميدان القتال، وقدموا هناك عدداً كبيراً من الضحايا، كما أنهم قتلوا العديد من جيش الغزاة، غير أن التتار نظموا هجوماً ثانياً على المدينة، ووقتذاك بعث الخليفة موفداً خاصاً ليتحدث إلى هولاكو خان، وليقول له على لسان الخليفة: «خذ جيشك، واذهب به بعيداً عن ها هنا، فإنك لن تستطيع تحقيق أي تقدم يذكر، فنحن سوف نستنصر عليكم بلبس بردة النبي(ﷺ) أمام الناس جميعاً، ووقتها سيخرج من بين صفوفكم من سينحاز إلى إيماننا، وساعتها سأتولى توفيرهم»، وبعدما استمع هولاكو خان إلى حديث هذا الموفد الخاص، استخف بالخليفة واستهزأ به، وطفق يبصق هو ورجاله نحو الخليفة، ثم رفع هولاكو خان صوته وصرخ قائلاً: «بعون الرب، وبوصية جنكيزخان سوف ندخل إلى المدينة بحد السيف»، وما أن انتهى الحديث بين الطرفين، اندلعت الحرب، وانقض رجال شعب الرماة على الأهالي بسرعة كبيرة، وشرعوا في توجيه الضربات تلو الضربات حتى انهزم السكان، وتركوا ثغرات تسلل منها هولاكوخان ورجاله إلى داخل المدينة، حيث ارتكبوا المجازر والمذابح الهائلة، فلقد قتلوا وذبحوا الرجال والنساء والأطفال، وقذفوا بالجثث النازفة في نهر الفرات(٣٦)، الذي يمر بمحاذاة المدينة حتى تحول لون الماء إلى اللون الأحمر، وذلك نظراً لكثرة الدماء التي نزفت من الجثث في داخل النهر.

وشعر المغول والتتار بعد اقترافهم للمجازر بالإرهاق، والتعب الشديد، فالتمسوا من القيادة المغولية المنتصرة إيقاف القتال، وجمع الأسلاب، وفرض الغرامات والضرائب، والعودة إلى موطنهم.

٦١ — *وفاة ليون أخو هيتوم الأول*

وقرر في العام ذاته ليون أخو الملك هيتوم الذهاب إلى قبرص لزيارتها وليخطب امرأة ويتزوجها، وقام ليون بتحضير جميع المستلزمات الضرورية لاستكمال الزواج، ووضعها على متن سفينة بانتظار هبوب

رياح الشمال، ثم إنه عاد يبحث عن أبيه من أجل نيل تبريكاته، غير أنه أصيب بشكل مفاجيء بمرض عضال أدى إلى وفاته في ٣٠ — أيار، وكان ذلك في مدينة أذنة، وقد فتحت بطنه، وأخرج ما في جوفه، ثم حمل إلى دير القديس أكنير، حيث أودع هناك لبعض الوقت، وبعد هذا جرى نقله إلى مليك بابيروان، حيث دفن هناك.

واعتباراً من هذا اليوم استبد الحزن بكوستانديين والد الملك، وبالملك هيتوم وآل بيته وحاشيته.

٦٢ — *حملة ساروم التركماني*

وقام في العام ذاته تركماني اسمه ساروم Sarum ، بحشد عدد كبير من الرجال، وزحف ضد قلعة كراكا Krakka ، وبث الرعب بين صفوف الناس ثم أخذ معه أسرى وغنائم وأسلاب، وانسحب دون إحداث أضرار كبيرة، وبعد مضي بعض الوقت توفي هذا التركماني.

٦٣ — *قيام هيتوم الأول بالتحكيم في طرابلس*

في العام٧٠٨(١٦ كانون الثاني ١٢٥٩ — ١٥ كانون الثاني ١٢٦٠) ذهب الملك هيتوم على متن سفينة إلى طرابلس، ومعه مائتي رجل، وذلك من أجل معاضدة صهره الذي كان أميراً لأنطاكية، وكونتاً لطرابلس، وذلك إثر تفجر خلاف بين هذا الأمير، وتكتل قوي نشأ بين صفوف حاشيته، وقد تمكن الملك هيتوم من فض الخلاف، وعقد اتفاقاً نظم العلاقة بين الطرفين، ثم عاد إلى بلاده.

وعقد في العام ذاته في أيام عيد الحصاد، اجتماع كبير في مدينة طرسوس، جرى خلاله تنصيب أخو الملك المعروف باسم بلدوين أسقفاً، وبعد مضي عدة أيام نال لقب تير — يوهانس، وحدث في اليوم ذاته أن أصبح طوروس ابن الملك فارساً.

٦٤ — هزيمة أتراك الروم في منداس

وكان قد ظهر في هذه الأحداث أمير من أصل إغريقي اسمه أوشين، قام بغزو المواقع الحصينة في منداس واحتلها، واستنفر في هذه الأثناء ركن الدين سلطان الروم قواته، وحشد جيشاً كبيراً، أوكل قيادته إلى رجال كانوا موضع ثقته، وأرسله إلى المنطقة الحصينة في منداس لمحاصرتها، وقد تمكن من ذلك، غير أن رجلاً تمكن من مغادرة المنطقة المحاصرة، وتوجه إلى الملك هيتوم، وأبلغه أن عدداً كبيراً من المسيحيين قد جرى حصارهم في داخل الأماكن الحصينة، وأبلغه بأخبار حملة السلطان ضدهم، وبناء عليه استدعى الملك قواته، وزحف على رأسها إلى المنطقة الحصينة المحاصرة، ومعه الصليب المقدس، وزحف الأرمن وتقدموا سراً في غسق الليل بمشاعل تضيء دربهم، لكن دون أن يلفتوا الانتباه، وعندما وصلوا على مقربة من كاوستار Kawsitar ، ساروا فوق الثلوج، وحققوا بذلك معجزة كبيرة، وفعلوا ذلك وكأنهم يسيرون في شهر تموز، وكان المدعو أبلهسنانك Aplhasnanc ، يسير في المقدمة، وقد تمكن من استغلال ثغرة وجدها بين صفوف الأعداء، فمرّ بقواته منها، وقام من هناك بهجوم مباغت، وبذلك أرغم هؤلاء الأعداء الأوغاد على الفرار حتى ايرغلي Eregli ، حيث كان هناك معسكر للمؤمنين، وهناك بدأوا في إعادة تنظيم صفوفهم، وخاض إثر ذلك الطرفان معركة مجابهة قاسية، وقد تمكن الأرمن من ترجيح ميزان القوى ميدانياً لصالحهم، غير أن الأعداء تمكنوا من محاصرة بهرام دي هاموس Hamus ، وكان مقاتلاً معروفاً، وشددوا الحصار عليه من جميع الجهات بالرمايات المكثفة من قسيهم، إنما دون التقدم نحوه، وشوهد في هذه الأثناء أخو الملك وهو يقوم بفتح ثغرة بين صفوفهم، والولوج إلى بهرام المحاصر، ونجدته وحمايته حتى وصل إلى مخيم الأرمن، وبما أن الصليب المقدس كان مصدر قوة روحية ومعنوية، فقد ساعد على تحقيق

النصر على الأعداء ودفعهم إلى الفرار، وكان الأرمن قد قتلوا أعداد كبيرة، في حين عانى الذين بقيوا أحياء من الخيبة والعار، ومنهم من لجأ إلى قونية أي إلى حاضرة سلطانهم، ومن جانبه عاد السلطان مهزوماً إلى قونية، في حين عاد الملك هيتوم منتصراً ومطمئناً إلى كليكية، وكان مثقلاً بالغنائم الكثيرة، ولم يقتصر الأمر على هذا فقط، بل حقق هدفه الأساسي، وهو تحرير المسيحيين الذين كانوا محتشدين داخل الحصن، وإعادة الطمأنينة إليهم، وقد أمر بإدخالهم إلى الأراضي التي كان يسيطر عليها.

٦٥ — *الأرمن والمغول يحتلون حلب ودمشق*

في سنة ٧٠٩(١٦ كانون الثاني ١٢٦٠ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦١) زحف هولاكو خان على رأس قواته في فصل الربيع، وكان كلما مر بحصن عاد إلى المسلمين استولى عليه صلحاً أو عنوة، حتى وصل إلى مشارف حلب، فحاصرها من جميع الجهات، ثم بعث إلى الملك هيتوم يطلب منه القدوم عليه، ووصل هذا الملك إليه مع جيشه، أي وصل إلى حيث كان الخان مرابطاً، وقد استقبله هولاكو بحفاوة كبيرة، وكان الخان المنتصر قد قرر الضغط على حلب بمختلف الوسائل المعززة للحصار، واستطاع خلال سبعة أيام من القتال المتواصل فتح ثغرة ضيقة في الأسوار، وذلك على الرغم من اتساع هذه الأسوار وعمق الخنادق، وقد تمكن بواسطة العمل الجماعي من حفر نفق تحت الأسوار أوصله إلى القلعة، وبهذه الوسيلة اندفعت قوات هولاكو إلى الداخل، واقترف المغول بسيوفهم مجازر رهيبة ضد المسلمين، وقتلوهم دون رحمة أو شفقة، وما من أحد يمكنه أن يصف المجازر، بحكم فظاعتها، واتساع المساحة التي انتشرت فوقها الجثث.

وبعد انتهاء المجازر حملت قوات هولاكو الغنائم، وجميع ما وقع في أيدي أفرادها من أسلاب ومنهوبات، ثم زحفت هذه القوات نحو

دمشق،وكان هولاكو قد أخضع جميع المدن والقلاع والحصون ووضعها تحت تصرفه المباشر، وذلك امتداداً من حلب حتى القدس، وقد عين على كل مقاطعة حاكماً يرجع إليه، ثم أسند الأمور كلها إلى رجل اسمه كتبغا، وقرر بعد ذلك هولاكو خان العودة إلى الشرق، أي إلى حيث أتى، واصطحب ابنه أبغا معه، وقد اصطحب هذا جيشه معه.

٦٦ — *انتصار المصريين في عين جالوت*

قرر كتبغا، المسؤول الأول عن السلطة، عدم الالتزام بأوامر هولاكو، الذي كان قد فرض عليه البقاء في المكان نفسه، وهكذا قام كتبغا بحشد قواته، والقوات الكليكية، فهو كان قد طلب من الملك هيتوم الالتحاق به، وإمداده، فجاء على رأس خمسمائة رجل، ولدى استكمال حشد القوات توجه كتبغا يريد مصر لاحتلالها، وحصل جواسيس السلطة المصرية على أخبار الزحف المغولي، فبادروا إلى إيصالها إلى المصريين المعنيين بالأمر، وقامت قوات الملك بالاستعداد وتعبئة الصفوف على بعد أربعة أيام من مواقع العدو في مكان اسمه بيت(زرعين) إلى الغرب من عين جالوت، وخلال نصف يوم استعد الجيشان وشرعا بالاقتراب من بعضهما بعضاً، وفي مطلع الفجر التحم الجيشان في معركة ضارية، وجرى القتال جبهوياً، جيش مقابل جيش آخر، وكان في غاية العنف، ونظراً لقسوة القتال، ورداءة المناخ ولارتفاع الحرارة وشدتها، ولأن الارهاق قد أصاب خيول المغول قرر شعب الرماة الانسحاب ثم الفرار، وقتل المصريون في المعركة القائد المغولي كتبغا، وحملوا معهم إلى مصر ما كان بحوزته وذلك بالإضافة إلى زوجته وأطفاله، أما الذين ظلوا على قيد الحياة من المغول بعد المعركة، فقد تمكنوا من الفرار إلى بلاد فارس، ولدى وصولهم إلى هناك ولقائهم بهولاكو، أخبروه بتفاصيل الوقائع الحربية وبالهزيمة، وهنا زمجر هولاكو، وزأر مثل الأسد، وأعلن أنه سيذهب للانتقام لدم جنوده.

٦٧ — حملة غنغرا

واستدعى في العام ذاته هيتوم، ملك الأرمن، وحداته المقاتلة، وذلك بهدف الإقلاع بحملة جديدة، فزحف عبر ممر كان بين كبدوكية وقونية، وكان هدفه الالتقاء بجيش شعب الرماة(المغول) في مقاطعة غلاطية، عند مدينة غنغرا Gangra ، وهي مدينة مجاورة لسميرنا، ولولايات لاسكاريس، وكان التتار قد وجهوا الإنذار إلى لاسكاريس، وطلبوا منه اللحاق بهم، وكان الملك عندما تحرك بالاتجاه المذكور تحرك خائفاً، ومع ذلك لم يتوقف عن المسير، هذا وكانت الوحدات التي حشدها شعب الرماة قليلة، ولم يكن بمقدورها الصمود طويلاً، ويبدو أن التتار قد علموا بحجم القوات التي كانت مرافقة للملك هيتوم، ولهذا قرروا الانتشار في الأحراش والمناطق الوعرة، وذلك دون تحقيق فائدة تذكر، وكان هناك أمير من أصل إغريقي ضمن وحدات الملك اسمه باسيل كيراونينك Kerawnenc، وقد توفي في طريق العودة. وإثر وفاته نقل جثمانه إلى كليكية، ودفن قرب أجداده.

٦٨ — وفاة كوستاندين والد الملك هيتوم

في عام ٧١٠(١٥ كانون الثاني ١٢٦١ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٢) زوج الملك الأرمني هيتوم ابنته ريتا إلى ابن صاحب سرونديكار Sar-vandikar في العاصمة سيس، وفي السنة نفسها التحق حاكم سرونديكار، الذي كان مقاتلاً ممتازاً، بالمسيح، بعد قيامه بحملة مقدسة، وكان ذلك في شهر كانون الأول، وقد خلف ثلاثة أطفال هم كوستاندين، وسمباط، وأوشين.

وفي العام ٧١٢(١٥ كانون الثاني ١٢٦٣ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٤) خيم الحزن الكبير على كليكية، وكان الناس جميعاً يتحدثون بلغة روحية واحدة عن حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد، وكان هذا

الاستقرار قد ارتبط عملياً بوجود أبو الملك، أي كوستاندين، الذي توفي يوم الأحد ٢٤ شباط، من العام نفسه بعد عمر مليء بالأعمال المقدسة، وكان هذا الرجل يعد الأب الكبير لكليكية، وبفضل نصائحه ظلت ذكراه في أذهان الناس، وظل في مكانة علية من التقدير لسنوات عديدة بعد وفاته، وتذكر الكليكيون ذلك كله، عندما رحل النبلاء والأشراف أسرى إلى مصر، فاقدين لثرواتهم كلها، فقد قضى الرب بضياعها وبأن تحرق أرض الرب مع جميع الحقول والقرى على أيدي الأمم الإسماعيلية(من المسلمين).

٦٩ — *النجاح الأول للتركماني قرمان*

خرج قبل وفاة كوستاندين، والد الملك هيتوم، رجل بدوي من المسلمين اسمه قرمان، وقد انضم إليه عدد كبير جداً من بني قومه، ثم جرت بيعته سلطاناً، ولقد حاول أن يعزز قوته حتى يصبح مثل ركن الدين، سلطان الروم، وذلك بالنظر لخوفه منه، وقد تمكن من فرض سيطرته على كثير من البقاع الحصينة، وأنزل أضراراً جسيمة بأرجاء منطقة ايزورا Isaura(حاضرة ايزوريا)، وبمنطقة سلوقية، حيث قام بأسر الناس، ومزق وحدات الحراسة التي كان الملك هيتوم قد مركزها في المنطقة، كما أنه قتل هلكم، وهو رجل صاحب مكانة عالية، وكان من أصل إغريقي، كنا قد أشرنا إليه من قبل.

٧٠ — *محاصرة القائد سمباط في مانياون*

بدأ قرمان يظهر نواياه السيئة ضد سمباط أخو الملك الأرمني هيتوم، وفي الحقيقة تمكن قرمان من الاستبداد بالمنطقة، واستطاع بالمقابل سمباط هو الآخر التحرك بفضل هداياه التي وزعها، وبذلك تمكن من انتزاع قلعة حصينة من المسلمين اسمها مانياون Maniawn ، وكانت هذه القلعة بالأصل ملكاً للمسيحيين، وقد امتلكها سمباط من قبل

واحتفظ بها لمدة ثلاث سنوات، وهـذا وكـان قـرمـان المتجبر قـد قـام بمهـاجمة هذه القلعـة بكل عنف، وزاد المخـاطر ضـد سمبـاط بأن تولى حصـاره فيهـا، وكما ذكـرنا استطاع سمبـاط بفضل مـا أنفقـه من ذهب وفضة البقـاء بعض الوقت سيداً للقلعة، لكـن قرمان لم يوقف هجـومه العنيف، وتابع محاصرة القلعـة لمدة تسعة أشهر، ثم اقتحمهـا بكل عنف واستولى عليها، وإثر ذلك شمخ قـرمان بأنفه وتكبر كثيراً، وطفق يظهر بكلامـه العجرفـة والغرور، إلى درجـة أنه صار يبعث بأوامـره إلى الملك هيتوم وقال له في إحدى المراسلات«لئن كنت لا تريد الآن الانضمام إليّ والالتحاق بي، لتركع أمـام قدمي، انتظر قليـلاً حتى تهب رياح الخريف على بلدك خـوفاً من وصـولي، ووقتهـا لن يصيبني الوهن أو الضعف»، ومـا أن بلغ الملك الأرمني هيتـوم هذا الكلام حتى بـادر إلى والده كوستاندين وأبلغه بالأمر.

٧١ — انتصار جيش النجدة

وقال كوستـاندين، البطريرك الجديد للملك:«لا تأبه كثيراً بأوامر هذا الرجل، وإذا مـا أخـذنا بعين التقدير انتصـاراته في ايزورا، وقـواته التي تزداد وتتضـاعف فإنني أخشـى أن نشهـد صـلاح الدين الثـاني، لذلك يتوجب علينا عدم انتظار ما سمعناه منه وما توعدنا به، وأقول علينا أن نزحف ضده بكل قوة، والرب سوف يضعه بين أيدينا، ويمكننا منه».

وتشجع الملك، وذهب إلى طرسوس، وهنـاك قام بحشد قـواته، وقد جمع كل مـا يمكنه جمعـه، ثم توجـه إلى سلوقيـة، حيث ضم إلى قـواته وحدات أخـرى من الفرسـان والرجالـة، وحملة الأثقال والعتـاد، وكان على هؤلاء ومـوكـل إليهم حمل ألف كُرّ من القمح للتـوزيع في داخل القلعة.

وعندمـا وصل الجيش المسيحي والملك إلى تخوم القلعـة، قرر الكفـار

مغادرتها، وانسحبوا منها، ولدى وصول الملك إلى القلعة مع قواته لم يجد الكافر قرمان، فأمر بتوزيع القمح داخل القلعة، وبتغيير الملامح الخارجية للقلعة بالطلاء.

٧٢ — *وفاة قرمان*

وإثر هذا عادت القوات إلى بلادها عبر طريق مغاير، دون أي قلق، غير أن الكافر قرمان، كان قد تخفى في مكان قريب، في غابة كثيفة، بمحاذاة طرق صعبة وضيقة، وعالية في الجبال، فهناك اتخذ قرمان موقعه المرتفع وكمن، وعندما وصلت القوات المسيحية إلى ذلك المكان صرخ الكفار بأعلى أصواتهم، فوجهت إليهم القوات المسيحية سهامها، وأصابت معظمهم بجراح بالغة، ووصلت أصوات صراخهم إلى مسامع الملك، وهكذا تقدم الرجال الأكفاء من المسيحيين وانقضوا على الكفار، فبعثروهم في ميدان المعركة، وتخلى هؤلاء عن مواقعهم ولجأوا إلى الفرار، وتمكن بعض المسيحيين من إصابة قرمان برمية سهم وقد انسحب هذا مجللاً بالعار، ومات بعد أيام الكافر قرمان متأثراً بجراحه، وكان أخوه المدعو بونسوز Bunsuz وصهره قد قتلا في ميدان المعركة، وكان من بين رجال الملك الذين قتلوا الوكيل كوستاندين، حاكم سوماي Somay ، والأمير غريغور، وصاحب مازوت اكساك Mazot Xac الذي بُتر إصبعه بضربة سيف، ومع هذا على العموم كان عدد القتلى في صفوف المسيحيين قليلاً.

٧٣ — *انجازات سمباط الشاب*

كان سمباط الشاب المنحدر من أصل إغريقي، أخاً لكل من باكوران Bakuran وكوستاندين، وعندما كان ما يزال صبياً تبناه والد الملك هيتوم، فقد شوهد هذا الشاب وهو يندفع مع الشجعان الآخرين، ويرمي الكفار أرضاً بلا حياة، وكان الملك مع آخرين شاهدوا هذا

المشهـد، فقـرر الملـك مكافأة الشـاب المندفع، وأرسله في مهـام لدى كوستاندين والد الملك، وكان كوستـاندين هذا قد تعرف إلى مواصفات الشاب، وعلم بها قبل أن يصل إليـه، فاحتفى به كثيراً، وأغـرقه بالمودة، وأحـاطه بأجـواء سعيـدة، ثم أعاده إلى أمـه وإلى أخـوته محمـلاً بالهدايا الثمينة، وكـان الملك قـد رجع إلى بلاده وأراضيـه في غـاية السعـادة والفرح، ودون أية متاعب وذلك بعدما أذل الأعداء من الكفار.

٧٤ — *حج هيتوم الأول إلى أنطاكية*

في العام ٧١٢(١٥ كانون الثـاني ١٢٦٣ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٤) قصد الملك هيتوم ملك الأرمن أنطاكية بزيارة ودية لمشاهدة هذه المدينة، ورافقه في رحلته الحكيم تير — يعقوب رئيس أساقفة عين زربة، وذلك بالإضـافة إلى عـدد من القساوسـة والرهبـان، وقد حمل معـه الكثير من الأشياء الثمينة مثل الـذهب والفضة مما اكتنزه أبوه كوستـاندين، وذلك بهدف توزيعهـا على الفقـراء، ومنح الهبات إلى البيـوتات الدينيـة، وقـد تجول في المدينة، وزار كل مـن كنيسـة القـديـس بطرس، ثم القـديس بولص، كما زار الدير المقدس في كابيك Capik حيث تم قبوله، مثل أبيـه، عضـواً في طائفـة هذا الدير، وهنا تـدخل بأمـور الدير شخصيـاً، ونظم بعض الأمور الخاصة بأخوانه، وخصهم بالهدايا، وبأعطيات تقرر أن يحصلوا عليها سنوياً من بلاده، وبعدما أمضى وقتاً طويلاً في أنطاكية عاد أدراجه إلى كليكية.

٧٥ — *وساطة مغولية بين هيتوم الأول وسلطان الروم*

وفي العام ذاته، في شهـر حزيران، توجـه الملك هيتوم إلى الشرق، إلى الخان هولاكو، وذلك بسبب الأضرار التي كان سكان كبدوكيا، ينزلونها بسكان كليكيـة، الذين يعيشـون في الجبـال والمرتفعـات، ونظراً للمـودة الكبيرة التي كـان هولاكو يكنهـا للملك، أرسل معـه عدداً من القضـاة

المغول المشهود لهم بالعدل، وقد رافق هؤلاء الملك حتى ايرغلي، إلى حيث وصل سلطان الروم، وقد أقاما هناك بضعة أيام نتج عنها عهد وميثاق صداقة لكي يعم السلام، وهكذا تحول الملك والسلطان، وصارا بمثابة أب وابن، ثم عاد كل منهما إلى بلده.

وفي العام ذاته كانت الكونتسة كيرامـاريا، أخت الملك هيتوم في يافا، قد قصدت السفر إلى أبيها كوستاندين، بسبب حزنها، ذلك أن ساعة منيتها كانت قد دنت، وبالفعل ماتت في حصن لامبرون، ودفنت في الدير المقدس في سكويرا Skewra ، وقد خلفت ولدين ذكرين وثلاث بنات.

٧٦ — حملة الملك هيتوم الأول على شمال سورية

في عام ٧١٣(١٥ كانون الثاني ١٢٦٤ — ١٣ كانون الثاني ١٢٦٥) حشد الملك هيتوم قواته مع أعداد كبيرة من الرجالة، وقام بتنظيم حملة ضد منطقة حلب، واستهدف أبراج معرة مصرين، وسرمين، والفوعة، وتمكن فقط من أخذ عدد ضئيل من الأسرى وقليل من الغنائم، وقد تورط هنا في مأزق كبير، استطاع أخيراً أن يتخلص منه، حيث كان قد اختار بعضاً من حرسه الخاص من عبيده، واصطحب واحداً من أمرائه هو كوستاندين أبلها سنانك، وانفصل عن جيشه، ثم تسلل مع مرافقيه إلى داخل المدينة، وسار في شوارعها متنكراً ، دون أية مظاهر ملكية، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام عشرين من المسلمين مجهزين بالسلاح، وكانوا على نية الدخول إلى برج مرتفع في وسط المدينة، من أجل إنقاذ الأسرى الذين جرى حشدهم هناك، وتحرج موقف الملك عندما وجد نفسه في مواجهة هذه المجموعة، لكن لحسن حظه لم يتعرف المسلمون على هويته، ومع ذلك رفع أحدهم سيفه وهوى به على الملك، فتدخل الحارس جوسلين، وصرف الضربة نحو جسمه شخصياً، وحاول الرجل مرة ثانية ضرب الملك، فتصدى له الأمير كوستاندين،

وحماه من الخطر، ثم أزاح الملك من المكان الخطر، وتقدم هو للمواجهة، وهنا بادر المسلمون بالانسحاب وهم يركضون نحو البرج، وبذلك تمكن الملك من النجاة ومن الخلاص من ورطته دون أن يصاب بأذى، ثم عاد أدراجه نحو بلاده، محملاً بالأسلاب وبالغنائم، ومسروراً بشكل عام.

واستنفر في السنة نفسها الملك هيتوم قواته، وزحف ضد عينتاب للاستيلاء عليها، غير أنه لم يستطع إلحاق الضرر بالمسلمين، وعاد إلى بلاده وبعد مضي وقت قصير، أي بعد انقضاء الشتاء، قرر الملك هيتوم مجدداً الزحف ضد عين تاب للاستيلاء عليها، غير أنه عندما وصل إلى برج الرصاص اضطر إلى التوقف، ذلك أن الشمس حجبتها الشمس الداكنة، وظلت محجوبة لمدة خمسة أيام، وكذلك بسبب الرياح العاتية والشديدة، ونظراً لغزارة الأمطار، فقد كان من غير الممكن الخروج من الخيام، وقد لوحظ أن الفرسان والرجالة كانوا يرتجفون من شدة البرد، ويعانون من رداءة المناخ، ونتيجة لهذا تقرر الانسحاب، لكن على تعبئة خشية مواجهة أي طارىء، وكان هناك سيرجندي فرنجي اسمه مارتن، كان من رجال الملك وأتباعه، وقد خاطب الملك بصراحة، وكذلك توجه بالخطاب إلى القادة الذين اجتمعوا للتشاور حول الأمر، وكان بعضهم يتحدث عن الرجوع والانسحاب، وبعضهم الآخر يعارض ذلك، فقال هذا الرجل مخاطباً الحضور:«أيها الملك، أيها الأمراء، أقيموا هذه الليلة خارج خيامكم ثم تناقشوا بعد هذا حول الذي ينبغي أن تقرروه، بالنسبة للبقاء، وبالنسبة للعودة».

واستنفر الملك هيتوم في العام ذاته قواته، وحشدها للزحف مرة أخرى ضد حلب للحصول على أسرى ورهائن وأسلاب وغنائم، لكن الشتاء حال مرة أخرى دون تنفيذ مشروعه.

٧٧ — حملة مغولية — أرمنية لم تنجز

في عام ٧١٣(١٥ كانون الثاني ١٢٦٤ — ١٣ كانون الثاني ١٢٦٥) بعث الخان هولاكو واحداً من قادته على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ضد منطقة البيرة الحصينة على الفرات، وكانت في أيدي المسلمين، وكان هذا القائد من قواد الألف حسب المراتب في الجيش المغولي، واسمه دوربا Durba ، وقام هذا القائد بطم خنادق المدينة، وألحق بها أضراراً فادحة، ودمر الحصن وجعل عاليه سافله، ثم بعث إلى الملك هيتوم يطلب منه الالتحاق به، واستجاب الملك وقام بحشد أتباعه وأهل بيته في قلعة تل حمدون، وكانت هذه القلعة هي التي اعتاد الملك على إقامة الحفلات فيها، وخلال أيام قليلة كان الملك قد أعد قواته وبات جاهزاً للالتحاق بالقائد دوربا، ولدى وصوله إلى مكان يدعى بامبكجور Bambkjor أرسل بمائتي فارس من قواته إلى دوربا، تمهيداً لحضوره هو شخصياً على رأس جيشه، وفي تلك الأثناء وصلت إلى الملك وإلى ابنه الأكبر ليون أخبار أفادت أن مولوداً ذكراً، قد ولد لليون في المصيصة في شهر كانون الثاني، وعندما وصلت هذه الأخبار الهامة، من ذا الذي يمكنه أن يصف الفرحة والبهجة التي عمت أوساط الملك هيتوم وابنه وبين أوساط الأعيان والشعب؟ وبالمناسبة نال عدد كبير من الجند ومن المرافقين ومن أفراد الأسرة المالكة ألقاباً راقية وشرفية وفروسية.

وعلم الملك بعد ذلك بأن دوربا قد انسحب من البيرة، لأن سلطان مصر قد حشد قواته لمواجهته، فعاد الملك إلى بلاده في جو بهيج.

٧٨ — حفل تعميد وترقية للأمراء

وجرى في هذا العام، وتحديداً في يوم ميلاد سيدنا يسوع المسيح، أي في يوم الأحد، تعميد بارون الأرمن ابن ليون، وتسميته في العاصمة

سيس في كاتدرائية سانتا صوفيا، وذلك من قبل القديس البطريرك كوستاندين، وقد أطلق عليه اسم كوستادين، وبسبب هذا الحدث السعيد، تم تقليد ولدي سمباط شارة الفروسية، وشملت الترقية الأرمنيين هيتوم وباسيل، الملقب تتار، كما كان هناك غيرهما، وجعلوا في الوقت ذاته من هذه المناسبة مناسبة احتفالات عديدة.

٧٩ — أصداء حملة مصرية على كليكية

وكان في العام ذاته قد قام سلطان مصر بيبرس البندقداري، وبرفقته القائد سم الموت(عز الدين أوغان) مع عدد من القادة، بحشد جيشه، واتجه زاحفاً نحو بلاد الكليكيين لإذلالها ونهبها، ومواجهة لذلك أعلن هيتوم ملك الأرمن الاستنفار العام هو وأخوته، وفوض إلى سمباط حكم الأماكن الحصينة في بابراون Paperawn وسمباطي كلي Smbaty Klay ، وأستاروس Astaros ، وفاركسيني Farxni ، وباباتول Papatul ، وسيك Sik ، وموراندين Murandin ، وكلف أوشين بإمرة حصون كيوريكوس Kiwrkos ، وميتيزاون Mitizawn ، ومانياون Manmawn، وكنج Kanc ، وبعض القلاع الاخرى الادنى أهمية، وكذلك على بقية الامراء والشعب، ثم زحف بقواته حتى وصل الى مكان يدعى باب أنطاكية، ثم تمركز هناك، واتخذ مواقعاً لقواته، وبقي ينتظر الكافر سلطان مصر، ووصل هذا السلطان هو الآخر إلى حدود أنطاكية ومعه جيشه ورابط على ضفاف النهر الاسود، وبقي هناك لأيام بث خلالها عيونه مع عدد من الجواسيس لجمع المعلومات سراً عن أوضاع الملك هيتوم وعن أوضاع كليكية، وفوجىء هؤلاء الجواسيس لدى دخولهم إلى بلاد الملك بالحشود الضخمة التي اجتمعت تنتظر المواجهة مع السلطان، ولما عاد الجواسيس الى معسكر السلطان، وأبلغوه بالذي شاهدوه خيم عليه الخوف، وقرر الانسحاب والعودة الى مصر، وهكذا استراحت قوات الملك الأرمني، وعادت هي الأخرى الى

مواقعها في الحصون والقرى حامدين للرب.

وفي ٢٦ كانون الاول من العام نفسه توفي أوشين، أخو الملك هيتوم وصاحب كيوريكوس، وحدثت وفاته في مدينة طرسوس، ثم نقل جثمانه الى سيس حيث دفن الى جوار المدفن الذي كان مخصصاً لأبيه.

٨٠ــ هيتوم الأول يرفض التنازل عن بعض المواقع الحدودية:

في العام ٧١٥ (١٤ كانون الثاني ١١٦٦ــ ١٣ كانون الثاني ١٢٦٧) أعاد سلطان مصر حشد قواته من جديد، وزحف باتجاه حصون الأخوة الرهبان الذين يرتدون معاطف تحمل شارة الصليب (من الداوية والاسبتارية)، وبعد ما استولى على أرسوف ثم صفد مع مناطق أخرى، زحف باتجاه كليكية، وفي طريقه توقف لعدة أيام في دمشق، ومن دمشق بعث سلطان مصر عدة رسل الى الملك هيتوم يعرض عليه رغبته في اقامة سلام معه، وأن يعم السلام في المنطقة بين الطرفين، وكان السلطان يرغب فعلاً في تحقيق السلام، غير أنه ربط ذلك بتسليمه بعض الحصون والقلاع الحدوية، لكن الملك هيتوم لم يقبل هذا المطلب لسببين: أولهما أنه كان يخشى من شعب الرماة (المغول) الذي سيقول قادته: لقد بات هيتوم تحت سيادة السلطان، لتنازله عن القلاع والحصون التي كان شعب الرماه قد سلمها له من قبل.

وثانيها:

إنه على الرغم من وضوح طلب السلطان وصوابيته بطلبه الحصول بشكل محدد على شيح الحديد، وقوله: «أعطني هذا الموقع لكي أتخذ منه سوقاً مشتركاً لنا ولكم»، على الرغم من هذا كله رفض الملك الطلب، حتى يتجنب الوقوع تحت سيطرة السلطان، إذ كيف كان له وهو الملك المنتصر، والمعروف بهذا اللقب أن يخضع لسلطان كان عبداً ابن عبد، ولهذا حشد قواته وتمسك بالرفض، وذلك على الرغم من خوفه

وخشيتـــه، ولهذا أرسل الملك في منـاسبـــات كثيرة إلى سلطان مصر شخصيـات بارزة محملة بالهدايـا الثمينة بهدف كسب ود السلطان، لكن السلطان رفض قبـول أي شيء، وظل مصراً على مطالبتـه بالحصـون والقلاع الحدوية، التي أشرنا إليها من قبل.

٨١— كارثة ماري

وتوجه السلطان بعد ذلك بجيشـه الى حلب، وهناك عهد بالقيادة الى واحد من كبار رجاله هو سم الموت، وكان معه الرجل الثاني (قلاوون) الألفي وذلك بالاضـافـة الى سلطان حلب، ولقــد بعث بهؤلاء القـادة الثـلاثة لمواجهــة قـوات الملك هيتـوم في كليكيـة، ومكث السلطان في الوقت نفسه مرابطاً حيث هو.

وانطلق القادة الثـلاثة لتنفيذ مهمتهم، وقد وصلوا الى منطقـة اسمها نيقـوبولس في سفح الجبل الاسـود، وهناك نصبوا مخيمهم، أمـا قـوات الملك هيتـوم فقـد انقسمت إلى ثلاثة أقسام: وكـان القسم الأول بقيـادة الملك، الذي توجـه ليطلب من شعب الرمـاة النجـدة والدعم، وتمركـز القسم الثاني في منطقة اسمها دورن Durn ، وقد توجب على القسم الثـالث التحـرك للتصـدي للمسلمين، وقـد وصـل هذا القسم في يوم الاثنين ٢٨ آب إلى المكان المسمى مـاري Mari ، وعسكر هناك انتظاراً لوصول المسلمين.

وفي فجر يوم الثـلاثاء اقتحم المسلمون مخيم المسيحيين الـذين تصدوا في البـداية للهجوم، لكن سرعـان مـا تراجعت قوات المسيحيين وفـرت دون مقاومة تذكر أو قتـال، تاركين في ساحة الوغى ولدي الملك، وهما: ليـون، بارون الأرمن مع أخيـه طوروس، وكانا قـد انسحبـا من الجيش المنهزم وانفصـلا عنه، ثم عاودا مجابهة المسلمين، فكان أن قتل طوروس في هذه الجولة من القتـال، وحـاصر المسلمـون ليـون بن هيتـوم، بارون

الارمن، وأسروه مع باسيل بن سمباط الملقب بتتار، وذلك بالاضافة الى رجل اسمه سيلارت Cilart ، وآخر اسمه أتوم Atom.

٨٢— *أعمال النهب المصرية لكليكية*

وبعد ما تم أسرهم، جرى نقلهم إلى سيس، حيث أودعوا السجن في أحد المعابد، وبعد مضي عدة أيام استباح المسلمون المدينة، ونهبوها وسلبوها وخربوها، وأضرموا النيران في كل مرفق ومكان فيها، وعمت الحرائق وانتشرت في أرجاء المدينة، وكان هناك عدد لايمكن تعداده من القتلى والأسرى.

وبعد هذا هاجم المسلمون المناطق الحصينة بحثاً عن المدافعين المتبقين، ورفض هؤلاء الاستسلام، وعندما أدرك المسلمون أن الحاق الضرر بالحصن الأعلى بات مستحيلاً، توجهوا نحو السهول والمناطق الجبلية المشجرة ، فأحرقوها بعدما نهبوا موجوداتها، وجرى تجميع عدد كبير من الناس في مكان اسمه كيما Kema ، وفي مكان آخر اسمه بكنكار Beknkar ، وكان هؤلاء من النساء والأطفال، وقد تم الهجوم عليهم على مرأى الجميع من بني جنسهم، وقد حاول هؤلاء المقاومة، وذلك على الرغم من عجزهم، لكن المسلمون أشهروا سيوفهم، وشرعوا على الفور في تقتيلهم، وكان عدد القتلى كبيراً جداً، ويقال بأنه بلغ عشرين ألفاً في هذا المكان، وبعد هذا حمل المسلمون الأسرى الأحياء معهم، وانطلقوا عائدين عبر طريق غير الذي دخلوا منه، وراحوا إلى باب أنطاكية، حاملين معهم كل ما وقع في أيديهم، وقد باعوا شطراً من منهوباتهم وغنائمهم في أنطاكية.

٨٣— *اعتقال الأمراء الأسرى في مصر*

أخذ المسلمون، إثر ذلك، طريق العودة إلى مصر، حاملين معهم البارون ليون لتقديمه هدية الى السلطان، ولدى مشاهدة السلطان بارون

الأرمن وباسيل، عـدهما أثمن من الذهـب ومن الفضـة، وحملها إلى القـاهرة، وأسكنهما ومن معهما في نـزل صغير، وخصص لهما حـرسـاً وخدماً، وغمرهما بالتشريف والاحترام.

٨٤– بيبرس يبذل جهده في سبيل فداء سنقر الأشقر

ومـا أن سمع هيتـوم بخبر ما حـدث، حتى غـرق في أحـزانه، وتأثر قلبـه، ولم يعـد يعـرف مـا الذي عسـاه أن يفعله، ومع هذا وجـد الملك خـلال أيام الوسيلـة الموائمـة لتحـرير ابنه، فأرسـل رسـلاً إلى السلطان للوسـاطة في هذا الشأن، والسؤال عن إمكانيـة تسليمه ابنه، مقـابل أي طلب يطلبـه السلطان، هذا ولم يكـن السلطان على عجلة من أمـره، ولم يرغـب في اعطاء الحلول بسرعـــة، ومع ذلك لم يقطع حبـل الحوار مع الملك، ولم ينقطع الملك من جانبه عن ارسال الهدايا.

وأضمر السلطان بيبرس في قـرارة نفسه فكرة سرية، مفـادها أنه كان له صديق حميم ومخلص، وكانا معا في قوات سلطان حلب عندما هاجمها هولاكـو، ولدى هروب من نجا من المذبحـة منها، وكـان بيبرس الذي أصبح سلطانا قد لجأ الى الفـرار هو وصديقه معا، غير أن صـديقه الذي امتاز بشهامة نادرة، آثر انقـاذ بيبرس، وفضله على نفسه، فأعطاه حصانا جيـداً، وأمن له سبل النجـاه، في حين توقـف هو في مكانه حتى أخـذه هولاكو أسيراً، وحمله إلى الشرق.

وبعـد هذا نجـح بيبرس من جهتـه بالوصـــول الى سـدة السلطنة في مصر، وعندمـا وقع ليـون أسيراً بين يديـه، تذكـر أن الملك هيتـوم كـان بمثـابة المستشـار الأكثر صـداقـة مع الخان أبغـا، فبعث إليـه ليبحث له ويسأل عما إذا كان «خشـداشه» مـازال حياً، وقال لـرسل الملك هيتوم: «قـولوا للملك إنه إذا استطـاع أن يطلق سراح خشـداشي من بين أيدي شعب الرمـاة، وأن يعيـــده إليّ، فإنني بالمقـابل ســوف أطلق سراح ابنه

ليـون»، وعندمـا بلغ هذا العـرض إلى الملك، بـدأ في تحضير هداياه، واستعد للسفر إلى الشرق لملاقاة الخان أبغا.

٨٥— سفارات أرمنية لدى الخان

وبناء عليـه حـدث في سنة ٧١٦ (١٤ كـانـون الثـاني ١٢٦٧— ١٣ كـانون الثـاني ١٢٦٨) أن ذهب الملـك هيثـوم إلى حضرة أبغـا خـان في الشرق، والتمس منه الافراج عن خشـداش السلطان بيبرس، الذي كان اسمه الحقيقي سنقر الأشقر، ورد عليه الخان بقوله: «إذا وجدته فسوف أعطيكه هدية»، فـانطلق الملك يبحـث عنه في كل مكان، وفتش في جميع الأرجاء عـن سنقر الأشقر، فلم يعثـر عليه، وأصـابه اليأس والارهاق، فقـرر العـودة إلى بلاده، ثـم بعث إلى السلطان بيبرس يخبره باستحـالة العثور على سنقـر، وكان جواب السلطـان: «إذا لم يجلب سنقر لي، فإنني لن أحرر ابنه».

وفي عام ٧١٧ (١٤ كانون الثاني ١٢٦٨— ١٢ كانون الثاني ١٢٦٩) قام الملك هيثوم، بعد تدارس القضيـة مع أخوته، بايفاد الأمير ليون بن سبارابتSparapet إلى أبغـا خان، ليطلب منه السماح له بالتجـول في المعسكرات، وداخل المحـلات السكنيـة البعيـدة للبحث عن سنقـر، وقـد سمح الخان له بذلك، وأمـر بفـرز مجمـوعـة من الجنود لمرافقتـه، واستطاع ليون ورجاله أن يعثر على سنقر، وقد حملوه وأحاطوه بالعناية، وقدموا الشكر للخان، ثم عـادوا به الى كليكية، وعند وصوله إلى سيس بعث إلى السلطان بيبرس يخبره بتحقيق طلبه.

٨٦— احتلال بيبرس أنطاكية

حشـد السلطان بيبرس قـواته كلهـا، وهاجم مـدينـة طرابلس بكل عنف، وألحق بها أضراراً بليغة وكثيرة، ثـم قاد جيشه بشكل مفـاجىء، وسـار به خمسـة أيام بدون توقف في أثناء الليل وخـلال النهـار، حتى

انقض على مدينة أنطاكية المشهورة، وسيطر عليها خلال ثلاثة أيام، وكان فتحه لها يوم السبت السادس من أيار، وما من أحد يمكنه تقدير المذبحة التي ارتكبت في أنطاكية ولا عدد الأسرى، ولاحجم الثروات التي حملها المصريون إلى بلادهم، ولقد كان— والحق يقال— من بين القتلى أعداد كبيرة من أصول أرمنية، هذا وأمر السلطان بإعادة الناس الذين كانوا قدموا من كليكية إلى بلادهم، وسمح لهم بالمغادرة، كما سمح لأمير أنطاكية ولأسرته بالمغادرة دونها قيود إلى أنطاكية، وجدير بالذكر أن هناك من يقول بأن هذه المدينة قد وقعت في أيدي السلطان بسبب هذا الأمير، والله وحده الذي يعلم الحقيقة.

٨٧— مبادلة الأمير ليون بسنقر الأشقر

وعندما قرر السلطان العودة إلى مصر عبر أنطاكية، طلب من الملك هيتوم ارسال رهينة له لمبادلتها بابنه ليون، من أجل أن يقوم بتحرير هذا الأمير، مقابل سنقر الأشقر خشداش السلطان، وبعث الملك أوشين ابن أخته، وريموند زميل أوشين، وفاساك Vasak صاحب كنكي -Can ci، وكان ابنا لكوستاندين والد الملك، وفور وصول هؤلاء إلى السلطان، أفرج عن ليون بارون الأرمن، وعاد ليون إثر ذلك إلى كليكية محملاً بكثير من الهدايا، وجرى استقبال ليون من الشعب الأرمني بالفرح الكبير والابتهاج، وبعد مدة وجيزة حمل ليون سنقر الأشقر إلى حضرة السلطان، الذي فرح به كثيرا، وعظم سروره لدى رؤيته صديقه الحميم، وأعطى الأمير ليون إلى ابن سمباط الكثير من الهدايا الثمينة، وجرى استرداد الرهائن والعودة إلى كليكية.

٨٨— تنصيب يعقوب الأول بطريركاً

وعقد الملك هيتوم في العام ذاته اجتماعاً كبيرا ضم الأساقفة، والحكماء والأعيان الذين قدموا من الشرق إلى كليكية، وكان الاجتماع

في مـدينة المصيصـة، وقد أصـدر أوامـره بضرورة اختيـار الرجل الموائم ليرأس الصرح البطريركـي، ووقع اختيـار الملك على الحكيم يعقـوب، ووافق على ذلك مجلس الأسـاقفـة، وبنـاء عليـه جـرى تعيينه بطريركـاً، وكرس جـاثليقاً للأرمن باسم القديس سرجيوس، وكـان ذلك في الثاني عشر من شباط.

وقد حصل هـذا التنصيب عندما كان ليـون بارون الأرمن أسيراً عند المصريين، وقـد تحرر فيما بعد، كما ذكـرنا من قبل في شهـر حـزيران من السنة نفسها.

٨٩— زلزال عام ١٢٦٩

في عام ٧١٨ (١٣ كـانون الثاني ١٢٦٩— ١٢ كـانون الثاني ١٢٧٠) تعـرضت كليكيـة إلى زلزال عنيف دمر العديـد من القرى، خـاصـة في سفح الجبل الاســود، كما حـول الكثير من المنـاطق الحصينة إلى أطلال، وجرى تدمير حصن سافانديكار Savandikar ، حيث قتل السكان جميعـاً، وفي دير أركأكلين مـات الكهنة والرهبـان تحت أنقاض الأبنيـة، ودمـرت الكـارثة في المنطقـة الجبليــة عـدداً كبيراً من القــرى، وقلبت الأماكن عاليها سافلها، كما دمرت مناطق أخرى من بينها حصن دلنكار Delnkar .

٩٠— وفاة هيتوم الأول وابني القائد سمباط

وتوجـه في السنة نفسها ليـون، بارون الأرمن، إلى الشرق، للقاء أبغـا خـان، الذي استقبله بكل احترام وتقـدير، وحمله الكثير من الهدايا لدى عودته إلى كليكية، وفي السنة نفسها، في ١٥ تموز توفي هيتوم ابن الوكيل الملكي للارمن، ودفن في دير القـديس مليك Mlic ، وفي ٢٩ إيلول من العام ذاته التحق باسيل ابـن القائد سمبـاط بالمسيح في طرسوس، ودفن في دير القــديس مليك، وفي يوم الثـلاثاء ٢٩ تشرين الأول من العــام

نفسه، وعند غـروب الشمس غادر هيتوم ملك الأرمن هذا العالم، والتحق بأجداده، وذلك عندما وافاه الأجل في برجربيرد، في قرية أكنير، ثم جـرى نقل جثمانه إلى الدير المقـدس في درازارك، ودفن في كنيسة القديس البطريرك غريغور، وكان أثناء وفاته قد اعترف بأنه أرثوذكسي، وانتسب إلى الدين القويم باسم ماكير Macaire

٩١— *استلام ليون الثالث للعرش*

في عام ٧٢٠ (١٣ كانون الثاني ١٢٧١— ١٢ كانون الثاني ١٢٧٢) تمّ بتاريخ ٦ كانون الثاني تنصيب ليـون الثالث ابن الملك هيتوم ملكاً على الارمن، وقد جرى ذلك في مدينة طرسوس، في كنيسة سانتا— صوفيا. وكان ذلك وسط حفل بهيج، حضره ممثلو جميع الأمم المسيحية، ذلك أنهم أصروا على المشاركة في هذه الأفراح التي تستحق الحضور والمشاهدة، وقد حظيت هذه الاحتفالات بحضور عدد كبير من الاشراف، وشهدت المناسبة الافراج عن عدد كبير من السجناء، كما جرى تحرير العديد من قيودهم.

وبعـد مضي أيام قليلة حيث انصرفت الجموع بعـد انقضاء الاحتفالات، وذهب كل واحد إلى بلاده، توجه الملك ليـون بزيارة شخصية إلى ايزوراء، من أجل تفقد المنطقة، ثم عاد إلى اقليمه بكل سرور.

٩٢— *تهديد جديد بحملة مصرية:*

تحرك في السنة نفسها سلطان مصر، بيبرس البندقداري من جديد للهجوم على كليكية، غير أن الملك ليـون أوفد إليه بعثة بمهمة خاصة، جعلته يعود إلى بلاده مصر.

هذا وقرر الملك ليـون من جانبه التوجه إلى الشرق لزيارة أبغا خان الذي استقبله واعتنى به، وقـدم له هدية تمثلت بعشرين ألف رجل

ليأخذهم معه إلى بلاده من أجل تعزيز الدفاع عنها، على أن يقوم الخان بزيارة بلاد كليكية بعد بضعة أشهر، هذا ولم يصطحب الملك ليون معه سوى عدد قليل من الرجال، ثم عاد إلى بلاده.

وقدم في العام ذاته ملك من ملوك الفرنجة اسمه ادوارد، على متن سفينة، ونزل في عكا، ومعه ألفي رجل، وقد توقف في المدينة منتظرا وصول ملوك آخرين مع أتباعهم.

وفي العام نفسه، في شهر تشرين الاول منه، ولد للملك ليون طفل ذكر، وكان ذلك في مدينة سيس، حيث عمت الأفراح جميع الأقاليم الخاضعة لسيطرته.

٩٣— *أحداث مختلفة*

في عام ٧٢١ (١٣ كانون الثاني ١٢٧٢— ١١ كانون الثاني ١٢٧٣) جرى في اليوم الذي ولد فيه سيدنا ومولانا سقوط ثلج عظيم، وفي يوم كانون الثاني تساقط الثلج فوق العاصمة سيس، ثم غطى بلاد كليكلية كلها حتى شواطيء البحر.

وتوفي في العام نفسه، والشهر ذاته الحكيم القديس كيراكوس Ki-rakos، والتحق بالمسيح، وحزن الناس والأعيان عليه.

٩٤— *مؤامرة ضد ليون الثالث*

وحدث في السنة نفسها، أن كانت امرأة خليلة للملك هيتوم اسمها مريم، وكانت منحدرة من أصل مسلم، وقد تآمرت مع بعض الناس لاغتيال الملك ليون، بوساطة دس السم القاتل له، وانتظر المتآمرون المناسبة الموائمة لتنفيذ العملية، لكن قدرة الرب تدخلت، وسببت كشف المؤامرة والتحضيرات الاجرامية للمرأة، وكان ذلك عن طريق صبي في الحادية عشرة من عمره، وهكذا نجا الملك من الموت، ومن

آثار هذه المؤامرة، ولم يقم الملـك بمعاقبة هذه المرأة ولا المتـواطئين معها بالعقاب الذي استحقونه، واكتفى بأن يكون سمحاً ورحيماً.

وأمـر الملك ليـون في العـام نفسـه ببنـاء حصن عظيم في لحف جبل طوروس مقابل قبرالقائد المقدام أندريه، وعلى مسافة مسير نصف يوم، وذلك من أجل ضمان الدفاع عن هذا المعلم، ولحراسة الطريق الشهيرة Xozjorوقد نجز بناء الحصن في العـام نفسه، وأطلق عليه اسم حصن كتاريك Katreac .

وجـرى في العام نفسـه تعميـد ابن الملك في العـاصمة سيس، وكـان ذلك على يد البطريرك السرياني أغناطيـوس، وأغناطيوس هذا هو الذي تلقى الطفل لـدى خـروجـه من طقـوس التعميـد، واختـار له اسم طوروس، مثل عمـه الذي كـان قـد قتل على أيدي المصريين في إحـدى المعارك.

٩٥— *محاولة اغتيال ادوارد الأول*

عبر في العـام نفسه واحـد من عبيد الملك ادوارد البحـر، ووصل الى عكا، وقـد تمكن من التسلل إلى محيط الملك، وكان ذلك في أحـد الأيام حيث جلس الملك بمفـرده، مرتديا سترة ناعمة، وكـان ذلك بعدمـا أمر بانصراف خـدمة مـن حوله، وهنا اقترب هذا العبـد من الملك، وتوجـه نحـو أذن الملـك، وأوهمه أنه يريد أن يهمـس في أذنه سراً من الاسرار، وسحب في تلك الأثناء خنجـره، ثم وجـه ضربة أولى إلى صـدر الملك، وحاول الملك أن يمـد يده اليمنى الى سيفه، فعـاجله العبد بطعنة ثـانية، وضربه مجدداً بسلاحه..

حواشي التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني

١ــ قلعة بابيروان، يعتقد أنها قلعة كاندير Candir ، وتبعد نحو عشرة كيلو مترات عن لامبرون في الجنوب الغربي منها.

٢ــ اسم قلعة لامبرون بالتركية نامرون، على بعد ٤٠ كم من طرسوس إلى الشمال الغربي منها.

٣ــ المعروف عن هذه القلعة أنها كانت موجودة في كليكية الغربية،

٤ــ على مقربة من عين زربة.

٥ــ وقع هذا الدير على الضفة اليمنى لنهر الفرات إلى الجنوب من كيسوم.

٦ــ اسمها الحالي جيبين Geben، وقد قامت على نهر جيحان وعلى بعد ٤٠ كم عن مرعش.

٧ــ هي قلعة سافوران الحالية، وكانت واقعة كما يدل اسمها ــ «صخرة ساراوند»ــ على أبواب الأمانوس، على بعد حوالي ١٥كم إلى الغرب من حصن بيلي Hasanbeyli .

٨ــ وقعت هذه القلعة خلف بلدة بياس، على الطرف الشرقي لخليج اسكندرونة.

٩ــ معلومات سمباط عن صلاح الدين وتاريخ الدولة الأيوبية ضعيفة ولايمكن الأخذ بها.

١٠ــ خلط المصنف ما بين أرناط، وريموند الثالث صاحب طرابلس.

١١ــ كان الداهكان الأحمر يعادل ديناراً ذهبياً عربياً واحداً.

١٢— قلعة وقعت إلى الغرب من سلوقية، على مسافة ٣٠ كم منها.

١٣— نهرصـو هو النهـر الأسـود، وشكل الحد الـذي فصل بين الممتلكات الأيوبية ودولة كليكية، هذا وتعلق الأمر هنا بالملك الظاهر غازي صاحب حلب.

١٤— كـان هذا هو الدير الأكثر شهـرة في كليكية، ووقع غير بعيـد عن سيس في سفح جبل طوروس، وذلك قـرب حصن كوبيتـار Kopltar الحصين، وكان هذا الديـر قـد بني— أو رمـم— في بداية القــرن الثـاني عشر مـن قبل طوروس الأول، وقد شغل دور المقر البطركي، والملكي أيضاً، وقـد دفن فيه عدد من رجال الدين والسلطة، هذا وتقــرر أن حصن كـوبيتـار قــد وقع إلى الشمال الغـربي من سيس، وعلى مسافة ١٥كم منها.

١٥— كان دير أركأكلين موجوداً في ضواحي سيس، على الجبل المواجه لها.

١٦— كان دير أريغ يوجد— كما هو محتمل — على مقربة من كابان، في أعالي وادي جيحان.

١٧— كان دير سكيـورا موجود أعلى بعـد عدة كيلومترات في الجنوبي الشرقي من لامبرون وقد استخدم مدفناً للأعيان.

١٨— كـان دير مليك مدفناً للعـديد من أعيـان الأرمن، وكان على مقـربة من قلعة بابيروان بالقرب من طرسوس.

١٩— كانت قلعة سيمانيكي على مقربة من عين زربة.

٢٠— وقعت قلعة كوتاف في وسط وادي جيحان.

٢١— كنك هي كوكور حصار Cukurhisar على مقربة من زيتون.

٢٢— على مقـربة من زيتون، وإلى الغـرب منها، واسمهـا الحالي فيرنيس Fir-nis.

٢٣— هي كانكي Canci إلى الغرب من كنك.

-٣١٠٠-

٢٤— وقعت قلعة سولاكان إلى الغرب من كابان.

٢٥— قلعة وقعت في وسط وادي جيحون

٢٦— على بعد ٢٠ كم إلى الجنوب الغربي من عين زربة.

٢٧— قلعة قامت على بعد ١٠ كم إلى الجنوب من المصيصة.

٢٨— قلعة قامت إلى الغرب من سيحان، على بعد أميال من كوربيتار، وإلى الشمال الغربي منها.

٢٩— قلعة مولوفونهي بالفعل قلعة ميلفان Milvan ، قريبة من سيحان، وعلى بعد ١٥كم إلى الشمال الغربي من جولك بوغازي Gulek Bogazi .

٣٠— كوكلاك هي قلعة جولك عند مداخل كليكية وكبدوكية، على بعد أميال من لامبرون، وإلى الشمال الشرقي منها.

٣١— وقعت قلعة سيويل على بعد ٨٠ كم إلى الغرب من سلوقية التي كانت حاضرة كليكية.

٣٢— وقعت مانياون إلى الجنوب الغربي من قرمان.

٣٣— قلعتان قريبتان من بعضهما، ووقعت ألار إلى الغرب من مرسين.

٣٤— كانت ألبستان قلعة تقع عند ينابيع نهر جيحان.

٣٥— أخطأ المصنف باشارته إلى حضور العادل، ذلك أن العادل كان متوفى، وكان سلطان مصر آنذاك الكامل بن العادل، ومرت بنا من قبل أخبار الحملة الصليبية الخامسة بكل تفاصيلها.

٣٦ — خطأ صوابه نهر الدجلة.

٣
رسائل صليبية من الأرض المقدسة
(١٢٨١)

تعـود الأصـول المخطوطة، التـي اعتمـدت عليهـا هذه الترجمة إلى مجموعة تعرف باسم: «الرسـائل الملكية»، وهي محفوظة في مكتب حفظ السجلات الملكية، وتتألف هذه الاصـول من رسالتين، أرسلت الرسالة الأولى من قبل السيرجوزيف دي كـانسي، الذي كان فارساً من فـرسان مشفى القديس يوحنا في القدس، إلى الملك أدوارد الأول، وحملت هذه الرسـالة إلى الملك «أخباراً من سـورية»، أما الرسـالة الثانيـة فكانت من الملك ادوارد إلى السيرجوزيف، يشكره فيهـا على التقرير الذي قـدمه له بشأن تطور الأحداث في الأرض المقـدسة، وقـد جرى كتـابة الرسالتين على الرق، ووضعها الخارجي ممتاز، وتشكلان تحفة فنية بالنسبة للخط، لكنهما لسـوء الاستخدام طوال العصـور كادتا أن تفسـدا حتى بات من الصعب قراءتهما بشكل صحيح، ولهذا جـاء نسخهما بعد صعوبات جمة، وتاريخ هاتين الرسالتين مرتبط بأواخـر أيام الوجود الفرنجي في سورية واحتـلال بعضها، وكتبت الرسـالة في المدينة التي قدر لها أن تكون بعـد سنوات قليلة مسرح آخر الصراعات الحادة بين المسلمين والفرنجة.

إنها مـدينة عكـا، التي عـرفت باسم عكـو لدى الفينيقيين، ثم أطلق عليها الاغريق اسم بطليمياس Ptolemias ، وبعد هذا عرفت بالعربية باسم عكا، ذلـك أنها فتحت من قبل العــرب المسلمين في سنة ٦٣٦م، وبعـد هذا بقرون استـولى عليهـا الصليبيون بقيـادة بلدوين الأول سنة ١١٠٤، وكـان بلدوين أول ملوك اللاتين في القــدس، وقــد استردها صـلاح الدين من أيدي الفـرنجـة ١١٨٧، ثم عـادت واستسلمت لرتشـارد قلب الأسـد والملك فيليب أغسطس سنة ١١٩١، وقـد بقيت منذ ذلك التـاريخ حتى سنـة ١٢٩١ بأيدي الصليبيين، حيث صـارت مقراً لمملكة القدس.

وحمل في سنة ١٢٣٦ الايرل رتشـار أوف كـورنوول شـارة الصليب وشاركـه في ذلك عدد من النبلاء الانكليـز، وكان من بين هؤلاء الايرل

مـارشـال، وإيرل تشستر وسـالسبري، والسير رالف لوسي، والسير رتشارد سيوورد، وقد تأخرت مغادرة هؤلاء نحو عكا حتى أحد الشعانين في سنة ١٢٤٠، وقد وصل الايرل رتشارد إلى عكا في ١١ تشرين الأول، غير أن إقامته في الارض المقدسة كانت قصيرة جداً، حيث عقد هدنة مع سلطان القاهرة، ثم قام في الثالث من أيار من السنة التالية بمغادرة عكا، وذلك بعدما متن تحصينات قلعة عسقلان، وجمع عظام الصليبيين الذين قتلوا في الحرب، وتولى دفنهم في مقبرة بناها على حسابه الشخصي، وقد نزل في طريقه في صقلية، ووصل بعد هذا إلى انكلترا في اليوم الأول من شهر شباط لسنة ١٢٤٢، وكان من بين الفرسان الذين رافقوه: السيرهيوويك، والسير روبرت مارميون، والسيربيتر دي بروس، والسير غويسكارد ليديت Leideit، والسير يوستاس دي ستوتفيل Stuteville ، والسير هاموبكشي Ham-opecche، والسيربلدوين دي بيتون Bettuen ، والسير جون فتزجون، والسير جونفتزجون، والسيرجون بيوليو Beaulieu، والسير جيرارد فورنفال Furnival ، وغيوفري أخو الإيرل رتشارد، وعدد كبير آخر، كانوا قد هلكوا في هذه الحملة.

وجرى في سنة ١٢٥٢ جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل، ايرل سالسبري إلى عكا للدفن فيها، وكان قد قتل في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠.

وفي سنة ١٢٦٨ حمل الأمير ادوارد الانكليزي شارة الصليب، وفعل ذلك معه ابن عمه هنري، وابن الايرل رتشارد، وعدد كبير من اللوردات الانكليز، وتم تدبر قرض مالي قدره ٣٠,٠٠٠ مارك من الملك لويس ملك فرنسا، مقابل رهن موارد بوردو، وكان الهدف من ذلك الانفاق على الحملة الصليبية، وانطلق الأمير من بورتسموث في أيار ١٢٧٠ ومعه زوجته الأميرة اليانور، وفي بوردو أقلع معها على ظهر

اسطول كـان ينتظرهما في ايغوس — مـورت Aigues- Mortes — وكـان وقتها ميناء بحـريا مع أنه الآن جـزيرة بسبب تراجع البحر عـدة أميال— بغية الالتحاق بالملك لويـس أمام تونس، ومات الملك الفرنسي يوم ٢٥ آب من السنة نفسها، وتخلى ابنه فيليب الجرىء عن الحصار بعد ذلك بوقـت قصير، ورجع إلى فـرنسـا، وبذلـك ترك الأمير ادوارد بلا تأييـد، وكـان هذا الأمير مصراً على الاستمرار، حتى أنه عنـدما حـاول أحدهم ثنيـه عن قراره، ضرب صدره، وأقسـم «بدم الرب»،بأنه سوف يذهب إلى عكا، حتـى لو هجـره الجميع وتخلـو عنه، باستثناء غـلامـه فووين Fowin، وتعرض الأمير في سنة ١٢٧٢ لمحـاولة اغتيال، وقتل المهـاجم، وجـرت معالجة الأمير الجريح، حيـث قامت زوجتـه اليـانور بلعق السم من حول جـرحه بلسـانها، والتأم الجرح فيما بعد، ولم يحدث للزوجة أي ضرر.

وعـانى الجيش الانكليـزي من مصـاعب كبيرة، فقـد تخلى عنه جميع الحلفاء، وفتك المرض بأفـراده، ولم تصل أية مؤن من فرنسـا، لهذا وجد الأمير ادوارد نفسه مرغماً على عقد هدنة مع السلطان لمدة عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعاد إلى انكترا عبر ايطاليـا وفرنسا، وكان والده قـد توفي في تلك الأثناء، وأعلن هـو ملكاً، مع أن الناس كـانوا لايعـرفـون فيما إذا كـان حيـاً، ذلك «أنـه ذهب إلى بلاد بعيـدة، قـائمـة فيماوراء البحار،من أجل حرب أعداء المسيح».

واستحـوذ السلطان بيبرس على العـرش، بعدمـا قتل بيـديه السلطان المظفر قطـز في أثناء الصيد، ومالبـث بعد هذا أن خرق الهدنـة، وقام— حسبما جاء في مخطوط أرمني قديم— بـاجتياح سهل أرمينيا، فجعل كل من لقيـه طعمـة للسيف، حيث بلـغ عـدد القتلى أكثـر من مـائتي ألف، والأسرى أكثـر من عشرة آلاف، وعـدد الخيـول والحيـوانات الأخـرى مـايزيـد على ثلاثمائـة ألف رأس، وأرغم ملـك أرمينيـا على التراجع إلى

الجبال، ولجأت أعداد من رعيته إلى الفرار بحراً، وكذلك فعل عدد كبير من التجار ومن الذين نجوا من المسلمين، غير أنهم وقعوا في أيدي القرصان واللصوص.

ويحكى أن السلطان بيبرس نال في سنة ١٢٧٦ نصراً عظيماً على المغول الذين قادهم منكوتمر— أخو أبغا خان، حاكم المغول— مع حليفه ليون الثاني ملك أرمينيا، وحدث ذلك في سهول حمص،غير أن مؤرخاً أرمنيا من القرن الثالث عشر هو الراهب هيتوم، حفيد الملك هيتوم الأول، وسلف ليون الثاني على عرش أرمينيا، وكان أثيراً عند البابا كليمنت الخامس، حيث منحه ديراً في بواتيه، ليتمكن وهو مرتاح، من الكتابة عن عجائب البلدان، التي كانت المعلومات وقتها قليلة عنها، قال في كتابه «خلاصة تواريخ الشرق» بأن بيبرس قد هزم في هذه المعركة، لكنه مالبث أن تعافى مما عانى منه، وأنه جرت بعد أربع سنوات معركة أخرى قرب ضريح خالد بن الوليد بين خليفة بيبرس، السلطان الملك المنصور قلاوون والمغول بقيادة منكو تمر وأبغا، وأن المعركة استمرت من الصباح حتى المساء، وكانت النتيجة— تبعاً لهذا المؤرخ— هزيمة كاملة للمغول، وطرد لهم من البلاد، وكان من نتائجها أن منكوتمر قد توفي بعد أمد قصير، بسبب غمه.

ومن المفترض أن هذه المعركة هي الموضوع الرئيسي الذي جرى الحديث عنه وروايته في الرسالة التي بعث بها جوزيف دي كانسي، الذي يبدو بأن الأمير ادوارد قد عهد إليه بمهمة تزويده بالمعلومات حول الأحداث التي كانت تقع في فلسطين، وذلك بعد مغادرته شخصياً للأرض المقدسة، ولاتحمل الرواية عن المعركة المعروضة هنا، تأكيداً بأنها انتهت بنصر عظيم للسلطان لكن حسبما وصفها دي كانسي وقصها، هناك شيء من التلوين فيها لصالح المغول، لأن الاسبتارية كانوا قد عانوا كثيراً في تلك الآونة على أيدي المسلمين، لاسيما على

أيدي السلطان بيبرس، مع أنهم برهنوا على شجاعتهم في قتالهم ضده، وهو الذي بات مرعباً جداً الصليبيين في الشرق، ففي سنة ١٢٦٨ سقط تسعون من جنود الصليب هؤلاء ، واحداً تلو الآخر في الدفاع عن قلعة أرسوف، وصمد في السنة التالية قسم منهم في بلدة أخرى لمدة شهرين ضده، فكان أن قتلوا جميعاً ولم يسلم منهم أحدا، وكان مقدم الاسبتارية الذي ذكره دي كانسي هو نيكولاس لورغ Lorgue ، وهو الذي قاد الاسبتارية، أثناء الدفاع عن قلعة المرقب، التي وقعت على مسافة قريبة من ساحل البحر،وقد جرى الاستيلاء عليها من قبل قلاوون بعد حصار دام ثلاثة وثمانين يوماً، وكان فتحها في شهر حزيران لعام ١٢٨٤، ويبدو أن أسرة دي كانسي كانت بين الأسر المعروفة، فقد عين الملك ستيفن وولتر دي كانسي بارونا لمقاطعة كانسي، وخلف وولتر هذا ابنه أوفرد Aufrid ، وكان آخر بارونات هذه الأسرة سيمون دي كانسي، الذي تولى تحصين أراضيه لدى ثورته ضد الملك جون سنة ١٢١٥، وظهر اسم الأسرة في العهود التالية مراراً في أعمال محاكم التفتيش التي تعلقت بشكل رئيسي بأراض في لنكولنشير، ويوركشير، ففي إحدى القضايا التي عرضت في يورك سنة ١٣٠٤، ورد ذكر توماس دي كانسي على أنه بارون سكيربنبيك Skirpenbeck .

ووفقاً لما أورده المؤرخ قطب الدين اليونيني، باتت أخلاق بيبرس بعد الحوادث المذكورة آنفاً، أخلاق ملك يمكن مقارنته بنيرون بشراسته، وبقيصر بشجاعته، ولكي يتجنب نبوءة قالت بأن أميراً كبيراً سوف يموت في تلك السنة، أتى بأمير من أسرة صلاح الدين، هو الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك، وكان أميراً شجاعاً، أثار بشجاعته غيرة بيبرس، وعمل على سمه، وقد جرى ترك بقية الخمر المسموم في حُجرة السلطان بسبب الاهمال، فشرب منه بدون أن يعرف، فأصابته الحمى على الفور، ومرض ومات في قلعة دمشق في أيار عام ١٢٧٧،

ويحكى بأنه قتل ٢٨٠ من الأمراء لأنه شك بهم في أنهم حاولوا قتله، وجرى ذلك في أربع مناسبات.

وحكم قلاوون من بعده مدة أحد عشر عاماً، كانت كلها نجاحات متوالية ضد الفرنجة والمغول، وكان آخر نجاحاته الاستيلاء عنوة على طرابلس التي تولى إحراقها، ثم أعاد بناءها فيها بعد، وقد توفي سنة ١٢٩٠، وهو على نية الزحف ضد عكا، وكان قد قرر الانتقام لقتل بعض التجار المسلمين فيها، وقد توفي في خيمته خارج أسوار القاهرة ليلة الثاني من ذي الحجة، وجاءت وفاته بعدما أوصى ابنه الأشرف خليل أن لا يدفنه حتى يكون قد جعل من ذاته سيداً لعكا، وكان قلاوون شخصاً بهي الطلعة، وعظيم الاحترام، وقد قال بعضهم بأنه توفي نتيجة دس السم له من قبل واحد من الأمراء، وذكر المقريزي خبر وفاته، وأوضح أن ذلك قد حدث بعد إصابته بالحمى نتيجة مرض استمر عدة أيام.

أخبار من سورية

«إلى السيد الأكثر سمواً ورفعة وقوة، مولاي إدوارد، الذي هو بنعمة من الرب، أعظم الملوك جدارة، ملك إنكلترا، وسيد إيرلندا، ودوق أكوتين، الذي الأعلى والأدنى عبيده، يقوم جوزيف دي كانسي الراهب المتواضع في بيت مشفى القديس يوحنا للقدس، المقيم في عكا، بالركوع في خدمة معاليكم، ويرسل تحياته.

التزاماً بما أمرتنا به سيادتكم الجديرة بالتقدير، في متابعة إرسال أخبار الحوادث التي تقع في الأرض المقدسة، نعلمكم يا مولاي، أنه بعد قدوم مقدمنا من طرابلس في نهاية شهر تشرين الأول، حسبما أخبرناكم برسالتنا التي كتبناها أثناء عبور الصليب المقدس، بأن حشود التتار وحشود المسلمين اقتربت من بعضها كثيراً، وبالنسبة للمسلمين فقد

باتـوا بين رجـــالنا ورجـــال المغـــول، ولذلك لم نتمكـن لانحن ولا أمير(أنطاكية، بوهيمـوند السابع) — ملك قبرص(هيو الثـالث) لم يقدم بعـد — من الالتحـاق بالتتـار، كما أنهم لم يرسلوا إلينا كي نلتحق بهم، بعد استقـرارهم، وقسّم السلطان جيشه الذي تألف من خمسين ألف من الخيــالة إلى ثلاثة أقســام، ووقف هو نفسـه مـع القسم الأوسط، الذي يدعونه بـالقلب حسب عاداتهم، وكان سنقـر الأشقر صـاحب صهيون وتخومنا العائـدة للمرقب، قائد الميسرة، وتولى قيـادة الميمنة تركي شجاع اسمه عز الدين أيبك الأفرم، ولدى رؤية التتار لصفوف المسلمين قاموا أيضـاً بتقسيم قـواتهم، التي بلغ تعـــدادها أربعين ألف خيـال، إلى ثلاثة أقسام أيضاً، لأن قائدهم كان قد أرسل بقية رجاله إلى أخيه الأسن منه أبغا، الذي كـان يزحف خلال البرية، متصوراً بأن أبغـا سوف يصل إلى دمشق قبله، وكـان في واحد من هذه الأقسـام الثلاثة ملك أرمينيـا، مع قـواته وألفين من التتـار، وألف جـورجي، وتركي اسمـه سنقـر، صـار تترياً، وهذا كـان أيضـاً مع جماعتـه التي بلغ تعـدادها ثلاثة آلاف من رجـال بلاده، الذين جلبهم من تركيا، والذين دعـوا أنفسهم تتاراً، ومـا أن عبأ ملك أرمينيا قواته وصفّها حتى ألقى بنفسه على ميسرة المسلمين، فحطمهـا وسبـب هزيمتهـا حتى أن قليـــلاً منهـا هم الذين نجـــوا من السيف، ومـا كان لهذه الميسرة أن ينجـو أحـد منهـا لولا عدم إخـلاص سنقـر الذي هرب مع معظم أتبـاعـه من دون أن يوجـه ضربة أو يتلقى مثلها، وكـان قائد ميمنة المغول منكوتمر، وكـانت هذه الميمنة تواجه عن قرب ميمنة السلطان، وكان في الميمنة المغـولية عشرة آلاف تتاري وذلك دون أن نحصي تعـداد حلفـائهم، ولقـد هـزم منكوتمر هذه الميمنة، لكن هذه الهزيمـة لم تكن بـالدرجـة نفسهـا التي نزلـت برفـاقهم في الميسرة، وبالتـالي لم تكن هزيمـة كـاملـة، وألقى منكوتمر، الذي كـان شجـاعـاً، وجريئاً، وفـارساً معتمداً، بنفسـه مع المتبقي من شعبه، على القسم الذي كـان فيه السلطان، ثم تبع ذلك مـذبحـة هائلة، واستمر القتـال من قبل

الساعة الثالثة حتى غياب الشمس، وحدث الآن أنه لولا قدرة السلطان وصبره، وحكمته وشجاعته لكان مصيره مثل المصير الذي لاقته الميسرة، ففي وسط المآسي التي أحاطت به، ولدى رؤيته الشرور التي أحاقت برجاله حيث قتلوا، وشرع بعضهم بالفرار، أمر بأبواقه فزعقت وبنفره فصوتت، فتحلق حوله الذين ظلوا أحياء، وبدون هؤلاء كان معرضاً للدمار، والذين أطاعوا نداءه من بين جميع قواته كانوا ستمائة رجل فقط، وكان قد خيل للتتار بأن المسلمين قد هزموا تماماً، ولذلك اندفعوا نحو السلب والنهب، واستولوا على خيم السلطان وعلى خيم بقية المسلمين، كما وحصلوا على كميات هائلة من الأسلاب، ما من أحد قادر على تقويم قيمتها تماماً، وكان قد تبع الجيش أعداد كبيرة من السوقة والعامة، فحولوا بذلك المعسكر إلى ما يشبه المدينة المليئة بالناس، وقد قتل من هؤلاء عدد كبير جداً من غير الممكن معرفة قدره وتعداده، وحصل التتار على كميات هائلة من الأسلاب بسبب سرعة تحركهم المذهلة، ولجشعهم العظيم كرجال، فقد امتطوا خيول المسلمين الذين ماتوا، وكانت أفضل من خيولهم، وتركوا خيولهم التعيسة خلفهم، واعلم يا سيدي مايلي: الذي يعد أمراً مدهشاً جداً، إنه لم يكن من الممكن معرفة كمية الغنائم التي أخذها كل طرف من الطرف الآخر، كما أنه من غير الممكن القول من قبل أي إنسان، من هو الذي جرح أو أصيب فيها بعد وكانت إصابته قاتلة(Onqes piles niot trait d` une ni d` autre qui aconter face ni qe nul puisse dire qe nil fust feri ni nafre de pues a la mort) .

فلقد شاهد السلطان سحباً من الغبار قد تصاعدت بسبب الذين كانوا يعملون على المغادرة مع الأسلاب، فقدر أن ذلك قد تسبب التتار به، فزحف نحو هذا الغبار، وكان منكوتمر على مقربة منه، ولم يكن معه

سـوى ستين رجلاً من الخيـالة وليس أكثر من ذلك، وقـد تقدم للقـاء، ظاناً أن القادمين هـم من رجاله: لأن ملكي أرمينيا وجـورجيا كـانا قد تقـدمـا مع أتبـاعهما ودخـلاإلى بلاد المسلمين، وعنـدمـا رأى السلطان ورجاله منكوتمر، وتعرفوا إلى أتباعه وميزوهم من خلال شاراتهم، ظنوا أن هناك كميناً قد نصب لهم، وأن عـرض هذه القوة الصغيرة ما هو إلاّ شرك لاستـدراجهم.نحـو الكمين، هذا من جـانب، ومن جـانب آخـر عندمـا رأى منكوتمر مـدى ضعف إمكاناته والمخـاطـر التي تنتظره من هجـوم يقوم به السلطان، قـام بالتراجع وذهب في طريقـه، ولدى رؤية السلطان لما حدث، اعتقد أنه قـد عاد لحث جيشه كله على التقدم، ولهذا تراجع مسرعـاً، وفـرق الليل فيما بينهما بعـد ذلـك، وهكذا لم يربح أي واحد من الطرفين المعركـة، ولكن بما أن السلطان كان الأخير بالتراجع، اعتقـد الناس أن النصر كـان من نصيبـه، ومـع هذا يمكن للانسـان أن يقـول بشكل يقينـي إنه منذ الاستيـلاء الأول على بلادهـم، لم يتلق المسلمون ضربة بمثل هذه القسوة، ولاهزموا مثل هذه الهزيمة.

وعاد ملك أرمينيا مع شطر كبير من قواته نحو ساحة المعركة، ولدى رؤيتها شاغـرة ارتأى أن ينصب خيمه ويبقى هناك حتى الغد، وبينما هو مقبل على القيام بهذا وصل إليـه الخائن سنقر مع شطر من رجـاله وقال له:«لماذا تفعل هذا يا مولاي الملك؟ لقد ذهـب سيدنا منكوتمر»، فأجابه الملك بأنه رغب في العسكرة هناك، لإمضـاء الليل، لأن رجـاله أنهكهم التعب وأضناهم، وهنا أصر سنقـر على أن البقـاء سيكون خيانة وعـدم إخلاص، بعـدما قام رئيسهم بالمغـادرة، وهكذا حدث بعد تبـادل عدد كبير من الكلمات، أن صدقه الملك، وأمر رجـاله بامتطاء ظهور خيولهم، ولقـد ساروا طوال الليل حتى تمكنوا من العبـور من المكان الذي أزالوا منـه خيمهم، غير أنهم لم يجدوا منكـوتمر وتـوقـف الملك لـوقـت قصير لإراحـة خيـولـه، وهنا تابع سنقـر سيره على طريقـه، ثم انعطف الملك

وأخـذ الطريق نحـو بلاده، واجتاز خـلال الأراضي القـاحلة، حيث لم يكن هناك لا عشب ولا مـاء، ولهذ السبب مـات عـدد كبير من خيـوله ومن أصحابه، بسبب العطش على الطريق، أو هلكوا بسبب المشاق التي عـانوا منهـا، وظل الحال هكذا حتى وصل إلى مملكتـه أخيراً وهو سـالم معافى، ولكن في حـالة مأساوية، في حين جـرجر كثير من أتبـاعه الذين سـاروا خلفـه أنفسهم ووصلوا بعدمـا بذلوا غـاية جهـدهم، هذا وقـام رجـال سنقر بسرقتهم وهم على الطريـق، وجردوهم من كل شيء كـان معهم، ولم يتركوا لهم فـرساً يركبونه، وتشاور السلطان مع رجـاله حول أي الطرق الأسلم له للعـودة عليه إلى ممالكه، وقـد أشار بعضهم عليـه بأن مـن الممكن له المضي عبر الطريـق السـاحلي، من خـلال أراضي الفـرنجة، الذين كـان بينه وبينهم هدنة، وأشار آخـرون أن الأفضل هو المضي عبر البرية حيث لايمكن للتتـار العثـور عليـه، كما وأشـار عليه آخـرون بأن الأفضل هو اختيـار أقصر الطرق وأكثـرها استقامـة، وقـد وافق على رأي هـؤلاء، ومن ثم سـار حتى وصل إلى بلـدة اسمهـا اللجون، حيث سلف له العسكرة هناك من قبل لدى زحفـه ضد التتار، وأرسل كونت سينت سيفرين Sevrin ، وكيل عكا، عدة رسل له، ليمثلوا بحضرته حتى يتمكـن من رؤية أحـواله والتأكـد منهـا، وقـد وجدوا وبـرهنوا أنه كان فقيراً، وبحـالة عوز، والذين بإمـرته قلة قليلة، وبما أن السلطان لم يكن راغبـاً بأن يعـرف الفـرنجـة أوضـاعـه المتردية والانتكاسـات التي أصيب بها، قـدم إجابات لطيفـة جـداً إلى الكونت، وغـادرفي أثناء الليل، وزحف نحـو القـاهرة، وقـد استراح هناك عـدة أيام،وأ مر بفـرض ضريبة على رعـاياه، حيث أخذ ثلث أمـوال كل من كـان يمتلك عشرة آلاف دينـار، وأخـذ من كل غنـي وفقير حسب أوضاعه، ولهذا انزعجت رعـاياه كثيراً، وخيل إليهم أنه قد قضي عليهم بالموت أو بالدمار، ثم أمر بالإعلان في أرجاء بلاد مصر، بأن على الذين يودون نيل أعطيـاتهم الذهاب إلى المرقب، لأنه سوف يذهب إلى أرمينيـا

للاستيلاء عليها، وأن عليهم الاستعداد من أجل السفر، وقد أمر بالمناداة بإعلانه هذا في وقت واحد من كل أسبوع لمدة شهر، وذلك على الرغم مما قاله عدد كبير من الناس من أنه لن يغادر القاهرة بسبب خسائره العظيمة بالرجال وبالخيول.

وبالإضافة إلى هذا كله ياسيدي، لقد أمر بإعدام خمسة عشر أميراً وذلك مع الذين تخلوا عنه أثناء القتال، وقد خافت رعاياه كثيراً، وامتلأت بالكراهية له، بسبب الذين خلفهم وراءه في القاهرة، وأيضاً بسبب الذين ألقاهم بالسجن، وبسبب هذه التهديدات كلها التي قام بها، وما من أحد من الناس جاء حتى الساعة، إلى القاهرة أو إلى دمشق، وأعني ساعة كتابة هذه الرسائل، ومع هذا صحيح ما قيل بأن قسطلان صفد ووكيله على تخومنا، قد جعلا البداة الذين كانوا في المراعي على مقربة منا، ينسحبون إلى الجبال، لأنهما قالا بوجوب الحفاظ على الأعشاب من أجل قدوم السلطان، ونحن نشك بأنهما قدما هذا التعليل، لكي يجعلونا نرغب بالدخول بهدنة شريرة معهما، أتمنى أن يحول الرب دونها ويمنعنا من القيام بها.

وفضلاً عن هذا يا سيدي، لقد فهمنا مما سمعناه من أفواه عدد من الرجال الموثوقين، الذين قدموا مؤخراً من الجهات القائمة حول حماة، بأن هناك رعباً كبيراً هناك وفي حلب أيضاً، وكذلك في حمص، فالناس في خوف يومي من مفاجأة التتار للبلاد، لأن التتار أقسموا على القدوم بكل تأكيد، غير أننا نعتقد أن هذا لن يكون حتى نهاية الشتاء، وللأسباب المبينة، قام سلطان حماه، بعد رؤيته لهذه الأمور، بإرسال زوجته وأولاده، ومعظم ثرواته إلى مدينة القاهرة.

ومن جانب آخر، عندما علم سكان بداق Baudac ، من خلال رسالة بعث بها السلطان بأن التتار قد هزموا، قاموا بثورة ضد الحكام الذين عينهم التتار عليهم، وكان أبغا آنذاك في البرية على مقربة منهم،

لذلك ما أن سمع بذلك حتى زحف نحو تلك المدينة واستولى عليها، وكانت هذه المدينة أثناء الثورة تابعة له، وقد جعل جميع المسلحين طعمة للسيف، وقد قطع أصابع الإبهام للرجّالة و ..... لك أن تعلم ياسيدي، بأنهم يمدون بوساطة الإبهام.

وليس لدينا أخبــار أخرى أثناء كتــابة هذه الرسـائل لارسـالها إلى معـاليكم، سـوى أننا شحنا قلعتنا برهبـان وبعسـاكـر حسب حـاجتنا، وفعلنا ذلك مسرعين، وقـــد قـام مقـــدمنا، بنـاء على التماس من ملك أرمينيـا، وبناء على تقـويم للمحنة الشـديدة التي تعـرض لها ويعيش في ظلهـا، وبسبب أعمال النهب التي اقترفها التركمان في مملكتـه، منذ وقت عودته، ولقيـامهم بنهب وإحراق مـدينة اياس، وبلدات أخـرى وقرى، لهذه الأسباب جميعاً بعث إليه بمائة خيال مع خمسين من رجـال الطائفة الذين جـرى اختيـارهـم وتسليحهم بشكل جيـد، وبعـث أيضـاً معهم بخمسين من التوركبلية، واعلموا يـا سيدي أن الأرض المقدسة، لم تكن حسب مـا نتذكـره قط في مثل هذه الحالة التعيسـة، كما هي الآن في هذا اليوم.

فهي تعــاني من قلة الأمطار، ومن مختلف أنواع الأوبئة والمصــائب، وقد ترك جـزء كبير من مصر بدون فلاحة، خـوفاً من الحرب، وللسبب الذي ذكرناه أعلاه، ولا تعاني هذه البلاد من هذه الحالة لوحدها، بل إن كل من قبرص وأرمينيــا تعيشـان في الحالة نفسهـا... ولـن يقـوم ملك صقليــة بإرسـال أية مــؤن من ممالكه إلى ســورية، بسبب حــربه مع الإغريق، وذلك حسب ما توصلنا إليه، ولهذا يا سيدي، وحسبما كنا قد كتبنا إلى معـاليكـم، إنه إذا مـا عـزم أي واحـد مـن كبـار اللوردات في بلادكم على القدوم إلى هذه المناطق، سيفعل خيراً إذا مـا أشار على ملك صقلية بأن يسمح للمؤن لتحمل إلى سـورية، حسبما جرت عليه العادة في العصور المتقدمة.

وكما تعلم ياسيدي، لم تكن الأرض المقدسة قط سهلة الاستيلاء عليها، كما هي اليوم، من قبل قادة مقتدرين معهم مخزونات كافية من الأطعمة، يضاف إلى هذا أننا لم نر فيها قط ندرة بالجند كما هي الحال الآن، وكذلك قلة الآراء الصالحة فيها، أرجو لكم ولشخصكم الجدير ولجلالتكم الملكية الازدهار في كل الأوقات، وزيادة الفضل وأن تكونوا أحسن، وأرغب إلى الرب — يا سيدي — أن يفعل هذا لكم، فذلك سوف ينجز بدون أدنى شك، لو أن الرب أعطاكم الرغبة للقدوم إلى هنا، فهذا ما يعتقده جميع السكان في الأرض المقدسة، من الصغير والكبير، وبكم مع عون الرب، سوف يتم الاستيلاء على الأرض المقدسة، ووضعها في أيدي المسيحيين المقدسين.

وهذه الأخبار ياسيدي هي .... ويمكن أن تصدقها على الرغم من كل الأشياء الأخرى التي يمكن أن تخبر بها، ولا تؤاخذني يا مولاي لأن رسالتنا طويلة جداً، ذلك أنه من غير الممكن لنا أن نخبركم عن جميع هذه الأشياء بشكل أكثر اختصاراً، فمن أجل تأكيد الحديث عنها تركتني جلالتكم هنا، لأدونها لكم.

كتبت في اليوم الأخير من أيار.

إلى الملك الأكثر نبلاً، وسمواً وعظمة، ملك إنكلترا».

ومن المحتمل أن رواية السير جوزف دي كانسي عن نصر السلطان قلاوون، مرتبطة بمناسبة إرسال الرسالة التالية من الملك إدوارد، حيث هناك مسودة لها محفوظة حتى الآن بين «الرسائل الملكية»، في مكتب الوثائق، علماً بأن تلفاً كبيراً قد ألم بهذه المسودة بسبب الرطوبة ومرور الوقت:

«من إدوارد، الذي بنعمة الرب، ملك إنكلترا، وسيد إيرلندا، ودوق أكوتين، إلى صديقه العزيز بالمسيح، وسكرتيره المخلص، الراهب

جوزيف دي كانسي، تحيات: إنه فيما يختص بالروايات التي أرسلتها إلينا في رسائلك من الأرض المقدسة، نقدم لك شكراً عظيماً، لأننا نصبح أكثر سروراً كلما سمعنا أخباراً جيدة عن تلك البلاد وعن أوضاعها، وهو الأمر الذي نرغب مخلصين ونود أن نسمع عنه بشكل متواتر أكثر، وبما أنك ترغب في أن تسمع تقارير مسرة عن مملكتنا، إننا نوضح لكم — من أجل أن نزيد في سروركم — أننا في اليوم الذي نعمل فيه هذه الهدايا، نحن وملكتنا وأولادنا — شكراً للعلي الأعلى — بازدهار، وبصحة كاملة بالجسد، وهذا أمر نود أن تعلمه بنفسك بوساطة العلاقات الصحيحة لا الفاسدة، وبالنسبة للمتبقي تسلمناه بيد مسرورة وتسلمنا هديتك للسنة الجديدة من المجوهرات التي أرسلتها لنا، ونذكر أيضاً: سرجين قوقازيين، وغطاء سرجين، وقبعتي بازيار ألمانيتين، وأربع قبعات بازيار، اللائي نبعث إليكم مقابلهن بشكرنا العظيم، ونرغب في أن تعلم أننا لم نعد هذه الهدايا هدايا صغيرة، لأننا قدرنا هنا النوايا الطيبة للمرسل أكثر من الهدايا نفسها التي أرسلت هذه المرة، ولا نريد في الوقت الحالي أي مزيد من القبعات بسبب القضايا الشاقة لمملكتنا، والتي هي شغلنا الشاغل المباشر، ولانرغب بالاحتفاظ بمزيد من البزاة أكثر مما هو لدينا، أما بالنسبة لأحجار الياقوت التي أرسلتها لنا.... ولأننا نرغب كثيراً في أن تكون قريباً منا من أجل سلوانا وراحتنا، فإننا نأمرك ونطلب منك أن تسرع بقدومك إلى إنكلترا، بأفضل الوسائل التي يمكنك استخدامها وأسرعها، وبما أننا نثق بك تماماً، إنك لن تفقد في أي حال من الأحوال... من الاسبتارية في إنكلترا، أو ممتلكاتهم التي سوف نحافظ عليها ونرعاها، بقدر ما نستطيع بوساطة القانون، وذلك حسبما طلبت، وفيما يتعلق بأملاكك، التي نتمنى أن تكون مزدهرة تماماً، إننا نرغب في أن تكون متأكداً أنها محط عنايتنا المتوالية.

صـدرت في دوركستر في اليـوم العشرين من أيار، في السنة العـاشرة من حكمنا»(١٢٨٢).

ويتفق كل من هيتوم والمقـريزي على القول بأن المعـركة تمخضت عن نصر عظيم للسلطان، وهو أمر لم ينكره دي كانسي تماماً، لأنه حين أعلن أن ما من أحـد من الطرفين قد انتصر، اعترف بأن قـلاوون كان الأخير بالتراجع، وهذا طبعاً يوثق نصره بعض التوثيق.

ومهما يكن من أمر، إن مـا قدمه دي كانسي له قيمة رفيعـة، لأنه كان عسكرياً، ومعـاصراً، وليس مـن المستبعـد شهـوده للقتـال، وبناء عليـه يمكن الركـون إلى روايته واعتمادها أكثر من روايـة أي مؤرخ أو راهب أو رجل علماني، كتب وهو بعيـد عـن روايات الآخـرين، وبعيـد زمنيـاً بسنوات عن الحادثة، ففي حـال المقـريزي قـد كتب بعـد قـرن أخبـار المعركة، أو بعد أكثر من ذلك.

*** *** ***

وكان ابن عبـد الظاهر، رئيس ديوان الانشاء، أيـام السلطان قلاوون قـد أكـد انتصـار قـلاوون لدى حـديثه عن وقـائع سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م:«وفي هذه السنة تواترت الأخبار بموت أبغا بن هلاون، وذلك لما ناله عقيب كسرة منكوتمر من رعب وخـوف، ولما شـاهده من هول، بقتل عساكره وأكابر المغل»(١) .

وكان أبو الفداء صاحب حماه من أقـرب الناس زمناً وموقعاً من هذه المعركة وقد كتب عنها مايلي:

«ذكر الوقعة العظيمة مع التتر على حمص في هذه السنة — أعني سنة ثمانين وستمائة، في شهر رجب كـان المصـاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فنصر الله تعـالى فيه المسلمين بعـدما كانوا قـد أيقنوا

١— تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور — ط. القاهرة ١٩٦١ .ص٣

بالبوار.

وكان من حديث هذا المصاف أن أبغا بن هولاكو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالباً الشام، ثم انفرد أبغا المذكور عنهم، وغنم وسار إلى الرحبة، وسير جيوشه وجموعه إلى الشام، وقدّم عليهم أخاه منكوتمر بن هولاكو، وسار إلى جهة حمص، وسار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي بالجيوش الاسلامية من دمشق إلى جهة حمص أيضاً، وأرسل إلى سنقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء، بحكم ما استقر بينهما من الصلح واليمين، فسار سنقر الأشقر من صهيون، فلما نزل السلطان بظاهر حمص، وصل إليه الملك المنصور صاحب حماه بعسكره، ثم وصل سنقر الأشقر، وصحبته ايتمش السعدي، والحاج ازدمر، وعلم الدين الدويداري، وجماعة من الظاهرية، ورتب السلطان عسكره ميمنة وميسرة، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد، صاحب حماه بعسكره، ثم بدر الدين البيسري دونه، ثم علاء الدين طيبرس الوزيري، ثم أيبك الأفرم ثم جماعة من العسكر المصري، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر، ومن معه، ثم بدر الدين تتليك الايدمري، ثم بدر الدين بكتاش أمير سلاح، وكان بر الميمنة العرب، وبر الميسرة التركمان، وكان شاليش القلب حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر.

والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد من هذه السنة، أعني سنة ثمانين وستمائة، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة، فهرب من كان قبالتهم من التتر، وركبوا قفاهم يقتلونهم، وكان منكوتمر قبالة القلب، فانهزم أيضاً، وأما ميسرة المسلمين فإنها انكشفت عن مواقفها، وتم ببعضهم الهزيمة إلى دمشق، وساق التتر في إثر المنهزمين حتى وصلوا إلى تحت حمص، ووقعوا في

السوقية وغلمان العسكر والعوام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم علموا بنصرة المسلمين، وهزيمة جيشهم، فولى المذكورون أيضاً منهزمين على أعقابهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس، منهم خمسون ألفاً من المغل، والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم.

ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أبغا وهو على الرحبة يحاصرها، رحل عنها على عقبه منهزماً، وكتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر البلاد الإسلامية، فزينت لذلك، ثم إن السلطان الملك المنصور قلاوون أعطى الدستور للعساكر الشامية، فرجع الملك المنصور محمد صاحب حماه إلى بلده، ورجع سنقر الأشقر وجماعته إلى صهيون، وسار عسكر حلب إليها، وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه».

ونص أبي الفداء هذا هام، ويساعدنا على فهم ما حدث في المعركة، ومن الممكن على ضوئه التعامل بشكل أفضل مع نص دي كانسي، وأيضاً على معالجة دور سنقر الأشقر.

وكان ابن حبيب الحلبي قد كتب عن سيرة قلاوون وأولاده، كتاباً أسماه «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه»، والذي أورده ابن حبيب في أحداث سنة ثمانين وستمائة هام جداً، ويساعد أكثر على التعامل مع مادة دي كانسي، وقد قال:

«في شهر رجب منها، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتار، بظاهر حمص، وسببه أن أبغا خان بن هولاكو ملك التتار جمع وحشد، وسار إلى جهة الشام، وكانوا نحو ثمانين ألفاً، ثم انفرد أبغا وذهب إلى الرحبة، وجهز جيشه، والمقدم عليهم أخوه منكوتمر إلى جهة حمص، وسار السلطان عز نصره بالجيوش الاسلامية، من دمشق المحروسة، وكان قدم إليها، وهم نحو خمسين ألفاً، ورأس الميمنة الملك المنصور

محمد بن أيوب، صاحب حماه، ورأس الميسرة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والتقى الفريقان، واشتدت الحرب، فاستظهر العدو أولاً، وكسروا الميسرة، واضطربت الميمنة، وثبت السلطان بمن حوله من الأبطال، واستمروا إلى بعد العصر، وكثر القتل، وأشرف المسلمون على خطة صعبة، ثم تناخى الكبار، وحملوا على التتار عدة حملات، وأنزل الله النصر، وجرح منكوتمر، فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، ودقت البشائر، وبقي السلطان واقفاً إلى أن نزل بعد هوي من الليل، وظفروا بالعدو المخذول.

ثم أذن السلطان للعساكر الشمالية فانصرفوا، ورجع هو إلى دمشق المحروسة، والأسرى تقاد بين يديه، ثم عاد إلى الديار المصرية مؤيداً منصوراً، ولما بلغ الملك أبغا خبر الكسرة، وهو على الرحبة يحاصرها، نكص على عقبه منهزماً، وكفى الله شرهم بمنه ولطفه»(١)

---

١ — تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه — ط القاهرة ١٩٧٦ ج١ ص ٦٢ — ٦٣.

٤

ما جاء عند وولترماب عن الحروب الصليبية

حول الاستيلاء على القدس من قبل صلاح الدين

فقط لمعلوماتنا العامة كانت هناك سنوات من العفو، أو من السرور، قد عرفت بذلك من العفو أو من السرور، أي سنوات عفو وسرور، وأمن وسلام، وفرح ومسامحة، ومجد، وبهجة، وبناء عليه ينبغي دعوة سنة ١١٨٧ لتسجيد الرب، من قبلنا سنة عاصفة من العاصفة، عاصفة الوقت، وعاصفة الاضطراب الكبير، فقد كانت سنة خوف، وسنة قتال، وسنة ثقيلة، وسنة موت وسنة حرمان، وسنة تدنيس وأسف، سنة لم يتوقف فيها طوفان الشتاء عن الازدياد من منتصف أيار حتى الاحد الثالث قبل الصوم الكبير، بحرماننا من الاستراحات السنوية، بخنق الفواكه، وبانتاج الأذى والحرمان، والمنتجات غير المفيدة، وبنشر الجفاف والندرة، والفوضى بين الناس والحيوانات، ومع نبتون غالباً— إن لم يكن دوما— ما يأتي الفرج بوفرته، ويزيل ندرة الموسم، لكن البحر أغلق في هذه السنة عن الأرض ينابيع رحمته، وحرم أخته ومنع عنها كل ما تحتاجه من فوائد، وزيادة على هذا، كأن الرب بقدرته نسي منحنا الرحمة، وأضاف إلى آلامنا الصادرة عن دناءتنا الخلقية لذلك الوقت، جدب الأرض، والبحر، والهواء، وبعدما أطلق من الجحيم وفك سلاسل ملائكة العصيان، سمح للذي امتلأ بالفضائل الصادرة عن تجسيده وصلبه، بأن يتعرض للحاجة في أرجاء العالم، وللاستهزاء بالمسيحيين بقلبه الدنس والمليء بالشهوة، وظلم مآب لم يكتمل بعد، فهذا ما قاله الرب، ولقد أجل تدميره حتى وقت اكتمال الشر، ويبدو كأس حماقتنا قد امتلأ وفاض، إلاّ أنه ليس فقط وقع الانتقال لظلمنا، علينا وعلى آلنا، ولكن افترض أن ربنا يسوع، الذي هو قاهر للذنب، قد أذن لانتقام الشيطان بأن يقوم ضد شخصه، لأن الناس قد تحدثوا أنه في سنة التعاسة هذه، جرى الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، فغدت

أسيرة السلطان، الذي هو أمير الكفار، وقد أخليت من سكانها بأعمال تدمير دموية فاقت ما بكاه أرميا في مراثيه، وذلك عندما قال وسط دموعه: «كهنتها ينوحون وفتياتها قد دنسن»، ولم يعد الكهنة في تلك المدينة ينوحون ولا الفتيات يدنسن، لأنه لم يبق هناك أحد منهم ولا منهن، وقد قام تيتوس المنتقم (مع أنه لم يعرفها) للأخطاء المقترفة بحق ربنا، بانزال تعداد سكان (القدس) إلى بعض البقايا فقط، لكن السلطان دمرهم تماماً، واجتث الجذور، وقطع الفروع باخراج جميع المسيحيين من المدينة، فالضريح المقدس، وصليب المسيح، صارا طعاماً للكلاب، المتخمين بالطعام، والملطخين بدماء الشهداء، ولذلك سمحوا لعدد كبير بدفع الفدية، ليس حباً كبيراً بالمال، ولا نقصاً بالكراهية من خلال الوهن بعد احتدام جنونهم، ولم يكن هناك نقص بالرقاب لوضعها منحية تحت يد الضارب، بل لإنعدام السيوف التي تتولى الضرب، فضلاً عن أنها لم تمنحهم الفدية، ذلك أن الذين ابتاعوا خلاصهم، سلموا إلى العساكر للدفع، فأصبحوا مجرد بضاعة ومال، وجميع المراثي، والمصائب، والموت، والدمار، وكل ما توقع الأنبياء من كوارث لهذه المدينة، وقع الآن هذا كله في فاجعتها، ويبدو أن الرب ارتأى احداث ذلك عن عمد وباهتمام، ففي الغالب وكثيراً ما قام الرب في الماضي بانقاذها، ولم ينسها من رحمته في كل مرة حدث فيها هجوم مجنون على أسوارها، لكن الآن عندما لم يبق أبناء للمستقبل، ولابقايا من الماضي، ولم يترك فيها شيء على الاطلاق، من الذي بقي ليتولى تحريرها، وإلى من يمكنها الآن أن تتطلع، وممن تنتظر الآن الرحمة؟ من المؤكد أن الذي كان الراد السمع إلى الأطرش على الفور، والنظر إلى الأعمى، والحياة إلى الميت، قد علمنا أيضاً من خلال عدد كبير من المعجزات، أن لانيأس أبداً.

ويدا الرب، المحب لعبده داود، وكأنه عدو له، بسبب أعمال التعداد

للشعب التي قــام بها الملك، على أسـاس أنه ادعى لنفســه فخـار ومجد الانتصارات التي هي عـائدة للرب، وعـزا إلى نفسه وإلى أتباعـه النتائج السارة للقتـال، فما كان من الرب إلاّ أن قتل سبعين ألفـاً بسيف الملاك، لكنه لم يفعل ذلك انتقاماً، بل عقوبة، حتى يذل فخاره، ولذلك لم يمنح النصر إلى العـدو، ولم يرفع من شأن أعـداء داود، كما أنه لم يثر كراهيـة الشعب ضده، ولم يعرضـه للذل، ولزوال الاحترام، ولم ينتزع منه كل ما تركه له، بل أظهر اللطف نحوه، وقاد الملك ووجهه وحفظ الشعب من أجل الازدهار، وجعل الشعـب يزيد من معـرفتـه بـالرب، كأب وليس عــدواً، ولاعصــاً، ولاسيفــاً، ولم يكن وقتهــا في تلـك المدينة تدمير للممتلكات، ولاانتـزاع للثروات، ولاتحويل للسلطـة، فقد بقي التـابوه، وبقيت الأشياء المقـدسة نائيـة عن الخوف الذي ناله الذين بقيـوا أحياء، وقـد قام هؤلاء باحصـاء عـدد الموتى، ودفنهم، والنوح عليهم، ثم إنهم ابتهجوا بالسرور الذي كان نتيجة الحزن.

لكن أي نهاية يمكـن أن تكون هناك لهذه التعـاسـة غير المحــدودة. وذلك بسبب الشيــاطين غير المرعـويـة والتي لاتعـرف الحيــاء، والتي حطمت سلاسها برضا ربنا، وانتشرت من خلال عملائها أو أزالت من الوجود كل مـا كان هناك من محاسن أو مما عاد إلى الرب، وكل مـا كان هناك من انحطاط، ومـن شرور، وكل مـا عـاد إليهم رفعــوا من شأنه، ووضعوه وصانوه في أعلى أماكن الأمان مع ممتلكات دائمة أبداً، ولذلك سوف تنفـذ إرادتهم إلى الأرض مثل نفاذها في الجحيم، وجـرت عقوبة رجــال الأيام الخوالي، لكن ليس وصــولاً إلى الموت، في حين تعــرض رجـال جيلنا للمـوت وليس إلى العقـوبة، فقـد ذهبت أقـدام الكثيرين، وانزلقت خطوات الأكثـر لأنهم لم يكونوا مدركين أن القـدس ليست لا هنا ولا هناك، ونحن الذين نبحث عن القـدس السماوية، ومع الظهـور الأعظم للأذى على الأرض دعونا نغـادر هذا العالم إلى الآخـر، واتركوا

في الوقت نفسه أملنا للمستقبل أفضل، وتحرراً من حب الأرض(★).....

أصل الداوية

قدم فارس اسمه بينز Payns من منطقة في بيرغندي لها الاسم نفسه، حاجاً إلى القدس، وعندما سمع بأن المسيحيين الذين يسقون خيولهم من ماء صهريج ليس بعيداً عن أبواب القدس كانوا يتعرضون دوماً للهجمات المتوالية من المسلمين،وأن عدداً كبيراً من المسيحيين قد قتلوا في كمائن أقامها المسلمون، أشفق على المسيحيين، ونظراً لأنه امتلأ بالغيرة الصحيحة عليهم، سعى إلى حمايتهم بقدر ما استطاع من قوة، وغالباً ما كان يندفع لمساعدتهم من أماكن اختباء أحسن اختيارها، ويقتل كثيراً من الأعداء، ورداً على هذا احترز المسلمون، ووقفوا متأهبين بأعداد كبيرة بحيث لا يمكن لأحد أن يواجه هجماتهم، ولهذا أرغم المسيحيون على هجر الصهريج، لكن بينز الذي لم يكن كسولاً، ولا من السهل إخضاعه، استطاع الحصول بوساطة صلواته، على عون للرب ولنفسه وسعى بقدر ما أوتي من قوة، وبكل وسيلة ممكنة للحصول لنفسه على مكان واسع للاستقرار في داخل حدود الهيكل، وقد أقنع نفسه بالقليل والفتات من الطعام، وتعهد بأداء اليمين أن يقدم أتباعه التكاليف الكاملة للخيول وللسلاح، واستطاع بوساطة التبشير، وبوساطة الصلوات، وبكل الوسائل الممكنة التأثير على جميع الحجاج، الذين عرف أنهم ذوي طاقات جبارة في القتال، وأقنعهم بالبقاء وتكريس أنفسهم بشكل دائم لخدمة الرب أو العيش في ظل تكريس مؤقت، واختار لنفسه ولأتباعه من الفرسان، حتى يحافظوا على

★— وولتر مابDe Nugis curialium — ط. لندن ١٩٢٤ ص ٢٥— ٢٨. ومع أن مادته قليلة الأخبار، لكنها بحد ذاتها وثيقة تصور مشاعر رجال الدين في أيامها، وتقدم لنا نموذجاً للكتابة الفجة ولطرائق التعبير.

أنفسهم وعلى أسلحتهم وعلى واجباتهم، اختار شارة الصليب، ونوعاً من الترسة، له أشكال مميزة، وانصرف نحو الاهتمام بسلوك أصحابه وبطباعهم.

وحدث في الأيام الأولى لبداياتهم، أن فارساً مسيحياً، له مكانة سامية جداً، وكان عظيم التقدير والشهرة بين المسلمين، وكان رجلاً مكروهاً جداً من قبل أقرباء وأصدقاء، الذين قتل عدداً كبيراً منهم، وقد وقع لسوء الطالع في أسر المسلمين، واقتيد إلى الإعدام رمياً، وكان بين النبلاء الحضور هناك عدداً كبيراً من الرماة المتشوقين للحصول من الملك على اعتراف بالمهارة، مقابل كل نشابة أطلقت انتقاماً لدماء أصدقائهم التي سفكها هذا المسيحي، ووقف الملك إلى جانب الضحية، وهو يرغب في كسبه إلى جانبه إذا ما ارتد، ولهذا أطراه بكل كلمة، وحاول جذبه بكل طريق من الطرق، وبلغ به الأمر حداً أنه عندما رأى ذلك الفارس غير مستعد للتخلي عن عقيدته، لم يفقد أمله في كسبه إلى جانبه، ولهذا أمر بفك رباطه، والعناية بشخصه، وبعد جهود طويلة مخفقة ليجعل المسيحي يتخلى عن التزامه الديني، حزن القائد المسلم واكتأب لأن آماله تبددت، وعلى كل حال، لأن الرب — الذي كان الفارس يعاني في سبيله — قد جعل المسلم عطوفاً، وقد أراد هذا المسلم تحريره من التعرض للعذاب الشديد، فأعطى اسم طفل كان أسيراً لدى المسيحيين، وعرض أنه إذا ما أطلق سراح هذا الطفل فإنه سوف يطلق سراحه مقابل ذلك، بشرط أن يجعل مولاه الرب رهينة مقابل عودته، وذهب الفارس في ظل هذه الاتفاقية إلى القدس، وأخبر الملك بالذي فعله، وقدم الملك والكهنة والشعب الشكر العميق للرب لإعادته إليهم هذا الرفيق المتميز، لكن مالبث الفارس أن علم بأن الطفل قد توفي، وبناء عليه استعد للعودة في اليوم المحدد، وقام الملك والمملكة بصوت واحد بمنع ذلك، وحبسوه بموجب أمر ملزم من البطريرك، وتولى الجميع

بوعده بالكثير من القداسات، والصدقات، وتقديم كل ما يمكن أن يحلله من يمينه الذي أداه، ومع أن الرب بدا وكأنه راض بكل هذا، لم يكن الفارس بشكل مؤكد كذلك، وأصر على استعداداته على العودة وفاءً بوعده، لكن رفاقه عندما عرفوا بمقاصده، حكموا عليه بالإجماع على وضعه في سجن أمين ومشرّف حتى يكون يوم العودة قد مضى، حتى عندما يكون الوعد قد خرق، لن يُعدّ مسؤولاً بعد ذلك، ومطلوباً منه الوفاء، ولأنه أمل بالنجاة إما بالحظ، أو بأن يطلق سراحه بتقدير خاص، عانى من هذا الاعتقال حتى رأى اقتراب اليوم، ولجأ هنا إلى وسيلة الكذب، فوعد صادقاً بالبقاء إذا ما قامت الكنيسة بتحليله من خرقه لوعده للمسلم، وهكذا مشى رجلاً محرراً وتقدم وسط بهجة الجميع وتهانيهم، وبدأ في الليلة التالية بالتحديد رحلته، وأسرع بقدر ما استطاع، حتى لا تبقى رهينته المحبوبة(المسيح) بالاعتقال، وبات الفارس في تلك المناسبةسبباً خاصاً لكثير من القلق، لأنه كان في وقت واحد منتظراً من ملكه، ومطلوباً من منتقميه، ومع أن الملك المسلم جعل نفسه مسؤولاً عن ذلك الفرار السري، الذي حمّله كثيراً من العداءات ومواجهة المعتدين المقتدرين، ظل يذكر الرهينة على شفتيه حتى انتهاء النهار وانتهاء أمله، وكان ذلك عندما قدم له التحية، بشكل غير متوقع، الفارس الفار، وهويسير على قدميه، وقد أعياه سفره وسرعته الكبيرة، ولم يكن هذا اللاجىء قادراً على الكلام إلا بصعوبة بالغة، لكن ما أن تمكن من الكلام، حتى التمس العفو، لأنه لم يستطع الوفاء بوعده، وامتلأ الجميع بالدهشة، والعطف، وابتهج الملك بوفاء أسيره، فأطلق سراحه، وأعاده رجلاً حراً من خلال نعمة المسيح(★).

مايختص بابن سلطان القاهرة

ليس قبل هذه الأيام بكثير، ألقي القبض على ناصر الدين بن عباس،

★ De Nugis curialium لوولتر ماب ص٣٣ — ٣٥ .

سلطان القـاهرة، من قبل فـرسـان الداوية، وألقي به في السجن، وكـان شـاباً لطيفـاً، وأكثـر من هذا محترمـاً في مختلف المجـالات ومشهـوراً: بالأصل وبالنسب، وبالجنـدية وبالشجـاعـة، وبالثقـافـة وبنقـاء الذهن، وعندمـا كان مـايزال حراً في بلاده، تعلم كثيراً من الجدل حـول ديانتنا، وحول أخطاء شعبه، وبما أنه رأى أن عقـائدهم ليس لها أسس ثابتة، أو إيمان، كان سيتبنى المسيحية، لولا أن مركـزه السلطوي قد منعه، وعندما جعل هذا معـروفـاً بشفتيـه للذين وضعـوه بالأغلال، لم يكتفـوا بعـدم تصديقـه، بل أغلقوا آذانهم عن سماعه لدى مطالبته بالتعميـد، ووعدهم ناصر الدين أنه سـوف يحصل لهم على القاهرة بقـواه الخاصة، وبخططه للعمل، وعليهـم الاعتماد عليــه بذلك والـوثوق بحكم أصلـه، وذلك شريطة أن يجعلـوه يتعمـــد، ولقـــد أصروا على عنادهـم وتصلبهم في مواقفهم، واهتمـوا اهتماماً قليلاً بخسارة روحـه، وجعلوا آذانهم مصغية لقضيـة أخرى، وحملت أخبـار هذه المسألة إلى المصريين، ولدى إدراكهم لخطورة مـا وعـد به رفيقهم الشجـاع الذي بلغ به الحد إلى الموافقـة على تسليمهم، امتلأوا بخـوف عظيم، وبأعظم كراهيـة له كعدو لشريعتهـم، وقـرروا أنه إذا عـرض للبيـع— كما جـرت العـادة— أن يشتروه، دون الاهتمام بمقـدار التكاليف، وبعثـوا برسل لذلك، وعندمـا جـرى تحديد السعر، قاموا بكل براعة بمقايضة الشاب بأوعية ذهبية وبأواني وكؤوس من الذهب ذات ثمن مـرتفع، وخـوفـاً من شجـاعـة ذلك الرجل التي لاتقهر، تسلمـوه— وفقاً للاتفـاقية— وهو بالأغـلال، وأعلن في وسط المدينة إلى حيث جـاء، عن نفســه أنه كـان مسيحيـاً، ولم يخش في وجـه شتائم الناس الغـاضبين، عن ا لإعلان عن خلاصه، وبناء عليـه عندما حمل إلى القاهـرة، خرج الناس إلى استقبـاله بصرخات الفـرح، وحرروه من أغلاله، واحتفـوا به وشرفوه وكأنه أب لبـلادهم، وسيدهم والمدافع عنهم، وعندما وصلوا إلى وسط المدينة، وجهت الدعوة إلى بقية السكان للاجتماع بوساطة صوت المنادي، وهكذا اجتمعت حشود كبيرة، وبروح

جماعية وسرور عارم لم يتوقفوا عن تقديم شكرهم إلى ربهم، وكأنه قام بانقاذهم من أيدي المسيحيين، وكانوا يتوقعون أن يجعلوه قائدهم في الدفاع عن المدينة، لأنهم كانوا بلا قائد، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ولم يتجاوب لا بالإطراء، ولا بالخوف من العقوبة، واستدعى الأب، واعترف أمامه بأنه مسيحي، مما أدهش المدينة كلها دهشة عظيمة، ووقف قادة الناس وأعيانهم— بصرف النظر عن العامة— مندهشين، في صمت عميق، ثم تناقشوا ، مع كثير من الخلاف، حول تبني خطة من خطتين، وكان بينهم من كان راغباً باعدامه والتخلص منه على الفور، ولم يرغب الآخرون بذلك، فصدوراً عن احترامهم لشخصه، رأوا أن المناسب هو اعتقاله وايداعه السجن على أنه مجنون وبسبب جنونه، وجرى استدعاء الأمراء من الجوار، ولدى معرفتهم بالواقعة، اختلفت أيضاً مواقفهم، ورأى أكثريتهم أنه بالتخلص منه ستتوفر الفرصة أمامهم للاختيار للدفاع عن المدينة وللقيادة، وبحكم قولهم ذلك بات من المتوجب صلبه بحكم خرقه لشريعتهم والإرتداد عنها، وفي المقابل كان الذين رغبوا بمصلحة المدينة وبازدهارها وأمنها، أكثر عقلانية، واعتقدوا أن على رفاقه وعلى أهله، أن يسعوا لديه بحكم احترامه للمدينة، وبسبب عنايتها به، واحتراما منه لأصله النبيل، فيضغطوا عليه للاقلاع عن عقيدته المجنونة والتخلي عنها، وأن يتولى عبادة رب آبائه، ولكن الذي حدث أنهم لم يستطيعوا تحقيق الاستجابة لهذا الطلب لابالرجاء ولا بالدموع، ولذلك اقتيد نحو الأمام وربط إلى عمود، ومثله مثل الشهداء الكبار من النبلاء أمثال الملك إدموند وسباستيان المبارك، اتخذ هدفا للنشاب، وبعث به إلى المسيح، وبات هذا الذي «ولد مجدداً من الماء ومن الروح القدس» طاهراً نقياً بما فيه الكفاية، لأن الدم سائل، وكل سائل جاء من الماء.

شيخ الجبل لدى الحشيشية

ومثل هذا حدث أن رجلاً صاحب نفوذ عظيم، صار يدعى شيخ الجبل لدى الحشيشية، لأنه كان الحاكم على الذين استقروا تحت نير سلطانه، وكان أيضاً مصدر ايمان شعبه وعقيدته، وكان قد طلب من بطريرك القدس تزويده بكتب الأناجيل، وقد بعث بها كلية مع مترجم لهم، وجرى استقبال المترجم، وقبول الانجيل بكل تشوق ورغبة، وجرى اختيار واحد من هؤلاء الناس، وكان رجلاً جيداً وعظيماً، وأرسل إلى البطريرك ليجلب معه كهنة ولا يين يمكن على أيديهم تسلم تعميد كامل، مع قرابين الايمان، وبينما كان هذا الرجل مسافر باتجاه بلده، جرى اعتقاله من قبل كمين نصبه داوية المدينة ومن ثم جرى قتله، ومضت الحكاية تقول بأنهم فعلوا ذلك خشية أن تحول الكفار قد تقود إلى وحدة السلام، لأنه قد قيل بأن الحشيشية كانوا رأس الكفار وغير المؤمنين، واكتشف شيخ الجبل الخيانة، فبقي ملازماً لإيمانه القديم وكان بامكان الملك والبطريرك الحزن والأسى، ولم يكن بوسع أي منهما انزال عقوبة، فالبطريرك لم يكن بإمكانه فعل ذلك، لأن روما كانت أسيرة حافظة النقود، ومن جميع الجوانب، ولم يكن أيضاً بامكان الملك، لأن الاصبع الصغير (للداوية) كان أعظم منه.

وكان قد جرى بالعنف انتخاب رينالد أوف باث Bath ابن جوسلين أسقف سالسبري، لمنصب الأسقفية، لكن رئيس أساقفة كانتربري لم يقبل القيام بترسيمه، وعندما شكا هذا إلى أبيه جوسلين، أجابه:

«أيها الأحمق، امض مسرعاً جداً إلى البابا، ومن دون خوف أو إطراء، وجه إليه ضربة جيدة بمحفظة نقود ثقيلة، وسيقوم هو بالانحناء بالاتجاه الذي ترغب به»، وبناء عليه ذهب، وضربه، وانحنى، وسقط البابا، وارتفع الأسقف، وكتب مباشرة كذباً ضد الرب، في مطلع

رسـائله، وذلك في المكان الذي توجـب أن يكتب فيـه: «بفضل نعمـة حافظة النقـود» قد كتب بدلاً عن ذلك: « بفضل نعمـة الرب»، ثم فعل كل مايرضيه.

وعلى كل حـال لندع رومـا سيـدتنا وأمنا، الوعـاء المكسـور في الماء، ولتكن بعيدة عنا حتى نصدق مانراه، ومثل هذا هناك الكثير من الكذب يقال حول السادة الداوية، دعونا نسألهم ونصدق كل ما نسمعه، والذي يفعلونه في القدس لانعرفه، فهم يسكنون بيننا ببراءة كافية.

ما يتعلق بأصل الاسبتارية

امتلك الاسبتـارية قـاعـدة مكرسـة للخير، بالقيـام بـالتفـريج عن المحتـاجين بالمسـاعـدة الخيرة، وقـد بدأوا بشكـل متـواضع، وبدا بيتهم المأوى الخاص بالمعـونات والاحسـان، وعن طواعيـة استقبلوا الغـرباء، واحتـذوا حـذو حـواريي الرب، حيـث كـانـوا متشـوقين لاستقبـال المسافرين، ولمنحهم المأوى، ولقد عاشوا مدة طويلة مخلصين لتعهداتهم، ولم يلمسوا حافظة نقود المسافر، بل قدموا إليه منحاً كريمة من مخازنهم، ولم يدعـوا شيئاً ناقصـاً يلبي رغبـة المريض، حيـث قـدمـوا له كل عناية ممكنة، وبعد شفـائه أعادوا إليـه أمواله كاملة، وبسبب هذه السمعـة قام عدد كبير من الرجـال والنساء بتقديـم ممتلكاتهم إليهم، وجاء الكثير من الناس إليهم لتقـديم خدماتهم في رعـاية المرضى والضعفاء، وبنـاء عليه جاء أحد النبـلاء لتقديم الخدمات هناك، مع أنه كـان معتاداً على تقديم الخدمـات إليه، وأخـذ هذا النبيل بغسل قـدمي واحد من المرضى كـان مصـاباً إصابة بالغـة بالدمـامل، وصار يصـاب بالغثيان نتيجـة الروائح النتنة، ولذلك قـام بدون تردد بشرب الماء نفسـه الذي استخـدمـه في الغسل حتى يرغم معدتـه على أن تصبح معتادة على الشيء الذي سبب لها الغثيـان، واستحـوذ هـؤلاء على الرب «بهدوء وبصـوت منخفض»، لكن نزوعـاً إلى الشرنها كثيراً وبقـوة بينهم، وذلك بسبب مـواريثهم،

وأعني بذلك الطمع والجشع الذي هو أصل المساوىء، وانتبهوا أن «الريح تدمر الصخور إلى قطع صغيرة، وكذلك تفعل الزلازل والنيران»، وفي ظل هذه النار، توجهوا نحو معلمهم، وأعني بذلك البابا، والمجمع المقدس لكنيسة روما، وعادوا وهم غارقين في كثير من المظالم «ضد الرب، وضد تعميده»، وجرى في اللاتيران عقد مجمع تحت قيادة البابا الاسكندر الثالث، وحصل جميع حشد الأساقفة الذي جمعهم هذا البابا، مع رعاة الديرة ورجال الدين بصعوبة لأنفسهم — مع أنهم كانوا شخصياً موجودين— ما كان قليلاً جداً بالنسبة لامتيازاتهم وحقوقهم، وحصل الاسبتارية من جهة ثانية على السلم، ونحن حضور، لكن ما أن إرفض المجمع، حتى قام سيدهم على الفور، وأقصد به كيس المال، بفتح شفتيه المتهدلتين، فاستطاع— ليس عن طريق الحب— بالسيطرة على كل شيء في روما، وغدونا نحن مرة أخرى فرائسهم، وغدت امتيازاتهم وحقوقهم مجدداً، أكثر ثباتاً وقوة، ولقد سيطروا ، ولا أقول إن ذلك كان بكيس نقودهم، بل بوساطة استثماراتهم، ولن أقول بوساطة أشخاصهم، بل بوساطة أهدافهم الدينية، «لأنهم ازدادوا دوما، ونحن تناقصنا»، وحياة المذابح قد أعطيت إلينا أولاً من قبل الرب، ثم منحت بعد ذلك من قبل البطاركة، ونحن لم ننجح في وراثة آبائنا، حيث لم نستطع أن نشغل دور رجل الأعمال والتجارة، لكننا نستطيع أن نستجدي، فقد وضع كل منا الحياء جانباً، والاحترام منعناه، وتنكرنا لجميع أنواع الحياء برضا منا وإرادة، فما هو التعويض الذي نلناه مقابل ذلك ومتى؟ بما أن جميع المذابح تقريباً مشغولة الآن من قبل أعضاء التنظيمات الدينية، لم يبق بالكاد مذبح واحد فيه كفاية لأي واحد من الكهنة، فهؤلاء أعظم عدداً بكثير من المذابح، ومع أن الدير سجن للراهب، وكذلك مع أن إرميا قد قال: «وجهت الفأس نحو جذر حياتي ما لم أجلب أعطيات إلى المذبح»، فلقد غيرت التنظيمات الأوضاع، ولقد حصلنا على وسائل عيشنا بأن أصبحنا

تابعين لهم ندفع الأتاوة من مصادر عيشنا، وصار الدير بيت السجن للراهب فيه سوف يسجن الكاهن لأن الرهبان أرادوا ذلك، فقد استأصلونا بمختلف الخدع، وأبقونا بعيدين عن الكنائس، وعندما يقوم الجند، الذين أوكلت إليهم حقوق الحماية،وهم في حالة عوز حقيقي، ويطلبون العون من مخازن الداوية أو الاسبتارية، فيجيبهم هؤلاء: «نحن نمتلك الوسائل لمساعدتكم، لكن لايمكننا أن نقدم شيئاً من خزينة الداوية أو الاسبتارية إلاّ إلى أخواننا خاصة، ومع هذا إذا ما كنتم راغبين في الدخول في رهبانيتنا، وأن تسهموا بشكل ما بممتلكاتكم إلى بيت الرب، فسوف تعفون وتصبحون أحراراً»، وبناء عليه يقوم هؤلاء الرجال المساكين، المتشوقين للتحرر من قيودهم التي ربطوا بها بشدة، وبما أنهم، كما يعتقدون، ليس هناك ممتلكات سوف يفقدونها دون أذى وألم، باستثناء الهبات المقدمة إلى الكنائس، تراهم يقدمون وهم مسرورين على تسليم هذه الهبات إلى الاسبتارية والداوية، فبذلك يمكنهم الحصول على حريتهم، فبوساطة الخداع، لابل، كما ينبغي أن أقول، بخداع مضاعف ثلاث مرات، نجوا من السيمونية (بيع المناصب الدينية)، وكأن الرب لن يلاحظ بأي وسائل أثرت بيوتهم، فقد هلك أبناء الجنود وأحفادهم، وأكثر من هذا ظلما، هلك عدد كبير من الأشخاص ذوي المكانة، بدون فائدة(★).

أندرونيكوس امبراطور القسطنطينية

عندما كان لويس السمين يحكم في فرنسا، وهنري الأول في انكلترا، كان حاكم القسطنطينية أندرونيكوس، الذي اشتهر بولديه:

أندرونيكوس ومانويل، وبعدما جرى إرسال أندرونيكوس من قبل أبيه في حملة عسكرية، وكان مشغولاً فيها،، توفي الأب، ثم احتل مانويل العرش، بشكل غير شرعي، لأنه كان الأخ الأصغر، وقام بابعاد

★- De nugis curialium لوولتر ماب ص ٣٨— ٤٤.

أندرونيكوس لـدى عـودته، وحمل الأخ الأكبر شكواه ضـد الخطأ العظيم الذي اقترف بحقـه، ونشرها في المقاطعـات والبلدات، فنجح في تسليح نصف العـالم تقـريبـاً ضـد مـانويل، وكـان سينتصر عليـه، لكن مانويل الذي كـان محباً للمال، وجشعاً نحـو التشريف، والذي عرف بأن الاغـريق فيهم فسولـة وعجـز، وضعف وخـوار، وغير مخلصين نحـو أعدائهم، ولا مـوثوقين وجبناء، قام بـاستخدامهم في سبيل أغـراضه في تلك الآونة، فصب لهم الأمـوال وأغـدق عليهم الوعـود، وفضـلاً عن هذا، أحضر من أجل حماية أشخـاص وممتلكات الاغـريق، رجـالاً من هذا الجانب من الجبـال، الذين نصبهم في الحقيقـة للحماية ضـد مخاوفـه وأعدائه، وبما أنه لم يضن بالمال، مـلأ هؤلاء الجياع البلاد بقطعانهم، وبما أنهم دخلوا على شكل قبـائل، تكاثروا إلى درجـات باتوا فيهـا حشـداً كبيراً، وقـام مانويل وهو المنتصر بعملهم وثروته بالعطف على أخيـه، في سـاعة هزيمتـه الكاملة ونفيه، ومنحـه مملكة على حدود الأتراك، كـانت كبيرة بحجمها وقيمتها، غير أنها كانت نائيـة، وفرض مقابل منحه إياها يمينا تعهد به بتنازل دائم عن الامبراطـورية، وربط بذلك ليس شخصه فقط، بل ابنه ووريثـه، الشاب أندرونيكوس، وهكذا اعتقد مـانويل بأنه أرضى العدالة، فيما يتعلق بقضية اغتصابه للعـرش، وكان تقياً في منحته التي أعطاها بدون ارغام.

وبعـدمـوت أنـدرونيكوس الأب، جـدد أندرونيكـوس الابن الالتزامـات التي فرضها مـانويل، وبما أن هذه العلاقات جـرى الحفاظ عليها باخلاص حتى أيـام البابا لوسيوس Lucius، الذي خلف البابا الاسكندر الثالث، فقد حكم مانويل المتقدم الذكر، الامبراطورية بسعادة عظمى، وقد قبـل لابنه مانويل، ابنة لويس، ملك فـرنسا، وغـادر الحياة مليئاً بالسنين والتشريف وسعيـداً، إلاّ في المسألة التاليـة، وهي أنه خلف ولداً في السابعـة من عمره، تحت وصـاية اغريقي، عـرف بحكم منصبه

باسم البروتوسالفاتور Protosalvaor ، وعندما نقلت الأخبار إلى أندرونيكوس، وكان رجلاً منحط الأخلاق، ذلك أنه أنكر المسيح مرتين في سبيل نيل العون من الأتراك، لابل إنه قام بانكاره الآن للمرة الثالثة، عند ذلك قام بحشد قوة كبيرة من المسلمين، ونقل صراعه من خلال الجزر المجاورة، التي كانت ملكاً لمانويل، ومن خلال المقاطعات المجاورة، واتخذ حجة لعمله، الادعاء بأن البروتوسالفاتور عازم على الزواج من زوجة سيده، وأن الاثنين قد تآمرا على قتل مانويل الشاب، أو أنهما قاما بالحقيقة بقتله،وذلك حتى يحكما معا بمظهر فيه مراعاة للفضيلة.

وفضلاً عن هذا، وعد أندرونيكوس والدموع تنهمر من عينيه أن يكون وصياً مخلصاً جدا على الأمير الشاب، إذا ما اعترف الشعب به أنه جدير بهذه المهمة، وذلك بفضله وعونه، وبذلك تخلص من كل الخداع والتآمر، وتابع البكاء، فأضاف إلى وعوده أعطيات وكل إدعاء في أن يكون مستقيماً، وصدقه الناس جميعاً، وقبلوه بمثابة وصي على الصبي ومعلم.

ثم إنه جاء مع قوة كبيرة، فمزق صفوف القوات التي كانت تحت قيادة البروتو سالفاتور، لأن هذه الصفوف لم تكن تتمتع بشجاعة الجنود، وكانت قد بيعت من قبل قادتها للموت خيانة، فهكذا كان اخلاص الاغريق، ووصل أخيراً إلى البحر الذي يدعى «ذراع القديس جورج»، وبعث أمامه ببعض الاغريق، من أهالي القسطنطينية، ثم عبر البحر بمساعدة ألكسيسوس وفضله، وبعون الأهالي وسمح له بالدخول من خلال باب الدانيين، وذلك بعد دفع ثمن، وإعطاء وعد بعدم شنق السكان، وكان متبقياً في القسطنطينية أناس كان قد جلبهم إلى هناك مانويل، وقد دعاهم السكان المحليون باسم الفرنجة، ومعهم أجانب من كل أمة تقريباً، وقد كره الاغريق هؤلاء كراهية شديدة،

بسبب حسدهم لهم، لأن قدرة الاغريق قد أنهكت بحروب طروادة، أي منذ أيام أجاكس، الذي انتصرت الخديعة ضد شجاعته بشكل غير عادل، ولايوجد في أي مكان بين الاغريق من يستحق أن يكون ساميا أو مشهوراً، وقد انحدروا إلى حد أصبحوا فيه منبوذين ومكروهين من قبل الناس جميعاً، ومرفوضين من قبل كل تكتل صالح، ونعلم أيضاً بأن عصابات من المطرودين والمنبوذين والمدانين قد ربطوا أنفسهم ببلاد الاغريق هذه، وأن الذين هم أدنأ الناس، وأنهم لذلك قد نفيوا من ديارهم وأوطانهم قد حصلوا بين الإغريق على سلطات جعلت كراهية الاغريق لهم تبلغ درجة لايوازيها في لهيبها إلاّ الكراهية ضد الطرواديين لو أنهم عادوا إلى الحياة، وأنا لا أحسدهم على ادعائهم الانتماء إلى العذراء المقدسة جداً (القديسة كاترين)، التي اتبعها الرب من يوم ميلادها الى يوم وفاتها بكرامات وبمعجزات، ولست مبتعداً بأي حال عن الذين اختارهم الرب، وفقط إنني أتكلم عن الجنود، لأن هذا العرق الاغريقي قد انحدر كثيراً في ممارسة القتال بعد تدمير جيش طروادة، ولم يوجد بينهم من استحق المجد العسكري منذ آخيل وأجاكس، وابن تيدوس Tydues (ديوميد Diomede) (★).

★ — المصدر نفسه ص ١٠٧— ١٠٩.



المحتوى

الصفحة	الموضوع